

البيان

فى تاريخ مصر القديم والحديث

لمؤلفه

ميخائيل شاروبيم بك

رئيس النيابة العمومية بمحكمة المنصورة الاهلية سابقا

والمفتش بنظارة المالية الجليلة حالا

عفى عنه

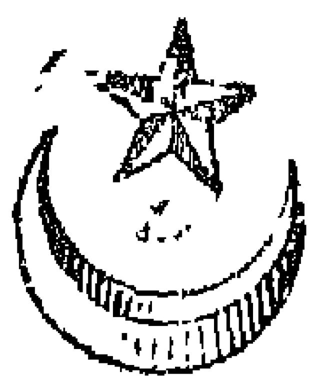
الجزء الرابع

(الطبعة الاولى)

بالمطبعة الكبرى الأميريه ببولاق مصر المحميه

سنة ١٩٠٠ ميلاديه — سنة ١٣١٨ هجريه

(بالقسم الادبى)



بسم الله المعز

وصل

(فى ترجمة محمد على باشا)

هو محمد على بن ابراهيم ولد فى بلدة قاوله التابعة للروم ايلى سنة اثنتين وثمانين ومائة وألف هجرية أى سنة ثمان وسبعين وسبعمائة وألف ميلادية وكان أبوه من صغار مقدمى العسكر وقيل انه كان شيخ خفراء البلد وهو الصحيح ولما بلغ محمد على الرابعة من عمره مات أبوه فتولى حضانته عمه طوسون فأقام عنده ماشاء الله ثم جاء مرسوم السلطان الى والى قاوله بقتل طوسون المذكور فقتل وكان محمد على الى هذا الحين لم يبلغ أشده فأخذه أحد أعيان البلد واسمه براواسطه فأقام عنده حقيرا مهانا وكان كلما شب شبت معه الاحزان وظل على هذا الحال حينا حتى ضاقت نفسه وتاقت الى الاسفار فى طلب الرزق فسار فى أرض الله الواسعة الفضاء وأجهد النفس فى تحمل الجوع والعناء فقاسى من الشدائد مالا يحتمل * ومما حكاه عن نفسه أنه قال كنت أتمنى أن الله سبحانه وتعالى يدفع عنى هذه الشدائد و يريحنى مما ألاقيه من الضنك والذل فكنت أجهد النفس فى طلب العيش على قدر الحاجة وكان يمر بى اليوم واليومان أطوى الأرض سائرا على أقدامى لاأذوق مناما ولا أسيغ طعاما وكانت الارض وطائى والسماء غطائى واتفق أنى سافرت على ظهر مركب أريد أرض الله الواسعة فى طلب العيش فخرجت ريح شديدة فارتفعت الامواج وعلت وأزبد البحر وهاج وألقى مركبنا على الصخور فتحطمت وغرق كل من فيها فتركنى رفاقى وطلعوا الى بعض الجزائر القريبة وبقيت أنا عرضة للأمواج تعلو بى تارة

وتهبط بي أخرى وتستقبلني الصخور فتدق عظمي وتدمي جسدي حتى يسر الله لي الوصول الى تلك الجزيرة سالما وقد صارت اليوم من بعض أملاكي فسبحان المعطي بغير حساب اه قوله * وما زال على هذا الحال من قلة ذات اليد وضيق العيش حتى بلغ الثامنة عشرة من العمر فدخل في خدمة العسكرية وظهرت عليه علامات الشهامة وشدة البأس فقيده الوالي بجباية الأموال وجمع الخراج ومال اليه وأحبه وولاه رتبة البلكباشية قال بعض الكتاب وقد زوجه احدى قريباته وقيل غير ذلك فولدت له خمسا من بنين وبنات وهم ابراهيم وطوسون واسماعيل وزهره وزينب فلما كبرت عائلته وقل ماله ترك خدمة العسكرية واتخذ له حانوتا يبيع فيه التبغ ﴿الدخان﴾ فيسر الله له الحال وبسط له في الرزق وكانت قد بلغت منه الشجاعة مبلغا عظيما فكان اذا تعذر على الوالي القبض على جان يسير اليه محمد علي فيأتي به صاغرا فهابه الناس جدا وأجله رفاقه وشهدوا له بالبسالة وعلو الهمة ولبث على هذا الحال حينا فلما أغار بونابارته بجيوش الفرنسيس على ديار مصر وكبر ذلك على السلطان سليم جيش لقتاله الجيوش وأعد المعدات وأرسل الى والي مقدونية في طلب النجدة فبعث والي مقدونية الى برا واسطه وكان قد تولى على ولاية قاوله بأن يجهز لقتال الفرنسيس مائة مقاتل فجهزهم وجعل مقدمهم ولده عليا ورسم لمحمد علي بان يكون في ركابه وجاءهم حسن باشا أمير سفن الدولة بسفينة فركبوها فسارت بهم الى أبي قير وأنزلتهم هنالك فقاتلهم الفرنسيس قتالا عنيفا وظفروا بهم فخاف علي المذكور ورجع بالذي بقي معه من عسكره وأقام محمد علي في نفر قليل ممن مال الى البقاء معه فأعجب حسن باشا فعله وقلده رتبة البكباشية على من كان معه من العساكر وضم اليه طائفة أخرى فسار بهم مع العمارة الإنجليزية والجيوش العثمانية التي جاءت مع يوسف باشا الصدر الاعظم لقتال الفرنسيس فأبلى محمد علي في قتالهم بلاء حسنا ولما استقر بهم المقام بالقاهرة بعد جلاء الفرنسيس عنها قاتل الامراء المصريين وكانت له معهم وقائع مذكورة

واتفق أن حضر بعد ذلك خسرو باشا أحد كبار عسكر السلطان لقتال الامراء المصريين والمماليك وقطع شأفة من بقي منهم وانقاذ البلاد من أيديهم فوقعت بينه وبين محمد علي مناظرات كثيرة واشتدت الوحشة بينهما وكبرت حتى كاد خسرو باشا ينفشل ويسقط في يده ثم عاد فتمكن من نكاية محمد علي وسد عليه مسالك التقدم وقفل دونه أبواب الفلاح وجعل يراقب أموره ويرصد أعماله فخافه محمد علي وخشي العاقبة وجعل يستميل اليه طوائف الارنؤط ويتزلف حتى مالوا اليه وأحبوه فاستوثق لنفسه فولوه وظيفة ﴿قابي بولك باشي﴾ وهي في عرفهم رتبة حرس السراي فهابه خسرو باشا وعاد الى مسايرته وأدناه منه وقربه من مجلسه وبقيا على ذلك حينا ثم ولاه منصب سرچشمه ولعلها مقدم أربعة آلاف فظهر من هذا الحين طالع نجمه وعلت كلمته ومال اليه الناس وتعلقت به آمال العسكر لاسيما طوائف الارنؤط فخضعوا له وأطاعوا أمره وعملوا باشارته فحسده خسرو

باشا وتحذر منه وتخشى عاقبة ظهوره فلما عصى الامراء المصريون وخرجوا على خسرو باشا وانحدر الى القاهرة من كان منهم بالصعيد الاعلى سير لقتالهم عسكرا من العثمانيين ورسم الى محمد على بالخروج فى جنده لنجدة العساكر السلطانية فخرج كارها فلما احتدمت نار القتال بين الفريقين تأخر محمد على عن نجدة العثمانيين وخذلهم فانتصر عليهم الامراء المصريون نصرة عظيمة وأعملوا فيهم القتل والتشريد وجاء مقدم العساكر العثمانية يشكو مما فعله محمد على فشق فعله على خسرو باشا وأكبره ورسم بقتله وحرر فرمانا بذلك واستدعاه ليلة الى قلعة الجبل فأحس بالمكيدة وعلم بما وراء صعوده الى القلعة فى تلك الليلة فتمارض وأصبح وقد ثار الجند يطالبون بالمتأخر من جماكيهم وعلوفاتهم فتحزبوا وشددوا فى الطلب وركبوا على خسرو باشا وقاتلوه فانهزم وفر الى دمياط فى نفر من أتباعه فأقاموا فى الولاية بعده أحمد طاهر باشا وهو من مقدمى عسكر الأرنؤط فلم تكن الأيام قلائل حتى قام عليه جماعة الانكشارية وقتلوه فقامت بعد قتله الفتنة وعم الاختلال واشتدت الخطوب وكثر السلب والنهب وهتك النساء فى الشوارع والطرقات واشتد الامر شدة بالغة ووقع من الحوادث مامر بك بيانه فى محله مفصلا فكان لمحمد على فى اضرام نار هذه الفتن اليد الطولى وأعانه على جميع ذلك الشيخ الشرقاوى والسيد عمر نقيب الاشراف وخلا لمحمد على الجو بموت طاهر باشا وصارت جميع الجند من الارنؤط طوع أمره فلما آنس منهم كمال الطاعة عمل على استمالة من كان بالقاهرة من كبار المشايخ والعلماء وأرباب الوظائف العالية فانحازوا اليه ولبوا دعوته وتقدموا الى دار السلطنة العثمانية فى طلب توليته على ديار مصر وكان السلطان قد رسم بولايته على جدة كما أشرنا الى ذلك بقصد ابعاده عن ديار مصر وتفريق شمل أصحابه فقد كان هو وأصحابه أشد خطرا على الدولة من جماعة الامراء المصريين فلم يتعجل بالسفر وتقاعس وأظهر الاهتمام بجمع الزاد والذخيرة واحتياجات العسكر وكان المشايخ والعلماء فى خلال هذه الفترة يكثرون من الالحاح على دار السلطنة بطلب تقليده الولاية على مصر ويرفعون اليه القصص ويشكون مما يلاقونه من الجور والعسف وقد أضرموا نار الفتنة بمصر والقاهرة وأثاروا العامة أياما فخرجوا على أحمد باشا خورشيد عامل الدولة يومئذ على ديار مصر وحاصروه بقلعة الجبل فكان بينه وبين الجند والعامة وقائع وحروب هائلة قد مر بك بيانها فى محلها * وطالت أيام الفتنة والرسل تتردد ما بين دار السلطنة ومصر والحرب والقتل والنهب قائمة على ساق حتى جاء الفرمان بولاية محمد على اعتبارا من العشرين من ربيع الاول سنة عشرين ومائتين وألف هجرية ولم يستقر به المنصب الا فى يوم الثلاثاء ثالث جمادى الاولى سنة عشرين لتمنع أحمد باشا بقلعة الجبل وعدم اعترافه بصحة ولاية محمد على باشا حتى وفد عليه رسول الدولة بمرسوم السلطان يأمره فيه بترك قلعة الجبل والجلاء عنها الى الاسكندرية فنزل وسار الى الاسكندرية ما تقدم بك بيانه

(فصـــــــل)

(فيما وقع فى أيامه من الحوادث والانباء الى ولاية ولده الامير ابراهيم)

ولما استقرت الولاية بمحمد على باشا جعل يتصرف فى الامور ويعمل على تعزيز سلطانه وتأييد مقامه باسترضاء الجند وصرف المتأخر من جماكيهم فضرب على قبط مصر قرضا وقسمه على كبرائهم فكان ذلك أول فرض أحدثه بعد ولايته وكان عظيما للغاية وبث الاعوان لقبضه فعاثوا وفعلوا مالا خير فيه ثم قبض على المعلم جرجس الجوهرى معلم مصر يومئذ وصاحب خراجها وعلى جماعة من عظماء القبط وسجنهم ببيت كتخدا وطلب من المعلم جرجس حسابه عن سنة خمس عشرة ومائتين واستقدم المعلم غالى وكان يومئذ كاتب الالفى بالصعيد وأقامه بدله وضيق على المعلم جرجس وشدد فى طلب الحساب وفرض عليه مبلغا عظيما من المال فباع ما كان عنده من أثاث ومتاع ووفى بعض ما طولب به فلم يخل عنه وبقى معتقلا أياما والطلب على أهل البلاد بما فرض عليهم مترادف فحسد الامراء المصريون محمد على باشا على ما وصل اليه من علو الكلمة واتساع الشهرة وحقدوا عليه واستصغروا قدره وناووه فخافهم وخشى عاقبة أمرهم واهتم لقتالهم وشدد فى طلب الاموال وفى جمع الخراج وبث أصحاب الجباية فجالوا البلاد شرقا وغربا ونزلوا على القرى وجمعوا منها ماقدروا على جمعه ثم أخذ فى تدبير أمور العسكر وصرف الجماكى والعلوفات المتأخرة لهم وأكثر من جمع الاسلحة ومعدات الحرب وسير الى زعماء الامراء المصريين الذين كانوا بالاقاليم القبلية والبحرية يدعوهم الى ترك القتال والعود الى طاعة السلطان فشطوا فى الطلب وبالغوا فلم يقدر على القيام بمطالبهم فلما علموا بعجزه انحدروا بخيلهم ورجلهم الى الجيزة وضربوا على أهلها الكلف والمغارم وانضم اليهم من كان بها من لومهم وأتباعهم وسار جماعة منهم الى ناحية المذبح وكسروا باب الحسينية ودخلوا من باب الفتوح وهم فى ضجة وجلبة عظيمة وخلفهم طبول ونقاقير وجمال وأحمال وساروا من بين القصرين حتى جاؤا الاشرفية فاندهش الناس من دخولهم المدينة على هذه الحال وما زالوا حتى وصلوا الى عطفة الخراطين فافترقوا الى فرقتين ودخل جماعة منهم وبأيديهم البنادق والسيوف ومروا بالجامع الأزهر الى بيت السيد عمر النقيب والشيخ الشرقاوى فامتنع السيد عمر من لقائهم فدخلوا الى بيت الشيخ الشرقاوى وأتى اليهم السيد عمر فطلبوا منه النجدة وخروج العامة معهم لقتال محمد على باشا فامتنع فألحوا عليه فلم يقبل وهددهم فركبوا وخرجوا من باب البرقية وكان قد وصل خبرهم الى محمد على باشا فأرسل فى أثرهم حسن بيك الارنؤطى فى عدة وافرة من المشاة فلم يلحق بهم * أما الفريق الثانى منه فانه جعل يتقدم حتى وصل الى باب زويلة وسار قليلا

الى جهـة الدرب الأحمـر فمانعه العسكر المرابطون هنالك وأطلقوا عليهـم البنادق فرجعوا القهقرى الى جهـة باب زويلة وهموا بالدخول الى جامع المؤيد والتحصن به فمانعهم المغاربة الساكنون هنالك وأطلق عليهـم المرابطون نيرانهـم فقتلوا منهم وجرحوا وقوى جاش المرابطين بجهـة الدرب الاحمـر عنـد سماعهم أصوات البنادق وتنبـه غـيرهم أيضا فاجتمعوا لمعاونة بعضهم فلما شاهـد الامراء المصريون ما حل بأصحابهـم من تساقط النيران عليهـم من كل صوب وحـدب ولوا الفرار فتبعهـم العسكر يضربون فى أقفيتهـم فـلم يزالوا فى سيرهم الى النحاسين وقـد أغلق الناس بوابة الكعكيـين و بوابة الخراطين و بوابة البندقانيـين فانقلبوا الى مابين القصرين فلاقاهم فريق من عسكر محمد على باشا وأطلقوا عليهـم البنادق فوقعوا بين نارين فانفشلوا وسقطوا فى أيديهـم وترجلوا عن خيلهم ودخـل منهـم جماعـة الى جامع البرقوقيـة وذهب آخرون بخيلهـم الى باب النصر فوجـدوه مغلقا فنزلوا أيضا عن الخيـل ودخلوا العطوف وتسوّروا الاسوار وتسلقوا الجـدران الى خارج باب النصر وتفرق منهم جماعـة اختفوا فى الحارات و بعض الوكائل والبيوت فأحاط العسكر بمن دخلوا جامع البرقوقيـة وأحرقوا باب الجامع وقبضوا على من كان به وجردوهـم من ثيابهم وأخذوا ما كان معهم من ذهب ونقود وأسلحة وذبحوا منهم جماعة وأخذوا من بقى مكبلين بالحـديد وهم فى أسوء حال وساروا بهم الى بيت محمد على باشا بالازبكية وكان على أهبة الركوب فلما ألقوا بين يديه رؤس القتـلى سكن جاشه وفرح كثيرا وكان ممن قبض عليه من الامراء أحمـد بيك تابع البرديسى أمير دمياط وحسـن شبكة وآخرون فلما مثل أحمد بيك بين يدى محمد على باشا قال له أولم تدر يا أحمد عاقبة الخروج فقال أعطونى ماء فأمر محمـد على باشا ففكوا قيوده وأتوه بماء ليشرب فنظر حوله وكان على مقربة منه أحد الجند وفى حزامه خنجر فخطف الخنجر من حزامه وهم بقتل محمد على باشا وقد جرح عدة من العسكر فتكاثروا عليه وقتلوه ذبحا كذبح الشاة وساقوا الباقين الى الحبوس فكان ذلك آخر العهد بهم * قلت * وكانت هـذه أول وقعـة وقعت بين الامراء المصريين وعسكر محمد على باشا بعـد وصول فرمان السلطان بولايته على ديار مصر * وزاد من هـذا الحين تحذر محمـد على باشا وأصحابه من هجمات الامراء المصريين وسير عابدى بيك فى عسكر عظيم لقتالهـم فنزل عابدى بيك على طرا والتقى مع من كان بها منهم فكان بها ابراهيم بيك الكبير وابنـه مرزوق بيك وأصحابهما فاقتتلوا قتالا شـديدا فى البر والبحر وأبلى ابراهـيم بيك وأصحابه فى هـذه الحرب بلاء حسنا فانهزم عابدى بيك ومن معه وقتل من عسكره خلق كثـير وعاد من بقى الى ناحية الفسطاط وقد غرقت بعض سفنهم فتقويت بذلك عزيمـة ابراهـيم بيـك ونشر جموعه فى البـلاد فعاثوا وأفسدوا وقتلوا ونهبوا وسبوا النساء والاولاد وأحرقوا الكفور والقرى فسير محمـد على باشا اثنـين من أصحابه الى ابراهيم بيك ليخاطباه فى أمر الصلح فـلم يجب اليـه وشط فى الطلب * وحضر جماعة من أصحاب الألفى الى جهة سقارة والجيزة وعاثوا فيها أيضا وطلبوا منها الكلف

والاموال

والأموال وبلغ الصائح القاهرة فنادى محمد على باشا بخروج سائر الجند والعسكر فخرجوا مشاة وركبانا وركب معهم محمد على باشا فى أبهة وجلالة وعبروا النيل الى الجيزة ليلا ولم تطلع الشمس الا وكل أمير قد وقف على أصحابه وجاء الخبر بقرب العدو من محلتهم فزحفوا وبانت طلائع العدو فهجم عليهم عسكر محمد على باشا فانهزموا وولوا الادبار فتبعوهم وأعملوا السيف فى أقفيتهم واشتدوا عليهم شدة بالغة * فبينماهم كذلك اذ خرج عليهم كامن من خلف فوقع بينهم الضرب وحمل أحد مقدمى عسكر محمد على باشا بمن معه على الاعداء فظنوه محمد على فأحاطوا به وأخذوه أسيرا هو ومن معه واشتد القتال بين الفريقين وعلت الضوضاء وكثر الصياح فلم يلبثوا على هذا الحال حتى تقهقر عسكر محمد على باشا ورجع من بقى منهم الى ناحية الفسطاط وترفع المصريون الى ناحية بياض وبنى سويف فكانت وقعة من شر الوقائع مات فيها خلق كثير من الفريقين وداست جثثهم سنابك الخيل

ولم تكن الا أيام حتى رجع المصريون فى أول المحرم افتتاح سنة احدى وعشرين فى جمع كثير من العربان ولموم أهل الحرف ونزلوا بناحية جزيرة الهواء فأزعج حضورهم محمد على باشا ورسم بخروج العسكر فخرجوا لقتالهم واقتتلوا قتالا شديدا فمات من الفريقين خلق وانضم فريق من عسكر الباشا الى العدو وكان المقدم عليهم يومئذ حسن باشا الارنؤطى فأرسل الى محمد على باشا يستنجده ويخبره بما وقع فهاله الخبر وأزعجه فجمع جيشا فخما وسيره نجدة الى حسن باشا وعين المرابطين بانبابة وطرا وشدد عليهم فى ملازمة المعاقل ونادى فى جميع الجند بذلك وأكثر من جمع الاسلحة وآلات الحرب وجاء الى القاهرة كثيرون من الجرحى ونادوا بعدم الخروج الى الاسواق بعد أذان العشاء فكان لذلك النداء أثر مخيف وعاد العامة وأصحاب البيوت الى حمل السلاح والسهر والتحرز وملازمة الازقة نهارا والاسطحة ليلا وسار عابدى بيك بعسكره خلف لموم الالفى الى الفيوم فلم يجد بها أحدا منهم فاحتلها بعسكره ثم ترك بها رباطا وعاد النجدة أخيه حسن باشا وأقام معه بناحية الرقق وتوالت رسائل الالفى الكبير على السيد عمر النقيب بالوساطة بينه وبين محمد على باشا وتقرير قاعدة للصلح فشاور محمد على باشا أصحابه فى الأمر فقرروا اقطاع الالفى بلاد الجيزة من غير عقد ولا عهد ولا كفالة كما طلب وكتبوا له بذلك على يد رسوله الذى حضر بخطابه واحتاج الالفى وأصحابه وهم فى انتظار الجواب الى النفقة فطلبوها من أهل برطس وأم دينار ومنية عقبة فامتنعوا عليهم فركبوا وحاربوهم ونهبوا وقتلوا الشيوخ والنساء والاطفال وفعلوا مالاخير فيه ثم تفرقوا فى البلاد وعاثوا ووصلت طلائعهم الى المنوفية ففعلوا بها من القتل والنهب مالايوصف وانضم اليهم جماعة من عساكر محمد على باشا فتقوت شوكتهم وزاد عسفهم فعزم محمد على باشا على الخروج لقتالهم بنفسه وأخذ يتأهب لذلك وأنزل شيأ كثيرا من المهمات من قلعة الجبل ونادى مناديه فى العسكر بالخروج وضرب للنفقة فرضة على البلاد وقامت الجباة لجمعها فكانت كثيرة جدا ووردت الاخبار بقيام

الالفى وزحفه من جهة الجسر الاسود والطرانة الى ناحية الجيزة فخرج لقتاله طائفة من العساكر فوصل الالفى الى دمنهور فوجدها ممتنعة فحاصرها فقاتلته قتالا شديدا فسار عنها قليلا وعسكر إلى بعد منها ومنع عنها الوارد وطلب حسن باشا المدد من محمد على باشا فسيره اليه فقام من بنى سويف الى منية ابن خصيب فى جمع كثير وقاتل من كان بها من الامراء المصريين والعربان وأبلى فيهم بلاء حسنا وسارت طائفة أخرى الى دمنهور لاجلاء الالفى عنها وظن محمد على باشا الظفر باعدائه فى هذه الحلة واستبشر الناس بذلك أيضا وجعلوا يملون الآمال بقرب زوال هذه المحن والخطوب المتتابعة * فلما كان يوم الثلاثاء رابع عشر ربيع الآخر سنة احدى وعشرين ومائتين وألف جاء الخبر من حاكم الاسكندرية بقدوم جيش عظيم من العساكر العثمانية على نظام عسكر الفرنسيس ومع هذا الجيش وال جديد لمصر بدلا من محمد على باشا اسمه موسى باشا وكان ورود هذا الخبر الى الدفتردار أوّلا فسيره الى السيد عمر النقيب بجاهه السيد عمر وركبا معا الى محمد على باشا وأعلماه بالخبر ثم شاع بين الناس وتناقلته الالسنة فبذل الوالى والمحتسب جهد الاستطاعة فى اخفاء الخبر كى لايصل الى الامراء المصريين فلم يقدرا وقد سار المبشرون الى الالفى وهو على سواد البحيرة وأخبروه بوصول سفن الدولة وعليها العسكر المنظم ففرح وسر سرورا لا يوصف وطير الكتب بذلك الى الآفاق فزاد فى مصر والقاهرة الهرج وكثر القال والقيل ولبث الناس على هذه الحال الى يوم الجمعة سابع عشر ربيع الآخر فقدم الى القاهرة رسول من قبل أمير تلك السفن فسير محمد على باشا جماعة للقائه وأنزله فى بيت الروزنامجى فأقام يومى السبت والاحد واجتمع بمحمد على باشا مرات كثيرة ثم سافر يوم الاثنين ولم يعلم أحد بما دار بينهما من الحديث وجعل محمد على باشا من هذا الحين يتأهب ويستعد ويكثر من عمل آلات الحرب ومعدات القتال وجمع الحدادين والنجارين وأرباب الصنائع بقلعة الجبل وجمع اليه مقدمى العسكر وأصحاب الوظائف العالية فخاف الناس من ذلك وأخذتهم الطيرة وتحققوا عصيان محمد على باشا وخروجه على السلطان وأرسل محمد على باشا الى السيد عمر النقيب والخاصة وبعض المشايخ والعلماء فأخبرهم بصورة الحال وما ورد له من دار السلطنة بعزله وولاية موسى باشا قال وسبب ذلك أن الامراء المصريين تقدموا الى الباب العالى فى طلب العفو عنهم وعودهم الى ديارهم بشرط خروج جميع الجند الارنؤط وجلائهم عن البلاد وعليهم القيام بخدمة الدولة والحرمين وارسال غلالهما ودفع الخزينة وتأمين السابلة فأجيبوا الى سؤالهم على هذه الشروط وان المشايخ والعلماء يتكفلون بهم ويضمنون عهدهم بذلك فلما سمع من حضر هذا الكلام سكتوا جميعا ولم ينطقوا ببنت شفة ثم انصرفوا واشتدت عزيمة محمد على باشا وقوى مع ذلك جأشه فبالغ فى الاستعداد والاكثار من آلات الحرب والتطواف فى الشوارع والصعود والنزول من قلعة الجبل ثم جمع العلماء والمشايخ والسيد عمر النقيب وبعض أخصائه ثانية ومعهم ديوان أفندى وتكلموا فى ذلك

الامر طويلا فاتفقوا على أن يرفعوا الى الباب العالى قصة ينكرون عليه فيها ما يراد فعله من خلع محمد على باشا وتولية موسى باشا فكتبوا يقولون ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ الرؤف الحليم الحمد لله ذى الجلالة على جميع الشؤن والاحوال نرفع اليك أكفا من بحر جودك مغترفه ونتوجه الى كعبة فضلك بقلوب بخالص الوحدانية معترفه أن يديم بهجة الزمان ورونق عنوان اليمن والامان بدوام وزير تخضع لمهابته الرقاب وتدنو لهيبته سطوة المهمات الصعاب منتهى آمال المقاصد والوسائل ومحط رحال المطالب من كل سائل حضرة صدر الصدور ومدبر مهمات الآمور الصدر الاعظم أدام الله دعائم العز ببقائه وفسح للانام فى أيامه محفوفا بعناية الرب الكريم محفوظا بآيات القرآن العظيم آمين * أما بعد رفع المقصد والرجاء ومد سواعد الخضوع والالتجاء فاننا ننهى لمسامعكم العلية وشيم أخلاقكم المرضية بأنه قد قدم حضرة الدستور الاكرم والمشير الأفخم مدبر مهمات الاسكلات البحرية خادم الدولة العلية الوزير قبطان باشا الى ثغر الاسكندرية فأرسل كتخدا البوابين سعيد أغا ومعه الامر الشريف الواجب القبول والتشريف المعنون بالرسم الهمايونى العالى دامت مسراته على ممر الدهور والأعوام والايام والليالى فأوضح مكنونه وأفصح مضمونه أنه قد تطاولت العداوة بين الوزير محمد على باشا و بين الامراء المصريين فتعطلت مهمات الحرمين الشريفين من غلال ومرتبات وتنظيم أمير الحاج على حكم سوابق العادات والحال أنه ينبغى تقديم ذلك على سائر المطلوبات وأن هذا التأخير سببه كثرة العساكر والعلوفات وترتب على ذلك لكامل الرعية بالاقاليم المصرية الدمار والاضمحلال وأنهت الامراء المصرية هذه الكيفية لحضرة السدة السنية وانهم يتعهدون بالتزام جميع مرتبات الحرمين الشريفين من غلال وعوائد ومهمات واخراج أمير الحاج على حكم أسلوب المتقدمين مع الامتثال لكامل مايرد من الاوامر الشريفة الى ولاة الأمور بالديار المصرية وأنهم يقومون فى كل سنة بدفع الأموال الأميرية الى خزينة الدولة العلية ان حصل لهم العفو عن جرائمهم الماضية والرضا بدخولهم مصر المحمية والتمسوا من حضرة الدولة قبول ذلك منهم وبلوغهم مأمولهم فأصدرتم لهم الامر الهمايونى الشريف المطاع المنيف بعزل الوزير المشار اليه لتقرر العداوة معه ووجهتم له ولاية سلانيك ووجهتم ولاية مصر الى الوزير موسى باشا وقبلتم توبتهم وأن العلماء والوجاقليه والرؤساء والوجهاء بالديار المصرية الداعين لحضرة مولانا الشاكر ببلوغ المأمولات المرضيه ان تعهدوا بهم وكفلوهم تحصل لهم المساعدة الكلية حكم التماسهم من أعتاب حضرة الدولة العلية فأمركم مطاع وواجب القبول والاتباع غير أننا نلتمس من شيم الاخلاق المرضيه والمراحم العليه العفو عن تعهدنا وكفالتنا لهم فان شرط الكفيل قدرته على المكفول ونحن لا قدرة لنا على ذلك لما تقدم من الافعال الشهيرة والاحوال والمنظورات الكثيرة التى منها خيانة المرحوم السيد

على باشا والى مصر سابقا بعد واقعة ميرميران طاهر باشا وقتل الحجاج القادمين من البلاد الروميه وسلب الأموال بغير أوجه شرعيه والصغير لا يسمع كلام الكبير والكبير لا يستطيع تنفيذ الأمر على الصغير وغير ذلك مما هو معلومنا ومشاهدنا خصوصا ما وقع فى العام الماضى من اقدامهم على مصر المحمية وهجومهم عليها فى وقت الفجرية بجلاهم عنها حضرة المشار اليه وقتل منهم جماعة كثيره فكانت وقعة شهيره فهذا شئ لا ينكر فحينئذ لا يمكننا التكفل والتعهد لاننا لانطلع على ما فى السرائر وما هو مستكن فى الضمائر ونرجو عدم المؤاخذة فى الامور التى لا قدرة لنا عليها لاننا لا نقدر على دفع المفسدين والطغاة والمتمردين الذين أهلكوا الرعايا ودمروهم فأنتم خلفاء الله على خليقته وأمناؤه على بريته ونحن ممتثلون لولاة أموركم فى جميع ما هو موافق للشريعة المحمدية على حكم الامر من رب البرية فى قوله سبحانه وتعالى * يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم فلا تسعنا المخالفة فيما يرضى الله ورسوله فان حصل منهم خلاف ذلك نكل الأمر فيهم الى مالك الممالك لان أهل مصر قوم ضعاف وقال عليه الصلاة والسلام أهل مصر الجند الضعيف فما كادهم أحد الا كفاهم الله مؤنته وقال أيضا وكل راع مسؤل عن رعيته يوم القيامة * ونفيد أيضا حضرة المسامع العلية من خصوص القرض والسلف التى حصل منها الثقلة للاهالى من حضرة محسوبكم الوزير محمد على باشا فانه اضطر اليها لاجل اغراء العساكر وتقويتهم على دفع الاشقياء والمفسدين والطغاة المتمردين امتثالا لأوامر الدولة العلية فى دفعهم والخروج من حقهم واجتهد فى ذلك غاية الاجتهاد رغبة فى حلول أنظار الدولة العلية فالامر مفوض اليكم والملك أمانة تحت أيديكم نسأل الله الكريم المنان أن يديم العز والامتنان لسدّة السلطان مع رفعة تترشح بها فى النفوس عظمته وسطوة تسرى بها فى القلوب مهابته وأن يبقى دولته على الانام وأن يحسن المبدأ والختام بجاه سيدنا محمد خير البريه وآله وصحبه ذوى المناقب الوفيه * انتهى بنصه

وكتبوا هذا المحضر نسختين احداهما برسم أميرسفن الحرب الراسية بمينا الاسكندرية والاخرى برسم السلطان ووقع المشايخ والعلماء عليهما وأرسلا مع مخصوص فلم يصل رسولهم الى مدينة الاسكندرية الا وقد وصل الى بولاق سلحدار الوزير فنزل بها فى ليلة الاثنين ثالث عشرى ربيع الآخر من السنة ثم حضر الى بيت محمد على باشا وأصبح وقد بعث الى جميع المشايخ خطابا ومثله الى الشيخ السادات وثالثا الى السيد عمر النقيب من أميرسفن الحرب وكلها تتضمن الاخبار بعزل محمد على باشا عن ولاية مصر وولايته على سالونيك واقامة السيد موسى باشا المنفصل عنها بدلا منه وأن يكون الجميع تحت الطاعة والامتثال للاوامر والاجتهاد فى المعاونة ووجوب سفر محمد على باشا عن طريق دمياط ومعه حسن باشا حاكم جرجا وجميع من كان معهما من الجند بلا مهل فلما علموا بالامر قاموا جميعا

وركبوا فى عصر اليوم واجتمعوا بمحمد على باشا وتناجوا فى الامر طويلا ثم انصرفوا وفى الغد سير اليهم بصورة عريضة يكتبونها ردا على خطاب أمير تلك السفن فكتبوها وسيروا بها اليه وهى تتضمن الاسترحام وعدم القدرة على كفالة الامراء وطلب منع الضرر الذى لابد وأن يترتب على ارغام العسكر على الخروج بعد الاستيطان وبالغوا فى الشكوى وعظموا فى البلوى وأخذ محمد على باشا فى الاهبة والاستعداد لقتال الالفى وأمر بخروج العساكر الى بولاق وعبروا النيل الى الجيزة ونادى فى الجند والوجاقلية بسرعة الخروج وعدم التخلف وأنزل كثيرا من المدافع وآلات الحرب ثم عبر هو أيضا النيل الى انبابه واستقدم اليه مشايخ العربان ورتب منهم طائفة لخدمة الجند * فلما وصل الى أمير سفن الحرب خطاب المشايخ والعلماء غضب وكتب الى محمد على باشا يستحثه على ترك مصر والجلاء عنها الى دمياط قيل فلم يبال محمد على باشا بذلك ولم يكف عن حشد الجيوش وجمع معدات الحرب حتى تحقق الناس عصيانه فلما كان ثانى عشر جمادى الاولى من السنة وردت الاخبار بوصول موسى باشا الوالى الجديد الى مدينة الاسكندرية وحضر الى القاهرة أحد أعوانه بكتاب الى الدفتردار بان يكون قائما مقامه مسؤلا عن الاموال وحقوق الخزينة السلطانية فلم يقبل الدفتردار ذلك وكان الالفى لم يزل بالجيزة يبعث الى أمير السفن الحربية بالاخبار والهدايا العظيمة وقد أرسل اليه ثلاثين حصانا منها عشرة برخوتها ومن الغنم أربعة آلاف رأس وجملة أبقار وجواميس ومائة جمل محملة بالذخيرة وغير ذلك من المال والثياب والاقمشة برسم كبار أتباعه فغضب محمد على من فعله هذا وخاف عاقبته وعجل فى تسيير الجند لقتاله فنزلوا تجاه الرحمانية فلما أحس الالفى بحضورهم سار اليهم بقومه وقاتلهم قتالا عنيفا انجلى عن هزيمة عسكر محمد على باشا ولم يزالوا فى هزيمتهم الى البحر فألقوا بأنفسهم وهرب كتخدا محمد على باشا وطاهر باشا الى ناحية المنوفية وعبروا النيل واستولى الالفى على ما تركوه من سلاح وكراع وكان شيأ كثيرا وأرسل بمن أسر منهم الى أمير سفن الحرب وجاءت الاخبار بذلك الى محمد على باشا فخرج الى انبابة وطاف الوالى وأصحاب الدرك ينادون على العسكر بالخروج ووصل من بقى من عسكر طاهر باشا الى بولاق ومعهم الجرحى والمرضى فمنعوا من النزول وسارت بهم السفن الى امبابه وباتوا وأصبحوا وقد عادوا الى بولاق ودخلوا المدينة ثم حضر بعد أيام طاهر باشا الى امبابه وكان قد أرسل اليه محمد على باشا بعد انهزام جيشه أن لايعود الى القاهرة وأن يرحل عنه الى رشيد فلم يصل الى رشيد حتى رسم اليه بالرجوع الى الرحمانية لاجلاء الالفى عنها فرجع الى الرحمانية ومعه بعض الجند فلما التقى الجمعان انهزم عسكر طاهر باشا ورجعوا القهقرى ومازالوا فى هزيمتهم ومعهم طاهر باشا حتى وصلوا الى امبابه ورجع الالفى الى حصار دمنهور والتضييق على من كانوا بها وجاءت الاخبار من أمير السفن الى الالفى بالتشديد فى قتال من بها حتى يستأمنوا وطال القتال واشتد فى جميع الجهات وترددت الرسل بين أمير السفن والالفى

والامراء المقيمين بالصعيد وطالت المخابرة بينهم وطلب أمير السفن حضور الامراء من الصعيد الى الاسكندرية ليتشاوروا فى الامر فلم يحضروا اذ منعهم البرديسى من ذلك لما بينه وبين الالفى من الشحناء وكان الالفى هو الذى استقدم أمير تلك السفن بسفنه الى مياه الاسكندرية وعمل على خلع محمد على باشا بوساطة الانجليز بدون مشورة الامراء المصريين فلما لم يحضروا الى الاسكندرية علم أمير السفن ما بينهم من البغضاء والشحناء وما هم عليه من تفريق الكلمة فتحقق أنهم لايفلحون وأنه لايصح له الاستيثاق منهم ولا الاخذ بمشورتهم فنبذهم وأرسل الى محمد على باشا مكتوبا بجيه واستوثق منه فتعهد له محمد على باشا بجميع الالتزامات والتعهدات التى عينها الالفى وكتب بذلك عرضا ووقع عليه من المشايخ والاختيارية والوجاقلية وأرسله مع ولده ابراهيم وأرسل معه هدية فاخرة للغاية وخيلا وأقمشة هندية وغير ذلك فلما كان العاشر من رجب وصل كتخدا أمير السفن المذكور الى ساحل بولاق فاطلقوا لقدومه عدة مدافع وأرسلوا له فى صبح ثانى يوم خيولا صحبة الامير طوسون ولد محمد على باشا فركب فى موكب حافل للغاية ثم عقد الديوان وقرئ مرسوم أمير السفن ببقاء محمد على باشا على ولاية الديار المصرية وعليه القيام بجميع التعهدات التى منها خروج الحاج والاستمرار على أداء لوازم الحرمين وايصال العلائف والغلال لاربابها على النسق القديم وان لايدخل فى دائرة تصرفه ثغور رشيد ودمياط والاسكندرية بل تبقى ايراداتها من الجمارك حقا للخزينة السلطانية فلما تمت قراءة ذلك المرسوم أطلقوا عدة مدافع وطاف المبشرون على بيوت الامراء والاعيان وأقلع الامير بسفنه الى دار السلطنة ومعه موسى باشا والامير ابراهيم ولد محمد على باشا فى يوم السبت خامس شعبان وتقوت عزيمة محمد على باشا فجعل يتأهب لقتال الالفى واجلائه عن دمنهور والرحمانية فلم يتم خروج العسكر لقتاله حتى جاء هو وقومه الى الجيزة وانتشرت لمومه ببلادها فكانت كثيرة جدا فأسرع محمد على باشا فى اخراج الجند وعبر بهم النيل الى امبابه وسير فريقا منهم الى الاخصاص فالتقى بأصحاب الالفى واقتتلوا قتالا عنيفا فتقهقرت عساكر محمد على باشا وانحازوا الى الكفور والقرى وأصبحوا وقد نودى فى عسكر الالفى بالرحيل الى شبرامنت فساروا فى يوم الثلاثاء ثامن عشر القعدة فكانوا عدة كثيرة على نظام وترتيب الفرنسيس فأعجب محمد على باشا نظامهم ورأى الالفى قرما عنيدا فأمر ببقاء أصحابه على قدم الدفاع فلما كان يوم الخميس العشرين من القعدة حضر جماعة من العربان وأخبروا محمد على باشا بموت الالفى فى يوم وصوله الى شبرامنت نزل به خلط دموى فتقايأ ثم مات من ساعته ناحية المحرقة على مقربة من دهشور وان مماليكه أجمعوا على أن يؤمروا عليهم شاهين كما أوصى الالفى عند موته فانفصلت عنهم العربان من طائفة أولاد على وكذلك تركهم كثير من العسكر فلم يصدق محمد على باشا هذا الخبر وشاع فتحدث الناس به وهم بين مصدق ومكذب وسير محمد على باشا من يتحقق الخبر فلم تعد رسله حتى جاءه الخبر أيضا بموت عثمان

بيك البرديسى بمنفلوط وموت سليم بيك أبو دياب ببنى عدى وكلاهما من كبار الامراء الفارين بالاقاليم القبلية وزعماء العصابة ثم عادت رسل محمد على باشا وأكدوا له موت الالفى فسر بذلك سرورا لايوصف وقال لمن كان معه من بطانته يوم وصول هذا الخبر اليه * اليوم طاب لى ملك مصر فلا خوف علىّ * وأرسل الى كبار جيش الالفى يخابرهم فى الصلح ويمنيهم بالامانى العظيمة فلم يقبلوا الا بما كان يطلبه أستاذهم من المزايا والاقطاعات وان يدخل ضمن هذا العهد أيضا جميع الامراء المقيمين بالصعيد وهم ابراهيم بيك وعثمان بيك حسن فخرج محمد على باشا بجنده وعبر النيل الى الجيزة وخيم على مقربة من ساقية مكى وسير من يخابر الامراء المصريين فى الصلح وكف القتال واستدعى ولد الشيخ الامير وولد الشيخ العروسى والسيد محمد الدواخلى وسيرهم سفراء لتقرير قاعدة الصلح على ما فيه المصلحة وظل قوم الالفى وعسكره ببلاد الجيزة يعيثون و يفسدون ويطالبون أهلها بالكلف والمغارم وهم يستغيثون وليس من مجيب * وكان الالفى داهية طاغية حازما حسن السياسة ساكن الجأش واسع التدبير جسورا صبورا على الخطوب مقداما فى الحروب وكان قد جلبه بعض النخاسين الى مصر فاشتراه أحمد جاويش المعروف بالمجنون فأقام عنده أياما فلم تعجبه أوصافه اذ كان مماجنا سفيها فطلب منه أن يبيعه فباعه الى آخر اسمه سليم أغا الغزاوى المعروف بتمورلنك فأقام عنده حينا ثم أهداه الى مراد بيك فأعطاه بدله ألف اردب من الغلال فسمى من ذلك الحين بالألفى وكان جميلا حسن الصورة فأحبه مراد بيك وجعله جوخداره ثم أعتقه وجعله كاشفا للشرقية فظهر أمره وعرفه الناس وكان صعب المراس قوى الشكيمة وكان له جار اسمه على أغا المتوكلى فدخل عنده يوما وترجاه فى أمر فوعده بقضائه ثم أحجم عنه فدخل عليه يوما فى بيته وعاتبه فغضب الألفى وأمر خدامه أن يضربوه فضربوه بالنبابيت ضربا مبرحا وحملوه الى بيته فمات فى ثانى يوم فشكى أهله الالفى الى استاذه مراد بيك فغضب مراد بيك ونفاه الى البحيرة فعاث فى فوّة ومطوبس وبارنبال ورشيد وأكثر من الفساد وضرب على أهل البلاد الكلف والمغارم فشكوه الى مراد بيك فأرسل اليه يتهدده ان عاد الى مثل ذلك * واتفق فى هذه الاثناء ان وقع التشاحن بين الامراء المصريين فأبعدوا سليمان بيك الاغا وأخاه ابراهيم بيك ومصطفى بيك فأرسل اليه مراد بيك أن يرافق سليمان بيك الى الاسكندرية ثم يعود الى القاهرة ففعل ورجع الى القاهرة فقلدوه صنجقا وذلك فى سنة اثنتين وتسعين ومائة وألف هجرية واشتهر من هذا الحين بالغلاظة والخشونة فخافه الناس وتحاشوا بأسه وبنى له دارا رحبة بقيصون واشترى المماليك والجوارى وأمر من مماليكه الامراء والكشاف فنشؤا على أخلاق أستاذهم وتطبعوا بطباعه من التعدى والعسف والفجور والتزم باقطاع فرشوط وغيرها من بلاد الصعيد ومن الاقليم البحرى محلة دمنه ومليج وزوبر وغيرها ولما تولى امارة الشرقية خافه العربان وقبض على كبارهم وصادرهم فى أموالهم وماشيتهم وفرض على مشايخ

القبائل المغارم والجمال ولم يزل على حاله وسطوته الى أن قدم حسن باشا الجزايرلى الى مصر فخرج الالفى المذكور مع حاشيته وأصحابه الى الصعيد وأقام بها ثم رجعوا فى أواخر سنة خمس ومائتين وألف بعد الطاعون وقد لبث بالصعيد نحو الاربع سنوات ولما عاد الى الشرقية شوهد منه بعض السكون والتأنى ومالت نفسه الى مطالعة العلوم والنظر فى الفلكيات والهندسة وتعلق بالزايرجات وأشكال الرمل وأحكام النجوم وقرب اليه أهل العلم بها واقتنى كتبا عظيمة فى أنواع العلوم والتاريخ واعتكف ثم عاد الى القاهرة ونزل بداره القديمة وترك الامارة وعكف على العلوم واكتفى بما عنده من الاراضى والاقطاعات ولبث على هذه الحال حينا فصغرت منزلته عند قومه وكادوا يحتقرونه فالتزم الاوسط وانتقل الى دار أخرى ثم عاد الى الاكثار من شراء المماليك حتى بلغت مماليكه زهاء الالف عدا من كان منهم فى الوظائف الكبيرة وأنشأ داره العظيمة بالازبكية فلما تم بناؤها زينها بالفرش وأنواع البسط الفاخرة والتحف العظيمة التى أهداها بها جماعة الفرنجة وجعل خلفها بستانا عظيما للغاية وسكن بهذه الدار فى أواخر شعبان سنة اثنتى عشرة وهنأه الشعراء ونظم الشيخ حسن العطار تاريخا لقاعة جلوسه فى بيتين على أسكفة باب القاعة وهما

شموس التهانى قد أضاءت بقاعة * محاسنها للعين تزداد بالالف
على بابها قال السرور مؤرخا * سماء سعاداتى تجدد بالالفى

١٤٤ ٤٢١ ٥٤٦ ١٠١

سنة ١٢١٢

فلما كان شهر رمضان أنار الدار المذكورة بالانوار الكثيرة وازدحمت خيول الامراء على بابه وأتى اليه المهنؤن من كل صوب ومازال على هذه الحال الى منتصف رمضان ثم بدا له السفر الى الشرقية فأبطلوا الوقدة وأطفؤا تلك السرج والشموع فكان ذلك فألا وكانت مدة لبثه بهذه الدار ستة عشر يوما فانه ما تغيب بالشرقية الا قليلا حتى احتل بونابارته بجيوشه ديار مصر وساق الامراء المصريين سوق الماشية الى الاقاليم القبلية كما مر بك بيانه فى محله * وكان للالفى مع الفرنسيس تاريخ يذكر ووقائع عدة وما زال يراوغهم ويتعقب كتائبهم الى أن جاءت الجيوش العثمانية الى حدود مصر من ناحية الشام فسار الى الصدر الاعظم قائد هذه الجيوش وقدم له هدية نفيسة فخلع عليه الصدر وأقام عنده أياما ثم رجع وترفع الى الصعيد ثم انحدر منها الى الشام والفرنسيس يرصدونه .

ولما دخل الصدر الاعظم مصر بمن معه من الجنود وانتقض الصلح بينه وبين الفرنسيس على ما تقدم بيانه وانحصر المصريون والعثمانيون بالمدينة ركب الالفى فى قومه وقاتل الفرنسيس قتال الابطال وخالف مراد بيك فى الصلح مع الفرنسيس واستمر على قتاله معهم وما زال الى أن تم الصلح ثانيا وخرج مع الصدر الاعظم وبجيوشه الى الديار الشامية ثم رجع

الى

الى شرقية بلبيس ثم جاء الى القاهرة وأقام بها مع بقية الامراء بعد دخول الانجليز وخروج الفرنسيس وكان فى مدة اقامته معهم شديد التحرز كثير التطير وجعل يتقرب من كاتب يد الوزير حتى مال اليه وأحبه فكلمه فى الوساطة بينه وبين الوزير على أن يقلده الوزير امارة الصعيد بشرط قيامه بالغلال والاموال فى كل عام من غير تأخير ولما كان الالفى كثير الحشم والاتباع مسموع الكلمة مهيبا عند الناس كافة وكان الوزير يرغب فى تبعيده عن القاهرة وفى تمزيق شمل عصابة الامراء أجابه الى طلبه ورسم له بالامارة فسار من فوره بجميع أتباعه ومماليكه وعسكره وجدّ فى السير فلما شاع الخبر جاء الى الوزير من قبح له هذا العمل وأشار عليه بنقضه فندم الوزير وسير من يستحضره فلم يلحقوا به وقد وصل الى مدينة أسيوط وأرسل الى الوزير الاموال والغلال وهدايا أخرى من أغنام وعبيد وخصيان وغير ذلك ولم يمض على قيامه الى الصعيد الا القليل حتى قام جماعة من كبار جند الانجليز الى الاسكندرية وكذلك حسين باشا أمير سفن الدولة ونصبوا للمصريين الفخاخ وأرسل القبطان يطلب جماعة منهم فلما قدموا أوقع بهم وقبض الوزير على من بالقاهرة منهم وحبسهم وجرى ما هو مسطور فى محله وأرسلوا طاهر باشا لقتال الالفى فى عسكر جرار وحصلت المفاقة وقتل من قتل ولجأ الكثيرون الى معسكر الانجليز بامبابه وهرب جميع الامراء الى الصعيد فقاتل عنهم الالفى قتال الابطال فى عدة وقائع تذكر ثم سافر مع الانجليز الى لونده عاصمة مملكتهم وغاب بها سنة وشهرا وبعض أيام وجرى فى غيابه من الحوادث ما قد ذكر فى محله بالتفصيل

ولما تولى محمد على باشا على مصر كان يخشى الالفى ويهابه كثيرا فوقع بينهما من الحروب ما مر بك بيانه فى محله وبالغ الالفى فى الشكوى من محمد على باشا الى دار السلطنة العثمانية والى دولة الانجليز حتى كان ما كان من حضور أمير سفن الدولة وعزل محمد على باشا وتولية موسى باشا مما قد ذكر فى محله فلما سافر أمير تلك السفن وتأيدت ولاية محمد على باشا اشتد بغض الالفى له وكبر عليه أمر ولايته على مصر فكتب الى دولة الانجليز يستنجدها على قتال محمد على باشا فلم تجب طلبه ثم عادت فكتبت اليه توعده بنجدة مؤلفة من ستة آلاف مقاتل فتربص ناحية دمنهور وبقى ينتظر ثلاثة أشهر فلم يأته أحد ولما طال به المقام وعيل صبر قومه وقد ضجروا من الجدب سار بهم الى الجيزة يريد الصعيد فخرج عليه محمد على باشا بعسكره فارتحل الى شبرامنت * قال بعض الكتاب * فلما صار على مقربة من قناطرها نزل على ربوة هناك وجلس عليها وقد زاد به الهاجس والقهر ونظر الى جهة مصر وقال مخاطبا لها * ويلك أيتها القاهرة انظرى الى أولادك وهم حولك ممزقون كل ممزق انظرى فقد استوطنك أجلاف الترك واليهود وأراذل الارنؤط وصاروا يقبضون خراجك ويحاربون أولادك ويقاتلون أبطالك ويقاومون فرسانك ويهدمون دورك ويسكنون قصورك ويفسقون بولدانك وحورك ويطمسون بهجتك ونورك * انظرى * انظرى * انظرى * قال الراوى لهذه العبارة ولم يزل يردد هذا الكلام وأمثاله حتى تحرك به خلط دموى وتقيأ فى الحال دما

ونادى بأعلى صوته أواه قد قضى الامر وخلصت مصر لمحمد على وما ثم من ينازعه ويغالبه عليها وقد مد حكمه على طوائف المماليك فلا تقوم لهم راية بعد اليوم * قال ثم جمع اليه أمراءه وأمر عليهم شاهين بيك وأوصاه وأوصاهم بالالفة والتحابب وأن يحذروا من مخادعة عدوهم فهو قرم عنيد وأوصاهم أنه اذا مات يحملونه الى البهنسا ويدفنونه بجوار قبور الشهداء فمات فى تلك الليلة وهى ليلة الاربعاء تاسع عشر ذى القعدة فحملوه على بعير وساروا به الى البهنسا ودفنوه هنالك وكان جليلا مهيبا محتشما بعيد الفكر عظيم البأس ذا غيرة حتى على أتباعه وكانت جميع قبائل العربان النازلة بمصر لايخالفون له كلمة وكان له معهم سياسة غريبة ومعرفة بأحوالهم فكأنما هو مربى بين ظهرانيهم يقومون ويقعدون لأمره وهو مع ذلك يصادرهم فى أموالهم وجمالهم ويقتل منهم وقد تزوج من بناتهم كثيرا ولم يبق منهن فى عصمته غير واحدة كانت غاية فى الجمال فمات عنها ولما شاع خبر موته بين العربان اجتمعت بناتهم وصرن يندبنه بكلام عجيب فكانت تتناقله أرباب المغانى فتغنى به على آلات الطرب

وبعد موت الالفى بنحو الاربعين يوما وصلت نجدة الانجليز الى ثغر الاسكندرية ونزلوا الى البر فبلغهم خبر موته فأرسلوا رسلهم الى جماعة الامراء المصريين يطلبونهم الى الحضور ليتكلموا معهم فيما فيه المصلحة وفى ردهم الى مناصبهم وارجاع اقطاعاتهم الى ما كانت عليه وكان محمد على باشا يقاتلهم بالصعيد فلما علم بذلك خابرهم فى الصلح وأمر بتحصين الثغور وترميم القلاع وقيد بذلك جماعة من كبار العسكر وخشى عاقبة حضور الانجليز الى الاسكندرية وقد كان حضورهم فى عمارة عظيمة ونزل الانجليز بالاسكندرية وأرسل مقدمهم الى حاكمها يطلب تمكين العساكر البحرية من دخول الابراج للدفاع عن الثغر بحجة أن جيوش الفرنسيس عائدة لاخذ المدينة عنوة فلم يقبل الحاكم منه ذلك ولم يمكن الجند من دخول الابراج وترددت الرسل بين أميرال السفن الانجليزية وحاكم المدينة ومقدم العسكر المرابطين بالحصون والقلاع وشدد الاميرال فى الطلب وضرب للحاكم أجلا أربعا وعشرين ساعة فان أصر على الاباء والعناد ضربت الحصون والقلاع بالقنابل من مدافع السفن فأرسل الحاكم يخبر كتخدا الباشا بجميع ما وقع بينه وبين أميرال السفن الانجليزية فجمع اليه كبار الدولة وأصحاب الحل والعقد وتشاوروا فى الامر فاتفقوا على ابلاغ الخبر لمحمد على باشا واستنهاضه الى سرعة الحضور الى القاهرة عن معه من المحاربين فسيروا له الاخبار بجميع ما جرى وشددوا عليه فى الحضور فلما انقضى الاجل المضروب بين الانجليز وحاكم الاسكندرية وهو فى الممانعة أطلقوا على الحصون المدافع ورموا الابراج بالقنابل الهائلة فهدموا ركنا من البرج الكبير وكذا هدموا الابراج الصغار وجانبا عظيما من السور فعند ذلك طلب أهل المدينة الأمان فأمنوهم ودخلت العساكر الابراج وانتشرت فى المدينة وكانت عدتهم خمسة آلاف مقاتل ونزل أميرال الاسطول الى المدينة وسكن بوكالة القنصل وأمن

أمين أغا حاكم المدينة على نفسه ومن معه من العساكر والاجناد وكتب له عهدا بأن لا تسكن عسكر الانجليز فى البيوت قهرا عن أصحابها بل بالأجرة والتراضى ولا يمتهنون المساجد ولا يبطلون منها الشعائر الدينية وأن من كان له دين على الحكومة يقبض نصفه من الانجليز حالا ومن أراد السفر بحرا فليسافر فى خفارتهم الى أى جهة شاءها الا دار السلطنة العثمانية وأن أهل البلد لايتكلفون للاسطول بشئ من الميرة أو المال وتبقى المحكمة الشرعية على ماهى عليه من الفصل فى دعاوى الناس حسب الشريعة والسنة ولا ينظر الانجليز فى دعاوى المسلمين بغير رضاهم وتبقى رعايا الدول الاجنبية حائزة لجميع الامتيازات الدولية المعروفة بين الممالك وبعضها وأن لا يؤخذ شئ من الرسوم الجمركية على جميع البضائع سوى اثنين ونصف فى المائة

واشتد خوف محمد على باشا من احتلال الانجليز للابراج والحصون وكاد يسقط فى أمره وكتب الى كتخداه بأن يعجل بجمع العسكر ويجهز المعدات وشدد فى ذلك * وسارت طائفة من الجنود الانجليزية من الاسكندرية الى رشيد لاحتلالها وكان من بها من المرابطين والاهالى على يقظة تامة بالازقة والعطوف وطيقان البيوت فلما صار الانجليز بداخل البلد أطلقوا عليهم النيران من كل صوب وحدب فارتبك الانجليز وألقوا ماباأيديهم من الاسلحة وطلبوا الامان فلم يلتفتوا اليهم وقبضوا عليهم وذبحوا منهم جملة كثيرة ذبح الشاة وأسروا الباقين وفر جماعة منهم الى ناحية دمنهور وكان بها طائفة من الجند وجماعة من العربان فخرجوا والتقوا بتلك الفئة فقتلوا بعضهم وأخذوا من بقى أسيرا وأرسلوا السعاة الى القاهرة بالبشائر ثم أرسلوا الاسرى مع رؤس القتلى من الانجليز * ونادى شيخ الجامع فى طلبة العلم والمجاورين بالازهر بترك التدريس وحمل السلاح والتأهب للقتال والجهاد فى الانجليز وشدد السيد عمر النقيب فى ذلك على العامة فزاد هرج الناس وكثر لغطهم واجتمع المشايخ والامراء وتشاوروا فيما يجب فعله دفاعا عن البلاد فاتفقوا على تحصين المدينة وفتح الخندق الكبير الذى كان قد أنشأه الفرنسيس عند باب الحديد واعتنوا باصلاحه قدر الاستطاعة وأكثروا من جمع الاسلحة والكراع وأكثر الوالى من الطواف والنداء بخروج العسكر وتأهب الاهالى للدفاع فلما علم أميرال الاسطول بما حل بعسكره فى رشيد سير بعض السفن من مياه الاسكندرية الى رشيد فأحس أهل رشيد بذلك وأرسلوا السعاة يستنجدون كتخدا الباشا ويقولون عجل فقد أصبح العدو بسفنه على الابواب وطيروا الخبر بذلك الى محمد على باشا فتزايد خوفه وذهب صبره وأرسل رسله الى الامراء المصريين يستحثهم على الصلح ويستميلهم الى الاستعداد لطرد العدو الزاحف اليهم وما زالوا بهم أياما وهم بين اقبال وادبار ولين وشدة ووعد ووعيد حتى مالوا الى الصلح فاستوثق منهم وتركهم وانحدر بجيوشه الى القاهرة ودخلها ليلا فلما أصبح جمع اليه كبار العسكر وأرباب المناصب وخابرهم فى أمر جلاء الانجليز وقد جاء الخبر بوصولهم الى رشيد واستيلائهم على كوم الافراج وأبى

منضور واستمرار اطلاقهم القنابل على المدينة حتى تهدمت أكثر دورها ومات خلق كثير وأن من بها من الحكام وأرباب المناصب يطلبون المدد ويستنجدون المشايخ فطلب محمد على باشا من السيد عمر النقيب أن يفرض على الاهالى فرضة لنفقة الجند قدرها ألف كيس وأخذ فى تجييش الجيوش ونادى فى العسكر بعدم التخلف والخروج لدفع العدو وخرج بنفسه ومعه حسن باشا وعابدين بيك وعمر بيك وسار فى طائفة عظيمة من الجند وأرسل الى الامراء بالاقاليم القبلية يستنهضهم ويستقدمهم لقتال الانجليز ويذكر لهم العهد الذى تعهد لهم به ويقول قد صارت الانجليز على الابواب فعجلوا بالحضور لدفعهم والا فعلى الاسلام السلام فلم يلبوا دعوته وقالوا لسنا على ثقة من عداوة الانجليز لسلطاننا حتى نقاتلهم وكانوا قد حضروا لنجدتنا بناء على طلب الالفى ثم انحدروا الى منية ابن خصيب وتربصوا بها وعاد محمد على باشا بعد تغيبه أياما بظاهر المدينة يحض العسكر على الخروج الى الجهاد ويستنفرهم فلم تكن الأيام قلائل حتى جاءت الاخبار بهزيمة الانجليز وجلائهم عن أبى منضور ومتاريس رشيد والحماد وقد أسر منهم عدة عظيمة وانحاز من بقى منهم الى الاسكندرية وتحصنوا فيها وقطعوا سد أبى قير فانهمل ماء البحر المتوسط وأغرق ما حول الاسكندرية حتى كادت تسير فيه المراكب الصغار وحضر الاسرى من الانجليز الى القاهرة فأصعدوهم الى قلعة الجبل فكانوا زهاء الاربعمائة بينهم بعض كبار القواد ففرح الناس بهزيمتهم وتقوت عزائم الجند المصرى وحضر أيضا يس بيك أحد أمراء المصريين بعساكره وأقام بالجيزة على عهد الصلح الذى تقرر بينه وبين محمد على باشا ففرح محمد على باشا بقدومه وخلع عليه خلع الرضا وأعطاه ماطلب من متاع وسلاح وجهزه لقتال الانجليز فعسكر بقومه ظاهر بولاق وطلب العساكر الخارجة عن خدمة محمد على باشا فأتوا اليه من كل صوب وحدب وكبر جيشه واتسعت كلمته فمالت نفسه الى طلب الرياسة والخروج على محمد على باشا فبث الجباة فى بلاد القليوبية تجمع له الاموال والمغارم والكلف فأحس محمد على باشا بما وراء ذلك وأرسل اليه يطلب سرعة قيامه لقتال الانجليز والمحافظة على العهد فتقاعس وشغل أمره محمد على باشا فأخذ فى التدبير عليه واستمال العسكر المنضمين اليه وحل عرى رباطهم ورشاهم بالمال والهدايا ونادى فى عسكر الارناؤط بالخروج جميعا فخرجوا الى ناحية السبتية والخندق وحالوا بينه وبين بولاق ومصر وركب محمد على باشا فى طائفة من خواصه وخرج الى تلك الناحية وحصن أبواب المدينة وأرسل الى يس بيك يقول اما أن تستمر على الطاعة وتصرف عنك هذه اللوم وتخرج لقتال الانجليز وأما أنك ترحل الى بلادك بلا مهل والا فانا واصل اليك ومحاربك فخاف يس بيك وانحلت عزائم قومه وتفرق عنه أكثرهم * فلما كان بعد غروب ذلك اليوم طلب الركوب ولم يعلم قومه الى أين يريد فركبوا جميعا وساروا قليلا تحت جنح الليل ثم تفرقوا وتاهوا وذهب كل فريق منهم الى ناحية لايعلم له مقر ولم يزل يس فى سراه بمن معه حتى أصبح وقد نزل التبين فسير

خلفه

خلفه محمد على باشا طائفة من الجند لقتاله أما هو فانه لم يستقر به المقام بالتبين حتى نهب عسكره التبين وحلوان وطرا والمعصرة والبساتين وخطفوا النساء ونهبوا الاجران وأخذوا ما كان فيها وفعلوا وغير ذلك من فعال الشدة ولما أحس بقدوم العسكر ارتحل الى صول والبرنبل ونزل ابراهيم بيك الكبير وعساكره أيضا على بنى سويف وأرسل يعلم محمد على باشا بقدومه فلم يلتفت محمد على باشا الى ذلك ولم يهمه ورسم بترميم القلاع والحصون التى كانت للفرنسيس أيام حلولهم بمصر وبالغ فى التشديد بذلك وقيد بعض مقدمى العسكر بالعمل وحضر من الديار الشامية كثير من العساكر الدلاتلية وبعض المرتزقة من الترك فجهزهم محمد على باشا بالسلاح ومعدات القتال ونادى فمن كان بمصر والقاهرة من العساكر والاجناد بالخروج الى انبابه وخرج هو فاجتمع حول وطاقه طوائف العسكر فلما كان يوم الخميس عاشر جمادى الآخرة من السنة أى سنة اثنتين وعشرين ومائتين وألف أمر بالارتحال فساروا فى أبهة وكبكبة عظيمة الى ناحية البحيرة وتربص محمد على باشا بطائفة من أصحابه على مقربة من مدينة الاسكندرية وبعث سفراء الى مقدم الانجليز يخابرونه فى أمر الصلح فجعل السفراء يترددون بين الفريقين أياما ثم حضر الى معسكر محمد على باشا نفر من الانجليز واختلوا به الى نصف النهار فلما كان يوم الجمعة غرة رجب الفرد من السنة تقررت بينهم قاعدة الصلح على أصول لم يذكرها أحد من أهل التاريخ ثم استحضر الى الاسكندرية من كان بمصر من أسراء الانجليز وردوا الى معسكرهم وحضر لزيارة محمد على باشا بمعسكره أمير سفن الانجليز فى نفر من قواده فأكرم محمد على باشا وفادته وأطلق لقدومهم عدة مدافع وقدم لهم خيولا وهدايا نفيسة وأقمشة هندية وشيلانا كشميرية ثم ركب معهم فى قلة من قومه وساروا الى بيت أمير الجيوش الانجليزية فأكرموا محمد على باشا وقدموا له الهدايا والطرف من أفخر الصنائع ثم أتموا التوقيع على عقد الصلح وسلموا المدينة وفكوا من كان عندهم من أسرى رشيد وانسحبوا من الابراج والحصون الى مراكب البحر * ولبث محمد على باشا بالاسكندرية وقد باتت داخلة فى حكمه بعد أن كانت مع سائر الثغور فى حوزة وتصرف أمير سفن حرب الدولة العثمانية من عهد السلطان سليم الى ذلك الحين وما زال بها حتى قدم الى القاهرة فى يوم الاثنين ثالث شعبان من السنة أى سنة اثنتين وعشرين ومائتين وألف هجرية فخرج العلماء والامراء للقائه وأطلقت لقدومه المدافع من قلعة الجبل وسائر الحصون وزينت المدينة ثلاث ليال ورجع معه حسن باشا طاهر وسليمان أغا وكثير من العساكر والاجناد

وما استقر به المقام حتى جعل ينظر فى ترتيب أمور البلاد ويعمل على ازالة الوحشة التى بينه وبين من بقى من الامراء المصريين فسير اليهم من يستميلهم ويحبب لهم ترك القتال والانضمام الى حاشية محمد على فنهم من مال الى المصالحة ومنهم من تجافى وشط فى الطلب وكانت لم تزل الدسائس والفتن قائمة بين الجند وأصحاب الكلمة فيهم * فلما كان

يوم الاثنين ثالث عشري شعبان من السنة اجتمعت طائفة كبيرة من الارنؤط والعساكر الرومية على بيت محمد على باشا وطلبوا علائفهم فوعدهم فقالوا لانصبر فلاطفهم فتجافوا وأطلقوا بنادقهم مرارا وأصروا على طلب العلائف ثم انصرفوا وتفرقوا فى القاهرة ومصر فخاف الناس وتطيروا وأرسل السيد عمر الى أهل الغورية والعقادين والاسواق يأمرهم برفع بضائعهم من الحوانيت ففعلوا وأغلقوها فلما كان قبيل الغروب وصل الى بيت محمد على باشا فريق آخر من الدلاتلية وطالبوا أيضا بالعلائف وأطلقوا كذلك بنادقهم على من بباب محمد على باشا فردهم الجند وأطلقوا عليهم النار فجرحوا منهم عددا فانكفوا ورجعوا وبات الناس متخوفين وأصبح يوم الثلاثاء والحال فى اضطراب وقد نقلت أمتعة محمد على باشا فى تلك الليلة الى قلعة الجبل وصعد هو كذلك الى القلعة وأرسل الى رجب أغا أحمد مقدمى الارنؤط من يلزمه بالخروج الى الديار الرومية بلا مهل فأظهر العصيان وتترس هو وفريق من جنده فى بعض الدور ووقع بينهم وبين عساكر محمد على باشا قتال ثلاثة أيام ثم انجلى عن سفر رجب أغا قهرا الى الديار الرومية * قال بعض كتاب الاخبار * ونزل محمد على باشا وطاف بالمدينة ومر بناحية سويقة العزى سائرا الى بيت بلبغا وهنالك المكتب الذى فوق السبيل بين الطريقين تجاه من يأتى من تلك الناحية فصعد الى ذلك المكتب اثنان من الجند يرصد ان محمد على باشا فى مروره فلما أتى مقابلا لذلك المكتب أطلقا عليه بارودتين فأخطأتاه وأصابت احدى الرصاصتين فرس أحد الملازمين حوله فسقط فترجل محمد على باشا عن فرسه وهو ساكن الجأش ووقف على مصطبة حانوت هنالك وأمر بالقبض على الجنديين فقبضوا عليهما فأمر باخراجهما الى الديار الرومية فأخرجوهما فى الحال * وعاد الى مخابرة الامراء المصريين فأول من أذعن منهم للصلح شاهين بيك الألفى فحضر ونزل بدهشور ومعه هدايا عظيمة من ابراهيم بيك الكبير ومحمد بيك المرادى المعروف بالمنفوخ برسم محمد على باشا وهى نحو الثلاثين حصانا من جياد الخيل ومائة قنطار بن قهوة ومائة قنطار سكر وأربعة خصيان وعشرين جارية سوداء فلما وصل شاهين بيك الى دهشور وحضر من أعلم محمد على باشا بحضوره أرسل معهم هدية عظيمة ورافقهم ولده وكاتب سره ثم انتقل شاهين بيك الى شبرامنت واستلم الجيزة بعد ذلك والقصر وما حوله وما به من المدافع وآلات الحرب ودخل القصر وأعطاه محمد على باشا اقليم البهنسا وعشر بلاد من بلاد الجيزة وكتب له بذلك تقاسيط ديوانية وضم له كشوفية البحيرة الى الاسكندرية وأطلق له التصرف فى جميع ذلك بلا معارض وأكثر من مكاتبة الامراء بالصعيد وسلم لهم أمر مقاتلة يس بيك الذى هرب الى الصعيد فقاتلوه ونالوا منه وفرقوا جيوشه فانحاز الى منية ابن خصيب وقد نهبت أحماله ودوابه وانصرف عنه أكثر جنده ولومه وكاد يسقط فى يده

ولما كان الثالث والعشرون من شوال من السنة أى سنة اثنتين وعشرين ورد فرمان السلطان بتأييد ولاية محمد على باشا ووجوب التأهب واعداد الجند والسلاح لقتال

الوهابيين الخارجين بالحجاز ففرضوا لذلك فرضة عظيمة على أهل البلاد وعين من كبار الجند من يقبضها ورسم محمد على باشا بعمارة أسوار وقلاع الاسكندرية وأبى قير والسويس ورشيد ودمياط وبالغ فى العمل وقيد به جماعة وأرسل الى من كانوا يقاتلون يس بيك أن يشددوا فى حصاره ويمنعوا الواصل الى مقره ففعلوا وبالغوا فى التشديد فخابرهم يس بيك فى الصلح على شروط اقترحها فقبلوا منه ذلك فاستأمن وصرف من كان عنده من طوائف العربان ثم حضر الى بولاق وصعد الى قلعة الجبل فعوقه محمد على باشا وأراد الفتك به فقام من الامراء من ترامى على أقدام محمد على باشا فرسم باخراجه الى الديار الرومية ثم خلع عليه بعد ذلك وسير معه من يوصله الى ثغر دمياط ومنها الى جزيرة قبرص

واشتغل السلطان عن مصر فى هذا الحين بقيام الفتنة فى القسطنطينية وخروج طوائف الانكشارية عن طاعته وذلك أنه لما أعياه أمرهم وصاروا أشد عداوة للدولة وأعظم ضررا عليها من الاعداء عمد الى تنظيم عسكر مخصوص على هيئة وترتيب عسكر الفرنسيس واستقدم لذلك قائدا من كبار قواد الفرنسيس ففاز ونجح وتم له الامر أوكاد فلما أحست طوائف الانكشارية بما وراء ذلك تجردوا للعداوة وشق عصا الطاعة وأعانهم جماعة من العلماء والمشايخ وأضرموا نار الفتنة فى جوف القسطنطينية وطلبوا صرف أولئك الجنود المنظمة وشددوا فى الطلب فأجابهم السلطان الى ذلك كارها فلم يقفوا عند هذا الحد وطلبوا أشياء أخرى فطاولهم فألحوا فى الطلب فأجابهم اطفاء لنار الفتنة ولكى يتمكن من دفع العدو المحدق بالدولة من كل جانب فلما سكنت الفتنة وأخلد المشاغبون الى السكون سير الصدر الاعظم الى مدينة شوملة لقتال الروس وكانوا قد تجردوا لقتال السلطان ورسم له أيضا بارجاع بعض الولايات التى شقت عصا الطاعة وولى مصطفى باشا قائمقامية الصدارة وكان مصطفى باشا هذا من أعداء النظام الجديد وكان قد مات فى هذه الاثناء مفتى دار السلطنة وكان من أكبر أنصار السلطان سليم على ادخال النظام الجديد فى عسكره فتولى مكانه آخر شديد التعصب لعادات الانكشارية ومذهبهم يكره ذلك النظام ويعده بدعة مخالفة للدين فاتفق مع مصطفى باشا وبعض المشايخ وكبار العلماء على ابطاله وتحالفوا على ذلك فدسوا الدسائس وأيقظوا الفتنة النائمة وأضرموا نارها فالتهبت وقام العسكر بعضهم على بعض واقتتلوا قتال الاعداء فمات منهم خلق كثير واجتمع كثير من العساكر المرتزقة وقدموا عليهم مقدما منهم فسار بهم حتى أتوا الى المكان المعروف ﴿بايت ميدان﴾ وقد انضم اليهم جماعة من الانكشارية وغير الانكشارية فأتوا بقدور طعامهم فصفوها أمام صفوفهم وهى عادتهم عند عدم الطاعة وقيام الفتنة وصاحوا بالويل والثبور على أصحاب النظام الجديد ثم أتوا بجميع أرباب الوظائف العالية الذين ساعدوا السلطان على ادخال ذلك النظام فى عسكره الى ذلك الميدان فقطعوا أعناقهم وقطعوا بعضهم فى الطريق قبل أن يصلوا بهم الى الميدان ولم يكفوا عن الضجيج والصياح والفتنة قائمة مدة يومين

حتى أفتى المفتى بخلع السلطان سليم فى الحادى والعشرين من ربيع الاول سنة اثنتين وعشرين ومائتين وألف هجرية أى سنة سبع وثمانمائة وألف ميلادية وقال ((لايصلح للملك من يدخل عادات الفرنجية فى بلاد المسلمين والله أعلم)) ففرح العسكر بذلك ونادوا بخلعه وولاية السلطان مصطفى خان الرابع ثم قبضوا عليه ووضعوه فى احدى السرايات محجورا عليه فكانت سلطنته زهاء العشرين سنة

ومات فى أيامه مرقس بطرك المتأصلين بعد أن أقام فى الرياسة نحو أربع وعشرين سنة كلها شدائد ومحن وقد كثرت فيها المغارم ومصادرة الناس فى أموالهم على ماتقدم بيانه جميعه فى محله فأقيم بعده يوحنا وهو السابع بعد المائة وكان راهبا بدير أنطونيوس واسمه يوسف ووقع من الحوادث فى أيامه ماسيذكر فى محله

(الفصل العشرون)

((فى سلطنة السلطان مصطفى الرابع ابن السلطان عبدالحميد))

ثم قام بالامر بعد السلطان سليم ابن أخيه السلطان مصطفى الرابع ابن السلطان عبد الحميد بويع له بالملك يوم خلع عمه فى حادى عشرى ربيع الاوّل سنة اثنتين وعشرين ومائتين وألف هجرية أى سنة سبع وثمانمائة وألف ميلادية فلم يكن له من السلطنة سوى الاسم فقط والكلمة للمفتى ومن معه من مبغضى النظام الجديد فتصرفوا فى جميع الامور وأطاعوا هواهم وولوا الوظائف لغير مستحقيها وسلموا مقاليد القلاع والحصون الى مقدم الجند الذين ثاروا على السلطان فسكنت الفتنة وعادت الامور الى ما كانت عليه * ووصل الخبر بما جرى الى العسكر الذين كانوا يقاتلون الروس ففرح جماعة الانكشارية وسروا بقهرهم وقاموا على الصدر الاعظم فقتلوه وولوا بدله چلبى مصطفى باشا فسرى الفساد الى جميع مصالح الدولة واستولى الخلل على أمورها و عبث بها الاغرار وعاثوا وأفسدوا وقام مقدم أصحاب الثورة بعد قليل على قائمقام الصدارة فخلعه وولى بدله آخر اسمه طاهر باشا فلما استقر بطاهر باشا هذا المنصب وأراد التصرف رأى أنه مغلوب على أمره ليس له من المنصب سوى الاسم والكلمة للمفتى ومقدم الجند أصحاب الفتنة فخلع نفسه ورحل عن القسطنطينية الى مدينة روستجق ونزل فى جوار حاكمها مصطفى باشا البيرقدار وكان مصطفى باشا هذا راغبا فى النظام الجديد وقد جيش منه جيشا عظيما وكان من أنصار السلطان سليم ميالا الى اعادته الى عرش الملك فلما استجار به طاهر باشا قويت آماله بارجاع السلطان الى عرشه فسير الى الصدر الاعظم وأصحاب الحل والعقد من يكلمهم فى الأمر ويستميلهم الى الغدر بالمفتى ومقدم أصحاب الثورة وما زال بهم حتى مالوا الى ذلك ووافقوه وبرز الحكم من الصدر الاعظم بقتل

مقدم الثورة المذكور فركب عليه أحد مقدمى الفرسان وقتله فهاج أصحابه وماجوا وتجردوا للقتال وكان مصطفى باشا البيرقدار قد وصل فى هذه الأثناء الى ضواحى القسطنطينية فى جيشه المنظم وصار بعسكره على مقربة من الابواب فلما علم السلطان مصطفى بحضوره خشى العاقبة ورسم بخلع المفتى وأمر فنادى فى الجند أصحاب الثورة بالانصراف الى أوطانهم فلم يلتفت البيرقدار الى شئ من ذلك وسار بجيوشه حتى وقف أمام باب السراى السلطانية وقد أغلقوه فهم بكسره أو حرقه ثم فتحوه عنوة وعبروا الى داخل السراى وطلب السلطان سليم وكان محجورا عليه فأخفوه عنه وسير السلطان مصطفى فى الحال جماعة من خواصه فدخلوا على السلطان سليم وضربوه بالخناجر وأحضروه ميتا الى حيث السلطان مصطفى فقال سلموه الى هذا وأشار الى البيرقدار وقال «هاهو سلطانك الذى تطلبه منا اليوم» فلما رآه البيرقدار بكى بكاء مرا وشاع قتل السلطان سليم بين الجند فهاجوا وماجوا وكثر ضجيجهم واشتدت الفتنة ونادوا بخلع السلطان مصطفى ثم قبضوا عليه وسجنوه فى المكان الذى قتل به السلطان سليم وذلك فى الخامس من جمادى الأولى سنة ثلاث وعشرين ومائتين وألف هجرية أى سنة ثمان وثمانمائة وألف ميلادية فكانت سلطنته بضعة أشهر وولوا الملك بعده لاخيه السلطان محمود الثانى وهو فى عنفوان الشباب وغضاضة السن

(الفصل الحادى والعشرون)

«فى سلطنة السلطان محمود الثانى ابن السلطان عبد الحميد»

ثم قام بالامر بعد خلع السلطان مصطفى أخوه السلطان محمود الثانى بويع له بالملك يوم الخميس خامس جمادى الاولى سنة ثلاث وعشرين ومائتين وألف هجرية أى سنة ثمان وثمانمائة وألف ميلادية ووردت الاخبار بذلك الى مصر فقام محمد على باشا بمظاهر الاحتفال وزينت المدينة ثلاث ليال وخطبوا له على المنابر بمصر والقاهرة وسائر المدن القبلية والبحرية واستوزر السلطان محمود الوزير مصطفى باشا البيرقدار وسلمه ختم الصدارة وصرّفه فى جميع الامور فأحكم السياسة وأحسن التدبير وجعل يعمل على اخضاع طوائف الانكشارية وايقافهم عند حدهم فجمع يوما جميع كبار الدولة وأصحاب المناصب العالية والعلماء والمشايخ وعقد مجلسا حافلا وكلمهم فيما تلاقيه الدولة بسبب خروج الانكشارية وعدم وقوفهم عند حد رسومهم وعاداتهم القديمة وبالغ فى الشكوى وعظم فى البلوى وسألهم اجتماع الكلمة على دفع هذا الفساد ومنع تطاول أيدى أولئك القوم الى العبث بمصالح الدولة التى استحوذ عليها الفشل وتولاها الخلل فأجابوه الى ذلك ووافقوه على أخذ فتوى من مفتى دار السلطنة

بوجوب رجوع طوائف الانكشارية فى جميع أمورهم الى رسومهم وعاداتهم القديمة فقويت بذلك عزيمته واشتد أزره وعمد الى اخضاعهم فاخضعهم وألبسهم ثياب الذل وتصرف فيهم فخاف عليه بعض أصحابه وحذره من مكرهم وغدرهم فلم يلتفت الى ذلك و بالغ فى التشديد وأكثر من الوعيد * فلما ضاق بهم الخناق وأيسوا من الخلاص أثاروا الفتنة فى مدينة فلبى وأظهروا العصيان فسير لقتالهم جيشه المنظم ولم يبق معه سوى زهاء أربعة آلاف وبعض العساكر الاخرى و بالغ فى الشدة على من بالقسطنطينية من الانكشارية فلما كانت ليلة السابع والعشرين من رمضان سنة ثلاث وعشرين أجمعوا أمرهم وتحزبوا وساروا الى مقر السلطان مصطفى المعزول وانبثوا حوله وهموا باخراجه وارجاعه الى عرش السلطنة فركب عليهم مصطفى باشا البيرقدار فيمن بقى من عساكره وقاتلهم قتالا عنيفا فلم يقو على ردهم وأحس بالهزيمة لكثرة العدو فسير الى السلطان مصطفى المعزول من قتله وأمر بجثته فألقوها من أعلى السراى الى أصحاب الثورة كى لا يتمكنوا من ارجاعه الى عرش السلطنة فلما رأوا السلطان على هذا الحال اشتد هياجهم وعلا ضجيجهم وأضرموا النار فى سراى السلطان مصطفى ليهلك فيها البيرقدار بالحريق وقيل بل أضرموها فى سراى البيرقدار وأخشوا فى الحرق والهدم والنهب واختفى البيرقدار فى سرداب فلم يعثروا عليه وكان لما اشتبك القتال بين عسكر البيرقدار و الانكشارية أدخل أمير سفن الحرب ثلاثا من السفن الى بوغاز القسطنطينية ووجه أفواه مدافعها نحو منازل الانكشارية ورمى عليها بالقنابل رميا متتابعا ثم نزل بطائفة من عسكره أيضا وسار لنجدة البيرقدار وكذلك سار لنجدته أحد مقدمى العساكر المنظمة فلم يفلحوا اذ كان الانكشارية قد تمكنوا من حرق السراى فأعملوا السيف فى الانكشارية وأخذوهم من كل صوب وحدب حتى انهزموا وولوا الأدبار فانحدر جماعة منهم الى بيوت الناس فأضرموا فيها النار فعلا اللهيب واشتد وخاف السلطان وهاله الامر وتحقق دمار جميع المدينة وطمس معالمها فنزل من مقره الى الباب الموصل الى البحر ونادى بقتال الانكشارية فقاتلوهم قتالا عنيفا وأكثر الانكشارية من حرق الدور والابنية العظيمة فانهال اللهب انهيال السيل والتهبت أكثر دور المدينة فدمرتها وعلا صياح النساء والاطفال من كل ناحية وهب الناس من مضاجعهم مذعورين فصاح السلطان وشدد على الجند بالقتال وذبح كل من وجدوه يعاون على الحريق وهو مع ذلك محصور فى سرايته يوما وليلة فلما اشتد الحال وضعفت من خلاص المدينة الآمال سير السلطان الى كبار الانكشارية من يخابرهم فى أمر الصلح وترددت الرسل بينهم فانكفوا عن الحريق وأخذوا فى اطفائه ودخل جماعة من الانكشارية الى حيث مصطفى باشا البيرقدار فأخرجوه من تحت الردم ميتا وعلقوه فى شجرة ومثلوا به تمثيلا وسكنت بعد ذلك الفتنة وعادت الامور الى ما كانت عليه فاستوزر السلطان الوزير ضيا يوسف باشا الذى كان حضر الى مصر لقتال عساكر بونابارته وكظم غيظه وجعل يراقب الفرص ويتبين وجه الانتفاع بها

وكانت

وكانت هـذه الفتنة وما نجم عنها من اختـلال نظام الدولة وسقوط هيبتها وغـل أيدى السلطان عن أن يأتى بأى أمر أراده وتفـاقم شر طوائف الانكشارية كل هـذا جعل محمد على باشا فى مأمن من جانب السلطنة ومكنه ذلك من منصب الولاية فتجرد للعمـل وسار عن القاهرة الى الاقاليم البحرية وقد طلب الكلف اللازمة لذلك وفرضها على البلاد فكتب اليه الرزنامجى يقول ان الخراب ضارب أطنابه على أكثر البـلاد بأسباب المحن المتوالية فلا قدرة لاهلها على دفع شئ الآن فلم يرض محمد على باشا من الرزنامجى بذلك و جاب البـلاد شرقا وغربا ومعه الكتاب وبعض المباشرين ثم رسم بتحرير سجل مخصوص يشمل عدد ما يوجد من البـلاد التى لا قدرة لاهلها على الزرع فحرروا سجـلا بها فأقطعها لاولاده وذوى قرابتـه وجمـع اليها من تشرد من أهلها وصار من هـذا الحـين اذا تأخرت بلدة عن القيام بما يفرض عليها أقطعها الى رجال الدولة أو أحـد أولاده أو ذوى قرابتـه وسميت الاقطاعات من يومئذ أى من سنة ثلاث وعشرين ومائتين وألف هجرية أو نحوها «بالعهد» ثم جعل ينظر فى احتياجات البلاد وفى ترتيب أمورها على ما فيه المصلحة واهتم بذلك كثيرا فكاد يتم له الامر لسكون الامراء المصريين واستقرارهم بالصعيد الأعلى وعدم قيام الفتنة

فلما كـان أوائل سـنة أربع وعشرين ورد فـرمان السلطان بالعودة الى جمع العساكر والسـلاح لقتال الوهابيين وكانوا قد خرجوا بالحجاز فعاثوا ونهبوا وقتلوا وسلبوا ومنعوا الحج وأظهروا البدع والخروج عن السـنن والعبث بالشريعـة وهم أصحاب عبد الوهـاب الدرعى وعبد الوهاب هـذا رجل من العرب ولد فى الدرعية من بلاد الحجاز وتعلم مذهب الامام أبى حنيفة النعمان ثم سار الى أصفهان ولاذ بعلمائها وأخذ منهم حتى غزرت مادته وتضلع من عـلم أصول وفروع الشريعة لاسيما تفسير القرآن ثم قفل راجعا الى بلاده فى سنة احدى وسبعين ومائة وألف هجرية فلما استقر به المقام جعل يقرر مذهب الامام أبى حنيفة ثم اجتهـد واستقل وقرر له مذهبا مخصوصا وألقاه على تلامـذته فاتبعوه وعملوا به وكثر مريدوه وشاع أمره فى نجد والقطيف والاحساء وكثير من بلاد العـرب كبنى عتبة من أرض اليمن وعمـان وغـيرهما ولمذهبه هذا قواعـد وشروط مخصوصة يعـلم بعضها من رسالة ذكرها صاحب الخطط التوفيقيـة نأتى بها هنا تتميما للفائدة

قال اعلموا رحمكم الله أن الحنيفية ملة ابراهيم أن تعبد الله مخلصا له الدين وبذلك أمر الله جميع الناس وخلقهم له كما قال تعالى «وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون» فاذا عرفت أن الله خلق العباد للعبادة فاعلم أن العبادة لاتسمى عبادة الا مع التوحيد كما أن الصلاة لاتسمى صلاة الا مع الطهارة فاذا دخل الشرك فسدت كالحدث اذا دخل فى الطهارة كما قال الله تعالى «ماكان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفى النار هم خالدون» فمن دعا غير الله طالبا منه ما لا يقدر عليـه الا الله من جلب خـير أو دفع ضر فقد أشرك فى العبادة كما قال الله تعالى « ومن أضـل ممن يدعو من دون الله من

لايستجيب له الى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون * واذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين » وقال تعالى « والذين تدعون من دونه مايملكون من قطمير ان تدعوهم لايسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير » فأخبر تبارك وتعالى أن دعاء غير الله شرك فمن قال يارسول الله أو ياابن عباس أوياعبد القادر زاعما أنه باب حاجته الى الله وشفيعه عنده ووسيلته اليه فهو المشرك الذى يهدر دمه وماله الا أن يتوب من ذلك * وكذلك الذين يحلفون بغير الله أو الذى يتوكل على غير الله أو يرجو غير الله أو يخاف وقوع الشر من غير الله أو يلتجئ الى غير الله فهو أيضا مشرك * وماذكرنا من أنواع الشرك هو الذى قال الله فيه « ان الله لايغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » وهو الذى قاتل رسول الله المشركين عليه وأمرهم باخلاص العبادة كلها لله تعالى ويصح ذلك أى التشنيع عليهم بمعرفة أربع قواعد ذكرها الله تعالى فى كتابه * أولها أن تعلم أن الكفار الذين قاتلهم رسول الله يقرون أن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت المدبر لجميع الأمور والدليل على ذلك قوله تعالى « قل من يرزقكم من السماء والارض أمن يملك السمع والابصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الامر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون » وقوله تعالى « قل لمن الارض ومن فيها ان كنتم تعلمون سيقولون لله قل أفلا تذكرون * قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله قل أفلا تتقون * قل من بيده ملكوت كل شئ وهو يجير ولا يجار عليه ان كنتم تعلمون سيقولون لله قل فأنى تسحرون » اذا عرفت هذه القاعدة وأشكل عليك الامر فاعلم أنهم بهذا أقروا ثم توجهوا الى غير الله يدعونه من دون الله فأشركوا * القاعدة الثانية * أنهم يقولون ما نرجوهم الا لطلب الشفاعة عند الله نريد من الله لا منهم ولكن بشفاعتهم وهو شرك والدليل على ذلك قول الله تعالى « ويعبدون من دون الله مالايضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبؤن الله بما لايعلم فى السموات ولا فى الارض سبحانه وتعالى عما يشركون » وقال الله تعالى « والذين اتخذوا من دونه أولياء مانعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى ان الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون ان الله لايهدى من هو كاذب كفار » واذا عرفت هذه القاعدة فاعرف القاعدة الثالثة * وهى أن منهم من طلب الشفاعة من الاصنام ومنهم من تبرأ من الاصنام وتعلق بالصالحين مثل عيسى وأمه والملائكة والدليل على ذلك قوله تعالى « أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه ان عذاب ربك كان محذورا » ورسول الله لم يفرق بين من عبد الاصنام ومن عبد الصالحين بل كفر الكل وقاتلهم حتى يكون الدين كله لله واذا عرفت هذه القاعدة * فاعرف القاعدة الرابعة * وهى أنهم يخلصون لله فى الشدائد وينسون ما يشركون والدليل على ذلك قوله تعالى « فاذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم الى البر اذا هم يشركون » وأهل زماننا يخلصون الدعاء فى الشدائد لغير الله

فاذا عرفت هذا * فاعرف القاعدة الخامسة * وهى أن المشركين فى زمان النبىّ أخف شركا من عقلاء مشركى زماننا لان أولئك يخلصون لله فى الشدائد وهؤلاء يدعون مشايخهم فى الشدائد والرخاء * والله أعلم بالصواب انتهى بنصه

ووردت الاخبار بخروج الصدر الاعظم يوسف باشا من دار السلطنة فى جيش عظيم لقتال الوهابيين وخروج آخر اسمه سليمان باشا من مدينة بغداد فى عسكر أيضا لقتالهم فجعل محمد على باشا يتأهب للخروج ورسم بتحصين قلاع القلزم وتعبيتها بالاسلحة وآلات الحرب وأكثر فيها من المؤنة والماء وقيد بها طائفة من الجند حتى صارت على قدم الاستعداد وأنشأ على ساحل بولاق معملا لمد السفن وصنعة النجارة سماه الترسخانة وعمل السفن والشوانى الكبيرة وجمع لذلك الصناع والنجارين والحدادين فكانوا يهيؤن الاخشاب ويصلحونها ويحملونها على ظهور الجمال الى السويس فيضمون بعضها الى بعض وينزلونها الى بحر القلزم فعملوا من ذلك أربع سفن كبيرة وعدة سفن صغيرة وشحنوها بالآلات والمهمات الحربية فصارت على أهبة السفر الى الاقطار الحجازية وأظهر محمد على باشا الاهتمام بهذه الحلة * فبينما هو على هذا الحال من جمع الجند وآلات الحرب اذ جاءه الخبر بانحدار الامراء المصريين الى الجيزة وأنهم نصبوا خيامهم خارجها ومعهم كثير من العربان والهوارة ولموم أخر وأنهم يريدون حضور محمد على باشا للملاقاة من تعاهد منهم على الصلح فلم يلتفت محمد على الى ذلك ولم يحضر ولم يرسل أحدا من قبله فى ذلك اليوم فساء ذلك ابراهيم بيك الكبير وعدها اهانة له ولاصحابه ومن حضر معه على العهد من الامراء فلما كان ثانى يوم عبر شاهين بيك الالفى الى شبرى واجتمع بمحمد على باشا وعاتبه وأغلظ عليه القول ثم نزل من عنده وعبر النيل الى الجيزة وأمر فنقلوا متاعه وجميع أثاثه ونساءه وسيرهنّ الى الفيوم ونسى محاسن القصر الذى كان يسكنه بالجيزة وانضم الى ابراهيم بيك الكبير وبقية الامراء وخالف العهد وكفر بالنعمة وجمع اليه مماليكه وأتباعه وعساكره ونصب خيامه على مقربة من خيامهم ورتبوا الامر بينهم وقسموا مواقف الحرب والقتال واختص كل فريق منهم بجهة وجاء الخبر بذلك الى محمد على باشا فسير اليهم يلاطفهم ويطيب خواطرهم فلم يقبلوا وتجافوا وأغلظوا فى القول ورموه بالخديعة وشاع الخبر بذلك بمصر والقاهرة فخرج اليهم أيضا من كان مختفيا من العساكر والاجناد المصريين وعبروا النيل الى الجيزة فكثرت لمومهم وكبر جيشهم فاستعظم محمد على باشا الامر وخشى العاقبة فأخذ فى التجهيز ونادى فى عسكره بالخروج فعبروا النيل وهو فى مقدمتهم ونزل بقصر الجيزة وتحققت المفاقة وتحصن الامراء خلف السور ووقفت أمامهم عساكر محمد على باشا ولبثوا على هذا الحال الى ثانى يوم ولم يقع بينهما ضرب ولا قتال ثم ترفع المصريون الى ناحية دهشور وزنين فأمسك عليهم محمد على باشا الطرق ومنع عنهم المواصلات وشدد فى المنع وبث العيون والارصاد واستمال من كان معهم من عربان أولاد على وغيرهم وأمنهم فتركوهم وأتوا اليه خاضعين

فأحسن اليهم وردهم الى أوطانهم وسير طائفة من العسكر لقتال شاهين بيك ومن معه فالتقوا بهم عند صول والبرنبل وقد جعلوا بها المتاريس ونصبوا عليها المدافع فقاتلوهم حتى أجلوهم عنها وملكوا المتاريس وقد مات من الفريقين خلق كثير وانقسم الامراء المصريون الى قسمين قسم عبر النيل الى شرق اطفيح وقسم قفل راجعا الى الجيزة لقتال المرابطين بها وابعادهم عنها فلم ينالوا منهم أربا وجعل محمد على باشا يستميل من كان مع شاهين بيك من الامراء المصريين والكشاف وما زال بهم حتى تخلوا عن شاهين وانحازوا الى عسكر محمد على باشا فأكرم لقاءهم وخلع عليهم خلع الرضاء وشاع خبر رجوعهم عند أصحاب شاهين فزالت لذلك هيبته وسقطت كلمته ورجع من كان على قدم الطاعة اليه والانضمام الى عسكره وقام عليه أهل البلاد التى كانوا يمرون بها ومنعوهم من ضرب المغارم وأخذ الكلف وطردوا المعينين لذلك من قبله وكادت تتلاشى سطوته وتتفرق كلمة من كانوا معه وأحس محمد على باشا بانصرام حزمتهم فشدد فى مطاردتهم وضيق عليهم من كل صوب وحدب وارتحل بعساكره من الجيزة ومعه ولده الامير طوسون الى جزيرة الذهب ثم ساروا منها الى الصعيد فكان كلما اقترب من منازل المحاربين انسحب من جموعهم العدد الكثير وانحازوا اليه وقدموا له الطاعة * فلما كان يوم السبت عاشر رجب سنة خمس وعشرين التقى الجمعان واقتتلا قتالا عنيفا فاستظهرت عساكر محمد على باشا على الأمراء وأبلوا فيهم بلاء حسنا فترفع الأمراء الى الصعيد وتبعتهم الجيوش المصرية فلما رأى جماعة الألفى أنهم مأخوذون استأمن منهم طائفة كبيرة وتتابعت انتصارات محمد على باشا وضعفت عزيمة الامراء المصريين فكانوا كلما اقترب العسكر من منازلهم تركوها وترفعوا الى الصعيد وبينما هو على هذا الحال اذ جاءه الخبر بقدوم رسول من جانب السلطان بفرمان وأنه نزل بقصر شبرى من ضواحى القاهرة فانحدر محمد على باشا الى القاهرة على عجل وصعد الى قلعة الجبل وطلب اليه الرسول فقابله برهة لطيفة شاع بعدها الخبر بأن السلطان راغب فى سرعة قتال الوهابيين والتعجيل فى تسيير العساكر المصرية لقتالهم فأظهر محمد على باشا الاهتمام بذلك وأمر بالتأهب والاستعداد وأكثر من جمع العساكر ونادى فيهم بالخروج فاجتمعوا عند قبة العزب ونزلوا هناك أياما حتى يتم خروجهم وقد سلم قيادهم الى ولده الامير طوسون ثم نادى مناديه باجتماع الامراء وسائر أرباب الوظائف ورجال الحكومة فى قلعة الجبل ليركبوا فى غد بتجملاتهم وزينتهم ويسيروا أمام موكب الامير طوسون عند خروجه بعسكره الى مدينة السويس

مطلب قتل أمراء العسكر المعروفة بقتل الغز

فلما أصبح يوم الجمعة سادس صفر سنة ست وعشرين ومائتين وألف ركب جميع الامراء والكشاف وصعدوا الى قلعة الجبل فى مماليكهم وأتباعهم وأجنادهم بتجملاتهم وزينتهم ودخل الامراء منهم على محمد على باشا وتحادثوا ساعة وهو يظهر لهم غاية البشر والايناس ثم أمر فسار الموكب على الوضع الذى رتبوه فكانت طائفة الدلاة فى المقدمة ومن خلفهم طوائف العسكر

المشاة والفرسان وأرباب المناصب وكان محمد على باشا قد أطلع حسن باشا وصالح جوق والكتخدا على ما فى نفسه من الغدر بالامراء المصريين وقطع شأفتهم وأسر بذلك أيضا فى صبح اليوم ابراهيم أغا أغات الباب فلما سار الموكب من باب العزب وفرغ طائفة الدلاة ومن كان معهم من الوجاقلية وانفصلوا من الباب المذكور أشار صالح جوق فأغلقوا الباب وعرف أصحابه بالمراد فأطلقوا فى الحال نيرانهم على المصريين وقد انحصروا جميعهم فى المضيق المنحدر من الحجر المقطوع فى أعلى باب العزب ما بين الباب الاعلى الذى يتوصل منه الى رحبة سوق القلعة الى الباب الاسفل * وهو مشاهد الى يومنا هذا * وقد كانوا أعدوا عدة من العساكر أوقفوهم على الجدران التى بذلك المضيق فلما أطلقت البنادق من الواقفين عند الباب هم الامراء بالرجوع الى الوراء فلم يتمكنوا من ذلك لتكاثر الخيل من خلف وقد أخذتهم ضرب البنادق من خلفهم أيضا واشتدت عليهم النيران وتتابعت وسمع العسكر الواقفون بالاعالى فأطلقوا نيرانهم أيضا فلما نظروا ما حل بهم سقطوا فى أيديهم وارتبكوا ووقع منهم قتلى كثيرون وترجل أكثرهم عن خيولهم واقتحم شاهين بيك الالفى وسليمان بيك الابواب فى عدة من مماليكهم راجعين الى فوق ونزعوا ما كان عليهم من الفراوى والثياب الثقيلة وساروا والسيوف فى أيديهم حتى الرحبة الوسطى المواجهة لقاعة الاعمدة وهى قاعة صلاح الدين يوسف وقد قتل أكثرهم برمى البنادق وأصيب شاهين بيك وسقط على الارض فانقضوا عليه وقطعوا رأسه وأسرعوا بها الى محمد على باشا وكان محمد على باشا عند ما ساروا بالموكب قد دخل الى بيت الحريم وهرب سليمان بيك البواب وتسلق الى حائط البرج الكبير فأصابوه برمى الرصاص فسقط فاحتزوا رأسه أيضا وهرب كثير الى بيت الامير طوسون مستجيرين فلحقوهم وقتلوهم وأسرف العسكر فى القتل وتتبعوا الشاردين فى نواحى القلعة وقبضوا على من لم يكن فى الموكب أيضا وقتلوهم فى تلك الليلة واستمر القتل يوم الجمعة بطوله وليلة السبت ويوم السبت فكان المنظر مخيفا للغاية والارض مغطاة بالجثث والاسلحة وثياب القتلى * وأنفذوا الى كشاف الاقاليم بقتل جميع من يوجد عندهم من طوائف المماليك وفوض محمد على باشا أمر ذلك الى كتخداه فبالغ فى البحث والتفتيش عليهم بالجهات القبلية والبحرية ونزلت العساكر الى بيوت الامراء فنهبوا ما فيها وسبوا النساء وأفحشوا فى القتل واخراج المخدرات حاسرات الرؤس وركب محمد على باشا ونزل من قلعة الجبل فى ضحوة يوم السبت وحوله أمراؤه الكبار مشاة وأمامه طائفة الصقاشية والجاويشية بزينتهم ولباسهم الفاخر مشاة وهو راكب على فرس وهم محدقون به وأمامه وخلفه عدة أخرى ونادى مناديه بمنع النهب وأمر بقتل من يضبط ومعه شئ من المنهوبات فانكف الجند وامتنعوا * وسير الكشاف برؤس القتلى من المماليك ممن كانوا بالمدائن والقرى بالاقاليم القبلية والبحرية فكانت شيأ كثيرا جدا * قال بعض الكتاب * فلم ينج من طوائف الالفية الا اثنان وهما أحمد بيك زوج ابنة ابراهيم بيك الكبير فقد كان غائبا فى بلدة بوش وثانيهما أمين بيك

وقيل انه ألقى بنفسه وهو على ظهر جواده من السور المجاور لقاعة الاعمدة الى ميدان الرميلة فمات جواده ونجا هو وهرب الى الديار الشامية فكانت عدة من مات من المماليك فى هذه الوقعة زهاء الاربعمائة ومن الاتباع والكشاف وغيرهم زهاء الستمائة وبينهم مرزوق بيك بن ابراهيم بيك الكبير فوجدت عليه أمه وجدا عظيما وطلبت جثته فأخرجوها من بين القتلى فدفنت فى مدفن أعدته له * ووصل الخبر بما وقع للامراء المصريين الى أحمد بيك الالفى وهو ببوش فسار من فوره الى الصعيد الاعلى واجتمع بمن فيه من الامراء وأعلم ابراهيم بيك الكبير بما جرى لولده مرزوق فحزن حزنا عظيما ولبسوا جميعا السواد وجلسوا للعزاء ومازال القتل متتابعا فيمن يعثرون عليه من طوائف المماليك شرقا وغربا وفى أصحاب البيوتات القديمة منهم حتى كادوا يمحون أثرهم فأرسل ابراهيم بيك ومن معه يطلب من محمد على باشا الأمان وأن يرسم لهم بالجهة التى يعيشون فيها فلم يرد عليهم جوابا وأرسل لقتالهم مصطفى بيك فى طائفة كبيرة من عسكر الارنؤط واهتم بعد ذلك بتعبية الجند والسلاح لقتال الوهابيين وكأنه قد تفرغ لذلك فجمع منهم طائفة عظيمة وعقد لابنه لواء الامير طوسون هذه الحملة فلما كان يوم الاحد سادس ربيع الاول سنة ست وعشرين نزل الامير طوسون بجيشه من قلعة الجبل فى موكب حافل وأمامه المدافع وآلات الحرب وعسكر ببركة الحاج وأقام بها حتى تكامل جيشه وسافر محمد على باشا الى السويس وقد سير ما كان فى ميناها من السفن ومراكب الحرب فسارت الى الينبع وتقاتلت مع من بها من الوهابيين ونالت منهم ثم سار الامير طوسون بجيشه من البركة فى يوم الخميس التاسع من رمضان هذه السنة فوصلوا فى السابع من شوال الى بندر المويلح وعيدوا العيد بعقابر شعيب يوم السبت ثم ساروا الى الينبع وملكوها من غير قتال وساروا الى منزلة الصفراء والحديدة فوجدوا فيها عند سفح الجبل متاريس فقاتلوا عليها حتى أخذوها ثم تسلقوا الجبال فالتقى فريق منهم بجيوش الوهابيين فانتشب بينهم القتال وثابروا عليه يوما وليلة ثم انجلى عن هزيمة المصريين فرجعوا القهقرى واختل نظامهم وتبدد شملهم وطلبوا السفن وكان قد حضر منها بساحل البريك عدة مددا فلحقوا بها وتزاحموا عليها وتفرقت دواب الحمل وتشردت وترك الجنود خيامهم وسلاحهم مع جميع متاعهم وكانت وقعة من أشد الوقائع و رجع الامير طوسون الى ينبع بعد تغيبه يوما عن معسكره وقد ظنوا موته ولبث بينبع أربعة وعشرين يوما حتى جمع شتات عساكره المشاة أما الفرسان فقد رجعوا الى الوراء ومازالوا حتى وصلوا الى المويلح وقد أجهدهم الجوع وأضناهم الوصب فنزلوا بها ووردت الاخبار بما حصل الى محمد على باشا فلم يتزعزع ولم تفتر له همة ونادى فى العسكر المقيمين بمصر والقاهرة بالخروج وشدد فى النداء وبرز الى ضواحى القاهرة وخرج العسكر فرتبهم وعقد لواءهم لبونا بارته الخازندار فساروا الى الينبع ليرابطوا بها وجيش جيشا اخر وعقد لواءه لصالح بيك السلحدار وجعل معه جماعة من الكشاف

واستقدم من كان مع الامير طوسون فحضروا فأمرهم بالجلاء عن مصر والرحيل الى بلادهم فلم تسعهم المخالفة وخرجوا فى عدة كبيرة من العساكر الارنؤط وخرج بنفسه لقتال الوهابيين والاخذ بثأر من مات من رجاله فسار بجيش عظيم ومعه حسن باشا طاهر وأخوه عابدين بيك فلم يسر مرحلة عن القاهرة حتى وردت اليه الاخبار فى ثانى يوم باستيلاء من بقى من المصريين على عقبة الصفراء والجديدة بغير حرب ولا قتال وأنهم لم يجدوا فيها أحدا من الوهابيين ففرح بذلك وسار الى السويس ولبث فيها أياما وقد عدل عن المسير الى الحجاز فعجل بتسيير الجيوش التى كانت معه برا وأنزل طائفة منهم بالسفن والشوانى وسير كذلك مصطفى بيك والى باشا بجميع عساكر الدلاتلية ومعهم شئ كثير من المؤن وآلات الحرب وعاد الى مصر فلما دخل القاهرة وردت اليه الاخبار بوصول عساكره الى المدينة وأنهم نزلوا بفنائها وقد أحضر المبشر بهذا الخبر مفاتيح المدينة فزينت لذلك البلد ثلاث ليال أولها يوم الخميس ثالث عشر ذى الحجة سنة سبع وعشرين ومائتين وألف هجرية فأرسل المفاتيح مع رسول مخصوص الى دار السلطنة

وبينما كان بعض عساكره يقاتل الوهابيين ويسترد منهم ماملكوه من بلاد الحجاز كان البعض الآخر يطارد أيضا من بقى من الامراء المصريين حتى أجلوهم عن الصعيد وما زالوا على أثرهم حتى ترفعوا الى النوبة ودخلوا ابريم فقطعوا عنهم الواصل وسدوا عليهم المسالك وقبضوا على كثير من أتباعهم وقتلوهم ومازال يشدد فى تتبعهم بالقتل والتشريد حتى أمن شرهم فأمّر ولده ابراهيم على جميع الاقاليم القبلية وأطلق له فيها التصرف وأخذ هو فى تدبير أمور البلاد فأكثر من المشروعات المهمة والاعمال المفيدة كحفر الترع وترميم الجسور وانشاء الحصون والمعاقل بمدينة الاسكندرية * وبعضها باق الى هذا اليوم * وأنشأ المعامل العظيمة لمد السفن ومراكب الحرب وهيأ عمارة حربية عظيمة وسلحها بالمدافع وآلات القتال وسير منها عدة كبيرة مددا الى ولده الامير طوسون وكان يظن ذهاب شوكة الوهابيين وسقوط كلمة زعيمهم الامير سعود وقد كان الامير سعود هذا قد انكف عن قتال عساكر الامير طوسون حينا وترفع بقومه الى بعض الجبال ولكنه عاد فى سنة ثمان وعشرين ومائتين وألف فهاجمهم بعدة كثيرة من أصحابه ناحية طراباى شرقى مكة فلكها وكانت شدة القحط قد فعلت بالعسكر المصرى فعلا رديئا جدا ثم سار الى المدينة وملك جميع أرباضها والقرى المجاورة لها وأفحش فى النهب والسلب وقاتل من بها من العساكر المصرية وضيق عليها ومنع عنها الواصل فكان كل من هرب من الحصار وقفل راجعا الى الوراء قبضوا عليه وقتلوه و وصلت الاخبار بما جرى فشق الأمر على محمد على باشا وأعظمه وجيش جيشا عظيما وخرج به من القاهرة يوم الجمعة ثالث عشر شوال سنة ثمان وعشرين ومائتين وألف ونزل ببركة الحاج ثم سار منها الى السويس فلاقاه المبشرون فى الطريق وبشروه بسقوط عثمان المضايفى فى أسر الامير طوسون وكان المضايفى هذا قد

خرج فى لموم كثيرة لقتال من بالطائف من العسكر المصرى فبرز اليه الشريف غالب بالعسكر المصرى وطوائف العربان وقاتلوه واشتد القتال بين الفريقين فأصيب جواد المضايفى فنزل عنه واختلط بالعسكر فلم يعرفوه فخرج من بينهم هاربا فصادفه جماعة من جند الشريف غالب فعرفوه وقبضوا عليه وقد أصابته جراحة فلما مثل بين يدى الشريف أمر فقيدوه بالحديد وسير به الى الامير طوسون * قال بعض كتاب الاخبار * والمضايفى هذا زوج أخت الشريف خرج عنه وانضم الى الوهابيين فكان أكبر عون لهم وكان هو الذى يستميل لهم طوائف العربان فنما لذلك أمره واشتهر ذكره فدوّخ المدن وفتح منها عدة كثيرة وافتتح الطائف وله وقائع وحروب مشهورة أضربنا عن ذكرها هنا

ولما وصل محمد على باشا الى ينبع سير طلائع عسكره الى المدينة فناوشوا من كان حولها من أصحاب الوهابى وأجلوهم عنها فنزل عليها محمد على باشا وأدى فريضة الحج ثم أخذ فى تدبير أمور الحلة ومال الى الشريف غالب وأظهر له الولاء والمحبة فانخدع الشريف وبقى معه على ذلك أياما ثم قبض عليه هو وثلاثة من أولاده وسيرهم مع نفر من الجند الى جيدة وأنزلوهم باحدى السفن فأقلعت بهم الى مصر عن طريق القصير * قال بعض الكتاب * وتحرير الخبر أنه لما وصل محمد على باشا الى مكة جدد العهد مع الشريف غالب وحلفا الايمان فى جوف الكعبة بأن لايخون أحد صاحبه ولا يغدر به ولا يعمل على ايذائه فكان بعد ذلك يذهب كل منهما الى الآخر فى قلة من أصحابه واستمرا على هذا الحال زهاء خمسة عشر يوما من ذى القعدة فلما كان أحد الايام دعا الامير طوسون الشريف غالب الى بيته فأتاه فى قلة على عادته فلما اقتحم الدار رأى فيها من العساكر والاجناد ما رابه فصعد وتخوفا فلما استقربه المجلس حضر عابدين بيك فى نفر من الجند وصعد الى المجلس ودنا من الشريف وأخذ خنجره من منطقته وقال له قم قد بعث سيدنا ومولانا أمير المؤمنين فى طلبك الى دار السلطنة فقال على السمع والطاعة ولكن لى أشغال أقضيها فى ثلاثة أيام فقال لاسبيل الى ذلك وقد أعددنا لك سفينة لتحملك فلما سمع جماعة الشريف وعبيده هذا القول تحزبوا وأسرعوا الى الابراج التى هى مقر الشريف يريدون القتال فأرسل محمد على باشا يتهددهم بحرق المدينة ان هم فعلوا شيأ وأرسل الشريف كذلك ينهاهم عما عزموا على فعله وكان أولاد الشريف الثلاثة فى بيت له فأرسل اليهم محمد على باشا أحد خواص الشريف ومازال يخادعهم حتى انخدع كبيرهم فنزل بهم متحفظا الى مكان وفى الحال استحضر محمد على باشا الشريف يحيى بن سرور وهو ابن أخى الشريف غالب وخلع عليه وقلده امارة مكة ونودى بذلك وطيروا خبره الى الآفاق وأقام الشريف غالب أربعة أيام ثم أنزل الى سفينة فسارت به الى القصير ومنها الى القاهرة فاستقبله كتخدا الباشا بالاحتفال والاحتفاء وأطلقت لقدومه المدافع وأنزلوه ببيت السيد المحروق أياما ثم

أعدوا له دارا أخرى وأسكنوه بها وجعلوا الجند على بابه تحرسه ثم قدم بعده أيضا ولد أخيه الشريف عبدالله بن الشريف سرور مبعدا منفيا فأنزلوه فى دار مخصوصة محجورا عليه ولم يجتمع بعمه ولم يره قيل وكان هذا كله بأمر من دار السلطنة فكادت لذلك تنصرف عن الامير طوسون طوائف العربان الذين أتوا بكلمة الشريف غالب وتقاعسوا عن القتال معه وفترت هممهم وانفشلوا وهاجر الكثير منهم ومن الاشراف وانضموا الى الوهابيين وقاتلوا جيوش الامير طوسون قتالا عنيفا وأبلوا بلاء حسنا فوقع باسباب ذلك فى الحرمين غلاء شديد وقل الوارد من الحبوب والدقيق واشتد الجوع وهاجر الفقراء الى الجبال فكانت شدة عظيمة جدا ❁ ومات فى هذه الاثناء سعود شيخ الوهابيين فولى الوهابيون ولده عبدالله مكانه وكان يظن انفشالهم بعد موته ووردت الاخبار بذلك الى الامير طوسون ففرح وأمر عساكره فزحفوا الى ناحية (قنفده) وحاربوا عليها أياما كثيرة حتى فتحوها واستولوا عليها ووصلت الاخبار الى دار السلطنة بوقوع الشريف غالب فى أسر المصريين فحضر منها قاصد يخبر بوجوب جمع ماأخذ من الشريف ورده اليه من متاع ومال وذخائر وكان محمد على باشا قد أرسل الى دار السلطنة من ذخائر الشريف مسبحتين من لؤلؤ فاستحضرهما معه ذلك القاصد وردهما للشريف فلما كان يوم السبت تاسع عشرى شعبان سنة تسع وعشرين أنزلوا الشريف غالب الى بولاق بنسائه وأولاده وغلمانه وعبيده فسافروا مع القاصد الى دمياط ومنها الى سلانيك وأرسل محمد على باشا فى طلب الشريف عبد الله بن سرور الى الديار الحجازية وكانوا قد شددوا فى الحجر والتضييق عليه وكان لما حضر الى مصر وأقام محجورا عليه أياما رأى كتخدا بيك عدم المانع من اخلاء سبيله يغدو ويروح فى الشوارع وعند المعارف والاحباب واستمر على هذا الحال شهرا ثم زينت له نفسه الفرار فاختفى أياما فأزعج كتخدا بيك فراره واستحضر سائر مشايخ الحارات وشدد عليهم فى احضاره وبث العيون والارصاد واهتم لهذا الامر جدا فلما كانت ليلة السبت ثامن عشرى رجب سنة تسع وعشرين حضروا به فى وقت الغروب الى بيت السيد المحروقى فسلمه الى كتخدا بيك وكانوا قد عثروا عليه بحلوان فضيق عليه هو وعمه من ذلك الوقت ومنع من خروجهما حتى سافر الشريف غالب الى سلانيك وسافر عبد الله المذكور الى الديار الحجازية

ورأى محمد على باشا أنه لابد من مصالحة الاشراف واسترضائهم كى تنحسم أسباب الخصام وتبطل الحرب بعد أن طالت أيامها وملت منها نفوس الجند فجعل يعمل ويدبر حتى استمال الشريف راجح وتودد اليه وأظهر له غاية الاخلاص وأمده بالمال وأجزل له العطاء فكانت مصالحته سببا فى ظفر جيوش الامير طوسون وفوزهم وارتفاع كلمة محمد على باشا وقد دانت اليه الامور وتم له المأمول وزيادة ووصل الخبر بذلك الى دار السلطنة فجاءه فرمان السلطان باضافة الديار الحجازية الى ولاية مصر وجعلها كلها ولاية واحدة خاضعة لحكمه ففرح محمد على باشا فرحا عظيما وطير الخبر بذلك الى الآفاق وابث

بالحجاز يدبر الامر ويحسن حال جيش الامير طوسون حتى أصلح ماأراد وقفل راجعا الى مصر ودخلها فى ليلة الجمعة خامس عشرى رجب سنة ثلاثين ومائتين وألف هجرية فى قلة من الخدم والاتباع وبعض الجند فتسابق الناس الى رفع التقادم والهدايا اليه وقد احتجب عن الخروج أياما ثم خرج وصعد الى قلعة الجبل وأخذ فى اعداد مالزم لعساكر الامير طوسون وأكثر من جمع الجند وآلات الحرب وبالغ فى ذلك كثيرا والناس فى ريب وحيرة لايدرون ماسيكون من وراء هذا الاهتمام وعمد الى تنظيم هيئة الجندية وتنسيقها على نسق عسكر الفرنسيس فشاور مقدمى الجند فى ذلك وجعل يستميلهم الى رأيه فلم يقبلوا فأمر بعسكر ولده اسمعيل وكلهم من المرتزقة فاجتمعوا بظاهر بولاق فأوقفهم صفوفا وأعلمهم بقصده من ترتيبهم على نسق عسكر الفرنسيس فلم تعجبهم مقالته وأكبروا الامر جدا وأظهروا العصيان والخروج على كبارهم وباتوا ليلتهم تلك بين أخذ ورد وأصبحوا وقد اتفقوا على قتل محمد على باشا والغدر به ووافقهم على ذلك أيضا بعض كبارهم ۞ فلما كانت ليلة الجمعة ثامن عشرى شعبان من السنة اجتمع عند عابدين بيك جماعة من أكابر الجند فى وليمة وبينهم محو بيك وعبد الله أغا سارى جله وحسن أغا الارنجلى فتناجوا فيما يريده محمد على باشا وفيما تقرر بين الاحزاب من الغدر به فأعجبهم رأيهم واتفقوا على الركوب عليه فى تلك الليلة واغتياله قبل أن يستشعر بالامر وأن يهجموا عليه عند مطلع الفجر فى بيته الذى بالازبكية وتحالفوا على ذلك واستوثق بعضهم من بعض ثم عادوا الى ما كانوا عليه فى مجلسهم فغافلهم عابدين بيك وتركهم فى أنسهم ولهوهم وخرج متنكرا مسرعا الى محمد على باشا وأخبره بخبرهم ورجع الى أصحابه فلم يعلموا من أمره شيأ وأسرع محمد على فى الركوب فى سادس ساعة من الليل وطلب عسكر طاهر باشا فركبوا معه وقد أحاط الدار بالعسكر ثم أخلف الطريق وذهب الى ناحية البركة الناصرية ومرمى النشاب وصعد الى قلعة الجبل وتبعه من يثق به من الجند فلما قارب الفجر قام المتآمرون يريدون الهجوم على دار محمد على باشا فمانعهم المرابطون واشتد بينهم رمى البنادق فقتل منهم عدة ولم ينالوا غرضا فساروا الى ناحية قلعة الجبل وقد علموا بصعود محمد على باشا اليها واجتمعوا بالرميلة وقراميدان وتحيروا فى أمرهم واشتد غيظهم ووقفوا وهم لايدرون ماذا يفعلون ثم أجمع رأيهم على أن يتفرقوا فى المدينة وينهبوا متاع الرعية وأموالها فنزلوا من وسط قصبة رضوان على الصليبة والسروجية وجعلوا يكسرون أبواب الحوانيت المغلقة وينهبون ما فيها وقد كان الناس لما تسامعوا بالحركة أغلقوا حوانيتهم وأبواب دورهم وتركوا تجارتهم طلبا للسلامة وانضم الى الثائرين من بقى طائعا من الجند وعمت الفوضى وبادروا جميعا الى النهب والخطف وشاركهم العامة وأراذل الناس ومضوا على طريقهم الى داخل باب زويله وكسروا حوانيت السكرية وأخذوا مافيها من أموال وبضائع ومضوا فى سيرهم الى العقادين والغورية والاشرفية وسوق الصاغة ووصلت طائفة الى سوق مرجوش فكسروا

مطلب العزم على قتل محمد على باشا ونهب دكاكين تجار المدينة

أبواب الحوانيت والوكايل والخانات ونهبوا مافيها من أقمشة وغيرها ومروا بخان الخليلي وأرادوا مدّ يد النهب فثارت عليهم طائفة الاتراك الذين يتعاطون التجارة الساكنين بخان البن والنحاس وأطلقوا عليهم نارا حامية وكذلك فعل من كان منهم بباب الزهومة حتى ردوهم ومنعوهم وقام عليهم أيضا طائفة المغاربة بالفحامين وحارة الكعكيين وأطلقوا البنادق فردوهم عن تلك الناحية وأغلقوا البوابات التى على رؤس الحارات وجلس عند كل باب جماعة ومن فوقها آخرون من أهل الخطة وبأيديهم البنادق لمنع الواصل اليهم ووصلت طائفة الى خان الجزاوى فعالجوا بابه حتى كسروا الخوخة التى بالباب وعبروا الخان وكسروا حواصل التجار كافة ونهبوا ماوجدوه من الاقمشة الهندية والشامية والمقصبات وتبعهم فى ذلك الخدم والعامة وأخرجوا مافى الدكاكين والحواصل من الاموال وأنواع البضائع وكان القوى منهم يغدو على الضعيف فيأخذ مامعه و يقتل بعضهم بعضا وكسروا أبواب الحوانيت التى خارج الخان بالخطة وأخرجوا مافيها من التحف والاوانى الصينية والبلور وأنواع الزجاج وكذلك فعلوا بسوق البندقانيين وكثر خلفهم النهابون والغوغاء واستباح الناس يومئذ أموال بعضهم وكان هذا الحادث من أشد الحوادث وأنكاها بالرعية قال بعض الكتاب وقدتم هذا كله فى ظرف مدة لاتتجاوز الخمس ساعات وذلك من قبيل صلاة الجمعة الى قبيل صلاة العصر ولم تصل الجمعة فى ذلك اليوم وأغلقت المساجد بداخل المدينة وأخذ الناس حذرهم وتسلحوا وأغلقوا البوابات وسهروا الليالى وأقاموا على التحذر والتخوف * وأصبح يوم السبت تاسع عشرى شعبان موافقا لآخر يوم من شهر أبيب وقد أوفى النيل أذرعه وكان فى ذلك اليوم أيضا رؤية هلال رمضان فلم يعمل فيه شئ من المراسم المعتادة لقيام الفتنة فلما سكن الحال رسم محمد على باشا باحصاء مانهبه العسكر وتقويمه لرده لاصحابه من ماله فطلع اليه كبار العسكر يعتذرون ويتنصلون من تبعة ما فعله الجند فرسم لهم بجمع مايمكن جمعه من النهابين ففعلوا وشقوا فى وسط المدينة ونادوا بالامان فلم تطمئن خواطر الرعية ونزل كتخدا بيك وجلس عند جامع الغورية ورسم لاهل الاسواق بفتح حوانيتهم وأن يجلسوا فيها على عادتهم ففعلوا على تخوف وأخذ محمد على باشا يتدبر فى أمر أولئك العسكر ويعمل على تمزيق شملهم فاستعمل مع بعض كبارهم المسايرة وقربهم من مجلسه وتزلف اليهم جهد الاستطاعة وأجزل لهم العطاء ورفعهم الى الرتب السامية ولم يعجل فى عمله بل لازم التأنى والصبر * فلما كان شهر ربيع الآخر من سنة احدى وثلاثين أمر أولاده بالخروج بمن معهم من العساكر والاجناد الى ظاهر المدينة والاقامة على أهبة السفر وأسرّ اليهم مافى ضميره من قتل كبار الفتنة وزعماء هاته العصابة وخاطب أمراء العسكر فى الخروج فخرجوا وعسكروا بظاهر المدينة وأصحب مع ولده الامير طوسون رجلا من خواصه اسمه أحمد أغا المنجورجى المدللى ووكل الى الامير طوسون تدبير أمر قتل القوم فأخذ الامير طوسون فى التدبير وعمل الحيلة وبدأ بعمو بيك

وهو أعظمهم قدرا وأكثرهم جندا وأخذ فى استمالة عسكره وابعادهم عنه وما زال حتى لم يبق مع محو بيك الا القليل فلما تمكن من ذلك وصار قتله أمرا مقضيا أرسل اليه يدعوه لمشورة فعلم أحمد أغا المنجورجى بما وراء ذلك فذهب اليه وأسر اليه بما يراد به فعله وأشار عليه بعدم الذهاب فركب محو بيك من فوره وذهب الى كبار الدلاة مستجيرا فشفعوا فيه عند محمد على باشا وقد علم محمد على بما فعله أحمد أغا فأمر به فقتلوه عند باب زويلة وتركوا جثته ملقاة يوما كاملا وتحرز كبار الجند وداخلهم الخوف والقلق وأخذتهم الطيرة فأقام الامير طوسون بعسكره أياما حتى رسم له أبوه بالرجوع الى الحجاز فعاد اليها بعسكره وسيرالى الشريف عبدالله بن مسعود الذى تولى زعامة الوهابيين بعد موت أبيه من يخابره فى الصلح وطالت المخابرة بينهما الى أن تقررت القاعدة على مايجب ان يحضر جماعة من الوهابيين نحو العشرين وأقاموا عند الامير طوسون رهائن على تنفيذ عقد الصلح وحضر منهم اثنان الى مصر وأبلغا محمد على باشا ماتقرر بينهم وبين الامير طوسون ثم رجعا * فلما كان اليوم الاول من ذى القعدة من السنة أى سنة احدى وثلاثين وصل الامير طوسون الى السويس وأتى الى القاهرة فزينوا لقدومه المدينة وعملوا له موكبا حافلا فدخل من باب النصر وعلى رأسه الطبلخان وشعار الوزارة وطلع الى قلعة الجبل وأقام بها الى ليلة الجمعة خامس عشره ثم سافر الى الاسكندرية حيث كان أبوه ينتظره ثم عاد الى مصر وقد ولاه أبوه قيادة الجند الاتراك والدلاة وأطلق له التصرف فى تدبيرهم * وكان محمد على باشا فى خلال هذه المحن والخطوب مثابرا على مساحة الاراضى وضبط الرزق والاحباس وتعميم الفلاحة وانشاء الترع والجسور واحداث المعامل النافعة وغرس الاشجار الكبيرة وتنظيم الطرقات وتأسيس المدارس واحياء العلوم على اختلافها ولا سيما الطب والهندسة والفلك وعمل السفن والمعاقل والحصون وقد بذل النفيس فى اعادة السدّ الممتد الموصل الى الاسكندرية وهو سد أبى قير فقد كان اتسع أمره وتخرب وزحف منه الماء الملح وأتلف الكثير من الاراضى وأغرق القرى وخرب المدن والمزارع وتعطلت بسببه الطرق والمسالك وعجزت الدول فى أمره ولم يزل يتزايد فى التهور وزحف المياه المالحة على الاراضى حتى دخلت الى خليج الاشرفية الذى تملأ منه صهاريج الاسكندرية المعروف الآن بترعة المحمودية فلما اعتنى محمد على باشا بتشييد الاسكندرية وتعمير أبراجها وحصونها ومعاقلها وأنزل بها العمارات اعتنى أيضا بأمر السد المذكور وأرسل اليه المباشرين والقوّام والعمال والفعلة والنجارين والبنائين والاخشاب وآلات الحديد والاحجار والمؤن حتى تممه وكان له عناية لم تكن لغيره من ملوك هذه الازمان وقيد به بعض المهندسين والعمال ومازالوا به الى هذا الحين.

مطلب موت الامير طوسون وقيام الامير ابراهيم بقتال أهل الحجاز بعده

واتفق أن ظهر الطاعون بمصر فى هذه السنة أى سنة احدى وثلاثين واشتد وكثر الموت فى الناس وكان الامير طوسون قد ذهب الى رشيد وعاد منها الى قصره فى برنبال

ففى ليـلة وصوله الى القصر أصابه الطاعون فتمامل نحو العشر ساعات ومات ليـلة الاحـد سابع شهر ذى القعدة من السـنة فكفنوه ووضعوه داخل صـندوق ووصلوا به فى سفينة منتصف ليلة الاربعاء عاشره وكان أبوه بالجيزة فلم يتجاسروا على اخباره فذهب اليـه أحـد أغا أخو كتخدا بيك فلما عـلم بوصوله ليلا استنكر حضوره فى ذلك الوقت فسأله عن سبب حضوره وعن ولده الامير طوسون فقال انه حضر متوعكا الى شبرا فركب فى الحال محمد على باشا طرادة وانحدر الى شبرا وصعد الى القصر وصار يمـر بالمخادع ويقول أين هو أين هو فلم يقدر أحـد على اخباره بالخـبر وكانوا قد ذهبوا به وهو فى السفينة الى بولاق ورسوا عنـد الترسخانة وأقبـل كتخدا ابيك على محمد على باشا فرآه يبكى فانزعج انزعاجا شـديدا وكاد يقع مغشيا عليـه ونزل سـفينة وأتى الى بولاق آخر الليل ولازم النعش وهو يبكى بـكاء مرا فلما أصبحوا ساروا بالنعش فى مشـهد حافل للغاية وصـلوا عليه بجامع المؤمنين ثم ذهبوا به الى المدفن الذى أعده أبوه لموتاه وكان محمد على باشا يسير بجـانب النعش وعيناه شاخصتان اليه والدموع تنحدر على خديه ولحيته ولم يخبروا والدته بموته الا بعد دفنه فوجدت عليه وجدا عظيما ولازم أهل المدينة الحداد أربعين يوما و جلسوا للعزاء عند قبره ومات وهو فى مقتبل الشباب لم يبلغ العشرين وكان أبيض جسيما بطلا شجاعا جـوادا كريما يحب المصريين وله هيبة فى قلوب العسكر زائدة وكان محبوبا عند الناس فكانوا يرجون ولايته بعد أبيه ويأبى الله الاما يريد وطار خبر موته الى الآفاق وشاع بين الوهابيين ففرحوا وعادوا الى الخـروج ثانية الا القليل من كبارهـم وجاء الخبر بذلك فجهز محمد على باشا لردهم ولده الامـير ابراهيم وجيش له جيشا عظيما وعددا من مراكب الحرب والشوانى الكبيرة فسار وقاتل الشريف عبـد الله وفتح بعض المدن والبنادر وأعمل فى أهلها القتل والنهب وتغلغل فى جوف البـلاد وغاب عن أبيـه خبره فانزعج وبعث بطائفة أخرى من العسـاكر والاجناد وبالغ فى المدد برا وبحرا ثم وردت الانباء بوصول الامـير ابراهيم الى ناحيـة اسمها ﴿ المـوتان ﴾ وانه قاتل الوهابيين فيها قتالا شديدا كان له فيه الظفر وقد أسر منهـم عدة رجال وأخـذ خياما كثيرة ومدفعين وقبض على زعيم من زعمـائهم اسمـه ﴿ عتيبة ﴾ ثم سـار بعساكره الى ناحيـة الشقراء وكان بها الشريف عبد الله بن مسعود فقـاتل عليها قتالا عظيما فخرج منها الشريف هاربا الى الدرعية فتبعه العسكر وفتحوا كل ما صادفهم فى طريقهم من المدن والبنادر حتى أتوا الدرعيـة فحاصروها وقاتلوها قتالا عنيفا ومنعوا عنها الواصـل وأحاطوا بها أياما كثيرة وضيقوا عليها وشددوا * واتفق أن سار الامير ابراهيم بجماعة من عسكره الى بعض الجبال لاسـتكشاف معسكر الوهابيين وقد كان على مرحلتين من الدرعية فتغيب أياما فلما أحس المرابطون فى الدرعية بغيابه خرجوا وقاتلوا عساكره حتى أجلوهم وأخـذوا خيامهم وآلات حربهم وقتلوا منهم جماعة كثيرة واشتدوا عليهم شدة بالغة فكانت وقعة من شر الوقائع وجاء الخبر الى الامير ابراهيم فكر راجعا ولكنه لم ينل من الوهابيين فأخـذ فى تدبير جيشه وجمع

من تشرد منه وطلب من أبيه المدد فأمده بعدة عظيمة من المشاة والفرسان وعدة من مراكب الحرب فتقوى جند الامير ابراهيم فأعاد الكرة على الشريف عبد الله وأصحابه واشتد فى قتالهم فقتل الشريف جودة أصابته جراحة وهو فى ساحة القتال ناحية الدرعية وضيق على من بقى فيها حتى أخذها عنوة وقبض على الشريف عبد الله وسيره أسيرا الى مصر (قال بعض كتاب الاخبار) فلما مثل بين يدى محمد على باشا قام له اجلالا وأجلسه بجانبه ولاطفه وقال له « ماهذه المطاولة » فقال الحرب سجال قال وكيف رأيت ولدى ابراهيم قال ما قصر وبذل الهمة وقد فعلنا نحن فعله حتى كان ماقدره الله فقال سأشفع فيك عند الخليفة ان شاء الله فقال ماقدر سوف يكون * فألبسه خلعة وانصرف من عنده الى بيت اسمعيل باشا ببولاق ولبث أياما ثم سيروه الى دار الخلافة مع طائفة من الجند تخفره وأرسل الامير ابراهيم فريقا من عسكره ومقدمه خليل باشا لفتح يمن الحجاز فقاتلها قتالا عنيفا حتى تغلب عليها وفتحها عنوة فلما وصلت الاخبار بذلك الى دار السلطنة سر السلطان بذلك سرورا عظيما وأرسل الى محمد على باشا وولده الامير ابراهيم الهدايا النفيسة والتحف الغالية وخلع عليهما خلع الرضا * وحضر الى مصر من بقى من الوهابيين وسقط فى قبضة الامير ابراهيم فكانوا زهاء الاربعمائة مابين رجال ونساء وأولاد فاسكنوهم بالمكان المعروف بالقشلة بالازبكية وبينهم ابن الشريف عبد الله بن مسعود وقد كان أبوه قتل فى دار السلطنة بعد وصوله اليها بقليل فلم يحجر عليهم فعلم الناس منهم أن يمن الحجاز لم تؤخذ عنوة قالوا لانه لما مات حموده شيخها وولوا مكانه ولده أظهر الطاعة للدولة فلما سار خليل باشا لقتاله أخلى له البلد واعتزل فى حصن له ولم يخرج لدفعه ومحاربته كما فعل أبوه وترددت بينهم الرسل وما زال به خليل باشا حتى أنزله من الحصن وأتى اليه فى قلة فقبض عليه وسيره الى مصر أسيرا * وعاد الامير ابراهيم من الاقطار الحجازية فى حادى عشرى صفر سنة خمس وثلاثين ومائتين وألف عن طريق القصير ودخل القاهرة من باب النصر فى موكب حافل للغاية وعلى رأسه الطيلسان السليمى فى شعار الوزراء وصعد بالموكب الى قلعة الجبل ثم عاد الى مقره بالروضة وقد تزاحم على بابه المهنؤن ومدحه الشعراء وقدمت له الهدايا والاعلاق النفيسة وظهرت من هذا الحين كلمته واتسعت شهرته وهابه الكبراء والامراء

مطلب اصلاح ترعة الاشرفية

ونظر محمد على باشا الى مايقاسيه التجار من صعوبة نقل أرزاقهم وقلة المواصلات فرسم بتصليح الترعة الموصلة الى مدينة الاسكندرية المعروفة بالاشرفية فقيد بها العمال والمباشرين والمهندسين فأخذوا فى حفرها وتنسيقها سنة وبضع أشهر حتى تمت فى أخريات ربيع الاول سنة خمس وثلاثين وجرى فيها الماء وسارت بها المراكب الى رشيد والاسكندرية بالارزاق والبضائع والركاب وفرح الناس بها فرحا عظيما وسافر بها محمد على باشا وأعجبه وصفها وسماها فى ذلك اليوم المحمودية وهى من أجل الاعمال النافعة والمآثر الباقية الى يومنا هذا

مطلب
فتح السودان
وتدويخ أمرائه
وترتيب جيش على
نظام عسكر
الفرنسيس

ولما زالت الفتن من جوف البلاد بزوال الامراء المصريين وقطع شأفة المماليك والغوغاء من الجند والحرافيش وتذليل الوهابيين بالديار الحجازية والقبض على زعمائهم وأصحاب الكلمة فيهم وعجز من بقى منهم عن مقاومة المرابطين من العسكر المصرى عمد محمد على باشا الى فتح السودان وقوى عزمه على الاغارة عليها واستخراج كنوزها ومعادنها فاهتم اهتماما زائدا فى تجييش الجيوش واعداد المؤن وآلات الحرب وجعل ولده الامير اسمعيل مقدم هذه الغزوة وبالغ فى تجهيزه بجميع مايلزم وضم الى جيشه كثيرا من العربان فصار جيشا ضخما للغاية وسارت طلائعه فى أوائل شعبان سنة خمس وثلاثين ثم ارتحل الامير اسماعيل فى ذى القعدة من السنة وارتحل معه محمد بيك الدفتردار ليتولى قيادة الحملة الذاهبة الى الدارفور ومحو بيك وغيرهم واستقر محمد كتخدا لاظ بأصفنا التى هى اسنا لتوصيل المؤن والذخيرة ودواب الحمل وكان محمد على باشا الى هذا الحين شديد الرغبة فى انشاء جيش من أولاد الناس على نظام عسكر الفرنسيس وقد خلت البلاد من كثير من العسكر الذين ارتحلوا مع ولده الامير اسمعيل الى غزوة السودان فعمد الى تنفيذ ما فى نفسه وخاطب أهالى البلاد بأن من يشاء أن يدخل فى خدمة الدولة بصفة جندى يصرف له كذا من العلوفة وكذا من السلاح وكذا من الالبسة بشرط أن يكون فى سن الخامسة والعشرين أبيض اللون صحيح الجسم سليم البصر فليسجل اسمه فى الدفتر الذى أعد لذلك عند مشايخ البلاد وكان الناس جميعا ميالين الى مساواتهم بطوائف الجند فرارا من ايذائهم فتسابقوا الى الدخول طوعا وافتخر بعضهم على بعض بحسن القد وانتظام الهيئة وتسارعوا الى تسجيل أسمائهم فكان اذا اجتمع فى البلدة أو القرية اثنان أو ثلاثة سيروا بهم الى بنى عدى من مديرية أسيوط حيث كان محمد كتخدا لاظ أوغلى فيسلمهم الى الموكلين بتعليمهم وكان محمد على باشا قد رسم بأخذ جماعة من مماليك رجال الدولة وأرباب الوظائف فاختاروا منهم من توسموا فيه النجابة واستقدم اليهم ضابطا من عظماء الفرنسيس اسمه (الكولونيل ساف) فأخذ ساف المذكور فى تعليمهم العلوم العسكرية حتى تخرجوا ونبغوا وتولوا هم تدريب الجند وتعليمهم بحيث لم يعلم بخبرهم من أهل البلاد الا النزر اليسير وما زالوا حتى تم لهم تمرين خمسة آلاف مقاتل وكمل نظامهم على نحو ماأرادوا وفرح محمد على باشا بهم فرحا عظيما وأمر فسيروهم مع من خرج من الجند الى السودان فى شعبان سنة خمس وثلاثين فقطعوا الشلالات ومروا بشندى والمتمة وأخضعوا كل ما صادفهم فى طريقهم من القرى والبلدان وهم لايدافعون الابالامر الخفيف ثم ساروا الى سنار على البحر الازرق وراء الخرطوم فخرجت عليهم قبيلة الشايقية وقاتلتهم قتالا غير طويل حتى استأمنت فدخل العساكر سنار التى هى عاصمة الكردفان وعسكروا بها ورتبوا أمورهم ثم سار الامير اسماعيل عن سنار الى فيز وغلى فى طائفة من عسكره ليكشف حقائق تلك البقاع ويعرف مافيها من الكنوز والمعادن فاستولى على عسكره المرض وفشا فيهم الوباء وكثر الموت فمات منهم خلق كثير فارسل يطلب المدد فأتت اليه نجدة من ثلاثة

آلاف مقاتل ومقدمهم أحمد بيك الدفتردار فقويت عزيمة الامير اسمعيل وترك الدفتردار يدبر الامور فى كردفان وسار هو الى المتمة فى عسكر ثم عبر النيل الى شندى ونزل بها وكان بها سلطان اسمه (نمر) وكان عاتيا شديد البأس جبارا فاستحضره الامير اسمعيل وضرب عليه الكلاف وقرر عليه شيأ كثيرا من الذهب والرجال قيل طلب منه ملء سفينة صغيرة من الذهب وألفى مقاتل فى أجل لايتجاوز الخمسة أيام فاستعظم نمر هذا الامر وبالغ فى الشكوى والاستعطاف ومازال بالامير اسمعيل حتى رضى أن يأخذ عشرين ألف ريال عوض الذهب ثم سأله أن يمد له الاجل فغضب عند ذلك الامير اسمعيل وكان بيده شبق الدخان فضرب نمرا به على رأسه وقيل بل ضربه بمنشة على وجهه وصاح عليه ونهره فخرج نمر من عنده وهو مضمر له السوء فلما كان المساء من تلك الليلة أكثر نمر من استحضار التبن علفا للجمال ودواب الخيل والحطب لوقود العسكر وجعل يصفه صفوفا حول العسكر بعضه يتصل ببعض فكان شيأ كثيرا جدا ثم أتى الى مقر الامير اسمعيل فى سرب من العبيد يضربون الطبول وينفخون فى قرون الحيوانات كالمزامير ويرقصون فاعجب الامير اسمعيل منظرهم وطرب أصحابه منهم ومازالوا على هذا الحال الى منتصف الليل وقد اجتمعت الغوغاء وعلت الضوضاء واشتدت الطبول وعلت أصوات القرون فأمر نمر طائفة منهم فأشعلوا النار فى التبن وذلك الوقود ووقفت طائفة منهم بالسيوف والحراب تمنع الخارج فاندلع لسان اللهيب وعلا وأظلم الجو فأعملوا السيوف فى أعناق الجند فهموا بالفرار فلم يتمكنوا فاحترق من احترق ومات الامير اسمعيل بالحريق وهو بين طائفة من مماليكه وأصبحوا ولم يبق من العسكر ديار ولانفاخ نار وساق أصحاب نمر سلابهم الى شندى واتصل الخبر بالدفتردار وهو بدارفور فقام من فوره وسار الى شندى وأقسم انه ليهلك عشرين ألفا فداء لاسمعيل فلما نزل عليها لاقاه نمر باصحابه فقاتلهم بمن معه من العسكر وظفر بنمر وقتله وأعمل السيف فى أصحابه وأفحش فى القتل وأسرف فى الانتقام ولم يحنث فى يمينه فهابه الناس واتسعت شهرته الى أقاصى السودان فانكمش أصحاب الفتن وظل يدبر الامور ويأمر وينهى ويخضع الكبار من السود الى سنة أربعين ومائتين وألف هجرية حتى جاءه الامر من محمد على باشا بالتخلى عنها والانحدار الى القاهرة فانحدر وتولى مكانه رستم بيك فحذا حذوه وأكثر من الوعيد والتهديد حتى خضعت له جميع الاهالى وذانت له سائر الامور

مطلب انشاء المدارس الحربية ومعامل الاسلحة والبارود

واشتدت رغبة محمد على باشا بعد فتح السودان فى اتقان نظام عسكره على نسق عسكر الفرنسيس فأنشأ مدرسة للمشاة فى الخانقاه وأخرى للفرسان بالجيزة فى بيت مراد بيك الكبير واستحضر لهما أشهر أساتذة الفرنجة وأنشأ أيضا مدرسة لاصحاب المدافع وأسس معامل للبارود وصب المدافع وعمل البنادق وجميع آلات الحرب واحتياجات الجند على اختلافها وسلم الى الكولونيل سيف الذى هو سليمان باشا الفرنسوى زمام تدبيرها ووكل لعهدته جميع أمور الجندية وجعله رأس جميع مقدميها فبالغ سليمان باشا

ف

في تعزيزها واتقان نظامها فلم يمض عليها الا القليل حتى صارت جندا عظيما مدربا مغازيا واسع الاصابة موفقا مظفرا أينما سار * ونقل الناقلون الى السلطان خبر ما وصل اليه محمد على باشا من الشهرة والجاه بعد فتحه للاقطار السودانية فخشى السلطان عاقبة أفعال محمد على باشا وظن به السوء وجعل يراقب أحواله ولكنه كان لايقدر على أن يأتى معه أمرا لقيام الفتنة فى جميع الايالات التابعة لمملكته واشتغال عساكره بالحروب القائمة مع الاحزاب لاسيما الحرب القائمة منها مع اليونان فقد كانت من أشدها ويلا وأعظمها خرابا وأنكاها بالغالب من الفريقين والمغلوب وطالت أيامها وأريق فيها من الدماء شئ كثير للغاية فكانت كلما طالت استعرت نارها واشتد أوارها وقويت ظهور الثائرين وجاءهم المدد من أرض الله الواسعة برا وبحرا فقاتلوا قتال المستقتلين حتى أعيا السلطان أمرهم وداخل عساكره الملل وخشى عاقبة ذلك (قال أصحاب التاريخ) لما نهض اليونان الى طلب الاستقلال والخروج عن تابعية السلطنة العثمانية رأوا أن هذا الامر لايتم لهم الا ببث الحرية والمساواة بين طبقات الرعية وهذا لايتم أيضا الا بتثقيف أذهان أبنائهم بالعلوم والمعارف الصحيحة فتألب كبراؤهم وأصحاب الميسرة فيهم وسيروا أولادهم الى بلاد الفرنجة لتلقى العلوم والآداب ومعرفة عاداتهم حتى اذا عادوا الى أوطانهم بما عرفوه من معارف أولئك القوم وعاداتهم كانوا هم مقدمى الامة ورعاة حريتها ومخرجيها من مضايق الاسر والاسترقاق الى بحبوحة الحرية والمساواة فجدوا فى ذلك وأنشؤا جمعيات سرية للذب عن حقوقهم السياسية وجعلوا مقرها بلاد الروس وبلاد النمسا فعملت تلك الجمعيات وبالغت جدا وكان أهمها عملا وأشدها خطرا الجمعية المسماة هيتيرى ومعناها الجمعية الاخوية وكان مقر هذه الجمعية أولا بمدينة أودسا ثم انتقلت الى مدينة كيف وكلتاهما من أملاك الروس وبقيت تحافظ على كتمان أمرها الى سنة سبع وثلاثين ومائتين وألف هجرية ثم ظهرت نتائج أعمالها بظهور الفتنة وخروج اليونان عن طاعة السلطنة العثمانية * وكان للقيصر اسكندر الاول ابن القيصر بولس قيصر الروس يد قوية فى تعضيد تلك الجمعيات وتقوية عزائم الجنس اليونانى وتعزيز مطالبه تنكيلا بالدولة العثمانية ولكى لا تخمد نار الفتنة من جميع بلادها ولايبطل لها اضطراب فيتمكن من تنفيذ وصية بطرس الاكبر التى أوصى بها كل من يتولى ملك الروس أن يجعل القسطنطينية باب الممالك الروسية ومفتاح مغالق الديار الاوروباوية (قلت) ولما كانت هذه الوصية عند كبار السياسة الشرقية والغربية لاسيما عند كبار رجال السلطنة العثمانية بمكان وكان بقاء السلطنة المشار اليها وزوالها معقودين باطراف تلك الوصية رأيت انه لابأس بايرادها هنا كما جاءت فى ترجمة تاريخ العلامة جودت باشا ولا أعلم من أين وصلت اليه معرفتها وعهدنا بوصايا الملوك التى من هذا القبيل أن يقفل دونها جميع أبواب الوصول قال

مطلب خلود اليونان الى الثورة وطلب الاستقلال

﴿وصية بطرس قيصر الروسية﴾

(البند الاول) من اللزوم أن تقاد العساكر دائما الى الحرب وينبغي للامة الروسية أن تكون متمادية على حالة الكفاح لتكون أليفة الوغا وترك وقت لراحة العساكر أو لاجل اصلاح المالية وتوفيرها وإن كان ضروريا يلزم أن يكون تنظيم المعسكرات متعاقبا وتكون مراقبة الوقت الموافق للهجوم متصلة آنا بآن وعلى هذه الصورة ينبغي لروسيه أن تتخذ من الصلح والامان وسيلة قوية للحرب وهكذا زمن الحرب للصلح وذلك لأجل زيادة قوتها وتوسيع منافعها

(البند الثاني) في وقت الحرب ينبغي اتخاذ جميع الوسائل الممكنة لاستجلاب ضباط للجنود من بين الملل والاقوام الذين هم أكثر معلومات في أوروبا وكذلك في زمن الصلح يتعين استجلاب أرباب العلم والمعارف منهم أيضا ويلزم الاعتناء بما يجعل الامة الروسية تستفيد من منافع سائر الممالك ومحسناتها بحيث انها لا تضيع سعيا في تحصيل المحسنات المخصوصة بمملكتها

(البند الثالث) عند سنوح الفرصة ينبغي وضع اليد والمداخلة في جميع الامور والمصالح الجارية في أوروبا وفي اختلافاتها ومنازعاتها وعلى الخصوص في وقوعات ممالك المانيا الممكن الاستفادة منها بلا واسطة بسبب شدة قربها

(البند الرابع) ينبغي استعمال أصول الرشوة لاجل القاء الفساد والبغضاء والحسد دائما في داخلية ممالك «له» وتفريق كلمتهم واستمالة أعيان الامة ببذل المال واكتساب النفوذ في مجالس الحكومة حتى تتمكن من المداخلة في انتخاب الملك وبعد الحصول على انتخاب من هو من حزب روسيه من تلك الامة ينبغي حينئذ دخول عساكر روسيه الى داخل البلاد لحمايتهم والتعصب لهم باقامة العساكر المذكورة مدة مديدة هناك الى أن تحصل الفرصة لاتخاذ وسيلة تمكننا من الاقامة وعندما تظهر مخالفة في ذلك من طرف الدولة المجاورة فلاجل اخماد نار الفتنة موقتا ينبغي أن نقاسم المخالفين في ممالك «له» ثم نترقب الفرص لاسترجاع الحصص التي تكون أعطيت لهم

(البند الخامس) ينبغي الاستيلاء على بعض الجهات من ممالك أسوج بقدر الامكان ثم نسعى في اغتنام وسيلة لاستكمال الباقي منها ولا نتوصل الى ذلك الا بوجه تضطر فيه تلك الدولة الى أن تعلن الحرب على دولة الروسيه وتهاجمها والذي يلزم أولا هو أن تصرف المساعي والهمة لالقاء الفساد والنفرة دائما بين أسوج والدانمرقه بحيث أن يكون الاختلاف والمراقبة بينهم دائمين باقيين

(البند السادس) يجب على الاسرة الامبراطورية الروسية أن يتزوجوا دائما من بنات العائلة الملوكية الالمانية وذلك لتكثير روابط الزوجية والاتحاد بينهم واشتراكهم في

المنافع

المنافع اذ بهذه الصورة يمكن اجراء نفوذهم فى داخل المانيا ويربطون أيضا الممالك المذكورة لجهة منافعنا ومصالحنا

(البند السابع) ان دولة انجلترا هى الدولة الاكثر احتياجا الينا فى أمورها البحرية ولهذه الدولة فائدة عظيمة جدا أيضا فى أمر زيادة قوتنا البحرية فلذلك من الواجب ترجيح الاتفاق معها فى أمر التجارة على سائر الدول وبيع محصولات ممالكنا كالاخشاب وسائر الاشياء الى انجلترا وجلب الذهب من عندهم الى ممالكنا واستكمال أسباب الروابط والمناسبات متماديا بين تجار وملاحى الطرفين فيتوسع بهذه الوسيلة أمر التجارة وسير السفن فى ممالكنا

(البند الثامن) على الروسيين أن ينتشروا يوما فيوما شمالا فى سواحل بحر البلطيق وجنوبا فى سواحل البحر الاحمر

(البند التاسع) ينبغى التقرب بقدر الامكان من استانبول والهند وحيث انه من القضايا المسلمة أن من يحكم على استانبول يمكنه حقيقة أن يحكم على الدنيا بأسرها فلذلك من اللازم احداث المحاربات المتتابعة تارة مع الدولة العثمانية وتارة مع الدولة الايرانية وينبغى ضبط البحر الاسود شيأ فشيأ وذلك لاجل انشاء دار صناعات بحرية والاستيلاء على بحر البلطيق أيضا لانه ألزم موقع لحصول المقصود وللتعجيل بضعف بل بزوال دولة ايران لنتمكن من الوصول الى خليج البصرة وربما نتمكن من اعادة تجار الممالك الشرقية القديمة الى بلاد الشام والوصول منها الى بلاد الهند التى هى بمثابة مخزن للدنيا وبهذه الوسيلة نستغنى عن ذهب انجلترا

(البند العاشر) ينبغى الاهتمام بالحصول على الاتفاق والاتحاد مع دولة أوستريا والمحافظة على ذلك ومن اللازم التظاهر بترويج أفكار الدولة المشار اليها من جهة ما تبتغى اجراءه من النفوذ فى المستقبل فى بلاد المانيا وأما باطنها فينبغى لنا أن نسعى فى تحريك عروق حسد وعداوة سائر حكام المانيا لها وتحريك كل منهم لطلب الاستعانة والاستعداد من دولة روسيه ومن اللازم اجراء نوع من حماية الدولة المذكورة بصورة يتسنى لنا فيها الحكم على تلك الدول فى المستقبل

(البند الحادى عشر) ينبغى تحريض العائلة المالكة فى استوريا على طرد الاتراك وتبعيدهم من خطة الروم ايلى وحينما نستولى على استانبول علينا أن نسلط دول أوروبا القديمة على دولة استوريا حربا أونسكن حسدها ومراقبتها لنا باعطائها حصة صغيرة من الاماكن التى نكون قد أخذناها من قبل وبعده نسعى بنزع هذه الحصة من يدها

(البند الثانى عشر) ينبغى أن نستميل لجهتنا جميع المسيحيين الذين هم من مذهب الروم المنكرين رياسة البابا الروحية والمنتشرين فى بلاد المجر والممالك العثمانية وفى جنوبى ممالك « له » ونجعلهم أن يتخذوا دولة روسيا مرجعا ومعينا لهم ومن اللازم قبل

كل شئ احداث رياسة مذهبية حتى نتمكن من اجراء نوع نفوذ وحكومة رهبانية عليهم فنسعى بهذه الواسطة لاكتساب أصدقاء كثيرين ذوى غيرة نستعين بهم فى ولاية كل أعدائنا

(البند الثالث عشر) حين ما يصبح الاسوجيون متشتتين والايرانيون مغلوبين واللاهيون محكومين والممالك العثمانية مضبوطة أيضا حينئذ نجمع معسكراتنا فى محل واحد مع المحافظة على البحر الاسود وبحر البلطيق بقوتنا البحرية وعند ذلك نظهر أولا لدولة فرنسا كيفية مقاسمات حكومات الدنيا بأسرها بيننا ثم لدولة استوريا ويعرض ذلك على كل من الدولتين المشار اليهما كل منهما على حدة بصورة خفية جدا لقبول ذلك وحيث انه لا بد من أن احداهما تقبل بهذه الصورة فعند ذلك ينبغى مداراة واحترام كل منهما ونجعل من كان منهما قابلا بما عرضناه عليهما واسطة لتشكيل الاخرى وبذا تكون دولة روسيه حينئذ قد ضبطت جميع الممالك الشرقية ويكون مثل ذلك أعظم قطع أوروبا حديثة الدخول فى يد تصرفها فعنده يسهل علينا أن نقهر وننكل فيما بعد أىّ دولة بقيت فى الميدان من الدولتين المذكورتين

(البند الرابع عشر) على فرض المحال ان كلا من الدولتين المشار اليهما لم يقبل بما عرضته عليهما روسيه فينبغى حينئذ لروسيه أن تصرف الافكار لمراقبة ما يحدث من النزاع والخلاف بينهما فاذا وقع ذلك فلا بد أن يحصل تعب للطرفين ويشتبك هذا الامر مع الآخر وفى ذلك الوقت يجب على روسيه أن تنتظر الفرصة العظيمة وتسوق حالا معسكراتها المجتمعة أولا بأول على المانيا فتهجم على تلك الجهات ثم تخرج قسمين كليين من السفن أحدهما من بحر أزاق المملوء بالعساكر الوافرة المجتمعة من أقوام الاناضول المتنوعة والثانى من ليمان ارخانكل الكائنة فى البحر المنجمد الشمالى فتسير هذه السفن وتمر فى البحر الابيض والبحر المحيط الشمالى مع الاسطول المرتب فى البحر الاسود وبحر البلطيق وتهجم كالسيل على سواحل فرنسا وأما المانيا فانها تكون اذ ذاك مشغولة بحالها وبما ذكرنا تصبح المملكتان الواسعتان المذكورتان مغلوبتين على هذه الصورة فالقطعة التى تبقى من أوروبا قابلة للفتح والتسخير * انتهت بنصها ﴿قلت﴾ ولا يقع فى ملكه الا ما يشاء

وانتشر سر جمعية الهيتيرى المذكورة بين جميع الجنس اليونانى المقيم ببلاد الموره وغيرهما من بقية بلاد المملكة العثمانية وفشا بينهم فلم تأت سنة سبع وثلاثين ومائتين وألف هجرية حتى بلغ عدد أعضائها العاملين فيها نيفا وعشرين ألفا ممن يقدرون على حمل السلاح ولا يرهبون الموت عند الكفاح فلما ظهرت الفتنة فى يانيا وخرج واليها المسمى على باشا عن طاعة السلطان واشتغلت العساكر السلطانية بقتاله نهض أعضاء تلك الجمعية نهضة الاسد الرابض وركبوا على الجنود العثمانية المرابطة فى حصونهم وقلاعهم وأعملوا فيهم القتل واشتدت الفتنة وعمت وتمكن زعماء العصابة من الاستيلاء

على

على كثير من الحصون والقلاع وأشغل السلطان أمر هذه الفتنة واهتم لها اهتماما عظيما فلما سكنت فتنة يانيا وقتل واليها سير السلطان خورشيد باشا فى عسكر عظيم لاخضاع اليونان وارجاعهم الى الطاعة فقاتلوه قتالا عنيفا وانتصروا عليه نصرة مؤزرة فى مضيق الترمونبيل ومزقوا شمل عساكره كل ممزق وتمكنوا من اضرام النار فى جميع سفن حرب الدولة العثمانية التى كانت يومئذ راسية أمام جزيرة صاقز فمات فى الحريق زهاء ثلاثة آلاف من جند تلك السفن وكانت هذه السفن قد قاتلت على جزيرة صاقز وساموس وغيرهما واستخلصتها من أيدى أصحاب الفتنة فأفحش عسكرها فى القتل والنهب وسبى النساء والاطفال وارتكاب أنواع الفظائع والفجور فقام أصحاب الفتنة عليها ودمروها تدميرا فلما جاءت الاخبار بذلك الى دار السلطنة اضطرب السلطان وكاد يأمر بالكف عن القتال وترك الاعداء وشأنهم ولكنه خشى العار خصوصا بعد أن قام سفراء الدول فى دار السلطنة على ساق وقبحوا على الصدر الاعظم مافعله عساكر السفن الحربية من القتل والنهب والسلب وسبى النساء والاطفال فى صاقز وغيرها فعمد الى استعمال الحيلة وأخذ فى التدبير وسير الى محمد على باشا فرمان الولاية على المورة وكريد ورسم له بقتال أصحاب الفتنة وارجاعهم الى الطاعة ليشغله بهذه الحرب المستعصية عن الخروج وطلب الاستقلال بملك الديار المصرية والاقطار الحجازية وأرسل اليه خلع الرضا فأجابه محمد باشا الى ذلك وأعد للقتال زهاء السبعة عشر ألفا من المشاة المصريين وعددا من الفرسان وأصحاب المدافع وجعل مقدمهم ولده الامير ابراهيم ومعه سليمان باشا الفرنسوى فساروا الى مدينة الاسكندرية ثم ركبوا السفن وأقلعوا فى ذى القعدة سنة أربعين ومائتين وألف هجرية الى رودس فلبثوا بها أياما ثم رحل عنها الامير ابراهيم الى كريد وترك سليمان باشا فى طائفة من العسكر فلما وصل الى كريد قاتل من بها من الثائرين ثم احتلها عنوة وسار الى سواحل المورة يريد انزال جنوده بها فلم يتمكن وقاتله أصحاب الفتنة قتالا عنيفا للغاية وكان الى ذلك الحين لم يبق للدولة العثمانية من بلاد تلك السواحل سوى مدينتين مودون وكورون فسار ابراهيم باشا بعسكره الى مينا مودون وأنزلهم الى البر بعد عناء شديد وكان أصحاب الفتنة على قدم الاهبة والاستعداد للقاء العسكر المصرى بما عندهم من الرجال والذخائر والاموال وآلات الحرب التى كانت ترد اليهم من أهل البر ومحبى تحرير الأمم وفك قيود أسرهم فقد كانت تألفت فى ديار أوروبا عدة جمعيات باسم جمعيات محبى اليونان وانتظم فى عداد أعضائها كثير من الامراء والكبراء فكانوا يرسلون الى أصحاب الفتنة بالاموال وآلات الحرب والذخيرة وكان ممن انتظم فى سلكها الشاعر الفرنسوى المسمى فيكتور هوجو والناظم كازيمير دلافين فجعلا يقولان الاشعار والقصائد الحماسية فى تلك الحروب ويبالغان فى وصف مايقاسيه أهل المورة وكريد من العسف والجور فكان لقولهما وقع فى قلوب أهل النخوة والمروءة فتجرد الكثير منهم الى التطوع وبذل النفس فى عتق تلك الامة وجاءهم أيضا واشنطون

مطلب
ولاية محمد على باشا على المورة وكريد ومقاتلة من بهما من الخوارج

ابن واشنطون محرر بلاد أمريكا واللورد بيرون الشاعر الانجليزي متطوعين حبا فى تعميم الحرية وانتصارا للضعيف على القوى ففاز اليونان وتقوت عزائمهم وانتصروا على العساكر السلطانية فى عدة وقائع واستخلصوا كثيرا من القلاع والحصون التى كانت تسكنها عساكر الدولة العثمانية ولم يستقر بالامير ابراهيم فى مودون المقام حتى جاءه الخبر بمحاصرة العدو لمدينة كورون وكان بها بعض العساكر السلطانية فسير لنجدتها طائفة من عسكره وسار هو فى طائفة لحصار مدينة ناورين فنزل عليها وشدد فى حصارها وضيق ومازال بها حتى فتحها ودخلها عنوة فى سلخ شوال سنة احدى وأربعين ومائتين وألف هجرية ثم سار الى مدينة كالاماتا ففتحها أيضا ودخل مدينة تريبولتا بعد قتال وكان رشيد باشا مقدم العسكر السلطانى نازلا فى هذا الحين على مدينة يسولونجى محاصرا فاستعصى عليه الفتح وأعيته الحيل فسير الى الامير ابراهيم يستقدمه لنجدته فسار اليه فيمن معه من العسكر المصرى ونزل عليها وقاتلها قتالا شديدا وبالغ سليمان باشا الفرنسوى فى حصارها وضيق وطالت أيام الحصار لوصول المدد اليها من البحر وعدم التمكن من قطعه عنها وما زالوا بها حتى فتحوها ودخلها العسكران المصرى والعثمانى ظافرين فأعملوا فيمن وجدوه بها القتل وغنموا منها شيأ كثيرا من المؤن والذخيرة وآلات الحرب * ثم لم تستهل سنة اثنتين وأربعين ومائتين وألف هجرية حتى زحفت العساكر السلطانية على مدينة أثينا وقاتلت عليها حتى فتحتها واحتلت قلعتها الشهيرة وكان بها الامير كوشران القائد البحرى الانكليزى مقدم الجيوش اليونانية فى تلك الثورة فأعمل العسكر السلطانى السيف فيمن وجدوه بها من العسكر والمتطوعة وأفحشوا فى القتل والتخريب وبينما هم على هذا الحال والامير ابراهيم يتأهب لرد مابقى فى أيدى أصحاب الفتنة اذ مات اسكندر الاول قيصر الروس وتولى الملك بعده نيقولا الاول ثالث أولاد القيصر بولس فتجرد الى معاكسة الدولة العثمانية وطالبها بالمطالب الطويلة العريضة وهم بفتح أبواب الحرب عليها وتسيير عسكره الى بعض الايالات التابعة لها فأجابته الى ماطلب وعقدت معه معاهدة سميت بمعاهدة « آق قرمان » فكان مما جاء فيها منح الروس حق الملاحة فى البحر الاسود والعبور من البوغازين بلا معارضة ولاتفتيش على مافى سفنها وأن لاتحتل العساكر السلطانية الا قلعة بلغراد وثلاث قلاع أخرى مما هو فى حوزة الدولة العثمانية ومنح الصرب كثيرا من الامتيازات تجعلها أشبه بالمستقلة بادارة نفسها وأن يكون للدولة الروسية حق انتخاب حكام كل من القلاخ والبغدان لمدة سبع سنين ولايصح للدولة العثمانية عزلهما الا باقرار من قيصر الروس * ومع ما كان فى هذه المعاهدة من الحيف والجور بالدولة العثمانية لم تر بدا من قبولها تفاديا من فتح أبواب الحرب فى ذلك الوقت ولم يقف القيصر نقولا عند هذا الحد بل دس الى جميع الدول الكبرى بان يتوسطوا مابين السلطان وأصحاب الفتنة من اليونان فكلم سفير الانجليز الصدر الاعظم فى ذلك وبالغ فى الشكوى مما تلاقيه أهل مورة من العسكرين العثمانى والمصرى وألح فى الطلب فلم يلتفت السلطان الى ذلك وصمم على قتالهم حتى يرجعوا

الى

الى الطاعة فاتفق قيصر الروس وملكا الانجليز والفرنسيس وتعاهدوا على اكراه السلطان على منح اليونان استقلالهم الادارى وعليهم الجزية فى كل عام حسبما يقع عليه الاتفاق وتحديد تخوم الفريقين وضربوا للسلطان أجلا لايتجاوز ثلاثين يوما لا يقع فيها حرب ولا جلاد فلما علم السلطان بما فى هذا العهد غضب وأبى الا القتال حتى يرجعوا الى الطاعة وسير الى خورشيد باشا بالالحاح فى قتال الثائرين واستخلاص ما بأيديهم من القلاع والحصون ولبثت الدول الثلاثة تراقب فوات الاجل المضروب. فلما انقضت أيامه سيروا مراكب حربهم الى سواحل اليونان وكتبوا الى الامير ابراهيم بالكف عن القتال فلم يلتفت الى قولهم وقال حتى يأتى فرمان السلطان وسير الخبر بذلك الى دار السلطنة فاجتمعت سفن الاحزاب فى مينا ناورين ومنعت من خروج السفن العثمانية والمصرية وشددت فى المنع ثم لم تلبث ان أطلقت مدافعها على السفن العثمانية والمصرية وراسلت الرمى بالقنابل فاشتبك القتال بين الفريقين وحمى الوطيس وارتفع الدخان وتكاثف وأظلم الجو وانكشف عن تدمير جميع السفن العثمانية والمصرية بنيران المدافع ووصلت الاخبار بما وقع الى دار السلطنة فاضطرب السلطان وهاله هذا الامر وكتب الى جميع الايالات التابعة الى مملكته يحذرهم من مقاصد الدول عموما ودولة الروس خصوصا ويحضهم على الغزو والجهاد دفاعا عن الاسلام وأهله وأن يقوموا يدا واحدة لنصرة الدين ودفع العدو الطامع فاهتم قيصر الروس لذلك وخشى العاقبة وعجل بفتح باب الحرب على الدولة وزحف بعسكره فى صفر سنة أربع وخمسين ومائتين وألف هجرية ورأى الامير ابراهيم انه لاقبل له على قتال الاحزاب بعد حرق أعظم السفن التى كانت معه فكتب الى أبيه بما جرى فجاءه الأمر بالانسحاب بجميع عسكره والعود الى مصر فخرج بمن معه وعاد على مابقى من السفن المصرية الى مدينة الاسكندرية ثم وقع بعيد ذلك ماوقع بين الدولة العثمانية والاحزاب فعقدوا محفلا فى لندن عاصمة الانجليز ليقرروا فيه قاعدة لاستقلال اليونان وطلبوا من السلطان أن يبعث سفيرا من قبله فلم يقبل وأصر على ما فى نفسه فلم يهمهم ذلك وقرروا ما شاؤا من سلخ بلاد اليونان من تابعية الدولة فانسلخت من ذلك الحين واستقلت بحكم نفسها وتعهدت بدفع الجزية خمسمائة ألف قرش تحمل الى الخزينة السلطانية فى كل عام واشتغل السلطان بحرب الروس عن اخضاع اليونان وارجاعهم الى الطاعة وطالت أيام الحرب بين الفريقين ثم انكشفت عن هزيمة العساكر السلطانية فترددت رسل السلطان فى طلب الصلح وبعد أخذ ورد تقررت القاعدة بينهما على حصول دولة الروس على كثير من الامتيازات والحقوق واعتراف السلطان بسلخ البلاد اليونانية من مملكته ومنحها جميع الامتيازات التى تقررت فى محفل لندن عاصمة الانجليز

مطلب تنظيم العساكر السلطانية على نظام عساكر دولة الفرنسيس

وكان الى هذا الحين قد تمكن السلطان من ابادة جميع طوائف الانكشارية

وطوائف السلامدارية والعلوفه جيه وأرباح الدولة من شرهم (قال أصحاب التاريخ) لما رأى السلطان أن لاقبل لهؤلاء الاخلاط من العسكر على قتال جيوش الدول المتمدنة المنظمة لاسيما فى الحروب الاخيرة عمد الى تنظيم عسكر على نسق العسكر الاوروبي وتجرد لمعاداة كل من يخالفه فى ذلك وجمع كبار الدولة وأعيان المملكة ومقدمى جميع طوائف الانكشارية ومفتى دار السلطنة وكان ممن لايبغضون النظام الجديد فقام الصدر الاعظم بينهم خطيبا وتكلم فى أمر الانكشارية كثيرا وحض القوم على نصرة الدين بتقوية المجاهدين وترتيبهم على النظام الكافل بصد الاعداء والذب عن بيضة الاسلام فوافقوا جميعا على عمل مافيه المصلحة للامة والبلاد وحرروا محضرا بذلك وأفتى مفتى دار السلطنة بجواز العمل بما تقرر شرعا وتعزير المخالفين له ووقع على ذلك جميع مقدمى الانكشارية فلما شرعوا فى العمل وأحس طوائف الانكشارية بما وراء ذلك ندموا على مافعله كبارهم وأكثروا من التألب والاجتماع وتأهبوا للثورة والخروج كما فعلوا على عهد السلطان سليم وأخذت الوحشة بينهم وبين العسكر المنظم تكبر فلما كان شهر رمضان سنة أربعين ومائتين وألف قام جماعة منهم وجعلوا يزاحمون العسكر المنظم فى أوقات تمرينهم ويعاكسونهم فرفع كبار الجند أمر ذلك الى السلطان فأغضبه جدا ورسم بقتل كل من يبدو منه أدنى معارضة بلا معاودة فلما شاع خبر ذلك بين طوائف الانكشارية هاجوا واجتمعوا وتحالفوا على العصيان وتأهبوا للخروج فجمع السلطان العلماء والمشايخ وأخبرهم بما فعله طوائف الانكشارية فأكبروه وقبحوه وتقدموا الى السلطان فى طلب قتالهم والجهاد فيهم وأصبحوا وقد أخرج السلطان علم صاحب الشريعة المحمدية وأمر أصحاب المدافع بالخروج الى (آت ميدان) فخرجوا وأمامهم العلم المشار اليه وخرج معهم أيضا كثير من العلماء والمشايخ وطلبة العلم وكان بالميدان المذكور أصحاب الفتنة والعدد العديد من طوائف الانكشارية وهم فى ضجيج وجلبة فأحاط بهم أصحاب المدافع احاطة السوار بالمعصم وأطلقوا عليهم القنابل وراسلوا الرمى واشتدوا وأصلوهم نارا حامية فهربوا الى منازلهم يريدون النجاة فتبعهم أصحاب المدافع وصوبوا أفواه المدافع نحو المنازل واشتدوا فى الرمى عليها بالقنابل فهدمتها جميعها وأشعلت فيها النيران وارتفع لهيبها وتطاير شررها ومازالت النيران فى اشتعال حتى أبادتها وصيرتها رمادا ومات فيها جميع من كان بها من طوائف الانكشارية وبات الحال هكذا وأصبحوا وقد رسم السلطان بابطال زيهم واصطلاحاتهم وجميع مايتعلق بهم من جميع الايالات التابعة لمملكته ونودى بذلك فى الشوارع وطيروا الخبر بما جرى الى الآفاق وكتب الى جميع العمال بالقبض على كل من يجدوه منهم فيقتلونه بغير معاودة فوقع فيهم القتل فى كل فج وتتبعوهم حتى أبادوهم ولم يبق منهم الامن طال عمره فاختفى عن العيون والارصاد * وجاءت الاخبار بما وقع بطوائف الانكشارية الى محمد على باشا فعادت همته الى ما كانت عليه قبل حرب مورة من تجنيد الجنود واتقان نظام العسكر والاكثار من الآلات والكراع

وانشاء عمارة عظيمة من سفن الحرب وشوانى النقل بدل التى أحرقتها سفن الاحزاب وأقام البنايات العظيمة منازل للجند وجلب الخيل والبغال والجمال لحمل المؤن والذخيرة وغير ذلك فاتصلت أخبار هذا كله بالسلطان فحقد على محمد على باشا لما يعلمه من ميله الى الخروج ورغبته فى الاستبداد بملك الديار المصرية مع عجز السلطان عن ردة وارجاعه الى الطاعة ان هو عمد الى ذلك وجعل يراقب الامور و يتودد الى محمد على باشا بالهدايا النفيسة والتحف الجليلة * قال بعض الكتاب * وكان تأهب محمد على باشا واستعداده فى هذه المرة انما هو للزحف على الديار الشامية وضمها الى بلاده كما كانت على عهد من سبقه من الخلفاء والسلاطين وكان شديد الرغبة فى ذلك جدا فاتفق أن بعض الملتزمين من أهل مصر هربوا الى عكا ونزلوا فى جوار عبد الله باشا الجزار واليها فرارا من محمد على باشا لدين عليهم وقيل فرارا من الفرض والطلبات المتتابعة وقيل غير ذلك فأرسل محمد على باشا الى الجزار يقول له اقبض على من أتاك من أهل بلادى وردهم الىّ فانه لايصح أن تمنعهم عنى فاستعظم الجزار هذا الامر من محمد على باشا وأرسل اليه يوبخه ويشنع عليه ويقول لست خادما على بابك حتى تتصرف فى أمرى واياك أن تخاطبنى فى هذا الامر ثانيا فشق هذا الكلام على محمد على باشا وأقسم الايمان الغلاظ أن يسير عسكره الى عكا لقتال الجزار ويضم جميع البلاد الشامية الى مصر وجعل يتأهب لذلك من هذا الحين * فلما كان سادس عشرى جمادى الاولى سنة سبع وأربعين ومائتين وألف خرجت الجيوش المصرية من القاهرة تريد عكا ومقدمها الامير ابراهيم ومعه سليمان باشا الفرنسوى وكان عددها زهاء أربعة وعشرين ألفا فساروا الى الصالحية فالعريش فغزة وركب الامير ابراهيم وحاشيته السفن الى يافا فلم يدرك يافا حتى استولت عساكره على غزة ويافا بعد دفاع خفيف فسار بهم الى عكا فنزل عليها حادى عشرى جمادى الثانية وحاصرها برا وبحرا ونصب خيامه أمامها ورمى عليها بالقنابل وراسل الرمى وشدد فخرج الجزار فى عسكر عظيم وقاتلوا قتالا عنيفا فمات منهم خلق كثير وعادوا الى المدينة وجعلوا يقاتلون من وراء الاسوار وطالت الحرب واشتد الحصار ومنع الامير ابراهيم الوارد عن المدينة من البر والبحر الى سادس عشرى ذى القعدة وقيل سادس شوال ثم نادى فى عسكره بالهجوم فهجموا عليها واقتحموا أسوارها وحصونها فاستأمن من كان بها من العسكر الشامى والعثمانى فأمنهم ودخل بعسكره البلد فكاد العسكر يستبيحونها فلم يمكنهم الامير ابراهيم من ذلك وقيل أباحها ثلاثة أيام فأعمل عسكره فيمن بها السيف * فلما كان اليوم الثانى وصل الامير عباس حلمى ابن الامير طوسون فى عسكر عظيم ومعه كثير من العربان والهوارة اعانة للعسكر المصرى فسيرهم الامير ابراهيم الى حصار بعض المدن والبنادر كصور وصيدا و بيروت واشتدت عزيمة العساكر المصرية بما نالوه من النصر المتتابع وسير الامير ابراهيم الكتب الى البلاد كافة يدعوهم الى الطاعة والخروج على من عندهم من العساكر السلطانية

مطلب ما انتحله محمد على باشا من العلل لفتح باب الحرب على الشامات والتغلغل فى قلب آسيه

وكتب كذلك الى متولى بيت القدس والمفتى وقاضى القضاة به يقول

« تعلمون أن فى بيت المقدس كثيرا من الديارات والكنائس والآثار الدينية التى تحج اليها فى كل عام طوائف النصرانية واليهود وقد شكى الينا هؤلاء مما يلاقونه منكم من العنت والقسوة والغلظة عليهم والتحقير لدينهم فضلا عما أنتم فارضوه عليهم من الكلف والمغارم الفادحة غير ناظرين الا الى مافيه ارضاء أنفسكم والعمل بهواكم على أن هذه الغايات الدنيئة والفعال الرديئة لاترضاها النفوس الأبية ولا يصح السكوت عليها ولذلك أنهاكم وأحذركم من عاقبة التعرض لأولئك القوم وأسألكم أن تفسحوا لجماعة القسيسين والرهبان والشمامسة أهل ذلك البيت المقدس من جميع المذاهب قبطا كانوا أو روما أو أرمنا فى دينهم ودنياهم ولا تمنعوهم من اقامة شعائر دينهم ولا تأخذوا ممن يذهبون زائرين بحر الشريعة شيأ من الكلف والمغارم ولا تضيقوا على زائرى كنيسة القيامة ولا تلزموهم الصغار بدفع المال فان أطعتم أحسنتم لانفسكم وان خالفتم أسأتم عليها والسلام عليكم ورحمة الله

وجاءت الاخبار بذلك الى السلطان فاغتم وكاد يسقط فى أمره وكانت قد جرت عادة الباب العالى أن ينشر جدول التوجيهات والتغيرات التى تحصل فى هيئة الحكومة فى كل سنة فى اليوم الاول من العيد الاكبر فجاء فى صدر الجدول الذى نشر فى تلك السنة مامعناه قد رأينا أن لانقطع بتوجيه ولايات مصر وجدّة وكريد حتى يأتى الى بابنا العالى جواب محمد على باشا على ما أرسلناه اليه من الرسائل والفرمانات بشأن ما ارتكبه من الخروج والعصيان على خليفته وسلطانه ولزوم عدوله عن خطة الخسة والدناءة التى سار فيها هو وابراهيم ولده ورجوعه الى حد التأدب وقهره بقدر ما تصل اليه القدرة ان شاء الله * ثم رسم للوزير عثمان باشا بالخروج فى جيش عظيم لقتال الامير ابراهيم واستخلاص ما بيده من بلاد الدولة لاسيما منها مدينة عكا وقهره جهد الاستطاعة فسار الوزير وسير الكتب الى الامير ابراهيم يدعوه فيها الى طاعة خليفته وسلطانه ويحذره من عاقبة الخروج وشق عصا الطاعة فلم يلتفت الامير ابراهيم الى شئ من ذلك وترددت الرسل بين العسكرين أياما على غير طائل ثم زحف الفريقان للقتال فلما التقى الجمعان اقتتلا قتالا عنيفا فانهزم الوزير عثمان باشا بعسكره شر هزيمة وأخذتهم سيوف المصريين من كل صوب وحدب فرقت شملهم وولى من بقى منهم مدحورا فغنم المصريون ما كان فى معسكرهم من كراع ومتاع وعجل الامير ابراهيم المسير بعسكره بعد هذه النصرة الى مدينة حمص يريد حصارها والتضييق عليها وتحقق الوزير من ذلك فجعل يجمع من بقى من عسكره وسار بهم خلف العسكر المصرى يتخطف ساقه ويناوشهم القتال فوقف له العسكر المصرى وقاتلوه فهزموه ثانية وأعملوا فى جنده السيف ففروا ووصلت الاخبار عما جرى الى دار السلطنة فهال السلطان هذا الحال وأزعجه فأنفذ الى عامله على حمص بالثبات وقتال العسكر

مطلب
تسليم محمد على باشا والى حمص الى الامير ابراهيم وصدور فرمان السلطان بعزل محمد على باشا وولاية حسين باشا سر عسكر الدولة بدله

المصرى مااستطاع ووصل الامير ابراهيم بخيله ورجله الى حمص فى سابع ربيع الاوّل سنة ثمان وأربعين ومائتين فلاقاه واليها محمد باشا بعسكره واقتتل الفريقان قتالا شديدا * قال بعض الكتاب * كان هذا القتال حيلة من محمد باشا يريد بها تسليم حمص الى الامير ابراهيم وقد كان استوثق لنفسه وتعاهد مع الامير ابراهيم على مالم يصل أحد الى معرفته فلم تكن الا ساعة أو بعض ساعة حتى استسلم محمد باشا فاستلم الامير ابراهيم حمصا ورتب أمورها على ما شاء وترك طائفة من عسكره فيها وسير جيشا الى حلب فاستسلمت اليه بغير قتال فكان كلما اقترب من مدينة أو قرية سلمت اليه بغير قتال فيأخذ منها المؤن ودواب الحمل ويسير عنها الى غيرها فلما ورد الخبر بما وقع الى دار السلطنة كاد السلطان يتميز غيظا وجهز حسين باشا سر عسكر الدولة فى جيش عظيم ورسم له بالخروج الى القتال وولاه مصر وكريد والحبشة * كذا ولا أعلم ما هى ولاية الحبشة والحبشة كما هو محقق ومشهور دولة قائمة بذاتها منذ قرون وأجيال * وسلمه فرمان الولاية بيده وترجمته

من سلطان الدولة العلية العثمانية وولى نعمة المملكة العظمى الشاهانية الى فخر الامراء المعظمين وقدوة أعيان دولتنا المفخمين حسين باشا بلغه الله ما شا وأسبل عليه بساط اليمن والامان وأفاض عليه سجال العدل والاحسان وأسبغ عليه من المكارم رداء سابغا وأورده من موارد الامن شرابا سائغا سنجق التشيرمان وأمير بحرية الاناضول الموجه اليه من لدن مكارمنا المشهورة ولاية الديار المصرية والحبشة وجزيرة كريد وما يتعلق بها ـ أما بعد ـ لايخفى على من تهمه أخبار دولتنا العلية وما هى عليه مملكتنا العثمانية الشاهانية أن محمد على باشا والى الديار المصرية سابقا بعد أن كان فردا من آحاد الرعية لايعرف له حسب ولا نسب قد تدرج الى أوج المعالى وما زال حتى تولى حكومة الديار المصرية من قبل بابنا العالى فنظرنا اليه بما جبلنا عليه من كرم الطباع وعاملناه بغاية الرفق والتودد والاتضاع وكنا نظن انه يقف عند حد الشكران فلا يخالف لنا كلمة ولا يغلب على طبعه النكران وأن يقابل نعمتنا بالصدق والولاء ولكنه لدناءة أصله وخسة نفسه قد أطاع هواه فداخله الغرور والكبرياء وكفر بالنعمة وشق عصا طاعتنا وجاهر بمعاداة حكومتنا ولم يقف عند حد من اثارة الفتن وتعميم القلاقل والاحن ودس الدسائس الشيطانية بين عمال وولاة ايالاتنا الشاهانية حتى استمال اليه الكثير ممن كنا نعتمد عليهم ونركن فى جميع الامور المهمة اليهم وقد أقلق راحة أهالى البانيا والروم ايلى بشن الغارة على بلادهم والاكثار من القتل والنهب بلا موجب ولا سبب حتى كاد الخراب يتولاها وكثيرا ما ألح على مصطفى باشا بوساطة جلال بك وقاوالى مصطفى بالخروج عن طاعتنا سرا وطالما مناه بالمال والرجال ومعدات القتال فلم يفلح وهو يظن أننا عن تصرفاته هذه غافلون وعن سوء أفعاله لاهون على حالة انه لم تخف عنا خافية قط وكثيرا ما دس الى عبد الله باشا

والى عكا المخاص فى طاعتنا ووسوس اليه وسوسة الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس حتى فتنه أوكاد وأدركه لطف الله سبحانه فعاد فوقع بينهما من العداوة والشحناء ماقامت بسببه الحرب بين الفريقين وجاء ابراهيم ولد محمد على باشا الخائن المذكور فى عسكر جرار الى يافا ففتحها والى طرابلس ودمشق الشام فدخلهما ثم تقدم نحو عكا فحاصرها وقاتلها ولم يبال بما أرسلناه اليه من الرسائل المفعمة بالنصح والاسترضاء ولم يعد عن غيه وضلاله بل اندفع وراء هواه حتى استهواه ومع هذا كله فلم نعجل بمؤاخذته ولم نتسرع بمعاقبته وطاولناه حقنا للدماء ورحمة بعباد الله الذين عهدت العناية الربانية الينا رعايتهم وعسى أن يجد لنفسه من نفسه رادعا عن ركوب هذا المركب الخشن والتمادى على عدم طاعة خليفة رسول رب العالمين والرجوع الى جادة الحق بعد هذا الزيغ والضلال والمروق عن الدين ويتوب ويستغفر عما جنت يداه وقد فسحنا الى ذلك المارق الاجل عله يرتدع أما الآن وقد آن الاوان وحل القضاء الذى لا مفر له منه فلم يبق من باعث على التهاون والاغضاء ولكننا مع ذلك نعفو عمن يأتى الى بابنا طائعا لائذا مقرا بالذنب ممن شاركوه فى خيانة العصيان مكرهين ولو كانوا من ولده وأهله وعشيرته وأصحاب الوظائف السامية والمناصب العالية وكبار الجند وأفراد العسكر وغيرهم وقد أصدرنا فرماننا هذا العلى الشان بتوجيه ولاية مصر والشام وجريد والحبشة اليك مع مايتبعها ورسمنا لك بنزعها من أيدى أولئك المارقين وانا لعلى يقين بحسن خبرتك ودرايتك بجميع الامور وبسالتك فى الغزو والجهاد وبمشيئة الله تعالى وبركة رسوله المصطفى صلى الله عليه وسلم تسير بالعسكر المنصور الى حلب ثم تنحدر الى ديار مصر فتنزع جميع البلاد من أيدى أولئك الخائنين واذكر شفقتى ولا تنس عفوى عمن يتوب ويرجع الى طاعة الله وطاعة رسوله وطاعة خليفته من بعده واتق الله وأخلص النية يجعل الله لك من كل شدة مخرجا والسلام * فسار حسين باشا بعسكره وهم زهاء ستين ألفا بين فارس وراجل وتباطأ فى سيره حتى تمكن الامير ابراهيم من ترتيب عسكره على مايشاء وتأهب للقاء العسكر السلطانى وجاء الخبر بذلك الى محمد على باشا فجعل يبالغ فى التأهب والاستعداد وأيقن بان قد بلغ العظم السكين واستعصى الوئام فلم يبق الا الكفاح والجلاد حتى يحكم الله بينه وبين خليفته وهو أحكم الحاكمين * ووصلت طلائع عسكر السلطان الى مقربة من حلب فخرج للقائهم الامير ابراهيم فى عسكره وقاتلهم وصبر على قتالهم حتى ظفر بهم وبدد شملهم ثم ساق بخيله ورجله حتى دخل حلب واحتلها فتفرق من بقى من العسكر السلطانى وجاء الخبر بذلك الى حسين باشا فتقهقر بمن بقى معه وتحصن فى مضيق بيلان أهم مضايق جبال الطورس وعلم الامير ابراهيم بخبره وما هو عليه فخرج من حلب لقتاله فلما التقى الجمعان اقتتلا قتالا عنيفا وما زالا حتى تمت هزيمة العسكر السلطانى فغنم الامير ابراهيم متاعهم ودوابهم وآلات حربهم وتتبع من

مطلب هزيمة عسكر السلطان عند حلب

بقى منهم حتى نزلوا سفنهم التى كانت راسية فى مينا الاسكندرونة ووصلت الاخبار الى دار السلطنة بما حل بعسكر السلطان فحزن واغتم وعم الخبر وشاع عند سائر الدول وكانت ولاية المجر تخشى من استفحال أمر الفتنة فى إيالات الدولة العثمانية واشتغال الدولة بالحروب والخطوب المتتابعة فتطمع دولة النمسا فى ارجاع المجر الى سلطتها وتلحقها بمملكتها وكانت تلاحظ مع الحزم والتأنى الحوادث الجارية فى أوربا فأرسلت يومئذ الى محمد على باشا تتهدده بتسيير جندها مع العسكر السلطانى لقتاله ان هو لم يرجع الى الطاعة وينكف عن العصيان وجارتها فى ذلك دولة الروس وأظهرت المودة والاشفاق الى الخليفة فكتبت الى قنصلها الجنرال بديار مصر بان انسحب من الاسكندرية واقطع كل علاقة مع محمد على باشا فانسحب فلم يلتفت محمد على باشا الى شئ من ذلك البتة واشتدت رغبته فى هدم أركان الدولة العثمانية وأخذ سائر ما بيد سلطانه من الايالات وتدمير معالم الخلافة وكتب الى ولده ابراهيم بالالحاح فى القتال وأن يعجل بالفتح ما استطاع وان يتقدم بعد ذلك الى الامام ما قدر فتغلغل الامير ابراهيم فى جوف الاناضول فكتب السلطان الى الدول يخبرها بعزمه على التحالف مع قيصر الروس على الذب والدفاع ان لم تبادر الى ايقاف محمد على عند حده وترجع عساكره عن التغلغل فى جوف أملاك السلطنة العثمانية فكتبت دولتا الفرنسيس والانجليز الى محمد على باشا بذلك وحذرتاه عاقبة تعاقد السلطان مع دولة الروس وألحتا عليه بايقاف تيار هذه المحنة حتى تتقرر قاعدة الصلح على ما فيه مصلحة الطرفين ۞ وأنفذ يومئذ قيصر الروس الامير مورايف أحد كبار قومه الى محمد على باشا ليكلمه فى ذلك وسيرت معه كذلك دولة الفرنسيس الكولونيل روهابيل وكتب قنصل جنرال الفرنسيس أيضا الى الامير ابراهيم يقول ۞ كتابى اليك حرسك الله ورسل السلام يخاطبون أباك فى وضع حد لهذه القلاقل والمحن المترتبة على تلك الحرب القائمة فقد آن للباب العالى أن يطلب حقن دماء خلق الله الذين عهدت رعايتهم اليه وسيصل خليل باشا أمير سفن الحرب السلطانية رسولا الى أبيك ومعه شروط الصلح التى رضيها السلطان بناء على اشارة دولة الفرنسيس التى لم يبق فى وسعها السكوت عن هذه القلاقل التى عمت جميع المشرق أوكادت بسبب الحرب القائمة بين أبيك وسلطانه ولنا جميعا الامل بان ماجبل عليه والدك من سلامة النية وما هو موصوف به من الحزم والنظر فى عواقب الامور يكونان سببا فى قبوله الصلح وترك الخصام فيشير اليك بايقاف عسكرك عن التوغل فى قلب الشام والروم واطفاء نار الوغى حتى يأتيك الامر بما كان وما سيكون *واعلم هداك الله أنك مسؤل أمام جميع الدول العظمى عما ينجم عن تغلغل عسكرك فى داخلية البلاد والله عليم بالعاقبة فاعدل عن الحرب وانكف حتى يأتيك الخبر والسلام

مطلب
ما كتبه السلطان الى الدول من عزمه على محالفة الروس وتهديده اياهم بذلك

وكان الامير ابراهيم فى هذه الاونة ينتقل بجيوشه من مكان الى مكان يريد القسطنطينية فأرسل السلطان الى قيصر الروس يطلب منه أن يسير لصد الامير ابراهيم سفينة حربية

وخمسة آلاف من المقاتلين وعلمت دولة الفرنسيس بذلك فارسلت الى السلطان تهدده بمساعدتها للعساكر المصرية ان هو عاقد الروس على شئ من ذلك ۞ ووصل فى هذه الاثناء الجنرال مورايف رسول القيصر الى الاسكندرية وكلم محمد على باشا فى أمر الصلح فحاول محمد على باشا وطاول وأظهر الشدة وخاطب الجنرال مورايف بغلظة وحدة فغضب الجنرال مورايف وعمد الى التهديد فضرب الى محمد على باشا أجلا فخشى محمد على باشا شر العاقبة وكتب الى ولده الامير ابراهيم يقول ۞ اذا أتاك كتابى باية أرض فقف حتى يأتيك رسولى ثم أعلم مورايف بما كتبه فطير مورايف الخبر بذلك الى الآفاق ففرح السلطان ولم تتمكن دولة الروس بعد ذلك فيما وعدت به السلطان وتمكنت فى هذه الاونة من التعاقد معه على الذب والدفاع عن جميع أملاك السلطنة العثمانية واحتلال أى جهة شاءتها بخيلها ورجالها أو سفن حربها فى أى وقت شاءت وسمت هذه المعاهدة بمعاهدة ((خونكار اسكله سي)) فلما علمت الدول بخبر هذه المعاهدة امتعضت ولاسيما دولتا الفرنسيس والانجليز فسعتا جهد الاستطاعة فى ابطالها فلم تفلحا وخابت مساعيهما وخافت دولة الفرنسيس من تمكن دولة الروس من احتلال شئ من أملاك السلطنة العثمانية بسبب هذه المعاهدة فجعلت تراقب الفرص واشتدت عزيمة السلطان بهذه المعاهدة وقوى ظهره فجعل يتأهب ويستعد ويستعمل الحيلة فى اطالة الوقت بين أخذ ورد ليتمكن من لم شعث جنوده وجمع ماتفرق فى تلك الاصقاع من أعلامه ۞ واتفق أن قدمت الى دار السلطنة فى هذه الاثناء زهره هانم أرملة الامير اسمعيل ثالث أولاد محمد على باشا ابنة عارف أفندى قاضى عسكر ولاية آسيه وكان شيخ الاسلام يومئذ بدار السلطنة تريد زيارة أبيها قال بعض كتاب الاخبار ولم يكن ذهاب تلك السيدة الى دار السلطنة لمجرد محض الزيارة كما كان يظن الكثير من الناس وانما كانت رسول محمد على باشا فى التقرب من كبار السلطنة ومقدمى الدولة واستمالة أهل الحل والعقد من جماعة المابين بما لابيها من النفوذ والكلمة المسموعة فسعت وأجهدت النفس وسعى أبوها ولبثت على هذه الحال أياما لم يخف فيها على عيون السلطان من أعمالها خافية فكان السلطان فى خلال ذلك يكثر من مناجاة الدول فى أمر ارجاع محمد على باشا الى الطاعة ويستفزهم الى الاخذ بناصر الحق وازهاق الباطل فكان كلما عرضت الدول عليه رأيا حاول فيه وطاول ورد عليهم ردا جميلا وسألهم التوسع فى النصح ((قال الراوى)) كل ذلك ليتمكن من الفرص المناسبة لاغراضه وقدمت بعد قليل من الاسكندرية السفينة الحربية المسماة (النيل) لنقل الاميرة زهرة هانم فارسلت تستأذن السلطان فى ذلك فأذن لها وأهداها هدية نفيسة وأحسن الى رجال السفينة بشئ من المال للنفقة وسير معها أحمد فوزى باشا أحد رجال سفن الحرب فلما ألقت النيل مرساها وعلم محمد على باشا بمقدم فوزى باشا تغافل عنه ولم يظهر شيأ من الاهتمام به وأوعز الى حبيب أفندى أن يتلقاه ويكرم مثواه فانزله حبيب أفندى منزلا رحبا

ورتب

ورتب له المأكل والمشرب على أحسن مايكون ولبث على هذه الحال أياما لم يرفيها محمد على باشا ولاعلم من أمره شيأ حتى جاءه مرسوم السلطان بالقيام الى القاهرة والالتقاء بمحمد على باشا ومناجاته فى أمر الصلح وفى العدول عما يغضب خليفته وسلطانه وقد أبلغ السلطان رجال ديوانه الخاص خبر بعثة فوزى باشا وطلب أن يبدوا فيها رأيهم ليعمل هو به فقام برتو باشا وعارض فى ذلك كثيرا وقال ياأمير المؤمنين والله مامثل فوزى باشا فى مصر الا مثل الحمل الصغير الذى ذهب الى وكر الذئب الهرم ليعوده وهو يرجو السلامة من العطب فلا يغرنك من ذلك الشيخ نعومة كلامه وبساطة أحلامه فهو ياأمير المؤمنين أكبر من كل كبيرة والرأى أن ترسل اليه صارم أفندى مهردار الخارجية فهو ابن بجدتها وأخو نجدتها فأعجب السلطان رأيه وسير فى الحال يطلب فوزى باشا وكان فوزى باشا الى هذا الحين قد اجتمع بمحمد على باشا ووقع بينهما من المحبة والمودة ماأكبر معه العود الى دار السلطنة ولكنه قام كارها ولم يستقر به فى دار السلطنة المقام حتى أرسل الى محمد على باشا يقول اياك وخفض الجناح الى من سيقدم اليك واحفظ عليك نفسك وكرامتك حتى أرجع اليك فأتفق واياك على مافيه المصلحة لبلادك انشاء الله تعالى

مطلب مقدم صارم أفندى على محمد على باشا ليخابره فى الصلح

ووصل صارم أفندى الى القاهرة مع بعض الخدم والاتباع فاكرم محمد على باشا وفادته وبالغ فى الحفاوة به وأنزله منزلا عظيما فجعل صارم أفندى يغدو ويروح الى مقر محمد على باشا ويكلمه فى الرجوع الى طاعة سلطانه ومحمد على باشا تارة يظهر اللين وأخرى يظهر الشدة وآونة يشكو مما يلاقيه من أفاعيل أهل الحل والعقد بدار السلطنة وأخرى يظهر الصبر والتجلد فسأله صارم أفندى يوما قائلا أما آن لك أن تخلص النية وتمثل بين يدى خليفتك وسلطانك فتتعاقد معه على ما ترضيانه فاعتذر محمد على باشا وقال نفعل ان شاء الله اذا آذنت الفرص * قال الراوى لهذا الخبر ويعجبنى من محمد على ماقاله يوما لاحد كبار الاجانب وكان من أصدقائه هلاعلمت بخبر جنون القيصر نقولا قيصر الروس وكانت الجرائد أذاعت هذا الخبر زورا وبهتانا فقال ذلك الصديق نعم سمعته وهو من الغرابة بمكان فقال وعندى أنه ليس فى الامر شئ من ذلك فان جلالة السلطان متبوعى الاعظم أجن بكثير من نقولا اذ هو يدعو محمد على ذلك الشيخ الذى حنكته التجارب وهذبته المحن والنوائب الى المثول بين يديه والتعاقد معه على ما فيه المصلحة قال ثم ضحك حتى كاد يستلقى على قفاه وطال مكث صارم أفندى بالقاهرة وهو ومحمد على باشا كل يوم فى أخذ ورد وقد قال يوما لمحمد على باشا سيعطيك سلطانك ولايتى مصر وجزيرة العرب لك ولذريتك من بعدك ان أنت رجعت عن قصدك وأخلصت له النية وأقلعت عن عدائه فلم يلتفت محمد على باشا الى قوله فقال ويوليك أيضا ولايتى عكا وطرابلس أوصيدا وطرابلس بشرط أن تعيد الى حكومة سلطانك سائر ماأخذته من الشام فلم يقبل وقال لابد من بقاء سائر مافتحته عساكرى فى يدى وفى يد ذريتى من بعدى فاذا تم ذلك قمت بارسال الاتاوة فى حينها الى الخزينة السلطانية ووفيت

طاعة سلطانى حقها فعاد صارم أفندى بعد أيام الى دار السلطنة ولم يمض على وصوله الا القليل حتى ورد مرسوم السلطان بالرضا عن محمد على باشا وقبول توليته الولاية العامة على ديار مصر وبلاد العرب وجعل هذه الولاية فى عقبه من بعده الارشد فالارشد مع ولاية صيدا وطرابلس بشرط قيامه بحمل الخراج الى الخزينة السلطانية فى آجاله وخفض جناح الطاعة الى متبوعه وولى أمره فى السر والعلانية * وفى بعض الروايات انه لما عاد صارم أفندى الى دار السلطنة وقد بلغ ما وقع بينه وبين محمد على باشا من الاخذ والرد رسم السلطان فى سادس عشر ذى القعدة وقيل رابع عشرى ذى الحجة سنة ثمان وأربعين ومائتين وألف هجرية بتمليك محمد على باشا ديار مصر وكريد وتولية ولده الامير ابراهيم ولاية جدة وتسليمه رياسة الحرم المكى مع ضم الشام الى مصر وجعلها ارثا لذريته من بعده قال الروى وجاء الى مصر صارم أفندى أحد قرناء السلطان يحمل قاعدة هذا الوفاق ونزل على محمد على باشا بالاسكندرية فأكرم لقاءه وأحسن مثواه وأظهر له غاية المجاملة والتلطف وقال له انما تعطى الى بلاد الشام الى طوروس كما تعطى لذريتى من بعدى قال فراجعه صارم أفندى وقال هذا يكون غير ما أذن به أمير المؤمنين والمصلحة أن تنكفوا عن اراقة دماء المسلمين ولا تحاربوا الله ورسوله وكفى ما مضى فقال محمد على باشا لا سبيل الى غير ما أقول ولا مصلحة لى الا فى الذى أنا طالبه فقال صارم أفندى والمصلحة عندى أن تمثل بين يدى سلطانك فيهون الامر وتنفرج هذه الازمة فقال نفعل ان شاء الله فعاد صارم أفندى الى دار السلطنة ولم يتم له مع محمد على باشا شئ * قال وقد كان صارم أفندى هذا يحمل معه عند ذهابه الى مصر عقد الصلح الذى كان وقع الاتفاق عليه فى بلد كوتاهيه التى هى مقر الامير ابراهيم وعساكره يومئذ * قلت * ومع بحثى عن معاهدة كوتاهيه هذه لعلى أعرف لها تفصيلا اذ هى من أهم المعلقات التاريخية لحروب محمد على باشا مع دار السلطنة فلم أجد لها أثرا ولم أقف لها على خبر فى مؤلفات أصحاب التآليف من الغربيين والشرقيين وعلى الخصوص مؤلف الشهير تيتسا الفرنسوى الذى تجرد لجمع سائر المعاهدات والعقود والرسائل التى دارت ما بين الدول كافة ودار السلطنة العثمانية غير أنى وجدت فى مؤلفه المشار اليه صحيفة ٣٥٠ ما تعريبه * ولقد طالما زعم مؤرخو الغرب أن الخلاف الذى وقع بين الباب العالى ومحمد على باشا صاحب مصر انتهى بعقد المعاهدة التى سميت باسم كوتاهيه وهى المدينة الكائنة بآسيه الصغرى وعندى أن لا أثر البتة لهذه المعاهدة ولم تحصل مطلقا غاية ما وقع أن السلطان أرسل الى محمد على باشا بعض الفرمانات والخطوط الهمايونية فعلم منها محمد على باشا مقاصد الباب وبيان ما يريد السلطان منحه اياه من البلاد والامتيازات الاخرى التى اقتضاها يومئذ الحال قال ثم بعد أن تبادل الفريقان الاخذ والرد انحسمت الاسباب ووقعت الهدنة بين الفريقين حينا من الدهر انتهى * وأرسل محمد على باشا من فوره الى دار السلطنة بعد قيام صارم أفندى يقول

مطلب
عقد المجلس الشرعى بدار السلطنة والحكم بعصاوة محمد على باشا وولده ابراهيم ثم الحكم عليهما بالتجريد والقصاص بالموت

ليس فيما رسم به السلطان شئ مما وقع الاتفاق عليه مع مبعوث الباب وانه يبقى الحالة الراهنة على ما هى عليه من عدم قبول شئ من ذلك البتة وسير الى ولده الامير ابراهيم بالتأهب والاستعداد الى اصلاء نار الحرب ثانيا وعدم الوقوف عند حد * ووصلت الاخبار بذلك الى دار السلطنة فأعظم السلطان الامر وأكبره ورسم بعقد مجلس شرعى لينظر فى أمر عصيان محمد على باشا وولده ويحكم بالجهاد فيهما فانعقد المجلس فى سادس عشر ذى القعدة وقيل رابع عشرى الشهر المذكور سنة ثمان وأربعين ومائتين وألف فحضر فيه ثلاثة من المفتين وأربعة عشر من قضاة العسكر واثنا عشر قاضيا وتسعة من أئمة السراى السلطانية والمدارس الشاهانية وشيخا جامع آيا صوفيا وجامع السلطان أحمد فلما اجتمع عقد نظامهم رسم السلطان بتوجيه الاسئلة الآتية اليه

ما الذى جاء به الشرع الشريف من الامر بطاعة أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين

الجواب عن ذلك * قد فرضت له الطاعة والوقوف عند حد أوامره بجهد الاستطاعة

ما الذى جاء به الشرع الشريف فى عقاب العامل المارق عن طاعة خليفته وسلطانه الذى أحسن اليه وأتم نعمته عليه فطغى وتجبر ودس الدسائس وأقام الاحقاد وأيقظ الفتنة الراقدة وعمل على تمزيق ملك سلطانه فركب متن الجور والعسف وأراق الدماء هدرا وخرب ديار المسلمين ولم يرض بالطاعة للدين ولا العمل بسنة سيد المرسلين

الجواب عن ذلك . يجرد من سائر رتبه ووظائفه ولا يعهد اليه بأمر من أمور المسلمين ثم يقتل وتلقى جثته لوحوش البرية أو الى طيور الفلاة وهذا جزاؤه فى الدنيا وفى الآخرة الخزى والنار الآكلة

هل يكون الخليفة مسؤلا بدم ذلك المارق أمام الله والناس

الجواب عن ذلك * لاجناح عليه ولا تثريب فانه قد قام بما فرضه الشرع الشريف وجاءت به أحكام الدين المنيف

ثم اختلى القوم ساعة وأصدروا الحكم الآتى

بسم الله الرحمن الرحيم * الحمد لله وحده * حيث ثبت خروج محمد على وولده ابراهيم عن طاعة سلطانهما حق العقاب عليهما كما حق على سائر من حذا حذوهما فى شق عصا طاعة أمير المؤمنين وخليفة رسول رب العالمين وبذلك قد قضى الشرع الشريف أولا بتجريد محمد على وولده ابراهيم من جميع الرتب والمناصب الديوانية وألقاب الشرف الممنوحة لهما من لدن أمير المؤمنين ثم بقصاصهما قتلا مع سائر من شاركهما فى هذا العصيان والخروج عن طاعة السلطان اه

وجاء الخبر الى محمد على باشا بما جرى فى دار السلطنة فلم يحفل به ولم يلتفت اليه وسير

الكتب الى ولده ابراهيم بالاكثار من الحصون والقلاع على خط جبال الطورس التى هى مفتاح الشامات من جهة آسيه وامتنع من حمل الخراج الى الخزينة السلطانية وشدد فى تعبية الجيوش واعداد المعدات وسير كثيرا من قطع السفن الكبار مشحونة بالمؤن والذخيرة الى ولده فسعى سفراء السلطان لدى الدول الكبرى فى وساطتهن فى الامر والعمل على ايقاف محمد على باشا عند حده وكانت دول أوروبا تعرف انه اذا اشتدت نار الوغى بين محمد على باشا وسلطانه وتم لمحمد على باشا مايتمناه من تغلغل عسكره فى داخلية آسيه وضم أكثر بلدانها الى مملكته التى يريد الاستقلال بها و جعل قاعدتها على ضفاف النيل عمدت دولة الروس الى العمل بمقتضى معاهدة خنكارا سكله سى فتنشب أظفارها فى جوف المملكة العثمانية وتنال منها غنما فيستعصى على الدول ارجاع الشئ الى أصله والله يعلم بما سيكون من وراء ذلك * فكتبت دولة الفرنسيس على يدى البارون روسين متولى أعمال خارجيتها الى محمد على باشا تقول قد آن للسلطان أن يعدل عن تلك الحرب المشؤمة بعد أن عرف قدرك وتحقق أن لاقبل لعسكره على لقاء عسكرك المنصور بحسن قيادة ولدك وقد عاد عما تعاقد عليه مع قيصر الروس وقد سير اليه بايقاف ارسال تلك النجدة التى كان يطلبها القتال ولدك وود لو لم يكن قد تسرع فى الامر ولكن القيصر لم يلتفت الى شئ من ذلك ورسم فأتت الى بوغاز القسطنطينية سفينة من أكبر سفن الحرب الروسية فألقت مرساها والله سبحانه يعلم بما سيكون من وراء حضورها ان أنت أبيت الصلح وصممت على القتال فاحذر التطويل وأقلع عن التسويف والتعليل ولا تفتح لخصوم الدولة بابا يلجؤنه للاضرار بها وأنت هداك الله شريك لسلطانك فى السراء والضراء وسيقدم عليك خليل باشا مبعوثا من قبل السلطان ومعه شروط الصلح التى تقررت قاعدتها فلا تأباها عليه ولا تشط فى الطلب فتدفع بدولة الروس الى ابتلاع مملكة سلطانك واذكر أنك ان عاقدت سلطانك على الصلح حقنت دماء قومك وعملت مافيه المصلحة لبلادك فعجل بتسيير رسلك الى ولدك بالكف عن القتال واقبل من سلطانك ماتنازل لك عنه فقد عفا عنك وولاك حكم عكا وجميع أراضى بيت المقدس والشام ونابلس واياك والطمع فانه يجلب عليك وعلى بلادك وبالا ونكالا واعلم أن دولة الفرنسيس التى هذبت رجالك وعلمت فنون الحرب لابطالك هى التى أشارت بعقد رباط هذا الصلح ورضيت عن القاعدة الواصلة اليك وأرسلتنى الى دار السلطنة لهذه الغاية فلا تأبى الكرامة ولا تطع هوى النفس وسيصل الى مقرك السامى كتابى هذا على يد كبير تشريفات ديوانى فأكرم وفادته كما عودتنا الجميل والسلام

وأرسلت كذلك دولتا النمسا والانجليز الى محمد على باشا على يدى قنصليهما تهددانه بأشد مايكون من التهديد ان هو لم يقف عند حد الطاعة لسلطانه وأرسلت اليه دولة الروس تقول أيضا ان لم تعدل عن غيك وتنكف عن عدائك وترجع الى طاعة سلطانك

عملت بمقتضى ما بينى وبين سلطانك من العهد وفعلت ما تسوّلك عقباه ومالم تطق عليه صبرا اذا لم تعجل دولتا الفرنسيس والانجليز بحصر سائر السواحل المصرية والشامية بسفن حربهما وتضيقا عليها تضييقا ثم واياك والشطط فى دعواك بعد الذى تنازل لك عنه خليفتك فالله الله فى نفسك وأهلك وولدك والسلام

مطلب ما كتبه محمد على باشا الى صاحب سياسة الفرنسيس

فكتب محمد على باشا الى صاحب سياسة الفرنسيس يقول ﴿ أما بعد فقد وافانى كتابك الشريف على يدى كبير تشريفات مقرك المنيف وقد ذكرت فيه انه بمقتضى قاعدة الاتفاق التى قررتموها لم يبق لى حق فى شئ من البلاد الشامية سوى حكم ولاية عكا وطرابلس الشام وبيت المقدس ونابلس وبعض مدن أخرى أجهل ويعلم الله من ذكرها وانه يلزمنى بعد ذلك استرجاع جميع جنودى من بلاد الاناضول والمبادرة الى عقد رباط الصلح مع سلطانى فاذا أبيت ذلك قامت دولة الفرنسيس بخيلها ورجلها لتذيقنى وجميع أهل بلادى مر النكال ﴿ أعاذنا الله معاشر المصريين من ذلك ولقد بلغنى رسولك هداه الله أنى ان لم أبادر الى قبول تلك الشروط الجائرة وأحلها محل السمع والطاعة سيرت الىّ دولتا الفرنسيس والانجليز سفن الحرب والشوانى الكبار مشحونة بالرجال لتكرهنى على الطاعة والتسليم * فقل لى بحقك كيف جاز لكم اكراهى وأى شرع من شرائع الأمم المتمدنة أحل لكم هذه الفعال أوترضى أمة الفرنسيس أم التمدن ومهد الحرية والتفنن أن أترك بلادا فتحتها بالسيف والجهاد والكفاح والجلاد قضية مسلمة اعلم أن قومى وسائر أهل بلادى هم طوع أمرى واقفون عند حد اشارتى فلا شئ عندى أقرب من أن أقود بنفسى جيوشى تلك المظفرة وأسير بها لفتح جميع بلاد الاناضول والروم ايلى وأبذل النفس والنفيس فى ضم كل ما استطعت ضمه الى مملكتى ما دام فىّ قطرة من دم وثق بأنى قد وطنت النفس على ذلك فلا حول لى عنه ولا مندوحة منه وانى لأعجب كيف تشدد علىّ النكير وتكرهنى على ترك بلاد قد حكمتها بالفتح والغزو وتكبدت فى فتحها جيوشى أصعب المصاعب وأتعب المتاعب وأريقت فيها الدماء الكثيرة وضاعت الخزائن الوفيرة وعلم أهل المعمور شرقا وغربا شهامة رجالى وبسالة أبطالى ونبالة مقصدى واستبشر الناس طرا بأنى سأوفق ان شاء الله تعالى الى فتح جميع بلاد الدولة العثمانية وأنال منها قبل أن تنال دولة الروس وهل يجمل بك أن تشير بتركى مصر والاستعاضة عنها وأنت تعلم أنها لاتفارقنى أبدا ولا أفارقها الا بمفارقة الروح للجسد فافقه ياهداك الله واعدل ولا تكن من المجحفين واذكر أن المروءة لاترضى بذلّ من وطن النفس على القيام بخدمة الشرق عموما ودولة آل عثمان خصوصا والسلام

(قال بعض الكتاب) ثم لم ير محمد على باشا بعد كل هذا التهديد والوعيد بدا من العدول عن طلب الاستقلال التام بحكم ما بيده من ديار مصر والشام الى طلب الولاية بالتوريث فى عقبه من بعده وأن يكون حكمه فى ذلك كحكم ولاة بغداد وعلى باشا والى يانيا وسير الكتب الى سفراء الدول وكان سفير الفرنسيس فى ذلك طويلا فلما لم يرمنهم أذنا صاغية عمد الى

مطلب
ما كتبه محمد على باشا يهدد به الدول

التهديد * وكتب اليهم ثانية يقول كتابى اليكم يا أنصار الانسانية وعهدى بكم الوفاء وحسن الاخلاص والولاء وانى والله لا أدرى ما علة هذا الجفاء مهلا مهلا ما بالكم تجافيتم بعد ذلك العطف والتلطف فان كنتم ترون فى طلبى الاستقلال بملك ما فى يدى شططا وغنما لا تحمد عقباه فقد عدلت عنه الى طلب الولاية وجعلها ميراثا بعدى الى ولدى ولا اخالكم تنكرون علىّ ذلك أيضا بعد الذى تحققتموه من أمرى فان شئتم فعلتم ذلك والا فدون استسلامى الى سلطانى على يدكم خرط القتاد ولا لوم علىّ ولا تثريب اذا جاهرت بالذى أبتغيه وحافظت على ما بيدى من البلاد بحد السيف فقد عشت طويلا ورأيت كثيرا وخير الشيخ مثلى أن يموت عزيزا موقرا من أن يموت حقيرا مرذولا وكيف ذلك وأنا لم أطلب شيأ يتعدى مصلحة أوروبا السياسية ولم أسأل ما هو من العنت والخيلاء فى شئ فما لكم تراوغوننى مراوغة ما أنزل الله بها من سلطان أتكونى على غير دين المسيحية لا أظن ذلك و يعلم الله فان المروءة والشهامة تأبيان الاضرار بمن لا يسعى الا الى غاية شريفة ومستقبل شريف لذريته من بعده ولقد أكثرت من الشكوى ولم أخف عنكم ما وطنت النفس على عمله فلم يبق الا أن أقول علانية انى عاهدت النفس أخيرا على الخوض فى معامع الحرب والجلاد حتى الموت فان فازت الدول بالانتصار وألحقت بى و بعسكرى البوار فهذا لا يزيدها شرفا ولا يكسبها غنما اذ أنها أكبر من ذلك كثيرا وان أتاح الله سبحانه لى الظفر ووفقنى الى سبل الغلبة والنصر أريت الدول عاقبة هذا الامر وأنبأتها بما لم تطق عليه الصبر وكم فئة صغيرة غلبت فئة كبيرة باذن الله والسلام

مطلب
احتفال السلطان بزفاف ابنته زليخا سلطانه وهدية محمد على باشا

واتفق فى غضون هذه الحوادث أن احتفل السلطان بزفاف ابنته زليخا سلطانه على خليل باشا أحد كبار رجال الدولة فعمل لذلك الافراح والولائم وأمت اليه هدايا الملوك والسلاطين والولاة من كل صوب وحدب فأرسل اليه كذلك محمد على باشا شيأ كثيرا من الاعلاق النفيسة والتحف الثمينة والجواهر النادرة المثال فلم يكن احتفال السلطان بها الا كاحتفال الدائن يأخذ ماله فى ذمة مدينه ولم يرد على محمد على باشا ردا جميلا فامتعض محمد على باشا من ذلك وعاد الى الشكوى من فعال الدول ووقوفهم فى وجهه فكلم وكلاء الدول السلطان فى وضع حد لهذا النزاع والخصام يكون من ورائه فصل الخطاب والكف عن اراقة تلك الدماء هدرا فأجابهم بأحسن جواب وأخذ على نفسه هذا العمل وهجر سرايه المعروفة بسراى استافروى فرارا من الطاعون الذى دخلها بالعدوى من بعض الشيلان الكاشميرية التى جاءته هدية من قاضى القضاة بمصر ومنع رجال دولته من التداخل فى أمر حل هذه المشاكل ولم يشرك معه فى حلها سوى سعيد بيك كاتم أسراره الاول وواصف أفندى كاتم أسراره الثانى وجعلت رسله تتردد على مقر سفير الفرنسيس وطال الاخذ والرد فى تقرير قاعدة لتنازل السلطان عن ولاية مصر وتركها الى محمد على باشا ثم الى ذريته من بعده ميراثا للارشد فالارشد وعن ولاية الشامات مقيدة

ببعض القيود اللازمة لحفظ حقوق المتبوع على التابع وألح سفير دولة الفرنسيس فى ذلك وأكثر من التشديد فلم يفلح ﴿ وكتب محمد على باشا الى ولده الامير ابراهيم يأمره بالتأهب والاستعداد لاصلاء نار الحرب فى الاقرب العاجل فجعل الامير ابراهيم يتأهب وقد بالغ فى ذلك ففرض على أهل الشام الفرض الفادحة وضرب الجزية على أهل حوران ولبنان وقد أحس منهم بالشر والخروج عن الطاعة فالزمهم الصغار واشتد فى تذليلهم وعمت الجزية سائر أهل تلك الاصقاع وقد كان عمال السلطان قبلا لايفرضونها الا على اليهود والنصارى دون المسلمين فعم القلق من أقرب البلاد الى أقصاها وبدت اشارات العصيان وعلم الامير ابراهيم بحضور جماعة من عيون السلطان وانهم يجوبون البلاد و يحضون الناس على الخروج واضرام نار الفتنة فبالغ فى الحيطة والتحرز وبلغ جيشه الذى جمعه فى هذا الحين زهاء ثمانية عشر ألفا ﴿ وجعل السلطان يكثر أيضا من حشد الجيوش ويعد المعدات ويرسل الجند تباعا الى حدود الشامات وقلب آسيه وسلم قيادتها الى حافظ باشا أحد كبار الحرب وعمد الى الاضرار بمحمد على باشا ماليا أيضا فعاقد دولة الانجليز على يد رشيد باشا واللورد بونسنبى على منع احتكار المحاصيل المصرية فكبر هذا الامر على محمد على باشا وكاد يسقط فى يده لحاجته الى المال لنفقة الجنود وجعل يفكر فى تجديد المخابرات مع الباب العالى مباشرة مبتعدا مااستطاع عن وساطة الدول سادا دون ذلك كل منفذ وباب ﴿ قال بعض الكتاب وكان يرى انه فى حاجة الى المال الذى هو أكبر معين على بلوغ هذه الآمال فعزم على الرحيل الى بلاد السنار فى طلب معادن الذهب حتى اذا فاز منها ببلوغ الارب أعطى ووهب وقهر وغلب وقلب الى تلك الدول ظهر المجن بعد الذى عاناه بسببهم من المكايد والمحن وقال آخرون بل كان يقصد بهذه الرحلة الطويلة تغيير مجرى الحوادث وتفريج تلك الازمة التى استحكمت حلقاتها بما كان يأتيه من التشديد والتهديد وقد كان يرى من دولتى الروس والانجليز عدوّا لدودا وخصما مشاغبا كنودا وأن رجوعه القهقرى بعد ذلك التشامخ والتعاظم يكون نقطة سوداء فى صحيفة أيامه فعمد الى تلك الرحلة وعقد النية على انه ان عاد سالما لايظهر فى ميدان ذلك المعترك بمظهر البادئ بالشر الا اذا اضطره الخصم الى القبض بكلتى يديه على حر هذا الجمر * وكان معه فى هذه الحملة كثير من العمال وأرباب الصنائع والبنائين والمهندسين وأصحاب علم طبقات الارض من الفرنسيس وغيرهم وجماعة من الكتاب القبط والملتزمين والخدم والاتباع وجاهد من مشاق الاسفار مالا يقدر عليه الا القليل فلما وصل الى سنار جاءه مشايخ القبائل وأمراء السود وبعض سلاطين ذلك الصعيد خاضعين وقدموا له الهدايا النفيسة من الذهب وكثيرا من الاماء والعبيد والخصيان وسن الفيل والريش والغطريات فأكرم لقاءهم وبالغ فى الحفاوة بهم وحادثهم فيما هم عليه ووعدهم خيرا ان هو ظفر بأمنيته من تدويخ سائر ولايات السلطنة العثمانية وتم له الاستقلال بملك سائر ما بيده من البلاد ثم بث سائر من معه من أصحاب علم طبقات الارض فى

مطلب
ضرب الجزية على
أهل حوران ولبنان

مطلب
سفر محمد على باشا
الى السودان فى طلب
معادن الذهب

أنحاء السنار يجوبون الصحارى والقفار علهم يهتدون الى شئ من معادن الذهب فلم يوفقوا الى ذلك البتة سوى ما عثروا عليه من بعض الرمال المخلوطة بالشئ اليسير من القشور الذهبية فأحزنه هذا الامر وسار عن السنار وقد ترك بها جماعة من المهندسين والعمال والكتاب وأصحاب طبقات الارض وهو على عزم أن يؤسس بها مستعمرة يسميها باسمه ووافق وصوله مدينة القاهرة يوم افتتاح سنة خمس وخمسين ومائتين وألف هجرية فعلم بخبر وصول بعض السفن العثمانية ومعها الهدايا والتعابى المعتاد ارسالها فى كل عام الى مكة والمدينة وكان الموكل بتوصيل تلك الهدايا نائب أمير سفن الحرب العثمانية فلم يحفل محمد على باشا بقدومه وأغضى عنه وكانه لا يعلم من أمره شيأ فأرسل اليه النائب يقول * أمير المؤمنين يقرئك السلام ويخصك بالتحية والاكرام ويقول عجل بحمل الخراج ولا تحدث حدثا بعد الذى علمته من اغضاء سلطانك وعفوه عما فات فلم يرد عليه أياما ثم أرسل اليه كتابا يقول فيه لست فى استعداد للقائك الآن فارحل عنا ثم عد بعد أربعة أشهر فلم يسع النائب المذكور الا العود خائبا مقهورا

مطلب انقسام رجال الدولة العثمانية وعدم اتفاقهم على استمرار القتال مع محمد على باشا

وانقسم رجال الدولة من هذا الحين الى فريقين مختلفين أحدهما يقول بلزوم الحرب واصلاء نار الوغى مع محمد على باشا حتى يرجع صاغرا وكبير هذا الحزب أحمد قبطان باشا وثانيهما يقول بلزوم التأنى وترك العجلة والاخذ باسباب المساهلة حتى تخمد نار هذه الفتنة وتعود الامور الى ما كانت عليه من المودة والصفاء بين المتبوع وتابعه ورأس هذا الحزب خسرو باشا قال بعض الكتاب وقد كان خسرو هذا من ألد أعداء محمد على باشا وأكبر خصومه وهو الذى كان واليا على ديار مصر أيام على بيك الكبير شيخ البلد ومراد بيك ووقع بينه وبين محمد على باشا من البغضاء ما قامت الحرب بسببه بين أصحابه وعسكر محمد على باشا أياما كثيرة حتى خلعه محمد على باشا وأخرجه من مصر خاسرا مقهورا وولى مكانه خورشيد باشا (كما هو مذكور فى محله من الجزء الثالث من كتابنا هذا) قال الراوى ومع ذلك فقد كان من المحقق الذى لا امراء فيه أن خسرو باشا مع قيامه بزعامة حزب السلم كان يرجو قهر أحد الفريقين المتحاربين وغلبته ويقول ان دحر محمد على وقهرته العساكر السلطانية كان ذلك غاية ما أتمنى أن يحيق به جزاء له على خلعى من ولاية مصر واخراجى منها قهرا وان ظفر محمد على بالعساكر السلطانية ومزق شمل جمعهم كان ذلك ما أرجوه كى يحيق برشيد محمد باشا وحسين باشا مقدمى العساكر السلطانية العار والشنار والخزى والبوار

مطلب خروج أهل الشام وانتشار الفتنة

وعلت فى غضون هذه الحوادث ضوضاء أهل حوران ولبنان وكثر ضجيجهم ونادوا بالخلاص من نير عبودية الامير ابراهيم وجور عسكره وقدمت رسلهم الى دار السلطنة يصيحون المدد وقد كان لما أحس أهل الشام بضعف جيوش الامير ابراهيم قاموا على عماله وخرجوا عن طاعتهم وانبثت عصا باتهم فى القرى والبلدان يدعون الناس الى

مطلب
قيام محمد على باشا الى يافا لتسكين الفتنة

شق عصا الطاعة فهموا جميعا الى الثورة فأرسل الامير ابراهيم الى أبيه بالاسكندرية يستنجده فسار محمد على باشا من فوره الى يافا ومعه الهدايا النفيسة والتحابى الفاخرة فلما ألقت سفينته مرساها طلب وجهاء البلد وأعيان القوم وكبار القبائل فحضروا اليه فأحسن لقاءهم وخلع عليهم الخلع النفيسة وأعطاهم التحابى الغالية وبالغ فى استمالتهم فمالوا اليه وعاهدوه فأرسل الى ولده يقول عجل بالخروج وقاتل ما استطعت وشرد أصحاب الفتنة وشدد عليه فى ذلك وبالغ فى توبيخه وتعزيره استرضاء لاصحاب العهد فخرج الامير ابراهيم بعسكره وحارب أصحاب الفتنة وقاتلهم قتالا عنيفا حتى دوّخهم وظفر بهم ثم ركب على نابلس وقاتل من بها فقاتلوه وصبروا على قتاله أياما كثيرة ثم عادوا فطلبوا الامان فأمنهم وركب كذلك على الكرك والسلط وأمر عسكره فهدموها ودكوا حصونها وأخضع جبال الناصرة وأرجع أهلها الى الطاعة وسير جماعة من عسكره الى اللاذقية فبينما هم فى طريقهم اذ خرج عليهم أهل الناصرة ثانية فنالوا منهم قتلا وجرحا وتشريدا فرجع من بقى الى حيث الامير ابراهيم فكبر عليه هذا الامر وأخذ فى التدبير على أهل الناصرة وعاهد الامير بشير الشهابى على الذب والدفاع فجيش الامير بشير عسكرا لقتال أهل الناصرة وقدم عليهم ولده الامير خليل وجيش كذلك الامير ابراهيم جيشا آخر وسلم قيادته الى الامير خليل فسار بهم الى الناصرة وقاتل من بها فوقعت بينهم عدة وقائع كانت الحرب فيها سجالا وما زال الامير يقاتل والمدد يأتيه تباعا حتى ظفر بأهل الناصرة وأخضعهم وقبض على كبارهم وسلمهم الى الامير ابراهيم فنكل بهم وقتلهم وبالغ فى التحذر واستئصال أسباب الفتنة فرسم بجمع ما فى أيدى الشاميين من سلاح وآلة حرب وشدد فى ذلك وتوعد وطاف القرى والبلدان ومعه جماعة من العسكر يكبسون الدور ويحفرون الفسحات ويهدمون الجدران ويخرجون ما فيها من سلاح وآلات حرب فكانت شيأ كثيرا فخافه الشاميون وانكمشوا وانمحت آثار الفتنة وخضعت جميع الشامات فلم يتركهم بل عمد الى اذلالهم وتنكيلهم ورسم بجمع كل ما قدروا على جمعه من الخيل ودواب الحمل وأدخل الشبان من أولادهم فى مصاف الجند وسيرهم الى أقصى البلاد فكان عمله هذا من أشد الضربات على الشاميين وكان كلما بدت منهم دالة التمرد أو الخروج فعل بهم كذلك فيرجعون الى الطاعة وقد تراكمت الشكاوى من ذلك على الباب العالى فأبلغ السلطان وكلاء الدول خبرها وقال لابد من خروج ابراهيم وعسكره من الشامات وجلائهم عنها بغير معاودة والا فالسيف والنار ولا هذا الخزى والعار فراجعته دولة الفرنسيس وكذلك فعلت دولة الروس آخذة فى هذه الاونة برأى كبير سياستها المسيو روبوتانوف * قال أصحاب التاريخ فقد كان هذا الرجل من فحول أصحاب السياسة ومقدمى رجال الرياسة كثير المعرفة بأحوال الدول فلما رأى من اللورد بونسنبى سفير الانجليز من المواربة والدهاء أدرك ما وراء ذلك فاستدرك الخطأ وعمد الى تغيير خطة سياسة دولته من

المكابرة والمعاندة الى المساهلة والمجاملة واتبعتــه فى ذلك أيضا دولتا روسيا والنمسا وأكثروا جميعا من الاخــذ والرد مع السلطان وهو يطاول ويحــاول ويظهــر خــلاف ما يبطن حــتى خشى حزب السلم من تفاقم الخطب واشتداد الكرب وعمد الى طلب خلع أحمد قبطان باشا مقدم حزب الحرب فــلم يفلح لمكانته وقربه من السلطان فعــدل عن ذلك الى طلب تحقيق حالة الشامات وما اذا كانت تستلزم البقاء على هذه الحرب المشؤمة التى لايعلم عاقبتها الا الله وحده وألح خسرو باشا بطلب ذلك وزين للسلطان العمل برأيه فأجابه كارها وسير سعيد باشا ناظر الحربية الى الديار الشامية وكانت العساكر السلطانية الى هذا الحين نازلة بملاطية وقد فعل فيها برد ذلك الشتاء فعله وقلت عندهم المؤن وفشت بينهم الامراض وكثر الموات وساءت حالهــم وبدت منهم اشارات الخروج وشق عصا الطاعــة فكان حافظ باشا مقــدمهــم يخشى عاقبــة ذلك وبلح عــلى الســلطان بطلب الاذن بفتح باب الحــرب والزحف بعساكره لقتال الامير ابراهيم فأجابه السلطان الى ذلك وسير اليه ثلاثة من كبار قــواد الجيوش البروسياويه وبينهــم البارون ملتكه الشــهير ليكونوا له عونا على العمــل فسار حافظ باشا بعســكره من ملاطية يريد الشامات وعبرت طائفة منهم الفرات ومقدمهــم اسمعيل باشا وسارت على أكمل ترتيب ونظام حتى اقتربت من حلب وكان الامير ابراهيم قد سار عن حلب الى حوران ليرى المزارع وغرس الاشجــار الكثيرة التى أشار بغرسها فى تلك الاصقاع فلما جاءه الخبر بوصول العساكر السلطانية أرسل الى قواد عسكره يستحثهــم على التأهب والاســتعداد وجمع اليه مشايخ قبائل وبلاد تلك الانحاء واستحلفهم على الطاعة والولاء فحلفوا له الايمــان الغلاظ وكان ممن حضر معــه فى ذلك اليوم سليمان باشا الفــرنساوى فقال له أيها الامــير خفف عنك فوالله إما أن ندخــل دار السلطنة فى هــذه المرة بعسكرنا المنصور واما أن نعود الى ديارنا مدحورين خاسرين فسرّ الامير ابراهــيم عند سماعه هــذا الكلام وقال بوركت ياسليمان والله لن يكون الا دخــولنا باذنه تعالى ظافــرين غانمين * وأحاطت العساكر السلطانيــة بالشامات ونزلت على بلادها من كل صوب وحــدب واجتمع لهم عند مدينة قونية كثير من الجند وتأهبوا للهجوم على البلاد والولوج منها الى المفاوز الموصلة الى مدينة آطنة وجاءت كتب السلطان الى عزت محمد باشا والى الجور بتجييش الجيوش واعداد المعدات مددا عند مسيس الحاجة وسار كل من والى بغداد ووالى الموصل فى عسكر عظيم مددا الى حافظ باشا قال بعض الكتاب ولم يكن سير هذين الاميرين بعسكرهما الا لامداد الامير ابراهيم ومعاونته على قتال عسكر السلطان وكان الامير ابراهيم فى خلال هذه الحركة وتعبية تلك الجيوش الجرارة ساكن القلب هادئ اللب وهو مع ذلك يعلم أن جيوش السلطان آتى جاءت لقتاله فى هذه المــرة زهاء المائة ألف وخمســين ألفا فضلا عما وصل أيضا من ســفن الحرب الكبيرة والشوانى المشحونة بالمــدافع والمقاتلين وجعل يرتب جيوشــه ويرسلها الى مواقف القتال فسارت منها طائفــة الى مرعش وأخرى من أصحاب المــدافع الى عنتاب لرد أهلها الى الطاعــة فانهــم

لما أحسوا بقرب العساكر السلطانية منهم ثاروا على عمال الامير ابراهيم وشاغبوهم وسارت طائفة أخرى من الفرسان وأصحاب المدافع الى حماة ومعهم جماعة من عربان الهنادى ومقدمهم قفطان بك وخرجت قبيلة العنزة عن طاعة السلطان أيضا وانضمت الى العسكر المصرى فهال السلطان خروجهم وأزعجه واهتم محمد على باشا بجمع المال لنفقة الجند واحتياجات العسكر فزاد فى فرض الفرض وضرب المكوس والمغارم على سائر أهالى البلاد بلا فرق بين الغنى والفقير والصغير والكبير من التجار وأرباب الحرف والصنائع والكتاب والملتزمين وبالغ فى جمعها وبث الجباة والمأمورين يجوبون البلاد شرقا وغربا فى طلب ذلك فاشتدوا على الناس شدة بالغة وأخذ أيضا سائر ما كان مودعا من المال بصندوق التوفير من مال أرباب الرتب العالية وأصحاب الوظائف السامية وقدره ثلاثون ألف ألف قرش وخرج الى بعض المدن مثل طنطا والمحلة وشبين الكوم والمنصورة وفارسكور وغيرها لبعض الجباة والمأمورين على جمع المال وكتب الى الامير ابراهيم يقول * لاتعجل بفتح أبواب الحرب وكن مدافعا لامهاجما حتى تعرف دول أوروبا أن سلطانك هو البادى بالشر والبادى أظلم

وكان الى هذا الحين قد انقطعت المواصلات بين الشام ومصر وبلاد الترك وانقطع ورود القوافل بالتجارة واستوحش كل قرين من قرينه واشتد الخوف باهل تلك الاطراف من عبث الجيوش العثمانية واهلاكهم للحرث والنسل * وقدم طاهر باشا رسولا من قبل السلطان الى حافظ باشا مقدم العسكر السلطانى يحمل المرسوم بفتح أبواب الحرب واصلاء نار الوغى وكانت عيون الامير ابراهيم تنقل اليه الاخبار فأعلموه بخبر ماهى عليه العساكر السلطانية من القوة ووفرة العدد والعدد وحصانة الموقع فاتخذ حلب مقرا لحركة جنوده واستحلف عظماءها ثانية على السمع والطاعة فحلفوا فجبا أهلها الجزية سلفا فدفعوها فكانت ثلاثة آلاف كيس ومائة كيس واستقرضهم قرضا قدره ثلاثمائة وخمسة وسبعون ألف قرش فأقرضوه اياه فكان ماخص النصارى والمسلمين من هذا القرض ثلاثمائة ألف وما خص اليهود خمسة وسبعين ألفا وسير لحراسة بعلبك ومنع القادم من العساكر العثمانية الى حوران ولبنان طائفة من الارناؤط ورفع عن أهلها الجزية وسائر المغارم كى يخلدوا الى السكون وأباحهم الزرع بلا مال ولا خراج وأجاز لهم انتخاب شيوخهم ومدبرى أمورهم وأعاد اليهم ماكان قد جمعه منهم من الاسلحة وآلات الحرب وأقام عليهم شبلى عربان أحد كبارهم ومقدمى حزبهم عينا ليراقب أحوالهم ويحرس دروبهم وبالغ جدا فى الحيطة والتحرز من أهل تلك الاطراف لشدة بأسهم وصبرهم على الحرب والقتال

مطلب
اتخاذ حلب مقرا لحركة العساكر المصرية واستحلاف أهلها على السمع والطاعة

وورد كتب الدول الى وكلائهم بالاسكندرية بان يعاودوا محمد على باشا فى كف ولده عن الزحف والقتال ۞ قال بعض الكتاب * وكان كتاب كبير سياسة الروس فى ذلك الى

مطلب
عود قناصل الدول الى مكالمة محمد على باشا فى الصلح وما كان من وراء ذلك

قنصلهم شديد اللهجة غليظ الكلام وكان محمد على باشا فى هذه الاثناء يجوب البلاد وقد وصل الى مدينة دمياط فسار اليه قنصل الروس وأبلغه الرسالة وأخبره بخبر كتب الدول الى وكلائها فغضب محمد على باشا وعاد من فوزه الى الاسكندرية فاجتمع اليه سائر القناصل وجعلوا يكلمونه فى الاقلاع عن كل هذا العداء والكف عن الحرب واستدعاء ولده ومن معه من العسكر وتقرير قاعدة أخرى للصلح قال فامتعض محمد على باشا وقال ما بالكم تسعون فى الاضرار بى وباهلى وولدى وما بالكم تضربون على يدى وتطلقون يد السلطان يقتل من شاء ويخرب ماشاء ويحرق ماشاء أولم تخافوا الله وتحكموا بالقسط بينى وبينه والله لن أرجع عن الحرب والقتال ولن ترجع عساكرى عن الغزو والفتح حتى يحكم الله بينى وبينه وهو أحكم الحاكمين * فجعل القناصل عند ذلك يخففون عليه حتى سكن بعض مابه ورسم الى كاتب سره أن يكتب الى الدول شيأ مما هم بصدده فكتب يقول * قد خاطبنى قناصل الدول العظمى بما جاءهم من الكتب فى أمر تقرير قاعدة للصلح بينى وبين سلطانى فلم أر بدا من العود الى اعلامكم بما قد وطنت النفس على عمله آخذا بمشورتكم فان عادت العساكر السلطانية الذين عبروا الفرات وأصبحوا على مقربة من المعسكر المصرى الى حيث أتوا وتم ذلك فى الاقرب العاجل سيرت الى ولدى بايقاف عسكره ورجوعه الى دمشق مع حاشيته وأركان حربه وان خرجت سائر العساكر السلطانية وانجلت عن الديار الشامية استوقفت سائر جيوشى واستقدمت ولدى الى مصر فاذا تكفلت لنا الدول بالمحافظة على السلام وتوكيد عرى الولاء مع السلطان بتوريث أولادى من بعدى ملك مابيدى من البلاد فانى لاأحجم عن استقدام بعض جيوشى الى مصر ولا آنف من العود الى المخابرة مع سلطانى فى تقرير قاعدة للصلح راسخة الاركان لايبقى من ورائها باقية والسلام * قال بعض الكتاب * كل هذا والسلطان يظهر الى سفراء الدول خلاف مايبطن فكان من جهة يقول انه مابرح يطاول محمد على باشا وولده ويدفعهما عن بلاده بالتى هى أحسن ومن أخرى يحض مقدم عسكره على الزحف والانتقال من بلد الى آخر بعلل وأسباب مختلفة وقد أنشب الموت أظافره فى العساكر السلطانية فأهلك منهم خلقا كثيرا ولحق كذلك بدوابهم فكاد يبيدها ونزل فريق من العساكر فى مضيق من الجبال وعر المسالك ولبثوا فيه لايتحركون أياما * قال الراوى فلو كان الامير ابراهيم نازلهم فى ذلك المضيق بنفر من عسكره ساعة لأتى على آخرهم ولكنه لم يفعل حقنا للدماء ولكى لايقال انه البادى بالشر وشاع خبر ذلك فى دار السلطنة فكبر خوف حزب السلام وقام سفراء الدول يسألون طاهر باشا فى ذلك فلم يروا منه جنوحا الى المسالمة ولا ميلا الى المكالمة وكثر اللغط بلزوم الحرب والقتال وقطع شأفة العساكر المصرية من كافة بلاد الدولة وظهر من اللورد بونسنبى سفير الانجليز ميل الى معاداة محمد على باشا وأوعز الى قنصل الانجليز بدار السلطنة أن يكلم السلطان فى تقليد الجنرال سكرانودسكى البروسياوى قيادة الجيوش

العثمانيـة فى هذه الحـلة فلما شاع خـبر ذلك غضب سائر كبار حرب الجيش البروسياوى وقاموا قومة رجل واحد وقالوا النار ولا هذا العار الذى يلحق بنا اذا ظل الرجل فى خدمة جيوشنا وكان هـذا الجـنرال قد تجنس بالجنسية الانجليزية وقام كذلك كبير سياسة بروسيا يمانع ويشـدد فى المنع فخاف السلطان شر العاقبـة ولم يوافق عـلى طلب اللورد بونسنبى وانبثت العساكر السلطانية فى أنحاء الشامات فعاثت وأفسـدت واجتمع اليها أهـل البطالة والفساد وأتت اليها الاحزاب من كل صوب وحدب ووصلت طائفة من الفرسان الى ناحية «(مزار)» على قيد فرسخين من نصيبين وأرسـل مقدم هـذه الطائفة الى عامـل السلطان على «(أرول)» فى طلب الرجوع الى طاعة سلطانه وترك الامير ابراهيم وشأنه فأجابه الى ذلك وعلم الامير ابراهيم بخبره فرسم الى محمـد مجنون بك بالمسير بمن معـه من العساكر والعربان الى تل باشر فسار اليه ثالث عشر ربيع الاول من السنة وكثر احتـلال الجنود العثمانيـة للكثير من القرى والبلدان الداخلة فى ولاية عنتاب والنقى والى «(أرول)» بمقدم العساكر السلطانية فأكرم وفادته فبالغ الوالى فى السمع والطاعـة اليه وأشار عليـه بجمع مشايخ ذلك الصـعيد ففعل فكلمهم فى الخروج عن طاعة الامير ابراهيم فأجابوه الى ذلك فأعطاهم الاسلحة وآلات الحرب وأكثر لهم من الذخيرة ففرقوها على أهل البلاد ودفعوا بهم الى قتال العسكر المصرى ومع كل هـذا فقد كان كبير سياسة السلطان يقول لسفراء الدول ان أمـير المؤمنـين جانح الى السـلم كاره للحرب وانه على ما هو عليـه من التأنى وترك التسرع حـتى تقضى الدول بينه وبين متبوعه

وكبر كيـد الامـير ابراهيم فـلم يبق فى امكانه السكوت لاسيما وقـد انبثت العساكر السلطانية حوله وجاؤا الى مواقع عسكره من كل صوب فارسل الى سليمان باشا الفرنسـوى يستحثه على الحضور بسائر من عنده من العساكر ثم سار هو من حلب فى جماعة من الفرسان وأصحاب المدافع ولحق به سليمان باشا بمن معـه و بينما الامـير ابراهيم فى طريقـه اذ جاءه الخبر بهزيمة العربان الذين كانوا رباطا عند نهر الساجور قاتلهم الفرسان العثمانيون فلم تأت ساعة أو بعض ساعة حتى انهزموا شر هزيمة وأسر منهم جماعة كثيرة وتمزق شمل من بقى منهم فأزعجه هذا الخبر وسار سيرا حثيثا يريد لقاء العساكر السلطانية فلم يتمكن من ذلك وكان رجال المابين السلطانى فى خلال هذه المشاغبات يكثرون من الضجيج والعجيج الى الدول من شر فعال محمـد على باشا وولده ابراهيم وامتناعه من حمـل الخراج الى الخزينة السـلطانيـة ويقولون انه ما برح يظهر الى سـلطانه كل بغض وعداء بتجييشه الجيوش واعـداده المعـدّات بعد أن صفح عنه وعفا عما فات ثم أرسل صدر الدولة الى وكلاء الدول كتابا يقول فيـه * قد آن لكم أن تروا ما يراه أمـير المؤمنـين من لزوم حـل عقدة هـذه المشاكل والاحن التى قوضت أركان السلام أو كادت فقد فرغ الصبر واستفحل شر هـذا الامر وأخذت الخيلاء من ذلك التابع المارق مأخذها فداس بقدميه هامـة الخلافة وزعـزع أركانها وبلغت به

القحة مبلغها والجسارة منتهاها فلم يبق فى وسع الباب العالى الاغضاء بعد هذا كله * وقد تنازل أمير المؤمنين بأن يبعث الى الاسكندرية سفراء يعرضون على محمد على الرجوع الى طاعة خليفته وسلطانه فان أذعن عفا الله عما سلف وان امتنع وكابر فالسيف والنار ولا هذا الخزى والعار * ولأمير المؤمنين عضد ونصير من جانب دولة الانجليز التى وعدت بالمعونة والمدد وأمسى وعدها ان شاء الله أمرا مقضيا * وبعد فأمير المؤمنين يسأل الدول المتحابة أن تسعى جهدها فى اقناع ذلك التابع بالاذعان والكف عن المشاغبة وعدم الطموح الى مالا تحمد عقباه وأمير المؤمنين على يقين من حسن نوايا الدول المتحابة وميلهن الى توطيد أركان السلم وسد أبواب تلك الحرب التى لم يبق فى وسع أحد النظر الى تيارها الجارف نظرة المتفرج فلذلك يرجوهم تدارك الخطر قبل استفحاله والسلام

ووردت على محمد على باشا فى هذه الاثناء الاخبار من ولده الأمير ابراهيم بما هم عليه من الجهد والتعب بسبب هجمات طلائع الجيوش السلطانية على مقدمة العساكر المصرية والتزامه خطة الدفاع والوقوف عند حد التحرز لكى لا تتهمه الدول بسوء القصد بعد الذى هم فيه من الاخذ والرد فلم يصل اليه الجواب حتى جاءه الخبر بوصول رجل اسمه موستنتيك بك فى طائفة كبيرة من عساكر الكراداغ المرتزقة يريد قتاله وما زال موستنتيك هذا يتقدم بخيله ورجله حتى صار على قيد فرسخ من مواقف المصريين فكبر أمره على الأمير ابراهيم وركب فى طائفة من المصريين لقتاله وشاع الخبر بذلك بين أهل ذلك الصعيد فهب أهل لبنان الى شق عصا الطاعة وتألبوا جميعا على قتال المصريين واجلائهم عن البلاد ووصلت طلائع لوم موستنتيك الى عنتاب وبها طائفة من العساكر المصرية فخرج أهل البلد للقائهم وفرحوا بمقدمهم وانقلبوا يريدون مشاغبة من عندهم من المصريين فأسرع الامير ابراهيم فى اجلاء عسكره عن عنتاب فانسحبوا فى رابع عشرى ربيع الاول من تلك السنة بجميع متاعهم وكراعهم وانضموا الى المقاتلين ولم يتم انجلاؤهم عن عنتاب حتى دخلها والى مرعش وقد خرج عن طاعة الامير ابراهيم باغراء مقدم العساكر السلطانية وجعل يتصرف فى البلد وفيما هو فيها من مال وكراع * فلما كان سابع عشرى ربيع المذكور عبر حافظ باشا مقدم الجيوش السلطانية الساجور ومعه خمسة آلاف من المقاتلة وثلاثة آلاف فارس من المرتزقة وسار يريد الالتقاء بالعساكر المصرية فلما ترا أى الفريقان جعلت العساكر السلطانية تطلق مدافعها تباعا فلم تلتفت اليها العساكر المصرية وكتب فى الحال الأمير ابراهيم الى مقدم عسكر السلطان يقول ۞ اذا كنتم تعلمون ما هو جار بين أمير المؤمنين والدول من الاخذ والرد فى شأن الكف عن القتال حتى تتقرر قاعدة الصلح بيننا وبينكم فكيف سيرتم سليمان باشا العثمانى فى طائفة كبيرة من الفرسان المرتزقة لمهاجمة عسكرنا النازلين (بولانيك) وكيف استبحتم ارسال موستنتيك بك فى جيش جرار من الاكراد ليعاونوا أهالى (باياس) على شق عصا طاعتنا وبعثتم

مطلب ما كتبه الامير ابراهيم الى حافظ باشا مقدم العساكر العثمانية وما كان بعد ذلك

الحاج عمر أوغلى الى الكرأداغ لايقاظ الفتنة النائمة وهاجمتم عربانا الهنادى المرابطين على الحدود ومددتم أهل عنتاب بالاسلحة ومعدات الحرب ليقاتلونا ورسمتم الى سليمان باشا العثمانى بدخول عنتاب والقتال عنها مااستطاع ولم تقفوا عند هـذا الحد من التعدى وخرق حرمة العهد حتى زحفتم علينا بخيلكم ورجلكم وأطلقتم علينا اليوم بنادقكم ومدافعكم رجاء أن تخرجونا من دائرة التأنى والصبر والعمل برغائب أمير المؤمنين والدول المحابية الى التهور والاندفاع الى اصلاء نار الحرب المغضبة لخليفتنا وسلطاننا وللدول أجمع وكأنك هداك الله ظننت أن سكوتنا عن قتالكم ضرب من العجز أو شئ من الجبن حاشا ثم حاشا فان كان قد أتاكم أمر الخليفة بقتالنا فليس من النصفة أن تستعملوا الخدعة والمكر بنا والتدليس بأصحابك فأعلن الحرب جهارا وناد بالجهاد علانية وسترى منا ان شاء الله أسودا بواسل لا يهابون القتال ولا يحسبون حسابا للقاء الابطال فقد عيل منهم الصبر وهذا كتابى واصل اليك على يد محمود بك أحد مقدمى أصحاب المدافع فأفدنا الجواب والسلام عليك ورحمة الله وبركاته

فلما علم حافظ باشا ما فى جواب الامير ابراهيم كتب اليه يقول * ألفيت كتابك مفعما بعبارات الطاعة واشارات الخضوع الى سلطانك خليفة رسول رب العالمين وظل الله الوارف فى أرضه فقبل كل قول يجب علينا أن نرفع أكف الضراعة والابتهال الى المولى العزيز المتعال بأن يديم لنا فرع هذه الشجرة المقدسة زاهيا زاهرا موفقا مدى الدهور والاعوام وبعد فانك تعلم هداك الله أن طاعة أمير المؤمنين واجبة مفروضة على من يؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر وان هذه الطاعة لم تكن باللفظ المجرد عن العمل والا كانت مروقا وعصيانا فان كنت قد وطنت النفس على الطاعة وعقدت النية على التقرب من عرش الخلافة فكيف أرسلت لقتالنا محمد مجنون بك فى جماعة من العربان وكيف أذنت طلائع عسكرك بأن يناوشوا طلائعنا الحرب ويجروهم الى القتال فكل هذه الامور قد جعلتنا فى ريب من اخلاصك ودفعت بنا الى مناوشتك القتال فان أنت رجعت وتبت وندمت على ما فعلت فعليك الامان من أمير المؤمنين والسلام عليك ورحمة الله وبركاته

* ولم يصل كتاب حافظ باشا الى الأمير ابراهيم حتى جاءه الخبر أيضا بقيام سفن حرب السلطان مشحونة بالمقاتلة والفرسان والذخيرة والميرة الكثيرة وهى مؤلفة من عدة شوانى كبار وقطع عظيمة وبأن الحرب لامندوحة عنها ولا فرار قط منها فسير الأمير ابراهيم الخبر بذلك الى أبيه وطلب المدد واستسرع النجدة فكتب اليه أبوه فى ثامن عشرى ربيع الأول من السنة أى سنة ثمان وخمسين ومائتين وألف يقول * جاءنى كتابك وعندى الخبر اليقين بما يلاقيه عسكرنا من الحيف وما هو مشاهد فى كل يوم من عبث العساكر العثمانية بالبلاد وتسليح حافظ باشا لاهل الشقاوة الخوارج وبثهم فى المدن والقرى لاهلاك الحرث والنسل ولقد طال منا التغاضى أخذا بمشورة الدول أصحاب الوساطة لعل حافظ باشا يرعوى ويقف

عند حده حتى تقرر القاعدة بيننا على مافيه المصلحة فلم يفعل فاذا أتاك كتابى هذا فسر على بركة الله بعسكرك المنصور وقاتل هذا العدو المارق وادحره دحرا وأوقع به وبعسكره ما استطعت وسر من فورك الى (كوليك) بوغاز ومن هنالك الى ملاشيا وقريوت وعرفة وديار بكر والله سبحانه وليك وهو حواليك لاعليك والسلام ورحمة الله وبركاته

وجعل محمد على باشا يجيش الجيوش ويكثر من آلات الحرب لنجدة ولده وأقام المرابطين على الحدود وبث العيون وظهرت الحركة بالقاهرة وبولاق القاهرة ومصر وتحت قلعة الجبل بمرور دواب الحمل وسحب المدافع والاثقال وطير قناصل الدول الخبر بذلك الى الآفاق فاهتمت له دولة الفرنسيس وسيرت على الاثر رسولين أحدهما الى محمد على باشا واسمه المسيو كاليه وثانيهما الى دار السلطنة واسمه المسيو فوتز وزودت كلا منهما من الاسرار بما اقتضاه الحال * واتفق أن قدم محمد على باشا الى مدينة الاسكندرية ليباشر بنفسه ارسال المدد الى ولده الامير ابراهيم فقدم عليه المسيو كاليه فى نفر من الكتاب والحشم والاتباع فأكرم محمد على باشا مقدمه وبالغ فى الحفاوة به فكلم محمد على باشا فى أمر الكف عن القتال والتأنى فى الحركة حتى يتم تقرير قاعدة الصلح بينه وبين السلطنة على ما فيه المصلحة فامتنع محمد على باشا من ذلك وقال لابد من متابعة القتال وعدم الكف عن الحرب حتى يقضى الله بيننا فألح المسيو كاليه فى الطلب وبالغ فى استرضاء محمد على باشا وطاوله أياما ثم عاوده فأجابه ورسم الى خسرو أفندى بقبول وساطة دولة الفرنسيس وساطة فعلية فى جعل حد لهذه الحرب وتقرير قاعدة راسخة للصلح وأن يكتب الى الامير ابراهيم بأن يبقى حيث هو مقيم حتى يأتيه كتاب وركب المسيو كاليه وخسرو أفندى سفينة مصرية يريدان الشام والالتقاء بالامير ابراهيم وكان قد قام بعسكره لقتال حافظ باشا عملا بالكتاب الوارد اليه من محمد على باشا وقصد ناحية مزار الواقعة جنوب شرقى نصيبين ونزل على قيد فراسخ من محلة العساكر السلطانية ۞ قال بعض كتاب الاخبار ۞ فاضطرب عند ذلك مقدم العساكر السلطانية ورسم لمقدمى عسكره بمناوشة طلائع المصريين فجعلت العساكر السلطانية تطلق مدافعها تباعا على المصريين مع ماهم عليه من مشقة السفر فأطلق كذلك المصريون مدافعهم وتراسلت قنابلهم قال فخاف عند ذلك جماعة الترك وولى منهم فيلق الحرس الفرار فنادى عند ذلك النفير على المصريين بالزحف على مزار فالتصقوا باسوارها قبل غروب الشمس ونزلوا على شاطىء الساجور بخيلهم وكراعهم فكبر أمرهم على حافظ باشا وقد شاهد من نظامهم وكثرة عددهم وعددهم ما أذهله وأخافه فرسم الى كبار عسكره بأن لايبدؤا بالقتال وأن يتحينوا الفرص فلما رأى الامير ابراهيم احجامهم سار بعسكره وعبر الساجور ونزل على الضفة الثانية وجعل كل من الفريقين يتأهب للقتال وكانت العساكر السلطانية قد بلغت الى هذا الحين زهاء ثلاثين ألفا من المشاة وخمسة آلاف من الركبان وثلاثة آلاف من أصحاب المدافع عدا أرباب الخدم وكانت العساكر المصرية تربو على

مطلب قدوم المسيو كاليه مندوب دولة الفرنسيس الى مصر ومكالمة محمد على باشا فى تقرير قاعدة الصلح

الاربعين ألفا عدا أصحاب الخدم * قال بعض كتاب الاخبار وكانت هاته الجيوش التركية على كثرتها ينقصها شئ من الصفات العسكرية كالدربة على الحروب وحسن النظام والطاعة ونحو ذلك من الصفات المهيئة لاسباب الظفر والغلبة على العدو وكانت الوظائف العسكرية عندهم تعطى لغير مستحقيها من الاغرار الصنائع الذين لاخلاق لهم فكان حافظ باشا لذلك فى قلق دائم وكمد ملازم يتوقع الهزيمة فى كل لحظة تمر فى النهار

وما غربت شمس ذلك اليوم حتى نادى منادى الامير ابراهيم فاصطفت جنوده فخطب فيهم وقال قد علمتم أيها الجنود البواسل قدر ما أحرزتموه من الشرف والفخار لغاية الآن فلم يبق عليكم الا أن تكللوا هذه الاعمال باكليل حسن الختام واعلموا أنكم لن تنالوا ذلك الا ببذل المهج فبكم اعزاز الوطن وبموتكم حياته وخير لنا أن نموت لحياة الوطن من أن نحيا لذله وشقائه فالله سبحانه حوالينا لاعلينا وهو حسبنا ونعم النصير * فصاح عند ذلك جماعة الضباط الله الله ولاحول ولا قوة الا بالله وباتوا ليلتهم تلك وكان حافظ باشا قد رأى أن الظفر كل الظفر فى كبس المصريين ليلا وأخذهم على غرة فرسم الى اسمعيل باشا أحد كبار العسكر بالاسراء نصف الليل بجماعة من أصحاب المدافع وأن ينزلوا على ميسرة المصريين حتى اذا صاروا على مقربة منهم أطلقوا عليهم المدافع وأصلوهم نارا حامية قال الراوى فلم يشعر المصريون الاونيران الترك قد أخذتهم من كل جانب وتراسلت قنابلهم على خيمتى الامير ابراهيم وسليمان باشا الفرنسوى فهبوا من نومهم مذعورين وكادوا يتمزقون كل ممزق فنادوا فيهم بالنفير فنشطوا الى الدفاع وقاتلوا حتى مطلع الفجر وظفروا بالعساكر السلطانية وردوهم على أعقابهم وقتلوا منهم جماعة ولما أصبحوا جعل الامير ابراهيم يتفرس فى مواقف العساكر السلطانية فاذا هم على مرتفع من الارض تحيط به أخاديد كانها خنادق طبيعية وكانت مواقف العساكر المصرية فى ذلك اليوم حرجة للغاية معرضة لنيران مدافع العدو فكبر عليه هذا الامر وأعظمه لاسيما وقد رأى من حركة العساكر السلطانية ومن معهم من الضباط الاجانب ما أدهشه وأخافه فرسم الى سليمان باشا الفرنسوى بترتيب الصفوف واحكام مواقع الوقوف ونادى فى العسكر بالتأهب للقتال والاستعداد للطعن والنزال فأنس من بعضهم شيأ من العصيان فعجل بسوقهم الى ساحة القتال فانتشبت الحرب بين الفريقين وارتفعت أصوات المدافع والتحمت الصفوف بالصفوف والتفت السيوف بالسيوف وزلزلت الارض من هول ذلك اليوم العصيب وثبت الترك الثبات العجيب ونكلوا بالمصريين تنكيلا حتى دحروهم وقهروهم فهربت منهم طائفة فى عرض الارض وكادت تتم هزيمتهم وما زالوا بين أخذ ورد وطعن وصد حتى تمكنوا من الظفر على مقربة من نصيبين فتفرقت الجنود التركية أشتاتا وفر حافظ باشا الى مدينة سعرعش فاستولى المصريون على مافى معسكر الترك من متاع وكراع وكثير من الخيام ودواب الحمل وأسروا زهاء خمسة عشر ألفا من الاتراك ووجد الامير ابراهيم فى خيمة

مطلب
هزيمة المصريين
ليلا ثم انتصارهم
على العدو

حافظ باشا سائر الكتب التى كانت تأتيه من السلطان بالاسراع فى الزحف والقتال وقطع شأفة المصريين

وكان السلطان قد رسم أيضا الى أمير سفن حرب الدولة بالاقلاع الى مدينة الاسكندرية ودك حصونها ومعاقلها بقنابل المدافع وعدم البراح من مياهها حتى يقبض على محمد على باشا ويأتى به الى دار السلطنة مكبلا بالاغلال والقيود فسارت السفن وألقت مرساها عند كريد أياما كثيرة ترددت فى خلالها الرسل بين أميرها ومحمد على باشا قيل فخدعه محمد على باشا واستماله وعاقده على تسليم سائر ما معه من سفن الحرب والشوانى بغير حرب ولا قتال فجاءت تلك السفن وألقت مرساها بمينا الاسكندرية أمام رأس التين ثم أنزلوا من بها من العساكر والاجناد الى المدينة وقد سلموا جميع سلاحهم وآلات حربهم ولم يلبثوا الا أياما قلائل حتى فرقوهم فى البلاد شرقا وغربا وأنزلوا أمير تلك السفن فى بيت محرم بك ثم نقلوه بعد أيام الى دار مخصوصة وجرت عليه الارزاق فى كل شهر وشاع الخبر بذلك بين سائر الدول فكان له دهشة عظيمة * قال بعض الكتاب وكانت حجة أمير تلك السفن فى التسليم على هذه الصورة تأخير جماكى العسكر وقطع بعض المرتبات * ووصل المسيو كاليه مبعوث دولة الفرنسيس الذى تقدم الكلام عليه ومعه مرسوم محمد على باشا الى حلب فلاقاه واليها وأعلمه بخبر تلك الموقعة وما جرى فيها على الترك فسار مجدا يريد لقاء الامير ابراهيم قبل أن يتحرك حركة أخرى وقد كان الامير ابراهيم بعد أن تم له النصر وحقق الله له الغلبة والظفر رسم الى مجحون بك بأن يسير بمن معه من العربان الى غزنة ويقاتل من بها ويفتحها والى عثمان بك وأحمد بك المنكلى وسليمان بك بالاستيلاء على كل مايمكن الاستيلاء عليه من بلاد آسية الصغرى وسار هو فى طائفة أخرى من العساكر والاجناد فى سادس عشر ربيع الثانى يريد عنتاب لاخضاعها وارجاعها الى الطاعة ونزل عليها بخيله ورجله فخرج اليه كبارها وأصحاب الكلمة فيها يرجون عفوه وصفحه عما فات فعفا عنهم ولكنه ضرب عليهم الجزية مضاعفة فكانت نارها أشد عليهم من نار الحرب ولما كانت ليلة حادى عشر الشهر المذكور وصل المسيو كاليه الى معسكر الامير ابراهيم فأحسن الامير لقاه وبالغ فى اكرامه فبات ليلته وعند الصباح سلم الى الامير ابراهيم كتاب أبيه ثم تقدم اليه فى الكف عن القتال وترك الامر حتى يتم تقرير قاعدة الصلح فامتنع الامير ابراهيم من ذلك وقال لابد من القتال حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا فألح عليه المسيو كاليه وجعل يهوّن عليه الامر وهو لايزداد الا عنادا ونفورا واختلف الكتاب فى الذى دفع بالامير ابراهيم الى عدم الاذعان والرضا بمطالب المسيو كاليه فمن قائل ان ذلك كان بايعاز من أبيه على يد سامى بك كاتب سره ومن قائل غير ذلك وصمم الامير ابراهيم على الزحف والقتال ونادى فى عسكره بحضرة المسيو كاليه بالمسير وعبور جبال الطورس واصلاء نار الحرب مااستطاعوا اليها سبيلا فمانعه المسيو كاليه وما زال به حتى رسم

مطلب استمالة محمد على باشا الى أمير سفن حرب الدولة وأخذه سائر السفن غنيمة بلا حرب ولا قتال

الى كبار جنده بأن لايتجاوزوا سلسلة تلك الجبال ولكنه مع ذلك لم ينكف عن تدويخ وارجاع سائر من خرج عن طاعته ولم يتعرض لفتح شئ من البلاد الثابتة على طاعة السلطان وسير الى أبيه كتابا يقول * جاءنى أمركم الكريم على يد المسيو كاليه أحد كبار ديوان السياسة الافرنسية والذى أحيطكم به علما أنه لما استولى حافظ باشا مقدم العساكر السلطانية على مدينة عنتاب قد صممت بعد الاتكال على الله سبحانه وتعالى على ارجاعها وسرت بجيوشنا المظفرة الى مواقع العدو فوافانى أمركم الكريم بالكف عن القتال وترك الحرب والنزال الى حين ولما كان الصعيد الذى قد نزلناه ليس فيه من المؤن والزاد مايكفى بحاجة العسكر ولا من الكلا ما يفى بمؤنة دواب الحمل وخيول الفرسان وكان بقاؤنا فيه أشد خطرا علينا من لقاء العدو وكان أقرب بلد من ذلك الصعيد هو حلب الشهباء فقد سرنا اليه فشاهدنا من تأهب العدو واستعداده لصدنا واصلائنا نارا حامية ما اضطرنا الى تركه والمسير نحو عنتاب ومرعش وهذا مادفع بنا الى التقدم الى الامام والسلام ورحمة الله وبركاته * وأما المسيو فوتز رسول دولة الفرنسيس الى دار السلطنة فانه لم يفلح فى رسالته ولم يتمكن من اقناع السلطان بالعدول عن الحرب وفتح أبواب الصلح وأقام أياما لم ينل فيها مأربا فاستعان باللورد بونسنبى سفير الانجليز بدار السلطنة فلم يعنه واتهم السلطان دولة الفرنسيس بالتحزب مع محمد على باشا والعمل على ارغام السلطان وفعل كل مايحط بقدر الدولة ويذهب بكرامتها

واشتد الضيق بالامير ابراهيم وعسكره وأحدقت بهم العساكر السلطانية من كل صوب وحدب فخاف شر العاقبة سيما وقد كاد يظهر عجزه عن الحركة واستضعفه أهل الاطراف فجعلوا يتخطفون مؤخرة جنده فساق بعسكره يريد التغلغل فى قلب الاناضول واخترق جبال الطورس واحتل اقليم أطنة وماوراءه الى مدينة قونية ووردت الاخبار بذلك الى السلطان فكاد يسقط فى يده وكبر كيده ورسم بتسيير رشيد باشا صدر الدولة فى عسكر لرد الامير ابراهيم فسار رشيد باشا فى عسكره يريد اللحاق بقونية والدفاع عنها وجاء الخبر بذلك الى الامير ابراهيم فجمع جيشا عظيما من الشأم والروم وعجل بالمسير يريد القسطنطينية لملاقاة رشيد باشا فالتقى الجمعان عند قونية واشتبك القتال بينهما وتراسلت القنابل واشتدت النيران وعلت أصوات المدافع وتكاثف الدخان فلم تكن الا فترة بين الزوال والغروب حتى تمت هزيمة العساكر السلطانية وتمزقت كل ممزق ووقع رشيد باشا أسيرا فى يدى الامير ابراهيم وكذلك أسر جماعة كثيرة من مقدمى العساكر التركية فكانت هذه الوقعة من أتعس الوقائع وأشدها هولا على السلطان * واختلف الكتاب وأصحاب التاريخ يومئذ فى كيفية سقوط رشيد باشا فى قبضة الامير ابراهيم فمن قائل ان ذلك كان باتفاق بينهما ومن قائل بل كان لحسن تدبير حركة الجنود المصرية فى ذلك اليوم وحصانة موقفهم ومن قائل غير ذلك وطار الخبر بما جرى على رشيد باشا وعسكره فكان له أشد الوقع فى

مطلب وقوع رشيد باشا صدر الدولة أسيرا فى يد الامير ابراهيم وتمزيق شمل عسكره وما كان من وراء ذلك

النفوس وسار الامير ابراهيم بخيله ورجله يريد القسطنطينية فأرسل السلطان الى قيصر الروس يطلب منه ارسال سفينة حربية وخمسة آلاف من المقاتلين لرد ابراهيم وايقافه عند حده وشاع الخبر بذلك بين رجال السلطنة فقبحوا هذا الرأى وقالوا لاتحل الاستعانة على قتال المسلمين بالعساكر النصرانية وورد الخبر الى محمد على باشا فجعل يبالغ فى الشكوى ويعظم فى البلوى ويكاتب الدول فى هذا الامر وظهر على أثر ذلك حركة فى دار السلطنة وتكلم الناس كثيرا فخاف السلطان شر العاقبة وعاد الى مخابرة محمد على باشا فى عقد الصلح وسير فى الحال خليل باشا قبطان باشا قبلا الى مصر وفوّض اليه الاتفاق على مافيه المصلحة وكتب الى سفير الروس يعلمه بان الحالة الآن لاتستلزم طلب المساعدة وأخذ يعمل الجهد على ارجاع الجنرال موراويف الروسى عن عزم الذهاب الى ديار مصر والالتقاء بمحمد على باشا فلم يفلح ودخل موراويف الى الاسكندرية كاشارة قيصر الروس فعمد السلطان حينئذ الى ملاطفة دولة الفرنسيس واستمالها الى التحرير أوّلا الى محمد على باشا بوجوب المحافظة على مبادى الصلح وأسباب السلم التى قد تعهد بالمحافظة عليها وثانيا الى الامير ابراهيم بعدم مبارحة موقفه والكف عن التغلغل بجيوشه فى جوف البلاد وقد كان الامير ابراهيم الى ذلك الحين لم يكتم عن الناس خطة تسيير جنوده ولم يخف عن الملا أنه سائر نحو قوطاهيه وبروسا ومنها الى اسقودار ليجمع هناك مجلسا من كبار علماء الاسلام ليحكموا بينه وبين سلطانه فكان ذلك موجبا لقلق السلطان وعدوله عن الاستعانة بدولة الفرنسيس ورجوعه الى طلب معاونة دولة الروس فسير فى الحال كتبه الى القصير بأن عده عند الطلب بعشرين ألفا من الجنود البرية وخمسة آلاف من العساكر البحرية وعمارة ساوتاپول البحرية فعلم سفير الفرنسيس بذلك فكتب الى الامير ابراهيم فى الحال يقول اياك ومبارحة قونية واحذر شر العاقبة فقد بلغ القنوط من سلطانك مبلغه وجاء الخبر بما فعله السلطان الى محمد على باشا فكتب الى ولده يقول اذا أتاك كتابى وأنت بأية أرض فلا تبرحها ولا تحرك لك قدما حتى يأتيك آخر * وكان الامير ابراهيم قد بلغ بجيوشه مدينة قوطاهيه وأرسل محمد على باشا الى السلطان والى دولة الفرنسيس يخبرهما بخبر ما كتبه الى ولده الامير ابراهيم ويقول للباب العالى ان الحامل لولدى على الانحدار الى قوطاهيه انما هى حاجته الى حطب الوقود وغيره من احتياجات العسكر التى لم توجد فى قونية وما زال الحال بين أخذ ورد وخوف ورجاء حتى عاد سفير الروس الذى كان ذهب للالتقاء بمحمد على باشا الى دار السلطنة يحمل بشائر الطمأنينة والسلام حيث أبلغ الباب العالى أن محمد على باشا صرح بخضوعه وطاعته لسلطانه وأنه عبد لمولاه وقد عقد النية عقدا وثيقا على فض أسباب الخلاف والاتفاق مع خليل باشا على أمر الصلح بتاتا * قال بعض الكتاب ولم يستعمل الجنرال موراويف فى كلامه مع محمد على باشا شيأ من الشدة التى أقسم أنه يستعملها معه ولم يسمعه شيأ من هذا الكلام كما كانت تقتضيه رسالته

ولكنه كان اذا اجتمع به لاطفه وهوّن عليه أمر الصلح وحببه اليه ويقول له ان مولاى القيصر يعلم ماأنت عليه من شرف المبدإ ونبالة المقصد ومكارم الاخلاق فلا تكن سببا فى زلزلة موقف سلطانك ولا تعمل على فساد ملكه ولا تحدث فى الاسلام حدثا قل أن تحمد عاقبته واتق الله فى نفسك وولدك وعسكرك * ووصلت كتب محمد على باشا الى ولده بالكف عن القتال والوقوف عند حد السكون حتى يتم الامر على ماتشاؤه الاقدار * وما شاعت الانباء بذلك حتى ورد على قنصل جنرال النمسا كتاب من بابا رومية يسأله الوساطة بين محمد على باشا وسلطانه وكفه عن اراقة الدماء هدرا وكأنه لم يعلم بخبر ماوقع الاتفاق عليه بين محمد على باشا والجنرال موراويف مندوب الروس فأرسل القنصل الى محمد على باشا خطابا فى المعنى محشوا بالتهديد والوعيد فلم يلتفت محمد على باشا اليه ولم يفلح القنصل فى شئ البتة

مطلب قدوم مندوب الباب العالى الى مصر بفرمان العفو عن محمد على باشا وولده

ووصل خليل باشا مندوب الباب العالى الى مصر يحمل الفرمان السلطانى بالعفو عن محمد على باشا وشروط الصلح على قاعدة الامتيازات التى أعطيت الى محمد على باشا وهى ولاية عكا وطرابلس الشام ونابلس وأراضى بيت المقدس فلاقاه محمد على باشا وسائر رجال حكومته بالحفاوة والتعظيم وأنزله منزلا رحبا وقدم له التقادم من التحف والاعلاق النفيسة ورتب له المرتبات من المأكول والمشروب ثم رسم بقراءة الفرمان فلم يعجبه ماجاء فيه من الامتيازات حيث لم تكن شاملة لسائر الشامات ولا لولاية آطنه فكلم خليل باشا فى ذلك وطال بينهما الاخذ والرد أياما حتى تم الاتفاق على نوال محمد على باشا سائر ماطلبه وسير خليل باشا الكتب بما وقع الاتفاق عليه الى دار السلطنة * قال بعض الكتاب ومع ذلك فقد كان السلطان فى ريب من العاقبة فلم يصرف وجهه عن طلب معاونة دولة الروس ولم ينكف عن مكالمة وكيلها فى ذلك من حين الى حين * قال وكان الحامل له على ذلك كثرة ارجاف الامير ابراهيم وارساله البعوث الى بلاد آسية لدس الدسائس وبث الفتن وتحريض الناس على شق عصا طاعة السلطان ولم يمض الا القليل من الايام حتى عاد الصدر الاعظم وكتب الى الدول الكبرى يقول ان أمير المؤمنين جاهر بأنه لم يبق فى امكانه العدول عن طلب المدد من قيصر الروس والاستنجاد بعسكره على اخراج الامير ابراهيم وعسكره من جميع أملاك الدولة فى الاقرب العاجل واتفق أن وصل فى عشية ذلك اليوم الى دار السلطنة مندوب دولة الفرنسيس وقد علم بما سير به الصدر الاعظم من الكتب الى الدول فاجتمع به وخاطبه فى الامر طويلا وحبب اليه أن يكتب الى دولة الروس بعدم الحاجة الى ارسال سفن الحرب بعد أن أسفرت مأمورية خليل باشا عن طاعة محمد على باشا ورجوعه الى مجاملة سلطانه فوعده الصدر الاعظم وعدا جميلا وقال لابد من اجتماع مجلس شورى الدولة وطرح هذا الامر عليه

مطلب حصول العمارة الروسية الى البوسفور مددا الى السلطان

وبينما كان مندوب الفرنسيس يراقب ماسيكون من وراء اجتماع المجلس اذ وصلت العمارة الروسية تمخر فى عباب البحار وألقت مرساها أمام البوسفور فكانت عشر قطع كبار

من الطراز الاول وكانت بعض سفن الحرب الافرنسية راسية هنالك كطلب سفير الفرنسيس فلما رأى ربانها تلك السفن والشوانى الروسية هاله أمر حضورها وسير فى الحال الى صدر الدولة يقول نظرا للانقلاب السريع الذى طرأ فى هذه الأونة وتغيير الاحوال عن سابق مجراها صار يعز على البقاء بما معى من السفن ان لم تقلع السفن الروسية وترجع من حيث أتت وأكثرت رسله من التردد على الباب العالى فى طلب الجواب فكتب اليه السلطان يقول ۞ كتابى اليك أعزك الله وعوامل الاضطراب والقلق المستحوذين على مملكتى تشخص أمام عينى ذلك الودّ القديم الذى يربط بلادى بمملكة الفرنسيس وتدفع بى الى طلب المعونة والمدد من تلك الدولة القوية العظيمة دولة الفرنسيس الفخيمة فان أنت هداك الله تعهدت باسم وشرف مملكة الفرنسيس بأن يكون عقد رباط الصلح بينى وبين متبوعى محمد على على قاعدة الشروط التى بلغها اليه خليل باشا عجلت بارجاع العساكر الروسية ورد سفنها الحربية والسلام * فأجابه ربان السفن الافرنسية الى ذلك فلم يسع السلطان يومئذ الا معاودة ربان سفن الحرب الروسية وأمير جيوشها البرية بالرجوع فما أقلعت تلك السفن حتى سير أمير سفن حرب الفرنسيس رسولين على عجل أحدهما الى محمد على باشا ليقهره على ارسال كتبه الى كبار عسكره بسرعة الكف عن الحرب وثانيهما الى الامير ابراهيم ليلزمه بسرعة العودة الى مصر والكف عن كل عداء مع ولاة وعمال السلطان وكتب كبير سياسة الفرنسيس أيضا الى قنصلهم بمصر يقول أن شدّد على محمد باشا بالاذعان وقبول شروط الصلح التى وصلت اليه على يدى خليل باشا فان أطاع وأذعن فيها والا فلا مندوحة عن اكراهه

قال كبير السياسة المذكور فى كتاب بعث به الى وكلاء دولته لدى سائر الدول بعد كلام طويل * ومن تصفح أدوار هذه الأزمة * يعنى بها الازمة القائمة مابين محمد على باشا وسلطانه * مع عدم التحيز حكم بنزاهة دولة الفرنسيس عن الغرض وطهارة ذمتها من أدران التشيع وتحقق نبالة مقصدها فى سائر أدوار هذه الازمة التى اختلط فيها الحابل بالنابل وكادت تذهب بالشرق الادنى الى مهواة الدمار قال ولما كانت دولة الفرنسيس قد أخذت على عهدتها اصلاح ذات البين والتوفيق بين مصلحة الطرفين لم يبق فى وسعها العدول ولا ترك الامور هدفا للحوادث ولا غرضا للغاية الطامحة ولو تطوّح بها الامر الى رد القوة بالقوة والسيف بالسيف فانها لاتلوى عنان الجهد ولا تتقهقر أمام هاتيك العواقب التى قد حسبت لها ألف حساب اه

مطلب تعاقد الحاج محمد عاكف باشا باشكاتب المابين مع سفير الفرنسيس على كيفية ارجاع محمد على باشا الى طاعة سلطانه

ورسم السلطان بعد ذلك الى الحاج محمد عاكف باشا باشكاتب مابينه بالتعاقد مع سفير دولة الفرنسيس على ارجاع محمد على باشا الى طاعة سلطانه فتعاقدا ثانى شوال من السنة على شروط حاصل مافيها قبول الباب العالى تداخل دولة الفرنسيس بواسطة سفيرها البارون روفارن فى أمر الصلح بشرط أنها تضمن للباب العالى قبول محمد على باشا

بالامتيازات

بالامتيازات التى منحه اياها السلطان بالفرمان المرسل على يدى خليل باشا مشير الطبخانة العامرة وبشرط رجوع محمد على باشا الى الطاعة والاخلاص لمتبوعه وان هذه الامتيازات لاتتعدى ولايته على عكا وطرابلس الشام وبيت المقدس ونابلس وأن يتكفل السفير المذكور باسم امبراطور الفرنسيس بعقد رباط الصلح على هذه القاعدة ويتعهد الباب العالى بأن يقرر ويعلن عدوله عن قبول أوطلب كل مدد أجنبى أومساعدة مادية يراد بها الاضرار بمحمد على باشا * وشاع الخبر بما وقع الاتفاق عليه مابين الحاج محمد عاكف باشا وسفير الفرنسيس وعزم دولة الفرنسيس على قهر محمد على باشا وارغامه على طاعة سلطانه وتكلم الناس فى الامر كثيرا وكتب سفير الانجليز الى الامير ابراهيم يقول * كتابى اليك وعندى العلم اليقين بما رضيه سلطانك من تقرير قاعدة الصلح مع خليل باشا مشير الطوبخانة السلطانية فامتلأ قلبى فرحا وتحققت آمالى بأنك ستنكف عن تلك الحرب المشؤمة التى كادت تدك معالم المدنية وأنك ترفع سيفك ان شاء الله عن هامة تلك الارجاء التى قد تولاها الخراب ونزل بها البلاء من كل حدب واعلم أن سلطانك قد منح أباك ولاية الشامات وحلب ودمشق وقد سير اليه فرمان الرضا وفرمان الولاية على يدى رشيد بك قابوجى السلطنة وأمره بالكف عن القتال وأن يكتب اليك بذلك فى الاقرب العاجل وقد ورد الامر من لدن امبراطور الفرنسيس الى سفيره لدى الباب العالى بالمسير مع رشيد بك الى الاسكندرية ليشرح لابيك وخامة العاقبة ان هو أغضب دولة الفرنسيس برفض الصلح على قاعدة ما فى الفرمان أما دولة الانجليز فقد أضحت أميالها وأغراضها واضحة معلومة لابيك ولا أشك فى أنه لايجهل التأثير الذى يحصل للحكومة الانجليزية ان هو امتنع من الصلح كما أنه عالم بالعواقب التى تكون من وراء هذا الرفض وانى لا إخالك أيها الامير ممن يأبى الكرامة فلا تمتنع من الصلح الآن واجعل خاتمة أعمالك السلامة والسلام

مطلب صدور فرمان السلطان بالعفو عن محمد على باشا وولده وتوجيه ماقد وجهه اليهما من الرتب وألقاب الشرف

وطير السلطان الخبر الى الآفاق بالعفو عن محمد على باشا وولده الامير ابراهيم وبتوجيه ماقد وجهه اليهما من الرتب وألقاب الشرف وأصدر فرمانا يقول فيه * حيث ان محمد على باشا وولده قد عادا الى طاعة سلطانهما وأبديا من الاخلاص مالم يبق معه موضع للريب فى حسن المآل ان شاء الله تعالى وقد طلبا العفو عما فات فقد اقتضت ارادتنا السلطانية ومراحمنا الشاهانية العفو عنهما وأصدرنا فرماننا هذا السامى بتأبيد ولاية أحدهما محمد على باشا على كريد والديار المصرية كالتماسه وأحسنا اليه أيضا بالولاية على دمشق وطرابلس وصيدا وصفت وحلب وبيت المقدس ونابلس مع امارة الحج ونيابة أشقودره وولينا ولده رياسة الحرمين الشريفين مع مشيخة جده وقارنا التماسه بالاحسان عليه أيضا بولاية أطنة وملحقاتها وعهدنا اليه جباية خراجها الآن وبناء على ما طبعنا عليه من الرفق والحنان وما خصنا الله سبحانه وتعالى به من الميل الى اسداء المعروف والاحسان نعلن أصحاب الكلمة وأولى الشأن من العمال والمأمورين ببلاد الاناضول أن يغضوا الطرف عما

وقع من سكان تلك العمالات من الخروج وشق عصا الطاعة وأن لايتعرضوا لأحد لا فى روحه ولافى ماله ولافى عياله وأن يعلموا الناس كافة بما اقتضته ارادتنا الشاهانية وسمحت به تعطفاتنا الخاقانية من العفو عن الجميع والصفح عما وقع من الرفيع والوضيع وأن يكونوا من الآن ساكنى الخواطر قريرى النواظر وعلى سائر الولاة والحكام حض الرعية على الالتفات الى ما فيه خيرهم واصلاحهم واستمرار الدعاء بتأييد عرشنا بالنصر الدائم والظفر الملازم ولكى يكون فى علم سائر الولاة والحكام وجميع صنوف الرعية من مسيحيين واسلام ماشملهم من العفو العام والرضا التام قد أصدرنا هذه الارادة متوجة بطغرائنا ناطقة بما نحن عليه من حسن النية وسلامة الطوية كى يبسط الكل أكف الضراعة والابتهال الى المولى ذى الجلال والاكرام بدوام دولتنا وتأييد سدتنا واعزاز شوكتنا بمنه وكرمه اه

فلما شاع خبر هذا الفرمان وذاع رفع الامير ابراهيم الى الباب العالى عريضة ضمنها أبلغ مايكون من عبارات الشكران والامتنان الى أن قال ويعلم مولاى أدام الله سلطانه وحرس ملكه وأيد بالنصر أركانه أن العبد مابرح على ما يعلمه فيه مولاه من الطاعة والولاء لسدتكم العلية لاسيما وقد قلدنى المولى أدام الله تعالى وجوده منة العفو وولانى تفضلا منه وتكرما حكم ولاية أطنه وجباية خراجها فلم يبق فى النفس بعد ذلك شئ والله سبحانه على ما أقول شهيد وها أنا العبد باسط أكف الضراعة والابتهال بان يديم أيام ملككم غرة فى جبين الدهر وليعلم مولاى أنى قد وطنت النفس على خدمة الاعتاب الشريفة بما فى الطاقة والله خير مسؤل يوفقنى الى طاعتكم بمنه وكرمه انه السميع المجيب اه قال بعض الكتاب ومع هذا فانه لم يمض القليل من الايام حتى جاءت الاخبار الى دار السلطنة تترى بزحف الامير ابراهيم بجيوشه وآلات حربه الى قلب آسية وانه نزل قونية وهو على قدم المسير الى بروصاء فاندهش السلطان من سماع هذه الانباء وظنها مبالغة ووقيعة فلم تكن الا أيام حتى ثبتت صحتها وجاءت الكتب بذلك الى الباب العالى فسير السلطان فى الحال الى سفير الفرنسيس من يكلمه فى أمر ذلك فاندهش السفير وكتب الى الامير ابراهيم يقبح مافعله ويحذره شر العاقبة ويمنعه من التغلغل فى داخلية البلاد فرد عليه الامير ابراهيم يقول ان الحاجة الى الماء والميرة وحطب الوقود وعدم وجود شئ من ذلك البتة بقونية واتقاء برد الشتاء وتفشى الامراض فى الجنود المصرية كل ذلك كان الحامل لنا على المسير الى بروصاء وانا مازلنا على قدم الطاعة والولاء لامير المومنين وواقفين عند حد مارسمه لنا محمد على باشا فلا تصغوا الى وشاية الواشين ولا تلتفتوا الى غواية الغاوين وأعرضوا عن كل قول هراء فان العدو مابرح يدس السم فى الدسم ويتمنى لو أن الدهر يرمى كياننا بالعدم فالله الله والسلام

مطلب اشتداد علة السلطان وما كان من وراء ذلك

واشتدت فى هذه الاثناء علة السلطان محمود وكبر مرضه واستعصى برؤه فاضطربت

أحوال السلطنة أو كادت وكثر تحدث الناس فى أسباب علته فمن قائل انها ذات الجنب ومن قائل انها ضرب من الهذيان والهزؤ الدائم ومن قائل انه السل وكانت أخباره كل يوم فى شأن والباب العالى يكثر من نشر بشائر سلامته وعافيته والناس لايصدقون ذلك فانعقد مجلس فى السراى السلطانية من خسرو باشا وخليل باشا وسعيد باشا وعزت بك وضباط وجعلوا يتشاورون فيما يجب عمله اذا جاءت منية السلطان على عجل وكانت رسل والدة السلطان وولى عهده يغدون ويروحون الى مقر السلطان وبعد أخذ ورد بين أصحاب المجلس وقع الاتفاق على أن يكتبوا الى قبطان باشا سفن الحرب بأن لايبرح بسفنه كلها من البوسفور والى حافظ باشا مقدم العساكر القائمة بقتال الامير ابراهيم بايقاف رحى الحرب حتى تأتيهما الاخبار بما سيكون فكاد حافظ باشا يسقط فى يده وطارت الاخبار بما أصبح فيه السلطان من الخطر وشدد الاطباء فى عدم دخول أحد عليه فلما كان يوم الاثنين تاسع عشر ربيع الاول وقيل سادس عشر يه سنة أربع وخمسين ومائتين وألف هجرية أى سنة تسع وثلاثين وثمانمائة وألف ميلادية مات وحيدا فى مخدعه فكانت سلطنته زهاء احدى وثلاثين سنة وعمره أربعا وخمسين سنة على المشهور ۞ قال بعض الكتاب ومن الغريب أن اليوم الذى مات فيه يوافق اليوم الذى تولى فيه السلطنة قال وكان ملكا مهيبا مقداما عالى الهمة واسع المعرفة كبير الدراية بالامور صبورا على الشدائد محبا للرعية ميالا الى العمارية عادلا بعيدا عن العسف والجور ولكنه كان قليل الحظ حسن الخط غير موفق كأن الدهر عدوه مغلوبا على أمره بحكم الايام فقد خرج فى أيامه كثير من الايالات مابين حجازية وشامية ورومية وهو الذى أباد طوائف الانكشارية والاصبهانية ونظم عسكره على نظام الفرنسيس وأنشأ الكثير من سفن الحرب ومعدات القتال وأفرغ الجهد فى اصلاح الامور ومحو آثار الفتن الداخلية فلم يوفق الى ذلك لسوء حظه ونكد طالعه والله سبحانه يؤتى النصر لمن يشاء من عباده

ومات فى أيام السلطان محمود يوحنا بطرك المتأصلين بعد أن أقام ستا وعشرين سنة ولم يقع له من الحوادث الاجنبية شئ يذكر ولكن قامت عليه النصارى لاسباب نقموها عليه فهرب واختفى مدة ثم استقدموه بعد أن تاب واستغفر ولبث فى منصب البطريكية الى أن مات فأقاموا بعده مرقس وهو الثامن بعد المائة واسمه يوحنا وكان راهبا بدير أنطونيوس بالجبل الشرقى وفى أيامه نقلت دار البطريكية من حارة الروم عند باب زويلة بالقاهرة الى الازبكية بالدرب المعروف بالدرب الواسع فصارت من حينئذ مقرا لبطاركة المتأصلين الى يومنا الذى نحن فيه ثم مات بعد أن أقام ثلاث عشرة سنة فأقاموا بعده بطرس وهو التاسع بعد المائة واسمه مرقوريوس وكان راهبا بدير أنطونيوس وأصله من بلدة جاولى بصعيد مصر ووقع فى أيامه من الحوادث ماسيذكر فى محله

الفصل الثانى والعشرون

(فى سلطنة السلطان عبد المجيد خان بن السلطان محمود خان)

ثم قام بالامر بعد السلطان محمود خان ولده السلطان عبد المجيد بويع له بالملك يوم موت أبيه سادس عشرى ربيع الاول سنة أربع وخمسين ومائتين وألف هجرية أى سنة تسع وثلاثين وثمانمائة وألف ميلادية تولاها والفتنة قائمة ونار الحرب متأججة والامور فى خبال ونكال ودول أوروبا فى اقدام واحجام يوم معه ويوم عليه وكان قيصر الروس لاينكف عن طلب العمل بمعاهدة خونكار اسكله سى التى تعاقد فيها مع السلطان محمود على الذب والدفاع عن جميع بلاد الدولة واحتلال كل مايمكن احتلاله منها عند الضرورة وقد تزايد طلبه الى ذلك بعد استسلام جميع سفن الحرب السلطانية الى محمد على باشا وفناء أكثر العساكر العثمانية فى الحرب القائمة مع الخوارج وكانت دولتا الفرنسيس والانجليز تكرهان ذلك من قيصر الروس ولا ترغبان فى أن يكون له عليهما سابقة ولا كلمة وتخشيان أن يكون من وراء تلك المعاهدة احتلال الروس لمدينة القسطنطينية تكون الطامة الكبرى على سائر أوروبا فجعل سفراء الفرنسيس والانجليز والنمسا والبروسيا يعملون على مافيه استمالة دولة الروس الى جانبهم ومازالوا حتى أوعز القيصر الى سفيره بدار السلطنة بذلك فاجتمعوا بخسرو باشا صدر الدولة يومئذ وتناجوا فيما يصح جعله قاعدة للتعاقد مع محمد على باشا والكف عن القتال وأشار سفير النمسا والانجليز برد جميع مافتحه محمد على باشا من البلاد الشامية الى الدولة وأن لايعطى اليه الاديار مصر فقط فعارضهما فى ذلك سفيرا الفرنسيس والروس وقالا لابل يعطى اليه ملك مصر وايالات الشام الاربع وطال الجدال بينهم وما زالوا فى أخذ ورد حتى وافق سفير البروسيا سفيرى النمسا والانجليز وقال بقولهما فسقط رأى سفيرى الفرنسيس والروس وتقررت القاعدة بينهم على أن لايعطى الى محمد على باشا سوى ديار مصر وأن يؤخذ منه جميع ما افتتحه من بلاد الدولة ثم أشار سفير النمسا بعقد مؤتمر دولى اما فى عاصمة النمسا واما فى عاصمة الانجليز لاتمام ما بقى متعلقا بمصر فلم تصادف اشارته قبولا وعارضه سفيرا الفرنسيس والانجليز وكذلك سفير الروس وقال ان مولاى القيصر لايقبل أن يكون لمؤتمر دولى حق تجديد علاقة مملكته السياسية مع دار السلطنة العثمانية وأنه لايتنازل عن العمل بما أباحته معاهدة خونكار اسكله سى من الذب والدفاع عن جميع أملاك الدولة العثمانية بما أعده القيصر من الجيوش البرية والسفن الحربية واحتلال معظم ايالات الدولة اذا لم ينكف الامير ابراهيم عن القتال والتغلغل فى قلب بلاد الدولة فهال سفيرى الفرنسيس والانجليز هذا الطلب وخافا شر عاقبته وطلبا من صدر الدولة أن يجيز لمراكب الحرب الانجليزية والفرنسوية العبور من بوغاز الدردنيل لدفع غارات الروس والمصريين عن بلاد الدولة عند الحاجة وسيرت دولة الانجليز الى القسطنطينية احدى مراكب حربها

المسماة ستو بفورد للمخابرة مع السلطان فى ذلك وكثر القيل والقال وساء بقية السفراء مافعله سفير الانجليز وتجرد سفير الروس الى المقاومة والاصرار على ماطلبه وسير الى صدر الدولة يقول ان أباح السلطان لمراكب الانجليز والفرنسيس العبور من الدردنيل قطعت كل علاقة بين حكومتى ودار السلطنة وخرجت من القسطنطينية بلا مهل * وكانت مراكب الانجليز والفرنسيس على مقربة من البوغاز تنتظر ما يرد اليها من الاخبار * وأرسلت دولة النمسا الى عاصمتى الفرنسيس والانجليز تقول ان ما فعله سفيراكما من الشدة والعنف لا يكون من ورائه الا فصم عروة الاتحاد وقيام الحرب على قدم وساق ولذلك فهى تصمم على الانسحاب من دائرة ذلك التحالف اذا بقى الحال هكذا وتكون مطلقة اليدين فيما تنوى فعله * وكان السلطان ميالا الى اجابة طلب مبعوث الانجليز فكان خسرو باشا يجب اليه ذلك فلما اشتد الخصام بين مندوبى الدول وكبرت الفتنة خشى السلطان العاقبة فلم يجب مطالب مبعوث الانجليز وأوعز الى الصدر الاعظم بان يخابر الدولتين فى أمر ابعاد مراكبهما عن الدردنيل ففعل ففشلوا جميعا وتفرقت كلمتهم وذهب كل الى مذهب وتعطلت المخابرة أياما كثيرة

مطلب
عزم دولة الانجليز على اكراه محمد على باشا على رد جميع ما أخذه واشتداد الخلاف بينها وبين دولة الفرنسيس بسبب ذلك

فلما كان شهر شوال سنة خمس وخمسين ومائتين وألف هجرية سيرت دولة الانجليز رسولا من قبلها اسمه اللورد بونسبى الى دار السلطنة العثمانية يقول للسلطان ان دولة الانجليز متأهبة لان تكره محمد على باشا على رد جميع ما اغتصبه من المراكب العثمانية وترغمه الى الطاعة والاخلاد الى جميع مطالب السلطان بشرط أن تدخل مراكب الحرب الانجليزية الى بوغاز القسطنطينية لدفع الروس اذا اعتدوا على بلاد الدولة فساء ذلك دولة الفرنسيس واستعظمته وأوعزت الى أمير مراكب حربها الراسية فى بحر الروم بان لا يعاون مراكب الانجليز على قتال محمد على باشا ولا يشترك معها فى أى عمل كان وأن يكون دائما على قدم التأهب والاستعداد وطيروا الاخبار بذلك الى الآفاق فعم الخوف وظن الناس أن الحرب بين الدولتين الانجليزية والافرنسية صارت على قاب قوسين أو أدنى وأخذت بقية الدول حذرها وكتبت دولة النمسا تقول انها تأبى التداخل فى هذه المسألة بعد أن خابت سعيا فى عقد المؤتمر الذى أشارت به وجاهرت دولة الفرنسيس بميلها الى الذب عن محمد على باشا وتعضيده فى جميع مطالبه وقالت لابد من اعطائه ولايتى مصر والشام له ولذريته من بعده واقليمى أطنه وطرسوس له مدة حياته فخالفتها فى ذلك دولة الانجليز وقالت لايعطى اليه الا ولاية مصر فقط وأصرت على ذلك فلما رأت من دولة الفرنسيس قرما عنيدا عادت الى مسايرتها وأشارت باعطائه أيضا النصف القبلى من بلاد الشام مدة حياته واشترطت أن لاتكون مدينة عكا داخلة فى ذلك النصف فأبت دولة فرنسا عليها ذلك وألحت بقبول مطالبها اذ المصلحة فيها للطرفين وطال الاخذ والرد بين الدولتين أياما فكان لاينكف فيها رسول الانجليز عن استمالة سفراء الدول الأخرى الى الاخذ بمشورته

حتى ظفر وفاز وكتبت دولتا النمسا والبروسيا تقولان إنهما توافقان على ما أشار به رسول الانجليز وتعضدان مطالبه فى السر والجهر

وكانت دولة الروس الى هذا الحين تراقب الفرص فلما تحققت من اشتداد الفتنة بين دولتى الانجليز والفرنسيس واختلاف الغاية سيرت الى عاصمة الانجليز رسولا اسمه البارون دى برونو يقول ان دولة الروس تترك للانجليز حرية العمل فى مصر ولا تأنف من مساعدتهم على اخضاع محمد على باشا بشرط أن تتمكن الروس من وضع جيش فى مدينة سينوب الواقعة على شاطئ البحر الاسود بالقرب من دار السلطنة العثمانية لتيسير الدفاع عن مدينة القسطنطينية اذا زحف عليها الامير ابراهيم بعساكره فمال اللورد بالمرستون كبير سياسة الانجليز يومئذ الى ذلك واستحسنه وحسبه من مسببات الفوز والغلبة وهم بانفاذه فرأى من استنكار كبار الدولة وأصحاب الحل والعقد له واستقباحهم اياه ما أقعده فحاول الاستظهار عليهم فلم يفلح فمال الى المواربة وسأل مبعوث الروس أن يكلم القيصر فى أمر تخليه عن جميع تلك الحقوق الممنوحة له بمعاهدة خونكار اسكله سى من حماية جميع بلاد الدولة العثمانية فاذا تخلى عنها أنفذ له مطالبه وتعاقد معه على ما فيه المصلحة فلم يقبل القيصر ذلك واستنكره وأوعز الى رسوله بمبارحة عاصمة الانجليز فرحل عنها وتعطلت المخابرة وأعرضت عنها جميع الدول * وعلم محمد على باشا بما تنوى له دولة الانجليز من السوء وما صممت عليه من أخذ جميع ما افتتحه من بلاد الدولة وارجاعه الى طاعة السلطان ومساعدة جميع الدول لها الا دولة الفرنسيس وان لا قدرة لدولة الفرنسيس على الدفاع عنه ومعاداة جميع هاته الدول فعمد الى التأهب والاستعداد وتجرد للدفاع ما استطاع وأوعز الى سليمان باشا الفرنسوى بتقوية الحصون والقلاع الشامية جهد الاستطاعة وعلى الخصوص منها قلاع عكا وبيروت ورسم بتكليف جميع أهل الشام بحمل السلاح والتدرب على الحركات العسكرية للقيام بها عند الحاجة واستقدم جميع العساكر المصرية التى كانت فى نجد والحجاز وأهمل شأن تلك الاصقاع وأطلق سراح محمد بن عون شريف مكة وقد كان محجورا عليه بالقاهرة فسار الى مكة وجعل يتصرف فى أمورها على ما تقتضيه مصلحته وأنفذ الى ولده الامير ابراهيم بالالتفات والأخذ بأسباب الحزم فبالغ الامير ابراهيم فى ذلك وبث العيون والارصاد وحاسب أهل الشام على الذرة والبرة فانكمشوا وانكفوا وأخلد كبارهم الى الطاعة خوفا من جبروته وبقى الحال هكذا الى أوائل سنة ست وخمسين ومائتين وألف هجرية واذا بدولة النمسا قد عادت الى الالحاح بطلب عقد المؤتمر فى مدينة فينا لفض جميع المسائل المتعلقة بمصر ومنع جميع القلاقل المترتبة على بقاء هذه المسألة عرضة لاغراض الدول وسببا لوقوع التخاصم بينهم فأجابتها الدول حينئذ الى عقد المؤتمر بلندن عاصمة الانجليز وحضره مبعوث من دار السلطنة العثمانية بناء على طلب دولة الفرنسيس فلم يتفقوا على

مطلب
تأهب محمد على باشا للقتال بعد أن علم بتألب الدول عليه مع السلطان ماعدا دولة الفرنسيس

حال

مطلب
قيام تيرس كبير سياسة الفرنسيس لنصرة محمد على باشا وتعاقد الدول على العمل ضد محمد على باشا

حال من الاحوال وأصرت كل من دولتى الفرنسيس والانجليز على ما طلبته ثم انصرفوا على غير طائل وتعطلت المخابرة ووقفت عند حدها الذى كانت عليه * واتفق بعيد ذلك بقليل أن تولى الموسيو تيبرس رياسة الحكومة الفرنسوية وكان يكره أن تحل المسئلة المصرية جميع الدول و يرغب أن يكون حلها بينه وبين السلطان مباشرة فما استقرّ به المنصب حتى سير الى السلطان من يعلمه بوجوب ترك ايالات الشام ومصر الى محمد على باشا وذريته من بعده ويتوعده بقيام دولة الفرنسيس للذب والدفاع عن محمد على باشا ان أبى عليه ذلك وسير أيضا الى محمد على باشا يمنيه بالامانى الطويلة ويحضه على نبذ مطالب دولة الانجليز وعدم الالتفات اليها وان يثابر على الجد والاجتهاد وتقوية الحصون والقلاع الشامية وانه سيأتيه المدد من عسكر الفرنسيس اذا هم الانجليز باكراهه على قبول مالايحب فتقوت عزائم محمد على باشا قيل ولكنه كان يحسب ما وراء تأاب بقية الدول على معاكسته فكان كثير الوساوس شديد الهواجس بعيد النظر فى العواقب فلما علم اللورد بالمرستون كبير سياسة الانجليز بما فعله تيبرس صاحب سياسة الفرنسيس تجرد الى المقاومة وعمد الى اغراء دولة الروس والنمسا و بروسيا على التحالف معه على صد اغارات الامير ابراهيم ورد جميع ماأخذه من البلاد الشامية وارجاعه الى طاعة سلطانه وما زال بهم حتى أفلح وتعاقدوا معا على هذا العهد

أولا — الزام محمد على باشا بارجاع جميع ما أخذه من بلاد الدولة ما عدا الجانب القبلى من ولاية الشام دون مدينة عكا

ثانيا — محاصرة السفن الانجليزية والسفن النمساوية للموانى الشامية ومساعدة جميع من أراد من أهل الشام على خلع طاعة الامير ابراهيم والخروج على العساكر المصرية لاشغالهم عن مقاومة سفن الدولتين

ثالثا — دخول سفن روسية وانجليزية ونمساوية الى بوغاز القسطنطينية للذب عن المدينة اذا اتصلت بها العساكر المصرية

رابعا — عدم جواز عبور سفن احدى الدول المذكورات بوغاز القسطنطينية مادام الامن مستتبا فى المدينة

خامسا — وجوب تصديق الدول الثلاث المذكورات على هذا العقد فى مدة لاتتجاوز الشهرين وأن يكون هذا التصديق فى مدينة لندن

وأضافوا الى هذا العقد صكا موقعا عليه من مبعوث دار السلطنة فيه بيان لما وقع الاتفاق على اعطائه الى محمد على باشا من الحقوق * قال بعض كتاب الاخبار * وعز على كبير سياسة الانجليز الصبر فعمد الى دس الدسائس واثارة الفتن بين أهل لبنان وأوعز الى سفيرهم بدار السلطنة أن يعجل فى ذلك فسير السفير ترجمانه المدعوّ (وود) الى الشام فوصلها ولم يلبث بها أياما حتى ظهرت الفتنة وعمت البلاد وخرج الشاميون على الامير ابراهيم وامتنعوا من دفع الخراج وحمل المؤن للجند فركب الامير ابراهيم وسليمان باشا الفرنسوى والامير عباس

على أهل الثورة وقاتلوهم حتى أخضعوهم وأرجعوهم الى الطاعة صاغرين وجاء المدد من مصر فتقوت عزائم المصريين ونالوا من الشاميين وأطفؤا نار الثورة وبالغ سليمان باشا فى تحصين مدينة بيروت وجعلها على أهبة الدفاع وشحنها بالمؤن والذخيرة وأنشأ القلاع والحصون بالثغور والمدن وتأهب لصد الاعداء برا وبحرا وأرسل الى محمد على باشا يطلب المدد من طريق البحر فعلم كبير سياسة الانجليز بذلك وأوعز الى الاميرنابيرمن أمراء سفن الحرب الانجليزية بالوقوف بسفنه فى طريق الشام والاسكندرية واحراق كل ما يلاقيه من السفن المصرية وأسرما يمكن أسره منها فأحس كبير السياسة الفرنسوية بذلك فسير فى الحال مركبا الى مدينة بيروت لتخبر قائد الجيوش المصرية بالخبر وجاء النبأ الى محمد على باشا فأزعجه واسترجع ما كان قدسيره من تلك السفن ووصلت السفن الانجليزية مع نابير الى الاسكندرية فلم تعثر فى طريقها على واحدة من السفن المصرية

ولما كان خامس عشر جمادى الاولى سنة ست وخمسين ومائتين والف هجرية تم توقيع الاحزاب على معاهدة لندن وصدق عليها السلطان فصار معمولا بها من ذلك اليوم ولم يمض عليها شهر حتى أبلغها قناصل الدول المتعاهدة الى محمد على باشا وعرضوا عليه ما اتفقت عليه كلمة دولهم من اعطائه ولاية مصر له ولذريته من بعده وولاية نصف الشام بما فيها عكا مدة حياته ثم ترد الى مملكة السلطان بعد موته وضربوا له أجلا عشرة أيام قيل فأزعجه هذا الحال وأحزنه ومضى الاجل المضروب فلم يجب الابالسلب والامتناع وعدم التسليم فى شئ مما تطلبه الاحزاب فأخبره القناصل بأن امتناعه عن قبول ذلك قد أسقط حقه أيضا فى أخذ مدينة عكا مدة حياته وصارت الدول لا تسمح له بشئ سوى ولاية مصر فكبر غيظه وراجعهم فى الكلام فقالوا لا سبيل الى غير ذلك وقد أمهلناك عشرة أخرى فأصر على الامتناع وانقضت المهلة ولم يجبهم فسيروا الانبياء بذلك الى دار السلطنة ولما ضربوا له الاجل الأول ولم يجب رسم السلطان بعقد مجلس فى دار شيخ الاسلام حضره المشايخ والعلماء وأصحاب المراتب العالية وتباحثوا فى امتناع محمد على باشا وتأهبه للذب والدفاع فبعد أخذ ورد أفتى الشيخ بسقوط حكم محمد على باشا من الشام وخلعه وقرئت هذه الفتوى فى سائر مساجد دار السلطنة وورد الخبر بما جرى الى محمد على باشا فارسل الى السلطان يقبح ماأفتى به شيخ الاسلام ويقول أما ولاية مصر فهى من حقوقى وحقوق أولادى الوراثية وأما الشام فلا أتخلى عنها بعد الذى أرقته فيها من الدماء وصرفته من الاموال الطائلة

مطلب اطلاق سفن الانجليز القنابل على بيروت وسائر السواحل الشامية وما كان من وراء ذلك

وجاء الامر الى نابير أمير سفن الحرب الانجليزية بالتأهب لاطلاق المدافع على بيروت وجميع السواحل الشامية وأخذها من أيدى المصريين فسار بسفنه قاصدا بيروت وأخذ فى طريقه كلما صادفه من مراكب التجارة المصرية ولحق به أيضا الاميرال ستفورد ومعه ثمان سفن حربية من القطع الكبار ولحقتهم التجريدة العثمانية من قبرص وهى زهاء

ستة آلاف مقاتل تحملها ثمان وعشرون قطعة من سفن النقل الانكليزية ومقدمها الامير واكر وأرسى نابيير سفنه أمام حصون بيروت وأرسل الى سليمان باشا الفرنسوى مقدم العساكر المصرية بها يعلمه بسرعة التخلى عن المدينة والجلاء عنها وسير الى من بعكا يخبرهم بذلك أيضا وطير الاخبار الى الآفاق بما تقرر شرعا من خلع محمد على باشا وتنزيله عن ولاية الشامات وحض أهل الشام جميعا على الخروج وشق عصا طاعة الامير ابراهيم فبدأت عند ذلك تظهر علامات الوحشة بين الفريقين وأخذ كل حذره وجعل سليمان باشا يرتب عسكره ويزيد فى تحصين القلاع والحصون ويبعث البعوث الى بقية الثغور للحض على اليقظة والالتفات وأرسل محمد على باشا الى الموسيو تيرس كبير السياسة الفرنسوية يستنهضه الى الوساطة فى الأمر والرجوع بالاحزاب الى اللين وترك الشدة فتجرد الموسيو تيرس الى ذلك وبالغ فى الارهاب وجعل يتأهب ويحشد الجيوش ويعد المعدات للذب والدفاع عن جميع مطالب محمد على باشا * قال بعض كتاب الاخبار ولكنه رأى أنه فى حاجة الى شئ من السلاح والذخيرة لفراغ المخازن منها يومئذ وانه ينقصه أشياء أخرى من معدات الحرب فكاد يسقط فى أمره وشاع الخبر بذلك بين الفرنسيس فقاموا على كبير سياستهم وقبحوا فعاله ونادوا بالويل والثبور ورموه بالخيانة والغدر ووسموه بالكذب والفجور حيث حرض محمد على باشا على مقاومة الاحزاب وشق عصا طاعة سلطانه ثم عاد فتخلى عنه عند شديد الحاجة وجعلوا يطوفون جماعات حول بيته وهم يهزؤن ويسخرون به ويصيحون فكبر عليه الأمر واستعظمه وأنزل نفسه عن منصب الرياسة واعتزل موقف هذه السياسة فى سلخ رمضان سنة ست وخمسين ومائتين وألف هجرية وجاء الأمر الى أمير سفن الحرب الفرنساوية التى كانت راسية يومئذ على مقربة من بيروت بسرعة العود الى جزائر اليونان ثم الى بلاد الفرنسيس فأقلعت من فورها وتركت الشام ومصر هدفا لرمى قنابل سفن الاحزاب فعد ذلك لدولة الفرنسيس من الغلطات المسوّدة لوجه تاريخ حسناتها فى ديار مصر وهكذا سياستها عند اشتداد الكروب وتفاقم الخطوب ومثل هذا سواء بسواء ما فعلته مما نجم عنه ظهور الثورة العرابية كما سيتلى عليك فى محله ان شاء الله

ولما كان الخامس عشر من رجب الفرد سنة ست وخمسين تقدمت سفن نابيير الانجليزى نحو حصون بيروت ورمتها بالقنابل وراسلت الرمى لحظة ثم انكفت وأرسل نابيير الى سليمان باشا الفرنسوى يقول له أن تخل عن الحصون وانجل بعسكرك عن المدينة قبل أن أدكها عليكم دكا فأرسل اليه سليمان يقول ان تدخلوها الا خرابا بلقعا ولم نسلم لكم فيها وقفينا رجل وكان قد سير الى الامير ابراهيم فى بعلبك أن يحدر الى بيروت بمن معه من العساكر والاجناد فحضر ونصب خيامه ظاهر بيروت وباتوا ليلتهم ثم أصبحوا وقد اقتربت جميع السفن من المدينة وأطلقت عليها القنابل واشتدت فى القتال شدة بالغة حتى أحرقت

المدينة ودكت أسوارها وتقدم الارشيدوق فردريك أمير سفن الحرب النمساوية بمركبه وأطلق مدافعها على بيت المرضى من العساكر والاجناد المصرية وكانت عليه راية سوداء اشارة الى أنه بيت المرضى فلم يحفل بها وأطلق على جدران ذلك البيت القنابل حتى دكه على من به من المرضى ولم تأخذه شفقة ولا حنان وهم يقولون بأنهم أنصار المروءة واخوان الرحمة وتمكن نابيير من تنزيل طائفة من العساكر العثمانية والانجليزية الى بيروت وسير بعض السفن الى عكا وبقية الثغور فدمرتها بنيران المدافع وأصلت من بها من المصريين نارا حامية * وانتقض أهل الشام ولبنان وخان الامير بشير الشهابي العهد واليمين الذى حلفه للامير ابراهيم فاشتدت نار الفتنة وعمت جميع البلاد وصار المصريون بين منتطح عنزين وتساقطت عليهم نيران الاعداء من البر والبحر فانجلى من بقى منهم عما كان بأيديهم من القلاع والحصون وخرجوا وهم فى أسوء حال لامؤن ولا زاد ولا دواب للحمل الا القليل وتبعهم الشاميون يتخطفون ساقهم ويمنعون عنهم الواصل من الماء والميرة فاشتد بهم الجوع شدة بالغة فأكلوا جميع ما كان معهم من دواب الحمل حتى أكلوا جذوع الاشجار وما صادفوه من الحشيش اليابس وشربوا بول البهائم وفشا فيهم الموات بالحميات الخبيثة وما زالوا يجدّون السير ويدافعون عن ساقهم والعدوّ من خلفهم حتى وصلوا الى حدود الديار المصرية وقد ذاقوا مرارة التعب وقاسوا شديد النصب وتحملوا ما تكل عن وصفه الاقلام ولا تحيط بنعته الاوهام وتركوا تلك الديار التى ترطب أديمها بدماء اخوانهم حينا من الدهر * وسار نابيير بست من سفنه الكبار الى الاسكندرية ورسا أمام مقر محمد على باشا برأس التين وأرسل اليه يطلب تنازله عن جميع الحقوق التى تقررت بمعاهدة كوتاهيه فأبى محمد على باشا ذلك فأغلظ نابيير فى القول وشدد فى الطلب وتهدده بحرق الاسكندرية وبخلعه من منصب الولاية على مصر أيضا ان هو أصر على الامتناع والعناد وضرب له أجلا ضيقا وأرسل يقول ان مضى الاجل ولم توقع على عقد التنازل أحرقت المدينة وجعلتها رمادا فكبر الامر على محمد على باشا وأحزنه جدا وترددت الرسل بينه وبين محمد على باشا عسى أن يصلوا الى أمر فيه المصلحة فلم يفلحوا وأبى نابيير الا ما أراد فأجابه محمد على باشا الى ما طلب فأقلع نابيير بسفنه راجعا الى دار السلطنة وعاد محمد على باشا الى الشكوى فرفع أمره الى دولتى الفرنسيس والروس وشكا مما فعله نابيير فعمدت الدولتان الى ابطال ذلك العقد وعملتا جهد الاستطاعة على احباط مساعى دولة الانجليز نظرا لتفردها بالعمل وتجاوزها حد الوساطة وشددتا فى ذلك وكادت الروس تتحد مع الفرنسيس على ما فيه الاضرار بالدولة العثمانية فخشى السلطان شر العاقبة وعمد الى الملاطفة والمجاملة وأنفذ الى محمد على باشا بأن تكون ولاية مصر فى عقبه وللسلطان أن يختار منهم الاليق فامتنع محمد على باشا من قبول ذلك أولا ثم عاد فرضى به وتقررت القاعدة بين الفريقين نهائيا وتم الاتفاق

مطلب
وصول فرمان السلطان الى محمد على باشا بجعل ولاية الديار المصرية فى عقبه وتحديد حقوق الولاية وماجاء بعده من الفرمانات

فلما كان حادى عشر ذى الحجة سنة ست وخمسين ومائتين وألف هجرية ورد فرمان السلطان بذلك الى مصر فأبلغته قناصل الدول الى باغوص بيك ناظر الخارجية يومئذ ونصه

قد رأينا بسرور ماعرضتموه من البراهين على خضوعكم وتأكيدات أمانتكم وصدق عبوديتكم لذاتنا الشاهانية ولمصلحة بابنا العالى من طول اختباركم وما لكم من الدراية بأحوال البلاد المسلمة ادارتها لكم من مدة مديدة لايجعلان عندنا ريبا بأنكم قادرون بما لكم من الغيرة والحكمة فى ادارة شؤن ولايتكم على الحصول من لدنا الشاهانى على حقوق جديدة ونظرا لعطفاتنا الملوكية وثقتنا بكم فلا بد أنكم تقدّرون احساساتنا اليكم حق قدرها وتجتهدون فى بث هذه المزايا التى التزمتم بها الى أولادكم ولذلك قد صممنا على تثبيتكم على ولاية مصر وسلمنا لكم زمامها حسب الحدود المبينة بالخريطة المرسومة لكم من لدن صدر دولتنا الاعظم وقد منحنا كم فضلا عن ذلك الولاية بطريق التوارث بالشروط الآتية

عند ما يخلو منصب الولاية المصرية تعهد الولاية الى من تنتخبه سدّتنا الملوكية من أولادكم الذكور وتجرى هذه الطريقة فى حق أولاده أيضا الى ما شاء الله فاذا انقرضت ذريتكم الذكور فلا حق لاولاد بناتكم الذكور فى الولاية وارثها ومن وقع عليه من أولادكم الانتخاب للولاية على ديار مصر بالارث من بعدكم وجب عليه الحضور الى دار السلطنة لتقليده الولاية بشرط أن حق التوارث الممنوح لكل وال منه لا يمنحه رتبة ولا لقبا أعلى من رتبة سائر الوزراء ولقبهم ولا حقا فى التقدم عليهم بل يعامل بنفس معاملتهم وجميع خطنا الشريف الهمايونى الصادر عن كلخانه وكافة القوانين الادارية الجارى العمل بها أوتلك التى سيجرى العمل بها فى جميع ممالكنا العثمانية وجميع العهود المعقودة أوالتى ستعقد فى مستقبل الايام بين بابنا العالى والدول المتحابة يجب العمل بها جميعها فى ولاية مصر أيضا وتحصيل جميع الاموال والضرائب المفروضة على أهل مصر باسمنا الملوكانى

ولكى لايكون أهل مصر الذين هم من بعض رعايا بابنا العالى معرضين للمضار والضرائب الغير القانونية يجب أن تنتظم تلك الضرائب بما يوافق حالة ترتيبها فى سائر الممالك العثمانية ويرسل الى خزينة بابنا العالى العامرة ربع الايرادات الناتجة من جميع الرسوم الجركية ومن بقية الضرائب التى تتحصل فى سائر الديار المصرية ولا يتأخر منه شئ البتة والثلاثة أرباع الباقية تبقى لولايتكم للقيام بنفقة التحصيل والادارة والعسكرية ونفقات الوالى وأثمان الغلال التى تقوم مصر بتسييرها فى كل عام الى الحرمين الشريفين ويبقى هذا الخراج مستمرا أداؤه على هذا الوجه مدة خمس سنوات تبتدئ من عام سبع وخمسين ومائتين وألف هجرية ويصح تعديل ذلك بطريقة أخرى فى مستقبل الايام تكون أكثر موافقة لحالة الايالة المصرية ونوع الظروف والمناسبات التى تطرأ عليها

ولما كان من واجب بابنا العالى الوقوف على مقدار الايرادات فى كل عام وكيفية تحصيلها لاسيما تحصيل العشورى منها وجباية بقية الضرائب وكان الوصول الى معرفة هذا كله يستلزم تعيين عمدة يخول حق المراقبة على جميع أعمال ايالة مصر فينظر فى ذلك فيما بعد ويتقرر ما يوافق ارادتنا السلطانية ونظرا لاهمية طريقة سك النقود ووجوب تقرير قاعدة ثابتة لهذا الامر المهم كى لا يحدث فيها خلاف لامن جهة العيار ولا من جهة القيمة فقد اقتضت ارادتنا السلطانية أن تكون جميع النقود من الذهب والفضة التى يجوز لايالة مصر ضربها باسمنا الشاهانى معادلة للنقود المضروبة فى الضربخانة السلطانية العامرة سواء كانت فى العيار أوفى الشكل ولا يكون لايالة مصر فى أوقات السلم أكثر من ثمانية عشر ألفا من الجند للمحافظة على داخلية البلاد بحيث لايجوز أن تزيدوا على هذا العدد شيأ البتة غير أنه لما كانت قوات مصر العسكرية هى معدة لخدمة ممالكنا المحروسة أسوة ببقية ايالاتنا العثمانية فلذلك يسوغ أن يزاد هذا العدد فى زمن الحرب بما يرى لزومه ويراعى فى خدمة الجندية بايالتكم ماهو مقرر ومتبع فى كافة ممالكنا المحروسة وهى بعد أن تخدم الجند خمس سنوات يستبدلون بغيرهم من أبناء البلاد وهذه القاعدة يجب اتباعها فى ايالة مصر بحيث ينتخب ممن يكون فى الخدمة حالا بعد الذين أمضوا تلك المدة عشرين ألفا فيبقى منهم ثمانية عشر ألفا بمصر والالفان الباقيان يرسلان الى الاستانة لاداء مدة خدمتهم وحيث ان خمس هذا القدر يعنى العشرين ألفا واجب استبداله سنويا فيطلب فى كل سنة من مصر أربعة آلاف حسب القاعدة المقررة فى نظام العسكرية عند سحب القرعة بشرط أن تستعمل مواجب الانسانية ونزاهة القصد والسرعة المقتضية فى هذه الاحوال فيبقى فى مصر ثلاثة آلاف وستمائة جندى ممن ينتخبون حديثا ويرسل منهم أربعمائة الى الاستانة فمن أتم منهم خدمته سواء كان ذلك بمصر أوبدار السلطنة عاد الى بلده ولا يجوز طلبه للخدمة مرة ثانية هذا وبما أن طبيعة بلاد مصر وهواءها ربما يستلزم أن تكون أقمشة ملابس عسكرها غير أقمشة ملابس عسكرنا المنصور فلا بأس بذلك انما يراعى جيدا أن لاتختلف هيئة الملابس والعلائم التمييزية ورايات الجنود المصرية عن مثلها من ملابس ورايات سائر عسكرنا المظفر وكذا ملابس الضابطان وعلامات امتيازاتهم وملابس البحرية والعساكر البحرية ورايات السفن المصرية يجب أن تكون كملابس ورايات وعلامات رجالنا وسفننا ويجوز للحكومة المصرية أن تمنح ضابطان البر والبحر الى حد رتبة الملازم أما ما كان من فوق ذلك فرجع الامر فيه الى ارادتنا الملوكانية ولا يسوغ منذ الآن لوالى مصر أن ينشئ سفنا حربية الا باذننا الخصوصى * ومن المعلوم أن الامتياز المعطى من لدنا بوراثة مصر هو معلق بجميع الاشتراطات المبينة آنفا فاذا توقف تنفيذ هذه الاشتراطات كان الامتياز المذكور لاغيا لاعمل له وبناء على ذلك قد أصدرنا خطنا هذا الشريف الملوكانى لتعرفوا أنتم وذريتكم قدر ماجبلنا عليه

من الاحسان فتقوموا مع تمام الاعتناء بتنفيذ الاشتراطات المدونة آنفا وتمنعوا عن أهل مصر كل مايكرهونه وتكفلوا أمنيتهم وسعادتهم وتجتنبوا كل مخالفة لسائر أوامرنا السلطانية مع اخبار بابنا العالى عن جميع المسائل المهمة المتعلقة بالبلاد المعهودة ولايتها لكم اه

وورد مع هذا الفرمان فرمان آخر بتوجيه ولاية النوبة ودارفور وكردفان وسنار الى محمد على باشا مدة حياته فقط ثم تعاد بعد موته الى السلطنة العثمانية فيوليها السلطان لمن يشاء ونصه ۞ حيث قد تثبتم على ولاية مصر بمقتضى ماهو واضح بفرماننا السلطانى الصادر اليكم ووافق ارادتنا الشاهانية توريث ذريتكم من بعدكم مسند هذه الولاية بشروط وحدود معلومة ومعينة فقد قلدتم أيضا فضلا عن ولاية ديار مصر ايالات النوبة ودارفور وكردفان وسنار وجميع ملحقاتها الخارجة عن حدود مصر ولكن بغير توارث فبناء على ماهو معهود فيكم من الحكمة والاختبار وما أمرتم به من التمسك بهما تقومون بادارة هذه الايالات وترتيب جميع شؤنها بما ينطبق على عدالتنا ويوافق رغائبنا السلطانية مع توفير أسباب السعادة لسائر الرعية وترسلوا فى كل سنة الى بابنا العالى قائمة ببيان الايرادات السنوية جميعها

وحيث انه فى غالب الاحيان يصير الهجوم من العساكر والاجناد على القرى والبلدان بتلك الاصقاع فيأخذون منها مايقدرون على أخذه من الشبان الذكور والاناث ويتصرفون فيها بالبيع وغير ذلك نظير مرتباتهم وعلوفاتهم فهذه الفعال فضلا عما يترتب على استمرارها من انقراض أهالى تلك الديار فانها من الامور المخالفة للشريعة الاسلامية المطهرة وكذلك أيضا ماهو شائع ومستعمل فى جب الرجال أى جعلهم خصيانا لخدمة النساء فانه من أفظع الامور التى لاتنطبق على ارادتنا السنية لما فيها من مخالفة مبادئ العدل والانسانية التى هى من أجل مقاصدنا منذ جلوسنا على عرش الخلافة العظمى فعليكم مداركة جميع هذه الامور بما ينبغى من العناية والاعتناء ومنع حدوثها فى المستقبل واعلم أنى قد عفوت عن جميع الضابطان والعساكر وباقى المأمورين الموجودين الآن بديار مصر الا من وصلوا منها بمراكبنا الحربية فاستسلموا وكما قلنا بفرماننا السلطانى المرسل اليكم قبل هذا أنه يجوز لكم منح سائر الضابطان من البرية والبحرية لحد رتبة الملازم فقط فلا بأس من ارسال جدول باسماء من رتبتم من ضابطان العسكر المصرى الى بابنا العالى لينال التصديق منا وترسل لكم الفرمانات المثبتة لرتبهم هذا مااقتضته ارادتنا الشاهانية ووافق رغبتنا السامية السلطانية فعليكم المبادرة فى العمل بمقتضاه اه

فلم ير محمد على باشا بدا من الطاعة وخفض الجناح لهذه الشروط على مافيها من الحيف والقهر وذل النفس بعد الذى نالته عساكره من الفوز والغلبة ولكنه كتب الى الدول يشكو

من جور هاته الشروط وشدة مافيها من الحجر والتضييق ويسألها الوساطة فى تحديد شروط الوراثة وجعلها لا كبر أولاده من بعده وتحديد مبلغ الخراج وجعله قدرا يحمل فى كل عام الى الخزينة السلطانية ومنحه حق اعطاء الرتب والقاب الشرف للضابطان البريين والبحريين الى رتبة الميرالاى فأجابته الدول الى ذلك وخابرت السلطان فى الامر فأجابها الى ماطلبت وسير الى محمد على باشا الفرمان بذلك فى عاشر جمادى الاولى سنة سبع وخمسين ومائتين وألف هجرية ونصه

ان الحضرة الفخيمة السلطانية تلقت ماتعطفت عليها به الدول المتحالفة من النصائح فى هذه الواقعة أيضا ولذلك قد منحت محمد على باشا وتكرمت عليه بالامتيازات الآتية بشرط انقياده الانقياد التام الى جميع الوثائق والمعاهدات المبرمة حالا والتى ستبرم فى مستقبل الايام فيما بين سلطنتنا العثمانية والدول المتحالفة * قد صار مسند ولاية ديار مصر من الآن فصاعدا ينتقل بالارث من محمد على باشا الى أولاده وأولاد أولاده الذكور بكيفية أن يتولاه الارشد فالارشد فيقلده الباب العالى مسند الولاية كلما خلا هذا المسند من وال وقد تنازلت سدتنا الملوكانية عن أخذ ربع ايرادات الايالة المصرية مقابلة تقرير مبلغ فى كل سنة يحمل الى خزينتنا السلطانية خراجا وهذا المبلغ سيقرر فيما بعد مع بيان كيفية تحصيله بما يناسب حالة ايرادات البلاد كما وانه من الآن فصاعدا صار من المرخص لمحمد على باشا أن يمنح من تلقاء نفسه رتب ضابطان البرية والبحرية الى رتبة الاميرالاى فقط وما زاد عن ذلك يعرض عنه لبابنا العالى أماما يتعلق بادارة الايالة الداخلية التى يجب أن تكون على مثال الادارة الجارية فى جميع مما لكنا المحروسة فهو وان كان محمد على باشا لم يتكلم عنها بشئ حسبما يقتضيه الحال من الصراحة مع كونه قد سبق تقرير ذلك بالعقد الملحق لمعاهدة المحالفة ولكن لكى لايدع الباب العالى سبيلا للدول المتحالفة بالتضرر منه كما لوحدث أن وقع من محمد على باشا فى مستقبل الايام أمور مخالفة لوجه مهم من الاوجه المستندة على المعاهدة المحكى عنها قد تقرر أن تطلب أولا الايضاحات والتقريرات المذكورة من قبلكم كتابة اه فقبلت الدول المتحالفة هذا التحوير وأشارت بتأييده فجاء الفرمان بذلك الى محمدعلى باشا ثم ورد فرمان آخر فى غرة جمادى الاولى سنة سبع وخمسين وما ئتين وألف بتقرير مبلغ ثمانية آلاف كيس خراجا يحمل فى كل عام الى الخزينة السلطانية ووقفت المخابرات بين محمد على باشا وسلطانه يومئذ عند هذا الحد

مطلب وصول سيف ونيشان هدية من السلطان الى محمد على باشا

فلما كان رابع عشرى شعبان سنة سبع وخمسين قدم الى القاهرة رسول من دار السلطنة يحمل سيفا ونيشانا عاليا هدية من السلطان الى محمدعلى باشا فأنزلوه فى سراى شبرى واحتفلوا لملاقاته احتفالا شائقا وعملوا لذلك تشريفا بقلعة الجبل فى خامس عشرى الشهر اجتمع فيه جميع الامراء والكبراء ورجال الحكومة والمشايخ والعلماء * قال بعض كتاب

الاخبار ولم تكن هـذه الهـدايا لتـذهب ما علق بخاطر محمد على باشا من فعال رجال دار السلطنة ولا ما داخـله من الحقد على كبير سياسة الانجليز والبغض لهـذه الدولة فقد عملت حتى نالت منـه وسلخت عنـه الشام والحجاز وغـيرهما ولم تبق له الاولاية مصر والنـوبة وذهبت أمواله ودماء رجاله الذين فتحوا تلك الاصقاع ودوّخوها هدرا وانحصرت حدود مملكته وضاقت حلقة سلطنته وألزم بدفع الجزية صاغرا مبلغا قدره ثمانية آلاف كيس ذهبا تحمل الى الخزينة السلطانية فى كل عام وقل عدد عساكره الى ثمانية عشر ألفا لايلبسون الازى العسكرى السلطانى وقيدوا علاقتـه مع سائر الدول الاجنبية بقيود منها أنه لايجوز عقـد عهود أواستدانة شئ من المال الابأمر من دار السلطنة ولا يعطى شيأ من ألقاب الشرف ونياشين الاعتبار الا الى الدرجـة الثانيـة للملكيين ورتبـة أمـيرالاى للعسـكريين فخسر بسعايتهـم مالم يكن له فى حساب وقد كانوا يريدون اخضاعـه وارجاعـه الى طاعـة سلطانه بغير عهد ولا شرط * قال وسعوا فى حرمان ذريتـه من تولى منصب الولاية من بعده تشفيا وانتقاما لامور نقموها عليه منها أنهم كانوا اشتروا جزيرة عدن من أحـد مشايخ العربان مع أرض أخرى متصـلة بها بمبلغ من المال وأنشؤا بها حصنا عظيما لعلمهـم ماسـيكون لتلك الارض من الاهمية فى مسـتقبل الزمان فلما امتدت شوكة محمـد على باشا بالفتح الى خليج فارس وعلت كلمته وكبرت شهرته بتلك الاصقاع خاف الانجليز على مالهم من الاملاك الواقعة على شطوط البحر الاحمر فكتبوا الى محمد على باشا بان ينفذ الى عسكره النازلـين على تلك الجزيرة بالانجـلاء عنها خوفا من تألب العرب مع العساكر المصرية فيقومون على الانجليز النازلين بتلك الجزيرة فيكرهونهـم على الجـلاء عنها فأبى محمـد عـلى باشا عليهـم ذلك فبقيت فى حوزة جنوده تابعـة لمملكته حتى تنازل عنها الى سلطانه مـع مكة والمدينـة وجميع الديار الحجازية بغـير عهـد ولاشرط ۞ قال الراوى لهـذه الحادثة ونقموا على محمـد عـلى باشا أشـياء أخرى غـير هـذه فكانوا لذلك يظهرون له غاية البغض وينظرون الى فعاله بعـين المقت والحسـد ويخشون عاقبـة ظهوره فلم ينكفوا عنـه حتى أذلوه وأقعدوه عن كل عمـل فانكف عن الغزو والفتح ووقف عنـد حـد العناية باصـلاح شؤن مملكته وترتيب أمورها على ماتقتضـيه مصلحـة العباد والبـلاد وسالم سلطانه وخليفتـه وخفض له جناح الطاعة وأظهر له غاية الاخـلاص والولاء وسير ولده الامير محمد سعيد الى دار السلطنة ليرفع اليه فروض الاخلاص فنال الامير محمد من السلطان غاية الالتفات وحسن الوفادة فلما استأذنه بالرجوع الى مصر أذن له وأهداه كثيرا من الهـدايا والتحف النفيسـة والتحاف الثمينـة وأحسن الى من كانوا معه من الخدم والحشم والاتباع فكان لهذا الصنيع وقـع حسـن عند محمد على باشا فتجرد الى الاصلاح ۞ وكانت الحوادث المتوالية والمحن المتراكمة قد أمحلت البلاد وكادت تذهب مابقى بها من آثار العمران فعمد الى انشاء المعامل وضبط الصـنائع واحتكر تجارة جميع الاصناف ورالك الحياكة وجعـل لكل شئ ديوانا وكتابا وجعـل لكل

مطلب
كف محمـد على باشا
عن الحرب والعناية
باصـلاح شـؤن
مملكته

ديوان لما يحصل من غلات البلاد حواصل بكل بلد يأتى اليها الزراعون بما يحصل عندهم بثمن مقدر فيخصم منه ماعليه من الخراج ويباع مابقى الى تجار الاجانب الذين كانوا يأتون الى ديار مصر ليمتاروا وأنشأ معامل للحديد وأخرى للقطن وأخرى للكتان ومثلها لسائر أصناف الاقمشة من المقصبات والاجواخ ونحوها ونظم الشوارع ومهد الطرق وابتنى المبانى العظيمة ديارا للعلوم والصنائع وأنشأ بالاسكندرية معملا للسفن وصناعة البحار وكان قد أتى بسفن الحرب والدوارع من البلاد الاجنبية وأنشأ بها أيضا مدرسة لعلم البحار وأتى لها بالاساتذة من ديار الانجليز والفرنسيس واستقدم زهاء الالف وخمسمائة من فلاحى الفرنسيس وفرقهم فى البلاد البحرية والقبلية ليعلموا أهلها طرق الزراعة ويبثوا بينهم محبة وخدمة الارض ويكثروا من زراعة شجرة البن واستقدم المسيو جوميل الفرنسوى لزراعة القطن وقد كانت الى ذلك الحين هملا مهملا لايعرفون لها طريقا ففاز ونجح وكثرت زراعته واتسعت وأتى بنبات النيلة والأفيون وأكثر من غرس الاشجار الكبيرة النافعة وأنشأ الجنائن والبساتين العظيمة فى جزيرة الروضة وشبرى والازبكية وبالغ فى الاهتمام بأمر الطب وأتى له بالطبيب الشهير العلامة كلوت الفرنسوى فأنشأ مدرسة لذلك وأخرى للقوابل وعهد بادارتها الى الست جوت الفرنساوية وأخرى للطب البيطرى وسلم ادارتها الى المسيو هامون الفرنسوى وأنشأ ديارا لمرضى العسكر وأهل البلاد على أحسن مايكون من النظافة والنظام وجعلها تحت نظر المسيو دوساب والمسيو لبها وقد كان الطب الى هذا الحين كغيره هملا مهملا وسقطا مرذولا ليس بين أهل البلاد من يعرفه بل كانوا لايعوّلون الاعلى ماتصفه العجائز ولا يرضون الابأقوال المشعوذين والدجالين فكانوا اذا مرض أحدهم ذهب أهله فطرقوا له الودع والفول وقاسوا الاثر وحسبوا النجم فكل ماقاله لهم الدجال صدقوه واعتمدوا عليه ثم يكتبون له الاحجبة والتعاويذ والتحويطات الطويلة العريضة التى ربما بلغ طول ورقتها ضعفى طول المريض وربما أضعافا ويبخرونه باللبان وجلد القنفذ والكزبرة اليابسة ونسج العنكبوت والشب الابيض والميعة وغير ذلك وعلقوا عليه الخرزات وكان لهم عناية عجيبة بالاحجار فكانت عندهم خرزات كل واحدة يزعمون أنها تبرئ من داء فللعين خرزة حمراء يسمونها البذلة وللرقبة خرزة بيضاء يسمونها خرزة الرقبة ولهم أحجار يحكونها للفزعة والحمى يسمونها حجر الشفاء فاذا لسع أحدهم حكوا له الخرتيت وسقوه ماءه أو وضعوا له على موضع اللسعة فصا يسمى فص العقرب وغير ذلك من التمائم والاحجبة وخيطان الصوف وعظام الاموات المعروفة عندهم بعظام الكفرة أواصبع الكافر * ومن اهمال أمر الصحة يومئذ اتخاذ الناس المقابر وسط المدينة فكانت بمصر والقاهرة شيأ كثيرا مثل مقبرة السيدة زينب ومقبرة القاصد والشيخ عبد الله والشيخ ريحان وغيرهم بل كان الكثير من الناس يدفنون موتاهم فى حيشان البيوت وفى المساجد والمدارس الكائنة وسط المدينة ۞ ووقع فى سنة سبع وخمسين ومائتين وألف هجرية وباء شديد فأمات خلقا كثيرا حتى ان الاموات كانت

تشاهد ملقاة بالازقة والحارات وبجانب جدران البيوت فى الشوارع ثم انتقل الى الماشية فأهلك منها شيأ يفوق الحصر وكاد يفنيها لولا لطف الله

قال بعض الكتاب * وكما كان الطب مهملا فقد كان كذلك أمر تدبير ماء النيل وحفظ الجسور وبناء القناطر فأتى لها محمد على باشا بالمسيو لينان الفرنسوى فاكثر من بناء القناطر والجسور وسهل سبل الزراعة ومهد المسالك وأنشأ القناطر العظيمة الواقعة على رأس مصر السفلى المسماة بالقناطر الخيرية على يدى أحد كبار مهندسى الفرنسيس المدعو المسيو موجيل وهى من أكبر الاعمال الهندسية وأشرفها وهى مفتاح النيل ومغلقه عند فرعيه الشرقى والغربى وعليها حساب رى الاقليم البحرى ونصف الاقليم القبلى وكان مع موجيل هذا جماعة من مهندسى الفرنسيس فأظهروا فى وضع هذه القناطر أسرار الهندسة ودقائق صنعة البناء وكانت ديار مصر الى هذا الحين قد فقدت صناعها المهرة وأمست وهى فى حاجة الى كل شئ لاسيما العمارة * أما اهمال النظافة فقد كان شاملا مصر والقاهرة وجميع المدن والبنادر على اختلافها وكانت القاذورات تلقى بجوانب الحارات وعلى أبواب الازقة وتحت الاسبطة وفى أركان الجدران وكان ماينشأ من الهدم والاتربة ان اعتنى به ألقى على أبواب المدينة فيصير تلالا فاذا نسفها الريح قام منها فوق البلد سحاب من التراب نتن الرائحة كريه الشم يورث الامراض المعدية الوبائية فأين سرحت الطرف فى البلد ترى المجذوم والمجدور والابرص والاعمى وغير ذلك من بقية الامراض * وكانت البلد محاطة بالتلال من كل جانب وكانت ضيقة المسالك والحارات مرتفعة البناء على غير نظام قذرة فلا تتمكن الشمس من تحويل أشعتها نحو قاع تلك الحارات لتنقيها من الرطوبات وتحلل مافيها من النتن ولا الرياح من تجفيفها وكانت تتصاعد على من بها من السكان فحدث الامراض الجلدية كالحكة والاجذمة وغيرها كل هذه الادران قد طهر منها البلاد وأراح من مصائبها العباد فحسبت له حسنات لايمحيها كرور الايام وينال عليها ان شاء الله خير الجزاء من بارئ الانام

مطلب ما أصاب البلاد من الضربات السماوية فى سنة ثمان وخمسين ومائتين وألف هجرية

ولما كانت سنة ثمان وخمسين ومائتين وألف هجرية نزل على البلاد جراد كثير فعمها وأهلك زرعها حتى ورق الاشجار العظيمة وكل نبات أخضر ثم باض وأفرخ حتى غطا وجه الارض فوقع الغلاء وقل وارد الغلال واشتد الضيق بالناس وعم البلاء والويل الغنى والفقير وهاجر الناس فرارا من أصحاب الجباية وأعوان التحصيل وقد كانوا انبثوا فى البلاد لجبايتها بأمر من الامير ابراهيم فكانوا اذا نزح أهل بلد أضافوا ماعليهم من الخراج على البلد المجاورة لها وشددوا على أهلها فى الطلب وبالغوا فى ايذائهم فضاق خناق أهل البلاد وارتفع ضجيجهم وعجيجهم وأصبحوا وهم بين منتطح كبشين اذهاب الحرث والنسل وايذاء أصحاب الجباية فكادوا يشقون عصا الطاعة ويخرجون على عمال الخراج وكان محمد على باشا يومئذ بالاسكندرية فلما علم بالخبر اضطرب قيل فأصابه بسبب ذلك نوع من الهذيان

وتحقق أن ذلك من فعال الامير ابراهيم بالرعية فغضب غضبا عظيما وانتقل من مقره برأس التين الى بيت محرم بك عند المحمودية وأقام هنالك أياما وهو يخلط فى القول ويكثر من النداء على بعض الخدم ويقول يا لله قد خانني القوم فأيقظوا الفتنة وأبغضوا الناس فىّ وبقى على هذا أياما والناس يقولون بذهاب عقله ولزوم تخليه عن حكم البلاد ثم سار من الاسكندرية الى القاهرة فى نفر من الاتباع ونزل بقصره بشبرى فأتى اليه أصحاب الوظائف ورجال الدولة فعنفهم وزاد فى توبيخهم رحمة بالرعية فلم يجسر أحد على معاودته

مطلب زيارة محمد على باشا دار السلطنة وما لقيه من حفاوة السلطان به

وتاقت نفس السلطان عبدالمجيد لرؤية محمد على باشا فدعاه للحضور الى دار السلطنة فلبى دعوته وسار فى سنة اثنتين وستين ومائتين وألف هجرية فى قلة من الخدم والاتباع ونزل ضيفا على رضا باشا أحد كبار الدولة وكان رضا باشا هذا من ألد أعداء محمد على باشا ثم تمثل بين يدى السلطان فرحب به كثيرا فتقدم ليقبل يده فأمسك بيده ورفعه وأجلسه بجانبه ولاطفه جدا وحادثه ساعة * قال بعض الكتاب * واتفق أنه كان يحادث السلطان يوما فقال له فى أثناء الحديث حفظت يابنى وأحسنت * ثم استدرك أن هذا الخطاب لايليق بأمير المؤمنين فقال ليعف مولاى عن زلة عبده فان حبى لابناء مصر قد أجرى على لسانى مخاطبة الكبير منهم والصغير بيا بنى * فتبسم السلطان وقال لابأس عليك يغفر الله لنا ولك ولبث فى دار السلطنة زهاء ثلاثين يوما أنفق فيها من المال ألف ألف قرش ماعدا الهدايا النفيسة والتحاف الغالية والتصدق على المساكين وذوى البيوتات ثم رحل عنها الى قوله مسقط رأسه فمكث بها أياما وأنشأ بها مدرسة للفقراء ودارا للمساكين ورحل عنها راجعا الى الاسكندرية ففرح الناس كافة برجوعه فرحا عظيما ودقت له البشائر وزينت المدينة ثلاث ليال وكذلك زينت مصر والقاهرة والكثير من المدن وأقام يدبر الامر ويتصرف حتى كثر هذيانه وقل ادراكه فكان لاينكف عن النداء على بعض حاشيته لغير سبب وكان سريع الغضب يكره أن يرى ولده الامير ابراهيم فاذا رآه اضطرب وظهر على وجهه الغضب فانفذ الامير ابراهيم الى دار السلطنة يخبر بامر أبيه وما وصلت اليه حالته ويعلم أهل المابين بوجوب تخليه عن المنصب فاجابه السلطان الى ذلك ورسم له بالولاية على ديار مصر وجاء الفرمان بذلك فقرئ بقلعة الجبل فى مشهد حافل ودقت البشائر وطيروا الخبر الى الآفاق ونقل محمد على باشا الى الاسكندرية وكانت أحب البلاد اليه وقد كثر خلطه وكبرت علته

فلما كان ثالث عشر جمادى الاولى سنة خمس وستين ومائتين وألف هجرية فى ولاية عباس حلمى باشا الاول مات محمد على باشا وله من العمر ثلاث وثمانون سنة وقيل أكثر من ذلك وكان ولده الأمير محمد سعيد فى صحبته لم يفارقه كل أيام مرضه فبالغ فى جنازته ونقل نعشه الى القاهرة مع التجلة والتكريم فى مشهد حافل جدا ودفن بالمقصورة التى ابتناها لنفسه فى جامعه الذى أنشأه بقلعة الجبل ولم يكن قدتم بناؤه فحزن عليه أهل القاهرة وسائر البلاد حزنا عظيما لاجتماع القلوب على محبته * وكان رحمه الله أبيض اللون

مشربا بحمرة عالى الجبهة أصلعها أسود العينين متوسط القامة جميل الهيئة مع هيبة ووداعة سريع الحركة كثير التفكر اذا مشى يجعل يديه خلفه مثل نابوليون بونا بارته بسيط الملبس لايحب التفاخر ولا الزينة ولا كثرة الحشم والحجاب ميالا الى مسامرة كبار الجند ورجال الحرب لاسيما منهم سليمان باشا الفرنسوى فانه كان يحبه ويجله * قال بعض الكتاب فكان سليمان باشا يقول لم أتعلق بمحبة أحد غير ثلاثة أبى وبونابارته ومحمد على باشا وكان محمد على باشا اذا جلس فى مجلسه لايتقلد السلاح بل يجلس وفى يده علبة السعوط والمسبحة وكان سليم القلب سريع التأثر لايعرف الكظم سريع الانقياد كريم النفس أبيها سخى العطاء واسع التدبير محبا للاطلاع على أخبار الامم وأحوال الممالك كثير الاشتغال بالسياسة كبير الاهتمام باحوال الرعية قليل العزم دينا صحيح الاسلام محبا للنصارى لاسيما القبط أهل البلاد قرب منهم جماعة كثيرة وأخلص لهم فأخلصوا فى خدمته وخدمة البلاد فسلم اليهم مقاليد الدواوين وصرفهم فى ماوراء بابه فأحسنوا العمل وأحكموا التدبير وكان الاجانب عموما يسمونه محيى ديار مصر بعد اندراسها ومبيد طوائف المماليك رحمه الله تعالى برحمته الواسعة وأسكن روحه جنات النعيم

(مطلب)

فى ولاية الامير ابراهيم باشا ابن محمد على باشا

لما اشتدت علة محمد على باشا وكثر هذيانه أنفذ ولده ابراهيم باشا الى دار السلطنة يعلمهم بما آلت اليه حالة أبيه ويسألهم الاجازة بتنزيله عن منصب الولاية وتخليه عن حكم البلاد فجاءه الامر بذلك فى جمادى الاولى سنة أربع وستين ومائتين وألف هجرية فجعل يتصرف فى الامور بالوكالة عن أبيه حتى يأتيه فرمان التولية فلما كان منتصف شعبان من السنة قدم الى القاهرة مظلوم بيك أحد رجال دار السلطنة ومعه الفرمان بولاية ابراهيم باشا فقرئ فى ثامن عشر شعبان بقلعة الجبل فى محفل حافل من كبار الدولة والعلماء والمشايخ والكبراء ودقت البشائر وطيروا الخبر بذلك الى الآفاق فلما كان شهر رمضان سافر ابراهيم باشا الى دار السلطنة ليقبل الاعتاب على حكم ما فى فرمان الولاية فاكرم السلطان لقاءه وأحسن وفادته ولبث أياما ثم عاد فوصل الاسكندرية فى عاشر شوال من السنة وهو يشكو من مرض فى الباطن ومازال يشتد به المرض حتى مات ثالث عشر ذى الحجة سنة أربع وستين ومائتين وألف هجرية أى سنة سبع وأربعين وثمانمائة وألف ميلادية فلازم أهل مصر والقاهرة الحداد عليه أربعين يوما ودفن بالامام الشافعى وكان جليل القدر مهيبا حازما واسع الفكر عظيم التدبير شديد البطش سريع الغضب جبارا قرما عنيدا صبورا على الحروب جسورا راسخ القلب موفقا يحسبه العدو بألف مقاتل فى قومه ۞ وكان لما عاد من حروبه

فى آسية الصغرى وتم عقد الصلح بين محمد على باشا وسلطانه عزم على السفر الى بلاد الفرنسيس للاطلاع على مافيها من فنون القتال وأسرار الحروب فسار معه سليمان باشا الفرنسوى ورافقهما الدوق نموريس والامير جوانفيل فلما وصل الى عاصمة الفرنسيس قوبل بغاية التجلة والاعتبار وكان ينتظره أحد كبار الاسطبل الملوكى وقيل أحد كبار الدولة ومعه فرس عربى مطهم بسرج من السروج الكيمانية قد أعد لركوبه فقدمه اليه فركبه وسار بين مظاهر الاحتفال والاحتفاء وكان هذا الفرس لابراهيم باشا وقد شاهد معه جميع الوقائع والحروب فى الشام وآسية الصغرى ودخل به مدينة نصيبين ظافرا منصورا بعد فتكه بالعسكر السلطانى فسيره به محمد على باشا بعد ذلك هدية الى قصر التويلرى بعاصمة الفرنسيس ومعه تسعة من السواس المصريين ولبث ابراهيم باشا بباريز أياما أولمت له فيها الولائم العظيمة وكانوا يضعون له فى كل مأدبة أو وليمة كرسيا موجها الى جهة الشرق اشارة الى انه نابغة الشرق ومحيى دياره بعد الاندراس وكانت آلات الطرب والموسيقات تكرر بحضرته نغمات النصر وتردد أدوار الظفر والألحان الحماسية اشارة الى الوقائع والحروب التى اشتهر بها وفاز فيها بالنصر والغلبة ۞ وجال فى باريز وشاهد مافيها من الغرائب وتصدق على فقرائها بثمانية وأربعين ألف قرش وسيرت اليه ملكة الانجليز تدعوه لزيارة بلادها فاعتذر ولم يشا الذهاب لبغضه لكبار الانجليز و بارح ديار الفرنسيس الى عاصمة بتغال فاحسن ملكها وفادته واحتفل لقدومه احتفالا شائقا وأهداه نيشان سليب الاكبر ثم عاد الى مصر وعاد فى ركابه سليمان باشا ۞ وقد سمعت بعض الناس يقولون ان سليمان باشا هذا كان فوضويا ميالا الى الثورة وقلب هيئة الحكومات فلما ظهر خبره بين كبار الفرنسيس خافوا منه فأقصوه الى البلاد البعيدة فجاء هاربا الى مصر ودخل فى خدمة محمد على باشا وتقلب فى الوظائف العسكرية حتى حاز الرتب العالية والالقاب السامية واعتنق الديانة الاسلامية تزلفا واسترضاء فجعلت أبحث عن ترجمة حاله وأسأل عن صدق أخباره ممن كانوا معه وساروا فى ركابه الى معامع الحروب ومشاهد القتال فلم أعرف منهم الا ماعرفه العامة وتحدثوا به وما زلت أبحث حتى عثرت على ترجمته لاحد كتاب الفرنسيس فنقلتها عنه وهى ۞ هو سيف بن أوكتاف جوزيف انتلم الطحان ولد بمدينة ليون من أعمال فرنسا فى أوائل شهر ابريل سنة سبع وثمانين وسبعمائة وألف ميلادية أى سنة احدى ومائتين وألف هجرية وكان له جد قوى الجأش شديد البأس طاغية قاسى القلب يلقب بالتركى لقساوته وسكون قلبه وكان سيف المذكور مولعا بالحروب ميالا الى الغزو والجهاد والخوض فى معامع القتال فلما بلغ السابعة عشرة من عمره سار الى طولون احدى أعمال فرنسا ودخل فى خدمة بحريتها متطوعا وأقام بها خمس سنوات ثم نال رتبة وكيل للفرقة الثانية البحرية المدفعية ولبث بها زهاء سنتين ثم تاقت نفسه الى الانخراط فى سلك الجندية البرية وقد كان مارس حركاتها وتعلم أساليبها وجال فى

البحر الابيض المتوسط والمحيط الاطلانتيكي مرات كثيرة وزار جزائر الارخبيل ثم عاد الى ليون بالجراحة أصابته في ذراعه الايسر في حرب ترافلجار وأقام مع أبويه أياما كثيرة ثم حدث بعد ذلك أن وقع بينه وبين عدوّ له مشاجرة آدت الى المبلاكة ثم المضاربة فانقض سيف على عدوّه وقتله وفرّ هاربا من ليون الى ايطاليا خوفا من العقاب ودخل في عسكريتها جنديا في الفرقة السادسة التي كان يقودها الكولونيل باجول ولبث على هذا الحال حينا ولما كان من نظام دولة ايطاليا العسكري في ذلك الحين تعليم الفرسان الايطالية بجميع حركات المشاة أيضا قد تكفل سيف بتعليمهم وأخذ ذلك على عهدته فظهر أمره وكبر شأنه وعرفه الناس فاتسعت شهرته * فلما كانت سنة تسع وثمانمائة وألف ميلادية اختارته الدولة الايطالية لان يكون قائدا لجيوشها التي ساقتها الى القتال في واقعة الرين الشهيرة مع دولة الروس فأبلى في تلك الحرب بلاء حسنا حتى شهد له العدو بالبسالة ومعرفة أسرار الحروب وما زال يقاتل والنصر يلازمه والتوفيق يتقدمه حتى أصيب فرسه في احدى المعامع فسقط ميتا وسقط هو على الارض فأصابه العدو بثلاث طعنات وطلق ناري ثم حمل أسيرا الى مدينة موسكو عاصمة الروس فلبث بها ماشاء الله حتى شفيت جراحته ونقه من علته واستعرض القيصر أسراء تلك الحرب وعلم باحوال سيف فمال اليه وامتدح بسالته وجعله وكيل مقدم جميع الفرسان الروسية ثم مقدّم جميع الفرسان فظهر نبله واشتد أمره وحاز نياشين الشرف في معا مع الحروب وكاد أن يسقط في يد العدو في واقعة بوزن وقد جرح بجراحة خطيرة ثم شفي منها فقلده القيصر قائمقامية قيادة الجيوش الروسية وفي سنة أربع عشرة وثمانمائة وألف ميلادية افتتح بعض المقاطعات القوزاقية بطريقة لم يسبق لها مثيل ولم يكن ليسمح له بها رئيسه الجنرال بيره فزاد اعجاب رجال حرب الروس به وقدروه قدره ولما طالت غيبة سيف عن الآل والوطن حنت اليهما جوارحه فصار بين اقدام واحجام حتى علم بونا بارته من أمره ماأعجبه فانفذ اليه بالحضور الى عاصمة الفرنسيس فلبى اشارته وأتى مسرعا الى باريز فأكرم بونا بارته لقاءه وأدخله في خدمة الجيوش الفرنساوية فسار سيرة حسنة للغاية وبالغ في الطاعة وأداء الخدمة حقها واشتهر في خدمة برينة شهرة عظيمة للغاية فمال اليه بونابارته وأحبه ومنحه رتبة القائمقام * ورافق المارشال جروشي قائد جيوش الفرنساوية في واقعة وأترلو الانجليزية فنال شهرة عظيمة ثم تغيب عن ساحة الحرب فدارت في غيبته الدائرة على الفرنسيس فانهزموا شرهزيمة وكان له بعد ذلك في حروب المائة يوم المشهورة اليد الطولى فغلب فيها وقهر وفاز وانتصر ونال من العدو وظفر فنال رتبة الكولونيل أي أمير الاى مع نيشان الافتخار * فلما سقط بونا بارته عن عرشه وبطلت الحروب بسقوطه عز على الامير سيف هذا المصاب وحزن على بونا بارته حزنا عظيما واعتزل الجندية ومال الى الزرع والفلاحة فاستأجر مزرعة في أراضي الجرنبل وجعل يفلح حينا ثم تاقت نفسه الى الخوض في عباب الحروب ومشاهد القتال وكأنه

أقسم أن لايموت الاشهيد الحرب والجلاد ولما لم يكن بين بلاده و بين دولة أخرى حرب قائمة ترك وطنه ومسقط رأسه وسكنه وسار الى بلاد فارس وقد كان ملك فارس أخذ ينظم جيوشه يومئذ على ترتيب ونظام جيوش الفرنسيس فرسيف فى طريقه بالاسكندرية ولبث بها أياما فأعجبه هواؤها وحن الى البقاء فيها وعدل عن الذهاب الى ملك فارس وكان يعرف بالاسكندرية تاجرا من كبار الفرنسيس فقصده وكاشفه على ما فى نفسه من الميل الى خدمة محمد على باشا وترتيب عسكره على نسق وترتيب عسكر الفرنسيس وكان محمد على باشا ميالا الى ذلك جدا فلما علم بأخبار الكولونيل سيف وعرف مبالغ شهرته فى تنظيم الجيوش وتدريب العسكر وتحقق من بسالته واقدامه وتمكنه من الفنون الحربية مال اليه وأدخله فى خدمته وسلم اليه مقاليد كافة الامور العسكرية فلاقى من كبار وصغار العسكر الارنؤد والدلاة وغيرهم من بقية أخلاط العسكر المصرى يومئذ غاية الجفاء والشدة فكانوا يخاطبونه بفحش القول وينبا دونه بالكافر واشتد بغضهم اليه وكرهوا بقاءه بينهم فألحوا على محمد على باشا باخراجه من ديار مصر والا فهم قاتلوه لا محالة ودسوا الى جماعة منهم ممن دخل فى نظام العسكر الجديد أن يقتلوه فبينما كان يدرب العسكر يوما و يعلمهم استعمال البنادق أطلق عليه أحدهم بارودته فأخطأته فتغافل الكولونيل سيف عنه ولم يظهر اهتماما بأمره وظل على ماهو عليه من لين الجانب ودماثة الاخلاق وجعل يستميل خصومه ويسامرهم فنجح بعض النجاح ولكنهم عادوا فاطلقوا عليه الرصاص مرة ثانية فلم يصيبوه فتبسم وصاح عليهم لاباس عليكم يارفاق وددت لو أنكم تحسنون الرماية فيسر خاطرى بكم فلما رأوا ثباته وشدة محبة محمد على باشا له هابوه وخضعوا له فظهرت كلمته واتسعت شهرته ولبث يعلم الجند ثلاث سنين والتوفيق ملازم له حتى ظهرت فتنة أهل المورة وخرجوا عن طاعة السلطان محمود فسير السلطان لاخضاعهم جيشا من خمسة آلاف مقاتل ومقدمه خورشيد باشا صدر الدولة يومئذ وكثيرا من سفن الحرب ومراكب النقل فاستظهرت الروم على الترك ونالت منهم قتلا وتفريقا وأحرقوا سفنهم وكادوا يدمرونها عن آخرها فانفذ السلطان الى محمد على باشا فى رابع عشر جمادى الاولى سنة تسع وثلاثين ومائتين وألف هجرية يستنجده على قتال الروم وعنيه بالامانى الكثيرة ويخاطبه بعبارات التجلة والتكريم ويلقبه مبيد طغام الكفار ويعده بضم مورة الى ولاية مصر ان هو دوخها وأرجعها الى الطاعة وكان يوسف بوغوس بيك الارمنى متوليا يومئذ رياسة الخارجية والتجارة وكتابة سر محمد على باشا فلما اطلع على ما فى فرمان السلطان من عبارات التجلة والتكريم كاد يطير فرحا وتقدم الى محمد على باشا وهو يقول (ليضع الله بيده القادرة على جبينك الشريف تاج ملك جميع العالم فانك أهل لذلك يابونابارته أفريقة) فسير محمد على باشا لقتال الروم جيشا ومقدمه الامير ابراهيم باشا وكان الكولونيل سيف فى هذا الحين قد أسلم واعتنق الدين الاسلامى وسمى سليمان ونال رتبة الباشاوية فسار مع الامير ابراهيم باشا وقاتل الروم وأظهر من فنون

القتال

القتال وأسرار الحرب ما شهدت به الاعداء وبلغت شهرته يومئذ مبلغا عظيما وأحبه محمد على باشا ثم كان منه ما كان فى حروب الشام وآسية الصغرى وزحفه بالعسكر المصرى على أبواب القسطنطينية وأسره للصدر الاعظم وغيره من كبار رجال حرب الدولة وما أنشأه من القلاع والحصون والمعاقل التى كانت من معجزات فنون القتال وغير ذلك من الاعمال الخطيرة التى قل أن يأتى غيره بمثلها فى ذلك الحين وما زال يتقلب على بساط النعيم فى بحبوحة الهناء حتى مات ودفن ببستان منزله على ساحل النيل بمصر القديمة

وكان ابراهيم باشا مولعا بالزراعة وفلاحة الارض فضم الى أملاكه أجود الاراضى وأخصبها بالاقليمين القبلى والبحرى ورتبها بغرس الاشجار العظيمة وأنشأ معامل السكر والكتان ومطاحن القمح ومعامل النيلة وبالغ فى ترتيبها وبذل النفيس فى اصلاح أمرها حتى زادت غلتها وكثرت محصولاتها ونمت * قالوا وكان شديد البأس على الفلاحين جافى الطبع حازما مقترا يحاسب على الذرة والبرة ولا يترك لاحد منهم مثقال ذرة فكان أبوه يكره منه ذلك ويعنفه عليه ولا يمكن نفسه من هواها وقد أثرى وكثر ماله فى آخر أيامه كثرة بالغة واتسعت مادة رزقه اتساعا عظيما وخلف ثلاثة بنين هم أحمد واسماعيل ومصطفى ومات عن عدة زوجات أكثرهن بغير ولد وكثير من الجوارى والحظيات وعمره ستون سنة هلالية فكانت ولايته سبعة أشهر وثلاثة عشر يوما منها ثلاثة أشهر بعد ورود فرمان السلطان اليه بالولاية فتولى الامر بعده ولد أخيه عباس باشا الاول ابن طوسون بن محمد على باشا

(مطلب)

ولاية عباس باشا ابن الامير طوسون باشا

كان عباس باشا يوم موت عمه ابراهيم بالديار الحجازية فارا من وجه عمه اذ كان يمقته كثيرا ويريد البطش به لامور نقمها عليه وقيل بل ذهب لاداء مناسك الحج والاول أشهر فاستقدموه ورفعوا أمر ولايته الى دار السلطنة فورد الفرمان بولايته فى سابع عشرى ذى الحجة سنة أربع وستين ومائتين وألف هجرية فأصعدوه الى قلعة الجبل فى موكب حافل وطيروا الخبر بذلك الى الآفاق فلما استقرت به الولاية صرف الكثير من بطانة جده وأبعد أصحاب الوظائف العالية واتخذ له بطانة ممن يعتمد عليهم ويميل بالطبع اليهم وأقصى أصحاب الرأى وأهل الشورى واختص بقوم غيرهم فسلم اليهم مقاليد الامور وتدبير مهام الرعية فعملوا لانفسهم واشتدت فى هذا الحين الفتنة بين قيصر الروس والسلطان عبد المجيد وكبرت الوحشة بين الفريقين * قال أصحاب التاريخ وكان سبب ذلك أنه لما كان لدولة الفرنسيس حق حماية جميع الكنائس الكاثوليكية والذب عنها عند الحاجة بمقتضى أحكام المعاهدة التى تمت ما بين الملك لويس الخامس عشر ملك الفرنسيس والسلطان محمد خان سنة ثلاث وخمسين

مطلب وقوع الحرب بين السلطان ودولة الروس ومعاونة الانجليز والفرنسيس للسلطان على قتال الروس

ومائتين وألف هجرية أى سنة أربعين وسبعمائة وألف ميلادية على ما تقدم بك بيانه فى الجزء الثالث من هذا الكتاب * وكانت دولة الروس تكره ذلك وتسعى فى تعضيد جانب جماعة الأرثوذكس واعلاء كلمتهم فوق كلمة أصحاب الكثلكة لاسيما فى بيت المقدس وتشتد رغبتها كل يوم فى نزع كنائس بيت المقدس من أيدى قسوس الكاثوليك واعطائها الى قسوس الارثوذكس فجعلت تراقب الفرص وتتبين انتفاعها حتى رأت اشتغال دولة الفرنسيس باخماد نار ثورتها الداخلية ثم بالحروب التى أثارها بونابارته على جميع الممالك الغربية زهاء اثنتين وعشرين سنة عما لاتقدر معه على الذب عن أهل الكثلكة فعمدت الى نزع جميع ما بأيدى الكاثوليك من تلك الحقوق والامتيازات وسلمتها الى جماعة الارثوذكس فتصرفوا فيها واستبدوا بها وغيروا وبدلوا حسب أهوائهم وما زالوا يتصرفون حتى تولى نابوليون الثالث رياسة جمهور الفرنسيس الثانية فرأى من اهتمام أهل الكثلكة بهذا الامر ما أعجبه وزين له مخابرة السلطان فى ارجاع تلك الحقوق والامتيازات الى ما كانت عليه حسب المعاهدات والعقود القديمة فطال الاخذ والرد ثم تقررت القاعدة بين الفريقين على انتخاب عمدة من كبار المذاهب وأئمة الدين لينظروا فى مزاعم الخصمين ويقرروا فيها أمرا باتا فأطالت العمدة البحث والتنقيب والبث الحال على ذلك أياما كثيرة ثم حكمت برد جميع الكنائس والديارات الى جماعة الكاثوليك ببيت المقدس وبرد بعض الامتيازات والحقوق الاخرى حسب أحكام المعاهدات القديمة وحررت بذلك صكا فى شهر جمادى الاولى سنة تسع وستين ومائتين وألف هجرية أى فى شهر فبراير سنة اثنتين وخمسين وثمانمائة وألف ميلادية فعارضت دولة الروس فى نفاذ هذا الصك وهدد قيصرها السلطان بالحرب والقتال ان هو رسم بتنفيذه وطالب نابوليون السلطان بتنفيذ حكم العمدة ورد ما أخذ من جماعة الكاثوليك وشدد فى الطلب فأصبح السلطان وهو بين مقتطع عزين ولكنه عاد فرسم بتنفيذ حكم العمدة فقامت دولة الروس وقعدت وكان القيصر شديد الرغبة فى فتح أبواب الحرب والتعجيل فى قتال السلطان وقد أخذ تأهبه لذلك منذ حين فعمد الى استعمال الشدة وسير الى دار السلطنة الامير منشكوف كبير ديوان البحرية الروسية ليكلم السلطان فى عدم جواز العمل بما قضت به العمدة وعدم مس ما بأيدى الارثوذكس من الكنائس والديارات فوصل الى دار السلطنة فى ثامن جمادى الاولى سنة تسع وستين * قال بعض الكتاب فاحتفل للقائه جماعة الروم بالقسطنطينية احتفالا عظيما وبالغوا فى اجلاله وتعظيمه استصغارا بالمسلمين وساروا أمامه وهم فى ضجة وجلبة عظيمتين فنزل فى دار سفير الروس أياما لايقابل فيها أحدا من رجال الدولة فلما كان العشرون من جمادى المذكور سار الى مقر صدر الدولة وهو فى زى المسافرين ودخل عليه بلا حشمة ولا تأدب وكلمه فى أمر الكنائس ببيت المقدس وقال ان مولاى القيصر لايطيق الصبر على ما يلاقيه أهل الارثوذكسية من أصحاب الكثلكة ولايسمح بتنفيذ حكم العمدة الدينية وقد سيرنى الى

هنا لا كلمكم فى الامر فان أنتم فعلتم مانحب فبها ونعمت والا فالسيف يحكم بيننا وبينكم وطير الخبر بذلك الى القيصر فجعل القيصر يستطلع ما سيكون من دولة الانجليز ان هو ركب بعسكره لقتال السلطان وسأل سفير الانجليز فى ذلك وفيما اذا كانت دولة الانجليز تعاقده على قتال السلطان «قال» فاذا هى فعلت ذلك وبلغنا المقصود من تقسيم بلاد السلطنة العثمانية وأرجعناها الى ما كانت عليه من الذل والصغار تساهلت معها وأنلتها أخذ الديار المصرية وجزيرة كريد وتخلصنا جميعا من مكايد هذا القرم العنيد فخابر سفير الانجليز دولته فى ذلك فلم تقبل خوفا من استفحال أمر الروس وامتداد شوكتهم فى الشرق ودخول القسطنطينية فى عداد أملاكهم فيشاركون الانجليز فى ملك البحار ويزاحمونهم على نيل الاوطار

وكبر ما وقع من سفير الروس على السلطان عبد المجيد واستعظمه فكلم دولتى الانجليز والفرنسيس فى أمره فتجرد نابوليون الثالث للعداوة وزين لدولة الانجليز التحالف على قتال الروس وايقافهم عند حد احترام العهود والعمل بمقتضى المواثيق القديمة وما زال بها حتى مالت الى الحرب خوفا على هندها فسير فى الحال بعض سفن الحرب الفرنسوية الى اليونان فألقت مرساها فى فرضة سلامين احدى الجزر اليونانية ولبثت تراقب الحوادث ورسمت كذلك دولة الانجليز الى سفن حربها الراسية فى مينا مالطه بان تكون على قدم التأهب والاستعداد وكان الامير منشيكوف الروسى فى غضون ذلك يتردد على الباب العالى فى طلب تجديد معاهدة خونكار أسكله سى ليكون لدولة الروس من وراء تجديدها حق حماية جميع طوائف الارثوذكس الذين فى بلاد السلطنة العثمانية فكان السلطان يطاوله ويمنيه بالامانى البعيدة ثم رسم باعادة رشيد باشا الصدر المعزول الى منصب الصدارة وهو من أعداء الروس وأشد رجال الدولة كرها لهم وكان قد خلع من منصبه استرضاء للقيصر ومنعا للدسائس والفتن السياسية فلما تقلد المنصب تجرد الى الدفاع ووقف فى وجه الامير منشيكوف وأبى عليه كلما طلبه فاستعظم الامير منشيكوف هذا الامر وأنفذ الى الباب العالى بلاغا فى شعبان سنة تسع وستين ومائتين وألف بجميع مطالب مولاه القيصر وضرب للصدر الاعظم أجلا خمسة أيام فلما انقضى الاجل المضروب أمده بثمانية أيام أخر فانقضت ولم يدل من الباب العالى بجوابا * وكان السلطان لما ورد اليه بلاغ الامير منشيكوف طير خبره الى عاصمتى الانجليز والفرنسيس وطلب منهما الوساطة فى الامر حقنا للدماء فسيرتا فى الحال سفنهما الحربية نحو الدردنيل وعلم الامير منشيكوف بذلك فكتب الى صدر الدولة فى تاسع عشر رمضان من السنة يعلمه بزحف الجيوش الروسية على حدود السلطنة العثمانية فلما كان خامس عشرى الشهر المذكور جاءت الاخبار باجتياز الامير كورتشاكوف الروسى بعساكره نهر البروته واحتلاله مقاطعة الدانوب فسير اليه السلطان من يسأله الجلاء وعدم مجاوزة الحدود فلم يلتفت الى ذلك ونادى فى عسكره بالتأهب ووردت الاخبار

بذلك أيضا الى عاصمتى الفرنسيس والانجليز فاجتازت سفنهما الدردنيل وكان القيصر يؤمل مساعدة امبراطور النمسا له فى هذه الحرب لما بين القيصر وبينه من العلائق الودية وما للقيصر عليه من الايادى البيضاء لاسيما بعد قيام الفتنة فى بلاد المجر وخروج أهلها عن طاعته وكان امبراطور النمسا يخشى عاقبة هذه الحرب ويعلم أن ما وراءها الا الطامة الكبرى على مملكته ان نالت دولة الروس من السلطنة العثمانية وتم لها النصر فعمد الى استعمال المواربة وخابر الدول جميعا فى عقد مؤتمر بمدينة ويانا لاصلاح ذات البين ومنع وقوع الحرب بين الطرفين فأجابته الدول الى ذلك وتم انعقاد المؤتمر فى سلخ ذى القعدة سنة تسع وستين ومائتين وألف هجرية وتقررت القاعدة بين مبعوثى كافة الدول على حدود وشروط معينة قيل فاذ عنت لها دولة الروس راضية على ما فيها من المواربة والتعقيد ولم يقبلها الباب العالى وفضل الحرب على هذا السلم المحفوف بصنوف المكاره فانحل المؤتمر على غير طائل وكان الامير كورتشاكوف قائد الجيوش الروسية قد تمكن فى خلال هذه الفترة من احتلال ولايتى الفلاق والبغدان والتحصن فى حصونهما فانفذ اليه السلطان باخلائهما وضرب له أجلا خمسة عشر يوما ورسم الى عمر باشا مقدم الجيوش العثمانية فعبر الطونة فصارت الحرب بين الفريقين أدنى من قاب قوسين

واستخف الامير كورتشاكوف بقدر الجيوش العثمانية التى عبرت الطونة فلم ينجل عن مواقعه وزاد فى التحصن والاستعداد فسار اليه عمر باشا وقاتله قتالا عنيفا وطال القتال أياما ثم انكشف عن هزيمة كورتشاكوف شر هزيمة وجلائه عن معاقله وانتصار عمر باشا نصرة مؤزرة وجاءت الاخبار بذلك الى دار السلطنة وكان السلطان قد رسم أيضا الى عبده باشا أحد مقدمى العسكر السلطانى بالزحف على حدود الروس من جهة بلاد قفقاسية فسار بعسكره حتى اجتاز الحدود وقاتل وأخذ قلعة سان نقولا وانتصر كذلك على الروس نصرة عظيمة واشتد القتال بين الطرفين أياما ثم توقف بسبب الشتاء وتراكم الثلوج والامطار فهال القيصر هذا الامر وأزعجه وكبر خوفه من عاقبة هذه الحرب ان اشتركت فيها أيضا عساكر الفرنسيس والانجليز وطلب المدد من امبراطور النمسا فلم يجبه خوفا من شر العاقبة فسير القيصر الى دولتى الفرنسيس والانجليز يسألهما عدم دخول مراكبهما الحربية الى البحر الاسود وتربصها عند البوغاز وهو يكفل لهما عدم اجراء شئ من الحرب والقتال بالبحر المذكور فبقيت مراكب الدولتين لاتتحرك من مكانها أياما وظن السلطان وقوف رحى الحرب حتى ينقضى الشتاء وكان للسلطان عمارة صغيرة بالبحر الاسود راسية فى مينا سانوب فلم يشعر أميرها الا وقد داهمته مراكب الروس وأحاطت بمراكبه من كل جانب وأطلقت عليها القنابل تباعا فسقط فى أمره واختبل وعز عليه التدبير للخلاص واشتد رمى مراكب الروس وتراسلت القنابل حتى دمرت بجميع المراكب السلطانية ولم تبق لها أثرا وجاء الخبر بذلك الى دار السلطنة فأبلغه الصدر الى

سفراء

سفراء الدول فجاء الامر على الاثر الى السفن الفرنسوية والانجليزية باجتياز البوغاز ودخول البحر الاسود والتأهب لرد جميع المراكب الروسية عن الدنو من موانى السلطنة العثمانية فاجتازته وسارت تمخر فى طوله وعرضه وأرسل السلطان الى عباس باشا يطلب المدد من العسكر المصرى فبعث اليه عباس باشا بجيش ضخم كامل العدد وأرسل الى الخزينة السلطانية شيأ من المال لنفقة الجند قيل وكان يكره نجدة السلطان ويتمنى انفشاله حبا فى الاستقلال بملك مصر والخروج من تابعية السلطنة فلم تساعده الايام ولم ينل هذا المرام وسارت العساكر المصرية مع العساكر العثمانية وقاتلت وانتصرت فى عدة مواقع كبيرة وأبلت بلاء حسنا ووردت الاوامر من قيصر الروس الى سفيريه بعاصمتى الفرنسيس والانجليز بالشخوص الى عاصمة الروس وقطع العلائق السياسية فانسحبا ووقع الاتفاق بين دولتى الفرنسيس والانجليز والسلطان على قتال الروس وتقررت القاعدة بينهم على أن تسوق دولة الفرنسيس الى ساحة القتال خمسين ألف مقاتل من رجالها كاملى العدد وكذلك دولة الانجليزية تسير خمسة وعشرين ألفا ليتألبوا على القتال ولا ينفكوا عنه حتى تلزم دولة الروس حدودها وتنكف عن القتال صاغرة فاذا تم لهم النصر عادت العساكر الافرنسية والانجليزية وتركت الدولة العثمانية وشأنها تتصرف فى بلادها وترتب أمورها على مافيه مصلحتها فلما كان شعبان سنة سبعين ومائتين وألف هجرية قامت الجيوش الافرنسية ومقدمها الماريشال دى سنت أرنو والجيوش الانجليزية ومقدمها اللورد رجلان ومعهم شئ كثير من المؤن والذخائر وآلات الحرب الكاملة على ظهور سفن النقل العظيمة قاصدة دار السلطنة العثمانية فلم تكد تصل اليها حتى قامت الحرب على ساقها بين مراكب الحرب الانجليزية والفرنساوية وبين قلاع وحصون مدينة أوديسا * قال بعض الكتاب وتحرير الخبر أنه لما انقطعت العلاقات السياسية بين الاحزاب ودولة الروس جعلت كل دولة منهم تحافظ على كرامة رعاياها وحرمتهم فى بلاد عدوتها فسيرت دولة الانجليز بعض السفن الحربية التى لها بالبحر الاسود لنقل قنصل الانجليز ومن معه من الرعايا الانجليزيين الذين بمدينة أوديسا فلما اقتربت السفينة المذكورة أطلق عليها الروس الذين بقلاعها المدافع وراسلوا الرمى بالقنابل حتى كادت تدمرها فهربت فهال هذا الامر أمير السفن الانجليزية واتفق مع أمير السفن الافرنسية على الاخذ بالثار ان لم يعتذر حاكم أوديسا عما وقع ويطلب الصفح ويقوم بالترضية وضربا له أجلا أربعا وعشرين ساعة فلم يلتفت الحاكم الى ذلك ولم يحل طلبهما محلا فسارت جميع السفن فى شعبان سنة سبعين ووقفت أمام حصون المدينة وجعلت ترمى عليها بالقنابل تباعا حتى دمرتها تدميرا والتهمت النيران جانبا منها ثم تركتها وسارت نحو سباستبول ودعت مراكب الحرب الروسية للنزال فلم تبرز لنزالها فسارت على الفور بعض السفن الافرنسية والانجليزية لضرب جميع الثغور الروسية الواقعة على البحر الاسود فأنفذ القيصر الماريشال بسكيفتش فى جيش جرار لعبور نهر الطونة فعبره وسار نحو

مدينة سلستريا وحاصرها وضيق عليها من كل جانب وأقام على حصارها زهاء خمسة وثلاثين يوما فلم ينل منها وقد كان من بها من العسكر السلطانى لايتجاوز الخمسة عشر ألفا ومقدمهم موسى باشا وجاءت الاخبار بذلك الى دار السلطنة فسارت الجيوش المتحالفة الى وارنه لنجدة موسى باشا ومن معه فمات موسى باشا قبل أن ينجدوه وخاف أمير العساكر الروسية من وصول الجيوش المتحالفة وهو على قدم الحصار فانجلى بعسكره عن المدينة فتبعته العساكر العثمانية وجعلت تتخطف ساقته حتى تجاوز نهر الطونة وما زال يقاتل ويدافع حتى عبر نهر البروت وصار فى مأمن من نيران العسكر السلطانى فعادت بعد ذلك العساكر السلطانية فاجتمع سائر أمراء الجيوش المتحالفة وتشاوروا فى أمر القتال مع العدوّ وكان الطاعون قد تفشى فى حدود السلطنة العثمانية وكثر فيها الموات فاتفقت كلمتهم على النزول على سباستبول ومحاصرتها وعدم الجلاء عنها حتى يدكوا أسوارها دكا وسيروا فى المحرم افتتاح سنة احدى وسبعين جماعة من المقاتلين من الفرنسيس والانجليز والترك والمصريين فكانوا زهاء ستين ألفا كاملى العدد فنزلوا عليها ولم يستقر بهم المقام حتى التهبت نار الحرب بينهم وبين الروس وعلا ضرامها وانكشفت عن هزيمة الروس ونصرة الفرنساويين نصرة مؤزرة وأخذوا منهم المرتفعات المشرفة على نهر الماء فكانت عندهم من أهم المواقع الحصينة ثم عمدوا الى فتح مينا بلكلاوا ليجعلوها مأمنا لسفنهم التى كانت تأتى اليهم بالمؤن والذخائر ومعدات الحرب فزحفوا عليها وقاتلوها يومين حتى فتحوها عنوة ودخلوها ثم انكفوا عن القتال أياما فتمكنت فيها جماعة الروس من تحصين سباستبول تحصينا منيعا وبالغت فى ذلك من البر والبحر حتى صارت لاترام

وسارت جيوش الاحزاب نحو سباستبول وقد تفشت فيهم الحميات فكثر الموات بينهم وحمّ الماريشال سانت أرنو مقدم الجيوش الافرنسية ومات قبل أن يعيد الكرة على حصون سباستبول فنقلوا جثته الى عاصمة الفرنسيس باحتفال زائد وأقاموا مكانه الجنرال كانروبر فحاصروا سباستبول ورموا عليها بالقنابل فى أوائل صفر سنة احدى وسبعين ولبثوا يراسلون الرمى ليلا ونهارا زهاء خمسة أيام ثم هجموا عليها هجمة رجل واحد فلم ينالوا منها وردوا على أعقابهم خاسرين وتبعتهم طائفة من العساكر الروسية وقاتلتهم قتالا عنيفا ثم عادت ولم تظفر بهم وطالت أيام الحصار والحرب بين الفريقين سجالا حتى دخل الشتاء فكثر الموات فى عسكر الاحزاب وتفشت بينهم الامراض فأوقفوا رمى القتال ولبثوا على قدم الحصار فعادت العساكر الروسية الى تقوية ماتشعث من الحصون وترميم ماتهدم منها حتى عادت الى ما كانت عليه من المنعة وخاف رجال سياسة الفرنسيس والانجليز من اتحاد امبراطور النمسا مع قيصر الروس على الذب والقتال فتزداد هذه الحرب ويلا وتعظم مصيبتها لاسيما وقد كانوا يرون فى الروس خصما عنيدا وقرما صبورا على القتال فعمدوا الى استمالة امبراطور النمسا وحببوا اليه الاتفاق معهم على مافيه المصلحة لبلاده أيضا فوافقهم

على

على ذلك وكان بينه وبين فريديك غليوم ملك البروسيا عهد على أن لا يقدم أحدهما على التحالف مع الدول الثلاثة المتحالفة الا بعد رضا الآخر فخابره امبراطور النمسا فى ذلك وزين له الاشتراك معه على مافيه المصلحة لبلاده فلم يلتفت الى شئ من أقواله فاتفق الاحزاب على مخابرة قيصر الروس فى الصلح وكف القتال على قاعدة هى عدم انفراد القيصر بحماية المسيحيين من رعايا الدولة العثمانية وعدم التعرض لحماية الفلاق والبغدان واباحة المرور لجميع مراكب الدول فى نهر الطونة وتعديل المعاهدات المتعلقة بالمرور فى بوغازات القسطنطينية لاسيما منها معاهدة سنة سبع وخمسين ومائتين وألف هجرية وكلموا سفير الروس بعاصمة النمسا فى ذلك فطلب المهلة حتى يأتيه أمر القيصر فأمهلوه واشتغلوا بالتأهب والاستعداد لاضرام نار الحرب اذا ولى الشتاء وجاء الصيف وبينماهم على هذا الحال اذ هاجم الروس مدينة أو باتوريا وكان بها عدد من العساكر السلطانية والعساكر المصرية فاقتتل الفريقان قتالا عنيفا وصبر كل فريق على القتال فمات خلق كثير ومات سليمان باشا مقدم العسكر المصرى فى هذه الموقعة ثم انكشف القتال عن هزيمة الروس وردهم على أعقابهم خاسرين ووردت الاخبار بذلك الى معسكر الاحزاب فأخذوا أهبتهم واستعدوا لمهاجمة سباستبول والالحاح فى قتالها وأكثروا من جمع الاسلحة والكراع فلم يمض على ذلك الا أيام حتى مرض القيصر واشتد به مرضه ومات فى جمادى الثانية سنة احدى وسبعين ومائتين وألف هجرية وشاع خبر موته فظن الناس زوال الفتنة وكف المتحالفون عن القتال فلم يصب ظنهم المرمى اذ تولى الملك بعد موت القيصر المشار اليه ابنه اسكندر الثانى ولم يستقر به المنصب حتى جعل يتأهب للزحف على مواقع الاحزاب ويكثر من حشد الجيوش واعداد معدات القتال فلما آنس الاحزاب منه ذلك زينوا الى ملك سارديينا التى هى اليوم مملكة ايطاليا الاتحاد معهم على قتال الروس وما زالوا به حتى سير جيشا عظيما من عسكره الى حصار سباستبول وتحالف على الذب والقتال فقويت عزيمة الاحزاب وجعلوا يناوشون الروس القتال فكانت بينهم سجالا ثم تمكنت جيوش الاحزاب من احتلال مدينة كريش وبوغاز ينيكوب ومدخل بحر أزاق فأتموا حصار سباستبول ومنعوا عنها الواصل واشتد الحال من هذا الحين على الروس فجعلت جيوش الاحزاب توالى الزحف والهجوم على مواقع الروس وتلح فى قتالهم من البر والبحر فانتصروا فى عدة مواقع وأخذوا بعض القلاع والحصون الداخلة فى حدود بلاد القرم ومنها قلعة ملاكوف أخذها الجنرال مالك مهون الفرنساوى عنوة فى خامس عشر ذى الحجة سنة احدى وسبعين ومائتين وألف هجرية ولما اشتد الحصار على سباستبول وضاقت عليها المسالك وانقطع المدد خرج من كان بها من الروس وأوقدوا فيها النيران فالتهمتها عن آخرها ودكتها دكا فدخلتها عساكر الاحزاب فى ثانى يوم مخوفة ودخل الشتاء فوقفت رحى الحرب بين الفريقين وأحست دولة الروس بالغلبة وعدم القدرة على دفع جيوش الاحزاب بعد خراب سباستبول فعمدت الى المواربة وتودد القيصر

اسكندر الى امبراطور النمسا فكلم الامبراطور الدول المتحالفة فى تقرير قاعدة للصلح والكف عن القتال وحقن الدماء المهدرة بسبب هذه الحرب المشؤمة فأجابته الدول الى ذلك وقرروا القاعدة بينهم على مافيه المصلحة وعرضوها على القيصر فأجابهم اليها وطلب عقد مؤتمر فى باريس عاصمة الفرنسيس لتقرير أمر الصلح نهائيا فاجابوه الى ذلك أيضا وانعقد المؤتمر ووالى الاجتماع أياما حتى تم الصلح بينهم وتسطر فى أربع وثلاثين مادة أصلية ومادة اضافيـة صار التوقيع عليها من جميع مبعوثى الدول ومبعوث السلطان ثم تقرر بعيـد ذلك رفع الحصار عن جميع الموانى والثغور الروسية وانسحاب جميع عساكر الاحزاب من بلاد القرم فى أجل لايتجاوز الستة أشهر وأن تخلى دولة النمسا عن ولايتى الفلاق والبغدان فى بحر ثلاثة أشهر وكذلك تخلى الروس عن مدينة قرص وقلعتها وتردها الى الاملاك السلطانية فى بحر ثلاثة أشهر وعاد من بقى من العساكر المصرية الى القاهرة ثم كان بعيد ذلك ماكان من الفتن والارهاصات الداخلية وخروج بعض الايالات عن طاعة السلطان ونوالها شبه الاستقلال بتعضيد دول أوروبا لها مما لامحل له هنا خوف الاطالة

وكثر على باب عباس باشا أصحاب السعاية وأهل الوشاية فاخذ بقولهم وعمل بمشورتهـم واشتدت رغبته فى معرفة أحوال جميع الناس وأسرار أصحاب البيوتات فانفذ لذلك جماعة فكانوا يأتون اليه بالاخبار المقلقة والحوادث المكدرة ليباعدوا بينه وبين الناس فتطير وأخذ حذره وأكثر من شراء المماليك الجلب والاماء السود وأقام طوائف الترك على بابه يحرسونه نهارا وطوائف المماليك يخفرونه ليلا وكان شديد البغض لاهله وعمومته وعلى الخصوص منهم أولاد ابراهيم باشا فضيق عليهم وشدد وبالغ فى تنكيلهم فضبط أرزاقهم وحبس غلاتهم وشرد أتباعهم وحاشيتهم وأقصى القائمين باشغالهم الى سنار وفيزوغلى وأقام عليهم الدعاوى الطويلة حتى ضاق بهم الخناق فكانوا لايحصلون على طعام يوم لحبس أرزاقهـم وانكمشوا وقل ظهورهم بين الناس خوفا من اشتداد الفتنة ورميهم بالتهم الكاذبة ومع ذلك فقد كانت عيونه وأرصاده لاتفارق أبوابهـم ساعة ووقع بينه وبين عمـه الامـير محمد سعيد من النفرة والشحناء مالم يبق معه الا القتال فادعى على عمه الدعاوى الكثيرة واتهمه بالخروج وشق عصا الطاعة واتهم أعيان البحيرة وبعض مشايخ عربان أولاد على بتجديدته فاعمـل فيهـم القتـل والتشريد والتبعيد الى أقاصى السودان وبالغ فى تخريب دورهم ومحو آثار منازلهم فاختفى من بقى منهم ونزحوا الى الشام والحجاز وألزم عمه بالمكث فى الاسكندرية وعدم دخوله القاهرة وبث حوله العيون والارصاد فضاقت على الامير محمد سعيد المذاهب واستنجـد ببعض رجال الدولة وكبار النزلاء من الاجانب فلم يفلح لشدة بأس عباس باشا وعظم هيبته فى نفوس الناس على اختـلاف طبقاتهم واشـتدت بعباس باشا الطيرة فاحتجب عن الناس ومال الى سكنى البيـداء والجبال فابتنى له قصرا بالدار البيضاء بطريق السويس وآخر بسفح الجبـل الاحمر خارج باب الحسينية سماه العباسـية نسبة الى اسمه فكان اذا ذهب الى أحـدهما أقام به

أياما لايصل اليه الا المقربون من قومه وابتنى مبانى أخرى كثيرة كالحلمية وغيرها بعنيل شجه ورسم ببناء دار بظاهر بركة الازبكية بجوار جامع الكيخيا فشرعوا فى العمل وبدؤا ببناء السور من الحجر الاحمر وجمعوا لذلك البنائين والنحاتين والحجارين والخشابين والفعلة ووكل بهم جماعة من الترك يحملون العصى والاسواط فكانوا يسومون أولئك العمال الخسف ويذيقونهم مضض التعذيب وكان ذلك على عهد ولاية جده محمد على باشا فاتفق أن مر الامير ابراهيم باشا يوما بالازبكية فسمع من صياح العمال وجلبتهم ماأدهشه فسأل عن ذلك فقيل له انهم عمال فى بناء الدار التى ينشئها الامير عباس فسار نحوها فرأى من كثرة أولئك العمال وما يقاسونه من تعذيب الموكلين بالعمل ما هاله وأحزنه فسير فى الحال الى الامير عباس من يعلمه بترك هذا العمل وصرف أولئك العمال بالتى هى تخاف الامير عباس وصرفهم وترك البناء فى ذلك المكان ولم يتم منه الا بعض السور من الجانب الشرقى فرسم الامير ابراهيم بجعله مناخا للجمال المرتبين لخدمة الدولة وبقى كذلك الى أيام اسمعيل باشا ابن ابراهيم باشا فأزاله وأنشأ فى جانب منه النزل المعروف باللوقاندة الجديدة وأمر ببيع الباقى منه فصار الآن من أحسن الدور وأرفعها بناء وأنظمها ترتيبا وتنسيقا * وكان شديد البغض للاجانب جبارا على الرعية سهل الانقياد لبعض حاشيته والمقربين اليه ميالا الى الوشاية وايقاع الفتنة بين أصحاب الوظائف حذرا من تآلفهم واتحادهم على مايخشاه وكان مثل الخليفة المعتصم بن هارون الرشيد فى الاكثار من شراء المماليك ووقوفهم على بابه وتزيينهم بأفخر الملابس وكان يركبهم جياد الخيل بالسروج المطهمة وأنشأ فرقة منهم ومن أبناء بعض الناس بلباس مخصوص على زى الجند سماها الاورطة المفروزة فكانوا هم حراس أبوابه وكان مع شدة بطشه وعدم اغضائه عن الصغائر كثير التخيل لايمكن أحدا من الدنو منه حيثما سار فكان يمشى وحوله طوائف الترك فاذا رابهم من أحد ريبة فى طريقهم مالوا عليه وأوجعوه ضربا بالسياط والعصى وربما قتلوه وكان يحب المكث عند عرب الهنادى بالشرقية * قال جماعة وتزوج باحدى بناتهم وكانت غاية فى الجمال وعندى أنها فرية ماأنزل الله بها من سلطان * وقال آخرون بل سلم جماعة منهم ولداله ليربوه على طباع أهل البادية فلم يعش ومات وهذه هى الحقيقة بلا مراء وكان قربه منهم باعثا لهم على التمرد والشقاوة فاذلوا أهل الشرقية وتطاولت أيديهم الى سلب أموالهم ونهب زروعهم ومواشيهم فلم يكن الرجل من أصحاب الزرع ليأمن على ماله ولا على عرضه ولم يقفوا عند هذا الحد بل ضربوا على أصحاب الزروعات المغارم والكلف الفادحة من مال وغلال فاذا تعذر جمعها عاثوا فى البلاد وأهلكوا الحرث والنسل وكان عباس باشا يدفع بهم كل قليل من الزمان الى قتال عربان البحيرة لميلهم الى عمه الامير محمد سعيد ثم لم يلبث على موالاتهم طويلا حتى عاد فغدر بهم وأهلك كبارهم وشرد نساءهم ونهب زروعاتهم على يدى رستم بيك مدير الشرقية فلم تقم لهم بعد ذلك قائمة * وأبطل فى يوم

واحد جميع معامل القطن والكتان والاقمشة والاجواخ والحرير والمقصبات التى أنشأها جده محمد على باشا وشرد من كان بها من الصناع والعمال ۞ قال بعض الكتاب ۞ وقد تم ذلك باغراء من الجنرال ميرى قنصل جنرال الانجليز فكان فعله هذا من أشد الفعال المحزنة لقلوب أهل البلاد فقد كانت هذه المعامل على ضخامة آلاتها وقلة معداتها والاعتماد فى حركتها على الدواب لعدم ظهور استعمال البخار يومئذ وتعذر وصولها الى حد الكمال التى هى عليه المعامل اليوم كافلة باحتياجات البلاد وقد أحيت من الصنائع ماأماتته الايام وأذهبه جور الحكام وأعادت لمصر بعض رونقها القديم وسهلت على أهل البلاد سبل الكسب والتعليم فعاش فى ظلها العدد العديد وترامت آمالهم فيها الى المرمى البعيد ولو بقيت الى يومنا هذا لكان لها من الشهرة مايغنى البلاد عن كثير من المصنوعات الاجنبية على اختلافها وأمست وهى مهبط الرزق للصانع فيها والمتجر فى مصنوعاتها ولكنها أصبحت فلم تكن شيأ مذكورا

ولما كانت سنة خمس وستين ومائتين وألف هجرية تقدم اليه قنصل جنرال الانجليز فى تحبير الطريق من باب الحسينية الى مدينة السويس تسهيلا لنقل السواح من الانجليز الذين كانوا يأتون من السويس على عجلات كانت تجرها الخيل فرسم بذلك وقيد بعض الترك بهذا العمل فأفحشوا فى الجور وايذاء خلق الله حتى أتموه فى عهد قريب ۞ وعمر فى سنة ست وستين مسجد السيدة سكينة وعمل على الضريح مقصورة من النحاس الاحمر وجدد كذلك جامع العشماوى بشارع العشماوى بالازبكية فاعجب ذلك أهل القاهرة ومصر واستحسنوه منه وتقدم اليه الجنرال ميرى قنصل الانجليز فى انشاء خط حديدى أيضا بين الاسكندرية والقاهرة وسلك تلغرافى كذلك وألح عليه وكرر الطلب لتسهيل المواصلات بين عاصمة الانجليز وهندها وما زال به وهو يمنيه بالامانى البعيدة حتى رسم بانشائهما فكان مد محور الخط فى تاسع عشرى ذى الحجة سنة سبع وستين ومائتين وألف هجرية ۞ وحجت أمه فخرجت من القاهرة فى كبكبة عظيمة وسارت مع ركب الحج وأمام هودجها الجند وخلفه الخدم والحشم والغلمان والاتباع فلما دخلت المدينة أنفقت وفرقت من الغلال شيأ كثيرا وفعلت كذلك بمكة وغيرهما وعادت الى القاهرة فأولم لها الولائم العظيمة وأطعم وكسى أولاد المكاتب والايتام وتصدق على بعض المساجد وأضرحة الاولياء وأقام المقرئين والفقهاء يتلون القرآن فى دارها أياما وزارها جميع الامراء والكبراء وأصحاب البيوتات العالية من النساء وقدموا لها الهدايا والتحابى النفيسة

وكان كثير التساؤل عن مستقبل الامور ثابت الاعتقاد فى صحة الكهانة والعرافة والزايرجات فأدنى منه جماعة من أصحابها وقربهم وسألهم عما يكون فى أيامه من الحوادث والكوائن وما سيقع اليه من خير أو شر فأبهموا عليه الأمر فهددهم فقالوا انا نخاف عليك من رجل طويل القامة أسمر اللون فى شكل كذا وكذا قيل فاضطرب وزاد

خوفه من جميع الناس وأمر بالدجالين وأصحاب الزايرجات بجمعوهم وأقصوهم الى أعالى السنار والدارفور فتطاولت عند ذلك أيدى أعوانه الى خيار الناس من كل ملة فكان صاحب الوجاهة لايشعر الا وقد كبس داره جماعة من الترك فيحملونه مقيدا بالحديد الى حيث لايدرى ويرجعون فيبحثون عما فى داره من كتب وأوراق ويأخذون كل ماوصلت اليه أيديهم من حلى ومتاع فكثر لذلك أصحاب السعاية واشتد الخوف بالناس فانكمشوا وقل اجتماعهم وأوجس كل من صاحبه بل ومن خادمه أو خادمته اذ كان من المحتم على كل خادم أن يبلغ شيخه فى كل يوم أخبار بيت سيده من قيل وقال وما دخل اليه من مأكول ومشروب وملبوس وغير ذلك فلا يشعر صاحب البيت الا وهو بين يدى صاحب الشرطة يسأله عما قاله فى ليلته أو فعله فى صباح يومه فاذا أنكر أتى اليه بألف دليل من أسرار بيته وعورات أهله وولده فكان اذا أغضب المخدوم خادمه أو أغلظ عليه فى القول وشى به عند صاحب الشرطة فتكون عليه الطامة الكبرى * وكان يحب اقتناء المعزى والنعاج وكبار الكباش للضاربة والحمام والسباع والفيلة والضباع وجياد الخيل وكان شديد العناية بهما ينفق عليها أموالا كثيرة ويرسل خواصه للاتيان بها من أقاصى البلاد كالهند والعراق واليمن ونجد وبغداد وكان شديد البغض للنصرانية ناقما على النصارى لاسيما منهم أهل البلاد فأخرج الكثير منهم من خدمة الدولة ومنع من استخدامهم وبالغ فى تذليلهم وأتى للمباشرين منهم بطائفة من الاحداث الاغرار وأبناء المكاتب فجعلهم فى وظائفهم وألزمهم بتعليمهم وتدريبهم وضرب لهم أجلا فاختل نظام المصالح الديوانية وتطرق الفساد الى جميع الاعمال وكسدت حرفة القلم وتحقرت * قيل واشتد به البغض للنصارى حتى دبر أمر اخراجهم من وطنهم وتبعيدهم الى أقاصى السودان وأرسل الى الاستاذ الشيخ الباجورى شيخ الاسلام يومئذ يسأله فى ذلك فلما جلس الشيخ قال له أسألك أمرا لاتكتمه على قال وما هو يا أمير قال انى أقصد تبعيد النصارى كافة من بلادى ومقر حكومتى الى أقصى السودان وقد دبرت لذلك تدبيرا فما قولك قيل فقطب الشيخ وجهه وقال أى النصارى تعنى يا أمير ان كنت تعنى الذميين الذين هم أهل البلاد وأصحابها فالحمد لله لم يطرأ على ذمة الاسلام طارئ ولم يستول عليها خلل حتى تغدر بمن هم فى ذمته الى اليوم الآخر وان كنت تعنى النصارى الفرنجة النازلين فى بلادك فانى أخاف اذا فعلت بهم شرا أن يحل ببلادك ما حل بالجزائر من الفرنسيس * قيل فغضب عباس باشا ونادى خذوه عنى فقام الشيخ وهو يقول اى ويعلم الله اى ويعلم الله * وكان اذا أبغض أحدا من بطانته آخر أيا كانت درجته قال له ان فلانا (يريد خصمه) فيه شئ من الاوصاف التى قال عنها فلان صاحب الزايرجة وفلان صاحب تحت الرمل فلا يشعر ذلك المبغوض الا وقد دخل عليه طائفة من الترك فيأخذونه الى حيث لايعود فكان الرجل أية كانت وجاهته يقضى بياض يومه فى حساب ما سيكون فى سواد ليله فكان اذا غضب على أحد غضب

الناس كافة عليه فلا يقترب منه الرفيق ولا يكالمه الصديق خوفا من العيون فاشتد الخوف بالناس الى حد القنوط والياس

قال أحد كتاب الاخبار فتجردوا للعداوة وابتهلوا الى الله وتوجهوا اليه بقلوبهم واتفق انه خرج من القاهرة فى شوال سنة سبعين ومائتين وألف هجرية ونزل بقصره ببنها العسل على النيل كعادته وهو قصر قد أنشأه على مقربة من تل تريب قيل موضع قصر المقوقس عظيم قبطة مصر وأقام به أياما مع بطانته وكثير من الخدم والحشم والاتباع وطائفة من الغلمان فلما كانت ليلة ثامن عشر شوال من السنة تآمر أولئك الغلمان على قتله فدبروا الامر وأحكموا التدبير وتولى قتله أربعة منهم وقيل ستة والأول أصح فقاموا عليه وهو بفراشه فقتلوه وخرجوا من ساعتهم يوهمون أنهم انما خرجوا يريدون القاهرة لامر أشار به عباس باشا وتركوه وباب حجرته مغلق عليه فطلع النهار وارتفع وصار الظهر قريبا ولم يدر أحد بما جرى عليه واتفق أن مر فى ذلك اليوم ببنها أحمد باشا يكن يريد بالذهاب الى اقطاعاته بالمنصورة فلما علم بوجود عباس باشا بقصره نزل للسلام عليه وطلع الى الديوان وسأل عنه فقيل له انه نائم فلبث ينتظره ساعة حتى أذن الظهر ثم قرب العصر ولم يظهر خبر فأوجس أحمد باشا خوفا وقال دلونى على حجرة نومه فدلوه عليها فطرق بابها فلم يجبه أحد فتابع الطرق ثم أمر فكسروا الباب ودخلوا فاذا هو ملق على فراشه فأمر من كان معه بكتمان الخبر واستدعى كبير الخصيان وقال له الباشا يأمر بذهاب جميع النساء الى القاهرة فى هذه الساعة فنزلوا ونزل رجال ديوانه الخاص وجميع الخدم والحشم والاتباع وجماعة الغلمان وأبقى معه جماعة وألبس عباس باشا ثيابه وأعد عربته ولم يعلم بالخبر الا القليل فلما أذنت العشاء أنزلوه من حجرته حملا على الايدى وأجلسوه فى عربته كأن به مرضا وجلس معه أحمد باشا وساروا الى القاهرة فى الكبكبة المعتادة وأنزلوه بقصره بالحلمية وأصبحوا وقد شاع الخبر بموته وتناقله الناس فلم يصدقوه وكان عمه الامير محمد سعيد بالاسكندرية محجورا عليه فوردت عليه فى صباح ذلك اليوم رسائل التهانى وأرسلوا اليه يستقدمونه وتشاغل الناس عن جنازة عباس باشا حتى المقربون اليه والعائشون فى نعمته وأبطؤا فى دفنه فلم تخرج جنازته الا بعد الظهر وكان اليوم شديد القيظ فسارت جنازته فى نفر من خواصه وبعض الجند ومرت من الغورية فالنحاسين والناس فى دهشة لا يصدقون بموته ثم طيروا الخبر الى محمد سعيد باشا واستقدموه ليولوه الولاية فرحل عن الاسكندرية يريد القاهرة فكانت ولاية عباس باشا زهاء خمس سنوات رحمه الله

(مطلب)

ولاية محمد سعيد باشا ابن ساكن الجنان الحاج محمد على باشا الكبير

لما ورد الخبر الى الامير محمد سعيد باشا بموت عباس باشا قيل انه اندهش وكاد أن

لايصدقه لولا ترادف رسائل التهانى عليه من كل فج وصوب بجمع اليه قناصل الدول وسار بهم من الاسكندرية يريد القاهرة فعلم فى الطريق أن ألفى باشا أحد أخصاء عباس باشا تعاهد مع أمير جند قلعة الجبل على غلق أبواب القلعة ومنع سعيد باشا من دخولها واستقدام الامير الهامى ولد عباس باشا من الديار الاوروباوية وكان قد سافراليها من أيام وتحالفا على ذلك فلما دخل سعيد باشا القاهرة لاقاه جميع رجال الدولة وأصحاب الوظائف العالية والعلماء والمشايخ وساروا فى ركابه الى قلعة الجبل ومعه قناصل الدول وبعض كبار الاجانب ففتح لهم أمير جندها الابواب وقابله الجند بالسلام وانطلقت ألسنتهم بالدعاء اليه ودقت البشائر وطيروا الخبر بولايته الى الآفاق ففرح الناس فرحا عظيما قيل فلم يمض على ألفى باشا بياض يومه ذلك حتى مات غما وقيل خوفا مما فعل فتولاها الامير محمد سعيد باشا ابن محمد على باشا فى عشرى شوال سنة سبعين ومائتين وألف هجرية أى سنة أربع وخمسين وثمانمائة وألف ميلادية فلما استقرت به الولاية وجاءه فرمان السلطان أحسن التدبير وأحكم السياسة ورتب أمور البلاد على مافيه المصلحة لاهلها ورد جميع الاطيان التى كانت أعطيت الى كبار المامورين وأرباب الدولة على عهد ابراهيم باشا وعباس باشا الى أصحابها من الفلاحين وأبطل الكثير من المكوس والمغارم والضرائب الفادحة وأزال البدع والمظالم والاحدوثات التى كادت تدمر البلاد منذ ولاية ابراهيم باشا ورتب الخراج ورفع المتأخرات والبقايا من الاموال الاميرية عن الفلاحين ورد المتشردين منهم الى أوطانهم وأمن الطرق وسهل سبل التجارة فراجت أسباب الزراعة واتسع نطاقها وعلت الاسعار فأثرى الفلاح وحسن حاله واتسعت مادة رزقه فأسرف وبالغ فى السفه حتى لم يبق ولم يذر

وكان يحب الجندية ويعجب بها جدا فبالغ فى تنظيمها وأكثر عدد رجالها وألبسهم الملابس الفاخرة وسلحهم بالاسلحة المتقنة وجمع اليهم من أبناء جميع البلاد وأنشأ طائفة من السود فكانت على أكمل هيئة وأجمل نظام فكان اذا سار الى بلد سار جميع الجنود فى ركابه وخلفها المكاحل والمدافع ودواب الحمل كأنها زاحفة للحرب والقتال واذا عاد عادت على هذه الصورة من الكبكبة ونزلت بالخيام ظاهر القاهرة ومصر القديمة أودخلت الى منازل الجند كقصر النيل وطرا والجيزة وغيرها فلم يستقربها المقام حتى يأتيها الامر بالرحيل الى مريوط أو أدفينة أوبنى سويف أو غيرها فكانوا دائما على قدم الاهبة والاستعداد لاتفتر لهم همة ولا تخمد لهم عزيمة وكان مع حبه للجند وشدة تعلقه بهم شديد البطش فتاكا بمن تقع منه صغيرة أو كبيرة من العسكر فكانوا كأحسن عساكر الدنيا طاعة وخفة ونظاما وملبسا ومأكلا ومشربا

مطلب عصاوة عربان منية ابن خصيب وماجرى لهم

وظهر فى أيامه عصيان عربان منية ابن خصيب فركب عليهم بخيله ورجله وأعمل فيهم القتل والتشريد ۞ قال بعض كتاب الاخبار وكان سبب خروجهم عن الطاعة أنه أراد أن يأخذ منهم جماعة ليدخلهم فى مصاف الجند فيكون لهم مالهم وعليهم ماعليهم وأنفذ

الى مدير منية ابن خصيب باحضارهم فجمع المدير كبارهم وأصحاب الرأى منهم وكلمهم فى الامر فامتنعوا وقالوا لاسبيل الى ذلك ونحن وعيالنا متعهدون بخفر الدروب والجبال منذ ولاية محمد على باشا الكبير الى هذا الحين فلا يصح ادخال أولادنا فى مصاف العسكر واذهاب ماباديننا من الحقوق المعطاة لنا من ذلك العهد فراجعهم المدير فى ذلك فامتنعوا فالح عليهم فتجافوا وخاطبوه بفحش القول فأمر بهم فعوّقوهم ورفع أمرهم الى محمد سعيد باشا فأغضبه ذلك قيل وكان يبغضهم بغضا شديدا لميل عباس باشا اليهم وتحريضهم على قتال عربان أولاد على نكاية بسعيد باشا كما تقدم القول فأنفذ الى مدير منية ابن خصيب يقول لاسبيل الى غير ماسيرت به اليك فاياك والتقاعس واهمال هذا الامر فشدد المدير فى الطلب وألح على أولئك المشايخ فطلبوا مهلة فأمهلهم وسرحهم وضرب لهم أجلا فساروا وتحصنوا بالجبل الشرقى ولم يرجعوا اليه وجاء الخبر بذلك الى محمد سعيد باشا فكاد يتميز غيظا ونادى فى عسكره بالرحيل الى منية ابن خصيب وبنى سويف فساروا وركبوا على أولئك العربان وقاتلوهم أياما كثيرة فترفع العربان الى الجبل الشرقى وبعضهم الى الجبل الغربى فتبعهم الجند وأعملوا فيهم القتل فقتلوا منهم خلقا كثيرا وسبوا النساء والأولاد والبنات وأتوا بهم الى مدينة الفيوم وبنى سويف فكانوا يعطونهم الى أصحاب البيوت كالاماء والعبيد وقبضوا على كبارهم وأصحاب الوجاهة منهم وأودعوهم السجون وكان الجند اذا كبسوا حيا من أحياء أولئك القوم وجدوا البيوت قاعا صفصفا ليس فيها الا ماثقل حمله وبخس ثمنه فيأخذونه فاذا ابتعدوا عنها قليلا وجدوا الاطفال مطروحين مثقلين بالرمل كى لايقدرون على الزحف فيموتون حيث وضعتهم أمهاتهم فكانوا يأتون بهم الى بنى سويف والفيوم وغيرهما ويعطونهم الى أهل الخير فيكفلونهم وكان أولئك العربان على عهد عباس باشا واسعى الكلمة عظيمى الصولة كبيرى الاهابة فعاثوا فى البلاد وأفسدوا وأهلكوا الحرث والنسل وأمر سعيد باشا فأعملوا فيهم القتل والشنق والتمزيق بنيران المدافع وأباحهم لجميع المديرين لاسيما يعقوب بيك مدير بنى سويف فأفحش فى قتلهم وبالغ فى البحث عنهم وتتبعهم أينما ساروا وخرب منازلهم وشرد من بقى منهم الى أقاصى الشام والحجاز فاختفى من لم يتمكن من الفرار فى القرى والكفور وتزيا بزى العامة والفلاحين وتكلم بكلامهم وترك مايلتزمه العرب فى كلامهم من الترخيم وكسر آخر الكلم وقد كان الفقير منهم يأنف من مخالطة أهل البلاد ومكالمتهم ويحسب ذلك عارا ومذلة فصار الكبير منهم لايرى السلامة الا بالالتجاء الى أصغر بيوت الفلاحين * واشتد الخوف بأهل الفساد واللصوص وقطاع الطريق فاختفوا فأمنت السبل وسلكت المسالك واشتدت يقظة أهل البلاد فأقاموا الخفراء على الحدود ورؤس الطرق والمسالك وارتفع الخوف عن الناس فكانت المرأة تأتى من مريوط الى أقاصى الصعيد الاعلى برا من غير رفيق فلا تجد فى طريقها من يعترضها فى مالها أو عرضها أو يسألها من أين أو الى أين وكبرت هيبة سعيد باشا فى أعين أهل البلاد كافة فانكفوا عن

ايذاء بعضهم وعكف كل على مهنته وحرفته وصنعته فحسنت حالهم وكثرت أموالهم وغزرت مادتهم ونمت زروعاتهم ودرت الارزاق فأكلوا وشربوا وشبعوا ولبسوا مالم يأكلوا ولم يشربوا ولم يلبسوا فى أيامهم الغابرة * ونظر الى مستقبل موظفى الحكومة وأرباب الدولة فرتب لهم قانونا كافلا لمعاشهم اذا تقاعدوا عن الخدمة ورسم فى خامس ربيع الثانى سنة احدى وسبعين بالعمل بمقتضى هذا القانون فكان من أكبر النعم وأجل المزايا التى لا يعادلها شئ عند جميع موظفى الدولة وهو معمول به الى يومنا الذى نحن فيه حتى أصدر اسمعيل باشا قانونه الجديد فنفذ حكمه على من كانت خدمته فى مصالح الدولة ودواوينها تالية لتاريخ صدور ذلك القانون * وأنشأ القلعة القائمة على بناء القناطر الخيرية وسماها بالقلعة السعيدية ووضع أساسها بيده فى ثالث عشرى جمادى الآخرة من السنة وبالغ فى تنظيمها حتى جاءت من أحسن المبانى وأتقنها وقد زالت محاسنها وتشعث بعض بنائها فازا لها اليوم جماعة الانجليز ولم يبقوا منها حجرا على حجر * ولما كان شهر رمضان من السنة ظهرت الهيضة بالقاهرة ومصر واشتدت فكثر الموات فى الناس كثرة بالغة ولبث الحال على ذلك أياما فبلغ عدد من أحصى ممن مات نيفا وخمسة آلاف نسمة وأما من لم يحص فكثير ثم ارتفع واطمأنت القلوب وعاد من هاجر من أهالى القاهرة ومصر فرارا من الموت * وأعاد سعيد باشا بعض ما أبطله عباس باشا من المعامل والمدارس الملكية والعسكرية واستقدم العلامة رفاعه بك من منفاه بالديار السودانية حيث كان أبعده عباس باشا لوشاية الواشين وسلمه مقاليد تلك المدارس فأفلحت وتخرج منها الكثير من أبناء البلاد

وقدم فى ولايته الشهير فرديناند دى لسبس الفرنسوى الى القاهرة وكلمه فى حفر خليج يصل البحر الابيض بالبحر الأحمر مبتدئا من مدينة السويس الى ما يجاور الاشتوم المعروف باشتوم الجميل على ساحل البحر الابيض المتوسط وألح على سعيد باشا فى ذلك فاستكبر سعيد باشا هذا العمل وعده رابع المستحيلات وطاول دى لسبس ومناه فاشتدت عزيمة دى لسبس وشدد فى الطلب وأكثر التردد على مقر سعيد باشا وتواردت على سعيد باشا الرسائل تترى بعضها طعنا فى أعمال دى لسبس وبعضها استهزاء بمشروعه وسخرية به ﴿ قال أحد الكتاب وأكثرت دولة الانجليز من التنديد بهذا العمل الخطير واندفع أصحاب صحف أخبارها يسلقون دى لسبس بالسنة حداد ويبالغون فى الهجاء والسخرية فمنهم من سماه سيزوستريس القرن التاسع عشر ومنهم من قال بل هو اسكندر المقدونى ابن فلبس ومنهم من قال هو عمرو بن العاص فاتح مصر الذين تقدموا فى أيامهم الى ايصال البحرين ببعضهما ولم يبق لعملهم أثر على ما كان لهم من بعد الصيت واتساع الكلمة وتذليلهم للصعاب ومع هذا كله لم ينثن لدى لسبس عزم ولم تفترله همة وثابر على الالحاح فوعده سعيد باشا ومناه فرفع اليه فى ثانى عشرى صفر سنة احدى وسبعين ومائتين وألف هجرية كتابا

يقول فيه

يامولاى — لقد طالما اشتغل عظماء العالم باسره لاسيما ملوك مصر الأولين بأمر ايصال البحر الاحمر بالبحر الابيض المتوسط وقد أثبت التاريخ ما قبل عن سيز وستريس فرعون مصر الشهير والاسكندر المقدونى وقيصر ملك رومية وعمرو بن العاص وبونا بارته والدك محمد على باشا أنهم قد بذلوا جهدهم فى سبيل انجاز هذا المشروع الخطير وقد تم لبعضهم ماأراد فأوصلوا البحرين ببعضهما بواسطة ترعة تمر بالنيل وبقيت هذه الترعة مدة غير طويلة فى منتصف القرن التاسع قبل الهجرة المحمدية ثم علاها التراب فطمها وامتنع جريان الماء بها فتعطلت وبطل نفعها ثم قام بعضهم بعد ذلك وأعاد هذا الاتصال فبقى زهاء أربعمائة سنة وخمس وأربعين سنة فى أيام خلفاء الاسكندر المقدونى على ديار مصر ولبث الحال على ذلك الى القرن الرابع قبل الهجرة المحمدية ثم علاها التراب وطمها حينا حتى دخل عمرو بن العاص مصر بجيوش المسلمين فأخذ باطراف هذا الامر العظيم ونهض الى استرجاع ذلك الاتصال ففاز ونجح وجرى الماء فيه فعبرته السفن مائة وثلاثين سنة ولقيام الفتن وتوالى البلايا والمحن علاه التراب فطم وامتنع سير السفن منه

ولما دخل الشهير بونابارته بجيوشه ديار مصر وشاهد بعينى رأسه موقع ذلك الاتصال ودّ لو استطاع ارجاعه فينال شهرة عظيمة لايمحوها كرور الايام والسنين وعمد الى تشكيل عمدة من كبار المهندسين وأماثل علماء الآثار وأتى بهم من الديار الاروباوية لينظر فى انجاز هذه الامنية وسألهم اذا كان فى الامكان ارجاع ذلك الاتصال بشرط أن لايمر بالنيل فأجابوه الى ذلك ورفع الى مقامه أحدهم الموسيو لوبير تقريرا عما ظهر لهم من البحث والتنقيب وما يحتاجه هذا العمل الخطير من النفقة فلما اطلع عليه بونابارته صاح قائلا انه لعمل يستحق مزيد العناية والاهتمام ويجب علىّ انجازه ولكن من أين لى النفقة الآن ويدى خالية فعسى أن يأتى يوم تعود فيه السلطنة العثمانية الى سابق مجدها وغناها فتعيد ذلك الاتصال فيخلد ذكرها على ممر الاعوام فها قد آن يامولاى الاوان وجاء اليوم الذى قال عنه الشهير بونا بارته نعم ان العمل خطير ولكن انجازه سيكون داعيا الى ظهور شأن السلطنة العثمانية ورفعة كلمتها واتساع شهرتها فتقطع ألسنة القائلين بقرب سقوطها وزوال مجدها ويرجعون فيعلمون أنها ما برحت صاحبة الكلمة المسموعة والقول الذى لايرد ويخلد لها الذكر الحسن فى بطون التواريخ الجامعة لحوادث المدنية والعمران ۞ ولا خفاء أن اجتماع دول أوروبا على الذب عن الاستانة وحفظها مقرا للسلطنة العثمانية والذود عن ذمارها ورغبتها فى بقاء السلطنة المشار اليها زاهية زاهرة موفقة معززة قوية على خصومها وقيامها لنصرتها عند أى حادث بالنفس والنفيس وركوبها على عدوها لقتاله وارجاعه الى الطاعة والخلود الى السكون انما هذا كله نظرا لما لبوغاز السويس من خطارة المركز وأهمية الموقع الذى

بفصل

يفصل ما بين البحرين وحذرا من وضع يد احداهن عليه فتصبح هى الممالكة المتسلطة على بقية الديار فتنتقض المساواة وتختل الموازنة المتفق عليها بين الدول الغربية التى يهم العالم باسره حفظها بين الدول الكبرى * ولعمرى اذا كان البوغاز المذكور هو سبب تكاتف سائر الدول على معاونة السلطنة العثمانية والاهتمام بأمرها فكيف بها لو جعلت مصر مركز العالم باسره ومحط رحال التجارة وطريق العالمين الغربى والشرقى بالجمع بين البحرين فلا بد وأن يزداد شأنها علوا وقدرها خطارة ومقامها أهمية لدى أهل السياسة اذ تصبح مفاتيح العالم باسره فى يدها ولا خوف عليها فانه متى تم حفر ذلك الاتصال قام جميع الدول بجعله حرا مباحا للجميع سواء وجعلته تحت رعاية الدولة العلية دون سواها اذ هى صاحبة الدار * وقد كان الموسيو لوبير من نحو الخمسين سنة قدر عدد الفعلة اللازمين للعمل فى الاتصال المذكور بعشرة آلاف وضرب لهم أجلا لانجازه زهاء أربع سنين وقوم ما يحتاجه من النفقة بقيمة ثلاثين أو أربعين مليونا من الفرنكات وقال انه يمكن اتصال البحرين بواسطة ترعة على خط مستقيم وأما الموسيو طلابوت الذى سبق انتدابه لهذا الغرض ضمن الثلاثة المهندسين المشهورين الذين سيرت بهم الجمعية الفرنسوية التى تأسست بفرانسا من نحو العشر سنين للنظر فى هذا الموضوع فقد تراءى له جعل الترعة المذكورة واصلة من مدينة السويس الى الاسكندرية بحيث تمر بالنيل على القناطر الخيرية وقدر النفقة على هذا العمل مائة وثلاثين أو مائة وأربعين مليونا من الفرنكات ونحو عشرين مليونا أخرى لعمل مينا ورصيف بمدينة السويس وأما لينان بيك الموظف بخدمة الحكومة المصرية الموكول لعهدته منذ ثلاثين سنة حفر الترع وتقوية الجسور ونحوه فقد اشتغل بأمر البحث عن اعادة الاتصال المذكور بحثا مدققا مع ما هو عليه من الدراية والخبرة المشهود له بهما فى جميع الدول فتراءى له صلاحية مد ترعة بحيث تمر ببحيرة التمساح وان يعمل بالبحيرة المذكورة مينا ترسى فيها السفن الآتية من بيلوز التى هى آتية الى البحر الأحمر أو من السويس الى البحر الأبيض المتوسط وكذلك العلامة الشهير كاليس بيك مهندس الحصون والقلاع المصرية على عهد المرحوم أبيك قد كان رفع الى أبيك رحمه الله مشروع حفر ذلك الاتصال على شكل خط مستقيم وعمل له رسما عن ذلك بقلم العلامة لينان بيك المشار اليه وموجيل بيك مهندس أشغال القناطر الخيرية والكبارى والجسور المصرية وما من هؤلاء الا وكان يطنب لوالدك المبرور فى مدح هذا العمل وما ينجم عنه من الفوائد الجمة وفوق ذلك فانه فى سنة أربعين وثمانمائة وألف ميلادية استدعى الكونت دى والوسكى الذى كان وقتئذ نزيل الديار المصرية الموسيو كاليس الموى اليه وكلمه فى أمر هذا الاتصال فرفع اليه كاليس تقريرا بما يراه ولكن قد حالت يومئذ دون انجاز هذا المشروع موانع لا وجود لها اليوم

ولما كان من الواجب علينا أن ندقق البحث ونمعن النظر مع التأمل فى جميع آراء

أولئك العلماء الافاضل والمهندسين الاماثل مع مراعاة أن هذا المشروع المهم قابل للانجاز على أحسن حال وأتم منوال لزمنا أن نختار منها أسدها وأصوبها وأقواها حجة وبرهانا فنعمل به وليعلم مولاى حفظه الله أن الموانع والمرابك والعقبات التى طالما أقلقت القدماء وأضعفت عزائمهم وحالت بينهم وبين انجاز هذا العمل الجليل قد زالت اليوم وهب أنها لم تزل باقية بعضها أوكلها فان تحمل الصعاب مع الصبر والجلد فى سبيل انجاز هذا الامر الخطير لهو من أوجب المواجب بل من أسمى المطالب بقى اذا علينا أن ننظر فى أمر النفقة وهذه أيضا ليست بالأمر البعيد فانه لايصعب على أولى الحزم والعزم حل عقدتها على أحسن ما يرام اذ ستكون ايرادات ذلك الاتصال أضعاف أضعاف ما سينفق عليه وعلى ذكر هذه المسئلة الثانوية فليسمح لى مولاى أدامه الله بأن آتى اليه بالبيان الآتى بعد فيتضح لسموه أن المصاريف التى يحتاجها عمل ذلك الاتصال لا تعد شيأ فى جانب الفوائد المهمة والمنافع الجمة المترتبة على اعادته فضلا عن كونه سيقصر المسافة الواقعة ما بين الهند وآسية وبين أوروبا وأمريكا وهذا البيان قد سطره الاستاذ الشهير والجيولوجى الماهر الموسيو كورديه

أشهر مين أوروبا وأمريكا	المسافة مابين المين المذكورة الى بومباى		الفرق بين الطريقين بالفرسخ
	من المحيط الاطلانتيكى	من طريق الاتصال الجديد	
قسطنطينية	٦١٠٠	١٨٠٠	٤٣٠٠ بالفرسخ
مالطا	٥٨٠٠	٢٠٦٢	٣٧٧٨ «
تريستا	٥٩٦٠	٢٣٤٠	٣٦٢٠ «
مارسيليا	٥٦٥٠	٢٣٧٤	٣٢٧٦ «
كاديش	٥٢٠٠	٢٢٣٤	٢٩٧٦ «
ليسبون	٥٣٥٠	٢٥٠٠	٢٨٥٠ «
بوردو	٥٦٥٠	٢٨٠٠	٢٨٥٠ «
هافر	٥٨٠٠	٢٨٢٤	٢٩٧٦ «
لوندرا	٥٩٥٠	٣١٠٠	٢٨٥٠ «
ليفربول	٥٩٠٠	٣٠٥٠	٢٨٥٠ «
آمستردام	٥٩٥٠	٣١٠٠	٢٨٥٠ «
سان بطرس برج	٦٥٥٠	٣٧٠٠	٢٨٥٠ «
نيويورك	٦٢٠٠	٣٧٦١	٢٤٣٩ «
نيوفيل أورلانس	٦٤٥٠	٣٧٢٤	٢٧٢٦ «

ولقد

ولقد وافق على هذا التقدير سائر المهندسين وأجمعوا على دقة ضبطه وقرروا بانه يهم جدا سائر بلاد أوروبا وأمريكا والهند والعالم بأسره اعادة هذا الاتصال *وليعلم مولاى أن لا عمل فى بلاده أكبر خطارة ولا أعظم فائدة ولا أجل شأنا من هذا العمل العظيم فليعمل مولاى على ذكر اسمه فى مصاف أولئك الذين تملكوا على ديار مصر وينجز هذا المشروع فى أيامه فيزدان حكمه بما لم ينله غيره من قبل وتسعد الأمة المصرية فتتجه نحوها الابصار وتمد اليها الاعناق وينادى باسم مولاى فى سائر أنحاء المعمورة ويخلد ذكره فى بطون التواريخ وينال من الشهرة ورفعة القدر مالم ينله الفراعنة الذين شادوا الاهرام والهيا كل الضخمة التى لا فائدة فيها للنوع الانسانى كالفائدة المترتبة على اعادة ذلك الاتصال وانما هى مبان تدل على القدرة البشرية التى سخرت كل نوع لحذقها واظهار مجدها ﴿ ومن فوائد هذا الاتصال العظيمة التى لا ينكرها مكابر تسهيل طريق الحج الى بيت الله الحرام وتعلق الناس بفن الملاحة وتسيير السفن واتقان السباحة فى أرض البحار فيتسع نطاق التجارة وتنفتح أبواب الرزق على أهل البلاد المصرية ويعم نفع ذلك جميع البلاد الواقعة على ساحل القلزم وخليج العجم وشرق أفريقيا ومملكة سيام وشنشين واليابان ومملكة الصين البالغ عدد سكانها زهاء أربعمائة مليون فضلا عن جزائر فيلبين وأوستراليا وجميع جزاير البحر الابيض المتوسط التى هاجر اليها الكثير من الاوروباويين فتجرى المواصلات بينها جميعها وتسعد حالها

هذا ولقد ظهر من الاحصاآت المدققة أن ما تنقله السفن الاوروباوية فى كل سنة عن طريق رأس الرجا الصالح ورأس هرون لا يقل عن الستة ملايين طونلاطة فاذا سارت هذه السفن بطريق خليج العجم وترعة السويس المراد انشاؤها زاد نقلها عن ذلك زيادة عظيمة وكان الدخل المتحصل منها زهاء المائة وخمسين مليونا من الفرنكات باعتبار عشرة فرنكات عن كل طونلاطه وربما زاد الدخل عن ذلك كلما انتظم سير السفن بالترعة المذكورة وحسنت الملاحة فيها * ويجب مراعاة أن اعادة هذا الاتصال بين البحرين يهم جدا دولة الانجليز التى هى سيدة البحار وأغنى سائر العالم مالا وأكثرهم تجارة وأكبرهم رغبة فى تقريب الاتصالات التجارية ولكن بعض أهل السياسة يقولون ان اعادة هذا الاتصال تضر جدا بمصالح الانجليز وتحط بها لانها تقرب العالم بعضه الى بعض وتوسع نطاق ملاحة جميع الدول على أن الانجليز لا يحبون تقدم غيرهم فى شئ من ذلك البتة ويميلون الى أن يروا أنفسهم السابقين فى كل شئ والرابحين لكل شئ ولذا أصبح هذا البحث الدقيق الشغل الشاغل لكثير من أهل السياسة وكان من أكبر الاسباب الباعثة على تأجيل الشروع فى هذا العمل الجليل ولو تأمل أصحاب هذا الرأى فيما جاء فى المعاهدات التى أبرمت بين دول فرنسا وانجلترا والباب العالى فى هذا الشأن لتحققوا أن الامر على غير ما يتوهمون وعلموا أن دولة انجلترا تملك أهم وأعظم بوغازات العالم بأسره مثل جبل طارق

ومالطا وجزاير الارخبيل وعدن وغير ذلك فى الهند وسنجابور واوستراليا فلا يضر بشئ من مصالحها ارجاع ذلك الاتصال فاذا سمح مولاى بالأخذ باطراف هذا العمل لايسع دولتى الفرنسيس والانجليز الا الاذعان والموافقة على حفر مستطيل لايتجاوز طوله ثلاثين فرسخا ولعمر الحق من ينظر الى شكل هذا المستطيل على خريطة نظرة التأمل ولا يهيم شوقا الى رؤياه برزخا يجمع مابين البحرين أما مد خط حديدى من مدينة الاسكندرية الى مدينة السويس كما تمنت ذلك الدولة الانجليزية وسعت جهد الاستطاعة وراء الحصول عليه فهذا لايأتى بالفائدة المطلوبة الا اذا كان المراد منه مساعدة الملاحة فى الاتصال المذكور

واذا نظرنا الى دولة النمسا فلا نراها تبدي اعتراضا على هذا العمل لانها أباحت حرية الملاحة فى نهر الداوب والسو بليانا فلا سبيل لها الى غير الاذعان والقبول وكذلك دولة المجر لا ترى فى هذا العمل سوى زيادة أهمية مينا تريستا والبندقية وجعلهما من أهم مين العالم التجارية فتعم به السعادة والرفاهية أهل بلادها ويتسع عندها نطاق التجارة والصناعة فلا نجد بدا من معاونتنا وهى على أتم مايكون من حسن الرضا والقبول * وان قيل ان دولة الروسيا لا ترضى عن ذلك العمل قلت هذا لايكون لانها تود ظهوره وهى الآن فى غناء عن أن تعارضنا لا سيما وجلالة قيصرها قد فاز بكل ما تاقت اليه نفسه فافسح لكل بلاد دخلت فى دائرة حكومته طرق التمدن والعمران فاذا تم عمل هذا الاتصال كان له نور على نور فينفذ قومه الى أقاصى الهند بأصناف المتاجر والبضائع فتنفتح لهم أبواب الرزق وتسعد أحوالهم وكذلك تزداد العلائق يوما عن يوم بين الولايات المتحدة الامريكية وبين الهند والصين وتزداد مواصلات اسبانيا مع جزائر الفلبيين وهولاندا مع جافا والصومال وبرنيو ودولة ايطاليا الشهيرة قديما مع اليونان والاجمال يسر العالم باسره سرورا عظيما يوم يعم خبر الشروع فى هذا العمل العظيم * وانى أعد مولاى حرسه الله بأنى سأبذل جهد المجتهد فى الحصول على معاونة جميع هذه الدول وأقوم خير قيام بوفاء وعدى والسلام

فاستحسن سعيد باشا هذا المشروع وأحله محل القبول و بعد التأمل والبحث الطويل أجاب الموسيو دى لسبس الى الأخذ فى أسباب عمل الاتصال المذكور وأنفذ اليه اجازة تتضمن اثنتى عشرة مادة بصورة العمل وما يحتاجه من العمال وما يتبع فى حق الاراضى الواقعة على شاطئ الاتصال المذكور وكيفية المساهمة والمشاركة فى الاموال اللازمة للنفقة والارباح الناتجة من الملاحة فيه وفى تسمية شركة لذلك وتعيين عدد المساهمين وغير ذلك من الشروط والالتزامات التى يستلزمها هذا العمل العظيم * ولما كان لايتأتى الجزم بالشروع فى هذا العمل عقب اعطاء هذه الاجازة للموسيو دى لسبس الا من بعد مخابرة دار السلطنة العثمانية فى ذلك والحصول على رخصة البراءة السلطانية أو عزم سعيد باشا

الى

الى الموسيو دى لسبس بالشخوص الى دار السلطنة ليخابر صدر الدولة فى هذا الأمر فسار اليها فكان بينه وبين الصدر الاعظم أخذ ورد أياما كثيرة وورد مرسوم الصدر الاعظم الى سعيد باشا باستحسان المشروع وحلوله محل القبول لدى أمير المؤمنين ولزوم التأنى والتروى فيه قبل انفاذه وأنه صار من ذلك اليوم موضوع نظر رجال الدولة ومبحث أرباب الحل والعقد وأنه قد تصرح للموسيو دى لسبس بالشخوص الى حيث شاء حتى يأتيه أمر السلطان

وجاء المسيو دى لسبس الى القاهرة غير قانط ولا ضعيف الأمل ولبث بها أياما يغدو ويروح على مقر سعيد باشا ثم سار الى بلاد الفرنسيس ليعد المعدات ويجمع المال للنفقة فكثر تحدث كبار الدول فى هذا الأمر واندفعت أصحاب صحف أخبارهم تبدى وتعيد كل حسب ماتغلب عليه أهواؤه وما يلائم مصلحة بلاده ووقف الوشاة على باب السلطان يدسون الدسائس ويحركون ما فى صدور أهل الحل والعقد ويعملون على ابطال هذا المشروع فلم يكن بأسرع من أن عاد دى لسبس ومعه جماعات المهندسين والرسام والبنائين والغواصين وصناع الآلات ومعلمى طبقات الأرض والمعادن وشرعوا فى العمل فرسم محمد سعيد باشا فى سادس عشر ذى القعدة سنة اثنتين وسبعين ومائتين وألف هجرية بتسخير زهاء عشرين ألفا من أهالى البلاد بالمناوبة فى حفر ذلك الاتصال ووكل مديرى الجهات بجمعهم وتسييرهم فكانت شدة عظيمة للغاية ونال مشايخ القرى والبلاد من أهلها فأذلوهم وتمكن العدو من عدوه وشمت الغريم بغريمه وكادت تتعطل أسباب الفلاحة اذ هاجر الكثير من أهل البلاد ونزحوا من أوطانهم فرارا من هذه المحنة الكبرى * وسار دى لسبس فى العمل سيرا حثيثا غير مبال بعدم رضا السلطان ولا هياب من العاقبة وفرق العمال على طول خط الاتصال من بيلوز على البحر الابيض التى على أرضها الآن مدينة بورسعيد الى مدينة السويس فتبعهم الباعون على اختلافهم وأصحاب القهاوى والخانات وأهل الخلاعة والقصف فعمرت تلك الاصقاع وصارت آهلة باخلاط الناس من الروم والترك والفرنجة والمصريين وغيرهم ممن جاء من البلاد البعيدة فى طلب الرزق واهتم رجال الدولة باستتباب الامن فى تلك الانحاء فرتبوا لها العسس والشرطة لا ينكفون عن التطواف ليلا ولانهارا وقام سعيد باشا بجميع تعهداته التى تعهد بها الى دى لسبس ماديا وأدبيا فاندهش العالم باسره وكان من وراء ذلك ماسيتلى عليك فى محله ان شاء الله

وبينما كانت الاحوال على ما يرام والقلوب مطمئنة والفتنة راقدة اذ جاء الخبر بزحف نجاشى الحبشة على بعض الاملاك المصرية الواقعة على الحدود وشنه الغارة عليها وأنه نهب أهلها وساق مواشيهم وأسر منهم خلقا فهال سعيد باشا هذا الامر وأزعجه فجند جندا عظيما لقتال النجاشى وعزم على لقائه وكان الى هذا الحين لم يرتق كيرلس بطرك المتأصلين مسند البطريكية بل كان مطرانا ووكيلا للدار البطريكية بعد موت بطرس البطرك وكان

بين كيرولس ونجاشي الحبشة مودة وصحبة قديمة على عهد بطرس فانه كان سفيرا من قبل بطرس الى النجاشي وقد نزل في جواره أياما كثيرة * والحبشان يجلون بطارقة القبط و يخضعون لسلطتهم الدينية خضوعا عظيما و يعتقدون أن البطرك انما هو أقرب جميع المخلوقات الى نوع الملائكة والارواح العلوية من أنواع البشر ولذلك لايقربون من مقامه ولاينظرون اليه فاذا نظروا اضطرارا فبطرف خاشع مطرق*وبعد أن تأهب سعيد باشا للسير للقاء النجاشي عاد فحسب ما وراء هذه الحلة فخاف العاقبة وظهر أن ماء النيل آخذ في الهبوط في غير أوانه فخاف الناس وترامت ظنونهم الى المرمى البعيد فسلك سعيد باشا في الامر مسلك التأني وشاور أصحاب الفكر فاشاروا بانفاذ رسل الى النجاشي يكون كيرولس مطران المتأصلين صاحب الكلمة بينهم فأعجب سعيد باشا رأيهم وكلم كيرولس في الامر فأجابه الى ذلك فرسم سعيد باشا فجهزوا له باخرة من بواخر النيل فركبها مع رجال الوفد وترفعوا نحو الصعيد الأعلى فكانت اذا مرت باخرتهم باحدى المديريات أطلقوا لها المدافع اجلالا وتعظيما وأنزلوا فيها أصناف المأكول والمشروب ثم ركبوا الهجن والجمال حتى بلغوا حدود الحبشة وعلم النجاشي بقدوم كيرولس ومن معه فخف للقائهم وسار اليهم في أربعين ألفا من الجند فلما اقترب من الحلة التي كانوا بها ترجل وسعى على أقدامه حاسر الرأس فقام كيرولس للقائه فقبل النجاشي يديه وقبل كيرولس رأسه وسار معه والجند حوله حتى دخل مجدلة تخت الملك يومئذ وشاع خبر مجيء كيرولس في جميع أرض الحبشة ففرحوا فرحا عظيما ودقت البشائر وأقيمت الصلاة في جميع الكنائس وبالغ النجاشي في اكرامه وقد كان يتمنى لو أنه يراه كي يمسحه ملكا على جميع ملوك الحبشة كما كانت تمسح أبناء بني اسرائيل ملوكهم حسب ناموس موسى عليه السلام وكان الى هذا الحين لم يعتبر النجاشي نفسه ملكا على سائر ملوك الحبشة اذ هو لم يمسح بتلك المسحة فلم يستقر بكيرولس المقام حتى سأله النجاشي أن يمسحه فأجابه الى ذلك وضرب له أجلا فوفدت جميع ملوك الحبشة والأمراء وسائر قواد الجند والوجهاء والاعيان من أقاصي الحبشة الى مجدلة وأقيمت الولائم والافراح في كل صوب وحدب أياما ثم مسحه بين الملوك والامراء وقواد الجند وصفوف العسكر والعدد العديد من أهل البلاد وفرح ثيودوروس النجاشي بذلك فرحا لايوصف وكان في مجدلة نفر من الانجليز مرسلين من الجمعية المعروفة بجمعية التبشير بالانجيل لبث تعاليم مارتين لوثر الدينية بين الحبشان وقد تقربوا من النجاشي بعمل المدافع وصنع الاسلحة لعسكره وتعليمهم فنون الحرب والقتال حتى مال اليهم وأحبهم وأباح لهم التجول في جوف البلاد فجالوها شرقا وغربا وشمالا وجنوبا وبثوا تعاليمهم حتى كادت تعم تقاليدهم جميع البلاد وأصبحوا وقد عبثوا بطقوس الكنيسة القبطية التي هي أم الكنيسة الحبشية فكبر هذا الامر على مطران الحبشة وخشي العاقبة فعمد الى ايقاف هؤلاء المرسلين عند حدهم فلم

يفلح

بفعل وقد كبر شأنهم واتسعت كلمتهم واشتدت الوحشة بينهم وبينه فلما جاء كيرولس شكى اليه المطران مما تلاقيه الكنيسة من أولئك القوم وسأله أن يتقدم الى النجاشى فى تبعيدهم عسى أن تزول من البلاد تقاليدهم فأجابه كيرولس الى ذلك ولما تمت الافراح بمسح النجاشى ورجع من حضر من الملوك والامراء والقواد والجند الى أوطانهم كلم كيرولس النجاشى فى سبب قدومه عليه من مصر وسأله أن يرد ما أخذه من بلاد مصر وأن يقلع عما يفعله فى الحدود منعا لقيام الحرب بين الحبشة ومصر وحقنا للدماء التى حرم الله سفكها فاذعن النجاشى وأجابه الى كل ما طلبه ورسم فكتبوا الى سعيد باشا يعلمونه بقبول ما طلبه كيرولس بغير شرط ولا تقييد ففرح كيرولس بذلك وكلمه أيضا فى أمر المرسلين الانجليز وزين له تسييرهم الى أوطانهم فقال انما هم عندى لعمل المدافع وتدريب عسكرى على القتال فقال كيرولس لم يبق موجب لبقائهم وقد زال ولله المنة والحمد ما كان بينك وبين والى مصر من الوحشة والنفور فان كنت فى حاجة الى صناع لآلات الحرب أو الى من يدرب عسكرك أتيت لك من مصر بمن لاتحتاج معهم الى غيرهم فقال النجاشى هذا ما أبغيه ثم رسم باخراج من كان فى البلاد من جماعة الانجليز فأخرجوهم وقد علموا بالسبب فشق عليهم الامر جدا واستعظموه وصمموا على الانتقام

وكتب كيرولس الى سعيد باشا يعلمه بما جرى ويسأله أن يسير اليه بطائفة من الصناع والمعلمين وعلم قنصل جنرال الانجليز بمصر بالخبر فعمد الى الاخذ بالثار والانتقام من كيرولس جزاء ما فعله بجماعة المرسلين فدخل على سعيد باشا بقصره وقال قد علمت أن كيرولس مطران القبط سأل مولاى أن يبعث الى نجاشى الحبشة ببعض صناع آلات الحرب ومعلمى الجند فقال قد كان ذلك قال ولا أظن أن مولاى يجهل أن عند القبط كتابا يعتقدون صحة ما فيه وهو يدلهم على زحف الحبشة على أرض مصر فى يوم معلوم عندهم فيأخذونها عنوة قال لاعلم لى بذلك ولعله حديث خرافة فقال القنصل هو كذلك ولكنى أتقدم الى مولاى فى أن يأخذ حذره من كيرولس فانه داهية طاغية قوى المراس بعيد الفكر محتال قال الراوى لهذا الحديث وما زال بسعيد باشا حتى تمكنت منه الظنون وترامت الى المرمى البعيد وجمع اليه رجال ديوانه وأهل الدولة وشاورهم فى الامر فأشاروا بالقتال واعداد الجند والعسكر فرسم بالتأهب والاستعداد وكتب الى كيرولس يعيب عليه مافعله ويقول قد أفرطت وتجاوزت حد المصالحة فعجل بالحضور * وقام فى جيش عظيم قاصدا الخرطوم فوصلها فى سادس عشرى جمادى الاولى سنة ثلاث وسبعين وما ثتين وألف هجرية * قال الراوى فلما تمت حيلة الانجليز بقيام سعيد باشا بعسكره الى حدود الحبشان دسوا الى النجاشى من أعلمه بأن قدوم كيرولس الى بلادك انما هو لمنعك من اعداد جندك وآلات حربك لتذب عن مملكتك من اغارة والى مصر وقد أتى الى السود ان ليركب عليك بخيله ورجله فيأخذ ملكك ويذهب سلطانك وأنت آمن مطمئن وقد سير اليك أيضا مع كيرولس كساء مسمم النسيج

حتى اذا لبسته تسمم جسدك ومت من يومك وكان مع ماأتى به كيرولس من الهدايا والتحف النفيسة والثعابى الثمينة برنس من الجوخ الاحمر المزركش بطراز الذهب والفضة والحرير الملون فهال النجاشى هذا الامر وأزعجه جدا وأنفذ من يستكشف له خبر مجيء سعيد باشا الى الخرطوم فجاءه الخبر بوصول جيش عظيم من المصريين فكبر خوفه وتبدلت أفراحه أتراحا وأمر بكيرولس فسجنوه فى مقره وأحاط به الحراس من الجند ومنعوا من الدخول عنده ووكل به جماعة من خواصه يراقبونه فى الليل والنهار لمعرفة أحواله واستطلاع أسراره ووكل جماعة آخرين بطعامه وشرابه وضيق عليه وشدد وكيرولس لايعلم بالخبر ولا يدرى ما هذا الامر ثم لم يلبث أن نادى فى عسكره بالخروج وكثرت المناداة فى كل يوم فخرجت طوائف الجند مشاة وركبانا فكانت شيأ كثيرا للغاية وصاروا على قدم الرحيل الى حيث يلتقون بالعدوّ * ورأى النجاشى أنه اذا ترك كيرولس معتقلا وسار بعسكره للقتال تمكن كيرولس من الخروج فيمسح أحد بيت الملك أوأحد كبار قواد الجند ملكا فتذهب سلطته وتسقط بيعته وتخرج عليه الملوك والقواد فيصبح بين منتطح عنزين فعزم على أن لايتركه فكان اذا سار من بلد الى آخر ساقه معه فى حلقة من الحراس ونفر من الخواص واذا نزل بعسكره للراحة استدعاه وجعل يؤنبه و يعنفه بفحش الكلام ويقول أو هذه فعالك ياامام النصرانية فشق هذا الامر على كيرولس وأحزنه جدا وأخذ فى التدبير فكان كلما كلموا الملك فى أمره زاد غضبا وغيظا فلبث كيرولس على هذه الحال من الشدة أياما طوالا الى أن تمكن من لقاء أم الملك وكانت تقية صاحبة دين وورع فشكى اليها مايلاقيه من ولدها وقص عليها خبره واستجار بها وسألها أن تعلم ولدها بحقيقة الحال فاجابته الى ذلك وكلمت النجاشى واستحلفته أن يجمع اليه رجال دولته ويشاورهم فى أمر كيرولس فلم ير بدا من طاعتها وجمع كبار قومه ورجال دولته وقص عليهم ما علمه من أمر قدوم كيرولس الى البلاد ثم أمر بحضوره فاستحضر فسئل عن سبب حضور سعيد باشا الى الخرطوم بعسكره وسبب وضع الكساء المسمم بين الهدايا التى قدمها الى الملك فوقف بين أيديهم والدمع ينحدر على لحيته وبالغ فى بيان الحقائق وأكثر من مدح سعيد باشا وبالغ فى اخلاصه وولائه للنجاشى وجميع قومه وما زال يستميل القلوب بحسن ابداعه حتى بش الملك وزال عنه بعض الغضب فقال كيرولس وأما الكساء فهو هدية الباشا اليك أيها الملك العظيم فلا يأخذنك ريب فى أمره ولا تصدق ما أخبرك به الوشاة وما أنا الا أخلص الناس فى الأمانة وأقرب الى طاعة الله فلا آخذ بالوجوه ولا أبيع الآجلة بالعاجلة فان كنت فى ريب من أمر هذا الكساء فأذن لى حتى ألبسه ما شئت من الأيام فيتحقق لك الأمر فاستحسن الملك مقالته وأمر بالكساء فأتوا به وألبسوه اياه على لحمه و وكل به من يحرسه يومين كاملين فلم يصبه ضرر فاستغرب الملك من ذلك وأمر فجيء برجل محكوم عليه بالموت فألبسوه الكساء ووكل به

من يحرسه ثلاثة أيام فلم يصبه شئ البتة فالتفت الملك الى قومه وقال ماذا تقولون قالوا هى فرية ما أنزل الله بها من سلطان وقد أسأنا الى كيرولس فليجعلنا فى حل مما وقع فقال بقى علينا أن نسأله ارجاع سعيد باشا الى مقره فان فعل شكرناه وكنا له من المحسنين ثم أرسل الى كيرولس فدخل عليه فأجله وأجلسه بجانبه فقال هل لك أن تكتب الى سعيد باشا بالانحدار بعسكره الى تخت بلاده ويكفينا واياه شر القتال فان فعلت ذلك شكرناك واستغفرنا عما سلف قال سأفعل الساعة ان شاء الله وكتب من فوره الى سعيد باشا يعلمه بما جرى ويسأله الانصراف عن الخرطوم تتميما لقاعدة الصلح التى تقررت مع النجاشى وسير بالكتاب مع نفر من كبار الحبشان فلما ورد الكتاب على سعيد باشا رحل بعسكره عن الخرطوم وكتب الى كيرولس * قد رحلنا عن الخرطوم الى القاهرة فبلغوا عنا الملك خالص المودة وأعلموه أنا مازلنا على حسن الولاء والمحبة * فعاد الرسل بالجواب ففرح كيرولس فرحا لايوصف وقام ودخل على الملك فلاقاه الملك وهو حاسر الرأس حافى الاقدام وانكب على يديه يقبلهما فقبل كيرولس رأسه وسامحه وأمر الملك فدقت البشائر وأقيمت الافراح وأولمت الولائم ونودى فى العسكر بالخروج فخرجوا أفواجا ومروا بالمكان الذى كان به كيرولس والنجاشى وصاحوا بأصوات التهليل وأمر النجاشى فجيء اليه بورقة العهد الذى رسم بعقده مع سعيد باشا فوقع عليها وهو بين كبار قومه ورجال دولته وأرسلت والدة النجاشى الى كيرولس هدية نفيسة للغاية وكذلك الامراء وكبار القواد وزاروه وقبلوا أقدامه وتزاحمت على بابه أقدام المهنئين وأتوا اليه من كل صوب وحدب ثم استأذن الملك فى الشخوص الى مصر فجهزه بمال وأرسل معه كثيرا من الهدايا النفيسة وسير معه وزيرا من كبار وزرائه وكتابا الى سعيد باشا فلما وصل كيرولس الى الاسكندرية قوبل بغاية الاحتفاء والاحتفال وأنزلوا وزير النجاشى بدار الضيافة الخاصة وقد رفع الى سعيد باشا كتاب الملك والعهد والهدايا ولبث أياما كثيرة لم يرفيها سعيد باشا غير المرة الاولى ثم استأذن بالانصراف فأذن له وأرسل معه بعض الهدايا والتحف وجوابا الى الملك

وأحس كيرولس بعد رحيل وزير النجاشى بغيظ محمد سعيد باشا منه واعراضه عنه فكبر عليه ذلك وتردد على مقر سعيد باشا لعله يعرف شيأ من الامر فلم يتمكن فصمم على العزلة حتى تنجلى الحقيقة ويظهر الصدق لذى عينين * واتفق بعد أيام أن خرج كيرولس الى دير انطونيوس بالجبل الشرقى ومعه بطركا الروم والأرمن الاورثودكس ليقضوا فيه أياما ترويحا للنفس فلما وصلوا بلدة بوش على مقربة من بنى سويف نزلوا بعزبة الرهبان أياما حتى تأتى القافلة فيخرجوا معها * قال الراوى لهذا الحديث * وعلم قنصل الانجليز بخبر قيامهم ونزولهم بعزبة الرهبان ببوش فسار الى مقر سعيد باشا ودس اليه بأن كيرولس انما ذهب الى الدير بمن معه من البطاركة للتحالف وتجديد العهد على وحدة الطوائف الاورثودكسية بمصر وجعل كيرولس بطركا عليهم ووضع الكنيسة

القبطية تحت حماية دولة الروس فاذا تم له ذلك أصبح مسند الولاية المصرية على شفا جرف تحيط به الاخطار من كل جانب * قيل فاندهل سعيد باشا من فعال كيرولس وأنفذ الى مدير بنى سويف يقول * سر الى كيرولس بطرك القبط وقل له أن يأتى الينا عاجلا فانا فى حاجة الى حضوره فسار اليه بعزبة بوش وأبلغه الرسالة فقال انى ذاهب مع رفاقى الى الدير بالجبل الشرقى فاذا عدنا ان شاء الله ذهبت اليه ومثلت بين يديه فقال المدير اكتب بذلك فأخذ كيرولس ورقة وكتب مقالته هذه فبعث بها المدير الى سعيد باشا فاشتد غيظه ثم كان من خبر كيرولس وما جرى له بعيد ذلك ماسيذكر فى محله ان شاء الله تعالى

ولم تكن لتشغل محمد سعيد باشا عند مانزل على الخرطوم الحرب المنتظر وقوعها بينه وبين نجاشى الحبشة عن النظر فى شؤن الرعية واصلاح ماأفسدته أيدى الحكام والعمال من أمور البلاد وتخفيف الضرائب وابطال بعض المكوس فأنفذ الى جميع عماله على السودان فى سلخ جمادى الثانية سنة ثلاث وسبعين مرسوما يقول فيه * ليس منكم من يجهل ما ألاقيه من التعب فى سبيل احياء ماأندرس من معالم المدنية والعمران وايراد كافة صنوف الرعية موارد العز والرفاهية وقطع شأفة الظلم والاستعباد ومع ذلك فانى لما قدمت الى هذه الاصقاع شاهدت بعينى رأسى مايلاقيه أهلها من الضنك والفاقة وسمعت باذنى صوت أنينهم من أحمال الضرائب التى أثقلت كاهل الغنى منهم فضلا عن الفقير وفداحة الخراج المضروب على سقاياتهم وأطيانهم وتسخيرهم فى كثير من الاعمال التى لاقدرة لهم على القيام بها والاتجار فى أولادهم وبناتهم كالسلعة فى الاسواق فكان ذلك مما أحزن قلبى وبلبل فكرى لاسيما وقد علمت بأنهم أخذوا يهاجرون من أوطانهم الى أقاصى البلاد هربا من هذه الكوارث والمحن المتراكم بعضها فوق بعض فلذلك قد عقدت النية على جعل الخراج قدرا يناسب حالة البلاد وأهلها وعلى أن أبذل جهد المجتهد فى اصلاح أحوالهم وترتيب أمورهم على ما فيه الصالح لهم ولذريتهم من بعدهم فلما نزلت على بربر جمعت المشايخ وجميع من جاء للقائى من أهل البلاد على اختلاف مراتبهم وسألتهم أن يؤمروا عليهم أميرا يختارونه من بينهم ممن يستبشرون بامارته ويتوسمون فيه الخير للبلاد ويحصل على يديه السكينة والخلود الى الطاعة وأن يقدروا مبلغ الخراج الذى يسهل عليهم القيام به بلا كلفة ولا مشقة ففرحوا بذلك وطلبوا أن يربط على كل سقاية خراجا قدره مائتان وخمسون قرشا فى كل سنة فلم يعجبنى ذلك منهم لكثرته مع حاجة البلاد الى التخفيف فرسمت بأن لا يزيد خراج كل سقاية عن مائة وخمسين قرشا وخراج كل فدان من أرض الجزائر خمسة وعشرون قرشا أما أراضى العلو فعشرون قرشا لاغير فكان لهذا العمل أحسن وقع فى قلوب سائر الرعية وفرحوا فرحا لايوصف وأخلدوا الى السكون والطاعة وهنأ بعضهم بعضا وأرسلوا يستقدمون من هاجر منهم وترك الاوطان

ولما

ولما وصلت الى الخرطوم جاءنى أولئك المشايخ والاعيان فأحسنت لقاءهم وأكرمت مثواهم وطيبت خواطرهم مما لم يسبق له مثيل عليكم تقتدون بى وانى لم أقلدكم المناصب الا لتكونوا عونى على استتباب الأمن واصلاح أمور الرعية فاياكم والعسف والجور ولاتجبوا الخراج الا فى الاوقات المناسبة واعقدوا لتقرير قاعدة ذلك جمعية فى الثلاثة شهور التى لازرع ولا قلع فيها وقسموا الخراج على أقساط متساوية يسهل عليكم جبايتها الى آخر كل سنة وكلفوا جماعة الأعيان بتقرير هذا العمل وكل ماوقع عليه الاتفاق ارفعوه الىّ ثم أحصوا جميع الكشاف والجند الموكلين بجباية الخراج واخلعوهم وقلدوا مكانهم مشايخ البلاد فهم أولى بذلك وعافوهم فى مقابلة هذه الخدمة برفع خراج سقاية فى كل خمس وعشرين سقاية هذا وحيث ان لأولئك المشايخ والاعيان بيوتا ينزل عليها كل طارق وقاصد فارفعوا عن كل منهم خراج أربعة أفدنة فى كل مائة فدان واذا ابتاعت الحكومة شيأ من أهالى البلاد لزمها أن تنقدهم ثمنه حالا بزيادة اثنين فى المائة عما تشترى به الاهالى بعضها من البعض الآخر واياكم والمخالفة فيكون جزاؤكم شر الجزاء

وحيث يوجد فى هذه البلاد من الاخشاب الصالحة للعمائر ومد السفن والحريق وغيره شيأ كثيرا فاشتروا منه من الاهالى كل ماتيسر وشيروا به الى القاهرة وانقدوهم الثمن معجلا وعلموهم الصنائع والفنون وانشاء المبانى المنظمة والمساكن المشيدة وغرس الاشجار بالشوارع والطرقات واذا أعطيتم أحدا أرضا للفلاحة من الأطيان المتروكة فأخبروا بذلك المديرية التى أنتم فى دائرة اختصاصها واذا عاد من هاجر الى بلده وطلب رد أطيانه وكانت ثابتة اليه وجب ردها اذا لم يمض على انسحابه خمس عشرة سنة وارفعوا عن الاهالى جميع المتأخرات لغاية سنة احدى وسبعين ومائتين وألف هجرية واعتبروا أن مساحة كل فدان أربعمائة قصبة وان كل قصبة ثلاثة أمتار فقط واياكم والمخالفة فيكون جزاؤكم شر الجزاء اه

فلما ذاع خبر هذا المنشور بين أهل السودان فرحوا فرحا عظيما وعاد منهم من هاجر ورحل عن الاوطان بسبب تلك المغارم والمظالم المتراكم بعضها فوق بعض وجاءت وفودهم الى مقر سعيدباشا يقبلون أعتابه ويدعون له بخير ويعلمونه بانهم قد أصبحوا على قدم الطاعة والخلود الى الدعاء بدوام ملكه وتأييد عرشه فأكرم لقاءهم وأحسن وفادتهم ووعدهم بانجاز كل مايتمنونه من الخير لبلادهم

وكان ميالا جدا الى مد الخطوط التلغرافية والحديدية من القاهرة الى قلب السودان فلم تمكنه الأيام من ذلك ولكنه رسم بتسيير عدة من سفن البخار فى النيل بين الصعيدين فكانت من أكبر أسباب العمران وأدعى الى رحيل الكثير من الاجانب الى تلك الاطراف * وكان سريع الخاطر قريب الغضب سريع الرضا يرضى بالقليل من كل شئ ولا يتطلع الى ما فى أيدى الرعية ولم يظلم أحدا قط وكان اذا علم بظلامة

أحد هاج وعاقب من تكب هذه الظلامة لاسيما منهم أرباب الدولة والحكام وكان بعيد التعصب لأحد الاديان لايفرق بينهم ولايفضل بعضهم على بعض فأحبته الرعية ومالت اليه جميع القلوب وكان لايملك دارا لنفسه فان جميع ما ابتناه جعله ملكا للخزينة ❁ وسار فى عشر رجب من القاهرة يريد الحجاز فوصل مدينة السويس فى رابع عشره وركب من يومه الباخرة المسماة نجد وزار الحرمين وتصدق فى مكة والمدينة وأطعم وفرق أموالا كثيرة وقام من المدينة فى سادس شعبان فوصل ينبع فى ثالث عشره وسار منها الى مدينة السويس فوصلها فى سابع عشر الشهر المذكور ففرح الناس بقدومه ودقت البشائر وزينوا له مصر والقاهرة ثلاث ليال فكانت كلها أفراحا ❁ وكان بينه وبين نابوليون امبراطور الفرنسيس محبة كبيرة وكانا على وفاق فى كثير من الأمور فابغضه لذلك كبار سياسة الانجليز وعملوا على نكايته وتذليله ❁ قال بعض الكتاب فدسوا الى السلطان أنه انما يسالم نابوليون ليساعده على الاستقلال بملك البلاد والخروج عن تابعية دار السلطنة وكانت المملكة العثمانية يومئذ فى غاية الارتباك والخبال لخروج الكثير من ايالاتها كالجبل الاسود والبوسنه والهرسك وغيرها عن الطاعة وطلب الاستقلال أو شبه الاستقلال مع تعرض الدول الكبرى الى جميع أمور السلطنة الداخلية ووقوفهن فى سبيل اصلاح الاحوال وارجاع الامور الى سابق مجراها فكانت اذا عمدت الى اخماد فتنة فى احدى الايالات ظهرت ثورة فى أخرى واذا تجردت الى مقاومة طائفة قامت عليها أمة فكان كبار سياسة الدول يهولون ويرمون السلطنة بالجور والعسف ويسمونها بالغلظة والجفاء فسعت وبذلت المهج فى سبيل اخماد تلك الفتن وأجهدت نفسها ولم تتمكن من اعادة السكينة الى ربوع الهرسك وبوسنه واصلاح بعض أمورها حتى ظهرت الفتنة بجزيرة كريد واشتدت وعظم أمرها فقام من بها من المسلمين على النصارى واقتتل الفريقان قتال الاعداء وكادت تمتد نار الفتنة الى جميع البلاد فتدارك صدر الدولة يومئذ عالى باشا الامر بحكمة منه وخلع والى الجزيرة وأقام مكانه سامى باشا استرضاء لفريق النصارى فسكنت الفتنة وعادت الأمور الى ما كانت عليه وشدد الصدر الاعظم فى مراقبة الاحوال واستطلاع الاخبار فلم يكن بأسرع من أن ظهرت الفتنة أيضا بمدينة جدة فقام من بها من المسلمين وركبوا على النصارى فى ذى الحجة سنة خمس وسبعين وأعملوا فيهم القتل بحد السيف وجرحوا قنصل الفرنسيس وكاتبه بجراحة عظيمة وقتلوا زوجة القنصل وجاء الخبر بذلك الى دار السلطنة فاهتم له الصدر الاعظم وفؤاد باشا ناظر الخارجية اهتماما عظيما وسيرا فى الحال فريقا من الجند ومقدمه اسمعيل باشا وأباح له الصدر قصاص جميع أصحاب هذه الثورة بالقتل من غير معاودة فسار اسمعيل باشا قاصدا جدة فلم يبلغها حتى علمت الدول الكبرى بالامر فهاجت وماجت ونادت بالويل والحرب وأنفذت دولتا الفرنسيس والانجليز الى بعض سفن حربهما بالشخوص الى جدة ورميها بالقنابل تباعا حتى تدكها دكا وأعلمتا

الباب العالى بذلك فراجعهما فلم يلتفتا لقوله * وكان لما وصل الخبر بما جرى فى مدينة جدة الى عامل السلطان على مكة سار من فوره الى جدة وقبض على أصحاب الفتنة وزعماء الثورة وحكم على جماعة منهم بالقتل وعلى آخرين بالتبعيد ورفع أمرهم الى دار السلطنة ولبث ينتظر الجواب فوصلت فى هذه الاثناء احدى سفن الحرب الانجليزية وعلم ربانها بما جرى فسير الى العامل على مكة يطلب التعجيل بقتل أصحاب الفتنة وضرب له أجلا أربعا وعشرين ساعة فاعاد اليه الجواب لاأعمل عملا حتى يأتينى أمر السلطان فلما مضى الاجل المضروب أطلق ربان السفينة قنابل مدافعه على المدينة تباعا واشتد الرمى وتراسلت القنابل زهاء عشرين ساعة حتى كادت تدمرها ولا تبقى بها حجرا على حجر ومات تحت الردم خلق كثير وبينما القنابل تتساقط من كل صوب وحدب اذ وصل اسمعيل باشا مبعوث السلطان ومعه طوائف الجند والعسكر العثمانى فكلم ربان السفينة الانجليزية فى الكف عن رمى القنابل فأجابه الى ذلك وأنزل من معه من العسكر وكذلك أنزل اسمعيل باشا عسكره الى البر ورسم بقتل أصحاب الفتنة وزعماء الثورة فعلقوهم على الاخشاب وبالغوا فى التمثيل بهم فزالت الفتنة ولم يبق لها أثر

وكانت هذه الدسائس وأشباهها موجبة لطيرة السلطان وتخوفه من جميع عماله ورجال مملكته وتحذره عند كل حادث فلما أعلموه بخبر مسالمة سعيد باشا لنابوليون ودسوا اليه أنه انما يتودد الى نابوليون ليكون له عونا على الخروج والاستقلال بملك مصر خشى العاقبة والبلاد باب الحرمين وطريق الحج الى بيت الله فبث العيون ليأتوا اليه بالاخبار وما زال حتى تحقق أنها فرية لحاجة فى النفس فأخلد الى السكينة مع التحذر والالتفات وما زالت الأمور بينهما على مايرام من التودد والصفاء حتى مرض السلطان ومات فى سابع عشر ذى الحجة سنة سبع وسبعين ومائتين وألف هجرية أى سنة احدى وستين وثمانمائة وألف ميلادية فكانت سلطنته ثلاثا وعشرين سنة وستة أشهر وعمره أربعون سنة وأربعة عشر يوما

ومات فى أيامه بطرس بطرك المتأصلين بعد أن أقام اثنتين وأربعين سنة وكان تقيا ورعا زاهدا متقشفا محبا للخير قليل الكلام مع هيبة ووقار يقضى يومه منكبا على المطالعة ولا يجلس الاعلى الارض ولا يلبس الا الصوف الخشن ولا ينام الا على حصير من القش بعيد الغضب اذا تكلم فمع التأدب والحشمة ولاينظر الى وجه سامعه وكان قد استقدمه ابراهيم باشا الى بيت المقدس على عهد حكمه على الشام فأكرم وفادته وأحسن لقاءه وبالغ فى تعظيمه ثم أعاده الى القاهرة * قيل ولما احتضر سأله بعض كبار الامة عمن يخلفه فى المنصب فرفع عينيه الى السماء لحظة ثم أطرق وقال داود رئيس عزبة بوش فاستقدموه عاجلا وكان قد كتب اليه قبل مرضه بأيام كثيرة أن احضر ولا تبطئ فانى فى حاجة اليك * وكان لايتعرض الى أمر من أمور السياسة ولايجتمع بأحد من ولاة الامور

وإذا سار فى الطريق أرخى على وجهه لثاما أسود * مات فى ليلة الرابع عشر من جمادى الآخرة سنة ثمان وستين ومائتين وألف هجرية ولم يصل داود الى القاهرة الا فى تاسع عشرى رمضان من السنة أى بعد موت بطرس بشهرين وخمسة عشر يوما فقد كان رسوله الى الرسا على ملك ملوك الحبشة لفض الخلاف الذى كان بين الحبشة ودار البطريكية بخصوص الدير المعروف بدير السلطان الكائن بأرض بيت المقدس * وتحرير الخبر أن للقبط بأرض بيت المقدس ديرا عظيما يعرف بدير السلطان وهو على مقربة من كنيسة القيامة وكانت تأوى اليه جماعة من الحبشان المتوطنين ببيت المقدس كسائر الاغراب الذين لا مأوى لهم بتلك الديار فاتفق أن وقع بين بعض أولئك الحبشان وبين رهبان ذلك الدير شقاق أدى الى المخاصمة ثم الى الملاكمة فلم يسع الرهبان الا اخراج أولئك الحبشان خارج الدير المذكور وسد أبوابه فى وجوههم فتحزبوا وأرادوا الدخول عنوة فلم يفلحوا فشكوا أمرهم الى أصحاب الحل والعقد فلم ينالوا غرضا وكأنه قد كبر مصابهم على قنصل الانجليز ببيت المقدس فتجرد للاخذ بناصرهم وبالغ فى تعضيدهم لأمر لم تصل الينا معرفته فقام أولئك الحبشان يدعون ملكية الدير المذكور وقالوا ان الذى أنشأه هو أحد ملوك الحبشة ولذلك يسمى بدير السلطان وأما القبط فلا ملك لهم ولا سلطان منذ دخول النصرانية بأرض مصر وانما السلطان للحبشان وقال القبط غير ذلك وان الذى بناه هو الاسعد أحد عظماء القبط فى خلافة محمد المهدى ثالث خلفاء بنى العباس وقد كان الخليفة المشار اليه أحسن الى القبط بقطعة الأرض الواقع عليها بناء الدير المذكور ورسم ببنائه على نفقته فسماه جماعة القبط من يومئذ دير السلطان اجلالا للخليفة المهدى وتعظيما واشتد الخلاف وتحرجت الأمور بين الفريقين فأوعز قنصل الانجليز ببيت المقدس الى جماعة الحبشان برفع ظلامتهم الى دار السلطنة العثمانية فسار نفر منهم الى القسطنطينية ووردت كتب النجاشى فى ذلك الى بطرس البطرك فرسم بطرس الى مطران بيت المقدس بفض هذا الخلاف بالتى هى أحسن فبذل المطران الجهد فى اقناع جماعة الحبشان فلم يفلح واستفحل الامر وتعذر الوئام وكبر التساهل على الفريقين وقنصل الانجليز لا يقف عند حد فلما أعيا بطرس البطريرك الحال وخشى سوء المآل استقدم داود رئيس عزبة بوش التى هى مفتاح دير انطونيوس بالجبل الشرقى ورسم له بالذهاب الى الحبشة سفيرا الى الرسا على لفض الخلاف الواقع بسبب ذلك الدير وكان لداود المذكور اقبال وحسن سياسة فسار فى نفر والتقى بالرسا على وكلمه فى الأمر قال بعض الكتاب فلم يفلح لسعاية قنصل الانجليز وطال مقامه على غير طائل فجاءه اليه الطلب فى أوائل ربيع الآخر سنة ثمان وستين فتقدم الى النجاشى فى ذلك فلم يأذن له وعوّقه أياما أخر ثم سرحه فوصل القاهرة فى تاسع عشرى رمضان فكانت مدة لبثه عند النجاشى سنة وبضعة أشهر وكان وصوله الى القاهرة بعد موت بطرس كما تقدم القول فلاقاه الناس باحتفال عظيم للغاية ونزل بدار البطريكية

ضيفا ولبث بها أياما على الرحب والسعة ثم اجتمع كبار الملة وأصحاب الرأى فيهم وتشاوروا في اقامة داود خلفا لبطرس فاتفقت كلمتهم على ذلك وكان الامر يومئذ الى عباس باشا حلمى والى الديار المصرية فاجتمع جماعة من كبار الملة ورفعوا الى عباس باشا رقعة بطلب اقامة داود مكان بطرس البطرك * قال أحد كتاب الاخبار فطاولهم وسأل أصحاب الزايرجات عما يرونه في اقامة داود بطركا فأرجفوا وهولوا وقالوا نكد ثم خصام وشدة ثم موت الوالى وتمزيق شمل أتباعه فاضطرب عباس باشا وشدد في السؤال فلم يروا في حسابهم غير ذلك وكان من مقدمى دواوين الدولة يومئذ ديوانى اسمه جاد أفندى عونى وهو جاد شيحه فاستدعاه كتخدا الباشا وقال له أعلم جماعة القبط بأن لاسبيل الى ولاية داود منصب البطريكية فان أبوا الا هو كانت الطامة الكبرى فلما علم القوم بما قاله كتخدا الباشا اختلفت آراؤهم وتفرقت كلمتهم وانقسموا فمنهم من قال لانختار غير داود ومنهم من طلب الانبا يوساب أسقف اخميم وهؤلاء هم أنصار جاد أفندى ومنهم من اختار الانبا اثنا سيوس أسقف أبى تيج ومنهم من اختار غيره واشتد الخلاف وتفرقت الاهواء وكثر التحزب وتوالى الاجتماع في الليل والنهار ولبثوا على هذه الحال أياما وجاد أفندى يغدو ويروح على كتخدا الباشا ايعلمه بأخبار كل يوم

فلما كادت الحزمة تنصرم ونار الوحشة بين الاحزاب تضطرم قام أنصار داود ولجؤا الى المستر ليدر أحد مرسلى جمعية التبشير الانجليزية واستنجدوه فكلم قنصل الانجليز في ذلك والقنصل كلم عباس باشا فطاوله فألح عليه فثناه وطال الحال والناس يذهبون في كل يوم الى بيت القنصل ويسألونه التعجيل * واتفق أن قدم في هذه الاثناء رسول من قبل نجاشى الحبشة ومعه كثير من التحف والهدايا النفيسة الى عباس باشا وشئ من الذهب والفضة والمرجان والدواب والوحوش البرية وكتاب من النجاشى لم يصل الينا علم مافيه فأنزلوه في دار الضيافة فلم يمض على حضوره الا أيام حتى شاع الخبر بأن القبط جميعا كانوا على قدم الخروج وشق عصا الطاعة وأن داود انما سار الى النجاشى ليستنجده وكثر تحدث الناس في هذا الامر فلما كان في أخذ الايام جاء الى دار البطريكية رسول من قبل محافظ البلد ومعه جماعة من الكتاب والجند وجعلوا يسألون داود عن سبب ذهابه الى النجاشى وما كان بينه وبين النجاشى من القيل والقال وعما هى رسالة بطرس البطريرك الى النجاشى وظلوا على هذه الحال أياما ثم رسم عباس باشا بحمل داود الى مجلس الاحكام بقلعة الجبل فكانوا يأتون به أمام المجلس في كل يوم المرة والمرتين ويشددون عليه في السؤال وهو مع ذلك ساكن القلب هادئ اللب لاينطق عن الهوى فكبر أمره على عباس باشا وزادت كراهته للقبط فرسم باخراج جميع مباشرى الدواوين من خدمة الدولة وكذلك سائر الكتاب فأخرجوهم وأقصى أصحاب الوجاهة منهم الى سنار ودارفور وبالغ في تذليل من لم يمكن الاستغناء عنهم فكانوا لضيق الحال ونفاد مابأيديهم يشترون المصالح الديوانية بالمناقصة وكثر

ذهاب أنصار داود الى بيت المستر ميرى قنصل جنرال الانجليز يستفزونه الى الاخذ بناصرهم وعباس باشا لايزداد الا اباء وعنادا ثم سير كتخدا الباشا يوما فى طلب جاد أفندى ورسموا له بأن يختاروا آخر غير داود خلفا لبطرس وأن يجعلوا فى ذلك كى لايبقى لوساطة القنصل محل فقام جاد أفندى واجتمع من ساعته بجميع الاساقفة وأخبرهم عما يريده كتخدا الباشا وقال لهم اختاروا واحدا من بينكم يكفينا مؤنة التطويل فاختلفت كلمتهم وتفرقت أغراضهم وذهب كل الى مذهب ثم طال بينهم الكلام واشتد اللدد والخصام ففشا سرهم وانكشف خفىّ أمرهم وتفرقوا فى ليلتهم تلك على غير طائل وأصبحوا وقد اجتمعوا و بينهم جاد أفندى وتكلموا فى الامر و بعد أخذ ورد إتفقت كلمتهم على مبايعة الانبا يوساب أسقف اخميم وكتبوا عهدا بذلك وتحالفوا على كتمان الخبر فلما كانت الليلة الاولى من رجب الفرد سنة تسع وستين ومائتين وألف هجرية اجتمع جميع الاساقفة بدار البطريكية فتبعتهم الغوغاء سرا ومعهم صاحبهم يوساب وجاد أفندى ونفر من أقاربه وأغلقوا الابواب وأقاموا الحجاب تحرسهم ورفعوا الصلاة و بينماهم على هذه الحال اذ برز أعمى من عرفان المكاتب اسمه بنى وجعل يطوف فى الازقة والحارات المجاورة لدار البطريكية وينادى بأعلى صوته هبوا ياقوم فقد قضى الامر اليوم ياقوم هاهم يبايعون الليلة انبا يوساب فان تغافلتم ندمتم وان نشطتم غنمتم ياقوم قد قامت الصلاة قد قامت الصلاة بادروا قبل الفوات هدا كم الله هدا كم الله * ومازال يكرر النداء و يكثر من الصياح والتطواف حتى استيقظ الناس وهبوا من نومهم وهم لايدرون ما الخبر وهرعوا الى دار البطريكية فتبعتهم الغوغاء واقتحموا الابواب وعلت الضوضاء وكثر الصياح وهب جماعة من الحبشان كانوا نياما بدار البطريكية وسألوا عن الخبر فزينوا لهم اخراج الاساقفة من المسجد فذهب جماعة منهم وأتوا بالعصى والمساوق واقتحموا المكان الذى كان به جمع الاساقفة ورسول الباشا وهم لايعرفون حقيقة الخبر فكسروا الابواب وفرقوا شمل جميع الحجاب وصاحوا فى وجوه الاساقفة وأخرجوهم قسرا فعلت أصوات العامة وكثر الصياح ووقع بينهم الهرج وطلب العامة رسول الباشا فكان كمن غمس فى الماء أوعرج به الى عنان السماء وظل جماعة الحبشان والناس يغدون ويروحون أمام دار البطريكية حتى مطلع الفجر فتفرقوا وانصرف جمعهم

وقد بدأ التعصب يدب فى صدور الناس ولاحت لوائح الفتنة وظهرت علائم اليأس فذهب قنصل الانجليز الى عباس باشا وأخبره بما جرى وبالغ فى الامر وهوّل فى سوء العاقبة وأشار الى ماسيكون من وراء الاباءة والمنع فخاف عباس باشا ورسم باقامة داود وكيلا لدار البطريكية فرضى القنصل ورضى سائر القبط بذلك وقالوا ان أول الغيث قطر فلما كان خامس عشر رجب من السنة سير الباشا مرسومه بذلك فأقاموا الصلاة سرا خوفا من قيام جماعة الحبشان اذ كانوا لايحبون داود ولا يرضونه بطركا فما كادت الصلاة تتم حتى برح

الخفاء وشاع الخبر فاجتمع الحبشان بالمسجد فلحق بهم العامة وتبعهم أتباع المصلين واقتحموا الأبواب وبأيديهم العصى والمساوق وصاحوا فى وجوه المصلين وأكثروا من شتمهم وسبهم ثم تماسكوا بالاطواق ووقع الضرب واللكم وكثر الصياح وعلت الاصوات واشتدت الجلبة وتطايرت العمائم عن الرؤس وتكسرت مصابيح المسجد وأطفئت الشموع فهرب الاساقفة واختفى داود وأصحابه ففتش عليه الحبشان فلم يعثروا عليه فانكفوا وسكنت الفتنة وقد كان لايظن أنها تسكن وأصبحوا وقد اتفقت كلمتهم على اقامة داود خلفا لبطرس فلما كان يوم الاحد التالى اجتمعوا بالكنيسة الكبرى وبايعوه جهارا وسموه كيرولسا وولوه مطرانا على كرسى مصر ووكيلا للكرسى البطريكى فلم يستقر به المنصب حتى قامت الفتنة ووقع الخلاف فتفرقت الكلمة وتحزبت الاحزاب وذهب كل الى مذهب فى أمر كيرولس وكبرت الوحشة بينه وبين فريق منهم وقد كانوا هم مقدمى القوم وأصحاب الكلمة فيهم فحجروا عليه فى جميع تصرفاته ومنعوه من النظر فى شؤن الملة واشتدوا عليه شدة بالغة فكان اذا أراد النوم لايجد لرأسه وسادة ولا لجنبه فراشا واذا جاع لايطعم الا ماقدموه اليه واذا زاره أحد فلا يأذنون له بلقائه وهو مع ذلك ساكن البال رائق الحال لايألو جهدا فى تأليف القلوب المتفرقة والنفوس المتنافرة وما زال حتى أفلح فى ضم الكل الى الكل فصاروا على الخير أعوانا وفى ذات الله اخوانا وطرحوا عنهم الخلاف وعادوا الى الاستنجاد بقنصل جنرال الانجليز على تولية كيرولس منصب البطريكية فأجابهم الى ذلك ومازال بعباس باشا حتى رسم فى سلخ شعبان من السنة أى سنة سبعين ومائتين وألف هجرية بولايته

فلما كان تاسع رمضان بايعه الاساقفة فى أبهة زائدة وطيروا الخبر بذلك الى الآفاق وفرحوا بولايته ووفد عليه المهنؤن من كل صوب وحدب ولم يمض على ارتقائه منصب البطريكية أيام حتى مات عباس باشا فاعتقد الناس صحة ما قاله أصحاب الزايرجات وأحلوه محلا * ولما استقر بكيرولس المنصب جمع اليه القلوب المتنافرة واستمال الخواطر المتباعدة وأصلح ما أفسده التحاقد فمال الناس جميعا اليه وأخذوا بكلمته وساروا بمشورته فعمد الى اخراج سلالة قدماء المصريين من حضيض الجهالة ومهاوى الرذالة الى أوج المعارف والتمدن وصروح التعلم والتفنن فأنشأ لهم المدارس وأتى لها بكبار الاساتذة والمعلمين من الفرنسيس والانجليز والايطاليين وعلماء العربية وأكثر لها من المعدات والادوات والكتب المرتبة وغير ذلك * وكان المشار اليهم فى تعليم الاطفال يومئذ جماعة من العميان يعرفون باسم العرفان وكان لهم منزلة عظيمة بين الناس وحرمة واسعة وكلمة مسموعة فلما أحسوا بما فعله كيرولس أدركوا ما وراءه من الخيبة وسد أبواب الرزق فى وجوههم فتجردوا الى العداوة وايقاظ الفتنة الراقدة وجعلوا يطوفون البيوت ويحضون آباء الاولاد وأمهاتهم على العصيان وشق عصا الطاعة ويقولون كيف تلقون أولادكم بأيديكم الى التهلكة وصاحبكم كيرولس قد عاقد الدولة على أن يجند لها من أولادكم ألوفا لتدفع بهم الى حيث لا يعلم

الا الله وكان اذا وصل الى دار البطريكية شئ من الكتب أو معدات التعليم ولولوا وقالوا هذه البنادق وآلات الحرب وملابس الصيف وأحذية الشتاء تأتى على عجل وكان الناس كافة كما هو اليوم يكرهون الجندية ويخافون التجند خوفا ما عليه من مزيد فاعتقدوا صحة الخبر وأخذتهم الطيرة وكرهوا عمل كيرولس وتجردوا لمقاومته وجماعة العرفان لايستكفون عن التطواف وحض الناس على مقاومته * أقول وقد كنت واخوتى نتعلم العربية عند أحد أولئك العميان ولى من العمر يومئذ السابعة فبينما نحن يوما نرقب حضوره كالعادة اذ أقبل يهرول فى ثيابه ويده على كتف أحد الصبيان فقمنا اجلالا اليه وأقبلنا جميعا نقبل يديه فجلس ثم أخذ يتمايل تمايل الزق المفنوخ أو البو المسلوخ وأخرج علبة السعوط فحشا خياشيمه حشوا حتى تأوه وعطس ثم مخط وسعل وتفل يمنة ويسرة وضرب الارض بعصاه فطار عثيرها وتساقط على رؤسنا تساقط المطر وصاح لاحول ولا قوة الا بالله ثم قال أف لكم وتعسا لوالديكم فلسوف تلقون غدا ما تلقون فقد استسلم آباؤكم الى الترهات وزخرف القول فضلوا وألقوكم بأيديهم الى التهلكة فبئس المصير بئس المصير ثم عاد فحشا خياشيمه بالسعوط وصاح اقرؤا ارفعوا أصواتكم ثم اشتد به السعال حتى كاد يغمى عليه فلما أفاق قال ها ها هيه أسمعنى صوتك * كرر لوحتك * اسكت ياابن النجار * اخسأ ياشقى * اخرس ياشيطان * لاتعض أذن أخيك ياابن الصائغ قم وأفرغ مافى خياشيمك ياابن يوسف صه ياأحدب ياأبا الرأسين ياأبا ذباب وما زال على هذا الحال من النداء والصياح والجلبة والسب والشتم ونحن فى جلبة وضجيج حتى نعس ونام واشتد غطيطه ونحن كالحلقة حوله ندفع عنه الذباب ونطرد الكلاب الداخلة علينا من الباب فلما سكنت قلوبنا بنومه أقبلنا على معلمنا الذى كان يكتب لنا الالواح ويضفر لنا زعف النخل فراشا نجلس عليه فسألناه عما أصاب العريف فى يومه فقال هو بخير وعافية ولكنه فى شاغل مما أتاه كيرولس البطريرك فانه على عزم أن يجمع جميع أبناء الملة ويضعهم فى دار أنشأها بالقبيلة وسماها (دار العلوم) وقد عين لدخول التلامذة فيها يوم كذا ونودى بذلك فى الناس اليوم بالكنيسة الكبرى فدعونا وهذا الكلام وارفعوا أصواتكم قبل أن يرفع العريف رأسه فعلت الاصوات واشتدت الجلبة

وأحس كيرولس بما وراء تطواف أولئك العميان من الفشل فاستعمل الحيلة وأحسن التدبير فجمعهم اليه وطيب خواطرهم وأناط بهم التعاليم الابتدائية وأقرهم على مابأيديهم وأفرز لكل منهم محلا بدار المدرسة الكبرى ورتب لهم الجاكى والمرتبات وأخذ عليهم العهود ومهد لهم طريقا للتعليم وجعل لامتحان تلامذتهم أياما معدودة فى كل ستة شهور فمن وجد منهم ناجبا ضم الى صفوف المدرسة فلم يمض على ذلك الا القليل حتى دخل من هؤلاء فى صفوف المدرسة نيف وتسعون تلميذا ومائة ممن كانوا خارجا وظهرت عليهم علامات النجابة ودلائل الفلاح فتكلموا بالانجليزية والافرنسية والايطالية والقبطية وجودوا

العربية وتعلموا منها النحو والصرف والبديع والبيان ونبغوا ونجحوا نجاحا عظيما ثم أنشأ بعيد ذلك مدرسة ثانية بالخطة المعروفة بحارة السقايين فكان شديد الولع بها وكان فى نهاية كل سنة يولم الولائم العظيمة ويدعو كبار القوم والوجهاء والعلماء لامتحان التلامذة ثم يفرق الجوائز من نياشين الذهب والفضة ونفيس الكتب وعد الموائد الفاخرة وكان اذا سمع من أحد التلامذة كلمة وأعجبه وضعها أواستكبرها على قائلها لصغره وعدم بلوغه حد النقد فرح به فرحا عظيما واستعادها مرارا وأخبر بها كل من يراه فى يومه فيقول سمعت اليوم فلان بن فلان يقول كيت وكيت فسرنى جدا ادراكه وتحقق لى نجاحه ان شاء الله * ووجه عنايته الى ترميم المعابد واعادة ما تخرب منها فأعادها الى ما كانت عليه وأنشأ بالخطة المعروفة بحارة السقايين كنيسة وقد كان الى ذلك الحين يصعب جدا انشاء الكنائس عملا بالعهد القديم والسنة المتبعة عند أولياء الأمور وأصحاب الكلمة من أمناء الدين وأنشأ أيضا الكنيسة الكبرى بالقبيلة على نظام أشهر الكنائس ولم يتم بناؤها وأنشأ دارا للطباعة وسماها باسمه وسلم أمر تدبيرها لجماعة من أبناء المدارس فاحسنوه وأتقنوا صنعة الطباعة فطبعوا فيها كثيرا من الكتب الدينية وكتب التاريخ والآداب وجمع من خزائن الديارات والمعابد القديمة نفائس الكتب وأشهر السجلات ليضعها فى دار مخصوصة قد أعدها لذلك وقد تبددت بموته ورسم بتصحيح الكثير من كتب الكنيسة وقد كانت محشوة بالخلط والتحريف فصححوا ما فيها وضبطوا عباراتها فجاءت على أحسن مايرام ورتب الطقس الاكليريكي وهذب الزى الشماسى فجاء حسنا مقبولا جاريا الى يومنا الذى نحن فيه وأحيا اللغة القبطية بعد مواتها فطبع منها عدة كتب بدار الطباعة الكبرى بلندن عاصمة الانجليز فتعلمها أبناء المدارس وتكلموا بها فكانت الى آخر أيامه من أهم اللغات التى تتكلم بها أبناء المدارس* وكان ميالا الى تعليم البنات وتهذيبهن الى حد يكن فيه معينات لازواجهن ومربيات لاولادهن فصادف من المقاومة فى ذلك اشكالا ولكنه كان مع ذلك يتحين الفرص ويتبين انتفاعها فلم تطل أيامه ومات قبل أن ينال أربه من ذلك

ووقع بينه وبين محمد سعيد باشا من الوحشة والنفور بسبب مارماه به الانجليز من سعيه وراء الخروج عن طاعة الدولة وجعله الكنيسة القبطية تحت حماية الدولة الروسية كما تقدم بيان هذا كله فى محله ما أوجب تخوفه وانكماشه وعدم اجتماعه بأحد من رجال الدولة وكانه كان يخشى وقوع أمر يتهدده ولكن

ولا يمنعنك الطير شيأ أردته * فقد خط بالاقلام ما كنت لاقيا

وطالت أيام عزلته ورسل القيصر تعوده كل قليل وتخابره فى أمر اتحاد الكنيستين القبطية والروسية وعندى أنها حقيقة لايصح انكارها فقد كانت من أعظم رغائب كيرلس وهو أكثر الناس تعلقا بها وأشدهم تمسكا بأهدابها وقد بذل فى الوصول اليها النفيس وتقرب ممن أشاروا عليه بذلك جهد الاستطاعة واستمالهم فأعانوه وصار اتحاد

الكنيستين أدنى من قاب قوسين بل أمرا مقضيا ۞ فلما كان فى أحد الايام جاء اليه رسول من قبل محافظ مصر يستدعيه الى الديوان لأمر لايتم الا بحضوره فلم يقبل الذهاب وصرف عنه الرسول بالتى هى فعاد اليه ثانية وثالثة فلم يربدا من الذهاب وسار معه وغاب ساعة ثم عاد ووجهه يقطر منه العرق وقد نزلت به حمى شديدة فلازم الفراش من ساعته واشتدت به الحمى شدة بالغة فاتوا اليه بطبيب فعرف العلة وأشار بالدواء فلم يأته حتى أتاه طبيب محمد سعيد باشا بأمر منه وأخذ فى علاجه وما زال يعالجه أياما وقد اشتدت علته وعظم الداء وفقد الرشد وسقط شعر رأسه ولحيته على وسادته وانحل جسده ومات ليلة من سنة تسع وستين ومائتين وألف هجرية أى سنة ثلاث وخمسين وثمانمائة وألف ميلادية ودفن بتربته التى ابتناها لنفسه بالكنيسة الكبرى بالقبلة ودفن معه حظ القبط جميعا وحظ بنيهم من بعدهم وحزن الناس عليه حزنا عظيما فكانت مدته خمس سنين الا أياما رحمه الله رحمة واسعة

۞ قلت وهو داود بن توماس بن بشوت بن داود ولد سنة خمس وعشرين ومائتين وألف هجرية بقرية اسمها نجع أبوزقالى من قسم صومعة شغلاق باقليم اخميم بصعيد مصر وأقام مع أبويه بهذه القرية الى أن ناهز الخامسة والعشرين وكان رحمه الله عفوفا تقيا ورعا محبا للفقراء حسن النية سليم الطوية ميالا الى العزلة والانفراد شديد الرغبة فى معرفة أخبار الصالحين مولعا بأهل العلم آوى اليه كثيرا من أهل الفضل من جماعة القسيسين والرهبان وانكب على تلقى العلوم الدينية ثم تاقت نفسه الى الرهبنة والتجهد وهم بالرحيل عن وطنه فمنعه من ذلك أبواه ثم جعل يراقب الفرص حتى خرج هاربا فى عام ثمان وأربعين ومائتين وألف هجرية الى دير أنطونيوس الاعلى بالجبل الشرقى ولبس مسح الرهبانية وأقام سبع سنين فكان محبوبا موقرا يشار اليه فى المهمات ۞ فلما كانت سنة خمس وخمسين ارتقى الى رتبة القسيسية فزادت منزلته وعلت كلمته ومالت اليه القلوب وأحبه الناس وفى سلخ جمادى الاولى من السنة المذكورة استقدمه بطرس البطرك وولاه الوكالة على الاحباس والاوقاف فدبر أمورها وأحسن تدبيرها وأكمل نظامها وعرفه الناس فمالوا اليه وتقربوا منه فرأوه شهما حازما واسع الدراية يقظا نشيطا وقورا حسن السياسة ميالا الى تعميم المعارف وتوسيع نطاق التمدن شديد الرغبة فى احياء ما اندرس من معالم مدنية الامة القبطية والارتقاء بها الى درجات الرفعة والتقدم * وفى أخريات سنة خمس وخمسين ومائتين وألف هجرية ولاه بطرس البطرك الرياسة على دير أنطونيوس الاعلى فأحسن التدبير ورتب الامور على أحسن مايرام وشدد فى ملازمة حدود الرهبانية فافتتن فى أيامه جماعة الرهبان فتنة كبرى ولبثت أياما حتى تمكن من اخماد نارها وبقى رئيسا تسع سنين أولها سنة سبع وخمسين وآخرها سنة ست وستين ثم استقدمه بطرس وسيره الى الحبشة رسولا الى النجاشى كما تقدم القول

وكان رحمه الله عظيم التجهد يتظاهر بحسن الملبس وهو لايلبس على جسده الا أخشن الوبر يظهر الاعتناء بعظائم الامور وهو غاية فى العفة والتقشف حليم بعيد الغضب شديد على جماعة الرهبان لايبيح لهم ترك الجبل والاختلاط بالناس كريم النفس أبيها رزين خبير بالامور وبموته خلا الكرسى زهاء سبع سنين كان يدبر الامر فيها مرقس مطران البحيرة ثم قام بعده ديمتريوس سنة سبعين ومائتين وألف هجرية أى سنة أربع وخمسين وثمانمائه وألف ميلادية وهو الحادى عشر بعد المائة واسمه مخائيل وكان رئيسا على دير أبى مقار ووقع فى أيامه من الحوادث ماسيذكر فى محله ان شاء الله تعالى

(الفصل الثالث والعشرون)

فى خلافة السلطان عبد العزيز بن السلطان محمود خان

ثم قام بالامر بعد موت السلطان عبد المجيد أخوه السلطان عبد العزيز خان بن السلطان محمود خان بويع له بالملك يوم موت أخيه سابع عشر ذى الحجة سنة سبع وسبعين ومائتين وألف هجرية أى سنة احدى وستين وثمانمائة وألف ميلادية وأتت بذلك الاخبار الى القاهرة فزينت المدينة ودقت البشائر وخطب له على المنابر وضربت السكة باسمه وورد الى محمد سعيد باشا فرمان الرضا فقرئ فى ديوان الغورى بقلعة الجبل ولما استقرت به السلطنة نظر الى أمور الدولة من أبوابها وأجهد النفس فى ترتيبها وقد كانت الحروب القائمة عليها أنحلتها وأذهبت رونقها وبهجتها حتى كاد العدو ينشب أظفاره فى جوفها فبالغ فى اصلاح ماأفسدته الايام وعزز جانبها وجند لها الجند الكثير وأنشأ مراكب الحرب وسفن الطراد وحصن الحصون والقلاع بأنواع الاسلحة الثقيلة فعلت كلمته وكبرت فى أعين الخصوم هيبته وتقرب منه الاسكندر الثانى قيصر الروس وتحبب اليه وسالمه وأخذ بقوله وعمل بمشورته حتى كاد ينفضح ما كان بينهما من السر المكتوم وخاف الانجليز شر ذلك وأحسوا بما وراءه من تنكيس أعلامهم فى قلب آسية وداخل أبواب هندهم فبذلوا النفيس وتقربوا الى مشايخ قبائل ذلك الصقع وأعملوا الدسائس فى دار السلطنة ببذل المال واعطاء العطايا العظيمة وما زالوا يميلون بابناء البلاد يمنة ويسرة حتى نالوا منهم وأسسوا عصابة باسم تركية الفتاة وأمدوها بالمال فنمت وعظمت وكثر عددها وانضم اليها الكثير من فحول الكتاب وأصحاب التحرير والخطباء والقوالين فكتبوا وألفوا وصنفوا وقالوا فى الخليفة السلطان عبد العزيز ماقال مالك فى الخمر ورموه بالمروق عن الدين ووسموه بموالاة الروس أعداء المسلمين وأكثروا من التقريع والوقيعة بعالى باشا الصدر الاعظم وشيخ الاسلام وأهل الحل والعقد من رجال الدولة وبلغت بهؤلاء القوم القحة الى حد كانت رسائلهم المشحونة

بالسب والشتم وفحش القول تلقى فى مخادع الصدر الاعظم وشيخ الاسلام وقد وصلوا الى معرفة أخبار دار السلطان وأسرار كافة بيوت أهل الحل والعقد واشتدوا عليهم شدة بالغة وكان لهذه العصابة أصول وفروع بين عاصمة الفرنسيس وعاصمة الانجليز ودار السلطنة العثمانية فخافها السلطان وعمل على تنكيلها فلم ينجح له عمل ولم ينل منها أربا لاستفحال أمرها واتساع كلمتها حتى كان من أمرها بعد ذلك ماسيتلى عليك فى محله * ولم يقع بين السلطان ومحمد سعيد باشا من المودة والاخلاص ماكان يظن وقوعه بعد موت السلطان عبد المجيد فقد كانت الوحشة لم تزل قائمة مابين محمد سعيد باشا ورجال الدولة وأركان السلطنة لاسيما الصدر الاعظم عالى باشا فكان كل من الطرفين على حذر والتفات دائم وكان سعيد باشا أبعد جميع الولاة عن موالاة السلطان وأقربهم الى بغض رجاله وأكبرهم حقدا وشماتة ومع ذلك لم تتمكن رجال الدولة من استغلاطه ولا مؤاخذته بأمر من الامور السياسية لافى الداخل ولا فى الخارج ولا هبت للفتنة بسبب ذلك نار فى جميع أيامه لاشتغالهم عنه بالكثير من الكوائن والمحن الداخلية فكان فى مأمن من كيدهم وفى حرز من شرهم يعطيهم من طرف اللسان حلاوة* ومات فى أيام محمد سعيد باشا الامير أحمد أكبر أولاد ابراهيم باشا بن محمد على باشا مات غريقا فى النيل بين كفر الزيات وكفر العيس باقليم الغربية فى يوم عيد أضحى سنة ثمان وسبعين ومائتين وألف هجرية وذلك أنه لما كان سعيد باشا بالاسكندرية وقد دخل عيد الاضحى استقدم جميع أصحاب الوظائف العالية من الملكيين والجندين وعمد وأعيان سائر المدن وجميع الامراء من ذرية محمد على باشا لعمل تشريف العيد بمقره بالاسكندرية فعمل التشريف فى ذلك على نسق لم يسبق له مثال ثم نزلوا يريدون الرجوع الى القاهرة وكان جسر كفر الزيات الحديدى الموصل لخط السكة الحديد مابين الاسكندرية والقاهرة لم يتم بناؤه الى ذلك الحين وقد جعلوا لنقل عربات الركاب والبضائع والوابورات جسرا متحركا على ظهر سفينة تسير فى النيل بالبخار فكان اذا وصل المسافرون الى كفر العيس من الاسكندرية وقف القطار هناك فيأتون بذلك الجسر ويوقفونه ملتحما بضفة النيل ويدفعون على ظهره عددا معلوما من العربات ويقيدون عجلاتها بسلاسل الحديد فيسير بها الجسر ويعبر النيل عرضا الى أن يرسو ملتحما بالجانب الثانى فيدفعون بما عليه من العربات بمن فيها من المسافرين الى الخط الحديدى الموصل الى القاهرة أو بالعكس الى الاسكندرية وكان ممن ركب فى قطار ذلك اليوم يريد الرجوع الى القاهرة الامير أحمد بن ابراهيم باشا والامير عبد الحليم بن محمد على باشا وبعض الباشاوات مثل آدهم باشا وغيرهم ونزل أيضا الامير اسمعيل وأخوه الامير مصطفى فاضل أخوا الامير أحمد ولكنهما عادا فنزلا من القطار قبل أن يسير من الاسكندرية بايعاز من أحد رجال ديوان سعيد باشا فلما وصل القطار الى كفر العيس ودفعوا بعدد من عربات المسافرين الى ظهر ذلك الجسر وقد كان فى احداها الامير أحمد والامير عبد الحليم

وغيرهما من الباشاوات قيل انهم لم يقيدوا عجلات العربات كعادتهم بل وتركوها خلوا وأتوا بغيرها من خلفها فلطمت الأولى فتحركت واندفعت الى الامام فسقطت جميعها فى النيل وغرقت وكان الامير أحمد شابا جميلا قوى الجسم ضخما كبير البطن فلم يتمكن من الخلاص فمات غريقا أما الامير عبد الحليم فانه لما سقطت العربة ألقى بنفسه من نافذتها الى البحر فعاونه بعض أصحاب السفن التى كانت هنالك وأخرجوه حيا ومات أدهم باشا وجميع من كانوا بالعربة مع الامير أحمد فكان المنظر مروعا والمشهد محزنا وقد كثر صياح العامة وولولت النساء وانتشرت مماليك الامير أحمد وأتباعه على وجه الماء يطلبون جثته وأتوا بجماعة من صيادى السمك فألقوا شباكهم وما زالوا حتى عثروا عليها وأخرجوها وأخرجوا من عثروا به أيضا من بقية الأموات وجاؤا به الى القاهرة وغسلوه فى بيته الذى بجانب القصر العالى ثم دفنوه فى ثانى يوم فى مشهد حافل للغاية وتحدث الناس كثيرا فى أمر موته فقالوا انه أغرق بأمر من سعيد باشا كى لا يتولى ملك البلاد بعده لأمر نقمه عليه ولكى تنتقل الوراثة بموته الى أخيه الامير اسمعيل * قلت وقد حدثنى أحد مماليك الامير أحمد قال جاء الامر من سعيد باشا الى مولاى الامير وهو بالقاهرة بشخوصه الى الاسكندرية للحضور فى تشريف عيد أضحى سنة ثمان وسبعين فقمنا فى صبح يوم الوقفة بعرفات ووصلنا الى الاسكندرية قبل المساء بقليل وبتنا ليلتنا تلك والامير ساكن البال رائق الحال وأصبحنا وقد دعانى فدخلت عليه فرأيت الدمع يذرف من عينيه فقلت أصلح الله حال مولاى ماباله يبكى وقد كنا بالأمس على أحسن ما يكون من السرور وصفاء البال قال رأيت البارحة فى نومى كأنى واياك على شرافة هذا المنزل نريد الاختفاء من وجه سعيد باشا وقد أرسل فى طلبنا جماعة من العبيد السود فما وقع بصرهم علينا حتى هجموا على هجمة الاسود الضوارى وأخذوا جميعا بيدى ورجلى وألقوا بى فى تيار النيل فقمت مذعورا من نومى وتعوذت بالله ونمت فجاءنى هاتف يقول هلا أوصيت على العيال قلت ولماذا قال قد أتت المنية فلا مفر فقمت مذعورا وتعوذت بالله ولبثت باهتا ساعة حتى غلب على النوم فنمت فاذا بشخص فى زى الفقراء وعلى كتفه شبكة صياد قد اقترب منى وقال قم يا أحمد فقلت ومن أنت يرحمك الله قال رسول ملك الموت فقمت باكيا من ساعتى كما ترى * قال فقلت يا مولاى هذه أضغاث أحلام وقد أتعبك البارحة السفر فلا تظن الظنون الفاسدة وقم فقد حل وقت عمل التشريف فقام ولبس كسوة التشريف وركب وهو فى قلق واضطراب وركبت معه فكان كلما مررنا بقولاق من قولاقات العسكر قاموا اجلالا وتعظيما ونفخوا فى البوق فيبكى و يذرف الدمع فلما انقضت ساعة التشريف قال لابد من السفر الساعة فقلت يامولاى ارحم نفسك ودعنا نبيت الليلة هنا فقال لابل نسير الى القاهرة عسى الله يفرج كربى فركبنا القطار وركب معنا جميع الامراء من ذرية محمد على باشا فلم يكن باسرع من أن دخل أحد رجال ديوان سعيد باشا وهمس فى أذن الامير اسمعيل فالتفت الى أحد أتباعه وقال أنزلوا

متاعي فقد عدلت عن السفر فقال له أخوه الامير مصطفى فاضل ان كان ولابد من بقائك اليوم فاني مرافقك ونزلا معا وتركانا فسار بنا القطار حتى وصلنا الى كفر العيس وكان من أمر غرقنا ماسارت بذكره الركبان وعرفه القاصي والدان فالله الله ولاحول ولا قوة الابالله اه

قلت ولم تطل ولاية سعيد باشا بعد هذا الحادث فانه مات سادس عشرى رجب سنة تسع وسبعين ومائتين وألف هجرية أى تاسع عشر يناير سنة ثلاث وستين وثمانمائة وألف ميلادية * قال بعض الكتاب من الغربيين لما ثقل المرض بسعيد باشا واشتدت علته وجاء خبر ذلك الى الامير اسمعيل وهو بالقاهرة سير الى الاسكندرية أحد المقربين اليه من جماعة الفرنسيس واسمه ديرفيو ليرسل اليه باخبار سعيد باشا فى كل يوم ومناه بالامانى الكثيرة والعطاء الجزيل ان هو بعث اليه بخبر وفاته فلبث ديرفيو بالاسكندرية أياما يرسل فيها الاخبار الى الامير اسمعيل باشا فلما كان صباح تاسع عشر يناير أرسل اليه يقول أعدوا البيت فقد عزم الساكن على الرحيل * يشير بذلك الى قرب مفارقة سعيد باشا لهذه الدار الدنيا وتأهب اسمعيل باشا للدخول فيها * فلما جاءه هذا الخبر فرح به كثيرا ولبث ينتظر ما سيكون من وراء ذلك حتى جاءه الخبر بموته فسير الى الاسكندرية من يجهزه ويدفنه هنالك وكان جميع أرباب الديوان الخاص قد حضروا الى القاهرة ولم يبق منهم بالاسكندرية الانفر قليل مع محمد شريف باشا الذى لم يفارقه طرفة عين قيل وكان سعيد باشا قد أوصى بان يدفنوه فى القاهرة وقيل فى الاسكندرية فحزن عليه الناس كثيرا لاسيما أهل الاسكندرية وأقامت النساء عليه المناحات بشوارع المدينة فكان يوم دفنه يوما مشهودا وكانت ولايته زهاء تسع سنين وقيل ثمان سنين وتسعة أشهر وستة أيام وعمره اثنتين وأربعين سنة رحمه الله تعالى برحمته الواسعة وأسكن روحه فردوس جنانه

(مطلب)

ولاية اسماعيل باشا بن ابراهيم باشا بن محمد على باشا

بويع فى اليوم الذى مات فيه محمد سعيد باشا وهو يوم السبت سادس عشرى رجب سنة تسع وسبعين ومائتين وألف هجرية الامير اسمعيل باشا بن ابراهيم باشا بن محمد على باشا بايعه فى قلعة الجبل أرباب الدولة وأهل الحل والعقد والعلماء والوجهاء ودقت البشائر وطيروا الخبر الى الآفاق وزينت جميع المدن والبنادر ثلاث ليال وأقيمت الافراح والولائم و بولغ فى ذلك مبالغة زائدة جدا وفرقت والدته فى ذلك اليوم من الهدايا والتحاف النفيسة الى أرباب الدولة والعلماء والمشايخ شيأ كثيرا وأقامت الادعية فى المساجد أياما و رسمت بترميم بعض أضرحة الاولياء والصالحين من مالها تفاؤلا واستزادة للنعمة فلما استقرت به الولاية وجاءه

فرمان

فزمان السلطان عمد الى تغيير الكثير من عادات البلاد والاحداثات المتبعة وتصرف فى الامور ونظر فى ترتيب موارد الايرادات نظرة الراغب فى المزيد فضبط الخراج وعدل العشر وأحدث بعض المكوس والمغارم ورتب لذلك طوائف الجباة والعمال والقباض والرقباء وتقرب كثيرا من رجال السلطنة وأهل المابين واتخذ له من كبارهم أخلاء يعتمد عليهم فى عظائم الامور وأجزل عطاءهم فهدوا له العقبات وذللوا له الصعاب وفتحوا له من الآمال والأمانى أوسع الابواب وحببوا الى السلطان زيارة مصر وزينوا له مشاهدة ما فيها من العجائب والآثار فمال الى ذلك ووردت الاخبار بعزمه على الحضور فى نفر من خواصه وحشمه وأتباعه فبالغ اسمعيل باشا فى الاستعداد لقدومه وأنفق النفقة الواسعة فى اعداد معدات الولائم ولوازم الافراح من مأكول ومشروب ومفروش وملبوس واهتم لذلك اهتماما عظيما*فلما كان رابع عشر شوال سنة تسع وسبعين ومائتين وألف هجرية وصل السلطان الى مدينة الاسكندرية على باخرة عظيمة يخفرها الاسطول العثمانى الحربى وفريق من العسكر وكان فى انتظاره فى الاسكندرية اسمعيل باشا وجميع رجال الدولة وأرباب الوظائف العالية فقوبل فى أبهة واحتفال لم يسبق لهما مثال لملك من ملوك المشرق والمغرب وسار فى شوارع المدينة والذهب ينثر بين يديه وكان فى ركابه مراد افندى وعبد الحميد افندى ابنا السلطان عبد المجيد خان ورشاد افندى ويوسف عزالدين أفندى والوزير محمد باشا والوزير فؤاد باشا ثم قام من الاسكندرية الى القاهرة على قطار مخصوص وكانت الناس على جانبى الطريق من الاسكندرية الى القاهرة فلما دخل اليها قوبل بأحسن ماقوبل به فى الاسكندرية وشق من وسط المدينة فانطلقت ألسنة العامة بالدعاء له وصاحوا نصر الله مولانا السلطان وطلع الى قلعة الجبل وقد أعدوا له مقرا بها فزينوه بأنواع الحرائر والمقصبات وأفخر وسائل الزينة ودقت له البشائر وزينت مصر والقاهرة سبعة أيام وأقيم له الدعاء بالمساجد كافة وكبروا لحضوره على مآذن مصر والقاهرة وبعد أيام نزل لزيارة المساجد فزار المشهد الحسينى والزينبى والنفيسى وغيرها فكان اذا مر بالناس وقفوا صفوفا اجلالا وتعظيما فينظر اليهم يمنة ويسرة نظرة لطيفة وهى كناية عن السلام فى عرف سلاطين آل عثمان وكان العامة والسوقة اذا رأوه صاحوا الفاتحة لمولانا السلطان فينظر اليهم كانه يحييهم فيكثر صياحهم وتشتد جلبتهم وهى حالة لم يرها السلطان فى بلاده فانه اذا مر بالناس يوم خروجه للصلاة مثلا أو فى أيام المواكب أطرقوا بأبصارهم الى الارض وتخشعوا ولم يرتفع لأحد منهم صوت

مطلب
مجىء السلطان
عبدالعزيز الى ديار
مصر

وتصدق السلطان وأكثر العطاء وفرق على الفقراء والمحتاجين وطلبة العلم بالجامع الازهر وعلى أصحاب التكايا وخدام المساجد وبعض الاضرحة ولم يره من أصحاب الوظائف الا القليل*وكان اذا ركب سارت خلف عربته الجنائب السلطانية وطائفة الحرس السلطانى بالعمائم البيض والبرانس الحرير الابيض وفى أيديهم القرابينات على شكل جميل للغاية

ولبث بالقاهـرة أياما ثم سار الى الاسـكندرية وركب منها الى دار السلطنة وتبعه الاسطول الحربي والسفن التى تحمـل التحف والهدايا فكانت أيامه بديار مصر كلها أفراحا وولائم عند العامة ومن لاخلاق لهم * وأما خيار الناس فقد كانوا يخشون عاقبة مجيئه الى مصر وقد أخذتهم الطيرة اذ لم يسبق لاحد من سلاطين آل عثمان بعـد السلطان سـليم الفاتح دخول أرض مصر وكبر خوفهم وقـد أخذوا باقوال أصحاب الزايرجات فترامت ظنونهم الى المرمى البعيد فلما كانت سنة احدى وثمانين ومائتين وألف هجرية مع أخريات سـنة ثمانين ظهر الوباء فى البقر واشـتد وعم جميع البلاد شرقا وغربا ولم يـترك قرية ولا كفرا الا ودخله واشتد شدة بالغة حتى كاد يفنى جميع البقر وقل وارد السمن من جميع البلاد بل وانقطع وأكل الناس الدهن والزيت فأمر اسمعيـل باشـا فاستحضروا من البـلاد الاجنبيـة كالنمسا والمجر ونواحى الاناضول السمن وهو فى غاية الرداءة والنتن وباعه على أهل البلاد وفرق منه على الفقراء مجانا فكانوا يتزاحمون على الوكائل ومخازن التوزيع بالاختلاط وهم فى ضجيج وجلبة تصم الآذان واستمر الحال هكذا أياما كثيرة حتى ارتفع الوباء وبدأ الوارد من سمن الجاموس والضأن يرد الى القاهرة ومصر من الجهات القبلية ولم يكد ينقضى هذا الوباء حتى وقع الغلاء وارتفعت الاسـعار وانقطع وارد القمح واشـتد الطلب فلم يجـد الفقراء له أثرا لا فى سـواحل بولاق ولا فى مصر القديمة ولا فى جميع رقع الغلال فضجوا وعجوا وكثر طواف النساء فى الاسـواق يحملن المقاطف لعلهن يجـدن من يبيعهن قمحا أو دقيقا وعلم اسمعيل باشا بما عليه الناس من الضر فهاله الامر وأزعجه ورسم بجلب القمح والدقيق من البلاد الخارجية فاتوا له بشئ كثير منهما وفرقوه فى الوكايل وجهات الرقع ورتبوا للبيع وقتين فى الصباح والمساء ونادوا فى الناس بذلك ففرحوا وتزاحموا على أبواب الوكائل وجهات الرقع تزاحم الجياع واستمروا على هذا الحال شهرين وبضعة أيام حتى تواردت الغلال من الاقاليم القبلية وملأت مخازن التجار وأشوان الدولة وعم الوارد منها الاقاليم البحرية فلم تكن لتسكن الخواطر وتطمئن القـلوب حتى ظهر الوباء فى الناس ثانى عشر المحرم افتتاح سنة اثنتين وثمانين ومائتـين وألف هجرية واشـتد الموات شدة بالغة بالقاهرة ومصر القديمـة ثم عم جميع البلاد شرقا وغـربا فكانت الفقراء تموت بجانب جدران البيوت وفى الازقة والحـارات وأصحاب الشرطة يطوفون لنقل الجثث الى المقابر وبالغ محافظ المـدينة فى نظافتها فـلم يرتفـع الوباء واستمـر على شـدته الى رابع عشرى ربيع الثانى فمات خلق كثير ثم ارتفع وقـد نزح الـكثير من الاجانب وأهل البلاد الى الديار الخارجيـة فـرارا من الموت وخاط الناس وخبطوا وقالوا ان هـذه الكوائن انما هـى ناجمة عن دخول السلطان الى مصر اذ لم يسبق لذلك مثيل منذ فتحها السـلطان سليم بعسكره واشتد خوفهم وأخذتهم الطيرة وتشاءموا من حاكم الوقت وخشوا عواقب أيامـه وأخذوا بأقوال أصحـاب الزايرجات والمنجمين كعادتهـم عند وقوع الشـدائد وضجوا وعجوا وابتهلوا الى الله تعالى وتوجهوا اليـه بقلوبهـم وقـد أحصوا من مات فكان زهاء المائة

ألف نسمة

وما انقطع الوباء وسكنت الخواطر حتى جعل اسمعيل باشا يتصرف فى أمور الدولة بحسب هواه أو ما يلائم مصلحة البلاد فنقض ما أبرمه سعيد باشا مع دى لسبس فاتح ترعة السويس ورسم بعدم تسخير أهل البلاد فى حفر ذلك الاتصال كما كان العهد بين سعيد باشا ودى لسبس واستعان اسمعيل باشا على ابطال هذا الحدث بالسلطان فكتب الى الباب العالى يقول

ان عدل أمير المؤمنين لا يسمح بتسخير رعاياه فى عمل قد أضر بالحرث والنسل وأذهب براحة أهل البلاد وأوعز الى أصحاب صحف الاخبار المصرية فهبت من نومها تنادى بالويل والحرب وتستفز رجال الدولة الى ابطال هذا العمل والاخذ بأسباب الحزم ورفع هذا النير عن أعناق أهل البلاد وكان الى هذا الحين لم يصدر السلطان البراءة بجواز عمل ذلك الاتصال بعد أن سار دى لسبس الى دار السلطنة وأقام بها أياما كثيرة وكلم الصدر الاعظم فى ذلك مرارا فكتب عالى باشا الى سفير الدولة العثمانية بعاصمة الفرنسيس فى شأن ذلك يقول ❁ غير خاف على معارفكم أن الدولة العلية أيدها الله قد صرفت كثيرا من أنفس أوقاتها فى بحث أمر عمل الاتصال المراد عمله ما بين البحر الابيض المتوسط والبحر الاحمر ومع كونها تود من صميم القلب انجاز هذا المشروع الخطير والعمل المهم بالاتحاد مع الدولتين البحريتين العظيمتين لعلمها بأهمية وخطارة هذا الاتصال الا أنه قد ورد على الباب العالى فى هذا الحين مطالعة من والى الديار المصرية يطلب فيها ابداء رأى أمير المؤمنين فى هذا الامر ويحزننى جدا أن أرى انه قد بدئ وكاد أن يتم عمل ذلك الاتصال قبل أن يقع الاتفاق على أمر من الامور بين الباب العالى والدول المتحالفة معه كما يعز على أيضا ايقاف العمل الآن وتعطيل مشروع كهذا جزيل الفائدة كبير الاهمية على أنى مع ذلك أقول انه لا يمكن للدولة العلية على أى حال كان الموافقة على عمل هذا الاتصال الا بعد اتفاق سائر الدول مع الباب العالى على جعله حرا مستقلا تحت رعاية حكومة البلاد التى هو فيها بمثابة بوغاز البوسفور والدردنيل فى دار السلطنة العثمانية لاسيما وقد تكلفت تلك البلاد أعنى البلاد المصرية بتشغيل زهاء عشرين ألفا من أهلها فى حفر هذا الاتصال عونة وسخرة مع سبق النشر والاعلان بابطال هذه العادة الخشنة التى يأباها العدل والشرف ومما يحول دون اعتراف الباب العالى بتتميم عمل ذلك الاتصال ما جاء فى عقد الاتفاق الموقع عليه محمد سعيد باشا والموسيو دى لسبس صاحب ذلك المشروع حيث يعد محمد سعيد باشا الموسيو المشار اليه بتنازل حكومة البلاد له عن منفعة جميع الاراضى التى تكون واقعة على ضفتى الاتصال المذكور مدة تسع وتسعين سنة وعلى ذلك لم يبق مانع يمنع دخول مدينة السويس وجميع ما جاورها من القرى والمزارع و بحيرة التمساح

ومدينة بور سعيد وسائر حدود الشام أى معظم المملكة المصرية فى حوزة وتصرف شركة ترعة السويس وينجم عن ذلك ظهور شعوب متفرقة مستقلة بنفسها خارجة عن طاعة أمير المؤمنين وهو أمر لا تحمد عواقبه ولا اخالكم تنكرون على القول بأنه مامن حكومة رزقها الله حسن النظر فى عواقب الامور ولو بقدر مثقال ذرة وألهمها السعى وراء حفظ استقلالها وتوسيع نطاق عمرانها ومدنيتها ترضى بمثل هذه الشروط المفعمة جورا وخذلانا لرعاياها الطائعين ولا تظنوا أن أمير المؤمنين يجيز العمل بمقتضى تلك الشروط التى كان بعث محمد سعيد باشا بصورة منها الى الباب العالى وهو يعلم حرسه الله ما وراء ذلك من تعيير سائر الامم لحكومته ورميها بالقصور والمروق عن جادة الحق فان أجازه فانما يجيزه بعد قبول هاته الخصال الثلاث

الاولى منها جعل هذا الاتصال مستقلا تحت رعاية الحكومة المصرية وعدم منح أية دولة كانت امتيازات أو حقوق خصوصية فى أى حال من الاحوال

الثانية رفع نير السخرة من أعناق أهل البلاد

الثالثة العدول عن مشروع حفر الاتصال المار بالنيل وأن لا يعطى شئ من الاراضى لشركة هذا الاتصال الا ما كان لازما لانشاء معاملها وورشها فقط

فاذا تم قبول هاته الخصال الثلاث جاز العمل بالاتفاق مع والى الديار وسهل التصديق على بقية الشروط المدونة بالعقد * فالذى نسألكم اياه الآن هو أخذ رأى الدولتين المتحالفتين أعنى بهما دولتى الفرنسيس والانجليز عما يليق عمله الآن أيليق منح شركة حفر هذا الاتصال عدة امتيازات وحقوق لايكون من ورائها الا هضم حقوق رعايا الدولة العلية واذهاب ثروة البلاد واضمحلالها وضياع كثير مما نالته من شبه استقلالها وهل يوافق انه اذا لم يتم التراضى بيننا تأخذ حكومة أمير المؤمنين على عهدتها بالاتفاق مع عاملها على ديار مصر انجاز عمل هذا الاتصال وأن تنفق عليه من مالها أوتسلمه لشركة أخرى بشروط وعهود يقع الاتفاق عليها بحيث لا يبقى للشركة الحالية حق فى المطالبة بالمال الذى أنفقته اذ كان اندفاعها الى العمل بغير اجازة ولا مسوغ أفيدوا الجواب * ووردت الاخبار بهذا المعنى الى اسمعيل باشا من الباب العالى فسر بها سرورا عظيما وكتب الى الموسيو دىلسبس يقول

لا يليق بنا أن تخفى عليك معرفة انه لما كان ما كان من الخلاف فى أمر عمل اتصال البحر الابيض بالبحر الاحمر قد كنا خابرنا دار السلطنة العلية فى ذلك وسألنا الباب العالى أن يفتينا فى الامر فجاءنا منه مطالعة فى هذا الحين تجيز لنا المخابرة مع شركة الاتصال المذكور والاتفاق معها على جميع التغيرات المراد ادخالها على عقد التنازل الموقع عليه مع المرحوم محمد سعيد باشا وابطال ما فيها مما كان سببا لحصول الاباءة وعدم قبوله لغاية الآن * ولااخالك تجهل انى مذ وليت الاحكام الى هذا الحين لم يكن عندى من المشاغل شئ

يعادل

يعادل هذه المسئلة وكان الذى لم يقبله الباب العالى وهو ممانع فيه للآن كل الممانعة أمرين الاول تسخير أهل البلاد فى ذلك العمل والثانى تنازل الحكومة عن منفعة الاراضى الواقعة على شاطئ الاتصال المذكور فلاجل أن لايزداد الامر اشكالا والاحوال بيننا بعدا الا قد رسمت الى نوبار باشا بحل عقدة هذه المسئلة بالاتحاد معك ومع أعضاء الشركة وانى لواثق بانك تبادر الى فض هذا النزاع بالتى هى أحسن بما لك من سلامة النية كى لا يقع بسبب ذلك فى مستقبل الايام مالا تحمد عقباه وقد ضرب لنا الباب العالى أجلا للاتفاق قدره ستة أشهر فان مضى الاجل ولم نتفق على أمر يحسن السكوت عليه لم يعد اذ ذاك فى وسعى أن أعيد الكلام مع دار السلطنة فتدخل المسئلة فى دور جديد مع الباب العالى ويعز الوفاق ومعاذ الله أن نصل الى هذا الحد * وسترون أن الذى رسمته الى نوبار باشا ليخابرك عنه لم أراع فيه سوى راحة الرعية ورفع المضار عنهم مع انجاز مشروعكم على النمط المرغوب هذا وقد جاءنى مرسوم أمير المؤمنين بأن أبادر الى تبليغ مقره الكريم حالة ماهو عليه الاتصال المذكور من العمق والطول والعرض المراد جعله حسابا لذلك الاتصال وأن يلاحظ بأن لايكون الاتصال المذكور قابلا لسير السفن الحربية فان أمير المؤمنين حرسه الله لاشئ أحب اليه من المحافظة على السلم واجتناب جميع المشاكل مع سائر الدول اه * فاجتمع نوبار باشا بعد أيام مع الموسيو دى لسبس وسأله الموافقة على تقليل عدد العاملين فى حفر ذلك الاتصال من أهل البلاد من عشرين ألفا الى ستة آلاف ونفقة فرنكين أى سبعة قروش وثلاثون فضة لكل واحد يوميا والتنازل عن جميع الاراضى المتنازع فيها وقيام الحكومة بجميع المصاريف التى أنفقتها الشركة الى تاريخ عقد هذا الاتفاق مع قيامها أيضا بجميع نفقة الترعة المراد انشاؤها من النيل الى جوار الاتصال فطال بين الفريقين الاخذ والرد واشتد الجدال وكاد يتعذر الوفاق وينفض اجتماعهم على غير طائل فرفع اسمعيل باشا الامر الى نابوليون امبراطور الفرنسيس وتقرب منه وتزلف اليه وأقام الوسطاء والشفعاء فأشار نابوليون بوجوب تقرب الفريقين واصلاح ذات البين وأقام لذلك عمدة من خمسة من كبار السياسة وأصحاب الشريعة بعاصمة الفرنسيس ورسم لهم بالتخفيف وحسم أسباب النزاع بالتى هى أحسن فتم الوفاق على ماشاءه اسمعيل باشا وقام برد النفقة التى أنفقت على جميع الاراضى التى كانت الشركة تتنازع فيها وبنفقة الترعة الحلوة التى أنشئت ممتدة من النيل فكان ما أنفق على ذلك دون غيره عشرة آلاف ألف من الفرنكات أى سبعة وثلاثين ألف ألف وخمسمائة ألف قرش وورد فرمان السلطان فى ثانى عشر القعدة سنة اثنتين وثمانين وألف هجرية بقبول كل ماوقع الاتفاق عليه وارتفعت السخرة عن أهل البلاد وزالت عنهم تلك المحنة وحسبت مكرمة الى اسمعيل باشا على مر الايام

مطلب
سعى اسمعيل باشا
فى حصر ولاية مصر
فى ذريته دون ذرية
محمد على باشا

وكان اسمعيل باشا قد سبر غور رجال المابين وأصحاب الحل والعقد فى دار السلطنة بعد أن

تم له ما أراد فى أمر اتصال ترعة السويس ولما كان شديد الرغبة من يوم توليه مسند الولاية فى نزع حقوق الوراثة المحصورة فى ذرية محمد على باشا بمقتضى الفرمان السلطانى المؤرخ فى شهر ذى الحجة سنة ست وخمسين ومائتين وألف وجعلها فى عقبه من بعده أى فى الارشد من ولده وفى عقب ولده* قال بعض أهل التحقيق* وقد كانت رغبته فى ذلك مترتبة على سببين أولهما بغضه الشديد لاخيه الامير مصطفى فاضل المستحق للولاية من بعده وثانيهما حرمان الامير عبد الحليم ابن محمد على باشا من الولاية بعد الامير مصطفى فاضل فسعى فى دار السلطنة وأنفق الاموال الطائلة وأجزل العطاء لارباب الدولة وتزلف الى أصحاب الحل والعقد ورجال المابين وهادى الصدر الاعظم وشيخ الاسلام ثم جعل يدبر على أخيه وعمه ويكيد لهما ورفع القصص الى الباب العالى يشكو من أفاعيل عزاها اليهما وقال انهما كادا له وعملا على قتله وكان أخوه قد نزل فى جوار السلطان وعمه باق بالقاهرة فضيق على عمه وشدد وأرهب وتوعد فانكمش عمه بمقره بشبرى بضواحى القاهرة وانزوى عن الناس فزاد فى التضييق عليه وأقصى عنه حاشيته والمتقربين اليه ومزق أتباعه وضبط أكثر أرزاقه وحبس غلاته وبالغ فى نكايته حتى أخرجه مدحورا الى دار السلطنة فنزل على أصحاب المابين مستجيرا فلم يجدوا له يدا قد بسطوها الى عمه فاقام يراقب الفرص لعل الله يأتيه بالفرج القريب ومازال اسمعيل باشا يكثر السعى ويجهد النفس ويبذل النفيس حتى مال السلطان الى طلبه وحقق أمنيته ورسم فى ثالث عشر المحرم افتتاح سنة ثلاث وثمانين ومائتين وألف هجرية بجعل حكومة البلاد ووراثتها تنتقل من اسمعيل باشا الى أكبر أولاده ثم للارشد من عقب ولده وجاء الفرمان بذلك الى القاهرة ففرح اسمعيل باشا فرحا لا يوصف ودقت البشائر وعمت الولائم والمآدب وأكثر رجال الدولة من عمل الافراح وتصدقت والدة اسمعيل باشا وأطعمت وفرقت الهدايا على المشايخ والعلماء وكست أولاد المكاتب واليتامى وقد أدرك الباب العالى بعد قليل من الايام انه لم يحدد فى فرمانه الخطة الواجب اتباعها عند ما يكون الوارث لكرسى الحكومة المصرية قاصرا أى لم يبلغ سن الثامنة عشرة وعلم أن فى اغفال ذلك تعقيدا واشكالا فسير فى ثانى صفر من السنة الى مصر رسولا ومعه فرمان آخر بما ذكر فلما وصل القاهرة قوبل باحتفال عظيم فاستغرب الناس يومئذ حضوره وكثرت الاقوال فى شأنه وترامت الظنون الى المرمى البعيد وما زالوا على هذا الحال حتى شاع الخبر بما فى ذلك الفرمان وتناقلته أصحاب صحف الاخبار على اختلافها

وبدأت من هذا الحين تعلو كلمة اسمعيل باشا وقد زال عنه ما كان يلاقيه من متاعب شركة ترعة السويس ونقل الوراثة الى عقبه من بعده وتبعيد أخيه الامير مصطفى فاضل وعمه الامير عبد الحليم وتمكن من مخانق رجال المابين وأصحاب الحل والعقد فى دار السلطنة فاشتدت عزيمته ومالت نفسه الى التشبه بكبار الملوك وأصحاب الحكومات الدستورية لما فى ذلك من استرضاء الناقمين من كبار الدول الاوروباوية فرسم فى شعبان من السنة أى

سنة ثلاث وثمانين ومائتين وألف هجرية بتشكيل مجلس شورى للبلاد على نسق وترتيب مجالس الأمم المتمدنة والحكومات الدستورية المقيدة وبالغ فى الامر وطير الخبر بذلك الى الآفاق وأوعز الى بعض أصحاب صحف الاخبار الاجنبية فقاموا وقعدوا وشادوا بذكر ذلك المجلس وقالوا هو من مقدمات الاصلاح ومبادى الفلاح وانتقال البلاد من دور الخشونة والهمجية الى دور العمران والمدنية ﴿قال بعض الكتاب﴾ ولم يكن فى الامر شئ من ذلك البتة فانه ماتم اجتماع أعضائه وجعلوا ينظرون فى مصالح البلاد حتى زادت الضرائب وكثرت المكوس وتعددت أنواع المغارم وانبث أصحاب الجباية شرقا وغربا واشتدوا على الرعية شدة بالغة ونواب الامة لا يعرفون من مواجب النيابة غير الطاعة لمن قال من كبار الحكومة أو أشار من أصحاب الحل والعقد فكانوا حملا ثقيلا على عاتق أهل البلاد وسدا قويا بين القادحين من أهل النقد وبين أصحاب الحل والعقد فنهض عند ذلك بعض أصحاب صحف الاخبار الاجنبية الى الطعن وتجردوا الى التعييب ورموا نواب الامة بالجهل والمروق وشخصوا أوقات اجتماعهم بهيآت مضحكة حاكوا فيها الملاعب الخيالية والاشكال السخرية وحذروا أهل البلاد من شر العاقبة وخوفوهم من سوء المصير لم يضعف هذا كله لاسمعيل باشا عزما ولا وقف به عند حد لمكانته عند رجال السلطنة وأصحاب الكلمة فى المابين وكان كلما زاد أصحاب صحف الاخبار فى التقريع والتعنيف زاد هو أيضا فى التقرب الى رجال السلطنة وأجزل لهم العطاء وأهدى لهم الهدايا والتحف العظيمة فيقضون له كل مافى نفسه * واشتدت رغبته فى التسمى باسم لم يسم به أحد ممن تولى حكم البلاد قبله فسأل السلطان أن يلقبه بعزيز مصر وأن يرسل له خطا بذلك فطاوله السلطان ومناه فكثرت رسائله الى أصحاب الباب ثم أهدى وفرق فجاء الخبر بأن السلطان قد لقبه بلقب خديو وهو أكبر مراتب الدولة وأرفعها ولم يسبق لاحد نوال مثلها من الوزراء وكبار القوم فان لقب عزيز مصر انما هو دون لقب خديو اذ كان يوسف ابن يعقوب عليهما السلام عزيز مصر أى وزيرها والامين على خزائنها ففرح بهذه البشرى وشاع خبرها بين الناس فلما كان خامس ربيع الاول من السنة جاء فرمان السلطان بذلك على يدى أحد القرناء السلطانية فقرئ فى محفل حافل للغاية ودقت البشائر وطيروا الاخبار الى الآفاق ودعوا للسلطان فى جميع المساجد بالقاهرة ومصر والاقاليم القبلية والبحرية وانطلقت كلمة الخديو اسمعيل من هذا الحين بعد التقييد واتسعت وحل له فعل مالم يحل من قبل من عقد العهود مع الممالك الاجنبية والقروض مع أصحاب الاموال بلا استئذان من الباب وضرب الضرائب وتعديل المكوس وفعل كل مايختار من غير معاودة ولم يمض على ذلك الا اليسير حتى مالت به النفس الى الاستزادة وتاقت الى الاستقلال بملك الديار المصرية فعمد الى تنظيم الجند والاكثار من معدات الحرب وحصن

الحصون وأنشأ القلاع العظيمة بثغر دمياط ورشيد وأبى قير ومعامل البارود والفشنك والبنادق والمكاحل وملابس الجند والخيام وسروج الخيل وغير ذلك وأرسل يشترى الكثير من البنادق الجديدة المستعملة فى جيوش الدول الكبرى واستقدم جماعة من كبار جند الامريكان وأركان الحرب والمهندسين لتعليم العسكر وتدريبهم على النسق المستعمل فى جيوش الممالك الاجنبية وأكثر من التزلف الى نابوليون امبراطور الفرنسيس وهو يومئذ صاحب الكلمة والقول الفصل بين كبار الملوك ليستعين به عند الحاجة وأدنى منه دى لسبس فاتح خليج السويس ليكون رسوله فى المهمات وجعل يراقب الفرص ويتحين انتفاعها فلم تخف أعماله على رجال دار السلطنة وعلم السلطان بما فى نيته فكبر عليه أمر ذلك واستعظمه ورسم الى عالى باشا الصدر الاعظم بمراقبة الحوادث وعدم التهاون فى شئ وكان صفاء الود الذى بين الخديو والصدر المشار اليه قد تكدر لاسباب لم تصل الينا معرفتها فاشتد الصدر على الخديو وبعث العيون الى مصر وجعل يراقب الحوادث و يسأل عن الصغيرة والكبيرة ويحاسب على الذرة والبرة

واتفق فى هذا الحين أن قدم الى دار السلطنة داعى نابوليون امبراطور الفرنسيس يدعو السلطان الى الوليمة المزمع اعمالها فى عاصمة الفرنسيس عند فتح المعرض الذى أقيم فيها وقد دعا اليه الامبراطور كثيرا من الملوك والامراء والخديو اسمعيل فسار الخديو من الاسكندرية فى سابع صفر ووصل السلطان الى باريز فى تاسع عشره فقوبل باحتفال واحتفاء عظيمين وأقام بها زهاء شهر ونصف وكان معه بعض رجال الدولة وجماعة من المابين فكلمه الامبراطور فى أمر الخلاف الواقع بين الباب العالى والخديو وهوّن عليه الامر وما زال به حتى استرضاه فعفا السلطان عما سلف وأدنى الخديو منه ولاطفه ثم عاد السلطان الى دار الخلافة فى سادس ربيع الثانى سنة أربع وثمانين ومائتين وألف هجرية وأقام الخديو أياما فعرفه من حضر الى باريز من الملوك وأولاد الملوك والامراء والكبراء وتقرب من الكثير منهم وتزلف اليهم وبالغ فى التظاهر بمظاهر كبار الملوك فأنفق وأهدى وأجزل العطاء وحبب اليهم الحضور الى مصر عند عمل الافراح لفتح خليج السويس فمنهم من أجاب الى ذلك ومنهم من وعد ثم عاد الى الاسكندرية وأقام بها أياما يدبر أمر ضيافة أولئك الملوك والكبراء فرأى أن مصر ليس فيها من محال اللعب واللهو ما فى أصغر بلاد الفرنجة كمراسح التشخيص ومواقف المغانى وغير ذلك مما لم تسمع به أهل البلاد ولم تره فعاد الى القاهرة ورسم الى بعض المقربين اليه من الاجانب بانشاء مرسحين على نفقة الخزينة فأقام أحدهما على بقايا بناء السراى المعروفة بسراى ثلاثة وليه وهى منزل أحمد طاهر باشا بن طاهر باشا الكبير وسموه باسم الكوميديا والثانى على يسار الاول وسموه باسم (الاوبرا) وبالغوا فى تزيينهما بأنواع الفرش والبسط والطنافس والتحف والنقوش البديعة وأتوا اليهما من الديار الاوروباوية

بجماعة المشخصين والمشخصات والمغنين والمغنيات وأساتذة هذا الفن وعملوا لهم من الملبوس والحلى الفاخرة شيأ يكاد أن لا يدخل تحت الحصر ورتبوا لهم الجماكى والمرتبات الواسعة ورسم الى شركة ترعة السويس بأن تنشئ على نفقة الخزينة أيضا دارا فى مدينة الاسماعيلية لضيافة الزائرين من أولئك الملوك والامراء والكبراء فأنشأتها فكان ما أنفق عليها زهاء ثمانين ألفا ذهبا * فلما حل الاجل المضروب لاقامة تلك الافراح والولائم وكان الاتصال بين البحرين الأبيض والاحمر قد تم وجرى الماء بينهما مختلطا وهو كاف لحمل البواخر والسفن التى تشق عبابه سير الخديو رسله الى الديار الاوروباوية يدعون ملوكها وأمراءها الى تلك الافراح فلقوا من جميعهم الرضا وقد أخذ فى الأهبة والاستعداد ورسم بخروج سائر عمد وأعيان البلاد القبلية والبحرية بخيامهم وطبولهم وزمورهم وخيلهم ومأكولهم ومشروبهم فخيموا بمدينة الاسماعيلية وهى احدى المدن التى أنشئت على شاطئ الترعة على قيد بعض فراسخ من قرية العباسة وأمر بجمعوا سائر المغنين والمغنيات وأرباب الملاعب على اختلاف أنواعها وعملوا الزينة على أشكال متنوعة يعجز اللسان والقلم عن وصفها ورتبوا الحراقات والاشكال النارية ووضعوا الرايات الخاصة بمملكة كل ملك وأمير دعى الى هذه الافراح وجاءت الى مدينة الاسماعيلية طوائف العساكر والاجناد بالمدافع وآلات الحرب الكاملة وكثير من الزوارق والسفن الصغيرة المزينة بأحسن الزينة وتقاطرت اليها الذبائح من الضأن وشباب البقر وفحول الجاموس والغزلان والمعزى ومن الطيور على اختلافها وتراكمت أحمال المأكول والمشروب بحالة يقصر عن وصفها اللسان والقلم

وبينما كانت الاستعدادات لهذه الافراح والولائم قائمة على ساق كان على باشا الصدر الاعظم يخابر الدول الكبرى فى أمر تعدى الخديو على حقوق أمير المؤمنين واستصغاره لواجبات التابعية وأنه اذا كانت ديار مصر من أملاك الخلافة كالقلب من الانسان فكيف ساغ للخديو أن يتولى أمرا من أهم الامور وأكبرها بغير اجازة وأنه ليس من الكياسة ولا من حسن السياسة فى شئ أن تذهب الضيوف الى دار أمير المؤمنين وهو غير عالم بأسباب الضيافة ولا قائم بواجباتها مع أنه أحرص الناس على حفظ كرامة مملكته وشرف كرسى سلطنته وعدم تعريض حقوقه الذاتية للضياع * قال بعض كتاب الاخبار وكان قد بلغ الباب العالى أن الخديو انما يريد بهذه الافراح واستدعاء ملوك الدول وكبار الممالك لبس شعار السلطنة على ديار مصر والخروج من تابعية السلطان فهال السلطان هذا الامر وأزعجه جدا ورسم الى الصدر الاعظم بمداركة الخطب قبل استفحاله وشدد فى ذلك فكلم الصدر الاعظم كبار ساسة الدول وما زال بهم حتى أحجم بعض الملوك عن الذهاب وبعضهم أناب عنه ولى عهده أوأحد قرابته وانفشلوا أوكادوا ولاحت بشائر الظفر للصدر الاعظم فكبر الامر على الخديو واستعظمه وشكى حاله الى نابوليون واستنجده

فكلم نابوليون الصدر الاعظم فى ذلك وشدد وهدد وما زال الامر بين أخذ ورد أياما حتى تقررت القاعدة على أن كل من شاء من الملوك والامراء اجابة دعوة الخديو وجب عليه أن يعرّج على دار الخلافة قبل ذهابه الى مصر ويزور الخليفة السلطان بصفته صاحب الدعوة ثم يسير الى مصر بعد ذلك على الرحب والسعة وأن للخليفة أن ينيب عنه من شاء فى هذه الولائم لتفتح مراسم التهانى باسمه الشاهانى وترفع لمن حضر واجبات الشكر وحقوق الضيافة فأناب السلطان عنه مبعوث دولة الانجليز وزوده بما شاء مما لم تصل الينا معرفته

فلما كان ثانى شعبان سنة ست وثمانين ومائتين وألف هجرية قدم الوافدون تتقدمهم أوجنيه امبراطورة الفرنسيس وامبراطور النمسا والمجر مع ولى عهده وولى عهد ملك ايطاليا وكثير من الامراء والكبراء وولى عهد البروسيا فباتوا ليلة فى مدينة بور سعيد بين مظاهر الانس والسرور وأصبحوا وقد ركبوا السفن ومعهم طوائف الحرس والخدم والحشم وأكابر ممالكهم ونزلوا الاسماعيلية وقد تكامل عددهم ولم يتأخر منهم سوى مبعوث الانجليز النائب عن الخليفة أمير المؤمنين فباتوا ليلتهم ورأوا من اتقان نظام الوليمة وحسن ترتيبها مالم يجر على مثال سابق وكانت الموائد تمد تباعا فى الخيام والصواوين والسفن والاماكن التى أعدت لذلك والمدعوون يتعاقبون عليها فوجا بعد فوج واستمر الحال على ذلك زهاء أربع عشرة ساعة * قال بعض كتاب الاخبار * فأعجب الملوك ذلك جدا بل أدهشهم وجعلهم فى حيرة وأصبحوا رابع عشر شعبان وقد اجتمعوا جميعا فى مجلس أعد لهم وبينهم أوجنيه امبراطورة الفرنسيس وكبير وزراء مملكتها ورئيس أركان حرب الجيوش الافرنسية فقامت فيهم الخطباء والفصحاء فخطبوا وتكلموا وأطنبوا وبالغوا فى الاطراء ولم يتم الخطيب كلامه حتى وقف فى وسطهم مبعوث الانجليز وقد كان لا يظن وصوله فى هذا الحين فختم الخطيب خطابه بالثناء على الخديوى وامتدح من حسن لقائه وكرم أخلاقه فصاح رسول الانجليز بالدعاء للخليفة أمير المؤمنين صاحب البيت وما فيه فتبعه من حضر بالدعاء جهارا فأطلقت السفن مدافعها تباعا وأطلقت كذلك مدافع البر وهتف الجند بأصوات التهليل والدعاء وصدحت الموسيقى من كل صوب وحدب وعلا الصياح واشتد التهليل ودقت العمد والاعيان والمشايخ وأرباب الطرق طبولهم وهتفوا جميعا بالدعاء ومرت السفن بالخليج تباعا بعضها آت من البحر الابيض المتوسط وبعضها من البحر الاحمر وهى مزينة بصنوف الرايات وأشكال الزينة ورست أمام مدينة الاسماعيلية بعضها خلف بعض وجندها وملاحوها يهتفون بالدعاء على أعالى الصوارى وما زالوا على هذه الحال حتى تم عبورها فكان مشهدا من أعجب المشاهد وأحسنها لا يمكن وصفه ولا استيفاء محاسن مافيه وقد كان ماأنفق من مال الخزينة على هذه الولائم والافراح ماقدره ألفا ألف ذهبا ماعدا الهدايا والتقادم النفيسة التى أهداها الخديو من ماله وهى كثيرة جدا * ورجع من

حضرمن الملوك والامراء ولم يبق الا أوجنيه امبراطورة الفرنسيس ومن معها من الحشم والاتباع وبعض الامراء لمشاهدة الآثار القديمة بمصر وصعيدها فبالغ الخديو فى اكرامها ولازم ركابها حيثما سارت وجعل الامير حسين ثانى أولاده فى خدمتها وطاف معها الخديو جميع ضواحى القاهرة ومصر مثل المطرية وطرا والاهرام وسقارة وغيرها على ظهور الحمير وأراها جميع العادات المصرية فى المأكول والملبوس وفى الاعراس والولائم وفى تمشيط العروس وجلوتها وتخطيرها وغير ذلك بأن زوّج بعض حظياته الى بعض رجال ديوانه الخاص وعمل لهن الاعراس على أحسن مايكون من الابهة والعظمة الشرقية ثم سارت أوجنيه من القاهرة تريد الصعيد فسار الامير حسين فى ركابها وخصص الخديو لخدمتها ست عشرة باخرة تمخر فى النيل صعودا وهبوطا فكان بعضها لحمل الحشم والاتباع وبعضها لجلب المأكل والمشرب فى كل يوم من القاهرة وقضت بالصعيد اثنين وعشرين يوما صرف فيها من الاموال شيأ كثيرا ثم عادت ولبثت بالقاهرة أياما قلائل ثم سارت راجعة الى عاصمة الفرنسيس ومعها من التحف والهدايا الفاخرة والاعلاق الثمينة مالا يكاد يدخل تحت الحصر ويجل عن الوصف

ولما فرغ الخديو من ولائم ترعة السويس وأفراحها عاد الى التفكر فى أمر توسيع دائرة خديويته بين مصر والسودان والحبشة وخط الاستواء فسير الارساليات العلمية والعسكرية الى جوف السودان والحبشة لتخطيط الطرق واستكشاف أحوال البلاد ومواقعها وعوائد أهلها وأميالهم وغير ذلك واهتم بتحصين فرضتى سواكن ومصوّع الواقعتين على ساحل القلزم وقد كان تقدم الى السلطان فى ضمهما الى خديوية مصر مع بعض بلاد الصومال التابعة للسلطنة العثمانية فى مقابلة زيادة الخراج المقرر دفعه كل سنة الى الخزينة السلطانية وابلاغه الى سبعمائة وخمسين ألفا من الجنيهات فأعطاه اياها السلطان فحصن سواكن ببعض القلاع الخفيفة وأقام بها المرابطين من العسكر المصرى وفعل كذلك بمصوّع ثم تأهبت عساكره وشنت الغارة على غير ما أخذه من بلاد الصومال واستولى على عدة بلدان منها وسير جيشا عظيما الى جوف السودان والدار فور وخط الاستواء ففتح الكثير من بلدانها واستولى على عدة مدائن وأراض واسعة وعاثت جنوده فى تلك الاصقاع وأعملت فيمن عصاها السيف ففتكت ونهبت وأسرت وأهلكت الحرث والنسل فهابهم أهل السودان وخشوا بأسهم واستسلموا لهم كارهين فأقام عليهم الحكام من أهل القوة والبأس وبث بينهم جباة الاموال من أهل الخشونة والقوة ووكل بهم ذوى الطمع والجشع وجعل تلك البلاد الآهلة بالانسان والحيوان والضرع والزرع منفى لاصحاب الجرائم وأهل الشقاوة وضرب عليهم العمال والولاة الضرائب الفادحة وفرضوا الفرض والمكوس الجائرة واشتدوا على طوائف التجار منهم والنخاسين وخصوهم بالمغارم والفرض وأذلوهم بالمصادرة والتشريد عند أصغر سبب أو أقل تقصير * وكان ممن سيرهم الى جوف بلاد الحبشان لمعرفة أحوالها والتقرب من بعض

كبار رجالها رجاء الغنم رجل غساوى الاصل اسمه مشنجر فتغلغل مشنجر هذا فيها وغاب خبره حينا ثم عاد حاملا شيأ من محاصيل البلاد وزين للخديو التغلب عليها وضمها الى مملكته وقد كانت الفتنة يومئذ قائمة بين ملوكها وأمرائها والخلل ضارب فيها أطنابه قيل وأقسم مشنجر للخديو بأغلظ الايمان أنه يملكها ويدوّخها بنفر من العسكر المصرى وشئ من النفقة فأعجب الخديو رأيه ومال اليه ومازال مشنجر يتردد على أبواب الخديو حتى ولاه المحافظة على فرضة مصوع التى هى مفتاح أرض الحبشان البحرى وأعطاه رتبة البيكوية فسار مشنجر اليها واستقرّ بها وجعل يدبر فى فتح البلاد وقرّب اليه بعض مشايخ السواحل واستمالهم بالرشاوى والبراطيل ودفع بهم الى دس الدسائس وايقاظ الفتنة ما استطاعوا ولبث على هذا الحال حينا ثم استقدمه الخديو الى القاهرة وعوّقه أياما ثم أعاده وأنفذ اليه جيشا خفيفا معقودا لواؤه الى ارندروب بيك الامريكانى أحد مقدمى الحرب الذين أتى بهم الخديو للخدمة فى الجيش المصرى ورسم له بالزحف على البلاد وفتحها وأقام مكانه فى المحافظة على مصوع أراكيل بيك وهو شاب أرمنى المحتد لابأس به فخرج مشنجر بالعسكر من مصوع فى يوم مشؤم الطالع وسار نحو بلاد الحبشة سيرا بطيئا وجعل يستميل فى طريقه مشايخ القبائل الضاربة فى الطرق والمسالك وقرّب منه شيخ قبيلة الحماسيين وبالغ فى التودد اليه ومناه بالامانى الكثيرة فلازم الشيخ ركابه خديعة ومكرا وسار معه وهو على قدم السمع والطاعة ومشنجر يظن بلوغ الغاية والفرح ملء فؤاده وسير الى أراكيل بيك يعلمه بالخبر فكتب أراكيل الى الخديو يبشره بذلك * وتاقت نفس أراكيل الى الخروج والغزو مع مشنجر ليشاطره النصر ويشاركه فى الغنم فسار عن مصوع ولحق بالحملة وساروا جميعا وعيون النجاشى من أمامهم ومن خلفهم وعن يمينهم ويسارهم وهم لايشعرون فلما بلغوا بلدة (جندت) نزلوا بها ونصبوا خيامهم وأوقدوا نيرانهم ليبيتوا ليلتهم وكان مع مشنجر فى هذه الغزوة امرأته وأولاده وبناته وبعض الخدم والاتباع كأنهم ذاهبون الى عرس أو وليمة أعدت لهم على الرحب والسعة فبينما هم نيام على فراش الاطمئنان اذ دب عليهم جماعة الحبشان فى منتصف الليل الآخر وأحاطوا بالخيام احاطة السوار بالمعصم ودخلت جماعة أخرى فى وسط الخيام وأعملوا فى العسكر السيف فهب العسكر من نومهم مذعورين واختلطوا بالحبشان فلم تمكنهم الحبشان من الدفاع وأثخنوا فيهم قتلا وطعنا حتى أفنوهم أوكادوا ودخلوا على مشنجر فى سرادقه فذبحوه مع امرأته وأولاده وبناته ذبح الشاة وذبحوا جميع حاشيته وأتباعه وقتلوا أراكيل بيك شر قتلة وكان شابا جميلا حسن الشمائل عاقلا ذكيا مولعا بالمعالى وقتلوا كذلك ارندروب وأصبحوا ودماء القتلى تجرى بين الخيام جريان الماء وأخذوا جميع ماوجدوه من سلاح ومؤن وذخيرة وخيام ودواب للحمل ورجعوا ظافرين غانمين

وعاد من بقى من العسكر الى مصوع فى أسوء حال من العرى والجوع وكلهم مثخن

بالجراح

بالجراح وأخبروا بما جرى فسيروا بالخبر الى الخديو فهاله وأزعجه * قال بعض الكتاب وأقسم بالايمان الغلاظ أن لاترجع عساكره عن أرض الحبشان وفيها ديار أو نفاخ نار ورسم الى راتب باشا أحد مقدمى العساكر وسردارها يومئذ بتجنيد الجند واعداد المعدات وشدد وبالغ فى ذلك وكان قد عاد فى هذه الاثناء من الديار الاوربا وية الامير حسن ثالث أولاد الخديو وقد تعلم الفنون الحربية وخدم فى عسكر الانجليز وعسكر الالمان حينا

فلما كان شوال من سنة اثنتين وتسعين ومائتين وألف رسم الخديو بخروج العساكر والاجناد وتسييرهم الى مصوع فسار أولا عثمان رفقى باشا أحد مقدمى العسكر من الشراكسة على رأس آلايين الى مصوع ونزل بها أياما ثم لحقهم الجيش كله فى ذى القعدة من السنة فى ثالث عشره ولبثوا بها جميعا زهاء أربعين يوما حتى تكامل وصول مؤنتهم ودواب حملهم وذخيرتهم وآلات حربهم ووصل أيضا الامير حسن ومن معه من أركان حربه ومقدمهم الجنرال لورنج الامريكانى المعروف بابى ذراع لبتر ذراعه الايسر ثم بعد أن رتبوا أمورهم وأصلحوا حالهم وتأهبوا للزحف سار فى مقدمتهم عثمان رفقى باشا عن معه من العسكر الى المحلة المعروفة باسم (بعرزه) وهى تبعد مسيرة يوم للمجد المسافر ويومين للراكب البطىء وسار بقية الجيش بسلاحه ومتاعه ودواب حمله عن مصوع فى يوم الاثنين سابع عشرى ذى الحجة من السنة فلم تغرب عليهم شمس ذلك اليوم حتى نزلوا على بلدة (ينعض) فباتوا بها ليلتهم وأصبحوا سائرين على أحسن مايكون من الهيئة والترتيب فبلغوا (بعرزه) بعد الزوال بقليل فأنزلوا بها أحمالهم يوم الاربعاء وباتوا ليلة الخميس وفى الصباح الذى هو أول المحرم افتتاح سنة ثلاث وتسعين ساروا الى (عدرسه) فنزلوا عليها فى غروب اليوم وباتوا بها ليلتهم وأصبحوا يريدون بلدة (قيح خوز) التى يقال لها أيضا (قياخور) وباتوا بها ثم أصبحوا سائرين نحو (قرع) فبلغوها فى ضحوة يوم السبت ثالث المحرم المذكور وقياخور وقرع كلاهما من حدود مملكة الحبشان فرسم السردار الى أركان حربه بتهيئة مكان لنزول العسكر فأنزلوهم غربى البلد ودقوا خيامهم ورتبوا دوابهم وحفروا الخنادق وأقاموا الاستحكامات الخفيفة وأنشؤا قلعة على ذلك الاستحكام على أحسن ما يكون من الوضع والنظام وخندقوا حولها خندقا على أعظم ما يكون من العمق وسموا هذه القلعة بالقلعة الجديدة وقد مهدوا الطريق من مصوع الى قياخور وأزالوا مايتخلله من العقبات وحفروا به بعض الآبار للارتواء وانبث جماعة منهم بين الحبشان لشراء الشعير لمؤنة الدواب والدقيق والعسل فاشتروا من ذلك شيأ كثيرا وآخرون لاستراق سمع الاخبار عن النجاشى يوحنا ومن معه من العساكر والاجناد وقد سار عن (عدوة) تخت مملكته يريد الالتقاء بالعساكر المصرية والقتال معهم وما زال ينتقل بخيله ورجله من بلد الى بلد حتى وصل الى ناحيتين يقال لاحداهما (دنبه) والاخرى (لمزه) وهما يبعدان عن المعسكر المصرى زهاء ست ساعات فتربص هنالك * وجعل الامير حسن يراسل كبار

الحبشان وأمراءهم ويستميلهم الى طاعة أبيه ويمنيهم بالامانى الكثيرة فكان أول من مال الى ذلك (لح برو) عظيم (عد خاله) فحضر الى معسكر المصريين فى نفر من الجند والاتباع فأكرم الامير حسن وفادته وأهداه شيأ من الملابس وشقق الحرير وهذا الرجل من أهل العصاوة وقطاع الطرق وله وقائع عدة مع العساكر المصرية فى واقعة ارندروب وجاءهم أيضا (دجاج) ولد تكائيل صاحب الحاسيين فى جيش عظيم وطبول ورايات فلاقاه الامير حسن ومقدمو عسكره وأحسنوا لقاءه وقدموا له الهدايا النفيسة من الشيلان الكاشميرية وشقق الحرير والمقصبات وقلائد الفضة وسروج الخيل المطهمة وأقام بالمعسكر المصرى يوما وليلة وأطلقوا لقدومه بعض المدافع وحادثه الامير حسن فيما هم بصدده * وولد تكائيل هذا من دهاة الحبشان وأصحاب الكلمة فيهم واجتمع حول المعسكر المصرى بذلك الصقع الكثير من السوقة وأصحاب السلع وأصناف الحبوب من الفول والعدس والشعير والسمن والعسل واللبن والدجاج والبقر والخيول والبغال والضأن والمعز فكانوا يبيعون على العسكر آمنين مطمئنين وكانوا مدة لبثهم بغير قتال شديدى التحرز والالتفات وكان كبار الضباط من الشراكسة شديدى القسوة والجبروت على صغار الضباط من المصريين يؤاخذونهم بالعنف والشدة على أصغر الصغائر * قالوا لكى لا ينفشلوا * ويلقونهم فى أضيق الحبوس عند أقل حادثة فكانت أيام هذه الحالة على صغار الضباط المصريين من أتعس الايام وأشدها ويلا * وكانت عيون الامير حسن وجواسيسه تنقل من أخبار النجاشى وعسكره فى كل يوم أشكالا حتى أتت فأخبرت بان النجاشى على أهبة الزحف بخيله ورجله فى يوم الثلاثاء حادى عشر صفر من السنة أى سنة ثلاث وتسعين فنادى راتب باشا فى العسكر المصرى بالتأهب والاستعداد لملاقاة العدو فتأهبوا ورحل يوحنا النجاشى عن دنبه ولمزه يريد مواقع المصريين فظهرت طلائع جيوشه ضحوة الثلاثاء وسمعت أصوات طبولهم وزمورهم فخرج فريق من المصريين ما بين مشاة وفرسان وجماعة من أصحاب المكاحل والمدافع من القلعة ووقفوا على قيد فرسخ منها على أحسن ما يكون من النظام والترتيب وناوشوا العدو القتال فقامت الحرب بينهما على قدم وساق واشتد الطعن والنزال وحمى الوطيس وعلت أصوات المدافع وارتفع الدخان الى عنان السماء فاظلم الجو والتقت الصفوف بالصفوف والتفت السيوف بالسيوف فأظهر الحبشان القهقرى والرجوع فتبعهم العسكر المصرى ومازالوا يتقهقرون والمصريون من خلفهم يصلونهم نارا حامية حتى قطعوا ذلك الوادى وعبروا خورا هنالك وطلعوا على قطعة من اليبس توصل الى خور ثان وكلاهما يجرى فيه الماء والحبشان من أمامهم يناوشونهم القتال ولم يطل الحال على ذلك ساعة أو بضع ساعة الا وقد أخذ الحبشان المصريين من خلفهم يعملون فى أقفيتهم السيوف والحراب وانطبقوا عليهم من كل جانب واشتدوا بالطعن والضرب وكانت صفوف المصريين الذين خرجوا من القلعة للقتال بغير احتياط ولا مدد وربما كان ذلك لحكمة لايعلمها الا العارفون بفنون الحرب والقتال وهجمت طائفة من فرسان

الحبشان على القلعة يريدون اقتحامها وأخذ الامير منها وكانوا يظنون أنه بها فالتقوا به عند الدور الاول فى جماعة من الحرس وأركان الحرب فاندفعوا عليه اندفاع السيل الجارف وأوشكوا أن يقبضوا عليه فساق بجواده وهم خلفه فلم يدركوه وتبعه من كان معه من حاشيته والعدوّ فى أثره حتى دخل الحصن وأغلقت أبوابه وانفشل العسكر المصرى أىّ انفشال واستولت عليه الهزيمة وأمر راتب باشا فجعلوا يطلقون المدافع على من كانوا خارج الحصن و والوا الرمى بأشد ما يكون فكانت قنابل المدافع تكنس الاجسام من العسكرين كنسا بل فعلت بالمصريين فعلا تنفطر له الاكباد وتتمزق من هوله القلوب وما زال الرمى متراسلا الى قرب الزوال فتفرق من بقى من الحبشان وخلا منهم ذلك المكان فبطل رمى القنابل وقد امتلأ ذلك الوادى بالجثث والجرحى من العسكرين وجرى فيه الدم جريان الماء فى خوره وكان المنظر مزعجا للغاية ثم خرج فريق من العساكر المصرية لدفن الموتى فأقاموا على ذلك أياما

ووقع فى أسر الحبشان كثير من العساكر المصرية وجماعة من أرباب الوظائف بالجيش فقتلوا منهم وخصوا وأذاقوهم مر العذاب * قال أحمد رفعت بيك مقدم كتاب هذه الحملة فى رسالته التى ألفها باسم * جبر الكسر فى الخلاص من الاسر * وقد كان وقع فى أسر الحبشان فى هذه الواقعة ووفقه الله تعالى الى عقد رباط الصلح مع النجاشى ما نصه * وقد حضر الينا والحرب قائمة ضابطان من سوارينا يستطلعان حال القلعة اذ ربما يكون قد دهمتها جنود الاعداء وعلمنا منهما انتصار عساكرنا وظهورهم على العدو قال وقد كان لى فى القلعة جواد فأخذه خادم محمد نسيم أفندى أحد أصحابنا بقصد التوجه به الى مخدومه لتوصيل ماء اليه فناديت الخادم أن ارجع فلم يرجع وكان قصدى بذلك أن يوجد جوادى بجانبى حتى اذا فاجأتنا الاعداء بالهجوم واضطرتنا الحال الى مغادرة القلعة ألفيت الجواد بجانبى ونجوت به مع الناجين * قال ولما لم يرجع الخادم بعثت خلفه بتابع لى يستحضره ويحجزه فلم يعد هو أيضا فاشتد حنقى وزاد غيظى وخرجت من القلعة ماشيا ومعى قريبتة وجبخانة بقدر مايكفى سعيا على الحصول على جوادى وطمعا فى مشاهدة الحرب ومشارفة القتال وقد ظننت انه اذا حصلت هزيمة لعسكرنا المحاربة أدركهم عسكر الاحتياط بالمدد كما شاهدت ذلك فى محاربة كريد فأكون مابين ذلك قد تمكنت من العود الى القلعة غير أن الامر كان بخلاف ذلك اذ لم يكن لعساكرنا مدد ولا احتياط على حسب القواعد الحربية وما كنت أظن هذا الامر ولا أتخيل حصوله * ولما أخذت فى السير وبعدت عن القلعة مسافة ألف وخمسمائة متر تقريبا وجدت حسن أفندى أحمد الكاتب معى حاضرا خلفى على قدميه ثم رأيت حضرة محمد على بيك الحكيم راكبا بجيرو معه خادمه وشاهدت خادم محمد بيك جبر الميرالاى راكبا على بجير محمل ماء لتوصيله الى مخدومه فأمر محمد على بيك الحكيم خادم محمد بيك جبر بالنزول عن البجير كى أركبه ففعل ولما امتطيته سلمت القريبتة للخادم

المذكور وسرنا وقد جاء تسليم القرينة للخادم من الحكمة كما سيظهر فيما بعد وبعد مسيرنا برهة لم نشعر الا والعجاج الثائر يغشانا شيأ فشيأ وقد رأيت وقتئذ شابين من عساكرنا راجعين بهرولة فسألتهما عن السبب فقالا ان عساكرنا انهزموا ولما أردت الرجوع بالبعير قصر عن الاسعاف ثم حرن وعمد الى التقدم مجفلا عن الرجوع فلم أجد سبيلا سوى الترجل فنزلت عنه ولسان حالي يقول

أنل قدمي ظهر الارض انى * رأيت الارض أثبت منك ظهرا

وقصدت العود ماشيا ولكن هيهات اذ بعدت المسافة ولم يمكنى الجرى قال أما الكاتب فاندهش واندهل وقال هات يدك ثم افترق منى الى الجبل وقد رأيت محمد على بيك الحكيم راجعا بجواده وما لبثنا حتى وافتنا خيالة العدو فى الحال تؤم القلعة بالهجوم فأحاطت بنا احاطة السوار بالمعصم وأقامت بيننا وبين القلعة سدا محكما ثم أقعدنى أحد فرسان العدو فعمد الشابان المنهزمان الى ضربه فقال لهما أمان فكفا أيديهما عنه فعاد الى وجذبنى من يدى فتخلصت منه بالعنف وأنا عن السلاح أعزل فصوب نحوى بندقيته ولم يطلقها وربما كانت خالية من الذخيرة وكان تصويبه اياها من باب الارهاب ثم عمد الى سيفه وضربنى به ضربة جاءت خلف أذنى اليسرى فأسالت الدم فى الحال غير أنى لم أشعر بها الا عند نزول الدم على ملابسى لما اعترانى من الدهش والاندهال وشتات الذهن وتفرق البال ثم شفع الضربة الاولى بثانية صادفتنى خلف العنق وكانت خفيفة الوطأة هينة التأثير قائلا * كيدن * ومعناها بالحبشية اذهب وهنا انجلت حكمة سبق تسليمى القرينة للخادم المتقدم ذكره اذ لو كنت حاملا لبعض السلاح لظننى الفارس محاربا وابتدرنى بالقتال والكفاح * قال ولما كانت خيالتنا عائدة بالهجوم على القلعة طارحى الفارس المذكور خائفا وجلا فاختفيت فى شجر المرسين فلما سلم منهم عاد الى فأدركنى بجنى ومخنقنى وقهرنى على القيام وكانت النيران فى أثناء ذلك تلقى من قلعتنا على العدو صدا لهجماته وردا لغاراته فأخذ العدو فى القهقرى ونزل حينئذ الفارس الذى أمسك بى عن جواده اتقاء الاصابة بالمقذوفات النارية راجعا الى الوراء منحنيا فى سيره مشيرا الى بالاقتداء به حتى أسلم من الاصابة وكنت أشاهد بعض عساكر العدو وبعض عساكرنا الذين اختلطوا بهم فى ملتحم الهجوم ومزدحم الرجعى يصابون بالرصاص فيخرون على الغبراء مضرجين بالدماء وقد أفضت بنا القهقرى الى نفق بالجبل فأوينا اليه وتوارينا به وكانت حينئذ تمر على رؤسنا مقذوفات المدافع فتنصدم بالجبال ولما توارينا بالجبل وصرنا على حذر من الوجل أخذ الآسر المذكور يمشى بى على مهل حتى وصلنا الى نهير فاغترف لى منه ما بيده وسقانى وبعد أن شربت شرع فى سلب ما على من الثياب فاخذ منى أولا البالطو وكان ملطخا بالدم وعلقه بعنق جواده وبعد ذلك سرنا حتى جئنا الى ميدان واسع وكان ذلك فى الساعة الحادية عشرة نهارا تقريبا فرأيت هنالك جموعا شتى ولم يمكنى أن أتبين فى الحال هذا الميدان الذى

أعهده من قبل وذلك بسبب ما أصابنى من الدهشة والفرق ووجدت هنالك جملة أسارى
من عساكرنا وقد سأل الآسر المذكور أحدهم عما اذا كنت أميرا من الامراء أوغير ذلك
فأخبره وكان لايعرف أننى منهم مستدلا على ذلك بزيى وهيئتى ثم رمق الآسر ساعتى
وسلسلتها وأراد سلبهما فأخرجت ختمى من السلسلة بحيث لايرانى وأخفيته فى جيب البنطلون
لتعلق به اذ هو عندى من منذ ثلاث وعشرين سنة فأخذ منى الساعة والسلسلة
وعلقهما بعنقه وصار يدور حولى راكبا ويقول كلاما لم أفهمه قيل لى فيما بعد انه عبارة عن
ترنمه بشجاعته وذكر حسبه ونسبه واتيانه بأسير وبعد ذلك وصل بى الى محل فى هذا الميدان
وأخذ يفتش على زملائه فلم يجد منهم أحدا وكان ذلك وقت الغروب وقد عرفت هذا
الميدان وهو الكائن شرقى (فرع) الذى كنا اتخذناه معسكرا لنا فى أول الامر اذ وجدت
فى المكان الذى كنت فيه قطع ورق مما كنت أكتب فيه بختمى فقلت سبحان من أحلنى بهذا
المكان أسيرا وقد كنت فيه البارحة أميرا ولعلى منيت بالاسر لحكمة مستورة علمها عند
الله الى أن قال وفى صباح يوم الخميس ثالث عشر صفر رأيت عساكر العدو يحتشدون
زمرا وأفواجا على هيئة القولات واحتفزوا للتوجه الى القلعة ثم ساروا ولم يخلفوا فى
معسكرهم سوى الاسراء والنساء والصبيان وقد أوثقوا الاسراء وبعد برهة سمعنا صوت
البنادق والمدافع منبئة بانتشاب المحاربة واشتداد المضاربة وحمى الوطيس بين الفريقين
فانطلقت النساء الموجودات بالمعسكر عند اذ يصحن قائلات أبيت أبيت وهى كلمة تضرع
ومعناه ياسيدى ياسيدى وكن يسجدن على الارض ويأخذن التراب ويذررنه على رؤسهن
وهذا جميعه طلبا للنصر والتماسا للظفر وبعد ساعتين تقريبا عاد قوشو آسرى وعلمت من
حاله انفشال أمرهم وخيبة أملهم ثم صار عساكر العدو يؤبون بالتعاقب الى آخر النهار
وسيماهم الحزن والاكدار الى أن قال ولم يمكن العدو أن يتغلب على الاستحكام فى محاربة
يوم الخميس كما أسلفنا ذلك وقد رجع مهزوما مغلوبا مع كونه كرر الهجوم على الاستحكام
دفعات متعددة من أول النهار الى آخره حالة أن الاستحكام المذكور لم يكن به سوى أورطة
ونصف تقريبا من العساكر فلو أن السبع أورطات يعنى كامل العساكر التى ساقوها
لهذه الغزوة التى خرجت من الاستحكام أقامت به ولحقها الثلاث أورطات التى كانت فى
قياخور لتكوّن من ذلك قوة عظيمة فى الاستحكام ولانهزم جيش العدو شر هزيمة
ولم يقو على القرب من الاستحكام لوصول مقذوفاتنا الى النقطة التى أخذها العدو
معسكرا ولو كنا اقتصرنا على قذف النيران على العدو من الاستحكام لكان هذا كافيا
لكسره وتبديد جموعه قال وحصول الامر بخلاف ذلك نشأ من تفرق الكلمة
وتباين الآراء لان جناب السردار رأى أن تتحصن العساكر فى الاستحكام وتلحق بها
الاورطات التى كانت بقياخور ورأى الغير ولعله الامير حسن خروج العساكر لمقابلة

العدو وبقاء جزء منه بالقلعة مع عدم اخلاء قياخور من العساكر خشية انقطاع خط المواصلات * الى أن قال * ولكن اذا أراد الله نفاذ أمر سلب من ذوى العقول عقولهم حتى ينفذ أحكامه فيهم فان صاحب ذلك الرأى يريد (الامير حسن) لم يراع فيه التدبير اللازم حتى اننا ما كنا نعلم بسبب عدم الاستكشاف أن كانت مقذوفات مدافعنا تصل الى معسكر العدو أم لا وما علمنا وصولها الا بعد أن غادر جيش العدو هذا المعسكر قال وليس من الحكمة والتدبير أن تساق العساكر بأجمعها الى المحاربة دفعة واحدة ولا يكون لها مدد واحتياط للرجعى ولايصح ايجاد العساكر فى مكان على يمينه جبل يمكن صعود العدو فيه واشرافه عليهم وحول أطرافه خور محيط به يمنع الرجعة فانه لما اصطفت عساكرنا فى ذلك المكان وأقبل عليهم جيش العدو رموه بمقذوفات المدافع والبنادق فما وسعه الا الهبوط الى الخور والسير منه بحيث لم تره عساكرنا لعمق الخور حتى وصل منه الى ذروة الجبل فتسلط على يمين جيشنا وكسر جناحه ولما عمد جيشنا الى الرجعى منعه الخور المذكور وقد انقلب فيه مدفع من مدافعنا بحيواناته وانكبت جملة من عساكرنا فيه على بعضهم فبطل الرجوع بالكلية ونشأ منه ذلك الفشل والهزيمة ووقوع فوج من عساكرنا فى أسر العدو اه

ولما لم تتمكن الحبشان من أخذ الحصن عنوة وقد أخذتهم نيران مدافعه تراجعوا فنادوا فيهم بدفن الموتى ونقل الجرحى فدفنوهم ونقلوا جرحاهم ثم دقت طبولهم بالرحيل فانقلبوا فى الحال على من عندهم من الاسرى فقتلوا منهم خنقا وذبحا وأفحشوا فى ذلك جدا ثم ساروا أفواجا وهم فى عدة كثيرة بكراعهم ومتاعهم حتى نزلوا على بلدة (اقلبسه) وعسكروا بها فلما كان يوم السبت أرسل الملك فى طلب أحمد بيك رفعت وقد أخذ منه الجهد والتعب وبلبلة البال مأخذا عظيما فقام وسار مع رسول الملك وصحبتهما الآسر لأحمد بيك وهما يقولان له أمان أمان ويفهمانه أنه ذاهب الى حيث النجاشى يكلمه فى شئ من أمر الصلح والكف عن الحرب * قال أحمد بيك فلما وصلنا الى ساحة الملك وجدت الآسر سجد خلف خيمة فظننتها خيمة الملك وأن السجود له واذا هى كنيسة الملك وهى مصنوعة من جوخ أحمر أما خيمته التى يقيم فيها فمن قماش أبيض قال وبعد برهة طلبت اليه وكان أول من قابلنى على باب خيمته شخص يعرف قليلا من العربية وحينئذ خرج كل من كان عند الملك من أمير وحقير ولم يبق لديه الا عمه المدعو رأس سرايه فقال لى ذلك الشخص الذى قابلنى أأنت الكاتب وكبير الكتاب وهل تعرف مقدار السلاح والبارود وكل شئ فقلت نعم ولما دخلت فى الخيمة ألفيت الملك متلثما حتى لا يمكننى من معرفة صورته وقيل لى فيما بعد ان من عادة ملوك الحبشة أن يفعلوا ذلك عند لقاء الاجنبى المعادى خوفا من أن يعرفه فيفتك به عند سنوح الفرصة وكان الملك طويل القامة متوسط اللون بين السواد والسمرة عارى الرأس مضفور الشعر مستطيل الوجه على

العينين ضخم الانف بارز الاسنان حافي الاقدام نظيف الملابس وعليه منها جلابية ولباس وفوطة متشح بها وكان جالسا على سرير عنجريب وعلى يمينه مخدة وعلى يساره أخرى وهما كبيرتا الجرم من نوع الشطمة المستعملة قديما وأمامه على الارض كاتبان وقد وقف بجانبه الشخص الذي دخل معي وسألني عن وظيفتي ثانيا وكان اذ ذاك عم الملك جالسا على الكليم دون السرير ولما لم يحسن الفهم ولم يجد التفهيم استحضر الملك شخصا آخر يحسن الكلام بالعربية فصار يترجم بيني وبينه

فسألني الملك بواسطة ترجمانه قائلا ما سبب حضوركم وما القصد منه قلت ان القصد هو تبادل التجارة بين الحبشة والمصريين وتوطيد دعائم المودة والالفة بين الفريقين ولما أرسل اليكم أرندروب بيك أحد النواب المدعو محمد عبد الرحيم للمفاوضة في هذا الصدد سجنتموه على أن الرسول لايسجن ولا يهان فقال نحن لم نأمر بسجنه الا لكونه قال ان الخديو يريد الاستيلاء على ما بين مصوع الى المأرب ومن العادة أن من يريد المفاوضة في هذه المسائل لايأتي ومعه العساكر فأرندروب بيك حضر الى بلادنا ومعه الجنود فقلت له أما ما بلغه الرسول فلاينطبق على الواقع ولا يوافق القصد فان كان قال ذلك فهو من عندياته وأما حضور أرندروب بيك بعساكر فمن المعلوم أن أراضي الحبشة عبارة عن وديان سحيقة وجبال وعرة وفيها قطاع الطريق والمتلصصون ونحوهم ويخشى من الطواف بها والتجول فيها بالانفراد فالعساكر التي أرسلت مع أرندروب بيك لم تكن الا للمحافظة عليه في أثناء الطريق واتصال خط المواصلة والدليل على ذلك أنه لم يكن معه سوى ألف نفر وباقي العساكر كان بالمحطات بقصد توصيل الذخائر اليه والى من معه حتى لا يكلفوا جناب الملك بشيء ما فقال ولو أن كلامك من هذا القبيل غير أني عارف ببواطن الامور وهل عندك ختم تكتب لنا جوابا بالصلح فقلت نعم ولكن أخذه الآمر فأمر الملك حينئذ باحضار الختم وقد حصل فكان ذلك عندي من طلائع السرور وتباشير الحبور الى أن قال * ولما خرجت من عند الملك أجلسوني في خيمة معدة لحفظ الاسلحة الخاصة به وهي عبارة عن درق وحراب وبعض أمتعة فطلبت قرطاسا وقلما ودواة فاحضروا لي ذلك مع كاتب يدعى متى من أقباط مصر يشبه صيارفة البلاد ولبسه ثوب وعمامة وهو حافي الاقدام وفي خلال ذلك كنت قعدت بمعزل عن الخيمة مع الترجمان وعرفني أن اسمه دسته وطلب مني الوعد بأن لاأنساه من البر والاحسان اذا نجح المطلوب وحصل المرغوب فقلت له لك ذلك وبعد حضور الكاتب قدموا لي من باب الاكرام بعضا من العسلية فتناولته مطمئنا فرحا وقلت لمن في الخيمة (تملسوا) ومعناها باللغة الحبشية اخرجوا وقصدي بذلك اخلاء الخيمة من الناس فضحكوا تعجبا من اخراجهم مع كونهم هم أصحاب المحل ثم أخذت القرطاس والقلم وكتبت مسودة خطاب عن لسان الملك الى جناب البرنس حسن باشا وذكرت فيه

انى كنت أود استمرار علاقات المودة بينى وبين والدكم الافخم ولكن حال دون هذه الامنيـة تمويهات مشنجر باشا محافظ مصوع وبثـه الا كاذيب حتى بنى على ذلك حضور أرندروب بيك وحضوركم وكان ما كان فى وقعتى جندت وقرع من هدر الدماء بين الفريقين وهذا أمر لايرضى الله ولا الناس ولم ندر ماهو المقصد والمرام من حضوركم بالجنود الى بلادنا فالاولى أن ترسلوا مندوبا من عندكم أو نرسل مندوبا من عندنا للمفاوضة فى شأن الامر الذى نحن فيه الى أن قال ونقلت مسودة كتابى على قرطاس بخط كاتبهم بدون تغيير فيها ولاتبديل ولامحو ولااثبات ثم عرض على الملك فختمه وحررت منى كتابا تركى العبارة الى جناب السردار بما شاهدته من حال جيوش الحبشة من حيث وفرتها وكثرتها وما لاح لى من هذا القبيل مع الاختصار وختمته باستلفات نظره الى ضرورة حسم هذه المشكلة بالحسنى

وقامت رسـل النجاشى بالكتاب الى المعسكر المصرى وسلموه الى الامير حسن فشرع يكلمهم فى تقرير قاعدة يحسن الوقوف عندها فقالوا انما نحن أتينا نحمـل خطاب الملك لا أن نناجيكم فى أمر الصلح فرسم الامـير حسن بأن يكتبوا الى النجاشى بأن يرسـل اليهـم رجلا مفوضا من قبله فى عقد رباط الصلح والكف عن الحرب والقتال فلم يرد عليهم النجاشى أياما كثيرة وسار فى عسكره عن (أقلبه) الى ناحية دواريه احدى بلاد الحماسـين وهى التى وصلت اليها العساكر التركية على عهد فتح السلطان سليم لبـلاد الحبشـة وتعطلت المخابرة فى أمر الصلح أو كادت ثم كتب النجاشى بعد ذلك الى الامـير حسن يقول قوموا وتوجهوا ولا خوف على عساكركم منا ولا على مودتنا من الانقطاع فلما علم الامير حسن ما فى هـذا الجواب سأل الرسول أن يبـدى رأيه فى أمر الصلح فقال لم يأذن لى مولاى بالكلام فى شئ من ذلك فكبر الامر على الامير حسن واستعظمه وسير فى طلب المدد فجاءته طائفة من الجنـد فأمد بها المـرابطين فى قياخور ولبث ينتظر ما سـيكون وكانت كتبه ترد فى كل يوم على أبيه بمصر يحملها السلك البرقى وكذلك كتب أبيـه وكلها فى معنى ماهـم فيـه *

واشـتد قلق أحمد رفعت بيك وخشى عاقبة التطويل وكان يرى من حركة الحبشان وميـل كبارهم الى اعادة الكرة على العسـكر المصرى مازاده قلقا وانزعاجا فسير الى راتب باشا سرا يسأله تعجيـل طلب الصلح وتـلافى الخطب قبـل استفحاله وعـدم التطـوح الى اعادة الحـرب التى لا تؤمن عاقبتهـا على حالة أن النجاشى موصوف بالحنان والرفق كارها لاراقـة الدماء راغبا فى المسالمة والتـودد فأجابه راتب باشـا الى ذلك وحثـه على عقـد رباط الصلح والاسراع فى عمله قبل دخول الشتاء واشتداده على العسكر المصرى ومناه بالامانى الكثيرة ان هو عجـل فى العمـل فتقدم أحمـد رفعت بيك الى النجاشى فى طلب تقرير قاعدة الصلح على ما فيـه المصلحـة للطرفين وما زال به حـتى ألانه واستماله وهون عليه الامر فرسم له النجاشى بطلب أحـد زعماء العسكر المصرى يكلمه فى شئ من ذلك فسـير أحمد رفعت بيك الى راتب باشا يطلب مبعوثا من قبلهـم وضمن هو سلامته وعدم مس المبعـوث بضرفلم

تمكن الا أيام حتى جاءت الاخبار بقرب وصول على أفندى الروبى أحمد مقدمى الفرسان المصريين وأحمد أفندى عبد الغفار ويوز باشى من الاقباط مبعوثين لعقد شروط الصلح والكف عن القتال فرسم النجاشى بالاستعداد والتأهب للقائهم فخرج للقائهم زهاء الالفين من الحبشان بسلاحهم وآلات حربهم وكثر اللغط فى معسكرهم بقرب وصول المبعوثين فلما وصلوا وصاروا على مقربة من مقر النجاشى ترجلوا عن خيولهم ودخلوا على النجاشى مع بعض الامراء الذين هم فى ركاب الملك فأحسن النجاشى لقاءهم ورحب بهم كثيرا ورسم بنزولهم على الرحب والسعة فأنزلوهم فى خيمة أعدت لهم وقدموا لهم شيأ من المأكل والمشرب ولبثوا يومين يتكلمون فى قاعدة الصلح ثم اتفقوا على أن يرسل الملك رسولا من قبله الى معسكر المصريين فسير معهم رجلا اسمه (ليكا منكاس ورقى) وهو من قرناء الملك فغاب ليكامنكاس ورقى أياما وعاد ومعه شئ من الهدايا والتحف ومبعوثو الامير حسن المفوضون بعقد رباط الصلح فتناجوا فى ذلك أياما فكان ماطلبه المصريون من الحبشان رد سائر المدافع وآلات الحرب التى غنموها وفتح أبواب التجارة مابين أملاك مصر والحبشة فكره النجاشى منهم ذلك وأنكره وقال لاسبيل الى رد شئ من الاسلحة البتة اللهم الا اذا كان ماقدره خمسمائة بندقية لاغير فألح رسل الامير حسن فى الطلب وجعلوا يهونون على النجاشى الامر فأخذته ثورة الغضب وقال لاسبيل الى رد شئ وقد أخذتم من بلادنا سنهيت ومصوع بغير مسوغ شرعى ومصوع هى مينا الديار الحبشية ومفتاحها البحرى فلا سبيل قط الى شئ مما تطلبون وما كنا لنتوقع من خديويكم أن يناوينا الشر على غير موجب ولا سبب فكان من وراء فعاله هذه ما هدرتموه من دم أولئك الابرياء فالله عليكم شهيد ثم أعرض عن رسل الامير فأخرجوهم عنه وباتوا وأصبحوا وهم محل الاعراض والازدراء بعد الذى لقوه من التجلة والتكريم فعادوا وأعلموا الأمير حسن باعراض النجاشى عنهم وعدم الالتفات الى شئ مما طلبوه وأن النجاشى لايسلم فى شئ من السلاح والمتاع ولا رد شئ مما غنمته عساكره البتة سوى ارجاع الاسرى والتعاقد على المحبة والولاء وفتح طريق التجارة بين المملكتين فلم ير الأمير حسن بدا من قبول ذلك فأعاد الرسل بالسمع والقبول فرسم النجاشى باحصاء الاسرى وردهم جميعا فنادى مناديه فى العسكر بذلك فاجتمع الاسرى حول خيمة النجاشى حتى تكاملوا ثم أدخلوهم عليه وكان بينهم بيكباشى أمريكى اسمه دو رهاس فالتفت اليهم النجاشى التفاتة لطيفة كأنه يحييهم تحية الوداع فخرجوا فسار أمامهم أصحاب الطبول والزمور يضربون بطبولهم ويعزفون بمزاميرهم والحبشان من نساء ورجال على جانبى الطريق حتى دخلوا الى المعسكر المصرى سالمين

وعاد الأمير حسن بمن بقى من حاشيته وبطانته وبعض مقدمى العساكر المصرية من جماعة الشراكسة الى القاهرة ثم لحقهم طائفة من العسكر وبقيت طائفة أخرى بعضها بقياخور وبعضها بعدرسة وبعزره وهؤلاء لم يلبثوا طويلا حتى رحلوا الى القاهرة

وحل محلهم جماعة الباشبوزق والعربان وبقى راتب باشا معهم حتى يأتيه مرسوم الخديو بالرحيل فلما جاء المرسوم بذلك نزل بمن معه فى احدى السفن التجارية وأنزلوا مابقى من المدافع والاسلحة والمهمات فى ثلاث سفن كبيرة وبينما هى تسير قاصدة السويس اصطدمت احداها المسماة دنقله بصخر فى الماء فغرقت بما عليها ولم ينج منها غير الرجال ووصلت العساكر الى مدينة السويس فسيروهم على الأثر الى رأس الوادى فأقاموا بها أياما ثم سرحوهم فعادوا الى أوطانهم فكانت هذه الغزوة من أتعس الغزوات وأشرها على البلاد وأهلها فسبحان من يؤتى النصر لمن يشاء من عباده

وكان الخديو منذ ولايته ميالا الى جعل مدينة القاهرة على نسق عواصم الامم المتمدنة والدول الكبرى فى الترتيب والنظام وتنسيق المبانى وتوسيع الطرق وغرس الاشجار لتظليل الشوارع وغير ذلك من المحسنات فبالغ فى هذا الامر ورتب له ديوانا مخصوصا وقيد به جماعة من المأمورين فصرفوا الأموال الطائلة فى توسيع الطرق وانشاء المبانى وعمل المراسح ومحال اللعب العمومية وغرس الاشجار الكبيرة وانشاء الحدائق والمنتزهات البديعة وانارة الشوارع بالانوار الغازية على ترتيب غريب وفرشوا الارض بالحصا الأحمر وكسوها بالرمل الاصفر وهدموا الكثير من الدور والوكائل القديمة والجوامع والاضرحة والتكايا توسيعا للطرقات وعملوا من محاسن البناء والتنظيم شيأ كثيرا فكانت هذه الاعمال وغيرها مما سيتلى عليك بعضه سببا فى اختلال الخزينة ونضوب الايراد وذهاب الدرهم والدينار والاضطرار الى الاستدانة من أصحاب الاموال بالربا الفاحش فاستدانت الخزينة مبلغا من المال قدره ثمانية آلاف ألف من الذهب فكانت هذه القرضة الاولى التى مدت اليها يدها بعد ولاية اسمعيل باشا ولم تكن استدانت شيأ من قبل سوى أربعة آلاف ألف على عهد سعيد باشا لتبتاع بها سهاما من شركة خليج السويس فكثرت من هذا الحين معاملة أصحاب الاموال للخزينة وانبسطت أيديهم فاعطوا وسحلوا وحاسبوا وطالبوا وطاولوا وتقربوا وتلطفوا فى المعاملة فأمن الخديو جانبهم واستدان منهم أيضا باسم أملاكه وزروعاته الخصوصية فأعطوه فاستزاد فزادوه واستطال فطاولوه حتى بلغ الدرهم دينارا فأنشأ معامل السكر العظيمة وسكك الحديد الزراعية والابنية الفاخرة والعمائر الواسعة وأكثر من بناء القصور والمنتزهات الغريبة وبالغ فى أسباب الزينة بأحسن مما يفعله أكبر ملوك العالم وزوج أولاده وبناته وعمل لهم الافراح والولائم العظيمة وجمع فيها سائر أرباب القصف واللهو وسائر المغنين والمغنيات وفرق الهدايا العظيمة والتحف الجليلة على رجال الدولة والعلماء والمشايخ وأنفق الأموال الطائلة وخص كل واحدة وواحد منهم بالاقطاعات العظيمة والعقارات الواسعة للنفقة وأنشأ لهم القصور المشيدة والمبانى الفاخرة فى باب الخرق وخطة الاسماعيلية والقبة والجيزة وبولاق التكرور وزوج الكثير من جواريه وسراريه الى كبار الجند وصغار الضباط وأصحاب الوظائف الديوانية وبنى لهن الدور الواسعة وزينها بأنواع الفرش والبسط وأفخر

الأوانى ورتب لهن الجماكى والمرتبات وأعطاهن غير ذلك من العطايا والتحف

وكان اذا نضب الايراد وأمحلت الخزينة وعز الدرهم عمد الى الاستدانة وضرب المغارم وتكثير المكوس وفرض الفرض على البلاد شرقا وغربا واعادة أشكال المكوس الغريبة التى كانت على عهد ملوك دولة الشراكسة الثانية وما زال على هذه الحال من السرف والارغال وأصحاب الاموال تطاوله وهو يمنيهم بالأمانى البعيدة حتى اشتد بأهل البلاد الضيق واستحكمت حلقاته فضجوا وعجوا وجباة الاموال تجوب البلاد شرقا وغربا وأصحاب الاموال من اليهود والروم تتبعهم فاذا تعذر على الممول سد مطالب أصحاب الجباية أخذوا ماوجدوه عنده من غلة أو ماشية وباعوها لمن تبعهم من أولئك المرابين بأبخس الاثمان وهكذا كانوا يفعلون بأهل كل بلد وقرية حتى عم الويل واشتد الكرب واستفحل الخطب وعز الخلاص * ولم تكن هذه المحن لتقعد الخديوى عن اعطاء نفسه كل ماتمناه اذ سار فى سنة تسعين ومائتين وألف هجرية أى سنة ثلاث وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية الى دار السلطنة العثمانية ليستعطف صدر الدولة يومئذ ويزيل ما كان بينهما من الوحشة والتقاطع فأحسن السلطان لقاءه وبالغ فى اكرامه فأقام فى قسطنطينية أشهرا أنفق فيها من الاموال مالا يكاد يدخل تحت الحصر وتقرب من صدر الدولة وكبار السلطنة وأزال ماكان بينهم وبينه من الوحشة وأولم الولائم الكثيرة وأهدى لهم الهدايا العظيمة والتحف الفاخرة فلما تمكن من استرضائهم استقدم اليه من عاصمة الفرنسيس الموسيو أوبنهايم المرابى الشهير واقترض منه قرضا برسم الخزينة قدره ثمان وعشرون ألف ألف من الجنيهات أى ثمانية وعشرون مليونا ذهبا بحجة وفاء جميع ماعلى الخزينة من الديون وصرف ما يتبقى فى شؤن البلاد وحاجاتها وكان من شروط هذا القرض أن لايدفع ملتزمه للخزينة معجلا سوى ستة آلاف ألف نقدا وأن يعطى بالباقى أوراقا * هى المعروفة فى عرف أصحاب الاموال بالسندات الاسمية * فقام أوبنهايم بهذا الشرط ووفى الى خزينة الخديوى هذا المال فى آجاله فلم يهتم له الخديوى وتقدم الى أمير المؤمنين فى قبول ثلاثة آلاف ألف منه اعانة للخزينة السلطانية فقبل السلطان ذلك ورسم بحمل المال الى الخزينة السلطانية وكأنه عز على الخديوى العود الى القاهرة وفى خزينته شئ مما بقى من ذلك المال فعمد الى شراء الجوارى الحسان والجواهر الثمينة والاعلاق النفيسة وهادى جميع رجال الدولة وأنفق وأولم للسلطان وليمة لم يسبق لها مثال جمع فيها من أصناف الزينة وبدائع الالعاب النارية والانوار والفرش والمأكول والمشروب مالا يمكن استيفاء شرح محاسنه وأولمت كذلك والدته لوالدة السلطان وليمة أخرى وقدمت لها من التحائف والاعلاق الثمينة مالا يمكن وصفه قال بعض كتاب الاخبار وتحقق لهما فى تلك الليلة أنهما من أقرباء بعضهما تجتمعان فى جد واحد ففرحتا بذلك فرحا عظيما وجعلتا تتزاوران كل قليل ولا تنقطع من بينهما فى كل يوم رسل التحية والتسليم ولبث الخديوى

بعد ذلك أياما كلها أفراح ومواسم ثم تقدم الى السلطان فى أن يسرحه بالانصراف فسرحه فوصل الاسكندرية فى أوائل ربيع الثانى من السنة فزينت له المدينة ثلاثة أيام وكذلك زينت القاهرة عند وصوله اليها ودقت البشائر وزاره الامراء والكبراء والعلماء والوجهاء ولم يستقر به المقام حتى شاع الخبر بورود فرمان السلطان بتأييد سائر الفرمانات السابقة مع اضافة جميع الحقوق والامتيازات التابعة لرتبة الخديوية اليه وتحدث الناس فى ذلك كثيرا ولم تمض الا أيام حتى قرئ الفرمان فى محفل حافل بديوان السلطان الملك الغورى بقلعة الجبل حضره جميع رجال الدولة والامراء والكبراء والمشايخ والعلماء فكان مافى الفرمان المذكور بعد الديباجة المعلومة مانصه

قد نظرنا بعين الاهتمام الى طلبك باصدار خط سلطانى يجمع بالتفصيل والتغيير اللازم جميع الخطوط الصادرة بعد الفرمان المانح المرحوم الوالى محمد على باشا الحكومة الارثية سواء كانت تلك الفرامين متعلقة بكيفية الخلافة أو بالحقوق والامتيازات الجديدة الممنوحة مراعاة لحال الخديوية وسكانها فهذا الفرمان من شأنه أن ينسخ فى المستقبل حكم تلك الفرامين جميعها بما يتضمنه مما سيأتى بعد ويكون دائما نافذا مرعى الاجراء

مطلب فرمان السلطان القاضى بنقل وراثة الخديوية من عقب محمد على باشا الى ذرية اسمعيل باشا

ان كيفية وراثة الحكومة المصرية المقررة فى فرماننا الصادر ثانى ربيع الآخر سنة خمس وسبعين ومائتين وألف قد غيرت على وجه أن تنقل الخديوية من متبوئ كرسيها الى كبير أبنائه ومن هذا الى أكبر أبنائه أيضا وهلم جرا علما بان ذلك أدنى الى المصلحة وأرشد ملاءمة لاحوال البلاد المصرية واختصاصا لك بانعطاف الذى صرت له أهلا بحسن سعيك واستقامتك واجتهادك وأمانتك واثباتا لذلك أجعل قانون الوراثة الخديوية لمصر ومتعلقاتها وما يتبعها من البلاد وقائمقامية سواكن ومصوع وتوابعهما كما تقدم بيانه بحيث تكون الولاية لابكر أبنائك ثم لابكر أبنائه من بعده فاذا لم يرزق من ولى الخديوية ولدا ذكرا كانت الولاية من بعده لاكبر اخوته أو لاكبر بنى أخيه الاكبر كما تقرر ولا تكون هذه الوراثة لابناء البنات ولاجل تأييد هذه الاحكام ينبغى أن تكون الوصاية فى حال كون الوارث قاصرا على الصورة الآتية

اذا توفى الخديوى وكان كبير ولده قاصرا أى غير بالغ من العمر ثمانى عشرة سنة يكون هذا القاصر بالحقيقة خديويا بحق الوراثة فيصدر اليه فرماننا بوجه السرعة وأما اذا كان الخديوى المتوفى قد نظم قبل وفاته أسلوبا للوصاية وعين كيفيتها وذوى ادارتها بصك ثبت بشهادة اثنين من رؤساء حكومته فأولئك الاوصياء يقبضون اذ ذاك على أزمة الاعمال عقب وفاة الخديوى ثم ينهون ذلك الى الباب ليثبتهم فى مناصبهم ولكن اذا توفى الخديوى بغير وصية وكان ابنه قاصرا فمجلس الوصاية عند ذلك يؤلف من متولى الادارة الداخلية والحربية والمالية والخارجية والحقانية وقائد العسكر ومفتش الاقاليم فتجتمع هؤلاء الذوات وينتخبون للخديوى وصيا باجماع الآراء لابالاغلبية فاذا تساوت الآراء لاثنين من المنتخبين كانت الوصاية

لأرفعهما رتبة باعتماد الترتيب السابق من الداخلية فما بعدها ويشكل مجلس الوصاية من الباقين فيباشرون جميعا أمور الخديوية ويعرضون بذلك لسلطنتنا السنية ليصدق عليه بالفرمان الشريف . وكما أنه لايجوز تبديل الوصى وتغيير هيئة الوصاية قبل انتهاء مدتها على الصورة الأولى أى فيما اذا كان تنظيمها بحكم وصية الخديوى المتوفى فكذلك لاتغير فى الصورة الثانية وأما اذا توفى الوصى أوأحد أعضاء مجلس الوصاية فى خلال تلك المدة فينتخب بدل الاول أحد أعضاء المجلس وبدل الثانى أحد ذوات الحكومة وبمجرد بلوغ الخديوى القاصر ثمانى عشرة سنة يكون راشدا فيباشر أمور الخديوية وذلك مما تقرر لدينا واقتضته ارادتنا السلطانية

ولما كان تزايد عمارة الخديوية المصرية وسعادة حالها ورفاهية سكانها من أهم الامور لدينا وكانت ادارة المملكة المالية ومنافعها المادية المتوقف عليها تكامل وسائل الراحة وتوفر أسباب السعادة عائدا على الحكومة المصرية رأينا أن نذكر كيفية تعديل الامتيازات وتوضيحها على شرط بقاء جميع الامتيازات الممنوحة سابقا للحكومة المصرية وذلك أنه لما كانت ادارة المملكة الملكية والمالية بجميع فروعها وأحوالها ومنافعها عائدة بالحصر على الحكومة ومتعلقة بها وكان من المعلوم أن ادارة أىّ مملكة وحسن نظامها وتزايد عمارتها وسعادة سكانها مالا يتم الا بالتوفيق والتطبيق بين الادارة العمومية والاحوال والمواقع وأمزجة السكان وطباعهم فقد منحناكم الرخصة المطلقة فى وضع القوانين والنظامات الداخلية حسب الحاجة واللزوم ولاجل تسهيل تسوية المعاملات سواء كانت من قبل الرعية أومن قبل الحكومة مع الاجانب وتوسيع نطاق الصنائع والحرف وتوفير أسباب التجارة منحناكم أيضا الرخصة المطلقة فى عقد المشاركات وتجديد المقاولات مع مأمورى الدول الاجنبية فى أمور المسالك والتجارة وسائر المعاملات الجارية مع الاجانب فى أمور المملكة الداخلية وغيرها على شرط أن لايكون ذلك موجبا للاخلال بمعاهدات الدول السياسية

ولكون خديوى مصر حائزا لحق التصرف المطلق فى الامور المالية فقد أعطيت له الرخصة فى عقد القروض من الخارج بغير استئذان عند ما يجد لذلك لزوما على شرط أن يكون القرض باسم الحكومة المصرية وبما أن أمر المحافظة على المملكة وصيانتها من الطوارق وهو أهم الامور وأحوجها الى العناية من أقدم الوظائف المختصة بخديوى مصر قد منحناه الاذن المطلق بتدارك أسباب المحافظة وتنسيقها على مقتضى ضرورات الزمان والحال وبتكثير أوتقليل عدد العساكر المصرية الشاهانية على حسب اللزوم بغير تقييد ولا تحديد وأبقينا كذلك لخديوى مصر امتيازه القديم بمنح الرتب العسكرية الى رتبة ميرالاى والملكية الى الرتبة الثانية على شرط أن تكون المسكوكات المضروبة فى مصر باسمنا الشاهانى وتكون أعلام العساكر البرية والبحرية فى القطر المصرى كالاعلام التى لعساكرنا

السلطانية بلا فرق ولا تمييز ولا يجوز لخديوى مصر أن ينشئ البوارج المدرّعة بغير استئذان أما سائر السفن والبوارج ففى استطاعته أن ينشئها متى شاء

ولاجل اعلان الاحكام السابق بيانها وتأييدها قد أصدرنا اليكم هذا الفرمان الجليل القدر من ديواننا الهمايونى وأعطى لكم متمما ومعدّلا وشارحا للخطوط الشريفة والاوامر المنيفة الصادرة الى هذا التاريخ سواء كانت فى وراثة الحكومة المصرية وفى كيفية الوصاية أو فى ادارة الامور الملكية والعسكرية والمالية والمنافع العمومية وسائر المهمات على شرط أن تكون أحكام هذا الفرمان الجديدة نافذة مرعية الاجراء على ممر الازمان قائمة مقام أحكام الفرمانات السالفة على مااقتضته ارادتنا السلطانية فينبغى أن تعلموا قدر لطف عنايتنا وتؤدوا الشكر لها وتصرفوا الهمة الى تنظيم الادارة على محور الاستقامة والى الاخذ بأسباب وقاية الرعية واصلاح شؤنها وتأييد راحتها على حسب مافطرتم عليه من الغيرة والاستقامة وحسن الاخلاق وما وقفتم عليه من أحوال تلك الجهات وأن تراعوا أحكام الشروط الواردة فى هذا الفرمان الجديد مع تأدية المائة وخمسين ألف كيس المضروبة على الديار المصرية سنويا فى أوقاتها المعينة الى خزينتنا العامرة السلطانية على القوانين والقواعد المرعية انتهى بنصه

وظل الخديوى سائرا على مايهواه من السرف وتمهيد العقبات أمام أصحاب الاموال حتى تمكنوا من أعناق أهل البلاد وأثقلوهم بالديون التى لاخلاص لهم منها ونال أموال قرض الثمانى وعشرين ألف ألف مانال غيره من أموال القروض السابقة له وكثرت الديون المعروفة فى عرفهم بالديون السائرة الى حد لايمكن معه الوفاء ونضب جميع موارد الايراد والخديوى مع ذلك لاينكف عن انشاء المبانى الواسعة والقصور المشيدة والحدائق الناضرة والتغالى فى أسباب الزينة والترف والاتيان بعجائب المقتنيات من بلاد الهند والصين غير مبال بما وراء هذا كله * وكان المتولى النظر على الخزينة فى هذا الحين المشير اسمعيل صديق باشا فاعمل الفكرة فى رأب هذه الصدوع فلم يكن فى الامكان اصلاح ماكان واشتدت الأزمة واستحكمت على الخزينة حلقات الضيق وتأخر صرف الجماكى والمرتبات والعلوفات ولا سيما جماكى الجند وعلوفاتهم فطالب أصحاب الديون السائرة بديونهم وتزاحموا على أبواب الخزينة ولجوا ورموا المشير اسمعيل صديق باشا بسوء التدبير وفساد الرأى فعمد الى معالجة الداء بالداء واصطفى له من بين أصحاب تلك الديون جماعة فجعلوا يخلطون ويخبطون ويمنون غيرهم بالامانى الكثيرة ولكن على غير جدوى فانكمش أصحاب الاموال وعز على الخزينة الاستدانة وابتعد عنها من كان أقربهم اليها واشتد الطلب على المشير اسمعيل صديق باشا وقد سدت فى وجهه أبواب الحيل ولج الخديوى باصلاح الحال تعاميا وتغريرا ورسم ببيع سندات خليج السويس التى كان اشتراها محمد سعيد باشا باسم الخزينة كما تقدم القول وسامها مع قنصل جنرال الانجليز وكلمه فى شرائها باسم دولته

مطلب
بيع سندات خليج السويس الى دولة الانجليز

فاجابه

فأجابه الى ذلك وعجل بشرائها كى لايسبقه اليه قنصل جنرال الفرنسيس * فلما كان أوائل سنة اثنتين وتسعين ومائتين وألف هجرية رسم الى المشير اسمعيل صديق باشا بتسليم تلك السندات الى المستر بورج قنصل الانجليز بالقاهرة وقد كانت مودعة بالخزينة وكنت يومئذ ترجمان الباشا المشار اليه فقضيت فى تسليمها أياما فكنت أرى من الاهتمام بأمرها والتعجيل بنقلها الى عاصمة الانجليز على ظهر دارعة حربية استقدمت من الهند لهذا الغرض مالم يكن لأحد فى حساب وفرح كبار سياسة الانجليز بشراء تلك السندات فرحا عظيما وتكلم أصحاب صحف أخبارهم فى الامر ففصلوا وقاسوا وألبسوه ثوب الاطراء والمدح وعدوه من معجزات سياسة ذلك الحين ثم انقلبوا يقرعون الخديوى ويندّدون به ويرمونه بالخيانة ويسمون المشير اسمعيل صديق باشا بالتغرير وظلوا على هذه الحال أياما كثيرة لم تكن لتهدأ فيها أيضا خواطر أصحاب الديون السائرة ولا انثنى لهم عزم عن الالحاح فى طلب الوفاء * واشتدت الأزمة وانقلب أصحاب صحف أخبار الانجليز من التقريع والتنديد الى تحريض صاحب سياستهم على التداخل فى الامر والاخذ بناصر أصحاب الديون والبحث فى الاسباب المترتب عليها اعمال الخزينة ونضب الايرادات وأطالوا الكلام فى ذلك وبالغوا فلم يمض الا القليل حتى وردت الاخبار بقيام مبعوث من الانجليز يريد القاهرة اسمه المستر (كيف) وهو مزوّد بشئ من الاسرار فاهتم الخديوى لحضوره وأمر فأعدّوا قصر النزهة من ضواحى القاهرة لنزوله ورتبوا له أصناف المأكول والمشروب وبعض الخدم والحشم فلما وصل الى القاهرة لاقاه بعض رجال الديوان الخاص وأنزلوه بذلك القصر فاستراح قليلا ثم زار الخديوى بمقره بعابدين فاحسن الخديوى لقاءه وأولم له فى تلك الليلة ثم لم يلبث أياما حتى شاع خبره وتناقله الناس وقالوا ان كيف هذا جاء ومعه أوامر بعضها سرية وبعضها علانية فالسرية منها كشف الخبا من أعمال الخديوى والحامل له على السرف وانفاق الاموال الطائلة التى استدانها باسم الخزينة فى حين أن الخزينة لم تأخذ منها الا القليل وأما العلانية فهى البحث فى حساب الخزينة وتحقيق جميع أبواب الايراد والمصرف منذ تولى الولاية والاسباب الحاملة الى كثرة الاستدانة وأوجه النفع المترتبة عليها الى غير ذلك من أبواب البحث والتنقيب وقد كنت يومئذ رسول المشير اسمعيل صديق باشا الى ذلك المبعوث فكنت أؤدى رسالة كل منهما الى صاحبه وأحمل الى (كيف) الصكوك والاوراق الديوانية التى كان يطلبها من الخزينة فكنت أرى منه رجلا عاقلا رزينا واسع المعرفة وكان اذا طلب شيأ من الصكوك أو الاوراق نقبه تنقيبا فلا يتركه حتى يأتى على مافيه من صدق أو كذب وأقام على هذه الحال أياما ثم رحل عن مصر الى عاصمة الانجليز فظن الناس أنه عاد صفر اليدين والامر على غير ذلك فانه لم ينكف عن البحث والاستقصاء والاتيان على جميع الامور من أبوابها حتى عرف مالم يعرفه أقرب الناس من

مطلب
حضور كيف رسولا من قبل الانجليز للبحث والتنقيب عن الخزينه

مقام الخديوى وأعرفهم بأحوال البلاد وأهلها وقد سألني المشير اسمعيل صديق باشا عما استطلعته من أعمال كيف ونواياه مدة مكثى معه فأعلمته بما عرفته وكاشفته بما استكشفته فظن أن فى الخبر اطراء ومبالغة وان الرجل سار عنا وهو لايعرف شيأ من عوراتنا * وما جاء الخبر بوصوله الى عاصمة بلاده حتى أرسل كبير سياسة الانجليز الى الخديوى يستنهضه الى استرضاء أصحاب الديون السائرة ويحذره من انقلاب الاحوال بسبب استنجاد أرباب تلك الديون بحكوماتهم فكبر هذا الكلام على الخديوى واشتد على المشير اسمعيل صديق باشا فاشتد الطلب على الفلاحين بقبض الثلث من الخراج معجلا ثم الربع ثم ما بقى من المغارم الاخرى فلم يأت هذا كله بالغرض المطلوب واشتدت الأزمة بأكثر مما كانت عليه وبقى الحال هكذا حينا وشاع الخبر بتكدر خاطر السلطان على الخديوى بسبب مايلاقيه أهل البلاد من أصحاب الجباية وتكلم أصحاب صحف الاخبار الانجليزية فى ذلك وبالغوا وهولوا * فلما كان سابع عشرى ربيع الثانى سير السلطان سرياورانه الى مصر ومعه خط شريف باستحسان مساعى الخديو لدى الذات الشاهانية ومحظوظيتها منها مع احالة فرضة زيلع وملحقاتها على الخديوية المصرية مقابلة خمسة عشر ألف جنيه عثمانى تضاف الى الخراج الذى يحمل الى الخزينة السلطانية فى كل سنة فبالغ الخديوى فى الاحتفال بقراءة هذا الخط وطير الخبر به الى الآفاق فاستعظم الانجليز هذا الامر وكبر عليهم جدا وتجرد كبارهم الى المقاومة وخابروا كبار ساسة الفرنسيس فى ذلك وزينوا لهم الاتحاد على ما فيه المصلحة لاصحاب الديون وكان أصحاب السياسة من الفرنسيس ميالين الى الانتقام فأجابوا كبار سياسة الانجليز الى ماطلبوا وكتبوا الى الخديوى يسألونه التعجيل فى فض هذه الأزمة بالتى هى أحسن ويحذرونه شر العاقبة فناسهم وبقى الحال هكذا أياما كثيرة

مطلب حضور فرمان من السلطان باستحسان عمل الخديوى اسمعيل

وعاد أصحاب الديون الى الوقوف على باب المشير اسمعيل صديق باشا يطالبون بما لهم أو ببعض الشئ منه فلم يفلحوا فعمدوا الى الاستغاثة بقناصلهم وهؤلاء رفعوا الامر الى دولهم فظهرت لوائح الشدة وبانت دلائل الوحشة وجاء الخبر الى القاهرة بعزم دولتى الفرنسيس والانجليز على تسيير رسولين الى مصر باسم وكيلى الدائنين من رعايا الفرنسيس والانجليز وتحدث الناس فى هذا الامر فلما كانت أخريات سنة اثنتين وتسعين ومائتين وألف هجرية وصل المبعوثان المذكوران الى القاهرة ونزلا بالنزل المعروف بنزل شبرد ببركة الازبكية واعتزلا الناس كافة ولم يقابلا الخديوى الا فى اليوم الثالث من وصولهما وكلماه فى سبب حضورهما وسألاه أن لايكون بينهما وبينه وساطة ولا متكلم وان جميع طلباتهما المتعلقة بأمور يتهما انما يطلبانها من شخص الخديوى دون غيره وهو يكلم بها من شاء من رجال دولته فشق هذا الامر على الخديوى وأكبره وتحقق أن فى الجراب ما فيه وكان الانجليزى منهما اسمه جوشن والفرنسوى اسمه جوبير

مطلب حضور جوشن الانجليزو جوبير الفرنسيس لتحقيق ديون البلاد

وبالغ

وبالغ جوشن ورفيقه فى البحث والاستقصاء عن موارد الايراد وأوجه الصرف وأسباب الاستدانة وما أنفق وما لم ينفق حتى حصحص الحق وبان ولم يمض على ذلك الا القليل حتى رفعا الى الخديوى محضرا بما رأياه من أوجه الاصلاح وهى * اقامة اثنين باسم مفتشين أحدهما فرنسوى والآخر انجليزى وتقسيم أعمال الخزينة الى قسمين قسم للايراد ويرأسه الانجليزى وقسم للصرف ويرأسه الفرنسوى وسألاه التصديق على ذلك فلم يسعه الا الاذعان ورسم به فلم يكن بأسرع من أن حضر الى القاهرة ذلك الذى تولى على الايراد واسمه المستر رومين وحضر أيضا الذى تولى على المصرف واسمه البارون دى ملاريه وقبضا على زمام أعمال الخزينة وأمرا ونهيا وتصرفا واشتدا على أصحاب الجباية والمديرين وأخذا مافى يد المشير اسمعيل صديق باشا من الوظائف فلم يبق له من الرياسة الا الاسم فقط ثم رفعا الى الخديوى محضرا آخر بتسليم زمام الجمارك الى رجل من الانجليز يديرها على مافيه المصلحة وبتشكيل هيئة من ثلاثة مأمورين أحدهم فرنسوى وثانيهم انجليزى وثالثهم مصرى يختصون باشغال السكك الحديدية غير تابعين الا الى جهة واحدة هى نظارة الاشغال العمومية فرأى الخديوى أن مستعظم النار من مستصغر الشرر وأنه ان تساهل مع جوشن ورفيقه اختبط عليه الامر واختلط الحابل بالنابل وخرجت موارد الايراد من قبضته فلا يعود فى امكانه الحصول على شئ مما كان فعمد الى المراوغة والتطويل وسير الى جوشن ورفيقه يعلمهما بان مصلحة البلاد وعادات أهلها لاتجيز تسليم الامور ليد أجنبية وأنهما يتفاوضان مع المشير اسمعيل صديق باشا فى ذلك فأبيا مكالمته وألح جوشن فى الطلب وطال الاخذ والرد أياما فلما رأى جوشن عناد الخديوى واصراره على الاباءة تجرد للعداوة وأظهر ما كان يخفيه من الحقد فكان يدخل على الخديوى بعقره بلا تأدب ولا احتفال ويخاطبه بفحش القول ويتهدده بافشاء ماعلمه من خفى سره * قال بعض الكتاب * وأرسل اليه يوما رقعة يقول فيها * لقد كنت أتمنى أن لاتحدو بى مأموريتى الى حد توجيه السؤال الى شخصك الكريم عن أمر يهم دولة الانجليز معرفته ولكنى أرى نفسى مع زميلى مضطرين الى سؤالك أين صرفت الاربعة عشر مليون جنيه الباقية من قرض الخزينة والايراد السنوى من عهد المرحوم محمد سعيد باشا الى هذا الحين * قال فلما اطلع الخديوى على هذا السؤال اضطرب وكبر عليه الامر فجعل يرعد ويزبد ويتكلم كمن أصابه هذيان ثم جمع اليه رجال الدولة وأصحاب الحل والعقد من العاملين والمتقاعدين و بينهم ولده الامير حسين وهو يومئذ فى منصب تفتيش الاقاليم وشاورهم فى الامر فتكلموا فيه كثيرا ثم استقر رأيهم على تكليف المشير اسمعيل صديق باشا بالجواب على ذلك السؤال ولم يكن المشير بينهم فى تلك الليلة فكتب الخديوى الى جوشن بذلك واستدعى اليه المشير اسمعيل صديق باشا ورسم له بالجواب على سؤال جوشن فامتنع وقال لاجواب عندى البتة فشدد عليه وقال لابد من الجواب فقال ان كان ولا بد فلا جواب عندى سوى قول الحق والتزام جانب الصدق وهذه كتبك ومراسيمك تنبئك بما فعلته بتلك

الأموال وما بددته فى الحل والترحال قال فاستعظم الخديوى هذا الكلام واضطرب منه أىّ اضطراب وراجع المشير فقال لاسبيل الى غير ذلك * وعاد رسول الخديوى ومعه جواب من جوشن يقول لاحاجة لنا البتة الى السؤال من اسمعيل صديق باشا خلافا لما بيننا من العهد ولانطلب الجواب الا من شخصك فجمع الخديوى اليه محمد شريف باشا وولده الأمير حسين وبعض حاشيته ورجال ديوانه الخاص ولم يحضر معهم فى ذلك اليوم أيضا المشير اسمعيل صديق باشا وتناجوا فى الامر طويلا ثم انفض اجتماعهم على مالم تصل الينا معرفته * فلما كانت الساعة الثالثة من ليلة الخميس حادى عشرى شوال من السنة أى سنة ثلاث وتسعين حضر الى مقر الخديوى بعابدين أحد أتباع المشير اسمعيل صديق باشا ومعه مكاتبة برسم خيرى باشا المهردار وسلمه اياها ففضها واذا هى خطاب الى شخص الخديوى غاية فى الشدة وفى بيان ماأصاب خزينة البلاد من الامحال وما حل بالرعية من الضنك وسوء الحال باسباب أفاعيل الخديوى وأنه هو برىء من كل تبعة مترتبة على كثرة الاستدانة والنفقة بغير حساب وأنه قد خلع نفسه من منصب النظر على الخزينة واعتزل من ذلك اليوم الوظيفة وترك الامر لمن بيده سبحانه وتعالى تدبير سائر الامور فدخل خيرى باشا على الخديوى وناوله الخطاب فهاج عند رؤيته وماج وصاح علىّ به الساعة فسار اليه خيرى باشا يستدعيه فامتنع ولم يحضر فجاء اليه طونينو بيك أحد رجال التشريفات فامتنع أيضا فارسل اليه أحد نشأت بيك فامتنع وبات ليلته تلك وأصبح يوم الخميس فجاء اليه خيرى باشا واجتمع به وجلس يكلمه ساعة ثم قاما معا وسارا الى مقر الخديوى بعابدين فلما دخل على الخديوى أحسن لقاءه وبش فى وجهه وعاتبه وتلطف فى عتابه ثم مازحه وقضى معه ذلك اليوم ثم انصرف المشير اسمعيل صديق باشا من عنده فى نحو الساعة الثالثة ليلا وفى ثانى يوم الجمعة صباحا جاءه رسول الخديوى يدعوه كالعادة فسار معه الى عابدين وصعد الى مقر الخديوى فلم يلبث الا قليلا حتى جاءت عربة الخديوى أمام سلم الديوان وحولها طوائف الحرس على عادتهم ثم انحدر الخديوى ومعه المشير اسمعيل صديق باشا وركبا معا فسارت العربة بهما فى الساعة الرابعة نهارا من الطريق الموصل الى قصر النيل فكانت هذه الساعة آخر العهد به رحمه الله تعالى

وعقد الخديوى فى تلك الليلة مجلسا بمقره بعابدين اجتمع فيه جميع رجال الدولة وأصحاب الوظائف العالية والعلماء والمشايخ ومفتى الديار المصرية وتكلموا فى أمر المشير اسمعيل صديق باشا وأسندوا اليه فعل مالايحل من العصيان والكيد على الخديوى وحرروا محضرا بذلك وحكموا بتبعيده الى دنقلة احدى مدائن السودان ووقعوا جميعا على ذلك المحضر فلم يعلم الناس الى هذا اليوم شيأ مما جاء فيه غير ماقلناه وقد قفلت دونه من تلك الساعة أبواب الوصول * حدثنى صاحب لى * قال أو ظننت صدق الخبر القائل بتسيير المشير اسمعيل صديق باشا الى دنقلة وموته بها مبطونا * قلت نعم هو الصدق الذى لامراء فيه فقال اعلم أنه لما ركب الخديوى مع المشير

العربة من رحبة عابدين سارت بهما والجند تخفرها الى قصر النيل وكان به الامير حسن ونساؤه يومئذ فلما وقفت بهما عند السلاملك التفت الخديو الى المشير وقال تبقى هنا قليلا حتى أزور ولدي وأرجع اليك فنزل المشير وجلس برهة لطيفة واذا بالامير حسن قد أقبل وهو يتلكأ في مشيته وسلم فقام المشير اجلالا له وحياه فنظر الامير اليه وقال قد رسم الخديو الساعة بالترسيم عليك هنا تحت حراسة هؤلاء الجند حتى تأتي الباخرة التي ستقلك الى دنقلة مبعدا فقال وما سبب ذلك يامولاي وأي ذنب جنيته وأنا أصدق الناس في خدمة أبيك وأشفقهم عليه وأطوعهم لاشارته فقال لست أدري ويعلم الله هل لك من حاجة تسألنيها ففاضت عينا المشير بالدمع وقال لاشئ أسألك وانما أسأل الله الرحمة بي ثم نادى بأعلى صوته * ياغياث أغث عبدك وسكت وكانوا قد دبروا أمر تبعيده وأعدوا لذلك باخرة من بواخر النيل وأرسوها تحت القصر وحولها الجند تحرسها وقد أنزلوا اليها بعض المأكول والمشروب والمفروش وجماعة من الخدم والاتباع وطائفة من الجند ومقدمهم اسحق بيك أحد الضباط الشراكسة ثم عاد الامير حسن وخلفه الامير حسين ودخلا على المشير فوجداه هادئ اللب ساكن القلب فقال له الامير حسن قم فقد تم كل شئ فهم يريد القيام فلم يقدر فأمسك الامير حسن بيده وخرج به من المكان وسلمه الى اسحق بيك مقدم العسكر المكلفين بحراسة الباخرة ومصطفى فهمي باشا محافظ المدينة يومئذ

قال الراوي لهذه العبارة وسمعت ممن يدعي أنه رأى المشير وهو خارج من المكان بين الاميرين حسن وحسين أن الامير حسين لما رأى جبنه وخور عزيمته لطمه على وجهه وقال له لقد خانتك الايام بالشيم فاذهب * قال وعندي أنه لم يحصل شئ من ذلك فقد كان لوقوع هذا الامر الغريب في ذلك الحين دهشة عند القريب والبعيد ولما أنزلوه الى الباخرة أحاط بها الجند من كل جانب وأوصدوا جميع مابها من الشبابيك وأرسوها في وسط النيل فكان المشير يصيح وينادي كل قليل كأنه في غرفة نومه ثم كثر هذيانه واشتدت جلبته وما زالت الباخرة في مرساها والناس يسمعون صياحه حتى غربت الشمس فأقلعت وسارت ببطء قاصدة الاقليم القبلي ولم تسر قيد ربع فرسخ من قصر النيل حتى خفي صوت المشير ولم يعلم ماذا جرى عليه بعد ذلك ثم سارت الباخرة عند شروق الشمس مترفعة الى الصعيد وقد طيروا الخبر الى الآفاق بعدم دنو أحد منها ولا خروج أحد منها الى البر فسارت في عرض النيل سيرا حثيثا وما زالت والناس في ريب من صحة الخبر حتى وصلت الى أسوان فنزل من الباخرة رجل على رأسه شملة من صوف وركب على جمل وساروا به على هذه الحال الى دنقلة ونزلوا بها أياما قلائل ثم أذاعوا خبر موت المشير مبطونا وعملوا محضرا بذلك بشهادة قاضي دنقلة ومديرها وبعض مأموري الحكومة فيها وعادوا الى القاهرة وقد شوهد في سبابة اسحق بيك اليمنى جراحة عظيمة فشاع خبر تلك الجراحة وتحدث الناس في أمرها وقالوا بأنها دليل على مقتل ذلك الشهيد

رحمه الله تعالى رحمة واسعة * قال وأصبحوا ليلة القبض عليه وقد وصل خبر ما حل به الى نسائه فقام الصياح واشتد العويل والبكاء وهرعت جميع النساء العائشات فى نعمته الى دوره وأقن الصياح والندب فاشتدت الجلبة وعلت الاصوات فكانت ساعة تنفطر من هولها الاكباد وجاء رجال ديوان الخديوى الخاص ونفر من قومه الذين اصطفاهم لنفسه ودخلوا على نساء وجوارى المشير وأخذوا جميع مافى الدور من تحف وأعلاق وأموال وأوراق الديون المعروفة باسم (بونات الخزينة) وكانت كثيرة ونقلوا جميع ماوجدوه من الامتعة الغالية وأدوات الزينة الفاخرة وأخرجوا جواريه وسراريه وفرقوهن على بعض عامة الناس ومشايخ القرى ونقلوا جميع نسائه وذراريه الى دار فى خطة التبانة تحت قلعة الجبل وشرّدوا مماليكه وغلمانه وخصيانه وأقصوا بعضهم الى أقاصى السنار والدارفور وضيقوا على خزندارته واثنتين معها ليدللن على خبايا المشير وأمواله ونقلوهن الى سراى الزعفران بالعباسية فلم يعترفن بشئ وقلن ان جميع ما كان له قد نقله أعوان الخديوى وأتباعه * وجاء أصحاب بيت المال فأحصوا مابقى من فرش وبسط وغير ذلك وضبطوه وبالغوا فى الضبط والتحرير فقام كل من كان له دين على المشير يطالب بما له وقد استبدل درهمه بدينار واشتد الطلب من كل صوب وحدب فعينوا لعمل حساب تركته عمدة من أصحاب الوظائف فأحصوا مالأصحاب تلك الديون وسجلوه وادعى الامير حسين ثانى أولاد الخديوى بأن للخزينة على المشير قدرا من المال له صورة وكان قد تولى نظارة الخزينة بعد خلع المشير فأجابته العمدة الى ماطلب وجعلوا يبيعون ما أحصوه من فرش وبسط وطنافس وأسرة ومقاعد وكراسى وأوانى فاخرة وغير ذلك فاشتراها بعض صغار الناس وبعض السوقة بأبخس الاثمان وظلوا على هذه الحال أياما ربح فيها من ربح وخسر من خسر وقليلون ويعلم الله هم الخاسرون وانقضى الامر وقد جمع ماترك من متاع وزروع ودور وهى من أحسن الدور وأفخرها وأوسعها وأجملها زينة فأعطى الخديو واحدة منها الى المشير محمد شريف باشا فانتقل اليها بعياله ورسم بجعل الاثنتين الاخريين مقرا لبعض دواوين الحكومة فأنزلوا فيهما الخارجية والحقانية والخزينة والداخلية وهى باقية فيها الى يومنا الذى نحن فيه فسبحان من يرث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين

قلت وقد كان بين المشير اسمعيل صديق باشا وبين أحد رجال دار الندوة الانجليزية مودة وصحبة كبيرة فكان اذا أتى الرجل الى القاهرة أيام الشتاء تبديلا للهواء على عادة كبار الانجليز لازم المشير وبالغ فى التقرب منه فاتفق أنه حضر الى القاهرة فى غضون الأزمة القائمة بسبب فعال جوشن وجوبير فاجتمع بالمشير اسمعيل صديق باشا وكلمه فى أمر بعثة جوشن ورفيقه وقد كنت يومئذ ترجمانهما وكاشفه على كثير من المسائل المهمة التى لامحل لها هنا ونصح له أن يلتزم جانب الحزم عند الحاجة وأن يدفع عن نفسه بالتى

هى فقال له المشير انى عزمت على خلع نفسى وترك منصبى فيوليه الخديو من يشاء من أولاده فان منهم من يزاحمنى عليه أشد المزاحمة قال ومن هو قال هو الامير حسين فاذا تخليت عن المنصب واعتزلته وجاءنى الطلب من جوشنكم * يريد جوشن الانجليز * وسألنى عما أعلمه من أمر المصرف والايراد وكيفية الاستدانة ولا أظنه الا فاعل ذلك أطلعته على ماظهر من الامر وما خفى وأعلمته بكل ما علمته من أفاعيل الخديوى مذ تولى الى هذا الحين فيخفف عنى ما ألاقيه من اضطراب الحال و بلبلة البال وأكون قد وفيت الذمة حقها والله يتولانى برحمة منه * فقال له أو تأمن شر الخديوى والله لئن فعلت ذلك ليقتلنك شر قتلة وانى أراه داهية غادرا خداعا يظهر غير مايبطن فقال لم يبق فى قدرته فعل شئ من ذلك بعد أن نلت رتبة المشيرية فانا اليوم رجل السلطان لى ما للخديوى نفسه وعلىّ ماعليه * فقال الرجل لايغرنك هذا الامر فسلطانك فى شاغل عنك بما لديه من المشاغل المهمة والخطوب المداهمة فلا تعجل فى الامر واحذر التقرب من جوشن حتى يظهر الحق ويزهق الباطل ثم افترقا على ذلك فلما رفع المشير قصته الى الخديوى وقد تهدده فيها بتبليغ جوشن جميع مايعلمه من أمره كما تقدم الكلام سير الى صاحبه المشار اليه فجاء فقال لى قل له انى خلعت نفسى واعتزلت المناصب وأوعدت الخديوى شرا فقد عيل منى الصبر واشتد بى الأمر ولم أر لى خلاصا الا فيما فعلت فماذا تقول * فبهت الرجل وظهرت عليه علامات الدهشة وسكت برهة ثم قال قد قضى الأمر وغدر بك صاحبك فقال لى قل له لاتخش من ذلك فانه الله غالب على أمره ثم افترقا على ذلك فلما شاع الخبر بتبعيد المشير الى دنقلة ذهب الرجل فى صباح الليلة التى أنزلوا فيها المشير الى الباخرة ودخل على الخديوى وتقدم اليه فى أن لايصيب المشير أدنى ضرر فقال له الخديوى أخشى أنه يقتل نفسه بنفسه فانه مابرح منذ أنزلوه الى الباخرة وهو يشرب الخمر بالطاس ولا ينكف عنها فربما عجلت بموته فخرج من عنده حزينا * واتفق أنى قابلته فى ثانى يوم فسلمت عليه فوجدته مقطب الوجه كاسف البال فرد علىّ السلام وقال قتل صاحبى و يسلم الله قلت ومن أين أتاك علم ذلك قال كنت البارحة عند الخديوى أرجوه أن لايصيب المشير ضرر فقال لى كيت وكيت فتحققت أنه مات لامحالة

وتقدم الامير حسين الى الخديوى فى طلب منصب النظر على الخزينة بدلا من المشير اسمعيل صديق باشا فولاه اياه فلم يستقر به حتى جعل يعزل ويولى ويتصرف فى صغير الامور وكبيرها ولم يقدر على ارجاع جوشن ورفيقه عن عزمهما من اقامة موظفى الجمارك والسكك الحديدية كما شاآ وقد عاودا الطلب والتزما جانب الشدة فلم ير الخديو بدا من الاذعان ورسم بذلك فى أخريات شوال سنة ثلاث وتسعين ومائتين وألف هجرية أى سنة ست وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية ومع هذا فلم يقف بهما الطلب عند هذا الحد بل طلبا أيضا اقامة مراقبين من جانب الدولتين الانجليزية والفرنسوية على جميع أعمال الحكومة فلا يبرم

أمرا الا بمشورتهما ولايعمل عملا الا برأيهما بحيث يبقى منصبهما دائما لايتزعزع واقامة عمدة من جميع الدول يكون من اختصاصها اجراء جميع الاعمال المتعلقة بديون الخزينة ومراقبة تحصيل الاموال الاميرية وصرفها الى أصحاب الديون فى آجال ضربت لذلك فرسم الخديو بتنفيذ جميع ذلك صاغرا وحضرت العمدة الى القاهرة فأنشؤا لها مكانا مخصوصا سموه * صندوق الدين * وتسموا هم كذلك باسم أعضاء صندوق الدين وجعلوا يتصرفون فى الامور فجمعوا اليهم جميع ايراد المديريات والمصالح الضامنة لدين الخزينة وتسيطروا على جميع الاعمال الخاصة بأصول وفروع الديون فلما تم لجوشن ورفيقه ماأراد عادا الى بلادهما يظنان الخلاص مما مضى والغلبة فيما هوآت وقام أصحاب صحف الاخبار من الانجليز والفرنسيس يثنون عليهما بكل لسان ويقولون انهما انما أقاما بحكمة منهما دون تطاول يد الخديوى الى أموال الخزينة سدا قوى البنيان فلم يكن فى الامر شئ من ذلك البتة اذعاد الخديو الى العبث بموارد الايراد وأهمل كل عهد وميثاق وجعل يحمل منها ما شاء من الاموال الى خزائن زروعاته وبعضها الى خزينته الخاصة وأعضاء صندوق الدين ثملون بخمرة وظائفهم هذه العالية ومرتباتهم الفادحة التى لم تكن تخطر لاحدهم على خاطر ولم يمض على ذلك الترتيب والنظام الجوشنى الجو بيرى سوى بضعة أشهر حتى ظهر العجز فى الايراد زهاء ثمانمائة ألف وعشرين ألفا ذهبا وتعذر القيام بمطالب أصحاب الديون السائرة فى آجالها وعادت الازمة بأشد مما كانت عليه فتزاحم أصحاب تلك الديون على أبواب الخزينة وأكثروا الالحاح واللجاج وصاح بعضهم فى وجه الامير حسين وخاطبه ببذئ الكلام وفحش القول وأقاموا الدعاوى على الخزينة أمام المحاكم المختلطة فحكمت وشددت فى التنفيذ وجرت على الكثير من موارد الحكومة وأملاكها فاشتد الضيق بالخزينة واستحكمت حلقاته وزادت الامور خبالا واشكالا وأنفذت دولة الانجليز الى المستر فيفيان قنصلها الجنرال بمصر أن يكلم الخديوى فى الامر ويسأله سرعة القيام بمطالب أرباب تلك الديون قبل استفحال الخطب وتفاقم الضرر فلم يلتفت الخديو الى ذلك ولم تقصر يده عن أخذ كل ما وصلت اليه من أموال الخزينة وبقى الحال هكذا أياما قد وقف فيها دولاب التجارة وضاقت على أهل البلاد مسالك الرزق

مطلب المؤامرة على قتل السلطان عبد العزيز

وبينما كانت الازمة فى مصر تشتد والحال فى ارتباك وخبال كانت الفتنة فى دار السلطنة قائمة على قدم وساق ورجال الدولة وأصحاب الحل والعقد فيما وراء باب السلطان يعملون على خلعه ويحزبون الاحزاب ويهيؤن العصب ويفتحون للفتنة أوسع الابواب * قال بعض الكتاب * وتحرير الخبر * أنه لما أحس السلطان بمكايد الانجليز واتخاذهم رجال الدولة وكبار السلطنة آلة صماء فى أيديهم يهددون بها دولة الروس كلما رأوا منها تقدما نحو أملاكهم الهندية أو تعطيلا لرواج تجارتهم الآسيوية فتخسر السلطنة العثمانية باسباب ذلك من الرجال والاموال والبلدان مالا يمكن معه بقاء عين أوأثر لمملكة آل عثمان

ففطن الى الأمر وهمّ بمداركة الخطر ومال عن معاضدة الانجليز وأبغض سياستهم بغضا شديدا وتقرّب من قيصر الروس على يد سفيره الامير أغناتيف ففرح القيصر بذلك وتحبب الى السلطان وترددت بينهما رسل المودّة والتسليم وتكاثرت رسائل المحبة وتناسيا مابين الأمتين من العداوة القديمة وتعاهدا على كبح جماح الانجليز وابعادهم عن أن ينالوا من السلطنة العثمانية بسياستهم ما كانوا ينالونه من قبل ودبرا لذلك تدبيرا حسنا للغاية فعلمت عيون سفير الانجليز بالخبر وأعلمته به فخافه جدا وسيربه الى كبير سياستهم فجاءته الرسائل بالتيقظ ودقة الالتفات فبث العيون والارصاد حول الامير أغناتيف وتجرد الى المقاومة وجعل يستميل كبار الدولة ويشتريهم بالذهب الرنان ثم كلمهم فى التدبير على خلع السلطان والتخلص منه فالوا اليه وباعوا آخرتهم بأبخس الاثمان وكان ممن وافقه على ذلك نورى باشا ومحمد جلال الدين باشا صهرا السلطان عبد الحميد سلطان هذا الوقت ومحمد رشدى باشا الصدر الاعظم وعونى باشا وقيصرلى أحمد باشا وخير الله أفندى شيخ الاسلام ومدحت باشا رئيس شورى الدولة وبقى هذا السر مكتوما بينهم حينا كانوا يحزبون فيه الاحزاب ويهيؤن لايقاد نار هذه الفتنة أعظم الاسباب حتى تم لهم ما أرادوا ثم سلموا الامر بعد ذلك الى محمد رشدى باشا ومدحت باشا وحسين عونى باشا وخير الله أفندى شيخ الاسلام وانضم الى عصابتهم أيضا السلطانة والدة مراد أفندى بكر أولاد السلطان عبد الحميد وجماعة من المابين وبعض كبار جند الحرس وهم نجيب بيك وعلى بيك وفخرى بيك وسعيد بيك ورضا بيك وغيرهم وجعلوا يتحينون الفرص ويتبينون انتفاعها وسفير الانجليز يمهد لهم العقبات فلما أحكموا التدبير عمد الصدر الاعظم الى الادعاء على السلطان بالدعاوى العريضة واتهمه بمحالفة العدوّ والتفريط فى أعظم حقوق الامة والوطن وتعريض حقوق الخلافة الاسلامية الى الضياع والتعاقد مع قيصر الروس على ادخال جيش من الروس فى قلب دار السلطنة للفتك بكبار الدولة وأركان الملة وانه خالف عوائد أسلافه السلاطين وحاكى جماعة الفرنجة فى عاداتهم ومجتمعاتهم وغير ذلك ورفع الى شيخ الاسلام هذا السؤال وهو

اذا كان زيد الذى هو أمير المؤمنين قد اختل شعوره فصار لاقدرة له على سياسة الامة وهو مع ذلك ينفق أموال الخزينة فى ملاذه الذاتية ومنافعه الخصوصية الى حد لاتطيق الامة الصبر عليه وقد زاغ عن الحقائق الدينية وأخل بالامور الدنيوية وكاد يقلب هيئة الملك ويهدم أركان السلطنة وكان بقاؤه ضررا فهلا يصح خلع بيعته

﴿الجواب﴾ يصح كتبه الفقير حسن خير الله عفى عنه

فلما كان يوم الاثنين سادس جمادى الاولى سنة ثلاث وتسعين ومائتين وألف هجرية أى خامس عشرى مايو سنة ست وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية هموا بخلع السلطان وأناطوا حسين عونى باشا بتدبير أمر ذلك وكلفوا شيخ الاسلام مع بقية رجال الدولة وزعماء العصابة بمبايعة السلطان مراد بن السلطان عبد المجيد خان فأنفذ الصدر الاعظم الى أمير

سفن الحرب السلطانية بالتأهب والاستعداد فجعل يرتب سفنه على هيئة حصار لمقر السلطان وشاهد السلطان ذلك من بعض نوافذ مقره فاستغربه وسير الى أمير السفن يستعلم عن سبب تلك الحركة الفجائية فأجاب بأنه ليس فى الامر مايستوجب الخوف وانما هى مناورات لابد منها وعلم الصدر الاعظم ومدحت باشا بسؤال السلطان عن حركة السفن أمام مقره فخشيا أن يفتضح أمرهم ويتضح ماخفى من سرهم فلما كانت الساعة الثانية من غروب ذلك اليوم اجتمع زعماء العصابة فى باب السرعسكرية وخرج رديف باشا فى ألفين وخمسمائة من الجند وأحاطوا بسراى السلطان احاطة السوار بالمعصم وتسلم سليمان باشا حراسة أبوابها بمائة من تلامذة المدرسة الحربية وهم على ظهور الخيل ثم خرج حسين عونى باشا فى عربة وسار الى مقر السلطان مراد وأنزله وأركبه فى العربة وهو لا يدرى ما الخبر فانزعج واشتد به الخوف حتى كاد يغمى عليه فلما وصلا الى باب السرعسكرية لاقاهما شيخ الاسلام والشريف عبد المطلب وأخذا بيد السلطان مراد وهو يضطرب وكان رجال الدولة وكبار السلطنة وجميع أصحاب الحل والعقد وكبار الجند وقوفا على الاقدام فاجلسوا السلطان مراد على كرسى وحوله زعماء العصابة وتولى جماعة من العسكر حراسة الابواب كى لا يخرج ممن حضر أحد وقام شيخ الاسلام فبايع السلطان وبايعه جميع الامراء والكبراء ورجال السلطنة وكبار الجند وهو مع ذلك لايتمالك نفسه مما لحقه من الخوف والفزع ووصل الخبر الى رديف باشا بتمام البيعة الى السلطان مراد فلم يشعر السلطان عبد العزيز الا وقد دخل عليه رديف ونفر من كبار ضباط الجند فاضطرب واستكبر الامر جدا وقال كيف تأتون الىّ فى هذه الساعة بغير اذن فقال رديف باشا أتينا لنخبرك بأن الامة خلعت بيعتك فقال كيف يكون ذلك وصاح فى وجوههم فقال له رديف باشا انظر من الطاق فنظر واذا بالجند قد أحاطت بمقره ومدافع مراكب البحر موجهة نحوه قيل فبكى وقال أو أنتم فاعلون بى شيأ الساعة فقالوا لا وانما سنقوم بحراسة أبوابك حتى ينقل بك الى سراى طوب قبو وفى نحو الساعة الحادية عشرة ليلا أطلقت المدافع من البر والبحر ونادى المنادون فى الشوارع والطرقات بخلع السلطان عبد العزيز وولاية السلطان مراد ابن أخيه فهرع الناس من كل صوب وحدب الى باب السرعسكرية وأصبحوا وقد نقلوا السلطان عبد العزيز من مقره الى سراى طوب قبو فذهبت معه السلطانة والدته وولده يوسف عز الدين أفندى وباقى أولاده ونساؤه فأقامت والدته فى حجرة بجانب حجرته خوفا عليه من فعال الاعداء وقد وكلوا بحراسة السراى نفرا من الجند ومعهم نجيب بيك وعلى بيك وهما من أصحاب الفتنة * قال أحد كتاب الأخبار * ولما تم نقل السلطان عبد العزيز الى ذلك المكان وقد نقلوا معه جميع متاعه ومقتنياته اجتمع جلال الدين باشا ومدحت باشا ونورى باشا وبقية أصحاب

الفتنة فجعلوا يدبرون أمر قتل السلطان عبد العزيز وأرسلوا الى نجيب بيك وعلى بيك فى أمر ذلك

واشتد القلق بالسلطان عبد العزيز من بقائه فى سراى طوب قبو وتطير من ذلك فكتب فى عاشر جمادى الاولى الى ابن أخيه السلطان مراد يقول * بعد اتكالى على الله سبحانه قد وجهت اعتمادى عليك فأرفع اليك مراسم التهانى بارتقائك تخت السلطنة وأبين لك مابى من الأسف على أنى لم أقدر على القيام بخدمة الامة كما تبغى ولكنى أؤمل أنك تبلغ هذا الارب وانك لاتنسى انى بذلت كل ما فى وسعى لصيانة المملكة والذب عن شرفها وأوصيك أن تذكر أن من صيرنى الى ما أنا فيه الآن انما هم الجند الذين سلحتهم أنا بيدى وحيث انى كنت كثير الرفق بالمظلومين ميالا الى معاملتهم بالمعروف فأرغب اليك أن تأذن بنقلى من هذا المكان الضيق الذى أنا فيه الآن الى مكان آخر وانى أهنئ نفسى بانتقال الخلافة الى ذرية أخى السلطان عبد المجيد خان ❁ فرسم السلطان مراد بنقله الى سراى أخرى فلم يمكث بها غير بياض يومه ذلك وفى المساء أدخل نجيب بيك وعلى بيك المتوليان حراسة المكان جماعة هم مصطفى البهلوان ومصطفى الجزايرلى وأربعة من الخصيان الى مقر السلطان وأخفوهم عن الناس فلما كانت الساعة الثالثة ليلا دخل عليه أولئك القوم ومعهم اثنان أحدهما اسمه فخرى بيك والثانى اسمه الحاج أحمد أغا فتقدم فخرى بيك وأمسك بكتفى السلطان وقبض مصطفى الجزايرلى والحاج أحمد أغا على ساقيه وتقدم مصطفى البهلوان وأمسك باحد ذراعيه وقطع أوردته بمقراض ثم فعل كذلك بالثانى وما زالوا به وهو يصيح ويستغيث حتى خرج جميع دمه ومات فلفوا جثته بقميص أبيض وحملوها الى حجرة قهوة وجاق الحرس السلطانى وألقوها على حصيرة كانت هنالك وقد شاهدت بعض ماحل بالسلطان جارية من جوارى والدته فصاحت واستغاثت فصاح لصياحها سائر الجوارى واشتد الصياح والعويل وعلت الضوضاء وكانت والدة السلطان قد خرجت من حجرتها لقضاء حاجة فجاءت مسرعة لترى ماحل بولدها وفلذة كبدها فلم يمكنوها من ذلك وأخذوا فى حمل متاعه ومقتنياته وما كان عنده من تحف وأعلاق ثمينة الى مقر السلطان مراد وكان مما أخذ من عنده سيف السلطان سليم فاتح مصر وهو من أشهر السيوف عند سلاطين آل عثمان وباتوا على تلك الحالة وأصبحوا وقد حضر الى محل الجثة بعض الوزراء وكبار الدولة وبعض المشايخ والعلماء ووكلاء سفارات الدول وطبيب سفارة الانجليز ومار كو باشا رئيس المدرسة الطبية السلطانية وغيرهما من كبار الاطباء وكشفوا على جثة السلطان وبحثوا عما فيها فاختلفت كلمتهم وتحاجوا وطال بينهم الجدال وقال طبيب سفارة الانجليز ان السلطان هو القاتل لنفسه ووافقه على ذلك بعض الاطباء وقال رئيس المدرسة الطبية بل قتل عمدا ووافقه على قوله بعض الاطباء واشتد الجدال بين الفريقين وأبى رئيس المدرسة الطبية أن يوقع على محضر الكشف وأصر على

الاباءة وقد شوهد فى جثة السلطان طعنة خنجر فى جانبه الايسر وبعض خدوش فى فه وذهاب احدى أسنانه بضربة شديدة على فه واشتد اللجاج بين جماعة الاطباء ساعة ثم أشاروا بدفن السلطان فدفنوه فى مشهد حافل للغاية ولم يكن حديث الناس طرا يومئذ الا أنه مات شهيد التقرب من قيصر الروس وتناقل هذا الحديث أصحاب صحف الاخبار الروسية وقالوا وعادوا وبالغوا فى الشكوى نخاف رجال الدولة وخشوا العاقبة فأشاعوا أن قد أصاب السلطان أمراض عقلية بسبب تنزيله عن عرش السلطنة فاضطربت من ذلك اليوم أحواله وتبلبل بلباله فكان يتخيل له أن السفن راسية فى بغاز المدينة تراسل رمى القنابل على العدو واشتد به هذا التخيل الى حد أذهب نومه فى الليلة التالية لخلعه وأصبح فذهب الى الحمام على عادته ثم خرج منه ونزل الى البستان ثم عاد وأمر بعض الجوارى بفتح سائر الشبابيك والابواب ففعلن فتركهن وخرج الى البستان ثم عاد ثم خرج ثالثة ثم عاد ثم أراد الخروج من الباب الموصل الى البحر وفى يده غدارة فمنعه الموكل بحراسة الباب فتهدده بتلك الغدارة ثم عاد الى حجرته وقد اشتدت به الاعراض وكثر هذيانه فصار يتخيل أن عدوا هاجم عليه فيصيح على الجند والحراس بان تطارده وعلى السفن بان تمنعه قالوا ثم طلب من بعض الجوارى أن تأتيه بمقراض ومرآة ليهندم لحيته فأحضرتهما له من والدته وانصرفت عنه فتأمل فرأى والدته تنظر من وراء الباب فصاح عليها وأمرها بالانصراف ثم حضر عنده بعد ذلك أحد قرنائه وجلس معه برهة فجعل يقص عليه خبر العدو الذى كان يتخيله ولزوم مقاتلته وفى أثناء الحديث أخذ المقراض وقطع به عرقا من أوردة ذراعه الايمن ففهم الرجل بمنعه فلم يقدر فأسرع الى والدة السلطان ليخبرها بالخبر فقام السلطان فى الحال وأقفل الباب وجميع شبابيك المكان وقطع عرق ذراعه الايسر أيضا ونام على فراشه حتى خرج دمه ومات * ويروون عنه غير ذلك أيضا مما لا يسعنا ايراده هنا * وعظمت الفتنة بعد موت السلطان عبد العزيز وكاد يتطاير شررها الى سائر الايالات وتظاهر جماعة من أصحاب الكلمة المسموعة والرأى المحمود فى دار السلطنة بالتشيع اليه والرغبة فى الاخذ بثاره نخاف أصحاب الفتنة وبالغوا فى الحيطة وعملوا على تفريق القوم مااستطاعوا وأوعزوا الى بعض أصحاب صحف الاخبار التركية فحملوا على السلطان عبد العزيز حملة منكرة ورموه بالمروق عن الدين واذهاب كرامة سائر المسلمين ووسموه بالخبال وذهاب العقل وأكثروا من الجلبة والضوضاء حتى تخيل للناس أن أصحاب الفتنة فى حل مما فعلوه * ومما سيتلى عليك من تحقيق حادث خلع السلطان عبد العزيز وموته وما جرى فى شأن ذلك فى خلافة السلطان عبد الحميد سلطان هذا الوقت تعرف أى القولين اصح وأى الحجتين أقوى وأشد فتحكم اما لاصحاب الفتنة واما عليهم والله يحكم بينهم وهو أحكم الحاكمين

مات السلطان فكانت مدة سلطنته زهاء خمس عشرة سنة وله من العمر اثنتان

وستون

وستون وقيل خمس وستون سنة وكان كبير المعرفة واسع الدراية ميالا الى خير الرعية وايراد البلاد موارد التقدم والعمران بعيد العسف غير متعجب ولامشاغب مبغضا للانجليز وسياستهم عاملا على التخلص منهم جهد الاستطاعة فلم يبلغ مأربا ومات شهيد جرأته رحمه الله برحمته الواسعة

ومات فى أيامه ديمتريوس بطرك المتأصلين بعد أن أقام سبع سنين وكان شهما عاقلا محبا للعلوم فاعتنى بترتيب المدارس وبالغ فى وضعها على النحو الذى نحاه كيرلس مؤسسها فأعانه الخديو على ذلك وأقطع المدارس أرضا واسعة فأوقفت على عمارتها وتوسيع نطاق العلوم فكانت لها أعظم عضد ولما مات خلا الكرسى بعده أشهرا ثم أقيم كيرولس وهو الثالث عشر بعد المائة وأصله من بلدة تزمنت باقليم بنى سويف واسمه يوحنا من رهبان دير البراموس ببرية شيهات وهو بطرك المتأصلين الآن وله من الاعمال المبرورة والآثار المشكورة ماسيذكر فى محله ان شاء الله

الفصل الرابع والعشرون

(فى سلطنة السلطان مراد ابن السلطان عبد المجيد خان)

وقام بالامر بعد السلطان عبد العزيز السلطان مراد ابن السلطان عبد المجيد بويع بالملك يوم خلع عمه عبد العزيز سابع جمادى الاولى سنة ثلاث وتسعين ومائتين وألف هجرية أى سنة ست وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية ولم يمض على ولايته الابضعة أيام حتى ظهرت عليه علامات الضعف ووهن العزيمة قيل وكثر هذيانه فكان يميل الى العزلة والانفراد ويخاف من كل شئ و يضطرب لاقل شئ يراه أو يسمع به * وكان ليوسف عز الدين أفندى ابن السلطان عبد العزيز ياور لركابه فى أيام أبيه اسمه حسين بيك ابن اسمعيل بيك أحد أمراء الجراكسة الذين هاجروا الى دار السلطنة وكان حسين بيك هذا طاغية شديد البأس جبارا وحسين عونى باشا السرعسكر يعلم حال حسين بيك ويخشى عاقبة بقائه فى دار السلطنة بعد موت السلطان عبد العزيز فرسم بتسييره الى بغداد ليتولى رياسة فريق ممن بها من العسكر السلطانى وأرسل اليه الفرمان بذلك فامتنع فأمر بحبسه فحبسوه أياما ثم عاد فأظهر الطاعة والرغبة فى الرحيل الى بغداد وطلب مهلة يومين فأمهلوه فلما كان صباح يوم الخميس ثالث عشر جمادى الاولى خرج حسين بيك هذا من داره متسلحا بخنجر وأربع غدارات مسدسة وسار يريد منزل حسين عونى باشا وسأل عنه فقيل له انه فى بيت مدحت باشا فسار الى بيت مدحت وسأل الخدم عن عونى باشا فقالوا انه مع بقية الوكلاء فى مجلس مخصوص فاعلمهم بان معه تلغرافا يتعلق بباب السرعسكرية يريد توصيله الى عونى باشا فأغضوا عنه فلبث برهة لطيفة ثم صعد الى حيث

مجلس الوكلاء وأراد الدخول فمنعه حارس الباب فسأله حسين بيك ومن أنت قال سالم أغا خادم الصدر الاعظم فقال ادع الىّ خادم عونى باشا فانى فى حاجة الى لقاء مولاه الساعة فذهب سالم أغا وترك الباب فدخل حسين بيك فى الحال الى المكان الذى فيه الوكلاء وقصد حسين عونى باشا فلما دنا منه أطلق عليه غدارته طلقتين فأصابتاه فقام ليدفع عن نفسه فانخرط عليه حسين بيك بالخنجر وطعنه عدة طعنات ثم أطلق عيارا على محمد راشد باشا فأصابه فى عنقه فمات لساعته ومال على قيصرلى أحمد باشا أمير سفن الحرب فقام وأمسكه بيده فأثخنه بالجراح وقد تمكن قيصرلى أحمد باشا وبقية الوكلاء من الهرب الى بيت النساء وأغلقوا دونهم الابواب وجاء أحمد أغا خادم الصدر الاعظم مسرعا وهجم على حسين بيك ليقبض عليه فصرعه حسين بيك قتيلا وقصد كسر الباب الذى حال بينه وبين بقية الوكلاء فلم يفلح فجعل يكسر المصابيح وأخذ شمعة ليوقد بها الاستار كى يحترق جميع المنزل ليتمكن من الفرار فلم يقدر اذ جاءت طائفة من العسكر وكبسوا عليه وأمسكوه وقد قتل أحد العسكر وشكرى بيك ياور ركاب الصدر الاعظم وزجوه ليلته تلك فى السجن وأصبحوا وقد عجلوا بالحكم عليه بالتجريد والقتل شنقا * فلما كان فجر يوم السبت أتوا به بين طائفة من الجند وعلقوه على شجرة فى ميدان بايزيد وبقى معلقا الى يوم الاثنين * قال بعض الكتاب وكان عند عمل التحقيق معه ساكن القلب هادئ اللب لم تأخذه أخذة من الخوف وكان يظهر الاسف على من مات من ضباط العسكر والعسكر ويقول وددت لو أنى أذقت قيصرلى أحمد باشا أيضا كأس المنون كما ذاقها عونى وراشد * وتحدث الناس بما فعله حسين بيك فاختلفت الاقوال وتباينت ثم عادوا فاجتمعت كلمتهم على انه انما فعل ذلك بهم انتقاما لقتلهم السلطان عبد العزيز واتصل خبر هذا الحادث بالسلطان مراد فكبر خوفه قيل واشتد هذيانه وتغيرت أحواله واضطربت فكان لايعرف أحدا ولا يميز بين الضار والنافع وكان الصدر الاعظم يخفى حقيقة حاله عن الناس وقيل بل كانت أمه تظهر أنه عاقل رزين وتعمل على اخفاء حقيقة أمره ولا تقرّب منه أحدا فلما طال تحجبه عن الناس لاسيما عن قناصل الدول وقد اشتدت به علته استحضروا له طبيبا نمساويا اسمه ليدزورف قداشتهر بمداواة المجانين فلما شاهد أحواله وخبر أموره حكم بعدم نجاحه فاجتمعت كلمة الوزراء وكبار الدولة على خلعه وكتبوا الى خير الله أفندى شيخ الاسلام سؤالا فى معنى ذلك وهو

اذا جنّ امام المسلمين جنونا مطبقا ففات المقصود من الامامة فهل يصح حل الامامة من عهدته (الجواب) يصح والله أعلم * كتبه الفقير حسن خير الله عفى عنه ۞ واجتمع الوزراء فى يوم الاربعاء عاشر شعبان وقرروا خلع بيعته والبيعة لاخيه السلطان عبد الحميد فخلعوه فكانت سلطنته ثلاثة أشهر وثلاثة أيام لاغير ووردت الاخبار بما وقع له الى القاهرة

فكان الخديو فى شاغل عنها بما هو فيه من نكد الحال وبلبلة البلبال بسبب مطالب أصحاب الديون وقيام دولة الانجليز لنصرتهم كما ستراه فى محله ان شاء الله تعالى

الفصل الخامس والعشرون

(فى سلطنة السلطان عبد الحميد ابن السلطان عبد المجيد)

وقام بالامر بعد خلع السلطان مراد أخوه السلطان عبد الحميد ابن السلطان عبد المجيد خان بويع بالملك فى يوم الخميس حادى عشر شعبان سنة ثلاث وتسعين ومائتين وألف هجرية أى سنة ست وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية تولى السلطنة والملك فى ارتباك والفتنة قائمة والعمالات فى اضطراب فعمد الى سن القوانين والنظامات الدستورية الحافظة لحقوق جميع الرعية على التساوى بلا فرق ولا تمييز وكان التفريق بينهم يومئذ قد أخذ مأخذه حتى تمزقت جامعتهم وتفرقت كلمتهم وعمل التقاطع فيهم عمله فنالت الدول أصحاب الغايات السياسية من ذلك مالم تنله بحد السيف وكرات المدافع * ورسم فى خامس شوال سنة ثلاث وتسعين بتأسيس مجلس لنواب البلاد يتألف من هيئتين احداهما ينتخب أعضاءها أهل البلاد وتسمى بمجلس المبعوثان والثانية تنتخب أعضاءها الحكومة وتسمى بمجلس الاعيان وكان المتولى الصدارة العظمى يومئذ محمد رشيد باشا فخلعه وولاها أحمد مدحت باشا وهو صاحب ذلك الدستور وأنفذ اليه صورة من القانون الاساسى الذى أنشئ لجميع الاصلاحات الواجب العمل بها فى جميع ماوراء الباب * قال بعض الكتاب وكان هذا القانون يشتمل على مائة وتسع عشرة مادة فرسم بنشره والعمل به من يومه فى جميع أنحاء المملكة وأصدر فرمانا بذلك فى سابع ذى الحجة فكان من أحكام ذلك القانون المساواة بين صنوف الرعية وعدم التفريق بين الناس كافة وتحديد اختصاص مجلسى المبعوثان والاعيان وابطال مصادرة الناس فى أموالهم وترك القسوة والتعذيب فى تحقيق الجرائم ومنع السخرة والعونة وعدم عزل القضاة الا بحكم شرعى وتعيين مواجب العمال والولاة وجعل التعليم اجباريا واعطاء الحرية للمطبوعات وغير ذلك مما لايسعنا ايراده هنا مفصلا * قال بعض الرواة فلم يستقر بمدحت باشا منصب الصدارة حتى داخله الغرور وجعل يعمل على خلع السلطان عبد الحميد وارجاع السلطان مراد الى تخت الملك ويسعى فى فصل الخلافة الاسلامية عن مسند السلطنة العثمانية وجعلها عربية فيمن بقى من قريش من أشراف مكة وأوعز الى بعض أصحاب صحف الاخبار الاجنبية فأشارت الى ذلك وتكلمت عنه مع التعقيد والابهام * قلت وهذه سياسة غلادستون زعيم الاحرار بديار الانجليز وأمنيته منذ نعومة أظفاره وكثيرا ما كتب وخطب وحض على أخذ شعار الخلافة من ملوك آل عثمان واعطائه الى من بقى من قريش أو لمن يصلح للامامة من غير قريش وكان عربيا

فلما أحس السلطان عبد الحميد بذلك رسم فى حادى عشر المحرم سنة أربع وتسعين بخلع أحمد مدحت باشا وتنزيله عن منصب الصدارة وتبعيده عن دار الخلافة وأقام محمد أدهم باشا بدله فكانت صدارة مدحت باشا شهرين لاغير * قال بعض كتاب الاخبار ولم يبعد مدحت باشا عن دار الخلافة حتى تحركت إمارتا الصرب والجبل الاسود وجعلتا تحشد الجيوش وتعد المعدّات وتدرّب العساكر والاجناد على فنون القتال وقدم جماعة من ضباط عسكر الروس فتطوّعوا فى خدمة جيوش الامارتين وجعلوا يحصنون الدروب ويوعرون الطرق وعلم السلطان بما وراء ذلك فرسم بحشد جيش ضخم على الحدود فلما تم للامارتين ماأراد تا سير كل من نقولا وميلان أميرى الامارتين الى دار السلطنة يطلبان كثيرا من المطالب الطويلة العريضة فابى عليهما السلطان جميع ماطلباه وكثر الاخذ والرد بين الطرفين وأصر كل منهم على مزاعمه فاجتازت عند ذلك عساكر الجبل والعساكر الصربية الحدود وزحفت على بلاد السلطنة العثمانية فزحف عليهم العسكر السلطانى من كل صوب وحدب ومقدمهم الغازى عثمان باشا وعبد الكريم باشا السرعسكر وقاتلوهم حتى هزموهم شر هزيمة ثم سارت طائفة من العسكر السلطانى الى مدينة مينا شيوار ففتحوها عنوة وساروا الى مدينتى عالكيناس ودلجراد ليقاتلوهما فلم ينالوا منهما لحصانتهما ومنعتهما فرحلوا عنهما وعبروا نهر موراوا فلم يشعر العدو الاوهم قد صاروا على الشاطئ الايسر من النهر وساروا يريدون مدينة بلغراد عاصمة الصرب فهال الصربيين هذا الأمر وأزعجهم جدا لخلو المدينة ممن يدافع عنها ويقاتل دونها فعبروا النهر على الفور وساروا خلف العسكر السلطانى فوقفوا للقائهم وأصلوهم نارا حامية حتى انفشلوا وتفرق جمعهم وركن أكثرهم الى الفرار من غير ضرب ولا طعن فسارت العساكر نحو بلغراد لايمانعهم فى طريقهم ممانع وجاء الخبر بذلك الى دار السلطنة وكان أمير الصرب قد سير الى سفراء الدول بدار الخلافة فى طلب الوساطة بينه وبين الباب العالى خوف الهزيمة والعار فكلموا السلطان فى ذلك فناهم وطاولهم حتى صارت العساكر السلطانية على أبواب بلغراد ووردت الاخبار بذلك الى السفراء فقاموا وقعدوا وشددوا فى الطلب فسير السلطان الى مقدم عساكره بالكف عن القتال حتى يأتيه الأمر وفتح سفراء الدول باب المخابرة فى أمر الصلح وكثر الاخذ والرد وترددت السفراء على الباب العالى أياما والقلوب فى اضطراب فأبى الباب العالى امضاء الصلح الاعلى ثلاث خصال * الاولى حضور أمير الصرب الى دار السلطنة وتقديمه مواجب الخضوع والتذلل لعرش السدة الشاهانية * الثانية أن تحتل الجيوش السلطانية ثانيا جميع القلاع التى كانت الدولة سمحت لامارة الصرب باحتلالها مؤقتا فى سنة اثنتين وثمانين ومائتين وألف هجرية * الثالثة ابطال الرديف من ايالة الصرب وأن لاتجيش الايالة من الآن عسكرا الا عشرة آلاف فقط وبطار يتين من أصحاب المدافع لحفظ الأمن فى الداخل فلم يرض الدول هذا الطلب واتفقوا معا على اكراه الباب العالى

على

على ارجاع حالة الصرب والجبل الاسود الى ماكانت عليه قبل الحرب وتأسيس ادارة وطنية مستقلة فى البوسنيه والهرسك لتراقب مأمورى الحكومة وكذلك فى البلغار وأنفذ اللورد دربى صاحب سياسة الانجليز يومئذ الى الباب العالى مكاتبة بذلك وأوعز الى سفيره فى دار السلطنة بأن يلح فى الطلب فبالغ السفير فى ذلك فلم يلتفت السلطان الى قوله وأوعز الى مقدم الجيوش المحاربة باعادة الحرب والقتال حتى يتمكن من تدويخ العدوّ ويرجعه الى ما كان عليه من الطاعة فزحفت العساكر السلطانية على مدينة جونيس وكان بها الجنرال تشرنايف الروسى ومعظم العسكر الصربى فقاتلوهم قتالا عنيفا ثم هجموا على المدينة هجمة رجل واحد فتقهقر الصربيون وتركوا المدينة وأخلوا كذلك مدينة دلجراد فدخلتهما طائفة من العساكر السلطانية وسارت طائفة أخرى تريد مدينة بلغراد عاصمة الصرب لقتال من بها وأخذها عنوة

وطار الخبر بذلك الى الآفاق وعلمت به سائر الدول فاهتموا له اهتماما عظيما وأنفذ صاحب سياسة الروس الى سفيره فى دار السلطنة يطلب ايقاف رحى الحرب ومهادنة الصرب والجبل الاسود مدة شهرين فان لم يجب الباب العالى الى ذلك انقطع حبل العلاقات السياسية بين الدولتين وضرب لذلك أجلا ثمانيا وأربعين ساعة فأجاب الباب العالى الى ذلك كارها وقد أحس بتأهب الروس للقتال واضرام نار الحرب وبدأت من هذا الحين تظهر دلائل الوحشة بين الفريقين وخافت سائر الدول عاقبة ذلك لاسيما دولة الانجليز فخابر صاحب سياستها كبار ساسة الدول فى عقد مؤتمر فى دار الخلافة لتقرير قاعدة ثابتة لراحة جميع المسيحيين من رعايا الدولة العثمانية ومنع الحرب التى صارت على قاب قوسين فاجابته الدول الى ذلك بعد أخذ ورد وسيرت مبعوثيها الى دار السلطنة وقررت كثيرا من الطلبات التى لايطيق الباب العالى الصبر عليها ولا الاذعان لها ثم اجتمع جمعهم فى سراى البحرية وحضر بينهم مندوبو الدولة فتكلموا فى الامر كثيرا وطال اجتماعهم أياما على غير طائل فرسم السلطان حينئذ بعقد مجلس من كبار الدولة وأعيان السلطنة ورؤساء الاديان كافة فلما تم اجتماعهم وكانوا زهاء المائتين عرض عليهم طلبات مبعوثى الدول فاستعظموها وقالوا هى مذلة وصغار وحط من كرامة الدولة ومقام الخلافة العظمى فلا سبيل الى قبولها وفى المملكة من يذب عن ذمارها فراجعوهم فى الامر فقالوا جميعا الحرب والنار ولا هذا الخزى والعار وكثرت جلبتهم وعلت أصواتهم ثم انصرفوا وقد سطروا بذلك محضرا فرفعه صفوت باشا مندوب الدولة يومئذ الى أصحاب المؤتمر فكبر عليهم ورحلوا عن دار السلطنة ولم يقابل منهم أحد أمير المؤمنين كما جرت العادة بذلك واختلط الحال على كبار سياسة الدول واختبط واستعصى عليهم حل هذه العقدة وقدرأوا من الباب العالى عنادا وتصميما وكانوا لايتوقعون منه غير الطاعة والاذعان فجعلوا يمنون الروس بالأمانى البعيدة ويهوّنون عليهم الأمر * فبينما هم على هذه الحال اذ عاقدت الدولة العثمانية الامارة

المصريـة على الصلح وترك القتال على شروط رضى بها الفريقان وشاع الخبر بذلك فخشيت دولة الروس العاقبة وفطنت الى الامر وتحققت أنها ان لم تبادر الى اشهار الحرب مع الدولة العثمانية قبـل أن تعاقد أمير الجبل الاسود الصلح أيضا انفشل الروس وسقطوا فى أمرهم لحض القيصر الدول كافة على تدارك الخطب قبل استفحاله فاجابته الى ذلك وأرسلت الى دار السلطنة انذارا تهدد فيـه الباب العالى بأن تتركه وشأنه مع دولة الروس ان هو أصر على الاباءة والعناد فرد عليهم القول ردا جميلا وصمم على مطالبه كلها فتجرد قيصر الروس عندئذ الى التأهب والاستعداد وجعل يحشد الجيوش ويعد المعدات ويكثر من نقل المؤن والذخرة وأنفذ الى منـدوب الباب العالى فى عاصمـة الروس بان يرجع الى سـلطانه وبانه قد أعلن بالحرب والقتال فسار المندوب الى دار السـلطنة فما وصـل الخبر الى الباب العالى وتناقله الناس حتى قاموا وقعـدوا واشـتد بينهم الهرج ونودى فى جميع العسـكر بالخروج وأفتى شيخ الاسلام بانه قـد حق على كل مسلم الغزو والجهاد وبان يضاف الى ألقاب أمير المؤمنين عند الدعاء له على المنابر لقب غازى عملا بحديث صاحب الشريعة القائل ﷺ من جهز غازيا فى سبيل الله فقد غزا ﷺ

وورد الطلب من الباب العـالى الى الخديوى بارسال مدد من العسكر المصرى ليسير مع العسكر المنصور لقتال الروس فاهتم بذلك الخديوى وأظهر العناية وجهز طائفة من المقاتلين ومقدمهم الامـير حسن ثالث أولاده ومعـه جماعـة من كبار الضباط الشراكسة فحملتهم بعض السفن الى دار السلطنة واشتركوا مع العسكر السلطانى فى عدة مواقع * قال بعض كتاب الاخبار * وقد أبلوا بلاء حسنا ونالوا من الروس فى عـدة وقائع واشتد القتـال بين الفريقين وحمى الوطيس واجتاز الروس نهر الطونة بغير قتـال وقيل بل كانوا يدفعون بالامر الخفيف ثم ألحوا فى القتـال فاحتلوا مـدينة ترنوه ثم مدينة نيكوبلى وسار الجنرال جوركوا فى عسكره فاحتل مضايق البلقان الـتى هى أبواب مضيق شبكا واشتـدوا عـلى العسـاكر السلطانية شدة بالغة وجاء الخبر بذلك الى دار السلطنة فكبر خوف النـاس وعظم اضطرابهم واشـتد قلقهم وهم الكثـير منهم بالجـلاء عن دار السلطنة فلم يتمكنوا حيث رسم السلطان فى جمادى الأولى من السنة أى سـنة أربـع وتسعـين بجعـل دار السلطنة تحت الاحكام العرفية فانكمش النـاس وأخذوا حذرهم وكانوا يتوقعون هجوم العدو على المدينة فى كل لحظة واشتـد الروس فى القتـال والنصر ملازم لهـم وجاؤا لحصار مـدينة بلفنه وكان بهـا عثمـان باشا فى ثلاثين ألفا من المقاتلين فسير الى دار السلطنة فى طلب المدد قبل أن يتمكن الروس من تشـديد الحصار وألح فى الطلب ووردت رسائله تـترى على ديوان الحـرب مفعمة بالحض والاستنهاض فـلم يلتفتوا الى ندائه والروس تشـدد فى حصار المـدينة يوما عن يوم فكان عثمـان باشا يقـاتلهم فى كل يوم من وراء الاسوار كى يشغلهم عن تشديد الحصار فلم يفلح ووالى الروس الهجوم على المـدينة لعلهم يفتحونها فـلم يتمكنوا حتى تم لهـم حصارها

فضيقوا

فضيقوا وشددوا ومنعوا عنها الوارد من كل جانب ووصلت الاخبار بذلك الى السلطان فكبر عليه الامر ورسم بخلع عبد الكريم باشا سردار العساكر السلطانية من منصبه وتنزيل درويش باشا من منصب رياسة ديوان الحرب لظهور خيانته وسوء تدبيره وخلعوا أيضا جماعة كثيرة من كبار الضباط وصغارهم لخيانتهم لسلطانهم وبلادهم وحكموا عليهم بالنفى والتبعيد وأكثروا من التغيير والتبديل فى مراكز الجند ومواقف القتال استدراكا لما فات وسيروا المدد الى عثمان باشا فلم يتمكن من الوصول اليه لاحاطة العدو بالمدينة من كل صوب وحدب وسيروا طائفة أخرى لتقاتل الروس على مضيق شبكا وأخرى لدفع جيوش ولى عهد القيصر الزاحفة على بلاد الدولة العثمانية واهتم السلطان لذلك وظن بلوغ الآمال وارجاع العدو فاقتتلوا قتالا شديدا وأبلوا بلاء حسنا ونالوا من الروس وجاء الخبر للقيصر بما حل بعسكره فسار من فوره فى قلة الى ميدان القتال وقيل بل جاء جريدة وسير الى أمير الجبل الاسود يسأله العون والمدد فجاءه فى نحو مائة ألف مقاتل وكثير من الاسلحة والكراع وقاتلوا العثمانيين قتالا عنيفا للغاية وانتصروا عليهم فى عدة وقائع واشتدوا فى حصار بلفنه شدة بالغة وألحوا فى قتال من بها من العساكر فكانوا لا ينكفون عن الرمى عليها فى الليل والنهار ومازال الرمى من الفريقين متراسلا حتى نفد ماعند العساكر السلطانية من المؤن والذخيرة فنادى عثمان باشا فيمن بقى من العسكر بالخروج من المدينة ومهاجمة العدو فاما أنهم يموتون جميعا شهداء الدفاع عن ملجا الخلافة أوانهم يسلمون فخرجوا جميعا واندفعوا على خطوط العدو وثابروا على القتال والعدو يصليهم نارا حامية حتى أصابت عثمان باشا مقدمهم جراحة فى ساقه الأيسر فسقط عن جواده وسقط جواده أيضا ميتا وشاع خبر موته بين الجند فانفشلوا وسقطوا فى أمرهم وهموا بالرجوع الى المدينة فلم يتمكنوا من ذلك لدخول العدو بها ورميه بالقنابل عليهم تباعا فصاروا بين نادين فلم يروا بدا من التسليم فألقوا عنهم سلاحهم وسلموا بأنفسهم وكانوا قد نقلوا عثمان باشا الى أحد البيوت القريبة من موقف القتال فقابله أحد كبار ضباط الروس وبالغ فى اجلاله وتعظيمه ونقله فى احدى العربات الى مدينة بلفنه وبينما هو فى الطريق قابله الغرندوق نقولا وأمير رومانيا فأوقفاه وسلما عليه وبالغا فى ملاطفته اظهارا لفضله واكبارا لشهامته

وتقوت عزيمة الروس لسقوط بلفنه فى أيديهم فتقدموا نحو دار السلطنة وهم يفتحون كل ما صادفهم فى طريقهم من الحصون والقلاع فخرج عند ذلك أمير الصرب عن الطاعة ونقض ما كان بينه وبين الباب العالى من العهد ونهض الى معاونة الروس بالرجال والمال فاشتد الامر على الباب العالى وسدت فى وجه العساكر السلطانية أبواب الفلاح وتولاهم الفشل وكادوا يقنطون من النصر والغلبة فأنفذ السلطان الى الدول الكبرى فى الوساطة بينه وبين قيصر الروس فطاولوه ولم يهتموا الى ذلك وبقيت الحرب قائمة بين الفريقين حتى دخل الشتاء وكثرت الثلوج والامطار وهم مع ذلك لم ينكفوا

وسارت جيوش الروس تريد الاغارة على بلاد البلغار والروملي الشرقية وتقدم الجنرال جوركوا بعسكره فاجتاز جبال البلقان ونزل على مدينة صوفيه تحت البلقان واحتلها ثم سار الى مدينة فليبه واحتلها أيضا وسارت طائفة من عسكر الجنرال سكوبلف الى مدينة أدرنه فقاتلت من بها واحتلتها عنوة ولبثوا فى هذه المدن أياما حتى أصلحوا حالهم وساروا فى كثرة يريدون دار السلطنة فلم يجدوا فى طريقهم من يمنعهم أو يناوشهم الحرب لخلو الطريق حتى صاروا على أبوابها* وبينما كان الروس يتقدمون نحو دار السلطنة فى عدة وافرة كانت عساكر الجبل الاسود تقاتل مدينة انتيبارى حتى ملكتها وسارت حتى وصلت الى ضواحى أشقودره ودخلت أيضا العساكر الصربية مدينة نيش وأحاط الاعداء بمعظم بلاد الدولة من كل صوب ودرب وقد زاد الامر ويلا وشدة جلاء المسلمين من أهل البلغار وغيرهم عن أوطانهم ونزولهم على دار السلطنة وهم فى أسوء حال من العرى والجوع فملؤا شوارع المدينة وحاراتها واهتم الباب العالى بمأكولهم ومشروبهم وملبوسهم ووقودهم لوفر البرد وتبرع أهل البر والاحسان بالمال للنفقة واهتموا لذلك اهتماما عظيما ومع هذا فقد فشت بينهم الحميات الخبيثة وكثر فيهم الموات واشتد فكانوا يموتون بجانب الجدران وعلى أبواب بيوت أهل الخير فكان المنظر محزنا والخطب عظيما

ورسم السلطان بتسيير أربعة من كبار الدولة الى حيث الغراندوق نقولا ليكلموه فى تقرير قاعدة للصلح بين الفريقين يكون من ورائها ابطال الحرب وحقن الدماء فساروا الى قزانلق والتقوا بالغراندوق وكلموه فى الامر فأجابهم الى ذلك وسار بهم الى مدينة أدرنة وقد سير الى القيصر فى طلب اجازته بعقد شروط الصلح فأجابه فامضى معهم عهدا فى المحرم افتتاح سنة خمس وتسعين كان فيه منح الاستقلال الادارى لامارة البلغار والاستقلال السياسى لكل من مملكة رومانيا ومملكة الجبل الاسود وأعطاهم بعض أملاك من أملاك السلطنة وتكليف الخزينة السلطانية بنفقة الحرب فان لم تدفعها عينا أعطت بها قلاعا أوحصونا من قلاع السلطنة ثم قرروا بينهم قاعدة للهدنة ونودى فى العسكرين بالكف عن القتال فبطل الحرب وكفى الله المؤمنين شر القتال وطيروا الخبر بذلك الى الآفاق فقامت الدول الكبرى وقعدت وترامت ظنون كبارها الى المرمى البعيد لا سيما دولة النمسا فانها كانت تخشى من قرب الروس من حدودها فأنفذ امبراطورها الى الدول فى طلب عقد مؤتمر لينظر فى شروط ذلك الصلح وماهيته وألح على دولة الانجليز فى ذلك فأجابته الى ما طلب وأشارت على الدول بذلك وكلمت الروس فى الامر فطاول القيصر وحاول ولم يبلغ الدول شيأ مما وقع الاتفاق عليه بينه وبين الباب العالى وقد كان يأبى وساطة الدول وعدم تداخلهم فى أمر الصلح وطال الاخذ والرد بين الدول وبعضهم أياما فازعج الدول امتناع القيصر وعدم اجابة طلبهم وكثر القيل والقال واختلط عليهم الحال وكثرت الاشاعة بدخول الروس فى دار السلطنة وعمدت دولة الانجليز الى

استعمال الشدة والترهيب فسيرت سفن حربها الى دار السلطنة لمنع الروس من الدنو من القسطنطينية فاجتازت الدردانيل عنوة ورست أمام المدينة نخاف الناس من ذلك وأخذتهم الطيرة وكثر لغطهم وتحدثهم فى هذا الامر ورموا رجال الدولة وكبار السلطنة بالخيانة والتدليس وقام جماعة من رجال مجلس المبعوثان يعيبون على أصحاب الحل والعقد سوء تدبيرهم ويرمونهم بالمروق عن الدين فرسم السلطان بنفيهم وتبعيدهم فأقصوهم عن دار السلطنة وكثر الهرج والمرج وكادت تلتهب نار الفتنة فى جوف القسطنطينية واختلط الحال على السلطان فجعل يكثر من العزل والتولية فى مناصب الدولة وخلع الصدر الاعظم أدهم باشا وولى مكانه أحمد حمدى باشا فلم يمض على ارتقائه منصب الصدارة سوى أيام حتى خلع أيضا وأبطل لقب الصدارة بلقب رئيس الوكلاء وعين فى هذا المنصب رفيق باشا فلم يلبث أن عزل فى خامس عشرى ربيع الثانى وولى مكانه الصادق محمد باشا واشتدت الازمة فاستحكمت الوحشة وكره الناس أصحاب الحل والعقد وبدأت تظهر دلائل الفتنة

فلما كان سابع عشر جمادى الأولى قام رجل بخارى الاصل اسمه صعاوى من أصحاب الدسائس والفتن وهو أحد أركان العصابة التى كان ألفها الأمير مصطفى فاضل باشا أخى الخديوى اسمعيل وسماها باسم (چون ترك) أى تركية الفتاة وصرف عليها الاموال الطائلة فكان لها فى قلب هيئة السلطنة وخلع السلطان عبد العزيز وقتله وغير ذلك من الفتن والدسائس الداخلية اليد الطولى وكان الامير مصطفى فاضل باشا هذا يتمنى أنه يرى جميع ذلك بعينه ولكنه مات قبل أن يخلع السلطان بأشهر وعمد صعاوى هذا الى ايقاد نار الفتنة فى جوف القسطنطينية وخلع السلطان عبد الحميد واعادة السلطان مراد الى منصب الخلافة وكان فى دار السلطنة زهاء مائة وخمسين ألفا من المهاجرين وكلهم ناقون على رجال الدولة كارهون للسلطان فقام بينهم صعاوى خطيبا وكان فصيح اللسان قوى الجنان وجعل يزين لهم خلع السلطان عبد الحميد ومبايعة السلطان مراد ثم سار فى جماعة منهم فى ذلك اليوم الى سراى جراغان التى هى مقر السلطان مراد واقتحموها من البر والبحر وقتلوا من كان على أبوابها من الحرس واتصل صعاوى بغرفة السلطان مراد وسله طبنجة وأخذ بيده يريد الخروج وقد علت الضوضاء وكثر صياح العامة فتراع الناس من كل صوب وحدب واشتد الخوف بهم شدة بالغة وظن السوقة دخول الروس الى المدينة واعمالهم السيف فى أهلها فتسابقوا الى غلق حوانيتهم وهرعوا الى بيوتهم يدفعون عنها ايذاء العدو وجاءت طائفة من جند الحرس السلطانى الى سراى جراغان وكبست على أصحاب الفتنة من البر والبحر وأعملوا فيهم القتل بحد السيف فلم تكن الاساعة أو بعض ساعة حتى أتوا على آخرهم الا من طال عمره ومات صعاوى وصالح بيك مقدما هذه الفتنة وجاء الامر من السلطان بالقبض على أخيه مراد ووالدته ومن عنده من الجوارى والغلمان فقبضوا عليهم ونقلوهم الى سراى السلطان عبد الحميد محجورا عليهم ولم يمض على هذا الحادث سوى

ثلاثة أيام حتى دس بعض أصحاب الفتنة النار فى دوائر الباب العالى فاشتعلت اشتعالا عظيما واندلع لسان لهيبها الى عنان السماء فأحرقت دوائر شورى الدولة وما يتبعها ودائرة الاحكام العدلية والتشريفات والداخلية وغيرها وأبادت جميع ما فيها من فرش وبسط وأوراق وغير ذلك وكبر غيظ السلطان فرسم بخلع الصادق محمد باشا من منصب رياسة الوكلاء فخلع فى سابع عشرى جمادى الأولى وولى مكانه محمد رشدى باشا وأعيد اليه لقب صدر أعظم فلم يكد يستقر به المنصب بضعة أيام حتى خلع وولى مكانه صفوت باشا

ولما دخلت سفن حرب الانجليز ورست أمام القسطنطينية كما تقدم القول عظم أمرها على الروس وعدوه اهانة لهم وتحقيرا فأنفذ مقدم عساكرهم النازلة عند أبواب القسطنطينية فى طلب دخول طائفة من عسكره الى المدينة وشدد فى ذلك فمانعته دولة الانجليز وطال الاخذ والرد بين الروس وبقية الدول أياما وجاء الغراندوق نقولا الى أدرنه قبل انتهاء الهدنة فسير اليه السلطان نامق باشا ليكلمه فى منع دخول عساكره الى المدينة فلم يقبل الا بشرط أن تحتل مقدمة جيوشه خط بيوك چكمجه وكوچك چكمجه من ضواحى القسطنطينية وأن تنسحب العساكر السلطانية الى ماوراء ذلك مع جعل مركز المخابرات فى قرية سان اسطفانوس الواقعة على بحر مرمرة وكان لم يعرف لها اسم ولا خبر قبل هذا الحادث فقبل السلطان ذلك وسار الغراندوق الى قرية سان اسطفانوس فى ألف مقاتل ونزل بها وصار يأتى اليه المدد فى كل يوم حتى بلغت عساكره بالقرية المذكورة زهاء عشرين ألفا وجاءت رسل السلطان بعد ذلك لتقرير قاعدة الصلح فطال الجدال بين الفريقين أياما وكان رسول القيصر فى عقد هذا الصلح الأمير اغناتيف وهو من دهاة السياسيين وأقطابهم فجعل يقلب للدولة ظهر المجن فسطر شروطا غاية فى الشدة والتضييق على الدولة العثمانية وسأل رسل السلطان التوقيع عليها فطلبوا مهلة فلم يقبل وضرب لهم أجلا فان انقضى ذلك الأجل سارت العساكر النازلة فى سان اسطفانوس الى القسطنطينية ودخلتها عنوة فراجعه رسل السلطان فلم يقبل وكان ذلك الاجل الثالث من شهر مارس الذى هو يوم عيد قيصر الروس فجعل رسل السلطان ينقبون فى تلك الشروط كى لا يحل الاجل المضروب الا وقد أتوا على آخرها فلما كان ثالث الشهر المذكور أى ثامن عشر صفر سنة خمس وتسعين جمع الغراندوق نقولا جيوشه بين مشاة وفرسان وأوقفهم موقف الاستعراض اجلالا لعيد القيصر ولبث ينتظر ماسيكون من رسل السلطان فلما أبطأ عليه الجواب سار الى حيث رسل السلطان وطلب منهم الجواب فى تلك الساعة والاسارت جميع جيوشه الى دار السلطنة بلا مهل فهال الرسل هذا الامر وما زال الأمير اغناتيف يتهددهم حتى تم توقيعهم على الشروط ولحق اغناتيف بالغراندوق ومعه شروط الصلح وكان الغراندوق ممتطيا جواده أمام العساكر وحوله جماعة من كبار الجند والحرس فناوله اغناتيف شروط الصلح فلما تناولها صاح من كان حوله من كبار العسكر فصاح العسكر جميعا بأصوات الفرح وترجل جميع ضباط الجند عن خيولهم وخروا

على الارض سجدا لله عز وجل الذى أتاح لهم هذا النصر المبين وجاء أحد القسيسين فصلى بالعسكر صلاة الشكر وهم جميعا سجود وطير الغراندوق الخبر الى القيصر بما جرى ففرح فرحا لا يوصف ووردت على الغراندوق رسائل التهانى من كل فج عميق ﴿وكان مما أخذ عهدا وميثاقا بين الدولتين بعد تلك الحرب الهائلة واشتهر بمعاهدة سان اسطفانوس هو الشرط الآتى ترجمته بعد ﴿ ان حضرة قيصر الروسيه وحضرة سلطان المملكة العثمانية قد عين كل منهما مرخصين لاجل تحرير مقدمات الصلح رغبة فى تأمين بلادهما ورعاياهما من وقوع ما يخل بالراحة والامنية فيما بعد وطلبا لحصول فوائد المسالمة والراحة العمومية حالا فالمرخصان اللذان نصبهما القيصر أحدهما (الكونت نقولا اغناتيف) وهو حائز رتبة أمير اللواء ياور القيصر ومن أعضاء المجلس الخصوصى وعنده نشان روسى مرصع وهو نيشان صان عكسا ندر نويسكى ونياشين أجنبية متعددة والمرخص الآخر (موسيو نيلدوف) من قرناء الدائرة الأمبراطورية ومن أعضاء شورى الدولة وعنده نيشان صانت آن من الطبقة الأولى مع السيوف المختصة به وعدة من النياشين الروسية والاجنبية والمرخصان اللذان عينهما حضرة السلطان أحدهما (صفوت باشا) ناظر الأمور الخارجية الحامل النيشان العثمانى المرصع والنيشان المجيدى وكلاهما من الطبقة الأولى والنياشين الاجنبية المتنوعة والثانى (سعد الله بيك) سفير الدولة العلية فى مركز امبراطورية ألمانيا وهو حامل النيشان المجيدى من الطبقة الأولى والنيشان العثمانى من الطبقة الثانية فهؤلاء المرخصون من بعد أن اطلعوا على المحررات الرسمية المتعلقة بكيفية ترخيصهم ووجودها مطابقة للاصول والعادات قرروا المواد الآتى ذكرها فيما بينهم

المادة الاولى ﴿ انه بموجب الخريطة المربوطة بهذه المعاهدة وبمقتضى الشروط والوجوه الآتى ذكرها تقرر تصحيح حدود ممالك الدولة العلية والجبل الاسود وذلك لاجل انهاء المنازعات والمصادمات المتتابعة الوقوع فيما بينهما فالحدود تمتد من جبل دوبروزبجه على الوجه الذى عينه المؤتمر الذى كان عقد فى الاستانة الى (غوريتو وبيلكه) والحد الجديد يستطيل الى (غاجقه) وعلى هذا (توتركيا غاجقو) تبقى فى تصرف الجبل الاسود وتمتد الحدود أيضا من مجمع أنهر (بيوه وتاره) وتمر من نهر (درين) الى جهة الشمال وتنتهى الى مجمع هذا النهر مع النهر المسمى (ليم) وأما حدود الجبل المذكور الشرقية فتبتدئ من نهر (ليم) الى (بريرة بولره) ومن (روستراق الى سوق بلانيسا) وبيهود وروستراق تبقيان داخل الجبل فعلى ذلك يكون تخطيط الحدود هكذا أعنى من الجبال المتسلسلة الجامعة لروغوه بلاوا وكوزيره الى باقانى ومن رؤس جبال قوبريونيق وباباور وبور وحذاء حدود بلاد الارناؤط الى أعلى ذروة جبل (بروقلتى) ومن هذه النقطة الى (كنيب بيسقاشيق) وينتهى الحد على الخط المستقيم الى عين الماء فى جيستى هوتى وينفصل فيما بين جيستى هوتى وجيستى فاستراتى ويتجاوز ماء أشقوره الى أن ينتهى لنهر بويانه وهكذا مع النهر الى مصبه فى

البحر وبموجب ذلك تبقى نكسيك وغاجقة وأشبوزى و يورغور يجه وز ابلياق وبارضمن الجبل المذكور وقد يصير تعيين حدود الجبل قطعيا بمعرفة لجنة مركبة من بعض مأمورى دول أوروبا بشرط أن تكون وكلاء الباب العالى والجبل الاسود معهم أيضا فهذه اللجنة تلاحظ منافع الطرفين وأمنية البلاد الكائنة فى الجهتين ثم تشير فى الخريطة الى التعديلات التى ترى لها لزوما وتعلم أنها هى الحق وتوضح فى ذلك مارأته من صالح الجهتين ثم لايخفى أن أمر سير السفن فى نهر بويانه لم يزل يجلب النزاع فيما بين الباب العالى والجبل الاسود فلاجل قطع هذا النزاع سيصير تحرير نظام ذلك بمعرفة اللجنة المذكورة

المادة الثانية ۞ ان الباب العالى يثبت استقلال امارة الجبل الاسود على الوجه القطعى ثم فيما يأتى تتقرر فيما بين دولة الروسيه والدولة العلية والامارة المذكورة كيفية المناسبات التى ستكون بين الباب العالى والجبل وقضية تعيين وكلاء من طرف الامارة فى الاستانة والبلاد العثمانية المقتضية وتتقرر أيضا أمر اعادة أرباب الجنايات الذين يفرون من بلاد الدولة العلية الى الجبل الاسود ومن الجبل الى بلاد الدولة وأمر اطاعة أهل الجبل المقيمين أو المارين فى بلاد الدولة العلية وانقيادهم الى نظامات ومأمورى الدولة طبق الحقوق الجارية بين الدول والعادات والمعاملات القديمة التى كانت تجرى بحقهم فى بلاد الدولة وستنعقد أيضا مقاولة فيما بين الباب العالى والجبل الاسود لاجل توضيح وتنظيم المسائل المتعلقة بالانشاآت العسكرية فى قرب الحدود وأحوال ومناسبات الاهالى المجاورة هنالك واذا اختلف الباب العالى مع الجبل الاسود فى بعض مسائل ولم يمكن فصلها باتفاقهما فتحكم بينهما دولتا الروسيه وأوستريا ومن بعد هذه المعاهدة اذا وقعت مباحثة أو مصادمة فيما بين الباب العالى والجبل الاسود ماعدا المطالب الملكية الجديدة ينبغى أن يفوضا أمرهما الى دولتى الروسيه وأوستريا وهما باتفاقهما يفصلانها بينهما وقد تقرر أنه من بعد امضاء مقدمات الصلح الى عشرة أيام يجب على عساكر الجبل الاسود أن تخرج من البلاد الغير داخلة ضمن الحدود المذكورة أعلاه

المادة الثالثة ۞ ان امارة الصرب تكون مستقلة ويكون حدها بموجب الخريطة المربوطة لهذه المعاهدة مجرى نهردرين وتبقى كوجك أزورنيق وسقار فى ادارة الصرب ويمتد هذا الحد الى منبع نهر رازده الكائن بجوار استايلاق على حسب الحدود القديمة وتبتدئ الحدود الجديدة من هنا أعنى مع مجرى نهررزوه الى نهر راسقه ومنه الى يكى بزار ومن يكى بزار يصعد الخط الفاصل ويمر من جوار قريتى مهنتره وارغويج الى أعلى النهر المذكور حتى ينتهى الى منبعه ويمتد الى بوسور بلاتينا الكائنة فى وادى ايبار وينزل مع الماء الجارى الذى يصب فى النهر المذكور ومنه يسير مع أنهر ايبار وسيديج ولاب الى منبع نهر باتنسه الكائن فى جبل عزايا شيخه بلاتينا وبعدها يمر من التلال الفاصلة بين نهرى قربوه

وتريخة ومن أقصر الطرق الموجودة على مصب نهرميو واجقسه حتى ينتهى أيضا الى نهر دريخه و يسير مع هذا النهر ويقطع ميو واجقه وبلاتينا ويصل الى جهة موراوه فى قرب قرية قاليمانس ومن هنا يسير الى قرب قرية استابقوبجى ويجتمع هنالك مع نهر بلوسينه وهكذا مع النهر الى موراوه ويمتد من النهر الى جهة فوق حتى يصل الى قوتقاوبجه ويقطع سوق بلاتينا ويجتمع بنهر نيساوة و يتصل بقرية قرونراج ومنها يمر من أقصر الطرق ويمتد على حدود الصرب القديمة الى جنوب شرق قره ولبور وعلى هذا الخط يتصل بنهر الطونة ويقرر اخلاء اطه قلعة وهدمها وترتيب لجنة مركبة من مامورى الدولة العلية والصرب لاجل تعيين خط الحدود على الوجه القطعى فى برهة ثلاثة أشهر و يكون ذلك بمعاونة مامورين من طرف دولة الروسيه وهذه اللجنة تفصل أيضا المسائل المتعلقة بجزاير نهر درين وتقطعها وحينما تبتدئ هذه اللجنة بتعيين الحدود الفاصلة بين بلاد الصرب والصقالبة ينبغى أن يكون وكيل واحد من طرف الصقالبة يشترك معهم فى هذا الامر

المادة الرابعة ۞ ان المسلمين الذين لهم أملاك فى البلاد التى صار الحاقها بالصرب اذا لم يريدوا الاقامة هنالك فلهم الخيار ان أحبوا أجروا أملاكهم وان أحبوا أقاموا وكلاء من طرفهم لاجل حفظها واستغلالها والمسائل المتعلقة باموالهم الغير المنقولة تفصلها لجنة مركبة من مأمورى الدولة العلية والصرب باعانة مأمورين من طرف دولة الروسيه فى ظرف سنتين وهذه اللجنة تفصل أيضا فى برهة ثلاث سنين أمر فراغ الاملاك الميرية والموقوفة والمسائل المتعلقة ببعض الاشخاص الذين لهم علاقة ونفع فى الاملاك المذكورة وذلك يكون عقيب انعقاد المعاهدة فيما بين الدولة العلية والصرب والاناس المقيمون أو الذين يجولون فى بلاد الدولة من تبعة الصرب تكون المعاملة معهم على القواعد الكلية بمقتضى الحقوق الكائنة بين الدول وقد تقرر أنه من بعد امضاء مقدمات الصلح الى خمسة عشر يوما يجب على عساكر الصرب أن تخرج من البلاد التى ليست داخلة ضمن الحدود المذكورة أعلاه

المادة الخامسة ۞ ان الباب العالى قد أثبت استقلال رومانيا أعنى المملكتين ولها أن تطلب من الدولة العلية تضمينات الحرب وتجرى المذاكرة فى هذا الشان فيما بينهما وعند ما تنعقد المعاهدة بين الدولة العلية ورومانيا رأسا تنال تبعة رومانيا الامن والامتياز طبق تبعة دول أوربا

المادة السادسة ۞ تقرر أن تكون البلغارستان أعنى بلاد الصقالبة امارة مختارة فى ادارتها تدفع مبلغا معلوما الى الدولة العلية ويكون مأمورو الحكومة والعساكر الملية من المسيحيين و يصير تعيين حدودها على الوجه القطعى بمعرفة لجنة مركبة من مأمورى الدولة العلية والروسيه وذلك قبل خروج عساكر الروسيه من الروم ايلى وهذه اللجنة تبين هنالك فى الخريطة التعديلات التى ينبغى اجراؤها وتلاحظ ملية أكثر الاهالى وتوضح المنافع المحلية تطبيقا لفن

تخصيص الاراضى وتقرر تعيين وتبيين مقدار اتساع ملك الصقالبة بخريطة وجعلها أساسا فى قطع الحدود * وخط الحدود يبتدئ من حدود الصرب الجديدة ومن غرب ورا نثره الى سلسلة الجبل الاسود ومن جهة الغرب يمر من نهرد بوجيجه الى درينة غرب قوما نوه وقوچانى وقلقان ولن الى جبل قوارب ومن هنالك يمر من نهرد بوجيجه الى درينة ويلتفت الى جهة الجنوب الى حدود غرب قضاء (اخرى) حتى ينتهى الى جبل ليناس ومنه يمر من غربى كوريجة واستادره ويتصل بجبل غراموس وكذلك يمر من ماء فاستريا ويلتصق بنهر موغلينجه و يسير مع النهر الى يكيجه ويمر عن نهر واراد يكيجه ومن مصب نهر واراد وقرية غاليقو الى قراء يارغه وصارى كوى وهنالك يمر من وسط عين الماء المعبر عنه بشيك كل الى مصب نهرى أستروما وقره صو ومن السواحل الى بوروكل ويمتد الى الشمال الغربى و يمر على سلسلة جبل رودوب الى جبلى جالتپه وأوشوه ويمر من جبال أشك قولاج وجبيلون وقره قولاس وجيقلر الى نهر أرده ويلتفت الى جهة الجنوب ويمر من قرامسو وكوتلى وقره حمزه وارتاد كوى وآقارجى وأبنجه الى تكه دره سى فى قرب أدرنه ومن تكه دره سى وجورلى دره سى الى لوله برغوث ومن هنا وعن نهرحوجق دره الى قرية سوركن ومنها الى التلال ويقطع حكيم طابيه سى حتى يتصل بساحل البحر الاسود ويبتدئ أيضا من صقالبة السواحل ويمر من شمال حدود لواء طوجلى ومن فرق راسوه الى نهر الطونة

المادة السابعة * ان أمير الصقالبة يصير انتخابه من طرف الاهالى بالحرية التامة والباب العالى يثبته بانضمام آراء الدول ولا يجوز انتخاب أحد من أقارب دول أوربا الجالسين على سرير الملك للامارة المذكورة وحينما تنحل الامارة كذلك يكون انتخاب الامير الجديد على هذا المنوال وهاته الشروط وقد تقرر أنه ينبغى من قبل انتخاب الامير أن يجتمع مجلس مشيرى الصقالبة اما فى قلبه واما فى طرنوه تحت نظارة مأمورين من طرف الروسيه وفى حضور مأمورين من طرف الدولة العلية وتؤسس نظامات هذه الادارة المستقلة توفيقا لامثالها أعنى لنظامات المملكتين التى تنظمت فى سنة ثلاثين وثمانمائة وألف ميلادية بعد انعقاد مصالحة أدرنه وعند تأسيس تلك النظامات ستصير وقاية حقوق ومنافع الاهالى من المسلمين والروم والافلاخ وغيرهم الموجودين والمختلطين مع الصقالبة وتقرر أيضا احالة تأسيس هذه الادارة الجديدة فى البلغارستان مع مايلزم من النظر فى صور اجرائها لعهدة مأمورين موظفين من طرف دولة الروسيه من هنا الى سنتين وفى انقضاء السنة الاولى من تأسيس الادارة الجديدة اذا لم يحصل اتفاق بهذا الشأن فيما بين الروسيه والباب العالى ودول أوربا يكون للدول المشار اليهم حق أن يوظفوا مأمورين برفق مأمورين الروسيه

المادة الثامنة * ليس لعساكر الدولة العثمانية حق بعد هذا للاقامة فى البلغارستان وسيصير هدم القلاع القديمة الكائنة هنالك بمعرفة الحكومة المحلية وان الباب العالى له حق أن يتصرف فى الادوات الحربية الموجودة فى قلاع الطونة التى صار اخلاؤها من العساكر بموجب

سند المتاركة الذى تحرر فى حادى ثلاثين كانون الثانى والآلات الحربية الكائنة فى مدينتى شمنى ووارنه وجميع الاملاك المتعلقة بالحكومة العثمانية كيفما شاء وتبقى عساكر الروسية فى البلغارستان مقيمة الى أن ينتهى ترتيب العساكر الملية المحلية الكافية لحفظ الراحة وتوطيد الامنية واذا اقتضت الحال يقومون فعلا باعانة المأمورين وسيصير تعيين عدد العساكر الملية بالاتفاق فيما بين الدولة العلية ودولة الروسية وان مدة اقامة عساكر الروسية فى البلغارستان تكون سنتين والعساكر التى تبقى هنالك بعد خروج جميع العساكر الروسية من بلاد الدولة العلية تكون عبارة عن ست فرق مشاة وفرقتين خيالة وجميعها خمسون ألفا ومصروف هؤلاء العساكر يكون على بلاد الصقالبة ويكون لها طرق مراسلات فى المملكتين فى شطوط البحر الاسود من جهة وارنه وبرغوس وفى مدة اقامتها هنالك يكون لها المخازن المقتضية على الشطوط المذكورة

المادة التاسعة ۞ ان المرتب السنوى الذى يلزم على البلغارستان ايفاؤه للدولة العلية يسلم الى البنك الذى يعينه الباب العالى وهذا البنك يصير تعيينه بمعرفة دولة الروسية والدولة العلية وسائر الدول وذلك فى انتهاء السنة الاولى من ابتداء اجراء أصول الادارة الجديدة ومقدار ذلك المرتب يتأسس بالنظر لايراد البلاد والاراضى التى تكون فى ادارة الامارة على الحساب المتوسط والبلغارستان تتعهد بالقيام بالتعهد الذى على الدولة العلية الى شركة سكة الحديد فى طريق وارنة وروسجق غب المذاكرة المذكورة ومع الباب العالى وادارة الشركة المذكورة ومسئلة السكة الحديد الاخرى الموجودة ضمن الامارة يصير فصلها بمعرفة الدولة العلية وحكومة الصقالبة وادارة الشركة

المادة العاشرة ۞ ان الباب العالى له حق أن ينقل ويجلب عساكر ومهمات وذخرة من الطريق المعينة فى داخل البلغارستان الى الايالات العثمانية التى وراء البلغارستان ولاجل عدم وقوع مشاكل فى هذا الخصوص وتأمين الايجابات العسكرية العثمانية سيوضع نظام بالاتفاق مع الباب العالى والامارة من ابتداء تعاطى هذه المعاهدة الى ثلاثة أشهر فى ذلك وهذا الحق المتعلق بالمرور والعبور يختص بالعساكر النظامية فقط دون الباشبوزق والجراكسة والعساكر المعاونة وللباب العالى كذلك أن يتعاطى البوسطة من طريق الامارة ويستعمل مسالك التلغراف فى مخابراته فهذان الامران كذلك يصير تعيينهما وتنظيمهما فى المدة والشروط المحررة أعلاه

المادة الحادية عشرة ۞ ان المسلمين وغيرهم من أصحاب الاملاك اذا أرادوا الاقامة فى خارج الامارة لهم أن يحفظوا أملاكهم ويؤجروها أو يفوّضوا أمر ادارتها الى من يريدونه ثم ان مأمور الدولة العلية ومأمور الصقالبة يجتمعان تحت نظارة مأمور الروسية ويفعلون المسائل المتعلقة بتصرف الاملاك وفى منافع مسلمى الصقالبة وذلك يكون فى ظرف سنتين والاملاك الميرية والموقوفة يصير تعيين أمرها اما بالبيع واما باستعمالها على الوجه الذى يكون فيه

النفع الزائد لجهة الباب العالى ويصير تعيين ذلك بمعرفة لجان مخصوصة محدودة فى السنتين المذكورتين والأراضى التى تبقى بدون صاحب عند انقضاض السنتين يصير طرحها فى المزاد وتباع ويؤخذ ثمنها ويدفع الى أيتام وأرامل المصابين فى الأحوال الأخيرة من المسلمين والمسيحيين

المادة الثانية عشرة ۞ ان القلاع الكائنة على نهر الطونة يصير هدمها جميعا ولا يبقى من بعد هذا على سواحل الطونة قلعة مّا مطلقا ولا يجوز وجود سفن حربية فى مياه رومانيا والصرب والصقالبة سوى السفن الصغيرة والفلوكات المختصة والمستعملة فى أمور الضبط فقط وحقوق ووظائف وامتيازات لجنة الطونة المختلطة تبقى بتمامها على أصلها

المادة الثالثة عشرة ۞ ان الباب العالى يتعهد بتنظيف البحر فى مضيق سنه وارجاعه الى حاله السابق ليصلح لمرور السفن منه ويتعهد أن يضمن العطل والضرر الذى حصل للتجار بسبب منع مرور السفن من نهر الطونه مدة الحرب وسيصير خصم خمسمائة ألف فرنك من أصل دين لجنة الطونة الى الباب العالى لاجل هذا الامر

المادة الرابعة عشرة ۞ ان الاصلاحات التى تبلغت الى مرخص الباب العالى فى أول جلسة مؤتمر الاستانة ينبغى حالا وضعها فى موقع الاجراء فى بوسنه وهرسك مع التعديلات التى ستقرر فيما بين دولتى الروسيه وأوستريا ويجب أن لا يطلب من هاتين الايالتين بقايا الاموال الميريه وأن لا يؤخذ شئ من الواردات الى ابتداء شهر مارس سنة ١٨٨٠ بل تصرف كلها فى الاحتياجات المحلية ويسدّ بها عوز الاهالى والعيال الذين أصيبوا فى الاحوال الاخيرة ومن بعد انقضاء المدة المذكورة يتعين المبلغ الذى يلزم على الاهالى دفعه فى كل سنة الى الحكومة المركزية بالاتفاق فيما بين الدولة العلية ودولتى الروسيه وأوستريا

المادة الخامسة عشرة * يتعهد الباب العالى باجراء أحكام النظام الاساسى الذى وضع فى سنة ثمان وستين وثمانمائة وألف المختص بجزيرة كريد طبق مطلوب الاهالى الذى بينوه مقدما ويلزم اجراء الاصلاحات المماثلة لنظامات كريد فى ترحاله ويانيه وفى سائر جهات الروم ايلى التى ليس لها نظامات مخصوصة ويصير تشكيل لجنة مركبة من الاهالى المحلية فى كل ايالة لاجل ترتيب وتأليف النظامات الجديدة ثم يصير تقديمها الى الباب العالى وهو يتذاكر مع دولة الروسية فى ذلك

المادة السادسة عشرة * ان خروج عساكر الروسيه من الارمنستان وارجاع تلك البلاد الى الدولة العلية يمكن أن يفضى الى المناقشة والاختلاف فيما بينهما فلهذا يتعهد الباب العالى حالا باجراء الاصلاحات على حسب الاحتياجات المحلية فى الولايات التى سكانها أرمن وتأمين المسيحيين من تعدى الاكراد والجراكسه

المادة السابعة عشرة * ان الباب العالى سيعلن العفو العمومى عن المتهمين فى الاحوال الاخيرة ويطلق سبيل المحبوسين والمنفيين بسبب ذلك

المادة الثامنة عشرة ﴿ ان الباب العالى يتعهد بالتبصر بعين الدقة الى ماينبه وكلاء الدول المتوسطة فى خصوص قضاء قوتور وتعيين الحدود الايرانية على الوجه القطعى

المادة التاسعة عشرة ﴿ ان مبالغ التضمينات الحربية التى طلبها حضرة قيصر الروسيه هى فى مقابلة الاضرار والخسائر التى تكبدتها دولته بسبب هذه الحرب والباب العالى قد تعهد بدفعها فمن هاته المبالغ أولا ـ تسعمائة مليون روبل فى مقابلة مصروف العساكر والادوات الحربية والاشياء التالفة وثانيا ـ أربعمائة مليون روبل لاجل الاضرار الحاصلة فى سواحل بلاد الروسية الجنوبية وفى اخراجات البضائع التجارية وفى طرق الحديد وثالثا ـ مائة مليون روبل فى مقابلة الضرر الحاصل من الهجوم على قوقاس ورابعا ـ عشرة ملايين روبل لاجل الخسائر التى حصلت لتبعة الروسية المقيمين فى الممالك العثمانية والتأسيساتها فعلى ذلك تكون هذه المبالغ من حيث المجموع عبارة عن مليار واحد وأربعمائة مليون وعشرة ملايين روبل يعنى مائتين وخمسة وأربعين مليونا ومائتين وسبعة عشر ألفا وثلثمائة وأحدا وتسعين ليره عثمانية وريال مجيدى أبيض ونصف * هذا وان القيصر المشار اليه قد لاحظ ضيق حال الدولة العلية من جهة المال وتأمل فى مقاصدها التى نوهت عنها فى هذا الشأن فلذلك قد قبل أن تترك الدولة العلية الاراضى المحررة أسماؤها أدناه عوضا عن القسم الاكثر من المبالغ المذكورة أولا ـ لواء طولجى يعنى قضاء كيليا وسنه ومحموديه وايساقجى وياجين وبابا طاغى وخرسوه ولوسنجه ومجيديه والجزائر الكائنة فى نهر طونه قد تركتها الدولة العلية جميعا الا أن الدولة الروسية ليس لها فكر بالحاق هاته البلاد الى ملكها بل انها تحفظ حق مبادلة هذه البلاد بقطعة بسارابيا التى أخذت منها بموجب معاهدة سنة ست وخمسين وثمانمائة وألف فحدود قطعة بسارابيا من جهة الجنوب طرف من أراضى كيليا ومصب نهر الطونة والجهات التى يصطادون بها السمك فى النهر يصير تفريقها بمعرفة مأمورين من طرف الروسيه ومن حكومة المملكتين فى برهة سنة واحدة اعتبارا من تاريخ تعاطى هذه المعاهدة ثانيا ـ اردهان وقيرص وباطوم وبايزيد مع الاراضى المحاذية لها الى جبل جوغانلى سيصير تسليمها الى دولة روسيه وحينئذ الحدود الفاصلة تكون هكذا أعنى يبتدئ الخط الفاصل من الجبال التى فيما بين المياه الجارية والمنصبة فى نهر هوبا وجوروق ويمر من الجبال المتسلسلة الواقعة فى جنوب قضاء وارتوين ومن جوار قريتى والات وبشاكت ومن فوق درونيسك وكنى وهوجسه زاد ويحقين صاغ ومن الجبال الفاصلة للمياه التى تختلط بنهرى تورتم وجورق ومن فوق قراء يالى وهين ولم كايا الى أن ينتهى لنهر تورتم ومن هنالك يمر من سيوردى طاغ ومن مضيق سيوردى طاغ ويتصل بقرية نرعمان ويلتفت الى وجهة الجنوب حتى يصل الى زوين ومن زوين يمر من غربى طريق أردوست خراسان الى جنوب جبل جوغانلى ويتصل بقرية كيلجمان ومنها يمر من جبل تريا ومن قرية نجير ومن أون رست مسافة

ومن تلال طاندور ومن جنوب وادي بايزيد وينتهي في الجهة الجنوبية من قازلي كول وهذا الحل هو الحد الفاصل قديما فيما بين حدود أرض الدولة العلية وأراضي دولة ايران وإن الاراضي التي صار الحاقها بممالك الروسية ومذكورة في الخريطة المربوطة لهذه المعاهدات يصير تعيين حدودها قطعيا بمعرفة مأمور من طرف الروسية ومأمور من طرف الدولة العلية وهما يلاحظان قواعد تخطيط الاراضي وأسباب تأمين حسن الادارة

ثالثا * إن الاراضي التي صار تركها للدولة الروسية كما هو محرر أعلاه قد اعتبرت بمبلغ مليار ومائة وعشرة ملايين روبل وأما الباقي من التضمينات وهو ثلثمائة مليون روبل ما عدا العشرة ملايين روبل التي هي في مقابلة خسائر تبعة الروسية وتأسيساتها فستتفق دولة الروسية مع الدولة العلية على قضية دفعها وتأمين وفائها

رابعا * إن العشرة ملايين روبل التي تخص التبعة الروسية ومؤسساتها يصير تسويتها هكذا . أعني أن سفارة الروسية في الاستانة تجري التدقيقات اللازمة بهذا الشأن على طلبات أرباب الشأن وتعرض الكيفية على الباب العالي وهو يجري التسوية على مقتضى تبليغات السفارة

المادة العشرون * إن الباب العالي يتعهد بأن يستعمل التدابير المؤثرة سريعا في جميع الدعاوى المتنازع فيها منذ سنين عديدة المتعلقة بتبعة الروسية وأنه اذا اقتضى الامر يدفع تضمينات وينفذ أحكام الاعلامات

المادة الحادية والعشرون * إن أهالي البلاد التي سلمت الى الروسية إن أرادوا الهجرة منها لهم أن يبيعوا أملاكهم وأراضيهم ويهاجروا وقد أعطي لهم مهلة في ذلك ثلاث سنين من تاريخ تعاطي هذه المعاهدة فالذين لا يبيعون أملاكهم في هذه المدة ولا يهاجرون يدخلون في حكم الروسية عند انقضاء تلك المدة . والأملاك الاميرية والموقوفة يصير بيعها على حسب الاصول التي يعينها مأمور الروسية ومأمور الدولة العلية في بحر السنين المذكورة وهما يتممان ايفاء كيفية نقل الادوات الحربية الموجودة في المحلات التي هي الآن في يد الروس سواء كانت من البلاد التي سلمت الى دولة الروسية أو غيرها

المادة الثانية والعشرون * ان القسيسين والزوار الذين يسكنون أو يسيحون في الممالك العثمانية في الروم ايلي والاناطول من تبعة الروسية سينالون الحقوق والامتيازات التي ينالها القسيسون والزوار من تبعة سائر الدول سوية وسفارة الروسية الكائنة في الاستانة وقناصلها يحمون حقوق أولئك الاشخاص وذواتهم ومؤسساتهم والرهبان وغيرهم الموجودون في الاماكن المقدسة وبالخصوص في اينورز فهم حائزون حقوقهم التي كانوا حائزين عليها في السابق ويحفظون الديارات الثلاثة الكائنة في اينورز مع مشتملاتها المتعلقة بهم كسائر الديارات والموسسات المذهبية الكائنة لغيرهم هنالك سوية

المادة الثالثة والعشرون * إن المعاهدات والمقاولات التي كانت موجودة فيما بين

الدولة العلية والروسية المتعلقة بالتجارة والحاكمة وبتبعة الروسية المقيمين فى بلاد الدولة العلية وتعطلت أحكامها بسبب هذه الحرب ينبغى ان تجرى أحكامها كما فى السابق وان دولتى الروسية والعثمانية قد أعادتا العلاقات الى سابق مجراها قبل هذه الحرب فى الامور التجارية وغيرها فيقتضى إحكام عرى المعاهدات والمقاولات المذكورة ماعدا المواد التى نسختها هاته المعاهدة

المادة الرابعة والعشرون ۞ ان خليج الاستانة وخليج جناق قلعه سواء كان فى زمن الحرب أوزمن الصلح يكون مفتوحا للسفن التجارية التى تريد المرور منه الى بلاد الروسية من الدول التى تكون على الحيادة والباب العالى ليس له من بعد هذا أن يستبد بمراقبة الشطوط الواقعة فيما بين البحر الأسود وبحر الأزاق المخالف لمضمون معاهدة باريز التى صار امضاؤها فى رابع ابريل سنة ١٨٥٦ سنة ست وخمسين وثمانمائة والف

المادة الخامسة والعشرون ۞ ان عساكر الروس يخرجون من بلاد الدولة العلية الكائنة فى أوربا بالروم ايلى ما عدا البلغارستان وذلك من تاريخ انعقاد الصلح القطعى الى ثلاثة أشهر هذا وان العساكر المذكورة لهم أن يأتوا الى الاساكل الموجودة فى البحر الاسود وبحر مرمرة عند السفر للركوب فى السفائن التى تحضرها أوتستأجرها دولة الروسية حتى لايكونوا مجبورين على تحديد مدة الاقامة فى الممالك العثمانية وفى رومانيا وأما خروج عساكر الروسية من الاناطول فيكون بعد انعقاد الصلح القطعى بستة أشهر ولهم أن يأتوا الى طرابزون لأجل الركوب فى السفن ومن هنالك يسافرون الى القريم أو القوقاز

المادة السادسة والعشرون ۞ ان قواعد الادارة والاوامر التى وضعتها دولة الروسية فى البلاد التى دخلتها عساكرها والتى ينبغى تسليمها الى الدولة العلية بموجب هذه المعاهدة تكون باقية وجارية الى حين قيام العساكر منها وليس للباب العالى المشاركة فى الاحكام ولا لعساكر العثمانية الدخول اليها قبل ذلك بناء على هذا فان أمير عساكر الروسية يخبر الضابط الذى يعينه الباب العالى عن سفر عساكر الروسية وليس للباب العالى أن يجرى الاحكام من قبل أن تسلم له القلاع والايالات

المادة السابعة والعشرون ۞ ان الباب العالى لا يجازى أحدا بسوء من تبعته الذين لهم علاقة مع دولة الروسية فى زمن الحرب وليس لمأمورى الدولة العلية أن يمنعوا أو يوقفوا أحدا من الاهالى الذين يرغبون أن يسافروا مع العساكر الروسية

المادة الثامنة والعشرون ۞ ان أسرى الحرب يصير ارجاعهم تحت ملاحظة مأمورين معينين من طرف الدولتين وذلك عقب تعاطى مقدمات الصلح وهؤلاء المأمورون يسافرون الى أودسة وسيواستاپول وأما مصروف أسراء العساكر العثمانية فتدفعه الدولة العلية فى ظرف ست سنوات على ثمانية عشر قسطا بموجب الدفتر الذى يحرره المأمورون المذكورون وأما قضية مبادلة الاسرى فيما بين حكومتى رومانيا والصرب وامارة الجبل الأسود فيصير

اجراؤها على هذا الأساس الا انه يصير تنزيل العدد الذى تستلمه الدولة العلية من العدد الذى تستلمه من الأسرى

المادة التاسعة والعشرون ❁ ان حضرة امبراطور الروسية والحضرة السلطانية سيثبتون هذه المعاهدة و وثائق الاتفاق تكون معاطاتها فى سان بطرسبورج فى ظرف خمسة عشر يوما أو بوجه أسرع من ذلك ان أمكن وكذلك يجرى التصديق رسميا على الشروط المذكورة فى هذه المعاهدة على حسب الأصول الجارية فى المعاهدات الصلحية وان الدولتين المتعاهدتين من تاريخ تعاطى المعاهدة تعدان أنفسهما رسميا بانهما متعهدتان بان مرخصى الطرفين قد أمضوا هذه المعاهدة كما يأتى تصديقا لمضمونها (انتهت كما رقمها صاحب الجوائب) ثم جاء بعد ذلك مانصه ❁ ان معاهدة مقدمة الصلح التى صار امضاؤها فى هذا اليوم أعنى فى تاسع عشر شعبان وثالث ادار سنة ثمان وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية قد حصل سهو بها فى الجملة الاخيرة من المادة الحادية عشرة فلذلك زيدت العبارة الآتية واعتبرت جزأ متمما للمعاهدة المذكورة وهى

انّ الذين يقيمون أو يسيحون فى الممالك العثمانية من أهالى البلغارستان يكونون تابعين للقوانين العثمانية انتهى

قال بعض كتاب الاخبار ❁ فلم تكن لترضى هذه المعاهدة سكان البلاد المنسلخة عن السلطنة العثمانية ولا بقية الدول وعلى الخصوص منها دولة الانجليز فانها أصبحت وكأن الطير على رؤس كبار ساستها فقد هاجوا وماجوا وأوعزوا الى دولة النمسا فقام أصحاب الكلمة فيها يطالبون بحل عقد هذا التحالف ويرمون دولة الروس بالخديعة والمكر ويقولون لاسبيل الى ترك بوسنه وهرسك مضغة لينة لغيرنا ولا بد من أخذ مينا سلانيك لتغنينا عن تريستا التى أكثرت ايطاليا تهديدنا ووعيدنا بسببها وكتب كبير ساسة الانجليز الى دولة الروس يقول ان كل عمل تأتيه الروسية مع الدولة العلية مخالفا لنصوص معاهدة سنة ست وخمسين وثمانمائة وألف المبرمة فى عاصمة الفرنسيس لا يعمل به الا برضا جميع الدول الضامنة لتلك المعاهدة وسألت دولة النمسا بقية الدول فى عقد مؤتمر فى مدينة برلين عاصمة الالمان للنظر فى مدعياتها فأجابتها الى ذلك واشترطت دولة الانجليز أن يكون لاعضاء هذا المؤتمر حق النظر فى جميع مواد معاهدة سان اسطفانوس والاتيان عليها من سائر أبوابها فما نعت دولة الروس فى ذلك وشددت فى المنع وعظم الخلاف بين الروس والانجليز واستفحل الخطب وجعل كل فريق يتأهب لقتال الآخر وكثر اهتمام الانجليز بحشد الجنود واعداد معدات القتال وجعل سفن حربهم على قدم الاستعداد أمام جزيرة مالطة واستقدموا عدة طوائف من عساكرهم الهندية الى الجزيرة المذكورة كى يكونوا على مقربة من دار السلطنة عند الحاجة اليهم وبالغت دولة الروس كذلك فى حشد الجنود وتسليح الكثير من سفن التجارة بالمدافع الضخمة لتسحق بها سفن تجارة الانجليز عند

انتشاب الحرب بين الفريقين واشتد الخوف وعم الاضطراب وقامت الفتنة فى البلغارستان وخرج من بها من المسلمين على الروس وقاتلوهم وتحصنوا فى الجبال فعز على الروس ارجاعهم الى الطاعة وعمت الفتنة جميع البلغارستان وضواحى صوفيا الى حدود الصرب واشتدت وبقى الحال هكذا أياما ومراكب حرب الانجليز راسية أمام دار السلطنة وعساكر الروس حولها من كل صوب ودخل الصيف وزال الشتاء فتفشت الأمراض فى عسكر الروس ووقع فى الجند الموات فكبر الامر على القيصر وسير الى خاله امبراطور الألمان فى الوساطة بينه وبين الانجليز وأنفذ الى سفيره بعاصمة الانجليز فى ذلك أيضا فانفتح باب المخابرة فى الصلح والوقوف عند حد يكون فيه المصلحة للفريقين ثم اتفق الروس والانجليز على عقد المؤتمر فى برلين عاصمة الالمان كطلب دولة النمسا وكتبوا الى البرنس بسمارك كبير سياسة الألمان فى أمر ذلك فانفذ الى بقية الدول بان تبعث سفراء من قبلهم فجاءت سفراؤهم الى برلين بعد أخذ ورد وانعقد المؤتمر وتكلموا فى معاهدة سان اصطفانوس وفيما يجب تغييره من أحكامها قال بعض الكتاب * وقال اللورد بيكنشفيلد كبير سياسة الانجليز يومئذ ولماذا لاتنسحب العساكر الروسية عن ضواحى دار السلطنة العثمانية فاجابه البرنس غورتشاكوف كبير سياسة الروس حتى تنسحب السفن الانكليزية من مياه القسطنطينية فعارضه بيكنشفيلد فى ذلك ورد عليه غورتشاكوف وعلت أصواتهما واشتد بينهما اللدد وكاد ينحل عقدالمؤتمر لولاوساطة بسمارك وحسن سياسته * ومازال المؤتمر يوالى جلساته حتى تم الاتفاق على ما أرادوه وكتبوا به عهدا فى عاشر رجب سنة خمس وتسعين ومائتين وألف هجرية أى ثالث عشر يوليو سنة ثمان وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية وهو المعروف بمعاهدة برلين وهى تحتوى على أربع وستين مادة قد أضربنا عن ايرادها هنا وكان من أحكامها انفصال ولاية البلغار انفصالا تاما عن ممالك الدولة العثمانية وتسليم البوسنه والهرسك الى دولة النمسا والمجر تسليما لا رد بعده واعطاء اليونانية جزأ من أراضى الدولة العلية توسيعا لحدودها وكذلك اتسعت حدود الصرب وحدود الجبل الاسود واعطاء أمير الجبل المذكور مينا انتيغارى المهمة الواقعة على بحر الأدرياتيك وقد نالت كذلك دولة فارس جزأ من الاملاك العثمانية اسوة بغيرها أما دولة الانجليز فانها لم تكتف من الغنيمة بالاياب بل أخذت جزيرة قبرص على شروط وعهود قد اضربنا عن ايرادها هنا وانقضت تلك الحرب المشؤمة وقد خسرت فيها السلطنة العثمانية من المال والرجال والاراضى ما كاد أن يخلخل أركانها بل يقوض بنيانها ويمحى ما بقى من آثار مجدها القديم والامر يومئذ لله الواحد القهار

ولما عادت الامور الى سابق مجراها أظهر السلطان ميله الى موالاة الروس ومحبة قيصرهم وكرهه لسياسة الانجليز ثم عمد الى قطع شأفة المفسدين وأصحاب السعاية والفتن والمتحيزين للانجليز من كبار الدولة وأصحاب الوظائف العالية ورسم بتحقيق مقتل عمه

السلطان عبد العزيز وقد بث العيون والجواسيس حول جميع من كان لهم يد فى تلك الفتنة وشدد فى الامر وقيد بذلك جماعة من كبار المحا كم فقبضوا على كل من ظهرت تهمته فى ارتكاب هذه الجناية * قال أحد الكتاب فكانوا خمسة عشر شخصا منهم مصطفى البهلوان ومصطفى الجزايرلى والحاج احمد أغا ونجيب بيك وعلى بيك ونورى باشا ومحمد جلال الدين باشا أصهار السلطان عبد الحميد سلطان هذا الوقت ومحمد رشدى باشا وخير الله أفندى شيخ الاسلام والساطانة والدة السلطان مراد وأربعة آخرون وقد أثبتوا عليهم ارتكاب هذه الجناية الشنعاء

فلما كان رابع جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين ومائتين وألف هجرية انعقدت محكمة القضاء لمحاكمتهم فأتى بهم أمام دائرة الجنايات وكانت هذه الدائرة مشكلة من رئيس اسمه تميستوفل خرستو فوتيادى يونانى الجنس عثمانى التبعة وثلاثة قضاة آخرين أحدهم أرمنى واسمه اسكندر افندى والاثنان مسلمان وتعين لرئاسة الجلسات التى عهد اليها النظر فى هذه الدعوى سرورى افندى رئيس دائرة محكمة الاستئناف وهو الذى تولى التحقيقات الابتدائية وقد حضر فى قاعة الجلسة السفراء والوكلاء وقناصل سائر الدول وموظفو الحكومة وأرباب المناصب العالية وكتاب صحف الاخبار فلما استقر من حضروا المقام نودى على المتهمين وقد كانت نصبت لهم خيمة كبيرة بجانب حرس مالطة على بعد من سراية يلدز فحضر أولا مصطفى البهلوان ومصطفى الجزايرلى والحاج احمد أغا ونجيب بيك وعلى بيك ونخرى بيك وسعيد بيك ورضا بيك ثم استحضروا نورى باشا ومحمد جلال الدين باشا وكان المدعى العمومى اسمه لطيف بيك فافتتح الرئيس الجلسة وأخذ فى تعريف المتهمين وقد محض النصيحة للمحامين الذين انتدبوا للدفاع عنهم ثم أشار بتلاوة المثبت فى صحيفة التحقيق وأوراقه فجعل يتلوها عز الله افندى باشكاتب الدائرة واستمر فى تلاوة هذه الأوراق نحو ثلاث ساعات فكان حاصل مافيها

انه بعد خلع السلطان مراد وجلوس السلطان عبد الحميد على سرير الملك رسم بترتيب مصروفات السراى السلطانية وبحث فى أمر المرتبات فوجد أن ثلاثة أشخاص من صغار المأمورين عين لهم مائة ليرة عثمانية معاشا شهريا فبحث عن سبب ترتيب هذا المعاش لهم فعلم انه ترتب لهم مكافأة على قتل المرحوم السلطان عبد العزيز وهؤلاء المأمورون هم مصطفى البهلوان ومصطفى الجزايرلى والحاج احمد أغا فلما سئلوا عن ذلك اعترفوا بالحقيقة وقالوا ان محمد جلال الدين باشا ونورى باشا أصهار الحضرة السلطانية هما اللذان أغرياهم على فعل القتل وان محمود باشا زودهم بما يلزم فعله وزادهم علما به نورى باشا وشدد عليهم بكتمان الامر بأيمان القسامة وقد وافق على اجراء هذا الفعل العظيم هيئة تألفت من محمد رشدى باشا الصدر الاعظم ومدحت باشا وحسين عونى باشا وخير الله أفندى شيخ الاسلام فانهم كانوا استصدروا من السلطان مراد قبل خلعه فرمانا بان لايقع فى داخلية

السلطنة

السلطنة وخارجها شئ الا بأمر هـذه الهيئة فظهر من التحقيق أن قتل السلطان عبد العزيز كان بموافقة رأى هذه الهيئة وثبت أن المتآمرين كان من قصدهم أيضا اغتيال جميع العائلة السلطانية حيث دعوهم جميعا الى مأدبة أعدها جلال الدين باشا في قسطية في أعاك بك أوغلى فأحسوا بالمكيدة وامتنعوا عن الذهاب الى تلك الناحية * وبناء على ما ظهر فى هذه القضية حكمت النظارة (لعلها دائرة التحقيق عندهم) على المتهمين الذين هم محمد جلال الدين باشا ونورى باشا ومدحت باشا ومحمد رشدى باشا وخير الله افندى شيخ الاسلام والسلطانة والدة السلطان مراد بالاشغال الشاقه الى أمد طبقا للمادة الحادية والتسعين من قانون العقوبات وعلى السلطان مراد بهذا الجزاء أيضا وبأن يعافى من ذلك لاختلال عقله وحكمت بالقتل على فخرى بك ومصطفى الجزايرلى ومصطفى البهلوان والحاج احمد أغا ونجيب بك وعلى بك وسعيد بك ورضا بك طبقا للمادة المائة وسبعين من قانون العقوبات * وبعد تلاوة الاوراق لخص سرورى افندى الرئيس الدعاوى وأخذ فى استنطاق المتهمين فسأل مصطفى البهلوان أولا فقال

قد استدعانى محمد جلال الدين باشا يوما وقال لى انه رتب لى مائة ليرة عثمانية فى كل شهر ولرفيقى مصطفى الجزايرلى أيضا على ان نقوم بمهمة قتل السلطان عبد العزيز بواسطة فتح عروقه بمقرض أعده لنا ثم استدعانى نورى باشا أنا ورفيقى وأوصانا بما ذكر وبالغ فى الوصية وشدد علينا فى الامر وقال لم يبق لنا حيلة سوى الخلاص من أسر هذا السلطان واسترقاقه لنا واستحلفنا على كتمان السر فحلفنا فناول كلا منا ثلاثين ليرة عثمانية . فلما كان عصر اليوم أدخلنى نجيب بك وعلى بك الضابطان اللذان كانا يحرسان السراى باورطة كوى أنا ورفاقى وأربعة من الخصيان الى مقر السلطان عبد العزيز فقتلناه بحضرة فخرى بك وهو الذى قبض على السلطان من كتفيه ومصطفى الجزايرلى والحاج أحمد أغا قبضا على ساقيه بعنف وشدة كى لا يستطيع التخلص فقبضت أنا على ذراعه وقطعت أوردته ثم على الثانى وفعلت به كذلك وهو يصيح ويستغيث وكان نجيب بك وعلى بك فى هذا الحين يحرسان باب الدائرة فلما قضى السلطان نحبه حملوا جثته وهى ملفوفة ببعض الثياب ووضعت فى حجرة قهوة وجاق الحرس على حصير من القش كانت هنالك . .

فسأله الرئيس — أصحيح ما قيل ان السلطان كان به رمق من الحياة حين نقل به الى الحرس فقال البهلوان لا علم لى بذلك غير أنى أظن أنه كان قد مات وشبع موتا . .

فالتفت الرئيس الى الحاج أحمد أغا وسأله فاعترف ولم ينكر من فعله شيأ ثم سأل مصطفى الجزايرلى فتلعثم وتلون واختلفت أقواله عما اعترف به فى التحقيق الابتدائى ثم قال ان ما قلته من أن نورى باشا قد حلفنا اليمين بأن نقتل السلطان ونكتم سر ذلك خطأ منى فان نورى باشا لم يأمرنا بشئ من ذلك بل أوصانا بأن نخدم السلطان أحسن خدمة وان نقترب من مقامه ان شاء أن نكون بحضرته وأن نعتنى بحراسة مقره غاية الاعتناء

فعلنا عما أوصانا به الى ان قتل السلطان نفسه ـ فقال الرئيس ـ أولم تشترك مع رفاقك في قتل السلطان فقال حاشا فقد كنت وقت قتله في أسفل الدائرة فلما سمعت الغوغاء صعدت مع من صعد من الناس لأعرف الخبر فوجدت ان السلطان قد قتل فقال الرئيس قد خالفت ما اعترفت به في التحقيق الاول فقال اخطأت مرادى أن أقول سمعت الغوغاء فتوهمت حريقا في السراى فهرولت اليها فقالوا لى ان السلطان قتل نفسه

فنظر الرئيس الى فخرى بك وسأله فقص ماوقع من السلطان عبد العزيز وانتقاله الى طوب قبو واقامته بها بعد أن كتب ورقة الى السلطان مراد وهو في سراى شراغان ثم قال ـ ان السلطان عبد العزيز ما دخل هذا المكان حتى بدأت تظهر عليه علامات الجنون والهذيان فقد رأى حزمة في أرض الجنينة لتذويب الكلس فاضطرب منها وقال انها من علامات السوء ودلائل النحس ثم سمع طلق مدفع فقال ان أهل البلاد انقسموا الى حزبين وهاهم يتضاربون من أجله ـ قال ـ وكان السلطان يقول انه لابد من ان يقتل كما قتل السلطان سليم واتفق أن رأى نفرا من الجند يدخنون السيجار تحت شبابيك السراى فجعل يشتمهم ويعزرهم على كفرهم بالاحسان ـ ورأى مركبا حربية آتية لترسو تجاه قصره فصاح مناديا بانهم لايلبثون أن يطلقوا القنابل على مقره ـ قال ـ وفي تلك المدة دعيت الى حوس أورطة كوى حيث كان نجيب بك وعلى بك فاخبرانى بان عندهم ثلاثة أشخاص لابد من ادخالهم الى مقر السلطان تنفيذا للارادة الشاهانية وان هؤلاء الاشخاص مأذونون بنقل بعض المتاع من السراى فعارضتهما ولكن اضطررت بعيد ذلك الى الاذعان فدخلوا وقد رجعت الى مقر السلطان فكنت أرى علامات الجنون تزداد عليه حتى كان يتوهم أن سقف السراى يلتهب نارا وان الاعداء أوقدوا فيه النار عمدا وقد طلب مرآة ومقصا لكى يهندم لحيته وكنت أمرت أن لايعطى شيأ ولكن بالرغم عنى أعطوه ما طلب فانزوى في مخدعه وقفل بابه فحضرت احدى جوارى والدته وجعلت تنظر من الطاق لتعرف ما الذى يفعله فلما لم تتمكن من ذلك صاحت وعلا صوتها فأسرعت الى الدائرة فوجدته مطروحا غريقا في دمه ـ فقال الرئيس ـ قد كان عند السلطان سيف السلطان سليم فهل أخذت ذلك السيف ـ فقال نعم ولكن وضعته مع بقية الاشياء التى أخذت بأمر الذات السلطانية ـ فقال الرئيس ـ لمن سلمته ـ فقال أدخلته من الطاق وأعطيته لأحد الحراس ـ الرئيس ـ من هو هذا الحارس ـ لا أعرف اسمه

الرئيس ـ قد تطرك مساء وأنت تتكلم في موضع الحرس مع جلال الدين باشا وحسين عونى باشا ونورى باشا

نعم ـ قد كانوا استدعونى ليتحدثوا معى بشأن خدام السراى

الرئيس ـ لمن سلمت السيف ـ لا أعرف ـ لا يخطر لعاقل على بال أنك تكون سلمته لمن لا تعرفه

ثم سئل نجيب بك الذى كان متوليا رئاسة حراسة الباب المشرف على الرصيف فى أمر مقتـل السلطان فأنكره وأكد أنه قتـل نفسه ـ قال ـ وقد كنت مكلفا بحراسة متاع السلطان المأخوذ من السراى ففى ليـلة هذه الحادثة ذهبت الى سراى دوله بغجـه حيث تقابلت مع جـلال الدين باشا وأخذت منـه سلسلة من ذهب وساعـة ثم رجعت الى مقر السلطان عبد العزيز ومعى ثلاثة من الخدام وأربعة من الخصيان مرسلين بأمر السلطان مراد فقضيت ليلتى تلك بغاية الطمأنينة وبينما أنا راقد فى الليـل اذ سمعت غوغاء فانتبهت ورأيت ما جرى وعلمت ان السلطان قتل نفسه

الرئيس ـ ان بعض المتهمين قالوا انك كنت قائما بالباب عند ما كانوا يباشرون فعل القتـل ـ فقال ـ ليس ذلك بصحيح ـ فالتفت الرئيس الى محمود باشا وقال قد ظهر انه بعـد جلوس السلطان مراد على التخت الملوكانى كانت تشكلت هيئـة فى السراى بارادة سلطانيـة فصار من المحتم ان كل شئ يقع فى البلد لا يكون الا باشارة هـذه الهيئـة فهلا كنت عضوا عامـلا فيها ـ فقال محمود باشا لا علم لى بوجود هـذه الهيئـة ولم أكن من أعضائها * نعم انه فى ثانى يوم جلوس السلطان مراد توجهت الى السراى فكلفونى بقبول منصب احـدى الوزارات وفى اليوم التالى بقيت فى السراى ولا أعلم البتة بهـذه الهيئة ـ فقال الرئيس ـ لقـد صرح أدهم أفندى ونورى باشا بما يخالف ذلك ـ فقال محمود باشا كذبا فيما قالا

الرئيس ـ علمنا أنه لما نقل السلطان عبد العزيز الى سراى طوب قبو طلب منك أن تنقل اليه جميع أمتعته وعهد اليك أيضا المحافظة عليه حين نقله بعـد ذلك الى سراى قرية فأنت حينئذ الذى حافظت على مقر السلطان مع نجيب بك وعلى بك من كبار العسكر فقال حاشا حاشا وكلا لم يعهد الى بان أخفر السلطان فى مقره ـ فقال الرئيس ـ وأين كنت يا ترى ليلة مقتـل السلطان ـ فقال كنت فى دارى بالفنـدقلى الى أن توجهت الى محمد رشدى باشا ـ فقال الرئيس ـ محمد رشـدى باشا يكذبك فانهم قد نظروك ليلة قتل السلطان وقبل حصول القتل بساعة فى الحرس تتكلم مع فخرى بك ونجيب بك وعلى بك ـ فقال لم يحصل شئ من ذلك البتـة ـ فقال الرئيس ـ الشهود عليك كثيرون وذكر له أسماء الشهود ـ فقال محمود باشا كلهـم يكذبون فيما يدعون ـ فقال الرئيس ـ قد نظرك القبطان راسم يوم نقل أمتعة السلطان تكسر صندوقا مدهونا بدهن أخضر ـ فقال محمود باشا قد حصل وقت النقل ضرر ولم يمكن منع وقوعه ـ فقال الرئيس ـ هل توجهت الى محـل الحادثة عنـد ما علمت بها ـ فقال لالا ـ قال الرئيس ـ ومن أين اذا علمت بهذه التفاصيل ـ فقال علمت بها من صحف الاخبار التى تكلمت عنها

فالتفت الرئيس الى نورى باشا وقال من الذى دعاك ماريشال السراى أى أمير أمراء جنـد الحرس السلطانى ـ فقال السـلطان مراد هو الذى دعانى بهـذا الاسم ـ فقال

الرئيس ـ قد شكلت بعد جلوس السلطان على تخت السلطنة هيئة فى السراى فمن يا ترى كانت هذه الهيئة مؤلفة ـ فقال نورى باشا كانت مؤلفة من محمد رشدى باشا ومحمد جلال الدين باشا ومدحت باشا وحسين عونى باشا وخير الله افندى شيخ الاسلام وكنت أنا من أعضائها أيضا ـ فقال الرئيس ـ اذا ما هى الاعمال التى نيطت بتلك الهيئة ـ فقال هى جميع الأشغال وقد كان لابد من عرضها عليها بحيث لايقع فى الدولة شئ بدون آرائها حسبما أمر به مولانا السلطان ـ الرئيس ـ ومن الذى بعث بالثلاثة رجال الى مقر السلطان عبد العزيز ـ فقال أرسلهم المابينجى سعيد باشا حيث أتى بهم الىّ بأمر سلطانى وبما أنى مارشال السراى كان لابد من مخابرتى فى جميع الامور فأرسلتهم بصفة كونهم خدمة الى مقر السلطان عبد العزيز وأوصيتهم بأن يحسنوا الخدمة مااستطاعوا ـ الرئيس ـ هل أعطيتهم تعليمات سرية * حاشا فانى أدخلتهم فى مخدعى بحضور كثير من الناس وكلمتهم عما لزم جهارا ثم ذكر أسماء الذين كانوا حاضرين وقتئذ ـ الرئيس ـ كيف هذا مع ان مصطفى الجزايرلى قد قرر خلاف ما ذكرت وقال انك طلبت منهم كتمان السر وانك حلفتهم يمين القسامة * ليس ذلك بصحيح البتة ـ الرئيس ـ هل توجهت الى محل القتل ـ نعم عندما علمت أن السلطان عبد العزيز جرح نفسه توجهت واستدعيت ماركو باشا طبيب المرحوم السلطان فأتى ومعه أطباء آخرون وجعلوا يفحصون أسباب الموت فحصا طبيا وكتبوا تقريرا بما رأوه غير أن ماركو باشا أبى أن يوقع على التقرير وتشاجر مع بقية الاطباء

فتقدم محمود باشا وأنكر أقوال نورى باشا وكرر القول بأنه لا يعلم البتة بتشكيل تلك الهيئة ـ فقال الرئيس ـ كيف وقد قلت واعترفت بأنك أنت الذى أوصيت نورى باشا بمصطفى الپهلوان ـ فقال انى لم أر الپهلوان سوى مرة واحدة من نحو الخمس عشرة سنة فى ناحية جاملجة وأوصيت نورى باشا به ولم يكن فى خدمتى أو يتردد علىّ قط قبل الآن

ثم دخل مدحت باشا وبيده مفكرات ودفاتر فأوقف موقف المتهمين وعلامات السكون تنطق من وجهه فمدت اليه الأعناق وأحدقت به الأبصار وقد وضع ذراعه على رأس كرسى كان أمامه ـ فقال له الرئيس ـ يتلو عليك الكاتب الآن ما يتعلق بك مما ورد فى أوراق الدعوى ـ فأجاب مدحت قائلا قبل أن أسمع هذه التلاوة أقول ويحق لى أن أقول انى أعد نفسى سعيدا اذ دعيت لأبرئ نفسى من تبعة جناية أمام هيئة علانية ويجب على فى هذا المقام أن أمتدح غيرة ومساعى المأمورين بالقضاء اذ رغبوا فى أن يقوموا حق القيام بأموريتهم فتصرفوا بنوع من العجلة وحكموا قبل أن يقضوا وينبغى على هذا تقديم واجب الاحترام لشعائر العدل المتصف بها جلالة مولانا السلطان حيث تنازل وأمر بكشف خفايا هذه المسئلة فى محاكمة علنية وهى خطوة عظيمة نحو الحرية فما تم مقاله حتى جعل الكاتب يتلو مرسوم الاحالة وأوراق الدعوى وقبل أن تتم تلاوة

جميع الاوراق عاد مدحت باشا الى سياق مقالته الاولى فقاطعه الرئيس وقال يجب عليك السكوت فان ادارة المحكمة هى من خصائص الرئيس لا المتهم ثم قال له قل ما تعلمه من أمر الهيئة التى كانت فى السراى فقال لاعلم لى بوجود الهيئة المذكورة بل الذى أعلمه أن مجلس الوزراء هو الذى كان وحده يدبر جميع أمور الدولة وانى كنت أحد أعضائه ولم نؤمر قط بقتل السلطان عبد العزيز فقال الرئيس من الذى أمر بأن يؤخذ من السلطان المخلوع سيف السلطان سليم فقال مدحت باشا أتعنى بذلك بعد الخلع فقال الرئيس نعم قال قد أمر بعد نقله الى سراى طوقبو أن يبعد عنه كل نوع من الاسلحة ولم يكن لذلك من سبب سوى الخوف على حياته — الرئيس — متى تمت وفاة السلطان فقال مدحت باشا يوم الاحد توجهت الى الباب العالى لاحضر الجلسة التى كان مزمعا عقدها فوصلت اليه ولم أجد أحدا فسألت عن الخبر فقيل لى انّ المستشار سعيد باشا أفندى هو وحده موجود هنا فسألته عن سبب غياب الوزراء فأخبرنى بالحادثة فراعنى الخبر بل كدرنى جدا خصوصا وقد خطر ببالى وقتئذ مايترتب على ذلك من مؤاخذة الكثير من خلق الله فى هذه الحادثة بمجرد الشبهة — الرئيس — لكن سعيد باشا أفندى المذكور يكذب قولك فقال مدحت ليس لتكذيبه عندى أهمية فبعد أن سمعت هذا الخبر بارحت الباب العالى وسرت الى دولمه بغجه قاصدا حرس أورطة كوى حيث كان هنالك جماعة الوزراء وجم من العلماء وغيرهم من أهل المراتب وتسعة عشر طبيبا فكلهم قالوا لى مع نخرى بك ان السلطان قتل نفسه فلم يسعنى الا التصديق كسائر من سمع الخبر من الحراس — الرئيس — قالوا انهم وجدوا عدا الجروح التى كانت فى ذراعيه جرحا آخر فوق ثديه الشمال وآثارا أخرى شديدة تدل على أنه قتل مقهورا وحيث انك كنت فى ذلك الحين وزيرا فكان من واجباتك أن تأمر بالفحص فى أمر قتله فقال مدحت اذا اعتبرتمونى لاجل ذلك مسؤلا وجب اذا جعل جميع الوزراء الآخرين مسؤلين مثلى ولكنى لست أراهم قائمين بجانبى فى هذا الموقف حتى أقتسم بينى وبينهم مسؤلية عدم أمرهم باجراء الفحص — الرئيس — هل كان فى السلطان رمق من الحياة عند مانقلت جثته الى وجاق قهوة الحرس * فقال مدحت لاعلم لى البتة بذلك — الرئيس — كيف ومحمد رشدى باشا لايقول ماقلته أنت الآن فقال مدحت ذلك ممكن وقد قرر محمد رشدى باشا أمورا أخرى كثيرة من هذا القبيل — الرئيس — ان المجلس يرغب أن يسألك أيضا عن الاسباب التى حملتك على الالتجاء الى دار قونصلية فرانسا * فقال مدحت باشا هذه الحادثة تحتاج للتفصيل ولكنى مع ذلك أقول انه قد كانت وردت لى مكاتبات من الاستانة تعلمنى بكل ما كان يقال فى حقى وكشفت لى عن التهمة التى رميت بها فى ظروف لايطمئن معها قلبى ثم لم ألبث أن رأيت فى صباح ذات يوم معاون الحضرة السلطانية وصل الى أزمير ثم أتى القوناق وجعل فى الحال براسل السراى السلطانية برسائل الارقام وقد أبلغنى بذلك رجال البوليس السرى الذى كنت أنشأته هنالك فعلمت أن ذلك الامر يختص بى ذاتيا ثم بعيد

وصول هذا المعاون بايام قلائل علمت أيضا بوصول مأمور عسكرى وهو على بيك رجل على شاكلة وفطرة شركسلى حسن وادعى أنه انما جاء لاجل أن يرتقى الى رتبة ميرالاى وان لباسه الرسمى لم يكمل لغاية حضوره الى أزمير ولذلك أتى بغير لباس عسكرى ثم جعل بعد أيام من وصوله يتكلم بما لا يليق ونسب لى أمورا قبيحة فقصدت القبض عليه ولكن لم يقع ذلك حتى بلغنى أنهم عازمون على القبض على وفى تلك الليلة نفسها رأيت انه قد أحاط بمنزلى ثلاثمائة جندى فداخلنى من الخوف ما ألجأنى الى عدم التأخر عن المسير حتى لا تنالنى هذه الحراب المشرعة ولا أقع فى أيدى رجال على بك المذكور ولهذا السبب خرجت من باب الجنينة وركبت أول عربة وجدتها وسرت الى المحلة الاورباوية فاول باب وجدته مفتوحا كان باب دار قونصلية دولة الفرنسيس فدخلتها وانى لأكذب كل التكذيب ما قيل من أنى فتحت بابا فى الجنينة عمدا لهذا الغرض قبل بخمسة أيام كما أنى برىء من اتهامى بانى هيأت العربة فى تلك الليلة قبل الامر

فلما أتم مدحت باشا كلامه أشار الرئيس بقفل الجلسة وانه لدى افتتاحها تسمع شهادة كثير من الشهود ولما كان اليوم الثانى افتتحت الجلسة بعد الظهر وجلس القضاة وأخذ فى تلاوة طلب المدعى العمومى وقرار المجلس المشتمل على الحكم على مصطفى البهلوان وحاجى محمد ومصطفى الجزايرلى وفخرى بك بان لهم اليد فى قتل السلطان وعلى محمود باشا ونورى باشا وعلى بيك ونجيب بيك وعزت بيك بانهم شركاء فدافع عنهم المحامون وقال بعضهم أمام هيئة المحكمة انهم يرفعون دعواهم أمام محكمة التمييز وقال البعض الآخر انهم يسلمون أمرهم لحلم ورحمة الذات السلطانية وكذلك طلب المحامى عن محمود باشا تخفيف الحكم عليه ثم قام الاعضاء واختلوا برهة ثم عادوا وقرروا الحكم على سبعة من المتهمين بالقتل طبقا للمادة المائة وخمس عشرة من القانون العثمانى وهم مصطفى البهلوان وحاجى محمد ومصطفى الجزايرلى وفخرى بيك ومحمود باشا ونورى باشا وعلى بيك ونجيب بيك وحكموا على سعيد بيك وعزت بيك بعشر سنين فى الاشغال الشاقة وكان هذا الحكم بموافقة جميع الآراء خلا الحكم على محمود باشا ونورى باشا فانه كان بالاغلبية ثم أخرجوا جميع المتهمين من قاعة الجلسة وعاد القضاة بعد ذلك فحكموا على مدحت باشا ولم يحضر بين القضاة سرورى أفندى فانه قد رد نفسه عن الحكم لخلاف وقع بينه وبين مدحت عند مدافعته عن نفسه وبعد أن تقرر الحكم على مدحت استدعى أمام الهيئة فلما حضر تلى عليه طلب المدعى العمومى القاضى بقتله لاشتراكه فى مقتل السلطان عبد العزيز ثم سأله الرئيس هل عندك شئ من الملحوظات تقوله لهيئة المحكمة فقال ان عندى كلاما طويلا فى طريقة المحاكمة والسير الذى سارت به فأجابه الرئيس بأن هذا ليس له فى هذه الهيئة من محل وأمره بالسكوت فقام شهرى أفندى المحامى عن مدحت باشا وقال ان موكلى مدحت باشا يطلب استئناف الدعوى فقام القضاة واختلوا مليا ثم عادوا وحكموا باتحاد الآراء

بالقتل لاشتراكه فى قتـل السـلطان عبد العزيز و بعد أن تلى عليـه الحكم قال له الرئيس انه لابد من تقديم تقرير الاستئناف فى ظرف ثمانية أيام * فلما شاع الحكم على مدحت باشا بالقتل اندفع أصحـاب صحف الاخبار الانجلـيزية يهولون ويهددون ويرمون رجال السـلطنة العثمـانية بالعسف والجور وقام أحد خطباء الانجليز يطلب من حكومتـه باسم الانسـانية و بشرف الامة الانجلـيزية التداخل فى أمر استبدال الحكم على مدحت بحكم آخر لا يضر بجمانه التى هى ثمينـة عندهم وجعـل يبالغ فى الاطراء ويعـدد مناقب مدحت وماله من الايادى البيضاء على الدولة الانجليزية فرد عليه أحد رجال السياسـة وقال متهكما * خفف عنـك ياصاح ولا تجزع فان رجال حكومتنا عافاهم الله لم يبخـلوا بان أنفـذوا الى دوفرين سفيرنا فى دار السلطنة العثمانيـة بالوساطة فى استصدار فرمان من السلطان بالعفو عن مدحت ومحمود جلال الدين ونورى باشا فانهم قد دافعوا كثيرا عن السياسة الانجليزية وعززوا جانبها بل أخلصوا لها الخدمة يوم كانوا قابضين على زمام الحكومة لاسيما مدحت قال ولا إخالك تنكر علىّ القول بان قومك الانجلـيز أصلح الله حالهم يحبون مدحت حبهم لانفسهم ولم يتركوه يوم أنزله السلطان من مسـند الصدارة بل أعمل سفيركم هنالك الجهد حتى ولاه على الشام وكم شـدد يومها وهدد وأرعد وأزبد ونادى بالويل والثبور ولولم يقدر الله بسقوط الحزب المحافظ الذى كان قابضا على زمام الحكم على بلادك يومئذ لأرانا من دسائسه فى تلك الاصقاع عجائب غرائب بل المبكى والمضحك فتأمل عافاك الله واحكم ان كنت من المنصفين اهـ

ورفع مدحت باشا الى أمير المؤمنين بعد الحكم عليه بالقتل قصة يقول فيها * انى وان كنت قد عملت على خلع بيعة السلطان عبد العزيز عنـد ماظهرت منه الرغبـة فى عزل الوزراء وتسـليم البلاد والامة وادخال جيش روسى فى دار الخلافة الاسـلامية ولكنى لم أعمل على موته ولم أشترك فى ذنب سفك دمه ولم أوافق قومه الا على خلع بيعته وتنزيله والله ورسوله على ما أقول شهيدان * فلم يلتفت السلطان الى كلامه ولم يسمح بتخفيف العـقوبة عليـه (قال بعض كتاب الاخبار) وقد نسب أصحاب صحف أخبار الانجليز ما وقع لقاتلى السلطان عبد العزيز من الشدة ثم الحكم عليهم بهاتة العقوبات الى دسائس الروس واتساع كلمتهم فى دار السلطنة العثمـانية فتحركت لذلك خواطر العامـة والخاصـة من الانجليز وقاموا وقعـدوا وطلبوا منع تنفيذ الاحكام على مدحت ورفقائه كأنهم انجليز أولاد انجليز ثم قام خطباؤهم فى دار ندوتهم ينادون واتمدناه وانسانيتـاه وامرحتاه فوقعت عند ذلك بينهم ضجة حمل فيها أهل اليمين على أهـل اليسار وعلت الضوضاء وارتفعت الاصوات وطال الجدال واشـتد اللجاج واحتدم النكال فلم يخرجوا وقبعاتهم على رؤسهم الا وهم على بينة مما سـيكون ولم يمض على ذلك الا القليل حتى شاع الخبر بصدور فرمان السلطان باستبدال حكم القتـل على مدحت ورفقائه بالنفى والتبعيـد الى الاقطار الحجازية * فلما كان تاسع رمضان سـنة ثلاث وتسـعين عبرت من ترعة السويس سـفينة عثمـانية حربية اسمها (عز الدين) تحمل مدحت

ورفقاءه قاصدة جدة ولم ترس بالمينا بل دخلت من البوغاز وسارت الى السويس مسرعة فاغضب قيصر الروس هذا الامر وعلم أنه من أفاعيل دولة الانجليز فاضمرلها السوء وعمد الى معاكساتها فى أواسط آسيا وتنكيس أعلامها فى جوف الهند وعلى حدود الصين فسير عسكره المنصور الى قلب التركمان تلك وحدود الافغان التى هى حصن الانجليز الاكبر الحائل بين غارات الروس وبين هندهم ففعل ذلك الجيش فعاله وتغلغل فى جوف البلاد وأرهب وهدد وأخضع الخصوم وذلل الصعاب فكادت قلوب الانجليز تطير خوفا وقد أعيت كبارهم الحيل وضاقت عليهم المذاهب فكادوا يسقطون فى أمرهم * وبينما كان القيصر ينظر الى ظفر جنوده فى تلك الاصقاع نظرة الساهر على الاخذ بالثار اذ تحركت طوائف الناهليست وهم طائفة العدميين وقيل حركتهم أيدى الانجليز وتآمروا على قتله فدبروا له المكايد وتبعوه أينما سار بالآلات الجهنمية قصد اذهاب روحه فتحفظ وبث العيون والارصاد وأكثر من الحراس والرقباء وبالغ فى تعقب هذه العصابة الوحشية واشتد عليها شدة بالغة حتى خيل له أنه فى مأمن من شرها * واتفق أنه ذهب بعد ظهر الحادى عشر ربيع الآخر سنة تسع وتسعين الى مشاهدة معرض الجنود على عادته فبينما هو عائد الى مقره ألقى عليه نفر من هذه العصابة قنبلة محشوة بالمواد الالتهابية فسقطت القنبلة تحت عجلات عربته وانفجرت انفجارا هائلا فقتلت وجرحت بعضا ممن كان معه فأسرع هو ونزل من العربة فرارا ولكن لم تصل أقدامه الى الارض حتى سقطت بين رجليه قنبلة أخرى فخلعتهما معا فسقط وأغمى عليه لايبدى ولايعيد فاسرع الجند فى نقله الى السراى وهو لاينطق بكلمة ولبث ثلاث ساعات ونصفا فى نزع شديد حتى فارق الحياة وقدمات أيضا بعض من كانوا معه وبذل أصحاب الشرطة جهد المجتهد فى القبض على مرتكبى هذه الجناية العظيمة فكانوا أربعة ثلاثة رجال وامرأة وهم دوساكوف وسكبالابوف ومكاوف وصوفيا برسوكا وألقتهم فى السجن مكبلين بالحديد ونادوا بولى العهد قيصرا على الروس وبايعوه البيعة العامة ثم دفنوا القيصر فى مشهد وأخذوا فى محاكمة أولئك القاتلين فحكم عليهم جميعا بالقتل * ولم يكن موت هؤلاء الطغاة يغنى عن موت السلطان عبد العزيز والقيصر اسكندر الثانى اللذين ذهبا شهيدى التحالف والاتفاق على الضرب على يد أصحاب السياسة الانجليزية رحمهما الله تعالى فهو الغفور التواب

وعادت دولة الانجليز وكانها قد تفرغت الى تهديد الخديوى اسمعيل وارغامه على وفاء سائر الديون الصغيرة التى حكمت بها المحاكم المختلطة كما تقدم القول وأنفذت الى قونصلها المستر فيفيان أن يشدد فى طلب ذلك والخديوى يحاول ويطاول * واتفق فى هذه الاثناء أن تغيرت هيئة حكومة الفرنسيس بهيئة أخرى كان فيها المسيو وادنجتون وزيرا للامور الخارجية فنظر هذا المسيو الى ماهو واقع من الخديوى بين القلا والرجل من دم انجليزى أقام سفيرا للفرنسيس بدار الانجليز أعواما كثيرة فيصح أن يقال عنه انه انكليزى بحت فكتب فى صفر سنة خمس وتسعين الى وزير الانجليز يعلمه بما آلت اليه الحالة

مطلب رجوع دولة الانجليز الى تهديد الخديوى اسمعيل

بمصر ويستفزه الى الاخذ بالاحوط وتدارك الخطر قبل استفحاله وما زالت المخابرة بين الفريقين متتابعة حتى تقررت القاعدة بينهما على تشكيل هيئة باسم مجلس التفتيش يكون من اختصاصها تنقيب جميع الطرق التى اتخذت للنظر فى حالة خزينة البلاد وأرباب الديون وكلموا الخديوى فى ذلك ومازالوا به حتى رسم فى سادس عشرى ربيع الاول سنة خمس وتسعين أى فى غاية مارس سنة ثمان وسبعين ميلادية بتشكيل ذلك المجلس برياسة المسيو فرديننددلبس فاتح خليج السويس ووكالة أحد رجال الانجليز المسمى ريفرس ويلصون فلم يتسن للرئيس الحضور فى جلسات المجلس لاسباب سياسية لم نصل الى معرفة الصحيح منها فأخذ المجلس فى العمل تحت رياسة ويلصون الانجليزى وجعل يبالغ فى البحث والتنقيب وكان من حدوده بمقتضى ما رسم به الخديوى أن يطلب من شاء من موظفى الحكومة وكبار رجال الدولة ويسألهم فيما يرى لزوم سؤالهم فيه * وكان الوزير محمد شريف باشا فى هذا الحين فى منصب وزارتى الخارجية والحقانية فسنح اليه ويلصون يستدعيه يوما لسؤاله أمام المجلس عن شئ يريده فاستعظم الوزير هذا الامر وأكبره وامتنع من الذهاب فكبر ذلك على ويلصون وكان مصطفى رياض باشا قد أقامه الخديو وكيلا ثانيا لهيئة ذلك المجلس وكان بينه وبين الوزير شريف باشا بغض ونفور مستحكم فلما امتنع الوزير من الحضور أمام هيئة المجلس قيل ان مصطفى رياض باشا جعل يزين الى ويلصون الاصرار على طلب الوزير وأن يحاسبه على الذرة والسبرة فشدد ويلصون فى الطلب ومال على الوزير شريف باشا وقال لابد من حضوره فصمم الوزير على الامتناع وقال لاسبيل الى ذلك وطال بين الفريقين الاخذ والرد وتداخل فى الامر قناصل الدول واشتدت الازمة واتسع الخرق فلم يسع الوزير الا التخلى عن منصبه فاعتزله ولم يرض بالذل والصغار فرسم الخديو باقامة مصطفى رياض باشا بدلا منه بايعاز من ويلصون فتعطلت أعمال المجلس أياما وأحست دولة الانجليز بما وراء ذلك من الخيبة والفشل فرسمت باقامة ويلصون رئيسا فأجابها الخديو الى ذلك وأناب عن هيئة الحكومة فى ذلك المجلس بطرس بك غالى وهو يومئذ كاتم أسرار وزارة الحقانية فبالغ ويلصون فى البحث والتنقيب حتى أتى على جميع الامور من أبوابها وكتبوا بما علموه من حالة البلاد والخزينة والديون محضرا ذكروا فيه أمورا كثيرة كان أهم مافيها أن جميع ما اتخذ من التحوطات قبلا وما تقرر يومئذ من القواعد الكافلة بحسن سير الخزينة وراحة أهل البلاد وطمأنينة أصحاب الديون لاحقيقة لها البتة وما هى الا من قبيل النقش على الماء وأن لاسبيل الا الى تصفية جميع حسابات الخزينة وتقرير قاعدة لها ثابتة الاركان لايعتورها شئ من الزور والبهتان وكلموا الخديوى فى ذلك فاظهر غاية الميل ومزيد الرغبة وسهل لهم الامر ما استطاع وعمل بما أشاروا به جهد الاستطاعة

مطلب امتناع الوزير شريف باشا من الحضور أمام هيئة التحقيق وخلعه لنفسه من المنصب

فلما كان شهر شعبان سنة ١٢٩٥ خمس وتسعين ومائتين وألف هجريه أى شهر

مطالب تشكيل الوزارة المختلطة وخلع الوزراء المصريين

أغسطس سنة ثمان وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية أنفذت دولة الانجليز الى الخديو بخلع الوزراء وتنزيلهم كافة عن مناصبهم لخلعهم طائعا فرسمت له بتأليف وزارة أخرى من ويلصون رجالها ودى بلينار الفرنساوى الذى كان ممن جاؤا للنظر فى أمر ديون الخزينة وآخرين من أهل البلاد وأن يكون رئيس هاته الوزارة الوزير نوبار باشا فأجابها الى ذلك وتم تشكيل الوزارة على ما أرادت فكان ويلصون الانجليزى لوزارة المالية ودى بلينار الفرنسيسى للاشغال العمومية ومصطفى رياض باشا للداخلية وأخذت على الخديو العهود بان لايأتى عملا الا بمشورة وزرائه ولا يبدى رأيا الا بعد رأيهم أسوة الممالك الدستورية وصادق أصحاب سياسة الفرنسيس والانجليز على هذه العهود وأنزلوها منزلة عالية وفرح الناس بها وظنوا سكون الحال وزوال الشدة وانحلال عقدة ذلك الضيق وأعقب ذلك أن استدانت الخزينة قرضا جديدا قدره ثمانية آلاف ألف من الذهب من أحد كبار أغنياء الانجليز المسمى روشيلد وجعلت جميع اقطاعات الخديو واقطاعات عائلته على اختلافها رهنا لوفاء هذا القرض وعقدوا بذلك عقدا كان من شروطه أن أنشؤا ديوانا مخصوصا فتولى رجاله ادارة عمل تلك الاقطاعات وجمع أموالها وتدبير شؤنها وكانوا ثلاثة انجليزى وفرنساوى ومصرى واشترطت دولتا الانجليز والفرنسيس عدم جواز تنزيل أحدهم من منصبه الا بعد رضاهما بذلك وخصتهم ببعض الحقوق والامتيازات التى تجعلهم فى مأمن من كل حادث ولم تقفا عند هذا الحد بل طلبتا أيضا اقامة اثنين مراقبين يكون من اختصاصهما المراقبة على جميع أعمال الهيئة الحاكمة ومنع وقوع مالا يلائم منها مصلحة أصحاب الديون وخزينة البلاد وراسلت دولة الانجليز الخديو فى ذلك على يد المستر فيفيان قنصلها الجنرال بمصر وأظهرت للخديو غاية التجمل والملاطفة فأبى الخديو عليها ذلك فالح عليه القونصل وأكثر من الالحاح والترداد على مقر الخديو فأكبر الخديو هذا الامر وأحزنه وقال للقونصل يوما ماهذا الالحاح وقد كنا والانجليز يشيرون علينا اشارة الصاحب الودود فأصبحنا وهم يتهددوننا تهديد العدو الكنود فجعل القونصل يطاوله وهو يراوغه ويحاوله

وسار الوزراء فى أعمالهم سيرا حثيثا وأظهر ويلصون همة ورغبة زائدة فى تخفيف المصارفات عن عاتق أهل البلاد والتزام جانب الاقتصاد والحزم جهد الاستطاعة قيل وكلم الخديوى فى ذلك فاستحسنه وحبب اليه العمل به وقد كانت الخزينة الى هذا الحين فارغة والجبايات معطلة لاسيما مرتبات سائر الجند والعسكر وعلوفات كبارهم وقد مضى عليهم زهاء عشرين شهرا لايحصلون على فضة ولانحاس فعمد ويلصون عندذلك الى الاتيان على أوجه الاقتصاد من أبوابها فحسب ودقق وصرف من الجند والعسكر زهاء الالفين الى أوطانهم تخفيفا على الخزينة وجعل ينظر فى جميع مصروفاتهم من أوجهها الحقيقية فساء ذلك أمراء الجند وكبارهم واستعظموه وشكوا منه الى مقدمهم وتزاحموا على أبواب ويلصون والوزير نوبار باشا يطلبون صرف جماكيهم الموقوفة ومرتباتهم المتأخرة وهما يعدانهم

ويهونان

ويهوّنان عليهم فكانوا لايزدادون الاالحاحا وتشديدا فى الطلب

فلما كان خامس عشرى صفر سنة ست وتسعين ومائتين وألف هجرية أى ثامن عشر فبراير سنة تسع وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية اجتمع نيف وأربعمائة من صغار الضباط وساروا وهم مزججون بالسلاح ومروا برحبة عابدين حتى أتوا شارع الدواوين فى نحو الظهر وتفرقوا فى أنحائه يرقبون مرور ويلصون والوزير نوبار باشا فلما مرت بهم عربة الوزير وهو بها وعلى يمينه كامل بك كاتب سر المجلس انقض عليها جماعة منهم وأمسكوا بلجم الخيل وتقدم جماعة آخرون وأمسكوا بأطواق الوزير وصاحوا فى وجهه لايحل لك ياظالم أن تعيش رغدا متمتعا ونحن نموت جوعا أعطنا جماكيننا الساعة فجعل يلاطفهم ويكلمهم بأحسن الكلام وقد حث سائق العربة الخيل بضرب السوط يريد الفرار بمولاه فتزاحم خلفه جميع الضباط حتى أوقفوه وأخذوا بلجم الخيل وعادوا به الى مقر الدواوين واتفق خروج ويلصون ولم يشعر به أحد من المتآمرين فلما علموا بخروجه أكثروا من الصياح والجلبة وعلت بينهم الضوضاء وتزاحم الناس فأغلق أصحاب البيوت القريبة أبوابهم وغص مقر الدواوين بالضباط والجند وأصحاب الوظائف وأصعدوا الوزير نوبار باشا الى الديوان ووقفوا على الابواب يحرسونها ووصل الخبر بما جرى الى مقر الخديو فجاء وحوله طوائف الحرس وجميع بطانته ورجال ديوانه الخاص وعبد القادر باشا محافظ المدينة يومئذ وشق من وسط الزحام حتى دخل حوش الديوان واقتحم الدرج وهو ساكن القلب هادئ اللب كأن لاخوف عليه فلما رآه الضباط والجند صاحوا باصوات الدعاء والتهليل فغاب برهة جمع فيها هيئة مجلس الوزراء وكلمهم فى الامر ثم أشرف على الجمع من الشباك وخاطبهم بالحسنى وأكثر من ملاطفتهم ووعدهم بصرف جميع جماكيهم وسائر مرتباتهم المتأخرة ان هم عادوا الى منازلهم فصاحوا لاسبيل الى ذلك فالموت بالنار خير لنا من الموت جوعا فزاد فى ملاطفتهم فزادوهم لجاجا وحجاجا فغاب عنهم برهة ثم عاد وكلمهم فلم ينصرفوا فنزل وحوله بطانته وحاشيته وحرسه وأمر فتقدم الى جماعة الضباط نفر من الحجاب والحراس ليفرقوهم فمانعوا وأطلقوا عدة طلقات نارية فكثر عند ذلك الضجيج وعلا الصياح والتحم الجمع واشتدت الضوضاء وتماسك البعض بالبعض واشتد اللكم والضرب فأسرع الخديوى وركب عربته وخلفه أصحابه وأتباعه وسار الى مقره وجمع اليه هيئة الوزراء ثانية وبينهم بعض قناصل الدول وكلمهم فى الامر طويلا وبالغ فى الشكوى الى أن قال للقناصل قد صرت عاجزا عن درء كل ما يحدث فى داخلية البلاد وأخشى من انتشار الفتنة واتساع نطاق الثورة ان لم تعد الىّ السلطة التى سلبتها منى هيئة الوزارة الجديدة وانى لاأرى من المناسب قط بعد وقوع ماوقع اليوم بقاء الوزير نوبار باشا قابضا على زمام الحكومة وقد رأيتم ظهور الفتنة وتحزب طوائف الجند على مالم يسبق له مثال قبل فاستعظم القناصل هذا الامر ولم يبق عند أحدهم شك فى أن الخديو هو الذى هيأ هذه الفتنة وأضرم نارها لغاية فى

مطلب
تحزب طوائف الضباط واهانتهم للوزير نوبار باشا ومن معه

مطلب
شكوى الخديوى من الوزراء وتصميمه على خلع الوزير نوبار باشا وويلصون الانجليزى

نفسه واشتد الخوف بالناس وكثر تطيرهم والخديو يشدد فى طلب تنزيل الوزراء عن مناصبهم ويطعن فى شخص ويلصون الانجليزى ويرميه ببغض البلاد وأهلها وانه عامل على تخريبها وكثر اجتماع العلماء وكبار المشايخ بالجامع الازهر وهم يتكلمون فيما فعله ويلصون والوزير نوبار باشا من الاضرار بالبلاد ويشكون من تغلب النصرانية على حدود الشريعة المحمدية المطهرة وتقدم الشيخ البكرى بالاصالة عن نفسه وبالوكالة عن زهاء سبعين ألفا من الدراويش هم أرباب الاشاير والطرق ومشايخ السجاجيد وأصحاب العكاكيز والمتعممين يشكون مما أصاب البلاد وأهلها من سوء فعال ويلصون والوزير نوبار باشا * وتكلم مع الخديوى فى ذلك وأكثر من الترداد على مقره * قال بعض الكتاب فكان اذا اجتمع عند الخديو قناصل الدول أو بعض كبار الاجانب أرسل فى الحال الى الشيخ البكرى فيدخل على الخديو فيقوم له الخديو اجلالا ويعظمه ويدنيه من مجلسه ويخاطبه بغاية التجلة والتكريم مع الرهبة والوقار فاذا خرج نظر الخديو الى الحاضرين وقال هذا هو كبير الاسلام وشيخ مشايخ الدراويش وان فى خدمته وتحت أمره واشارته سبعين ألفا من الدراويش وهو اليوم يطالبنى بحقوق الامة فلا أدرى ما ستكون عاقبة الامر معه * ونادى بعض العلماء على منابر الجوامع بتكفير مصطفى رياض باشا ومروقه عن جادة الحق وتعضيده للنصرانية وأهلها ثم اجتمع نواب البلاد وجعلوا يطعنون فيما بدا من ويلصون وينكرون عليه ما قاله من ضعف حال البلاد وإمحال موارد الايراد وذهاب ما فى خزينتها من الاموال وأرسل صاحب شرطة القاهرة الى مصطفى رياض باشا يقول * دبر للخلاص أمرا فان البغض اليك فى ازدياد ولذلك فانى غير مسؤل عما سيحيق بك اذا لم تغادر البلاد فانى أرى الخطب شديد والخلاص بعيد فهال مصطفى رياض باشا هذا الكلام وأزعجه جدا * ورأى الوزير نوبار بعد ذلك استحالة بقائه فى منصب الوزارة فخلع نفسه وتبعه فى ذلك مصطفى رياض باشا وبقى ويلصون الانجليزى ودى بلينار الفرنسيس فى القاهرة ينتظران الأمر من دولتيهما وفر مصطفى رياض باشا من وجه الخديو الى الديار الاورباوية خوفا من البطش به * ولما تم تنزيل الوزير نوبار باشا ورفاقه وتخليهم عن المناصب عمد الخديو الى تشكيل وزارة برأسها أكبر أولاده الأمير محمد توفيق وسير الخبر بذلك الى دولتى الفرنسيس والانجليز فوافقتاه على كره واشترطتا أنه ان حدث أىّ حادث بعد وقوع ما وقع فلا لوم الا على شخص الخديو فقبل الخديو ذلك ولكن لم تطل أيام رياسة الأمير محمد توفيق وزالت لاشتداد الأزمة واستحكام حلقات الضيق بامحال الخزينة فخلع رابع عشرى ربيع الآخر سنة ست وتسعين ومائتين وألف هجريه أى سابع ابريل سنة تسع وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية وأقيم بدله الوزير محمد شريف باشا * قال بعض الكتاب وقد كان لم يصل لأحد من الوزراء علم بهذا التغيير فلم يشعر الواحد منهم الا وقد دخل عليه من خلفه وقبض على زمام الاعمال فتنحوا عن المراكز وهم صاغرون وطيروا الخبر بذلك الى الآفاق فلما علمت

مطلب رجوع وزارة الوزير شريف باشا بعد وزارة الامير محمد توفيق وما كان من وراء ذلك

دولتا الانجليز والفرنسيس عما جرى خلافا للعهد هالهما الأمر وحرك منهما ساكنا فأوعزتا الى وكيليهما بالقاهرة أن يكلما الخديو ويحذراه سوء العاقبة فلم يلتفت لقولهما وأطلق للنفس عنان هواها وأمر فزيد فى عدد العساكر والاجناد الى ستين ألفا وأكثر من جمع الأسلحة وآلات الحرب وبالغ فى التأهب والاستعداد قيل وأوعز الى بعض أصحاب صحف الأخبار فنقلوا خبر ذلك محشوا بالغلو والمبالغة وصاحوا يا لثارات الدائنين يا لثارات حاملى السندات ولم يقف عند هذا الحد بل رسم أيضا فى تاسع عشرى ربيع الآخر سنة ست وتسعين بابطال جميع النظامات والتعديلات التى كانت تقررت للخزينة سنة ست وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية وعدم اعتبارها لعدم ملاءمتها لحالة البلاد وعادات أهلها فتجرد عندئذ أصحاب سياستى الفرنسيس والانجليز للذب والدفاع وعمدوا الى الاستعانة بالسلطان وأوعزوا الى سفيريهم بدار السلطنة أن يبلغا السلطان حديث ما جرى و يستطلعا أفكاره وكلموا فى ذلك أيضا بسمارك داهية السياسة وكبير وزراء الالمان فسعى بسمارك الى دار السلطنة فى طلب خلع الخديو تلافيا للخطر قبل استفحاله فاشتدت عزائم الانجليز حينئذ وتقدموا الى السلطان فى تولية الأمير محمد توفيق مسند الخديوية وظنوا أنهم ان فازوا بذلك كانوا أقوى جميع الدول حجة على الامير وأبيضهن يدا فلا يصح له بعد ذلك أن ينقض لهم كلمة أو يخالف لهم اشارة * وأحس الخديو اسمعيل بذلك فبث العيون فى دار السلطنة وأكثر من البذل والعطاء وهادى رجال الدولة وكبار المابين فأتت اليه الأخبار بعضها يناقض بعضا وطال الأخذ والرد بين سفراء الانجليز والفرنسيس وصدر الدولة واشتدت الأزمة فى سائر البلاد واستحكمت حلقات الضيق على أهلها وسيرت دولة الفرنسيس الى مصر وكيلا لها اسمه تريكو وأوعزت اليه أن يعمل على خلع الخديو بكل ما وصلت اليه حيلته فزاد هذا الرجل الأمر تعقيدا وخبالا وكان يدخل على الخديو تارة يظهر التحقير والاستخفاف وطورا بالارهاب والتهويل و يطلب منه التخلى عن منصب الخديوية وكان قونصل الانجليز فى ذلك الحين أروغ من ثعلب يظهر الرفق آونة وآونة يظهر الوعيد والخديو يجد فى استمالة رجال السلطنة العثمانية وكبار الدولة ويتقرب منهم كى لا تتمكن الدول الثلاث من خلعه * وبينما هو على هذه الحال اذ ورد عليه الخبر من ابراهيم باشا كتخداه بدار السعادة بان السلطان أبى على الدول خلعه ففرح بذلك فرحا لا يوصف وطير الخبر الى الآفاق ولكن لم يمض بياض يومه حتى وردت الاخبار فى سواد ليله تنبئ بانه ان لم يتنازل عن عرشه لولده الأمير محمد توفيق طائعا سلبه اياه الأمير عبد الحليم بن محمد على باشا كرها فاضطرب أى اضطراب وكاد يسقط فى يده وجاء الخبر من سفير الفرنسيس بدار السلطنة العثمانية الى تريكو بأن يلح على الخديو بالتعجيل فى خلع نفسه والتنازل لولده اذ صارت تولية الامير عبد الحليم أمرا مقضيا وشاع الخبر بذلك فى تلك الليلة فاشتد الخوف بالناس وكثر تحدثهم فيه وجمع اليه الخديو كبار قومه ورجال أبيه ابراهيم باشا

مطلب

وطوائف المشايخ والعلماء والاعيان ونواب الأمة وتناجوا فى الأمر طويلا فلم يستقروا على أمر من الامور واشتد قلق الخديو وفارقته تلك الحمية وذلك الثبات فلما كانت ليلة الخامس من رجب أى ليلة خامس عشر جونيو سار قونصلا الفرنسيس والانجليز الى دار الوزير محمد شريف باشا وأعلماه بخبر ما تقرر فى دار السلطنة من خلع الخديو وتولية ولده الامير محمد توفيق وحدثاه بعزم السلطان على اعادة حقوق الوراثة الى ذرية محمد على باشا وتولية الأمير عبد الحليم إن أصر الخديو على الاباءة والعناد ثم قاموا جميعا وقد مضى من الليل أكثره وساروا الى مقر الخديو بعابدين وطلبوا الاجتماع به فمانع فى ذلك كبير الخصيان وقال كيف أفتح لكم الابواب وقد مضى من الليل أكثره فراجعه الوزير فلم يقبل فصاح به وقال ويحك أنا رئيس الوزراء وهؤلاء وكلاء الدول الكبرى وقد أتينا لأمر لا تدرك أنت أهميته * فبينماهم على هذه الحال مع كبير الخصيان اذ نادى مناد من وراء الحجاب افتح لهم عاجلا ياغلام الأبواب فصعد الوزير ومن معه ولاقاهم الخديو بلباس النوم فكلموه طويلا فى أمر تخليه عن المنصب طوعا قبل تنزيله كرها وألح الوزير عليه فى ذلك فأعلمهم الخديو بالخبر الذى جاءه من كابو تخداه بدار السلطنة وطال بينهم وبينه الجدال واشتد اللجاج فقال الخديو لا أتنازل حتى يأتينى أمر السلطان بذلك وقد كان يظن طول الاجل وبلوغ نهاية الامل فخرجوا من عنده وقد كتب تريكو الى سفير الفرنسيس بدار السلطنة يخبره بما قاله الخديو فلم تمض الساعة الثانية عشرة من تلك الليلة حتى ورد الى خيرى باشا المهردار مرسوم السلطان على جناح البرق خطابا الى الخديو بخلعه من منصب الخديوية فاضطرب خيرى باشا ولم يجسر على اخبار الخديو بخبره وظل باهتا حائرا فدخل عليه الوزير محمد شريف باشا فأعلمه خيرى باشا بالخبر فقال ولماذا لم ترفعه لمولاك فقال لا أجسر على الدخول عليه الآن فقال قم وادخل معى فقام ودخلا معا وفى يد خيرى باشا ورقة الخبر فلما رآها الخديو قال ما هذا الذى أتيتمانى به الساعة فقال الوزير هو خبر ورد من دار السلطنة فمد الخديو يده وأخذه ونظر الى ما فيه فاضطرب وعلا وجهه الاصفرار ولبث برهة لا ينطق ببنت شفة ثم نظر الى الوزير وقال علىّ بولدى توفيق الساعة * وكان لما كثر اللغط بين الناس وتحدثوا فى أمر خلع الخديو وفيما هو جار بين الدول ودار السلطنة العثمانية فى شأن ذلك وكان الأمير محمد توفيق يومئذ نازلا بسراى الاسمعيلية الكائنة عند قصر الدبارة كثر ذهاب بعض رجال الدولة وكبار الأمة والمشايخ اليه فأكبر الخديو هذا الامر ورسم بنقل الأمير محمد توفيق من سراى الاسمعيلية الى سراى القبة بعين شمس فنقلوه مع نسائه وأولاده وأحاطت بمقره طوائف الجند فامتنع الناس عنه وبقى محجورا عليه حتى سير الخديو فى طلبه فى تلك الليلة فأتوا به الى سراى الاسمعيلية وأوقفوا الحراس على بابه يمنعون من أراد الدخول عليه فسار اليه الوزير محمد شريف باشا وهنأه بالولاية وأركبه معه وحضر به الى عابدين فلما مثل بين يدى أبيه قام له اجلالا * وهى أول مرة قام له * فتقدم

مطلب
مجىء الامر السلطانى بخلع الخديو اسمعيل وتولية ولده الامير محمد توفيق وما كان بعد ذلك

الأمير وقبل يده فأذن له بالجلوس فجلس وهو ينظر اليه نظرة البائس الحزين * وقال له يابنى لقد اقتضت ارادة الله سبحانه وتعالى وارادة مولانا وسلطاننا أن تكون أنت خديو البلاد فأوصيك يابنى باخوتك وسائر الآل برا واعلم أنى سائر عنك آسف لعجزى عن ازالة جميع ما ستلقاه فى أعمالك من المصاعب والمتاعب على أنى واثق بحزمك فاتبع يابنى رأى ذوى شورائك وعش سعيدا لا كما عاش أبوك * فبكى الأمير توفيق عند سماعه هذا الكلام وبكى سائر الحاضرين وشاع الخبر فى القاهرة ومصر القديمة بخلع الخديو وولاية ولده الأمير محمد توفيق وطير الخبر بذلك الى الآفاق وأخذ الوزير بيد الأمير وعاد به الى مقره بالاسمعيلية ثم تركه وعاد الى عابدين فوجد بها قناصل جميع الدول وبينهم تريكو الفرنسيسى فدخل الوزير على اسمعيل باشا وأعلمه بحضورهم فدعاهم اليه وكلهم فى أمر تخليه عن المنصب لولده الأمير توفيق وفى ميله الى العزلة ما بقى من أيامه وكان الى هذه الساعة لم يخطر على باله قط أنهم سيبعدونه عن البلاد ويخرجونه من أرض الفراعنة قهرا فتقدم اليه عند ذلك تريكو وأعلمه بما وقع الاتفاق عليه من تبعيده عن أرض مصر وطلب منه الاسراع فى جمع مايشاء من متاعه لينقلوه الى البلد التى يختارها قيل فاصفر لونه وتلجلج لسانه وعض على اصبعه ندما على ما بدا منه من التخلى عن المنصب قبل ان يستوثق لنفسه ونظر الى تريكو وقال يعلم الله ان هذا التبعيد ما كان لى فى خلد ثم جعل يمانع وأغلظ على تريكو فى القول وتجافى فى الرد فجعل الحاضرون يلاطفونه ويهونون عليه ويحذرونه عاقبة العناد وما زالوا به حتى عاد وطلب كثيرا من المطالب فأجابوه الى جميعها ثم قال أطلب مائة ألف ذهبا للنفقة وباخرة لخدمتى وأن آخذ معى جميع مقتنياتى ومن يريد الخروج معى من نسائى والجوارى والحاشية والاتباع وجميع الامتعة وأن أقيم فى جزيرة أزمير احدى جزر البحر المتوسط فوافقوه على كل طلب وتساهلوا معه جهد الاستطاعة وقامت بشأن ذلك المخابرات ما بين قناصل الدول بمصر والسفراء بدار السلطنة والناس فى القاهرة فى خوف عظيم يحسبون للعاقبة ألف حساب

مطلب رحيل الخديو اسمعيل عن وطنه ومسقط رأسه وسكنه

وأخذ أتباعه فى نقل المتاع والصناديق من عابدين والجيزة والجزيرة الى بولاق التكرور وطاف جماعة الخصيان على بيوت الأمراء يخبرونهم بالخبر وهم فى بكاء ونحيب فخرج النساء فى ذلك اليوم وتزاحمن على أبواب عابدين وهن باكيات مولولات رافعات أصوات النحيب وخرج أيضا نساء اسمعيل باشا وطفن ببعض البيوت الكبيرة مودعات فكان يوما شره قطرير وفى اليوم الثانى الذى هو سادس رجب وسادس عشرى يونيو وقبل شروق الشمس غصت رحبة عابدين بجماهير الناس والجند وأرباب الوظائف العالية والمأمورين والعلماء والمشايخ والاعيان وقاضى القضاة والمفتى وجميع أتباع اسمعيل باشا والعائشين فى نعمته وقد علا الضجيج وكثرت الغوغاء وظلوا على هذه الحال الى الساعة الثالثة عربى فحضر الامير توفيق ومعه سائر الوزراء وصعدوا الى مقر اسمعيل باشا فلاقاهم والدمع ينحدر

على خديه وحادثهم ساعة ثم حضر تريكو الفرنسيس يستحثه على الخروج فقام من فوره وهو لا يتكلم واقتحم الدرج وهو يتوكأ على كتف ولده الامير توفيق وخلفه ولداه حسن وحسين والوزراء وقناصل الدول ورجال الديوان الخاص وكبار الجند وأصحاب الرتب العالية وغيرهم من طوائف الخدم والحشم فلما انتهى الى باب السراى وقف على آخر الدرج لحظة لطيفة كأنه يودع الدار ومن فيها فتقدم اليه قاضى القضاة وقبل طرف أثوابه وهو ينتحب بالبكاء فانحنى اليه وقبل رأسه وارتفع صوته بالبكاء وتقدم اليه الوزير محمد شريف باشا وصافحه فتبعه فى ذلك بقية الوزراء وبكوا لبكائه ثم نزل وركب عربة وركب معه ولده الامير توفيق وركب فى عربة ثانية الأميران حسن وحسين فلما سارت به العربة وخلفه الجم الغفير صاح النساء من شبابيك السراى واشتد الصراخ من كل صوب وارتفعت أصوات الرجال أيضا بالبكاء واشتد الهرج والمرج وتزاحم جماعة الخصيان والجاويشية حول عربته وهم يبكون ويولولون « على من تركتنا ياسيدنا » « من أوصيته بنا ياسيدنا » وكان اذا مرت عربته ببيت من بيوت جواريه فتحن الشبابيك وصحن صارخات بأعلى أصواتهن وكدن يلقين بانفسهن وما زال سائرا والصراخ أمامه وخلفه متواصل حتى وصل الى محطة السكة الحديد وكانوا قد أعدوا للقائه فريقا من الجند فنزل الامير توفيق وأمسك بيد أبيه وأنزله ومر من بين صفوف الجند فحيوه بالسلام وصدحت الموسيقى بالنشيد الخديوى فدخل الى المحطة وقد أعدوا له قطارا مخصوصا فلما دنا منه التفت الى ولده الامير توفيق يريد أن يخاطبه فخنقه البكاء فضمه الى صدره وقبله وبكى بكاء مرا فقبل الامير يده ووقف بجانبه طارق العين والتفت اسمعيل باشا الى الحاضرين ورفع صوته يريد أن يودعهم فلم يقدر فصعد الى عربة القطار فساربه الى الاسكندرية وأنزله بالقبارى حيث كان ينتظره زورق خصوصى فركب وسار بين صفوف الجند وأصوات المدافع من جميع القلاع والحصون وركب الباخرة المسماة المحروسة وقد كانت أعدت لركوبه وركب معه ولداه حسن وحسين وجميع نسائه وجواريه وأتباعه وغلمانه ومن رافقه من كبار الموظفين والباشاوات وقد سلم محافظ المدينة الى ربان الباخرة مرسوما وأمره أن لايفض ختامه حتى يبعد عن الاسكندرية فراسخ قيل وهو يتضمن منع تنزيل اسمعيل باشا ومن معه بأى جهة من أملاك السلطنة العثمانية والمسيربه الى أى جهة شاءها من الممالك الاجنبية فلما أعلمه الربان بذلك قال نسير الى مدينة نابولى احدى أعمال دولة ايطاليا فوصلها بعد أربعة أيام وألقت الباخرة مرساها وكان ملك ايطاليا قد رسم لحاكم المدينة بلقائه فلاقاه وبالغ فى اكرامه والاحتفال به فكانت ولايته سبع عشرة سنة وعشرين يوما ۞ ومن عجيب الاتفاق أنه تولاها فى شهر رجب واعتزلها فى شهر رجب فسبحان من لا زوال لملكه ولا اذلال لجبروته سبحانه فهو المعز المذل لايهدى من عاداه ولايضل من استهداه انه التواب العظيم

مطلب

ولاية الخديو محمد توفيق باشا

ولما كان يوم الخميس سابع رجب الفرد من السنة أى سنة ست وتسعين ومائتين وألف هجرية ورد من خير الدين باشا صدر الدولة يومئذ مرسوم على جناح البرق خطابا الى الامير محمد توفيق باشا يقول

بناء على أن الخطة المصرية هى من الاجزاء المتممة لجسم أملاك السلطنة العثمانية وأن غاية صاحب الشوكة والاقتدار انما هى تأمين أسباب الترقى وحفظ الامن والعمارة فى الممالك — وبناء على أن الامتيازات والشرائط المخصوصة للخديوية المصرية مبنية على ما للحضرة الشاهانية من المقاصد المذكورة الخيرية — وبناء على تزايد أهمية ما حصل فى القطر المصرى الناشئة عما وقع فيه من المشكلات الداخلية والخارجية الفائقة العادة وجب تنازل والد جنابكم العالى اسمعيل باشا — ثم انه بناء على ما اتصفت به ذاتكم السامية الاصافانيه من الرشد وحسن الروية وعلى ماثبت لدى ملجا الخلافة العظمى من أن جنابكم الداورى ستوفقون الى استحصال أسباب الأمنية والرفاهة لصنوف الاهالى وادارة أمور المملكة على وفق ارادة الحضرة الشاهانية الملوكانية توجهت الارادة العالية بتوجيه الخديوية الجليلة الى عهدة استئهال صفا نيتكم — وبناء على الفرمان العلى الشان الذى سيصدر حسب العادة على مقتضى الارادة السنية السلطانية التى صار شرح حدودها — وبناء على ما كتب بالتلغراف الى حضرة المشار اليه اسمعيل باشا من تخليه عن النظر فى أمور الحكومة وتفرغه منها بصورة وقوع انفصاله قد تحرر هذا التلغراف لكى يعلن حال وصوله للعلماء والامراء والاعيان وأهل المملكة جميعا وتباشر من بعده أمور الحكومة وهذا من التوجيهات الوجيهة الى أثر استحقاق اصفا نيتكم لجرى التنظيمات والترقيات مبدأ وتقدمة ويصير تكرار الدعاء بتوفيق الذات الجليلة الفخيمة السلطانية ولذلك صارت المبادرة الى ابداء لوازم التهنئة لحضرتكم أيها الخديو المعظم والأمر والفرمان على كل حال لمن له الامر انتهى

فلما كانت الساعة الثالثة صباحا من يوم الخميس صعد الخديو الى قلعة الجبل فى أبهة وكبكبة زائدة واحتفل بقراءة هذا المرسوم احتفالا عظيما ودخل عليه رجال الدولة وكبار الحكومة والعلماء والمشايخ والرؤساء الروحانيون ووكلاء الدول كافة وطوائف ضباط الجند فهنؤه وتزاحمت ذوات البيوتات على باب والدته وأتت اليه رسائل التهانى تباعا من كل صوب وفرح الناس جميعا بولايته ودقت البشائر فى ذلك اليوم وأولمت والدته وأطعمت وكست بعض الفقراء وتصدقت وكتب الخديو الى الصدر الأعظم يقول

وصل ليد التبجيل تلغرافكم السامى الآمر أن فراغ محسوبكم والدى المحترم عن الحكومة المصرية وتوجيه مقام الخديوية من محض جليل عواطف الحضرة الملوكانية لعهدة رقيقكم هما من مقتضى عالى ارادته السنية السلطانية وبالحقيقة ان تكرم حضرة صاحب الخلافة الاقدسى الذات بتوجيه مقام الخديوية لعهدة هذا العبد كان دليلا على جليل المبانى وركنا بالفخر لايعادله ثانى على وجود عبدكم مشمولا بفيض النظر الملوكانى وبما أننى مهما بذلت من الوسع والمقدرة لايفاء ذرة من التشكرات المفروضة على هذه العنايات والآلاء أرى ذاتى عاجزا بالكلية عن حق الايفاء والاداء فلذا رفعت الى مقر اجابة الرب القدير أكف الادعية الخيرية ببقاء عمر وعافية وارتقاء شأن وشوكة الحضرة السلطانية مشفوعة بتكرار الدعوات المستجابة بدوام موفقية فخامتكم وبمقتضى منيف ارادة الجناب السلطانى السنية قد صعدت الى قلعة مصر فى الساعة العاشرة من يوم الخميس وهناك قد أعلنت الكيفية لجميع من حضر من العلماء والاشراف والوجوه والاعيان والرؤساء الروحانيين والمأمورين الاجانب ولكافة الاهالى وأطلقت المدافع ثم أخذت بزمام الحكومة وبدأت بظليل ظل الحضرة السنية الملوكانية فى مباشرة أمور الخديوية عالما علم اليقين أن سلامة الخديوية المصرية وسعادتها وموفقية عبدكم الكاملة يحصلان بالثبات على قدم العبودية والتابعية للسلطنة السنية وان بقاءها لا يقوم الا بالصداقة والاخلاص للذات السنية الملوكانية فأستمر على هذا الطريق وأصرف الوسع والقدرة بالاهتمام لاستحصال راحة ورفاهية أهالى مصر وسكانها والملتمس عرض ذلك لعالى أعتاب الحضرة السنية السلطانية متخذا ذلك وسيلة لاستنفاء توجيهات فخامتكم العلية وفى جميع الاحوال الارادة والفرمان لحضرة من له الامر انتهى

ولما استقر بالخديو المنصب رسم الى الوزير محمد شريف باشا بترتيب هيئة الوزارة فرتبها على ماشاء ثم رسم بصرف عشرة آلاف من الجند الى أوطانهم فصرفوا ولم يبق من الجند العامل سوى اثنى عشر ألفا فبدأت دلائل الاصلاح وظهرت اشارات الفلاح ففرح الناس فرحا عظيما ورفع الكثير من الاجانب المستوطنين بالاسكندرية والقاهرة على اختلاف أجناسهم العرائض الى وكلاء حكوماتهم بالاطراء والمدح للهيئة الحاكمة ويشكرون لها أخذها بأطراف الهمة وسيرها على سنن الاصلاح ويرجونهم فى منع تعرض أبناء جلدتهم الى عمل الحكومة وترك تدبير أمور البلاد الى أهلها قالوا لأنهم أعلم الناس بها وأعرفهم بحاجاتها فاشتدت عند ذلك عزائم المصريين وعمد الوزير الى الاتيان على جميع أوجه الاصلاح من أبوابها وبالغ فى ترتيب سائر الامور واحكام نظامها * وكان الى هذا الحين لم يرد فرمان السلطان بالولاية وقد جاء الخبر بأن رجال السلطنة العثمانية وأهل المابين الهمايونى على طرفى نقيض فان بعضهم يعمل على تقليل امتيازات مصر الممنوحة لها من أيام محمد على باشا الكبير وان السلطان ميال الى ذلك فخشى الوزير محمد شريف

باشا العاقبة وكانا وكيلى الفرنسيس والانجليز فى الامر فكتبا الى كبيرى السياسة الافرنسيسة والانجليزية فى ذلك فكلما الباب العالى وشدّدا فى الطلب وطال الأخذ والرد بين الفريقين وأظهر رجال السلطنة العثمانيـة حزما وثباتا فطاولوا وحاولوا واشتدت عزيمة أنصار الامير عبد الحليم بن محمد على باشا وبذلوا النفيس فى استمالة رجال المابين فخاف سفيرا الفرنسيس والانجليز بدار السلطنة شرعاقبة هـذه الحال وأعـلا الفكرة وأكثرا التردد على الباب العالى وما زالا حتى تقررت القاعـدة بينهما وبين الصدر الاعظم على تسيير سفير مخصوص ومعـه فرمان الولاية فطيروا الخـبر بذلك الى القاهرة فزال عن الوزير محمـد شريف باشا ما كان يخشاه

مطلب ورود فرمان الولاية على يدى فؤاد بك كاتب أول المابين

فلما كان ثالث عشرى شعبان سـنة ست وتسـعين ومائتين وألف هجرية وصلت الى مدينـة الاسكندرية الباخرة عز الدين السلطانيـة وعليها الامـير على فؤاد بيك كاتب أول المابين يحمل الفرمان المشار اليه فأنزل فى سراى رأس التين فى تلك الليلة وقدم الى القاهرة فى رابـع عشريه فأنزل مع حاشيته بقصر النزهـة بشبرا من ضواحى القاهرة فزاره جميع الوزراء ورجال الحكومة وبالغوا فى اجـلاله وتعظيمه وطيروا الخبر بقدومه وفى صبح الخميس خامس عشريه هرع الناس الى قلعة الجبل وتقاطر اليها رجال الدولة وكبار المأمورين وهـم بلباس الزينـة والتشريف وصـعد كذلك وكلاء الدول والعلماء والرؤساء والأعيان واصطفت الجند تباعا من صليبة ابن طولون وطريق محمد على الى ديوان السلطان الغورى بقلعة الجبل وفى نحو الساعة الثانية صباحا صـعد الخديو راكبا فى عربة التشريف وعلى يساره الوزير محمـد شريف باشا وأمامه على فؤاد بيك رسول السلطان وبجانبه طلعت باشا كاتب الديوان الخديوى ومر من وسط الجند بين ضجيج الدعاء وأصوات البوق والنفـير ودوى المدافع حتى صـعد الى الديوان فلما استقربه المقام تقـدم مبعوث الخليفة بالفرمان وناوله اياه فأخـذه وقبله ورفعه الى رأسه ثم ناوله الى طلعت باشا الكاتب فقبله هو أيضا وارتقى مكانا مرتفعا أعدّ له وقرأ ما فيه بالرومية فكان بالعربية هكذا

الدستور الأكرم والمعظم الخديوى الأفخم المحـترم نظام العالم وناظم مناظم الأمم مـدبر أمور الجمهور بالفكر الثاقب متمـم مهام الانام بالرأى الصائب ممهـد بنيان الدولة والاقبـال مشـيد أركان السعادة والاجـلال مرتب مراتب الخـلافة الكبرى مكمل ناموس السلطنة العظمى المحفوف بصنوف عواطف الملك الأعلى خديوى مصر الحائز لرتبـة الصدارة الجليلة فعـلا الحامل لنيشاننا الهمايونى العثمانى المرصع ونيشاننا المرصع المجيدى وزيرى سمير المعالى « توفيق باشا » أدام الله اجلاله وضاعف اقتداره واقباله

انه لدى وصول توقيعنا الهمايونى الرفيع يكون معلوما لكم أنه بناء على انفصال اسمعيل باشا خديوى مصر فى اليوم السادس من شهر رجب سـ١٢٩٦ـنة ست وتسعين ومائتين وألف هجرية وحسن خدامتكم وصداقتكم واستقامتكم لذاتنا الشاهانية ولمنافع دولتنا العليـة

ولما هو معلوم لدينا من أن لكم وقوفا ومعلومات بمصر منذ مدة واصلاحها وجهنا الى عهدتكم الخديوية المصرية المحدودة بالحدود القديمة المعلومة مع الاراضى المنضمة اليها المعطاة الى ادارة مصر توفيقا للقاعدة المتخذة بالفرمان العالى الصادر فى الثانى عشر من المحرم سنة ثلاث وثمانين ومائتين وألف هجرية المتضمن توجيه الخديوية المصرية الى أكبر الاولاد ـ وحيث انكم أكبر أولاد الباشا المشار اليه قد وجهت الى عهدتكم الخديوية المصرية ولما كان تزايد عمران الخديوية المصرية وسعادتها وتأمين راحة كافة أهاليها وسكانها ورفاهيتهم هى من المواد المهمة لدينا ومن أجل مرغوبنا ومطلوبنا وقد ظهر أن بعض أحكام الفرمان العلى الشان المبنى على تسهيل هذه المقاصد الخيرية المبين فيها الامتيازات الحائزة لها الخديوية المصرية قديما نشأت عنها الاحوال المشكلة الحاضرة المعلومة فلذلك صار تثبيت المواد المقتضى تبديلها وتعديلها واصلاحها فما تقرر اجراؤه الآن هو المواد الآتية

ان كافة ايرادات الخطة المذكورة يكون تحصيلها واستيفاؤها باسمنا الشاهانى وحيث ان أهالى مصر أيضا من تبعة دولتنا العلية وان الخديوية المصرية ملزومة بادارة أمور المملكة والمالية والعدلية بشرط ان لا يقع فى حقهم أدنى ظلم ولا تعد فى وقت من الاوقات لخديو مصر يكون مأذونا بوضع النظامات اللازمة الداخلية المتعلقة بهم وتأسيسها بصورة عادلة ـ وأيضا خديو مصر مأذون بعقد وتجديد المشارطات مع مأمورى الدول الاجنبية بخصوص الجمرك والتجارة وكافة أمور المملكة الداخلية لأجل ترقى الحرف والصنائع والتجارة واتساعها ولأجل تسوية المعاملات السائرة التى بين الحكومة والاجانب بشرط عدم خلل معاهدات دولتنا العلية المؤسسة وفى حقوق متبوعية مصر اليها وانما قبل اعلان الخديوية المشارطات التى تعقد مع الاجانب بهذه الصورة يصير تقديمها الى بابنا العالى ـ وأيضا يكون حائزا للتصرفات الكاملة فى أمور المالية لكنه لا يكون مأذونا بعقد استقراض من الآن فصاعدا بوجه من الوجوه وانما يكون مأذونا بعقد استقراض بالاتفاق مع المداينين الحاضرين أو وكلائهم الذين يتعينون رسميا وهذا الاستقراض يكون منحصرا فى تسوية أحوال المالية الحاضرة ومخصوصا بها ـ وحيث إن الامتيازات التى أعطيت الى مصر هى جزء من حقوق دولتنا العلية الطبيعية التى خصت بها الخديوية وأودعت لديها لا يجوز لأى سبب أو وسيلة ترك هذه الامتيازات جميعها أو بعضها أو ترك قطعة أرض من الاراضى المصرية الى الغير مطلقا ـ ويلزم تأدية مبلغ سبعمائة وخمسين ألف ليرة عثمانية الذى هو الويركو المقرر دفعه فى كل سنة فى أوانه ـ وكذلك جميع النقود التى تضرب فى مصر تكون باسمنا الشاهانى ولا يجوز جمع عساكر زيادة عن ثمانية عشر ألفا لأن هذا القدر كاف لامنية ايالة مصر الداخلية فى وقت الصلح وانما حيث ان قوة مصر البرية والبحرية مرتبة من أجل دولتنا يجوز أن يزاد مقدار العساكر بالصورة

التى

التى تستتب فيها حالة دولتنا العلية محاربة وتكون رايات البرية والبحرية والعلامات المميزة لرتب ضباطهم كرايات ونياشين عسكرنا الشاهانى ويباح لخديو مصر أن يعطى الضباط البرية والبحرية الى غاية رتبة أمير آلاى والملكية الى الرتبة الثانية ولا يرخص لخديو مصر أن ينشئ سفنا مدرّعة الا بعد الاذن والحصول على رخصة صريحة قطعية اليه من دولتنا العلية — ومن اللزوم وقاية كافة الشروط السالفة الذكر واجتناب وقوع حركة تخالفها — وحيث صدرت ارادتنا السنية باجراء المواد السابق ذكرها قد أصدرنا أمرنا هذا الجليل القدر والموشح أعلاه بخطنا الهمايونى وهو مرسل بصحبة افتخار الاعالى والاعاظم ونخار الأكابر والأفاخم فؤاد بيك باشكاتب المابين الهمايونى ومن أعاظم دولتنا العلية الحائز والحامل للنياشين العثمانية والمجيدية ذات الشأن والشرف انتهى

فلما أتم طلعت باشا قراءته نزل فارتقى مكانه الشيخ سليم عمر خطيب جامع قلعة الجبل ودعا ببعض الأدعية للخليفة ورجال دولته وللخديو ورجاله ثم أطلقت المدافع تباعا وهتف الجند باصوات الدعاء والتعظيم ودقوا طبولهم ونزل الخديو بموكبه الى مقر عابدين فانصرف الجميع وتزاحم الكبراء والامراء ورجال الدولة فى ذلك اليوم على بابه وزار والدته نساء الامراء والكبراء وزينت مصر والقاهرة ثلاث ليال وأطلقت المدافع من قلعة الجبل فى الاوقات الخمس وفرح الناس بذلك كثيرا ۞ وسار الخديو فى الرعية سيرا حسنا وسلك بهم مسالك الدعة والرفق وفرّق الصدقات على المساكين والمنقطعين وبالغ فى الاحسان فلم يردّ سائلا ولم يمنع مستعطيا وتقدم اليه الوزير محمد شريف باشا فى رفع الخراج عن جميع الاراضى المأخوذة للمنافع العمومية فرسم برفعه وكان شيأ كثيرا وتقدم اليه أيضا فى طلب كثير من الامور النافعة للبلاد وأهلها فأجابه اليها فتعلقت الآمال بالوزير واجتمعت على محبته القلوب وظل الحال على أحسن ما يكون من الهدو والطمأنينة ورواج الاعمال أياما والناس فى فرح واستبشار حتى خلع الوزير محمد شريف باشا نفسه من منصب الرئاسة وتخلى عنه طائعا فى الثلاثين من شعبان فتطير الناس من ذلك وترامت ظنونهم الى المرمى البعيد واختلفت الاقوال فى الاسباب فمن قائل انه تخلى لخلاف بينه وبين قونصلى الانجليز والفرنسيس ومن قائل بل لخلاف مع قونصل الفرنسيس لأمور نقمها عليه ومن قائل بل بايعاز من دولة الانجليز اذ كانت ترى منه قرما عنيدا شديد البأس عزيز النفس أبيها صبورا على الشدائد فعملت على تنزيله فأحس بذلك فبادر هو بخلع نفسه ومن قائل غير ذلك وعندى أن القول الأخير أرجح بل أصح فحزن الناس عليه وأسفوا أسفا شديدا وقد عرفوا منه رجلا كيسا حازما صائب الرأى شريف النفس واسع المعرفة بأساليب السياسة شديد الميل الى نصرة المظلوم يعفو عند المقدرة ويغض عن الهفوات ويعرض عن بطانة السوء ويكره المطرين وأصحاب الوشاية ميالا الى بث روح الحرية والمساواة بين صنوف الرعية وهو أول من نادى بالشورى على عهد الخديو اسمعيل وبذل جهد المجتهد فى بثها

مطلب
تخلى الوزير محمد شريف باشا عن منصب الرياسة وما اشتهر به بين الناس

فى جوف البلاد ثم أنشأ قانونها ورفعه الى الخديوى اسمعيل وطالبه يومئذ بتحرير البلاد وفك قيود الرعية فتمامل ولم يقبل فألح عليه وهدده بتنزيل نفسه وتخليه عن منصب الرياسة يومئذ ان هو أصر على الاباءة ثم حدث فى ذلك الحين من الكوائن ما كان سببا لترك ذلك القانون فى زوايا الاهمال فلما تولى الخديوية الامير محمد توفيق باشا ووجه مسند الرياسة اليه أحسن الظن بمخدومه وأخلص له النية * قال بعض كتاب الاخبار فأبان له عما فى الشورى من الخير والبركة وجعل يحبب اليه العمل بها فمال الى رأيه ودعاه الى سن قانون لايمس حقوقه الذاتية ولا يذهب شيأ من سلطته الوراثية فرفع اليه القانون الذى كان أنشأه على عهد أبيه اسمعيل قال فاستشار رجال ديوانه فى جواز العمل به فقبحوا له ذلك وموهوا عليه الحقائق وهولوا فى العاقبة فاعرض عنه فراجعه الوزير فلم يرض فانزل نفسه عن منصب الرياسة فى الثلاثين من شعبان كما تقدم القول (قلت) وهذا قول آخر فى أسباب تخليه عن منصبه وعندى أنه قول لاصحة له والاول أصح * وكان مصطفى رياض باشا الى هذا الحين نزيل الديار الاورباوية وكان قد فر هاربا من وجه إسمعيل باشا خوفا من البطش به كما تقدم القول فارسل اليه الخديو يستقدمه ويستحثه على الحضور ليوليه مسند الرياسة وأقام هيئة وزراء مؤقتة برياسته كان فيها الوزير منصور باشا يكن وعلى حيدر باشا وذو الفقار باشا ومصطفى فهمى باشا ومحمد مرعشلى باشا وعثمان رفقى باشا وعلى ابراهيم باشا فتحدث الناس فى أمر طلب مصطفى رياض باشا وتطيروا من توليته مسند الرياسة وخشوا عاقبته لما يعلمونه من عدم موفقيته ونكد طالعه على البلاد وكثر لغطهم فى ذلك فلما كان سابع عشرى رمضان قدم رياض باشا الى القاهرة فبالغ الخديوى فى اكرامه ولبث أياما يغدو ويروح الى مقر الخديوى والناس فى تخوف كأن على رؤسهم الطير ثم شاع أن استقدامه بعد ذلك التبعيد انما كان بايعاز من دولة الانجليز والحاح من قونصلها بمصر * قال بعض كتاب الاخبار وتحرير الخبر أنه لما سار الى لندن عاصمة الانجليز بعيد فراره من القاهرة اجتمع به ويلصون الذى كان متوليا نظارة المالية المصرية على عهد إسمعيل باشا وشكى اليه حاله وما لاقاه من مضض التضييق وذل التبعيد عن الآل والوطن فقربه ويلصون من كبار ساسة الانجليز واستمالهم اليه وأعلمهم بحاله وما لاقاه من اسمعيل باشا * قال الراوى فسأله بعضهم قائلا ماذا تفعل اذا أرجعناك الى ديار مصر ووليناك منصب الرياسة قال أكفل لكم تعضيد سيادتكم واعلاء كلمتكم والعمل فى سائر الاحوال بحسب اشارتكم فوعدوه بذلك ان هو حافظ على العهد ولم يرجع عنه وجعلوا من ذلك الحين يعملون مع الخديوى على ارجاعه وتوليته فاحس الوزير محمد شريف باشا بذلك فخلع نفسه وأفرغ لهم المسند فاستقدمه الخديوى كما أشار قونصل الانجليز وقد زاد الناس اعتقادا فى صدق هذا النبا ما تبينوه يومئذ من استحسان أصحاب صحف الاخبار الانجليزية أمر توليته منصب الرياسة وامتداحهم لكفاءته وحسن سياسته وقدرته على تدبير الامور على أحسن ما يكون

وقد تطرف بهم الاطراء الى القول بانه على عزم أن يرفع الى مقام الخديوى قبل تولية المنصب ثلاثة مطالب لا بد منها ولا مندوحة عنها الاول جعل هيئة الحكومة دستورية أو مشورويه بان تؤلف من وزراء مسؤلين ولا يكون أمير البلاد مسؤلا عن أىّ خلل يحدث فى الخزينة أو فى ادارة البلاد الثانى عدم جواز خلع أحد من موظفى الحكومة الا بحكم يصدر عليه الثالث أن لا يترأس الخديوى قط على هيئة مجلس الوزراء ليكون لكل منهم حرية ابداء فكره فلم يعتبر الناس يومئذ بان هاته المطالب من عنديات مصطفى رياض باشا لانهم يعرفونه عدوّا للشورى * قلت وقد سبق لاصحاب هذه الصحف طلب تقرير هاته الامور على عهد اسمعيل باشا فخضوا جوشن وجوبير يوم كانا بديار مصر على تقريرها واكراه اسمعيل باشا على العمل بها ثم حال دون ذلك من المحن والكوائن ما كان سببا فى خلع اسمعيل باشا وتبعيده

مطلب
تولية رياض باشا الرياسة للمرة الاولى

فلما كان رابع شوّال من السنة (أى سنة ست وتسعين ومائتين وألف هجرية) رسم الخديوى الى مصطفى رياض باشا بتشكيل هيئة الوزارة فشكلها على نحو ما أراد ووافقه الخديوى على تشكيلها فتزاحمت على بابه أقدام أصحاب الوظائف والمناصب العالية ومأمورى الحكومة وذوى الغايات والمطامع فامر ونهى وتقدم الى الخديوى فى اقامة المراقبين الماليين الانجليزى والفرنسوى اللذين أشار بهما رجال لجنة التصفية كما تقدم الكلام على ذلك فى محله فاجابه الى ماطلب ورسم به فجاء من قبل دولة الانجليز أحد رجالها واسمه الماجور بارنج وجاء من قبل دولة الفرنسيس آخر اسمه المسيودى بلينار وهو الذى كان متوليا نظارة الاشغال العمومية على عهد اسمعيل باشا فسلم لهما الرئيس مصطفى رياض باشا زمام الاعمال فبحثا ونقبا وأتيا على جميع أمور الخزينة من أبوابها وأخذا فى اصلاح مافسد من أحوالها ورتبا لاصحاب الديون نظاما كافلا بحفظ حقوقهم وعينا لجباية الاموال آجالا يجبون فيها الخراج وقد كانت الى ذلك الحين هملا مهملا وأبطلا كثيرا من المغارم والمكوس الظالمة والبدع المستحدثة وقررا قاعدة لميزانية خزينة البلاد وايرادها ومصرفها ونظرا فى جميع أوجه الاصلاح من أبوابها وقيدا الاعمال باللوائح والنظامات المرتبة على نسق مافى بلاد الامم المتمدنة ونظرا الى فلاحى البلاد وأصحاب الزراعات نظرة الاب الشفيق فهوّنا عليهم كل أمر شاق * وبينما كان المراقبان يعملان على مافيه المصلحة للبلاد وأهلها كان الرئيس مصطفى رياض باشا يعمل أيضا على تعزيز مقامه واعلاء كلمته وبسط يده على جميع الامور واحاطته علما بالصغير منها والكبير فتطرّق به حب هذه الأثرة الى التعدى على حقوق الخديوى وجعل أعماله ونفوذه الذاتى لا يتعدى اشارته وكان الخديوى منذ تولى المنصب قد جعل يعطى مأمورى الحكومة وبعض أعيان البلاد ألقاب الشرف ونياشين الاعتبار تلطفا منه واحسانا فلم يرق عمله هذا فى عين الرئيس بل أنكره وندد به ونهاه عن التمادى عليه فلم يلتفت الخديوى الى قوله فأكبر الرئيس هذا الامر من الخديوى وكتب فى رابع عشرى ذى القعدة

من السنة الى جميع دواوين الحكومة يقول * انه لاعبرة قط لهذه الرتب فى أمراجها كى والمرتبات فى جميع الخدامات الملكية فساء الخديوى ذلك واستعظمه وكبر عليه الرجوع عما فى نفسه فزاد فى الاحسان وأكثر من العطاء فامتعض الرئيس وعقد لذلك مجلس الوزراء فقر قرارهم على أن لايعطى شئ من ألقاب الشرف والنياشين الى مأمورى الحكومة وموظفيها أيا كانت درجته الا بعد الطلب من مجلس الوزراء ورفع هذا القرار الى الخديوى ليصادق عليه فكبر الامر عليه وأزعجه فطاول وحاول أياما وراجع الرئيس ثم أدرك ماسيكون من وراء ذلك من الفشل واستفحال الخطب ان هو أصر على الامتناع فوقع على القرار كارها فكان هذا الحادث فاتحة الخلاف ومبدأ الشقاق بين الخديوى والرئيس مصطفى رياض ومن معه ورأى الخديوى بعد ذلك من الرئيس غلظة وجفاء فتأهب للتجول فى أنحاء القطر والترفع الى الاقاليم القبلية ترويحا للنفس من شر هذا الحال * فلما كان صبح الخميس تاسع عشرى صفر من السنة أى سنة سبع وتسعين ومائتين وألف هجرية تحرك ركابه وسار قاصدا الاقاليم القبلية ومعه آل بيته وحاشيته وأتباعه وغلمانه ورجال ديوانه الخاص فاستعد أهل البلاد للقائه وفرحوا بحضوره اليهم فرحا لايوصف وأظهروا من الاخلاص والتلطف للقائه مالايكاد يصدقه العقل فزينوا البلاد بالانوار والرايات والرياحين والازهار وقابلوه بالطبول والزمور واطلاق البنادق بين ضجيج الفرح وأصوات الدعاء والابتهال الى الله فكان اذا نزل ببلد هرع أهلها رجالا ونساء وأطفالا وقابلوه بالدعاء وبالغوافى تعظيمه فكان يقابلهم بالبشاشة والترحاب ويعد لهم الموائد ويعطى الفقراء والمساكين منهم ولايرد لهم سائلا وما زال على هذه الحال حتى مدينة أسيوط فلما استقربها ركبه كتب الى الرئيس مصطفى رياض باشا يقول

مطلب
فاتحة الخلاف ومبدأ الشقاق بين الخديوى والرئيس مصطفى رياض باشا

* أنا الآن بأسيوط وليس فى الامكان والاستطاعة وصف جميع ما أظهره الاهالى من الجيزة الى هذا المكان من عظم الفرح والمسرة وحسن الترحيب بنا ولا شك أن مثل هذه الافراح والمسرات لاتصدر الاعن الثقة العمومية ولاتوجد الثقة الا بوجود العدالة والاستقامة ويرى أن الرعية الآن آملة فينا واثقة بنا * تلك نعمة الهية عظيمة المقدار توجب علينا الاستمرار على نهج منهج العدالة والامانة لتزداد الرعية حبا لنا وثقة بنا جل الله القدير اجتهادنا بالفلاح * ثم رجع الى القاهرة فى كبكبته وزينته بين خدمه وحاشيته وأتباعه ورجال ديوانه وسار منها الى الاقاليم البحرية فلاقاه أهل البلاد بالفرح وأولموا لقدومه الولائم والافراح وبالغوا فى ذلك عما لايكاد يدخل تحت الحصر ثم قفل راجعا الى القاهرة وقد بلغه من أخبار الرئيس مصطفى رياض باشا واستهتاره بالامور وتحامله على منصب الخديوية وشخص الخديوى ما أنساه تلك الولائم والافراح فجعل عند ذلك يراقب الاحوال والرئيس لايلوى عنان النفس عن هواها وقد بسط يده على جميع مصالح الحكومة فتزاحم على بابه أصحاب السعاية وتقرب من مجلسه أهل النميمة والوشاية واشتد على كل من آنس منه جأشا فهابه الحكام وخافه أصحاب الوظائف وكثرت عيونه وأرصاده وأوجس أتباع اسمعيل باشا منه

شرا اذ مال على بعضهم يريد الانتقام واشتد عليهم شدة بالغة فهالهم أمره وأزعجهم تهديده وخشوا عاقبة فعله فانضم بعضهم الى بعض وتألبوا مع الفريق شاهين باشا كنج الذى كان رئيس ديوان الجند على عهد اسمعيل باشا وجعلوا يدبرون على الخلاص منه فلما أحس بما هم عليه سير الى شاهين باشا يتهدده ويقول ان لم تقلع عما أنت عليه ساءت حالك وكذب فألك ثم بث حول داره العيون ومنع من دخول الناس اليه فكبر الامر على شاهين باشا وأرسل الى اسمعيل باشا يعلمه بما آلت اليه حالة أتباعه وحاشيته وكل من نالته منه نعمة ويشكو من مقال الرئيس مصطفى رياض باشا فجبب اليه اسمعيل باشا ترك تابعية السلطنة العثمانية والالتجاء الى دولة ايطاليا فمال شاهين الى ذلك فرارا من ايذاء الرئيس وعلم الرئيس بالخبر فمانع (قال بعض الكتاب) وحرض بعض مشايخ البلاد التى بها زروعات شاهين باشا فأقاموا عليه الدعاوى الطويلة وضيقوا على خدمه وأتباعه وأخذوا ما قدروا عليه من أرزاقه فكبر عند ذلك خوف شاهين باشا وألح على اسمعيل باشا فى التعجيل فوردت اليه أوراق التابعية فقام من فوره وحصر أرزاقه وضبطها ووكل بها من يبعث اليه برزقها فى حينه وتأهب للرحيل الى مدينة نابولى حيث يقيم اسمعيل باشا فكبر الامر على الرئيس مصطفى رياض باشا وجعل يدبر على فساد حيلة شاهين وسير الى قونصل دولة ايطاليا فى ذلك فلم يفلح * فلما كان خامس رجب قام شاهين من القاهرة الى الاسكندرية يريد الذهاب الى نابولى فجمع الرئيس فى صباح سادسه هيئة مجلس الوزراء على خلاف العادة وهيأ قرارا بتجريد شاهين باشا من جميع رتبه وألقابه وصفاته الرسمية مع محو اسمه من سجل ضباط الجيش المصرى ومنعه من العود الى ديار مصر منعا مؤبدا ثم رفع هذا القرار الى الخديوى فامتنع من التوقيع عليه فشدد الرئيس فى الطلب فوقع عليه كارها فسير به الرئيس مع رسول الى شاهين باشا فأعطاه اياه وهو على ظهر السفينة التى كانت قائمة ذلك اليوم الى مدينة نابولى * حدثنى صاحب لى قال كنت فى ذلك اليوم على ظهر السفينة التى كان بها شاهين باشا وكنت مودعا خليل أغا كبير خصيان جدة الخديوى حيث كان قاصدا مدينة نابولى احدى أعمال ايطاليا فرارا من وجه الرئيس مصطفى رياض باشا فبينما نحن مهتمون باصلاح متاع السفر اذ صعد على ظهر السفينة أحد مأمورى الحكومة وعلامات الاضطراب بادية على وجهه فتقدم الى شاهين باشا وناوله ورقة مختومة ففضها وقرأ ما فيها وهو هادئ اللب ساكن القلب ثم التفت الى ذلك المأمور وقال قل للرئيس أصلح الله حاله انى فاعل ما أراده حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا والتفت الينا وقال وهو يتبسم تالله لو بغى جبل على جبل لدك الباغى قال صاحبى فقلت جعلت فداك هل هى وصية يجب العمل بها فقال بل هى فرية يجب أن تخلد فى بطون التواريخ ليعلم صاغر عن كابر كم تقاسى مصر وأهلها من الجور والاستعباد * قال صاحبى فخفت أن أطيل الكلام بحضرة المأمور وتشاغلت عن حديثه بحديثى مع كبير الخصيان حتى تركنا المأمور وانصرف فنظرت الى شاهين باشا لعله يعيد علينا

مطلب
الحكم بتبعيد شاهين باشا وتجريده من رتبه وألقابه

حديث مافى تلك الورقة فلم يفعل وكان لم يكن به شئ وودعته مع كبير الخصيان وانصرفت وأنافى خوف ظانا أن قدوصل خبرى الى الرئيس فرجعت الى القاهرة ولازمت دارى أياماحتى سكن جاشى واطمأن قلبى ولم يقدر الله على بمكروه اه * قلت وقد عد فرار شاهين باشاوخليل أغا كبير خصيان جدة الخديوى والحاقهما باسمعيل باشا ذنبا لا يغفر اذ عقد الرئيس مصطفى رياض باشافى ثامن رجب هيئة مجلس الوزراء وتناجوا فى ذلك طويلا وبعد أخذورد تقررت القاعدة بينهم على نزع سراى عابدين مع مايتبعها من الابنية وغيرها من جميع الملحقات وسراى الاسماعيلية وملحقاتها ومايتبعها من الابنية وسراى القصر العالى وملحقاتها وما يتبعها والمكان الكائن بمصر القاهرة بخط الاسماعيلية وملحقاته المعروف بمخزن الموبليات ومطبعة بولاق وملحقاتها مع مايتبعها من الآلات والمهمات والابنية واصطبلات بولاق وسراى الجزيرة مع مايتبعها من الابنية والجنينة البالغ مقدار ذلك اثنين وستين فدانا والاراضى التى تتبعها وقدرها ثلاثة آلاف وخمسمائة وخمسة وتسعون فدانا وجميع الملحقات الكائنة بالجيزة وسراى الجيزة وما يتبعها من الابنية والجنينة والاراضى من جميع الملحقات التى قدرها خمسمائة فدان وسبعة عشر فدانا والنزل والكشك والحامات الكائنة بمدينة حلوان وجنينة النزهة القديمة المعروفة بجنينة باستريه بالاسكندرية على ترعة المحمودية وسراى الرمل بالاسكندرية وجميع مايتبعها من الابنية والشكنات والاصطبلات وغيرها من الملحقات الكائنة بالرمل وسراى دفينة وما يتبعها بمديرية البحيرة وسراى المنصورة ومايتبعها وسراى الروضة وسراى المنيا (أى منية ابن خصيب) من ملكية اسمعيل باشا وجعلها من أملاك الحكومة قالوا لانه قد تبين لهم أن بناء البعض وشراء البعض الآخر كان من مال الخزينة ولانها لازمة جميعها للمنافع العمومية أو لاقامة خديوى مصر ولانها كانت لغاية الآن مخصصة لذلك * فلما شاع خبر ذلك استعظمه الناس وتحدثوا به وقد كانوا لا يظنون وقوعه من الرئيس ثم أعقب ذلك أيضا أن سير الرئيس الى ربان السفينة المسماة المحروسة التى كان اسمعيل باشا اتخذها مسكنا لنسائه أمام مدينة نابولى بان يسرع الكرة الى الاسكندرية بالسفينة والاعد تأخيره عن الحضور عصيانا وخروجا وكتب بذلك أيضا الى اسمعيل باشا فكبر الامر على اسمعيل باشا وأحزنه جدا ولم يسعه الا اعادة السفينة ومن شاء الرجوع الى القاهرة من خدمه وأتباعه وحاشيته واشترى له دارا بنابولى وأسكن بها من بقى من جواريه ونسائه وأرسل الى الخديو توفيق فى ذلك وعاتبه وبالغ فى الشكوى من فعال الرئيس مصطفى رياض باشا وحذره من سوء العاقبة وأشار عليه باليقظة والالتفات

مطلب الاحتفال برفع قانون التصفية الى مقام الخديوى

وكانت لجنة التصفية الى هذا الحين قد أتمت أعمالها على وجه ماتقدم بيانه وعملت بها دستورا سمته (قانون التصفية) وتأهبت لنشره والعمل به * فلما كان يوم السبت تاسع شعبان من السنة سار رجال هذه اللجنة من القاهرة الى الاسكندرية وصعدوا الى مقر الخديوى بسراى رأس التين فتقدم اليه ويلصون رئيس اللجنة وبقية رجالها فصافحهم جميعا ثم خاطبه ويلصون بعبارات التهانى وقص عليه مجمل ماعملته اللجنة فاجابه الخديوى بعبارات التلطف

وناوله بيده النيشان المجيدى من الدرجة الاولى وكذلك ناول كلا من بطرس بك غالى والمستر كولفن والمسيو برا ولى والمسيودى بوغاز والمسيو تريكو والمسيو بجره والمسيو لبرون دى رول النيشان العثمانى من الرتبة الثالثة وأعطى كذلك النيشان المجيدى من الرتبة الرابعة لبقية رجال تلك اللجنة وبعد انصرافهم أحسن الخديوى على الرئيس مصطفى رياض باشا بالنيشان العثمانى من الدرجة الاولى وعلى المسيو دى بلينار المراقب الفرنسوى بالنيشان المجيدى من الدرجة الاولى أيضا وأحسن كذلك بعدة رتب ونياشين الى بعض الوزراء وعند غروب اليوم استدعى الخديوى للطعام جميع الوزراء ورجال لجنة التصفية بقصره برأس التين وكان المكان غاية فى البهجة والزينة داخلا وخارجا فأتت الى ديوان الخديوى فى ذلك اليوم وتلك الليلة رسائل التهانى من الآفاق وحضر فى نحو الساعة الثالثة من تلك الليلة الى رحبة السراى طوائف الجند ما بين مشاة وركبان بالطبول رافعين بايديهم فوانيس الزجاج الملون موقدة بالشموع وساروا الى أن وصلوا الى واجهة السراى المشرفة على تلك الرحبة حيث كان الخديوى وسائر الوزراء ورجال اللجنة ينتظرونهم فاصطفوا هنالك وبعد برهة لطيفة نادوا باصوات التهليل ثم ساروا وعبروا شوارع المدينة حتى انتهوا الى ميدان المنشية فوقفوا هنالك برهة فهرع الناس لرؤيتهم وفى أواخر الساعة الثالثة اجتمع أرباب الاشاير والطرق تتقدمهم المشاعل والانوار والطبول والزمور والبيارق والرايات وساروا على نظام معلوم عندهم الى أن دخلوا رحبة السراى فى عدد كثير وكان كل فريق منهم على شكل مخصوص وهم يضجون ويعجون ثم ورد من بعدهم أبناء المدارس وفى أيديهم مصابيح الشمع وفى ذلك الوقت كان ساحل البحر مزدانا بالانوار وكذلك جميع السفن الراسية فى المينا وقد سار عدد من قوارب البحر يحمل الجماهير من الناس وكانت مزدانة بالانوار والقناديل وفى بعضها الطبول والمغنون والمغنيات فانتهوا الى مقر الخديوى وهم يعزفون ويضربون الطبول الى أن كانت الساعة السادسة من تلك الليلة فاطلقت شنكات البارود والحراريق والالعاب النارية أمام السراى ومن باخرة الخديوى الخصوصية وباخرتى محمد على ومصر واستمرت كذلك الى الساعة السابعة من الليل وقد تسابق الناس على اختلافهم لرؤية هذا المنظر البهج والمشهد الحافل وكانت ليلة لم يسبق لها مثال وأكثر الشعراء فيها من المدح والغزل وعملوا فى لجنة التصفية القصائد والمدائح وأوعز الرئيس مصطفى رياض باشا الى مديرى الاقاليم فوردت رسائل التهانى ركاما من سائر البلاد

وكان أول شئ بدئ به من نفقات التصفية زيادة مائة وخمسين ألف جنيه ذهبا على ضريبة الاطيان العشورية وتوزيعها على التساوى بلا فرق ولا تمييز بين الاراضى وبعضها قالوا وستبقى هذه الضريبة معمولا بها حتى ينجز ترتيب أمور الخزينة فلم يتم توزيعها حتى انبث أصحاب الجباية يعيثون فى البلاد لجمعها فشق هذا الامر على أصحاب تلك الاطيان وشكوا منه وتراحموا على باب الرئيس فناهم ووعدهم خيرا فسكتوا فلما كان خامس عشر رمضان من السنة قرر الرئيس اعتبار هذه الضريبة أصلا مقررا فى ضرائب الاطيان العشورية وأن لا يكون بينها وبين

الضرائب الاصلية فرق وأن جميع الاطيان المعطاة قبل الآن بشرط أن تكون عشورية يربط عليها العشور المناسبة لها على هذا الاساس بعد فرزها وتقدير درجاتها وما كان معطى بدون شرط جعلها عشورية وكذلك جميع الاطيان الميرية التى تنقل من الآن فصاعدا من حيازة الميرى لحيازة أخرى تعتبر أطيان خراجية ويربط عليها الخراج بحسب الدرجة المناسبة لها فأتت الزيادة بعد ذلك القرار أمرا مقضيا فاشتد انقباض الناس من فعال الرئيس وتطيروا منها وابتعدت قلوبهم عنه أو كادت وكثرت الاشاعة بقرب خلعه وتنزيله عن منصب الرياسة * وأعقب ذلك أيضا أن ظهر فريق من ضباط الجند يشكون مما يلاقون من عثمان رفقى باشا رئيس ديوان الجند وصرفه الكثير منهم عن الخدمة العسكرية واستعاضتهم بآخرين من جماعة الشراكسة بغير سبب * قالوا * سوى الميل الى الجنسية ورغبته فى تبعيد أبناء البلاد ووالوا الشكوى وعظموا البلوى ورفعوا الى الرئيس مصطفى رياض باشا ظلامتهم ووقفوا ببابه أياما فلم يروا منه التفاتا وقد اشتد بهم الضيق وكثرت عليهم حاجة العيال فكانوا يجتمعون فى كل ليلة فى دار محمد أفندى فنى رئيس المترجمين بديوان الخزينة يتناجون فى أمرهم وما هم فيه من الشدة والفاقة ويرددون حديث ماتعانيه أهل البلاد من جفاء الرئيس مصطفى رياض باشا واستصغاره بأمور الرعية فاتصل به خبر اجتماعهم فبث حولهم العيون والارصاد وهم لايشعرون فلما كانوا فى احدى الليالى يتناجون فى حوادث يومهم ذلك اذ كبس عليهم نفر من الجند وأصحاب الشرطة ومأمور من مأمورى الضابطة وقبضوا عليهم جميعا وساقوهم الى المحبوس فباتوا ليلتهم تلك وأصبحوا فنقلوهم الى سجن قلعة الجبل ورسم الرئيس فهيؤا لمحاكمتهم مجلسا حربيا وشددوا عليهم وضيقوا فكثر تحدث الناس فى ذلك وتطاولت ألسنتهم الى التقريع والسباب فلما كان ثالث ذى الحجة سنة سبع وتسعين حكموا على محمد أفندى فنى صاحب البيت بالطرد من خدامات الحكومة والسجن بقلعة الجبل سنتين وحكموا على من كانوا يجتمعون معه بالسجن والعزل من الوظائف العسكرية * واشتدوا من هذا الحين على جميع الضباط المصريين وبالغوا فى التضييق عليهم وخلعوا الكثير منهم بغير موجب ولاسبب واستودعوهم بربع الجاكى فكانوا نيفا وألف ضابط وقد حاق بهم الذل والحيف وأعمل الجوع فى أطفالهم عمله فتألبوا وتحزبوا وارتبط بعضهم ببعض بالايمان والعهود وانضم الى جمعهم كل ذى نائبة من أبناء البلاد وكانوا كثيرين لاسيما من ثقلت عليهم يد الرئيس * حدثنى صاحب لى قال لما ظهرت علامات الفتنة وكادت تبدو اشارات الخروج وأحس الخديوى بذلك كلم الرئيس مصطفى رياض باشا وحذره من سوء العاقبة فلم يلتفت وكان اذا شدد عليه الخديوى وحذره وألقى عليه التبعة ذهب الى قونصل الانجليز وشكى اليه واستعان به على الخديوى فبلغ من نفوذ القونصل المذكور يومئذ أن صار يعزل ويولى من يشاء من مأمورى الحكومة وأرباب الوظائف وأتى بجماعة من قومه فأدخلهم فى خدمة الحكومة وسد بهم أبواب الرزق فى

مطلب
أول شكوى لضباط الجند مما يلاقونه من عثمان رفقى باشا

مطلب ظهور الوحشة بين المراقب الفرنسوى وقونصل جنراله وظهور عصابة الجند

وجوه أهل البلاد وجاراه فى ذلك قونصل الفرنسيس فبات الرئيس وهو لا يقدر أن يخالف لهما كلمة ولا ينبذ لهما طاعة وظل على هذه الحال والخديوى لا يرى للخلاص سبيلا

ورأى المسيو دى بلينار مراقب الفرنسيس من نفوذ قونصل جنرال دولته واتساع كلمته وتطاول يده الى أعمال الحكومة والعبث بمنصب المراقبة ما أزعجه وبلبل أفكاره فكلم الرئيس مصطفى رياض باشا فى ذلك وحذره من سوء العاقبة ثم جعل يمانع فى تداخل القونصل ويعمل على ايقافه عند حده فاستكبر القونصل ذلك ونقمه عليه وناوأه الخصام فقامت بين الاثنين قائمة الشحناء واشتدت البغضاء وأعرض الرئيس عن المراقب ومال الى جانب القونصل فكبر بغض المراقب له أيضا واستفحل بينهما الخلاف واستعصى الوئام ❁ وبينما كان الرئيس والمراقب والقونصل يتنازعون النفوذ والحرب بينهم سجال كان عثمان رفقى باشا رئيس ديوان الجند يكثر من عزل الضباط المصريين ويقصيهم عن مناصبهم ويولى بدلهم جماعة الشراكسة وكان ممن عزلهم من مناصبهم كبير من ضباط الفرسان اسمه أحمد بيك عبد الغفار وكان له منزلة وحرمة بين قومه فما شاع خبر عزله حتى انضم اليه جماعة الضباط المعزولين وجعلوا يجتمعون فى كل ليلة فى داره ثم اتفقوا على أن يختاروا لهم رئيسا يرجعون اليه فى أمورهم وتدبير شؤونهم فوقع اختيارهم على أحد أمراء الجند المدعو أحمد بيك عرابى أمير جند الالاى الرابع فلبى دعوتهم وتجرد لنجدتهم وعمل على توحيد كلمتهم وأحكم التدبير على ما يناسب مصلحتهم * قلت وأحمد عرابى بيك هذا رجل ولد من أبوين فقيرين وكان مولده فى ليلة السبت ثالث عشرى جمادى الثانية من عام ثمان وأربعين ومائتين وألف هجرية وقيل ولد فى صفر عام سبع وخمسين فى قرية من قرى الشرقية تسمى هرية رزنه على بعد بعض فراسخ من الزقازيق أنشأها محمد على باشا الكبير وأسكن بها جماعة من العربان الذين يقال ان أجداد أحمد عرابى هذا منهم وأقطعهم بعض الاراضى لزرعها واستغلالها رزقة بلا اسمال الى أجل فكان ما أصاب أبو أحمد المدعو عرابى من تلك الارض ستة أفدنة سوادا فكانت مادة حياتهم ومنبع تعيشهم فلما بلغ أحمد عرابى أشده سلمه أبوه الى قبطى اسمه المعلم مخاييل غطاس وكان صراف الناحية ليعلمه القراءة والكتابة فلازمه زهاء خمس سنوات أحسن فيها معرفة القراءة والكتابة وبعض القواعد الحسابية ثم أدخله أبوه فى مصاف طلبة العلم بالجامع الازهر فرارا من العسكرية وذلك سنة خمس وستين ومائتين وألف هجرية فلبث به زهاء الاربع سنوات يتلقى بعض أصول النحو واللغة والفقه وحفظ القرآن ثم عاد الى قريته وأقام مع والديه الى سنة اثنتين وسبعين ومائتين وألف هجرية ثم أخذ الى العسكرية قهرا على عهد سعيد باشا وكان من أهل قريته بالمعسكر جاويش بروجى لسعيد باشا اسمه حسن حلى له كلمة مسموعة فتقرب منه أحمد عرابى ولازمه واحتسب عليه فأحبه وعمل على مساعدته فرقى بواسطته الى رتبة بلوك أمين للبلوك السابع من الارطة الرابعة من ألاى المشاة الاول وكان يعرف بين الجند يومئذ بالشيخ أحمد عرابى فلما كانت سنة ثلاث سبعين رقى الى

رتبة ملازم ثم الى رتبة يوزباشى فى سنة أربع وسبعين ثم الى رتبة الصاغقول أغاسى والبيكباشى الى سنة ست وسبعين وكان فى غضون هذه المدة قد بلغ حسن حلمى البروجى رتبة القائمقام ومات فبكاه أحمد عرابى بكاء مرا وجزع عليه جزعا شديدا وبلغ ذلك طيب الذكر سعيد باشا فتعجب ومنحه رتبة حسن حلمى المتوفى وذلك سنة سبع وسبعين فصار من هذا الحين معدودا من كبار ضباط الجند ولبث على هذا الحال حينا ثم اعتزل الخدمة حينا أيضا ثم عاد اليها فى أوائل ولاية اسمعيل باشا فى سنة تسع وسبعين هجرية ولبث بها الى أن وقعت بينه وبين خسرو باشا أحد كبار الضباط الشراكسة خصومة فهيؤا لمحاكمة أحمد عرابى مجلسا حربيا فحكم عليه بالحبس بضعة أيام فلم يقبل الحكم ورمى هيئة المحكمة بالمروق عن جادة العدل والاخذ بالوجوه فرفعوا أمره الى اسمعيل باشا فأمر بابعاده عن الخدمة العسكرية فابعدوه وبالغوا فى تذليله فكبر عليه الامر وعظم بغضه لطائفة الشراكسة ولبث مبعدا زهاء السنة ثم توسط بعض أهل الخير فى شأنه فادخلوه فى خدمة الدائرة الحلمية وهى دائرة الامير الهامى باشا ولد عباس باشا الاول فأحسن الخدمة واستمال اليه كبار الدائرة فزوجوه بابنة مرضعة الامير الهامى وهى أخت حرم الخديوى محمد توفيق باشا بالرضاع ولما كانت سنة اثنتين وتسعين ومائتين وألف هجرية تشفعوا له عند الخديوى اسمعيل بسبب زوجته فأعاده الى خدمة الجندية فلم يستقر به المنصب حتى جعل يبث بين الضباط من المصريين روح الالفة والاتحاد ويقرب بعضهم الى بعض حتى صاروا على قلب رجل واحد فلما تولى الخديوية الامير محمد توفيق باشا وأحسن على الكثير من رجال العسكرية والملكية بنياشين الشرف ورتب الاعتبار ساعد الحظ يومئذ أحمد عرابى فنال رتبة الميرالاى وكان ذلك فى رجب سنة ست وتسعين واتفق فى هذا الحين أن شرع عثمان رفقى باشا كبير ديوان الجند فى سن قانون القرعة العسكرية دل مبدؤه على عدم جواز ترقى أحد من الجند الى الرتب العالية حيث قضى على العسكرى أن يبقى فى الخدمة مدة أربع سنوات ثم يذهب الى بلده امداديا ويبقى هكذا مدة خمس سنوات أخرى و يأتى الى مركز المديرية شهرين فى كل سنة لمباشرة التمرينات العسكرية وبعد مضى الخمس سنوات يقيم فى بلده بغير عمل ويسمى احتياطيا تحت الطلب مدة ست سنوات ثم يمحى اسمه من دفاتر الجندية فلما ذاع خبر هذا القانون بين ضباط الجند فرح لسماعه جماعة الضباط الترك والشراكسة وانقبض له الضباط المصريون وعلموا بانه انما سن هذا القانون على هذا المبدا لحرمانهم من الرتب وجعلهم جندا تحت تسلط جماعة الترك والشراكسة واختصاص هؤلاء بالرتب والمناصب العالية فجعلوا يقبحون العمل به وشكوا من فعال عثمان رفقى باشا وكان بين الباشا المذكور وبين على فهمى المعروف بعلى الديب أميرألاى جند الحرس الخديوى وعبد العال حلمى المعروف بعبد العال أبى حشيش نفور ووحشة لامور لم نصل الى معرفتها فاجتمع على فهمى وعبد العال وأحمد عبد الغفار باحمد عرابى فى بيته وتناجوا فى أمر ذلك القانون وفى فعال

عثمان

عثمان رفقي باشا ثم تحالفوا وتعاهدوا وارتبطوا بالمواثيق على أن يكونوا كرجل واحد ثم أصبحوا وقد جمع كل من عنده من الضباط والصف ضباط وخطب فيهم خطب الحث والتهييج ضد جماعة الشراكسة وقبح لهم فعال عثمان رفقي باشا ثم استحلفهم على السيف والمصحف بان يكونوا يدا واحدة وقلبا واحدا على مساعدة أمراء الألايات الثلاثة فى عملهم والمحافظة على أرواحهم اذا قصدوا بسوء وبعد أن تم ذلك كتب كل من ضباط الالايات عريضة يطلبون فيها بعض المطالب الذين هم فى حاجة اليها فأخذ أحمد عرابى العرائض الثلاثة وأبقاها عنده ورفع هو عريضة أخرى الى الرئيس مصطفى رياض باشايقول

مطلب تحالف الضباط المصريين على السيف والمصحف وانتداب أحمد عرابى للزعامة ورفعه عريضة بالطعن فى عثمان باشا رفقى

مقدم هذا لاعتاب دولتكم بغاية كل خضوع ضباط الجهادية وما نعرض عنه أفندم انه لما أشرقت بحمد الله أنوار شمس الحضرة التوفيقية وأينعت بالعدل فى أرجاء ديارنا المصرية نشر العدل ألويته على دوائر أطلالنا وتحررت رقاب المصريين من رق العبودية كما تخلصت نفوسهم من ضيق الاستبداد الذى طالما استولى على بلادنا عدة أجيال يعاملنا بانواع المظالم الغدرية فحمدناه تعالى على ذلك وسألناه التوفيق لتشييد دعائم أركان العدل والانصاف محفوفة برياض الحرية المبنية على المساواة فى الحقوق بين الرعية لكن لما أحيل على سعادة عثمان رفقي باشا نظارة الجهادية رأينا سعادته يعامل ضابطان الجهادية بالذل والاحتقار ويسعى فيما يوجب لنا الحرمان والاضرار كاننا الاعداء الالداء وكأن الله سبحانه وتعالى يطالب منه ظلم المصريين والاجحاف بحقوقهم مقتفيا فى ذلك أثر راتب باشا فى آخر العهد السابق من تهييج الافكار واثارة الفتن التى تكون سببا فى توقيف حركة الاصلاح الادارى قصد أن يتمكن مما ساقته اليه نفس سعادته وما زلنا صابرين على مضض البلايا حتى آل الامر لحرمان أغلبنا من خدمة وطننا مع استعدادنا وتأهلنا وعدم تأخرنا عن ترقوا فى الخدمة بوجه امتياز على ما بهم من العلل ولا موجب لترقيهم سوى كونهم أقارب ومحاسيب من لهم فى العسكرية النفوذ المطلق وبرهاننا على ذلك أنه موجود بديوان الجهادية فوق الالف ضابط بقلم المستودعين لم يكن فيهم أحد من غير الوطنيين وهذا مضاد للمساواة ومجحف بالحقوق هذا ومن بعد أن تبين لسعادته تسكين الخواطر واستقامة الاحوال كبر ذلك عليه وقصد تهييج الافكار باصدار أمره المبنى على الاستبداد والاستعباد برفت أحمد قائمقامى السوارى المسمى أحمد عبد الغفار بيك بصورة تهكم بغير محاكمة قانونية وعلى ضد كل قانون عادل فبذلك هيج بلبالنا وأورثنا عدم الأمن والاطمئنان وصرنا متوقعين الايقاع بنا واحدا بعد واحد مادام سعادة المشار اليه فى مسند نظارة الجهادية الذى لاتسمح القوانين الحرة بتوجيه هذا المسند لمثل سعادته ومما يؤيد تلك القوانين مسألتا كنج جاهين وحافظ باشا وبعد ذلك ينظر فى أفضلية من امتازهم عنا بالخدمة مع عدم مساواتهم معنا فى العلوم والآداب العسكرية وغيرها وما آثر دولتكم فى تسكين حركة الخواطر وبث روح العدل والمساواة اتباعا لمبدا الحضرة الخديوية يوجب علينا القيام بواجبات الشكر

الحقيق والامر لمن له الامر انتهى .

فلما علم الرئيس مصطفى رياض باشا بما فى هذه العريضة كبر عليه الامر ونقم على أحمد بيك عرابى وجمع اليه فى الحال هيئة مجلس الوزراء وعقد مجلسهم وبينهم عثمان رفقى باشا كبير ديوان الجند وتكاموا فى الامر طويلا فطال بينهم الاخذ والرد ساعة ثم انفض مجلسهم على غير طائل وعلم الخديو بالخبر فكلم الرئيس مصطفى رياض باشا وحذره سوء العاقبة وأشار بالتأنى وترك العجلة ورسم بالمجاملة والتلطف وترك القسوة والعنف فلم يعجب الرئيس منه ذلك وتجرد الى المقاومة وعمد الى التهديد فبث العيون وشدد فى النكير والضباط لاينكفون عن التحزب والتألب وضم كل بعيد عنهم ممن مسه الضر بفعل الرئيس * فلما كان صبح الثلاثاء ثالث ربيع الاول من السنة أى سنة ثمان وتسعين اجتمع الرئيس مصطفى رياض باشا ببقية الوزراء فى جلسة خصوصية وكلهم فى أمر أحمد عرابى بيك ومن معه من جماعة الضباط فاتفقوا بعد جدال على تشكيل مجلس عسكرى من كبار الشراكسة لمحاكمة كل من له يد فى تأسيس عصابتهم وتشكيل محكمة أخرى من بعض الموظفين الملكيين لمحاكمة من انضم اليهم من الاهليين وقد أخذ عثمان رفقى باشا على عهدته تنفيذ مايتعلق بزعماء العصابة وقام من ساعته وذهب الى مقر ديوانه بقصر النيل وجمع اليه رجال مجلسه الحربى وكلهم من الشراكسة فتكاموا فى الامر برهة قصيرة ثم برز من مجلسهم الحكم بتجريد كبار العصابة من رتبهم ووظائفهم العسكرية وتبعيدهم عن الديار المصرية وتسليم مناصبهم لجماعة من الضباط الشراكسة وكتبوا فى الحال ثلاثة أوامر الى الثلاثة أمراء وهم على بيك فهمى المعروف بعلى الديب أمير جند الحرس الخديوى وأحمد عرابى بيك أميرجند الالاى الرابع وعبد العال حلمى بيك المعروف بابى حشيش أمير الجند السودانى يستدعونهم الى قصر النيل بحجة أن عثمان باشا كبير الديوان يريد مشاورتهم فيما يجب فعله من ترتيب زفاف الاميرة جميلة هانم أخت الخديوى فلم تخف عليهم الحقيقة وقد علموا بكل ماوقع الاتفاق عليه ومع ذلك فانهم لم يتأخروا وقاموا من فورهم وساروا الى قصر النيل ومعهم من يأتى بالخبر الى أصحابهم اذا حل بهم مايكرهون فلما دنوا من مقر عثمان رفقى باشا أحاطت بهم طوائف الحرس ومشى خلفهم كثير من الضباط الشراكسة وأدخلوهم الى حيث المجلس العسكرى فلما وقفوا بين أيدى رجال المجلس التفت اليهم خسرو باشا أحد الاعضاء وقال قد حكم عليكم اليوم مجلسنا العسكرى بالتجريد من الوظائف وجميع الرتب العسكرية ومحو أسمائكم من سجل العسكرية فاخلعوا عنكم سيوفكم الآن وسلموها . . فقال أحمد عرابى بيك قد سمعنا ماتقول ونطلب أن تطلعنا على ورقة هذا الحكم لنكون على علم بما جنينا ونعرف ماذا كان حكمكم هذا ينطبق على ماجاءت به أحكام القوانين العسكرية أو . . . فقاطعه أحد رجال المجلس بان قال ومن أين أنتم لانفسكم حق هذا النظر وكيف تطلبون الاطلاع على ورقة الحكم وأنتم اليوم مجرمون مجردون من كل رتبة وشرف ثم صاح ببعض الحراس خذوا عنهم سيوفهم

مطلب تشكيل المجلس العسكرى للحكم على عرابى بيك ومن معه من كبار العسكر

الساعة واذهبوا بهم الى حيث أمرناكم بخلع الامراء عنهم سيوفهم وسلموها وهم صاغرون فأخذوهم ومضوا بهم الى أسفل الديوان ووضعوا كل أمير منهم فى سجن منفردا تخفره الجند وبعض كبار الجراكسة وكان ذلك فى نحو الساعة العاشرة نهارا فلما بلغ خبر سجنهم عسكر الحرس الخديوى برحبة عابدين وكان محمد أفندى عبيد أحد كبار ضباط هذا الحرس يراقب الحوادث وقد علم بما وراء حبس الامراء نادى فى جنده بالخروج فخرجوا جميعا بأسلحتهم وعددهم فاعترضه خورشيد بك يسمى قائمقام الحرس وسأله عن سبب خروج العسكر على هذه الصورة فلم يلتفت الى قوله وأمر بعض الجند فقبضوا عليه وأودعوه فى احدى الحجرات ووقفوا على بابه يخفرونه وسار محمد عبيد بجميع الجند الى قصر النيل وهم فى ضجة وجلبة وبلغ الخديوى الخبر فاشرف على الجند من شرافة السلاملك ورسم الى الفريق راشد حسنى باشا بمنعهم من الذهاب الى قصر النيل فلم يتمكن فأمر بروجى قرا قول السراى بان ينفخ فى البوق منادبا لجماعة الضباط أن احضروا أمام الخديوى فلم يلتفت أحد لندائه وظلوا سائرين وهم فى ضجة وجلبة حتى دخلوا أبواب قصر النيل فمانعهم بعض الجند النازلين هنالك فلم يلتفتوا اليهم وقصدوا مقر الفريق عثمان رفقى باشا وكان عثمان باشا قد علم بخبر مجىء الجند فأمر بالابواب فأغلقت فلما رأى الجند أن الابواب مقفلة صاحوا ودمدموا وكسروها واقتحموها عنوة وهم يكثرون من الشتم واللعن وبادروا كل من لاقوه بالضرب واللكم والسب وفتشوا على عثمان رفقى باشا يريدون البطش به فلم يعثروا له على أثر وكان قد خرج من ديوانه مسرعا حتى دخل ورشة تشغيل ملابس العسكر فقام اليه ناظرها الماس بك وأخذ بيده وأدخله أحد المخازن وستره عن الاعين ببعض الاكياس الفارغة فتوارى هنالك فلما لم يجدوه اقتحموا سجون الامراء الثلاثة وأخرجوهم وساروا بهم الى مقر الحرس الخديوى حملا على الايدى وهم حاسرون الرؤس والناس خلفهم فى ضجة وجلبة عظيمتين

ووصل الخبر الى الخديوى بما جرى فاضطرب وأى اضطراب وسير فى طلب الرئيس مصطفى رياض باشا وسائر الوزراء فحضروا فرسم بذهابهم الى قصر النيل ليتداركوا الامر قبيل استفحاله فساروا ولم يتجاوزوا رحبة عابدين حتى رأوا الجند آتين ومعهم الامراء الثلاثة وهم ينفخون فى البوق وخلفهم العامة فى ضجة عظيمة فعادوا مسرعين الى مقر الخديوى وأعلموه بالخبر ولم يكد يقربهم المقام حتى أحاط الجند بالسراى احاطة السوار بالمعصم وقد طار الخبر فى هذه الاثناء الى معسكر طرا والعباسية فحضر منهما على الفور فرقتان بالبنادق والحراب وانضمتا الى جند الحرس ورفعوا أصواتهم على الاثر ونادوا بالويل والثبور على عثمان رفقى باشا وأشياعه وطلبوا خلعه من منصبه وأكثروا من الضجيج والصياح فسير اليهم الخديوى يقول هونوا عليكم فسنرى فيما تطلبون الساعة فضجوا عند ذلك بالدعاء للخديوى ثلاثا وقد هرع الناس عند سماعهم الضجيج وأتوا الى رحبة عابدين من كل فج عميق وتزاحموا خلف صفوف الجند وعلت بينهم الضوضاء وصاح الصبيان (الله ينصر السلطان) واجتمعت

الغوغاء وكثر الهرج والمرج وحضر قناصل الدول الى مقر الخديوى وهم فى دهشة واضطراب وكان أحمد عرابى بك قد أرسل اليهم فى الحال يعلمهم بالحادثة ويطمن خواطرهم من نحو رعاياهم وأتباعهم ويقول لهم انه لاعلاقة لهذه الحركة قط بالامور السياسية

ورأى الخديوى من استفحال الخطب ما أزعجه فأمر بمجلس الوزراء فانتظم وحضره جميع من حضر من قناصل الدول وتكلموا فى الامر طويلا ثم استدعوا أحمد عرابى بك وسألوه ماذا يطلب فتكلم كثيرا وبالغ فى الشكوى وعظم البلوى ثم قال انا لا اطلب الآن سوى خلع عثمان رفقى باشا وتنزيله من منصبه فتناجوا فى الامر طويلا ثم قرروا خلع عثمان باشا من منصبه والعفو عن الامراء الثلاثة وأن تعاد لهم وظائفهم فنزل أحمد عرابى بك وأعلم جميع الضباط بما جرى ووقع الاتفاق عليه ونادى فى العسكر بالمسير فهتفوا جميعا بأصوات الدعاء ثلاثا وانسحبوا الى معسكر عابدين والموزيقى تصدح أمام صفوفهم فباتوا ليلتهم وهم بين راقص ومطرب ومدخن بقصبة دخانه وضاحك مع رفيقه حتى مطلع الفجر فسارت الجنود السودانية مع مقدمهم عبد العال بك الى طرا وسار أحمد عرابى بك بعسكره الى العباسية وأصبحوا وقد تولى محمود باشا البارودى رياسة ديوان الجند بدلا من عثمان رفقى باشا المعزول فانحاز جميع الامراء ومقدمى الجند اليه وتقربوا منه ليكون لهم عونا فأعجبه ذلك منهم ومال اليهم وتقدم الى الخديوى فى طلب العفو عنهم جميعا وما زال به حتى أجابه الى ذلك

مطلب تولية محمود باشا البارودى رئاسته ديوان الجند وما كان

فلما كان يوم السبت عشرى ربيع الاول رسم الخديوى بحضورهم جميعا الى مقره بعابدين فحضروا فى الساعة الخامسة وفى مقدمتهم محمود باشا البارودى فلما تمثلوا بين يديه قام فيهم خطيبا يقول * انكم تعلمون حق العلم ما عندى من الميل والمحبة للعساكر والالتفات الى شؤنهم من يوم استلامى زمام الحكومة وذلك لما هو محقق لدىّ من أنهم متحدون معى على مقاصدى الحسنة التى هى دوام حفظ الامنية واستقامة الاحوال الادارية فى هذا القطر لذلك لا أخفى عليكم ما حصل لى من الاسف بأسباب الحركة التى حدثت وانقضت ومع ذلك فانى قد عفوت ولم يبق فى قلبى من آثارها شئ بالكلية فيلزمكم من الآن فصاعدا أن لا تشتغلوا بشئ خارج عن حدود وظائفكم واجتهدوا فى أداء واجباتكم العسكرية ومن المعلوم أن سعيى واجتهادى متجه الى اصلاح الاحوال وتحسين الامور وهيئة النظار الحاضرة متحدة معى فى هذه المقاصد الخيرية ومجتهدة فى تتميم ما يجب من الاصلاحات اللازمة وليس بخاف عليكم ما تم بهذا القطر من الاصلاحات المالية والادارية فى ظرف سنة واحدة وذلك مما يوجب على كل محب لهذا القطر ابداء الشكر واظهار المسرة وحاصل ما أقول لكم ان العساكر ليس لهم وظيفة سوى التمسك بالقوانين العسكرية والسعى فى أداء واجباتهم والامتثال لولى أمرهم وانى لعلى يقين من أنكم تعتقدون بان أكمل الصفات العسكرية هى الاستقامة والامتثال فى جميع الامور والاحوال فمن الواجب عليكم أن تحافظوا على ذلك وتجعلوا أعمالكم كلها دائرة على هذا المحور اه فلما أتم خطابه هتفوا

جميعا بالدعاء وانصرفوا ثم توجه الامراء الثلاثة الى قونصلى الفرنسيس والانجليز وتكلموا معهما فيما هم عليه من السكينة والتمسك بالحدود والقوانين العسكرية وأن ليس هناك قط مايدعو الى القلق أو الاضطراب ولله درّ من قال

فلا يمنعك الطير شيأ أردته * فقد خط بالاقلام ما كنت لاقيا

ولم يكن يرضى الرئيس رياض باشا عما بدا من الخديو من والعفو السماح ولا عما وقع من خلع عثمان رفقى باشا من منصبه ولا عن تولية محمود باشا البارودى مسند نظارة الجهادية فجعل يرقب الفرص ليوقع بالامراء الثلاثة وصار يكيد لهم كيدا والبارودى يعمل على مافيه المصلحة لهم والذب عنهم وما زال حتى أعيت الرئيس الحيل وكاد يخيب منه الرجاء والأمل وتحقق أن لانجاح له ولا فلاح الا بالخلاص من البارودى فعمد الى معاكسته فى السر والنجوى ورماه بتهمة الخيانة وافشاء اسرار الحكومة وأعمال مجلس الوزراء قبل تقريرها وتبليغ قونصل جنرال الفرنسيس بحوادث البلاد قبل اذاعتها قيل وقد كان البارودى تقرب من قونصل الفرنسيس وتحبب اليه فأحبه ومال اليه انتقاما من الرئيس لما بينهما من سابق العداوة التى تقدم الكلام عنها واشتد الخلاف بين الرئيس والبارودى شدة بالغة وشكا الرئيس للخديو وقبح مصاحبة البارودى للقونصل وكتب الى رئيس جمهور الفرنسيس يشكو من فعال القونصل ويعيب تداخله فى أعمال الحكومة وأوعز الى بعض أصحاب صحف الاخبار المحلية فقاموا وقعدوا ووقعوا بالقونصل سبا وتعييبا وأكثروا من اللوم والتقريع بدولة الفرنسيس لتركها قونصلها يعمل على إثارة الخواطر وبلبلة الافكار وأعانهم المراقب الفرنسوى على ذلك أيضا لما بينه وبين القونصل من البغض والمزاحمة على النفوذ * ولما اشتد الخلاف بين القونصل والرئيس وكبرت الوحشة بينهما قام جماعة من الفرنسيس نزلاء القاهرة والاسكندرية واجتمعوا بالنزل المعروف بنزل أبات بالاسكندرية يريدون تعضيد القونصل ورد كيد الرئيس والمراقب عنه فخطب فيهم الخطباء وتكلم بينهم الفصحاء فى ذلك اليوم وهم يقبحون أفعال الرئيس والمراقب وكتبوا بذلك محضرا وبعثوا به الى مجلس نواب بلادهم وسألوهم أن لايعيروا شكوى الرئيس ووشاية المراقب جانب الالتفات وان يستبقوا القونصل فى منصبه كى لا يهدموا بأيديهم ما بناه القونصل بديار مصر من العز ونفوذ الكلمة فلم يكد يصل خطابهم الى عاصمة الفرنسيس حتى جاء الطلب الى القونصل مع البريد فهاج أصحابه وماجوا ورفعوا عريضة ثانية الى كبير جمهورهم فلم ينالوا وطرا وسار القونصل عن القاهرة فى غاية ربيع الاول من السنة فشيعه العدد العديد من الفرنسيس وبالغوا فى الاحتفال بوداعه وألقوا المقالات المهيجة وهم على ظهر الباخرة التى نزل بها راجعا الى بلاده وفرح أصحاب صحف الاخبار الانجليزية بخلع القونصل وتبعيده عن ديار مصر واتهموه بالاشتراك فى مؤامرة الجند وخروج الامراء الثلاثة وقالوا انه هو الذى حضهم على شق عصا الطاعة نكاية بالرئيس وأصحابه فرد عليهم أصحاب صحف أخبار الفرنسيس وأغلظوا فى الرد وتجافوا

مطلب
اشتداد الخلاف
مابين قونصل
الفرنسيس والرئيس
مصطفى رياض باشا
وما كان من وراء
ذلك

فى القول وقامت بينهم حرب الاقلام على قدم وساق واشتد الغيظ باصحاب القونصل وقام زعيمهم المدعو الموسيو جاكن وألف لجنة أو عصابة سماها العصابة الوقتية المكلفة بالدفاع عن مصالح الفرنسيس بأرض الفراعنة وكتب الى كبير جمهور الفرنسيس يقول انى بصفتى رئيس للجنة المؤقتة المكلفة بالدفاع عن مصالح الفرنسيس فى ديار مصر أطلب بالحاح أن تنظروا بعين الالتفات الى العريضة التى بعثنا بها لمقامكم على جناح البريد ثم نشر الزعيم المذكور فى رابع ربيع الثانى اعلانا يطلب فيه اجتماع كافة الفرنسيس نزلاء مصر والاسكندرية وسائر التابعين للراية ذات الالوان الثلاثة يعنى الراية الافرنسية بالنزل المعروف بنزل أبات بالاسكندرية لاقامة لجنة دائمة تكلف بالدفاع عن مصالح الفرنسيس عوضا عن تلك اللجنة المؤقتة فابى القوم دعوته وتزاحموا حتى غص بهم المكان فقام فيهم الخطباء والنصحاء ورموا الرئيس بالخيانة لوطنه والمروق عن جادة الحق وبالغوا فى السب والتعييب بين أصوات التهليل وضجيج الاستحسان ثم بعثوا بعد ذلك برسالة ثالثة الى كبير جمهورهم فلما علم الرئيس بما جرى خشى العاقبة وقد أحس بوشك رجوع القونصل الى منصبه فتقدم الى الخديو فى التحرير الى كبير جمهور الفرنسيس بمنع رجوع القونصل الى ديار مصر كى لا يتكدر صفاء المودة بين البلدين فأجابه الخديو الى ذلك وكتب

مطلب القبض على أحد الضباط الشراكسة وهو يستكتب ضباط الجند السودانى بالشكوى من عبد العال بك حشيش

ولم يكد يطمئن قلب الرئيس باستحالة رجوع القونصل الى منصبه حتى قام زعماء عصابة الجند وقعدوا وهاجوا وماجوا وكثر اجتماعهم فى دار البارودى وطاف أعوانهم يرجفون ذلك لأن عبد العال بك حشيش أمير الجند السودانى قبض على أحد الشراكسة من الضباط الذين معه وهو يطوف على جميع الضباط والعسكر السودانى يحضهم للتوقيع منهم على محضر قالوا انه مرقوم عن لسان جميع الضباط والجند بانهم ليسوا راضين عن أميرهم عبد العال وأنهم يطلبون العفو من الخديو عما سلف من طاعتهم لأميرهم واخراجهم اياه من قصر النيل قالوا وقد ثبت أن يوسف باشا كامل كبير ديوان بيت الخديو يومئذ هو الذى استقدم اليه الضابط المذكور وسلمه ذلك المحضر وتسعمائة جنيه ذهبا عينا وأوصاه أن يبذل جهد المجتهد فى التوقيع عليه من جميع ضباط وأفراد جند عبد العال ولكل ضابط فى نظير ذلك ثلاثة جنيهات وللجندى جنيه وله هو فى مقابلة ذلك الرفعة وعلو الكلمة فذهب الضابط وسعى وسط الجند فاستمال بعضهم وخدع بعضهم وكان ممن تكلم معه فى ذلك أونباشى أى كبير عشرة من الجنود فوافقه الاونباشى ووعده ثم تركه وذهب الى القائمقام وأعلمه بالخبر فقام من فوره ودخل على ذلك الضابط وقبض عليه وفتشه فوجد المحضر وعليه نيف وثلاثون توقيعا فكبله بالحديد وألقاه فى الحال بالسجن وضيق عليه وسأله فاعترف بما ذكر وبأنه رسول يوسف باشا كامل فسير القائمقام فى الحال الى عبد العال بك فحضر وأخذ تلك الورقة وعاد بها الى رفاقه وأعلمهم بخبر الضابط واجتمعوا بمعسكر رحبة عابدين وأرسلوا الى البارودى باشا فجاء على الأثر وعقدوا مجلسهم وتناجوا فى الأمر

ثم قام البارودى ودخل على الرئيس وأعلمه بما جرى فلم يهتم به ولم يلتفت اليه فساء البارودى ذلك وذهب الى الخديو وحدثه بما جرى فغضب ورسم بخلع يوسف باشا وتبعيده عن القاهرة فسار الى أرض له بالاقليم البحرى وخمدت بتبعيده نار الفتنة وسكنت خواطر زعماء العصابة وأخذوا من ذلك اليوم بأطراف الجد والحزامة فتقدموا الى البارودى فى ترتيب سائر أمور الجندية على ما يقتضيه نظامها وتقييدها بالقوانين واللوائح والنظر فى حالة الترقى والجماكى والمرتبات وسن قانون يكون اليه المرجع فى تقدم كل عسكرى وواجباته وعدم تقييد حياته بالخدمة العسكرية وغير ذلك من أوجه الاصلاح فأجابهم البارودى الى ذلك وكلم الرئيس مصطفى رياض باشا فى الأمر فحاول وطاول والبارودى يلح فى الطلب فلما أعيته الحيلة سأل الخديو فى ذلك فكلم الخديو الرئيس فلم يلتفت وأصر على الاباءة فرسم الخديو بتشكيل مجلس من جاكى باشا واستون باشا وبلتش باشا واسمعيل كامل باشا وأحمد عرابى بيك وبرناردى بيك والمستر جولد اسمث مفتش الدائرة السنية وغيرهم من الضباط لينظروا فى طلبات زعماء الجند ويقدروها قدرها فاجتمعوا ووالوا الاجتماع أياما ثم رفعوا الى الرئيس مصطفى رياض باشا محضرا بينوا فيه لزوم تقليل العسكر العامل وجعلوا حدا للترقى فى الدرجات العسكرية تخلصا من تزايد عدد المستودعين وقالوا انه يوجد من هؤلاء أى من المستودعين بعد الذين أدخلوا فى الخدمات الملكية والدواوين العمومية ما يبلغ ألفا وزيادة وطلبوا من الرئيس الاقرار على هاته القاعدة فأجابهم الى ذلك كارها ورفعها الى الخديو فرسم بتنفيذها والعمل بها فبات الجند وأصبحوا وقد زادت جماكيهم وزادت أيضا المرتبات والعلوفات فظهرت عند ذلك كلمة محمود باشا البارودى وعلت منزلته واتسعت شهرة أحمد عرابى بيك وأحبه الضباط والجند كافة ومالوا الى طاعته والاجتماع عند اشارته الا نفرا من الضباط فسعى فى عزلهم وتولية أنصاره مكانهم

مطلب طلب زعماء الجند من البارودى سن قانون للعسكرية يكون المرجع اليه

ورأى البارودى بعد هذا كله ضرورة الجمع مابين زعماء العصابة والرئيس مصطفى رياض باشا وصرف ما فى النفوس لعل الأزمة تنفرج * فلما كان حادى عشرى جمادى الاولى من السنة أولم وليمة عظيمة بقصر النيل ودعا اليها جميع الوزراء والمراقبين الانجليزى والفرنسوى وضباط الجند فلما جلسوا على الطعام قام البارودى وخطب فيهم فكان ما قاله * هذه ليلة أنس دعتنا الى الاجتماع فيها دواعى المحبة والائتلاف تذكارا لمآثر الحكومة الخديوية الجليلة التى وجهت وجه عزيمتها الى اصلاح أحوال الاهالى جميعا وتعميم العدل فيهم وايصال كل لما يستحقه فقد رأينا فى هذا الزمن القليل من عهد ما استلم خديونا المعظم زمام الحكومة تغييرا مهما اذ تبدل فيه العسر باليسر والظلم بالعدل وما ذلك الا من حسن مقاصد هذا الجناب وطهارة سجاياه ــ الى أن قال ــ ولا ريب فان هذه النعم يجب علينا استبقاؤها والاستزادة منها ولن يكون ذلك الا اذا قرناها بالشكر عليها فقد قالوا الشكر سياج النعم وحقيقته أن يكون جميعنا مخلصا للحكومة فى خدمته قائما بواجباتها

معضدا لجميع مقاصدها خاضعا لأوامر الحضرة الخديوية التى هى السبب فى هذا الخير العظيم وعلى ذلك لابد أن ننادى جميعا فليحى الجناب الخديوى أطال الله بقاءه * فقام بعده الرئيس مصطفى رياض باشا وتكلم مخاطبا طوائف الضباط — الى أن قال — ان محسنات العدل ووجوه الاصلاح التى امتازت بها أيام حكم الجناب الخديوى فى هذه الاوطان أمر معلوم يعد تعداده من قبيل تحصيل الحاصل وأنتم معاشر الضباط تعلمون ذلك حق العلم فلا حاجة الى بسط الكلام فيه وإن ضباط العسكرية وهم من أشرف أعضاء الحكومة ممن شملتهم هذه المحسنات وعمتهم فوائد الاصلاح — الى ان قال — وقد رأيتم من أنفسكم أن حقوقكم وصلت اليكم وأنتم قوة الحاكم وآلته المنفذة فاذا بادأكم الحاكم بحسن الالتفات ونظر اليكم بعين الرأفة والرحمة فعليكم وجوبا كما أخذتم مالكم أن تؤدوا ما عليكم وهو طاعة ولى الامر الذى هو السبب الاعظم فى جميع هذه الخيرات — الى ان قال — وعلينا جميعا أن نبتهل الى الله تعالى ببقاء الخديو وتأييد عزه وأن ننادى بلسان الحال فليعش الجناب الخديوى فأجابه الحاضرون على ذلك

مطلب فى عمد أحمد عرابى بيك الى استمالة أهل البلاد

﴿قلت﴾ ولم تكن هذه المآدب والخطابات والتمدح بطاعة الجند لتذهب مافى نفوس زعماء العصابة من البغض للرئيس مصطفى رياض باشا ولا لتقلل من همتهم فى العمل على خلعه والتخلص منه فانه لما تمكن أحمد عرابى بيك من طاعة جميع الجند ومحبة سائر الضباط عمد الى استمالة أهل البلاد وعمدها ومشايخها ومشايخ قبائل العربان والتقرب من جماعة العلماء والمشايخ والوجهاء ثم جعل يبعث البعوث فكانوا يجوبون البلاد ويهيجون العامة ويضرمون فى صدورهم نار البغض للرئيس وأعوانه وتخطى به الخروج الى أن كتب الى عمد وأعيان البلاد القبلية والبحرية على أيدى رسله يقول ﴿ ان الوزارة الرياضية يعنى الهيئة التى يرأسها مصطفى رياض باشا قد ركبت متن الشطط وعدلت عن الصراط المستقيم وليس لها من نية سوى العمل على مافيه اضمحلال البلاد وتلاشيها بما هو جار من بيع الاراضى الكثيرة للاجانب وتسليم أغلب مصالح الحكومة لهم واعطائهم الرواتب الفادحة المثقلة على أكتافكم فضلا عن أنها رسمت برفع الاحجار الطبيعية الموجودة ببوغاز اسكندرية لتتمكن سفن الاجانب من الدخول الى جوف البلاد بلا ممانع وإن سكوتنا واضرابنا عن هذا كله يعد من الجبن والعجز والتفريط فى وطننا ومقر نشأتنا فاعلموا يامعاشر الوطنيين أن أولادكم القائمين بالخدمة العسكرية قد اتكلوا على البارى سبحانه وتعالى وعزموا على منع كل اجحاف بحقوقكم والذود عنها جهد الاستطاعة ولايخفاكم أن هذا لايتم الابتنزيل وزارة رياض باشا وخلعه من منصب الرئاسة وتشكيل مجلس نواب للبلاد لينال وطننا الحرية المطلوبة والمقصود هو أنكم توقعون على الكتابة المرسلة اليكم على يد حاملها والغاية منها جعلى نائبا عنكم فى كل مايتعلق باحوال البلاد * فأجابه الى ذلك كثير من عمد البلاد وأعيانها وغيرهم من المزارعين وأصحاب الاراضى واتفق فى غضون ذلك أن قام الخديو وحاشيته

ورجال

ورجال ديوانه الى مدينـة الاسكندرية لقضاء فصل الصيف فيها على عادته فى كل عام وتبعه الرئيس وهيئة مجلس الوزارة فخلا الجو لزعماء العصابة فأكثر رسلهم من التطواف على بيوت الاعيان والدخول فى مجالس أصحاب الكلمة المسموعة وهم يرجفون ويقبحون فعال الرئيس ويحضونهم على تعضيد العصابة والأخذ بيد زعمائها * وظهر فى هذا الحين نجم من ذوات الذنب فكان يرى فى كل ليلة بشكل جلى حتى لضعاف البصر فهال الناس ظهوره وخافوه وأخذتهم الطيرة وجعلوا يتأولون ظهوره الى رموز واشارات شتى ويقولون ان هذه السنة أى سنة ثمان وتسعين لاتتم دون وقوع أمور مهمة وحوادث مدلهمة بل حروب وكروب وخطوب وقطوب وقد نسبوا اليه جميع الوقائع والحوادث التى وقعت فى غير ديار مصر وتكلم أصحاب صحف الاخبار عن هذا النجم فقالوا انه النجم ذاو الذنب الذى سبق فتكلم عنه المعلم مبل الفلكى الشهير فقال انه ظهر فى سنة ست وسبعمائة وألف ميلادية وشاهده فى سنة سبع وثمانمائة والف ميلادية واستدل على أنه سيعود بعد أربع وسبعين سنة من هذا التاريخ * ونقل بعض أصحاب تلك الصحف أيضا أن أحد المنجمين الاقدمين تنبأ بان العالم باسره سينقرض نهارا فى رابع عشرى نوفمبر سنة اثنتين وثمانين وثمانمائة والف ميلادية يعنى فى ثانى المحرم افتتاح سنة تسع وتسعين ومائتين وألف هجرية قال وتستمر الاحوال من هذا التاريخ الى ثامن ديسمبر يعنى سابع عشر المحرم أى مدة خمسة عشر يوما يأتى كل يوم منها بداهية دهياء وأن النوع البشرى ينقرض فى اليوم السادس من ديسمبر المذكور الذى هو يوم عيد القديس نيقولاوس العجائبى عندهم بعد أن يشاهد الكثير من هذه النوازل الطامة التى منها تلاشى أسماك جميع البحار وان يوم البعث والنشور يكون فى ثامن ديسمبر بحيث لايستغرق الا يوما واحدا قال المتنبئ ثم يعود بعد ذلك كل الى وظائفه العادية اه * قلت * فكان أهل القاهرة عند ظهور ذلك النجم يحيون الليالى وهم على أسطحة البيوت مولولين وكانت لاتمضى لحظة الا ويسمع فيها من يقول قد دنت الساعة وبعد أيام كذا تقوم القيامة ومنهم من ترك أشغاله وتأهب للرحيل الى دار الخلود ومنهم من اقتصر على الصلاة فى المساجد ومنهم من باع حلى امرأته واشترى له قبرا وكانوا يقضون اليوم فى بيوتهم وهم يضربون بالعصى على بعض أوانى النحاس ويضجون ويعجون ويقولون يالطيف يالطيف فاذا سألهم سائل عن ذلك قالوا الناس تتحدث به وهذا نجم الذنب ظاهر للعيان * وقد اعتقد الناس أنه دليل صحيح على حدوث أمر خطير فى هيئة الحكومة أوكرسى الخلافة والولاة وغير ذلك * وكان مما زاد أهل البلاد خوفا وتطيرا ارجاف الضباط الذين كانوا يجوبون البلاد ويلقون بين أهاليها الأراجيف الباطلة والاشاعات الكاذبة ويستفزونهم الى الخروج عن طاعة ولاة الامور ويحضونهم على عدم دفع الضرائب والمكوس لأصحاب الجباية ويوسوسون لهم بان ما كان فى البلاد من الضنك والخراب واهمال الارض انما هو من فعال الرئيس وبغضه للاهالى

ورغبته فى تسليم البلاد للانجليز حتى صدّقوا ذلك وأحلوه محل الاعتبار وعمت هذه الأراجيف البلاد شرقا وغربا فنجم عنها أن كره أهلها سائر الاجانب المستوطنين فى البلاد وطمعت نفوسهم فى أموالهم وأرزاقهم فكان اذا استدان أحد دينا من أحد هؤلاء التجار وحل أجله ماطل وحاول وطلب المهلة فاذا شدد عليه الطلب أنكر الدين وهدد صاحبه وتوعده فخاف جميع التجار وانكمشوا وقلت معاملتهم لاهل البلاد ونزح الكثير منهم الى المدن الكبيرة وقد تبدل ورقهم ورقا حتى تعطل البيع والشراء وبارت الارزاق ومحاصيل البلاد لتخوف المشترين من الاجانب وتعذرت الجباية وقلت حيلة أصحابها وذهب الأمن من جميع الجهات وعاث أهل الفساد وكثرت اللصوص فشدد الرئيس على المديرين ومأمورى الحكومة بمراقبة الاحوال ومنع هذه القلاقل وايقاف تيار الفتنة فلم يفلحوا لفساد أخلاق العامة وميل أهل البلاد الى الاباطيل والاخذ باقوال الاولياء والمشايخ والمكاشفين من رجال الوقت وأصحاب الزايرجات التى كان يذيعها ضباط الجند بين أهل البلاد

مطلب قيام جند الاسكندرية بسبب موت أحدهم بصدمة من عربة أجنبى

وبينما كانت أفكار العامة فى اضطراب وقلوبهم تتقد غيظا من النزلاء ويتمنون لو أنهم يبطشون بهم جميعا اذ حدث بمدينة الاسكندرية أن جنديا من مرابطى القلاع كان سائرا بميدان المنشية فصدمته عربة لاحد النزلاء فسقط ميتا فى الحال فرآه بعض رفاقه فأسرعوا اليه وطلبوا سائق العربة فلم يجدوه وكان كمن قس فى الماء أو عرج به الى عنان السماء فحملوا جثة رفيقهم وساروا بها الى سراى رأس التين وخلفهم الخلق الكثير من السوقة والغوغاء وهم فى صياح وجلبة فاذا مروا بأجنبى أوسعوه شتما وسبا وتهديدا وكثر صياح الغوغاء وتخطفهم الاشياء من حوانيت الناس فخاف الناس العاقبة وأغلقوا حوانيتهم وشاع الخبر فتلاحق بهؤلاء الجند نفر من أصحاب الشرطة يريدون أخذ الجثة منهم فمانعوا وأبوا إلا الصعود بها الى مقر الخديو وما زالوا سائرين بين صياح العامة وولولة النساء حتى دخلوا حوش رأس التين ووضعوا جثة رفيقهم تجاه شباك مجلس الخديو وصاحوا نصرك الله ياأفندينا ما يحل للنصارى قتلنا فى أيامك ائت لنا بصاحب العربة ياأفندينا نصرك الله على أعداء الدين فأشرف الخديو فى الحال من الطاق ولاطفهم وهوّن عليهم ووعدهم ورسم بحمل الجثة الى دار صاحب الشرطة فصاحوا مايحل ذلك ياأفندينا النصارى النصارى تقتلهم جميعا فأرسل اليهم بعض ضباط حرسه يطمنون خواطرهم ويهوّنون عليهم فلم ينكفوا عن النداء والصياح وحضر فى هذه الاثناء صاحب الشرطة ومعه نفر من أعوانه فحملوا الجثة قهرا وساروا بها وخلفهم الغوغاء وجاء الخبر بذلك الى القاهرة فبالغ الناس فيه وخلطوا وخبطوا حتى قالوا انه قد قامت الحرب بين الجند والطوائف الافرنجية بشوارع الاسكندرية والأمر يومئذ على غير ذلك فقد قبض صاحب الشرطة على رفاق ذلك الجندى وألقاهم فى السجن أياما ثم حكموا عليهم بالعقاب الشديد

فلما

فلما شاع خبر الحكم عليهم تحرك جند الاسكندرية وأظهروا غاية السخط وعدم الرضا عما أصاب رفاقهم ثم كثر تطوافهم فى ذلك اليوم فى الازقة والحارات التى تسكنها الطوائف الافرنجية فعم الخوف جميع سكان الاسكندرية وجاء الخبر الى البارودى فأبلغه للرئيس مصطفى رياض باشا فلم يعره جانب التصديق وظنه فرية أوهو من أراجيف زعماء العصابة التى مابرحوا يذيعونها للتهويل والارهاب

مطلب
تطواف عبد الله نديم على أهل البلاد يستنصرهم لرجال عصابة الجند

وأوعز فى هذا الحين أحمد عرابى بيك الى رجل من أهل البلاد اسمه عبد الله نديم صاحب صحيفة من صحف الاخبار اسمها (التنكيت والتبكيت) أن يجوب الاقاليم القبلية والبحرية ويدعو الناس الى نصرة زعماء العصابة ويستفزهم الى طلب تشكيل مجلس نواب للبلاد كما كان على عهد اسمعيل باشا لينالوا بواسطته مالم يقدروا على نواله الآن من الرئيس مصطفى رياض باشا وكان عبد الله هذا قوى الحجة فصيح اللسان قوالا سهل العبارات عذب المنطق مفلقا مهيجا بذلاقة لسانه وقوة حجته وبيانه قد عرف عادات البلاد وأميال أهلها فطفق يجوب المدن والبنادر والقرى ويخطب فى الناس ويقص عليهم حديث أجدادهم وأخبارهم وما ألم بهم من الجور والعسف وما حل بالبلاد على أيامهم من الويل والخراب وكان يصعد على منابر الجوامع ويخطب جهارا وعيناه تذرفان الدمع فافتتن الناس ومال اليه خلق كثير من الاعيان والوجهاء من كل صوب وحدب فلما آنس منهم ذلك كتب محضرا وذكر فى عرض عباراته أن أهل البلاد كافة يدعون ولاة الامور ومن بيدهم زمام الاحكام الى تشكيل مجلس تكون أعضاؤه من أهل البلاد البحرية والقبلية للذب عن حقوقهم واستخلاصهم من ربق الاستعباد الذى أثقلهم فوقعوا عليه جميعا وسموه المحضر الوطنى وعاد عبد الله بذلك المحضر الى القاهرة وسلمه الى أحمد بيك عرابى ففرح به وتقوت عزائم زعماء العصابة فنهضوا الى طلب الشئ الكثير من المطالب وسألوا زيادة عدد العسكر العامل الى ثلاثين ألفا — وجعل زمام الجيش وادارة جميع أموره بيد أمراء الآلايات دون غيرهم — وزيادة جماكى العسكر — وتعديل قوانين العسكرية وغير ذلك مما لم يكن للرئيس مصطفى رياض باشا فى حساب وكتبوا بجميع ذلك محضرا ورفعوه الى الرئيس على يدى البارودى فحرك ذلك ساكنا من قلب الرئيس ولكنه جعل يطاول ويحاول وعنى البارودى والبارودى لاينكف عن الطلب ولم تفتر له عزيمة وبلغت منه الشدة يومئذ مبلغها قيل فكاشف الخديو على ماخفى من فعال الرئيس وحقق له أن الرئيس انما يعمل منذ اليوم الذى عفا فيه الخديو عن الجند وزعماء العصابة على سلب امتيازات الخديو واذهاب حقوقه الذاتية وأطلعه على كثير من الامور الخفية التى لم تكن تخطر له على بال

* قال الراوى فاندهش الخديو من ذلك وتزايد قلقه وكاد يظهر للرئيس ما يخفيه من بغضه اليه وحقده عليه ولكنه اعتصم بحبل التأنى ورسم بان لاتعقد هيئة مجلس الوزراء الا برئاسته وأن لا يقع شئ الا بعد مشورته وأن لا يأتى الرئيس عملا الا بعد التصديق عليه

مطلب تقرب البارودى من المراقب الفرنسوى وقونصل جنرال الفرنسيس وما كان من وراء ذلك

منه فأجابه الرئيس بالسمع الطاعة ولكنه لم يطق الصبر عليه فكان اذا أطلع الخديو على شئ أخفى عنه أشياء واذا أخبره بامر ستر عنه امورا والخديو يتغافل ويظهر الصبر والتجلد وبقى الحال على هذا المنوال أياما

وتقرب البارودى من المراقب الفرنسوى واستماله فمال اليه وقربه من المسيو سنكوفيتش قونصل جنرال الفرنسيس الذى جاء خلفا للمسيو دى رنج المعزول الذى تقدم لنا الكلام على أعماله وحوادثه مع الرئيس مصطفى رياض باشا * قال بعض الكتاب وتحابوا وتوادّوا فرأوا من الخديو عينا راضية وأذنا صاغية فلم يبق عند الناس من هذا الحين شك فى أن للخديو يدا فى جميع هذه الحوادث وأنه راض عن فعال زعماء العصابة انتقاما من الرئيس للاسباب التى تقدم بيانها واشتدت عزيمة البارودى وتقوت أنصار أحمد عرابى بيك وتقدم البارودى الى الرئيس فى طلب تنفيذ مطالب أمراء الجند التى تقدم بيانها وشدد فى ذلك وألح وهدد الرئيس فكبر الامر على الرئيس وشكا الى قونصل جنرال الانجليز ما يلاقيه من المراقب وقونصل الفرنسيس والبارودى وزعماء العصابة * قيل فهون عليه القونصل وشدد عزيمته وحسن له الاصرار على الاباءة * قال بعض العارفين بأساليب تلك السياسة ان القونصل انما أراد بذلك اشتداد الفتنة واستفحال الخلاف فعمل الرئيس بمشورته وأخذ بقوله ومانع البارودى وأغلظ له فى القول فقابله البارودى بما هو أشد وأنكى وأوعز الى زعماء العصابة فقاموا وقعدوا وأكثروا من عقد المحافل والقاء خطب التهديد على لسان عبد الله صاحب (التنكيت والتبكيت) وكثر الاخذ والرد بين الرئيس والبارودى وكلم قناصل الدول الخديو فى ذلك فأرسل الخديو فى سادس عشر رمضان يستقدم الرئيس وجميع الوزراء الى الاسكندرية فساروا اليه وانعقد مجلسهم فى ساعة وصولهم فكلمهم الخديو فى أمر ذلك الخلاف وحذرهم من الفتنة وحركة الجند وعرض بذكر أعمال الرئيس وتجافيه وحطه من مقام الخديو وقال لا بد من تنزيل الوزراء وخلعهم جميعا وأن يتقلد هو رئاسة المجلس ويتولى النيابة الوزير محمد شريف باشا كى تخمد نار هذه الفتنة وترجع الامور الى سابق مجراها وشدد فى ذلك وعنف الرئيس * قال الراوى لهذا الخبر فتغيرت عند ذلك أحوال الرئيس واصفر لونه وقال لست بمتخل عن منصبى ولا أنا بمنزل نفسى وفىّ بقية من الرمق بل لن أعترف بما يطلبه الخديو من تقليده نفسه رئاسة مجلس الوزراء فأجابه على ذلك البارودى وجعل يؤنبه ويعدد معايبه ويذكر للخديو ما ينويه الرئيس من السوء للبلاد وأهلها فكثر بينهم الأخذ والردّ واشتد اللدد فتلجلج الرئيس وضعفت حجته وفاز البارودى أوكاد فكبر الأمر على قونصل جنرال الانجليز وقد كان حضر مجلسهم وهم يتحاجون فانتصر للرئيس وبالغ فى الدفاع عنه فكثرت عند ذلك الغوغاء وعلت الضوضاء وأظهر البارودى ثباتا وحزما وتقدم الى الخديو فى قبول تنازله عن منصبه وألح على الخديو وترامى على أقدامه وقال والله لن يجمع بينى وبين رياض باشا مجلس فأجابه الخديو الى ذلك ورسم

فى الحال بتقليد الامير داود باشا ابن الأمير أحمد باشا يكن منصبه ثم انفض مجلسهم على ذلك فى نحو الساعة السابعة عربى من تلك الليلة وفى النفوس مافيها * وفرح الرئيس مصطفى رياض باشا بخلع البارودى وظن انفشال أصحاب الحركة وانصرام حزمتهم فقرّب اليه الامير داود واستحثه على عدم التهاون حتى بصغائر الامور فشدد الامير على صغار الضباط ومنعهم من الاجتماع ليلا فى بيوت بعضهم وحرر بذلك منشورا وأوعد كل من يخالف بالتبعيد الى أقاصى السودان فلم يرتدوا وظلوا على ماهم عليه من الخروج ليلا وتطواف بعضهم على بعض فأنفذ الى الدراملى صاحب شحنة القاهرة بالقبض على كل من يراه منهم ليلا فطاف الدراملى ليلا ونهارا فلم يفلح اذ كانوا يتهددونه ويتوعدونه بالقتل وكان اذا هم بعمل شئ علموا به قبل الشروع فيه وسدّوا عليه جميع أبوابه فلما أعيته الحيل تمارض وطلب التخلى عن منصبه فأنزلوه وولوا مكانه عبد القادر باشا أحد أمراء الجند على عهد اسمعيل باشا فدبر وجعل يكثر من التطواف والتشديد ولكنه لم يفلح أيضا اذ عصاه أصحاب الشرطة ونبذوا كلمه وعكسوا عليه عمله وأفسدوا تدبيره واتهمه ضباط الجند بانه انما يطوف حول دار أحمد عرابى ليفتك به وأذاعوا ذلك بين العامة فتحدثوا به وخلطوا وخبطوا فخاف عبد القادر باشا شر العاقبة ولازم بيته أياما بحجة أنه مبطون وكلم الأمير داود الرئيس مصطفى رياض باشا فى ذلك فاستعظم الامر ولم يطق الصبر على حر هذا الجمر ورسم بالتشديد وعدم الكف عن التهديد حتى يرجعوا صاغرين

وبينما الناس فى شاغل بالحوادث المترادفة والبلايا المتراسلة اذ ظهر أيضا نجم جديد من ذوات الذنب ولم يكن غاب النجم الاول غير أنه صار ضعيف الضوء لايكاد ينظر الا بالجهد وكان هذا النجم الجديد صغيرا لا يتجاوز الست درجات ولايظهر جدا لشدة ارتفاعه فى الشمال الغربى بأسفل الدب الاكبر ومع ذلك فقد كان ينظر فى نحو الساعة الثالثة عربى ليلا الى بعد نصف الليل بساعة فلما رآه الناس عادوا الى التخوّف والتطير وجعلوا يحيون الليالى على الاسطحة ورؤس الجدران يرصدونه وهم فى ضجة وولولة وابتهال الى الله أن يرفع عن البلاد وأهلها مايستقبلها من الخطوب وكان ظهور هذا النجم فى خامس عشرى رمضان من السنة أى سنة ثمان وتسعين ومائتين وألف هجرية

مطلب ورود الخبر من عامل السودان بظهور كذاب يدعى المهدوية.

فلما كان سابع عشريه وردت الاخبار من عامل السودان بظهور رجل كذاب يدعى أنه المهدى المنتظر على رأس القرن الثانى عشر من الهجرة المحمدية واسمه محمد أحمد وكان سبب ظهوره أنه لما سار جماعة من العسكر السودانى بمديرية آبا الكائنة بالنيل الابيض وهى مستقر المهدى المذكور ليأتوا به الى مقر الوالى وقد تنبه على مقدّمهم بان لايسير اليه الا ومعه قاضى بلدة الكوة فلم يأخذ معه القاضى وسار بعسكره فى الساعة الثالثة ليلا فلما قربوا من مقر المهدى وجدوا عنده زهاء المائتين من الدراويش مزججين بالرماح

والبنادق فأوعز مقدم العسكر الى العسكر بان يطلقوا النيران على أولئك الدراويش ليمزقوا بجمعهم فامتنع العسكر من ذلك وقالوا لانضرب قوما فقراء ولا نقاومهم لانهم من الدراويش فأحس الدراويش بهم فركبوا عليهم وأعملوا فيهم القتل بحد السيف فقتلوا نيفا ومائة عسكرى وستة من الضباط وفر من بقى والتجؤا الى النيل * ولما رجع أصحاب المهدى اليه ظافرين اشتد ظهره وتقوت عزيمته وبث الدعاة فى البلاد فلبى دعوته كثير من البقارة وأهالى الجبال وكثرت لمومه فعبر بهم الى الجانب الغربى وظهر من هذا الحين أمره وعلت كلمته ثم دخل بلدة جبال تقلى احدى بلدان مديرية كردفان بأراضى البقارة وجعل بها مقره وطير الخبر الى الآفاق يدعو الناس الى طاعته ويستحثهم على الخروج عن طاعة الكفرة الملحدين فجمع الوالى عند ذلك لقتاله جماعة من الباشيبوزق والجند وسيرهم الى فاشوده ليسيروا منها غربا والوالى يومئذ رؤف باشا وأرسل الى القاهرة فى طلب المدد من الرجال ومعدات الحرب فسر الرئيس مصطفى رياض باشا بذلك وظن بلوغ المأمول ورسم الى الامير داود بان يسير اليه طائفة من مرابطى قلعة الجبل وأخرى من جند أحمد عرابى بك النازلين بالعباسية فأحس زعماء العصابة بما وراء ذلك فبثوا أعوانهم يشيعون تكذيب خبر الفتنة بالسودان ويقولون انها مناوشات بين البقارة وسكان الجبال لابد منها عند خروج أصحاب الجباية لجمع الخراج فشدد الامير داود فى طلب خروج العسكر والمعدات فامتنع كبارهم وبالغوا فى الامتناع وتجرد عبد الله صاحب (التنكيت والتبكيت) للذب والدفاع وكثر بين الفريقين الاخذ والرد فكلم الرئيس مصطفى رياض باشا المستر ماليت قونصل جنرال الانجليز فى ذلك واستعان به فأعانه وتقدم الى الخديو فى طلب صرف جميع الجند الى أوطانهم علها تسقط كلمة أحمد عرابى ويذهب نفوذ زعماء العصابة فرسم الخديو بذلك الى الأمير داود فجمع الأمير داود كبار الجند من جماعة الشراكسة وكلمهم فى الامر فأجابوه بالسمع والطاعة ولكنهم لم يفلحوا حيث رأوا من صغار الضباط غاية الممانعة والرفض فعملوا على استرضائهم فلم يتمكنوا وكان الامر على غير ما يريدون * فلما أعيتهم الحيل وكاد يخيب منهم الرجاء والامل كتب الأمير داود مرسوما فى ثالث عشر شوال الى جميع طوائف الضباط ينهاهم عن الاجتماع ويحذرهم من شر العاقبة وطاف فى ليلة تحريره ذلك المرسوم على بيوت الضباط ليرى ما سيكون من أمرهم فرآها غاصة بجماهيرهم وهم فى هرج وجلبة فأصبح وقد كتب اليه عبد العال بيك أمير الجند السودانى يطعن فى مرسومه ويعيب قوله ويرمى الهيئة الحاكمة بالجور والعنف ويقول ان هذا النهى مما لا يصح الامتثال اليه اذ هو مخالف للقوانين العسكرية وارادة أمير البلاد ومقتضيات الملة الحنيفية وأن تعاضد الجند واتحاد العسكر فى أمورهم وتقوية عزائمهم بالتزاور وتآلفهم وتجمعهم فى أعمالهم كل ذلك عنصر القوة والنظام العسكرى فى كل أمة وملة ولا سبيل الى النهى عنه فاستعظم الأمير داود هذا الجواب وأكبر ما فيه من الغلاظة والتعنيف وقام من ساعته وسار الى قصر النيل وجمع

ضباط

ضباط الفرسان المرابطين هناك وجعل يستميلهم ويمنيهم بالامانى العظيمة ومازال بهم حتى استمالهم واستمال كذلك ضباط فرسان قلعة الجبل وكان قبل هذا الحين قد استحلف ضباط الالاى الخامس النازلين بمدينة الاسكندرية وضباط الحرس الخديوى وظن اخلاصهم والاعتماد عليهم عند الحاجة فلما تم له ذلك رسم الى أحمد عرابى بالقيام بجميع عسكره الى مدينة رشيد والى جند قلعة الجبل بالقيام الى دمياط وأنفذ الى مقدم جند دمياط أن يأتى بعسكره الى مدينة الاسكندرية والى مقدم جند الاسكندرية بالحضور الى القاهرة عند انحدار جند أحمد عرابى وجند قلعة الجبل الى رشيد ودمياط * فلما وصل مرسوم الامير داود الى مقدم جند القلعة بالانحدار الى رشيد وكان ممن لا يميلون الى أحمد عرابى وأصحابه جمع الضباط الذين معه وتلا عليهم المرسوم واستحثهم على التأهب للخروج مع العسكر الى رشيد فقالوا لانخرج فراجعهم فعنفوه وانحدر جماعة منهم وأعلموا زعماء العصابة بما جرى فخافوا العاقبة وجمعوا فى الحال جميع ضباط الجند الذين بالقاهرة وطرا والعباسية فى معسكر الحرس الخديوى وقام فيهم أحمد عرابى خطيبا فشكى من فعال الأمير داود وبالغ فى الشكوى وعظم البلوى وأطال الكلام عن الاتحاد والتعاضد وما فيهما من الخير والامن على الارواح ثم استحلفهم جميعا على السيف والكتاب بأن تكون أرواحهم موقوفة على حفظ الوطن من شر الاعداء والاحتراس على موارد ايراده من أيدى الطمع وبأن يكونوا جميعا على قلب رجل واحد ثم أعلمهم بأنه قد اجتمعت الكلمة على تسليمه زمام الزعامة وأن يكون المرجع فى كل الامور اليه * وانقضى مجلسهم فكتب أحمد عرابى بك الى الأمير داود يقول قد تحقق لنا ولعموم ضابطان الجهادية وأفراد العسكر صدور أمركم الى الألاى السادس بالتوجه الى الاسكندرية بدون باعث ولا سبب يقتضى ذلك ولكن علمنا أن المراد تفريق القوة العسكرية ليسهل الانتقام منا والتمكن من الغدر بمن هم محافظون على الطاعة والاخلاص ولا ذنب لهم سوى طلب الاصلاح فليكن معلوما لدى سعادتكم أننا لا نسلم أنفسنا الى الموت وأن كافة الآلايات ستجتمع يوم تاريخه فى الساعة التاسعة نهارا بميدان عابدين للنظر فى حل تلك المسائل بحيث ان هذه الآلايات لاتتحرك من موضعها الا اذا حصل التأمين الكافى اسن قانون عادل يوقف كل انسان عند حده وسنشعر وكلاء الدول الاجنبية بما يلزم اهـ بنصه

مطلب كيف كان اجتماع العسكر بميدان عابدين وما كان من وراء ذلك

وكتب الى قناصل الدول أيضا يقول أتشرف بان أحيط علم جنابكم أنه من أول شهر فبراير سنة احدى وثمانين أى من وقت ابتداء الفتنة التى أحدثها عثمان رفقى باشا الى الآن قد مضى فوق السبعة أشهر وفى كل هذه المدة تقاسى العسكرية أتعابا وتتحمل مصائب ونوازل وتهديدات وتتوقع الفتك والاعدام غدرا وخديعة ومن هذه المصائب حادثة يوسف باشا كامل وكيل الحضرة الخديوية ونازلة فرج بك السودانى وواقعة التسعة عشر ضابطا الذين كانوا يدسون الدسائس ۞ قلت وهاتان الحادثتان لم أذكرهما لعدم أهميتهما

يومئذ ۞ ونحن مع كل ذلك نسعى فى تحسين الحال وقطع المفاسد بالحكمة والتدبير رغبة فى الحصول على الراحة العمومية وحقن الدماء والمحافظة على كافة تبعة الدول المتحابة ومن وقت أن تشرفت مصر بالحضرة الخديوية أخذت الفتن والدسائس تزداد الى أن شرع فى تجزئة الجيش المصرى وتفريقه تسهيلا للغدر والانتقام فلهذا التزمنا بالمحافظة والمدافعة عن أنفسنا وأعراضنا الى أن يأتينا أمر دولتنا العلية الذى يترتب عليه حفظ بلادنا ومن فيها وقد دعت الحالة الى تحرير هذا لجنابكم لتعلموا باننا متمسكون بالمحافظة على حقوق التبعة الاورباوية واقبلوا مزيد الاحترام اه

فلما وقف الأمير داود على مافى خطاب أحمد عرابى بيك تكدر وقام من فوره ودخل على الخديوى بعابدين وكان الخديوى قد عاد من الاسكندرية منذ أيام وحدثه بخبر تحزب جميع الضباط وما فى خطاب أحمد عرابى بيك فسير الخديوى فى الحال فى طلب الرئيس مصطفى رياض باشا وجميع الوزراء وبينهم المستر كولفن المراقب الانجليزى لغياب ماليت قونصلهم الجنرال فحضروا فعقد مجلسا وتناجوا فى الامر طويلا وكثر بينهم الاخذ والرد فأوقعوا اللوم على الرئيس وعابوا عليه جميع أفعاله وبينما هم على هذه الحال اذ حضر من يعلم الخديوى بان حرس سراى القبة التى هى مقر نساء الخديوى قد انضموا الى عسكر العباسية وتركوا مراكزهم فظهرت عند ذلك على وجوه جميع الحاضرين علامات الدهشة والخوف واشتد بهم القلق وانفض مجلسهم على مالم تصل الينا معرفته الى الآن * وفى نحو الساعة السادسة نهارا عاد الرئيس مصطفى رياض باشا ومعه سائر الوزراء فعقدوا مجلسهم ثانية وتكلموا فى الامر وبينهم كولفن المراقب الانجليزى فتقدم كولفن الى الخديوى فى ابلاغ المسيو سنكوفيش قونصل جنرال الفرنسيس بخبر هذا الحادث اذ كان فى هذا اليوم بمدينة طنطا فرسم له بذلك فغاب كولفن ساعة ثم عاد فاعلم الخديوى بان جند الحرس وجند الألاى الثانى على قدم الاستعداد لارغام جند أحمد عرابى وارجاعهم الى الطاعة وانه على عزم الذهاب ومعه جميع الحاضرين الى معسكر الحرس لتحقيق صدقهم واخلاصهم فساروا جميعا الى المعسكر وبرز لهم الخديوى ووقف فى وسط الضباط وسألهم الطاعة فصاحوا جميعا بكلمة الاخلاص وهتفوا بالدعاء له فسار هو ومن معه الى قلعة الجبل ودعا اليه رضا باشا مقدم العسكر النازلين بها ورسم اليه بأن يسير الى أحمد عرابى بك من يخبره بأن لايتحرك بجنده ولا يأتى الى ميدان عابدين بشئ من المدافع وفى هذه الاثناء حضر المستر كوكسن كاتب المستر ماليت قونصل جنرال الانجليز فقص عليه كولفن تفاصيل الحادثة فنزل من فوره من القلعة وبعث بها الى عاصمة الانجليز على جناح البرق ولما صار الخديوى ومن معه فى جوف القلعة اجتمع حوله جميع الضباط وأظهروا له كمال الطاعة وحسن الولاء والاخلاص ودعوا له ثلاثا ثم نادوا بالويل والثبور على الرئيس مصطفى رياض باشا ورفاقه وطلبوا خلعه من منصب الرياسة عاجلا فقال الخديوى

ماالسبب فى نبذكم للاوامر فقالوا حاشا أن نخالف لاميرنا أمرا ونحن عبيده المخلصون فى طاعته فالتفت الى ابراهيم بك حيدر مقدمهم التفات الاستغراب فقال ابراهيم بك لم يكن من سبب لنبذ الاوامر سوى اغراء فوده حسن هذا البيكباشى وأشار اليه فتقدم نحوه الرئيس مصطفى رياض باشا وأمسك بأطواقه وجذبه اليه وقال له أمثالك من يعصى أمير البلاد ويمانع فى اجراء ماأشارت به الهيئة الحاكمة فلما فعل بهذلك نفخ أحد أصحاب البوق على الجند ونادى ضعوا الحراب ضعوا الحراب فأسرعوا جميعا ووضعوا حرابهم على أفواه البنادق وأحاطوا بالخديوى ومن معه احاطة السوار بالمعصم وكثر ضجيجهم واشتدت جلبتهم ونادوا أطلق ضابطنا أطلقه فخلى عنه الرئيس وقد ظن أنه مأخوذ على رؤس الحراب فالتفت الخديوى الى الجند وقال ألست خديويكم وولى أمركم قالوا بلى قال هل تأخر لاحد منكم راتب أو تعيين أو كسوة حتى جهرتم بهذا العصيان وفعلتم ما أنتم فاعلوه قالوا والله إنا مطيعون لك لانخالف لك أمرا وأنت أميرنا وولى نعمتنا ولانريد سوى خلع الرئيس وتبعيده عن خدمة البلاد فتركهم عند ذلك الخديوى وانحدر وانحدر من كان معه على عجل * قيل وبينماهم منحدرون أشار الرئيس والمستر كولفن على الخديوى بأن ينحدر الى عابدين قبل أن يصل الى ميدانها أحمد عرابى ومن معه من الجند فامتنع وأصر على الذهاب الى العباسية على غير الطريق المسلوك حتى انقطع عنه بعض فرسان حرسه وقد غطى الغبار وجهه ولحيته وابتلت جميع ملابسه بالعرق فوصل العباسية فى أقل من ساعة ودخل محلة الجند فلم ير فيها ديارا ولا نفاخ نار قيل فطرق كفا على كف وكر راجعا الى عابدين * وأما أحمد عرابى بك فانه لما صارت الساعة الثامنة عربى نهارا نادى فنفخوا فى البوق واصطف الجند وحملوا بنادقهم وساروا من العباسية فتبعهم أصحاب المدافع يجرون اثنين وعشرين مدفعا من الطراز الكبير وكان قيامه بهذه العساكر والاجناد من العباسية فى نفس الساعة التى دخل فيها الخديوى قلعة الجبل فقد أرسل اليه ضباط القلعة يعلمونه بوصول ركب الخديوى اليهم وكذلك أرسلوا الى عبد العال بك مقدم الجند السودانى بمعسكره بطرا فتحرك فى الحال عبد العال بجنوده وركبوا قطار سكة حديد حلوان ونزلوا بميدان محمد على ثم صعدوا الى قلعة الجبل ليقبضوا على جميع الوزراء ويلقوهم فى سجن القلعة وفى رواية ليقبضوا على الخديوى وعندى أن الاول أصح فقد أكد بعض العارفين أن الخديوى كان على اتفاق مع زعماء العصابة الى هذا الحين فلم يكن من موجب اذن للقبض عليه ولما لم يجدوا أحدا بالقلعة كروا راجعين الى رحبة عابدين فالتقوا هنالك بجند العباسية والفرسان وأصحاب المدافع فتقدم عبد العال بك الى حيث أحمد عرابى وبقية الضباط وتعانقوا ثم تصافحوا وتساروا لحظة ثم وقف كل فى مقدمة عسكره وسيفه بيده مسلول وقد اجتمع حولهم من العامة مالايحصر عدده من النساء والرجال والصبيان وماوصل جند عبد العال بك حتى نفخ البوق نفخات متتابعة فعلت الضوضاء عند ذلك وكثر صياح

العامة وارتفعت أصواتهم بالاستغاثة وتراحموا وترامى بعضهم فوق بعض ظنا منهم أن البوق انما دعوا الجند الى اطلاق قنابل المدافع على المدينة وقد كان صوت البوق ينادى جند الحرس الخديوى للخروج من معسكرهم فخرجوا فى الحال يحملون البنادق والحراب ومروا بين الصفوف ودخلوا السراى وأمامهم مقدمهم على بيك الديب وأحاطوا بالسراى من كل صوب ودرب يمنعون الناس من الدنو منها وهم فى غاية الهدوّ والسكينة * أما الخديوى فانه لما وصل الى رأس الطريق الموصل الى ميدان عابدين و رأى الميدان غاصا بالجند والخيل والمدافع والخلق الكثير من العامة وهم فى ولولة وخوف عرّج الى طريق أخرى ودخل السراى من باب صغير أمام الجناح الذى بالجانب القبلى من السراى وكان معه فى مركبته كولفن المراقب الانجليزى وخلفه الجنرال أستون باشا وثلاثة من الضباط فنزل وسار نحو الباب الغربى الموصل الى الميدان حيث الجند والخيل فتقدم اليه فى الحال رضا باشا وأعلمه بان جند قلعة الجبل قد انضموا أيضا الى المتظاهرين ولم يسمعوا لمقدمهم كلمة فالتفت كولفن الى الخديوى عندئذ وقال اذا تقدم نحوك أحمد عرابى فأمره أن يرد سيفه الى غمده ويتبعك فاذا فعل تقدم أنت الى رأس كل فريق من الجند ومره بالانصراف فقدم الخديوى بقلب ثابت وشهامة كبرى وسار نحو أحمد عرابى وعبد العال وأشار لهما بالسلام فسلما بالاحترام والتجلة والوقار فقال لهم ما لكم قد نبذتم طاعتى وعصيتم أمرى فقالوا حاشا نحن عبيدك المخلصون فقال انصرفوا وسأبذل جهد الاستطاعة فى تحسين أحوال العسكرية وتنظيم قوانينها على قواعد ثابتة فأجاب أحمد عرابى انى واخوانى و جميع ضباط الجيش وأفراد العسكر خاضعون لك يامولاى وكلنا لانبرح من هذا الموقف حتى تنجز لنا ما طلبناه فقال له الخديوى ردّ سيفك الى غمده فأجاب سمعا وطاعة وناول الخديوى ورقة وقال هذه يامولاى ملحقة بمقترحات الوطن وبنيه فأخذها الخديو وقفل راجعا الى السراى ولم يأمر أحمد عرابى أن يتبعه ليقبض عليه ويطرحه فى السجن كما أشار بذلك المراقب الانجليزى فلم يقتحم الخديوى الدرج حتى جاءه من يقول ان جند الحرس انضموا أيضا الى المتظاهرين فقطب وجهه وصعد الى مقره فلما استوى به المقام أمر فعقدوا هيئة مجلس الوزارة وتليت عليهم مقترحات ضباط الجند فكانت ــ أولا عزل جميع الوزراء وتشكيل وزارة أخرى يرأسها الوزير محمد شريف ــ ثانيا جعل عدد العساكر العاملة ثمانية عشر ألفا طبقا للفرمان الصادر فى شأن ذلك ــ ثالثا تشكيل مجلس نواب البلاد على ما كان عليه فلما طرق أذن الرئيس مصطفى رياض باشا طلب هذا الكلام كاد يتميز غيظا وقال كيف يحل لهم طلب خلع الوزراء كافة والوزراء خدموا البلاد وأخلصوا فى خدمة أبنائها لاسيما وهم اليوم مؤيدون بتصديق دولتى الانجليز والفرنسيس فلا يصح التعرض لهم بشئ البتة الابعد استشارة الدولتين فقال الخديوى وأنا أرى أيضا ان الوزير محمد شريف باشا لايريد أن تكون له الرياسة على هيئة تكون كالآلة الصماء فى أيدى

الجند أما من جهة مجلس شورى النواب فلا اختصاص لعصابة الجند بطلب تشكيله وكذلك جعل عدد العسكر العامل ثمانية عشر ألفا ممايثقل حمله على عاتق الخزينة وليس فى الامر الآن مايستلزم هذه الزيادة * فكثر عند ذلك الاخذ والرد بين الوزراء والخديوى وعلت بينهم الضوضاء وتنوعت الاغراض وتفرقت الاهواء وعلا صوت الرئيس مصطفى رياض باشا وأقسم انه لايخلع نفسه وفيه بقية من الحياة فعنفه بعض رجال ديوان الخديوى وقالوا له انك أنت محدث هذه الثورة وموقد نارهاته الفتنة وكانك تعمل على خلع شخص الخديوى لغاية فى نفسك فاغلظ عليهم فى الرد وشدد فى الامتناع فراجعه الخديوى فامتنع أيضا فقام عند ذلك المستر كوكسن نائب قونصل جنرال الانجليز ليسأل أحمد عرابى بيك عن رغائبه وكان أحمد عرابى واقفا وحوله كتيبة من الجند تحرسه على شكل قلعة فدنا منه المستر كوكسن وقال * قد تقرر خلع الوزراء الا ن ولكن لايتقرر تعيين بدلهم حتى تصرف جميع الجند وتفض هاته الجموع المجتمعة حولهم فصاح عند ذلك جميع الضباط ونادوا نطلب الوزير محمد شريف باشا * الوزير محمد شريف باشا * فقال كوكسن ويحكم انى أرى أن الاجمل صرف الجند الساعة والا كنتم سبب ضياع وطنكم وعيالكم فان الخليفة أمير المؤمنين ودولتى الانجليز والفرنسيس لايرضون عن جعل حكم هذه البلاد فى قبضة جنودها انصرفوا فصاح الضباط ثلاثا نطلب الوزير محمد شريف باشا فرجع كوكسن الى مقر الخديوى وغاب برهة لطيفة ثم عاد وقال ان الخديوى رسم باحالة نظر هذه المشكلة على دار السلطنة فلا يعمل فيها عملا حتى يأتيه الاذن من أمير المؤمنين فاصرفوا الجند وفضوا هذا التظاهر فقال أحمد عرابى بيك أما احالة نظر هذه المشكلة على دار الخلافة الاسلامية فلا بأس به وأما صرف الجند فلا سبيل اليه قبل أن يعطى لنا الخديوى أمرا قاضيا بخلع الرئيس مصطفى رياض باشا وأصحابه واقامة الوزير محمد شريف باشا بدله فقال كوكسن ان كنت تخشى شيأ من انصراف الجند فانا كافل لك أنت ومن معك حفظ أرواحكم وعيالكم وأموالكم وجميع مالكم من الرتب وألقاب الشرف فضحك أحمد عرابى وقال يورك فيك كيف تكفل لنا حفظ أرواحنا وأموالنا وعيالنا وأنت غريب نازل ببلادنا التى هى فى حفظ وحراسة هؤلاء الجنود الساهرين على حفظ أرواح سائر الاجانب وصيانة أموالهم وأعراضهم وكيف يكون لك ذلك وأنت فرد من الانجليز ولا أظنك تجهل أن دولتى الانجليز والفرنسيس مع تكفلهما معا بحفظ حياة الوزير اسمعيل صديق باشا لم يدفعا عنه مرارة تلك الكاس التى شربها قهرا فعند ذلك سكت كوكسن وعاد الى المجلس ولم يعد ثالثة الا ومعه كولفن المراقب وخيرى باشا المهردار وبيد خيرى باشا مرسوم الخديو الى الوزير محمد شريف باشا بتوليته منصب الرياسة وتشكيل هيئة الوزراء على مايشاء * فلما دنوا من موقف أحمد عرابى أخذ القونصل المرسوم ودفعه الى أحمد عرابى وقال هاهو ماتطلبه فأعطه بيدك الى الوزير محمد شريف باشا ومر الجند بالانصراف وقد خرج من مجلس الخديوى من يستدعى أحمد عرابى

مطلب
خلع الرئيس مصطفى رياض باشا وما كان عند ولاية الوزير محمد شريف باشا

للمثول بين يدى الخديوى فدخل أحمد عرابى الى المجلس وغاب برهة ثم عاد فأمر صاحب البوق فنفخ فيه تباعا فصاح الجند جميعا بصوت واحد (أفندم جوق يشا) ثلاثا فظن الناس عند ذلك أن قد قامت الحرب على ساقها ولم يبق الا طاق المدافع فترا محوا وارتفعت أصواتهم بالصياح وتساقط بعضهم فوق بعض وكثر بكاؤهم فنفخ البوق ثانيـة وثالثة فسار أولا جند عبد العال بيك الى ناحية طرا ثم جنـد قصر النيل ثم جند العباسية وكان فى مقدمة جند العباسية كوكبة من الفرسان ثم أخرى من المشاة على شكل قلعة وفى وسطها أحمد عرابى بك وخلفه جماعة من الضباط يحملون السـيوف ثم بقية المشاة ثم أصحاب المـدافع وخلفهم نساء العامة والسوقـة وهن يزغرتن ويغنـين الاغانى الريفيـة ويصحن فى كل لحظة ويقلن الله ينصرك ياعرابى يا سـند الولايا الله ينصرك

وسير الخديوى فى الحال بعد انفضاض الجمع خبر هذا الحادث الى دار السلطنة فأتاه الجواب من صدر الدولة يستحثه على استدراك الخطب قبل استفحاله وأرسل فى نحو الساعة الخامسة ليلا الى الاسكندرية يستقدم الوزير محمد شريف باشا وقد كان بها منذ أيام فقام من محطة الحضرة فى قطار مخصوص هو وآل بيتـه وخدمه وحشمه وأتباعه فوصـل القاهرة فى فجر السبت سادس عشرى شوال ودخل على الخديوى ولبث بحضرته طويلا ولم يحدث فى تلك الليلة شئ مما كان يتوقع الناس حدوثه من العامة وزعانف الفرنجة فقد كان أصحاب الشرطة ساهرين يقظين والعسس يكثر التطواف فى الازقة والحارات وأصحاب الدركات ينادون بعضهم على بعض تباعا ورتب أحمد عرابى بك جماعة من الجند يطوفون ويمنعون العامة من التجمع فى الطرق والقهاوى على عاداتهم وألبس كثيرا من صغار الضباط ملابس العامة فكانوا يمرون بين الناس لاستراق السمع واستطلاع الحوادث وأصبحوا والناس فى فرح ماعليه من مزيد وقد سر أصحاب الوظائف ورجال الدولة بخلع الرئيس مصطفى رياض باشا وذهب الوزير محمد شريف باشا الى مقر الخديوى بعابدين وعقد مجلسا حضره جميع قناصل الدول الكبرى وبعض قناصل الدول الصغرى وكان بعضهم فى هذا اليوم فى الاسكندرية وبعضهم فى طنطا وحضر فى هذا المجلس أيضا مقدمو العسكر فتكلم الوزير محمـد شريف باشا فى طلبات زعماء الجند وتباحثوا كثيرا فعلق الوزير قبوله منصب الرياسة على خلع أمراء الالايات الثلاثة من مناصبهم وأنه يكفل لهم الذب عن جميع حقوقهـم الذاتية ولسائر الجند بنوال العفو عما فرط ولزوم انسحاب جنـد العباسـية وطرا الى رأس الوادى ودمياط فـلم يرض مقـدمو العسكر بذلك وقالوا انما نحن نطلب أن يتولى رياسـة ديوان الجنـد رجـل من أهـل البلاد لا شركسى ولا من العائلة الخـديوية وأن لابد من ابلاغ عـدد الجنـود العاملة الى ثمـانية عشر ألفا وأن يشـكل مجلس شورى البـلاد كما كان على أيام الخـديوى اسمعيـل باشا فطال بينهـم الاخـذ والرد وكـثرت الضوضاء ثم انفض مجلسـهم على غـير طائل وشاع الخـبر بما كان فتطير الناس وخافوا وكـثرت الاراجيف وتنوّعت الاشاعات فـمن قائل ان مراكب حرب

الانجليز والفرنسيس آتية للاسكندرية لاخضاع زعماء الجند وارجاعهم الى الطاعة ومن قائل لابل ان عسكر السلطان صارت على مقربة من العريش وهي آتية لمعاونة زعماء الجند وتقرير جميع مطالبهم واشتد اللغط وكثر تساآل الناس بعضهم لبعض وأصبحوا فأرسل الخديوى الى الوزير محمد شريف باشا يلح عليه بقبول منصب الرياسة وتوسط فى ذلك أيضا قناصل الدول فامتنع وقال لاسبيل الى ذلك حتى تنسحب جميع العساكر الى رأس الوادى ودمياط وينزل أمراء الجند الثلاثة عن منصبهم فانقسم الناس فى أمره يومئذ الى فريقين فريق كان يصوب آراءه ويستحسنها غاية الاستحسان مشيرا بذلك الى عزة نفسه ونزاهتها عن الاغراض الذاتية التى تصحب عادة تلك المناصب العالية مع حبه الزائد للوطن وفريق كان يرى أن حب الوطن مفضل على كل شئ فكان عليه أن يلبى الداعى ويأخذ بأطراف الحزم مع أجل المساعى فيفض المشكلة بحكمته المشهورة وينقذ البلاد وأهلها من البلايا التى وقعت فيها وكان لكل من الفريقين دليل وبرهان وعندى أن القول الثانى أفضل وقد ظن بعض الناس أن تردده فى قبول منصب الرياسة مبنى على رغبته فى اماتة الوقت والمطاولة حتى تصل الى الاسكندرية مراكب الحرب السلطانية وظن آخرون أنه لايقبل هذا المنصب حتى تحل عقدة المراقبة وينزل المراقبان الانجليزى والفرنساوى عن مناصبهما لما بين الوزير والمراقب الفرنساوى من الوحشة والنفور * قلت ولم يكن الوزير على هذا الجانب من الافراط والتفريط فانه معروف بين جميع أهل البلاد بالتنزه عن الاغراض الذاتية مشهور بلين العريكة وسلامة النية فلا تميله الاغراض ولا تغير المناصب من أخلاقه شيأ ولا يسير الا على ما يعتقد أن فيه الخير والمصلحة للبلاد وأهلها وفوق ذلك فهو ليس بذى طمع مع احدى الدول الطامعة فى البلاد كغيره ممن تولوا الرياسة ولذلك كان الناس كافة يعتبرونه أبا الامة وأخا الاصلاح ومحيى روح المساواة بين صنوف الرعية * ولما طال امتناعه أوعز الخديوى الى قناصل الدول والعلماء والرؤساء الروحانيين وعمد البلاد ووجهاء التجار أن يستميلوه الى قبول المنصب ففعلوا وزادوا فى استعطافه ورفع اليه العلماء وعمد البلاد ووجهاؤها وأئمة المذاهب ومشايخ الطرق سجلا بأختامهم وأسمائهم وهم زهاء الستة آلاف ذكروا فيه أنهم كافلون وضامنون طاعة أمراء العسكر وجميع صغار الضباط وعدم عودهم الى تكدير صفو الراحة وامتثالهم لاشارة الوزير وغير ذلك من أقوال اللين والتلطف فلم يسعه بعد ذلك الا القبول وقام من ساعته ودخل على الخديو بمقره بالاسماعيلية ولبث بحضرته لحظة ثم كر راجعا الى داره فلقيه وفد من مقدمى العسكر ومعهم التماس وقع عليه جميع أفراد الضباط على اختلاف درجاتهم فدفعوه اليه فقبله ولاطفهم وأظهر لهم غاية البشر والايناس وقرأه واذا هم يقولون فيه

نحن ضباط الجيش المصرى نعتقد الاعتقاد التام فى حسن صداقة وغيرة دولتكم وخلوص

طويتكم وسلامة نيتكم فى خدمة الوطن العزيز والمحافظة على حقوقه والسعى فى رفاهية أهله ولهذا ولكوننا جميعا نحب تقدم وطننا العزيز فنلتمس من دولتكم قبول مسند رياسة مجلس النظار ونسترحم من دولتكم انتخاب نظار الدواوين ممن يكونون موصوفين بالصفات الحسنة والعرض عنهم للحضرة الفخيمة الخديوية للقيام بأعباء خدمة الوطن العزيز واعلانا لصداقتنا وانقيادنا لاوامر الحكومة التى تصدر فى صالحنا العمومى قد أمضينا هذه العريضة ونحن على يقين أن تقع لدى دولتكم موقع القبول اه * فما فرغ من قراءة العريضة حتى هان عليه الخطب وخف عنه ماكان يلاقيه ورسم بتشكيل هيئة الوزراء فعين مصطفى فهمى باشا لوزارة الخارجية وحيدر باشا للمالية واسمعيل أيوب باشا للاشغال ومحمود باشا البارودى للجهادية والبحرية وقدرى بك للحقانية وأضاف الى مسند الرياسة وزارة الداخلية وكان الفراغ من تشكيل الوزارة على هذا النسق بعد ظهر يوم الثلاثاء تاسع عشرى شوال سنة ثمان وتسعين وشاع خبر ذلك بين الناس ففرحوا فرحا لا يوصف واطمأنت قلوبهم بعد الخوف وذهبت عنهم تلك الطيرة ووردت رسائل التهانى على الوزير محمد شريف باشا من كل صوب وحدب وأحس مصطفى رياض باشا بما وراء تنزيله عن منصب الرياسة لاسيما وقد كثر اللغط وعمت الاشاعة بان زعماء الجند يطلبون محاكمته على ما ارتكبه من الجور والعسف وتخريب البيوت العامرة وتبعيد الكثير من أبناء البلاد الى أقاصى السودان والدارفور بلا موجب فخاف وتقدم الى الخديوى فى أن يسترحه بالخروج الى الديار الاجنبية كما فعل عند خلعه على أيام الخديو اسمعيل فسرحه بشفاعة قونصل الانجليز والمستر كولفن المراقب فرحل عن القاهرة مساء الثلاثاء تاسع عشر شوال الى الاسكندرية ثم سار عنها فى ثانى يوم الى مدينة نيس احدى مدن بلاد الفرنسيس فكان بين خلعه وارتحاله ثلاثة أيام واحدى عشرة ساعة بالقاهرة وزهاء سبع عشرة ساعة بالاسكندرية وطير الخديوى الخبر بجميع ماجرى الى دار السلطنة فجاءه الجواب فى ثالث عشرى شوال يهنئه بما حصل ويسأله تحقيق الآمال بجعل الوزير محمد شريف باشا يتصرف فى الامور بعزمه وحزمه المعلومين وينظر الى مصالح الخلق من أبوابها الحقة * وجاء الى القاهرة العدد العديد من وجهاء البلاد وأعيانها وكبار الاهلين ومعهم عريضتان موقع على كل منهما من زهاء الالف والخمسمائة من عمد البلاد وكبارها احداهما برسم الوزير محمد شريف باشا ومضمونها ان جميع من وقعوا عليها كافلون بانه لا يقع فى المستقبل من الجيوش المصرية شئ تأباه الهيئة الحاكمة وانهم فرحون فرحا ماعليه من مزيد حيث تنازل وقبل مسند الرياسة لانهم يعتقدون أن قبوله هذا هو الوسيلة العظمى فى اطمئنان الخواطر وسكون النفوس وثانيتهما برسم الخديوى ومضمونها طلب تشكيل مجلس النواب حيث انه هو الواسطة الكبرى للاصلاح الذى توجهت اليه آمال جميع الاهلين وكان بين هذه الجموع التى حضرت محمد سلطان باشا أحد وجهاء منية ابن خصيب فوقف وقال مخاطبا الوزير محمد شريف باشا * انى أعرض على مسامع دولتكم

مطلب قبول الوزير شريف باشا تشكيل الوزارة بعد امتناع

أن هؤلاء الوجهاء والنبلاء قد تمثلوا بين أيدى مراحمكم ليظهروا ماعندهم من الفرح والسرور حيث تفضلتم بقبول مسند الرياسة الجليل فانهم يعرفون ما لدولتكم من الميل الحقيقى لاجراء الاصلاح الذى كثيرا ما أملوه وليعرضوا أنهم متكفلون بالجيوش المصرية الذين هم فى الحقيقة أبناؤهم واخواتهم وليلتمسوا من مكارمكم مايعلمونه فى سمو أفكاركم من بث روح الحرية فى البلاد والمساواة بين أصناف الرعية وحيث ان دولتكم على هذه الافكار السامية فهذا الجمع يلتمس من كرمكم بالاصالة عن نفسه وبالنيابة عن اخوانهم الموقعين على هاتين العريضتين أن تمدوا اليهم ساعد المساعدة القوى وتسعفوهم بما علموه فى همتكم من الاقدام وقوة العزيمة وان مساعدتهم على نوال ماطلبوه لاتحقق الا بان تكون دولتكم الواسطة العظمى فى رفع هذه العريضة المتضمنة طلب تشكيل مجلس النواب الى الجناب الخديوى المعظم أعزه الله وليست هذه باول مارآه الناس من حبكم لبث روح الحرية فى البلاد فان أفكاركم السامية لم تزل ولا تزال موجهة نحو كل مافيه الخير والمنفعة لهذه الاوطان اه فاجابه الوزير بما شف عن الخلاصه فى مساعدتهم وانه عازم كل العزم على أن يسعى جهده فيما تتقدم به البلاد لاسيما فى تشكيل مجلس شورى النواب فانصرفوا وطيروا الخبر بذلك الى الآفاق فوردت على الوزير فى هذا اليوم رسائل التهانى من جميع قناصل الدول وكبار الاجانب والاهلين وأرسل اليه صاحب جريدة التقدم وهو يومئذ بالشام فارا من وجه مصطفى رياض باشا تاريخا على جناح البرق يؤرخ به عوده الى منصب الرياسة وهو

فهذه النعمة تاريخها * نصر من الله بفتح قريب

سنة ١٢٩٨ هجرية

وتواردت عليه قصائد التهانى وأبيات المديح من جميع الجهات تترى ووقف بعض الشعراء على بابه * وسمعت شطر بيت لاحد أدباء القاهرة يؤرخ به رياسة المشار اليه وكأنه كان يعرّض باعمال مصطفى رياض باشا أيام رياسته ولكنى لم أقف على الشطر الاول وهو

* الدهر حر والوزير شريف * سنة ١٢٩٨

ولم يستقر به المنصب حتى جعل ينظر فى طلبات الجند من أبوابها فقرر منها قانون الاجازات العسكرية البرية والبحرية وقانون تسوية حالة الضباط المستودعين وقانون معاشات الجهادية البرية والبحرية وقانون القواعد الاساسية الذى يليه قانون الترقى وقانون الضمائم والامتيازات والاعانات العسكرية فلما أتمها على الوجه المطلوب رفعها الى الخديوى فصادق عليها ورسم بتنفيذها والعمل بها اعتبارا من ثامن عشرى شوال ففرح الجند بذلك فرحا لايوصف وسر كبارهم واطمأنت قلوبهم واعترفوا للوزير بالفضل والمنة وكانت هذه القوانين غاية فى السهولة والاعتدال لاشئ فيها خارج عن رغائب الحكومة وما تقتضيه حالة البلاد ولم يعلم الى هذا الحين ما الذى حمل مصطفى رياض باشا أيام رياسته على تعطيلها والامتناع من العمل بها بعد أن رسم بتقريرها فكانت على نحو ما أراد ولو لم يقع منه فى

أيام رياسته شئ من الجفاء والشدة مع مقدمى الجند سوى اصراره على عدم تنفيذ هذه القوانين لكنى فان أعمال زعماء العصابة كانت لغاية اليوم الذى تقررت فيه هذه القوانين غاية فى الخطل والخلل بل هى كأعمال صبيان المكاتب ليس فيها مايوجب الخوف ولا ما يورث القلق وكانت مجردة عن كل حكمة مشوبة بالاغراض التى لابد وأن تفضى بصاحبها يوما الى الوقوع فى الهلكة وكان عقلاء القوم يعرفون ذلك جيدا فلما رسم مصطفى رياض باشا بتقرير تلك القوانين ثم عاد فامتنع من العمل بها كان مثله فى ذلك كمثل رجل سلم لآخر سيفا باترا على حين لايملك عصا واستحلفه أن لايتقلده الامتى بلغت منه الشدة مبلغها ثم كان منه بعيد أيام أن ضيق عليه وبالغ فى اذلاله وسامه الخسف فلم يشعر الا وذلك السيف يكاد يعمل فى عنقه فالتفت مذعورا وقال لصاحبه أوأنت فاعل قال كيف لا وقد استحلفتنى وهذا السيف سيفك الذى سلمتنيه فندم ولكن لم ينفع الندم

مطلب رفع ظلامات أهل الحبوس الى الوزير

وسار الوزير محمد شريف باشا فى النظر فى أمور البلاد واحتياجاتها سيرا حثيثا فكثر توارد القصص والظلامات على ديوانه من أهل الحبوس التى ملأها مصطفى رياض باشا بالكثير من أهل البلاد لاقل ذنب وأصغر شبهة فكان اذا خرج الوزير من بيته يريد الديوان تعلق نساء أهل تلك الحبوس وأطفالهم بأثوابه واستغاثوا وضجوا وبكوا وتساقطت الظلامات بين يديه فتناقل هذا أصحاب صحف الأخبار المحلية وشاع حتى نقله أصحاب صحف أخبار الانكليز وقاموا له وقعدوا وتبعهم أصحاب صحف أخبار الفرنسيس واستعظموا البلوى ونادوا بالعدالة يا للانسانية فكبر الامر على الوزير محمد شريف باشا واستعظمه ورسم بتشكيل لجنة عهد اليها تفتيش جميع الحبوس وتحقيق ظلامة كل مسجون وسيرت دولة الانكليز أحد مقدمى جنودها الى القاهرة ليشارك اللجنة فى أعمالها وكلم القونصل الوزير محمد شريف باشا عنه فلم يمانع فى حضوره فبحثت اللجنة ونقبت فظهر لها كثير من المظالم والفظائع قالوا ولم تكن هذه المظالم قاصرة على مستخدمى بعض المصالح والدواوين كالطرد والحرمان من الخدامات والتبعيد والسجن وغير ذلك بل قد عمت أيضا جميع أهل البلاد وأنشبت بالجليل منهم والحقير والغنى والفقير حتى غصت بهم الحبوس وضاقت على اتساعها وأبعد الكثير منهم الى أقاصى السودان وغيرها بلا قضاء شرعى ولا حكم قانونى وأحصوهم فكانوا زهاء الاربعة آلاف من سائر المديريات القبلية والبحرية فأطلقوا من بقى منهم فعادوا الى أوطانهم على نفقة الخزينة * وبينما الناس فى شاغل بحوادث أصحاب الظلامات ومن أهلكتهم

مطلب حضور وفد السلطان الى القاهرة وماكان من وراء ذلك

الحبوس اذجاء الخبر من دار السلطنة فى ثامن ذى القعدة الى ديوان الخديوى الخاص بقيام احدى سفن حرب الدولة الى الاسكندرية وعليها أربعة من مأمورى الدولة وهم على نظامى باشا المعتمد الاول الموكول اليه البحث فى أمر تظاهر أحمد عرابى بيك وأصحابه وعلى فؤاد بيك المعتمد الثانى الموكول اليه النظر فى الامور السياسية وله حق الاشتراك فى المخابرات التى تقع بين مصر والدول الكبرى وراتب باشا وصفر أفندى وهما من ياوران الخليفة

أمير المؤمنين ويتضمن الخبر أيضا التهانى للخديوى على ماأظهره من الحزم وحسن السياسة فى حل تظاهر الجند وتسكين قلوب الرعية ويقول انى أرسلت اليك فى مركب حربية من مراكبنا السلطانية بعض المأمورين من ياورانا الخاص سيكونون لك عونا على حل هذا الاشكال وفض الخلاف بالتى هى أحسن ومنع حدوث مثل هذه القلاقل مرة ثانية فلما شاع الخبر بما ذكر استعظمه الناس وخافوا عاقبته واهتم له الوزير محمد شريف باشا فرسم فى الحال بانحدار عبد العال بيك بعسكره السود الى مدينة دمياط فانحدر فى نفس اليوم الذى جاء فيه الخبر بقيام وفد السلطان وقدشيعه على المحطة العدد العديد من ضباط الجند والوجهاء والاعيان والتجار على اختلاف درجاتهم وأحمد عرابى بيك والبارودى فقبل أن يسير بهم القطار وقف عبد العال بين الضباط وقال مخاطبا للجمع أيها الاخوان * انا نودعكم والقلوب معكم وكلمة الوطنية تجمعنا فاجعلوا حبل المواصلة بيننا ممدودا وثقوا بعزمكم ولا تطيعوا الوشاة فيما يفترونه علينا كما أننا لانسمع من واش كلاما واعلموا أننا فى تيار أفكار ان لم نحفظ أنفسنا فيه بالاتحاد والا هلكنا وكلنا يعلم حسن طوية مولانا الخديوى وطهارة رجاله الفخام فنحن نخدم أفكارهم بأرواحنا ونقضى العمر فى طاعتهم والله الحفيظ على وعليكم وهو على كل شئ قدير

فبرز عند ذلك عبد الله صاحب جريدتى الطائف والتنكيت والتبكيت وقال مخاطبا للجند حماة البلاد وفرسانها من قرأ التاريخ وعلم ما توالى على مصر من الحوادث والنوازل عرف مقدار ما وصلتم اليه من الشرف وما كتب لكم فى صفحات التاريخ من الحسنات فقد ارتقيتم ذروة ما سبقكم اليها سابق ولايلحقكم فى ادراكها لاحق ألا وهى حماية البلاد وحفظ العباد وكف يد الاستبداد عنهما فلكم الذكر الجميل والمجد الخالد يباهى بكم الحاضر من أهلنا ويفاخر بأثركم الآتى من أبنائنا فقد حيى الوطن حياة طيبة بعد أن بلغت الروح التراقى فان الامة جسد والجند روح ولاحياة للجسم بلا روح وهذا وطنكم العزيز أصبح يناديكم ويناجيكم ويقول

اليكم يرد الامر وهو عظيم ... فانى بكم طول الزمان رحيم
اذا لم تكونوا للخطوب وللورى ... فمن أين يأتى للديار نعيم
وان الفتى ان لم ينازل زمانه ... تأخر عنه صاحب وحميم
فردوا اعنان الخيل نحو متيم ... تقلبه بين البيوت نسيم
وشدوا له الاطراف من كل وجهة ... فشدود أطراف الجهات قويم
اذا لم تكن سيفا فكن أرض وطأة ... فليس لمغلول اليدين حريم
وان لم تكن للعائذين حماية ... فانت ومخضوب البنان قسيم

ولقد ذكرتم باتحادكم وحسن تعاهدكم ما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم عند تغيب سيدنا عثمان فى أهل مكة من مبايعة أهل الشجرة على استخلاص صاحبهم فصاروا يعنونون

بالعشرة المبشرين بالجنة وأنتم قد تعاهدتم على حفظ الاوطان وبقاء سلطة مولانا الخديوى وتأييد ملكه وتبايعتم على الدفاع ووقاية أهليكم من كل مايذهب بالثروة أو يضعف القوة أو يخدش الشرف فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ثم التفت الى عبد العال بيك وقال هذا أخوكم الحر يودعكم ويسير باخوانكم الى دمياط فاجعلوا عروة الود وثيقة ولا تحلوا حبل الاتحاد الذى جاهدتم الانفس فى إحكامه فقد

زالت موانعنا التى * كانت تجر الى الفساد   والانس دار رحيقه * بين الجيوش أولى الرشاد
لا تعمر الدنيا اذا * لم تترك الخلق العناد   فالارض تنبت زرعها * لحياتنا بالاتحاد

ومن محاسنكم التى تفتخرون بها ويعرف لكم بها الفضل طاعتكم لاوامر الحكومة وامتثالكم لاشارتها وربط قلوبكم بمحبة مولانا الخديوى ورجاله الكرام خصوصا هذا الرئيس البر الرؤف القائم بخدمة الامة وبلادها وأحسن مايؤرخ به اسم الجهادى عند النوازل أن يقال مات شهيد الاوطان اه

فما ختم خطابه حتى نادى الجمع بصوت واحد رضينا بالموت فى حفظ الاوطان ووقاية أميرنا من كل مايمس سلطته * ثم سار القطار قاصدا دمياط فقابلهم أهلها بالبشر والترحاب فنزل الجند فى المحلة التى أعدت لهم وزار عبد العال بيك جميع وجهاء البلد وأعيانها وعملوا له الولائم والختمات وتوددوا اليه وتقربوا منه جهد الاستطاعة فلما جاء الخبر الى القاهرة بان قد استقر بعبد العال بيك وجنده المقام رسم الوزير محمد شريف باشا الى أحمد عرابى بان ينحدر بجنده الى رأس الوادى فنادى فيهم بالخروج فخرجوا يوم الخميس ثالث عشر ذى القعدة وأمامهم أحمد عرابى بك على فرس وحوله كوكبة من الضباط على ظهور الخيل والسيوف بأيديهم مسلولة وساروا من وسط المدينة الى المقام الحسينى فلما اقتربوا منه ترجل أحمد عرابى بيك وترجل معه جماعة من الضباط ودخل الى المقام ومعه بيرق الآلاى وطاف حول الضريح مرارا كثيرة وهو يقرأ بعض الاحزاب ثم خرج وركب هو ومن معه وساروا قاصدين محطة السكة الحديد وكان جند الحرس الخديوى مصطفا على جانبى الطريق وبأيدى ضباطه باقات الورد والزهور وكذلك بعض العامة وكانت الطرق غاصة بجماهير الناس من الرجال والنساء والصبيان فلما اقترب أحمد عرابى بيك من المحطة هتف الناس هتافا عظيما وعزفت الموسيقى وترامت عليه ضمات الزهور من كل جانب وكان فى انتظاره كبار الضباط وبعض أعيان القاهرة وعمد بعض البلاد وقد فرشوا له الارض بالزهور والرياحين وأوراق الشجر فترجل عن جواده ووقف برهة لطيفة وحوله جماعة من مقدمى الجند وهم على بيك الديب مقدم الحرس الخديوى وعلى بيك يوسف مقدم جند قلعة الجبل الذى تولى بدل ابراهيم بيك حيدر وطلبة بيك عصمت مقدم جند قصر النيل الذى تولى بدل شوقى بيك وقبل أن يتحرك به وبعسكره القطار التفت الى من كانوا حوله وجعل يحضهم على الاتحاد والتعاون وعدم تفريق الكلمة مع صفاء القلوب واخلاص النية عند كل عمل ثم تقدم عبد الله صاحب الطائف وخطب فحض وحث

وبالغ فى التنكيت والتبكيت حتى أخذ بالعقول وكاد يبكى الناس ثم رحل بهم القطار قاصدا رأس الوادى فلما وصل مدينة الزقازيق التى هى كرسى القرية التى ولد فيها أحمد عرابى بيك هرع اليه الكثير من مشايخ البلدان والعمد والاعيان يحمل بعضهم أغصان الشجر وبعضهم سعف النخل وبعضهم الزهور والرياحين وهم فى ضجة وجلبة عظيمة فأشرف عليهم من نافذة العربة فصاحوا ودعوا له فنزل ووقف بينهم وأشار الى صاحب الطائف فتكلم وبالغ فى الحث ثم تكلم هو كذلك فترامت عليه الزهور والرياحين من كل جانب وعلت الاصوات بالدعاء ثم انحدر القطار مسرعا الى رأس الوادى

واتفق انه وصل فى هذا اليوم رجال الوفد القادمون من دار السلطنة الى مدينة الاسكندرية ودخلت مركبهم المينا فسلمت فرد عليها بعض الحصون السلام وكان الخديوى قد رسم الى ذى الفقار باشا فانحدر الى الاسكندرية للقاء رجال الوفد فأنزلوهم فى سراى رأس التين فأكلوا وشربوا وركبوا الى محطة السكة الحديد حيث كان ينتظرهم قطار الخديوى الخاص وكان فى ركابهم فريق من العسكر وجماعة من أصحاب الشرطة ومحافظ المدينة وصاحب شرطتها فسار بهم القطار قاصدا القاهرة فوصلوا فى الساعة الثانية ليلا وساروا الى قصر النزهة حيث أعدّ لهم وكانت عدتهم ستة وهم على نظامى باشا وراتب باشا وعلى فؤاد بيك وصفر أفندى وسيف الله أفندى والشيخ أحمد أسعد أفندى متولى الفراشة بالحرمين الشريفين عدا الخدم والحشم والاتباع فانهم كثيرون وكان جميع ضباط الباخرة التى جاءت بهم من ضباط القصر الشاهانى وقد بقى معهم اثنا عشر شخصا لم ينزلوا الى البر وهم من الحرس السلطانى المكلفين بمراقبة رجال الوفد * ولما كان صباح الجمعة رابع عشر ذى القعدة ركب رجال الوفد لزيارة الخديوى بمقره بالاسماعيلية فتلقاهم بغاية البشر والترحاب وبالغ فى تكريمهم وجلسوا معه برهة يتحدثون فيما لم تصل الينا معرفته أو كما قال بعض أصحاب صحف الاخبار المحلية إنهم أبلغوا الخديوى تسليمات الذات السلطانية وأعربوا عما لها من تمام المسرة والرضا عن همة الخديوى فى حفظ الامنية وأن المقصود من حضورهم انما هو اظهار ماللذات الملوكانية من الوثوق والاعتماد على الجناب الخديوى وتأييد نفوذه وتعزيز موقعه وتثبيت مركزه قالوا فعند ذلك نطق الخديوى بآيات الخضوع وأدى واجبات الشكر للذات الشاهانية على حسن عنايتها ثم دعا لها بتخليد ملكها وتمكين قوتها وبعد ذلك انصرفوا * فلما جاءت الساعة الخامسة ركب الخديوى فى كبكبته وزار رجال الوفد بقصر النزهة ولبث معهم برهة ثم كر راجعا الى الاسماعيلية فبات حضور رجال هذا الوفد مع طلب الامة انشاء مجلس شورى نواب البلاد شغل جميع الناس الشاغل لهم عن كل شئ وكان الوزير محمد شريف باشا يعرف ذلك منهم فتقدم الى الخديوى فى خامس عشر ذى القعدة فى طلب التصديق على انشاء المجالس على قاعدة قد قررها فصادق الخديوى عليها راضيا ورسم بافتتاحه فى غرة صفر الخير سنة تسع وتسعين ومائتين وألف هجرية باحتفال عظيم وشاع الخبر بذلك

مطلب التقاء رجال الوفد بالخديوى فى مقره وذهابه اليهم

ففـرح الناس كثـيرا وطاف جماعة الضباط على بيوت الوجهاء والاعيان بالقاهرة ومصر يبشرونهـم وتكلم أصحاب صحف الاخبار المحليـة عن الفوائد العظيمة التى تنجم عن انشاء هذا المجلس وأطالوا الكلام وبالغوا فى الاطراء وقالوا انه لهو من المحسنات بل من المعجزات التى لايقدر غير الوزير محمد شريف باشا على الاتيان بها لاسيما فى إبان هذه الظروف المهمة والخطوب المدلهمة

وفى يوم الثلاثاء ثامن عشر ذى القعدة زار رجال الوفد سائر دواوين الحكومة ونظاراتها ثم ساروا الى ديوان الجند بقصر النيل فاصطفت لقدومهـم جميع العساكر وكان محمود باشا البارودى واقفا على باب الديوان متهيئا لاستقبال رجال الوفد فلما دخل على نظامى باشا أخذ البارودى بيده ومر معه على صفوف العسكر ثم استدعى اليه طلبة بيك وجميع القائمقامات والبيكباشية فألقى عليهم خطابا بالتركية فترجمه البارودى بالعربية فكان هكذا ﴿ إن الجناب الخديوى الاكرم منزلة رفيعة من الحب وحسن الرعاية عند مولانا السلطان الأعظم أيده الله ونصره فهو لذلك يحافظ على تعزيز جانبه وتأييد مركزه ويعضد نفوذه وسلطته وليس يخاف على حضراتكم أن الجناب الخديوى هو الوكيل المفوض عن مولانا السلطان الأعظم وأن الوكيل كالأصيل فمن أطاع الجناب الخديوى وامتثل أوامره وانقاد لاحكامه فقد أطاع حضرة مولانا السلطان وكان من العاملين بما جاء فى محكم القرآن من قوله تعالى «أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم» ومن خالف الجناب الخديوى فقد خالف مولانا السلطان وعصى أمر الرحمن - نعوذ بالله من ذلك * فنحن معشر العساكر يلزمنا فى كل حال أن نطيع ونذعن لولى الأمر وان لانتردد أو نتهاون فى القيام بما نكلف به من الأوامر وأن لا نبحث عن موجبها ولا نسأل عن أسباب ما نكلف به من الأوامر وانما علينا أن نمتثل كل ما أمرنا به ونجرى على مقتضاه وقد أمضيت فى خدمة العسكرية ثلاثة وأربعين عاما واشتركت معكم أيام الحروب الماضية فى المخاطرة بدمائنا وأرواحنا امتثالا لأوامر مولانا وسلطاننا واعلاء لكلمة ديننا ودفاعا عن عموم أوطاننا فأوصيكم أن تتمسكوا بالطاعة وتقيموا على الانقياد وتلزموا حدودكم المعروفة فلا يعرف الصغير الا من هو أكبر درجة منه ولا الكبير الا الأعلى منه رتبة وهكذا لايعرف الاكبر درجة بعد درجة الى الانتهاء * وبعد أن ختم مقالته هذه ودعهم وانصرف مع من حضروا معه فلما كان بعد ظهر اليوم ركب ومعه فؤاد بيك وزار بعض المدارس العليا والوزير محمد شريف باشا قيل وأعلماه بأنه لم يكن فى عزمهما التداخل فى شئ من أمور البلاد وبأن غاية حضورهما مع من حضر من رجال الوفد انما هى تقديم مراسيم التهانى للجناب الخديوى على ما أظهره من الحزم وأصالة الرأى فحادثهما الوزير عن عادات البلاد وسلامة نوايا أهلها ودوام خلودهم الى الهدو والسكينة وعدم الاندفاع الى ما يكدر صفو راحتهم ثم انصرفوا وأمر الخديو فزارهم كثير من الوجهاء والاعيان وشيخ الاسلام وبعض

العلماء

مطلب
تخوف قونصل جنرال الانجليز من حضور الوفد السلطاني

العلماء ومشايخ الطرق وبالغوا فى اجلال رجال الوفد وتعظيمهم
وحسب قونصل جنرال الانجليز بمصر ماوراء حسن وفادة على نظامى باشا ومن معه وتقرب أهل البلاد منهم فجعل يراقب الحوادث ويستطلع الاخبار ويكثر من الذهاب تارة الى مقر الخديو وأخرى الى مقر الوزير محمد شريف باشا وطورا الى مقر البارودى وبث العيون والأرصاد حول مقام الوفد وطاف رجال ديوانه على بيوت بعض رجال الدولة يستنشقون نسمات تلك الأخبار وكأنه آنس منهم بعض الشئ فكتب به الى اللورد جرانفل كبير السياسة الانجليزية يومئذ فسير هذا اللورد الى الباب العالى يطلب سرعة استرجاع رجال الوفد وجلائهم عن الكنانة واستنجد بكبير سياسة الفرنسيس وهو يومئذ المسيو بارعلى سنتهلار فأنجده وجعلا يشددان الطلب وضربا لجلاء الوفد أجلا وأوعزا الى أصحاب صحف اخبارهم فهاجوا وماجوا ونادوا بالحرب والقتال وخبطوا وخلطوا فى القول وترامت ظنونهم الى المرمى البعيد فمن قائل ان الوفد انما دخل أرض الكنانة يتابعه من السر ما لا يعلمه الا المقربون من أبواب السلطان ومن قائل بل هم يتأبطون جميع الفرامين والخطوط الهمايونية الصادرة من عهد محمد على باشا الكبير الى أيام الخديو توفيق لغاية خفية وسر مكتوم وتناهى ببعضهم الخلط الى القول بان رئيس الوفد قام من دار السلطنة الى مصر ومعه فرمان مخصوص لايليق التكلم عنه حتى ينجلى الصبح لذى عينين ﴿قلت﴾ يريدون فرمانا بعزل الخديو توفيق وتولية الامير عبد الحليم بن محمد على باشا وجعلوا يقولون غير ذلك من الأراجيف فقام أصحاب صحف الاخبار التركية ينتقدون تلك المزاعم ويرمون أصحاب صحف الانجليز والفرنسيس بسوء النية وخبث الطوية ويقولون انما مصر بلد إسلامية وهى كالقلب من جسم السلطنة العثمانية فأى جناح على المتبوع اذا سير الى تابعه يسأل عن حاله ويخفف عنه ما اشتد من أحواله وطال الأخذ والرد على غير جدوى والسلطان لا يلتفت الى أقوال صاحبى سياسة الانجليز والفرنسيس فعمد عند ذلك صاحب سياسة الفرنسيس الى التهديد وسير إحدى مراكب حربهم الى مدينة الاسكندرية وكانت من أضخم سفنهم واسمها آلما فوصلت ليلة تاسع عشر ذى القعدة وباتت ليلتها خارج البوغاز وأصبحت فدخلت الى المرسى وسلمت على الطوابى باطلاق مدافعها فردت عليها طوابى رأس التين السلام وكانت تحمل زهاء ثلثمائة وخمسين من الفرق الحربية وعشرة مدافع من العيار الكبير والطراز الجديد * وشاع خبر قدومها ووصل الى القاهرة فخاف الناس وكثر تحدثهم به وخشوا سوء العاقبة وكأن السلطان قد أحس بما وراء ذلك فجاء الخبر الى رجال الوفد بالجلاء عن مصر فتأهبوا للرحيل ولما كان ثالث عشرى ذى القعدة تمثل على نظامى باشا وفؤاد بيك ورجال الوفد بين يدى الخديو وأبلغاه أن أمير المؤمنين قد أحسن عليه بنيشان الامتياز وأن من شأن توجيه هذا النيشان أن الخليفة يضعه بيده على صدر من تشرف به وهو ممثل بين يديه بملابس التشريف قيل فأظهر الخديو الخضوع

والطاعة وقال سأتشرف ان شاء الله بالمثول لدى سيدى ومولاى أمير المؤمنين عند تمام استتباب الأمن وسكون خواطر أهل البلاد ثم تقدم اليه فخرى بيك ربان باخرة الوفد وأبلغه بان قد ورد اليه مرسوم السلطان بالعود الى دار السلطنة حالا وانصرفوا وفى الساعة الثالثة من صباح ثانى يوم الثلاثاء رابع عشرى الشهر خف على نظامى باشا وفؤاد بيك الى مقر الخديو بالاسمعيلية لوداعه فأحسن لقاءهما ورحب بهما ورسم فهيؤا قطاره المخصوص فركبوا الى محطة السكة الحديد وكان الوزير محمد شريف باشا وسائر الوزراء والكبراء وموظفى الحكومة فى انتظارهم فركبوا القطار وسار بهم الى الاسكندرية ونزلوا بسراى رأس التين فوفد عليهم جميع ضباط جند الاسكندرية للسلام فوقف بينهم المشير على نظامى باشا وخطب خطابا وجيزا معناه أنه عند وصوله الى مقر الخلافة العظمى لابد أن يبشر اخوانهم العسكر المنصور هنالك بأنهم فى مصر اخوانا لا يرون غير الطاعة لأوامر مولانا أمير المؤمنين والانقياد للخديو ثم نزلوا الى السفينة ورحلوا الى دار السلطنة وقد تخلف عنهم بالقاهرة عظيم اسمه كامل باشا وجهته فى ذلك عزمه على السفر الى الاقطار الحجازية * فأقام أياما يتراوح بين القاهرة والاسكندرية لايعلم أحد من أمره شيأ ثم رحل الى السويس ومر بمدينة الزقازيق قصبة الشرقية فلاقاه فى محطتها أحمد عرابى بيك وكأنه كان فى انتظاره فركب معه فى عربة القطار ولبثا معا الى ان بلغ القطار محطة التل الكبير ثم ودعه ونزل فسار القطار الهوينا وكان على يسار طريق القطار جميع جند أحمد عرابى ومعهم الموسيقى فلما اقترب منهم القطار عزفت الموسيقى بنشيد السلام السلطانى وضج الجند باصوات التهليل والتكبير فبرز كامل باشا من شباك العربة وحياهم باشارات السلام فصاحوا بالدعاء للخليفة أمير المؤمنين وكان أحمد عرابى على رأس صفوف أولئك العسكر وخلفه جماعة من كبار الضباط وهو يهلل بالدعاء فأعجب هذا كله كامل باشا وسر به سرورا عظيما وكان لقاء كامل باشا وأحمد عرابى على موعد بينهما رغما عن ممانعة رجال الحكومة وبذلهم الجهد فى التبعيد بينهما * وبعد أن خرجت الباخرة العثمانية بمن عليها من رجال الوفد من مينا الاسكندرية بقليل دخلت باخرة حربية انجليزية اسمها انسيل قادمة من مالطه وهى من المدرعات الضخمة فيها أربعة عشر مدفعا كبيرا فأقامت بالاسكندرية يومين ثم خرجت فى سادس عشرى ذى القعدة وخرجت معها المركب الفرنساوية * وتشوف الناس يومئذ الى معرفة ما سيكون بعد وصول رجال الوفد الى دار السلطنة وتزايد تساؤلهم عما فى صحف الاخبار وأكثروا من شرائها واضطر من لا يعرف القراءة من العامة الى مصاحبة من يعرف القليل منها فكنت تراهم فى شوارع القاهرة ومصر القديمة جماعات وبينهم الرجل أو الصبى من صبيان المكاتب وهو يقرأ عليهم ترجمة عبارة لصاحب جريدة التيمس الانجليزية أولصاحب الديبا الافرنسية أولغيرهما من صحف الأخبار الاجنبية وهم فى ضجة وحوقلة وعم هذا الحال السوقة وأصحاب الحرف الدنيئة كالصباغين والزياتين والحلاقين * وقد رأيت يوما صبيا

مطلب
ابلاغ فخرى بيك ربان باخرة الوفد للخديو خبر قيام الوفد الى دار السلطنة كأمر السلطان

مطلب
التقاء كامل باشا أحد رجال الوفد بأحمد عرابى بيك

فى حانوت لرجل يبيع البقل وبيده صحيفة من صحف الاخبار العربية وأمام الحانوت خلق من السوقة وهم محدقون بالصبى وهو يقرأ عليهم ما نصه * قد طلب الباب العالى من سفيرى الفرنسيس والانجليز أن يعلماه مفصلا بالسبب الحامل للدولتين على ارسال المركبين الحربيتين الى مدينة الاسكندرية فأجاباه بان ليس المقصود من ارسالهما ارغام رجال الوفد العثمانى على سرعة الخروج من مصر كما أشاعه المرجفون وانما المقصود هو وقاية رعايا الدولتين فقط فاذا سافر المبعوثان سافر المركبان أيضا انتهى * فقهقه الجمع عند سماعهم هذا الكلام وهمس كل فى أذن الآخر وصاح أحدهم قائلا وهلا ترى فى هذه الورقة أيضا ان الانجليز والفرنسيس يتخوفون من تخلف كامل باشا السمين بالقاهرة بعد قيام الذين جاؤا معه من دار السلطنة وقد نادى أصحاب صحف أخبار الفرنسيس على قومهم بالحذر والالتفات الى ماعساه أن يحصل من بقاء الباشا المذكور فقلب الصبى الصحيفة عنة ويسرة وتأمل فيها وقال صدقت ياعماه ومن الذى أعلمك بهذا الخبر فقال سمعت فلانا الحلاق الساعة يقول انه سمعه من أحد موظفى الحكومة * فقلت فى نفسى ان الله بالعاقبة عليم

ووصل رجال الوفد الى دار السلطنة فاندهش كبار سياسة الدول من دهاء السلطان وعدم جعله تلازما أو تعلقا بين وجود مبعوثيه فى بلاد هى تابعة له وبين ارسال دولتى الانجليز والفرنسيس مركبيهما الحربيتين الى مدينة الاسكندرية فكاد سفير الانجليز فى دار السلطنة يتميز غيظا من عجزه عن ادراك جميع هاته المعميات التى لم تكن تخطر له على بال وقد أشار الى ذلك صاحب جريدة الدالى نيوز الانجليزية فى كثير من عباراته عن سياسة الخليفة السلطان « عبد الحميد » وما فعله عند ارسال وفده الى مصر مما لم يعرفه أحد الى يوم رجوع رجال الوفد الى القسطنطينية * وانصرفت أفكار الناس عن البحث فيما أتى من أجله رجال الوفد بعد رحيلهم الى القسطنطينية الى استطلاع ماسيكون من أمر تشكيل مجلس شورى نواب البلاد وقد رسم الوزير محمد شريف باشا الى مديرى الجهات ومحافظيها باستدعاء أهالى البلاد الى الانتخاب على القاعدة التى تقررت لذلك وأرسل يستحث الناس على التدبر وأن لا ينتخبوا إلا من عهد بالصدق وعرف فيما بين العموم بالفطانة والذكاء واشتهر بالمعرفة وحب المنافع للبلاد والاهتداء الى طرقها الحقيقية وتحققت منه العفة والاستقامة قديما وحديثا — قال — فمن وجد بهذه الصفات انتخبوه غير مراعين الى الشهرة والظهور ومن وجدتموه على ماينافض هذه الاخلاق فابتعدوا عنه وانبذوه وان كان أثرى المثرين فما طار الخبر بذلك الى الآفاق حتى غصت دواوين الحكومة بالوجهاء والاعيان والمثرين من أهل القرى واختلفت كلمة أهل البلاد وتفرقت أهواؤهم وتباينت أغراضهم حتى كادوا يفتتنون وتعذر على المديرين والمحافظين عمل الانتخاب والوزير يستحثهم ويحضهم على الاخذ باطراف الحزم وأن لا يراعوا الا المصلحة العامة ولا ينظروا

مطلب
تشكيل مجلس نواب البلاد وهو أحد مطالب جماعة الضباط

مطلب ما كان من سياسة قونصل جنرال الانجليز فى أمر تشكيل مجلس شورى النواب

الا الى الاوسع معرفة من قومهم والأقوى ادراكا والأنفذ بصيرة والأكثر اطلاعا والأعرف باحوال بلاده وحكوماتها فى الماضى والحاضر فاطمأنت عند ذلك القلوب وتم الانتخاب أوكاد * قال بعض الكتاب فكبر هذا الامر على المسترمالت قونصل جنرال الانجليز واستعظمه لا لأنه من الأهمية عنده فى شئ ولكن لاعتباره اياه أنه هو المحور الذى ستدور عليه رحا أعماله فعمد الى ملازمة الخديو وأكثر من مجالسته فكان اذا رأى منه تسرعا فى تحديد أجل تشكيل مجلس النواب على النحو الذى أشار به الوزير محمد شريف باشا بالغ فى النصيحة وهوّل فى العاقبة وأظهر من جانب القسوة حنوّا واشفاقا واذا رأى منه بعد ذلك تباطؤا فى العمل واغضاء ذهب الى البارودى وشكا اليه من تغاضى الخديو وابطائه وحض البارودى على الثبات والحزم وعدم التخلى عن زعماء العصابة حتى يدركوا منشودهم فلم يخرج من عند البارودى وأصحابه الا وهم فى ضجة وجلبة وهياج فاذا كثرت جلبتهم وعظم ضجيجهم ورموا الخديو بسوء النية وبالغوا فى تعنيفه وتعييبه حتى ينقبض ويغضب ذهب اليه مالت ولاطفه وهوّن عليه الأمر ومناه بالأمانى الطويلة العريضة فاذا آنس منه سكون الخاطر والخلود الى المساهلة عرج به الى الوقيعة وشذ فى القول وعظم البلوى وحذر من العاقبة حتى يتخيل للخديو أن قد سدت أبواب النجاح وانطمست معالم الفلاح فيرجع الى ما كان عليه من الوحشة والانقباض ويرجع كذلك البارودى وأصحابه الى الاستغاثة بقونصلى الفرنسيس والانجليز — قال — وهكذا كان حال الخديو وزعماء العصابة من اليوم الذى بعث فيه الوزير محمد شريف باشا يستحث المديرين والمحافظين على سرعة الانتخاب * وكان من وراء ذلك ان تطاولت أيدى رجال العصابة العسكرية الى العبث بعمل الانتخاب فجعل عبد الله صاحب الطائف يجوب البلاد ويستميل الناس الى انتخاب المحازبين لرجال العصابة فاستمال الكثير من أهل الشرقية والبحيره والدقهلية والقليوبية وغيرهم من أهالى المدن القبلية * فلما كان عاشر ذى الحجة من السنة أى سنة ثمان وتسعين قدم أحمد عرابى الى القاهرة وقدم كذلك من مدينة دمياط عبد العال بيك حشيش وشاع خبر حضورهما فتحدث الناس به وترامت ظنونهم وقالوا انهما انما قد حضرا لاكراه الهيئة الحاكمة على سرعة تشكيل مجلس نواب البلاد واشتد خوف العامة وكثر لغطهم فكانوا اذا رأوا جماعة يهرولون فى الطريق قالوا انهم ذاهبون بدعوة من أحمد عرابى أو شاهدوا زحاما على حانوت قالوا انه باشارة منه لسر لا يعلمه إلا هو والمقربون اليه أو سمعوا مؤذنا ينادى حى على الفلاح قالوا انما هو يدعو الناس الى التعاون والتعاضد أو سمعوا امرأة تولول على صبى ضل اسمه أحمد قالوا انما هى تستغيث باحمد عرابى بيك لدفع ظلامتها وكشف غمتها وعم هذا الخلط جميع المدن والبلاد فكانت اذا وضعت حبلى صبيا سمته عرابى أو أحمد عرابى لاسيما أهل القرى واشتد تعلق الناس به شدة لم تمكن تخطر لأحد على بال وتكلم أصحاب صحف الانجليز والفرنسيس فى أمر مجىء أحمد عرابى وعبد العال

حشيش الى القاهرة وفصلوا وقاسوا وخاطوا فخشى الوزير محمد شريف باشا العاقبة واستقدم سائر المديرين والمحافظين وشدد عليهم بسرعة الانتخاب فأتموه فى ثانى عشر ذى الحجة المذكور * ولما تم انتخاب سائر الاعضاء ولم يبق الا الرئيس اختلفوا فيمن يتولى الرئاسة وطالت أيام الاختلاف فتباينت الاغراض وتفرقت الاهواء وعادوا الى ما كانوا عليه من الخلط والخبط وكثرت أراجيف ضباط الجند وتزايد تطوافهم فى شوارع المدينة ولبثوا على هذه الحال اياما حتى اجتمعت كلمتهم على انتخاب محمد سلطان باشا أحد أعيان منية ابن خصيب بالأقاليم القبلية وزال ما كاد أن يقع من الوحشة بين الوزير محمد شريف باشا وزعماء العصابة وشاع خبر رحيل أحمد عرابى وعبد العال حشيش عن القاهرة الى دمياط ورأس الوادى ولم تكد تسكن الخواطر وتطمئن القلوب لقيام أحمد عرابى بك وعبد العال بك الى مقر عسكرهما حتى عاد الارجاف بقيام العسكر على كافة النزلاء الذين بالاسكندرية واعمال السيف فى رقابهم فاشتد الخوف بالناس شدة بالغة * وتحرير الخبر أنهم وجدوا فى سادس عشر المحرم افتتاح سنة تسع وتسعين رجلا من الشرطة قتيلا فى الطريق وكان أول من رأى جثته رجلا ايطاليا فذهب الرجل الى مقر محافظ المدينة وأعلمه بالخبر فلما شاع الخبر وعلمه أصحاب ذلك الشرطى ظنوا أن الايطالى هو القاتل فهاجوا وماجوا وحملوا بنادقهم وتأثروا الايطالى فاختبأ فى مقر المحافظ فأرادوه عنوة واقتحموا المكان وهم فى ضجيج هائل وذهب جماعة منهم الى موضع القتيل فحملوه وأتوا به أمام مقر المحافظ وصاحوا ونادوا وطلبوا الايطالى للبطش به فاجتمعت عند ذلك الغوغاء وعلت الضوضاء وتزاحم الناس على أبواب الديوان يريدون الدخول فنزل اليهم المحافظ وجعل يلاطفهم وأمر بالقتيل ليحمل ويدفن فامتنعوا وصاحوا فى وجهه وقالوا لا يحل لك ذلك يا مسلم أحضر لنا النصرانى الساعة لنبطش به والا ذهبنا بالجثة الى القاهرة فاشتد اللدد وخاف الناس واختفى الاجانب وأغلق أصحاب الحوانيت حوانيتهم وارسل المحافظ الى الوزير محمد شريف باشا يعلمه بالخبر فاستعظم الامر جدا وسير الى المحافظ يستحثه الى مداركة الامر وكتب الى صاحب الشرطة يقول لازموا السكينة وسيقدم عليكم وفد لتحقيق الحادثة فبذل المحافظ وصاحب الشرطة جهد الاستطاعة حتى فرقوا تلك الجموع وحملوا الجثة وواروها التراب ليلا وبات الناس ليلتهم تلك وهم فى خوف مما عليه من مزيد فلما كان اليوم الثانى قدم الى الاسكندرية وفد الوزير محمد شريف باشا فسأل وبحث ودقق فلم يظهر أن للايطالى ذنبا ولا جناية فأخلوا سبيله وقد ثبت ان القاتل للشرطى نفر من أهله لسر بينهم فسكنت الفتنة واطمأنت قلوب الخلق

مطلب الاختلاف فيمن يتولى رئاسة مجلس نواب البلاد

مطلب مقتل أحد أصحاب الشرطة بمدينة الاسكندرية وخروج العسكر عن الطاعة

ولم تكن لتتمكن الهيئة الحاكمة الى هذا الحين من تسيير المدد الى السودان لقتال مدعى المهدوية وقد وردت الاخبار من والى السودان وهو رؤف باشا فى ثالث صفر من السنة تنبئ باستفحال أمر مدعى المهدوية واعلاء كلمته وأنه عاد فخرج على من وجده من العسكر المصرى فقتل منهم زهاء الثلثمائة ونهب متاعهم وسلاحهم فلما شاع خبر نصرته

مطلب ورود الخبر باستفحال أمر مدعى المهدوية بالسودان

بين سكان الجبال اعتقدوا صحة دعواه فتبعه خلق كثير من العربان والقبائل الرحالة وشنوا الغارة على الكثير ممن لم ينضموا اليه ولم يقوموا لنصرته ودخلوا القرى فأحرقوا ونهبوا ما لا يحصى من البقر والغنم والانعام والريش وسن النيل واستلبوا ما فى خزائن مراكز الحكومة فلم يبقوا ولم يذروا ووصل الخبر بذلك الى أهل الخرطوم وتجارها فحصل لهم فزع عظيم وداخلهم من الخوف ما لا مزيد عليه فجمعوا أموالهم وسيروا بها الى أسوان بالصعيد الأعلى فكبر الامر على الوزير محمد شريف باشا وجعل يرسل المدد تباعا من الجند والكراع وقدم الى القاهرة طوائف التجار من الاقطار السودانية ما بين أهليين وأجانب فرارا من نار الثورة وايذاء مدعى المهدوية وأصحابه فتحدثوا بخبر ما وصلت اليه لموم المدعى وما يفعله أصحابه من القتل والنهب واحراق المدن والقرى وذبح الاطفال على صدور الأمهات واهلاك الحرث والنسل وكثر انحدار السفن ومراكب النقل الى أسيوط والقوافل من طريق الأربعين وغيرها تحمل أرزاق التجار وانقطع ارسال البضائع الى السودان وتعطلت سائر أسباب الرزق بتلك الاصقاع فلم يبق عند الناس شك فى صحة خبر المتمهدى وقد كانوا الى هذا الحين يظنون ان القول بظهوره انما هو اختلاق من الرئيس مصطفى رياض باشا أيام رئاسته ليتمكن بذلك من تمزيق شمل عصابة الجند والتفريق بين كبارها وأطالوا الكلام فى أمره أياما ثم تناسوه بحديث مجلس شورى النواب وما سيكون من أمر رجاله وتبعهم فى ذلك أصحاب صحف الاخبار المحلية وأكثروا من حض الوزير محمد شريف باشا على سرعة فتح أبواب ذلك المجلس وأطالوا العتب واللوم * فلما كان الخامس من صفر افتتح المجلس فكان يوما مشهودا أخذ الناس منذ شروق الشمس يتواردون عشرات عشرات الى صوب المقام حتى غصت حجرات المكان بالوفود من أهل البلاد والاجانب وامتلأت دوائر قاعة المجلس بالوجهاء والمعتبرين ثم جاء الاعضاء بملابس الزينة والتشريف فجلسوا واصطف فى الفسحة الخارجية فرقتان من الجند ولم يلبثوا الا قليلا حتى أقبل الخديو فى عربته يصحبه الوزير محمد شريف باشا وأمامهما أحمد خيرى باشا المهردار وطلعت باشا كاتب الديوان الخديوى فنادى الجند بالسلام وعزفت الموسيقى بالنشيد الخديوى فخرج للقائه زهاء العشرين من النواب وسائر النظار فدخل قاعة الاستراحة ولبث لحظة ثم انتقل فى نحو الساعة السادسة الى قاعة المجلس ووقف فى صدر المكان وعلى يمينه النظار ورجال ديوانه الخاص وأخذ ورقة وقرأ ما نصه

مطلب افتتاح مجلس شورى النواب

أبدى لحضرات النواب ممنونيتى من اجتماعهم لاجل ان ينوبوا عن الاهالى فى الامور العائدة عليهم بالنفع وفى علم الجميع أنى من وقت ما استلمت زمام الحكومة عزمت بنية خالصة على فتح مجلس النواب ولكن تاخر افتتاحه للآن بسبب المشكلات التى كانت محيطة بالحكومة فاما الآن فنحمد الله تعالى على مايسر لنا من رفع المشكلات المالية بمساعدة الدول المتحابة ومن تخفيف أحمال الاهالى بقدر الامكان فلم يبق مانع من المبادرة الى ما أنا

منشوف لحصوله وهو مجلس النواب الذى أنا فاتحه فى هذا اليوم باجتماعكم وأنتم تحيطون علما أن جل مقاصدى ومساعى حكومتى هو راحة الاهالى ورفاهيتهم وانتظام أمورهم بتعميم العدالة بينهم وتأمين سكان القطر على اختلاف أجناسهم وهذا منهجى واضح مستقيم وعليه سيرى منذ توليت أمركم محبا للتربية ونشر العلوم والمعارف فعلى المجلس ان يكون مساعدا للحكومة فى هذه الامور كلها خالصا مخلصا فى خدمة الوطن منحصرة أفكاره ومذاكرته فى المنافع العمومية مع مراعاة قرار لجنة التصفية وسائر تعهدات الحكومة معا لدول سالكا المسلك المعتدل والمنهج القويم الذى هو أهم شئ فى هذا الوقت الذى هو عصر الترقى والتمدن فالواجب علينا الاعتدال والتأنى وحسن التبصر وأن نكون يدا واحدة فى اتمام الاعمال النافعة متوسلين بعناية الله تعالى وامداد رسوله الكريم ومتمسكين بقوة ارتباطنا بالحضرة السلطانية وبالدولة العلية أدامها الله تعالى نسأل الله حسن النجاح انه ولى التوفيق

فلما أتم كلامه أمن الجميع على دعائه ونادى الرئيس قائلا أدام الله توفيقنا المعظم فكرر ذلك أيضا الحاضرون ثم استراح الخديو بقدر جلسة الخطيب ثم خرج وركب عربته فاطلقت عند ذلك المدافع من قلعة الجبل وأخذ الناس فى الانصراف فلم يبق الا هيئة المجلس فأمر رئيسهم فعقدوا جلستهم وتلا عليهم هذا الخطاب

أيها السادة النواب نحمد الله الذى جعل أمرنا شورى * ونصلى ونسلم على نبيه المأمور بالشورى * والآمر بها وبعد فقد سمعتم ما تضمنته المقالة الخديوية الكريمة من حسن القصد وسمو الارادة مما لم يزدكم الا يقينا بما عهدتم بالجناب المعظم من صفاء النية * وكريم العنصر وسلامة الطوية * والارتياح الى المصلحة الوطنية * وقد اجتمعتم فى هذا المقام الرفيع بعناية الجناب الخديوى العالى ورجال حكومته السنية للنظر فى أمور أوطانكم وأنتم خلاصة وجهاء القطر وبضعة اعيانه ونبهائه فواجباتكم من هذا القبيل تقضى عليكم بالحكمة والاعتدال والثبات ولا أزيدكم علما بأن الوطن العزيز محتاج الى الاصلاح والتنظيم قابل للتقدم والعمران جامع لاسباب المنافع الكلية فما عليكم الا السعى والاجتهاد لنوال المراد ولكنكم لا تجهلون أن علينا حقوقا واجبة الحفظ وذمما لازمة الرعاية وأنا قد أمرنا شرعا بحفظ العهد ورعى الذمم فمن تلك شدة الارتباط وصلة التابعية للدولة العلية التى هى مركز قوتنا ومرجع سطوتنا وقد عرفنا منها العناية وعرفت منا الاخلاص فلا بد من ثباتنا على هذا الحال بالنظر اليها ولا شك أن تقدمنا واستقامة أمورنا وتأييد أمور الشورى فينا يسر هذه الدولة العلية لما ينشأ لنا عنه من القوة التى تكون جزأ من قوتها الكلية * وان الذمم والمواثيق هى علاقاتنا المالية والتجارية مع الدول العظمى فهذه الذمم واجبة الرعاية لما يترتب على حفظها من استحكام صلات المودة التى بيننا وبين هاتيك الدول التى ينبغى لنا الاعتقاد برغبتها فى انتظام أمورنا وميلها الى كل ما

يعود علينا بالنفع كما صرح بذلك عظماء رجالها على منابر المجالس النيابية وفى المنشورات الرسمية فاذا حفظنا تلك العهود وراعينا تلك الذمم وعرفنا حقوق الوطن علينا ولم نذهل عن شئ من الواجبات لزمنا الأخذ بأسباب الحكمة والثبات للنظر فيما يجلب علينا النفع ويدرأ عنا الضرر ويثبت للناس جدارتنا بما وصلنا اليه ويحقق لنا ظن أبناء الوطن الذين جعلونا موضع ثقتهم واعتمادهم فوجهوا إخوانى همتكم فى السعى بالحكمة والاعتدال والتبصر والثبات فمن جد وجد ومن سار على الدرب وصل فنسأل الله العظيم حسن البداية والنهايه

ثم انفض مجلسهم وتفرقوا ولما كانت الساعة التاسعة من تاسع الشهر المذكور وفد على مقر الخديو بالاسمعيلية عشرة من نواب البلاد انتدبهم المجلس لتقديم الجواب على الخطاب الذى افتتح به الخديو المجلس فمثلوا بين يديه وحوله جميع الوزراء والوزير محمد شريف باشا على يساره فتلا أحدهم هذا الجواب * بعد حمد الله على توفيقه وارشاده * والصلاة والسلام على من اصطفى من عباده * نقوم لدى هذه السدة الخديوية الكريمة نحن معاشر الأمة المصرية مقام النيابة عن جميعها فى تقديم واجب الشكر لهذا الجناب الخديوى الفخيم على انعطاف عواطفه نحو مجلس شورى النيابة الذى انتخبه بنطقه الشريف اظهارا لمقصده الجليل من حيز القوة الى عالم الفعل واجابة لرغبة الأمة ونظرا لمصلحة العامة بعد أن أزالت العوائق دونه وامتنعت الموانع بيننا وبينه بجلائل همة الخديو التى زلت لها صعاب المسائل * وخضعت لها رقاب المشاكل * حتى صفا الوقت واطمأنت الخواطر * ودنا المنى وانقادت الآمال * ولقد شنف أسماعنا * وأنعش أرواحنا * ذلك النطق الكريم * وملك افئدتنا سرورا وطربا بما تضمن من الافصاح عما عرفناه لولى النعمة وألفناه من نزاهة ونبالة القصد حتى لقد نطقت السرائر بما بدا من نسمات السرور فلم تدع بالألسنة من حاجة للتعبير عن فرط محبة عظيمة من أمة كريمة لمولى تفضل عليها وتحبب اليها تحبب محب لحريتها مشغوف بخيرها ونفعها فلم يبق الا أن نبذل غاية ما فى السعة ونأتى جهد الاستطاعة فى نفع هذه الأمة التى انتدبتنا للنظر فى منفعتها واستنابتنا عن أنفسها لرؤية مصالحها سالكين فى ذلك مسالك الحزم والتبصر وحسن النظر بما تحسن بعناية الله مغبته وتحمد بيمن التوفيق غايته * ويعضد مقاصد حكومتنا السنية المتجهة للرشاد والسداد وسلامة البلاد والعباد ويؤيد مالنا من روابط التبعة للذات السنية السلطانية والدولة العلية العثمانية التى منحتنا عواطفها الكريمة من الامتيازات المرعية فكملت به النعمة وعظمت المنة ويؤيد علائقنا الادارية مع الدول الاجنبية المحبة لمنفعتنا وفائدة بلادنا مبتهلين الى الله جل ثناؤه وتقدست آلاؤه فى أن يحرس لنا هذا الجناب الخديوى الفخيم ويديم لأوطاننا به النفع العميم أدام الله توفيقها على أحسن ما نرام وبلغ به الوطن العزيز غاية المرام آمين

والتأموا

والتأموا بعد ظهر اليوم ثانية وقرروا أمر تحقيق الانتخابات فكانت جملة النواب خمسة وسبعين ثم شكلوا لجنة لتنظر فى أبواب وفصول قانونهم وتنقيحه وقد كان ذلك القانون هو الذى أنشأه الخديو اسمعيل وقرر كل قسم نوابا عنه فى تلك اللجنة فاخذوا باطراف العمل وساروا فيه سيرا حثيثا فلما كان ثانى عشر صفر سار الوزير محمد شريف باشا الى مقر النواب ورفع لهم القانون الاساسى لاعمال المجلس لينظروا فيه ويبدوا ما يخطر لهم من الافكار فى مواده وحدوده ثم وقف بينهم وألقى فيهم هذا الخطاب

أيها السادة النواب — إنى لا أقدر أن أعبر لحضراتكم عن سرورى من الحضور بينكم فى هذا اليوم الذى أعده مبدأ لعصر جديد ان شاء الله يعود على هذا القطر بالتقدم والنجاح وحضراتكم تعلمون أنه من منذ ثلاث سنوات تراأى لى أن الطريقة الوحيدة لخلاص البلاد من الورطات التى كانت محيطة بها هى توسيع نطاق الشورى واشتراك رأى نواب البلاد مع الحكومة فى نظر كل أمر مهم تعود منه المنفعة وكنت قدمت مشروعا لمجلس النواب الذى كان موجودا يومئذ وقد أجرى فيه تغييرات ثم تيسر للحكومة النظر فيها ثم طرأت حوادث سياسية ومالية ليست خافية عليكم قد ترتب عليها تعويق اتمام المشروع والحمد لله قد زالت العوائق وإنى لأجد نفسى سعيدا حيث ان أفكارى فى هذا الخصوص ما كانت الا نتيجة مقاصد الحضرة الخديوية وهذه الافكار قد طابق عليها عموم الأهالى ولهذا حصل انتخاب حضراتكم واجتمعتم فلنهنئ القطر على ذلك ولنهنئ أنفسنا وندعو للذات الشاهانية والحضرة الخديوية ببقائهما مصدرا لكل خير ولما كانت لائحة النواب التى اجتمعتم على مقتضاها لاتلائم أفكارنا جميعا قد أوضحت من منذ ثلاث سنوات وكررت المعروض الذى رفعته أخيرا للسدة الخديوية عند طلب اجتماع مجلسكم هذا فاشتغلت مع رفقائى بتحضير لائحة موافقة لمقاصد العموم وقد تمت وها أنا الآن أقدمها لحضراتكم للنظر فيها ومع كون هذه أول مرة اجتمع فيها مجلس نواب حر فكان يلزم أن السلطة التى تعطى له لاتكون مطلقة بالكلية حتى يحكم المستقبل باطلاقها بالتدريج شيأ فشيأ لكن حيث ان مقصدنا جميعا واحد وهو خير البلاد والحكومة معتقدة بكفاءة النواب وعلمهم بحقوقهم وواجباتهم ومحبتهم للوطن فقد أعطت لكم الحرية التامة فى ابداء آرائكم وحق المراقبة على أفعال مأمورى الحكومة من أى وجه وأى صنف كانوا وصرح لكم بنظر الموازين العمومية وابداء آرائكم فيها ونظر كافة القوانين واللوائح وقد التزمت بعدم وضع أى ضريبة ولا نشر أى قانون أو لائحة مالم يكن بتصديق واقرار منكم وكذلك تعهدت بأن تجعل النظار مسؤلين لديكم عن كل أمر يترتب عليه اخلال بحقوقكم والغاية فانه لم يحجر عليكم فى شئ ما ولم يخرج أمر مهم عن حد نظركم ومراقبتكم انما لايخفا كم الحالة المالية التى كانت عليها مصر مما أوجب عدم ثقة الحكومات الاجنبية بها ونشأ من ذلك تكليفها بترتيب مصالح وتعهدها بالتزامات ليست

خافية عليكم بعضها بعقود خصوصية والبعض بقانون التصفية فهل يتيسر للحكومة أن تجعل هذه الامور موضعا لنظرها أو لنظر النواب حاشا لانه يجب عليها قبل كل شئ القيام بتعهداتها وعدم خدشها بشئ ما حتى نصلح خللنا وتزداد ثقة العموم بنا ونكتسب أمنية الحكومات الاجنبية ومتى رأت مناللك الحكومات الكفاءة لتنفيذ تعهداتها بحسن اخلاص بدون مساعدتها فنتخلص شيأ فشيأ مما نحن فيه وانى لواثق بأن بصيرة وحكمة النواب ومساعدتهم الحكومة لابد وأن يترتب عليها ازدياد الثقة بنا هذا ومن المعلوم أننا تابعون للدولة وصوالحنا مرتبطة بصوالحها وهذه التبعية وهذا الارتباط هما السبب الوحيد لسلامتنا ونجاتنا فحقوقها حينئذ هذه مقدسة ومراعاتها فرض واجب على كل منا ولندع الله جميعا بدوام الذات الشاهانية وتأييد دولته العلية التى منحتنا امتيازات تضمن لنا خير البلاد وحيث ان الثمرة المقصودة من اجتماع المجلس وهى نفع البلاد لايمكن الحصول عليها الا بعد التصديق على لائحة اجراآته فالمأمول من حضراتكم المبادرة بنظرها حتى اننا نشرع فى الاعمال النافعة المهمة والكون من تتمة وضع مجلس نواب يلزم ترتيب مجلس للادارة وتحضير القوانين ومحاكمة المأمورين عن كل أمر يجرونه خارج عن حدودهم أومخالف للقوانين واللوائح فى أثناء تأدية وظائفهم فقد عمل عن ذلك مشروع وهاهو مقدم للمجلس المأمول أيضا الاسراع بنظره حتى يصدر مع اللائحة وان شاء الله تعالى سيتقدم لحضراتكم عما قريب مشروع لائحة الانتخاب فنسأله تعالى ببركة نبيه الكريم أن يقرن أعمالنا بالنجاح ويوفقنا للاتحاد قولا وفعلا لمايكون فيه الاصلاح آمين آمين بجاه خاتم النبيين * فأمن الجميع على دعائه ثم تركهم وانصرف

مطلب مفاد ما فى قانون الانتخاب

وكان مفاد القانون الذى رفعه اليهم فى ذلك اليوم أن الانتخاب وكيفيته يكون بموجب قانون آخر يتبع القانون العمومى وان مدة النيابة لاأقل من خمس سنين وان النواب يكونون أحرارا فى الاعمال واذا ارتكب أحدهم جريمة فلا يجوز للحكومة أن تقبض عليه الا باذن وتصديق من هيئة المجلس ومن أحكام هذا القانون أيضا أن النائب ينوب عن الجهة التى استنابته خصوصا وعن مصالح البلاد كلها عموما ويكون مقر المجلس بالقاهرة ولا يكون التئامه الا بأمر يصدر من الخديوى على قرار من مجلس الوزراء ولا يستعمل فى ادارة أشغاله الا اللغة العربية ويصح للنظار أن يحضروا جلساته كما لهم أن يستنيبوا عنهم فى الجواب عن بعض المسائل أعضاء مجلس الادارة أوأحد كبار الموظفين فى دواوينهم ويقدم النظار الجواب عن كل مايسئلون عنه من قبل المجلس اللهم الا فيما هو من خصوصياته واذا اختلف مجلس الامة ومجلس الوزراء فى أمر من الامور جاز للخديوى حل عقد مجلس الامة ويأمر بانتخاب سواه لمدة أربعة أشهر فاذا صدق مجلس الامة بعد الانتخاب الثانى على ما كان قرره الاعضاء السابقون كان قراره هو النافذ ولا يعرض موضع الخلاف على مجلس الامة ثانية فى كل مدته ولمجلس الامة أن يتداول فى اللوائح والقوانين والضرائب وفى كل أمر تعرضه عليه

الهيئة الحاكمة وله أن يرى فى ميزانية الخزينة ويبدى فيها رأيه فقط وأن لايمكن فرض ضريبة من أى نوع كان بدون قانون يصدق عليه من الأمة فاذا جمعت ضريبة غير المقرر فى القوانين المالية عوقب جامعها باشد العقاب أما ميزانية الخزينة فتعرض على المجلس قبل نهاية الشهر الثانى من التئامه ويجب أن تكون موضحة التوضيح الكافى وله أن يبدى فيها رأيه وعلى الرئيس أن يبلغ ذلك الى ناظر الخزينة قبل انحلال المجلس ولايجوز للمجلس التداخل فى أمر العسكرية ولا قرارات لجنة التصفية وصندوق الدين ومايتعلق به ولا المعاهدات الدولية ولا يمكن المداولة فى المجلس الااذا حضر ثلثا الاعضاء ويقتضى لاعتبار قراراته أن تكون الاغلبية تامة أما قرار مسؤلية النظار فيكون باغلبية من ثلاثة أرباع الحاضرين * هذا هوملخص مافى ذلك القانون أتيت به تتميما للفائدة المقصودة

مطلب
تولية أحمد عرابى وكالة ديوان الجند وورود لائحة الدولتين للخديو

وفرح الناس بفتح أبواب مجلس شورى نواب البلاد واستبشروا به خيرا فأناروا فى تلك الليلة منارات المساجد بالانوار الكثيرة وأقيمت الادعية على المنابر وهنأ الناس بعضهم بعضا وأصبحوا وقد شاع الخبر بتولية أحمد عرابى بيك وكالة ديوان الجند فتناقلوه وهم بين مصدق ومكذب لاسيما أصحاب صحف الاخبار الاجنبية فلما كان خامس عشر صفر تأكد الخبر وتحقق صدق الرواية فهرع الى داره طوائف الضباط والوجهاء والعلماء والاعيان والعميان وأصحاب العكاكيز ووقف الشعراء والمطرئون على بابه وأتته الهدايا من الضأن والارز والسمن والعسل والسكر وبن القهوة والشمع وغير ذلك من أعيان البلاد وعمدها وتزاحموا على بابه يرجون لقاءه ويتمنون طلعته ولبث الحال هكذا يومين وخرج فى تاسع عشره يريد مقر الخديوى ليقبل الاعتاب على العادة المألوفة فى مثل ذلك فقابله الخديوى بالبشاشة والترحاب وأحسن لقاءه ولم يخرج من عنده حتى دخل قونصلا الانجليز والفرنسيس ورفعا الى الخديوى ورقتان هما فى عرف أهل السياسة (لائحة) وقالا انهما متحدتان فى المعنى والمبنى وقد بعثت بهما الدولتان يعدان الخديوى فيهما بالمساعدة والاعانة على قضاء كل مايروم نواله لاستتباب سلطته وتمكين عرشه عند مسيس الحاجة وشاع خبر هاته اللائحة فتعجب الناس وكثر تحدثهم به وداخل ضابط الجند بسبب هذه اللائحة من الريب ما داخلهم فاجتمعوا بقصر النيل وتناجوا فى الامر طويلا ثم اتفقت كلمتهم على أنّ البارودى يكلم هيئة مجلس النظار فى ذلك فاجتمع البارودى بالوزير محمد شريف باشا ثم بالخديوى وعقدوا لذلك مجلسا وتكلموا فى معنى ماجاء فى تلك اللائحة وبعد أخذ ورد اتحدت كلمتهم على أن يرسلوا صورة منها الى الباب العالى ويسألوه الجواب فبعث الوزير بالصورة الى دار السلطنة وكأنّ القونصلين قد أحسا بما وراء ذلك فتقدما الى الخديوى والوزير محمد شريف باشا فى طلب الجواب وألحا فى الطلب فرسم الخديوى الى الوزير باعطاء الجواب فطاول فشدد الخديوى فى ذلك فكبر الامر على الوزير وطال بينهما الاخذ والرد فاحتجب الوزير فى بيته أياما فذهب اليه قونصل الفرنسيس فى صبح حادى عشرى صفر وطلب الجواب وألح فى الطلب فقال الوزير

لاجواب عندى على ذلك البتة والبلاد آمنة مطمئنة فاذا وقع فيها مايكدر صفوالراحة كانت الدولة العلية أولى بالذب عنها فهى صاحبة السيادة والخليفة أمير المؤمنين سلطان البلاد فقال القونصل لاسبيل الى غير ماتطلبه دولتنا الفرنسيس والانجليز فقال الوزير لم أعرف الى الآن ما مراد الدولتين من هذه اللائحة ولذلك فانى أستوضح منك مشكلاتها قبل اعطاء الجواب فقام القونصل وتركه * وكام قونصل جنرال الانجليز كبير سياستهم فيما يسأله الوزير محمد شريف باشا من فك أسرار ومشكلات تلك اللائحة فرسم له بسؤال الوزير عما يريده ففعل وأبلغ ماأعطى بيانه ولبث ينتظر الجواب * وبينما كان الوزير محمد شريف باشا يراقب الحوادث ويطمن القلوب الراجفة ويعمل على منع الاراجيف وازالة القلاقل اذ كتب صاحب صحيفة التيمس الانجليزية عبارة طويلة سماها باسم لائحة الحزب الوطنى وضمنها فصولا وأبوابا لايسعنا ايرادها هنا وعزا تحريرها وتنميقها الى أحمد عرابى بيك وبالغ فى مدحها واستحسانها فكبر هذا الامر على الوزير واستعظمه وعمل على تكذيبه واذهاب ماعلق منه بالاذهان * وقد كان لما تظاهر أحمد عرابى بيك بزعامة العصابة وتمكن من خلع الرئيس مصطفى رياض باشا من منصب الرياسة أحدقت به عيون أهل السياسة من الانجليز وكثر تواردهم عليه وتزلفهم اليه رغبة منهم فى معرفة قدر ادراكه ومبلغ علمه بعوائد الامم وأحوال البلاد وأساليب السياسة وكأنهم كانوا يرون فى ظهوره وخروجه مفتاحا لمغالق آمالهم فسيروا له من دهاتهم وحملة أسرارهم جماعة فجعلوا يسايرونه ويبالغون فى الاطراء عليه ويخاطبونه بأنواع التحلة والتكريم ويقولون له انك لمن أعاظم الرجال وأقطاب أهل السياسة وانك الرجل الحرية ومنقذ البلاد وأهلها من وهدة الذل والعبودية وأنت العون والسند وأنت الملجأ والملاذ وغير ذلك من صنوف التضليل والتغرير حتى استهووه وتطوحوا به وكان ممن لازمه ملازمة الظل من دهاة هؤلاء القوم طاغيتان أحدهما اسمه وليم جريجورى وثانيهما اسمه بلانت فاستهوياه وغررا به تغريرا وزينا له كل عمل وحرضاه على فعل كل خارجة لاسيما منهما بلانت فانه تمكن من أحمد عرابى وأخذ بمجامع قلبه وكاشفه على ماخفى من سر بعثته الى ديار مصر التى انما هى سلخ الكنانة عن تابعية دار السلطنة العثمانية والعمل على تشييد مملكة عربية اسلامية يدخل تحت لوائها سائر بلاد العرب من عراق ويمن وحجاز وما بين النهرين وتونس وطرابلس والجزائر ودمشق الشام وكل بقعة من بقاع الارض التى تحتلها العرب وبالغ فى المدح والاطراء * قال أحد المقربين الى أحمد عرابى * وما زال ذلك الطاغية بأحمد حتى تاقت نفسه الى طلب المعالى رخيصة وخضع له وعمل بمشورته فتجرد عند ذلك هو ورفيقه جريجورى على تحرير الرسائل المهيجة وتلفيق الاراجيف المزعجة وجعلا يرسلانها الى صحفهم السيارة على لسان عرابى وشيعته حتى كادا ينكران متبوعية مصر لدار السلطنة العثمانية فكانت أصحاب صحف الانجليز ترددها مشفوعة بالمدح والاطراء والتكهن بزوال ملك آل عثمان اهـ قال جماعة وزين بلانت ورفيقه الى أحمد عرابى مخابرة شريف مكة وغيره

مطلب ملازمة جريجورى وبلانت الانجليزيين لاحمد عرابى

من

من كبار العرب فى هذا الامر وفى استنهاضهم الى الخروج وشق عصا الطاعة عند ظهور الحركة بمصر قيل وسير الى السنوسى بطرابلس الغرب يستقدمه الى القاهرة ليكون له عونا على بلوغ الارب وبعث الى كبار مسلمى الهند يشاورهم فى الامر فظهرت عندئذ حركة الخواطر وبدت اشارات الخروج وبلغت ترهات بلانت ورفيقه يومئذ والتغرير باحمد عرابى مبلغا عظيما فكانا اذا سمعا أحمد عرابى يقول فى حديثه مع آخر ان نفرا من الجند أصابتهم اليوم تخمة تستلزم نقلهم الى المستشفى كتبا الى أصحاب صحف الانجليز يقولان أشار أحمد عرابى بيك بنقل فريق من الجند وطائفة من العسكر بجميع سلاحهم وكراعهم الى المحلة الفلانية وهم على قدم الرحيل والقلوب واجفة والخواطر مضطربة * واذا سمعاه يقول زرت اليوم ضريح ولى الله العتريس أو اجتمعت بشيخنا فلان فدعالى دعاء صالحا و بشرنى بانى من أهل الجنة * كتبا يقولان علمنا ممن يوثق بحديثه أن قد طاف أحمد عرابى بيك على مساكن الجند ومعه جماعة من كبار العلماء وأئمة الدين لحثوا الجند على التعاون والتعاضد واعزاز الدين والخروج عن طاعة الخلافة الغير الصحيحة الى طاعة خلافة عربية تعمل بسنة الله ورسوله وغير ذلك من الاقاويل فكانت هذه الترهات والاضاليل داعية الى كثرة القال والقيل وحاملة الى طيرة الناس وتخوفهم وتساآلهم * قلت * و بلانت هذا رجل طويل القامة يبلغ الخمسة والاربعين من العمر قد نزل بالقاهرة أعواما يتقرب من بعض العلماء والمشايخ وأرباب الوظائف العالية و يتظاهر بمحبته الى العرب وميله الى عاداتهم وطباعهم وحريتهم وحبهم للاستقلال ومقته للذل والاسترقاق وولوعه بلغتهم وغير ذلك فاغتر الكثير منهم بظاهر أمره وأدنوه من مجالسهم فجلس وتصدر واستفرغ مافى صدورهم من حيث لايشعرون حتى عرف مبلغ علمهم ولبث بين ظهرانيهم يكاتب رؤساء قبائل عرب العراق واليمن والحجاز وما بين البحرين ويستميلهم بالعطايا والتحف وأصحاب الحل والعقد فى سنة من النوم لا يعرفون من أمره سوى أنه من سواح الانجليز الذين دأبهم البحث عن الآثار القديمة ومعرفة طبقات الارض وقد اتخذ عين شمس له مقرا ومازال حتى ظهرت الفتنة بالقاهرة وقام أحمد عرابى ومن معه يطالبون بمطالبهم الطويلة ففرح بلانت وتجرد الى العمل وتقرب من أحمد عرابى وأصحابه وجعل يزين لهم ما بدا ويحضهم على الاخذ باطراف الحزم حتى كان من أمرهم ما كان مما سيتلى عليك فى محله ان شاء الله تعالى

مطلب استعلام السلطان من الدولتين عن داعى ارسال اللائحة

وكان لما بعث الوزير محمد شريف باشا بصورة من لائحة الدولتين الى الباب العالى كما تقدم القول أرسل السلطان الى كبيرى السياسة الانجليزية والافرنسية يستعلم عن السبب الحامل على ارسال تلك اللائحة ويحتج عليهما فى ذلك فكتبا اليه يقولان انهما لاينازعان فى تبعية ديار مصر الى مقام الخلافة العظمى ولكنهما عزمتا على تأييد سلطة الخديوى وحفظ مقامه الحالى وبقاء المراقبة على ديوان الخزينة كما هى بدون مساس فأحس السلطان بما وراء ذلك من اشتداد الازمة واستفحال الخطب اذا ظل الحال هكذا (قال جماعة) فراسل

أحمد عرابى سرا على يدى أحمد القرناء وكأنه رسم له بحشد الجنود والتأهب للقتال ومنع تطاول يد الدولتين فعاد أحمد عرابى الى طلب زيادة عدد الجنود العاملة الى ثمانية عشر ألفا وألح فى الطلب وشدد على البارودى فى ذلك فنادوا فى البلاد بخروج سائر العسكر وجاءت الكتب بذلك الى المديرين والمحافظين فانحدرت العساكر أفواجا الى القاهرة حتى ضاقت بهم منازل الجند أو كادت وانبثوا فى الاسواق فخاف طوائف الاجانب وزاد بهم الهلع وظنوا أن ماوراء هذا الزحام الا حصول الطعن وامتشاق الحسام فنزح الكثير منهم الى الاسكندرية وطارت الاخبار الى الآفاق بمجىء العسكر الى القاهرة فهول أصحاب الصحف الانجليزية وبالغوا فى الامر ونهوا قومهم عن الاختلاط بالمسلمين وجانبتهم

مطلب الخلاف بين الحكومة ونواب البلاد على تخويلهم حق نظر ميزانية الخزينة

وبينما كان الجند يأتون الى القاهرة تباعا والناس فى شاغل بهم عما سواهم كان نواب البلاد وهيئة الحكومة على طرفى نقيض فى أمر تخويلهم حق النظر فى ميزانية الخزينة ومصروفات المصالح وقد طال بينهما الخلاف واشتد اللدد وأرسلوا لائحة مجلسهم الى مجلس النظار يريدون الاعتراف منه بما أدخلوه على موادها من التحوير والتعديل لاسيما ما كان متعلقا بامر الميزانية فطاولهم المجلس ومناهم فأبوا الاما يقولون وشددوا فلما كان يوم الثلاثاء حادى عشر ربيع الاول أعاد مجلس النظار الى مجلس النواب اللائحة وأرسل يقول ان وكيلى الدولة الانجليزية والافرنسية يريان أن لاحق لمجلس النواب فى تقرير ميزانية الخزينة ولكنهما مع ذلك يقبلان المخابرة فى هذا الشأن بشرط أن يستقر الاتفاق بين جماعة النواب وهيئة الحكومة على سائر بنود اللائحة وبناء على ذلك تطلب الحكومة من النواب أن يصدقوا على اللائحة كما عدلها مجلس النظار وأن يترك البند المتعلق بالميزانية الى حين وأن يبدى النواب رأيهم النهائى فى أمر الميزانية ليتسنى للحكومة جعله أساسا لفتح باب المخابرة مع الدولتين فلما وصلت اللائحة الى النواب مع الطلب بما تقدم كبر عليهم الأمر واستعظموه واجتمعوا فى بيت محمد سلطان باشا الرئيس وظلوا ليلتهم تلك يتشاورون ويتدبرون فى العمل الى أن اتحدت كلمتهم على أن لايجيبوا طلب الحكومة ولا يعملوا برأيها وأصبحوا وقد عقدوا مجلسهم على غير العادة وقرروا تسليم اللائحة وورقة الطلب الى اللجنة التى كان عهد لها تحرير تلك اللائحة واشترطوا عليها أن تنظر فيها ثانية وتعدل منها ماترى لزوم تعديله ففعلت وصادقت على بعض البنود وأنكرت البعض الآخر وأبقت البند المتعلق بالميزانية جائزا بجميع أحكامه * وفى صبح الخميس سار خمسة عشر من النواب الى مقر الخديوى بالاسماعيلية ليطلبوا تنفيذ ماقرروه فمروا فى طريقهم ببيت الوزير محمد شريف باشا فدخلوا عليه وسألوه قبول العمل بما قرروه فامتنع وقال هذا لايصح فألحوا عليه فلم يقبل فساروا الى مقر الخديوى وتقدموا اليه فى قبول لائحتهم والعمل بما قرروه فيها والا لزم تنزيل الوزير محمد شريف باشا وخلعه من منصب الرياسة وتحقق الوزير مافى عمل جماعة النواب من الدسائس الغريبة عن طباعهم فخشى العاقبة وعمد الى الموادبة وعين للوساطة بينهم

بطرس

مطلب
تمكن بطرس بيك غالى من تعديل بعض طلبات نواب البلاد

بطرس بك غالى كاتب سر مجلس النظار يومئذ ورسم له بالعمل فقام بالامر وسلك مسالك الجد والحزم وعمل على تذليل تلك الموانع فكان اذا مهد السبل وأحكم العمل وسار معه جماعة النواب وهم آمنون مطمئنون بوصولهم الى الغرض وسوس لهم خناس العصابة فيرجعون ناكصين وهم أشد عنادا وأصعب مراسا من ذى قبل فلما ضاقت عليه المذاهب أوكادت عمد الى مجامع العصابة فدخلها وما زال بكبارها وأصحاب الكلمة فيها حتى تمكن من تعديل بعض مواد القانون التى لاعلاقة لها بالميزانية وبقيت أحكام المادة المتعلقة بالميزانية على ماهى عليه * وعظم الامر على الوزير محمد شريف باشا واستعصى الحل فكتب قونصلا الانجليز والفرنسيس اليه يقولان بناء على كون قانون التصفية لم يبح اشتراك نواب البلاد فى تقرير ميزانية الخزينة وبما أن الدولتين تقرّان أن أمر الميزانية صار ارتباطا بينهما وبين حكومة مصر فيجب على الحكومة أن ترفع لنا بيان مايتطلبه الآن مجلس النواب لنبعث به الى أصحاب الحل والعقد فى بلادنا ليروا فيه رأيهم * فجمع الوزير فى اليوم الثانى مجلس الوزراء وبينهم بعض نواب البلاد ليروا فى طلب القونصلين فتكلموا فى ذلك كثيرا وطال الاخذ والرد حتى علت الاصوات وكثرت الضوضاء واشتد الخصام وأبى النواب الا ما أرادوا من رؤية ميزانية الخزينة وتعديل أبوابها على ما فيه المصلحة للبلاد ثم انصرفوا على غير طائل وعاد الوزير بعد ظهر ذلك اليوم فجمع اليه محمد سلطان باشا رئيس النواب وشريعى باشا رئيس التحرير وشوار بى بيك وأمين بيك الشمسى ومحمد بيك سليمان وأباظه بيك وأحمد أفندى محمود وابراهيم أفندى الوكيل وأحمد أفندى عبد الغفار وأعادوا البحث والجدال فى أمر الميزانية وفى نص الفقرة المختصة بها فى القانون (قلت) وكان نصها * متى تعادلت الآراء استشير مجلس الامة فاذا صدق على قرار لجنة التحرير وأصرت الحكومة على رفض ذلك ولم تستعف الوزراة فض المجلس وجاز حينئذ أن تسحب المبالغ الضرورية لسير الادارة وتوقفت الميزانية الى أن يلتئم مجلس النواب الجديد فاذا صدقت لجنته على قرار لجنة المجلس السابق وجب أن يكون قرارها مقبولا اهـ فلم يتم لهم فى ذلك اليوم أمر ولم ينفض لهم نزاع فانصرفوا وعادوا فى نحو الساعة الثالثة عربى ليلا الى بيت الوزير ولبثوا يتنازعون الى مابعد نصف الليل ولكنهم لم يهتدوا الى أمر ما فعند ذلك نهض الوزير وقال بعد كلام * وحيث اننا لم نصل مع توالى الاجتماع الى حل عقدة هذا الاشكال صار المتعين على المخابرة فى ذلك مع قونصلى الانجليز والفرنسيس اذ هى من المسائل الخاصة بهما وباتوا ليلتهم تلك وأصبحوا وقد اجتمع الوزير بالمسترمالت قونصل الانجليز وتحادثا فى الامر فدخل عليهما قونصل الفرنسيس فتكلموا فى ذلك طويلا وتكلموا أيضا فيما لم تصل الينا معرفته الى هذا الحين وسير الخديوى الى سلطان باشا يستحثه على استمالة النواب وتركهم لهذا الشغب فأرسل يعتذر ويقول انه لم يقو على استمالتهم لانهم جميعا فى طاعة عصابة الجند وفى قبضة أحمد عرابى وأن لاسبيل الى عدولهم الا باستمالة زعماء

العصابة واسترضاءهم وهذا مما لايقوى عليه هو أيضا فرسم الخديوى باجتماع مجلس الوزراء فاجتمعوا فى سراى عابدين وبينهم سائر النواب و جعلوا يتجادلون فى أمر ذلك الخلاف فطال الحال واشتد بهم الجدال وكثر القيل والقال واحتدم الخصام وتعذر الوئام وانفض مجلسهم على غير طائل

واتفق أن دخلت فى هذا اليوم الى مينا الاسكندرية سفينة من سفن الحرب العثمانية آتية من دار الخلافة فجاء الخبر بدخولها وتحدث الناس به كثيرا وجزم بعضهم أن مع ربانها أوراقا من بسيم أفندى أحد قرناء السلطان مخاطبة الى أحمد عرابى وقال البعض ان الربان المذكور جاء خفية من الاسكندرية الى القاهرة ونزل بالنزل المعروف بلوقاندة أوريننتال وبات ليلته تلك وأصبح فركب حمارا واستتر برداء من أكسية جند البحر وسار الى بيت أحمد عرابى بباب اللوق ولبث معه ساعة ثم رجع من فوره الى الاسكندرية وشاع الخبر بذلك فطيره الناس الى الآفاق وبالغوا فى نقله على عادتهم فأحس الوزير محمد شريف باشا بما وراء ذلك فكتب الى المديرين والمحافظين وسائر مأمورى الحكومة يلزمهم بحض الناس على ملازمة السكون وترك الاشاعات وعدم الاخذ بأقوال أصحاب الغايات وقال ان هذه السفينة وان كانت من مراكب الحرب العثمانية ولكنها ليست الآن الا فى خدمة والى الشام وانها لما قامت من مرساها قاصدة احدى الموانى العثمانية صادفها ريح عاصف فألقى بها الى سواحل مصر فلجأت الى مينا الاسكندرية فرارا من الانواء ونظرا لكون بعض آلاتها تعطلت بأسباب مالاقته ستلبث أياما حتى تصلح ما تعطل منها فى هاويس الاسكندرية ثم ترجع * فلم تبطل هذه الاقوال الاشاعة ولم تنكف الناس عن القال والقيل ولاسيما الاحزاب وضباط الجند * قلت * وكان لمجىء تلك السفينة فى هذا الحين أى بعد رفع الدولتين لائحتهما التى تقدم الكلام عليها سر خفى وقصد منوى عليه وكان السلطان وجميع قرنائه وأرباب شوراه وأصحاب الكلمة فى بابه وامامه الشيخ أحمد أفندى أسعد يعتقدون أن فى ظهور أحمد عرابى وأصحابه وقيام الحركة بالقاهرة واضطراب الخواطر بالاقاليم القبلية فتحا ونصرا للسلطان على خصومه بديار مصر فترفع فيها كلمة الخلافة وترجع الشوكة السلطانية الى ما كانت عليه قبل سنة ثلاث وعشرين ومائتين وألف هجرية فيتولى الباب العالى التصرف فيها كتصرفه فى بقية الايالات التابعة له من شام وعراق وكانت هذه الهواجس والظنون تقوى عندهم كلما أكثر أحمد عرابى والبارودى من ارسال كتب التلطف ورسائل التأدب الى الباب العالى عند الشكوى من أفعال الرئيس مصطفى رياض باشا ومراقبى الانجليز والفرنسيس فكثر لذلك توارد كتب السلطان على أحمد عرابى بواسطة بسيم أفندى من قرناء السلطان وجاءته الرسائل تترى بما لم تصل الينا معرفته الى الآن وظن رجال السلطنة أن بضاعتهم ردت اليهم * وكما كانت آمال رجال السلطنة العثمانية وبابهم العالى معلقة بالمحال وهم فى تغرير وضلال قد كان سعاة الانجليز لاينكفون عن التقرب من أحمد عرابى وأصحابه

مطلب دخول احدى سفن الحرب العثمانية الى مدينة الاسكندرية وما كان من وراء ذلك

وكبار

وكبار سياستهم يعملون ليس على سلخ مصر عن تابعية الخلافة العثمانية فقط بل وعلى ازالة ملك آل عثمان من قارتى آسيا وأوروبا وتأسيس دولة عربية ليتم لهم ما يرغبون وهذه هى سياسة غلادستون شيخ الاحرار من الاحزاب الانجليزية منذ حداثته فكانوا كلما تقربوا من أحمد عرابى مال عطفا اليهم وعمل بقولهم وأخذ بمشورتهم وراسل مشايخ العرب باليمن والحجاز والعراق وتقرب من السنوسى وتحبب الى شريف مكة ودعاهم الى نصرته وجماعة الانجليز يظنون ان قد تم الامر لشيخ سياستهم غلادستون على يدى أحمد عرابى * وكان الخديوى اسمعيل باشا يرى أيضا أن فى ظهور أحمد عرابى واتساع كلمته واستفحال الخلل بديار مصر وتهديد مقام ولده توفيق باشا فرصة ربما كان من ورائها خلع ولده وعودته هو الى كرسى الخديوية فجعل يراسل أحمد عرابى ويمنيه بالامانى الكثيرة ثم عمد الى الاستعانة ببعض كبار الانجليز فهاداهم بالهدايا العظيمة والتحف الجليلة قيل فكان أحمد عرابى يظهر له الطاعة ويتلطف معه فى الجواب ويهوّن عليه الامر حتى ظن اسمعيل باشا المحال وبلوغه غاية الآمال * وكما كان اسمعيل باشا يمنى النفس بقرب عودته الى منصب الخديوية على يدى أحمد عرابى بك وأشياعه كان الامير عبد الحليم ابن محمد على باشا يتقرب أيضا من أحمد عرابى ويهديه بالهدايا النفيسة والتحف الجليلة على يدى أحد خدام بيت أبيه ويستفزه الى نصرته برد تاج الوراثة اليه * قال بعض الكتاب وأغراه بالرشا والبرطيل واشتد أمله وكبر رجاؤه بتحزب بعض رجال المابين الهمايونى اليه فكان أحمد عرابى يسايره ويتلطف فى الرد عليه ويمنيه بالامانى الكثيرة حتى اختلط الامر على أحمد عرابى وطاش منه الرجاء وحار وقد كان فى خلده أن لا يعمل الا لنفسه ولا يجاهد الا فى اعلاء كلمته وارتقائه منصب الخديوية بماله من المكانة عند أهل البلاد والمحبة فى قلوب العساكر والاجناد والهيبة عند كبار الناس وعظمائهم كما فعل محمد على باشا الكبير * قال جماعة وقد كانت هذه الآمال أيضا لا تفارق كلا من محمود باشا البارودى ومحمد سلطان باشا رئيس نواب البلاد كما سيتلى عليك خبر ذلك فى موضعه فكان مثلهم فى ذلك كمثل صبى فى يده مرآة يوجهها نحو أشعة الشمس فينطبع ضوءها على الارض ومعه فتية يتزاحمون ويترامون على ذلك الضوء فكل منهم يظن أنه أصاب منه شيأ وهم لا يقدرون لحركة ذلك الضوء بتحريك الصبى للمرآة

مطلب عودة النواب الى تنفيذ لائحتهم وما كان من وراء ذلك

وعاد نواب البلاد الى طلب تنفيذ لائحتهم كما صوروها وأصروا على ذلك وسار جماعة منهم الى مقر ديوان الداخلية ورفعوا الى الوزير محمد شريف باشا تلك اللائحة وقالوا ان تأخير تنفيذها جالب للفشل فانا عقدنا النية على أن لا نترك هذا اليوم يمضى بغير قبولها أو رفضها فجعل الوزير يلاطفهم ويهوّن عليهم ثم قال لهم تعلمون أنى منذ أخذتم فى تنظيم لائحتكم هذه لم أتعرض لشئ من امتيازاتكم سوى ما تطلبونه من رؤية ميزانية الخزينة وابداء رأيكم فيها على أنى ما زلت لا أتحول عن هذا الرأى فلذلك لم أصادق على ما رأيتموه فى أمر الميزانية الا بعد رضا الدول ذوات الشأن فقالوا ان هذا من خصائصنا ولا دخل للدول

فيه بل لاموجب لتوقفهم فانها مسئلة لاتمس مالهم من الحقوق ولا تضر لهم مصلحة . فقال الوزير لاسبيل الى ذلك البتة فقال جماعة منهم إنا نأسف جدا أن يصادق لنا على اللائحة غيرك يعنون بذلك اكراهه على التخلى عن منصبه * ثم انصرفوا وساروا الى مقر الخديوى بعابدين وتمثلوا بين يديه وتقدم جماعة منهم وقالوا انا جازمون بمحبة مولانا للوطن وميله الى اصلاحه ولهذه الغاية قد منح مولانا الامة المصرية حقوق الشورى وفتح مجلسها فنظمنا له هذه اللائحة ونقحناها وطلبنا الى الوزير محمد شريف باشا أن يوقع عليها فلم يقبل حالة كوننا لم نتعرض لشئ مما فى العقود الدولية فقال الخديوى اذا كانت هيئة الوزارة قد أبت التصديق على اللائحة فماذا تطلبون حينئذ قالوا نطلب أن تعزل فتشكل وزارة أخرى لاتأبى التصديق والعمل معنا فوعدهم باعطاء الجواب فى غد فانصرفوا ولبث الوزير بعد خروج نواب البلاد يفكر فى الامر ويضرب أخماسا فى أسداس ثم قام ودخل على الخديوى وجعل يتناجى معه فيما لم تصل الينا معرفته وحضر قونصلا الانجليز والفرنسيس الى مقر الخديوى ودار بينهم الحديث فاشتد الجدال وطال القيل والقال فوقف الوزير وقال قد خلعت نفسى واعتزلت منصب الرياسة فانظروا من يتولاها فأجابه الخديوى الى ذلك بحضرة القونصلين وانصرفوا جميعا وفى نحو الساعة الثالثة من ليلة الخميس خامس عشر ربيع الاول من السنة استقدم الخديوى الخمسة عشر عضوا المندوبين من قبل شورى البلاد لتنقيح لائحة مجلسهم فتمثلوا بين يديه فقال قد تخلى الوزير محمد شريف باشا عن الرياسة فاختاروا من يتولاها فقالوا لا*وحاشا أن نتعدى على حقوق مولانا فيطلب مولانا من يختاره*فقال لابد من ذلك فامتنعوا وبقى الحال على ذلك الى الساعة الرابعة ثم انصرفوا وأصبحوا وقد استقدمهم الخديوى وسألهم أن يختاروا من يصلح للرياسة فقالوا نختار اليوم محمود باشا البارودى رئيس ديوان الجند بشرط تصديقه على لائحة مجلسنا ثم خرجوا وساروا الى بيت البارودى وانتظم مجلسهم ومعهم جماعة من كبار عصابة الجند فتناجوا بينهم فيمن يختارونهم لبقية المناصب فاختاروا جماعة ممن لايخالفون لهم كلمة وكأنهم أرسلوا الى الخديو يعلمونه بذلك فلما كان بعد ظهر اليوم بعث الخديوى مع أحد رجال ديوانه الخاص الى محمود باشا البارودى مرسوما يقول فيه ۞حيث دعت الاحوال لانفصال محمد شريف باشا بناء على استعفائه واقتضى الحال لانتخاب بديل عنه يكون متأهلا ولائقا لمقام الرياسة ومن المسلم عندى أنك أهل لذلك لما اتصفت به من كمال الدراية وحلية الصدق والاستقامة فقد انتخبتك لهذا المقام الخطير وقلدتك رياسة النظار فيجب المبادرة بانتخاب هيئة النظار اللازم وجودها معك وحيث ان غاية قصدى ونهاية أملى انما هو السعى وصرف الجهد لما فيه عمارة وسعادة الوطن واصلاح أحواله فأملى فيك القيام بهذه المساعى الحسنة وفقنا الله جميعا لما به الاصلاح والنجاح انتهى

مطلب استعفاء الوزير شريف باشا وتولية محمود باشا البارودى بدله

فلما وصل الكتاب الى البارودى فرح به وفرح من معه من زعماء العصابة ورفع فى

الحال الى الخديوى عريضة ذكر فيها أسماء الوزراء الذين انتخبهم للهيئة الجديدة فكان مصطفى باشا فهمى للخارجية والحقانية وأحمد عرابى بيك للجهادية والبحرية واسمعيل باشا أيوب للمالية ومحمود فهمى بيك للاشغال وعبد الله فكرى باشا للمعارف وحسن شريعى باشا للاوقاف فاستقدم الخديوى فى الحال قونصلى الانجليز والفرنسيس وكلمهما فى هذا الامر طويلا ثم صدّق على هذا الانتخاب وأضاف الى عهدة البارودى نظارة الداخلية أيضا وجاء الوزراء وتمثلوا بحضرة الخديوى بسراى عابدين فحادثهم طويلا فيما لم تصل الينا معرفته فلم ينصرفوا من عنده حتى خلع اسمعيل أيوب باشا نفسه من منصب وزارة المالية بناء على أن خلع الوزير محمد شريف باشا لنفسه من منصب الرياسة لم يكن الا بسبب بند الميزانية فأجابه الخديوى الى ذلك وقام بقية النظار وساروا الى بيت البارودى فعقدوا مجلسهم واختاروا لوزارة المالية بعد جدال طويل على صادق باشا وباتوا ليلتهم تلك وأصبحوا وقد اجتمع سائر ضباط الجند فى ساحة قصر النيل فوفد عليهم أحمد عرابى بيك وخطب فيهم خطابا طويلا فى وجوب الاتحاد ووحدة الكلمة ثم ساروا بعد ذلك جميعا الى رحبة عابدين وتمثل جماعة من كبارهم أمام الخديوى يتقدمهم طلبة عصمت بيك أمير جند قصر النيل فألقى طلبة خطابا بين فيه تعلق جميع أفراد العسكر بشخص الخديوى ثم ساروا الى ديوان الداخلية حيث البارودى والى مقر والدة الخديوى وحرمه وهم فى أبهة وكبكبة زائدة * وقد كان نواب البلاد عند اشتداد الخلاف بينهم وبين الوزير محمد شريف باشا على بند الميزانية ومسؤلية الوزراء أمامهم على طرفى نقيض فكان جماعة منهم يرون أن الظروف التى قضت بتشكيل مجلس النواب وخولته النظر فى جميع مصالح البلاد هى نفس الظروف التى تقضى على النواب بلزوم التساهل وعدم فصم عرى الوفاق بينهم وبين هيئة الحكومة والاطاش المجلس عن الغرض وضل عن الغاية وكان الآخرون يرون أن فى اكراه الحكومة على تخويل مجلس النواب حق النظر فى الميزانية وتعديلها بحسب ماتقتضيه مصلحة البلاد فائدتين عظيمتين أولاهما تخفيف أثقال المصروفات بالتزام طرق الاقتصاد وقفل أبواب السرف والتبذير فى أى نوع كان فيسهل على البلاد التخلص من كثير من شدائد الديون وذل الاستدانة التى كانت السبب فى استرقاق أهلها وتثقيلهم بأحمال الضرائب والمكوس والمغارم وثانيتهما تعديل موارد الايراد وترتيبها على نمط عادل جامع بين النظام والمساواة بين صنوف الرعية وكل مستوطن فى البلاد فيستتب بذلك الامن ويرتفع الظلم والاعتساف وتتزايد العمارة فتعظم ثقة الاجانب بأهل البلاد ويجل قدر الحكومة فى أعينهم وتقوى شوكتها فلا يطمع بها نسر ولا يغتالها أسد (اشارة الى دولتى الفرنسيس والانجليز) وكان هذا الرأى لفريق من زعماء العصابة أيضا فاستمالوا اليه كثيرين من وجهاء البلاد وأعيانها وتمسك كل فريق بمدعياته فاشتد الخلاف يومئذ واستفحل فادرك زعماء العصابة ماوراء ذلك وتجردوا لمقاومة أصحاب الرأى الاول وحذروهم وهددوهم فكان اذا تخلف أحدهم

فى بيته ليلة لايشعر الاوقد دخل عليه نفر من الجند فيوسعونه شتما وسبا ويتوعدونه بالتبعيد الى أقاصى الدار فور وربما توعدوه بالقتل ان هو لم يعدل عن رأيه وما زالوا معهم على هذه الحال حتى اشتد بهم الخوف وأخذ من قلوبهم مأخذه فانضموا الى بقية النواب وصاروا أشد طاعة وأكثر تزلفا الى أصحاب الزعامة فقويت عزيمة أولئك الزعماء فخلع كبارهم رداء المواربة وأظهروا ما كانوا يخفونه عن الناس من طلب المعالى باستلام زمام حكم البلاد والتصرف فى أمور الرعية فجعلوا يعملون على استحكام النفرة بين نواب البلاد والهيئة الحاكمة وبراعوا أن البلاد فى حاجة الى مثل الوزير محمد شريف باشا اذ أعماهم الغرض وغلب عليهم هوى النفس وما زالوا يوسوسون فى صدور النواب ويزينون لهم كل عاطل حتى تجرد النواب يومئذ الى المقاومة واختاروا من بينهم أولئك الخمسة عشر كما تقدم القول ففعلوا مافعلوه حتى نفر منهم الوزير محمد شريف باشا وفضل خلع نفسه من منصب الرياسة عن نقض العهود ومس الذمم فأنزل نفسه كما تقدم وكان ماكان من تقليد البارودى منصب الرياسة فلم يكن ليخفى على الناس يومئذ أن فى طلب نواب البلاد تقليد البارودى هذا المنصب غاية الجبن والتدليس فقد دلت على ذلك الدلائل وقامت على صدقه البراهين ولولم يكن فى الامر سوى اتحاد أصحاب الزعامة على تقسيم المناصب العالية بينهم قبل أن تصل اليهم لكفى

ولما استقر بالبارودى منصب الرياسة فرح قومه وعم السرور أعوانه والمتقربين من بابه فمنهم من أولم ومنهم من أدب ومنهم من تصدق ودفع النذور وحذا حذوهم نواب البلاد فأكثروا من الولائم والمآدب وكان ممن توسع من النواب فى مأدبته أحمد محمود صاحب نيابة الجيزة حيث دعا اليها البارودى وأحمد عرابى وسائر الوزراء وجميع نواب البلاد وكبار الجند ولفيف العلماء وبعض الوجهاء وكثيرا من موظفى الحكومة ووكلاء الدواوين وبعد الفراغ من الطعام ارتقى صاحب البيت منبر الخطابة فتكلم طويلا وذكر فى كلامه ماعاناه نواب البلاد من العنت والشدة منذ بداية المجلس الى تلك الليلة وعرض بذكر وساطة بطرس بيك غالى بينهم وبين الوزير محمد شريف باشا كما تقدم بيانه فى حينه وكان معهم فى تلك الليلة فقال الخطيب ولا اخالكم تجهلون أيها السادة أننا لما قمنا بحقوق النيابة وتجردنا للدفاع عن الوطن وطالبنا رجال الحكومة يومئذ بمراعاة الذمم انتدبوا للوساطة بيننا وبينهم وسيطا من اخوانهم الذين يدعون الوطنية ويتظاهرون بمحبة الوطن فقام بالامر وأدى عافاه الله واجب الوساطة فكان تارة يتوعدنا وأخرى يهددنا وطورا يعزرنا وآخر يباكتنا وآونة يستميلنا بزخرف القول وآنة يعدنا برتب الشرف ونياشين الاعتبار وما درى أنا على غير ما كان يتوهم وأنا جميعا على قلب رجل واحد فى خدمة الوطن وبنيه

مطلب ماكان من وراء تقليد البارودى منصب الرياسة

ولما كان تاسع عشر ربيع الاول اجتمع الوزراء بعد الظهر بسراى عابدين وعقدوا مجلسهم بحضرة الخديوى وتكلموا فى قانون مجلس نواب البلاد فتقرر العمل به بدون تغيير حتى فى بند الميزانية ثم تلى بينهم أيضا الجواب على اللائحة التى كان رفعها قونصلا الانجليز والفرنسيس

الى

الى الوزير محمد شريف باشا فوافقوا عليه وتقرر ارساله الى القونصلين على يد مصطفى فهمى باشا وفى ثانى عشرى ربيع المذكور سار البارودى الى مقر نواب البلاد وسلم الى رئيسهم قانون المجلس مصدقا عليه فقام النوّاب من ساعتهم ودخلوا على الخديوى وقدموا له مراسم الشكر والطاعة ثم انصرفوا * وقد قرأت فى ذلك اليوم فى احدى صحف الاخبار الانجليزية صورة مكاتبة بعث بها أحد كبار الانجليز بعاصمتهم على جناح البرق الى أحمد عرابى بيك يقول فيها * تقدّموا أيها المصريون فلا خوف عليكم من جانب الامة الانجليزية فانها لاتروم الاتأييد مذهبكم القائل بحب الرأفة بفلاح بلادكم ۞ أى نعم فلتسقط أقوال الباخسين للاعمال المالية باختلاق الاكاذيب ولتعش الامة المصرية لتحيا الامة المصرية * وشاع خبر هذا الانجليزى ففرح به ضباط الجند وسروا سرورا عظيما ونقشوا ترجمته على أوراق وجعلوا يرسلونها الى الاحزاب والمتقربين وهؤلاء كانوا يتلونها على الناس محشوّة بالخلط والتحريف وسقط القول فكان منهم من يقول * اى والله قد جاء اليوم الى أحمد عرابى بيك أعزه الله فرمان من ملكة الانجليز منقوشا بخط يدها تقول فيه انها فرحة القلب قريرة العين بما علمت به من أعمال الحزب الوطنى وثبات زعماء عصابة الجند ووقوف نواب البلاد موقف الجلاد وانها لم تكن لتعلم الى هذا الحين قدر عزة نفوس المصريين ولذلك فهى ساخطة على من كان السبب فى ابعاد أخبار هذه الحقائق عنها وهى تطلب من الله تعالى أن يطيل بقاء أحمد عرابى بيك ويجعل أيامه كلها خيرا وبركة على البلاد وأهلها * فيقول الثانى بل هو خطاب سياسى متوّج بتاج الملكة * فيقول الثالث ليس هو كما تقولان فقد نظرته منقوشا بماء الذهب وأحسن الالوان التى لم ترعينى لها مثيلا * فيقول الرابع انكم جميعا لفى ضلال فقد حدثنى من رآه بعينى رأسه وسمع ما فيه باذنيه أنه على شكل كراسة مغشاة من الخارج بالديباج الاحمر وفيها أساطير كلها تحية وتعظيم * فاذا قيل لهم قد نقلت أصحاب صحف الاخبار هذا النبأ وليس هو فى شئ مما تذكرون قالوا هى عادة أصحاب الصحف يقولون غير ما يسمعون وظل الحال هكذا أياما ۞ وبينما كانت الافراح والولائم لنواب البلاد والبارودى قائمة على ساق تحرك المراقبان الانجليزى والفرنساوى ورفعا الى الخديوى محررا سياسيا احتجا فيه على الحكومة حيث أباحت لنواب البلاد حق النظر فى ميزانية الخزينة وخولتهم المراقبة على جميع ما يتعلق بانواع الايراد والمنصرف فكان مما قالاه فيه ما تعريبه * ولما انتشرت الاوامر الخديوية بتنظيم سلطة المراقبين وخصائصهما كانت القوة المادية منحصرة فى شخص الخديوى بالاصالة عن نفسه وفى وزرائه بطريق الوكالة والنيابة وعما أن حق المراقبين العموميين هو قاصر على ابداء النصيحة واعطاء المشورة فكان المتعين اذا التمسك بنصيحتهما واعتبارهما بما يحق لهما من الاعتبار والمراعاة فلذلك تحققت الآمال وأصبحت خزينة البلاد فى غاية الضبط والسداد بعد أن كانت فى غاية الخلل والارتباك ولكن لم تلبث على هذه الحال طويلا حتى تزحزحت تلك القوة المادية من موضعها وانتقلت الى

مطلب احتجاج المراقبين على ما أباحته الحكومة لنواب البلاد

مجلس نواب البلاد وفريق من كبار الجند واستأسر هذا الفريق جميع النواب فهم لايعملون عملا الا بمشورته فهذا التغيير العظيم الذى طرأ على نظام البلاد أحدث تأثيرا مهما حيث كان دبيبه تدريجيا مبتدئا من شهر فبراير سنة احدى وثمانين وثمانمائة وألف ميلادية الذى هو تاريخ قيام الثورة وخروج الجند وزعزعة سلطة الخديوى ووزرائه ومن هذا التاريخ أخذت هذه السلطة فى القهقرى والانحطاط يوما عن يوم الى هذا الحد وكان من نواب البلاد الذين كانوا على عهد اسمعيل باشا مقيدين بقيود الرق والعبودية وأوقعوا البلاد تحت أحمال الديون الثقيلة أن قاموا فى هذا الحين يطالبون بحقوق غير ملائمة لحالة البلاد ولهيئتها الاجتماعية وتمادى بهم الحال الى اكراه الخديوى على خلع الوزارة التى كان معتمده عليها وألزموه بواسطة جماعة من كبار ضباط الجند بتسليم رئيس ديوان الجهادية زمام رياسة الوزراء حتى انحطت بذلك سلطته وصارت هملا مهملا وكأن لم يبق لشخص الخديوى وجود وحيث قد بلغت هذه الاحوال حدها فصار لايهمنا كثيرا معرفة ماذا كان المراد التعرض أيضا لسلطة المراقبين واختصاصهما أولا لاسيما وانها قد أصبحت اليوم منحلة العرى بأسباب عدم امكانهما الاشتغال مع الخديوى ولا مع وزرائه الذين أقيموا فى هذا المنصب جزافا لاولا مع نواب البلاد والجند العاملين معهم فان الخديوى وهؤلاء الوزراء ليسوا مسؤلين أمام الرأى العام والدول الاجنبية عن الطرق والاسباب التى عارض فيها المراقبان ودوناها فى مراسيم سينشرانها عاجلا الى أن قالا * ولقد كان المصدر الوحيد لتأييد قوانا الادبية هو شخص الخديوى والوزراء أما الآن فلابد وأن تصير هذه القوة وهمية مع الوزراء الذين انتقاهم نواب البلاد وفريق رؤس الجند فان الوزراء الذين هم على هذه الصورة لايكون اذعانهم الا لرؤس الجند ونواب البلاد اذ لولاهم ماكانوا ولقد تم هذا الامر حيث عقدت الوزارة الحالية النية على تخويل مجلس النواب حقا فى نظر الميزانية ولم تكترث بمعارضة المراقبين معارضة رسمية فى هذا الامر ولاننسى أن السبب الذى أوجب سقوط وزارة الوزير شريف باشا هو مراعاتها عدم معارضة حكومتى الانجليز والفرنسيس فيما طلبه مجلس النواب من أن يخول له حق النظر فى الميزانية فصار اذا قبول الوزارة الحالية لهذه الامور واخراجها الى حيز الفعل هو بمنزلة قبول مايمكن ارتكابه من انتهاك حرمة نفوذ دولتى الفرنسيس والانجليز ونجم عن ذلك ازالة نفوذ المراقبين اللذين لاسلطة لهما الا بسلطة حكومتيهما هذا ولايليق التعامى عن الاسباب التى لابد وأن تدك أس الاصلاحات وتذهبها أدراج الرياح بعد توطيد أركانها فى داخلية البلاد منذ السنتين فان التعامى مجلبة التغرير وقصارى الامر أنه ليس ببعيد وقوع الخلل فى الاحوال المالية التى قامت بترتيبها واصلاحها لجنة التحقيق ولجنة التصفية اه

مطلب وكان الوزراء اذا عقدوا مجلسهم لايحضره المراقبان

فلما وقف الخديوى على ما فى هذا الخطاب تململ وسيربه الى البارودى فلم يكترث به ولا أعاره جانب الالتفات ثم عاد فاجتمع بالمراقبين وأعلمهما بأن ليس فى نية الوزراء قط التعرض لسلطة المراقبة على أى حال كان ومع ذلك فقد كان الوزراء اذا عقدوا مجلسهم للنظر فى

امور

أمور البلاد لم يدعوا المراقبين للحضور فيه كعادتهم فاذا سأل المراقبان عن السبب قيل لهما ان الوزراء انما هم ينظرون فى الاحوال الادارية والامور الداخلية التى لاعلاقة لهما بالاشغال المالية فاصبح المراقبان بعد هذا هملا مهملا بل سقطا مرذلا وشاع الخبر بذلك وتناقله أصحاب الصحف المحلية والاجنبية فكثر تساآل كبار حكومتى الفرنسيس والانجليز واشتدبينهم الاخذ والرد وقام خطباؤهم وقوالهم يقلبون لنواب البلاد ظهر المجن وكثر اللغط بعدذلك وعمت الاشاعة بقرب وصول بعض مراكب الحرب الانجليزية والفرنساوية الى مينا الاسكندرية فبالغ العامة فى التحدث بهذا الخبر وأحجم أصحاب صحف الاخبار عن تكذيبه لخاف عقلاء الناس وتطيروا منه فلما كان اليوم الاول من ربيع الثانى وصلت الاخبار الى القاهرة بقدوم سفن حربية افرنسية وانجليزية الى مدينة بورسعيد فزاد تخوف الناس واختلفوا فى أسباب حضور تلك السفن وكثر تحدثهم فى أمرها فبالغوا فى وصفها واختلفوا فى عددها فمن قائل انها عشرون ومن قائل بل أربعون فكتب البارودى فى ذلك الى قونصل جنرال الفرنسيس فأجابه بأن ليس فى الامر مايدعو الى الاضطراب وانما هى سفينة واحدة قاصدة كوكشين الصين وهى معدة لنقل الجنود الذين قضوا مدة الخدمة العسكرية فى تلك الاقطار ونقل المرضى وشاع الخبر بذلك فلم تكن لتنكف الناس عن التحدث فى أمر حضور تلك السفينة حتى كثر اللغط أيضا بحركة الملك يوحنا نجاشى الحبشة ونزوله على حدود مصر الشرقية وتضييقه على أهلها واحراقه الكثير من قراها ومزارعها وغير ذلك واشتد اللغط وكثر الارجاف أياما حتى وردت الانباء الصحيحة بانه لعصيان أهالى قرية من قرى أرض البورى التى تبعد عن مصوع مسافة يومين عن دفع الضرائب لاصحاب الجباية (وكانت عادة ملوك الحبشة أنه لايجبوا الضرائب الا بواسطة الجند والعسكر) قامت عليهم الجنود فأحرقت منازلهم وغنمت زهاء أربعة آلاف من البقر وعشرة آلاف من الضأن وثلاثة آلاف من الحمير وقتلوا نحو مائة وسبعين رجلا وأسروا أحد عشر فأذاع هذا الخبر أصحاب صحف الاخبار وتوسعوا فى الكلام على عادات الحبشان وشوكة ملوكهم وشدة بأسهم وجبروتهم على الرعية عسى أن تنقطع أسباب تلك القلاقل وتبطل الاراجيف.

مطلب وصول بعض سفن الحرب الانجليزية ولا فرنسية الى بورسعيد

وأشار البارودى بابطال تسيير الجند الذين كانوا على أهبة السفر الى السودان لردع صاحب المهدوية فأوقفوا وصرفوا وأشاعوا أن القوة التى هى فى بلاد السودان كافية لحصر المتمهدى فى جبل هنالك ودفع أذاه عن البلاد وأهلها وطيروا الخبر بذلك الى الآفاق فصدق الناس الاشاعة أو كادوا فلم تكن الا أيام حتى وردت الانباء الصحيحة باستفحال أمر المهدى وتزايد جيوشه وخضوع الكثير من المدن والقرى اليه وقيام الحركة بين أهالى الدرفور وكردفان وغيرهما قالوا وبلغت لومه الى هذا الحين مبلغا عظيما فكان اذا نزل على بلد ولم تقم أهلها بأمره شن عليها الغارة ونهبها وحرق بيوتها وأعمل السيف فى أهلها حتى يأتى

مطلب العدول عن تسيير العسكر لقتال مدعى المهدوية وما كان من وراء ذلك

على آخرهم فهابه لذلك الناس وخشوا سطوته وقاموا لنصرته فتقدم ولم ير أمامه ممانعا وبث الدعاة فى الاطراف حتى فى مراكز الحكومة وحول مقر الحكام فأجاب الناس دعوتهم صاغرين وكبر الخوف بالسواد الاعظم من أهل كوردفان وسنار والخرطوم فانجلوا عنها فرارا من بطشه فتعطلت أسباب الرزق ووقفت حركة التجارة وزال الامن من تلك الاصقاع وانحدر أصحاب التجارة ببضائعهم الى مدينة أسيوط ومنع تجار القاهرة من ارسال شئ من البضائع على ظهور السفن الى مدينة أسيوط كعادتهم ووصل الى القاهرة ومصر بعض النازحين عن السودان وظهرت الحركة فلم تبق للريب محلا*واتفق أن حضر فى هذا الحين الى القاهرة جماعة من قبائل العربان ومشايخهم وساروا مابين راكب وراجل وهم متقلدون السيوف يريدون مقر البارودى فلما رآهم العامة على هذه الحال ظنوا أنهم رسل مدعى المهدوية وهم فى ضجة وجلبة حتى دخلوا الى ديوان الداخلية وصعد جماعة منهم الى مقر البارودى فقابلهم وسألهم عن سبب حضورهم فقالوا نريد أن لاتضيع علينا حقوقنا التى ورثناها عن آبائنا وهم نالوها بمقتضى فرمانات محمد على باشا الكبير مقابلة خفارتنا للحدود ومنع العدو من الوصول اليها فقال وماذا تبتغون الآن وهذه قضية رآها من كانوا فى خطتى من قبل وفعلوا فيها ما فعلوه قياما بالمصلحة العامة فقالوا لانرضى أن يؤخذ منا رجال للجند النظامى ولا أن تخرج قومنا للسخرة أو العونة وهذه حقوق ورثناها فلا سبيل الى التخلى عنها مادامت البادية بادية ونحن حارسوها فهوّن عليهم البارودى الامر ولاطفهم فانصرفوا ولكن لم تنصرف عن الناس تلك الهواجس والاوهام وحضر فى هذه الاثناء أيضا عبد العال بيك أبو حشيش أمير الجند السودانى من مدينة دمياط الى القاهرة ولازم أحمد عرابى بيك أياما فاشتد الخوف بالناس وكثر تطيرهم وقالوا ان حضوره فى ذلك الحين عقب حضور أولئك العربان انما هو مترتب على أن تكون مراكب العدو قد ألقت مرساها أمام حصون وقلاع دمياط فلم يبق الا الرمى بالقنابل وكان حضور عبد العال بيك فى ذلك الحين باستدعاء من أحمد عرابى ليتشاوروا فيما يلزم عمله للحصول على ما يطلبونه من ألقاب الشرف ونياشين الاعتبار فقد كانت القاعدة من القدم أن لايتولى رياسة ديوان الجند الامن حاز رتبة الفريق ليتمكن من سياسة الأمور وحفظ نظام سائر الضباط وكبار الجند وقد تولاها أحمد عرابى بيك وهو لهذا الحين لم يتخط رتبة إمارة فريق من الجند فلما كان لابد من ارتقائه منصة هذه الرتبة العالية وكان عبد العال بيك وبقية أصحاب الزعامة على ماهم عليه من الرتب الصغيرة خاف أحمد عرابى من أنه اذا نال تلك الرتبة السامية قبل أن ينالها أصحاب الزعامة حسدوه ثم أبغضوه وعملوا على نكايته واذلاله فسير فى طلب عبد العال فقدم الى القاهرة ولبث بها أياما حتى تم لهم ما أرادوه من ترتيب أماكن اقامة سائر الجنود والعساكر وإبعاد من شاؤا إبعادهم من صغار الضباط وادخال من كانوا يتوسمون فيه سمة الخلود الى طاعتهم والقيام

باشارتهم

مطلب
امتناع الخديو من اعطاء بعض كبار العسكر شيأ من رتب الشرف ونياشين الاعتبار وما كان من وراء ذلك

باشارتهم * ثم رفعوا الى الخديو ورقة باسماء كثير من صغار الضباط الذين اصطفوهم وتقدم اليه أحمد عرابى فى طلب اعطائهم بعض الرتب والنياشين فلم يعجب الخديو ذلك اذ رأى منهم من لا أهلية له ولا استحقاق فراجعه أحمد عرابى بيك وهون عليه الامر فامتنع وجعل يطاول أياما * وكانت عادة أصحاب الزعامة أنهم اذا رأوا من الخديو مطاولة فى أمر يبتغونه أشاعوا أنه انما يفعل ذلك ابتغاء مرضاة خصومهم فيكثرون حينئذ من الاجتماع والتطواف ويبثون الاراجيف ويختلقون الاكاذيب والترهات فان عدل عن عزمه عدلوا هم كذلك عن فعالهم والا تمادوا حتى يتاح لهم الظفر فلما تحققوا إصراره على الامتناع من اجابة طلب أحمد عرابى بيك قام من بينهم عبد العال بيك أبو حشيش أمير الجند السودانى وأشاع أنه قد دس اليه السم فى اللبن * قال وتحرير الخبر أنه بينما كان ذات ليلة عند أحد اخوانه اذ عاد الى بيته فقالت له الجارية التى كانت تعد له الشاى واللبن فى كل يوم صباحا انها تركت المحل لحظة لطيفة ثم عادت فرأت غطاء الوعاء الذى فيه اللبن مكشوفا ولون اللبن متغيرا قال فبحث فى الوعاء فوجد فى راسبه مادة فأبقاها الى الصباح واستحضر طبيبا عارفا فحلل تلك المادة فاذا بها زرنيخ كاف لقتل نفس فأكثر واتهم فى هذا العمل غلاما يبلغ السابعة عشرة وهو يهتم بتربيته فى بيته فقبض عليه وأتى به الى مقر جند الحرس الخديوى برحبة عابدين وضيق عليه قيل فاعترف بأنه الفاعل باغراء محمد بيك ابن اسمعيل بيك ابن أبى بكر راتب باشا ثم عدل واعترف بأن غلاما شركسيا من مماليك الخديو رفيقا له فى المكتب أعطاه ذلك الزرنيخ وأوصاه بوضعه فى وعاء اللبن ففعل رجاء خلاصه من وصاية عبد العال بيك وحيازته على أمواله المودعة عنده ثم بعد ذلك سلم الغلام الى صاحب شرطة المدينة وأودع فى السجن حتى تظهر الحقيقة * ولم ينتشر خبر هذا الحادث العجيب حتى جعل ضباط الجند يفدون على دار عبد العال بيك عشرات عشرات ليهنؤه بالسلامة وهرع اليه كذلك أعيان المدينة والعلماء والوجهاء وبعض موظفى الحكومة واستقدم الخديو صاحب شرطة المدينة وشدد عليه فى استكشاف سر هذا الحادث واستجلاء الحقيقة وقد خافه ورسم بالقبض على ذلك الغلام الشركسى ووضعه بالسجن واستنطاقه أيضا دفعا للشك والظنون وسير الى عبد العال بيك أحد رجال ديوانه الخاص ليبلغه شدة كدره من وقوع هذه الحادثة ويهنئه بالنجاة من شرها وأطال عبد الله صاحب الطائف الكلام فى هذا الحادث وبالغ فى مدح تلك السوداء التى كانت سببا فى نجاة عبد العال كما كانوا يزعمون فهاداها جميع ضباط الجند بالحلى والملابس وكان اسمها تشريفا فجعلوا يصيحون تشريف تشريف وينادون بالويل والثبور على أصحاب هذه المكيدة ويعرضون بذكر الخديو وعداوته لجماعة الضباط وأصحاب الزعامة منهم حتى أجابهم الى ما يطلبون وأعطى كبارهم من الرتب ونياشين الافتخار ما كانوا يسألون فنال أحمد عرابى بيك وعلى بيك الدب أمير جند الحرس وعبد العال بيك حشيش أمير الجند السودانى لقب ميرلواء وهى رتبة

الباشوية وشاع الخبر بذلك وتناقله الناس فهرع الى دار أحمد عرابى العلماء والكبراء والوجهاء وتزاحم على بابه الشعراء وغصت حجرات داره بالكثير من الأجانب ووردت اليه رسائل التهانى من عمد البلاد ومشايخها والتجار بالبريد وسلك التلغراف وهادته الوجهاء بالمأكول والمشروب والملبوس والمفروش فأدب فى ذلك اليوم وزين داره وأتت اليه طوائف أرباب الأشاير وأصحاب العكاكيز والمتعممين بطبولهم وزمورهم وكاساتهم يضربون بها أمام داره واصطف حول الدار سائر ضباط الجند على اختلاف درجاتهم وجعلوا يضجون ضجيج الاستحسان ويهتفون هتاف التبريك وزاره فى غروب ذلك اليوم سائر رجال الحكومة الملكيين والعسكريين والرؤساء الروحانيين ومحررى صحف الاخبار المحلية والاجنبية وبعض قناصل الدول كقنصل دولة ايطاليا وغيره ممن كانوا يكثرون التردد عليه لامور لم نصل الى معرفتها وما زالت داره محطا للمهنئين وكعبة للشعراء والمادحين ثلاثة أيام وهكذا جرى مع على باشا الديب وعبد العال باشا حشيش فقامت عند ذلك قيامة أصحاب الصحف الأجنبية لاسيما منها الانجليزية ونادوا واحرباه ان لم تتدارك دولتا الانجليز والفرنسيس الخلل الذى كاد يهبط بمصر الى حضيض الويل والدمار وجعلوا يحضون كبار سياستهم على الاخذ باطراف العمل ووجوب تغيير منهج السياسة الذى اتخذته الدولتان منذ ظهور ثورة الجند الى هذا الحين فأكثر قونصل الانجليز من الغدو والرواح الى مقر الخديو للمكالمة فى الأمر

مطلب تنزيل المسيو دى بلينار المراقب الفرنسوى لنفسه من منصب المراقبة وما كان بعد ذلك

واتفق فى ثالث عشرى ربيع الثانى أن تقدم المسيو دى بلينار المراقب الفرنسوى الى الخديو فى قبول تخليه عن منصب المراقبة فأجابه الخديو الى ذلك بغير معاودة فانحدر من فوره الى الاسكندرية ومعه عياله يريد عاصمة الفرنسيس فلما شاع خبر انسحابه من منصبه فرح أصحاب الزعامة وبالغوا فى الأسباب وعزوها لأنفسهم وقالوا انما هى معجزة من معجزاتهم وآية من آياتهم وجعل عبد الله صاحب الطائف حينئذ يطنب فى مديح أحمد عرابى باشا ويثنى على همة رجال العصابة أولى العزم ويقول * قد آن والله الوقت الذى لابد فيه من التخلص من نيران هؤلاء البعوث الجائعة الذين لا يهمهم الا اشباع بطونهم واختلف الناس فى أسباب عودة الرجل الى بلاده وتخليه عن منصبه وقد كان سعى الخديو والرئيس مصطفى رياض باشا أيام رئاسته خلف هذه الغاية ذاهبا أدراج الرياح فترامت الظنون الى المرمى البعيد وكثر تحدث الناس فى هذا الامر فمن قائل ان لاستعفائه غاية سياسية قضت حالة البلاد الحاضرة على دولة الفرنسيس باتخاذها فلا يلبث أن يرجع الينا وفى وعائه شئ من السم والدسم ومن قائل بل كان استعفاؤه ارضاء لأصحاب سياسة الانجليز اذ هم يعتبرون أن بقاءه فى منصبه باعث على فصم عرى الاتحاد وقطع رباط الوفاق الذى عقدته الدولتان لان الرجل شهم حازم جرئ حريص على نفوذه قوال فعال لاتأخذه رهبة ولا يخشى مكيدة وكان المراقب الانجليزى على غاية من الجبن وضعف العزيمة وفساد الرأى * قال أصحاب هذا المذهب فلما كان دى بلينار هذا لا يعمل الا لمصلحة بلاده خاصة

ميالا الى التفرد بالعمل وكان لمراقب الانجليزى لايقوى ولن يقوى على مجاراته استفدته دولته حرصا على بقاء عرى الاتحاد وشذر باط الوفاق وعزمت على استبداله بآخر أقل غيرة وأكثر صبرا * ومن قائل بأنه ليس فى الأمر شئ من هذا كله وانما هى فلتة من فلتات السياسة الافرنسية التى ما وراءها الا الخيبة والعدم حيث لا ينفع الندم * وعندى أن لاستعفاء دى بلينار هذا سببا آخر لعله الصحيح أو ما يقرب منه وذلك انه لما سقطت وزارة غامبتا رجل الجمهورية الفرنساوية وخطيبها المفلق وقامت بعدها وزارة فريسينيه وكانت سياسة دى بلينار هذا على شاكلة سياسة غامبتا كلها حزم وكياسة وتدبير ورئاسة وكانت سياسة فريسينيه مشوبة بالضعف وعدم الثبات محفوفة بضوضاء المكاره من الأحزاب لاسيما منهم غلاة الحرية الذين كانوا أطوع الى رغائب الانجليز منهم الى مصلحة وطنهم أدرك دى بلينار ما وراء بقائه فى منصب المراقبة فى هذا الحين من ذهاب الكرامة وسقوط الهيبة لاسيما وقد كان واقعا يومئذ بين منتطح عنزين عداء لفرنسيس الذين بمصر وتقبيحهم لاعماله جزاء مابدا منه لقونصلهم على عهد رئاسة مصطفى رياض باشا كما سبق بيان ذلك فى موضعه وبغض رجال الحكومة اليه فعمد الى خلع نفسه واعتزال المنصب وتقدم الى كبير سياسة الفرنسيس والخديو فى قبول ذلك فقبلاه فرحل راضيا من الغنيمة بالاياب * ولم تكد تهدأ القلوب بعد زوال أراجيف استقالة المراقب الفرنساوى حتى شاع الخبر وذاع بحركة نجاشى الحبشة وزحفه بالجند الكثير على حدود مصر وعقده النية على اضرام نار الحرب حتى يقضى ما فى نفسه فتحدث الناس به وخلطوا وخبطوا كعادتهم حتى خيل لهم أن قد قامت القيامة وانتصب الميزان * وتحرير الخبر أن علاء الدين باشا العامل يومئذ على شرقى السودان أرسل الى ديوان الخديو يقول قد جاءت رسل نجاشى الحبشة وبينهم قسيس من قسوسهم اسمه ملاك برهان قيروت ومعهم عشرة رجال آخرون خمسة منهم من أئمة الدين وترجمان اسمه يعقوب وعشرة من الأتباع الذين يحملون متاع الوفد فدفع الى كبيرهم كتابا من النجاشى يقول فيه * باسم سيدنا يسوع المسيح كلمة الله الخ

مطلب حضور جماعة من الحبشان بهدية من النجاشى الى الخديو

من الملك يوحنا ملك صهيون نجاشى الحبشة وملك ملوكها الى حضرة المحب المكرم علاء الدين باشا

نخبركم اننا بنعمة سيدنا يسوع المسيح نحن وجميع عسكرنا ورجال مملكتنا حائزون كمال الصحة والعافية متمتعون بالراحة الوافية ونود استمرار العلاقات بيننا وبين حكومة مصر ونحب تثبيت أحسن الصلات الودية وأنه مرسل لكم بامحبنا الباشا هدية وهى حصان من جياد الخيل اشارة الى التودد والمحبة والسلام اه * وكان مع ذلك الوفد أيضا هدايا أخرى بعضها الى بطرك القبط بديار مصر وبعضها الى الخديو وهى عبارة عن عشرة كام من الفضة المموهة بالذهب ونيشانين من الذهب الخالص وثمان درقات وكمية من الزاد وزنها الألف وخمسمائة جنيه فرنسوى برسم القدس الشريف وكتاب الى الخديو وكانت

مطلب ظهور الخبر بارفضاض مجلس نواب البلاد وما كان من وراء ذلك

وجهة جميع رجال الوفد البيت المقدس ليلبثوا فيه ما شاء الله * فلما تحقق الخبر بقدوم أوائل الحبشان ومثولهم بين يدى الخديو ثم نزولهم بدار البطريكية القبطية بالقبيلة بطلت الأراجيف وزالت الهواجس واشتغل الناس بما سيكون من وراء ارفضاض مجلس نواب البلاد اذ ظهرت الاشاعة بقرب ارفضاضه ورجوع النواب الى بلادهم وقد تناقلها أصحاب صحف الاخبار فما لبث ان بلغت أصحاب الصحف الأجنبية حتى وردت صحفهم مشحونة بالتقبيح والتعييب والاستهزاء والسخرية بنواب البلاد وأصحاب زعامة الجند وقام بعض الاجانب الذين فى خدمة الحكومة يسخرون أيضا بالنواب ويهزؤن بأعمالهم فكانوا اذا قابل أحدهم رفيقه فى طريقه أو فى مجتمع عام قال له عوض صباح الخير أو مساء الخير مثلا * اننا نودع نواب الأمة الوطنيين ـ الوداع للنواب الوطنيين ـ وغير ذلك من عبارات السخرية والاستهزاء فحرك هذا كله ساكنا فى قلوب ضباط الجند فجعلوا يطوفون بالشوارع والطرقات ويكثرون من التطواف ملازمين مساكن الاجانب فانكمشوا وانكفوا عن الاجتماع فى المنتديات والطرق العمومية وخافوا العاقبة فقام بعض أصحاب صحف الأخبار المحلية يهوّنون الأمر على أهل البلاد ويلاطفون ضباط الجند ويكثرون من الاطراء على النواب فكتب أحدهم فى وداع النواب يقول * وداع يزيد النفوس وجدا * وبعد يفيد القلوب قربا * وانفصال لا يؤثر فى المشارب الا اتصالا * وافتراق لا يوجب فى المبادى الا اتحادا * وداع النواب الأمة المصرية راحلين يوم السبت بما فى قلوب الأحبة من الثناء والدعاء مشكورين مأجورين مرجوّا عودهم بالمهابة والاجلال والتوفيق والاقبال ان شاء الله اهـ فلما كان ثامن جمادى الاولى من السنة أى سنة تسع وتسعين فى نحو الساعة الخامسة العربية صباحا قدم محمود باشا البارودى الى مقر النواب يحمل مرسوم الخديو بارفضاض المجلس فدخل عليهم وسلم ووقف بينهم موقف الخطيب وقال إن المدة القصيرة التى أقمتموها والاعمال الكثيرة التى نشرتموها تدل على شدة ميلكم الى الاصلاح ورغبتكم فى تقدم الوطن العزيز * وحيث ان هذا اليوم هو اليوم المعين لارفضاض المجلس بمقتضى لائحته الأساسية فقد أتيت بالأصالة عن نفسى وبالنيابة عن اخوانى لأشكر مساعيكم المحمودة وأرغب اليكم أن تشغلوا أفكاركم فى مدة الاستراحة بالمنافع العامة والمشروعات التى ستوضع فى العام القابل موضع النظر ليسهل تقريرها بالسرعة اللازمة * قال وهذا هو الامر الكريم الناطق بانفضاض المجلس على مقتضى القانون أقدمه لديكم والله المسؤل فى توفيقنا جميعا لخدمة الوطن العزيز

فأجابه محمد سلطان باشا رئيس النواب يقول * انا نشكر للجناب الخديوى المعظم عنايته باستنابة عطوفتكم فى ختم أعمال المجلس هذا العام ونسأل الله توفيقنا فى العام القابل لتتميم المقاصد الخيرية والمنافع العامة التى منع قصر الوقت فى هذا الاجتماع من اخراجها الى عالم الفعل كما نسأله أن يؤيد الاتحاد ويزيد تألف القلوب لتكون يدا واحدة وقلبا واحدا

على خدمة هذا الوطن العزيز بما يحتاج اليه من الاصلاح آمين * فأمّن النواب جميعا على هذا القول ثم ودّعهم البارودى وانصرف وقاموا هم من ساعتهم وساروا الى مقر الخديو بسراى عابدين لوداعه فقابلهم وخاطبهم قائلا * ان اجتهادكم فى خدمة الوطن واهتمامكم بأداء حقوقه الواجبة قد صادف لدينا موقع القبول والاستحسان كما أثبت لكم الفضل وعلوّ الهمة وصدق العزيمة فى خدمة الأمة ولا ريب عندنا أنكم ستصرفون العناية فى مدة انفضاض المجلس الى البحث عن طرق المنافع العمومية والمذاكرة فيما يوضع لديكم موضع النظر فى العام القابل لتأتوا ان شاء الله على ما فى نيتى من الاصلاح لوطننا العزيز وانى أستودعكم الله ضارعا اليه سبحانه وتعالى أن يوفقنا لما يترتب عليه سعادة بلادنا وأنه كما أحسن الحال يحسن المآل آمين * فرد عليه محمد سلطان باشا رئيسهم يقول * نسأل الله تأييد الجناب المعظم بعنايته ويحفظه برعايته وأن يبقيه للأمة والوطن موئلا أمينا فتحصل فى ظله الأمانى وتكمل المنافع العمومية وتدوم قوة الاتحاد بين أركان البلاد ولا غرو فى ذلك فانه أدام الله مجده قد بسط للنواب يد المساعدة فيما انصرفت هممهم اليه من أوجه الاصلاح ومهد لهم جانب العناية فى البداية والنهاية * ثم بعد ذلك قدم الكاتب الخاص الى الخديو المراسيم الصادرة للنواب باعتماد نيابتهم فسلم الى كل منهم المرسوم الموجه اليه بيده فكان مافيه

قدوة الوجوه المعتمدين والأعيان المنتخبين حضرة فلان زيد إقباله ودام كماله إنّ من الامور التى أثبتتها التجارب من سوالف الأزمان حتى صارت جلية عند ذوى البصائر والأذهان ووصلت الى درجة الاستغناء عن اقامة دليل وبرهان أن السبب الأقوى فى تقدم الأمم والوسيلة العظمى لانتظام الأحوال على الوجه الأتم هو التشاور فى الامور وتبادل الأفكار والمبادلة فى الآراء والأنظار ولا شك أن هذه هى أحسن المسالك والشرع الشريف يأمر بذلك فلذا تحرينا طريق الصواب واخترنا أن يكون لمصر مجلس نواب تبعث الاهالى أعضاءه بالانتخاب ويتبادل فيه آراء الاعضاء المبعوثين فى مذاكرة ما يلزم من الامور والقوانين والآن قد تم الانتخاب بالاهلية وعرض ذلك علينا فقوبل بالقبول والاستحسان لدينا فاصدرنا اليك هذا الرقيم اعلانا بأنك ممن حاز شرف العضوية مدة خمس سنين فى ذلك المجلس الكريم فنرجو الله تعالى أن يجعل هذا المجلس باعثا لحصول مقاصدنا وأوطارنا بتقدم أوطاننا وأقطارنا ووسيلة لانتظام بلادنا وأمصارنا وأن يكون سببا لنوال الفلاح وكمال الاصلاح إنه ولى التوفيق اه فانصرفوا من عنده شاكرين وأولم لهم البارودى وليمة فاخرة فحذا حذوه بعض أعيان القاهرة ثم سافر من سافر منهم وبقى من بقى فكتب صاحب جريدة مصر هذه الابيات مودّعا لهم بها قال

ودّعتهم وبنفسى من مآثرهم * آثار مجد أقامت بعد مارحلوا

أكارم إن همو عن ناظرى انفصلوا * فذكرهم أبدا بالفكر متصل
لهم منازل حب فى القلوب فهم * بها مقيمون إن ساروا وإن نزلوا
فحبذاهم من قوم أماثل فى * أمثالهم بالمعالى يضرب المثل
وحبذا القول ماقالوه عن رشد * وحبذا الفعل فى الاصلاح مافعلوا
ضنوا بأوطانهم وهى التى بذلوا * فى حبها النفس نعم الجود والبخل

مطلب اكتشاف مؤامرة جماعة الضباط الشراكسة على قتل كبار عصابة الجند

وكان الناس يظنون أنه بارفضاض هذا المجلس وانحلال عقد اجتماعه تبطل تلك القلاقل المتتابعة فتطمئن القلوب الواجفة وتسكن الخواطر الراجفة وتنكف أصحاب الزعامة عن اختلاق المشاكل والأراجيف * فبينماهم على هذا الجانب من الظنون اذ قامت قيامة أصحاب الزعامة ورفعوا الى الخديو فى خامس عشرى جمادى الاولى شكوى تتضمن أن عصابة سرية من جماعة الضباط الشراكسة الذين اختيروا لقتال مدعى المهدوية بالسودان قامت للفتك بأحمد عرابى باشا وانهم أعدوا له كمينا فى مفارق بعض الطرق لأخذه غيلة وجعلوا يبالغون ويهولون فكبر الامر على الخديو ورسم بكشف الحقيقة وبث أحمد عرابى باشا العيون حول جماعة الضباط الشراكسة وتتبعهم الجند فقبضوا على خمسة منهم وألقوهم فى سجن قشلاق جند الحرس برحبة عابدين وهيؤا لتحقيق هذا الحادث مجلسا عسكريا مؤلفا من عشرين عضوا بينهم على بيك الروبى وعبد العال باشا أبو حشيش وانقسم هذا المجلس الى قسمين احدهما لعمل النهار والثانى لعمل الليل وقبضوا على كثير من الشراكسة وألقوهم فى حبوس قشلاق عابدين وقبضوا كذلك على يوسف نجاتى بيك وآخرين معه فكانت عدتهم نيفا وأربعين فاشتد الخوف بأصحاب البيوتات من جماعة الترك والشراكسة وأخذوا حذرهم فى الداخل والخارج فلما كان تاسع عشرى الشهر انعقد مجلسهم العسكرى بقصر النيل وجعل يسأل المتهمين قالوا فتحقق أن الذى هيأ هذه العصابة هو راتب باشا سردار العسكر المصرى على عهد اسمعيل باشا فى بيت أحمد افندى راشد أحد الضباط الشراكسة بحارة الرزنامجية القديمة وكان ذلك على علم من محمد افندى طلعت ويوسف نجاتى بيك ومحمد نيازى افندى وأمين شكرى افندى وسالم شوقى افندى وعمر افندى رجى المعاون بديوان الضابطة ومحمد شفيق افندى ومحمد افندى فؤاد الملازم بالخالفات وأحمد فهيم افندى وخليل حسنى افندى ورشوان افندى ونجيب افندى المقيم مع شفيق افندى وأحمد افندى وصفى الملازم بالخالفات قالوا وتحالفت هذه العصابة على السيف والكتاب وجعلوا مقاصدها سرية لا يطلع عليها أحد من صغار الضباط حتى تتقوى عزائمهم وتطمئن قلوبهم ثم اجتمع معهم بعد قليل من الايام محمود افندى طلعت أخو راتب باشا وعقدوا مجلسا وأعلموا الصغار من جماعة الضباط الشراكسة بان أول شئ يعمله رجال العصابة هو أنهم يرفعون الى الخديو عريضة يطلبون فيها رد حقوقهم اليهم ورفع يد الاستعباد عنهم ولم يطلعوا أحدا من أولئك الاصاغر يومئذ على سر المقصد الإعدامى الذى تحالف عليه

كبارهم فانضم اليهم كثير من الاصاغر ومالوا الى تعضيدهم فبلغوا يومئذ زهاء المائة والخمسين فكتبت أسماؤهم فى ورقة وأعطيت الى أحمد أفندى راشد صاحب الدار

واتفق أن قدم من الاسكندرية خليل أفندى حلمى أحد كبار العصابة فاجتمع بجماعة منهم فأبلغهم أنه قد انضم الى عصبتهم على باشا شريف ووعدهم بالمساعدة جهد الاستطاعة اذا ظلوا على هذه الحال من الاتحاد قالوا وكانهم قد أحسوا بما وراء اجتماعهم فى بيت أحمد أفندى راشد فتركوا الاجتماع فيه واستبدلوه ببيت عبد الله أفندى الكردى فانضم اليهم عندئذ حسن أفندى لكردى ورجب أفندى ناشد وتشاوروا فاستقر رأيهم على الاجتماع فى ليلة جمعة ليقيموا كلا من رجب أفندى ناشد وحسن أفندى حلمى وعبد الله أفندى الكردى رؤساء موكلين يدبر كل واحد منهم خمسين رجلا ويأخذ عليهم العهد بأن يكونوا روحا واحدة وجسدا واحدا واذا مات أحدهم قاتل الكل على دمه حتى يموتوا جميعا فاذا اتسع نطاق العصابة ونجحت آمالها اختارت الرؤساء من أصحاب الرتب العالية مثل محمود بيك طاهر ومحمد بيك نجيب ومحمد بيك شوقى وهكذا كلما عظم أمرها واتسعت كلمتها فوضت الرياسة الى الاكبر من جماعة الشراكسة أوالترك واتفقوا جميعا على أن يجتمعوا فى مقام السيدة زينب ليتحالفوا ويجددوا يمين القسامة هنالك ويظهروا ماأسروه من الاسرار عن بعضهم من قتل أحمد عرابى وكل من يناويهم الشر أو يقف فى سبيلهم هذا فلما عرضت الرياسة على عبد الله الكردى أباها وقال انى أحس باقوم بانقباض فى صدرى واضطراب فى قلبى ورجفة فى جسمى من هذا الاجتماع وأخشى أن يكون وخيم العاقبة فاعفونى حتى تتمكن العصابة من انفاذ مقاصدها ويعظم شأنها فاذا تم لها الامر وقامت على قدم الدفاع أتيت لها بخمسمائة من الباشبوزق بمعاونة حسين بيك قراجول فأجابوه الى ذلك وكلفوه بأن يبلغ مبادى عصابتهم الى بعض كبار لشراكسة ليكونوا لهم عونا عند الحاجة فاجتمع بكثير منهم وعاد فأخبر رجال العصابة بأنه لم ير من أولئك الكبار الاغاية الجبن والانكماش ثم انفصل عبد الله الكردى عن رجال العصابة لاسباب فكادت تنفشل وتتفرق كلمتهم لولا أن رجب أفندى ناشد وحسن أفندى حلمى أدركاها بهمة منهما حيث جمعا أفراد العصابة الذين كانوا عقدوا جلستهم تلك فى بيت أحمد أفندى فهيم الكائن بالموطية واتفقوا على أن يأخذوا كل من انتظم فى سلك العصابة الى مقام السيدة زينب ليطلعوه على السر المقصود ويتحالفوا على اخراجه الى حيز الفعل حتى لاتنفصم عقدتهم قبل ادراك مأربهم فلما انكشف السر وعلم به بعض صغار الضباط الشراكسة ذهب أحدهم المدعو على رمزى وأخبر بعض أصحاب أحمد عرابى وأفشى مكنون سرهم فهال أحمد عرابى الامر ورسم فقبضوا على أكثرهم فى الحال وتتبعوهم حتى لم يبق منهم أحد خارج الحبوس * حدثنى صاحب لى قال * ماظهر خبر عصابة الشراكسة وتناقله الناس حتى كثر تطواف الجند بالشوارع والحارات وجعلوا يقبضون على المارة ويكبسون البيوت ويخرجون من فيها من صغار الضباط الشراكسة

حاسرى الرؤس حافى الاقدام فيزجونهم فى الحبوس بقشلاق حرس الخديو برحبة عابدين والناس خلفهم يـتزاحمون وهم فى دهشـة وحـيرة فكنت لاتسمع فى تلك البيوت الاعويل النساء وبكاء البنين والبنات وتأوه الشـيوخ وكان كل من أودع السجن منهم وكانوا به من يذيقه من العـذاب فكان الواحـد منهم يقضى بياض يومه وسواد ليله واقفا على قدميه وأمامه الموكل به فاذا أغمض الجفن لكمه أو وخزه فينتبه وعيناه تذرفان الدمع فاذا خر على الارض أو سقط مغشـيا عليه من شدة التعب دهمه ذلك الموكل بالضرب واللكم المتتابع فيسترحم وليس من يرحم * قال وكانت حبوسهم مجردة عن كل مايحتاج اليه المسجون كجرة للماء مثلا أو صحفة للطعام أوحصـيرة للرقاد أومصباح للضوء وكان ضجيجهم لاينقطع وعبراتهم مترasلة فأثر هـذا الحال فى الكثير من جنـد الحرس أثرا مؤلما فضجروا وكادوايخرجون عن طاعة كبارهم فلم ينتبه رجال المجلس العسـكرى الا وجند الحرس على أهبة التخلى عنهم فتداركوا الامر وعجـلوا بالعقـاب فجاروا وظلموا وأغمضـوا جفن الطمان على وسادة الانتقام فلا حول ولا قوة الا بالله * قال وطار خبر هذا الحادث الى الآفاق فأرسل السلطان فى خامس جمادى الآخرة الى الخديوى يسأل عن ذلك وكتب أحـد الشراكسـة الى احـدى صحف الاخبار الاجنبية يقول قد نزل آباؤنا بديار مصر من عهد ليس بقصير فكانت هى مسقط رؤسنا وأرض نشأتنا وقد تربينا تحت سمائها وتلقينا من عـلومها وفنونها أشكالا فقمنا بواجب شكرها وأخلصنا فى خدمتها أعواما طوالا و بذلنا النفس والنفيس فى تلبية داعى تقـدمها ودافعنا عن مجـدها باقتحام الحروب الروسية وتجشم الخطوب الهائلة الدموية فخدمناها خدمة الابن البار بابويه ومازلنا على هذه الحال حتى وسوس شيطان الحسد فى صدور أهل البغى والفساد فرموا بعضـنا بالفجور والتألب على اغتيال النفوس التى حرم الله قتلها وقبضوا عليهم قبض الوحش على فريسـته وكبلوهم فى قيود الظلم وألقوا بهـم فى حبوس الهوان وأذاقوهـم مضض اللكم والوخز وأليم الأخذ والرد وحرموهم لذة الرقاد .واحرقوا منهم الاكباد بنار الجوع كل ذلك بلا ذنب جنوه ولا خطا ارتكبوه فالله حسبنا ونعم الوكيـل الى أن قال وحيث ضاقت بنا أرض هذه البلاد وقد أصبحنا مضـغة فى أفواه قوم لايخشـون يوم الميعاد فقد عزمنا على الرحيل الى الدنيا واسـعة الفضاء وقد عينا أنفسـنا لخدمة أمير المؤمنين لاغير والسـلام اه فأعجب النـاس بهذه المقالة وحنوا الى جماعة الشراكسـة وعابوا على زعماء عصابة الجند فعالهم * فلما كان حادى عشر جمادى الآخرة حكم المجلس العسكرى على هؤلاء الضباط بالنفى والتبعيد المؤبد الى أقاصى السودان وكانوا مائة وأربعين وبينهم عثمان رفقى باشا مع تجريدهم من كافة رتبهم العسكرية وامتيازاتهم ونياشينهم وأن يكونوا متفرقين فى أنحاء السودان بعيدين عن مراكز المدن والبنادر والسواحل النيلية وحكموا كذلك على اثنين من موظفى الحكومة بالنفى والتغريب مع تجريدهم من كافة حقوقهم المدنية وحكموا على راتب باشا السردار الذى عد زعيم هذه العصابة بالتجريد من رتبه العسكرية وامتيازاته ونيشانه

مطلب
ورود مرسوم السلطان بالاستعلام عن كيفيـة مؤامرة الشراكسة

مطلب
الحكم على جماعة الشراكسة وما كان من وراء ذلك

وحرمانه من العود الى ديار مصر بحيث اذا عاد اليها نفى منها على الصورة المذكورة وقال المجلس العسكرى فى حكمه ان الخديوى اسمعيل هو مسبب هذه الحركة العدوانية والباعث عليها مستعينا فى بثها بالمرتبات التى تصرف اليه فى كل سنة من خزينة البلاد فقرر أن يكون للخديو توفيق ولهيئة الحكومة حق النظر فى قطع هذه المرتبات والغائها ورفعوا هذا الحكم للخديو ليرسم بتنفيذه وكان الذى رفعه هو محمود باشا البارودى وقيل على باشا الروبى والاول أصح فلما وقف الخديوى على ما فيه كبر عليه واستعظمه فراجع البارودى فلم يقبل فكلم فى ذلك أحمد عرابى فأظهر غاية الشدة وبالغ فى الجفاء فجعل الخديوى يطاول ويحاول لعله يتمكن من استرضاء أصحاب الزعامة فلما أعياه الحال تجرد الى تعديل الحكم فنقض فيه وأبرم واستبدل حكم التبعيد الى أقاصى السودان بالتبعيد عن ديار مصر حيث يشاء المبعدون مع حفظ رتبهم ونياشينهم ولم يتعرض الى مرتبات أبيه فلما برز الامر من ديوانه على هذه الصورة كبر ظهوره على البارودى وأحمد عرابى وكادا يتميزان غيظا وراجعا الخديو فأبى الا ما رسم به فألح عليه البارودى فامتنع وشدد فى الامتناع فعظم عند ذلك الخلاف وكبرت الفتنة وتزاحمت أقدام أهل السعاية على أبواب الفريقين وانبثت العيون حول مقر الخديوى قيل وهدد البارودى الخديوى بالخلع فلم يلتفت الخديوى الى ذلك ولم يحتفل به * حدثنى أحد المقربين من البارودى * قال وتاقت نفس البارودى والنفس أمارة بالسوء الى ارتقاء منصة الخديوية المصرية بعد استفحال أمر الخلاف بينه وبين توفيق باشا فجمع اليه جماعة من أهل التاريخ وكاشف بعضهم على ما فى نفسه وسألهم أن يأتوه بسلسلة نسبه فأتاه أحدهم بشجرة كثيرة الفروع ينتهى أصلها الى السلطان الملك الاشرف طومان باى وقيل الى السلطان الملك قانصوه الغورى فاشتد عند ذلك ظهره وكبرت آماله اه * قلت ومع بحثى عن حقيقة هذا الخبر كنت أرى الناس فيه فريقين فريق يؤيده بالادلة القاطعة وفريق ينكره ويقول انه فرية على البارودى لا أنزل الله بها من سلطان وعندى أن قول الفريق الثانى أقرب الى الصدق وأبعد عن الشماتة والحط من مقام البارودى * قالوا وتجرد البارودى الى العداوة فلم يطق الخديوى الصبر على ذلك وقد علم بما فى نفس البارودى فراسل السلطان فى أمره وأعلمه بخبره فورد اليه الجواب باستعمال الحزامة والتأنى والاتيان على سائر الامور من أبوابها فاطمأن عند ذلك الخديوى ورسم الى جماعة الشراكسة بالخروج الى حيث شاؤا فخرجوا جميعا الى دار السلطنة ولم يتخلف منهم أحد

مطلب
واستقدم البارودى نواب البلاد بغير اجازة من الخديوى

وسير البارودى الى نواب البلاد يستحثهم على الحضور الى القاهرة فحضروا جميعا وانعقد مجلسهم بغير اجازة من الخديوى كما هى العادة فقص عليهم البارودى ما وقع من الخديوى وبالغ فى الشكوى واستمسك عليه بأمور منها مؤامرة جماعة الشراكسة على قتل أحمد عرابى وتبعيد الحرمة عائشة المعروفة بالكودية والغلام الحبشى الذى سرق بعض الجواهر من سراى عابدين وقيام ابراهيم أغا التتنجى الى الشام بمأمورية سرية وارسال ثابت باشا

الى دار السلطنة بغير موجب ولاسبب ظاهر وسعى الخديوى خلف اذهاب حقوق البلاد وتقليل امتيازاتها الممنوحة لها بالفرامانات السلطانية وغير ذلك من التهم التى ماأنزل الله بها من سلطان فأطال النواب اجتماعهم وتناجوا فى الامر وجعلوا يقومون ويقعدون والحال على ماهو عليه من الوحشة والنفور بين الفريقين وأصبحت حادثة الجراكسة شغل البارودى الشاغل له عن حوادث السودان وخروج المهدى واتساع كلمته بين قبائل تلك الاصقاع وعجز رؤف باشا عامل السودان عن ايقاف تيار الفتنة مع طلبه المدد وندائه المتواصل ولم تكن تخفى يومئذ حقيقة الحال بتلك الديار عن الكثير من أهل القاهرة فقدوصل جماعة كثيرة من تجار السودان بعيالهم وأموالهم ومتاعهم وأخبروا بجميع حوادث صاحب المهدوية وقصوا على الناس القصص والانباء وحدثوا عن عجز رؤف باشا وأصحابه وقالوا ان نار الفتنة لم تضطرم الا بيد سلاطين بك أحد مديرى ولايات الدار فور بما أعطاه الى العربان من بنادق الحكومة وذخائر الحرب فكثر تحدث الناس فى ذلك وجعلوا يتبعون سير تلك الحوادث ويحسبون ماوراءها والله من وراء كل حساب * حدثنى صاحب لى قال حدثنى من لاشك عندى فى صدق حديثه قال ماتعاقد كبير السياسة الانجليزية مع الخديوى اسمعيل عام ثلاث وتسعين ومائتين وألف هجرية على ابطال تجارة الرق من بلاد مصر والسودان حتى جعل يطالبه بالمطالب الطويلة ثم لم يلبث أن دس اليه الرقباء من قومه فساروا الى أرض السودان وجعلوا يجوبون البلاد من أدناها الى أقصاها و يبحثون فى عادات أهلها وطباعهم وأميالهم والاختلاف الواقع بين عادات بعض القبائل والادواء الناجعة فى استمالة أعصى القبائل وأشدها بأسا ثم عمدوا الى تخطيط الاراضى ومعرفة مافيها من الدروب والمسالك والعقبات والمرابك ووقفوا على حقائق نباتها وأشجارها وتربة أرضها وأنواع حيواناتها وأحصوا قبائلها عددا ولم يتركوا شيأ تدعو اليه الحاجة الاوأحصوه وكان ممن سيره من الانجليز كبير من مقدمى جندهم إسمه غوردون فقدم الى القاهرة ولبث أياما لم يفارق فيها باب الخديوى اسمعيل ثم رحل الى السودان باسم مراقب منع الاتجار فى الرقيق فلم يلبث أن صار حاكم شرقى السودان وخط الاستواء ثم سواحل البحر الاحمر ثم حكمدار جميع أرض السودان وخط الاستواء وأطلق الخديوى له الكلمة وأعطاه رتبة الباشوية وأتحفه بنياشين الشرف فعظمت هيبته وعلت كلمته ونزع الى قلب الكثير من عادات تلك البلاد وأبطل بعض المغارم والمكوس و رفع ما تأخر من الاموال الاميرية عن مشايخ القبائل ولبث فى خرطوم السودان يأمر وينهى ويعطى من يشاء ويحرم من يشاء بلا رادّ ولاممانع فنزح فى أيامه الى أرض السودان كثير من الاجانب وأهل التجارة فراجت تجارتها وكثرت ثروتها ودرت أرزاقها وكان ممن سارت به مطية الأمل الى تلك الاصقاع أيضا رجل اسمه سلاطين قيل انه نمساوى الجنس وقيل ايطالى والاول أصح وقيل ان الخديوى اسمعيل هو الذى سيره الى السودان فى خدمة واليها اسمعيل أيوب باشا فلبث فيها يتقلب فى المناصب الديوانية ويترفع

مطلب كيف أنشب الانجليز أظفارهم فى السودان وكيف خرج المهدى

الى

الى درجات الحكام والمديرين حتى قيض الله له من ولاه ولاية صغيرة من أعمال الدار فور
فنشط عند ذلك من عقال وهب من خمول وأخذت كامنه من هذا الحين فى الظهور فلما
تولى السودان غوردون الانجليز تقرب سلاطين هذا منه وأخلص فى خدمته وأجهد النفس
فى طاعته قال وخلع غوردون نفسه من ولاية أرض السودان بعد بضع سنين ورجع الى
بلاده وهو أعلم من وطئ هذه الارض بعادات أهلها وطباعهم وأميالهم وعدة مافيها من
قبائل العربان وقد بدأت فى أيامه تدب روح الحرية فى صدور كدار أشد القبائل بأسا
وأعظمهم شهرة ولم يمض بعد ذلك غير القليل حتى ظهر رجل من الابيض احدى بلاد
الدارفور اسمه محمد أحمد فادعى المهدوية وتظاهر بمظاهر النساك وتزيا بزي الصالحين واتخذ
له بخلوة ورباطا وجمع اليه جماعة من أهل الجبال سماهم دراويش وأكثر هو واياهم
من مظاهر التقشف والتعبد والزهد والورع فشاع بين العربان خبره وظهر اسمه واشتهر
ذكره ومال اليه كثير منهم فهادوه بالهدايا من الادرة والدخن والبقر والضأن وتقربوا
منه ولازم بعضهم رباطه فكان يقص عليهم قصص الابرار ويحدثهم باخبار الصالحين
ويحذرهم من قرب الساعة ودنو الاجل ويقول اذا عم دين الاسلام واتحدت كلة سائر
المؤمنين على يديه قامت الساعة وانتصب الميزان وحكم الحاكم الديان ومازال على هذه الحال
حتى عم خبره وبلغت الآفاق شهرته وتجاوزت بلاد الدار فور فبلغ عدد من لازم خدمته
ولاذ الى رباطه نيفا ومائتين وأربعين درويشا وبدت على عهد رؤف باشا معالم الخروج
وتحزبت بعض قبائل العربان وكادت تشق عصا طاعة أصحاب الجباية وامتنعوا من دفع الخراج
فرفع أصحاب الجباية الامر الى رؤف باشا وأخبروه بخبر هؤلاء القوم فلم يلتفت الى ذلك ولم
يحفل به فتورك من هذا الحين محمد أحمد فى تخت المهدوية آمنا مطمئنا وجعل يبعث الدعاة
الى بلاد الدار فور يدعون الخلق الى طاعته ويستميلونهم الى طريقته ويستنهضونهم الى
نجدته واستخلاص البلاد من أيدى الكفرة المارقين فمال اليه ناس كثيرون جدا من أهل
تلك الاصقاع وتبعه آخرون ممن تبعوا غوردون الانجليز من قبل وواصلوا رباطه بالهدايا
والتحف وصاروا يحجون اليه فى أيام معلومة من كل شهر ووردت الاخبار بذلك الى القاهرة
فأوعز أصحاب الحل والعقد الى رؤف باشا بتدارك الخطب قبل استفحاله وأن يواصل هيئة
الحكومة باصح الاخبار فأرسل رؤف نفرا من الجند لا يبلغون المائتين وضابطين من صغار
الضباط الى مقر صاحب المهدوية ورسم لهم بقتاله وأن يأتوا به حيا صحيحا فلما صاروا على
مقربة من رباطه انقض عليهم دراويشه فرقوهم كل ممزق وسدوا عليهم المسالك وقتلوهم
حتى لم يبق منهم سوى ضابط ورجلين قد ولوا الادبار وركنوا الى الفرار فاخبروا بما حل
بأصحابهم * قال المحدث * فلم يحرك هذا الحادث من قلب رؤف ساكنا ولم يستنهض له
همة حيث جهز للقتال ثانية جماعة من الجند لا يزيدون عن الذين ماتوا وشدد عليهم فى
الاتيان بمحمد أحمد حيا وكان المهدى بعد أن ظفر أصحابه بجند رؤف وسلبوا ما كان

معهـم من ذخرة ومتاع قد ترفع بهـم الى الجبال وسير فى طلب النجـدة من بعض القبائل فاجتمع لنجدته كثير من السود الابطال وخرجوا للقاء أصحاب الوالى ودارت بين الفريقـين رحى الحرب والقتال فظفرت لموم صاحب المهدوية وانتصرت على أصحاب الوالى نصرة مؤزرة وأبادوهم بحد السيف وشاع الخبر بين قبائل العربان القريبة من مقر المهدى فهابوه وخشوا بأسه وآمنوا بمهدويته وقاموا فى الحال لنصرته وتواردت على رباطه الهـدايا وكثرت عنده المؤن فاحبه أصحابه وأخلصوا له الخـدمة وبالغوا فى طاعته فوقع الوالى فى الخبال وبلبـلة البلبال وكتب الى حكام الدارفور يستفزهم الى ايقاف تيار هاته الفتنة فكان أول من لب نداءه سـلاطين بيك حيث جمع نفرا من العربان وقلدهم بنادق الحكومة وجهزهم بمعدات الحرب وسيرهم الى القتال فكان كغراب نوح عليه السلام يوم استقر به الفلك وكانت هذه الضربة من أشد الضربات على هامة الحكومة حيث تقوت بقوم سلاطين ومعدات حربهم عزيمـة صاحب المهدوية وكبرت شهرته وكادت تعم دعوته سائر البلاد وهان لديه من هـذا الحـين كل رخيص وغال فنهى وأمر وجمع وادخر وغلب وقهـر وفاز وانتصر ورتب قومـه على أحسـن ترتيب وسمى منهـم أمراء الجيوش وكبار المئات والامناء على بيت مال المسلمين وبالغ فى التظاهر بمظاهر الاولياء والصالحين بل الانبياء المقربين وسن لاصحابه سـنة جديدة فكانوا كلهم على قلب رجل واحد يأتمرون بأمره ويقومون عنـد اشارته * قال محدثى كل هـذا ورؤف باشا كان كن ضرب على سمعه وبصره * ثم تنهد وأطرق لحظـة ثم رفع رأسه وقال ولسوف يأتى يوم ترى فيه النفوس تفتك بالنفوس والرؤس مختلطة بالرؤس يوم تنطبق فيه السنابك على السنابك وتلتقى البنادق بالبنادق والالوف تفتك بالالوف والسيوف تخابط السـيوف فالله الله ولا حول ولا قوة الا بالله * قلت وكأن رؤف باشا خشى عاقبـة اخفاء الحقائق فجاء منـه الخبر الى أولى الامر مفصـلا بما هنا لك من اشـتداد الفتنة وخروج الكثير من بلاد الدارفور عن الطـاعة فسيروا اليه المدد من القاهرة من جند وكراع وكتبوا اليه يقبحون فعاله ويتوعدونه بالعقاب الشـديد وجعلوا يواصـلون ارسال المؤن والذخـيرة ويراقبون سير الحوادث فلما رأوا أن لاقبل له على اطفـاء نار هذه الفتنة خلعوه من منصب الولاية وأقاموا مكانه عبـد القادر باشا أحـد كبار الجنـد على أيام الخديو اسمعيـل فسار الى الخرطوم فى نفر من الاتباع ففرح الناس بولايته واستبشروا

مطلب
ورفع قونصـلا الانجليز والفرنسيس لائحة الى الخديوى

وبينما الناس فى شاغل بسبب حوادث أرض السود واستفحال أمر الفتنة وما يفـعله أصحاب المهدى فى كل يوم من القتـل والنهب وسبى النساء والاطفال رفع قونصـلا الانجليز والفرنسيس فى حادى عشر جمادى الآخرة الى الخديوى لائحة تتضمن وجوب ايقاف زعماء العصابة ونواب البـلاد عند حد عـدم مس العهود الدولية المرتبطة بها الحكومة المصرية والاقلاع عن كل ما من شأنه اثارة الخواطر ووقوع القلاقل والاضطرابات والاوجب التداخل القوى وايقاف كل عند حده فاستقدم الخديوى عند ذلك البارودى وأعطاه تلك اللائحة

فكبر أمرها عليه وعلى سائر أصحابه واستعظموا مافيها وعدوه عارا وشنارا وجعلوا يوالون الاجتماع بنواب البلاد حتى تقررت القاعدة بينهم على أن يرسلوا بصورة من تلك اللائحة الى الباب العالى ويسألونه سرعة التداخل فى الامر ومنع تعدى الدولتين على حقوق البلاد واختاروا من بينهم من يذهب الى الخديوى ويحذره من التكلم فى أمر تلك اللائحة مع القونصلين حتى يرد الاذن من أمير المؤمنين * واشتد من هذا الحين بغض أهل البلاد للاجانب على اختلافهم فتقدم قناصل الدول الى البارودى وأحمد عرابى فى ذلك فهوّنا عليهم الامر وتكفلا بالامن وعدم تكدير صفو الراحة فلم يطمئن مع ذلك للاجانب قلب ولم يسكن لهم جاش ونزح الكثير منهم الى أوطانهم وغير أوطانهم فرارا مما كانوا يتوقعون وكثر اللغط بقرب وصول مراكب حرب الدولتين الى ثغر الاسكندرية تارة وبقيام مأمور من كبار رجال السلطنة العثمانية أخرى وقد بلغت الوحشة بين الخديوى والبارودى حدها وتفاقم الشر بين الفريقين * فلما كان أحد الايام أرسل الخديوى أحد رجال ديوانه الى البارودى يقول له تخل عن مسند الرياسة واعتزلها والا أنزلناك عنها قهرا وكذلك قال لبقية الوزراء فعند ذلك عقدوا مجلسهم فى بيت البارودى وتناجوا فيما بينهم ثم سيروا اليه يقولون اننا لاننزل عن مناصبنا ولو أكرهنا على ذلك واننا نعتبر كل أمر يصدر فى هذا الصدد بمثابة تهديد للامن العام وتكدير لكأس الراحة فاذا قامت الفتنة بين أهل البلاد ولحق الايذاء بالاجانب النازلين بيننا كان الخديوى مسؤلا عن جميع مايحدث دون غيره قيل فكبر هذا الكلام على الخديوى حتى كاد يتميز غيظا فلما كان اليوم الثانى الذى هو خامس عشرى جمادى الآخرة انقطع البارودى وبقية النظار عن الذهاب الى نظاراتهم واجتمع نواب البلاد فى بيت مقدمهم محمد سلطان باشا ولبثوا ساعة يتحدثون فى أمر انقطاع النظار ثم انتقلوا الى بيت البارودى ولبثوا فيه طويلا وجاءهم أيضا بعض العلماء والمشايخ والوجهاء والاعيان وبعض قناصل الدول وتكلموا فى ذلك وأكثر قونصلا الانجليز والفرنسيس الغدوّ والرواح بين مقر البارودى وسلطان باشا ثم جمع اليه البارودى سائر الوزراء ونواب البلاد وأصحاب الزعامة من ضباط الجند وأغلقوا عليهم الابواب وأوقفوا الحجاب قال بعض المتقربين اليهم وتكلموا فى خلع الخديوى وتنزيله وفيمن تصح ولايته من بعده كأن أمره بيدهم أو زوجه من عندهم وطال بينهم الجدال وكثر القيل والقال فكانوا اذا أتوا على أمر وهموا بتنفيذه قام من بينهم من يقبحه ويحذرهم عاقبته فيرجعون عنه الى غيره ومازالوا حتى أعياهم الحال وقلت منهم الحيل فصمموا على اعتزال سائر الاشغال وترك الامور وشأنها والقاء تبعة جميع مايحدث من الخلل أو ما يقع من سفك الدماء والفتك بالاجانب والنزلاء فى قلب البلاد على شخص الخديوى وأرسل البارودى فى الحال فى طلب محمد سلطان باشا فحضر ومعه بعض النواب فاعلمه بما وقع الاتفاق عليه وسأله أن يذهب الى مقر الخديوى ويعلمه بالخبر وكان ذلك فى نحو الساعة العاشرة عربى نهارا فراجعه محمد سلطان باشا وكذلك فعل نواب البلاد وطال بينهم الاخذ والرد الى الساعة

الرابعة عربى ليلا فقام محمد سلطان باشا وسار الى مقر الخديوى ولبث عنده الى الساعة السادسة ثم عاد الى بيت البارودى واختلى معه الى نحو الساعة الثامنة فكان بينهما من الحديث مالم تصل الينا معرفته الى هذا الحين ثم انصرفوا جميعا وباتوا ليلتهم تلك وأصبحوا وقد جمع البارودى سائر الوزراء وأصحاب الزعامة من ضباط الجند وبعض العلماء والمشايخ والاعيان والوجهاء وجعلوا يتكلمون فيما وقع عليه الاتفاق بالامس فعلت أصواتهم وقامت بينهم الضوضاء وتفرقت كلمتهم فارسل البارودى يطلب محمد سلطان باشا فحضر ومعه جماعة من نواب البلاد فلم يستقر بهم المقام حتى دخل قونصلا الانجليز والفرنسيس وطلبا من البارودى وأحمد عرابى أن يعطيا لهما كفالة على عدم التعرض لرعايا دولتيهما بسوء والذب عن أرواحهم وأموالهم عند مسيس الحاجة فاجاباهما الى ذلك ثم طفق البارودى يقص على القونصلين مافعله الخديوى مما يعكس مشروعات الامة ويصغر من قدر نواب البلاد وماوراء غايته من تعديل حكم المجلس العسكرى وتعضيده لجماعة الضباط الشراكسة وارساله ثابت باشا الى دار السلطنة لدس الدسائس واذهاب امتيازات البلاد فتكلم القونصلان مع البارودى وأحمد عرابى ومحمد سلطان باشا طويلا وأخذا على عهدتهما ازالة مافى الصدور واذهاب ماعلق فى الخواطر وارجاع الحالة الى ما كانت عليه من المودة والصفاء * وقاما من ساعتهما ودخلا على الخديو وكلماه قيل فشكى اليهما ما يلاقيه من البارودى وأصحابه فما زالا به حتى هونا عليه وخففا عنه وزال بعض مابه من الغضب

مطلب اشتداد الازمة بين الخديوى والوزراء وما كان من وراء ذلك

فلما كان يوم الاثنين سادس عشرى جمادى الآخرة اجتمع محمد سلطان باشا ولفيف النواب وبعض العلماء والمشايخ والوجهاء بالبارودى وأصحابه فى بيته الكائن بشارع عابدين وتكلموا فى أمر الصلح وفى رجوع البارودى الى معاطاة أشغال منصبه رحمة بالناس ودفعا لشماتة الاعداء وظلوا على هذا الحال الى أن صارت الساعة الثانية عربى ليلا فقام محمد سلطان باشا ومعه جماعة من نواب البلاد وتقدموا الى الخديو فى طلب العفو وحسم أسباب الشقاق فلم يقبل وقال لابد من خلع البارودى من مسند الرياسة فخرج محمد سلطان باشا ومن معه من النواب وعادوا الى بيت البارودى وأخبروا بما جرى فقال البارودى نتخلى كلنا عن مناصبنا ونلقى تبعة مايحصل من الاخطار على عاتق الخديوى وطال بينهم الكلام ساعة ثم عاد النواب الى مقر الخديوى وتقدموا اليه فى قبول تنزيل البارودى فقط بشرط أن يتولى الرياسة مصطفى باشا فهمى فاجابهم الخديوى الى ذلك فساروا الى مصطفى فهمى باشا وكلموه فى الامر فامتنع وشدد فى الامتناع وقال لاأتولاها والحال على ماهو عليه من الشدة والخصام فعادت عند ذلك الامور الى ما كانت عليه بل زادت خبالا واشكالا وتعطلت الاشغال ووقفت حركة المصالح واشتد الخوف بالناس وأخذتهم الطيرة وعجز محمد سلطان باشا أوكاد عن التوفيق بين مطالب الفريقين وكثر تطواف صغار الضباط فى الشوارع والحارات وانبث الجند فى أطراف القاهرة وأكثر صاحب شرطة المدينة

من

من التطواف والمراقبة وبقي الحال هكذا الى سابع عشرى جمادى الآخرة فجمع محمد سلطان باشا لفيف العلماء والوجهاء وجماعة من الكبراء والاعيان واشتوروا ثم سار نفر منهم الى مقر الخديوى بسراى عابدين وجعلوا يستعطفونه ويستميلونه الى العفو عما فات وهو لايلتفت الى قولهم وما زالوا به حتى هان عليه الخطب ونسى أو كاد ينسى مافات وأجابهم الى ماطلبوا وهم الكافلون فتكفلوا فرسم باستبقاء الوزراء فى مناصبهم فأصبحوا وقد جلسوا على كراسيهم يأمرون وينهون وطيروا الخبر الى الآفاق بزوال الخلاف وعود الامور الى سابق مجراها فسكنت الخواطر المضطربة واطمأنت القلوب الواجفة ولكن لم يمض على هذه الحال أيام حتى وفد على مدينة الاسكندرية مساء الجمعة غرة رجب الفرد مدرعة من مدرعات الحرب الانجليزية ودخل كذلك فى صباح السبت ثانيه اثنتان انجليزيتان وثلاث افرنسيات فأطلقت المدافع سلاما للحصون فردت عليها الحصون السلام وجاء الخبر بذلك الى القاهرة ثم بعد أيام وردت عدة سفن أخرى كبيرة فاشتد الخوف بالاجانب ونزح الكثير منهم من الاسكندرية وكثر تحدث الناس فى أمر حضور هذه السفن العظيمة وكادت تقف حركة الاشغال بالاسكندرية * فلما كان سابع رجب المذكور رفع القنصلان الى مقام الخديوى بلاغا نهائيا من جانب دولتى الانجليز والفرنسيس يطلبان فيه أولا تنزيل الوزراء من مناصبهم ثم خروج أحمد عرابى من ديار مصر الى حيث يشاء من أرض الله الواسعة الفضاء مع بقاء رتبه ومرتباته وحفظها عليه وتبعيد عبد العال مقدم الجند السودانى وعلى فهمى مقدم جند الحرس الخديوى الى الاقاليم القبلية أو البحرية مع حفظ رتبهم وألقابهم على ماهى عليه فان لم يتم ذلك بالتى هى وجب تنفيذه كرها فاستعظم البارودى مافى هذا البلاغ واستكبره جدا فلم يجب عليه فسأله القونصلان فقال لاشأن للدول الاوروباوية معنا فى مثل هذه الاحوال وانما نحن تابعون لسلطان فاذا شئن فليخابرن سلطاننا وماذلك عليهن ببعيد وزعم البارودى وأصحابه بأن الصلح كان خدعة من الخديوى حتى تأتيه سفن حرب الدولتين فيفعل مابدا له فكثر اجتماعهم تارة فى بيت البارودى وأخرى فى قشلاق الحرس الخديوى وكثر تطواف الجند فى الازقة والحارات ليلا ونهارا وعاد محمد سلطان باشا الى الوساطة بين الفريقين فلم يفلح ولم ينجح له عمل واشتدت الازمة واستحكمت حلقاتها وتحذر كل فريق من الآخر ورأى البارودى أن فى خلعه لنفسه من منصب الرياسة غاية التبعة ونهاية المسؤلية على الخديوى أمام الدول الاجنبية فخلع نفسه فى ثامن رجب وتبعه فى ذلك بقية الوزراء فهاج عند ذلك ضباط الجند وماجوا واحتج البارودى ورفاقه على بلاغ الدولتين واشتد الهياج والاضطراب فأرسل الخديوى الى الوزير محمد شريف باشا ورسم اليه بتشكيل هيئة وزارة أخرى فامتنع فراجعه فأصر على الامتناع ولازم بيته فسار اليه قونصل الانجليز وكلمه فى الامر فلم يقبل فأراه خبرا واردا اليه من صاحب السياسة الانجليزية وترجمته بودنا لو يقبل شريف باشا رياسة الوزراء فتؤكدوا له أننا نعضده ونؤيده جهد

الاستطاعة فقال لا لكم ولا لكرامة والله ما توليتها وهى على شفا جرف تتجاذبها الاهواء واشتد الخوف بالناس وسعى محمد سلطان باشا ونواب البلاد بين الفريقين فلم يفلحوا وذهب جماعة من ضباط الجند مع طلبه بيك عصمت الى مقر الخديو بسراى عابدين وكانهم يريدون به السوء فرسم الخديو بحضور الوزير محمد شريف باشا فحضر وانعقد مجلس حافل حضر فيه نواب البلاد والعلماء والاعيان والوجهاء فكلم الخديو الوزير فى قبوله منصب الرئاسة وألح عليه فى ذلك وكذلك فعل النواب والعلماء والأعيان والوجهاء فقال أتولاها بشرط تنفيذ مافى لائحة الدولتين وخروج أحمد عرابى من البلاد فعند ذلك قام طلبه عصمت وقال إنا فى طاعة أولى الامر ولكننا لانقبل ما فى تلك اللائحة ولا حق للدولتين فى طلب ذلك منا اذ هى أمور خاصة بالخليفة أمير المؤمنين ثم قام من فوره مغضبا فتبعه من كان معه من الضباط وانفض مجلسهم على غير طائل

مطلب ماجرى لنواب البلاد من أحمد عرابى فى بيت محمد سلطان باشا

وظهرت بعد خروج طلبه من مجلس الخديو حركة عظيمة بين الجند وسائر الضباط وورد الخبر من الاسكندرية بان الجنود المرابطين فيها امتنعوا من قبولهم رئيسا على ديوانهم غير أحمد عرابى وانه ان مضى اثنتا عشرة ساعة ولم يرجع الى منصبه لايكونون مسؤلين عما يحصل بالاسكندرية فازداد الحال إشكالا وخبالا وكبرت حجة الوزير محمد شريف باشا على عدم قبوله الرئاسة وكثر تطواف أحمد عرابى فى هذا اليوم على مراكز الجند بمعاقل العباسية وطره وقصر النيل وقلعة الجبل وفى غروب اليوم أرسل الى محمد سلطان باشا فى طلب سائر نواب البلاد فاجتمعوا فى بيت سلطان باشا وحضر أحمد عرابى فى نفر من الضباط والجند وأحاطوا بالبيت ومسكوا على من فيه المسالك ودخل أحمد عرابى فوقف فى وسطهم وعلى يساره محمد عبيد أحد ضباط جند الحرس الخديوى وخطب فيهم خطبة طويلة كلها حض على التعاضد والتعاون على خلع الخديو ورفض سائر مقترحات الدولتين ثم طفق يقبح ما وقع من الخديو ويعدد مساويه ومعايبه ومعايب أسلافه وما جلبوه على البلاد وأهلها من المظالم والمغارم وغير ذلك من أنواع البلايا والرزايا فما أتم خطابه حتى علت بينهم الضوضاء واشتد الهرج فصاح أحمد عرابى مابالكم لاتسمعون وكأنكم خشب مسندة ان كنتم لاتنادون بخلعه فنحن قد خلعناه قد خلعناه فصاح عند ذلك سائر العسكر الذين كانوا حول البيت قد خلعناه ثلاثا وكان ممن حضر فى مجلسهم تلك الليلة الشيخ العراوى مفتى الحقانية فقام ورد على أحمد عرابى وكاد أن يوقفه فتقدم اليه محمد عبيد وصفعه وأمسك بفروجيته فمزقها فصاح الشيخ فى وجهه وصاح بجميع الحاضرين واستل محمد عبيد سيفه وأقسم انه يقطع عنق سلطان باشا ومن لم يناد بخلع الخديو من سائر الحاضرين الساعة فهرب أكثر النواب وألقى بعضهم نفسه من الشبابيك وعلا الصراخ فى بيت نساء سلطان باشا ظنا منهن بانه مات ذبحا وتزاحم الاتباع ليروا ماحل بساداتهم والجند تدفعهم عن الابواب ومازالوا على هذه الحال من الجلبة والصياح الى نحو الساعة السادسة ليلا فخرج أحمد عرابى ومن معه وهم يرعدون ويزبدون

كان

كأن بهم مسا من الجن وعلم الخديو بما جرى فى بيت محمد سلطان باشا فى تلك الليلة فارسل الى الباب العالى وديوان المابين الهمايونى يقول ان الجنود المصرية لم ترض عن تخلى الوزراء عن مناصبهم وان مقدمى الجنود والوزراء أقاموا الحجة على لائحة الدولتين فأتى اليه الجواب بأن قد رسم جلالة الخليفة أمير المؤمنين بارسال وفد ليرى فى الامر وسيقدم عليكم بعد ثلاثة أيام فانتظروه وكان الخوف قد كبر بالناس فلم ير الخديو بدا من استبقاء الوزراء فى مناصبهم فرسم بذلك حتى يأتى وفد السلطان فعاد أحمد عرابى الى تعاطى الاشغال وكتب الى سائر قناصل الدول يطمنهم و يضمن لهم تأييد الأمن وعدم مس أحد من أهالى البلاد والاجانب بسوء وقال لهم بعد كلام أيضا ولم تطلب العصابه الوطنية ونواب البلاد الا أمورا ثلاثة * الاول منها اعادة لائحة الدولتين كما وردت مع خروج مراكب الحرب لتطمئن القلوب * وثانيها وضع قانون أساسى تتبين فيه حدود كل العائلة الخديوية والوزراء * وثالثها قطع المخابرات والعلاقات مع دولتى الانجليز والفرنسيس خصوصا وسائر الدول عموما الا بواسطة دار السلطنة العثمانية * و بلغ هذا الكلام الدول فأكبرته وأعظمته جدا وكتبت دولة الانجليز الى قونصلها بمصر تقول انها لاتألو جهدا فى الذب عن مقام الخديو والدفاع عن نفوذه ما استطاعت

مطلب قدوم المشير درويش باشا

فلما كان عشرون من رجب دخل مينا الاسكندرية مركب سلطانية وفيها رجل من كبار الدولة اسمه المشير درويش باشا فنزل فى سراى راس التين برهة لطيفة ثم ركب منها الى محطة السكة الحديد وأمامه نفر من أصحاب الشرطة وضابط المدينة وسافر الى القاهرة فكان فى انتظاره على محطتها فريق من الجند ونفر من أصحاب الشرطة وضابط المدينة وقد أعدوا لركوبه عربة من الاصطبل الخديوى فركبها وسارت الجنود أمامه وأصحاب الشرطة خلفه فاجتمع عند ذلك الكثير من الحرافيش والسوقة وزعر باب الحديد وباب البحر والاطراف وتزاحموا أمام الجند وهم يضجون و يصيحون ببذىء القول وفحش الكلام وأحاط جماعة منهم بعربة المشير وهم يصيحون باصوات مزعجة نصر الله دين الاسلام أهلك الله دين الكفار أتاكم الموت يا كفار أتاكم الموت بحرق النار وغير ذلك من عبارات السباب واللعن واشارات السخرية والاستهزاء * قيل فسأل درويش باشا عن سبب ذلك فقالوا له هذه عادة العامة اذا فرحوا بقدوم ضيف عزيز لديارهم فلم يستحسن منهم ذلك وأشار بصرفهم فلم يفعلوا وما زالوا على هذه الحال من الضجيج والصياح والنداء بعضهم على بعض وايذاء المارة من الاجانب وأهل البلاد حتى وصل المشير الى المكان الذى أعد له فوقفوا أمام بابه ساعة وهم على ما هم عليه من الصياح والجلبة ثم انصرفوا وبات الناس ليلتهم تلك وهم فى شاغل مما عساه ان يحدث بسبب حضور درويش باشا ولقائه على هذه الصورة المنكرة وأصبح درويش باشا وقد بدأ فى المكالمة مع أحمد عرابى وكبار الدولة وأصحاب الوظائف العالية وعقد لذلك عدة مجالس فتكلموا فيها طويلا وكانوا اذا أغلظوا فى القول

مع أحمد عرابى وعاتوا ماوقع من الوزراء ولا سيما منهم البارودى قال لاحق لكم ولا عتب ما دامت البلاد آمنة مطمئنة وها هى الفتنة قائمة على ساقها ومع ذلك لم يقع فى جوف البلاد ولله الحمد مايكدر صفو الراحة وطال الكلام بينهم أياما على غير جدوى

وكان مذ قدمت سفن حرب الدولتين الى مدينة الاسكندرية قد أخذ الاجانب يفدون عليها أفواجا أفواجا وهم فرحون بها مطمئنون كأنهم لا يخشون بجوارها جائرا فكبر ذلك على العامة والسوقة من أهل الاسكندرية وحسبوه اهانة لهم واذلالا وظنوا ان الاجانب انما يريدون باهل البلاد الشر فاظهروا التغيظ وبدت منهم دلائل الشر وأغلظوا فى مخاطبة الاجانب فكان اذا كلم الواحد منهم أجنبيا هز له الرأس وأسبل الجفن توعدا وتهديدا فأحس الاجانب بما وراء ذلك وخافوا شر العاقبة فأخذوا فى التأهب والاستعداد وأكثروا من شراء البنادق والبارود واستخدم عظماؤهم بعض الاقوياء من أسافل اليونان وزعر الطليان * قيل وشاوروا فى ذلك أميرى مراكب حرب الانجليز والفرنسيس فوافقاهم عليه وارسلوا رجلا منهم الى القناصل بالقاهرة ليسألهم فى ذلك أيضا فلم يوافقوا عليه واشتد تحذر الفريقين وظهرت علامات الوحشة فقل تطواف الاجانب فى الليل وامتنع جلوسهم فى محلات اللهو واغلق أصحاب الحوانيت منهم حوانيتهم فكانت وحشة عظيمة للغاية * فلما كان يوم الاحد سادس عشرى رجب من السنة أى سنة تسع وتسعين هجرية وحادى عشر جونيو سنة احدى وثمانين وثمانمائة وألف ميلادية بينما كان الاجانب خارجين عن بيوتهم قامت الغوغاء من أهل الاسكندرية وتجمعت زمرا وسارت أولا من الشارع المعروف بشارع ابراهيم وبايديهم العصى والهراوى والمساوق وحطب الوقود وهم فى ضجة وجلبة عظيمتين ثم أتى جماعة منهم من شارع الضبطية وأخرى من سوق الطباخين وكأنهم كانوا على عهد واتفاق وأوقعوا بالاجانب ضربا وقتلا فتراحم الناس الى الحوانيت والبيوت وتسابق الاجانب يريدون الخلاص وأطلقت البنادق من منافذ البيوت على الغوغاء فكانوا اذا رأوا أجنبيا تراحموا خلفه ونزلوا بالعصى والهراوى على أم رأسه حتى يسقط ميتا فيأخذون مامعه ويتركونه ويلحقون بغيره وقد أفحشوا فى القتل والسلب وتخريب الحوانيت ونهب مافيها فكثر الصياح من أقصى المدينة الى أقصاها واشتد البكاء والعويل وضاقت الارض فى وجه الاجانب ولجأ بعضهم الى بيت أصحاب الشرطة فرارا من الموت فلاقاهم أصحاب الشرطة الذين هم جند المستحفظة بسنابك البنادق فقتلوهم عن آخرهم فكانوا كالمستجير من الرمضاء بالنار وطافت الغوغاء بجميع حارات الاجانب فكان اذا رأى الاجنبى نفرا من هؤلاء الاخلاط مقبلين نحوه امتقع لونه فى الحال وتخلخلت قدماه فاذا هم بالفرار فلا تطاوعه قدماه فيعدو عدو الغراب خطوات ثم ينكب على وجهه فيلحقونه بضرب العصى والنبابيت وربما وجدوه ميتا من شدة الخوف فكان ذلك من غرائب الطبيعة وقد جرح ومات فى ذلك اليوم خلق كثير وبينهم جماعة من كبار الاجانب ووجهائهم * وكان مقدم جند الاسكندرية يومئذ سليمان بك داود فأرسل

مطلب حصول المقتلة التى عرفت بمقتلة حادى عشر جونيو وما كان من وراء ذلك

اليه عمر باشا لطفى محافظ المدينة فى طلب المدد من الجند ليستعين بهم على ايقاف تيار الفتنة وحقن الدماء وكان ضابط المدينة قد تمارض فى ذلك اليوم ولم يخرج من بيته فارسل سليمان بيك يقول لادخل لى فى شئ من ذلك حتى يأذن لى أحمد عرابى فطير عمر لطفى باشا الاخبار الى القاهرة بما وقع فورد الامر من أحمد عرابى بقيام الجند ومنع تلك الفظائع فتفرقت العساكر فى الشوارع واخذوا فى التطواف فى نحو الساعة الحادية عشرة العربية نهارا وكانت الى هذه الساعة قد تفرقت الغوغاء وتمزقت اللوم وطاف محافظ المدينة فى نفر من أصحاب الشرطة ومعاونى الضابطة وأمر فجمعوا ما بقى من جثث القتلى بالشوارع والطرقات وجوار حمام الضابطة فكانوا نيفا وثلثمائة قتيل وقيل غير ذلك ونادوا بالأمان وعود الناس الى تعاطى أشغالهم وما زال الجند يطوفون الليل كله وبكاء النساء وصياح الابناء على آبائهم متتابع فكانت حادثة يالها من حادثة لم يسبق لها مثيل الا فى دولة المماليك الثانية وقيام العامة على نابليون بالقاهرة ۞ ولما علم من بمصر والقاهرة بما وقع بالاسكندرية قامت بينهم ضجة عظيمة وتسابق كل من له أهل أوولد بالاسكندرية الى موارد الاخبار يسألون وعم الخوف والاضطراب وباتوا وهم فى كد ملازم وأصبحوا وقد اجتمع سائر قناصل الدول ودخلوا على المشير درويش باشا وكلموه فى الامر وأغلظوا فى مخاطبته واتهموه باضرام نار هذه الفتنة وعنفوه وقالوا أنت وحدك المسئول عن كل ماجرى اذ لولا حضورك فى هذه الظروف ماأريقت هذه الدماء الزكية ونحن اليوم نطلب منك أن تكفل صيانة أرواح جميع الاجانب الذين فى داخل البلاد قبل فاضطرب المشير وأشار بعقد مجلس فى سراى عابدين للمداولة فى الأمر فعقدوه وحضر فيه الخديو ودرويش باشا ومن معه من رجال الوفد العثمانى والوزير محمد شريف باشا وكبار رجال الحكومة وسائر قناصل الدول فتقررت القاعدة بينهم بعد أخذ ورد على التكفل لقناصل الدول بحفظ أرواح وأموال سائر الاجانب ونزلاء البلاد منهم بشرط امتثال أحمد عرابى وطاعته وقيامه بتنفيذ كل ما يصدر اليه متعلقا بالامن فاجابهم أحمد عرابى الى ذلك وتكفل لهم درويش باشا بجميع ماطلبوه وملاحظة طاعة الخديو والقيام بجميع أوامره فانفض مجلسهم يومئذ على ذلك وقام أحمد عرابى من فوره وأرسل الى سائر المديرين والمحافظين بمنع اجتماعات الجند أينما كانوا وكتب الى سليمان بيك داود مقدم جند الاسكندرية يستحثه الى الالتفات ومنع وقوع شئ من الحوادث والقلاقل وبذل العناية فى ملازمة جند الاسكندرية لحدود الطاعة والامتثال

ورسم الخديو بتحقيق أسباب هذه المذبحة ومحاكمة كل من كان له يد فيها وشكل لذلك مجلس مخصوص برأسه عمر لطفى باشا محافظ الاسكندرية فاجتمع المجلس فى دار المحافظة وبينهم مندوبو قناصل الدول وقد كثر فى هذا الحين رحيل الاجانب عن الاسكندرية وحضورهم من داخل البلاد عشرات ومئات الى السواحل طلبا للفرار والنجاة وكثر تواردهم حتى لم يبق منهم أحد فى المدن والقرى ونزح أيضا العدد العديد ممن كان منهم بالقاهرة وقام

الخديو الى الاسكندرية فى سادس عشرى رجب ومعه درويش باشا ورجال ديوانه الخاص فلما نزل بسرايه برأس التين استدعى اليه قناصل الدول وحادثهم فى أمر الفتنة وطيب نفوسهم وكلمهم كذلك درويش باشا وهون عليهم وبقى قونصلا الانجليز والفرنسيس بالقاهرة ولم يحضرا مع الخديو الى الاسكندرية الا باجازة من حكومتيهما بعد أيام فلما قدما الى الاسكندرية أوعزا الى سائر قناصل الدول بالتشديد على رعاياهم بالجلاء عن البلاد ففعلوا فاشتد الخوف بالناس ونزل من بقى من الاجانب الى السفن الراسية أمام الاسكندرية وطلب قناصل الدول من دولهم سفنا لنقل رعاياها بجاليتهم فسكنها الناس بدل البيوت فرارا مما عساه أن يقع .

حدثنى صاحب لى كان لا يفارق باب الخديو فى هذه الايام قال دخل المراقب الانجليزى يوما على الخديو وقال له هل يمكن الاعتماد على ما يقوله المشير درويش باشا من طاعة الضباط وأمانة العسكر المصرى فى الخدمة عند مسيس الحاجة قال فتأفف الخديو وقال أنى يكون لنا ذلك ولم نر منهم الى الآن الا العسف على انى أخشى العاقبة ولا أرى سبيلا لتوطيد الأمن فى هذه الظروف الا باستنجاد أمير المؤمنين فيرسل الينا فريقا من عسكره المنصور يذب عن البلاد ومن فيها عند مسيس الحاجة ولم أر فى سفارة المشير درويش باشا ما كنت أتمناه من الفلاح فقد خابت سعيا وباتت وأصبحت وكأنها لم تكن شيأ مذكورا * وشاعت هذه الاقوال بين الناس وعلم بها قناصل الدول فتقدموا الى الخديو فى خلع الوزراء وتشكيل وزارة أخرى عسى أن تفلح فى تدارك الخطر قبل استفحاله فاجابهم الى ذلك وقد كانت حاجة فى نفسه * ورسم بتشكيل وزارة جديدة برئاسة اسمعيل راغب باشا وهو من كبار رجال الحكومة القدماء وأنزل أحمد عرابى باشا نفسه من منصبه وطيروا الخبر بذلك الى الآفاق فاستغرب الناس هذا الامر وكثر تحدثهم به فلما استقرت براغب باشا الرئاسة تقدم الى الخديو فى طلب العفو عن جميع من اشتركوا فى الحوادث الاخيرة الا من كان لهم يد فى مذبحة الاسكندرية وقال للخديو انما نريد بذلك تطييب القلوب المتنافرة فيعود الامن وتزول المخاوف وترجع الاحوال الى سابق مجراها فاجابه الخديو الى ذلك ثم جعل راغب باشا يشدد فى تحقيق حادثة الاسكندرية ويقبض على كل من كان له يد فيها وبث العيون والجواسيس وأصحاب الشرطة فى انحاء البلاد فجاؤا بالكثير من السوقة والغوغاء والخمارين والشيالين وأهل البطالة والكسل وبعض مشايخ الحارات ومشايخ الطرق وجماعة من أصحاب الشرطة فاسرهم فالقوهم فى حبوس الاسكندرية حتى غصت بهم وضاقت وجعل الخديو يطوف فى نفر من الحراس فى شوارع المدينة وأرجائها تطمينا للقلوب وتسكينا للخواطر المضطربة وكذلك كان يفعل درويش باشا ومن معه من رجال الوفد ومع ذلك فقد كان جلاء الاجانب عن البلاد متتابعا

وتقدمت الدول الاروباوية على يد سفرائها الى الباب العالى فى عقد مؤتمر دولى بدار

مطلب
تشكيل وزارة اسمعيل راغب باشا وماجرى بعد ذلك

السلطنة للبحث فى أنجع الادواء الحاسمة لاسباب الفتنة بديار مصر وايقاف أصحابها عند حدهم وشددوا على الباب العالى فى طلب ذلك فامتنع وقال ليس فى الامر شئ مما تخافون والانباء متواصلة من درويش باشا باستتباب الامن ورجوع سائر الامور الى سابق مجراها فأبى كبار سياسة الانجليز الا عقد ذلك المؤتمر والباب العالى يطاول ويحاول ثم استعان بدول الروسيا والمانيا وايطاليا فاعانوه وقاموا لنصرته خوفا من مطامع الانجليز فى مصر فآنست دولة الانجليز منهم ذلك وكتبت تقول انها تتعهد متى تم عقد ذلك المؤتمر مع سائر الدول أن لا تعمل قط على فصم عرى الصداقة التى بينها وبين الباب العالى ولا تعمل على ضم شئ من أراضيه الى جانب أملاكها ولا أن تستولى على مصر ولا على قسم منها ولا أن تسعى قط فى الحصول على شئ من الامتيازات السياسية أو التجارية ما لم يشاركها فى ذلك بقية الدول فانحازت لرأيها عند ذلك سائر الدول وانفرد الباب العالى فأصر على الامتناع فلم تلتفت اليه الدول وعقدت المؤتمر فى قسطنطينية فى سابع شعبان من السنة أى سنة تسع وتسعين فلم يحضره أحد من جانب الباب العالى فتقررت القاعدة بينهم على ان الحكومات التى وقع وكلاؤها بالنيابة عنها على هذا البروتوكول (يعنى المحضر السياسى) تتعهد أنها لا تقصد قط اغتنام أرض ما ولا الحصول على امتيازات ما ولا أن يكون لرعاياها من الامتيازات مالا يكون لغيرها من رعايا الدول الاخرى فى مصر وذلك فى جميع المسائل التى حصل التوافق عليها بسعيها واشتراكها فى المخابرات لترتيب وضبط أمور البلاد المذكورة * وجعل الانجليز من هذا اليوم يعدون المعدات ويجهزون الجنود ويجعلون سفن حربهم على قدم الاستعداد ثم دعوا بقية الدول الى الاشتراك معهم فى عمل يكون من ورائه إرهاب أصحاب الفتنة ووقوفهم عند حد الطاعة أوانهم يسيرون معا الى الإسكندرية فريقا من الجنود والعساكر لارجاع الأمن والراحة الى تلك البلاد فأحست الدول بما وراء ذلك ولكنها تغافلت لاسباب لم تصل اليها معرفتنا لغاية الآن * فلما رأت منهن هذا الاحجام أوعزت الى قونصلها بمصر وهو المستر مالت فتمارض ونزل الى احدى سفن الحرب الانجليزية الراسية أمام الإسكندرية ولبث بها أياما والناس يتساءلون عن سبب ذلك ثم شاع الخبر بقيامه الى برندزى احدى موانى البحر الابيض فتحدث الناس به كثيرا وأخذتهم الطيرة وقالوا ان قيامه فى هذا الحين على هذه الصورة هو بمثابة إشهار الحرب على البلاد وإطلاق المدافع على حصون الاسكندرية * وبينما كان مالت قونصل جنرال الانجليز بعيدا عن مقر وظيفته منزويا فى برندزى كأن لم يبق بين دولته وديار مصر علاقة كان دوفرين سفير الانجليز فى دار السلطنة يغرر بالباب العالى ويزين لرجال المابين استرضاء أحمد عرابى باهدائه شيأ من نياشين الاعتبار وما زال بهم حتى أفلح سعيه فأحسن السلطان على أحمد عرابى بالنيشان المجيدى الثانى وسير الخبر بذلك الى القاهرة ففرح أحمد عرابى وأصحابه وظنوا أن ذلك من دلائل رضا السلطان وارتياحه الى ماهم عليه من مخالفة الخديو والدولتين ولم يعلموا ما فى ذلك من

الخطر القريب وتناقل أصحاب الصحف المحلية خبر هذا الانعام وفصلوا فيه وقاسوا وخاطوا فنقله أصحاب الصحف الانجليزية ونادوا بالويل والثبور وقالوا انه لبرهان جديد على عداء السلطان لسيدة البحار ودولة العظمة والفخار وعمر كبار سياستهم على احباط اعمال المؤتمر الدولى وتقدموا الى بقية الدول فى رفع لائحة الى الباب العالى يطلبون فيها إما أن يسير جنوده الى مصر لاخماد نار الفتنة وارجاع الامور الى سابق مجراها وإما أن يترك الدول ترى رأيها فى ذلك فامتنع الباب العالى وقال لا داعى لارسال الجنود والبلاد آمنة مطمئنة فأعجب الانجليز امتناعه ووافق ما فى نفوسهم وقد كانوا يخشون من ذهاب عسكر السلطان الى مصر ويحسبون لذلك ألف حساب وأوعزوا فى الحال الى أمير سفن حربهم الراسية أمام الاسكندرية أن ينتحل أقل العلل والاسباب العدائية ويطلق على الفور مدافعه على حصون الاسكندرية حتى يدكها دكا وكان أحمد عرابى قد قدم من القاهرة الى الاسكندرية فى حاشيته وبعض الخدم ومعه بعض كبار الجند المقربين اليه فاستقروا بالترسخانة وكان فى حصون الاسكندرية تسعة آلاف مقاتل فكتب سيمور أمير تلك السفن الى أحمد عرابى يقول ان الجنود المصرية آخذة فى تحصين سائر القلاع والقاء الاحجار الكبيرة فى مدخل الميناء ليسدوه ويمنعوا المدد فيحصر الاسطول وان فى تحصين الحصون وتقوية الاستحكامات مع وقوف سفن دولة الانجليز أمامها عارا وتحقيرا فان لم تنكف الجنود عن ذلك أطلقت عليها مدافعى وأصليتها نارا حامية * وكان طلبه عصمت أحد أصحاب الزعامة هو المتولى أمر ذلك فكتب الى أمير السفن يقول ليس فى الأمر شئ مما تقول وان حصوننا وقلاعنا هى فى حالة لا تستدعى عملا ما فعاود سيمور الكلام وأغلظ فى القول وقال لا بد من جلاء العساكر المصرية عن طابيتى الانفوشى والبرج واحتلال الجنود الانجليزية لهما فلم يجبه طلبه الى ذلك أيضا فجعل سيمور يهدد عساكر الحصون ليلا بانوار الكهرباء التى كانت تنبعث من مراكب الحرب على الحصون فتخطف الابصار وتهتز لها القلوب وشاع خبر ذلك بين الناس فاشتد بهم الخوف وكثر جلاؤهم عن الاسكندرية الى القرى والارياف البعيدة وكثر تطواف أحمد عرابى فى الشوارع والطرقات وخلفه جماعة من الجند يحملون البنادق وأرسل سيمور الى الخديو على يدى كولفن مراقب الانجليز يقول له اترك المدينة وانزل الى احدى السفن كى لا يصيبك شئ مما عسى أن يحصل بأسباب ضرب القلاع والحصون فلم يقبل وقال عار على أن أترك المدينة وفيها العدد العديد من رعاياى المخلصين فألح عليه كولفن فامتنع وقال لا يحل لى أن أتركهم فى وقت الشدة ولا يجمل أن أترك بلادى فى ساعة الضيق * وتداخل قناصل الدول فى الامر وسعوا فى الصلح بين سيمور البحر وعرابى البر فلم يفلحوا وكان سيمور يأتيهم فى كل يوم بطلب جديد فاذا امتنع أحمد عرابى من تنفيذه جاءه بأشد منه فكتب أحمد عرابى محضرا بجميع ما يطلبه سيمور ووسمه بالعداء والفجور وقال عن سيمور انه مثال الظلم والعداء للبلاد وأهلها وانه أهان المصريين

واحتقرهم ولم يراع للهيئة الحاكمة حرمة ولا اعتبارا ولذلك وجبت مقاومته جهد الاستطاعة وانه قد فوض أمر الدفاع عن البلاد الى أحمد عرابى ومن معه من كبار الجند المصرى ثم أخذ ورقة هذا المحضر جماعة من أصحاب الزعامة وطافوا بها على بيوت الوزراء فوضعوا عليها أسماءهم قيل ودخلوا بها على الخديو أيضا فلم ير بدا من التوقيع عليها ثم أرسلوا هذه الورقة الى سيمور البحر وسير فى الحال أحمد عرابى الى سائر المديرين والمحافظين يعلمهم بان يكونوا من الآن على قدم الاستعداد لارسال المدد من المال والرجال عند الطلب وأكثر من تطوافه على القلاع والحصون وترتيب الذخرة ومعدات الحرب فلما كان يوم الاحد ثانى عشرى شعبان جاء رسول من قبل سيمور ودخل على الخديو بمقره برأس التين وقال ان الامير على عزم اطلاق المدافع على الحصون فى صبح الثلاثاء رابع عشرى الشهر وقد جئت أسألكم أن تنتقلوا من سراى راس التين الى سراى الرمل تحرزا مما عساه أن يحصل من رمى القنابل ثم تركه ودخل على المشير درويش باشا وناوله خطابا يقول فيه * انك أنت المطالب بحياة الخديو وعليك تبعة جميع مايحصل لشخصه فاحذر العاقبة والسلام * وفى صبح الثالث والعشرين من شعبان أرسل الى راغب باشا رئيس الوزراء ودرويش باشا مندوب الباب مكاتبة يقول فيها * حيث قد انسحب قونصلنا من الديار المصرية ولم يبق بها أحد الآن من وكلاء دولتنا فقد انقطعت بذلك العلائق التى كانت بين حكومة جلالة ملكة الانجليز والخديوية المصرية ولم يبق بينهما من الوداد ما كان * فلما شاع هذا الكلام بين الناس خافوا خوفا عظيما وازداد جلاؤهم عن المدينة وشدد قناصل الدول على من تخلف من رعاياهم بسرعة الارتحال أو النزول بالسفن الراسية أمام الاسكندرية واشتد الهرج والمرج فى الشوارع والطرقات وأغلق فى ذلك اليوم مابقى من حوانيت الاجانب وغيرها من حوانيت أهل البلد وهرع العامة الى بابى رشيد وسدره فارين الى الريف وخرجت مراكب حرب الفرنسيس فى مساء ذلك اليوم راجعة فلم يبق منها سوى مركبين تحت طلب قونصل جنرال الفرنسيس فكان لخروجها دهشة عظيمة وكثر تساءل الناس عن سبب ذلك فاختلفت الأقوال فمن قائل ان خروجها كان لخلاف وقع بين أميرى الاسطولين ومن قائل بل بين الدولتين ومن قائل لكره الفرنسيس اقتال المصريين وغير ذلك من الحدس والتخمين وقد عاب عقلاء الناس على الفرنسيس هذا الأمر وعدوه فلتة من فلتات سياستهم المحفوفة بالطيش والخفة وقالوا سوف يندم أصحاب سياسة الفرنسيس على ما فرط منهم فلا ينفعهم الندم واشتد قلق الناس وتحذرهم وامتناعهم من الخروج من دورهم فى الليل فكانت وحشة عظيمة للغاية

مطلب
اطلاق سفن سيمور
مدافعها على قلاع
وحصون الاسكندرية

ولما كانت الساعة الاولى من يوم الثلاثاء رابع عشرى شعبان سنة تسع وتسعين ومائتين وألف هجرية أى صباح الحادى عشر من يوليوسنة اثنتين وثمانين وثمانمائة وألف ميلادية صوب سيمور أفواه مدافع سفنه نحو الحصون والقلاع وأطلق عليها القنابل اطلاقا متتابعا

فاطلقت الحصون كذلك مدافعها وتتابع الرمى من الفريقين ووصلت قنابل السفن الى القلاع والحصون والبيوت وضواحى المدينة فكانت أشكالا مختلفة بعضها عن بعض ففتكت بجنذ الحصون فتكا ذريعا ودكت بعض القلاع دكا فلما اشتد الرمى وكادت تتعطل مدافع الحصون خرجت الغوغاء من الحارات وانتشرت فى الاطراف واختلطت بالجنود وهم فى جلبة وصياح وتزاحموا على القلاع والحصون يريدون معاونة الجند فكان اذا هم الجندى بتصويب مدفعه نحو سفن الانجليز هللوا وصاحوا ونادوا يا أهل بيت رسول الله * ياشيخنا يا أباصيرى * ياسيدى ياقوت ياعرشى * وغير ذلك من أنواع النداء والصياح والجلبة وسار جماعة منهم وأمامهم أرباب الاشاير بالبيارق والطبول والكاسات حتى وقفوا على شاطئ البحر ناحية السيالة وصاروا يصيحون بأعلى أصواتهم ياالطيف الله أكبر الله أكبر وهم يطوحون البيارق ويضربون الطبول والكاسات فرمت عليهم احدى تلك السفن شيأ من القنابل الصغيرة تباعا ففرقتهم وأهلكتهم عن آخرهم الا من كان بعيدا واشتد الرمى من السفن وتراسل فاتصلت نيران احدى القنابل بمخازن البارود الكائنة بقلعة آطة فالتهب البارود وانفجر انفجارا هائلا ودمر القلعة ودكها دكا وأهلك جميع من بها من الجند والعامة والضباط والتصقت لحومهم وما بقى من مشاشهم بجدران القلعة فكان لها منظر تنفطر من رؤيته القلوب وتتفتت من هوله الاكباد ومازال الرمى متراسلا من السفن والحصون وأحمد عرابى لايخرج من قلعة القضا ولا يعلم بشئ مما هو جار فى غيرها من بقية القلاع قيل وكان لاهم له فى ذلك الحين سوى تحريك شفتيه بتلاوة بعض الاوراد وتحريك أصبعيه على مسبحة كانت بيده * وكان راغب باشا رئيس مجلس الوزراء وبعض الوزراء عند باب رشيد فخرج الناس من المدينة هائمين على وجوههم من شدة رمى القنابل وفعلها بالقلاع والدور والوكائل ومروا من باب رشيد زمرا كالابل الآبقة فلما كان وقت الظهيرة بطلت مدافع الحصون وسكتت أصواتها وظهر على ما بقى من القلاع رايات بيضاء اشارة الى الكف وطلب الامان فانكفت السفن عن الرمى وخرج حينئذ أحمد عرابى من مخبئه وسار الى مقر الخديو بسراى الرمل فسأله الخديو عما جرى بالقلاع وما حل بالعسكر فقال الخيبة والفشل والخطر الشديد ولا حول ولا قوة الا بالله فلم يبق فى قدرتنا أن نقاوم فأما أحسن التدبير فالتسليم بسائر مطالب أمير السفن * فلما سمع الخديو هذا الكلام كبر عليه الامر واستعظمه وكان معه بالسراى يومئذ عثمان باشا واسمعيل باشا كامل والزبير باشا والجنرال استون باشا رئيس أركان حرب الجيش على عهد اسمعيل باشا وفريديكو بيك وتيكران بيك وآخرون غيرهم فجمعهم اليه وعقد فى الحال مجلسا منهم وكلمهم فى الامر كثيرا فاتفقوا على أن يسيروا طلبه بيك عصمت أحد أصحاب الزعامة رسولا الى سيمور أمير السفن ليخابره فى الصلح فسار طلبه وغاب ساعة ثم عاد وأخبر الخديو بان سيمور يطلب ان تحتل عساكره ثلاث قلاع من أكبر قلاع المدينة والا فانه

يعاود

يعاود الرمى بالقنابل بعيد الظهر قال فسألته مهلة حتى تحصل المداولة فلم يقبل فامر الخديو عند ذلك بالمجلس فانتظم وتكلموا ثانية فتقرر أنه لايصح قط للخديوية المصرية الترخيص فى نزول جنود أجنبيـة فى قلاعها ولاحصونها بغير اذن من الباب العالى وكتبوا بذلك محضرا ولكنهم لم يبلغوه الى سيمور السفن

مطلب
جلاء الجند والناس عن الاسكندرية وماحـل بالنساء والاطفال من جراء ذلك

وأخذ من بقى من جند القلاع والحصون فى الخروج منها قبيل الغروب وقد تركوا مافيها من جثث الاموات والذخرة والمهمات وساروا نحو باب رشيد والباب الجديد وخرجت كذلك بقية العساكر من معاقل رأس التين وباب رشيد والباب الجديد الى ناحية الملاحة وبحـر النواتيـة وتتابعوا فى الخروج الليـل بطوله فلما لاح الفجر ظهر سليمان بيك داود مقـدم جند الاسكندرية ورسم الى بعض الفرسان بالنداء فى الناس بالخروج من المدينة عاجـلا ومن تخلف حـل به مايكره فكثر النـداء فى الحارات والشوارع وهب الناس من نومهـم وكأن على رؤسهم الطـير وخرجوا هائمين وهـم حفاة حاسرو الرؤس * فكانت الاطفال تبكى وتصيح والامهات يولولن والرجال تتسابق وتتراحم وهم فى دهشة وذهول وتتابع خروج النساء من ذوى البيوتات لايحملن من متاعهن سوى المآزر وما عليهن من خفيف الثياب والعسـكر يستحثوهنّ الى الخروج من البـاب الجـديد ويناذون عليهـن بأصوات التهديد فلم تشرق الشمس الا وقد غصت رحبات الباب الجـديد بالخلق الكثير من الرجال والنساء والاطفال وهم فى أسوإ حال وكـثر الزحام واختلط الناس بعضـهم ببعض وارتفعت الشمس فاشتد بهم الظمأ فطلبوا الماء فلم يصلوا اليـه وانتشر العربان حول تلك الاطراف فعاثوا وأفسدوا وسلبوا كل ما وصلت اليه أيديهم فعـلا عند ذلك الصياح وارتفعت أصوات النساء بالبكاء والنحيب وهم بعضهن بالرجوع الى المدينة على مافيها من المخاوف والأخطار فلم يتمكنّ اذ بانت طـلائع زمر الاخـلاط والحرافيش يحملون المنهوبات من الحوانيت بالمنشية وشارع شريف باشا والميـدان والسكة الجـديدة من أصناف الحرير والديباج والمقصبات وافـخر الملبوسات وأثمن الجوهرات والمصوغات وأنواع التحف وأصناف الزينـة والمشروب والمأكول وأصناف العطريات وأثاث البيوت من الصينى والبلور وغير ذلك مما يجـل عن الحصر وهم فى ضجة وجلبة عظيمتين وأكثرهم ملطخ بالدم * وكان لما أخذ الناس فى الخروج من المدينة وقد تركوا بيوتهـم بما فيها من متاع وفرش ومأكول ومشروب تطاولت أيدى العامة الى سرقة بعض الشئ من ذلك ولم تكد تصـل اليـه أيدى البعض الآخر حتى برز سليمان بيك داود فى ميدان محمد على قبـل ونادى فى الجند والعامة بكسر حوانيت التجار ونهب ما فيها واضرام النار فى المدينـة حتى تصير رمادا وأكثر من النـداء بذلك فقامت العامة قومة واحدة وكسروا أبواب الحوانيت بالفؤوس والبلط ونهبوا جميع ما فيها من الحرائر والمقصبات وأصناف الاقمشة الغالية والجوهرات والمصوغات وكل ماوصلت اليه أيديهم وكان الرجل منهم اذا حمل شيأ من ذلك وهم بالخروج لحقه من هو أقوى منه فيضربه أو يقتله

ويأخذ ما معه وربما اقتتل الاثنان أو الثلاثة منهم على شئ لايستحق بعض قروش وانحدر العربان من السيوف والرمل والمندرة وباب العرب ومريوط وغيرها وانبثوا فى المدينة انبثاث الجراد فقتلوا ونهبوا وفسقوا بالأبكار والامهات قسرا وعاثوا فيمن خرج من الناس الى الباب الجديد وخطفوا ما وجدوه من حلى وملبوس وقتلوا بعض النساء باطلاق البنادق والرجال بطعن الرماح وفعل كذلك الجنود فنهبوا وخطفوا وأطلقوا بنادقهم على من كان يقاومهم وكان المشهد مريعا جدا والخطب شديدا للغاية فلما كان بعد الظهر بساعة أضرموا النار فى الكثير من بيوت المنشية وشارع المسلة وشارع الضبطية والميدان وفى تلك الوكائل العظيمة والمبانى الشهيرة فاندلع لهيب النار وتطاير الشرر الى عنان السماء وأظلم الجو وامتلأ بالدخان واسود وجه الأرض من الرماد المتساقط والجند يطوفون ويزيدون النار اضراما باراقة زيت البترول على ما لم يشتد منها لهيبه والعامة يسيرون بين النار وهم يحملون المنهوبات والناس فى بكاء ونحيب والاطفال والنساء يلتهبون عطشا ويصيحون الماء الماء * ودخل الليل فكان المنظر أشد هولا وازعاجا فقد كانت المدينة كلها كشعلة واحدة وبقى الجند والنهابة على ماهم عليه من القتل والنهب والعبث بالابكار والنساء كرها الى صباح اليوم الثانى فاخذوا فى الجلاء عن المدينة وخرج معهم من لم يبق معه شئ يخاف عليه وتبعهم من كانوا بالباب الجديد فرارا من العربان الضاربين حولهم كالوحوش الخاطفة وأمر أحمد عرابى فأتوا بقطارات السكة الحديد وأركبوا فيها الناس الى سائر البنادر والقرى لحد القاهرة وأرسل فى يوم الحريق أصحاب الزعامة الى مقر الخديو بسراى الرمل جماعة من الفرسان يبلغ عددهم زهاء الاربعمائة فارس وبعض أصحاب الشرطة فأحاطوا به من كل جانب وعلم الخديو بخبر ذلك فأرسل يسأل عن سبب حضورهم فقال مقدمهم انما جئنا لحراسة الذات الخديوية والمحافظة عليها * قال بعض الكتاب ولم يكن الامر كذلك فقد كان حضورهم لاضرام النار فى السراى وقتل كل من يخرج فارا منها وظلوا واقفين الى قبيل الغروب ثم سارت جماعة منهم وبقيت جماعة أخرى تبلغ زهاء المائتين وخمسين فسير عند ذلك الخديو الى منيب افندى مقدمهم يدعوه الى الطاعة ومراعاة الذمة والعهد فاذعن وتمثل بين يدى الخديو وأقسم أنه يموت بين يديه وجعل يكلم الجند حتى أطاعوا أيضا وحلفوا يمين الطاعة ثم نصبوا خيامهم أمام مقر الخديو وقاموا بخفارته

مطلب ارسال سيمور الى الخديو فى طلب تركه مقره والاقامة بأحدى سفن الحرب

ودخل فى ذلك اليوم على الخديو محافظ المدينة وقص عليه خبر ما جرى من اضرام النار بالمدينة ونهب حوانيت التجار وانحدار العربان من الاطراف وما فعلوه من القتل والنهب والعبث بالابكار وما الناس عليه من الشدة بسبب اكراههم على الخروج من المدينة فبكى الخديو وطرق كفا لكف ورسم الى اسمعيل باشا كامل والى الزبير باشا بالانحدار ومنع العامة من النهب ورد العربان الى منازلهم فانحدرا وبذلا جهد الاستطاعة فلم يفلحا * وأرسل سيمور البحر فى سادس عشرى شعبان يعلم الخديو بانه على عزم أن ينزل بعض عسكره الى سراى رأس

التين لحراستها ويطلب اليه أن يأتى الى احدى سفن الحرب فيقيم بها حتى تخمد نار الفتنة فامتنع الخديو وقال انى أفضل البقاء فى مقرى برأس التين بين رعاياى الأمناء على البقاء فى سفينة الاميرال وانحدر من ساعته من سراى الرمل فى عربته ومعه المشير درويش باشا وأمامه وخلفه جماعة الحرس وطوائف الفرسان والحجاب وجاويشية ديوانه وساروا بين أطلال القصور والمبانى التى دمرتها النيران فلما رآه العامة ظنوا أنه أحمد عرابى عائد لقتال الانجليز فصاحوا الله ينصرك ياعرابى وما زال حتى دخل سراى رأس التين فلاقاه الاميرال سيمور فى نفر من الجنود الانجليزية يبلغون الثلثمائة مقاتل وأصعدوه الى السراى فجلس وجلس معه سيمور يتحادثان فيما لم تصل الينا معرفته لغاية الآن * فلما كان غروب اليوم نزل أيضا من كان على ظهور السفن من وكلاء الدول وصعدوا الى مقر الخديو وهنؤه بالسلامة وباتوا ليلتهم تلك وهم فى تحرز وأصبحوا وقد أنزل سيمور طائفة أخرى من عساكره الى البر ورسم لهم بالتطواف فى المدينة فجعلوا يطوفون فى الشوارع والحارات ومعهم بعض المدافع الخفيفة فكانوا اذا رأوا أحدا من العامة أو أسافل الروم بين أطلال الحريق يلتقط مابقى من النهابة رموه بالبنادق وشددوا فى ذلك فامتنع الناس قاطبة وكان الى ثانى يوم الحريق لم يبق فى المدينة أحد من العساكر والجنود المصرية ولا من الضباط ومقدمى العسكر الا انسحب الى حجر النواتية وامتدوا منه الى كفر الدوار وتركوا المدينة ومن بقى فيها يضرعون الى الله من هول ذلك اليوم العصيب

﴿ وقد نظمت قرائح بعض الادباء فى حريق هذه المدينة الآهلة القصائد الرنانة فمنها قصيدة لقدرى بيك أحد رجال الدولة الذين كانوا مع المشير درويش باشا قال فيها ﴾

اسكندرية هذه أحلام | أوقد قضت فيما ترى الايام
ما هذه الاحوال ياثغر الغنى | حارت بها الافكار والأوهام
أتكون قاعا بلقعا منشية | ان العمارة بعدها لحرام
أوتنظر العينان أبهج بلدة | أضحت رمادا والسماء قتام
أحرقت أعرابى ثغر بلادنا | والله قد حاطت بك الآثام
ياليت شعرى ما اقترفت فانه | ماسام هذا الفعل قبلك حام
فنقول من فرط الهنا أهل العنا | اسكندرية هذه أحلام

انتهى باختصار

﴿ وقال أحد الادباء أيضا فى هذا المعنى ﴾

تفطر القلب من حزن ولاعجبا | والدمع فاض على الخدين منسكبا
اسكندرية ماهذا الخراب وكم | من نكبة بك قد حلت فوا حربا
قتل وموت وتدمير مهاجرة | سلب ونهب وكف للنساء سبا

قد كنت راقصة مثل العروس وها أصبحت ثكلى فلا حظا ولا طربا
وكنت بالامس مثل الشمس مشرقة فناء كل ضياء عنك واحتجبا
ماهذه الحال فى يوم وليلته يحل فيك مصاب قط ماكتبا
يبكيك دان وقاص والدموع دم وقد كوت نارك الاهلين والغربا

(وقال طيب الذكر أديب أفندى اسحق فى ذلك أيضا)

عج بى على تلك الطلول ونادى أنى تحمل أهل هذا النادى
هل صادهم شرك الردى فأبادهم صرف أناخ على ثمود وعاد
أم غادروا الاوطان فى أوطانهم مذ حاذروا غدر الزمان العادى
وسل الرسوم وان خلت عنهم وما فعلوا قبيل رحيلهم بفؤادى
خلفته فى حبهم ميتا فهل أحياه أم حياه أهل ودادى
أم حملوه رديف صبرى والمنى وتجلدى وتعللى ورقادى
أم غادروه رفيق وجدى والضنى وتلهفى وتذللى وسهادى
ياوارد الاسكندرية طامعا بمنافع الاصدار والايراد
أقصورها خفيت عن الانظار أم آثار قصرى فى القفار بوادى
أم تدمر قد دمرت وعمورة ماعمرت أم دار ذى الاوتاد
هذى عروس الشرق ماتت فاكتسى حزنا عليها الغرب ثوب حداد
بالامس كانت والبياض دثارها واليوم صارت أرسما بسواد
كانت ملاذ الخائفين فأصبحت والخوف منه مبعد القصاد
كانت موارد للظماء وقد غدت ما ان بها من مورد للصادى
كانت مراتع نعمة فغدت وما فيها سوى البأساء للمرتاد
كانت وكان الدهر يسعد أهلها فأصابها بالاهل والاسعاد
كانت وكنا لا ينام حسودنا صارت وصرنا راحة الحساد
كانت وما تخشى بوادر ضدها فغدت ترجى رحمة الاضداد
قامت على أقوى العماد تزين ما تحت التى رفعت بغير عماد
فأبادها جهل خفى مابدا مثل له من حاضر أو بادى
جهل الذى رام الامانى وهى فى قمم الجبال وكان دون الوادى
وعدا ومالقى الثعالب عمره يبغى اقتحام عرائن الآساد
وسعى الى الشورى ولكن خالها لما تهتك برقع استبداد
وعلى المساواة ابتنى هدم الهنا لما تساوى حزبه بفساد
وقد ادعى فى عسفه حرية يامن رأى حرية استعباد
والى الاخاء دعا فنال بفعله من قومه مالم ينله العادى

شقمت

شقيت بزلته الجموع وطالما … أشقت جموعا زلة الافراد
وتلاه فى سبل الغواية معشر … زلوا وضلوا حيث ضل الهادى
غرسوا الجناية فى الجنون فما جنوا … مما جنوه غير شوك قتاد
وسعوا فسادا فى البلاد كأنهم … والحادثات أتوا على ميعاد
خلعوا الشعار المستعار من الحيا … فتقمصوا عارا الى الآباد
وتخيلوا أن الطريق خلت لهم … فسعوا فكان العدل بالمرصاد
فأتاهم رعد المدافع مبرقا … فنبوا عن الابراق والارعاد
وسطوا على المستأمنين خيانة … لم تشف منهم غاية الاحقاد
ورموا بنارهم الديار وبددوا … ما استجمعت من طارف وتلاد
نكر عرفنا منه أن لبعضهم … بز اللصوص وبزة الاجناد
ونقيصة يسعى بها أبناؤهم … لمقابر الآباء والاجداد
أسفا على تلك القصور فانها … كانت منى الوراد والرواد
أسفا على من قاده استسماؤه … للفاتكين ولم يجد من قاد
أسفا على قوم أتاهم فجأة … صوت المنادى بالبلاء ينادى
فتسارعوا طلب النجاة من الردى … بنفوسهم والاهل والاولاد
ياهولها من ساعة مرت بما … زهقت به الارواح م الاجساد
كم حامل خرجت بها محمولة … فوق الكواهل أو على الاعواد
ومصونة نفسا تقول لصحبها … ياليتنى قدمت قبل ولادى
لطخت بآثار الولاد ومادرت … جسدا تلطخ قبله بجساد
دمياء مايدميه لمس حريره … طفل قريب العهد بالميلاد
ومعمر لم يبق فى الدنيا له … غير السكينة من منى ومراد
ومريض قوم غاب عنه طبيبه … وجفاه أنس الاهل والعواد
خرجوا وهم لايهتدون سبيلهم … والنائبات روائح وغوادى
ودموعهم والنار فى أحشائهم … حلت محل مزادهم والزاد
فكأنهم إبل يبدو تالها … ألم السغوب وحاد عنها الحادى
تعلو وتهبط جانحات لا ترى … من بلغة فى أنجد ووهاد
أو أنهم قصدوا الصبوح فجاءهم … فى فجأة منهم طريد طراد
شهد الوبال ولم يجد من منجد … فأغذ فى الاتهام والانجاد
فتفرقوا والهول ملء قلوبهم … يقتادهم زمرا بغير قياد
أو أنهم أهل القبور تيقظوا … سحرا بنفخ الصور بعد رقاد
نشروا عراة واجفين فيومهم … يوم المعاد أتى بلا ميعاد

والنار موقدة سرت من خلفهم | فكأنها حيات بطن الوادى
والجند شرّدهم قتال عدوّهم | فرقا فلم يتجالدوا لجلاد
ونضوا على أهل السبيل بواترا | فى الحرب ما نضبت من الاغماد
قد حدّيت شفراتها لكنها | كانت على الاعداء غير حداد
ولرب عاد منهم فى رعدة | ما ان تسلم بصائد الرعاد
سكنت فرائسه على نهب الحى | من قبل تسكن رعدة الصياد
ومرأس حيث الجواد وخلفه | مما حباه النهب حمل جواد
عدم الرباط فشده بنجاده | وأتى معسكره بغير نجاد
فهم اللصوص وان هم قد أوهموا | أن ليس ما ارتكبوه غير جهاد
وبلادهم قد نالها من عارهم | مالم يحق فى عهدنا ببلاد
عيبت فلولا السابقون ومجدهم | وبقاء من ولدوا من الامجاد
ومؤيد ملك أمير عادل | أدنى بفرده على الاعداد
وعصابة كانت قلائد فضلهم | أبهى من الاطواق فى الاجياد
لم تلف فى مصر ومصر عزة | من قائل هذى البلاد بلادى
الا وقد ولى الشريف أمورها | فلها بحول الله خير معاد
مولى له فى النفع رغبة طامع | وعن المضرة عفة الزهاد
وهو الذى يحيا ليوم كريهة | وسداد ثغر من طريق سداد
واذا بدا من ليل خطب رأيه | أزرى بنور الكوكب الوقاد
يا حائز المجد الرفيع وجامع الـ | ـفضل الصديع وواحد الآحاد
ياجالب النعم العظام و رافع النقم الجسام ومؤئل القصاد

الى أن قال

بيضت بالنعماء أيامى وما | حالت فأصبغ عرفها بسواد
و بلوتنى فرأيت منى صادقا | ماشاب ورد صلاحه بفساد
وحميتنى والنائبات ملمة | ونصرت ضعفى والزمان معادى
وظهرت فيك بكل مدح صادق | صرف وما جرى كمين رماد
وقد اعتذرت وماورا متنصلى | فى القلب غير أمانة ووداد
فاذا صفوت فذاك غاية مقصدى | واذا رضيت فذاك كل مرادى
يا صبح كل مؤمل يانجح كل توسل ياموردا لامداد
لولاك ما أحييت ليلى ضاربا | فى الشعر بالاسباب والاوتاد
وصفا لما يجرى الدموع أقله | ويقل فيه تفتت الاكباد
فلقد هجرت الشعر لما أن رمى | ضعف السليقة سوقه بكساد

واسناه من ليس يفرق بين ما يفنى ويبقى عالى الانشاد
لكن رأيتك بالنصيرى جامعا نقد البصير ودقة النقاد
فنظمته نظم الفرائد مثل ما نظمت لديك قلائد الارفاد

الى أن قال

زعموا بان سريرتى قدكدرت فلمن يصافى بالجميل يصادى
فبعثت صافى الشعر يثبت صفوها ولو استطعت جعلت فيه فؤادى

انتهى

مطلب تأهب أحمد عرابى وأصحابه لقتال الانجليز فى البر

وأخذ أحمد عرابى وأصحابه فى التأهب والاستعداد للقتال فأرسل فى طلب الجند ومعدات الحرب من مؤن وذخيرة وسير فى طلب جماعة المهندسين وأرسل العيون والجواسيس الى أطراف الاسكندرية ليأتونه بالاخبار وأرسل الى القاهرة مكاتبة يقول فيها * اننا سنقاتل الانجليز دفاعا عن الدين والوطن فعجلوا بالمدد وثابروا على الدعاء للعسكر المظفر فعلم الخديوى بذلك فأرسل اليه يأمره بالامساك عن جمع الجند واعداد المعدات ويقول له لاخصومة قط بين بلادنا والدولة الانجليزية وان أمير سفن الحرب يقول انه على أهبة تسليم المدينة متى تم ترتيب القوة الحافظة لها واستتب الامن فيها وسأل أحمد عرابى أن يسرع بالحضور الى رأس التين ليكلمه فى الامر * وكان لما خرج أحمد عرابى من الاسكندرية بعد تلك الخطوب والقطوب المدلهمة ونزل كفر الدوار لحق به بعض من التف عليه من الاجانب وبينهم المستر بلانت الانجليزى الذى سبق لنا الكلام عليه فبينما هم جالسون مع أحمد عرابى اذ ورد خطاب الخديوى بما ذكر فأراه الى بلانت وشاوره فى الامر * قال بعض الكتاب فقبح له بلانت العمل بمشورة الخديوى وحبب اليه مقاتلة الانجليز حتى يذعنوا وقال ان الانجليز ليس لهم عسكر برى منتظم يقدر على مقاومة العساكر المصرية وان الدول كافة لاتترك الانجليز وشأنهم فى هذه البلاد فهن للانجليز بالمرصاد فاياك وأن تخدعك ظواهر الخديوى وأمير السفن وثابر على القتال حتى يعلموا أن فى هذه البلاد رجالا * قال وكان هذا الكلام خدعة من بلانت وتغريرا فاغتر أحمد عرابى وهان عليه كل خطب وكتب الى الخديوى يقول انى لم أقاتل السفن الانجليزية بجند القلاع الابعد أن صدر لى بذلك قرار مجلس الوزراء فاذا كان أمير السفن قد رغب الآن فى الصلح بعد انتشاب القتال فلا بأس به ولكن هذا الطلب لاينفى كون الحرب قائمة بيننا وبينه وانى لاأرغب عن الصلح ولكن مع المحافظة على شرف البلاد والحكومة فاذا أراد الامير تسليم المدينة فليسلمها وليعجل بسحب مراكبه عن الاسكندرية أما الاستعدادات الحربية فلا مندوحة عنها ولا بد منها حفظا لشرف البلاد مادامت السفن الانجليزية على سواحلها قال ولا يمكننى الرجوع الى الاسكندرية وألقى بيدى الى التهلكة مادام الانجليز بالاسكندرية وختم كلامه بطلب سائر الوزراء الى مقره بكفر الدوار ليتشاوروا

مطلب خداع بلانت الانجليزى لاحمد عرابى واغرائه على قتال الانجليز

فكبر الامر على الخديوى ومنع من ارسال أحد الى كفر الدوار وراجع أحمد عرابى وشدد

فى ذلك فلم يلتفت أحمد عرابى الى قوله وتجرد الى العداوة والبغضاء وأرسل فى الحال الى يعقوب سامى باشا وكيل ديوان الجند يومئذ يوقع بالخديوى ومن معه ويرميه بالتهم الطويلة ويصفه بالمروق وسوء النية نحو البلاد وأهلها ويقول انه هو الذى جلب كل هذه المصائب بسوء رأيه وفساد تدبيره وانه يطلب لذلك عقد مجلس من علماء الازهر ومشايخ القاهرة والوجهاء والاعيان ليروا رأيهم فى خلع الخديوى وتولية من يصلح لتدبير شؤن البلاد فجمع يعقوب سامى باشا جميع العلماء والمشايخ والرؤساء الروحانيين وأرباب المناصب العالية والاعيان والوجهاء وكبار التجار وعقد مجلسا منهم فى غرة رمضان برئاسة حسين دراملى باشا الذى كان وكيل نظارة الداخلية وتلا عليهم مرسوم أحمد عرابى وكان المكان غاصا بجماهير الناس حتى السوقة والغوغاء وأسافل القوم فما أتم القارئ كلامه حتى علت الضوضاء واشتد الهرج وجعل بعض العلماء والمشايخ يقبحون مافعله الخديو ويرمونه بالمروق وكان بينهم الشيخ عليش المغربى الازهرى شيخ المالكية فوقف فى وسط ذلك الجمع وقد أخذته رجفة فصاح الله أكبر الله أكبر قد خلعناه ياقوم قد خلعناه الله أكبر على من طغى وتكبر ثم اضطرب وأخذته الرجفة فكثر عند ذلك صياح العامة فكانوا بين مدمدم ومحوقل وناطق بالشهادتين ثم اتفقوا على أن يرسلوا الى الاسكندرية وفدا ليرى أولا مايدعيه الخديوى على زعماء العصابة عموما وأحمد عرابى خصوصا وثانيا ليحقق ماذا كان الوزراء مسجونين كما جاءت بذلك الاخبار وقد وقع اختيارهم لذلك على على مبارك باشا ورؤف باشا وأحمد بك السيوفى والشيخ سعيد بك الشماخى والشيخ على نايل والشيخ حمد كبوه فساروا الى كفر الدوار واجتمعوا بأحمد عرابى وحدثوه عما جرى فسرحهم الى الاسكندرية ومعهم نفر من الجند فلم يتمكنوا من دخولها الا بعد شدة زائدة وتمثلوا بين يدى الخديوى وقصوا عليه جميع ماوقع فساءه الامر ورسم بخلع أحمد عرابى من منصب الوزارة وطير الخبر بذلك الى الآفاق وكتب الى دار السلطنة يخبر بعصيان أحمد عرابى وأصحابه ورفع عن نفسه تبعة ماينجم عن فعالهم من الخطر على البلاد وأهلها وكان فى هذه الاثناء قد ورد مرسوم السلطان الى درويش باشا ومن معه بالعود الى دار السلطنة بناء على تغير الحال ونوال سفير الانجليز من المابين مأربا فعادوا وكأنهم عافاهم الله لم يحضروا الا لتضرب الانجليز حصون الاسكندرية وتحتل جنودهم المدينة على مشهد منهم وكان أحمد عرابى يعلم سر بعثتهم فلم يطع للخديوى كلمة وقد أخذ فى اعداد معدات الحرب والذخيرة وبالغ فى جمع العساكر والاجناد وانشاء القلاع والحصون على طول خط ملاحة الاسكندرية وعالج سد ترعة الاسكندرية ليمنع الماء عنها فلم يفلح وسير الى القاهرة يشدد فى طلب المؤن والمدافع وطوائف البنائين والمهندسين* وقد وصل الى القاهرة مرسوم الخديوى بخلع أحمد عرابى من منصبه وشاع خبره وتحدث الناس به فكادت تقف رحى أعماله وتنصرم حزمة آماله فأدرك يعقوب سامى ماوراء ذلك وجمع سائر من حضروا فى المجلس المنعقد فى غرة رمضان وتلا عليهم مارسم به الخديوى من خلع أحمد عرابى وتنزيله فاختلفت عند ذلك

مطلب
وصول مرسوم الخديوى الى القاهرة بخلع أحمد عرابى وما كان من وراء ذلك

ذلك كلهم وتفرقت أغراضهم وعلت بينهم الضوضاء وكان بينهم جماعة من كبار الضباط وصغارهم وطائفة من الجند فلما رأوا ما هو عليه ذلك الجمع من الهرج واختلاف الكلمة وأدركوا أن السواد الاعظم منهم ميال الى خلع أحمد عرابى كما رسم الخديوى قاموا وصاحوا فى وجوه الناس وارتفعت أصواتهم بسب الخديوى وتقبيح فعاله ونادوا القتال القتال مادام الانجليز فى قلب البلاد ثم أكثروا من الحركة وقبضوا على سيوفهم كأنهم يقاتلون الانجليز فانكمش سائر الحاضرين وخافوا وتحققوا أنهم ان مالوا الى خلع أحمد عرابى والعمل برسوم الخديوى أخذتهم سيوف الضباط وحراب الجند من أمامهم ومن خلفهم فقر رأيهم على استبقاء أحمد عرابى فى منصبه وتكليفه بالذب عن البلاد مادامت مراكب حرب الانجليز أمام الاسكندرية وعدم الالتفات الى ما رسم به الخديوى فطير يعقوب سامى الخبر بذلك الى الآفاق وعلم به الخديوى فاحزنه جدا ورسم ثانية بخلع أحمد عرابى وعصيانه وسير الكتب بذلك الى القاهرة وسائر المدن والبنادر فمنع الضباط وصولها وجعلوا يجوبون البلاد ويحضون الناس على بغض الخديوى ويسمونه بالمروق عن الدين وقام الخطباء والفصحاء من أهل البلاد يخطبون فى الناس ويحضونهم على معاونة زعماء العصابة والاخذ بناصر مقدمهم أحمد عرابى وقام بعض الشعراء من أهل القاهرة يلقون الاشعار الحماسية والقصائد المهيجة من ذلك قصيدة لاحد علماء الازهر يقول فى مطلعها

لعمرك ليس ذا وقت التصابى ... ولا وقت السماع على الشراب
ولا وقت الجلوس على القهاوى ... ولا وقت التغافل والتغابى
ولا وقت التشبب فى سليمى ... ولا وقت التشاغل بالرباب

الى أن قال

ولكن ذا زمان الجد وافى ... وذا وقت الفتوة والشباب
ووقت ليس فيه يليق الا ... اقامة بالقلاع وبالطوابى
ووقت فيه الاستعداد فرض ... اتنفيذ الأوامر من عرابى

الى أن قال

وفى مصر لقد طمعوا ومصر ... بكم والله أمنع من عقاب

وقال فيها

وقوموا بالثبات على الاعادى ... وقولوا فيهم فصل الخطاب
وان سألوكم من بعد هذا ... فما غير المدافع من جواب

الى أن قال

وقولوا يا عرابى مر بأمر ... تراه فأنت ذو الامر المجاب
ودم لوزارة لسوالك تأبى ... وان وصلت اليك بلا طلاب
وقولوا يا عرابى دم رئيسا ... لحزب النصر محفوظ الجناب

﴿ ونظم آخر قصيدة فى هذا المعنى قال فى مطلعها ﴾

نوال المعالى من طعان الكتائب ونيل الأمانى من ثمار المتاعب
وقهر الاعادى بالتدبر أولا وبعد باشهار السيوف القواضب

الى أن قال

ولسنا كقوم عن طريق الهدى عموا الى اليوم من اضلالهم فى غياهب

ومنها قوله

ومن كعترابى فى البرايا وحزبه أولى العزم أصحاب القنا والقواضب

وغير ذلك من الشعر والنثر شئ كثير لايسعنا ايراده هنا * وسير أحمد عرابى جماعة من الفرسان وأخرى من المشاة الى ناحية المندرة ووكلهم باستطلاع أخبار الانجليز فلم يبلغوها حتى خرج عليهم جماعة من عسكر الانجليز وناوشوهم القتال فقاتلوهم وتغلبوا عليهم فانهزم الانجليز وولوا الادبار فأعمل المصريون فى أقفيتهم السيف ثم عادوا فى ثانى يوم وقاتلوا حتى أجلوا المصريين عن مواقفهم فسير أحمد عرابى فى طلب المدد من المال والرجال ومد الحصون والقلاع من الرمل الى كفر الدوار وأقام بكفر الدوار خطا عرضه ثلاثون مترا وحفر تحته خندقا فاصلا مابين الخط والفضاء وقد جعل فى هذا الفضاء عدة كثيرة من القلاع وكان خط الدفاع الاول مما يلى المحلة بمسافة ألف متر على طول الخط الممتد من الرمل الى البيضاء وجعل ماوراء هذا الخط من المرتفعات والتلال مواقع محصنة الى كفر الدوار فبلغت عدة هذه الاستحكامات والمواقع الدفاعية زهاء الخمسمائة وكذلك فى المسافة الواقعة مابين كفر الدوار وأبى حمص وكان بين أبى حمص ومدينة دمنهور تل كبير مرتفع فحصنوه وجعلوه معقلا يقيهم عند الحاجة اذا تقهقروا الى الوراء وعززوا دمنهور بالكثير من المدافع الكبيرة وعبوا فيها المؤن والذخيرة ومعدات الحرب وأقام فيها جماعة من الجند ووكلهم بتسيير المؤن وتوصيل المدد الى كفر الدوار * ورأى سيمور من استعداد أحمد عرابى وتأهبه للقتال وقطعه لجميع المواصلات مع الاسكندرية مالم يكن يتوقعه فأرسل الى عاصمة الانجليز فى طلب النجدة وبسم فمدوا سلكا تلغرافيا تحت البحر من الاسكندرية الى بور سعيد وجاءه المدد من المشاة والفرسان وأصحاب المدافع على ظهور السفن من قبرص وجبل طارق ومالطه والهند وكأنهم كانوا جميعا على قيد فرسخ من مدينة الاسكندرية وجعلت حكومة الانجليز تبالغ فى التأهب والاستعداد غير سائلة عما تقوله بقية الدول ولا راغبة فى مشاورتهن ولا ميالة الى مشاركتهن وقد أعدت من المال لنفقة هذه الحرب مائتى ألف ألف وثلاثمائة ألف من الذهب وكان ماجاء الى سيمور من الجند ألفين وأربعمائة من الفرسان وثلاثة عشر ألفا من المشاة وألفا وسبعمائة من أصحاب المدافع وثلاثة آلاف وسبعمائة مابين خدمة المرضى وأصحاب الخدم وجيشا احتياطيا قدره ثلاثة آلاف ومائة مقاتل وكان المقدم على هذه الجملة قائدا اسمه الجنرال جارنت ولسلى وآخر اسمه أوبيا ومعهما

مطلب
طلب سيمور النجدة من عاصمة الانجليز

آخرون من الامراء والقواد فلما نزلت هذه الجيوش بمدينة الاسكندرية أخذوا فى ترميم ماتهدم من الجسور الواقعة على خندق الباب الجديد وما تداعى الى السقوط من جدران قلعة كوم الدكة ونصبوا بعض المدافع على باب رشيد للدفاع عن محطة السكة الحديد ونصبوا تسعة مدافع من الطراز الكبير على قلعة كوم الدكة وبالغوا فى تحصين المدينة لمنع الواصل اليها وسارت طائفة منهم الى الملاحة فقطعت خط السكة الحديد الموصل الى الاسكندرية لتكون المدينة آمنة من هجوم العصاة

مطلب مناقشة الباب العالى والدول فى خصوص ارسال عساكر سلطانية الى مصر

ووقع بين الباب العالى ودولة الانجليز وبقية الدول مناقشة وجدال فى أمر ارسال عساكر عثمانية أوعساكر مختلطة من الانجليز والفرنسيس والايطاليين الى مصر مااستغرق الايام الكثيرة ولكنها كلها كانت مما حكة ومراوغة فكان كل فريق من الدول ولا سيما العثمانيين والانجليز والفرنسيس يظهر للآخر خلاف مايبطن ويقول غير مايفعل ثم عادت دولة الانجليز وشددت على سعيد باشا مندوب الباب العالى فى تلك المفاوضة وأعلمته بأنها لاتسمح قط بأن تطأ أقدام الجنود العثمانية أرض الكنانة وأنها قد أخذت على نفسها ارجاع الحالة الى ما كانت عليه من الهدو والسكينة وتأييد مركز الخديوى بكل ماتصل اليه قدرتها فراجع سعيد باشا اللورد دوفرين سفير الانجليز فى ذلك * فلما كان خامس رمضان انقطع سعيد باشا عن ملاقاة سفير الانجليز وانكف عن مناقشته فى الامر فجعل السفير يفكر فى ذلك فما هو الا أن جاءه الخبر فى ثانى يوم بقيام سفينتين كبيرتين من سفن النقل العثمانية وعليهما جماعة كثيرة من العسكر العثمانى وكان قيامهما من دار السلطنة تحت جنح الليل وفيهما أيضا كثير من الذخيرة والمؤن ومعدات الحرب وأن قد قام بعدهما أيضا فى نفس تلك الليلة مركبان أخريان احداهما الى ازمير وثانيتهما الى الدردانيل وفى ثالث ليلة قام غيرهن يحملن كثيرا من الجند وآلات الحرب وقامت أخرى فى خامس ليلة من الجهة المعروفة بقرن الذهب الى صورا باى بمياه جزيرة كريد وكانت فى نفس هذه الليلة مركب أخرى على أهبة القيام الى جهة غيرمعلومة وشاع الخبر حينئذ بأن السلطان قدرسم بجعل جميع هذه القوات تحت امرة درويش باشا وآخرين من كبار القواد العثمانية فتأهب هؤلاء للقيام على ظهر الباخرة عز الدين الى سلانيك ثم يسيروا منها ليلتقوا بالجند اما بمياه رودس أومياه صورا باى فخشى سفير الانجليز عاقبة ذلك وأزعجه الخبر وسير الى كبير سياستهم يعلمه بالامر فلم يكن بأسرع من أن جاء الامر الى سيمور أميرال سفن الحرب الراسية أمام الاسكندرية يقول * اذا جاءتكم مراكب حرب الدولة العثمانية فامنعوا من نزول أحد من جندها بالاسكندرية وبورسعيد وأى جهة من الموانى المصرية واحذروا مااستطعتم وأعلموا مقدمى العساكر السلطانية مع غاية الرقة والتلطف بأن يرجعوا فورا الى جزيرة كريد أو الى أى جهة يشاؤنها واياكم والتغافل * فرتب عند ذلك سيمور مراكبه وصفهم فى سلك الدفاع وأبلغ سفير الانجليز خبر ذلك الى سعيد باشا مندوب الباب العالى فراجعه سعيد باشا وقال ان

السلطان رسم بتسيير عسكره وهو يكفل بارجاع الامور الى سابق مجراها من الامن وصفاء الحال وسيرسم أيضا بعصيان أحمد عرابي واعتباره خارجا عن طاعة أمير المؤمنين فلا موجب اذا للتعرض لمراكب الدولة اذا وصلت الى الموانى المصرية التى هى جزء من بلاد السلطنة فقال السفير قد ذهبت الفرص وطاش الغرض ولم يبق من حاجة الى شئ من ذلك البتة وقد سارت الجنود الانجليزية على جناح الطائر الميمون وما كنا نرجوه بالامس قد أصبح عندنا اليوم أمرا مقضيا فراجعه سعيد باشا فلم يقبل فقال له قد قبلت الدولة سائر مقترحات الدول بشأن ارسال العساكر السلطانية وبسائر الحدود والاختصاصات التى حددتها لها بالديار المصرية وصرحت بقبولها جميع ماترى الدول لزوم اجرائه أيضا لارجاع الامور الى ماكانت عليه فقال السفير لاسبيل الى ذلك وقد نفذ المقدور فكبر الامر على السلطان واستعظمه للغاية وارتبكت أحوال الباب العالى وكثر توارد الجنود الانجليزية على مدينة الاسكندرية وقدم اليها فى خامس عشرى رمضان الدوق أوف كانوت ثالث أولاد ملكة الانجليز وهو أحد مقدمى العساكر وأخذوا فى تحصين بعض القلاع والحصون وتعبية المؤن والذخيرة ثم جعلوا يناوشون العساكر المصرية عند كنج عثمان وحجر النواتية وكفر الدوار مناوشة خفيفة ونشر ولسلى مقدم العساكر الانجليزية منشورا يقول فيه * لم تأت الجنود الانجليزية الى هذه الديار بقصد الغزو أو فتح البلاد وانما حضورهم لردع العصاة وايقاف تيار الفتنة الى حد ارجاع الهدوّ والسكينة الى سابق مجراهما وتأييد سلطة الخديوى جهد الاستطاعة * ثم رسم فألقوا بأوراق من هذا المنشور فى مواقع المصريين ليعلم الضباط ما فيها فالتقطوا منها شيأ كثيرا

مطلب ابتداء القتال مابين الانجليز والمصريين

ولما كان خامس شوال انتشب القتال مابين طليعة العرابيين وبعض الجنود الانجليزية عند كفر الدوار وطال زهاء الساعتين ثم انجلى عن هزيمة العرابيين فباتوا ليلتهم تلك وأصبحوا يقاتلون فكانت الحرب بينهم سجالا وباتوا وأصبحوا فاقتتلوا قتالا عنيفا فأظهر العرابيون بسالة زائدة وكادوا يستظهرون على الانجليز فطلب مقدمهم المدد فجاءه على قطارات السكة الحديد من الاسكندرية واشتد الرمى من الجانبين بالقنابل والرصاص شدة بالغة ثم افترقوا وقد تحرز كل فريق فى موقفه وكان مقدم العرابيين فى هذه المواقع طلبة عصمت وأصبحوا ولم يتقدم الفريقان لقتال وكانت أخبار الحرب والقتال تأتى الى الاسكندرية والقاهرة على غير حقيقتها منقولة عن الفلاحين والعربان وضباط الجند ومقدمهم طلبة عصمت فلم يحلها عقلاء الناس محل التصديق ولم يعيروها جانب الالتفات* ونزل من كان على ظهور السفن الراسية أمام الاسكندرية من الاجانب على اختلاف أجناسهم الى المدينة ودارت رحى الاعمال فى دواوين الحكومة وباشر أرباب الوظائف وظائفهم على قدر الاستطاعة فعز عند ذلك المأكول ونفد ما كان موجودا منه ببعض الحوانيت واشتد الجوع بالناس ثلاثة أيام خرج فيها صغار الناس على اختلافهم الى رحبة سراى رأس التين وهم يضجون

ويجون فهال الخديوى أمرهم ورسم باطعامهم وشدد فى ذلك فرتبوا لهم مشارد الثريد بالارز واللحم مرتين فى كل يوم وكان الخديوى يلاحظ اطعامهم بنفسه وهو مشرف عليهم من مجلسه وشدد الانجليز فى المحافظة على المدينة فكانت الجنود تطوف فى النهار والليل ومنعوا من خروج الناس من بيوتهم بعد غروب الشمس الا من كان معه كلمة سر الليل وهى كلمة كان يتفق عليها فى غروب كل ليلة ليعبر بها من يتلقاها وكانوا يقبضون على كل من يرونه سائرا بغير مصباح ولو كان يعرف سر الليل وأفحشوا فى رمى الناس بالرصاص لاقل سبب وكان اذا رأى أحد المرابطين أحدا فى الطريق بعد الغروب نادى عليه بكلمة (هات) ومعناها قف فان لم يجبه على الفور بكلمة (فرند) يعنى صاحب أو رفيق رماه بالرصاص فيسقط ميتا واذا رأوا مارا بحارات المنشية أو غيرها من جهات الحريق ظنوه يلتقط ماىبقى من المنهوبات فيقتلونه فى الحال برمى البنادق نخاف الناس واستوحشوا وامتنع خروجهم قاطبة فكانت شدة عظيمة ووحشة بالغة * وتقدم اسمعيل راغب باشا الى الخديوى فى قبول خلعه نفسه من منصب رياسة الوزارة فقبل منه ذلك ورسم الى الوزير محمد شريف باشا بتشكيل وزارة أخرى مع قبوله هومسند الرياسة فأذعن وأطاع *وكان لما طير البرق الخبر الى الديار الاوروباوية بخروج عرابى وأصحابه عن طاعة الخديوى واشهاره الحرب على الانجليز وبقاء الخديوى مع كبار الدولة وحاشيته بمدينة الاسكندرية وكان مصطفى رياض باشا يومئذ باحدى مدن الفرنسيس فارا من وجه زعماء العصابة على ماتقدم بيانه فى محله عاد من فوره الى الاسكندرية وتمثل بين يدى الخديوى مسترحما فعفا الخديوى عنه ورسم له بتولى نظارة الداخلية ووردت الاخبار بذلك الى القاهرة فلم يحفل أصحاب الزعامة بها ولا أحلوها محلا وجدوا فى ارسال المددالى كفر الدوار وهم يشيعون فى كل يوم أخبار هزيمة الانجليز ووقوع الموات فيهم وسير أحمد عرابى الى المديرين والمحافظين فى طلب حشد الجند من خفراء البلاد وتسييرهم الى مواقع التل الكبير وفرض على كل مديرية عددا فكان ماخص البحيرة ألفا ومائة واثنين وسبعين والقليوبية ألفا وثمانية وثلاثين والشرقية ألفين وسبعة وسبعين والغربية ثلاثة آلاف وأربعمائة وخمسة وثلاثين والدقهلية ألفين وستمائة وخمسة وستين والجيزة ألفا وثلاثمائة وخمسين وبنى سويف ستمائةوخمسةوتسعين والفيوم ثمانمائة وثلاثة وستين ومنية ابن خصيب ألفا وسبعمائة وثمانية وثلاثين وأسيوط ألفين وثلاثمائة وخمسة وأربعين وجرجا ألفين ومائة واثنين وستين وقنا ألفا وستمائة وعشرة واسنا ألفا وأربعمائة واثنين وستين فكان جميعهم خمسا وعشرين ألفا فاهتم بعض المديرين بهذا الطلب وبالغ فى الاهتمام وتراخى البعض الآخر ولم يحفلوا به لما يعلمونه من سوء العاقبة وسوء المصير وجاءت الاخبار بذلك الى أحمد عرابى وهو على حصون كفر الدوار فكبر عليه الامر واستعظمه وعاود الطلب وشدد وهدد وقام الخطباء من أهل البلاد فى المساجد يحضون الناس على الجهاد ودفع العدو وأكثروا من الارجاف والتهويل وقام بمدينة أسيوط رجل

مطلب
استقالة اسمعيل راغب باشا من منصب الوزارة وتوليتها للوزير محمد شريف باشا

اسمه الشيخ على الملجى فجعل يحض الناس على الغزو والجهاد ويستفزهم الى التطوع فى سبيل طاعة أحمد عرابى وخطب فيهم يوما يقول

الحمدلله الذى جعل أمة محمد صلى الله عليه وسلم خير الامم * وعوّدها العناية والنصر اذا العدوّ بها ألم * لا اله الا هو لا عز لنا الا به الى يوم الدين * فهو المختص باعانة من هاجر فى سبيله وكاف عزمه وسمعه * لقوله تعالى ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الارض مراغما كثيرا وسعة ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله ان الله لايضيع أجر المحسنين * ونحمده سبحانه وتعالى على ماأولانا من النعم * ونتوب اليه من جميع الآثام اذا انجرّ بها القلم * ونسأله اللطف والاعانة على الكافرين * وأشهد أن لااله الا الله وحده لاشريك له * المتعالى عن المشاركة والمشاكلة * وعن أن يحتاج لمشارك له فى إعانة من خرجوا من بلادهم متطوعين * وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله * وذروة سنام المجد وتاجه واكليله * رسول خصه الله بالعناية والفتح المبين * اللهم صل وسلم على هذا النبى العظيم * والرسول السيد السند الكريم * سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه كلما برق بارق النصر للؤمنين وبان أثر الذل على الخائنين * وسلم تسليما كثيرا

أما بعد فياعباد الله لاخفاء أنه قد مرت بنا فى الزمن السالف أيام غير صافية العيش للسلم * وما ذلك الا لعدم الحمية الاسلامية فى حكامه الذين كانوا كالليل المظلم * اذ كانوا منهمكين فى ميدان حظهم الدنيوى وعن الدين غافلين * والآن قد ظهرت البشائر بعز المسلمين وسطوتهم * اذ قد اعتدل حكام الوقت أيدهم الله بالاخذ فى أسباب قوة الدين ورد ماضاع من شوكتهم * وصاروا باذلين الهمة فى التوصل لما يبعد الامة عن التشويش ولما يكونون به آمنين * اذ قد شرع رئيس المجاهدين المؤيد بنصر ربه فى مدافعة من كانوا فى تشويش الأمة أول سبب * وباع نفسه هو وجيشه للجهاد فى سبيل الله ولم يبال بمشقة ولاتعب * كل ذلك لحفظ الوطن واعلاء كلمة الدين * فطوبى لقوم باعوا الحياة الدنيا وشروا الآخرة ولم يكن لهم مطمح نظر سوى النصر من رب العالمين * واعلموا عباد الله بأن الله تعالى أمرنا فى كتابه المجيد بالقتال وأوضح لنا أمره * فنعم السيد الآمر ونعم من امتثل أمره * وتأمل فى قوله تعالى ياأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين * فالمسلم العاقل من اكتفى بأمر مولاه * واشترى آخرته وباع دنياه فى سبيل الله * وتباشر بقوله تعالى فان يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين باذن الله والله مع الصابرين * فأقبلوا عباد الله واخلعوا عنكم ثياب البخل والكسل * وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله قبل اقتراب الاجل * وزودوا أنفسكم التقوى وأعرضوا عن المتقاعدين * فن الواجب الآن على غنينا القاعد بذل الهمة فى الانفاق على من تبرع بنفسه

لدفع الاعادى * وصارت شهامة الاسلام على وجهه وجميع أعضائه تنادى * وجعل قوته قوله تعالى « ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا كذلك حقا علينا ننجى المؤمنين » فمن لم يقنع الآن وبعد الآن بما سمعه فهو منافق * ومن دين الحق مارق * وغافل عن قوله تعالى « فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين » قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان الله تعالى قال من انتدب خارجا فى سبيلى غازيا ابتغاء وجهى وتصديق وعدى وإيمانا برسلى فهو ضامن على الله عز وجل إما أن يتوفاه فى الجيش بأى حتف شاء فيدخله الجنة وإما أن يسيح فى ضمان الله وإن طالت غيبته حتى يرده الله الى أهله مع ما نال من أجر أو غنيمة وعلى الله قصد السبيل » ﴿ وجاراه فى ذلك أيضا آخر اسمه الشيخ محمود ابراهيم من أهالى أسيوط فخطب يقول ـ حمدا لمن جعل أعلام الملة المحمديه * على كواهل أعلام الامة العربيه * وحرسها بشهب ثاقبات * لرجم شياطين أهل البغى والغوايات * وصلاة وسلاما على من كان اذا أراد غزوا ورّى به * ليتأهب ذو الهمة فيتوجه بصادق آرائه * وعلى آله الذين أقاموا أنفسهم أسوارا لحرمة الدين * ومن تبعهم فى المحاماة من كل حر لعرضه يصون ﴿ أما بعد ﴾ فان الانجليز قد طاشت عقولهم * وعميت بصائرهم * فلم يحسنوا الضروريات فساموا بسوق أموالنا وديارنا نفيسها * وساقوا الينا من زيف المعارضات خسيسها * وقابلوا عيشنا بخداع * وقنشوا أكنافنا لغدر أضمروه ليوم النزاع * ونحن لما جبلنا عليه من محاسن الايمان * وفينا لهم بعقد الذمة والامان * فعاملناهم بالحسنى * وجبرنا ما كان منهم ضعفا ووهنا * فلما صحت أبدانهم * وعمرت أوطانهم * لم يقنعوا بذلك * بل طلبوا التصرف فينا تصرف المالك * فعاد عليهم سوء الحال بالانقلاب * فخربوا بيوتهم بايديهم من غير زعزعة منا ولا اضطراب * وهكذا خاتمة أهل السوء والفحشاء * والله يؤيد بنصره من يشاء * حيث أقام ناظرا بعين الشرع ناظر * لم يخش فى الله لومة لائم أو زجر زاجر * فقابل كتائب الضلال * وأذاقهم كأس النكال * وقام خطيبنا يدعو الى دعوة الحق * اذ كان من أم الكتاب بها فى عصرنا هو الأحق * فلباه أناس باعوا أرواحهم للجهاد * فى قطيع جيش الضلالة والعناد * فأقبلوا اليه من كل فج عميق أفواجا * بالمال والنفس فرادى وأزواجا * فعند ذلك دهى الانجليز مادهاها * حيث لم يكن فى حسابها ماعراها * فنسأل الله أن يكون سعادة أحمد عرابى باشا هو المشار اليه بـ(يبعث الله على رأس كل مائة سنة) فان البشائر دلت عليه * حتى يمزق الباغون كل ممزق * ويحيا المندوب والمفروض بهذا الموفق * وتموت البدع الى أسود القطر بظلمائها * ويختفى شارق الظلم بارجائها * فحاشا أن يجعل الله ديار أهل بيت نبيه فى ذمة كافر * جعل الله سعادة أحمد عرابى باشا وجنده الظافرين باعدائنا فى المبدا والآخر آمين

مطلب ارتحال سيمور بسفن الحرب عن الاسكندرية الى بورسعيد وماكان بعد ذلك

وجاء الأمر الى سيمور البحر بعد وصول ولسلى مقدم العساكر البرية كما تقدم القول

فرحل سيمور بسفنه من الاسكندرية الى بور سعيد وألقى مرساها أمام المدينة على هيئة الدفاع وبقيت سفن النقل أمام الاسكندرية وكان لما وصل سيمور بسفنه الى بوغاز بور سعيد رأى هنالك سفينة حربية صغيرة اسمها الصاعقة راسية أمام المدينة فتخوف سيمور منها وقد جاءه الخبر بان فيها من الديناميت والمواد الالتهابية ما يكفي لسد البوغاز في أسرع من لمح البصر وأن ربانها من أحب الناس الى أصحاب الزعامة فتحرز سيمور منها وباتوا ليلتهم تلك وقد قضى ملاحو الصاعقة ليلتهم في جلبة وحركة فلما أصبحوا أرسل سيمور الى الربان يقول ما هذه الحركة وما داعي تلك الجلبة وقد شوشتم علينا وأقلقتمونا فقال الربان هي حركة لابد منها أمام السفن الاجنبية فأرسل اليه ثانية يقول كف والا ألحقتك والمركب الى قاع البحر وارع حرمة سفن الحرب الانجليزية ما دامت على قدم الاستعداد فانكمش الربان وخاف * وقدمت الى بور سعيد بعض الطرادات الافرنسية والالمانية والايطالية تخفر السواحل يمنة ويسرة وحضرت مدرعة كبيرة انجليزية اسمها أوريون ورست أمام البوغاز فمانع أصحاب البوغاز من الفرنسيس في دخولها فبقيت أياما ثم دخلت وسارت حتى رست في بركة التمساح وكان فيها من الضباط مائة واثنان وأربعون ومن العساكر والاجناد عدد كثير * قيل وكان من أخص عمل هذه السفينة الوقوف أمام القنطرة بعد قطع خط التلغراف الموصل الى دار السلطنة ثم عدلت عن قطعه وعادت فألقت مرساها أمام مدينة الاسمعيلية * وكانت الحرب الى هذا الحين قائمة ما بين العرابيين والانجليز عند مواقع كفر الدوار والمواقع الامامية بلا انقطاع حتى أتت الاخبار الى أحمد عرابي بوصول مراكب الحرب الى مدينة بورسعيد ونزول جيوش واسلي بمدينة الاسمعيلية فسار من كفر الدوار الى التل الكبير ومعه جماعة من الضباط وطائفة من الحرس فلما وصل قطاره الى مدينة الزقازيق خف للقائه العمد والاعيان والمشايخ وأرباب الطرق والاشاير وموظفو الحكومة فنزل بالمحطة وعلى يمينه عبد الله صاحب الطائف وجلس بالكشك المقابل لها فاجتمع عند ذلك زعانف الناس حول الكشك واشتد زحامهم وعلا الضجيج وكثر الصياح بكلمات وعبارات قد لفقوها على قدر عقولهم من مثل العسكر في الطوابى * الله ينصرك ياعرابى * يامولانا ياعزيز * أتاك عسكر الانجليز * ياسيمور ياوش القملة * من قال لك تعمل دى العملة * وغير ذلك من بذيء القول وفحش الكلام ولبث على هذا الحال برهة ثم قام ودخل عربة القطار وهو ينادى أنا لها أنا لها والناس في ضجيج زائد والغوغاء يصفقون بأيديهم ويضربون الارض بأرجلهم فسار به القطار الى التل الكبير على عجل وجعلوا من هذا اليوم يتابعون ارسال المؤن وآلات الحرب الى التل الكبير وتوارد الجند من مشاة وفرسان وأصحاب المدافع وكثر الوارد منهم فتعطلت قطارات السفر من الاسمعيلية والسويس وهاجر من بالسويس من رجال الدولة وبعض الاهالى وأجهد الجند الطاقة في انشاء الحصون والمعاقل وأقاموا المتاريس على مسافة وجمعوا الكثير من أهل البلاد

لهذا العمل ورتبوا المقدمات وبالغوا فى تعبئتها وعالجوا قطع الماء الحلو عن الاسمعيلية والسويس وتبع العسكر كثير من السوقة وأصحاب الصنائع الدنيئة مثل الاسكافية والقهوجية والسمكرية والخياطين وباعة الافيون والمكيفات ونصبوا لهم المطاول وعملوا التايات والعشش من القش والبوص وغير ذلك فاصبح ذلك الصعيد آهلا باصناف الناس وكانت لما رست تلك السفينة الانجليزية أمام مدينة الاسمعيلية تصدت الى سائر ماوجدته هنالك من بقية السفن على اختلافها ومنعت وقوفها أمام المدينة وشددت على أصحابها وضيقت فرحلوا عنها وهم صاغرون وخلا لها الجو فلم يمض الا النصف الاول من تلك الليلة حتى قامت فى المدينة حركة شديدة للغاية وضوضاء وجلبة ثم اشتد بعد ذلك اطلاق البنادق وجر المدافع وزحف الجند فهب الناس من مضاجعهم مذعورين وكأن على رؤسهم الطير ونظروا واذا العساكر الانجليزية قد ملأت الفضاء وهم فى حركة زائدة كأن العدو يهاجمهم ثم لم يمض على ذلك الا ساعة أو بعض ساعة حتى دوت أصوات المدافع من تلك السفينة وسفينة أخرى جاءت فرست بجانبها اسمها كارليفود واشتد الرمى وتراسلت القنابل على مواقع العرابيين بناحية نفيشة وما زال الحال هكذا طول الليل فلما أشرقت الشمس سكتت المدافع وخرج جماعة من الانجليز قاصدين قرية العرب فلما رآهم أهلها مقبلين خرجوا على وجوههم هائمين فاخذتهم نيران البنادق من كل جانب لاسيما منهم النساء والاطفال ثم قطعوا سائر خطوط التلغراف القائمة مابين السويس والاسمعيلية والقاهرة فاشتد الخوف بأهل الاسمعيلية من الاجانب والاهلين ونزح الكثير منهم الى بور سعيد والمنزلة والمنصورة وغيرها ووصل الى الاسمعيلية سيمور أمير سفن الحرب وولسلى مقدم العساكر البرية وكثر توارد المؤن وآلات الحرب ودواب الحمل من الجمال والخيل والبغال على ظهور السفن والشوانى واشتدت الحركة بزحف العساكر وجر المدافع وتحميل الاثقال قيل فأخذت أحمد عرابى وأصحابه الطيرة واشتد بهم القلق وقد كانوا على عهد معدى لسبس فاتح خليج السويس بانه لا يمكن سفن الانجليز من العبور والوصول الى مدينة الاسمعيلية فكتب أحمد عرابى الى المابين الهمايونى كتابا يقول فيه * كنت قد بسطت لعطوفتكم قبل الآن أمر اعتداء الانجليز وتسلطهم فى جهتى السويس والاسمعيلية على الترعة ومخالفتهم للعهود بما جاء مخلا بنظام الترعة وبسطت أيضا ماكان من الهمة التى بذلناها فى جعل الترعة على الحيادة لانها نقطة وحيدة لاجتماع منافع الامم وممر تجارة العالم أجمع وحيث قد قرب الآن توجه المحمل الشريف والحجاج المسلمين الى جهة الحجاز كتب الى المسيو دى لسبس الموجود الآن فى الاسمعيلية بالاستفهام عما اذا كانت انجلترا تمانع فى مرور عساكر المحافظة المعتادة على التوجه مع المحمل الشريف أولا فأجاب وكالة الجهادية بالتلغراف قائلا انه بالنظر الى الاحوال الحاضرة لايمكنه أن يأخذ على نفسه تبعة ارسال المحمل الشريف قال وبعد ورود هذا الجواب منع الانجليز جميع سفن الدول الحربية من المرور

مطلب ماكتبه أحمد عرابى الى المابين السلطانى بعد نزول العساكر الانجليزيه الى مدينة الاسمعيلية

بالقنال وقطعوا الاسلاك البرقية الكائنة بين السويس والاسمعيلية كما عرفنا ذلك بالتلغراف ثم أدخلوا سفنهم الحربية مع العساكر باسلحتهم وقد أجرينا الاحتياطات لمقاومة العدو اذا تقدم الى داخلية البلاد وكان قومندان الخط الشرقى ومحافظ الاسمعيلية ويوزباشى المستحفظة هنالك قد أفادوا أن من عزم الانجليز أن يطلقوا مدافعهم على النقط العسكرية الكائنة فى مداخل البلاد ففى هذا الصباح علم من الاخبار الواردة أن الانجليز شرعوا فى الساعة التاسعة من ليلة أمس فى اطلاق القنابل من جهة الاسمعيلية على نفيشة أما نحن فبالنظر الى احترامنا لعهود الترعة بان تكون على الحياد والى عدم تقوية تلك النقطة وعدم وجود قوة عسكرية تقوم بشأن المحافظة على النقط فيما عدا نقط العساكر المستحفظة وموالاة التحريض الشديد على عدم مس حقوق الترعة كل ذلك جعلنا فى مأمن تام من تحمل أى تبعة كانت . ولما بدا من الانجليز هذا الاعتداء على ضفاف الترعة أقام المسيودى لسبس الحجة على الاميرال الانجليزى وارسل صورة الحجة بالتلغراف الى الحكومة الفرنساوية فاتصل خبرها بوكلاء الدول فى عاصمة الحكومة المشار اليها فأعلموا بها دولهم بصفة رسمية أما الانجليز فسيرا منهم على حكم المثل السائر « البادى أظلم » لم يلتفتوا الى إقامة الحجة بل أصروا على الاخلال بنظام الترعة وفى هذا الشأن أرسل تلغراف الى المسيودى لسبس بما يأتى « بما ان الانجليز خرقوا نظام حيادة الترعة فقد صارت مصر مضطرة الى سدها وتعطيلها منعا لاعتداآتهم فاذا لم يرد لنا جواب فى مدة أربع وعشرين ساعة اضطررنا الى اتخاذ الاحتياطات اللازمة للمدافعة » — قال — فمن التفاصيل التى تقدم سردها تعلمون أن الدولة الانجليزية التى كانت متخذة لها مقاما خطيرا لدى الخلافة الكبرى وفى دار السلطنة العظمى وكانت تزعم أنها أشد الدول محافظة على السلام وأنها لاتحارب مصر ولا تقصد بها شرا قد أوقعت المسلمين فى إشكال عظيم ومن التعدى الذى قامت به أمس ظهر فى الواقع انها تتظاهر بخلاف ما كانت تزعمه سابقا وتحقق أيضا أنها مقاومة لجميع المصريين الامة الخاضعة للدولة العثمانية وأنها داست بارجل المطامع منافع جميع الدول ولم تخش أحدا ورمت بنار الحرب والقتال إقليما عظيما فبما أن أعمال الانجليز وصلت الى هذه الدرجة لم يعد فى الامكان أن نتراخى فى اتخاذ الوسائط الموصلة لدفع كيدهم وأما النتائج الوخيمة التى ستترتب على ذلك فستكون عائدة على المعتدى الظالم وقد بسطت فيما مضى شرح الاحوال التى كانت جارية يوم تدوينها وإرسالها فلكى يكون ما أعقبها غير خاف على شريف علم ظل الله بادرنا الى كتابتها وتقديمها لنادى عطوفتكم اه * وكان أحمد عرابى وأصحابه يعلمون أن دخول عسكر الانجليز الى جوف البلاد سيكون من هذه الارجاء الواسعة ولا سيما من جهة الصالحية فعقد مجلسا من جميع الضباط وكبار العصابة وتكلموا فى هذا الأمر ثم استقر رأيهم على تجييش قوة ثالثة يكون مركزها الصالحية وسيروا فى طلب ما جمعوه من خفراء البلاد بالجهات القبلية والبحرية وألبسوهم الدرعيات من البفتة البيضاء ولبد الصوف

عوض الطربوش وسلحوهم بالبنادق والقرابينات على غير دربة ولا خبرة وجعلوا المقدم عليهم على الروبى أحد زعماء العصابة وساقوهم الى الصالحية فعسكروا بها وعملوا بعض الخطوط والمتاريس وخرج معهم محمود باشا البارودى متطوعا يريد الغزو والجهاد فى الانجليز * وكان أحمد عرابى قد أعد لنفسه بالتل الكبير خيمة سعيد باشا ابن محمد على الكبير وهى من عجائب الخيام التى قل أن يكون لها مثيل وأقام بها بين الخدم وطوائف الحرس كأنه فى عرس أو وليمة فجاءه جميع العلماء والمشايخ والعمد والاعيان ووجهاء البلاد للسلام وهاداه عمد ومشايخ سائر البلاد بالهدايا من السمن والارز والعسل والدقيق وعجول البقر وفحول الجاموس والضأن لطعامه وطعام الجند المحاربين معه وأكثروا من إرسال الحلوى والفاكهة على اختلافها فكانت تأتى اليهم على قطارات السكة الحديد * وكان لما ذاع الخبر بما عليه المحاربون من الراحة ورغد العيش تطوع الكثير من أرباب الطرق والاشاير والمتعممين وأصحاب العكاكيز من سائر البلاد القبلية والبحرية وسار من منية ابن خصيب الى مواقع التل الكبير الشيخ عبد الجواد ومن اليمون الشيخ الجنيد فى لموم كثيرة وطبول وزمور وكاسات وبيارق فانزلوهم فى ناحية أعدت لهم فكان لاهم لهؤلاء القوم البتة سوى طلب المأكول والمشروب فى الاوقات الثلاثة فاذا أكلوا وشربوا وامتلأت بطونهم من الثريد واللحم المسلوق وجحظت عيونهم عقد كل طائفة منهم مجلسا كما يسمونه فيذكرون ويرطنون بكلمات لا معنى لها البتة ويصيحون وينادون مدد مدد فاذا اشتبك القتال بين الجند والانجليز واشتد رمى المدافع والتقت نيران البنادق بالبنادق صاحوا وترامحوا ونادوا ياسيد يا بدوى ياأبا عبد العال ياآل البيت يارجال الله ثم لا يلبثون أن يختفوا عن الابصار فاذا بطلت الحرب عادوا الى حلقات الذكر وتكلموا برطانتهم ثم يقولون قتلنا من الكفار كذا وذبحنا بحد السيف كذا وكذا ولا نزال بهم ان شاء الله حتى نأتى على آخرهم ببركة آل البيت وكذلك كان يفعل جماعة العربان الذين كانوا بالصالحية مع معسكر على الروبى عند النداء فى العسكر بالخروج الى القتال

مطلب فيما كان عليه المتطوعون من أصحاب الطرق والاشاير

وبينما كانت الحال على ماوصفنا فى مواقع التل الكبير وكفر الدوار والصالحية كان العامة بطنطا ودمنهور والمحلة الكبرى يفعلون مالا يوصف من النهب والقتل والعربدة ويكثرون من التطواف ليلا ونهارا جماعات وبايديهم العصى والمساوق وهم فى ضجة وجلبة وصياح ياخمولانا يا عزيز أهلك عسكر الانجليز وغير ذلك من العبارات التى لفقوها * حدثنى من شاهد فعال العامة بمدينة طنطا ورآها رأى العين بعد كلام قال * ولم أتجاوز البيت يعنى بيته حتى رأيت البلد يضج بالغوغاء وصراخ النساء والاطفال وتجمع الناس فى الازقة والشوارع يدفع بعضهم بعضا فسألت عن السبب فقيل لى ان الحرب على أبواب البلد وقد ثار المسلمون على النصارى يذبحونهم وينهبون بيوتهم ويسبون نساءهم وأولادهم فقلت فى نفسى فتنة ورب البيت وأسرعت الى مقر ديوان المديرية فرأيت أمامه من المناظر المحزنة

مطلب المذابح فى داخلية البلاد

والمشاهد الموجعة ماتنفطر منه الأكباد فقد كانت الناس تقتل وتجر من أرجلها على الارض كالبهائم المأخوذة الى السلخ بعد الذبح وكان الغوغاء وخفراء الديوان يحملون العصىّ والمساوق ويوقعون العطب بكل من يمر عليهم من النصارى ولا يرفعون أيديهم عنه حتى يقضى عليه وكان بعد موته على هذه الحالة الشنعاء يستلمه جماعة آخرون فنهم من يجره من رجليه ومنهم من ينزل على رأسه بالهراوة حتى تتطاير أجزاؤه اه

وحدثنى أيضا من شاهد ماوقع فى نفس ذلك اليوم بالمحلة الكبرى بعد كلام قال * وقد كنت فى سوق السلطان وكان الوقت بالغا اذ ذاك من النهار حد الساعة السابعة اذ أقبل من ناحية القنطرة جم غفير من الحمارة والسوقة وكلهم من السفلة والرعاع وفى أيديهم العصىّ والمساوق وبعض الآلات الجارحة والنارية وهم فى ضجة وجلبة عظيمة وكلما مروا بحارة أو زقاق انضم اليهم أهله من أصحاب البطالة حتى اقتربوا منا فسمعناهم ينادون ياتجار اقفلوا حوانيتكم لأن النصارى جعلوا يقتلون المسلمين على القنطرة فعند ذلك سارعنا الى النهوض وقصدنا بيوتنا خوفا على العيال وكان معنا فى هذا الحين حسين افندى سامى مأمور تاريخ المديرية فأبى الذهاب الى بيته وقال حتى أرى ماأصاب المسيو كجروس مفتش تاريخ المحلة فذهبنا معه وقبل أن نصل الى بيت ذلك المفتش سمعنا الغوغاء يقولون يامسلمون اقتلوا النصارى وانهبوا بيوتهم كما أمر ضابط البلد ووصلنا الى بيت المفتش فوجدنا بابه مغلقا وعليه جماهير العامة وأصحاب الفتنة يريدون كسره واقتحام البيت لنهب ما فيه وقتل المفتش ومن معه فصاح فيهم حسين سامى وفرق جموعهم ودخل على المفتش وهدأ روعه وسكن جأشه وسار الأهالى رجالا ونساء وأولادا وهم يصيحون الله أكبر الله أكبر ويهجمون على الخانات ودكاكين التجار وينهبون مافيها من مأكول ومشروب وملبوس ومفروش واستمر الحال على هذا الوصف الى قبيل الغروب بقليل وقد قتل تسعة رجال منهم ستة من الروم وثلاثة من مهندسى التاريخ الأجانب وقد كانوا مقيمين فى ناحية الشون الكبير وكان لأحدهم زوجة ولآخر ثلاث بنات أبكار وغلام وجماة التجؤا كلهم الى بيت محمود أفندى منجد مأمور مركز سمنود فآواهم وذب عنهم جهد الاستطاعة — قال — وقد أحرقت العامة بعض القتلى بنار البترول وألقوا البعض الآخر فى البحر ومنهم من دفن فى تل الواقعة اه

﴿ قلت ﴾ وكانت فعال العامة بالقاهرة أيضا بالغة حد الجفاء والشدة ولكن لم يقع شئ من القتل ولا النهب ليقظة صاحب الشرطة ابراهيم فوزى بيك وتطوافه فى الشوارع والأزقة والحارات ليلا ونهارا وقد رأيت جماعة منهم يوما يطوفون وبينهم حمار وعلى ظهره كلب أسود وعلى رأس الكلب قبعة (برنيطة) بالية والكلب فى غاية الخمول والكسل كأنه أطعم شيأ من المخدرات كالحشيشة ونحوها ولسانه قد تدلى من شدة الظما والتعب وهم يصيحون حوله ياسمور ياوش القملة من قال لك تعمل دى العملة وما زالوا على هذه الحال من التطواف الى وقت الهاجرة ثم أتوا الى قشلاق جند الحرس الخديوى برحبة عابدين فلما

صاروا

صاروا أمام الباب تقدم أحدهم نحو الكلاب وألقاه عن ظهر الحمار وذبحه بسكين كانت معه ذبح الشاة فصاح عند ذلك الجمع صياحا متتابعا الله الله قطع الله رأس سمور قطع الله رأس سمور يريدون سمور أمير مراكب الحرب وهكذا كان شأنهم مع الكلاب فى كل يوم حتى انكمشت واختفت عن الابصار ولجأت الى مواقد الحمامات وخرائب المدينة وكان اذا ظهر واحد منها ونادى عليه أحد الصبيان باسم سمور انذعر وتراخ واختفى عن الابصار فرارا من الموت وكأن الكلاب قد أدركت بملكة التمييز (أى الغريزة الحافظة لنوع الحيوان) ما وراء كلمة سمور من لبس القبعة والتطواف على ظهر الحمار ثم قطع الرأس أقول والشئ بالشئ يذكر حدثنى صاحب لى قال حدثنى أبى رحمه الله وقد كنت أقص عليه يوما فعال العامة بالكلاب فى تلك الايام فتبسم وقال ليس فى الامر مايدعونى الى الاستغراب من تلك الحيوانات الداجنة فقد أتى الى القاهرة على عهد محمد على باشا الكبير أمير من أمراء الانجليز ومعه زوجته للتفرج على آثار الديار فأقام بالقاهرة ما شاء يتجول فى شوارع المدينة ويتفرج على ما فيها من الدور والمبانى والمساجد والمعامل وكانت يومئذ كثيرة الى أن سار يوما الى ناحية الحسينية والدامرداش ومعه زوجته وكان زىّ ملابس الامراء فى ذلك الحين قبعة طويلة سوداء وسراويل ضيقة وكساء مخروطا من الامام ولفافة حول العنق وكان كساء النساء فسطانا تحته آخر بأسلاك الحديد على شكل قبة الهواء وقبعة كثيرة الاقطة والاربطة فلما وصلا الى ناحية الحسينية عرج بهما ترجمانهما الى ناحية المذبح ليرا كيفية الذبح فى هذه البلاد وكان أمام المذبح كثير من الكلاب الاشداء كأنها الوحوش الكاسرة فلما رأت هذه الهيئة الغريبة والزى البعيد عن عادة أهل البلاد قامت على الامير وزوجته قومة واحدة فذعرتهما ومزقت ملابسهما فتداركهما أهل تلك الخطة وخلصوهما فعادا الى المدينة ولبثا ما شا آ ثم عزما على الرحيل عن مصر فذهبا لوداع محمد على باشا فلاطفهما وحادثهما ساعة وسألهما عما أعجبهما فى البلاد — قال وكان محمد على باشا شديد الرغبة فى تقدم البلاد وايرادها موارد العز والرفاهية ميالا الى توسيع نطاق الزراعة والتجارة والصناعة محبا لخيرها جهد الاستطاعة فقال الامير قد رأينا فى بلادك أيها الامير كل ما يسر الخاطر ويقر الناظر ويبشر ان شاء الله بخير المستقبل غير أنا قد رأينا أيضا شيأ لم نره فى بلاد الأمم المتمدنة قال وما هو قال رأينا بناحية المذبح عند باب الحسينية جيشا عرمرما من الكلاب فما وقع نظرها علينا حتى قامت قومة واحدة كالوحوش الكواسر فذعرتنا فتداركنا نفر من أهل تلك الخطة فخلصونا وعهدنا بالبلاد المتمدنة أن لا يترك فى شوارعها مثل هذه الحيوانات الكاسرة فقال الباشا يحزننى جدا ما أصابكما ولكن اذا عدتما الينا فى السنة القابلة ان شاء الله فلا تريان الا مايسركما فشكراه وودّعاه وانصرفا فارسل الباشا فى الحال فى طلب كتخداه لأظه أوغلى فدخل عليه فقال عليك من الساعة ان تبعد عن القاهرة ومصر جميع ما فيهما من الكلاب وتسيرها الى الدار البيضاء وطره والجيزة

واياك أن تبقى منها واحدا قال فنزل الكتخدا وسار الى ديوانه ودعا اليه مشايخ الحارات وقال تجمعون من الساعة سائر كلاب مصر والقاهرة ومن ترك واحدا منها حل به ما يكره فنزل مشايخ الحارات وجعلوا يطوفون فى الازقة والحارات وتبعهم الصبيان يقبضون على كل ما يجدونه منها وكثر البحث والتفتيش وأخرجوها من كل فج عميق واشتدوا عليها شدة بالغة فكانوا يسيرون بها عشرات ومئات الى الدار البيضاء وطرا والجيزة فادركت الكلاب ما هنالك واختفت عن الابصار فشددوا فى طلبها أياما حتى ظنوا أنه لم يبق منها واحد فانكفوا فلما كان بعد بضع أيام ظهر منها ما كان مختفيا وهى فى أسوإ حال من الجوع وجعلت تسعى فى طلب الرزق ولا خفاء أن عادة السوقة وأصحاب الحوانيت اذا جلسوا فى حوانيتهم صباحا لا يبيعون ولا يشترون حتى يفطروا فيأتون بالفول المدمس والبصل والخبز ويجلس الرجل منهم وظهره الى الطريق فكان اذا أتى كلب ووقف أمام الحانوت يطلب صدقة التفت اليه صاحب الحانوت فيقول له اخسأ ـ جر ـ عصا ـ امش ـ فلا يتحرك فاذا قال لغلامه ناد ياولد على شيخ الحارة ـ هرول الكلب مسرعا واختفى عن الابصار لادراكه ما وراء حضور شيخ الحارة من القبض عليه والتغريب وبقى الحال هكذا فى منع الكلاب وطردها عن الحوانيت أياما كثيرة

وكبرت فى هذا الحين شرور مهاجرى الاسكندرية وعظمت فعالهم فعاثوا وأفسدوا وبالغوا فى ايذاء الناس بلا فرق ولا تمييز فابعدوهم عن مصر والقاهرة وفرقوهم فى الاقاليم القبلية والبحرية وأسكنوا من بقى منهم بالقاهرة فى دور الحكومة وبيوت الامراء الذين لجؤا الى الخديوى بالاسكندرية وأنزلوا جماعة منهم فى بيت محمد سلطان باشا رئيس نواب البلاد على ما فيه من فرش وبسط وأثاث نكاية وانتقاما ورتبوا لهم خبزا فى كل يوم وأقاموا عليهم من يقوم بتدبير أمورهم واحضار طعامهم فى أوقاته فكانوا لا يشكرون نعمة ولا يحمدون محسنا ولا ينفكون عن المهاترة والشناعة والملاكمة بعضهم مع بعض رجالا ونساء وأولادا وكان الرجل منهم اذا أعوزه الافيون أو الدخان أو بعض المكيفات عمد الى الحوانيت المقفلة ففتحها وأخذ ما فيها بلا خوف ولا اكتراث فكان ابراهيم فوزى بيك صاحب شرطة القاهرة لا ينفك عن التطواف ليلا ونهارا ومعه جماعة من أعوانه بايديهم العصى فاذا رأوا جماعة من هؤلاء الحرافيش فى احدى الطرق فرقوا جمعهم وباعدوا بينهم وبين بعض كى لا يتمكنوا من فعل شئ بالدور والحوانيت المقفلة وكانت فعال من تفرق منهم فى القرى والبلدان غاية فى الشناعة والايذاء أيضا فكانوا ضربة على البلاد وأهلها

ولما تكامل حضور العساكر الانجليزية الى مدينة الاسماعيلية جعل مقدمهم يستكشف مواقع العرابيين ومعاقلهم وحصونهم التى كانوا يشتغلون بعملها بين الاسماعيلية والمحفوظة وكانوا قد تمكنوا من منع الماء عن الاسماعيلية وبور سعيد والسويس فرأى مقدم الانجليز أن يعاجلهم بالقتال وهم على هذه الحال فزحف عليهم وقاتلهم قتالا شديدا حتى

أوقع بهم واستولى على مواقعهم ثم كر عليهم العرابيون فأخرجوا الانجليز من مراكزهم ولكنهم عادوا فاستولوا عليها بعد قتال * وسار جماعة منهم قبل ظهر السادس من شوال يبلغ عددهم زهاء الثلاثمائة قاصدين نفيشة فوصلوا اليها فلم يجدوا فيها أحدا من العرابيين فانهم لما علموا بقرب الانجليز منهم تركوا نفيشة وساروا الى المحسمة فعلم الانجليز بخبرهم فتبعوهم وضيقوا عليهم وأخذوا عليهم الطرق من كل جانب فتقهقروا من المحسمة وتركوا بعض ما كان معهم من المؤن والذخيرة وآلات الحرب وكان محمود باشا فهمى ناظر الاشغال العمومية وأحد زعماء العصابة مع العرابيين يومئذ فى ذلك المكان يرتب خطوط الدفاع الامامية للتل الكبير فتركه العرابيون وتقهقروا فلاقاه نفر من الانجليز عند محطة السكة الحديد ولم يعرفوا من هو الا بواسطة أحد العساكر المصرية المجروحين لانه كان لابسا لباس الملكيين وبيده مظلة بيضاء فلما اقترب من ذلك الجندى المجروح وكان الجندى جالسا قام وأدى له اشارات التعظيم ففطن الانجليز لذلك وقبضوا عليه فسجنوه ليلتهم تلك فى حجرة صغيرة ثم أصبحوا فساروا به الى الاسماعيلية فلما تمثل بين يدى مقدم الجيوش الانجليزية قال له أأنت ممن تركوا العسكر وولوا الادبار أو ممن أسروا قهرا قال انى أسير ولست منهزما فأمر به مقدم الجيوش فنقلوه الى الاسكندرية وسجنوه فى دار محافظة المدينة وتقدم الانجليز فى ذلك اليوم يريدون قطع شأفة العرابيين فخرج عليهم جماعة من العرابيين ورموا عليهم بالبنادق رميا متتابعا وكذلك رمى الانجليز واشتبك الحرب بين الفريقين ففعلت يومئذ نيران العرابيين بالانجليز فعلا رديئا وكان القيظ لا يطاق فى ذلك اليوم ففعلت الشمس أيضا بهم من الموت ما لم تفعله نيران العرابيين وظهرت مدافع المصريين أيضا وتابعت الرمى بالقنابل على مواقع الانجليز واشتدت فى الرمى حتى اتصلت بمؤخر الانجليز وفعلت بهم فعلا أليما وكان العرابيون قد حصنوا التل الذى هنالك وأقاموا فيه خطوط دفاعهم مرتبة ترتيبا حسنا اذ كان يشتغل فيها من أهل البلاد والقرى المجاورة زهاء سبعة آلاف فلما اشتدت عليهم نيران الانجليز وتراسلت قنابلهم انسحبوا الى التل المذكور وتحصنوا به فتبعهم الانجليز فى عاشر شوال وقاتلوهم قتالا عنيفا وكان مقدم المصريين فى هذه الواقعة الفريق راشد باشا حسنى الجركسى المعروف بابى شنب فضة فقاتل فى ذلك اليوم قتالا شديدا جدا وفعلت نيران مدافع العرابيين بالانجليز فعلا رديئا وكانت قنابلهم تأتى الى مواقف الانجليز تباعا محكمة الرمى والاصابة حتى اتصلت بموقف واسلى مقدم الجيوش فقتلت من حاشيته وجرحت فشهد الانجليز لاصحاب المدافع وامتدحوا كفاءتهم وما زالوا على هذه الحال والرمى متراسل من الفريقين وراشد باشا يدير الحركة ويتابع الاشارات لاصحاب المدافع وهو بين ملتقى النارين حتى جرح جرحا بليغا وشاع الخبر بذلك بين العسكر فانفشلوا وانهزموا فتبعهم الانجليز وضيقوا عليهم حتى أخذوا مواقفهم وغنموا ما كان فيها من المدافع والمؤن والذخيرة واشتد التعب بالانجليز وأعوزهم الماء والطعام فقد قضوا ثلاثة أيام كاملة بعد هذه الوقائع

لايا كلون سوى البقسماط اليابس ويشربون الماء الآسن الممزوج بدماء القتلى من الانسان والموتى من الحيوان ففعل فيهم هذا كله فعلا رديئا ووقع فيهم الموات واشتدت بهم العلل والامراض وحاول العرابيون رجوع الكرة عليهم واسترجاع مواقع القصاصين منهم فخرجوا عليهم بقوتين احداهما قدمت من مواقع التل الكبير والثانية من مواقع الصالحية وكان مقدم هاتين القوتين فى ذلك اليوم على باشا فهمى المعروف بالديب فخرج الانجليز لقائهم واقتتلوا قتالا عنيفا فظهر الانجليز على العرابيين وجرح على الديب جرحا خفيفا وتقهقر المصريون وانفشلوا وتبعهم الانجليز وقد مات فى هذه الوقعة من كبار الانجليز وصغار ضباطهم جماعة وعدد من الجنود وتحصن العرابيون بعد ذلك فى حصون ومعاقل التل الكبير فتبعهم الانجليز رويدا فجعل المصريون يرمون عليهم بالقنابل رميا متتابعا غاية فى الاحكام فتربص الانجليز حتى تكاملوا * حدثنى صاحب لى قال ودبر العرابيون الامر ورتبوا كيفية هجومهم على الانجليز والايقاع بهم بان تسير من مواقع الصالحية قوة مؤلفة من الجنود بين مشاة وركبان ومدفعيين وجماعة من العربان بقيادة على الروبى والبارودى فتأتى على ميمنة وخلف الانجليز قبل مطلع الفجر الاول وتسير قوة أخرى من مواقع التل الكبير وتأتى على ميسرة وخلف الانجليز أيضا بعد وصول القوة الاولى بقليل ثم تلتحق القوتان بطرفيهما فيصير الانجليز فى القلب ويقطعان عنهم خط الرجعة الى المحسمة ويعملان فيهم القتل والتشريد قال وسمعت أهل الحرب يقولون كانت هذه الخطة غاية فى الاتقان بالغة حد التفنن الحربى ولكن لحظ الانجليز لم يتم للعرابيين شئ من ذلك اذ تأخر حضور عسكر الصالحية فى الميعاد المحدد لالتقائهم بجند التل الكبير وانقسم الرواة فى سبب تأخرهم الى قسمين قسم قال ان الخبراء من العربان الذين تولوا الاسراء بالجند ليلا من صحراء الصالحية الى المحسمة قد ضلوا عن الطريق فلم يشعروا الاونور الفجر قد لاح وهم على قيد فراسخ من المواقع فخاف الضباط وتربصوا قليلا ليتحققوا الامر فسمعوا أصوات المدافع مترادفة فرجعوا على أعقابهم القهقرى وقسم قال ان الذى أوجب تأخرهم انما هو ضخامة الجيش وثقل مدافعه وصعوبة السير على رمال تلك الصحراء المتموجة فلما وصلت طليعة جند التل الكبير الى مقربة من مواقع الانجليز وكان الانجليز قد أحسوا بما دبره العرابيون قابلهم فرسان الانجليز بالسيوف شمال المراكز وأعملوا فيهم الضرب فتقهقروا وعادوا الى الوراء بدون قتال ولجؤا الى مقدمات قلاع التل الكبير ولم يفلحوا فى هذه الخطة التى كان عليها تمام نصرتهم والله يؤتى النصر من يشاء من عباده

مطلب قيام العساكر من الصالحية وانفشالهم

وبدأت تظهر من هذا الحين طلائع الاخبار ببعض المدن وفى القاهرة بعزم السلطان على اشهار عصيان أحمد عرابى ومن معه من كبار العصابة وأنهم خوارج مارقون واتصلت هذه الاقوال ببعض أخصاء أحمد عرابى والمقربين اليه من أهل البلاد فبالغوا فى كتمانها وكانهم قد أشفقوا عليه فكثرت رؤياهم وأحلامهم أوهم أكثروا منها وجعلوا يذيعونها بين العامة

وصغار الناس عليها تدفع عن أسماعهم الخبر القائل بعزم السلطان على تكفير أحمد عرابى والنداء بخروجه وشقه لعصا الطاعة * حدثنى صاحب لى ممن كان فى ركاب أحمد عرابى بالتل الكبير قال وكثر وقوع الاحلام والرؤيات لبعض المشايخ والمتعممين من أهالى القاهرة ومصر وبعض المدن فكانوا يسطرونها على أوراق ويرسلونها الى أحمد عرابى بالتل الكبير وكلها عجائب وغرائب فقد اطلعت على بعض مافى تلك الاقوال فرأيت أنها من الافك والبهتان بمكان عظيم وعلى الخصوص منها أحلام أهل الشرقية وبعض مشايخها فقد أرسل أحدهم الى أحمد عرابى يوما يقول رأيت فى نومى الليلة البارحة كانى دخلت بستانا كثير الاشجار يانع الثمار تجرى فيه الانهار فأدهشنى حسن مافيه وتقدمت رويدا وأنا أسرح الطرف فى ذلك البهاء الطاهر والجنة التى لايعرف لها أول من آخر فبينما أنا على هذا الحال اذ أمسك بكتفى صبى مارأت عينى أجمل طلعة من طلعته وقال الى أين ياهذا أصلحك الله فقلت لا أدرى ورب البيت قال انظر الى يمينك ولا تجزع فنظرت فاذا بى أرى كرسيا من الزمرد الاخضر وبجانبه آخر من العقيق الاصفر ثم سمعت دويا كصوت النحل ومناديا ينادى انزل يامصطفى انزل ياأحمد انزل يامحمد فاشتد عند ذلك صوت ذلك الدوى وارتج المكان رجة مزعجة حتى كدت أسقط مغشيا على من شدة الخوف فلم ألتفت الا وقد جلس على ذلك الكرسى الاخضر انسان لم تر عينى أحسن شكلا منه وبيده مسبحة حباتها من العنبر فنظر الى المكان نظرة المشفق ثم دق كفا لكف فحضر لديه فى الحال جماعة من الغلمان كانهم البدور اذا بدت وقبلوا الارض بين يديه وقالوا لبيك ياحبيب الله قال أين المجاهد أين الغازى أين نسل ولدى الحسين فغاب بعضهم لحظة لطيفة وعادوا وأنت بينهم أيها الامير الجليل متشحا بحلة من السندس الاخضر وعلى وجهك هيبة وجلالة الله أكبر فقال النبى عليه الصلاة والسلام تقدم يا أحمد فتقدمت وأنت خاشع مطرق فمد النبى صلى الله عليه وسلم لك يده الشريفة فقبلتها مبتهلا وقلت انظر يارسول الله مافعل الكفار بنا ونحن فى جوار عترتك الطاهرة وآل بيتك الكرام انظر كيف طرقوا أرض الكنانة بخيلهم ورجلهم فعاثوا وأفسدوا وأراقوا الدماء هدرا ثم اغرورقت عيناك أيها الامير بالدموع فنظر اليك رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو باسم وقال خفف عنك ياأحمد فسوف تظفرون بهم و ينصركم الله عليهم نصرا مبينا ثم ناولك سيفا قبضته من الذهب الخالص المرصع بالدر والجوهر وقال اضرب بهذا رقابهم ولا تكف عنهم حتى يستسلموا باذن الله تعالى فلما سمعت أنا هذا الكلام من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانى والله فى يقظة لافى منام صحت فرحا وقلت الله أكبر الله أكبر على من طغى وتجبر فانتبهت من نومى وكان رؤياى منقوشة على صدرى فأبشر بالنصر والغلبة على القوم الكافرين والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته * قال الراوى لهذه العبارة * وكانت هذه الاكاذيب تتلى بين المحاربين فى مواقع التل الكبير من ضباط وجند وعربان وفى مواقع الصالحية وكفر الدوار فيتناقلها العامة والسوقة الذين يتبعون

الجيش فى مواقع القتال وهؤلاء يبثونها محشوة بالافك والبهتان بين أهل المدن والقرى القريبة فكان الناس لايشكون قط فى صدقها ولا يقبلون لها تأويلا وظل الحال على ما هو عليه من انبثاث دعاة العصابة فى جوف البلاد يحضون البسطاء من أهلها على امداد المحاربين فى مواقع التل الكبير بالنفس والنفيس و يموّهون عليهم الحقائق ويقصون عليهم تلك الاحلام والمنامات محشوة بالخلط والتحريف حتى عم الفساد واختل النظام واشتدت الفتنة واتسع خرقها وصار الناس كلهم يتطاولون على مقام الخديوى بالسباب وفحش القول ويرمونه بالمروق ويتهمونه بترك دينه والتمسك بدين النصرانية ونصروا عبدالله صاحب الطائف ودعاة العصابة معه وأحلوا سائرمفتريا تهم محلا عظيما * وبينما كانت الحرب قائمة على ساقها أمام مواقع التل الكبير ونار الفتنة تتأجج فى جوف البلاد كان سفير الانجليز بدار السلطنة العثمانية يكثرمن تهديد رجال المابين ويعمل على قطع حبل الاتصال الذى كان مشدودا بينهم و بين أحمد عرابى ولاسيما منهم الشيخ أحمد أسعد امام السلطان فكان يقضى بياض يومه وسواد ليله وهو يغدو ويروح مابين الباب العالى ومقر السلطان ويعمل بدهائه و يدبر بفطنته وذكائه ويلح بطلب صدور فرمان السلطان بعصيان عرابى * وكان يرجو من هذا العمل أمرين خطيرين أولهما صرف وجه أحمد عرابى وأشياعه عن السلطان ورجال المابين فيفتتنون وتنفصم عروة اتحادهم والثانى تنزيل أحمد عرابى من عيون المصريين وصرف وجوههم عنه لخروجه عن طاعة سلطانه ورميه بالمروق واعتبارأن حربه للانجليز حرب غيرجائزة ولا هى من الجهاد فى شئ كما كانوا يظنون وما زال السفير يعمل ويكيد حتى أفلح وغرر بالسلطان ورجال مابينه وكبار دولته وأصدر فرمانا بخروج أحمد عرابى وعصيانه فطير السفير الخبر بذلك الى الآفاق وأوعز الى صاحب جريدة الجوائب العربية التى تطبع فى دار السلطنة العثمانية فنقش ذلك الفرمان على صحائف جريدته فابتاع السفير منه زهاء ستة عشر ألف نسخة وسيرها الى الهند ومصر وغيرها من البلاد الاسلامية فوصل منها الى مدينة الاسماعيلية شئ كثير فأمر به مقدم الجيوش الانجليزية فنشروه على أيدى الجواسيس من العربان والفلاحين فى معسكر التل الكبير والصالحية وكفر الدوار فما انتشر بينهم وذاع خبر مافيه حتى تراخت عزائم العسكر وفترت همم الضباط وكادوا ينفشلون وعم خبر ذلك بين الافراد فتحدثوا به كثيرا

وكان ممن جامع عسكر الانجليز الى الاسماعيلية محمد سلطان باشا رئيس نواب البلاد وجماعة آخرون من رجال الحكومة المتحيزين للخديو وقد سيرهم الخديو فى ركاب مقدم العسكر الانجليزية ليكونوا له عونا على قضاء حاجاته ويمهد أمام جيوشه مايحدثه أهالى القرى من الموانع والعقبات فجمع اليه سلطان باشا بعض طوائف العربان ممن كانوا حول معاقل العرابيين واستمالهم وأجزل عطاءهم وقرّب منه بعض كبارهم فأطاعوا ومالوا الى العطاء ودخلوا بين جند التل الكبير وأذاعوا بين صغار الضباط وأفراد العسكر خبر مارسم به السلطان من عصيان عرابى

ومن

ومن تبعه وأنهم خارجون مارقون عن طاعة أمير المؤمنين فأزعجهم هذا الامر وتراخوا وانحلت عزائمهم وانفشلوا أوكادوا واتصل خبر ذلك بأحمد عرابي وأصحابه فهالهم وكبر عليهم وتناجوا فيه طويلا فاتفقوا على كتمانه واخفائه الى حين ولكنهم لم يفلحوا اذ انتشر الخبر وعم وتكلم به سائر العسكر * قيل وجاء في هذا الحين رسول من عند مقدم الجيوش الانجليزية فاجتمع بأحمد عرابي في سرادقه وتحادثا ساعة فيما لم يصل أحد الى معرفته حتى الآن ثم قفل الرسول راجعا الى معسكر الانجليز فظهرت بعد ذلك على وجوه كبار الضباط وصغارهم علامات اليأس والقنوط ووقع بينهم الهرج وبانت على وجه أحمد عرابي دلائل الضعف والاستسلام وذهبت عنه تلك الشدة والحدة وتولاه الجول فلم يكن له هم في هذا الحين سوى تحريك شفتيه بتلاوة الاوراد والاحزاب وتقليب مسبحته ذات اليمين وذات الشمال والاحتجاب عن الناس الا القليل من مقدمي العسكر وكان مقدم جنود خطوط التل الكبير الأمامية اسمه على يوسف المعروف بعلي خنفس فراسله محمد سلطان باشا أيضا واستماله الى طاعة الخديوي فأطاع واستوثق لنفسه * فلما كان ثامن عشرى شوال من السنة أى سنة تسع وتسعين ومائتين رتب مقدم جيوش الانجليز عسكره على مقربة من خط السكة الحديد وترك المعسكر كله خاليا في حراسة نفر قليل من جماعة المهندسين وأبقوا نارهم موقدة ايهاما بانهم متربصون في مضاربهم فلما صاروا على قدم الاستعداد سروا بعد نصف ليلة تاسع عشرى شوال تحت جنح الظلام وأمامهم جماعة من الضباط المصريين ممن كانوا في خدمة الخديوي بالاسكندرية وجماعة من عربان الهنادى يدلونهم على الطريق ومازالوا على قدم السير حتى بلغوا مقدمة خطوط العرابيين فأخلى لهم على بيك يوسف فدخلوا بين صفوف عسكره بلا ممانع ولا مدافع وكان جل العسكر في هذا الحين نياما على الحصون والمتاريس والضباط في فراشهم بأقصة النوم كأنهم في أسرة بيوتهم بين أحضان عيالهم آمنين مطمئنين ومازال الانجليز حتى صاروا في وسط المعاقل وأطلقوا البنادق تباعا فانصبت نيرانها على العرابيين انصباب المطر فهبوا من نومهم مذعورين وحملوا على الانجليز فلم يثبتوا الالحظة لطيفة حتى تمت هزيمتهم وولوا الادبار وثبت أصحاب المدافع وأكثروا من الرمى بالقنابل فركب الانجليز عند ذلك أقفيتهم وأعملوا فيهم السيف وأفحشوا في قتل كبارهم وصغارهم فلما سمع عرابي أصوات المدافع والبنادق هب من نومه وقيل بل كان على يقظة فخرج من سرادقه وخرج معه عبد الله صاحب الطائف وركب فرسا وركب عبد الله كذلك ومعهما جماعة من الفرسان وخرجوا على وجوههم يريدون بلبيس وقد ترك عرابي ما كان في سرادقه من أوراق ومتاع فتبعهم نفر من فرسان الانجليز وتراخوا خلفهم فلم يدركوهم أو لم يشاؤا أن يدركوهم وما زالوا حتى أتوا انشاص الرمل قبيل الظهر واتفق أنه كان بمحطة انشاص قطار من قطارات المهمات قاصدا القاهرة فتراجع أحمد عرابي ومن معه حتى أدركوه وركبوا في آخر عربة فيه فسار

بهم الى القاهرة فدخلوها فى الساعة الثامنة عربى نهارا من تاسع عشرى شوال والناس فى شاغل عنهم بما هم عليه من التطواف والضجيج فى الشوارع والحارات فقد كان العامة وأرباب الطرق والاشاير وسائر صبيان المكاتب يطوفون زمرا فى ذلك اليوم ويصيحون باللطيف * ياجبار اهلك عسكر الكفار وكان المؤذنون يعجون على المنائر ويبتهلون الى الله بعبارات الاستغاثة وطلب النصر على العدوّ فلما دخل عرابى القاهرة طاف صاحب الشرطة ومعه جماعة من العسكر يمنع الناس من التجمع فى الشوارع ويشدد على العامة بملازمة السكون على غير عادته فلم تلتفت العامة الى قوله وبقوا على هذا الحال من التطواف والضجيج والعجيج حتى شاع الخبر بوصول عرابى ومعه رأس سيمور أميرسفن الحرب الانجليزية ورؤس كثيرين من كبار الانجليز والمصريين فهرع عند ذلك العامة من كل صوب وحدب وتبعتهم النساء بالزغاريت واشتدت جلبتهم وتزاحمت الغوغاء فى الشوارع والطرق وكثر صياحهم وضجيجهم واشتدت الحركة نخاف أصحاب الحوانيت وأغلقوا حوانيتهم وكبر خوف أصحاب البيوت وتطيروا من شر ذلك اليوم العصيب وسار عرابى بعد وصوله الى قصر النيل وجمع اليه أصحابه من كبار الضباط وصغارهم وأخبرهم بخبر هزيمته ودخول الانجليز فى جوف الحصون والمعاقل قيل وشكى وبكى فتكلموا فى الامر طويلا فألح عليهم بالتعجيل فى انشاء الحصون والمعاقل ومد الخطوط والاستحكامات أمام العباسية وأن يجمعوا المتشردين من العسكر ويلتقوا بالانجليز قبل أن يدخلوا المدينة فيقاتلوهم وخطب عبد الله صاحب الطائف فى ذلك وجعل يستحثهم ويستنهض هممهم فاختلفت كلمتهم وكان ممن حضر معهم يومئذ فارا من الصالحية على الروبى فأشار بوجوب التسليم للقضاء وعقد المجلس العرفى فعقدوه واستدعوا سائر أعضائه من كبار العسكر والملكيين والعلماء والمشايخ والرؤساء الروحانيين والوجهاء والاعيان فقص عليهم عرابى ماجرى وبكى وبالغ فى الشكوى وعظم البلوى ثم قال وانى مازلت على قدم الدفاع ورد العدوّ عن البلاد مادام فىّ رمق من الحياة وجعل ينتحب فردّ عليه بعض الحاضرين من كبار العسكر وقال * أو ما كفاك ياهذا أن دمرت الاسكندرية حرقا بسوء تدبيرك وجهلك العواقب حتى تريد أن تدمر القاهرة أيضا بسوء فعالك فان كنت لم تبق فيها على شئ فان لنا فيها عيالا وأطفالا وأملاكا لانسلم بضياعها ضحية لاغراضك فكفى كفى ماجرى * فعند ذلك أطرق عرابى رأسه خجلا ولم ينطق ببنت شفه وطال بين الجميع الاخذ والرد ساعة ثم استقر رأيهم على كف القتال وعدم التعرض لعسكر الانجليز بشئ مّا وأن يتقدم أحمد عرابى وأصحابه الى مقام الخديوى فى طلب العفو عنهم بعريضة يرفعونها اليه فقام عبد الله صاحب الطائف وكتب عريضة ملأها بالطعن والتنديد بفعال الانجليز وشحنها بالافك والتغرير والتضليل وقص فيها ما وقع من البداية الى النهاية ولم يصرح فيها بذكر شئ من ذنوب أحمد عرابى وذنوب أصحابه ثم جعل يتلوها على الحاضرين فلم تعجبهم وكان ممن حضر فى ذلك المجلس أيضا بطرس باشا غالى وكيل

الحقانيـة فكلم عبـد الله فى ذلك وقال ان المقام الآن لا يحتمل شيئا من الطعن ولا التشديد فهات أملى عليـك ما يحسن رفعـه الى مقام صاحب الامر فأملى عليـه شيأ من عبارات الاستعطاف والاسترضاء فأعجب الحاضرين وأوقع عليه عرابى وأصحابه على كره من صاحب الطائف ثم اختاروا لهـذه السفارة محمد رؤف باشا و بطرس باشا غالى فطلب على باشا الروبى مرافقتهـما وقاموا من ساعتهم فى قطار مخصوص فسار بهـم الى الاسكندرية فلم يصـلوا الى كفر الدوّار حتى جاءهم الخـبر بأن تربصوا حتى يأتيكم عبـد الله برسالة من عرابى وأصحابه فتربصوا حـتى حضر عبـد الله على قطار مخصوص ومعـه عريضـة أخرى يخالف ما فيها ما فى العريضة الاولى وقال يقول لكم عرابى باشا لا ترفعوا الى الخـديوى العريضـة الاولى وارفعوا اليه هـذه * وكان لما قام رؤف باشا ومن معـه الى الاسكندرية فكر عبـد الله فيما سيلقاه من العـذاب اذا حوسب كل بعمـله فزين لعرابى العدول عن طلب العفو وأن يظهر من الضـعف قوة ومن الخوف رجاء ويكتب الى الخديوى قصـة يدفع بها عن نفسه عار الذل وشماتة الاعـداء فأجابه عرابى الى ذلك وعبد الله انما يريد بهذه الحيـلة التمكن من الفرار والاختفاء فلما وصـل الى كفر الدوار اختفى ولم يوقف له على أثر الى أن كان من أمره ما سيذكر فى محله ان شاء الله

ووصل رؤف باشا ورفاقه الى الاسكندرية فى غرة ذى القعدة بعد العناء الشديد وتمثـل هو وبطرس باشا بين يدى الخديوى ورفعا اليه عريضة عرابى وأصحابه فـلم يقبلها وأمر بعلى الروبى فقبضوا عليه وأودعوه فى السجن منفردا عمن أتى بهم الانجليز من مواقع الحـرب من العرابيين وفرح أهـل الاسكندرية يومئـذ فرحا لا يوصف وأتت رسائل التهانى الى ديوان الخديوى من كل صوب وطاف طوائف الفرنجة بالاسكندرية يهللون وينشـدون أناشـيد النصر ونزل المستر مالت قونصـل جنرال الانجليز الى الاسكندرية ودخل على الخديوى وهنأه من قبل ملكة الانجليز ومناه بالامانى الكثيرة * أما المقاتلون من الانجليز بمواقع التل الكبير فانهم لما دخلوا فى وسط معاقل العرابيين وحصونهم نسفوا بعضها ومزقوا شمـل من كان بها من العساكر ثم تركوا منهم جماعة لدفن جثث القتلى فأحصوها فكانت زهاء الالفين وسار الباقون قاصـدين القاهرة من طريقـين الاولى بجانب السكة الحديد الموصـلة الى مدينـة الزقازيق وبنها وبلبيس والثانية على ضـفة الترعة الحلوة الخارجة من القاهرة كى يصلوا اليها بأسرع ما يمكن خوفا من أن يصيبها ما أصاب مدينـة الاسكندرية وكان سـير فرسانهـم الى الزقازيق غاية فى البطء والفتور بسبب تعب الخيـل وضعف الجند عن الحركة فلما صاروا على قيـد فرسخين من الزقازيق هجموا عليها ولكن بغاية الضعف والاختـلال فلم يروا من يردهم فسال جماعة منهم نحو السكة الحديد وكان بها فى هذا الحين خمسـة قطارات مشحونة بالعساكر المصرية والمهمات الحربية وكثـير من المرضى والجرحى فأربعـة من سائقى هـذه القطارات لما رأوا اقتراب الانجليز منهـم قاموا وأسرعوا فى مسـيرهم فنجوا بمن معهـم من

الوقوع فى أيدى الانجليز أما الخامس فانه ماكاد يتحرك حتى لحقه ضابط من الانجليز ورماه بالرصاص فسقط ميتا فلما رأى العرابيون ماحل بسائق القطار وهجوم الانجليز عليهم ألقوا بأسلحتهم وفروا طالبين النجاة فلم يتبعهم الانجليز لقلة عددهم فنجا العرابيون جميعا وفى نحو الساعة الثالثة عربى نهارا تكامل وصول جميع العساكر الموكلين باحتلال مدينة الزقازيق مع مقدمهم الجنرال ماكفرصون وأما الفريق الثانى الذى سار الى القاهرة على ضفة الاسمعيلية فانه عبر الترعة من ناحية التل الكبير وسار سيرا حثيثا جدّا على شكل هجوم وما زالوا كذلك حتى وصلوا الى مدينة بلبيس ليلا فباتوا فيها ليلتهم وهم على أهبة وتحفظ ثم ساروا غلسا فى ثانى يوم الذى هو غرة ذى القعدة وقد تركوا الطينة وترفعوا نحو الخانكاه وما زالوا يجدّون السير حتى بان لهم سواد القاهرة فى نحو الساعة العاشرة ونصف عربى نهارا وما وطئت حوافر خيلهم أرض العباسية حتى غابت الشمس فنزلوا عليها وهم فى أسوإ حال من شدة التعب وفعل الشمس وقلة الماء وشدة الحركة وكان عدد من دخل العباسية فى تلك الليلة زهاء سبعة آلاف مقاتل وسار نحو قلعة الجبل أيضا زهاء ثلاثة آلاف آخرين فدخلوها فى نحو الساعة الثالثة عربى ليلا وأخرجوا من كان بها من العسكر المصرى وصغار الضباط وفكوا قيود من وجدوهم فى حبوسها ممن أتى بهم زعماء العصابة من المديرين والوجهاء والاعيان وغيرهم وكذلك فكوا قيود أصحاب الجنايات قيل ولم يكن مقدم العساكر الانجليزية الذين صعدوا الى قلعة الجبل يعرف طريق القلعة من جهة العباسية فضبط اثنين من صغار الضباط المصريين الذين كانوا بمعاقل العباسية ليدلاه على الطريق فامتنعا فرسم بقتلهما فأطاعا وسارا مع الانجليز حتى أدخلاهم القلعة فقابلهم مقدم جندها وبش لهم وأدخلهم بها على الرحب والسعة وكان بالقلعة من العساكر المصرية فى تلك الليلة زهاء أربعة آلاف مقاتل كاملى العدد فسلموا بغير منازعة وألقوا باسلحتهم ونزلوا من ساعتهم الى معسكر قصر النيل فلما خلت القلعة منهم استلم مقدم الانجليز سائر المواقع والابواب ومفاتيح قلعة المقطم الواقعة على رأس قلعة الجبل وباتوا ليلتهم وأصبحوا وقد دخل القاهرة الجنرال ولسلى كبير مقدمى الجيوش الانجليزية ومعه محمد سلطان باشا رئيس نواب البلاد وبعض كبار الضباط من المصريين فهرع للقائهم بعض موظفى الحكومة ممن كانوا فى حبوس العرابيين بالقاهرة وابراهيم فوزى بيك صاحب شرطة المدينة * وكان لما دخل الجنرال لو بعسكره الى العباسية ولاقاه صاحب الشرطة رسم له بالقبض على أحمد عرابى وكافة أصحابه والاتيان بهم الى العباسية فنزل صاحب الشرطة وذهب الى حيث أحمد عرابى فوجد معه طلبه عصمت وآخرين غيره فقال لهما الجنرال لو مقدم جيوش العباسية يطلبكما الساعة فاضطرب أحمد عرابى ولكنه جعل يظهر من الضعف قوة وقام ومعه طلبه عصمت وسارا جميعا الى العباسية وأرسلوا فى طلب على يوسف أيضا وعلى يوسف هذا هو الذى سلم للانجليز قلعتى الجبل والمقطم بعد أن تخلى لهم عن الطريق فى مقدمات التل الكبير

مطلب
دخول الجنرال ولسلى قائد جيوش الانجليز الى القاهرة ومعه محمد سلطان باشا

كما تقدم بيان ذلك فى محله * فلما دخل عرابى ومن معه فى وسط معسكر الانكليز أوقفوهم برهة وحولهم جماعة من العسكر بالبنادق والحراب ثم أخذوهم الى مقر الجنرال لووكان الجنرال جالسا على كرسى ورجلاه ممدودتان على كرسى آخر وحوله جماعة من عسكره وترجمانه فلما تمثلوا بين يديه لم يلتفت اليهم برهة طويلة ثم نظر الى أحمد عرابى نظرة الظافر وقال أأنت عرابى باشا قال نعم قال أأنت الذى عصيت وخرجت عن طاعة أميرك ومولاك وحاربته بغير سبب حتى سقطت فى أيدى جند ملكة انجلترا فلجلج عرابى ولم يرد الجواب فالتفت اليهم الجنرال وقال اخلعوا عنكم سيوفكم فخلعوها وتقدموا بها اليه وقالوا اليك نسلم سيوفنا والى حكومة جلالة ملكة بريطانيا العظمى نسلم أنفسنا لأننا نعتقد سلامة نواياها نحونا ومعاملتنا بالعدل فامتنع الجنرال من أخذ سيوفهم بيده وقال لستم أهلا لأن تؤخذ سيوفكم كأسراء الشرف ألقوها الى الارض كما تستحقون فألقوها أمامه فأشار الى بعض صغار الجند الذين حوله فأخذوها وقبضوا على عرابى وطلبه عصمت وعلى يوسف وألقوهم فى سجن العباسية فى تلك الليلة * هذه رواية * وفى رواية أخرى أنهم لما تمثلوا بين يدى الجنرال لو بسيوفهم أخذها بيده فقالوا اننا نحمد الله تعالى على تسليمنا بانفسنا الى أمة تعرف العدالة وتقدرها قدرها وسيتضح لها أنا ما عملنا الا بواجبنا ولم نسع الا خلف حقوقنا وان عندنا من العسكر المنظمة بمراكز العباسية زهاء خمسة وثلاثين ألفا ومثلهم فى مواقع كفر الدوار ورشيد ودمياط وهم على قدم الدفاع عند أول نداء فيهم ولكننا لم نقدم على فعل شئ بعد ذلك خوفا على سلامة البلاد وقد سلمنا بانفسنا فداء للوطن ﴿قلت﴾ وعندى ان لا حقيقة لهذه الرواية فقد كان موقفهم فى تلك الساعة محفوفا بالمكاره وأبعد من أن يتكلم فيه الفصيح اللبيب اللهم الا اذا كانوا على يقين من السلامة وبينة من أمرهم وهذا ليس بالامر البعيد فقد كان فى انسحاب أحمد عرابى من مواقع التل الكبير ودخول العساكر الانجليزية بين حصون ومعاقل المصريين على ما مر بيانه سر سيتلى عليك فى محله ان شاء الله

ولبثوا فى سجن العباسية الى يوم الاربعاء حادى عشرى ذى القعدة ثم نقلوهم الى قشلاق جند الحرس برحبة عابدين وقد احتله طائفة من الجنود الانجليزية ونزل فريق آخر بقشلاق قصر النيل ففعلوا به ما لا خير فيه فقد أخذوا جميع ما فى دنوانه من فرش وبسط وطنافس وشراشف وكراسى فكانوا يبيعونها للعامة تحت القصر بأبخس الاثمان أو بشئ من التبغ أو العرق أو الفاكهة أو الخبز أو الجبن وأحرقوا جميع ما عثروا عليه من الاوراق والدفاتر الديوانية والادوات على اختلافها ونزل الجنرال ولسلى بسراى عابدين واتخذها له مقرا وأقام على أبوابها الحراس والحجاب وأنزل بسراى الحرم الخديوى جميع أركان حربه ونزل الجنرال موريس مقدم النزل بسراى المدرسة التى برحبة عابدين وانبثت العساكر الانجليزية فى شوارع القاهرة زمرا تطوف وتخاطب العامة بعبارات التحية وكان الهنود

منهم يكثرون التطواف بالخطة المعروفة بخطة سيدنا الحسين وناحية دهليز الملك والحسينية ويحيون الناس ويقولون السلام عليكم يامسلمون نحن مسلمون مثلكم أتينا لخلاصكم من أيدى العصاة المارقين * واهتم محمد سلطان باشا بأمر المؤن والعلوفات لعسكر الانجليز وقد كثر طلبهم للخبز والأرز واللحم والسمن وغيره فشدد محمد سلطان باشا على صاحب شرطة المدينة فى ذلك فلم يقدر على القيام بأداء هذه الطلبات فى أوقاتها * وقد كنت يومئذ من مفتشى المراقبة العمومية فأتانى الطلب من محمد سلطان باشا على يد صديق لى اسمه عبد القادر بيك فهمى من قضاة المحاكم المختلطة فذهبت اليه فرسم لنا بأن نهيئ ديوانا يناط بلوازم العسكر الانجليزى وكتب بذلك الى صاحب شرطة المدينة والى ديوان الخزينة فأنشأنا ديوانا بالمكان الذى كان به ديوان المحافظ وقمنا بجمع حاجة الجيش فكانت أشياء كثيرة جدا من الضأن والبقر والخبز والارز والسكر والفلفل والعسل والشاى وبيض الدجاج وبن القهوة والزبدة والسمن والخضروات وحطب الوقود والتبن والفول والشعير والحشيش اليابس فى كل يوم صباحا مما قيمته ألف جنيه مصرى وسبعمائة جنيه عدا ما كان معهم من المؤن والعلوفات

مطلب ورود كتب الخديو من الاسكندرية بالقبض على سائر من كان له يد فى اضرام نار الفتنة

وعادت الاشغال الديوانية بعد أيام الى سابق مجراها ووردت كتب الخديو بالقبض على سائر من كان له يد فى اضرام نار الفتنة فقبضوا على من بالقاهرة وأودعوهم فى سجون بيت الشرطة وطيروا الخبر بذلك الى الآفاق فاخش المديرون والمحافظون فى معاقبة الناس وبالغوا فى ايذائهم وعلى الخصوص منهم مديرى الشرقية ومنية ابن خصيب فأخذا بالشبهات وملآ السجون من أصحاب الوجاهة وكبار الناس تشفيا وانتقاما وتزاحم أصحاب الوشاية وأهل السعاية على باب مصطفى رياض باشا ناظر ديوان الداخلية فأخذ بقولهم وشدد وهدد وتبعه فى ذلك سائر المأمورين ومن له كلمة مسموعة فانكمش الناس وعم الخوف وبات كل لا يأمن على نفسه وولده * وكان لما دخل الجنرال وود بعسكره مواقع كفر الدوار حضر للقائه يعقوب سامى وكيل ديوان الجهادية فرسم له باحصاء ما فى تلك المواقع من جند وآلة وسلاح فأحصاهم فكانوا زهاء ستة آلاف مقاتل وسبعمائة فرس مسرجة ملجمة وخمسين مدفعا بجميع مهماتها وخمسة عشر ألف بندقية فنقل جميع ذلك الى القاهرة ثم رسم بدفن ما وجد من جثث الموتى من الانسان والحيوان وبصرف جميع العساكر الى أوطانهم فانصرفوا ما عدا الضباط فانه أمر فسيروهم الى سراى الرمل تخفرهم جماعة من فرسان الانجليز * قال بعض الانجليز * وكانت مواقع كفر الدوار غاية فى المنعة وحسن الوضع الهندسى والطبيعى قل أن يمكن التغلب عليها الا بعد معاناة الاهوال وموت الالوف من الابطال اذ كانت تنقسم الى ثلاثة خطوط منتظمة محاطة بأرض غير مسلوكة لكثرة ما فيها من الاوحال والمرابك ويتفرع من تلك الخطوط خطوط أخرى على شكل زوايا قائمة ممتدة الى جهة سكة حديد كفر الدوار وترعة المحمودية وكانت الخطوط جميعها مسلحة بكثير من المدافع المرتبة على هيئة مناسبة للغاية قل أن يمكن معها للعدو الظفر بها وكان أمام

مطلب فيما كانت عليه معاقل كفر الدوار

كل

كل خط من الخطوط الثلاثة خندق بعرض خمسة عشر قدما متقن الوضع محكم العمل وكان بين الخط الاوّل والثانى والثالث خمسة آلاف متر وكان على رأس الاول منها قلعة تسمى قلعة الاسلام اعزازا للدين وهى من أجل القلاع شكلا وأقواها بنيانا وأحكمها وضعا اه

وكان العرابيون قد سدوا خط السكة الحديد بسدّ من البناء والتراب فرسم الجنرال وود بكسر هذا السد فكسروه بشئ من الديناميت وأصلحوا بعض ما تعطل من خط السكة الحديد وعثروا وراء الخط الثالث من تلك الخطوط على كثير من عربات النقل مشحونة بشئ كثير من الحرائر والمقصبات والاطالس والشاشات وغيرها من منهوبات الاسكندرية فجمعوا ذلك كله وأحصوه * ولما أنجز يعقوب سامى ما رسم به الجنرال وود تمثل بين يديه وخلع سيفه وسلمه اليه وقال لم يكن فيما فعلته الى الآن مع أصحاب الثورة الا طاعة مولاى الخديو وكمال الاخلاص فى خدمة أهل البلاد وكثيرا ما نصحت عرابى فلم يقبل حتى كانت العاقبة ما كانت فلم يلتفت الجنرال الى كلامه بل قال له وما الذى جرى للقائمقام الايطالى مسيو بولشى الذى نزل من بضعة أسابيع من مركب الحرب الايطالية ولحق بعرابى فى كفر الدوار فقال لا أعرف من هو ذلك الرجل فالتفت الجنرال الى جماعة الضباط المصريين فرأى الرجل بينهم وهو فى زى الضباط المصريين فأمسك بيده وقال هو هذا الذى أطلبه قال ذلك وسلمه الى نفر من الانجليز فساروا به الى الاسكندرية ليجازى عما فعل * واستسلم أيضا من كانوا فى رشيد وحصون أبى قير والبرلس وطابية أشتوم الجميل القريبة من مدينة بورسعيد وغيرها من بقية القلاع والحصون ولم يمتنع سوى عبد العال أبو حشيش مقدم جند دمياط ومن معه من الضباط وصمم على الامتناع والمقاومة ونادى فى عسكره بالخروج فخرجوا بعددهم وآلات حربهم ولازموا الحصون والمتاريس وجدّوا فى تحصين مواقفهم فلم يلبثوا حتى شاع بينهم خبر استسلام جند طابية الجميل وبقية الحصون ففترت هممهم وتراخت عزيمتهم وتركوا سلاحهم وتفرقوا أشتاتا ولم يفلح عبد العال فى ردّهم وجاء الخبر بذلك الى الجنرال وود فسير فرقة من عسكره على قطار السكة الحديد الى دمياط فلما وصلوا السنانية ارسل كبيرهم الى عبد العال يقول إنا لم نحضر الى هنا الا لنأخذك كرها اذا لم تأت بنفسك خاضعا فامتنع عبد العال وأرسل يقول انى مريض فعبر كبير الانجليز النيل الى دمياط فى قلة من أصحابه ودخل على عبد العال بمقره وقيل بل لاقاه عبد العال عند باب الديوان فأمر مقدم الانجليز فقبضوا عليه قبيل الغروب وعبروا به النيل الى السنانية ووضعوه ليلته تلك فى احدى عربات البضاعة والجند يخفره وأصبحوا فساروا به الى القاهرة وأنزلوه فى سجن أحمد عرابى ومن معه وهى دار أعدوها لهم بجوار جامع أزبك عند رأس الازبكية

مطلب امتناع عبد العال بك أبو حشيش من التسليم لعساكر الانجليز وما جرى له

وفعل الانجليز بمدافع الحصون والقلاع جميعها مالا خير فيه وألقوا جميع ما وجدوه فى المخازن من البارود والمهمات وآلات الحرب والعدد فى النيل وقد كان شيأ كثيرا جدا

مطلب ما فعله الانجليز بمدافع القلاع والحصون

وشاع الخبر بذلك وتناقله الناس فانقبضت صدورهم وظنوا بالانجليز السوء بعد أن كانوا فرحين بمقدمهم * فلما تم للانجليز ماأرادوه من نسف مواقع كفرالدوّار وحصون التل الكبير وتعطيل مدافع سائر القلاع من الاسكندرية الى أبى قير فرشيد فالبرلس فدمياط فالجبل وما بين هذا كله من المعاقل والابراج أنزلوا عسكرهم فى جميع المخافر ومراكز الأربطة بالاسكندرية والقاهرة ورتبوا منهم أصحاب الشرطة والعسس وجماعة يطوفون فى الليل والنهار مشاة وركبانا لانتشار عسكرهم فى الطرق والشوارع العمومية وأماكن اللهو والقصف بخطة الازبكية والعتبة الخضراء والموسكى وجلهم سكارى فكان العامة يتحككون فيهم ويزاحمونهم أو يشوّشون عليهم وجماعة العسس المتطوفون يحملون السكارى منهم الى المعسكرات فكان مقدّمهم يرسل الاوامر تباعا الى كبار ضباط العسكر وصغارهم بمنع العسكر من الاجتماع فى الحانات والتشديد على باعة الخمور والمسكرات بالامتناع عن بيع الردىء منها اليهم والا بولغ فى عقابهم فلم يأت ذلك بفائدة اذ تفشت الحميات الخبيثة بين العسكر كافة فى قلعة الجبل والعباسية وقصر النيل وميدان عابدين وفى سائر المخافر حتى فى مساكن الضباط فأنشؤا الشفاخانات (وهى بيوت المرضى) بقلعة الجبل والعباسية فامتلأت بمرضاهم من كل صنف ورتبة وكثرت موتاهم كثرة بالغة فكانوا يحملون الجثث بالنقالات على أكتاف الخدم من الهنود أوعلى عجلات المدافع مغطاة بالراية الانجليزية وأمامها الجند بالبنادق والموسيقى تعزف بألحان الحزن والحنان فاذا كان الميت ضابطا أو عظيما من قوّادهم سيروا جواده خلف العجلة التى تحمل نعشه مجللا بالسواد وعلى سرجه قبعة الميت وسيفه وحذاؤه فى ركاب السرج بشكل يخيل للرائى أن صاحب الجواد راكب عليه فكانت العامة اذا رأوهم على هذه الحال تجمعوا عليهم خلقا كثيرا وزاحموهم من الأمام ومن الخلف وربما دخل الصبيان بين صفوفهم فلم يكونوا ليظهروا شيأ من الضجر فاذا وصلوا بالميت الى المقبرة وضعوه لحظة لطيفة للصلاة عليه وربما رثوه بشئ من الكلام يناسب مقامه أورتبته ثم يوارونه التراب وحينئذ يطلقون بعض المدافع من قلعة الجبل أو يطلقون بنادقهم فى الهواء فوق القبر ثم يعودون صفوفا كما أتوا وكانت المنية يشتدّ فعلها يوما عن يوم بين عسكرهم الهندى فأهلكت منهم خلقا كثيرا فاهتم لذلك مقدّم الجيوش ورسم بارجاعهم الى أوطانهم وجاءه الامر بذلك فأخذوا يرحلون طائفة بعد أخرى الى مدينة السويس ومنها الى الاقطار الهندية على ظهور النقالات والشوانى الكبار وبقيت طائفة من فرسانهم وبعض كبارهم بالمكان المعروف بالبوليجون بالعباسية وهم فى ضعف وهزال وقد شاع يومئذ أنهم سيلبثون بالقاهرة حتى يأتيهم الطلب الى عاصمة الانجليز فيتمثلون بين يدى امبراطورتهم فتهنئهم عن أنفسهم وعن بقية الذين أبلوا منهم البلاء الحسن فى قتال العرابيين * هذا ومن عجيب الاتفاق أن الليلة التى دخلت فيها الجيوش الانجليزية القاهرة وضواحيها وهى ليلة الثانى من ذى القعدة سنة تسع وتسعين ومائتين وألف أى خامس عشر سبتمبر سنة اثنتين وثمانين وثمانمائة وألف كان

الكثير من أهالى القاهرة ومصر القديمة عاكفين على الاعراس والافراح والولائم وهم فى شاغل عن كل ماسوى ذلك فكانت فعالهم فى ذلك اليوم كفعالهم يوم دخول نابوليون بونابارته القاهرة بجيوش الفرنسيس سواء بسواء فكأن مدارك القوم هداهم الله لم تتصل الى شئ من الترقى من ذلك الحين الى الآن وفى ذلك مافيه من العجب العجاب

ونهض أصحاب صحف الأخبار من الانجليز يفصلون ويقيسون فى شكل موقعة التل الكبير ويلبسونها أثواب المدح والاطراء ثم جعلوا يعرضون بذكر حروب بونابارته مع طوائف المماليك بديار مصر ويعجبون بالفرق بين مالاقته جنود بونابارته من التعب والموات بسبب وعورة الطرق وقلة الماء وما لاقته جيوش الانجليز من التوفيق وحسن الخط ونسف مواقع التل الكبير فى قليل من الزمان وعدّوا أفعال مقدم عسكرهم من العجائب والآيات الحربية فرد قولهم بعض الكتاب وأكثروا من النقد والتعييب وقالوا ان الصورة التى هجم بها قائد الانجليز على مواقع التل الكبير كانت غاية فى الخلل بالغة حدّ الطيش الذى ما بعده الا الخسارة والندم قالوا ولا يخطر على بال عاقل قط أن قائدا محنكا يجسر على اتخاذ تلك الخطة الهجومية على خطوط عدوّ من احدى الدول الاروباوية فان إسراء تسع مراحل تحت جنح الظلام كاف وحده للجزم بالفشل والخسارة وبشؤم المصير وان خروج مقدم عسكر الانجليز هذا بعسكره فى نحو الساعة الثانية عربى ليلا وتركه جميع المعسكر تحت حراسة نفر من الجند وإسراءه وإياهم الى منتصف الليل ثم تربصه ثم إسراءه لمن أكبر الأغلاط وأتعس المناورات وقد عابوا أيضا طريقة الهجوم التى فعلها عند خطوط التل الكبير الأمامية وقالوا انها تخالف الطرق الجديدة المعمول بها الآن فى جيوش الدول الكبرى وجزموا بوجود سر خفى فى الامر وشئ متفق عليه بين قائد العساكر الانجليزية وبين أحمد عرابى ومن معه من زعماء العصابة ولولا ذلك ماتمكن مقدم جيوش الانجليز من الدخول على تلك الصورة الخارقة لكل فنّ ونظام عسكرى * وكتب رجل اسمه جون نينى كتابا فى هذا الصدد يقول فيه * مالى أرى اخواننا الانجليز ولا سيما أصحاب صحف الاخبار منهم يلهجون بذكر موقعة التل الكبير ويحسبونها كرامة لمقدم عسكرهم مع أن الامر ليس فى شئ من ذلك البتة لانه لما اشتدت الازمة واستحكمت على جيوش الانجليز حلقات الضيق قدم الى أحمد عرابى فى ظهر ثامن عشرى شوال من السنة يعنى سنة تسع وتسعين أحد مشايخ العربان وأعلمه بان الانجليز على قدم الهجوم على خطوط الدفاع بعد نصف ليلة تاسع عشرى شوال المذكور بساعتين وأنهم سيسيرون بعد ذلك الى بلبيس ليفتحوا الطريق منها الى القاهرة فكان الذى يجب على أحمد عرابى فعله بعد أن سمع هذا الكلام أن يبادر على الفور بتحصين مدينة بلبيس جهد الاستطاعة كى لايتمكن العدو من دخولها وهى التى كانت أول حصن لبونابارته عند زحفه على مدينة القاهرة ولكنه لم يفعل شيأ من ذلك وأرسل الى طلبه عصمت مقدم جند كفر الدوّار يستمده ويقول له أرسل لى المدد بحيث

يكون وصوله الى التل الكبير ضحوة تاسع عشرى شوال يعنى بعد أن تكون قد خرقت جيوش الانجليز خطوط التل الكبير ومزقت شمل من بها من الجنود وساروا منها الى بلبيس ليفتحوا الطريق الى القاهرة ومع ذلك فقد جاء المدد قبل الاجل المضروب ودخل مدينة الزقازيق ولكن ما الذى رآه ياترى ذلك المدد رأى جندا شاردا كالابل الآبقة وأشلاء قد غطت وجه الفضاء وقد تم الامر للانجليز وفر أحمد عرابى هاربا الى القاهرة فعاد المدد مع من لحق به من الفارين الى القاهرة — قال — ومن العجب العجاب أن فى الليلة التى دخل فيها الانجليز معاقل العرابيين كان العربان على رأس الخطوط الأمامية منها فلما سمعوا صوت أول طلق خرج من بنادق الانجليز صاحوا وتراحموا وعلت جلبتهم وجعلوا يدوسون بأرجلهم بطون الجند النائمين فهب الجند من نومهم مذعورين لا يعرفون من معهم ومن عليهم وخرجوا على وجوههم هائمين ومع ذلك فقد قابل أصحاب المدافع منهم عساكر الانجليز وهم لايزيدون عن ثلاثة آلاف مقاتل فقاتلوهم فأعمل الانجليز فيهم السيف كأنهم يقاتلونهم وجها لوجه ومع ذلك فقد راسل أصحاب المدافع الرمى على الانجليز فأصلوهم نارا حامية — قال — ولم يبق مجال للشك أو الريب فى أن ساداتنا الانجليز قد قبضوا على كثير من صغار الضباط المصريين وكبارهم عند ماهموا بالفرار بما أخذوه من الرشاوى والبراطيل فأذاقوهم كأس المنون بحيث لم نر بين جثثهم جثة واحدة أو شيأ من مشامش أحد العربان الذين كانوا كما قلنا على رأس الخطوط الأمامية فى تلك الليلة وبين الحصون والمتاريس ولم يكن ثمت ما يدرأ عنهم فى تلك الساعة نيران الانجليز غير أنهم كانوا على عهد مع محمد سلطان باشا وبينة من الأمر قبل وقوعه ومن العجب العجاب أننا لم نر أحدا من هؤلاء العربان سيق الى الحبوس كما ساقوا غيرهم مع أنهم كانوا لا ينقصون عن أربعة آلاف كلهم مدججون بالسلاح بل لم نر أحدهم أوقف يوما موقف المسؤل فليقل لنا السادة الانجليز هل بعد هذا كله من دليل على صحة ما يزعمون وما بالهم اليوم ينكرون على جماعة العربان ذلك التوفيق والفوز العظيم الناجم عن فعالهم وما لنا لانسمعهم يرددون آيات الشكر والثناء على سلطان باشا جزاء ما قام به من بذل الأصفر الرنان حتى أزال به ما كان يتخلل طريق عسكرهم من العقبات وحال دون ما كان يترصدهم من المرابك والهلكات — قال — والحق أقول ولاأخشى لومة لائم أن جيش الجنرال ولسلى الذى كان يبلغ زهاء خمسة وثلاثين ألف مقاتل كاملى الآلات والعدد لم يقاتل فى تلك الليلة على خطوط التل الكبير سوى ثلاثة آلاف من المصريين وبينهم قليل من أصحاب المدافع وكلهم فى دهشة من النوم فانه لما كثر صياح العربان عند دنو الانجليز من الخطوط وارتفعت أصواتهم وعلت جلبتهم خرج سائر المصريين على وجوههم هائمين فلم يبق منهم بالمعاقل فى تلك الساعة سوى هذا النزر القليل وعليه فانى لم أر فى نصرة مقدم الانجليز على مواقع التل الكبير شيأ يستوجب الاستغراب أو التفاخر والاعجاب اهـ بنصه

مطلب ما كانت عليه المناقشة بين الباب العالى واللورد دوفرين بشأن ارسال العساكر السلطانية الى مصر

وقد كانت رحى المناقشة الى يوم دخول الانجليز مواقع التل الكبير دائرة مابين الباب العالى واللورد دوفرين سفير الانجليز بدار السلطنة العثمانية على قاعدة تقرير عصيان أحمد عرابى وخروجه عن الطاعة وكانت هذه المناقشة غاية فى المواربة بل كانت من قبيل إظهار غير الخفى وإخفاء الظاهر المشاهد لانه بعد أن كانت انقطعت المخابرة بينهما بشأن ارسال العساكر السلطانية الى ديار مصر لأسباب ما أنزل الله بها من سلطان ووصل الى المابين الهمايونى الخبر بقيام الجنرال ولسلى مقدم حملة الانجليز بعسكره من الاسكندرية الى مدينة بورسعيد وانه قد احتل القنطرة ثم الاسمعيلية وأنه أخذ يقاتل العرابيين تباعا وأن مساعى محمد سلطان باشا فى استمالة العربان الى طاعة الخديو قد تمت أوكادت عاد رجال الدولة الى فتح باب المخابرة مع السفير بشأن ارسال فريق من العسكر السلطانى الى مصر وألحوا فى الطلب فكان السفير يطاولهم تارة ويحاولهم أخرى ثم عاد الى المواربة فى القول فلما آنسوا منه بعض الرغبة عادوا فاظهروا عدم الرضا عن قاعدة الاتفاق الذى بموجبه يرسل السلطان عسكره قيل فانقبض السفير عند ذلك وانكف عن الكلام أياما أخرى * وكان الانجليز قد سيروا جماعة منهم فى هذا الحين الى الشام لشراء بعض الدواب من البغال والخيل والجمال لحاجتهم على مصر فأرسل الباب العالى الى عماله بالولايات يحذرهم من بيع تلك الدواب وخروجها من بلاد الدولة ففعلوا وقبضوا على من استخدمه الانجليز من أهل البلاد فى خدمة هذه الدواب وألقوهم فى الحبوس فجاء الخبر بذلك الى السفير فاستعظمه وكبر عليه وكلم الصدر الاعظم فى ذلك وبالغ فى الشكوى وأكثر من الترداد بين الباب العالى والمابين وما زال يغدو ويروح حتى رسم السلطان فى ثامن شوال باطلاق أمر البيع والشراء فى تلك الدواب لمن يشاء من خلق الله وأطلقوا سبيل من كانوا فى الحبوس بسببها وأرسل السلطان بعيد ذلك أحد رجال ديوانه الخاص الى السفير يسأله أن لايكون نزول العساكر السلطانية المزمع ارسالها الا فى مدينة الاسكندرية فقام السفير من ساعته واجتمع بصدر الدولة وكبارها وكلمهم فى الامر فكلموه طويلا وبعد أخذ ورد قال السفير انه سيبلغ هذا كله الى كبير السياسة الانجليزية فوافقوه على ذلك ووافقوا أيضا على جميع الاوجه التى كانت سببا فى الاختلاف ورفع السفير الامر الى كبير سياستهم ثم عاد فكلم السلطان فى اصدار فرمانه بعصيان أحمد عرابى وشقه لعصا طاعة الخلافة قبل فتململ السلطان وامتنع فألح السفير فشدد هو فى الامتناع ورسم الى رجال دولته فجعلوا يطاولون ويحاولون ويهونون على السفير الامر والسفير لايزداد الا تشديدا فى الطلب وسير إلى الصدر الأعظم يوما من يقول له ان دولة الانجليز لاتعتبر ارسال العسكر السلطانى الى الاسكندرية أمرا مقضيا وأنه لايصير التوقيع على الاتفاق المبرم بشأن ذلك حتى يصدر السلطان فرمانه بعصيان أحمد عرابى ومن معه وباتوا وأصبحوا وقد جاء الخبر من صاحب سياسة الانجليز برفض طلب السلطان نزول عسكره بمدينة الاسكندرية فكبر الامر

على السلطان ورسم الى الصدر الاعظم بمعاودة السفير وفتح باب المخابرة معه وأنه متى تم ارسال العساكر السلطانية الى الاسكندرية رسم السلطان بعصيان أحمد عرابى وطير الخبر بذلك الى الآفاق فعاد الصدر الى الكلام مع السفير وأظهر غاية اللين والتلطف وثابر على الكلام مع المجاملة لعله ينال أربا فلم يفلح قيل فارسل الى الولاة ثانية بمنع من خروج دواب الحمل لحملة الانجليز على مصر ففعلوا وأحس السفير بذلك فانكف عن الكلام مع رجال السلطنة أياما فراسله الصدر الاعظم فى ذلك فامتنع وقال لاسبيل الى ما تطلبون فسير اليه من يعلمه بأنّ أمير المؤمنين لايمتنع من قبول نزول عسكره بأبى قير عوضا عن الاسكندرية فاذا وافقت دولته على ذلك وصار التوقيع على العهد أصدر السلطان فرمانه بعصيان أحمد عرابى ومن معه فاظهر السفير رضاه بهذا الشرط ولكنه طلب قبل كل شئ أن ينفذ الامر لسائر الولاة والعمال بالكف عن منع خروج الدواب من ولاياتهم فاجابه الصدر الى ما طلب وشاع الخبر بذلك فى دار السلطنة فظن الناس أنه لم يبق بعد هذا كله من سبب للمواربة والتكلف لاسيما وقد ورد على بعض رجال الدولة الخبر بتقدم العساكر الانجليزية وتغلغلهم فى جوف البلاد المصرية وانضمام بعض كبار العربان اليهم * فلما كانت ليلة سادس عشر شوال سار سعيد باشا صدر الدولة الى دار سفير الانجليز وأعلمه بان أمير المؤمنين ميال كل الميل الى التعجيل بتسيير عساكره الى أبى قير كما وقع الاتفاق فلم ير من السفير فى ذلك اليوم وجها باشا ولا صدرا رحبا فانصرف عنه وعاد اليه فى ثانى يوم ومعه كاتم أسرار السلطان وقال الخليفة يقرئك السلام ويقول انه لم يكن ليأنف قط من تنفيذ رغائب صاحب السياسة الانجليزية كما هى اذا تساهل فى نزول عساكره السلطانية بمدينة الاسكندرية كما أنه لا يحجم أيضا عن تقليل عددهم المتفق عليه ابتداء وتنزيله الى الفين أوألف مقاتل وأنه يرسل معهم باكر باشا الانجليزى قائدا ثانيا ولا يمنعه من أن يأخذ معه من الضباط الانجليز من يشاء بحيث تبقى العساكر السلطانية فى ديار مصر فى هذه الحملة تحت المراقبة الانجليزية كما كانت أيام حرب الروسية * قيل فرفع السفير محصل هذا الكلام الى صاحب سياستهم فلم يرد عليه الجواب أوورد ولكنه لم يبلغه الى الصدر الأعظم وجعل يطاول ويحاول الى ان وردت اليه الأخبار بنجاح حملتهم وتحقق من تمام استمالة بعض كبار الضباط المصريين وصغارهم ومشايخ قبائل العربان وجاءه الأمر من صاحب سياستهم بأن يبلغ السلطان أن حكومة الانجليز كانت لاتتأخر عن قبول شروط ارسال العساكر الشاهانية الى مدينة الاسكندرية لولا ما يحول دون ذلك من الدواعى والأسباب الكثيرة ولكنها مع ذلك لاتمتنع من قبول ارسال ألفين منهم وتنزيلهم فى أحد مواقف ترعة السويس * قيل فلما سمع السلطان هذا الكلام حزن جدا لاسيما وقد جاء الخبر فى هذا الحين الى المابين والباب العالى بتغلغل ولسلى وعسكره فى جوف البلاد وأن قد انضم الكثير من كبار الضباط وصغارهم الى جهة الانجليز فأرسل السلطان الصدر الأعظم الى دار السفير يقول ان أمير المؤمنين يقبل

مطلب صـــدور الفرمان السلطانى بعصيان أحـد عرابى ومن معه

تنزيل عسكره فى مدينة بور سعيد وأنه فى مقابلة ذلك يتعهد باصدار فرمانه بعصيان أحمد عرابى وسائر زعماء الثورة بديار مصر فأظهر السفير رضاه عن ذلك ولكنه لم يبد جوابا شافيا

فلما كان رابع عشرى شوال سار السفير الى الباب العالى صباحا ومعه ورقة مسطور فيها العهد المراد ابرامه بشأن ارسال العسكر السلطانى ودخل الى مقر الصدارة ولم يستقر به المقام حتى جاءه من أعلمه بصدور الفرمان الشاهانى القاضى بعصيان أحمد عرابى فسر بهذا الخبر سرورا عظيما ولكنه لما اطلع عليه لم يعجبه وانقلب سروره حزنا أو هو تظاهر بذلك وقال انه لم يتضمن شيأ البتة من الاسباب والقواعد التى وقع الاتفاق عليها فراجعه الصدر الاعظم فلم يلتفت اليه وامتنع من التوقيع على ورقة العهد القاضى بارسال العساكر الشاهانية الى مصر فعاوده الصدر ولاطفه وهوّن عليه وقال لابد من ارجاع كل شئ الى ما وقع الاتفاق عليه وسأله ان يطلعه على ما فى ورقة العهد فأطلعه عليها فاذا هى لم تعين مدينة بور سعيد محطا للعساكر السلطانية كما وقع الاتفاق على ذلك بل تبيح نزولهم على ضفاف ترعة السويس ليس الا فاستاء الصدر الاعظم من ذلك وقال للسفير وددت أن لايبقى بيننا من الآن شئ من المواربة فقد ذهب الصبر واختلط الحال والعهد الذى أبرم بيننا انما هو على جعل مدينة بور سعيد محطا لعساكرنا وقد وافقتمونا على ذلك فلا موجب اذا أن تعدلوا فتركه السفير وانصرف ثم عاد وقد كتب فى تلك الورقة مانصه ۞ ان حكومة جلالة الملكة تبيح للعساكر السلطانية الرحيل الى مدينة بور سعيد ومنها الى الموقع أو المواقع التى يحصل الاتفاق عليها ما بين مقدمى الجيشين اهـ ﴿قلت﴾ وقد قصدوا بذلك أن العساكر السلطانية يأتون فيمرون من ترعة السويس ولا ينزلون على ضفافها الا حيث يأمرهم مقدم عسكر الانجليز * فأبى السلطان عليهم ذلك وقال لابل ينزلون بمدينة بور سعيد فوعد السفير بتبليغ هذا الكلام الى صاحب سياستهم وانكف عن مقابلة الصدر الأعظم أياما فأحس رجال الدولة بما وراء هذا التطويل وأدركوا ما يترصدهم من الخيبة لاسيما وقد جاءتهم الاخبار يومئذ بقرب تغلب الانجليز على أصحاب التل الكبير وأنهم قد طيروا الخبر بعصيان أحمد عرابى وخروجه عن طاعة أمير المؤمنين كما تقدم القول

وفى سادس عشرى شوال سار الصدر الأعظم الى مقر سفير الانجليز متأبطا بعض الاوراق وصورة من العهد المتعلق بارسال عساكرهم الى ديار مصر ومذكرة للتوقيع عليها من السفير وكلمه فى الامر وقال قد رسم أمير المؤمنين بان لايمكن التغاضى عن عدم ذكر هذه العبارة فى بنود الاتفاق وهى « ينزلون بمدينة بور سعيد » فأبى السفير عليه ذلك وقال لا بأس من أن نأتى على تفسيرها فى سطور المذكرة بهذه العبارة « تسير العساكر الشاهانية قاصدة مدينة بور سعيد لكى تتمكن من الدخول من خليج السويس » وكانت تلوح على وجه السفير فى هذا الحين لوائح الاضطراب والوجل وكأنه كان يتوقع حدوث حدث جديد وكان فى كل لحظة يدخل عليه أحد بطانته فيكلمه همسا فكان تارة يحمر

وجهه فرحا وأخرى يصفر وجلا ورجال الدولة فى شاغل عنه بمراجعة بنود الاتفاق وقراءة عبارة المذكرة ثم أعادوا معه الكلام فلم يقبل الا ما أشار به وأصر على الامتناع فقاموا من عنده وانقطع الكلام بينهم أياما أخرى * فلما كان تاسع عشرى شوال وردت الاخبار الى السفير بانتصار الجنرال ولسلى على العرابيين ودخوله القاهرة فأشاع السفير هذا الخبر وطيره الى الآفاق فجاءه فى ذلك الحين الصدر الاعظم وناظر الخارجية وكلماه فى أمر ارسال العساكر السلطانية الى بورسعيد وفى تعديل بنود العهد وكأنهما لا يعلمان شيأ مما حل بالعرابيين فلما سمع السفير كلامهما تبسم وقال قد ضاعت الفرص وذهبت الآمال بل قضى الأمر فلم يبق من موجب لارسال العساكر السلطانية وقد انتصرت ولله الحمد عساكرنا وظفر مقدم جيوشنا باهل الثورة ظفرا مبينا قبل فأظهر الصدر الاعظم استغرابه من هذا الخبر وقال وكيف ذلك فقال السفير نعم وقد أتانى الأمر بأن أسترجع صورة الاتفاق التى قد كنت بعثت بها الى المابين ولقد كانت حكومة جلالة ملكتنا تودّ أن لا تعمل الا مافيه ارضاء أمير المؤمنين غير أن الظروف لم تأت بالغرض ولكنها لم تغير قط شيأ من العلائق الودية الكائنة بين الدولتين من القدم فقال ناظر الخارجية إى نعم وان حكومة عظمة أمير المؤمنين لا تنسى قط ماهية الحب المتبادل بينها وبين حكومة جلالة الملكة وعليه فانى أسأل باسم مولانا أمير المؤمنين ما هو الاجل الذى ضربتموه لجلاء عساكركم عن أرض الكنانة فطفق عند ذلك السفير يحدثهم بخبر ما لاقته العساكر الانجليزية من التعب أمام حصون التل الكبير وجعل يبالغ فيما بذلته حكومة جلالة الملكة من النفس والنفيس حبا فى ارجاع الهدوّ والطمأنينة الى البلاد بعد أن كادت تقوض الفوضى ربوعها الى أن قال * ولقد زادت هذه الضحايا فى نفوذنا نفوذا آخر نجم عنه مسؤلية عظيمة لايمكن التخلى عنها لا سيما وقد انحل الجيش المصرى وأصبح خديو البلاد فى حاجة الى تدبير حكومته وارجاع سابق سلطته فلا يجمل بدولة بريطانيا فى هذا الوقت اجلاء عساكرها وترك البلاد بلا حافظ ولا رقيب على أنها مع ذلك قد رسمت بجلاء فريق منهم وهى على عزم ان لاتبقى منهم أحدا فى جوف البلاد متى سمحت الظروف بذلك الى أن قال * ولا أرى نفسى مقصرا فى القيام برغائب أمير المؤمنين كما لا ينكر جلالته علىّ ذلك ولكن إعراض جلالته عن الأمر فى حين وجوب الاقبال والتزامه جانب التطويل فى الوقت الذى كان يجب فيه الاختصار كلاهما كان باعثا على وقوع ما وقع ومع كل ذلك فان رباط المودّة بين الدولتين لا ينفصم أبدا فقام الصدر الاعظم ومن كان معه وانصرفوا وشاع فى الاستانة خبر دخول جيوش الانجليز الى القاهرة فاضطرب الناس وأخذتهم الطيرة وقبحوا فعال الصدر الأعظم ووزير الخارجية ورموهما بالخيانة وسوء النية واتهموهما ببيع أملاك الدولة بثمن بخس وقامت الفتنة فى السراى السلطانية وتفرقت أغراض أهل المابين ورمى كل رفيقه بالغش والخيانة وانكشف من اسرارهم المضحك والمبكى وتكلم أصحاب صحف أخبارهم فى

هـذا الأمر وتوسعوا فى القول وكادوا يفضحون ما استترت معرفته عن الناس فنعوهم وهددوهم فانكفوا وفى القلوب ما فيها وقد صدق من قال * وقد يغلب المقدر على التقدير حتى تكون الآفة فى التدبير فالله حسبنا وكفى

مطلب ورسم الخديو بخلع سائر المحافظين والمديرين والمأمورين الذين تولوا على عهد أصحاب الثورة

ورسم الخديو بخلع سائر المديرين والمحافظين وسائر المأمورين الذين استلموا زمام الوظائف على عهد أصحاب الثورة فخلعوا ورسم أيضا بصرف سائر العساكر المصرية ورجوعهم الى أوطانهم فتفرقوا ولم يبق منهم بالقاهرة الا نفر قد لبسوا لباس العامة ودخلوا فى خدمة بعض الناس وكذلك رسم بتشكيل لجان خصوصية لتحقيق حادثتى رابع عشرى رجب ورابع عشرى شعبان سنة تسع وتسعين بمدينة الاسكندرية وفى طنطا وأخرى بالمحلة الكبرى لتحقيق ما وقع بهما من القتل والحريق ثم أرسل مصطفى رياض باشا الذى ولى نظارة الداخلية الى المديرين والمحافظين يستقدم من وقع القبض عليهم من أهل كل بلد ممن كان لهم يد فى إضرام نار الفتنة فسيروا بهم مكبلين بالحديد عشرات عشرات وهم فى أتعس حال وقام المأمورون بعمل التحقيق فجىء لديهم بالمتهمين من كل فج عميق فخاف الناس وأوجس كل شرا من عدوّه وصديقه اذ كثر أصحاب السعاية على باب مصطفى رياض باشا وتزاحموا على ديوانه وتسابق الغريم الى الشكاية بغريمه والجار الى الاضرار بجاره لأقل سبب وأنشئت محكمة عرفية فى القاهرة وجعل رئيسها محمد رؤوف باشا وأخرى رئيسها اسمعيل أيوب باشا فاختصت محكمة رؤوف باشا بالحكم فى جميع الدعاوى التى ترفع من اللجنة الخصوصية وجعلوا أحكامها فى ذلك قطعية لا تقبل الاستئناف وشكلوا لجنة عسكرية أخرى بالاسكندرية لتحكم أيضا فى القضايا التى ترفع اليها من محكمتى الاسكندرية وطنطا المخصوصتين حكما قطعيا لا يقبل الاستئناف وكثر القبض على الناس وانبث أصحاب الشرطة يبحثون على الفارّين من المتهمين فكانت شدة عظيمة للغاية كل هذا والخديو بالاسكندرية يتابع اصدار المراسيم باعادة النظام وترويج الاعمال كسابق مجراها * فلما كان حادى عشرى ذى القعدة قام الخديو من الاسكندرية الى القاهرة فدخلها فى الساعة السابعة عربى نهارا وكانت طوائف الجند من الانجليز والهنود مشاة وركبانا مصطفين ذات اليمين وذات الشمال من محطة السكة الحديد الى سراى عابدين فلما نزل من القطار ونزل معه ادوق أوف كانوت ثالث أولاد ملكة الانجليز * وكان هذا الدوق قد حضر للقتال كقائد فرقة من العساكر الانجليزية * أطلقت المدافع من قلعة الجبل وفسحة المحطة تباعا وصدحت الموسيقى بالنشيد الخديوى وهتف الجند باصوات التهاليل فركب عربة يجرها أربعة من جياد الخيل وركب على يساره الدوق المشار اليه وجلس أمام الخديو ولسلى مقدم الجيوش الانجليزية وأمام الدوق المستر مالت قونصل جنرال الانجليز وكلهم بملابس الزينة والتشريف وخلف العربة طوائف الحرس وكبار الضباط وكوكبة من الفرسان وما زال سائرا بين صفوف الجند وأصوات التهاليل ودعاء

مطلب مجىء الخديو من الاسكندرية الى القاهرة وما كان من وراء ذلك

العامة المتواصل وزغاريت النساء من أعالى البيوت حتى نزل بمقره بعابدين وأمر فعملت الولائم والمآدب لكبار عسكر الانجليز أياما كثيرة وأهداهم نياشين الافتخار من كل رتبة وصنف وأحدث نيشانا جديدا من المعدن المعروف بالبرنز على شكل زاوية سماه النجمة المصرية وأهداه لجميع الجنود الانجليزية الذين شهدوا قتال مواقع كفر الدوار والتل الكبير ثم أتت جميع الجنود الانجليزية الى القاهرة فلم يبق منها الانفر بالاسكندرية وبورسعيد والاسمعيلية فاستعرضها الخديو برحبة عابدين بين عزف الموسيقى وأصوات المدافع وكانوا قد أعدوا لذلك كشكا لطيفا فى وسط الرحبة وزينوه بالبيارق والرايات وكان بين هذه البيارق والرايات الراية الانجليزية فجلس الخديو بالكشك ومر الجند من أمامه تباعا على أشكال متنوعة واتفق أن جلوس الخديو بذلك الكشك كان تحت الراية الانجليزية وعلى يمينه الدوق أوف كانوت فتطير الناس من ذلك وخافوه وترامت ظنونهم فى ذلك اليوم الى المرمى البعيد وجعلوا يتساءلون عن معنى ذلك الاستعراض وما فيه من الرموز والاشارات الخفية وما ينجم عن جلوس الخديو تحت ذلك العلم الانجليزى

وانقضت ليالى الافراح والولائم على أحسن ما يكون من الابهة والزينة وعادت الاعمال الديوانية الى سابق مجراها فجعل الوزير محمد شريف باشا يدبر الامور على أحسن ما يكون من التدبير وقد رأى أن فى بقاء جميع العساكر الانجليزية فى جوف البلاد خطرا دائما وكدا ملازما فكلم قونصل جنرال الانجليز فى ذلك وكشف له عما فى سياسة بقاء جيوشهم بالقاهرة من الخطل وضعف الرأى وطال الاخذ والرد بينهما أياما حتى تقرر الاتفاق على بقاء اثنى عشر ألفا منهم بين القاهرة والاسكندرية وطالبت حكومة الانجليز الخزينة المصرية بنفقة هذه الجنود ورسمت بصرف ثمانية وأربعين ألفا ذهبا فى كل شهر مادامت هذه الجنود قائمة بحراسة البلاد قالت حتى يستتب الامن وتتوطد الراحة وتقوى الحكومة الخديوية على القيام بشؤنها المالية والادارية منفردة * ثم رحل عن القاهرة سائر الجنود الذين حصل الاتفاق على تسفيرهم وعاد الجنرال ولسلى الى عاصمة بلاده وقد أهداه كبار القاهرة وأعيانها سيفا من الصنعة المصرية منقوشا عليه هذه العبارة ((هدية من المصريين الى الجنرال ولسلى قائد الجيوش الانجليزية)) * ولم يكد يستقر بالجنرال المقام فى عاصمة بلاده حتى قدم الى القاهرة اللورد دوفرين سفير الانجليز فى دار الخلافة لينظر فى تنظيم أمور البلاد على ماتقتضيه المصلحة الانجليزية فقوبل بغاية الاحتفال وأنزلوه مع حاشيته وبطانته بقصر النزهة بشبرا من ضواحى القاهرة فلبث به أياما ثم انتقل الى دار قطاوى بيك بخطة الاسمعيلية فلازمه بعض الاجانب النازلين بمصر ممن يدعون العلم بعادات البلاد وأخلاق أهلها وما يحتاجونه من خير أو اصلاح شر فقصوا عليه ما وصلت اليه معارفهم وبث هو كذلك العيون لتأتيه بأخبار العامة وما يقوله أهل البلاد وجعل يوالى الاجتماع تارة بالخديو وأخرى بالوزير محمد شريف باشا ويكثر من التطواف فى شوارع

مطلب مقدم اللورد دوفرين الى ديار مصر وما كان من وراء ذلك

القاهرة

القاهرة وبين مجتمعات العامة وظل على هذه الحال أياما ثم حرر تقريرا فى غاية التطويل والاسهاب وقسمه الى أبواب وفصول دوّن فيها ما شاء من احتياجات البلاد المالية والادارية والقضائية وما ينفعها من النظامات الداخلية وبالغ فى اظهار حاجتها الى ترتيب أمر الجندية وأصحاب الشرطة أوّلا ثم جعل المراقبة على جميع مصالح الحكومة فى حالة أقوى وأكمل مما هى عليه الآن ثم توسيع نطاق المصالح الأميرية المتولى ادارتها الموظفون الأجانب وتقليل عدد الموظفين بالدواوين من المصريين * قال وهم الذين ضاقت بهم تلك المصالح لكثرتهم * وتنظيم محاكم عدلية على نظام يناسب حال أهل البلاد والمساواة بين الاجانب والاهلين وانشاء هيئة شورية تكون حاصلة على شئ من الحرية واستقلال الفكر ولا بأس من أن تكون هذه الهيئة هى مجلس نواب البلاد أو ما يشابهه وابطال تجارة الرقيق وقطع دابر الاسترقاق وتأمين طرق التجارة وسبل الاتصال ما بين الديار الاوروباوية والشرق عن طريق مصر وعلى الخصوص حرية المرور من خليج السويس * هذا أهم ما جاء فى تقرير دوفرين هذا فلم تتناوله الايدى حتى قابله أصحاب صحف الاخبار المحلية بألسنة الطعن وعابوا عليه كثيرا من الملاحظات ولاسيما ما يتعلق منها بخدمة الحكومة وأرباب الوظائف وشددوا عليه النكير ورموه بالخلط والخبط وقالوا انما هى سفسطة نقلها عن رسله الذين كانوا يجوبون القرى ويطوفون البلاد وينقلون عن حوافيشها وزعانف النزلاء فيها الذين لا خبرة لهم ولا دراية بالامور فما هو الا كلام فى كلام . فلم يلتفت دوفرين الى هذا كله ولم يعبأ به وعمد الى الاهتمام بأمر من كانوا فى الحبوس بتهمة الاشتراك فى الفتنة وقد غصت بهم وضاقت اذ بلغت عدتهم يومئذ ألفا ومائتى مسجون لم يحسب بينهم محمود فهمى وأحمد عرابى وطلبه عصمت ومحمود البارودى ويعقوب سامى وعبد العال حشيش وعلى فهمى وعلى الروبى وغيرهم من كبار العصابة ومقدمى الثورة فكلم مصطفى رياض باشا فى ذلك وسأله التعجيل فى أمر أولئك المتهمين وفك قيود البرىء منهم فأعظم مصطفى رياض باشا هذا الكلام وأكبره لانه لا يستطيع أن يرى يدا فوق يده أوكلمة سابقة لكلمته فلم يلتفت الى ذلك ولا أحل طلب دوفرين محله وقد وردت الشكاوى تترى على مقر دوفرين من أصحاب الحبوس يعددون فيها ما يقاسونه من أليم العذاب وأشكال الضيم وذهب بعض نسائهم وذراريهم الى مقره يبكون ويتوجعون اليه مما يلاقيه أهلهم من الجور والعسف من مصطفى رياض باشا ويسألونه الرحمة بأنفسهم والرأفة باهلهم فهال دوفرين أمرهم وأحزنه وقيد جماعة من كبار ضباط الانجليز بتفتيش جميع السجون التى بالاقليمين القبلى والبحرى وسماع ظلامة سائر من بها من أهل البلاد فذهبوا وعادوا وقصوا عليه من أخبار تلك السجون ما تنفطر من سماعه القلوب لاسيما حبوس الشرقية ومنية ابن خصيب فتقدم الى الخديو فى العفو عن سائر أصحاب الجرائم الصغيرة فاجابه الى ذلك ورسم بالعفو عن سائر صغار الضباط الا من كان منهم فى مظاهرتى غرة ربيع الأول ورابع عشرى

مطلب
احصاء اللورد دوفرين لمن فى الحبوس

شوال سنة ثمان وتسعين ومن كان تحت السلاح وقت مذبحة حادى عشر يوليو سنة اثنتين وثمانين ميلادية أى رابع عشرى شعبان سنة تسع وتسعين ولبثوا فى الخدمة العسكرية الى حين ظهور الفتنة واضطرام نارها وما عدا الذين دخلوا فى الخدمة العسكرية باختيارهم بعد اشتداد الفتنة ووقوع مذبحة حادى عشر يوليو المذكور فسكنت عند ذلك خواطر الناس قليلا وزال عنهم بعض الخوف * قال بعض الكتاب * فلم يرق هذا فى عينى مصطفى رياض باشا وأغضبه فنزع الى التفرد بالأمر وعمد الى معاكسة اللورد دوفرين فشدّد فى تعقب أعمال أحمد عرابى وأصحابه وضيق عليهم وهدد فأحس دوفرين بما وراء ذلك وأدرك ان العاقبة انما هى شر على أحمد عرابى وأصحابه وفى ذلك نكث لعهدهم معه فرسم بوجوب التحقيق مع أحمد عرابى وأصحابه بالطرق العادلة ورفع الأمر بعد ذلك الى محكمة لتحكم فيه ومنع تعرض مصطفى رياض باشا وكفه عن العبث بالنظام الذى جاءت الجيوش الانجليزية لتثبت أركانه * قال المستر شارلس رويل أحد كتاب الانجليز فى كتاب ألفه فى حوادث مصر الأخيرة * فامتعض لذلك مصطفى رياض باشا وأبى الا معاقبتهم بغير تحقيق وألح على اللورد دوفرين فى ذلك فلم يقبل وصمم على اجراء التحقيق والتزام جانب العدالة ورسم بسرعة العمل فزاد امتعاض مصطفى رياض باشا واشتد به الغيظ الى حد لم يطق معه السكوت فسار الى مقر اللورد دوفرين وكلمه طويلا واحتد وأغلظ فى القول فلم ير من اللورد دوفرين أذنا واعية ولا وجها طلقا فتركه ودخل على الوزير محمد شريف باشا وكلمه أيضا فى ذلك فقال الوزير لا بد من التحقيق ورفع الامر الى محكمة فكاد مصطفى رياض باشا يتميز غيظا وسأل الوزير أن يقيله من منصبه فأجابه الى ماطلب بغير معاودة وقد قيل فى أمر تنزيله من هذا المنصب أقوال أخرى أضربنا عن ذكرها ومن هذا الحين أصبح عمل التحقيق مع أحمد عرابى وأصحابه ورفع نتيجته الى محكمة لتحكم عليهم بما تراه أمرا مقضيا لا رادّ له

مطلب حصول الخلاف بين رياض باشا واللورد دوفرين وتنزيل مصطفى رياض باشا من منصبه

وكان لما أخذ الانجليز محمود فهمى أسيرا فى موقعة القصاصين على ما تقدم بيان ذلك فى حينه وأتوا به الى الاسكندرية أرسل المستر مالت قونصل جنرال الانجليز الى اللورد جرانفيل زعيم أوصاحب سياستهم يقول ان الجنرال ولسلى مقدم جيوشنا فى مصر يرى ان من مواجبه تسليم جميع الاسرى الذين يؤتى بهم من ساحة القتال الى سلطة وتصرف الخديو فأجابه اللورد جرانفيل الى ذلك بشرط عدم الحكم على أحد منهم بالقتل مالم تصادق على ذلك حكومة الملكة فاعلم القونصل الخديو بذلك فقبله واشترط على نفسه أن لا يأتى أمرا فى حقهم قبل أن تعترف به دولة الانجليز * فلما كان سلخ ذى القعدة قدم الى القاهرة رجل اسمه مارك نابيير من كبار علماء الشريعة الانجليزية ومعه آخر اسمه ريشارد آيث وتقدما الى المحاماة والدفاع عن أحمد عرابى أمام المحكمة التى سترفع لها أمره فمانع فى ذلك الوزير محمد شريف باشا وقال ان الشريعة المعمول بها فى بلاد مصر لاتبيح للمجرمين اختيار من يدافع عنهم ولا

مطلب مقدم مارك نابيير من أصحاب شريعة الانجليز للدفاع عن أحمد عرابى

اجراء التحقيق معهم علانيـة ولا تجيز وجود أحـد من الأجانب فى هيئـة المحكمة وأبلغ هذا الـكلام الى المستر مالت فرفعـه الى زعيم سـياستهم فورد الجواب على غير ما يرضاه الوزير وصمـم الزعيم المشار اليـه على وجوب الدفاع عن أحمـد عرابى ورفقائه وعلى تنفيذ ما أشار به مما يتعلق بكيفية المحاكمة فبعـد أخذ ورد طويلين قبل الوزير محمـد شريف باشا ذلك بشرط أن يكون المحامى عن أحمـد عرابى مصريا لا انجليزيا فلم يقبـل اللورد جرانفيل وأعاد القول بترك الدفاع عن أحمد عرابى الى من يختاره هو لنفسه من أى جنسية كانت بشرط اجتناب جميع وسائل الاكراه والتهـديد فامتنـع الوزير من قبول ذلك وطال الاخـذ والرد بين الفريقـين أياما وقفت فيها رحى التحقيق ثم عادت على ما رسم به زعيم السـياسة الانجليزية رغما عن كل مكابرة وعناد * وانقسمت الآراء وتباينت الاقوال فى أمر دفاع الانجليز عن أصحاب الثورة ومحاماة كبار شريعتهم عن أحمد عرابى فكان الناس فى ذلك على طرفى نقيض لاسيما أصحاب صحف الأخبار المحلية فقد قام بعضهم ينادى بوجوب تسليم أهـل الثورة لشريعـة البلاد ومنع دفاع الانجليز عنهـم وعدم مس كرامة الشريعة المطهرة فلم يجدوا لندائهم من مجيب ونزع فى عاصمة الانجليز جماعة من كبارهم وآخرون من كتابهم وجعلوا يصيحون بألسنة أقلامهم وا عدالتاه وا إنسانيتاه وا مرحمتاه وكان فى مقـدمة هؤلاء القوم السـير وليم جريجورى والمسـتر بلانت اللذان تقدم لنا الكلام عما فعـلاه وجاء بلانت هـذا برجـل من أصحاب الشريعـة الانجليزية اسمـه برودلى وقيـده بالدفاع عن أحمـد عرابى وكان هذا الرجل من موظفى حكومة الهند ثم انفصل عنها ولحق بباى تونس مولاى حسن باى فقدم القاهرة فى رابع عشرى ذى القعدة وطلب الاجتماع بأحمد عرابى فلم يسمحوا له بذلك فاستعان هو ومن معه من جماعة الكتاب والمحامين بقونصل جـنرال الانجليز فأعانهـم ونزع الى مساعدتهم وطلب من الوزير محمد شريف باشا جعـل التحقيق مع أحمد عرابى وبقية أهل الثورة علنيا فطال بين الفريقـين الجدال وكثر القيل والقال وأبى القونصل الا ما أراد ومازال حتى تقررت القاعـدة على تسليم أمر الدفاع عن أحمد عرابى وأصحابه وعن يشاء من بقية المجرمين الى برودلى هذا وتقييد بوريلى بيك أحد محامى الحكومة بإقامة الدعوة العمومية ثم تعينت أوجه التهم وأسبابها فكانت – أولا – تهـمة أحمد عرابى وطلبه عصمت ومحمود سامى ومحمود فهـمى وعمر رحمى كاتم سر أحمد عرابى بكل ما حدث من الاضرار المترتبة على رفعهم الراية البيضاء على طوابى الاسكندرية فى يوم الاربعاء خامس عشرى شـعبان ثم اخراجهـم جميع العساكر المصرية من المدينة واضرام النيران فيها بينما كانت تلك الراية تخفق على حصونها – ثانيا – تهـمة أحمـد عرابى وطلبه عصمت ومحمود سامى ومحمود فهمى وعمر رحمى وعلى فهمى بتحريض الناس وحضهم على حمل السلاح والخروج عن طاعة أمير البـلاد وماترتب على فعالهم هذه من القتل والنهب والسلب وإراقـة دماء الابرياء من النساء والاطفال ثم تهمة أحمـد عرابى

ومحمود فهمى وطلبه عصمت ومحمود سامى باستمرار القتال ومحاربة الانجليز بعد علمهم بإتمام الصلح وتقرير قاعدته * وشاع الخبر بذلك وكثر طلب أصحاب التهم من العامة وصغار الموظفين بمحكمتى طنطا والاسكندرية واشتد أصحاب الشرطة فى البحث على الفارّين منهم فكبسوا على الكثير من الدور والوكائل فعظم خوف الناس وكانت شدة بالغة

فلما كان سابع ذى الحجة انتظم مجلس التحقيق فأتوا باحمد عرابى ورفاقه وخلفهم الحراس من أصحاب الشرطة بالبنادق والحراب فكان لا يرى على وجه أحمد عرابى شئ من الاضطراب أو الخوف بل كان ساكن القلب هادئ اللب وكان اذا سئل أجاب بلا تردد ولا تلجلج وأكثر من الاحتجاج بل ندد وقبح وعاب عليهم ما يرمونه به من العصيان والخروج عن طاعة الخليفة وأمير البلاد وقدم الى هيئة المحكمة كثيرا من الرسائل التى كانت تأتيه من كبير المابين الهمايونى ومن كاتم أسرار أمير المؤمنين ومن الشيخ أحمد أسعد امام السراى السلطانية وكلها استنهاض وتحريض وتشجيع على التظاهر بما كان واعلاء كلمة السلطان فى داخل البلاد * قال احد الكتاب العارفين بحقائق هذه الامور بعد كلام طويل * وقد نجحت تمام النجاح تلك الدسائس الانجليزية وفازت فى دار السلطنة عامى احد وثمانين وثمانمائة وألف ميلادية واثنين وثمانين فانه ما تظاهر أحمد عرابى مظاهرته الحربية بميدان عابدين التى لم يكن القصد منها الا تنزيل مصطفى رياض باشا ورفاقه من منصب الوزارة حتى حض الانجليز الباب العالى على انتهاز هذه الفرصة للحصول على سلطة فعلية فى بلاد مصر فأطاع وعمل بما أشاروا فلما رأوا فلاح سياستهم والعمل بمشورتهم زادوا وغرروا برجال الدولة ومنوا السلطان بالامانى البعيدة التى منها محو امتيازات عائلة محمد على باشا الكبير واعادة مصر الى ولاية عثمانية خاضعة تماما للباب العالى ان هو عمد الى تعضيد أحمد عرابى وأصحاب الحزب الوطنى — قال — ولم يقف أرباب السياسة الانجليزية عند هذا الحد من التغرير بالسلطان ورجاله بل أوعزوا أيضا الى أصحاب صحف أخبارهم أن يساعدوا على نوال هذه الحظوة فصاحوا يا لثارات السلطان عبد الحميد وأشاروا على دول أوروبا بأن تسأل الباب العالى فى ارسال جيوشه المظفرة لاخماد نار هذه الثورة التى لا يقوى على اخمادها الا العساكر العثمانية فاغتر الباب العالى بذلك أيضا واندفع دفعة أخرى فى غير طريق الهدى وسير الى القاهرة جماعة من المابين والسراى السلطانية بينهم الشيخ أحمد أسعد وقدرى أفندى ليؤكدوا الى أحمد عرابى ورفاقه تعضيد أمير المؤمنين لهم فنشط عند ذلك أحمد عرابى وتجرد للدفاع عن حقوق أمير المؤمنين فمالت اليه قلوب أهل البلاد واستمال اليه من كان يخالفه من قبل ومن بعد اهـ وقدم أيضا أحمد عرابى الى هيئة المحكمة عدة محاضر موقعا عليها من عمد وأعيان البلاد يمتدحون فيها أعماله ويشكرونه على نهضته ويسألون له النجاح والفلاح ويطلبون منه الاستمرار على الدفاع عن حقوق الوطن وأهله ومحاضر أخرى منهم أيضا بمعنى ماذكر الى رئيس المابين الهمايونى فأعجبت هذه

الاوراق جماعة الانجليز وعظمت لديهـم الأمر واشتد بها أزر برودلى الذى تقيد بالمحاماة عن أحمد عرابى ورفاقه فبالغ فى الدفاع وشدد فى الحجة وأعانه على ذلك جماعة من كبار دار الندوة الانجليزية وجماعة من أصحاب الكلمة فى دولتهم اذ قام منهم الخطباء والفصحاء يشددون النكير على رجال السلطنة العثمانية ويرمونهم بالخديعة والمكر فتبدلت عند ذلك الاحوال وتبددت الآمال وانقلبت من طور الى طور وما زالت الامور بين أخذ ورد واقبال وادبار حتى ثبت عصيان أحمد عرابى ورفاقه فكتب رئيس لجنة التحقيق الى برودلى يقول قد صار من المقرر فى نية هيئة مجلس التحقيق احالة أحمد عرابى على المحكمة القانونية التى تشكلت للحكم على العصاة وأصحاب الثورة حيث قد تراءى وجوب محاكمتهم بالعقوبة المنصوص عنها بالمادة الثانية والتسعين من القانون العسكرى العثمانى وبالمادة التاسعة والخمسين من قانون الجزاآت الهمايونى * وشاع الخبر فاختلف الناس فيما سيكون من وراء ذلك وتفرقت آراؤهم وترامت ظنونهم الى المرمى البعيد وكلهم مجمع على فشل الحكومة وفوز جماعة الانجليز

مطلب محاكمة أحمد عرابى ومن معه من العصاة

فلما كان يوم الأحد ثانى عشرى محرم الحرام افتتاح سنة ثلثمائة وألف هجرية أى رابع دسمبر ختام سنة اثنتين وثمانين وثمانمائة وألف ميلادية اجتمعت هيئة المحكمة فى قاعة مجلس شورى القوانين وأتى المتفرجون من كل رتبة ودرجة وغص المكان بجماهير الانجليز وكبار ضباطهم وكتاب صحف أخبارهم وجميع قناصل الدول وكانت أمارات الهيبة والوقار بادية على هيئة المكان والناس كلهم فى سكون وخشوع فلم تكن الاساعة حتى دخل المتهمون ووقفوا فى وسط المكان فأحدقت بهم العيون من كل جانب وتهللت الوجوه فرحا بوقوفهم فى موقف الجزاء فأشار الرئيس الى أحمد عرابى وقال * يا أحمد عرابى باشا قد أتوا بك اليوم أمام هذه المحكمة بصفة أنك متهم بالعصيان والخروج عن طاعة الذات الخديوية كما ثبت ذلك أمام مجلس التحقيق وأن عقابك على هذه الجناية يكون بمقتضى كل من المادة الثانية والتسعين من القانون العسكرى العثمانى والمادة التاسعة والخمسين من قانون الجزاآت الهمايونى فهل تعترف بانك مذنب أم لا فقام فى الحال برودلى المقيد بالمدافعة عن أحمد عرابى وناوله ورقة فاخذها عرابى وجعل يقرأ ما فيها بصوت جهورى فكان هكذا * أعترف بارادتى وبناء على نصيحة المحامى عنى أنى مرتكب للجناية التى أنا متهم بها الآن * فلما أتم أحمد عرابى كلامه قال الرئيس * انفضت الجلسة مؤقتا وسيتلى الحكم فى الساعة الثالثة بعد الظهر * ولم يحضر فى ذلك اليوم بورللى بيك المدعى العمومى لكى يشرح لهيئة المحكمة موضوع التهمة ويسمع الحاضرين ما أتاه أولئك المجرمون من الفظائع وما ارتكبوه من الجرائم ولا قام من يتكلم بدلا عنه فاندهش عند ذلك الحاضرون وجعل ينظر بعضهم الى بعض وهم فى حيرة واستغراب وجعل جماعة الانجليز يكلمون بعضهم همسا والسرور يطفح على وجوههم فلما كانت الساعة الثالثة تسابق الناس

الى قاعة الجلسة حتى ضاق بهم المكان ولم تكن الا لحظة حتى خرج الرئيس والقضاة وجلسوا على منصة الحكم فأتوا لديهم بالمتهمين فلما صاروا فى وسط الجمع أشار الرئيس الى أحمد عرابى وقال اسمع الحكم عليك ثم تناول ورقة وقرأ مانصه * حيث قد ثبت ارتكاب أحمد عرابى باشا جناية العصيان والخروج عن الطاعة وهذه الجناية منصوص ومعاقب عليها بحكم المادة الثانية والتسعين من القانون العسكرى العثمانى والمادة التاسعة والخمسين من قانون الجزاء الهمايونى * وحيث مع ثبوت ارتكابه هذه الجناية لدى مجلس التحقيق لم يتعرض المجلس للبحث فى شئ خلافها ولذلك لم يطلب من المحكمة الا الحكم بالعقوبة المنصوص عنها فى المادتين المذكورتين وهى عقوبة القتل * فبناء على هذه الاسباب * قد حكم باتحاد الآراء على أحمد عرابى بالقتل لارتكابه جريمة العصيان والخروج عن طاعة الجناب الخديوى طبقا لأحكام المادة الثانية والتسعين من القانون العسكرى العثمانى والمادة التاسعة والخمسين من قانون الجزا آت الهمايونى و برفع هذا الحكم للجناب العالى للتصديق عليه وقد حكم بهذه العقوبة أيضا على بقية المتهمين بجريمة العصيان مع أحمد عرابى المذكور * فلما سمع الحاضرون هذا الحكم تهللت وجوههم فرحا ولكن لم يضع رئيس المحكمة ورقة ذلك الحكم من يده حتى تناول أخرى وأخذ يقرأ مافيها واذا به عفو خديوى ونصه * قد اقتضت ارادتنا بأن الحكم الصادر على كل من أحمد عرابى وطلبه عصمت وعبد العال حلمى ومحمود سامى وعلى فهمى ومحمود فهمى ويعقوب سامى المتضمن جزاءهم بعقوبة القتل وقع تبديله بالنفى الى الأبد من جميع الاقطار المصرية وملحقاتها وان هذا العفو يبطل ويقع اجراء الحكم على المذكورين بالقتل اذا رجعوا الى الاقطار المصرية أوملحقاتها وأن يجردوا جميعا من كافة الرتب وألقاب الشرف والنياشين مع محو أسمائهم من سجل العسكرية

فما أتم الرئيس قراءته حتى وقع الهرج بين الناس وعلا وجوههم الاصفرار وانقبضت نفوسهم وجعل بعضهم ينظر الى بعض وكأن على رؤسهم الطير وجلس عرابى وبقية المجرمين وهم باشو الوجوه منشرحو الصدور فتقدمت عند ذلك احدى النساء الانجليزيات هى زوجة نابيير شريك برودلى الذى تقيد بالمحاماة عن أولئك المجرمين وهى بملابس الزينة والاعراس وناولت عرابى باقة من الورد الابيض اشارة الى الظفر والغلبة ثم صافحته ضاحكة فصافحها باسما فاشتد تعجب الناس واستغرابهم وكبر عليهم هذا الأمر وخرجوا وهم يتحدثون به ويعجبون من تصاريف الأيام * وأخذ العهد على أولئك المجرمين بالبقاء فى الجهة التى تعينها لهم الحكومة بعيدة عن الديار المصرية وكتبوا بذلك صكا فوقعوا عليه جميعا * فلما كان ثالث صفر رسم الخديو بمصادرة أحمد عرابى وسائر أصحاب الثورة وقيدوا جماعة بضبط أرزاقهم وعقاراتهم فضبطوها فلم تكن شيأ يذكر ولم يتعرضوا الى شئ من متاعهم وكان كثيرا خصوصا متاع أحمد عرابى وقد قيل انه كان يحتوى على شئ كثير مما نهبه النهابون من الاسكندرية مما خف حمله وغلا ثمنه ولم يمسوه بشئ كما أشار بذلك

مطلب ورسم الخديوى بمصادرة أصحاب الثورة

وزير

وزير سياسة الانجليز ثم تأهب المجرمون للرحيل الى سيلان احدى ممالك الهند الانجليزية وقد كانوا يعلمون بانها ستكون دار اقامتهم قبل أن يصدر الحكم عليهم بالاعدام بأيام كثيرة كما هو ظاهر مما كتبه برودلي المحامى عنهم فى كتابه المعنون بعنوان (الله ينصرك يا عرابى) أو (كيف كان دفاعنا عن أحمد عرابى) فحملوا اليهم سائر متاعهم وذخائرهم وأتوا لهم بها فى قشلاق قصر النيل فى منتصف ليلة خامس عشر صفر المذكور وكذلك حضر اليهم من شاء الذهاب معهم من نسائهم وجواريهم وأولادهم وأتباعهم فكانوا نيفا وستين ما بين اناث وذكور وساروا جميعا فى قطار مخصوص فى تلك الليلة الى مدينة السويس ثم أنزلوهم فى احدى بواخر الشركات الانجليزية وصحبهم بعض رجال الانجليز مودعين ومطيبين لخواطرهم فأقلعت بهم السفينة بسم الله مجراها

وكلم اللورد دوفرين الوزير محمد شريف باشا فى أمر من بقى من أصحاب الفتنة فرسم الوزير بالتعجيل ففعلوا وقد كانوا أنفذوا من قبل الحكم على سليمان داود مقدم جند الاسكندرية بالاعدام شنقا لارتكابه جريمة احراق المدينة فضلا عن جريمة الخروج عن الطاعة وحكموا على بعضهم بالتبعيد الى سواكن ومصوّع وعلى البعض الآخر بالتبعيد الى الشام وغيرها وكانوا كثيرين وعفى عن البعض وانفضت حينئذ مجالس التحقيق ومجالس القضاء وانجلى أصحاب الثورة عن مصر ولكن لم ينجل عنها شر فعلهم اذ قام تجار الاسكندرية يطالبون الخزينة بثمن ما أخذه النهابون . وقد تقدم الكلام على ذلك فى موضعه وزع قناصل الدول كافة الى الشدة فى الطلب فجعل الوزير محمد شريف باشا يطاول ويكثر من مخابرة كبار رجال السياسة حتى تقررت القاعدة بينهم على الزام الخزينة برد ثمن جميع مانهبه العامة والرعاع وكانت الخزينة الى هذا الحين قد أمحلتها الحوادث وزادها امحالا نفقة الجنود الانجليزية القائمة بين الكنانة والاسكندرية فضلا عن كساد التجارة وتعطيل أسباب المعاملات وبوار أكثر الزروعات بأسباب جمع سائر أبناء البلاد وتجنيدهم لقتال الانجليز بمواقع التل الكبير وكفر الدوّار فلم ير رجال الدولة بدا من الاستدانة فاتفقوا على أخذ قرض قدره أربعة آلاف ألف من الذهب وتقدم اللورد دوفرين الى الوساطة فى أخذ هذا المال من بيت روشيلد الغنى الشهير بعاصمة الانجليز واهتم صاحب سياستهم بذلك اهتماما عظيما كى لا يفشل فى سياسته بعد نصرة التل الكبير وقيد الوزير محمد شريف باشا جماعة من موظفى الحكومة ورجال الدولة باحصاء مانهبه النهابون وحرافيش الاسكندرية وما أكلته نيران الحريق فأنشؤا لذلك ديوانا بدار محافظة الاسكندرية سموه ديوان لجنة التعويضات وطيروا خبره الى الآفاق فتزاحمت على بابه أصحاب الشكايات فأحصوا ما ضاع لكل صاحب حانوت ومخزن وأصحاب البيوت فكان شيأ لا يكاد يدخل تحت الحصر لكثرته فردّوا لهم قيمته ذهبا من ذلك القرض وما زالوا حتى لم يبق أحد من أصحاب الشكايات فربح يومئذ من ربح وخسر من خسر وقليل هم الخاسرون

مطلب
قيام تجار الاسكندرية لمطالبة الخزينة بثمن مانهبه النهابون

وتسابق من يومئذ أصحاب الدور والوكائل الى البناء واعادة ماتهدم فتوسعوا فى العمل وبالغوا فى الاتقان فلم تمض الا أشهر حتى عادت المدينة الى أحسن ما كانت عليه من الرونق والبهجة واتسعت وعمرت ربوعها وامتلأت حوانيتها بأصناف المتاجر الفاخرة والبضائع الثمينة وعاد اليها من نزح منها من الاجانب على اختلافهم وجاءها الكثير من تجار الانجليز بأصناف البضائع النفيسة والصنائع الغريبة فاتسع نطاق الاخذ والعطاء وراجت التجارة وعادت الامور الى سابق مجراها واتصلت العلائق التجارية بعضها ببعض بين القاهرة والاسكندرية وداخلية البلاد على ما كانت عليه من قبل واطمأنت قلوب أهل البلاد وزالت عنهم أسباب الوحشة فلم يبق من الثورة الا حديثها والحديث ذو شجون

ونظم بعض الادباء فى سير هذه الحوادث المهمة ومآل هذه الخطوب المداهمة كثيرا من القصائد المشخصة لبعض وقائع الحال وما بلغت اليه يومئذ الاحوال مع وصف ما وقع من أصحاب الثورة من سوء الاعمال منها منظومة العلامة مصطفى باشا صبحى التى عنوانها « صدق المقال فى مثالب البغاة الجهال » وهى

تبين عقبى غيه كل معتدى ... وأمسى العرابى وهو بالذل مرتدى
يعض بنان المستكين ندامة ... ويقرع بالاذلال سن المسهد
فهلا رعى نعماء كانت ظليلة ... عليه وهلا قد وعى نصح مرشد
وهل ندم الباغى اذا حم أمره ... الى الحين يجدى بالرجاء المردد
بنى الجهل والطغيان كيف كفرتمو ... بأنعم توفيق العزيز محمد
مليك توافيه الملوك لنصره ... بأنفسها غير الخميس المجرد
وهل غير احسان الخديوى عليكمو ... سوابغ كانت من طريف ومتلد
نبذتم قوانين الشريعة ضلة ... وجاهرتمو بالبغى فى كل مشهد
ومن كان لايدرى حقيقة أمركم ... أبثه الانباء عنكم ليهتدى
ولست مريدا بالقوافى مصانعا ... ولا راهبا من غائل أو مندد
فقد تلجئ الاحوال للعجز حازما ... كما تلبس الاحرار أثواب أعبد
ويدخل فى عد النواصب خيفة الـ ... ـردى علوى حين لم يلق مفتدى
وما أنا الا ذاكر ما جنيتمو ... كما يذكر الرائى فعال المعربد
سرقتم نقود الجند ثم رميتمو ... دفاترها ليلا بسرداب مفقد
وقد ظهرت تلك الخفايا جلية ... وحان جزاء السارق المتعمد
كما سرق التفتيش طلبة عامدا ... وبالرفت أمسى فى عقال التلدد
ورب يتيم قد أكلتم تراثه ... وأبعدتموه عن مجير ومسعد
وقلتم جنى ذنبا البعض وتظفروا ... باعدامه والمال يبقى لذى اليد
وأرملة أتلفتمو جل مالها ... وصيرتموها عرضة للمفند

وأظهرتم التوكيل عنها تسترا ... على نهب محصولاتها والتردد
وبالوفر لما أن فصلتم كغيركم ... تضمرتمو كالارقش المتوقد
ووطأتم العصيان بالعهد بينكم ... وثرتم بقصر النيل ثورة مفسد
وفى مصر ساورتم سراى أميركم ... مرارا وأوريتم زناد التمرد
وجئتم تجرون المدافع حولها ... حصارا وأبرقتم بأصوات مرعد
فأصبحتمو أصحاب سيف ومدفع ... وللفأس والشادوف وسمات باليد
ولما تيقنتم بأن جزاءكم ... هو القتل أعملتم دسائس ملحد
وأجمعتمو كيد ابن ملجم اذ غدا ... يحاول قتل الابرياء ولا يدى
وألفتمو حزب الضلال يحوطكم ... بترقيش بهتان وزور ممهد
وقلتم عن الاوطان والدين انكم ... تحامون فى الجلى محاماة صندد
وما كان للاوطان والدين آفة ... سواكم عليها اذ أتيتم بمؤيد
وزدتم على ماهية الجند وافرا ... ومن يستزد بالبغى ما شاء يزدد
وأنشأتمو قانون يربى معاشكم ... بتلفيق أحكام وقول معقد
يخالف أسلوب القوانين وضعه ... ويزرى ببيت المال ازراء محصد
فأمست به بعض الارامل منكم ... لواء وأخرى كالفريق المجمد
وغيرتم الضباط عمرا بفاسد ... وسعدا بمشؤم وحرا بأوغد
ولقبتمو منكم عبيدا بخالد ... تريدون سيف الله بعدا لمعتدى
وألقاب شتى من همام وقائد ... وحامى حمى الهيجا وفارس معهد
وقدمتمو أهل الرذائل منكمو ... كما شئتمو فى مسند بعد مسند
يجرون أعقاب السيوف على الثرى ... فتعركه فعل السفيه الليندد
وصححتم الاضغاث بالوهم بينكم ... وبالرغم سدتم لا بفضل ومحتد
وأبرمتمو عهد التحالف بينكم ... على الحرب ان فى اليوم تنشب أوغد
وكان عفا بالحلم عنكم أميركم ... فما ليتمو إلا وفاء التعهد
هو الحلم حتى يقتل الجهل ربه ... وترمى به الاهواء فى شر مورد
ولما أتى الاسطول مصر مسالما ... أثرتم بريح البغى نار التعند
ومناكمو بالمستحيل خطيبكم ... وأدمج غشا فى حماس مقلد
وأوهم زورا أن فيكم بسالة ... فحاولتمو بالجهل خطة أصيد
وهيأتمو بعض الطوابى تمردا ... وهددتمو سيمور كل التهدد
فسببتمو احراقها وخرابها ... وكانت حصانا بالبناء المشيد
وأتلفتمو الخرطوش من غير عائد ... مع الريح يدوى لا الى الفلك يهتدى
ولم تر منكم فى سفين اصابة ... تعلل نفس الحر عند التنهد

وغادرتمو قتلا لكمو دون ملحد | وخلفتمو الجرحى بها دون منجد
وصلتم على المستأمنين لتأخذوا | بثار الطوالى من ضعيف ومقعد
وأخرجتم السكان من دور ثغرهم | سراعا بتهديد وضرب مبدّد
وكم من بريء قد قتلتم ببغيكم | وكم من عزيز قد أهنتم وسيد
وكم ذات خدر قد فضحتم وحامل | جبهتم فألقت حملها دون مولد
وأحرقتمو منشية الثغر بعد ما | نهبتم وسرتم كالنعام المشرد
وكان سليمان الغبيّ معينا | الى الحرق وقافا لذى كل مرصد
فمالكمو لا أحسن الله حالكم | هربتم هروب الارعش المتبلد
وخلفتمو فى الثغر عارا ورحتمو | بخزى لكم يبقى بذمّ مخلد
وعاودكم بعض الغرور فلتمو | الى الرمل ميل الغادر المتقصد
وحاصرتمو قصر الخديوى بعسكر | وخيل توالت من كميت وأجرد
وفى كفرة الدوار خلتم مقامكم | منيعا فأظهرتم كمين التحقد
وحالفتمو ابليس فيها وقد خلا | لكم جوّها فى فدفد بعد فدفد
فصفرتمو تيها ونقر بعضكم | ولاح لكم بيض به النصر يفتدى
وفى العزل والتنصيب والحكم جرتمو | وكنتم لجمع المال أشره مجتدى
سلبتم من الانحاء محصول زرعها | وما للاهالى من لجين وعسجد
وأظمأتم الاسكندرية حينما | منعتم وصول الماء من كل مورد
وكم محضر أمضيتموه بقهركم | وممتنع أرهبتمو بالتوعد
وأخربتم البلدان ثم صعدتمو | الى التل فى جيش كثيف معدّد
اليكم اليكم انما قد تركتمو | الى أجل دون القصاص محدّد
فهذى جيوش للنضال تواصلت | بكل سفين مثل صرح ممرّد
لنصر الخديوى أو لقهر عداته | لهم وثبات بين راغ ومزبد
وأضحت رحى طغيانكم فى عديدكم | تدور عليكم بالكروب المهدد
بطالع توفيق المفدّى وبغيكم | خذلتم غداة الحرب فى كل مطرد
وفى وقعة التل الكبير انهزامكم | يعير كم فى كل عصر مجدد
أغارت عليكم فيه أوّل فرقة | فطرتم شعاعا كالهباء المبدّد
وما رابها الروبى هناك بخيله | ولا زأر الذئب الكمين بمرقد
فأين الذى واعدتمو وادّعيتمو | به من ثبات فى الوغى وتجلد
فهلا صبرتم وهو تصديق زعمكم | وهلا قتلتم وهو خير لمرتدى
اذا كانت العورات تخفى ظهورها | لدى البحث فى ناد دقيق التفقد
ولكن فضحتم بالفرار كذا بكم | وكان العرابى بالهزيمة مبتدى

كدأب بنى كلب غداة تمكنت | بنو أسد منها بضرب المهند
كدأب جهول باع ثورا لبومة | وقيده فى غصنها المتأود
لعمرى لقد أبدى العزيز لجهلكم | من الحلم ماهو صلابة أقود
ورقاكمو بالمكرمات لخدمتو | وكل لئيم ان رقى يتمرد
مطايا العلى فى الخطب تنحو بصادق | وتكبو بمعتل السريرة أحقد
بيمن الخديوى مصر كانت لاهلها | عروسا تجلت فى كساء زمردى
سقاها نمير النيل صفوا فأزهرت | وراقت بنى الدنيا بوجه مورد
تدبرها للسلم نظار مجدها | وأحكامها تبدو بعدل موطد
فعهد رياض كان يزهو نضارة | وكان شريف للعلى خير منجد
وقد حذراكم مااستطاعا لخنتمو | وأضحى بكم سامى أشر مقلد
تضلونه جهلا ومكرا يضلكم | وكل باراء المضلين مقتدى
ومازال فى أمر (١) البريئين آخذا | بقول العرابى مظهرا للتشدد
الى أن هوى بعد العتو ولا لعا | لعثرة باغ فى الحماقة أوحد
جعلتم (٢) لذى الداءين فيهار ئاسة | فعرضتموها للدواهى بأجرد
وهل ميت الاحياء يرجى لمعظم | من الامر فى يوم من الخطب أسود
بمنشوره البرقى هيج فتنة | وأسند عهد الحكم فى غير مسند
كأن له فى الامر حق تصرف | وصيره فيكم بقصد التودد
لقد زاد فى الطنبور أنكر نغمة | بها أرق المحزون صوت المغرد
ولولاه ماحاز العصاة من القرى | مغانم شتى غير رفد ومرفد
فقل للعرابى ان رؤياك صادفت | ولكنها وافت على غير مقصد
وتأويلها بالحبس تلقى اهانة | ويعقبها شر يسوءك فى غد
فيا كل مشؤم ويا كل غافل | لك الويل من عاد عن الرشد مبعد
أراك درست البغى بالجهل كاملا | وفى الحزم لم تبدأ بأول أبجد
وسلمت سيف الذل فى مصر صاغرا | فياشؤم سيف فى الوغى لم يجرد
فلو كنت تجزى بالذى تستحقه | لناداك داعى الحكم غير مردد
تقدم عرابى وأرق أعواد واعظ | بصمت وقبل الارتقاء تشهد
ومثلك فى ذا الحكم كل مجاهر | ببغى على عدل العزيز المؤيد
ولكن عفا عنكم أمير تعودت | خلائقه الاحسان كل التعود
له الفضل أما أنتمو بفضولكم | تعيشون أمواتا بزلة أنكد
ولولا صدور العفو ناحت نساؤكم | وغص بنوكم بالقراح المبرد
وان تبعدوا لاقرب الله داركم | ولا دار من والاكمو فى التحيد

(١) البريئين يريد بهم جماعة الشراكسة

(٢) لذى الداءين يريد به راغب باشا

فبغيكمو أبقى عراقيل جمة   عليكم بها لعن من الله سرمدى
فسيروا الى أرض الجزيرة حيثما   منيتكم حمت بها وكأن قد
وكم سائل هل أخرجوا من ديارنا   وهل أمنت أوطاننا عود معتدى
فقل فى جواب السائلين مؤرخا   بلى خرجوا كرها لنفى مؤبد
سنة ١٣٠٠   ٤٢ ٨١٠ ٢٢٦ ١٧٠ ٥٢

يعيش أبو العباس ذخرا لمصره   وكهفا لاهلها ورغما لحسد
يعيش الخديوى مصلحا لرسومها   بعدل واجلال ومجد وسودد
وتسمو به الانجال مثل جدودهم   سموا لابراهيم بعد محمد
ولا زالت النظار تحمى ذمارها   بحزم وتدبير ورأى مسدد
وان تعرض الآراء من أى وجهة   فان الخديوى ينتقى كل أفيد
أصالته بالرأى فى مصر أرخت   محمد توفيق به الكل يقتدى
سنة ١٣٠٠   ٩٢ ٥٩٦ ٧ ٨١ ٥٢٤

(وقال العلامة البحر الفهامة الشيخ الجليل على أفندى الليثى فى ذلك أيضا)

كل حال لضده يتحول   فالزم الصبر اذ عليه المعول
يا فؤادى استرح فما الشأن الا   ما به مظهر القضا يتنزل
رب ساع لحتفه وهو ممن   ظن بالسعى للعلى يتوصل
قدر غالب وسر الخفايا   فوق عقل الأريب مهما يكمل
غاية العقل حيرة وعقال   واللبيب الذكى من قد تأمل
كيف ننسى وحادثات الليالى   فاجأتنا بكارث ليس يحمل
أذهبت أنفسا وغالت نفيسا   وذوى مربع الحظوظ وأمحل
كان اقليمنا رياض صفاء   فيه للواردين أعذب منهل
من رآه يقول توفيق مصر   أبصر الناس بالأمور وأعدل
قد أمنا الزمان فيه وغمنا   آمنين الخطوب لا نتململ
نتهادى فى ظل أسمى مليك   من سجاياه كل خير يؤمل
فسرت أعين الحوادث فينا   فاطرحنا الوقار والامر أعضل
ورأى غيرنا من الحلم أمرا   غره فابتغى الذى لا يحصل
واذا المرء كان بالوهم يبغى   لخيال الظنون ماقد تمثل
ويح قوم سعوا لادراك أمر   دون ادراكه الجبال تزلزل
ما أصروا عليه الا أضروا   بأناس من نابه أو مغفل

ذاك يسعى على التقية خوفا ... وسواه يسعى لكيما يحمل
لو أصابوا الرشاد عند ابتداء ... كانت الغاية الجليلة أمثل
وكفينا معرّة أو بقتنا ... فاستوى شائك السلاح وأعزل
آه من رقدة الحلوم ودهر ... أيقظتنا صروفه اذ تبدّل
كانت الناس فى ظلال نعيم ... تجتنى من ثمار غصن تهدّل
مالنا لم نقم بجد وندعو ... من عدا المهتدى وننصح من ضلّ
مالنا كلنا سوى القل منا ... قد سلكنا سبيل غاو مضلل
قد تساوى الغبى والمتغابى ... وعليم من جاهل صار أجهل
قد جبنا وصاحب الجبن جان ... وهو بالطبع فى الانام مرذل
لو رزقنا السداد لانسد باب ... وحقنا دماء قوم تحلل
كان ياقوته المذاب مصونا ... فسقينا به الثرى اذ تهلل
كم غرسنا جاجما وجسوما ... وجنينا الاسى بزلة من زلّ
ياترى من يقوم عنا بعذر ... اذ أطعنا الغواة فى كل محفل
حيث حدنا عن المليك وخفنا ... سطوة من عداه والقطر مقفل
حيث لايرفع البريد شكاة ... وسلوك السلوك صار معطل
حيرة أدهشت أولى اللب حتى ... ما اهتدى للصواب منهم مجمل
ذاك سر القضا وليس عجيبا ... أن يحار الاديب فيه فيذهل
غير أنا لما أفقنا أرقنا ... من شؤون العيون دمعا تسلسل
وبسطنا اللسان فى ذم قوم ... ان ذكرناهمو نغص ونخجل
ومددنا أكف ذل لمولى ... شأنه البر كم عفا وتطوّل
آل مصر بغيره لا تلوذوا ... اذ هو الملجأ الملاذ لمن زل
ياعظيم الجناب ياخير ملك ... سعده قد أباد من قد تغوّل
من بغى والوغى أثار فكم ... فى طلاه الحسام فالسيف فيصل
واجعل العدل عادل الرمح فيهم ... نافذا قدر ما يعلّ وينهل
واسقهم كالذى سقيناه إنا ... قد شربنا من بعد بعدك حنظل
واغتفر زلة لمن جرعما ... لبلاد ولا منيع يؤمّل
كم مليك عفا وأنت المفدّى ... فوقهم همة فلا تتعجل
وامنح الناس من سجاياك عطفا ... واجعل العفو موضع الشكر واعمل
بجدير بجد ذات الخديوى ... كل فضل وليس للعذر محمل
فابق واستبق من رعاياك قوما ... أمّلوا العفو من حيالك المسهل
ان تدقق تدق أعناق ألف ... بل مئين من الالوف تقتل

والرعايا تضيع بين عدوّ ... وولىّ له الفخار المؤثل
حاش توفيقنا يقصر عما ... ينشر الصفو فى البلاد وينقل
سيدى لاعدمت شكرا سناه ... علا الخافقين ليس يعلل
لا تكلف جميل طبعك أمرا ... غير ما فيه فهو لا يتحوّل
كان ما قد أساء حلما فلما ... أصبح الصبح بالسرور تأوّل
هذه مصر زينت واستعدت ... لسعيد الركاب لما تفضل
وازدهت بالجمال حين تبدّى ... موكب بدره بنور تهلل
موكب حف بالكواكب زاه ... من رجال أعزة قد تجمل
كلهم صادق شريف الطوايا ... نصحهم والخطوب تنهلّ يبذل
ما رأت مصر يوم بشر كهذا ... أىّ يوم بدا أغرّ محجل
دمت للدين والدنا خير راع ... ولعباسك النجيب المؤمّل
ما جرى بالفخار عنك حديث ... صار بين الملوك بالمدح أكمل
أو أشار الزمان للسعد أرخ ... الخديوى لمصر ياسعد أقبل
سنة ١٢٩٩ ... ٦٦١ ٣٦٠ ١٤٥ ١٣٣

وصل
(فيما كان من وراء احتلال الجيوش الانجليزية لأرض الكنانة)

قد كان من وراء ما تقدم من الحوادث والانباء واحتلال الجيوش الانجليزية للقاهرة وبعض الثغور والمدن كالاسكندرية ودمياط والسويس وطنطا والاسمعلية أن وقع أمران خطيران فى نوعهما وعليهما حياة البلاد السياسية والاقتصادية فى مستقبل الايام .

ـ الاول ـ قلب هيئة الحكومة وتغيير عاداتها والتزاماتها القديمة وابطال الكثير من مراسمها المعمول بها من أيام محمد على باشا الكبير واستبدالها بالقوانين والشرائع الثابتة والاحداثات التى تناسب روح العصر وترقى البلاد وأهلها الى ذروة العمران والمدنية .

ـ والثانى ـ سلخ الاقطار السودانية عن جسم المملكة المصرية وتركها مرسحا للفوضى وعيث العائثين من الخوارج الذين هم مدعى المهدوية والملتفون حوله وقد ذكرنا فيما تقدم كيف كان خروج ذلك وأمر الفتنة وحديث النافخين فى ضرامها وكيف تطاير شررها حتى عم تلك الاصقاع شرقا وغربا ثم كيف كان عجز الحكومة يومئذ عن اخماد نارها بسبب الثورة العرابية وما جرته على مصر وأهلها من الويل وذهاب القوّة والصولة على أنه لم يمض على مقدم اللورد دوفرين رسول الانجليز بمصر أيام حتى عكف على ابتكار الاحداثات وسن النظامات الجديدة آتيا الامور من أبوابها فرسم بانشاء المحاكم الأهلية على هيئة وشكل المحاكم المختلطة بديار مصر وتوسع فى نفقتها وساعده على ذلك الوزير

محمد شريف باشا وبطرس غالى باشا لان انشاء هذه المحاكم كانت حاجة فى نفس الوزير منذ أيام الخديوى اسمعيل وأتوا لهذه المحاكم بجماعة من القضاة البلجيكيين والهولانديين منعا لتطاول أيدى رجال الدول الكبرى الى وظائفها والاستئثار بها أو كما شاع يومئذ تمهيدا للوصول الى حل عقيدة المحاكم المختلطة واذهاب سلطتها لانها عقبة كؤد فى سبيل بسط الحماية الانجليزية على البلاد واخراجها من تحت نير المراقبة الدولية وقد كنت ممن وقع عليهم الاختيار لوظيفة القضاء بمحكمة المنصورة ثم لرئاسة النيابة العمومية بها فسارت هذه المحاكم سيرا حثيثا واشتدت عزيمة رجالها جميعا بما نالوه من الحرية فى العمل والاستقلال فى الفكر ففرح الناس بها فرحا عظيما وحمدوا دوفرين على صنيعه كما شكروا الوزير محمد شريف باشا على عنايته واستبشروا بحسن المآل * وبينماهم على هذه الحال اذ وردت كتب صاحب السياسة الانجليزية وهو يومئذ اللورد جرانفل الى دوفرين سفيرهم بلزوم سلخ سائر الاقطار السودانية عن جسم المملكة المصرية وتركها الى مدعى المهدوية بغير رد ولا معاودة فصدع دوفرين بالامر وكلم الوزير محمد شريف باشا فى ذلك فلم يوافقه وقال لايكون هذا الامر وفى عروقى قطرة من الدم فراجعه دوفرين فلم يقبل فكبر الامر على دوفرين وأعظمه وكلم الخديوى فيما بدا من الوزير من الغلظة والمكابرة ثم أوعز الى مالت قونصلهم بما أوعز فقامت حينئذ بينه وبين الوزير قائمة الاخذ والرد وبدت علامات الوحشة وجعل مالت يكيد المكايد والوزير هادئ القلب ساكن اللب لا يزحزحه عن عزمه شئ من ذلك ثم اشتد دوفرين فى الطلب وجعل يسد فى وجه الوزير أبواب كل عمل ونافذة كل أمل حتى استفزه وأضاع صبره وتقدم الى الخديوى فى قبول استقالته من منصب الرئاسة فأجابه الخديوى الى ذلك بحضرة الوزراء وقال له أقلتك قيل فالتفت الوزير الى دوفرين وقال انى برىء مما سيراق من الدماء فى سبيل هذه الغايات الرديئة فولوا الرئاسة من تشاؤن والله من وراء ما تفعلون * قال بعض الكتاب وأشار دوفرين على الخديوى بتقليدها للوزير نوبار باشا فصدع نوبار باشا بالامر ولكنه لم يقدر على المجاهرة بسلخ السودان عن جسم مصر

(مطلب) اعتزال الوزير محمد شريف باشا وتولية الوزير نوبار باشا

وأعجب الناس بما فعله الوزير محمد شريف باشا وازدادوا تعلقا به واشتدت محبتهم له واندفع أصحاب صحف الاخبار يلهجون بحمده فجاءت اليه رسائل التهانى تترى من كل فج عميق وزاره أصحاب السياسة من الانجليز والفرنسيس ليعرفوا منه ما خفى من الاسباب وما استعصى عليهم فهمه من مغامز هذه السياسة وكان ممن زاره عظيم من الانجليز فكتب يومئذ الى احدى صحف أخبارهم يقول * زرت الوزير محمد شريف باشا فى داره بعد اعتزاله للرئاسة فحادثنى طويلا فى جميع الضحايا التى ضحاها فى سبيل الوفاق مع وكلاء دولتنا بديار مصر لعلهم يقفون عند حد يكون من ورائه الكف عن مشاغبته ثم قال لى وهو يتنفس الصعداء * قد أقدم مالت قونصلكم أن يتركنى وشأنى أتصرف فى العمل حسبما تقتضيه

مصلحة البلاد اذا قبلت الرئاسة ومع ذلك قلما كنا نتأخر عن فعل ما كانت تشير به دولة الانجليز فيما يتعلق بالاصلاحات فقط لا فيما يمس وجودنا السياسى الذى يقضى علينا بالمحافظة على الاصقاع السودانية الشرقية والقبلية والا فنكون غير سالكين مسلك الصداقة نحو الامة التى تعتبر ذلك أمرا ضروريا لحياة مصر وراحتها * وليس يخاف أنى كثيرا ما ضحيت محبة الامة لى وتعلقها بى ارضاء لمطالب الانجليز ومع ذلك فانى أعتبر نفسى غير أهل لمنصبى اذا افتخرت بهذا العمل * أما زعيم السياسة الانجليزية فانه لم يعمل عملا طيبا لنا نحن معاشر المصريين وتشديده علينا بترك السودان فى أيدى المهدى أكبر برهان على ما أقول لانه من المعلوم أن ترك السودان للمهدى مما يزيد فى قوته ويصيره عزيزا قوى الجانب فاذا بلغ متمناه هذا فماذا تكون يا ترى الواسطة فى ايقاف تيار تلك القوة الثائرة ومن الواضح البين لكل ذى بصيرة أن جعل حدود مصر عند اسوان أو وادى حلفا كما أشار صاحبكم يستلزم وضع جيش من خمسة عشر ألفا الى عشرين ألفا من الجنود ليبقى رباطا هنالك فمن يا ترى يقوم بنفقة هذا الجيش نعم ان الخطر بعيد عنا حتى الآن ولكنكم سترونه قريبا على الابواب ولا أنكر عليك سيدى أن السودان كانت تكلفنا الشئ الكثير من المال غير أنه لاخسارة علينا اذا حافظنا على حدودنا بانفاق زهاء مائتى ألف جنيه وأظنك لا يعزب عليك أن محمد على باشا أدرك فى أيامه أن حماية حدود مصر الاصلية تستلزم ضم أراضى النيل الابيض اليها فسعى فى ذلك وأخضع بقوته تلك الاطراف وجعلها تابعة لديار مصر فنعم مافعل وهل يصح بعد ذلك أن تترك حكومة متوحشة بربرية على حدود البلاد فتسلبها راحتها وطمأنينتها مدى الايام على أن النفقات التى تنفق على اقامة خط دفاعى على النيل الابيض لاتبلغ جزأ من النفقة التى يستلزمها الدفاع عن وادى حلفا أو اسوان وان خمسة عشر ألفا من المصريين يقومون على حراسة الخرطوم وبربر ودنقله وسنار وعلى ذلك يكون من الخرق فى الرأى بل من قلة التبصر تضحية سكان هذه المدن ومن فيها ونحن مسؤلون عن الذب عن أرواحهم وأموالهم وأعراضهم ۞ قال الراوى ثم أطرق الوزير لحظة ورفع رأسه وقال وماذا تفعلون يا ترى أيها الانجليز بدعاة المهدى الذين أقسموا الايمان الغلاظ أن يموتوا بحد السيف أو يفتحوا مصر السفلى أما أنا فلم أفهم ما الحامل للانجليز هداهم الله على التنحى عن مقاتلة المهدى واحتلال السودان وما الباعث لهم على معارضتنا فى استرجاع البلاد التى أخذها مدعى المهدوية ولماذا لايسمحون لنا بابقاء النيل الابيض فى حوزتنا كما كان ولماذا لانطلب من أمير المؤمنين السلطان عبد الحميد النجدة فيمدنا بعشرة آلاف من أبطاله وقد أمددناه مرارا عند حاجته الى ذلك وانى أقول لك الحق انا لو أجلينا المهدى عن الخرطوم لاتخذت المسألة دورا آخر ولكن قل لى بحقك ما الذى يدعونا نحن الى الانجلاء عن ذلك البلد قبل أن يتقدم لها المهدى بأقوامه وها هو الزبير باشا قد أبى الذهاب الى دارفور والآن حيث انى

خلعت

خلعت نفسى من الرئاسة وما دام أمر الجلاء عن السودان شيأ مقررا ولا يمكن التخلى عنه فلا بد أن حسين باشا ومن معه من العربان لا يتقدمون الى الامام وتفتر عزيمتهم تماما ـ قال ـ وانى لا أخفى عنك أنى ناظر الى المسألة من وجهها الحقيقى فلذلك أرانى مشاهدا من بعيد جميع المصاعب التى تترصدنا فان نجاح المهدى أحدث تأثيرا قويا فى عقول أهل البلاد بحيث صار يتعذر علينا انفاذ ماننويه حالة كون البلاد باسرها تضادنا فى ذلك ـ قال وأنت تعلم أن سقوط هيئة الوزارات عادة لا يكون الا عند مباينة رأى الرئيس لآراء الاعضاء الآخرين ومن تبعهم من أعيان البلاد أما وزارتنا فقد كان سقوطها مسببا عن اتفاقنا فى الرأى بشأن عدم ترك السودان نعم انى مع رفاقى سلمنا بجميع ما يمكن التسليم به على أننا قد رأينا أن ترك الخرطوم وبربر ودنقله أمر لا تقوى عليه عزيمتنا وكيف نستطيع ذلك وهى ليست من أملاكنا الخالصة وما نحن الا قائمون بحراستها بموجب فرمان سلطانى لايسمح لنا بالتصرف فيها دون رضا الباب العالى وكأنى بصاحبكم يزعم أن بقاء السودان فى يدنا ضرب من الجور والظلم فاذا كان الامر كذلك فلماذا يا ترى جازفنا بانفاق الاموال الطائلة فى ابطال التجارة بالعبيد حتى أغضبنا أهل تلك البلاد وحاربناهم لتوطيد أركان التمدن وتثبيت قدم الانسانية وان كنا قد أنفقنا الاموال الكثيرة فى ذلك فانا ولله المنة لم يعاونا أحد على تحمل أثقال هذه النفقة نعم انى صممت على التسليم بترك كردفان والدارفور ولكننى لم أسلم قط بترك الخرطوم وسوف ترون ماسيكون من وراء سياسة صاحبكم الخرقاء وما ستتكبده البلاد من النفقة الثقيلة لا لشئ سوى المحافظة على التخوم فقط ۞ قال الراوى ثم حملق الىّ الوزير بعينيه وقال انى أقول لك الحق انى حزنت جدا من جراء حادثة السودان ولكنى لم أضجر وثابرت على العمل وأجهدت النفس ما استطعت فلما أيقنت أنى مشرف على هوّة عظيمة جزعت ووقفت ثم خلعت نفسى من منصب الرئاسة وكان بودى لو يعلم الناس كافة اخلاصى فى الخدمة حتى النهاية ولكن يأبى الله الا ما يريد اه

۞ قلت فكان لمقالة الوزير غاية الوقع فى نفوس أقيال السياسة وأقطابها وتكلم عنها أصحاب صحف الاخبار الاجنبية وعدوها غاية فى الاصابة والسداد بل آية من آيات حسن النظر وأصالة الرأى وازدحم على بابه كبار الكتاب من الانجليز والفرنسيس لاستكتاب حقائق أفكاره فكان يحدثهم غير متهيب من عظيم أو كبير

وبينما كانت الظنون تترامى الى ما سيكون من وراء تولى الوزير نوبار باشا منصب الرئاسة وما سيكون من وراء ترك السودان وغوائل الحرب القائمة من أقصاها الى أقصاها كان زعيم السياسة الانجليزية يتخبط فى الامر ويعمل على سلخ السودان شرقا وجنوبا لأقل الاسباب وأوهى العلل * ثم قدم فى هذه الاثناء الى القاهرة أمير من أمراء سفن الحرب الانجليزية اسمه الاميرال هيوت مبعوثا الى نجاشى الحبشة لعقد وفاق معه على فصل التخوم بين الاملاك المصرية وأملاك السلطنة الحبشية فلبث فى القاهرة أياما ثم سار الى السويس ومنها

(مطلب) بعثة الاميرال هيوت الى نجاشى الحبشة

الى مصوع فوصلها فى أخريات جمادى الثانية من السنة أى سنة احدى وثلثمائة وألف هجرية ثم غادرها ومعه محافظ المدينة وبعض كبار عسكر سفينته يريد لقاء الرأس ألولا قائد الجيوش الحبشية وكان قد سير أمامه جماعة من العسكر ليخبروه بقدومه وبسبب حضوره ويطلبوا تعيين المكان الذى يأذن النجاشى بمقابلته فيه فعادوا وأخبروا بان اللقاء يكون فى بلدة عدوة فسار اليها بمن معه من الرجال فلما صاروا على مسافة يومين منها كتب الى النجاشى يعلمه بالغرض من مهمته وبالشروط التى ينبنى عليها الاتفاق بين الدولة الانجليزية والحكومة المصرية والمملكة الحبشية ولبث ينتظر الجواب أياما حتى جاءه الخبر من قائد الجيوش الحبشية بأن النجاشى مقيم ببلدة مكله فاذا شاء المسير اليه لاقاه على الرحب والسعة فلم يشأ الاميرال الذهاب الى مكله وسار بمن معه الى عدوة فلما بلغوها لبثوا بها أياما فجاءهم أمير الجيوش يحمل الامر من النجاشى بالمداولة معه فيما جاؤا بصدده فوارب الاميرال ولم يمتنع بتاتا وأكثر من الاخذ والرد فيما لا طائل تحته وجاء الخبر بذلك الى النجاشى فلم يحفل به ولم يتحرك الى عدوة وبارح مكله وعرج فى طريقه الى دبه ومدرا وغيرهما ثم رجع الى مكله ثانية كل هذا والأميرال ومن معه يتحملون مضض الانتظار حتى قدم الملك عدوة وأذن لهم بمقابلته فدخلوا عليه وسلموه كتب ملكة الانجليز وقدموا له بعض التحف والهدايا * فلما كان اليوم الثانى طلبهم أيضا الى حضرته فتمثلوا بين يديه وهو فى زيه الملوكى فحادثوه طويلا فى أمر المعاهدة وما تتضمنه من الشروط والقيود ثم ودّعوه ورحلوا الى مصوع وعادوا الى القاهرة ومعهم ورقة عليها خاتم النجاشى واسم الاميرال وماصون بيك محافظ مصوع قالوا انها هى تلك المعاهدة وانها تتضمن سبعة أمور أهمها منح الحرية التامة للمملكة الحبشية فى نقل جميع البضائع والاسلحة والذخائر من مينا مصوع تحت حماية الراية الانجليزية ثم اعادة بلاد بوغوس الى المملكة الحبشية مع كسلا وأما ديب وسنهيت بما فى جميعها من المبانى والاسلحة والذخيرة حين جلاء العساكر المصرية عنها بشرط أن النجاشى يسهل لاولئك العساكر سبل الجلاء * فلما شاع خبر هذه المعاهدة أخذ الناس يتساءلون عما يراد منها فى حين ان تلك البلاد آمنة مطمئنة لاخوف عليها من اغارات العدو فقال قوم انها غلطة من غلطات زعيم السياسة الانجليزية وقال آخرون بل هى آية من آياته يريد بها اضرام نار الفتنة بين الحبشان ومدعى المهدوية عند بسط النجاشى يده على تلك البلاد فتقوم الحرب بين الطرفين ويقتتلان دونها حتى يهلكا كلاهما او يهلك فريق ويضعف الآخر فتلتهم السودان دولة الانجليز لقمة سائغة وتضمه الى ما نالته من قبل على أنه لم يكد ينشر خبر هذا الوفاق وما جره على البلاد من الخزى والعار حتى ظهرت الاشاعة بتعاقد زعيم السياسة الانجليزية مع زعيم السياسة الايطالية على تنازل السلطنة الانجليزية للايطاليان عن مدينة مصوع بعد سلخها من أملاك الحكومة المصرية مع سائر النقط الحربية الواقعة على سواحل البحر الاحمر ما بين عصب ومصوع على شرط أن الجنود

الايطالية

الايطالية التى تحتلها تقوم بقتال أصحاب المهدوية عند الحاجة فنشط حينئذ أصحاب صحف الأخبار المحلية وجعلوا ينادون بالويل والثبور ويحضون أصحاب الحل والعقد على الوقوف فى وجه زعيم تلك السياسة وينذرونهم بالخراب العاجل ان هم ظلوا على هذا الاغضاء والتعامى * وكان ممن أكثر من هذا الصياح والجلبة صاحب جريدة افرنسية اسمها البوسفور فانه بالغ فى الوقيعة بزعيم سياسة الانجليز وزاد فى الطعن والسباب والحط من كرامته حتى استشاط جماعة الانجليز ولم يطيقوا السكوت على ذلك فطلبوا من الوزير نوبار باشا القبض على الرجل وابعاده فلم يقدر الوزير على ذلك ولكنه رسم بالغاء صحيفته واغلاق محل تحريرها فمانع قنصل الفرنسيس فى ذلك ووردت اليه الاخبار من وزير السياسة الافرنسية بالمثابرة على الممانعة وقطع كل علاقة مع الحكومة ان هى أصرت على ما تبغيه من اغلاق مكان صاحب البوسفور فأضحى الوزير نوبار باشا وهو بين متنظع كبشين لايدرى أى الطرفين أدنى الى السلامة إغضاب جماعة الانجليز أم قطع العلاقات مع دولة الفرنسيس ثم انه كأنما رأى الثانى أهون الشرين فأوعز باغلاق المحل فرحل القنصل فى الحال عن القاهرة الى الاسكندرية وأعلن قطع كل علاقة مع الحكومة ولبث ينتظر مايأتيه من زعيم سياستهم وقد اشتغلت الخواطر بهذا الامر ولم يبق للناس حديث سواه وهم بين مستضعف لدولة الفرنسيس وشامت بها فكان بعضهم يقول لوأن فرنسا أظهرت هذا الحزم والعزم يوم كانت مراكب حربها أمام طوابى الاسكندرية ولم ترض بانسحابها صاغرة ذليلة لما حاق بقومها والنافخين فى بوقها ماحاق بهم اليوم من الذل والهوان وقال آخرون هذا جزاء ماقاسته بنا من التغرير حتى أصبحنا واياها على ما ترى من الضيم والحيف والجزاء من جنس العمل وقد كثر الأخذ والرد حينئذ بين وزير السياسة الانجليزية ووزير سياسة فرنسا ونوبار باشا ونسى جماعة الانجليز أوتناسوا أنهم النافخون فى ضرام هاته الفتنة فجعلوا يسعون بين المتخاصمين ويصلحون ذات البين كأنما لم يكن لهم يد فيها وطالت المخابرة فى ذلك أياما والانباء تأتى فى كل يوم الى القاهرة أشكالا وألوانا * واتفق أن جاء فى هذه الاثناء الى مينا الاسكندرية بعض سفن الحرب الافرنسية فطاش عند رؤيتها جماعة الفرنسيس وبالغوا فى الاحتفاء بمن جاء فيها من كبار الجند ومقدمى العسكر وهب أصحاب صحف أخبارهم مما كانوا فيه من خمول وأخذوا يفصلون خبر مجىء تلك السفن ويظهرونه فى مظهر العداء والوعيد حتى خيل للناس أن قد قامت الحرب على أبواب القاهرة وبينما هم على هذه الحال اذ انجلت المخابرة عن حصول الاتفاق بين الفرنسيس والوزير نوبار باشا على أن تعود جريدة البوسفور الى الظهور وأن يذهب الوزير نوبار باشا الى دار قنصل الفرنسيس بكسوة التشريف معتذرا عما وقع فعاد حينئذ القنصل من الاسكندرية الى القاهرة ومعه أمير تلك السفن الحربية وبعض كبار عسكره فلما كان اليوم الثالث بعد عودتهم زارهم الوزير بكسوة التشريف فقابلوه هم كذلك فابتدرهم بعبارات الاعتذار

والمصالحة فأجابوه بتلطف وفتحت بعد ظهر ذلك اليوم أبواب محل الجريدة فعادت الأمور الى سابق مجراها وبطل حينئذ القيل والقال بهذا الشأن وانتقل حديث الناس من ذلك الى سبب رحيل فتس جرالد أحد رجال الانجليز الذى تولى ادارة أعمال حسابات الحكومة وخزينتها حينا فقلب نظامها وغير قواعدها القديمة بمعاونة بلوم باشا الذى تولى وكالة الخزينة على عهد الخديوى اسمعيل ولهذا الرجل وخلعه من منصب الوكالة حديث طويل كله أحاجى ومعميات قد ضربنا صفحا عن ذكره هنا * رحل فتس جرالد هذا فى تاسع عشرى رجب من السنة أى سنة اثنتين وثلثمائة وألف هجرية فلم تكن الا أيام حتى جاء بدله آخر اسمه وبستلاند فلم تطل أيامه وانقلب راجعا قالوا لانه رأى فى أعمال حسابات الخزينة من الخلل والخلط ما لم يوافق عليه وقد كان من رأيه اعادة شكل الحسابات القديم الذى كان على عهد رؤساء كتاب الخزينة من أهل البلاد وكان من همه منذ حضر الى القاهرة من ديار الهند الانجليزية البحث والتنقيب لمعرفة ما كانت عليه هيئة الحسابات قبل أن يتولاها الانجليز وبعد أن تولوها وظل على هذه الحال اياما حتى اذا ماهم بارجاع شكلها الى ما كان عليه مانعه فى ذلك جماعة الانجليز فلم يسعه الا التخلى عن منصبه مفضلا الرجوع الى وظيفته فى ديار الهند على البقاء مقيدا بعمل لا ترضاه نفسه فحمده الناس على ذلك فجاء بدلا منه آخر يدعى بلمر فسار على خطة فتس جرالد وزاد فيها توسعا وبالغ فى الاكراه على العمل بها حتى عمت سائر دواوين الحكومة وأبطل من قواعد الحسابات القديمة ما لم يتمكن فتس جرالد من ابطاله الى يوم رحيله عن البلاد وما زالت طريقة فتس جرالد هذه مرعية الى هذا اليوم

ومن الحوادث الجوية الغريبة التى وقعت فى ليلة الحادى والعشرين من صفر من السنة أى سنة ثلاث وثلثمائة وألف هجرية أنه انفجر بعد العشاء الاولى فى السماء ضوء حتى ملأ الجو ثم ظهرت بعده فى السماء نيازك وجعلت تتساقط ركاما كأنها سهام ترمى فى أعقاب الشمس حتى خيل للناظر أن الحرب فى السماء قامت على قدم تنفجر نيازكها انفجار نار المدافع وان لم يسمع لها دوى فخاف العامة كثيرا وتراحوا وهم يولولون ويضجون بيالطيف ياخفى الالطاف وصعدوا الى أسطحة البيوت وصاروا يعجون ويبتهلون الى الله تعالى وكانت النساء يبكين والاطفال يصرخون بأصوات الخوف وعذرهم فى ذلك مقبول اذ هم لم يسمعوا بل لم يروا من قبل هذا الحادث الغريب وكان المنظر فى تلك الليلة غاية فى الغرابة فلم يبق طرف الا مد اليه ولا نظر الا تعلق عليه وكانت نجمة الزهرة فى تلك الليلة أشبه بالمنارة الدائرة على نفسها ينقبض نورها حتى لا تكاد تتميز عن سائر صغار النجوم ثم لا تلبث أن تنبسط فتعود الى حالها ونورها الزاهر واستمرت على حالتها تلك برهة طويلة والنيازك بين ذلك متتابعة متواصلة كأنها أوراق الشجر تتساقط متناثرة ثم بطلت وسكنت خواطر الخلق وأصبحوا وهم يرجفون بوقوع الحوادث المهمة وحدوث الخطوب المدلهمة

(مطلب) اهتمام دولة الانجليز باعطاء الخزينة قرضا فلم تفلح

وكانت الى هذا الحين قد أمحلت خزينة البلاد وتولى العجز مواردها وكثرت عليها المطالب والمغارم كثرة بالغة فهمت دولة الانجليز باقراض الخزينة قرضا يقوم بسد احتياجاتها فعارضها فى ذلك وزير سياسة الفرنسيس وقال ان الحكومة المصرية مرتبطة بعهود ومحالفات دولية لا يصح معها انفراد الانجليز بهذا العمل فضلا عن أن البلاد مازالت تحت سيادة السلطان عبد الحميد فلا يصح لها أن تستدين الا باذنه ۞ قال بعض الكتاب وقد كان وزير الفرنسيس يريد بذلك غل يد الانجليز فى مصر واظهار عجزهم عن سد حاجاتها حتى لا يعتبر احتلالهم اياها لازما لابد منه ولكن خاب ظنه وطاش سهمه اذ مالبث الانجليز ان سعوا لدى السلطان ورجال المابين حتى جاء فرمان السلطان بعدم المانع من الاقتراض لوفاء مطالب الخزينة المترتبة على الحوادث التى حدثت فتم للانجليز عمل ذلك القرض فراجت الاعمال وزالت المصاعب فنشط الوزير نوبار باشا حينئذ الى مخابرة زعيم السياسة الانجليزية فى صعوبة جعل وادى حلفا حدا فاصلا بين السودان ومصر وعدم موافقة ذلك لمصلحة البلاد وقد كان زعيم السياسة المشار اليه رسم بذلك لاصحابه وأشار بالتعجيل فقال الوزير نوبار باشا ان طمأنينة البلاد لا تتم الا اذا صارت مديرية دنقله غاية تخومها لا وادى حلفا لتتمكن من السيادة على النيل ـ قال ـ ولما كان ذلك يستلزم ارسال حملة اليها بعد جلاء العساكر الانجليزية عنها فهو يرى أن تعهد هذه الحملة الى الحكومة المصرية بحيث تجند عسكرا كامل العدد والعدد يتولى قيادته رجل مصرى خبير بأحوال السودان وان هذه الواسطة أقرب من سواها الى الوصول الى أحسن النتائج فضلا عن أن النفقة التى تلزم لذلك ستكون طفيفة بالنسبة للنفقات الجسيمة التى يقتضيها تجريد حملة انجليزية وانه ينبغى أن نقاتل السود بنفس أسلحتهم واذا تحقق خبر موت المهدى كان الأمر أيسر وكانت العاقبة أسلم والمبادرة بالحرب أوجب وألزم فلما علم صاحب سياسة الانجليز بمقالة الوزير أرسل اليه يقول اترك كل شئ على ماهو عليه الآن حتى يفد عليك رسولنا درومند ولف ٭

(مطلب) بعثة السير درومند ولف الى دار السلطنة العثمانية

وكان لما خلع الوزير محمد شريف باشا نفسه من مسند الرئاسة بسبب تصميمه على عدم التخلى عن السودان وتركها لمدعى المهدوية وأخذت أقلام الكتاب يومئذ تقرع صاحب السياسة الانجليزية بأشد ما يكون من التقريع عمد الى شئ من المواربة تسكينا للفتنة وأرسل كتبه الى السلطان يعلمه بما عزمت عليه السلطنة الانجليزية من ارسال رسول ينوب عنها فى التعاقد مع الباب العالى على ما فيه المصلحة لديار مصر والسودان فى مستقبل الايام ٭ فلم تكن الا أيام بعد ذلك حتى سار الى الاستانة عظيم من الانجليز اسمه السير درومند ولف يحمل الامر بالنيابة عن السلطنة الانجليزية فى عقد ذلك الاتفاق فأكرم السلطان وفادته وأحسن لقاءه فأخذ يغدو ويروح على الباب العالى تارة والمابين الهمايونى أخرى أياما لم يتعد الكلام فيها تعيين القاعدة اللازمة لمواد ذلك الاتفاق وكان الكلام بين الفريقين غاية فى المواربة والتعقيد ٭ وبينماهما على هذه الحال اذ قامت الفتنة فى امارة

البلغار وظهر أهلها ومن ولى الامارة عليها يطالبون بالاستقلال والخروج من تابعية الدولة العثمانية ۞ قال بعض الكتاب ويقال ان دولة الانجليز هى التى أغرتهم على فعل ذلك وجرتهم الى التظاهر فى تلك الايام بما يوجب فشل الدولة العثمانية واضطراب أمورها عساها تتساهل مع رسولها ولف فتنال منها ما تتمناه فتعطلت المخابرة بين ولف والباب العالى ووقفت عند حد الانتظار واشتدت الفتنة البلغارية وتطاولت أيدى رجالها الى العبث بحقوق السلطنة العثمانية واستخفوا بها فجيش أميرها الجيوش وأعد المعدات وسير الرسل الى الدول الكبرى يستفزها الى نصرته فطافوا الممالك وأكثروا من الشكوى وعظموا البلوى فمن الدول من مناهم بالامانى البعيدة ومنها من حضهم على طاعة السلطان وملازمة السكون وطالت الأيام على مبعوث الانجليز وهو ينتظر فى دار السلطنة العثمانية ما سيكون من وراء تلك الفتنة عسى أن يكون من ورائها مغنم لهم فلم يقع شئ من ذلك وتلاشت الفتنة على أيسر ما يكون وعادت الامور الى سابق مجراها وبعد أخذ ورد ما بين ولف والباب العالى وسفراء الدول الكبرى وقع الاتفاق على أن يرسل السلطان مبعوثا من قبله الى ديار مصر مع ولف مبعوث الانجليز فيكون مندوب السلطان هو الاول ومندوب الانجليز هو الثانى ويكون مع كل من الاثنين بعض الموظفين والمأمورين ليساعدوه على قضاء مأموريته بحيث ان هذه الرسالة لاتتناول الا البحث فى أحوال خزينة البلاد وأمورها الادارية والعسكرية مع اصلاح ما يمكن اصلاحه وعلى المندوبين أن يرفعا تقريرا عما يريانه مشتملا على تفصيلات المسائل بابا فبابا ووصل ولف الاسكندرية فقوبل بغاية التجلة والتعظيم وسارت خلفه وأمامه الفرسان من الانجليز والمصريين الى محطة السكة الحديد فلما وصل القاهرة بالغ الخديوى فى الاحتفاء به فقد كان فى انتظاره على المحطة ذو الفقار باشا كبير التشريفات وجميع النظار ومحافظ المدينة وقائد عموم جيش الاحتلال وبعض مقدمى العسكر وكوكبة من الركبان والمشاة ثم زاره الخديوى وكبار الدولة والامراء كافة ولبث ينتظر قدوم المبعوث السلطانى وهو يجتمع فى كل يوم بعظماء أهل البلاد ولا سيما من كان منهم له علاقة بالسودان ومعرفة بأحوالها * وبينماهم يترقبون قدوم مبعوث السلطان اذ جاء الخبر الى ديوان الخديوى بالاحسان من الخليفة على الخديوى بنيشان الامتياز العالى وأنه قد أرسل النيشان على يد الفريق محمد باشا وآخر اسمه خيرى بيك فوصلا الى الاسكندرية وقدما منها الى القاهرة وسارا من محطة السكة الحديد فى موكب حافل حتى أنزلوهما بقصر النزهة من ضواحى القاهرة فباتا ليلتهما وأصبحا فسارا الى مقر الخديوى بعابدين ولبثا بحضرته برهة لطيفة ثم عادا الى قصر النزهة * فلما كان اليوم الثانى عمل التشريف فدخل على الخديوى كبار الدولة وأصحاب الوظائف العالية فهنؤه وأطلقوا لذلك عدة مدافع من قلعة الجبل وفى عصر اليوم سار الخديوى الى قصر النزهة حيث الوفد العثمانى فسلم عليهما وجلس معهما برهة لطيفة ثم عاد الى مقره وأقام رجال الوفد بعد ذلك أياما ثم بارحا الديار الى الاستانة

(مطلب) قاعدة الاتفاق الذى رامت الدولة الانجليزية عقده مع السلطان

وجاء البريد من دار السلطنة فى ثانى عشرى صفر من السنة أى سنة ثلاث وثلثمائة وألف يحمل صورة الوفاق الذى تم ما بين دولة الانجليز والباب العالى بشأن مأمورية السير درومند ولف مبعوث الانجليز وسعيد باشا ناظر خارجية السلطنة العثمانية والأمور التى سيجريها فى مصر بالاشتراك مع الغازى مختار باشا مبعوث السلطان فكانت كما يأتى بنصه

لما كانت جلالة ملكة بريطانيا العظمى وايرلانده وامبراطورة الهند اتفقت مع جلالة السلطان على ارسال معتمدين فوق العادة الى مصر لاجل تنظيم الشؤون المصرية قررا أن يعقد بينهما وفاق وعينا لهذه الغاية معتمدين مرخصين وهما المحترم السير هنرى درومند ولف من أعضاء المجلس الخاص حامل نيشان شوفاليه غران كرواه من صنف سان مشيل وسان جورج ونيشان شوفاليه كومندور من صنف بين وأحد أعضاء البرلمان الانجليزى ومعتمد الدولة الانجليزية ووزيرها المرخص لدى جلالة السلطان بمأمورية خصوصية تتعلق بالاكثر بشؤن مصر من قبل جلالة ملكة بريطانيا العظمى وايرلانده وامبراطورة الهند ودولتلو محمد سعيد باشا وزير الخارجية العثمانية الحامل النيشان الاول المرصع والنيشان المجيدى الاول من قبل جلالة السلطان * وبعد أن تبادلا الاطلاع على أوراق تعينهما الرسمية ووجداها صحيحة توافقا على المواد الآتية المبنية على سائر الفرمانات الشاهانية المرعية

المادة الاولى — يرسل كل من جلالة ملكة بريطانيا العظمى وجلالة السلطان معتمدا ساميا الى مصر

المادة الثانية — يبحث المعتمد السامى العثمانى بالاتحاد مع سمو الخديوى أومع المعتمد الذى يعينه سموه فى أصلح الوسائط الممكن الوصول اليها لاخماد ثورة السودان بطريق سلمية ويوقف المعتمد السامى العثمانى وسمو الخديوى المعتمد الانجليزى السامى على سير المخابرات . ولما كانت الاحتياطات التى ستقرر متعلقة بتسوية شؤن مصر العمومية اقتضى اعتمادها وتنفيذها بالاتحاد مع المعتمد الانجليزى السامى

المادة الثالثة — ينظم المعتمدان الساميان الجيش المصرى بالاتحاد مع سمو الخديوى

المادة الرابعة — يفحص المندوبان الساميان بالاتحاد مع سمو الخديوى جميع فروع الادارات المصرية ولهم أن يعدّلوا فيها مايستصوبون طبقا للفرمانات الشاهانية

المادة الخامسة — تصدق الحكومة العثمانية على جميع العهدات الدولية التى أبرمها سمو الخديوى بشرط أن لا تكون مغايرة للامتيازات المخولة لسموه بمقتضى الفرمانات الشاهانية

المادة السادسة — عقيب أن يتأكد المعتمدان الساميان حصول الامن على التخوم وتوطيد الحكومة المصرية يقدم كل منهما تقريرا الى حكومته وعندئذ تبحث الحكومتان فى عقد وفاق يتقرر فيه جلاء العساكر الانجليزية عن مصر فى أجل مناسب

المادة السابعة — يصدق على هذا الوفاق و يصير تبادل النسختين المصدق عليهما فى الاستانة فى خلال خمسة عشر يوما أو أقل اذا أمكن

وبناء على ذلك وقع المعتمدان المرخصان على هذا الوفاق وذيلاه بطغرائهما اهـ

(مطلب) تعدى العساكر الايطاليـة على مصوع واحتلالها عنوة وما جرى

وبينما كان المبعوث الانجليزى ورجال الحل والعقد فى مصر يراقبون حضور مبعوث السلطان وأهل البلاد يرجون النفع من وراء هذه النهضة اذ جاء الخبر من عامل الخديوى على مصوع بأن الجيوش الايطالية التى كانت ضاربة حول البلد قد دخلتها وأحاطت بأماكن ودواوين الحكومة وطلبت من محافظ البلد الجلاء العاجل عنها بمن معه من المرابطين وتسليم القلاع والحصون الى قائد الايطاليان فمانع المحافظ فى ذلك وقال انه لايفعل حتى يأتيه الامر من الخديوى فشدد قائد الايطاليان فى الطلب وأغلظ فى القول وهدد المحافظ باطلاق القنابل من مدافع السفن على الحصون حتى يدمرها ان هو أصر على الامتناع فلم يسع المحافظ الا الانسحاب بمن معه من الجند وبارح البلد وانحدر الى سواكن فلما شاع خبر هذا الحادث هاج الناس وماجوا وطاف نساء وذرارى الضباط وأصحاب الوظائف الذين بمصوع يتساءلون عما جرى لرجالهم وهم فى ولولة وضجة واجتمع الوزراء كافة وبينهم الخديوى وتكاموا فى الامر طويلا ثم اتفقوا بعد جدال على أن يحتجوا على عمل دولة ايطاليا هذا ويرفعوا الامر الى الباب العالى ليرى رأيه فيه مع سفراء الدول الكبرى بدار السلطنة وظنوا أن الغازى مختار باشا لايفد الى مصر الا ومعه علم ما كان وما سيكون من أمر هذه المحن المتتابعة * فلما كان ثانى عشرى ربيع الاول من السنة أى سنة ثلاث وثلثمائة وألف هجرية وصلت السفينة عز الدين احدى البواخر السلطانية تقل الغازى مختار باشا مبعوث السلطان فقابله الوزير نوبار باشا وسائر النظار وذو الفقار باشا كبير التشريفات فى أبهة وجلالة وأطلقت المدافع لقدومه من قلاع وحصون الاسكندرية وكان فى انتظاره العدد العديد من العلماء والوجهاء وأعيان البلد فبعد أن سلموا عليه جميعا بات ليلته تلك بالسفينة وأصبح فسار بمن معه من رجال الوفد ونسائه وخدمه وأتباعه الى محطة السكة الحديد فحملهم القطار الى القاهرة وكان فى انتظاره الامراء والكبراء والعلماء والوجهاء فسار بين صفوف الجند وأصوات المدافع الى سراى الاسمعيلية التى أعدوها لنزوله ولم يستقر به المقام حتى زاره المبعوث الانجليزى ولبث بحضرته برهة لطيفة وكذلك زاره العلماء والوجهاء وأصحاب الوظائف على اختلاف طبقاتهم ثم زار الخديوى فى ثانى يوم ولبث معه برهة وعاد الى مقره فرد له الخديوى الزيارة وهو فى موكب التشريف ثم بعد أيام قلائل جعل الغازى يوالى الاجتماع بمبعوث الانجليز ويتكامان فى أمر الاصلاح وفى أوجهه وأسبابه وظلا على هذه الحال أياما * وجلسا يوما يتكلمان فقال الغازى لولف لا أخفى عليك ان حالة البلاد الآن داعية الى تجييش جيش مناسب تسلم قيادته لقواد من أهل الخبرة والتجربة من المسلمين ليتولى ارجاع الامور فى الديار السودانية الى سابق مجراها والزحف على بلادها كلما

سنحت

سنحت الفرص فقال ولف ان الاتفاق مع أمير المؤمنين مبنى على اتخاذ الوسائل السلمية لاعلى تجنيد الجنود وتسليح العساكر وارسالها لقتال العدو.فقال الغازى نعم انى لم أتعود أن أروى غير الحقيقة وقد يمكن أن يكون مولاى الخليفة يظن ذلك فعلىّ أن أرفع الى سدته الملوكانية ماأراه الآن من استحالة ارجاع الامور الى ما كانت عليه بالوسائل السلمية مالم تعضدها قوة عسكرية فقال ولف ومن أين المال للنفقة فقال الغازى ان شاءت دولة الانجليز مساعدتنا فالامر هين والنفقة متيسرة وما عليها الا أن تعطينا ما تأخذه من خزينة البلاد نفقة على جيشها المحتل الآن مصر * قال محدثى فسكت عند ذلك السير ولف وأطرق لحظة ثم رفع رأسه وقال سأكتب بهذا القول الى صاحب سياستنا وأنتظر الجواب فاذا جاءنى اجتمعنا وتناقشنا فى الامر

واتفق فى هذه الاثناء أن تقدمت طائفة من العربان وجماعة من الدراويش أنصار المهدى الى مواقع العساكر المصرية والانجليزية الضاربة على الحدود فعاثوا فى ذلك الصعيد فقامت عليهم العساكر وضربتهم ومزقت جمعهم وتأثرتهم فاسترجعت منهم عدة مواقع وكثيرا من القرى والبلدان الصغيرة وما زالت تطاردهم وتعمل فى أقفيتهم السيف حتى صارت على أبواب دنقله ووردت الانباء بذلك الى القاهرة من عاصمة الانجليز لامن الحدود ففرح الناس فرحا عظيما وتعلقت آمالهم بقرب دخول العساكر المصرية دنقلة وارجاعها الى حوزة الحكومة وجعلها مقرا للحركات العسكرية ووردت رسائل التهانى على الخديوى من كل فج عميق فلم تكن الأيام حتى جاء الامر من اللورد سلسبورى زعيم السياسة الانجليزية الى الجنرال استيفنصون قائد الجيوش الانجليزية بالحدود أن ردّوا المقاتلين كافة عن دنقله وأرجعوهم الى الحدود قيل فراجعه الجنرال استيفنصون فى ذلك فلم يقبل وشدد فى ارجاعهم فانحدروا الى مواقعهم الاصلية وتركوا ما كان بأيديهم من تلك المعاقل والمراكز فعاد اليها العربان وتقوّوا فيها وتترسوا وجعلوا يراقبون الفرصة لاعادة الكرة على الحدود وانحدر الجنرال استيفنصون الى القاهرة فشعر الناس بما وراء ذلك من مكنون السياسة الانجليزية وأكثر أصحاب الصحف المحلية من الكلام على سوء الأثر المترتب على هذه السياسة وعلى بقاء العساكر الانجليزية فى الحدود من الاضطراب ودوام القلق وان الحال يحتاج الى غير ذلك * ولم يشغلهم عن هذه الجلبة الا ماوقع لقنصل جنرال الفرنسيس ووكيلهم السياسى بمصر وذلك انه قد جاء فى هذه الاثناء عظيم من الفرنسيس اسمه الكونت رونى لتولى منصب الوكالة السياسة بمصر فلما وصل القاهرة تحدد يوم لقبوله فى الموكب المعتاد واستلام الاوراق المؤذنة بتعيينه فى هذا المنصب على الطريقة المألوفة فلما حل الاجل المضروب لذلك وتمثل القنصل بين يدى الخديوى بملابس الزينة والتشريف وسلمه تلك الاوراق وألقى عليه حديث المودة وعلائق المحبة الكائنة بين حكومة مصر ودولة الفرنسيس لم تطلق المدافع لذلك من قلعة الجبل كالمتبع فى مثل هذا الاحتفال وانفضت الحفلة على غير سنتها المألوفة

(مطلب)
ماوقع الى الكونت رونى وكيل الفرنسيس السياسى بمصر واعتذار الوزير اليه وهو بكسوة التشريف

ونزل القنصل الى داره وفى قلبه ما فيه لاسيما وان المتولين أمر قلعة الجبل واطلاق مدافعها فى هذه الحفلات الرسمية هم جماعة الانجليز فما استقر بالقنصل المقام فى داره حتى كتب الى الوزير نوبار باشا يقيم الحجة ضد ماوقع ويطلب الترضية العاجلة فانزعج الوزير أى انزعاج ورسم الخديوى باطلاق المدافع فى اليوم الثانى استرضاء للقنصل وتطييبا لخاطره فلم يقبل وقال لابد من الترضية بأن يأتى الى دارى رئيس التشريفات بكسوة التشريف ويعتذر عما فرط فتطلق عند ذلك المدافع ثانية وبأن يأتى كذلك الوزير نوبار باشا بملابس التشريف وتطلق المدافع ففعلا وأطلقت المدافع ثانية وثالثة * واندفع أصحاب صحف الفرنسيس ينادون بالويل والثبور على جماعة الانجليز بمصر وشاركهم فى ذلك أصحاب الصحف المحلية فاهتم السير ولف مبعوث الانجليز بالامر وخاف أن يكون من وراء ذلك فشل مأموريته فسار الى دار قنصل جنرال الفرنسيس ومعه قائد الجيوش الانجليزية قبل واعتذرا وتلطفا فى المقال فطلب القنصل عندئذ نشر بيان جميع ما جرى بالجريدة الرسمية فأجابا طلبه وأشار ولف على الوزير نوبار باشا بالتعجيل فى ذلك ففعل وزال الخلاف فعادت الامور الى سابق مجراها * وعاد ولف الى الاجتماع بالغازى مختار باشا والمكالمة فى شؤن البلاد وحاجاتها وفى قواعد الاصلاح الواجب ادخالها فى سائر دواوين الحكومة وفى تنظيم الجيش على النمط الذى يمكن معه اعادة الكرة على دنقله ثم استرجاع البلاد السودانية الى الطاعة وتدويخها وارسال رسول من قبل الخديوى الى وادى حلفا للمخابرة مع زعماء القبائل رجاء الوصول الى تقرير قاعدة للصلح معهم وظلا على هذه الحال أياما وجاء الطلب من عاصمة الانجليز الى السير افلنج بارنج قنصل جنرالهم فتأهب للسفر وقد رتب متاعه وزار الوزير نوبار باشا وبقية الوزراء وقناصل الدول فشاع الخبر يومئذ بخلعه من منصبه وأنه لايعود اليه الا اذا عاد ولف الى بلاده ظافرا عما يرجونه من بعثته فتحدث الناس فى ذلك كثيرا وقالوا ان استدعاءه فى هذه الظروف الحرجة وافراغه من كل عمل يدلان على وقوع شئ من النفور بينه وبين السير ولف أو أن يكون نداء الوزير نوبار باشا المتتابع بطلب خلع القنصل المشار اليه قد أقلق صاحب السياسة الانجليزية ومال به الى استدعاء القنصل وقالوا غير ذلك أيضا فسار القنصل من القاهرة وغاب عنها حينا ثم جاءها وقد أعلوا منزلته وأكبروا منصبه وسموه وكيلهم السياسى بديار مصر فذهبت تلك الظنون أدراج الرياح وتم له ماأراده فى منصبه من النجاح والفلاح

وجاء الخبر بعيد ذلك بقليل بعزم صاحب السياسة الانجليزية على ارسال غردون الذى هو غردون باشا الى السودان لاسترجاع من بها من العساكر والجند وغيرهم ممن يشاء الجلاء عنها ثم لم يمض الا أيام حتى جاء الطلب فى أخريات شهر صفر من صاحب السياسة المشار اليه بتولية غردون الولاية العامة على السودان واعطائه السلطة المطلقة فيها فأبلغ السير بارنج هذا الطلب الى الخديوى والوزير نوبار باشا فدهشا واضطربا ومانعا فى ذلك كثيرا فلم يقبل

السيربارنج وصدع بالامر ثم لم تكن الا أيام أخرحتى وصل غردون الى القاهرة فى أخريات ربيع الاول من السنة أى سنة ثلاث وثلثمائة وألف واجتمع بالسيربارنج فأسر اليه بارنج بكل ما قضت به سياستهم فى أصقاع السودان ولم يتصل أحد يومئذ الى معرفة ماالذى تنويه الهيئة الحاكمة ولا ما اذا كانت شاركت السيربارنج فى آرائه أولا * ولم يطل غردون مكثه بالقاهرة بل غادرها فشيعه الوزير نوبار باشا وسائر الوزراء والسيربارنج والعدد العديد من مقدمى العساكر الانجليزية ولم يأخذ غردون معه فى ذلك اليوم جندا ولا كراعا ولا حشما ولا أتباعا سوى وعاء لملابسه ورحل الى الخرطوم كأنما هو ذاهب الى داره للقاء أم أولاده فتأمل

قال صاحب كتاب السودان فلما وصل كروسكو كتب كتابا الى المهدى وأرسل معه هدية من نوع الهدايا التى تقدم الى مشايخ الاعراب كالبنش وغيره وفحوى الكتاب انى أعترف بك سلطانا على السودان الغربى كله فأنت مطلق التصرف فى أقاليمه التى هى كردفان ودار فور ۞ قلت وهذه هى سياسة الوزير محمد شريف باشا التى مات شهيدها — قال — وانى لما بلغنى ماأصاب أهل السودان من سفك الدماء وتوالى الحروب خامرنى غم شديد ولذا قد انتدبتنى جلالة ملكة بريطانيه العظمى وامبراطورة الهند واليا على السودان وصدقت على ذلك الحضرة الفخيمة الخديوية وانى من صميم فؤادى أرغب توثيق عرى العلائق الودادية بينى وبين سلطنتكم وأرجو أن تسمحوا باعادة المواصلات التلغرافية وأظن أن أدوات التلغراف قد أتلفت فى غضون تلك الخطوب ولهذا أصدرت الاوامر الى مركز الحكمدارية بأن يعطيكم كل ما تطلبونه من تلك الادوات وأن يستقبل رسولكم كما يستقبل أعظم سفير وقد داخلنى الحزن الشديد لما علمت بقفل طرق السودان الشرقى مما حال بين المسلمين وبين مكة المكرمة التى يقصدونها فى كل عام لأداء فريضة الحج وزيارة قبر النبى عليه الصلاة والسلام فهيا بنا لفتح هذا الطريق والقاء السلاح وتشييد أركان الراحة وتوطيد دعائم السلام اه

ووصلت الاخبار الى الخرطوم بمقدم غردون وولايته العامة على السودان ففرح الناس بذلك فرحا عظيما وأملوا النجاة على يديه فوردت عليه رسائل التهانى من كل صوب فأرسل الى أهل الخرطوم يعلمهم بتركه المتأخر من الضرائب والاموال وخراج ثلاث سنوات مستقبلة وبترك جميع السودان الغربى الى مدعى المهدوية واعتباره منفصلا عن الخديوية المصرية وأن حكومة جلالة ملكة الانجليز هى التى منحت المهدى هذا السلطان الواسع * وسير كذلك الى حسين سرى باشا باعتزال منصب وكالة الولاية فاعتزله صاغرا وأقام بدله رجلا من الانجليز اسمه الكولونيل برى كوتلجف — قال — وكان هذا الرجل قد حضر الى الخرطوم فى مهمة سرية من قبل زعيم السياسة الانجليزية قبل مقدم غردون بكثير ورسم غردون بتولية آخرين بعض الوظائف العالية ثم انه رحل عن كروسكو الى بربر فلاقاه مديرها ومعه أعيان البلد

وأصحاب الوظائف الدوانيـة فحضهم على الولاء والاخلاص وقال قد تركت لكم سائر المتأخر من الاموال الاميرية وتجاوزت عن خراج ثلاث سـنوات مستقبلة وقد أبحت لكم الاتجار فى الرقيق وأبطلت كل مرسوم يخالف ذلك ثم أهداهم بعض الهـدايا النفيسـة والتحف الغالية وسار عنهـم قاصدا الخرطوم فكان يرى من الاهالى فى طريقه عين المقت والقلى اذ كانوا يسبونه ويكثرون من شتمه ويقولون فى وجهه قد زالت دولتكم يا كفار ﴿ قال الراوى فاندهش غردون من ذلك وأكبره جدا وكاد يتحقق عدم فلاحه وخيبته فى هـذه البعثة الا أنه تجلد واستعان بالصبر الى أن وصل الخرطوم فجمع الاعيان والعلماء والوجهاء والمشايخ وتلا عليهـم فرمان الولاية * ثم جعل يقول للناس ياأهل السودان جميعا ان الخديوى يسلم عليكم صغيرا وكبيرا أحرارا وعبيـدا اناثا وذكورا وكذلك جلالة الملكة فيكتوريه ملكة دولة بريطانيه العظمى وامبراطورة الهند * وانكم لاتجهلون شفقتى عليكم ومحبتى لكم وقد ساءنى ماسمعتـه عنكم لما قامت بينكم الحـرب وتعطلت تجارتكم وسفكت دماؤكم ومنعتم من تأدية فريضة الحج التى هى من أركان الاسـلام ومن زيارة قبر النبى عليه السـلام وقد ساء ذلك كلا من جلالة الملكة وسمو الخديوى المعظم فانتـدبت من قبـل حكومة جلالة الملكة لاكون واليا على السودان ومرخصا فوق العادة وقد صار فصل السودان فصلا تاما وفوض الى الحكم المطلق عليـه وقد خابرت حضرة السـيد محمد احـمد المهـدى بكنه مأموريتى واعترفت له بالسلطة المطلقة على السودان الغربى برمتـه بشرط أن لايمد يده لغيره * وقد أبطلت جميـع الاوامر المانعـة من الاتجـار فى الرقيـق وتجـاوزت عن جميـع المتأخر من الضرائب لغاية سنة ثلاث وثمانين وثمانمائة وألف ميلادية وتجاوزت أيضا عن خراج ثلاث سـنوات منـذ أول سـنة أربـع وثمانين وأمرت باحراق دفاتر المتأخرات وباطلاق جميـع المسجونين على اختلاف جرائمهم وتنوع جناياتهم وقد عزمت منذ الآن أن لاأجعل أعضاء حكومتى الا من الوطنيين حيث انى أود تشكيل حكومة وطنيـة ليحكم السودان نفسـه بنفسـه وقد عينت عوض الكريم أباسن مديرا للخرطوم وأحسنت عليه برتبة الباشوية ولى الامل بأن العلائق ستصبح بينى وبين سلطان الغرب « يعنى المهـدى » وثيقة العرى وقد أمرت منذ اليوم بفتح أبواب الحصون وتخريبها وسحب الجنود منها لكى تتفرغوا الى عمارية بلادكم وحرث أراضيكم وانماء تجارتكم ومنى عليكم السلام اهـ

قال صاحب كتاب السودان وكان أهل الخرطوم يسمعون هذا الكلام وأعينهـم تذرف الدمع حزنا واشفاقا لانهم كانوا يعلمون أن دوام الحـال من المحال وأن مدعى المهدوية سوف ينحدر عليهم بخيله ورجله فلا عهد ينفع ولا حنان غردون يدفع * فدخل جماعة العلماء والوجهاء على غردون وقالوا إنا نموت موتا ان أنت أتلفت شـيأ من الحصون والقـلاع فان المهدى لايلتفت الى شئ مما دعوته اليه ولا يرده عنا الا عسكر جرار وهاهم طوائف العربان الضاربون حولنا متحفزون للوثبة علينا والايقاع بنا فلم يلتفت غردون الى قولهم ولم يحفل به

فلم تمض على ذلك أيام حتى جاء الخبر الى الخرطوم بفشل حملة الجنرال جواهام وقتل جل رجالها * وكانت هذه الحملة قد سارت من القاهرة الى شرقى السودان لتمهد الطريق الى غردون فى مقاصده فلما شاع خبر اندحارها واثخان رجال المهدى فيها اشتد الخوف عن هم فى الخرطوم وأكبروا المصيبة وانزعج غردون وجعل يتدبر فيما عساه أن يكون اذا امتنع المهدى عليه وهاجمت جموعه الخرطوم وأخذ من يومه يطوف الحصون والقلاع ويتعهد المعاقل التى كان أشار فى مقالته بفتح أبوابها وتخريبها وسحب من بها من العسكر وبث العيون لتأتى له بأخبار العدوّ من كل صوب وحدب فكانوا يتخبطون فى القول ولا يصدقون فى الرواية حتى ضعفت منه الآمال واختلطت عليه الاحوال

واعلم أن ذهاب غردون الى الخرطوم فى هذه الظروف المحفوفة بأكبر الاخطار وأعظم المكاره واندفاع أصحاب السياسة الانجليزية وراء هذه الغاية ليس من الهنات الهينات ولا هو من المجازفة أو عمى البصيرة فى شئ وانما هى أعمال تشف عن عزم ثابت قوى ونية معقودة على أمر لا يقبل المراجعة وهذه النية كانت تكنها صدور أصحاب تلك السياسة من عهد محمد على باشا الكبير بل ومن قبله على عهد مراد بيك وعلى بيك الكبير فكانوا كلما لاحت لهم بارقة أمل تتبعوها أو فرصة انتهزوها حتى أيام الخديوى اسمعيل الذى بش لهم وفتح لهم الابواب مرحبا فولجوها آمنين وخفض لهم جناح الطاعة فتربعوا فى مناصب الرئاسة وتصرفوا فى موارد ايراد البلاد وما زالوا يعملون على بلوغ الغاية تارة ببذل المال وأخرى بدهاء الرجال وتارة باستعمال الضغط والتشديد وطورا بالوعد والوعيد الى أن أتاح لهم القدر المقدور ظهور فتنة صاحب المهدوية ثم اشتداد الثورة العرابية فأصبحت حكومة البلاد وهى أشغل من ذات النحيين فنهضوا حينئذ الى اظهار ماتكنه الصدور وسيروا غردون هذا الى الخرطوم على ماوصفنا وهم يقدّرون له السلامة فى الحل والترحال ويرجون على يديه بلوغ سلطتهم غاية الآمال * ولاجل أن لا يفوت القارئ معرفة بعض الشئ من ضروب هذه السياسة الحازمة نذكر فى فصل آت شيأ مما جرى من أقيال هؤلاء القوم فى السودان على عهد الخديوى اسمعيل والله سبحانه من وراء كل عمل

فصل

(فيما كان من دهاء رجال سياسة الانجليز على عهد الخديوى اسمعيل)

لما فتح محمد على باشا السودان ودوّخ مدنها وبلدانها شرقا وغربا وملأها بعسكره وجنوده جنوبا وأنشأ عاصمتها الجديدة التى هى مدينة الخرطوم وقد كانت قاعدتها يومئذ مدينة واد مدنى الواقعة على شاطئ النيل الازرق جعل يولى عليها الولاة والعمال بعد ولاية الدفتردار العامة فكان حالهم على ما قاله بعض الكتاب ممن يحسنون التدبير عارفين بحاجات

البلاد بعيدين عن الجور والاعتساف . فلما مات محمد على باشا وجاءت أولاده من بعده كان أكثر عمالهم أغرارا كثيرى الجور والظلم ميالين الى أخذ ما بأيدى الناس مع غلظة وتجبر وكان آخر من تولاها على عهد محمد سعيد باشا سنة أربع وسبعين ومائتين وألف هجرية حسين سلامه بيك

قال صاحب كتاب السودان كان نعم الرجل عادلا شفوقا على الرعية * وكان يسمى يومئذ مدير عموم قبلى وبحرى السودان وبقى الرجل وبقيت الولاية بهذا الاسم حتى تولى الملك الخديوى اسمعيل فجعل يبدل ويغير فى الولاة وليس بينهم من تحمد أيامه أو تشكر أحلامه الى أن تولاها جعفر باشا المعروف بالصغير فكان رجلا عادلا شفوقا بارا بالرعية عارفا بحاجة البلاد وأهلها فأقام ما شاء الخديوى ثم عزل وخلفه عدة من الولاة على التعاقب فكان آخرهم قبل غزدون الانجليز اسمعيل أيوب باشا وفى أيامه بلغت سلطة الخديوى فى تلك الانحاء أوجها وعمت كلمته أرجاء السودان شرقا وغربا وجنوبا اذ تتابعت غزوات عسكره وأوغلت فى أقاصى البلاد طلبا للمزيد من الفتح فكان أصحاب سياسة الانجليز وأقطاب القوم منهم ينظرون الى فعاله بعين السخط ويحسبون لها حسابا كبيرا وجعلوا يعملون على ما تقتضيه مصلحتهم ويتدبرون لمستقبل الايام فأرسلوا الكشاف والروّاد من طريق الزنجبار ورأس الرجاء بعضهم فى زى المبشرين بالنصرانية وبعضهم باسم علماء الآثار وأصحاب علم طبقات الارض فلم يتم لهم ما أرادوا فعمدوا الى الحيلة والتدبير وجاؤا الخديوى اسمعيل من أقرب المسالك وأحبها اليه فزينوا له المزيد من فتح تلك الاصقاع واستكشاف مجاهل خط الاستواء وما فى جوف أرضه من معادن الذهب والفضة والحديد والفحم وما زالوا به حتى ظفروا منه ببغيتهم وساعدهم على ذلك ما كان فيه يومئذ من التورّط فى الدين لاصحاب الاموال من الانجليز والفرنسيس ثم انهم سيروا اليه رجلا من أقيالهم العارفين بمناحى سياستهم ومرامى غايتهم اسمه السير صمويل بيكر فتلقاه الخديوى على الرحب والسعة فأقام بالقاهرة أياما وكان قد أتى معه من ديار الانجليز بشئ من الهدايا والتحف برسم زعماء قبائل السودان ومشايخ أهلها وأدلاء دروبها ومسالكها وهى أصناف من الخرز والجلود المصبوغة والفراء والقبعات الحمر والأساور والاقراط والخواتم والقلائد من الصفر والاحذية وشقق الكتان والخناجر والسكاكين والشئ الكثير من ألاعيب الاطفال كالاكر والمزامير والصفافير والعصىّ والسياط فاستصحب كل ذلك وبارح القاهرة على عجل ومابرح سائرا حتى تغلغل فى جوف السودان وأوغل فى مجاهل خط الاستواء فبحث ونقب وراد الطرق واستكشف المسالك واستمال بعض زعماء القوم وعرف الشئ الكثير من طباعهم وعاداتهم وما يميلون اليه وماينفرون منه قيل وعاهد بعضهم على الولاء والاخلاص للسلطنة الانجليزية وعاقدهم على ما لم تصل الينا معرفته وبعد أن لبث بتلك الاصقاع ماشاء هو أو ماشاء صاحب سياسة الانجليز قفل راجعا الى قومه بسلام فلم تكن الا فترة بعد ذلك

حتى

حتى أخذ قنصل جنرال الانجليز بالقاهرة يضج الخديوى ويحسبه فى طلب معاقدة دولة الأنجليز على منع الاتجار فى الرقيق وقطع شأفة النخاسة من أرجاء السودان المصرى فكان الخديوى يماطل ويحاول والقنصل لاينفك عن الطلب ولا يثنى له عزم دون نوال هذا الأرب حتى فاز وغلب وتم التعاقد على شروط أقل ما فيها من الحيف أن صار لامراء سفن الحرب الانجليزية تمام السيطرة على سائر السفن والشوانى الحاملة للراية المصرية بالبحر الاحمر وحق التفتيش عليها وضبط مايوجد بها من الاماء والعبيد وتحريرهم ومصادرة كل ما كان بها من مال ومتاع ومعاقبة أصحابها بالعقوبات الشديدة * فلما شاع خبر هذه المعاهدة أخذت أصحاب صحف الاخبار الانجليزية نشوة الفرح فتهللوا وأيقنوا بالفوز والغلبة ونحن المصريين لاهون عما سيكون من وراء ذلك فى مستقبل الايام * ثم رسم الخديوى الى عماله بالسودان أن يعملوا بنصوص تلك المعاهدة وأن لا يخالفوا شيأ من أحكامها فصدعوا بالامر وذاع خبرها فى البلاد شرقا وغربا وجنوبا فلم تكن الا أيام حتى ظهرت على وجوه السود علامات الوحشة والانقباض وبدأت إشارات الخروج أو كادت ووقفوا فى وجه أصحاب الجباية الذين عم شرهم يومئذ وثقل نيرهم على الاهلين لان القوم رأوا أن منع المتاجرة فى الرقيق مصيبة كبرى لان هذا الاتجار معين ثروة كبيرة لهم فضلا عن أن أهل السودان لم يتعودوا خدمة الارض بأيديهم ولاخدمة ماشيتهم بل ان نساءهم قلما يؤدين شيأ من الخدمات البيتية وكل اعتمادهم فى زرع الارض وتربية الماشية والخدمة البيتية انما هو على أولئك الاماء والعبيد

ولما تم للانجليز ما أرادوا من أمر تلك المعاهدة أوعزوا الى قنصلهم يومئذ أن كلم الخديوى فى ارسال رجل منهم الى مجاهل خط الاستواء مرة ثانية ليحيى ما اندرس من معالم المدنية التى كان وضع أساسها فى تلك الانحاء السير صمويل بيكر ولكى يقطع شأفة الاتجار بالعبيد ويسد المسالك على القوافل التى تقوم بالنخاسة ففعل القنصل وأكثر من ملازمة باب الخديوى اسمعيل والخديوى لايجهل ما وراء ذلك فكان يطاول ويمنى القنصل بالمواعيد والقنصل لا ينكف عن الطلب حتى أذعن الخديوى فأتوا له برجل من كبار عسكرهم اسمه الكولونيل غردون « وهو غردون هذا الذى نحن بصدد الكلام عليه » فرسم له الخديوى بالولاية على سواحل البحر الاحمر التى هى شرقى السودان المصرى فتولاها حينا وكأنه لم يطب له المقام هنالك أو كأن لم يحسن فى عينى زعيم السياسة الانجليزية أن يرى بسلطة صاحبهم وتعاليمه لا تتجاوز شرقى السودان فوردت حينئذ كتبه على الخديوى بطلب تولية غردون الولاية العامة على خط الاستواء وما يليه * وكانت الديون الى هذا الحين قد أثقلت كاهل الخزينة وأعجلتها فأصبحت وهى بين أيدى أصحاب الديون من جماعة الانجليز والفرنسيس كالريشة فى مهب الرياح فكان الخديوى يبذل فى مرضاة أصحاب سياسة الدولتين كل مرتخص وغال عساهم يدفعون عنه بعض ما يعانيه من جور الدائنين فلم ير بدا

يومئذ من اجابة طلب صاحب سياسة الانجليز ورسم الى غردون بالولاية على خط الاستواء فى أخريات سنة تسعين ومائتين وألف هجرية أى سنة أربع وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية فسار غردون الى الخرطوم على الطائر الميمون فتلقاه اسمعيل أيوب باشا والى السودان يومئذ وبالغ فى اكرامه وأطلق المدافع اجلالا لقدومه وأنزله على الرحب والسعة بالقصر المعروف بقصر راسخ بيك فلبث به أياما ثم سار بمن أخذه من العساكر والجنود الى فشوده ومنها الى منزلة سبت التى هى أول بلاد خط الاستواء شمالا فأمر ببناء القلاع والحصون فيها وحفر خندقا عظيما وجعلها مقرا لحكومته الجديدة ثم رحل عنها بعد أيام الى جبل الرجاف وكندكور التى كانت مقرا لاستاذه السير صمويل بيكر من قبله وما زال ينتقل من مكان الى مكان ويأخذ العهود على من يلتقى بهم من زعماء القبائل والمشايخ ويقيم الولاة والحكام من صغار ضباط الجند وممن كانوا فى خدمة صمويل بيكر حتى قامت فى وجهه قبائل العبيد وقاتلت عسكره قتالا عنيفا وما زالت تقاتلهم حتى هزمتهم العساكر شر هزيمة وأخضعتهم بغير عهد ولا ذمة وظل غردون يجوب البلاد شرقا وغربا وشمالا وجنوبا حتى نزل على بلاد الملك أمبتسه صاحب بلاد مرولى فعمد الى ضم بلاده الواسعة الى فتوحاته وهم بذلك ثم علم بأن الرجل يدين بدين النصرانية وقد اعتنقها على يدى المبشرين الانجليز الذين قدموا عليه من ناحية الزنجبار فانكف عن غزو بلاده وجعل مرولى خاتمة فتوحاته

فلما كانت سنة أربع وتسعين ومائتين وألف هجرية انحدر غردون الى القاهرة وجعل يغدو ويروح على مقر الخديوى أياما ثم برح القاهرة الى ديار الانجليز فلم يستقر به المقام حتى شاع الخبر وسطرته صحف الانجليز بتوليته الولاية العامة على جميع السودان المصرى شرقا وغربا وجنوبا قيل فاندهش الخديوى ورجال دولته لانهم لم يكونوا يعرفون عن ذلك شيأ البتة ولم تمض الا أيام حتى عاد غردون الى القاهرة فى هيبة وجلالة ودخل على الخديوى فسلمه الخديوى فرمان الولاية بيده مكرها فسار غردون الى الخرطوم ودخلها فى ضجة عظيمة فدقت لمقدمه البشائر وطير الخبر بولايته الى الآفاق فجاءه مشايخ وزعماء القبائل فخلع عليهم الخلع من الأكسية والفرجيات من الجوخ الاحمر وشقق الحرير وبالغ فى اكرامهم وفرق بعض التحف والهدايا على جماعة العلماء والوجهاء والاعيان وبعض أصحاب الوظائف فانطلقت ألسنتهم يومئذ بالدعاء له اذ كانوا لم يروا شيأ من ذلك البتة على يد أحد من كبار الولاة قبل جعفر باشا الصغير * وكانت ولاية غردون على سائر السودان المصرى ولاية عامة فأطلق الخديوى يده وتصرفه فى سائر الامور ۞ قال بعض الكتاب وهى محنة أخرى قد نزلت على هامة البلاد من سماء عاصمة الانجليز وفتنة كبرى لا يعلم بعاقبتها الا الحكيم العزيز فان غردون مالبث أن تربع فى دست الولاية حتى وردت الكتب منه تباعا على الخديوى فلم يكن الاشهر أو بعض الشهر حتى جاءه أمر الخديوى بضم سائر بلاد خط الاستواء الى ولايته فرتب لها الحكام وعين جباة الاموال وسلم مقاليد المهمات الى جماعة

(مطلب) انحدار غردون بعد ذلك الى القاهرة

من الانجليز والالمان والاميريكان والطاليان ونفر من أهل البلاد كادريس بن أبتر وغيره ممن كانوا سيارة يتجرون فى الاماء والعبيد والريش وسن الفيل وأطلق لهم الكلمة حتى تصرفوا فى سائر الأمور فعملوا لغير ما تقتضيه مصلحة البلاد وبالغوا فى منع الاتجار بالرقيق وصادروا التجار فى أموالهم وأرزاقهم وضيقوا عليهم سبل الاتجار وقفلوا فى وجههم أبواب الكسب * واستكتب غردون يومئذ رجلا اسمه التهامى بك وجعله كاتم أسراره فتمكن التهامى هذا من قلب غردون وأخذ بمجامع لبه فكان لايأتى أمرا الا باشارته ولا يعمل عملا الا برأيه

قال صاحب كتاب السودان وكان ذلك الرجل من شر الرجال وأخبثهم نية وأفسدهم طوية فسلك بغردون مسلكا نفر منه القلوب وحرك فى صدور أهل البلاد كامن الحقد عليه وكان تشديد الحكام لا سيما من الانجليز والايطاليان فى منع الاتجار بالرقيق وتحرير كل من علموا بوجودهم عند ساداتهم من أهم الاسباب التى دفعت بأهل السودان الى شق عصا الطاعة كما سيأتى بيان ذلك فى محله * اذ كان الناس هنالك يحسبون أن تحرير مواليهم وخروجهم من حوزتهم على يد أولئك الاجانب اضطهاد دينى من النصرانية للاسلام وكان شيوخهم وعلماؤهم يؤيدون لهم ذلك بالادلة المقبولة والشواهد المعقولة حتى أصبحت عندهم حقيقة لاشك فيها فكانوا يخفون ما بقلوبهم من نار التألم والحقد على عمال الحكومة ويرقبون كل سانحة حتى ظهر محمد أحمد مدعى المهدوية وأيقظ الفتنة الراقدة فهبوا جميعا لنصرته ولبوا على الفور دعوته وبايعوه على الطاعة والجهاد ضدّ أولئك القوم الكافرين فلما انتشرت دعوته أوكادت عاهده حتى الذين كانوا ينكرونها عليه وقالوا عاهدناك سواء صدقت فى دعواك أوكذبت ما بقيت على عداء هذه الدولة الجائرة ومحاربتها * وقد بقى هذا السر مكتوما والدعاة يجوبون البلاد شرقا وغربا وشمالا وجنوبا حتى قامت الفتنة بين الحبشة ومصر على يد غردون بأسباب تحديد التخوم بين المملكتين وكان غردون هو البادئ بمعاداة النجاشى والاستخفاف بشأنه استغضابا له وتكبيرا للفتنة فلم يطق الخديوى اسمعيل الصبر يومئذ على ذلك خوفا من استفحال الخطب واضطرام نار الفتنة بين البلدين لاسيما وقد كانت دولتا الانجليز والفرنسيس فى ذلك الحين تشدّان عليه النكير بسبب كثرة الديون وتضيقان عليه الخناق بالبحث والتنقيب فى موارد ومصارف البلاد وتشيران من طرف خفى الى أن خلعه من مسنده هو من الهنات الهينات * وكان قد آنس من غردون أيضا الميل الى الاستبداد بأمر السودان فاستقدمه على عجل فدخل غردون القاهرة فى أخريات سنة ست وتسعين ومائتين وألف هجرية مستقيلا من منصبه فأقاله الخديوى ورسم الى محمد رؤوف باشا بالولاية بدله فسار رؤوف باشا الى الخرطوم فلم يصلها الا ودعوة المهدى قد استفحل شأنها اذ كان قد بايعه أهل الحلوين والخلق العظيم من القبائل الضاربة حول جزيرة آبا وبينهم قبيلتا ذقيم وكنانه المعروفتان باسم البقارة لكثرة ماشيتهم والقوم من أهل القوة والبأس والصبر فى الحروب وعاهده كذلك عظيم من السود من ذوى الوظائف الديوانية على موافاته

بالاخبار والتف حوله زهاء الثلاثة آلاف من العربان كل هـذا ورجال الحكومة لاهون عنـه أوهـم مغضون لايريدون كشف أسراره ولا ذكر شئ من أمره حتى وردت الرسائل تترى على رؤوف باشا من بعض أعـداء المهـدى يعيبون فيها الحكومة على ذلك الاغضاء ويلومونها على تركها الرجل يعمل على ايقاد نار الفتنـة وشق عصا الطاعة حتى ظهرت كلمته كل هـذا الظهور فأرسل رؤوف باشا الكتب بذلك الى مدير فشوده وهو يومئذ الطيب بك ورسم له بالقبض على ذلك الخارجى فصدع بالامر وسار الى آبا فى نفر من الجند وكبس الخارجى فى مقره وأمسكه حيا وزجه فى السجن أياما ﴿ قال صاحب كتاب السودان حتى جاء بعض أتباعه ومريديه ورشوا الطيب فأطلق لهم سراحه واستقدم الواشين وهددهم وتوعدهم ان هـم عادوا الى الشكوى ثم انه قفـل راجعا الى فشوده * أما الخارجى فانه ماأفلت من السجن حتى زاد غروره وكبرت نخوته فأرسل الكتب الى سائر من عاهدهم يقول فى مطلعها بعد البسملة والحمدلة انه قد جاءنى النبي صـلى الله عليه وسـلم فى اليقظة ومعه الخلفاء الراشدون والاقطاب والخضر عليه السلام وأمسك بيدى صلى الله عليه وسلم وأجلسنى على كرسيه وقال لى أنت المهدى المنتظر من شك فى مهدويتك فقد كفر وان الترك كفار وهـم أشد الناس كفرا لانهـم ساعون فى اطفاء نور الله ويأبى الله الا أن يتم نوره ولو كره الكافرون وأخبرنى صلى الله عليه وسلم بأن النصر سيسير بين يدى أربعين ميلا وأنه صلى الله عليه وسـلم يحضر بذاته الكريمة أمام جيشى ومعه الخلفاء الراشدون وأن الله تعالى أيدنى بالاولياء والشهداء والصالحين من عهـد آدم عليه السلام الى زماننا هذا وأن مؤمنى الجن يجاهدون معى ولا يهزم لى جيش وأن الله ناصرى ومؤيدى على كل من حاربنى من الثقلين وأن أصحابى كأصحابه صـلى الله عليه وسـلم وعامتهم أكبر مقاما فى دار الخلد من الشيخ عبد القادر الجلى ﴿ قال صاحب كتاب السودان وهو شيخه الذى نهاه عن الخروج فى هذه البدعة ثم طرده — قال وأرسل نسخا عديدة من هـذا المنشور الى أناس فى الخرطوم منهم الشيخ الأمين الضرير رئيس العلماء بالسودان وهـذا أطلع عليه رؤوف باشا فرسم الباشا الى أبى السـعود بك العقاد أحد معاونيه بالسفر وأصحبه بجماعة من الدنقلين المقيمين بالخرطوم وأنفذهم رسلا اليـه يعنى الى الخارجى يدعونه الى الطاعـة ويحذرونه عاقبة الفتنة ويبلغونه أمر الوالى بدعوته الى الحضور لديه فذهبوا على الباخرة الفاشر ولما وصـلوا الى جزيرة آبا قابلهم كل من فيها بالتكبير على الكفار وكان الخارجى يتعبد فى سرداب فى الارض فامتنع عن مقابلتهـم أوّلا ثم أذن لهـم بالدخول فدخلوا عليه وسيوف أصحابه مسلولة على رأسـه فسألوه عن دعواه فأجابهم بمعنى مافى منشوره فقال له أبو السـعود بك ان الوالى يدعوك الى الحضور لديه فقال لا أذهب فقال يا سـيدى أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم فقبض المهدى على سيف كان على فخذه الايسر وكشر عن أنيابه وقال أنا ولى الامر الآن على سائر الانس والجان فاستأذن الرسل بالانصراف فأذن لهـم وهمّ الناس بالايقاع

بهم لولا أنه شدّد عليهم فى الكف عنهم وقفلوا راجعين الى الخرطوم
وعلم الملتفون حول الخارجى من المريدين والدراويش بخبر رسل الوالى وما جرى لهم فخافوا شر العاقبة وأيقنوا أن الحرب قائمة لامحالة وأن لاقبل لمدعى المهدوية على الوقوف فى وجه العسكر المصرى فتفرقوا عنه وتركوه مع نفر من أقاربه وخواص مريديه من الدناقلة وهؤلاء أيضا كانوا يتوقعون القتال فى كل يوم * ووصل رسل الوالى الى الخرطوم وأخبروا عما جرى لهم فسير الوالى طائفة من العسكر ومعهم مدفع لقتال ذلك الخارجى ومن معه والاتيان به حيا فخرجوا فى أخريات رمضان من سنة سبع وتسعين ومائتين وألف قاصدين جزيرة آبا فوصلوها قبيل الغروب وكان الوقت صيفا والامطار تهطل غزيرة والاوحال تملأ الطرقات فلم يتم نزولهم من السفن التى كانت تحملهم حتى اختلف الضابطان اللذان كانا يقودان هذه الحملة على من منهما يتولى الرئاسة واشتد بينهما الخلاف حتى باتوا جميعا فى مكانهم تلك الليلة بعد أن وضعوا أحمالهم والتموا حولها فعلم الخارجى بخبرهم وبث حولهم العيون وهم نيام لايشعرون وما زال يراقبهم بمن معه من المقاتلة حتى مابعد نصف الليل فانقض عليهم حينئذ وأعمل فيهم السيف فلم يفلت منهم الا بضع نفر منهم أبو السعود بيك وغنم الخارجى جميع متاعهم وكراعهم وسائر ما كان معهم وعاد أبو السعود وأخبر بما جرى فعم حينئذ الخوف وذاع خبر هزيمة العسكر فى أكثر البلاد السودانية فجعل التجار من الاجانب والاهلين يرحلون من المدن والقرى ويأتون الى الخرطوم وأسيوط والقاهرة وغيرها وارتبك رؤوف باشا وتحير فى أمره وكأنما كان يعتقد سرا بصحة مهدوية ذلك الخارجى فلم يأت شيأ من الحزم أوحسن التدبير سوى أنه أرسل طائفة أخرى من الجند لحصار جزيرة آبا وأرسل الى مدير كردفان فى طلب النجدة العاجلة وكان المهدى لما ظفر بالعساكر المصرية فى تلك الواقعة حسب ماوراء ذلك فجمع اليه أصحابه وقال لهم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرنى أن نعمل العنج « قال صاحب كتاب السودان هو نوع يشبه الفلين لخفته وطفوه فوق الماء » مراكب لنعبر بها النيل الى الجانب الغربى وان الله تعالى سيأخذ على ناصية الترك الكفار فلا يقدرون على ايصال الاذى الينا حتى نبلغ مأمننا من الجانب الغربى ومن هنالك نتوجه الى دار هجرتنا بجبال ماسة وقدير وهى دار هجرة الانبياء كلهم الا نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم ففرح أصحابه بذلك وعملوا شيأ كثيرا من تلك المراكب وعبروا النيل فلم يأذن رؤوف باشا لقائد العسكر الذين كانوا يحاصرون الجزيرة بتدمير تلك المراكب وكأنما كان يعمل فى ذلك الحين بمشورة ججلر باشا الالمانى وكيل الولاية وهو تلميذ غردون فى سياسة السودان وغرس نعمته فما استقر الخارجى بالجانب الغربى حتى جاءته رجالة دقيم وكنانة والتفوا حوله وبايعوه على السمع والطاعة والجهاد فى سبيل الله ثم قدموا له الاقوات ﷺ قال صاحب كتاب السودان وكانت البيعة هكذا بايعنا الله ورسوله وبايعناك على طاعة الله وأن لانسرق ولا نزنى ولانأتى ببهتانا نفتريه ولانعصيك فى أمر بمعروف ونهى عن منكر بايعناك

على زهد الدنيا وتركها وان لانفر من الجهاد رغبة فيما عندالله اه

وكان الذين بايعوه فى ذلك اليوم زهاء عشرة آلاف مقاتل مدججين بالرماح والسيوف الهندية وبينهم جماعة من الفرسان ثم ساروا معه الى جبال ماسه وقدير فعارضهم قبائل النوبة الساكنة هنالك وقاتلوهم أياما كانت الحرب فيها سجالا ثم حلت الهزيمة بأهل الجبال فأذعنوا وأطاعوا فتركهم ومر بجبال تقلى فلم يتمكن من اخضاع أهلها لانهم أصحاب بأس وقوة فى الحروب وشاع الخبر بما جرى حتى بلغ كردفان فقويت عقيدة أهلها فى مهدويته وتاقت نفوسهم الى نصرته وتحققوا خلاصهم على يده من ذل الولاة والحكام فهرعوا الى قدير ليبايعوه ﴿ قال صاحب كتاب السودان وفد عليه زعيم قبيلة الحوازمة الذين هم البقارة وزعيم قبيلة القديات وكل منهما فى مائتى فارس من أشجع فرسان قومهم وأصبرهم على القتال فأحسن لقاءهم فبايعوه على السمع والطاعة * قيل وقال له زعيم قبيلة الحوازمة أبايعك على المهدوية وان لم تكن مهديا أبايعك على قتال الحكومة وخلع طاعتها فتقوت بهؤلاء القوم عزيمة الخارجى وأنصاره ووقعت مهابته فى قلوب أهل الجبال المجاورة فكان اذا تحرك جماعة منهم الى قتاله نزل عليهم وهزمهم شر هزيمة * وفى هذه الاثناء كان قد خلع السلطان الخديوى اسمعيل من مسند الخديوية وتولاها ولده محمد توفيق باشا وكان ما كان من ظهور الثورة العرابية وعجز الحكومة يومئذ عن قطع شأفة الفتنة المهدوية فلما كانت سنة تسع وتسعين ومائتين وألف هجرية جاء الامر الى رؤوف باشا بالتخلى عن الولاية فاعتزلها وسلم مقاليدها الى جلر باشا وكيلها وسافر من فوره الى القاهرة يريد لقاء عبد القادر باشا الذى تولى الولاية العامة بدله فجعل جلر يتصرف فى الامور كما يشاء وأرسل يوسف باشا حسن الشلالى فى جيش ضخم لقتال المهدى فظفر به المهدى وفتك بعسا كره فتكا ذريعا وأخذ جميع ما كان معهم من متاع وسلاح ودواب للعمل فعظمت بذلك قوة الخارجى واشتدت ظهور أصحابه وكثرت لمومه وعمت بيعته سائر الاصقاع السودانية أو كادت فتاقت نفسه الى التشبه بالخلفاء الراشدين وترتيب أصحابه وأنصاره على طريقة المجاهدين فى أيام عمر بن الخطاب ﴿ قال صاحب كتاب السودان وكان الذين يعتمد عليهم فى سائر أموره خمسة أولهم الخليفة عبد الله التعايشى فعقد له لواء أسود على جميع المقاتلين معه من قبائل السودان الغربى ولقبه بخليفة الصديق والثانى الخليفة على بن محمد حلو وعقد له لواء أخضر على المقاتلين من القبائل التى تسكن ضفتى النيل الابيض والجبال الواقعة حول جبل قدير ولقبه الخليفة الفاروق والثالث ابن عمه الخليفة محمد شريف بن حامد وجعله مقدما على سائر من معه من أهالى الخرطوم وبربر ودنقله وسنار ولقبه بخليفة الكرار وجعل الزعامة العامة لاخيه محمد عبدالله ولقبه بأمير الجيوش المهدوية وولى رجلا اسمه أحمد بن سليمان من قبيلة المحس أمانة بيت المال فكان أحمد هذا من أقرب المقربين اليه وأصدقهم فى طاعته وأحفظهم لسره وأطلعهم على سائر عوراته — قال وهؤلاء هم

الخمسة

الحبشة الذين كانوا موضع ثقته اه ﴿ وما ذاع خبر انتصار أصحاب الخارجى على جيش الحكومة بين أهل البلاد حتى خرج على عمال الحكومة وأصحاب الجباية كل من فى قلبه مرض وكالوا لهم بالكيل الوافى وزحف رجل اسمه عامر بن المكاشفى فى لموم كثيرة على سنار فقاتل من بها وفتحها عنوة وأثخن فى القتل والنهب وسبى النساء والدرارى وجاء الخبر الى بجلر فقام من الخرطوم فى نفر من العسكر يريد اللحاق بابن المكاشفى واجلاءه عن سنار فسمع الصائح فى طريقه بخروج آخر اسمه الشريف أحمد طه ووقوفه فى لموم كثيرة بين الخرطوم وسنار فتربص بمن معه وأرسل اليه يدعوه الى الطاعة فلم يذعن بل قتل الرسول فسير اليه جماعة من العسكر فقاتلوه وهزموه شر هزيمة وتبعوه حتى قتلوه ثم انقلب بجلر بمن معه من العساكر الى سنار فأنقذها وشتت شمل من كان حولها من لموم المكاشفى وكان ابن المكاشفى قد مات قبل وصول بجلر بجراح أصابته عند دخوله سنار

(مطلب وصول عبد القادر باشا الى الخرطوم)

وبينما كان أهل الخرطوم فى خوف مما عليه من مزيد وهم يتوقعون فتك العدو بهم فى كل لحظة من الزمان لخلو البلد من المرابطين وانتشار أهل الفساد وقطاع الطرق حوله وعدم وجود من يحسن التدبير عند مسيس الحاجة اذ جاءهم عبد القادر باشا فى نفر من الخدم والاتباع والكتاب فلم يستقر به المقام حتى طاف البلد وعلم ما يحتاج اليه من أسباب الدفاع فرتب العسس للحراسة فى الليل وجمع من العبيد عسكرا لحراسة النهار والدفاع عند الحاجة وحصن البلد تحصينا منيعا وخندق عليه وأوقف الحرس على الابراج فذهب الخوف من قلوب الناس وانتشر الامن حول البلد وخاف أهل الشقاوة وانكمشوا ثم أرسل فى طلب المرابطين عند حدود بلاد الحبشة فجاؤا فعهد اليهم بحراسة بعض المواقع والابواب ﴿ وكان اذ ذاك قد التهب جوف السودان المصرى جميعه بنار الفتنة وعمت دعوة المهدى سائر تلك الاطراف وخرج من كان باقيا على الطاعة وكثرت المذابح فى كل صوب وحدب ﴿ قال صاحب كتاب السودان فكان لا شئ أيسر من أن يهب كل من فى قلبه مرض الى الخروج وشق عصا الطاعة فتلتف حوله اللموم من أهل حلته على أسرع ما يكون بسيوفهم ورماحهم ومؤنتهم طلبا للجهاد وغزو الكفار فيسير بهم حينئذ الى الخارجى فى جبل قدير فيوليه الخلافة ويأخذ عليه العهد بما شاء ثم يرجع بمن معه ويقفون فى طريق الجند ويقاتلونهم أو يطاردونهم أو يهاجمون مراكزهم مستقتلين مستبسلين والدعاة يجوبون البلاد شرقا وغربا وشمالا وجنوبا يدعون القبائل الى طاعة الخارجى حتى لم تبق قبيلة الا استنجدوا بها ولا بيت الا طرقوا بابه ﴿ وجاء الخبر سرا الى عبد القادر باشا بعزم الخارجى على ترك جبل قدير والزحف على الابيض لبقائها على ولاء الحكومة الخديوية ووجود المرابطين من العسكر المصرى بها ﴿ قال صاحب كتاب السودان وكان زحف المهدى الى الابيض بدعوة من تجار كردفان والحاج منهم فجعل عبد القادر باشا يتأهب للقائه بالابيض وينظم النجدات ويعد المعدات على قلة من عسكره وكان يخشى أن المهدى

اذا انحدر الى كردفان سير دعاته حول الخرطوم فيحرضون الناس على الخروج وشق عصا الطاعة فيشتغل عن معه من الجند بارجاعهم ويتعذر عليه حينئذ ارسال النجدة الى كردفان فتتمكن لموم المهدى من الفتك بمن فيها من الحامية ــ قال ــ وقد صدق ظنه فانه ما انحدر المهدى من قدير حتى قامت الفتنة حول الخرطوم واشتبك عبد القادر باشا معهم فى القتال واشتد عليهم واشتدوا عليه فلم يكن ليخضعهم حتى تم للمهدى الاستيلاء على الابيض وتخريب ما فيها من آثار المدنية والعمران * ثم جعل عبد القادر باشا ينتقل من بلد الى آخر ويلح فى قتال انصار الخارجى ويصليهم نارا حامية ويجد فى تمزيق جموعهم حتى تمكنت مهابته من قلوبهم مع ما كانت عليه جنوده من شظف العيش وعرى الاجساد اذ كانوا يستترون بالجلود ويقتاتون بلحوم الماشية التى كانوا يغنمونها من العدو ويعملون أحذيتهم من جلودها مع خلو أيديهم من الدرهم والدينار لعدم صرف مرتباتهم وتأخير جماكيهم الشهور الكثيرة وكان عبد القادر باشا لا ينفك عن استعطاف رجال الدولة بمصر عليهم يرثون لحالهم ويطلقون لهم شيأ من رواتبهم * فبينماهم على هذه الحال اذ جاءه الخبر من ديوان الخديوى بأن قدقامت الى الخرطوم حملة عظيمة من الجنود المصرية بقيادة رجل من الانجليز اسمه هيكس وانها على قدم السرعة وستدرك الخرطوم فى القريب العاجل * فلما ذاع هذا الخبر اندهش الناس أىّ اندهاش اذ مع ما هو معلوم من أن الفريقين المتحاربين كليهما من المسلمين فان الفتنة كانت معتبرة دينية والحرب بينهما جهادا فكيف اذا علم أصحاب الثورة أن قواد الجيش المحارب لهم هم من الانجليز وكيف يكون تأجج نار الفتنة واشتداد أوارها وفوز دعاة المهدوية متى تحقق للخارجى وأصحابه ذلك * أما هيكس هذا فهو رجل من مقدمى عسكر الانجليز أوفده زعيم سياستهم الى أرض مصر لهذه الغاية فلم يلق عصا ترحاله حتى طلب السير بارنج الى الخديوى ارساله على رأس ذلك الجيش الى السودان لاخضاع أهله والقبض على مدعى المهدوية فأكبر الخديوى الامر وأعظمه وكلم الوزير محمد شريف باشا فى ذلك فامتنع الوزير وقال لا سبيل اليه والفتنة دينية والرأى عندى أن نمد عبد القادر باشا بالمدد الكافى ونطلق له عنان التصرف والا اختلط الحابل بالنابل وتعذر اطفاء نار هذه الفتنة فراجعه السير بارنج ووردت الكتب من صاحب سياسة الانجليز بالتعجيل وخروج العسكر والوزير يحاول ويطاول * وكان اسمعيل أيوب باشا الذى تولى السودان على عهد الخديوى اسمعيل يشغل أحد المناصب الوزارية مع الوزير محمد شريف باشا وكان يكره ظهور كلمة عبد القادر باشا ويميل الى خذلانه وحرمانه من فخر الفوز على الخارجى وشرف الظفر بقطع دابر الفتنة فزين الى السير بارنج طلب استرجاع عبد القادر باشا وارسال هيكس بدله قيل وما زال هو والسير بارنج يعملان يدا واحدة وبقلب واحد حتى تم اخراج الجيش على رغم أنف كل مكابر وكان مؤلفا ممن كانوا فى الجيش المصرى على عهد الثورة العرابية فسار بهم هيكس وقد أعطاه الخديوى رتبة

(مطلب)
قيام حملة هيكس
الى الخرطوم

الباشوية فوصل بالجيش الى الخرطوم ومعه الشئ الكثير من الاسلحة والمدافع ودواب الحمل والذخيرة وكان الى يوم وصوله قد تم تحصين سنار ورحل عنها العدو وزالت القلاقل من الجزيرة وحصر عبد القادر باشا دعوة الخارجى فى اقليم كردفان فزال الخوف عن الخرطوم أيضا بقدم جيش هيكس أو كاد ﴿ قال صاحب كتاب السودان ※ وكان عبد القادر باشا قبل قدوم جيش هيكس يتمنى لو أن الحكومة تمده بشئ من المال والرجال فيتيسر له اذ ذاك وضع حامية تقاوم دعاة المهدى فى الجزيرة وحول الخرطوم ثم يتقدم هو نحو كردفان من طريقها الشمالى الذى يكثر فيه الماء لامن طريقها الجنوبى الذى لاماء فيه ولا رواء تاركا فى كل مرحلة يقطعها حامية تحفظ له خط الرجعة ثم يؤلف ممن بقى قوة للهجوم فيهجم بها على العدو فيمزق شمله ويقضى عليه القضاء الأخير ولكن قد جاء هيكس وقضى الامر اهـ وقد اشتد العجب بالناس أيضا من قدوم كبير من كبار عسكر الانجليز اسمه الكولونيل استيورت الى بربر ومعه كتاب من الديوان الخديوى الى سائر العمال يأمرهم فيه بأن يطلعوا استيورت هذا على سائر دفاتر وأوراق الحكومة وأن يصدعوا بأمره فى كل ما يطلبه وكان مع استيورت هذا رجل آخر اسمه داليه ايطالى الجنس ممن كانوا فى خدمة السودان على عهد الخديوى اسمعيل فسار استيورت من بربر الى الخرطوم والتقى بعبد القادر باشا ولبث بها أياما لا يعلم أحد من عمله شيأ ثم غادر الخرطوم الى سنار فالقضارف فكسلا فصوع فمصر فاختلف الناس فى داعى حضوره فمن قائل انه جاسوس جاء ليتحقق من أمر طموح عبد القادر باشا الى الاستقلال بملك السودان كما أشاع يومئذ المرجفون وهم على ماذهب اليه بعضهم اسمعيل أيوب باشا وأشياعه أو على مذهب غيرهم هم صاحب السياسة الانجليزية ورجال حزبه ومن قائل بل حضر ليمهد العقبات أمام جيش هيكس ومن قائل غير ذلك وعلى كل حال فلم تكن الا أيام بعد عودة استيورت الى القاهرة حتى جاء الامر من الديوان الخديوى الى عبدالقادر باشا بالتخلى عن الولاية والعودة الى مصر فتخلى عنها فى الحال وجعل يتأهب للرحيل وبينما هو على هذا اذ جاء علاء الدين باشا واليا بدله فانحدر عبد القادر باشا من الخرطوم يريد القاهرة وجعل علاء الدين يتصرف فى الأمور وعلم الخارجى بخبر جيش هيكس فاهتم له كثيرا ﴿ قال صاحب كتاب السودان وظهرت على وجوه أصحابه علامات الخوف فتطير الخارجى من ذلك وكتب يحض الناس على الغزو والجهاد فى أعداء الله ورسوله ثم نادى فى عسكره بالخروج الى ظاهر البلد وظلوا على هذه الحال زهاء ستة شهور فلما كان شهر ذى الحجة من السنة أى سنة ثلثمائة وألف خرج جيش هيكس من أم درمان برا وبحرا حتى بلغ الدويم وتربص حتى تكاملت رجاله ومعداته وجاء الصائح الى الخارجى بمسير الجيش فأرسل فى الحال رجلا من مقدمى عسكره وآخرين ممن لاذوا به من عسكر الحكومة ومعهم أربعون ألفا من الجعليين والدناقلة ورسم اليهم بأن ينزلوا جميعا بمكان يعرف بالبساطة على مقربة من أم درمان — قال — وقال لهم اذا سارت حملة هيكس من

أم درمان فسيروا خلفها على بركة الله واجعلوا بينكم و بين مؤخرها رمية قوس * وخرج علاء الدين باشا ليسير مع الجيش ومعه بعض الخدم والحشم والاتباع ودليلان من قبيلة الجمع قدما الى الخرطوم بايعاز من مدعى المهدوية ليسيرا بالجيش من أوعر الطرق وأقلها ماء ورواء وكان هذا الجيش كما وصف صاحب كتاب السودان مؤلفا من ستة عشر ألف مقاتل من العساكر النظامية وألف من الفرسان لابسى الدروع والخوذ وألف من الجنود السود وكثير من الفرسان الترك الغير المنظمين وكان عدد دواب الحمل فيه زهاء الثلاثين ألف جمل ماعدا البغال ومع الجيش الشئ الكثير من الاسلحة والمدافع والمكاحل من الطراز الجديد والمؤن والذخيرة وسار هذا الجيش الضخم من الدويم الى شاة ثم منها الى عقبة وما كاد يفارق النيل حتى جعل العدوّ يقلقه بالجلبة والصياح فاضطر أن يسير على شكل مربع يحيط بدواب الحمل وكان لايقدر على المبيت الا فى داخل زريبة من الشوك فكان كل من ابتعد من العسكر عن الزريبة فى طلب الحشائش لعلف الدواب وقع فى أيدى العدوّ فتعذر الحصول على العلف ومات أكثر الدواب جوعا ولحق بالعسكر مالا مزيد عليه من التعب من قلة النوم لان العدوّ كان لايتركهم ينامون من كثرة صياحه وجلبته فى كل ليلة مما يضطرهم الى التأهب والاحتياط والوقوف على قدم الاستعداد والسهر حتى مطلع الفجر

(مطلب) الخلاف بين علاء الدين باشا وهيكس باشا

وبينما كانت الجنود على هذه الحال من التعب وتهديد العدوّ لهم فى الليل والنهار بغير حرب ولا نزال كان الخلاف قائما ما بين علاء الدين باشا وهيكس على أىّ منهما تكون له الرئاسة اذ كان كل منهما يزعم أنه مقدم هذا الجيش وصاحب الكلمة بين افراده * حدثنى صاحب لى قال حدثنى رجل ممن وقع فى يد العدوّ بعد هلاك جيش هيكس قال كانت فعال هيكس هذا تدل على جهله بأحوال البلاد وعادات السود وكان كثير التقلب قريب الغضب وكان علاء الدين فخورا مختالا فكان اذا أبدى رأيا فى أمر خالفه هيكس وعابه واذا أشار هيكس بشئ مانعه علاء الدين وخطأه ورماه بالجهل فظهر عندئذ من جماعة الضباط وطوائف العسكر الاستخفاف بالاثنين فنبذوا طاعتهما وقد أضناهم العطش وأنهكهم التعب وتفشت بينهم الامراض العفنة وكثر الموات فى دوابهم لقلة العلف والماء وما زالوا والعدوّ محدق بهم من كل صوب يسيرون وهم على هذه الحال حتى نزلوا على غدير يقال له غدير شيكان مملوء بماء الامطار فأقاموا عليه أياما قلائل حتى استنزفوا ماءه وسبقهم الخارجى بجيوشه الى غدير كثير الماء ونزل حوله ليمنعهم من الوصول اليه فلم يتمكنوا من اللحاق به ولم يقدروا على مناجزة العدوّ لضعفهم وخور قواهم وأقاموا حول غدير شيكان حتى أكلوا طينه وأوحاله من شدة الظما وتمرد الجند على كبارهم وهموا بقتلهم مرارا * فلما كان يوم الاثنين رابع المحرم افتتاح سنة احدى وثلثمائة وألف قاموا على ماهم عليه من الجهد والضعف يريدون الابيض لخلوها من رجال الخارجى والتماسا للماء فيها ﴿ قال صاحب كتاب السودان وكانت جواسيس المهدى قد أبلغته ماهم عليه من حالة الضعف والظما وأنهم قد أصبحوا جثثا

لاحرائ بها فنادى فى أصحابه بالخروج عليهم فأطبقوا عليهم من كل جانب وأعملوا فيهم السيف فلم يقدروا على الدفاع ولم يسمع لهم صوت مدفع ولا بارودة حتى أفنتهم سيوف العدوّ ولم يبق منهم الا بضع عشرات ممن اختفى بين الأشلاء وأمر الخارجى أتباعه فجعلوا يحرقون جثث القتلى من أعدائهم معلنين ذلك بأنهم كفار وقتلوا علاء الدين وهيكس شر قتلة * قلت هذه رواية * وفى أخرى أنه لما خرج الجيش من أم درمان على ماتقدم ذكره سار الدليلان أمامه فى طريق كثير الغابات شديد المرابك والعقبات قليل الماء والرواء والعدوّ من خلفه وعن يمينه وعن شماله يثب على مربع العسكر كل حين وهم يجدّون المسير رجاء أن يدركوا الماء ويرووا بعض مابهم من الظما فلم يمكنهم العدوّ من ذلك وقد قلّ علف دوابهم فكثر فيها الموات وضعفت عن حمل أثقالهم وجرّ مدافعهم ثم تفشت فى العسكر الامراض العفنة وأنشب فيهم الموت أظافره ولما كان كلهم أو جلهم من الذين كانوا فى مظاهرات الثورة العرابية وكان كبارهم ممن حكم عليهم بالتجريد من الرتب وألقاب الشرف وكان انتظامهم فى هذا الجيش انما هو بايعاز من صاحب السياسة الانجليزية ولنكد حظهم كان ما كان من سوء تدبير الجيش وتغرير الدليلين بعلاء الدين وهيكس أيقنوا جميعا بأنهم انما هم مسوقون الى الموت لا محالة فانتقضوا وعصوا كبارهم وأكثروا من سبهم وتعنيفهم وضربهم قيل وهموا بقتلهم مرارا وما زالوا على هذه الحال من الظما والتعب والعدوّ من أمامهم ومن خلفهم وعن يمينهم وعن شمالهم وهم لا يقدرون على دفعه حتى نزلوا على غدير شيكان فشربوا مافيه وأكلوا من طينه وأوحاله وعيون العدوّ ترمقهم حتى أيقنوا أنه لم يبق فى أحد منهم شئ من القوة يدفع بها قاتله فانقضوا عليهم وهم كالاموات وأعملوا فيهم السيف حتى لم يبق منهم الا نفر قليل ممن اختبؤا بين جثث الاموات وقتلوا هيكس وعلاء الدين وجمعوا السلاح والمتاع والمدافع وما بقى من دواب الحمل وقفلوا راجعين الى الابيض فرسم الخارجى بتقسيم الاسلاب والغنائم على المجاهدين والانصار والخلفاء * وجاء الخبر الى القاهرة بما أصاب جيش هيكس فكان لذلك رنة حزن وأسف شديدين وكثر البكاء والعويل فى بيوت الضباط وكبار الجند وجلس الناس للعزاء أياما وظن أهل الخرطوم أن الخديوى لايلبث أن يعيد عبد القادر باشا فى عسكر جرار للاخذ بالثار وشاع بينهم أيضا خبر عزم زعيم سياسة الانجليز على ارسال غردون قائدا على ذلك العسكر فجعلوا يعجون ويبتهلون الى الله بتحقيق هذا الخبر واختلط الحال على الخديوى ورجال دولته فجعلوا ينقضون اليوم ما أبرموه أمس ويتخبطون فى العمل كمن فقد الرشد ووزير السياسة الانجليزية يضرب على أيديهم ولا يمكنهم من أخذ أو ردّ فكانوا اذا قاموا أقعدهم واذا قعدوا أقامهم واذا قالوا عاب عليهم قولهم واذا عملوا رماهم بالعسف حتى جاءهم مرسومه بالتعجيل فى اخلاء الدويم وفشوده والكوه والجلاء عنها وتركها الى الخارجى والاتيان بحاميتها الى الخرطوم فصدعوا بالامر فلم يتم الجلاء عن هذه البلاد حتى جاءهم الامر أيضا باجلاء سائر المصريين

عن الخرطوم واعادتهم الى مصر على نفقة الخزينة فصدعوا كذلك بالامر صاغرين وأخذ الناس فى الجلاء الى بربر وأحصوا النازحين يومئذ فكانوا زهاء مائتى ألف وخمسين ألفا وشاع خبر ذلك فى البلاد شرقا وغربا فأجمع الناس من ذلك اليوم على طاعة الخارجى والاسراع الى متابعته فكانوا يجتمعون فى القرى والبلدان ويضربون الطبول ويخلعون أثوابهم ويلبسون المرقعات التى هى شعار المهدوية ويوفدون الوفود الى حيث الخارجى ليبايعوه ويأخذوا عليه العهد فتم الى هذا الحين سقوط هيبة الحكومة المصرية وزوال سلطانها وذهاب نفوذها وصار حكام البلاد يذهبون بما لديهم من الاموال الى مقر الخارجى تزلفا وتقربا منه فكان يمنيهم بالامانى الكثيرة وكان ممن سلم وتزلف وبالغ فى ذلك جدا سلاطين باشا ومن كان معه من كبار العساكر وأسلم يومئذ ونطق بالشهادتين على يد الخارجى ولازم باب الخليفة التعايشى ۞ قال صاحب كتاب السودان أما مقدمو العسكر فقد فعل بهم المهدى من القساوة والتعذيب والضرب بالسياط ما تقشعر لسماعه الابدان

وصـــــل

(فى ظهور الفتنة بالسودان الشرقى)

قد كانت الفتنة الى هذا الحين فى السودان الشرقى نائمة ولم يحرك أحد من القبائل لها ساكنا وكان بقرية الدامر على ساحل النيل شيخ من أرباب الطرق اسمه الطاهر المجذوب وكان محبوبا موقرا معظما عند أهل السودان الشرقى مسموع الكلمة عند الولاة والحكام وافر الهيبة معززا فأرسل اليه مدعى المهدوية يدعوه الى لقائه ويشرح له كيفية مهدويته ويسأله الانضمام الى خلفائه هو ومن معه من المريدين ومشايخ الطرق ويستحثه على الخروج على عمال الحكومة وأجازه بمبايعة الناس وخاطبه بألقاب الامارة على السودان الشرقى جميعه فبعث اليه الطاهر بجماعة من مريديه يتقدمهم رجل اسمه عثمان دقنه بن أبى بكر دقنه وهو من التجار الكبار كانت له أملاك واسعة بسواكن وسواها فذهبت أمواله وبيعت أملاكه لاسباب سياسية لا محل لسردها هنا وكان عثمان دقنه هذا يحمل كتابا من الشيخ الطاهر الى الخارجى يقول فيه ان عثمان هذا من خيرة مريديه ومن أصدق أتباعه وانه من أولى العزم والحزم وانه أجدر بامارة شرقى السودان منه يعنى من الشيخ الطاهر وان الشيخ لا يأنف من أن يكون تابعا لافضل مريديه وانه سيكون هو مستشاره ومدبر أموره والناصح لسائر أتباعه بالقيام بنصرته وموازرته وأنه لم يكن من مانع من قبول منصب الامارة لنفسه سوى الشيخوخة والعجز عن الحركة التى يستلزمها هذا المنصب الخطير فلما وفد عثمان دقنه على الخارجى أكرم الخارجى وفادته وبالغ فى الاحتفاء به وسأله عن الحال فى شرقى السودان قيل فهون عليه وقال ياسيدى الناس طرا طائعون لك واهبون

اروا حهم

أرواحهم فى سبيل مرضاتك ومرضاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم جميعا على أهبة الغزو والجهاد فى الكفار قال ثم ماذا قال وأستاذى يقول ان الدولة قد عزمت على قهرك بارسال جيش جرار الى بربر عن طريق سواكن وهو يشير عليك بارجاعى للوقوف مع المجاهدين فى طريق ذلك الجيش وسد جميع المنافذ عليه حتى تتمكن من فتح الخرطوم ۞ قال الراوى ففرح الخارجى بمقالة عثمان دقنه وسرحه الى سواكن وكتب له كتبا الى سائر القبائل الضاربة هنالك يستصرخهم ويستفزهم الى نصرته ونجدته وانه قد أمر عليهم عثمان دقنه فيجب عليهم طاعته والعمل بمشورته فلم يصل عثمان الى بربر حتى علم رجال الحكومة بخبره وما جرى له مع الخارجى فأرسلوا خلفه من يقبض عليه فلم يفلحوا ووصل الى سواكن آمنا مطمئنا واجتمع بالشيخ الطاهر وسلمه كتب المهدى فجمع الشيخ سائر مريديه وأبناء طريقته ومن التف حولهم وقام فى وسطهم ومدّ يده الى عثمان دقنه وبايعه بالامارة فبايعه الناس كافة وترامت أخباره الى مصوع وكسله فدخلت جميع القبائل فى طاعته فجاء الامر الى محافظ سواكن بالقبض عليه وهو يومئذ فى سنكات فسير اليه توفيق بك مأمور طوكر فى ستين من الجند للقبض عليه ولم يكن محافظ سواكن يعلم من أمر جموعه ومن التف حوله من القبائل شيأ فلما صار توفيق بك ومن معه على مقربة من سنكات خرجت عليه قوم عثمان دقنه فقاتلهم وأصلاهم نارا حامية وتحصن داخل زريبة من الشوك وخندق وعمل متراسا عظيما وصار يدافع من ورائه ويصلى عدوّه بناره

وجاء الخبر الى القاهرة بظهور الفتنة أيضا فى شرقى السودان وخروج جميع قبائله عن طاعة الحكومة فبعد أخذ وردّ طويلين مع السير بارنج جاء الخبر من صاحب السياسة الانجليزية بارسال جيش لاستخلاص طوكر وسنكات من أيدى أصحاب الفتنة فاهتم لذلك الخديوى وجماعة الوزراء وجيشوا زهاء خمسة آلاف مقاتل ممن بقى من العسكر المصرى بعد حملة هيكس وبالغوا فى الاكثار من معداتهم وآلات حربهم وعقدوا لواء هذا الجيش الى محمود طاهر باشا أحد مقدمى العسكر على عهد الخديوى اسمعيل فسار بجيشه هذا يريد طوكر فعلم بخبرهم عثمان دقنه وتأهب للقائهم فى عدّة كثيرة من المقاتلة وكمن بهم فى منتصف الطريق بين طوكر والترنكتات فبينماهم سائرون خرج عليهم الكمين من كل صوب وحدب وداهمهم على غرّة فأوقع بهم ومزق شملهم فلم ينج غير مقدمهم محمود باشا ونفر قليل وغنم دقنه سائر ما كان معهم وعاد الفارّون الى سواكن فتبعهم العدوّ اليها وأحدق بها وجعل يتهددها وجاء الخبر الى القاهرة بما حل بجيش محمود باشا فأكبر الخديوى الأمر وأعظمه جدا وكبر قلقه أيضا على الخرطوم لترادف الاخبار يومئذ بما هى عليه من الشدة والضيق واقتراب دعاة الخارجى من أبواب البلد وكثر تردد السير بارنج على مقر الخديوى تارة وعلى ديوان الوزير نوبار باشا أخرى ثم لم تكن الا أيام حتى شاع الخبر بعزم الحكومة على ارسال جيش آخر معقود لواؤه لكبير من كبار عسكر الانجليز اسمه بيكر باشا فتطير الناس من ذلك وأيقنوا

(مطلب ارسال جيش لاستخلاص سنكات وطوكر)

عجز الدولة وعدم قدرتها على ارجاع الامور فى شرقى السودان أيضا الى ما كانت عليه وكأنما أراد صاحب سياسة الانجليز بارسال هذا الجيش استبقاء سواحل البحر الاحمر فى قبضة الحكومة المصرية الى حين حتى يتمكن هو من بسط سلطانه عليها وادخالها ضمن ممتلكات مملكتهم فخرج بيكر باشا فى أربعة آلاف مقاتل فلما بلغ سواكن أرسل يستميل بعض زعماء القبائل وبالغ فى استرضائهم والتودّد اليهم وأقام على هذه الحال أياما فلم يفلح فعمد الى مخابرة القبائل الضاربة بجهات مصوع لعله يجد بينهم من يشدّ بهم أزره فى فتح الطريق الى كسله ثم الى الخرطوم فلم يفلح أيضا وقد علم أن الطريق مابين مصوع وكسله كلها ادغال وغابات كثيرة المرابك والهلكات وأن الطريق الى الخرطوم أصعب من أن ترام فأخذ يتأهب للسير الى طوكر لانقاذها ثم لانقاذ سنكات فلما كان شهر ربيع الثانى من السنة أى سنة احدى وثلثمائة وألف خرج بعسكره من سواكن الى ترنكتات وسلك ذات الطريق التى سار فيها محمود باشا بجيشه فلم تكن الا مرحلة أو بعض مرحلة حتى انقض عليهم عثمان دقنه بخيله ورجله فاختل عندئذ نظام العسكر وفشلوا أىّ فشل وركن من فى الساقة الى الفرار وألقوا ما بأيديهم من السلاح فأثخن العدوّ فيهم قتلا وضربا حتى أفنى منهم زهاء الثلاثة آلاف وفرّ بيكر باشا ومن بقى الى ترنكتات وغنم عثمان دقنه سائر ما كان معهم من سلاح ومتاع ودواب وكانت واقعة من شر الوقائع وجاء الخبر بما جرى الى القاهرة فكثر صياح وعويل نساء الضباط فى بيوتهم وجلسوا للعزاء وكثر اللغط بأن هلاك هذا الخلق الكثير من العسكر والضباط انما كان بايعاز من الخديوى وجماعة الانجليز لغاية فى النفس واشتد القلق بالناس جميعا حيث أعقب هذه الواقعة سقوط سنكات أيضا وقتل من كان بها من العسكر مع توفيق بيك ذلك البطل المغوار مذبوحا ذبحا

وقد كانت عمت الفتنة سائر أطراف السودان وتفشت أيضا فيما حول الخرطوم من القرى والبلدان فأصبحت الخرطوم وهى مطمح نظر الخارجى يريد الانقضاض عليها بخيله ورجله ليقبض على ناصيتها حتى اذا ما علم ذلك فى شرقى السودان وغربيه وشماله وجنوبه دانت له البقية الباقية من زعماء بعض القبائل الموالين للحكومة فيخلو له الجوّ حينئذ وكانت عيونه تنقل له أخبار ما كانت عليه البلد من الشدة والضيق وما وصلت اليه الدولة من العجز ووهن العزيمة وزوال الهيبة فيزداد تحمسا وغرورا ويكثر من البعوث والدعاة ويرسل الكتب مشحونة بما حدثه به الخضر والياس أوما بشره به صاحب الشريعة الاسلامية وما أعده الله له ولاصحابه من الاسرة والكراسى فى جنات النعيم وغير ذلك من الخرف والهرف والبهتان على الله وعلى أنبيائه ورسله حتى افتتن الناس طرا واتسع الخرق وتعذر الخلاص وقد زاد الامر خبالا والطين بلة بما ورد على الخديوى من صاحب السياسة الانجليزية من وجوب ترك جميع السودان والتخلى عنه بما فيه من مال ومتاع وكراع الى الخارجى والاسراع بإجلاء من به من أصحاب الوظائف ومن بقى من العسكر ومن يريد

الجلاء من الاهلين أيضا فكان ما كان مما مر بك بيانه فى محله من تنحى الوزير محمد شريف باشا عن منصب الرئاسة وتولية الوزير نوبار باشا بدله وما وقع من اشتداد زعيم السياسة الانجليزية على الخديوى والوزير نوبار باشا وترادف طلباته وتباين بعضها لبعض حتى تولى غردون الولاية العامة على السودان ونال السلطة المطلقة عليه شرقا وغربا وذهب الى الخرطوم على ما وصفنا وكان من أمره وما وقع بعد ذلك ما سيتلى عليك فى بابه ان شاء الله تعالى

وصل

(فى هزيمة أخرى وكسرة كبرى)

لم يكن غردون ليتوقع الفشل الى هذا الحد بعد أن اعترف للخارجى بالملك والسلطنة على غربى السودان وبعد أن خطب فى الناس بما خطب من ترك البقايا من الاموال ومنع الجباية ثلاث سنوات واطلاق حرية التجارة فى الرقيق وغير ذلك من عبارات المجاملة والتلطف ولكن خانته الاقدار وسقط فى يده واختلط عليه الحال وفسد التدبير وقلت منه الحيلة وضاق عليه الفضاء بما رحب لاسيما وقد جاءته الانباء فى هذا الحين بفشل جيش جراهام وموت أكثر رجاله وقد كان يعتقد أن خلاصه وخلاص من معه مرهون على فوز هذا الجيش ونجاح غزوته * وتحرير الخبر أنه لما علم صاحب سياسة الانجليز بفشل جيش بيكر باشا ووقوع معظم رجاله فى قبضة عثمان دقنه على ما تقدم بيانه كبرت عليه هذه الخيبة وقد كان يرى أن فتح الطريق مابين سواكن وبربر أمر لابد منه لفائدة سلطنتهم فى مستقبل الايام فعمد الى ارسال جيش ثالث من رجالهم وصفوة أبطالهم ليتم له مايريد من فتح ذلك الطريق فجاء جراهام هذا على رأس ذلك الجيش الى سواكن فى العشرة الاخيرة من ربيع الثانى من السنة أى سنة احدى وثلثمائة وألف ومعهم الشئ الكثير من آلات الحرب ومعدات القتال وانحدروا من سواكن الى ترنكتات وسار ومعه بيكر باشا مقدم الجيش الذى أفناه عثمان دقنه قاصدين الالتقاء بدقنه وقد علم دقنه بوصولهم فتحصن فى التيب وخندق عليها وأحاط الخندق ببعض المتاريس ووضع عليها المدافع التى غنمها من محمود باشا طاهر وبيكر باشا وتأهب للدفاع فلما صار جيش جراهام على مقربة من التيب وشاهد جراهام ماهو عليه موقع العدو من المنعة والحصانة نادى فى عسكره بالزحف والهجوم فلم يفعلوا وجبنوا ثم ولوا الادبار فلحقتهم قنابل العدو وتساقطت عليهم تساقط المطر وفتكت فيهم فتكا ذريعا جدا فما زال بهم جراهام حتى لم شعثهم وأعاد صفوفهم وسار بهم ثانية حتى صار على مقربة من متاريس العدو ثم جعلوا يطلقون مدافعهم ويرسلون قنابلهم على المتاريس والعدو يشتد عليهم فى الرمى ويصليهم نارا حامية حتى انكشف نظام أحد جوانب الجيش وفعلت فيه

قنابل العدو فهم جراهام بتغيير شكل صفوفه ليدرأ عنهم تلك النيران الآكلة فأحس بذلك عثمان دقنه فلم يكن بأسرع من أن هجم بقومه عليهم من كل صوب وأعمل فيهم السيف وبقى الحال هكذا بضع ساعات من النهار ثم انفصل الفريقان فكانت القتلى من الجانبين لا تعد وتقهقر عثمان دقنه الى طوكر لعل جراهام يتبعه فيقع فى مخالب العطب فأدرك جراهام الحيلة ولم يغرر بعسكره * فلما تحقق غردون ما أصاب جيش جراهام كاد يذوب حزنا وأيقن أن الحيلة ضائعة وأن القضاء واقع لا محالة فرسم الى كبار عسكره بترميم الحصون وتحصين القلاع وشاع خبر ذلك وملأ الاسماع فاعتزل أصحاب الوظائف الديوانية من المصريين وظائفهم ونزلوا مع الكثير من التجار يريدون القاهرة فرارا من البلاء المنتظر وورد على غردون جواب الخارجى هادما لصروح أمانيه مفعما باللوم والتقريع وقارص القول ورد هدية غردون التى كان أهداها اليه على ما تقدم لك بيانه ومعها مرقعة من مرقعات الدراويش ﴿ قال صاحب كتاب السودان وأرسل يقول له ان أحسنت فى دنياك وآخرتك فعجل بترك الكفر واعتنق الاسلام دينا والبس هذه المرقعة التى هى لباس الزاهدين فى الدنيا الراغبين فى الآخرة ولا تكن سببا فى اراقة الدماء واعمل كما عمل غيرك من الولاة والحكام فغضب غردون غضبا ماعليه من مزيد وكبر عليه أمر ذلك جدا * وكان الناس الى ذلك اليوم لايعرفون حقيقة بعثة غردون ويجهلون نوايا دولة الانجليز فى شأن السودان المصرى ولا يدرون ما اذا كان الخديوى مطلق اليد فى التصرف فى بلاد هى ينبوع حياة مملكته وأم نيلها العظيم أو أنها خرجت من قبضته بحكم لا راد له ولا مانع فيه فدلهم يومئذ تخبط غردون وخلطه وعدم حضور عسكر من الانجليز كما كانوا يتوهمون على أن صاحب سياسة الانجليز لم يبعث غردون الا ليعمل على ترك السودان للخارجى حينا حتى اذا تم لهم مايريدون من التحفز للوثبة انقضوا على ذلك الخارجى بخيلهم ورجلهم وانتزعوها منه أو من خليفته من بعده وضموها الى أملاكهم فى هذه القارة السوداء وأضخموا بها جسم سلطنتهم الواسعة وهى غاية فى نفسهم طالما تمنوها حتى مهد لهم رجالهم الاسباب وفتحوا لهم بحسن كياستهم مغالق تلك الابواب بأن أوقدوا نار الثورة العرابية فى جوف القطر المصرى ونفخوا فى ضرام نار الفتنة المهدوية فى جوف السودان وأدنوا لهم فى القريب العاجل من الايام مالم تكن لتناله سلطنتهم فى البعيد من السنين والاعوام

وكثرت كتب محمد بن البصير داعية الخارجى فى أرباض الخرطوم الى غردون مفعمة بالسباب واللعن والحط من قدره وتهديده بالويل والثبور وعظائم الامور ان لم يعجل بالتسليم بغير ذمة ولا عهد وظل الحال على ذلك أياما كاد يهلك فيها غردون كمدا ﴿ قال صاحب كتاب السودان فاجتاز غردون النيل الازرق الى قصر راسخ بيك وأرسل احدى عشرة رسالة برقية الى السير بارنج بمصر يخبره بما وصلت اليه حالته ويقول ان العدو على وشك الزحف للاحاطة بالبلد وان اسلاك البرق انقطعت قبل أن يتمكن من مخابرته ثانية وأرسل

كذلك الى الخديوى والوزير نوبار باشا فأجابه السير بارنج بما معناه — انى لم أفهم ما تضمنته رسائلك الاحدى عشرة فأعلمنى بقصدك بعد التفكر الطويل — على أن كل ما فى تلك الرسائل كان يتضمن استنهاضهم الى ارسال النجدة وحفظ الاتصال ما بين دنقله وبربر — قال — ولعل السير بارنج كان يقصد بقوله لم أفهم ما معناه — ياغردون انك لاتجهل أن مقاصد حكومة جلالة الملكة غير الذى أنت تطلبه فلذا لم أفهم منك هذه الطلبات حيث انك لا تجهل انها لا تتحول عما عقدت النية على تنفيذه — قال — وفى تلغراف غردون أن الاسلاك البرقية على وشك الانقطاع وأنه من المتعذر بعد هذه الفرصة وصول أخباره الى القاهرة فكانت اشارة السير بارنج بمخابرته بعد التفكر أمرا فى غاية الصراحة بعدم لزوم المخابرة حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا اه ﴿ قلت وهذه كانت صفوة الغرض من الممانعة فى نجدة عبد القادر باشا عند ما كان يقاتل الخارجى واتهامه بشق عصا طاعة الخديوى والاستقلال بحكم السودان ثم استقدامه على غرة بعد أن كاد يقضى على الفتنة فيما وراء الدارفور وعاد بعيد ذلك غردون الى استعطاف السير بارنج اذ كتب اليه يقول ليس فى الامكان إجلاء أصحاب الوظائف من المصريين بمن معهم من العيال الا أن تفتحوا لى الطريق التى قلت لكم عنها فردّ عليه ردا كله مماحكة وفيه شئ من الامانى وفى كل عبارة يحضه على التروّى وطول التأمل أى كأنه يقول ما بالك لا تفقه ما أسره اليك صاحب سياستنا ومالك تطلب المدد ونحن على غير ذلك من العهد معك * حدثنى صاحب لى خبير قال كانت فعال السير بارنج فى هذه الظروف الحرجة تقضى بالعجب العجاب فانه بينما كان عنى غردون بالمدد و يعده بقرب وصول النجدة اليه كانت رسائله ترسل تباعا الى عاصمة الانجليز بأن فتح الطريق بين سواكن وبربر بطائفة من فرسانهم كطلب غردون ضرب من الحماقة كما أن ارسال جماعة من عسكرهم الى اسوان ووادى حلفا لتأمين السبل وتسهيل الجلاء عن الخرطوم كما يشير غردون لامعنى له البتة ولا هو من حسن السياسة فى شئ فكانت كل هذه الاحاجى والمعميات قاضية على حياة غردون وحياة الآلاف المؤلفة من الرجال والنساء والاطفال فى الخرطوم وأرباضها ولا ذنب لهم غير الارتكان على عزيمة الحكومة المصرية وحسن ظنهم بأصحاب الحل والعقد بها فتأمل

ورأى غردون كثرة مناوشة العدوّ للجند والعسكر المرابطين بالخرطوم وتحقق من دخول سائر سكان الضواحى فى طاعة الخارجى وخروج جميع السود من سكان البلد الى معسكر ابن البصير داعية الخارجى والانضمام اليه فأكبر الامر جدا وكان العدوّ قد جعل مركز حركاته فى الحلفايا على قيد بعض فراسخ من الخرطوم وقد تحصن بها فأمر غردون بخروج طائفة من العسكر لطرد العدوّ من حلفايا واجلائه عن الضواحى المتاخمة ﴿ قال صاحب كتاب السودان خرج من الجند لذلك يعنى لطرد العدوّ ثلاثة آلاف من الباشيبوزق وألفان من المنظمين وعقد لواء هذا الجيش الى السعيد حسين الجمعاتى وحسن ابراهيم الشلالى

ابن عم يوسف باشا الشلالى وكلاهما من جماعة النخاسين - قال - والسعيد حسين هذا من أسافل القوم وزعانف الجيعات وقد كان غردون عند وصوله الى الخرطوم قد ولاه الامارة على جماعة الباشيبوزق وأعطاه رتبة الباشوية كما أعلى مقام غيره من زعانف السود وزعر النخاسين رجاء استمالة القلوب اليه والعمل على مرضاته فسارت الجنود الى حلفايا فلم تكن الا ساعة أو بعض ساعة حتى فشلوا وولوا الادبار فركب العدوّ أقفيتهم وأعمل فيهم السيف حتى أفناهم أو كاد وقد غرر بهم السعيد حسين وحسن ابراهيم الشلالى * فلما دخل من بقى المدينة حزن غردون حزنا شديدا قيل وبكى بكاء مرا وأمر فى الحال بمقاضاة السعيد حسين فكان ذلك وحكم عليه بالقتل فلم يكد يخرجونه من محبسه حتى هجم عليه جماعة من العسكر وقتلوه بطعن الحراب ووخز السنك وقيل بالمعاول * وخرج محمد الخير الفقيه المدرس وهو ممن كانت تجلهم الحكومة وتعطيهم المرتبات والجا كى فى كل شهر وانضم الى أصحاب الخارجى وقد كان جاءه كتاب من الخارجى يقول له فيه إما أن تنضم الينا أو تنضم الى عدوّنا والله يحكم بيننا * ووفد محمد الخير على الخارجى بالابيض فأكرم الخارجى وفادته وولاه الامارة على بربر ودنقله ورسم له بالجهاد والغزو فقدم الى بربر مثقلا بالهدايا التى أهداه اياها الخارجى فلما صار على مقربة منها أرسل الكتب يدعو الناس اليه فى المتمة فانسلوا اليه فدعاهم الى بيعة الخارجى فرأى منهم تباطؤا فوقف بينهم وقال يا قوم أشهد الله وملائكته أن صاحبنا هو المهدى المنتظر فاذا لم يكن المهدى فخذوا بلحيتى هذه بين يدى الله عز وجل وقولوا هذا أضلنا سواء السبيل * قال الراوى فصدقه الناس وبايعوه على طاعة المهدى وقتال الدولة والغزو فى الكفار فسار بهم لقتال المرابطين فى شندى وكان بها جماعة من الباشيبوزق زهاء الثلثمائة فعلموا بعزمه وهموا بالخروج من معاقلهم والالتحاق بمن هم فى بربر فلم يمكنهم محمد الخير من ذلك وكبسهم بخيله ورجله وأعمل فيهم السيف حتى أفناهم جميعا وغنم ما فى البلد من مال ومتاع ومنع أصحابه من سبى الذرارى ونساء المصريين كما كان الخارجى يفعل وقال حرام أن يمسسن بسوء ثم سار بلمومه يريد قتال من فى بربر من المرابطين فحاصرها أياما ثم فتحها عنوة وأعمل فيمن بها السيف وغنم سائر ما فيها وكان مما غنمه شئ من متاع غردون كان قد ورد اليه من القاهرة وطير الخبر بما جرى الى الخارجى ففرح بهذا الفتح فرحا عظيما وأرسل الى محمد الخير يقول عجل بفتح دنقله واقطع الطريق على من يقدم عليك من مصر وجاءت الاخبار الى غردون بسقوط المتمة وبربر فأيقن أن كل سعى فى الخلاص باطل لاسيما وقد جاءه الخبر بعيد ذلك بأيام بقيام الخارجى من الابيض الى الرهد فى لمومه الكثيرة وأن أبا قرجة وابن البصير على عزم الزحف على الخرطوم وفتحها

فلما خلت العشرة الاولى من رجب سنة احدى وثلثمائة وألف سار أبو قرجة فى لموم كثيرة حتى نزل على قرية الجريف القريبة من الخرطوم فباتوا ليلتهم وأصبحوا وقد دقت

طبولهـم ودنوا من حصون الخرطوم وجعلوا يراسلون الرمى عليها بالقنابل واشتدوا فى ذلك شدة بالغة فلم تجاوبهم الحصون فما زالوا يقتربون منها حتى صاروا على أدنى من رمية قوس وكانت عساكر الحصون قد ألغمت الارض بالبارود والمقذوفات النارية فلما توسط أصحاب أبى قرجة مكان الالغام أوقد العسكر فيها النار فالتهبت وتفرقعت وفتكت بالعدوّ فتكا تشيب من هوله النواصى وتغطت الارض بالاشلاء والمشامش فكان المنظر مريعا مزعجا وعاد أبو قرجة بمن بقى معه الى الجريف ﴿ قال صاحب كتاب السودان وكثرت يومئذ الاحزاب حول الخرطوم وتواردت الدعاة على أرباضها فرأى غردون أن يدفعهم عنها ويناوشهم القتال كل قليل حتى لا يتكامل عددهم وعددهم ويستفحل أمرهم فرسم الى محمد على بيك أحد كبار الجند بالخروج لقتالهم فخرج فى عدة من الباشيبوزق والعساكر المنظمة مع بعض المدافع وسفن النقل وسار الى الجريف وقاتل من بها فظفر بهم ومزق شملهم وملك حصونهم ومتاريسهم وقتل منهم خلقا كثيرا وغنم ما فى معسكرهم من المؤن والذخائر واحتمل عسكره شيأ كثيرا من الاقوات ثم سار الى الحلفايا فأصلى من كان بها نارا حامية وكانوا جماعة من الدعاة وزعماء القبائل فخرجوا على وجوههم هائمين وقتل كثير من رجالهم وهدمت عساكره حلفايا ودكتها دكا وحملوا أخشاب دورها الى الخرطوم وجاء الخبر بما جرى الى مدعى المهدوية فانزعج وحزن حزنا ما عليه من مزيد وأرسل رسله تستصرخ القبائل وتستفزهم*ثم ان محمد على بيك سار الى أبى حراز فخرج أهلها على وجوههم فأباحها للعسكر ثم سار الى العلفون على النيل الازرق وكان بها الفارّون من نيران عساكره وقد أمّروا عليهم شيخا اسمه مضوى فلما أحس الشيخ بمجىء محمد على بيك استصرخ القبائل المجاورة ومن لم يخرج الى ذلك الحين من أهل الجبال فالتف حوله زهاء عشرة آلاف فقاتلوا عسكر محمد على بيك قتالا عنيفا فاشتد عليهم محمد على بعسكره حتى هزمهم شر هزيمة وفرّ من بقى الى الجبال وفرّ مضوى فى مائتين من الفرسان ولحق بأم ضبان وهنالك جمع من تفرق من أصحابه ولبث ينتظر ما سيكون ولما تم الى محمد على بيك النصر وفاز بالغلبة والظفر أرسل جواسيسه الى أم ضبان ليأتوه بخبر من بها من العدوّ فغابوا أياما ثم عادوا يقولون انه ليس فى البلد من القوم الا العدد القليل مع شيخ اسمه العبيد وان التعب قد أضناهم وكاد يقعدهم عن الحركة * وكان الجواسيس قد التقوا بالشيخ العبيد فاستمالهم بالرشا والبراطيل حتى مالوا اليه فأسر اليهم أن يخدعوا محمد على بيك ليجذبوه بعساكره الى الاحراش والغابات كى يتمكن هو ومن معه من البطش بهم فلما أعلموا محمد على بيك بخبر قلة العدوّ وما هو عليه من الجهد زحف بعسكره ومتطوّعته وكان قد لحق به كثير من المتطوعة من أهل الخرطوم طمعا فى إحراز الغنائم من الاقوات لانهم كانوا فى حاجة اليها فلم يبلغوا منتصف الطريق حتى خرج عليهم كمينان من وسط الغابات أحدهما من خلفهم والثانى من أمامهم وداهماهم على غرّة ففشلوا وتمزق عقد نظامهم وأثخن فيهم العدوّ فقتل محمد على بيك وسائر

من معه من مقدمى العسكر ولم ينج الا بضع عشرات عادت بهم السفن الى الخرطوم وما انتشر نعى القتلى حتى ضجت البلد بالعويل والبكاء من كل صوب ودرب وحزن غردون حزنا عظيما وكاد يستسلم للقضاء المحتم وقد جاءته أخبار جواسيسه بزحف الخارجى على الخرطوم فنظر فلم ير أمامه بابا يلجه فى طلب النجدة الا استعطاف السير بارنج بمصر لعله يفرج كربته بنفر من العساكر الانجليزية سوى ارسال الكولونيل استيورت الذى كان فى ركابه من الخرطوم الى دنقله ومنها الى القاهرة مزوّدا بالرسائل والكتب بطلب النجدة فانحدر استيورت هذا من الخرطوم على احدى البواخر فى أخريات ذى القعدة من السنة أى سنة احدى وثلثمائة وألف وتبعه باخرتان تحملان بعض المقاتلة وانحدر معهم كذلك نفر من المهاجرين يريدون اللحاق بدنقله فبينماهم فى طريقهم خرج عليهم العدوّ وجعل يطلق عليهم بنادقه وهم يجدّون المسير حتى وصلوا بربر فرجعت باخرتا الحرس بمن فيها من المقاتلة وانطلقت سفن المهاجرين تمخر فى النيل وخلفها باخرة استيورت تشق عباب الامواج والعدوّ من ورائها وعلى يمينها وعلى شمالها يطلق عليها نيران البنادق الى أن قطعت الشلال الاول واستيورت يحث ربانها على الاسراع فى المسير أكثر فأكثر حتى ارتطمت بصخر عظيم ولم تكن الا لحظة حتى دخلها الماء وملأ جوفها فانزعج استيورت ولم يوفق لنكد طالعه الا الى القاء المدفع الذى كان معه وسائر الذخرة فى الماء وأنزل متاعه فى زورق وسار به مع من كان معه من الخدم والاتباع الى جزيرة فى وسط النيل ونزل بها فأشار عليه بعض من كان معه أن يسير بالزورق الى حدود دنقله ثم يرسل من يحمل الخدم والاتباع فامتنع من ذلك ولم يقبل لنفاذ القدر المقدور وبيناهم فى تردّد وحيرة اذ أقبل عليهم جماعة من أهل السلامانية ونادوا بأنهم فى طاعة الحكومة وأنهم على عهد الخديوى فأرسلوا لنا بنفر منكم لنتكلم معهم فصدّق استيورت كلامهم وأرسل اليهم جماعة من الأتباع وملاحى البارجة فعبروا النيل والتقوا بأولئك القوم وسألوهم عما اذا كانوا باقين على الطاعة فأقسموا أنهم على ذلك فعاد رسل استيورت وأخبروه بالخبر وباتوا ليلتهم تلك بالجزيرة فلما أصبحوا جاء اثنان من القوم يقولان لاستيورت ان شيخ القرية قد عاد من غيبته وعلم بما أصاب باخرتكم فجهز لكم ما يلزم من دواب الحمل وهى فى انتظاركم بالجانب الشرقى من النيل فان شئتم فاعبروا وامتطوها وسيروا على بركة الله — قال ففرح استيورت بذلك وعبر مع من كانوا معه وهم زهاء خمسة وأربعين ونقلوا متاعهم فلم يجدوا غير سبع من النوق ضئيلة فقالوا لهم ان الفرق آتية الساعة فلبثوا فى انتظارها حتى قريب الزوال وبينما هم كذلك اذ جاء رجل من أهل القرية يقول لاستيورت ان الشيخ أعدّ لكم طعاما فهيا كلوا واشربوا هنيأ مريئا فقام استيورت من ساعته ولبس ملابسه كأنه ذاهب الى وليمة أحد الاصدقاء ولم يأخذ لنفسه شيأ من الحيطة أو الحذر وسار معه قونصلا النمسا والفرنسيس اللذان نزلا معه من الخرطوم وترجمانه فلاقاهم أهل القرية بالترحاب وبشوا فى وجوههم وأدخلوهم فى مكان فسيح كان فيه

خمسون رجلا فى زىّ السيارة فرحبوا بهم وهنؤهم بالسلامة ثم انصرفوا عنهم لحظة لطيفة وعادوا فانقضوا على استيورت والقونصلين وأغمدوا فى رقابهم السيوف وذهب جماعة من القرية الى شاطئ النيل وأعملوا السيف فيمن كانوا هنالك حتى أفنوهم جميعا وأخذوا كل ما كان معهم من متاع وأوراق وكتب غردون التى كان استيورت يحملها وأرسلوا بجميع ذلك الى الخارجى ـ قال ففرح الخارجى بها فرحا عظيما وأمر فدقوا البشائر وطير الخبر بذلك الى غردون وعرض له بذكر ما فى كتبه التى كان استيورت يحملها ودعاه الى الطاعة والدخول فى عداد الدراويش فحزن غردون حزنا شديدا وأيقن أنه لم يبق فى طاقته دفع هذا المقدور وتحقق الناس طرا أن الخرطوم ساقطة لا محالة وأن جميع من بها هالك ولا شك وقد كانوا أحصوا من بها من المصريين فقط فكانوا مائتى ألف فلا حول ولا قوة الا بالله

(ملطب) اشتداد الحال على بربر ومن بها

والى هذا الحين كانت قد اشتدّت الحال على بربر وضاقت ذرعا بأمرها ووصل اليها دعاة الخارجى وضيقوا عليها المسالك وأمسكوا عليها الاطراف فجعل من بها من المرابطين وأهل البلاد يصيحون المدد وكتبهم تأتى الى مقر الخديوى وديوان الوزير نوبار باشا وقد أرسلوا يوما عريضة على لسان البرق تشتمل على عبارات تؤلم الفؤاد وتفتت الاكباد فما جاء فيها قولهم هل من العدل أن نترك فريسة للعصاة ضحية سوء سياستكم يا أصحاب الامر أين العاطفة الانسانية والشهامة والحمية أين منا جرائد لوندره وجمعياتها المزرية بالاسترقاق ما بالها أغفلتنا وقد باعنا رجالها للهلاك بفساد سياستهم وها نحن نحسد الارقاء فانهم آمنون على حياتهم ونحن لا نأمن على الحياة والعرض والمال فأين الدولة البريطانية العظمى التى وعدت وصرحت برغبتها فى انقاذنا وانتشالنا مما ألمّ بنا ما بالها لا تتقدم الى وفاء الوعد والقيام بالواجب قبل انقضاء الاجل وهل تمدّ يد المعونة بعد أن نذوق حتفنا فتقيمنا من القبور أو كيف وما القصد والداعى الى تقاعدها وتهاملها بل ما كان الموجب لاسترجاعها عساكرها بعد حلولها فى سواكن واعلان عزمها على كشف الضيق الحائق بنا أما نحن فلا نستمد الفرج من انجلترا وحدها بل نلتمس اسعافنا بالقوة من أية دولة كانت فان القصد الوحيد انقاذنا من الموت الزؤام وحفظ أعراضنا وأموالنا فالمدد المدد يا أولياء الامر المدد اه * فصاح حينئذ لصيحتهم هذه أصحاب صحف الاخبار المحلية وجعلوا يقرّعون الهيئة الحاكمة وينحطون عليها باللائمة وهى لا تقدر على نجدة أهل بربر ولا على مكالمة صاحب سياسة الانجليز فى ذلك بعد الذى تحقق لها من اشتداده فى طلب اخلاء السودان جميعه من المصريين ومن معهم مهما بلغت الضحايا وعظمت الرزايا *وأخذت الخديوى آخذة من الغمّ فجمع اليه سائر الوزراء وبينهم الوزير محمد شريف باشا ومصطفى رياض باشا وخيرى باشا وعمر لطفى باشا وثابت باشا ومحمد سلطان باشا وتناجوا فيما عليه أهل بربر فبعد أخذ وردّ ظهر عجزهم عن نجدة القوم وأن الجلاء عن بربر خير من البقاء فاشتدت جلبتهم وطال بينهم الجدال فأخذت أحدهم عند ذلك « ولعله الوزير محمد شريف باشا »

هزة الغضب فقال ما بالكم تقولون غير ماتفعلون وتطلبون ما أنتم عن ادراكه عاجزون وكأنكم تجهلون أو تتجاهلون أنكم أمسيتم كالريشة أمام مهب الريح ازاء وزير السياسة الانجليزية لا تملكون من أنفسكم ولا من أموالكم وعيالكم شيأ منذ احتلت جنودهم البلاد وهاكم كتب صاحبهم ناطقة بذلك ومشيرة الى ما هنالك فعلام هذا الاجتماع والام نتغافل ونتعامى عن الحقائق ۞ قال الراوى وبينما هم على هذه الحال اذ جاءهم الخبر بأن داعية الخارجى فى أرباض بربر أرسل كتابا الى حسين باشا خليفة مدير بربر يدعوه الى التسليم هو ومن معه من المرابطين وأهل البلد فامتنع فنادى داعية الخارجى عند ذلك فى عسكره وجوعه بالتأهب لحصار البلد ومنع الوارد عنها حتى يسلم من فيها أو يموتوا جوعا فأكبر الوزراء الامر جدا وأرسلوا فى الحال الى صاحب السياسة الانجليزية يسألونه عما يفعلونه فجاءهم الجواب بأن لانجدة الا بعد أربعة أشهر يعنى ابان الشتاء فانفض مجلسهم يومئذ على ذلك * وكتب الوزير نوبار باشا الى حسين باشا خليفه يقول ان قدرت على الدفع فادفع عن نفسك والا فانحدر عن معك والسلام فلم تكن الا أيام قلائل حتى شاع الخبر بقيام سائر القبائل المتاخمة لبربر الى نجدة أصحاب الخارجى على قتال من فى البلد وانضمام بعض المرابطين اليهم أيضا وكان من وراء ذلك ما سيتلى عليك فى محله والامر لله من قبل ومن بعد

وصل

(فى سقوط أم درمان والخرطوم وماجرى بعد ذلك)

لما وردت أخبار النصر على الخارجى تباعا من كل صوب وحدب تقوت عزيمته واشتد ظهره فرسم الى عبد الرحمن ولد النجومى صاحب الراية البيضاء الذى سبق الكلام عليه بالزحف على الخرطوم ومعه ستون راية يتبع كل راية زهاء ألف مقاتل خاضعين الى أمير وهذا الامير خاضع الى ولد النجومى وانضم الى جيش ولد النجومى أيضا عبد الله بن النور فى عشرين راية أخرى ومعه بعض المدافع التى غنمها من المصريين ۞ قال صاحب كتاب السودان ونادى مناديه فى الناس من شاء الغزو والجهاد فى الكفار فليلحق على بركة الله بجيش ولد النجومى فخرج الناس أفواجا أفواجا من الاحرار والعبيد فبلغت بهم عدة الجيش زهاء ستين ألفا وبينهم عشرة آلاف من الجنود السود بالبنادق ونحو عشرة آلاف فارس مدججين بالسلاح فوصل هذا الجيش العرمرم الى بلدة الجريف فى أخريات ذى القعدة من السنة أى سنة احدى وثلثمائة وألف ونزل بها ولد النجومى أياما حتى تكامل عسكره فقسمهم الى ثلاثة معسكرات وشاد القلاع وأقام الحصون وحفر الخنادق وأنشأ المتاريس وسلم الى مقدمى العسكر مواقع الدفاع ومفارق الطرق وأرسل الى غردون يدعوه

الى التسليم ويحذره من عاقبة الامتناع ــ قال ــ وتراجع أيضا المنهزمون من جماعة أولاد الشيخ العبيد وعسكروا فى الحلفايا كما كانوا واحتفروا الخنادق وعملوا المتاريس فكانت مقذوفاتهم تصل الى منازل المدينة يعنى الخرطوم وشوارعها وتلحق الضرر بالسكان وتميت كثيرا منهم فى كل يوم ولبث الحال على هذا المنوال الى أوائل المحرم افتتاح سنة اثنتين وثلثمائة حيث زحف الخارجى فى جيش عظيم قيل انه يبلغ زهاء الستمائة ألف مقاتل يريد أم درمان فلما صار على مقربة منها أرسل جواسيسه فدخلوا الخرطوم ولم يشعر بهم أحد وصاروا ينشرون كتب الخارجى بين الناس وكلها حض وتحريض على شق عصا الطاعة والاجتماع على نصرته وألقوا بشوارع البلد من تلك الكتب شيأ كثيرا * وأقام الخارجى بمكانه حتى تكاملت لمومه فرسم لهم بالهجوم على أم درمان وكان بها جماعة من العساكر المصرية والعساكر السود فهجم القوم عليها فى أوائل النصف الثانى من المحرم هجمة قوية فقابلتهم الجنود بنار حامية واشتدت عليهم برمى القنابل فتراجعوا عنها خاسرين وقد مات منهم خلق كثير فكبر الأمر على الخارجى ونادى فى قومه بالقتال ثانية فقاتلوا قتالا شديدا حتى ملكوا من البلد بعض المواقع الامامية ثم حاصروها حصارا شديدا الى آخر ربيع الاول فنفد ما كان عند الحامية من المؤن ولم يبق عندهم شئ يقتاتونه فسلموا الى صاحب المهدوية باشارة من غردون فأحسن الخارجى معاملة كبارهم واستخدمهم فى مصاف جيوشه

فلما سلمت حامية أم درمان وشاع خبر ذلك بين من بالخرطوم من العساكر والاجناد وهنت عزائمهم وظهرت عليهم علامات الضجر وزاد الامر شدة نفاد ما فى المخازن والاشوان من المؤن والغلال وعدم امكان الحصول على شئ منها من الخارج لاخذ العدو باطراف الطرق فتفشت المجاعة بأسرع ما يكون واشتد الجوع بالناس فصاروا يقتاتون ورق اللوبيا العفنة كانوا يطبخونها ويلعقونها ــ قال ــ وكان قوت الحامية من الصمغ مخلوطا مع جمار النخل وقد شوهد أن الذين يقتاتون هذه الاصناف يصابون بالاسهال وتظهر على وجوههم اعراض تشبه اعراض مرض اليرقان ثم تتناقص قواهم الجسمية فى مدة ثلاثة أيام وتعقبها اعراض الموت ــ قال ــ ومن غرائب مارأينا فى حصار الخرطوم أن صيادى السمك قبل الحصار كانوا يصطادون فى كل يوم نحو ألف قنطار من الاسماك ولما بدأ الحصار انقطع وجود الاسماك كأنها فرت من فرقعة البنادق وهزيم المدافع حتى ان غردون اشتهى سمكة يتغذى بها قبل سقوط الخرطوم بأربعة شهور فلم يتيسر الحصول عليها وكما أن الاسماك هجرت شواطئ الخرطوم فان أراضى بساتين المدينة التى كانت تقوم بحاجة سكانها من البقول والفاكهة أصبحت فى إبان الحصار وقد تلفت كل مزروعاتها ولم ينبت فيها شئ من البقول وذبلت أشجار الفاكهة وتلاشت محصولاتها ــ الى أن قال ــ وكانت أسعار الاقوات فى البلد حتى سقوطها كما يأتى ثلاثون ريالا ثمن الكيلة من الغلة وعشرة ريالات ثمن الاقة

البقسماط وخمسة ريالات ثمن الاقة من اللحم البقرى وكان بعض السكان يذبحون الحمر الاهلية والحكومة تعاقب من يرتكب ذلك اهـ * واختل نظام الجند بالخرطوم فتمردوا على كبارهم وساروا عصابات تعيث فى البلد وتسطو على باعة الاقوات وتخطف كل ما هو معرض للبيع ولحق جماعة كثيرة منهم بالخارجى عند أم درمان هربا من الجوع وكان غردون مع كل هذه الكروب يظن أنّ صاحب السياسة الانجليزية ربما يكون غير أو بدل من أسرار سياسته فيعمد الى ارسال حملة لخلاصه فأعد لاستطلاع طلع هذه الحملة الموهومة تسع بواخر مدرعة كانت الى ذلك الحين تناوش العدو وتأتى بالمؤن الى الخرطوم من القرى فسير بهذه البواخر الى المتمة وبربر ولكن على غير طائل * وكان يضرع الى الله تعالى أن يقرّب عودتها حاملة أخبار تلك الحملة وظل على هذه الحال أياما ثم يئس وقنط وتولاه الحزن والاضطراب فكان لا يستقر له قرار لا فى الليل ولا فى النهار وكان يغدو ويروح بين الحصون والقلاع يشدّد عزائم الجند بلين الكلام ويحضهم على الامانة والاخلاص وكان كلما رآهم وهم يتألمون من وخز الجوع يذوب حسرة وتوجعا ويقول كيف يهدأ بالى وها هى جنودى تقاسى ألم الجوع ومرّ العذاب قيل وكان يقضى اليوم والليلة لا يذوق الا الشئ اليسير من الطعام وأكل جمار النخل أياما حتى أضناه وكاد يودى بحياته * وكانت كتب الخارجى ترد عليه كل قليل يدعوه بها الى التسليم وترك العناد و يقول له فى بعضها ان الانجليز ان قدموا لنجدتك فلا يصلون اليك ولا يكون حظهم الا كحظ يوسف الشلالى وهيكس ۞ قال صاحب كتاب السودان وكتب المهدى ثلاثة كتب الى غردون

نص الاول منها — بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد فمن العبد المعتصم بمولاه محمد المهدى بن عبد الله الى غردون باشا هداه الله الى طريق النجاة قبل أن يتلاشى آمين نعلمك أن جوابك ردّ المحرر منا وصل الينا وفهمنا مضمونه وقد عذرناك على عدم إذعانك واجابتك لنا بالطاعة كما طلبنا منك وذلك لانك لم تدر الحقيقة التى نحن عليها وتحسب مقامنا ودلالتنا على الله وشفقتنا على عموم خلق الله حتى من هو مثلك ولكن لم يطب قلبنا بصرف النظر عنك ولا زلنا ندارجك عسى الله أن يهديك الى سواء السبيل فأجب داعى الله واغتنم سلامتك من الشر الوبيل فقد رأيت ما حل ونزل ولا زلت ترى ولا طاقة لك ولا لأعوانك بحرب جند الله عز وجل وقد ذكرت أن عبد القادر ولد أم مريوم حبيبك وتقبل قوله ونصيحته وتطلب ارساله لك فعلام ذا هل أنت منيب الى الله وقصدك التسليم لنا على يد المذكور أم أنت على تصميمك على اعراضك ومعاداتك لربك فأفدنا على هذا لنعلم طلبك له على أىّ الوجهين ونرسله لك ان رأينا فى ذلك صلاحا للدين وأقول لك ان عزة الاسلام خير لك وأبقى لدوام احترامك فى الدارين فتحلّ بها ان عقلت والسلام

قال — والكتاب الثانى بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله المولى الكريم والصلاة

على

على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد فمن العبد المفتقر الى الله المعتصم به محمد المهدى ابن عبد الله الى غردون باشا أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فان أعرضت كان عليك إثمك وإثم من معك فقد أتى الخبر عن الرسول صلى الله عليه وسلم أن الجردة الآتية لو كان معي أمامها ستة أنفار تموت أو خمسة تموت أو واحد يموت أو وحدى كذلك ولو كانت مثل ورق الشجر ونبت الوعر وموج البحر وقد أتانى خبرها تموت أيسر من موت جردة ولد الشلالى وهيكس وسأملك المديريات الغربية كلها والبحر الابيض وكذلك موعود بجميع البلاد فالامر لله وما دام أن الله القادر أيدنى بالكرامات والنصر فلا يضرنى انكار منكر وانما يضر نفسه فقط والامر الذى وعدت به من رسول الله صلى الله عليه وسلم جار على أن الجردة التى تعتمدونها مالها وجه يوصلها لكم لسدّ الانصار الطرق فان أسلمت وسلمت فقد عفونا عنك وأكرمناك وسامحناك فيما جرى منك وان أبيت فلا قدرة لك على نقض ما أراده الله وسترى والسلام اه * تحشية ـ وان طلبت زيادة بعد وصول جوابى هذا فتخبرك المرأة الواصلة اليك وان رأيت التمكين واليقين ان أردت التسليم أكثر من هذا الجواب فسنرسل لك عبد القادر ولد أم مريوم لزيادة الطمأنينة فى الامان ولا مانع وبذا لزمت التحشية اه بنصه

قال ـ والكتاب الثالث بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله المولى الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد فمن العبد الفقير الى الله محمد المهدى بن عبد الله الى غردون باشا وقاه الله كل شر لاشى فان أراد الله سعادتك وقبلت نصحنا ودخلت فى أماننا وضماننا فهو المطلوب وان أردت أن تجتمع على الانجليز الذين أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بهلاكهم فنوصلك اليهم فالى متى تكذبنا وقد رأيت ما رأيت وقد أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بهلاك من فى الخرطوم الا من آمن وسلم يحميه الله ولذلك أحببت لك أن لا تهلك مع الهالكين لانا قد سمعنا مرارا أن فيك الخير ولكن قد كاتبناك للهداية والسعادة فما أجبتنا بكلام يؤدّى الى خيرك كما نسمعه من الواردين والمتردّدين والآن ما أيسنا من خيرك وسعادتك ولما سمعنا من الفضل فيك سنكتب لك آية واحدة من كتاب الله عسى أن تتيسر هدايتك بها اذ جعلنا الله باب الرحمة والدلالة الى الله ولذلك طالما كاتبناك لترجع الى وطنك وتحوز فضيلتك الكبرى ولا تيأس من الفضل الكبير أقول لك قال الله تعالى ـ ولاتقتلوا أنفسكم ان الله كان بكم رحيما والسلام * وقد قلت فى جوابك الذى أرسلته الينا ان الانجليز يريدون أن يفدوك وحدك منا بعشرين ألف جنيه ونحن نعلم أن الناس البطالين يقولون كلاما كثيرا ليس فينا وذلك ليصدوا من أراد الله شقاوته ولا يعلم نفيه الا من اجتمع بنا وأنت ان قبلت نصحنا فبها ونعمت والا فان أردت أن تجتمع بالانجليز فبدون خمسة فضة نرسلك اليهم والسلام اه بنصه

﴿ قلت وقد عثرت على صورة كتاب آخر من ذلك الخارجى الى غردون يقول فيه بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله المولى الكريم والصلاة على سيدنا محمد مع التسليم وبعد فمن العبد الفقير الى الله محمد المهدى بن عبد الله الى عزيز بريطانيه والخديوية غردون باشا قد وصلنا جوابك وفهمنا ما فيه والحال أنك تزعم ارادة اصلاح حال المسلمين وفتح الطريق لزيارة قبر النبى عليه الصلاة والسلام واتصال المودّة فيما بيننا وبينكم واطلاق المسجونين من النصارى والمسلمانيين وأن تجعلنا سلطانا على كردفان فأقول والامر لله انى قد دعوت العباد الى صلاحهم وما يقربهم الى ربهم وأن يفزعوا من الدنيا الفانية الى دار البقاء ويعملوا ما يصلحهم فى آخرتهم وقد كتبت الى حكمدار الخرطوم وأنا باٰبا بدعوته الى الحق وبأن مهدويتى من الله ورسوله ولست فى ذلك بمتحيل ولا مريد ملكا ولا جاها ولا مالا وانما أنا عبد أحب المسكنة والمساكين وأكره الفخر وعز السلاطين ونبوّهم عن الحق المبين لما جبلوا عليه من حب الحياة والمال والبنين وهذا هو الذى صدّهم عن صلاحهم وأخذ نصيبهم من ربهم فأخذوا الفانى وتركوا الباقى واشتغلوا بما لا يكون من الفانيات ولم يسمعوا قول الله ولا رسوله ولم يذكروا خبر أهل القرون الذين لم يغن عنهم ذلك شيأ وتندموا على قدر الذى تمتعوا به فأيدنى الله تعالى بالمهدوية الكبرى لدلالتهم الى الله تعالى وليتركوا العز الفانى والنعيم الفانى الى العز الدائم والنعيم الأبدىّ فى دار النعيم المقيم ولأعرفهم غرور من يريد العاجلة ويظن أنه ساع فى رضا الله ويكون له نصيب فى الآخرة وقد قال المسيح عليه السلام يامعشر الحواريين ابنوا على موج البحر لكم دارا واياكم والدنيا فلا تتخذوها قرارا « قلت ان المسيح لم يقل شيأ ولا شبه شئ من هذا الكلام فى انجيله البتة » ـ قال المدعى ـ فمن ظن أنه يخوض البحر من غير بلل فهو مقهور وكذلك من ظن أنه يجمع الدنيا ويريد عزها وجاهها ويكون له فى الآخرة شأن فأنب الى الله الباقى واخضع لجلاله واطلب عز الآخرة ولا تظن أن هذه الدنيا دار بقاء حتى تسعى لملكها وعزها وكيف من يكون على خلاف طريقة النبى صلى الله عليه وسلم ممن يرغب زيادة الكلاب كما ورد فان الدنيا جيفة وطلابها كلاب ولم يرغبها فمن عبد غير الله نسى الله وأعرض عن كلامه وطلب متاع الحياة الفانية فان كنت شفيقا على المسلمين فالاولى أن تشفق على نفسك وتخلصها من سخط خالقها وتقوّمها على اتباع دين الحق باتباع سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى أحيا ما اندرس من ملل الانبياء عليهم السلام الذين لو حضروا لما سلكوا غير ملته وكلهم يتمنون أن يكونوا من أمته ومن حضر بعثته وما بعد لايقبل منه دين غير سكته فطهر نفسك أوّلا بالدخول فى ملته ثم اشفق على أمته بسلوك سنته فعند هذا فأنت الشفيق ومن غير هذا فما لك من المحقين رفيق كيف وقد قال الله تعالى يأيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فانه منهم ان الله لايهدى القوم الظالمين ـ الى أن قال

انما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون ومن يتولّ الله ورسوله والذين آمنوا فان حزب الله هـم الغالبون وانما امتثلنا أمر الله فما نتخذ وليا الا الله ورسوله والمؤمنين وعلى ذلك قد وعدنا الله بالغلبة كما سمعته من قول الله هـذا وما دام أن الله يقول هم الغالبون فلا غلبة لغيرهم فان رجعت عما أنت عليه من ملة غير الاسـلام وأنبت الى الله ورسوله واخترت الآخرة نتخذك وليا وتكون من اخواننا وتكون المودة المطلوبة عنـد الله ورسوله وتكون ممن امتثل أمر الله فاستحق الوعد والبشارة بعد هـذه الآية فى قوله تعالى ولو أنهـم أقاموا التوراة والانجيـل وما أنزل اليهـم من ربهـم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم الآية فبعد هذا تظلّ المودة بيننا وتكون ممن عمل بالقرآن والتوراة والانجيل وتكون قد اتبعت باتباع نبينا محمد صلى الله عليه وسلم عيسى وجميع الرسل والنبيين وحزت الخير الابدى * وحيث علمت من كلام الله أن حزب الله والذين وليهـم الله ورسوله والذين آمنوا هـم الغالبون فاعـلم أن حزب الله واصل اليك مزيل لك عما شاركت به خالقك فادعيت ملك عباده وأرضـه مع أن الارض لله يورثها عباده الصالحين وان المسلمانيين والمسيحيين الذين دعوت باطلاقهم اليك فأنا أريد لهم الصـلاح والنفع عند الله وفى دار الابد كما أريده لك ولكافة عباد الله خلاء من جنتهـم الى محنتهـم فان الله قد أيدنى رحمة لعباده ولأنقذهم من الهلاك الذين هـم واقعون فيه لولا رحمة الله بظهورى فيهم واعلم أنى المهدى المنتظر خليفة رسول الله صـلى الله عليه وسـلم فلا حاجة لى بالسلطة ولا علك كردفان ولا غـيرها ولا رغبة لي فى مال الدنيا وزخرفها وانما أنا عبـد الله دالّ الى الله والى ما عنده فمن كان سـعيدا أجابنى وتبعنى ومن كان شقيا أعرض عن دلالتى فأزاله الله عن موضـعه وأذله وعـذابه عنـد الله الى الأبد وقد أيدنى الله تعـالى بالانبياء والمرسـلين والملائكة المقربين وجميع الاولياء والصالحين لاحياء دينه وقد بشرنى النبى صلى الله عليه وسـلم بأن جميع من يلقـانى بعـداوة يخـذله الله ويهزمـه ولو كان الثقلين الانس والجن فلا تغـتر فتهلك كما هلك اخوانك فافهم وسلم تسلم .

وأما الهدية التى أرسلتها لنا فعلى حسب نية الخير جزاك الله الخير وهداك الى الصواب واعـلم أنه كما كتبنا أنا لا نرغب فى متاع الحياة الدنيا وزينتها وانما هى قصـد المترفين الذين لم يكن لهم عند الله نصيب فها هى مرسلة اليك مع ما نرغبه من الملبس لنفسنا ولاصحابنا الذين يريدون الآخرة ويرغبون فيما عنـد الله من الخير الباقى الأبدىّ ليستحقوا بذلك نعيم الأبد وملك الدوام كما درج على ذلك الانبياء والمرسـلون وجميع السـعداء من عباد الله الصالحين وتعلم ذلك أنت حقيقة من سيرة عيسى عليه السلام وحواريه وقد قال كتبت لكم الدنيا فلا تغشوها بعدى « قلت والمسيح لم يقل هذه الترهات أيضا ولا جاءت فى انجيله » ـ قال ـ فتعـلم بذلك أن من خالفه من الاحبار والرهبان وجميع من يدعى اتباعه ليسوا محقين وانما غرتهـم الحياة الفانية والامتعـة الآيلة الى أن تكون جيفة وعذرة ثم عدما

محضا فتكون حسرة ووزراً عنـد فراقها وما فوتته من اكتساب خيرات الدوام ثم إن مثل هديتك عندنا كثير ولكن أعرضنا عنه طلبا لما عند الله وأقول لك فى ذلك كما قال سليمان عليه السـلام لبلقيس وقومها أتمدونن بمال فما آتانى الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون ارجع اليهـم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون واعلم أنك اذا أتيتنا مسلما نؤنسك ونريك من النور ما يطمئن به قلبك ويزول به طمعك فى الدنيا وما فيها ثم بعـد ذلك ان رأينا فيك خيرا وصلاحا للمسلمين وليناك كما فعلنا ذلك بمحمد خالد المشهور بزقل مدير دارا سابقا فانه لما أتانا ورأى الحـق وفرح بلقائنا وندم على ما فات مما ضيعه من عمره فى الفانى واطمأن قلبه بالايمان واختار الآخرة ووثق بالله وليناه على دارفور وقد كتب لنا قبل ذلك عبـد القادر سلاطين « يريد سلاطين باشا » بالتسليم فأكرمناه والى الآن نريد كمال تربيته وهو الآن فى خير كثير وكذلك السـيد جمعه الذى كان مديرا لفاشر والآن أرسلنا الى محمـد خالد المذكور يأتى به الينا لكمال التربية والارشاد و بلغنا حسـن اسلام الدمترى سجاده وصدق اتباعه لنا وانابته للآخرة وكذلك جميع أمراء النقط بدارفور قد أذعنوا لله كباقى سـلاطين دارفور وسلموا جميعا أمرهـم الينا فى حب الله ورسوله فحسـن تسليمهم واتباعهم لنا وكذلك الملك آدم ملك جبال تقلى الآن أتى مهاجرا لما رأى الحق وحسـن اتباعه وصدقه وقد أكرمناه وهو الآن معنا بخـير كثير وهلم جرا فكل سـعيد لا بد أن يتصـل بنـا من جميع أقطار الارض ومن أبى لا بد أن يخـذله الله ويعـذبه فى الآخرة كما أشار الى ذلك النبى صلى الله عليه وسـلم مرارا وليكن معلوما عندك ياحضرة الباشا أن جميع الذين قتلوا على يدى قد أنذرتهـم أولا انذارا بليغا وها هو واصل اليك انذار ولد الشـلالى بعد مخاطبته لى وانذار هيكس بأجوبة عديدة وجواب مخصوص له ولأكابر جيشـه وقد أرسلنا الى باشـة الابيض بجواب فقتل رسلنا وبعـد أن وقع فى يدنا أكرمناه وأعطيناه جبة جميـلة ليتدرج الى الصدق مع الله ولا زلنا نكرمه ونعظمه ليقتدى بنا ويصدق مع الله فيكون من الاصحاب الذين هـم كالنفس فلم يصـدق ولا زال يقع فيما يهلكه ونحن نصفح عنه حتى أخذته منيته فمات ومع ذلك لاجل مبايعته لى ومجالسته معى أياما قد أتانا خبر بعد موته أنه عفى عنه فى الآخرة فصار من السعداء والعبد اذا كان يسعد فى الآخرة فهو المقصود ولا خير فى الدنيا ولا فى نعيمها بل انما متاعها يكثر الحسرة والحبس فقط يوم القيامة ونبتى بالعباد سـعادتهم فى آخرتهـم الابدية وازالة الهـلاك عنهـم من الله ولذلك لاطفت جميع الاكابر من الدولة والحكام فما عملنا معهـم الا الخـير والاكرام فمن صـدق منهم معنا فهـم الآن فى خير كثير وازدياد شرف والسـلام — و بعد هـذا البيان فان اهتـديت وسلمت لى واتبعتنى حزت شرف الدنيا والآخرة وفزت بأجرك وأجر جميع من اتبعك والا هلكت فكان عليك إثمك وآثام جميع من اتبعوك وان كان لك حسـن نور فى العقل تعلم أنى خليفة رسول الله صلى الله عليه وسـلم فلم تتهمنى فيما أسوق به الى الله

والدار

والدار الآخرة ولم تسمع على قول الظلمة الحساد الذين يريدون أن يطفؤا نور الله بأفواههم ويأبى الله الا أن يتم نوره ـ وقد قال صلى الله عليه وسلم من شك فى نصرة المهدى فليقرأ قوله تعالى هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون وقوله كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله ولزيادة الشفقة عليكم لزمت التحشية بهذا والهادى هو الله وكثرة البيان لاتهدى هدانا الله والعباد الى الصواب آمين اه بنصه

قيل وكتب المدعى على الظرف الذى أرسل فيه هذه الرسالة ما نصه سألتك بحق الله ونبيه عيسى عليه السلام أن تقف على أجوبتنا هذه بالحرف الواحد وقد أبلغنى محمد سعيد المسلمانى الذى يسمى جرجو اسلامبولى أن رجلا يسمى السيد افندى نعيم الاجزجى له معرفة بلغتكم وبالخط العربى وما دام انه يعرف الخطين واللغتين نرغب منكم الوقوف على ما فى هذا الظرف جميعه حرفا حرفا على يد المذكور أو من هو مثله والسلام

وأرسل الى غردون بعد هذه الرسالة خطابا يذكر له فيه بيان الهدية التى أرسلها اليه فى مقابلة الهدية التى كان غردون أرسلها عند مقدمه الى الخرطوم ونص هذا الخطاب بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله المولى الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد فمن عبد ربه الفقير الى الله محمد المهدى بن عبد الله الى غردون باشا باطلاعك على ما تدوّن بالجواب اليك تعلم باطنه وبه كسوة الزهاد أهل السعادة الكبرى الذين لا يبالون عما فات من المشتهيات طلبا لعالى الدرجات وهى جبة ورداء وسراويل وعمامة وطاقية وحزام وسبحة فان أنبت الى الله وطلبت ما عنده لايصعب عليك أن تلبس ذلك وتتوجه لدائم حظك وها هو الرسول الذى أتانا منك واصل اليك مع رسل من عندنا كما طلبت والسلام اه وعندى أن هذا الجواب يجب أن يكون أوّل كتب المدعى الى غردون ومع ما فيه من سماجة الاساليب وركاكة التركيب فانى أستبعد أن يكون من انشائه اذا جزمنا بأن الخطاب الثالث الذى هو أحد الخطابات التى نقلناها عن صاحب كتاب السودان هو من انشائه وعلى كل حال فانها كلها تدل على مبلغ اعتقاد الرجل فى دينه ويقينه الثابت بأنه هو المهدى المنتظر بلا جدال

وجعل غردون منذ اشتداد العدوّ على حصون البلد ومعاقلها يدبر واسطة لخلاص قناصل الدول الذين كانوا معه فى الخرطوم فلم يقبلوا وقالوا لا بل نبقى حتى تصل الجنود الانجليزية فأجابهم غردون الى ذلك وقد كانت الاخبار جاءتهم بأن صاحب السياسة الانجليزية أرسل لخلاص غردون ومن معه حملة كبيرة بعد أخذ ورد لامحل لا يرادهما هنا وان تلك الحملة بلغت النيل عند المتمه فقاتلها انصار الخارجى قتالا عنيفا فقهرتهم وغلبتهم ووردت الاخبار كذلك الى الخارجى عما وقع لاصحابه فاضطرب وجمع اليه خواصه وأهل شوراه وكلمهم فيما هم فيه فاختلفوا فمنهم من أشار عليه بالزحف فى جيوشه وأنصاره والوقوف فى طريق الانجليز وقتالهم حتى ينجز لهم الله النصر ومنهم من أشار بترك حصار

الخرطوم والجلاء عنها والرجوع الى كردفان والتحصن فيها ومنهم من أشار بغير ذلك
۞ قال الراوى ثم سكتوا لحظة فالتفت الخارجى الى أبى قرجة أحد الامراء وعبد القادر
على ابن عم الخارجى وقال وأنتما ماذا تقولان فقال أبو قرجة ان الفرنجة لا يقصدون
الا الخرطوم فاذا بلغها مائة منهم تعذر وقوعها فى قبضتنا فالرأى عندى أن نقاتل من بها
ونلح فى قتالها حتى نفتحها فاذا وصل خبر سقوطها اليهم ارتبكوا وتولاهم اليأس فنكر
عليهم ونقاتلهم حتى نقهرهم وقال عبد القادر مقالة أبى قرجة أيضا فظهرت عند ذلك
على وجه الخارجى علامات الفرح وقال هذا هو الرأى الصواب فنعمل به ان شاء الله تعالى
وقد كان الخارجى الى هذا الحين يظن أن المؤن عند حامية الخرطوم كافية وأن أهل البلد
فى أمان من الجوع كما كان يكتب اليه غردون كل قليل من الايام فكان لذلك يخشى
الزحف على البلد وفتحها عنوة وكان يحسب لذلك حسابا كبيرا فلما قال أبو قرجة وعبد
القادر مقالتهما هذه اشتدت عزيمته وزال خوفه وعقد النية على مهاجمة البلد وفتحها
وكان من عساكر الباشيبوزق سنجقان قد مالا الى دعوة الدعاة وكأنهما استوثقا لانفسهما
منهم ۞ قال صاحب كتاب السودان فخرجا فى احدى الليالى من البلد سرا ولحقا
بالمهدى فأكرم مثواهما وقربهما منه وسألهما عما فيها من المؤن والعسكر فأعلماه بكل
شئ وكشفا له عن عورات البلد وهونا عليه فتحها ودلاه على مكان فى طرف الخندق من
ناحية النيل الابيض قد انحسر عنه الماء فلذلك يسهل الولوج منه الى البلد ففرح
المهدى بذلك فرحا لا يوصف فلما كان صبح الاحد ثامن ربيع الثانى من السنة أى سنة
اثنتين وثلثمائة وألف خرج المدعى من كهفه وعلى رأسه مقطف من الخوص مملوء رملا
وسار فتبعه الناس حتى جاء الى شاطئ النيل فأحاط به الناس احاطة السوار بالمعصم فوقف
صامتا لا يتكلم والناس كأن على رؤسهم الطير ثم صاح الله أكبر على الخرطوم وأخذ
حفنة من الرمل بيده ورماها فى اليم فصاح الناس جميعا الله أكبر على الخرطوم وما زال
يصيح هكذا ويلقى بالرمل فى اليم والناس يصيحون بعده بمثل مقالته حتى فرغ ما فى
المقطف فالتفت الى من هم حوله وقال ياقوم ان النبى صلى الله عليه وسلم قال لى يامحمد
اهجم على البلد فى هذه الليلة فتسقط فى يدك لامحالة قال ذلك وعبر النيل الى الجانب
الشرقى يريد معسكر ولد النجومى وبعد صلاة العصر ركب جملا فاحتشد الناس حوله فأثنى
على ولد النجومى وقال له ان النبى صلى الله عليه وسلم بشره بالاستيلاء على الخرطوم فى هذه
الليلة وأمره أن يقسم مقاتلته الى ثلاث فرق كقلب وجناحين ويكون هو فى القلب
ومعه الفرسان ويكون الحاج محمد أبو قرجة قائد الميمنة ومعه حملة البنادق ومحمد نوبارى
شيخ قبيلة بنى جراد احدى بطون قبيلة الكبابيش قائد الميسرة ومعه العرب والبقارة
أصحاب الحراب والسيوف وأن يكون هجوم القلب على نقطة الوسط من الخندق عند
البريج المعروف باسم باب المسلمية — قال وهى مقر فرج باشا الزينى قومندان الحامية

ويكون

ويكون هجوم الميمنة على الخندق مما يلى النيل الازرق لجهة برى ويكون هجوم الميسرة على الخندق مما يلى النيل الابيض عند المكان الذى انحسر عنه الماء وتراكمت عليه الاوحال وصار فى الامكان الوصول منه الى المدينة وقدم المهدى عمر ابراهيم وهو أحد الضجقين اللذين دلا على عورات البلد الى محمد نوبارى قائد الميسرة بصفة دليل يرشده الى ذلك المكان « يعنى المكان الذى انحسر عنه الماء » ودفع اليه شخصا آخر اسمه بدوى الدنقلاوى وكان كيالا فى الشون بصفة دليل ثان وأصدر المهدى الى محمد النور أمرا قال فيه ما يأتى — لدى دخولك المدينة يجب أن تقصد سراى غردون على الفور وتبلغه تحيتى ثم تحافظ على حياته ولا تترك أحدا يتعدى عليه حتى توصله الىّ سالما بغير أن يصيبه مكروه وخطب على الجميع قائلا لا يتعرض منكم أحد الى حياة غردون بسوء لاننى أريد أن أفدى به أحمد عرابى باشا ثم خطب فيهم يحضهم على الجهاد ويذكرهم بنعيم الآخرة وقال لهم فى ختام خطبته احملوا الحشائش لالقائها فى الخندق حيث تجتازون عليها وقفل راجعا الى أم درمان ومعه عبد الله التعايشى وترك الخليفتين محمد شريف خليفة الكرار والخليفة على بن حلو خليفة الفاروق واجتاز النهر آيبا الى أم درمان اه

وكثر عبور المقاتلة من أم درمان الى الخرطوم وجعل مقدم العساكر المهدية يطلق مدافعه من أم درمان على الخرطوم تباعا من عصر الاحد ثامن ربيع الثانى الى ظهر الاثنين تاسع الشهر المذكور وكان يوم الاحد يوما لا شمس له قد حجبتها الغيوم المتلبدة والضباب المتكاثف وكان البرد قارصا وعلم غردون بحركة العدوّ واحتشاده فصعد الى سطح داره ومعه قناصل الدول وجعل ينظر بالنظارات الى كثرة العدوّ وعبوره النيل فانزعج وتحقق أنّ العدوّ على أهبة الزحف على البلد فى تلك الليلة فأسرع الى الحصون والمعاقل وجعل يستنهض همم الجند ويحثهم على الصبر فى الدفاع فكانوا فى شاغل عن كلامه بما هم فيه من الجهد والتعب وما أصابهم من الضر فعاد الى مقره قبل والدمع ملء عينيه فقابله قناصل الدول فقال لهم لا قدرة للجنود على دفع العدو وقد دبرت لكم أمر النجاة فلم تقبلوا فلا ذنب لى ولا جناح علىّ ولا بدّ للعدوّ من ولوج البلد فى هذه الليلة ثم صافحهم جميعا قائلا انى أبرأ الى الله والعالم أجمع من تبعة كل داهية تلم بكم فقالوا نحن نشهد بما تقول فصافحهم ثانية وكانت مناوشات العدو فى ازدياد من ناحية الخندق ومن جهة أم درمان وشاع الخبر فى نحو الساعة العاشرة ليلا أن العدو على عزم الهجوم على البلد فوقع الهرج فى الناس وعلت الضوضاء فلم تكن الا ساعة حتى دخل العدو بخيله ورجله وساروا نحو مقر غردون وأحاطوا به احاطة السوار بالمعصم ❁ قال صاحب كتاب السودان وكان القائد فرج باشا واقفا وقت زحف العدو عند باب المسلمية فلما أحس بدخول الميسرة الى الخندق مما يلى البحر الابيض أمر بفتح باب المسلمية حيث فر منه بعد أن تنكر بملابس جندى ومعه القائم مقام سرور بهجت ولما دخل محمد نوبارى المدينة قصد بكل مقاتلته

سراى غردون — قال — وكانوا زهاء مائة ألف مقاتل فأطل غردون من النافذة ونظر اليهم ثم قال لحراسه لا تبدوا معارضة لأىّ أحد يريد الوصول الىّ وإياكم أن تبدوا أقل دفاع — قال — ولبس كسوة التشريفة الصغرى التى هى ملابسه اليومية على الدوام وتقلد سيفه ولبس طربوشا ووضع عليه رداء حريريا «كوفية» وربطه بعقال كرزىّ الاعراب فدخل عليه محمد نوبارى وجماعة من مقاتلته فوجدوه جالسا على كرسيه ممسكا بيده منديلا أبيض فابتدره أحد الدراويش وقال له أين أموالك ياغردون ياكافر قال فتبسم غردون ضاحكا وقال له أين محمد أحمد يقصد المهدى فابتدره الرجل بطعنة فى صدره خرّ منها صريعا على الارض يتخبط فى دمه ولكنه لم يفقد حواسه من هذه الضربة — قال — ونقل لى أحد الحاضرين أنه سمع واحدا من الدراويش صاح بالذى طعن غردون وقال له لا تقتله بل أبقه كأمر المهدى فأجابه القائد محمد نوبارى بقوله ان الخليفة التعايشى أمر بقتله وكان صوته خافتا حين نطق بهذه العبارة قال ثم سحبوا غردون من رجليه ولم يكن قد فقد الحواس ولا قوة النطق حتى قيل انه كان يتبسم وهو مسحوب على وجهه ثم أنزلوه الى حوش السراى وهنالك قطعوا رأسه وأرسلوها الى الخليفة محمد الشريف الذى كان وقتئذ فى جامع الخرطوم فانتدب محمد بن عبد الكريم من أقارب المهدى فركب الباخرة اسمعيلية وأوصل رأس غردون الى المهدى الذى أنكر قتله وصاح قائلا لما ذا قتلتموه ألم أنهكم عن قتله فقال له التعايشى ان قتله خير من استحيائه فبدت من المهدى علامات الغضب وأسرع بالقيام ودخل الى منزله ونصبت رأس غردون على خشبة طولها متران وأخذ الصبيان والنساء يرجمونها بالحجارة ويهينونها بالبصق حتى تهشمت قطعا صغيرة اهـ

و وردت الاخبار تترا الى القاهرة بسقوط الخرطوم فى قبضة الخارجى واستسلام من بها من المرابطين وموت غردون ومن كان معه من قناصل الدول فكان الناس يتحدثون فى هذا الامر همسا ولا يصرحون به عسى أن يكون من سقط الروايات أو من تضليل الرواة وكانت الحملة التى سيرها الانجليز لاستخلاص غردون معقودا لواؤها الى الجنرال ولسلى صاحب موقعة التل الكبير أو هو فاتح مصر على المشهور وقد سارت مدججة بالسلاح مثقلة بالشئ الكثير من الكراع والمدافع الحديثة الطرز والمؤن والخيل ودواب الحمل وكثير من سفن النقل فجعلت مركز حركتها مدينة أسوان وجعل الجنرال ولسلى يترفع بالجنود الى أرض السود يريد اللحاق بالخرطوم قبل أن يتمكن الخارجى من فتحها وقيل بل كان فى تردّد وحيرة وكتب صاحب سياستهم تأتيه تباعا تارة بالاقدام وأخرى بالاحجام والمخبرون يأتونه من الانباء بأشكال متضاربة حتى وقع فى القنوط واليأس أو كاد وكثر توارد كتب الخديوى على ولسلى أيضا فى طلب معرفة بعض الشئ من أخبار الخرطوم وما حل بها فلم ينل مأربا واختلط الحال كذلك على قناصل الدول وكثر تساؤلهم وترددهم على ديوان الوزير نوبار باشا يسألون عما حل بقومهم النازلين بأرض السود فلم يعرفوا من خبرهم شيأ سوى الشائع بين

الناس * وجاءت الاخبار فى هذا الحين أيضا بوصول طائفة من العساكر الايطالية فى عدة وذخرة عظيمة الى فرضة مصوع وأنهم قد احتلوا بعض المواقع فى ضواحى البلد وهم على عزم الزحف الى بربر للالتقاء بجيوش الجنرال ولسلى وانقاذ غردون ومن بالخرطوم فكان الناس بين مصدق ومكذب اذ البلد تابعة لمصر وكان الخديوى ورجاله لايعلمون من أمر هذه العساكر ونزولها على مصوع شيأ الا بقدر ما تعلمه العامة وأصحاب صحف الاخبار أو كانوا يعلمون بحقيقة خبرها ولكنهم كانوا يتجاهلون كيلا يوقظوا الفتنة الراقدة وكان مقدم سياسة الانجليز لما عوّل على ارسال جيش ولسلى الى الخرطوم عن طريق اسوان استمال السنيور كرسبي وزير ايطاليا يومئذ الى أن يمد جيش ولسلى بعدد من العساكر الايطالية يسيرون الى فرضة مصوع ومنها الى بربر فيلتقون بالجيش ويتضافرون جميعا على غزو ما فتحه الخارجى من البلاد ولجماعة الايطاليان فى مقابلة ذلك فرضة مصوع وما والاها من بلاد الصومال وما جزاء الاحسان الا الاحسان ففرح كرسبي بذلك وأرسل أولئك العسكر على السفن والشوانى الكبار فأنزلوهم فى بعض المواقع القريبة من مصوع وضربوا خيامهم ولبثوا ينتظرون الاخبار عن جيش ولسلى وهم على أهبة الزحف على بربر وجعل كبارهم يتقربون فى تلك الايام من مشايخ القبائل الضاربة فى تلك الاطراف ويتزلفون اليهم بالهدايا والتحف فالتف حولهم بعض أولئك القوم وكشفوا لهم عن عورات الصوماليين وهوّنوا عليهم غزوهم والغلبة عليهم وادخال بلادهم فى طاعة سلطنتهم قيل فعاقدوهم وعاهدوهم على ذلك وكتموا السر الى حين حتى كان من أمرهم وما وقع لهم ما سيتلى عليك فى محله ان شاء الله تعالى

وسار جيش ولسلى والاخبار عن الخرطوم ومن فيها تأتيه مبتورة مقتضبة لا تشفى عليلا ولا تروى غليلا وعيون الخارجى من أمامهم ومن خلفهم وعن يمينهم وعن شمالهم تنقل أخبارهم وهم لايشعرون وكان أصحاب صحف الاخبار الانجليزية يظنون الى هذا الحين ان غردون حىّ يرزق وبعضهم يقول انه يقاتل دعاة الخارجى على بربر فاذا تقدم جيش ولسلى الى ما وراء دنقله تمكن غردون من مبارحة الخرطوم والاتيان الى دنقله بطريق بربر دون ان يلقى معارضة من أصحاب الفتنة اذ هم يخلدون الى السكينة بمجرد نزول جيش ولسلى على دنقله وكان غيرهم يقول غير ذلك والعلم بمقتل غردون عندهم غير مقطوع به وكان الخديوى قد رسم الى سائر المديرين والمشايخ والاعيان فى جميع البلاد السودانية بأن يكونوا عونا للجيش وفى طاعة الجنرال ولسلى وشدد عليهم فى ذلك تشديدا كأنهم باقون على طاعة وولاء حكومته والامر يومئذ على غير ذلك وكثر توارد سفن النقل للجيش على أشكال مختلفة يديرها جماعة من رجال البحر من أهل كندا وتقاطر مرور الشوانى الكبار صعدا وهبوطا الى اسوان وكبرت الحركة وعمرت اسوان بالبيوت والاشوان والحوانيت لارباب التجارة والصناعة وأصحاب الوظائف ومقدمى العسكر وغيرهم وقدم بعض السعاة فى

هـذا الحين بكتب من غردون كان قد أرسلها قبل سقوط الخرطوم وكلها استجارة واستغاثة واعلان بأن لموم الخارجى أصبحت أدنى من رمية قوس من الخرطوم ثم يقول فى بعضها انى لاأرى الخلاص الا اذا جاءنا عسكر من العساكر السلطانية العثمانية والا فالبلد ساقط لا محالة ويقول أيضا انه اذا جاءه الزبير باشا فى نفر من أصحابه كانت النجاة على يده أيضا وكأنه كان يخشى اشتداد الفتنة بوصول جيش ولسلى أو كأنه قد أشفق على قومه من الوقوع فى مخالب ذلك العدوّ الاسود وشاع خبر تلك الكتب بين الناس وتحدثوا بها كثيرا وكلهم مجمع على سقوط الخرطوم وموت غردون وتعذر بلوغ جيش ولسلى الخرطوم فى الاجل المضروب لسرعة هبوط النيل وانحسار الماء وارتكاز أكثر شوانى النقل فى معبر الشلالات حتى تعذر المسير فيها * ووصل ولسلى مع أركان حربه الى دنقله فلاقاه مديرها وأجله اجلالا عظيما فألبسه ولسلى نيشانا انجليزيا وأراه مرسوم الخديوى الى سائر المديرين وأهل البلاد بمعاونة الجيش والطاعة الى مقدمه فجمع المدير الى ديوانه سائر المأمورين والجند والاعيان والتجار وتلا عليهم المرسوم وهو

من خديوى مصر وجميع ملحقاتها - الى حضرات المديرين والعلماء والقضاة والتجار ومشايخ القبائل وسائر أهالى السودان رعايانا اليكم سلامنا الخصوصى وبعد فان الجنرال ولسلى ذاهب الى السودان بوظيفة قائد عام للجيوش الانجليزية بمقتضى مأمورية خصوصية ذات أهمية سامية وقد صدرت له من لدنا ولدن الحكومة البريطانية التعليمات اللازمة لاجل قضاء الغرض المطلوب على أحسن حال ولذا فانا نوصيكم جميعا بأن تكونوا خاضعين له مطيعين لاوامره مجيبين لمطالبه كى تفوزوا برضانا ويتمكن من اتمام المأمورية المنوطة به بأقل ما تقتضى من الزمن والسلام عليكم أجمعين اه ﴿ قال الراوى فعند سماعهم هذا المكتوب سكتوا ولم يجبهم مافيه * ورسم ولسلى بجعل دنقله مركز حركة الحملة ونقطة مخازن المؤن والكراع وجعل بلدة الدبة أول النقط الاستحكامية ورتب جماعة من المرابطين فى مروى لحفظ المواصلات وقرر القاعدة بينه وبين أركان حربه على أنهم يسيرون بعد ذلك قاصدين بربر فاذا تمكنوا من فتحها زحفوا الى شندى فاذا قابلهم المهدى بأصحابه جعلوا تلك النقطة حدا فاصلا والا زحفوا الى الخرطوم وأنقذوها واشتدت الحركة لذلك فى دنقله وكثر توارد العسكر وانتشرت خيامهم حول البلد فلم تكن الا أيام حتى تفشت بينهم الامراض المعدية والحميات الخبيثة والجدرى فعظم قلق الجنرال ولسلى وضاعت تخميناته هباء منثورا ﴿ قال صاحب جريدة الغازيت الانجليزية يا لله ان المصاعب الحائلة دون تقدم جيش الجنرال ولسلى الى السودان ظهرت أكثر جدا مما خمنها ولسلى وقد تعوّد المرء أنه اذا صحت له نبوة مرة حاول التكهن أخرى ولكن لعمرى ما كل مرة تسلم الجرة ولا كل مرة يصح التكهن فقد قال هذا المقدم الكبير قبل مبارحة الآل والوطن ان جيشه يجتمع فى دنقله سابع عشر شهر نوفمبر وأنه سيجلس مع غردون على خوان الطعام خامس عشرى

ديسمبر من السنة فها قد مضى الاجل الاول ولم يجتمع من عساكره فى دنقلة الا العدد القليل فاذا كانت نيته أن لا يتقدم الى عطمور أبى حمد قبل احتشاد جميع عساكره فى دنقله فعسير عليه اذا المسير قبل أخريات يناير افتتاح سنة خمس وتسعين وثمانمائة وألف أما اذا بلغت به الجسارة مبلغها ونهض الى الخروج مع فرقة الهجانة المتسلحة على خطر معاناة الفشل فيتعذر عليه التقدم قبل منتصف شهر يناير المذكور - قال فقل لى بحقك اذا أين هذا التاريخ وتاريخ وصوله الى الخرطوم من الاجل الذى ضربه لبأ كل فيه مع غردون على خوان واحد ان فى ذلك العجب العجاب اه * وشاع الخبر يومئذ بأن ولسلى سير رسله الى الخارجى فى طلب تقرير قاعدة للصلح والكف عن القتال فلم يفلحوا فاستنتج الناس من ذلك حرج موقف جيوشه وتحققوا خبر تفشى الامراض الخبيثة فيهم وإشفاق ولسلى عليهم وقد جاءت كتبه الى القاهرة بتعجيل ارسال المؤن والادواء والأكسية وسائر احتياجات العسكر فعجلوا بارسالها فى الليل والنهار وظهرت الحركة تحت قلعة الجبل وفى بولاق التكرور وبالغوا فى التعجيل بتسيير قطورات السكة الحديد تباعا حتى كان بعيد ذلك ما سيتلى عليك فى محله

وصـــل

(فى حركة بعد أخرى)

بينما كانت الخواطر فى حركة واضطراب دائمين بسبب الفتنة المهدوية وتباين الاخبار عمن هم فى الخرطوم من الجند والعسكر والاهل والمال والولد ظهرت حركة أخرى اذ جاء الخبر من زعيم سياسة الانجليز بقدوم عظيم من عظمائهم الى القاهرة اسمه اللورد نور ثبروك ومأموريته هى أن يفحص فيما عليه البلاد من خير أو شر وما تحتاجه دواوين الحكومة من القلب والابدال كأن الذى أتاه دوفرين رسولهم من قبل لم يكن شيأ مذكورا فلم تكن الا أيام حتى وفد الرجل ونزل ضيفا على السير بارنج ثم جعل يجتمع برجال الدولة وأصحاب الحل والعقد وأرباب المناصب العالية فيحادثهم فى أمر المكوس والضرائب وأمن البلاد ونظام عمل وعمال الدواوين وغير ذلك ثم سار عن القاهرة فطاف الاقليمين القبلى والبحرى واجتمع بكثير من أعيان البلاد ومشايخها وكلمهم فى الامر كذلك ثم قفل راجعا الى القاهرة وكان قبل مبارحته عاصمة الانجليز قد أرسل الى الهند فى طلب قاض من قضاتها وأصحاب الشورى فيها فجاء الى القاهرة رجل طويل القامة أسمر اللون طويل اللحية أسودها تظهر على وجهه علامات السذاجة اسمه سميع الله خان ومعه صبى فى الرابعة عشرة من العمر قالوا والرجل صديق اللورد نور ثبروك جاء به ليطلع على قانون البلاد المعمول به فى محاكمها الجديدة ويعمل فكره فى تنقيحه وفى التوفيق بين الشريعة المدنية والشريعة

الحنيفية وتوحيد المحاكم المصرية وتشريع شئ جديد يناسب روح العصر فأدهش الناس حضوره اذ البلاد بلاد علم وعلماء الشرع فيها ليسوا بقليلين فلبث سميع الله هذا بالقاهرة أياما زار فيها سائر دواوين الحكومة ورجال الدولة وقاضى القضاة بمصر وأرباب المحاكم الاهلية فلم يظهر للناس من أمره شئ وقد كنت يومئذ رئيسا للنيابة العمومية بمحكمة المنصورة الاهلية فجاءنا الامر من الوزير نوبار باشا بلقاء الرجل فلاقيناه على الرحب والسعة وجلس يتكلم بالعربية مع غاية البطء والتكلف وعلامات الاعجاب والخيلاء بادية على وجهه فقال — أنتكم تنظرون المقدمات * يريد هل أنتم تنظرون فى قضايا الاحوال الشخصية وكان يتكلم وهو يقلب صفحات نسخة من القانون الاهلى فقلت ان للمقدمات التى يعنيها الاستاذ محاكم أخرى وقضاة آخرين فقال وكم من المقدمات عندكم اليوم * فقلت لا شئ منها عندنا وكما قلت لك هى من خصائص المحاكم الشرعية فسكت لحظة ثم قال * أنتكم تحكمون بشريعة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم * فقلت قد شغلنا عن الحكم بها شاغل من هذا الذى بيدك وأشرت الى نسخة القانون فدمدم بالهندية وقال أنتكم تجلسون وين فأخذت بيده وأريته قاعة الجلسة وسائر غرف المحكمة فكان ينظر اليها وهو باهت جامد ثم رحل عنا الى القاهرة قيل واجتمع بشيخ الازهر وبعض كبار العلماء وحادثهم فى شئ من شريعة بلاده وما هو عليه القضاء فى مدن وقرى الهند الانجليزية قالوا وبالغ كثيرا فى مدح الامة الانجليزية وفى رجال دولتها ثم رحل عن القاهرة الى عاصمة الانجليز وغاب عنا كما غابت عن الناس نتائج مأموريته * وكان قد حضر قبل سميع الله هذا آخر من الانجليز اسمه كليفور دلبود وهذا قد كانت مهمته تغيير نظامات الحكومة واستبدال عاداتها المعمول بها من القدم بأخرى تناسب روح العصر الجديد وتنطبق على المألوف من عادات البلاد والشريعة الانجليزية وتنفيذ ما أسسه اللورد دوفرين من اللوائح وقننه من القوانين فكان الرجل من شر الرجال متسرعا مخاطرا نفورا مختالا مستخفا بعظائم الامور صلفا عنيدا مكابرا فعاث وعبث وجعل يغير من شرائع البلاد ويقلب من عاداتها ويسن البدع ويبدع السنن السيئة ويكاتب مشايخ البلاد والقرى ويزين لهم الخروج عن حدودهم التى ألفوها وينظر الى سائر المأمورين وأصحاب الوظائف العالية بعين السخط والقلى ويمد يده الى كل عمل ويقع على المديرين والمأمورين باللائمة والتقريع لأقل سبب واتخذ له مقرا بديوان الداخلية وصار يسمى نفسه فى كل يوم باسم جديد فتارة يقول مأمور الاصلاح وأخرى يقول مستشار الاصلاح وآونة مدير النظام وأخرى منشئ التحسينات المستحدثة وغير ذلك من الاسماء والعنوانات المتشابهة وهو كالهر الذى عثر عليه الاعرابى وقد سماه له الناس بأسماء كثيرة فأكبر ثمنه فلما وجده على غير ذلك ضرب به الارض وقال لا بارك الله فيك ما أكثر أسماءك وأقل ثمنك * وظل كليفور دلبود هذا على ما وصفنا من التحرش بسائر أمور الحكومة مع بسط يده على كل شئ حتى ضج الناس وعجوا وصاح المأمورون والحكام صيحة

الفجر والملل وقد أعيا الوزير نوبار باشا أمره وعجز عن ردّه وايقافه عند حده فأرسل كتبه الى زعيم السياسة الانجليزية يشكو من فعال الرجل ويحذر أصحاب الحل والعقد فى دار السلطنة الانجليزية من شر العاقبة ويلقى كل تبعة على الرجل فجاء الامر بخلعه فانخلع وسار الى بلاده متنكرا وقد ترك من آثاره ابطال سائر دواوين أصحاب الشحنة وتقليل اختصاصات بعض الدواوين الاخرى وتقليل سلطة أعضاء مجلس شورى البلاد وعدم تقييد الهيئة الحاكمة بآرائهم والاستغناء عن العدد العديد من أصحاب الوظائف وقفل أبواب الرزق فى وجوه المرتزقة من أبناء البلاد

وقدم الى القاهرة فى هذه الفترة شارم سايد عامل الانجليز على شرقى السودان وسواحل البحر الاحمر يسأل الوزير نوبار باشا والسير بارنج استبقاء شرقى السودان وعدم تركه لاصحاب الثورة — قال — حتى يتمكن جيش الجنرال ولسلى من الغلبة على أصحاب المهدى واستخلاص الخرطوم ومن فيها وكان قد جاءه الامر بالتخلى عن بعضها لدعاة المهدى وبعضها الى نجاشى الحبشة بما فيها من متاع وكراع فلم ير بدا من الشخوص الى مصر ومكالمة الوزير فى ذلك اشفاقا فعقد الوزير مجلسه فى دار السير بارنج وحضره عبد القادر باشا ومصطفى فهمى باشا والجنرال استيفنصون قائد الجيوش الانجليزية بديار مصر والمستشار المالى وشارم سايد وتكلموا فى الامر طويلا وحرروا بما وقع عليه الاتفاق محضرا وأرسلوه الى دار السلطنة الانجليزية وانفض مجلسهم يومئذ على ذلك وأرسل الوزير فى ذلك اليوم أيضا الى الجنرال ولسلى قائد الحملة يسأله عما يكون قد أخبره به جواسيسه من أنباء الخرطوم ومن فيها فلم يحصل الا على بعض كلمات كلها أحاجى ومعميات لا تشفى غليلا على حين أن الاخبار مترادفة على بعض ذوى المقامات بالقاهرة ومصر بوقوع النفور والوحشة بين الجنرال ولسلى ومدير دنقله واعراض ولسلى عن المدير اعراضا تاما — قالوا — وذلك لامتناع المدير من المسير بمن عنده من العساكر فى طليعة الحملة الى بربر وتكلم أصحاب صحف الاخبار بعزم ولسلى على تحويل سير الحملة من طريق النيل الى سواكن وكادت تتحقق الاشاعة بعبور بعض سفن النقل والشوانى الكبار ترعة السويس الى سواكن وثبت الخبر القائل بأن دعاة المهدى ومن التف حولهم قد تحصنوا بعبر بربر وإن طلائعهم نازلة فى جهات مروى أو ما يتقدمها وانه لما علم ولسلى بذلك أخذ الحيطة ورسم بعدم تجاوز عسكره الدبة فتربصوا بها وهم على قدم الاهبة والاستعداد لصد العدوّ عنهم وأرسل كتشنر بعض الجواسيس من الدبة الى الخرطوم عساهم يأتون ببعض الشئ من أنبائها فلم يتمكنوا من ذلك وجاء الامر الى شارم سايد عامل شرقى السودان بالشخوص الى سواكن واجلاء الحامية الباقية هنالك وترك البلاد كافة لمن يطلبها من الحبشان وأصحاب عثمان دقنه فسار على عجل وانقطعت أخباره أياما ليست قليلة

(مطلب) وتوالت الطلبات على الخزينة لكثرة النفقة

وتوالت الطلبات على الخزينة وكثرت النفقة فتعذر على أصحاب الحل والعقد رتق هذا

الفتق فعمدوا الى ايقاف دفع أقساط استهلاك ديون الخزينة فى آجالها فأوقفوها فقام عند ذلك أصحاب صحف الاخبار الاجنبية وقعدوا لاسيما منهم أصحاب صحف الفرنسيس والألمان وصاحوا يا لثارات أصحاب الديون وكان الوزير نوبار باشا يتمنى لو انه يتمكن من اظهار عجز الخزينة وعدم قدرتها على القيام بنفقة ربا ديونها لعل الدول تساعده على تخفيضها رحمة بالبلاد وأهلها فقام يومئذ أعضاء صندوق الدين فى وجهه ومانعوا فى ذلك بايعاز من دولتى الألمان والفرنسيس وأقاموا الحجة ضد ناظر الخزينة ومديرى الاقاليم المرهونة ايراداتها لوفاء الديون ثم رفعوا دعوة بذلك أمام المحاكم المختلطة فلم يسع الوزير يومئذ الا العدول عما كان يقصده ورسم بدفع الاقساط فى آجالها فسكنت الخواطر واطمأنت القلوب وعاد الناس الى حديث السودان وجيش ولسلى ولم يلتفتوا الى ما أصبحت فيه البلاد من الضنك والمحن المتتابعة بسبب المصاريف الفادحة المترتبة على تلك الفتنة * وبينماهم على هذه الحال اذ جاء الخبر من ولسلى وهو يومئذ فى بلدة القرطى بأن مقدمة جيوشه السائرة فى طريق الصحراء التقت بطلائع الدراويش فى نقطة فيها آبار تبعد عن المتمة زهاء خمسة عشر ميلا قال — فاقتتل الفريقان قتالا عنيفا واختلطا معا فكان القتال شديدا والطعن مميتا وظلوا على هذه الحال من الضرب والنزال بضع ساعات حتى انهزم الدراويش ومات منهم خلق كثير وكذلك من الانجليز وجرح كثير من العساكر ومقدمو العساكر وتشتت شمل من بقى من الدراويش وجعل الانجليز بعد هذه الموقعة الشعواء يتقدمون نحو المتمة ثم جاء الخبر مفصلا فدل على أنه بينما كانت مقدمة جيش ولسلى تتقدم نحو آبار أبى كلية القريبة من المتمة راجعة من آبار غدقول تريد اللحاق بالمتمة تقدمت طليعة من الفرسان لتستكشف موقع العدو فرأت العدو فى عدد وعدد عظيمين عند آبار أبى كلية فقفلت راجعة على الاعقاب وأخبرت بما كان فلم تتمكن العساكر من مناوشة العدو لدخول الليل وباتوا وهم على قدم الدفاع وبينهم وبين العدو ثلاثة أميال أو نحوها وقد اقتلعوا ما وجدوه فى مواقفهم من الاشجار والاحجار وأنشؤا زريبة وضعوا فيها المؤن وآلات الحرب وشيدوا أمامها حصنا ليحتموا فيه وكان فى أعالى جبل هنالك نفر من العدوّ يرصدون مسير الحملة وحركاتها فأحسوا بقدوم العسكر فأخبروا رفاقهم فجعلوا حينئذ يطلقون على العساكر نيرانهم واستمروا على ذلك طول ليلتهم تلك فأطلق عليهم كذلك جناح الحملة الايمن ثلاثة مدافع وأصبحوا وقد نادى مقدم العسكر بالزحف فتقدموا نحو العدوّ وناوشوه القتال فلم يتحرك ولا بادر بالهجوم على الانجليز كما كان يؤمل قائدهم فتقدمت العساكر نحو العدوّ على شكل مربع قوىّ الاضلاع فتحرك العدوّ عند ذلك وجعل يرقب مؤلفة المربع ثم اختفى معظمه عن الابصار وقد تركوا راياتهم مركوزة فى المحلة التى كانوا نازلين بها وهى خدعة قد احتالوا بها ليستقدموا الانجليز فى بعض العقبات كى ينقضوا عليهم ويظفروا بهم ولقد كان كذلك فان الانجليز انخدعوا وتقدموا فلم تكن الا لحظة حتى عادت طلائع العدوّ وأخذوا يقذفون

على

على مقدمة مربع الانجليز نيرانهم الحامية ويرسلونها عليهم إرسالا فقابلهم الانجليز بأشد منها وظلوا على هذه الحال ساعة لم يشعر الانجليز بعدها الا وقد هجم العدوّ على مؤخرتهم هجمة عنيفة وخرق صفوفهم فالتحم الفريقان ووقع الضرب والطعان وترَاسلت على السود النيران قيل فانقهروا وولوا الادبار وقد انصبغ أديم تلك البيداء بالدماء واكتسى بجثث القتلى والاشلاء من الفريقين وسار الانجليز بعد إصلاح حالهم ودفن جثث أبطالهم يريدون آبار أبي كلية فبلغوها قبيل الغروب فاستقوا منها وقد كادوا يهلكون من الظما وسقوا خيلهم ودواب حملهم وضربوا هنالك بعض المضارب لراحة الجرحى منهم وأقاموا حولهم رباطا وساروا يريدون المتمة * وكان المهدى قد علم بأن الانجليز انما هم قاصدون المتمة ليقيموا فيها الحصون والمعاقل التى يتعذر على أصحابه أن يوقعوا بها فسير جماعة من المقاتلة ورسم لهم بالوقوف فى طريق الانجليز ومناوشتهم القتال كى لا يتمكنوا من بلوغ المتمة وقد أحس مقدم الانجليز يومئذ من كثرة انتشار المهدويين فى تلك الانحاء ووقوفهم فى طريقه فى كل صوب وحدب أن شندى ساقطة فى يدهم لا محالة وعلم أن المهدى نازل على أم درمان وان الحصن القريب من مدينة الخرطوم أصبح فى قبضته فرأى أن المخاطرة بجنوده والتقدم بهم الى المتمة ضرب من الهوس والجنون فأرسل الى الجنرال ولسلى فى طلب النجدة واستحثه قبل أن يتمكن العدوّ من لم شعثه وارجاع الكرة على العساكر مع ما هم عليه من الضعف والتعب * وجاءت كتب المهدى كذلك الى سائر العربان ومشايخهم الضاربين فى البيداء يحظر عليهم معاونة الانجليز أو أن يبيعوا لهم شيأ من المؤن أو العلف لدوابهم أو أن يدلوهم على الطرق .وتوعدهم بالويل والثبور وعظائم الأمور ان هم فعلوا شيأ من ذلك فنزح العربان فى الحال من تلك الاطراف وابتعد عن الطرق من لم يكن محاربا ووردت الاخبار بجميع ذلك الى جماعة الانجليز بالقاهرة فاشتد قلقهم وكثرت كهانة أصحاب صحفهم ونقلة أخبارهم وجاءت كتب الخديوى الى الجنرال ولسلى بالاستعلام عن حالة جيش الكولونيل استيورت الذى سار الى المتمة بعد تلك الواقعة الشعواء فأجابه ولسلى بما لا يشفى الغليل ولم يذكر شيأ عن استيورت وجنوده فقال الناس قد هلك استيورت وجنوده وهو قول يكاد يكون له من الصحة نصيب لان بين آبار أبى كلية والمتمة مسيرة أربع ساعات للمجدّ المسافر وثمان ساعات للبطىء المثقل فان لم يكن قد وصل بجيشه المتمة ثانى يوم الواقعة فيكون قد قضى عليهم جميعا كما قضى على جيش هيكس الا أن يكون قد أدركهم الله برحمة منه * ثم تحقق الخبر بأنه بعد أن جرى ماجرى أقام الجيش على آبار أبى قلعة رباطا قويا وسار يريد المتمة فوصلوا الى آبار شبا كات فلم يدركوها حتى تبينوا أن فى المتمة قوّة كبيرة من أصحاب المهدى فعدل استيورت بالجيش عن الطريق واتخذ الجهة اليمنى طريقا له فبينماهم يسيرون مجدّين اذ بدا للانظار تجمع لموم كثيرة من أصحاب المهدى على قيد غلوة من النيل فحط الجيش الرحال وأخذ الرجال فى اقامة زريبة يجتمعون فيها ثم

يتأهبون للقتال فلم يكن بأسرع من أن أطلق عليهم العدوّ نارا حامية وأرسل الرمى واشتد فى ذلك شدة بالغة فقتلت نيرانه جماعة كثيرة من الانجليز وجرحت قائدهم الكولونيل استيورت جراحا بليغة فاستلم قيادة الجيش آخر اسمه الجنرال ولسن فأودع الجرحى والمؤن وآلات الحرب فى الزريبة وسار بمن بقى من الجيش يجتاز تلالا من الرمال على شاطئ النيل كان المقاتلون من أصحاب المهدى متترسين خلفها ومعهم طائفة كبيرة من الفرسان فتراجع المهدويون حينئذ وتبعهم ولسن بجنوده * فلما كان ثانى يوم علم ولسن بأن البلد حصينة منيعة لاترام وأن بها زهاء الالفين من الحامية بينهم ألف من العساكر المنظمة برأسهم الامير نور أنقره وعندهم ثلاثة مدافع وكثير من المؤن والذخرة فباتوا ليلتهم تلك وأصبحوا وقد جاءهم الفرج حيث رأوا أربع سفن حربية من سفن غردون وعليها بعض المقاتلة مقبلة ففرحوا بمقدمها فرحا لايوصف فلما دنت من الشاطئ نزل منها خشم الموس باشا ومن معه من العساكر وانضموا الى جيش ولسن ولبثوا يومهم فى تأهب واستعداد وأصبحوا وقد سير ولسن ثلاثا من تلك السفن لاستكشاف ما فى شندى فعادوا وأخبروا بأن حامية البلد قليلة وليس عندها من الاسلحة وآلات الحرب سوى مدفع واحد فعدل ولسن عن مقاتلتهم وأنزل جماعة من عسكره بثلاث سفن من تلك السفن وترفع بهم يريد اللحاق بالخرطوم وترك بقية عسكره فى كابوت بعد أن حصن البلد تحصينا منيعا حتى صارت لا ترام وجاء الخبر بذلك الى القاهرة ففرح به جماعة الانجليز فرحا عظيما وقالوا ها قد أصبح الجيش الانجليزى على أبواب الخرطوم وغدا غردون فى مأمن من ذلك العدو فلم يبق على أولئك الابطال البواسل الا اقتسام الأسلاب والغنائم وبسط السلطة الانجليزية على تلك القارة السوداء من أقصاها الى أقصاها * كل هذا والعارفون بحقيقة ما أصاب غردون يسخرون ويقولون سبحان من يحيى العظام وهى رميم

وجعل جيش ولسن يخرب القرى المجاورة لكابوت ويدكها دكا حتى لم يبق بها حجرا على حجر وقد تركها أهلها ونزحوا الى الجبال مستصرخين الاهالى للاخذ بالثار * وكان الى هذا الحين لم يعلم ماذا جرى على جيش آرل الذى سيره ولسلى عن طريق أبى حمد فخاف أصحاب الحل والعقد من الانجليز الذين بالقاهرة أن يكون قد لحق به العطب فاستصرخوا نقلة أخبارهم فجاء الخبر بوصوله الى برتى الواقعة شمال أبى حمد وأنه لم يلق فى طريقه الا شراذم قليلة من أصحاب المهدى فبدد شملهم وأوقع بهم ولكنه عجز عن أخذ بربر ولن يتأتى له أخذها الا اذا ساعده جيش ولسن الضارب عند المتمة وهذا عسير عليه الانضمام الى جيش آرل الا اذا تم له فتح المتمة وشندى وتبديد شمل من بهما من المقاتلة وترفع ولسن بسفنه ومعه الجنرال شارلس الذى كان ربان السفينة الحربية ألكسندرا يوم ضرب حصون الاسكندرية وآخر اسمه الكولونيل ورتلى وخمسة من ضباط العسكر ومائة من عساكر البحر فلما صارت سفنه على مقربة من حصون أم درمان لم تشعر الا وقد علتها

نيران مدافع العدو من كل صوب وتراسلت عليها القنابل من طوابى الخرطوم وطوابى معسكر المهدى واشتدوا عليها جميعا بالرمى فتأمل آرل ومن معه حينئـذ فرأوا أن الخرطوم جميعها قد تهـدمت وأن منازل الحكومة قد تلاشت فلم يبق منها حجر على حجر فأسرعوا منحدرين بالسفن فلم يتمكنوا من ذلك وقد أصابت قنابل العدوّ اثنتين من السفن فأغرقتهـما بما كان فيهـما ونجا ولسن ومن معه وطلعوا الى احدى الجزر الواقعة أمام البلد وتمكنت السفينة الثالثـة وكان عليهـا الكولونيل ورتلى من النجاة فانحدرت مسرعة الى حيث مقدمة الجيش وأخـبر ورتلى بما جرى فطـيروا الخبر بذلك الى ولسلى مقدم الجيوش فأخذ فى الحال يخابر صاحب سـياستهم على لسان البرق من دنقله الى لندن عاصمـة السلطنة الانجليزية مباشرة واختلط على ولسـلى يومئـذ الحـال وفسـدت تدابيره وانعكست آ ماله وقام أصحـاب صحف أخبارهـم وقعدوا وعلت ضوضاؤهـم واشـتدت جلبتهم وكلهم مجمعون على فساد رأى زعيم سـياستهم وسوء تدبيره فى ارسال جيش ولسـلى وجعلوا يتكهنون بما أصاب غردون وما حل بالضـعفاء من أهـل البلد من النساء والاولاد حتى قال بعضهم ان حاميـة الخرطوم كانت صادقة فى الخدمة أمينة اذ كان غردون يقول لهـم كل قليل من الايام انه انما قدم اليهم من قبل الخديوى وأمير المؤمنين السلطان عبد الحميد فكانت واثقة من صدق الرواية دائبة على الطاعة وحسن الولاء فلما رأت رأى العين قدوم العساكر الانجليزية بأكسيتهم الحمراء وقبعاتهم المحدبة والمقعرة كذبت الرواية ومالت عن غردون وأبغضـته ففتحت للعـدوّ أبواب البلد فولجها وأعمل فيمن بها السـيف ولربما أصاب غردون ماأصاب آحاد الناس ۞ قلت وحدثنى فى هـذا الحين رجل ممن فرّ ناجيا من الخرطوم قال كانت جميع القبائل الضاربة حول الخرطوم الى ماقبل سقوط البلد مخلصة فى طاعة الحكومة الخديوية غير هيابة للخارجى ولا مصدّقة لدعواه ولا هى حاسبة له حسابا حتى تبدلت أحوال غردون واختلط عليه التدبير وساءت أعماله حيث أمر بتخريب المقام الخوجلى الواقع على قيد غلوة من الخرطوم وبقتل خدام المقام وخليفته فنفرت عند ذلك جميع تلك القبائل أىّ نفور وأخذوا من ذلك اليوم يضـيقون على البلد ويمنعون عنها الوارد من المأكول حتى اشتد الجوع بمن فيها من الجند والناس فأكلوا الصمغ والجلد أياما حتى سـقطت البلد وقتـل غردون ذبحا ومثلوا بجثتـه تمثيلا شنيعا اهـ وأرسـل ولسلى سفينة لتأتى بالجنرال ولسن ومن معه ممن تركوا بالجزيرة بعـد غرق السفينتين كما تقدّم الكلام فأتوا بهم بعد العناء الشـديد وقد عثروا فى طريقهم بخمسة رجال من الفارّين من البلد فأتوا بهم الى ولسـلى فأخـبروه بقتل غردون وما جرى عليـه وكيف مثل العـدوّ برأسـه تمثيلا شنيعا فى أم درمان وأكدوا ذلك بالأدلة والأيمان الغلاظ فطير ولسلى الخـبر بذلك الى صاحب سياستهم قبل فاختلط عليه الحال واختلف مع أصحاب الحل والعقد فيما يفعلونه وفى الذى يشـيرون على ولسـلى بعمله وقام بينهم الخطباء والقوّالون ينادون يا لثارات غردون ولبث ولسـلى ينتظـر الجواب وقد كان الى ذلك اليوم

يظن أن قبيلة الشايقية مازالت باقية على الولاء والاخلاص للحكومة الخديوية فلما جاءه الخبر بسقوط الخرطوم آنس من هذه القبيلة الخروج ومشايعة المهدى أيضا ومظاهرته على الانجليز فرسم الى سائر العساكر بالتحفظ وملازمة المعاقل والمتاريس حتى يأتيه المدد ولكن العربان لم تتركهم بل هاجموهم عند آبار غدقول وأرسلوا عليهم الرمى بالبنادق أياما فلم ير وسلى بدا من استمالتهم فسير اليهم رسلا يقولون ان الانجليز انما هم آتون من قبل ملكتهم لبث السلام فى ربوعهم وانه خير لهم أن يخلدوا الى السكينة والطاعة فيكونون فى مأمن على أرواحهم وأموالهم وعيالهم وهو يكفل لهم جميعا القيام بسائر ما وعدهم به غردون وظل على هذه الحال أياما والاخبار ترد الى القاهرة أشكالا وألوانا حتى شاع فى خلالها أن قد وقع الاتفاق بين زعيم السياسة الانجليزية وزعيم السياسة الايطالية على حضور جماعة من العساكر الايطالية النازلين عند مصوع وما والاها ليحلوا محل العساكر الانجليزية بالقاهرة فيرحل حينئذ من بالقاهرة من الانجليز الى السودان لنجدة اخوانهم وتأكدت الاشاعة أو كادت بظهور الحركة بين قلعة الجبل ومنازل الجند بقصر النيل والعباسية وتسابقهم فى جر المدافع وانزال الأثقال والاحمال وآلات الحرب من مخازن قلعة الجبل وذهاب طائفة من العسكر الى مدينة السويس بخيلهم ومدافعهم ونزولهم بخيامهم فى ظاهر البلد أياما

(مطلب) تحرك نجاشى الحبشة للحرب

وزاد الامر تخوفا وخبالا تحرك نجاشي الحبشة وتأهب عسكره لتذمره من فعال الانجليز وخرقهم للعهد الذى عاهدوه عليه من ترك مينا مصوع وبوغس حرة له ومفتاحا لاملاكه لا يحتلها أحد غير عساكره ورجال دولته فانه لما علم بتوارد العساكر الايطالية ونزولها حول مصوع أكبر الامر وأعظمه وراسل المهدى ومناه بالمساعدة على قتال الانجليز وأرسل كذلك الى عثمان دقنه واستفزه الى قتال الايطاليان وجاءت صحف أخبار الانجليز وهى ملأى بالحض على ارسال المدد الى سواكن والا اختلط على من بها الحال وتعذر الخلاص

وكانت عيون عثمان دقنه وأرصاده على أشد ما يكون من اليقظة والانتباه فلما شاع خبر قدوم المدد من الانجليز الى سواكن أخبروا به عثمان دقنه فزحف عثمان بمن معه من المقاتلة وخيم فى طمانيب فانضم اليه أكثر القبائل الضاربة فى شرقى السودان وشايعه أهالى اكجيج وغيرها واجتمعت لديه قوة عظيمة مدججة بالسلاح وكلهم متحفزون للوثبة على القادمين من البر والبحر * وكانت الى هذا الحين مابرحت حملة آرل السائرة عن طريق أبى حمد على قدم المسير والعدو يتخطف ساقها ويجول على يمينها ويسارها وهى تدافع بالامر الخفيف فلما صارت فى منتصف الطريق بين مروى وأبى حمد بان العدو أمامها فى عدد كثير ثم اختفى فخاف آرل شر العاقبة وأرسل طليعة للمكاشفة فعادت الطليعة وأخبرت بما رأت فتحرز آرل وجمع جنوده وسار بهم حتى صار على مقربة من مواقع الثائرين وأحاط بهم من كل جانب فهبوا من مرابطهم كالاسود الضوارى واشتبك القتال بين الفريقين

فاظهر

فأظهر أصحاب المهدى بسالة واقداما غريبين واشتدوا فى الطعن والضرب شدة بالغة وأبلوا بلاء حسنا وما زالوا حتى انكشف القتال عن قتل الجنرال آرل وأربعة من مقدمى العساكر الكبار وترفع العدوّ الى التلال الواقعة على شواطئ النيل وكان الذين يدبرون أصحاب المهدى فى هذه الموقعة ثلاثة أمراء وهم موسى ولد أبي جبل وعلى ولد حسين وحامد ولد على وقد ماتوا جميعا فى ساحة الحرب وكان المقاتلون معهم نفرا من المناصير ونفرا من الرباطاب وجماعة من دراويش بربر ثم جعل من بقى من جيش آرل بعد لم شعثه يتابع السير الى أبى حمد وهم على أشدّ ما يكون من الجهد والاعياء وقد تولى قيادتهم الجنرال براكنبورى بعد مقتل آرل

(مطلب) ارسال الامير حسن الى السودان باسم مندوب فوق العادة

وبينما هم على هذه الحال اذ وردت كتب زعيم السياسة الانجليزية الى السير بارنج بالمكالمة مع الأمير حسن أخى الخديوى فى ذهابه الى السودان من قبل السلطنة الانجليزية باسم مندوب مدنى فوق العادة بدلا من غردون الذى تحقق لهم خبر مقتله فصدع السير بارنج بالامر وكلم الامير فى ذلك فأجابه الى ما طلب وقال لى شروط أشترطها فقال السير بارنج وما هى — قال أن ترسل معى الحكومة الخديوية خمسة آلاف مقاتل من الباشيبوزق وأن تكون لى الولاية العامة على السودان شرقا وجنوبا فأولى من أشاء من الحكام والمأمورين وأن يعطى لى التصرف المطلق فى سائر الامور ولا يكون معى قط أحد من الانجليز — فلم تعجب صاحب سياسة الانجليز هذه الاشتراطات وأرسل يقول اذا قبل الامير الذهاب بلا شرط ولا قيد نال رضا حكومة جلالة الملكة فأذعن الأمير وأطاع ولم يبد بعد ذلك معارضة ففرح الناس وقالوا ان أول الغيث قطر ثم ينهمل وبارح الامير القاهرة فى نفر من الكتاب والجاويشية على الباخرة زينة البحرين الى اسوان ومنها الى قرطى مركز مقدمة جيش الجنرال ولسلى فلم تكن الا أيام من وصوله حتى ظهرت الحركة فى قرطى والدبة وغدقول ودنقله وفى سواكن وشرق السودان وبان عزم الانجليز على الجلاء عن تلك الاطراف أو كاد ووردت كتب صاحب السياسة الانجليزية بذلك الى الوزير نوبار باشا ثم لم تمض الا أيام على ذلك حتى أرسل الى الوزير يقول أن اتركوا السودان الى صاحب المهدوية واجعلوا وادى حلفا حدا بينها وبين مصر وعجلوا فى ذلك * فاختلط حينئذ على الوزير الحال وتولاه الاستغراب فجعل يكثر من التردد بين مقر الخديوى ودار الوزير محمد شريف باشا وهم يتكلمون فى الامر وقد استعصى على الناس ادراك مغزى هذه السياسة اذ كيف يرسلون بالامس الامير حسن مندوبا بدلا من غردون ليحافظ على مابقى من البلاد فى طاعة الحكومة ويسترجع مايقدر على استرجاعه مما خرج منها واليوم يطلبون تخلى الحكومة عن سائر البلاد السودانية الى صاحب المهدوية بغير شرط ولا عهد واجلاء من بها من العساكر * واختلف الناس فى أسباب ذلك الجلاء العاجل فمنهم من قال انه مترتب على عجز جيش ولسلى عن مقاومة العدوّ وتفشى الامراض الخبيثة بين افراده وسوء الحال الذى بات

فيه كبار العسكر فضلا عن تعذر النجدة عند الاقتضاء قالوا فاذا ظلوا مرابطين فى مواقفهم التى هـم فيها الآن أفنتهم الامراض العفنة والحميات الخبيثة ولو لم يقاتلهم العدوّ فلذلك قد عجلوا بالجلاء لفرصة فى مستقبل الايام ومنهم من قال بل كان هذا الجلاء قسرا فانه لما تحقق قيصر الروس من اشتباك الانجليز مع أصحاب المهدى وأنهم سيتغلغلون فى جوف تلك القارة السوداء ولا بد لهم من النجدات تلو النجدات والاشتغال بهذه الحرب المكؤود وكانت مسئلة تحديد التخوم بين أملاك السلطنة الروسية والديار الهندية لم تكن لتتم على مايشاء الروس أمر القيصر بحشد الجيوش على تلك الحدود وسير المواكب والاثقال من المدافع والمكاحل والمؤن والذخرة وبالغ فى الحركة فصاح عند ذلك والى الهند طالبا المدد وهب أصحاب صحف أخبارهم يستصرخون الجيوش ومقدمى الجيوش و ينادون يا قوم عصفور فى اليد خير من ألف على شجرة فأشار عند ذلك زعيم سياستهم بالجلاء العاجل عن السودان واستجماع عسكره على مقربة من ذلك العدو الاكبر والدب المظفر ولولا ذلك لكان من العسير على الانجليز الجلاء فى هذا الحين فانحدر ولسلى من دنقله الى القاهرة واجتمع بالسير بارنج والوزير نوبار باشا والخديوى فوقع بينهم من حديث الجلاء عن السودان ما لم يصل أحد الى معرفته وتحقق الناس جميعا أن ترك السودان الى صاحب المهدوية أصبح أمرا مقضيا وتأكد الخبر بانحدار الامير حسن ومن معه من الخدم والاتباع وانزوائه فى بيته وامتناعه من مقابلة أحد من الناس * ثم لم تكن الا أيام بعد مقدم الجنرال ولسلى حتى قبض نفر من عساكر الانجليز على الزبير باشا رحمت أحد عظماء السودان ونزيل مصر على عهد الخديوى اسمعيل وأرسلوه على ظهر احدى سفن حربهم الى جبل طارق مبعدا عن الاهل والبلد بغير قضاء ولا حكم فاندهش الناس وأخذتهم الطيرة وصاح أصحاب صحف الاخبار المحلية ووقعوا باللائمة على الخديوى والوزير نوبار باشا وقالوا كيف يصح للسير بارنج فعل ما لا يحل فعله فى بلاد قائمة بحكم نفسها بمقتضى قوانينها وشرائعها والرجل مسلم لاسلطة للانجليز عليه فكانت صيحتهم كصرخة فى واد أو نفخة فى رماد وأقام الرجل مبعدا عاما أو بعض عام قيل حتى استكتبوه ما شاؤا ثم أرجعوه فلم يعرف أحد منه ماجرى له فى منفاه

وجاء الخبر فى هذا الحين بجلاء من فى بلاد شرقى السودان من العساكر المصرية فاستولى نجاشى الحبشة على بعضها واحتل جماعة الايطاليان البعض الآخر وبقيت سواكن تتجاذب بقاءها الظنون فيوما يقولون انه ستحتلها عساكر السلطان ويوما عساكر هندية انجليزية ويوما ايطالية والهيئة الحاكمة بمصر لا تبدى فى ذلك نقضا ولا ابراما ثم سار الجنرال ولسلى الى سواكن فلبث بها أياما قلائل ثم عاد ومعه بعض كبار العسكر وكأنه قد ذهب لاجلاء من بها من الجند فلم يصل الى مدينة السويس حتى أخذ المرابطون بسواكن فى الجلاء عنها فلم يبق بها سوى نفر من الانجليز والهنود وجماعة من المهندسين

وأركان الحرب رباطا وانحدر كذلك من كان فى مروى من العسكرين الانجليزى والمصرى وانكف المأمورون عن شراء الجمال والخيل والبغال التى كانوا يشترونها من كل صوب لخدمة الحملة فكبر الخوف بأهل دنقله والباقين على ولاء الحكومة مما سيحيق بهم من ذلك العدوّ الكنود بعد جلاء العساكر عنهم فنزحوا أفواجا أفواجا وانحدروا الى اسوان وأسيوط والقاهرة ونزل العدد العديد منهم بالوكائل والدور المتخربة فى ضواحى القاهرة ومصر القديمة وطاف بعضهم فى الازقة والحارات يتكففون و يطلبون صدقة أهل البر والاحسان فكانت حالهم مما يرق لها الجلود فضلا عن العدوّ الكنود وقد أحصوهم يومئذ فكانوا زهاء خمسة عشر ألفا عدا الصغار منهم وقد لقوا مرّ العذاب عند جلائهم لانهم تركوا متاعهم وكل شئ لهم لتعذر النقل وامتناع أصحاب الحمل من معاونتهم على الجلاء وقد بلغ ثمن الجمل خمسين جنيها وأكثر هذا اذا وجد ولم يتم جلاء الانجليز عن قرطى حتى احتلها أصحاب المهدى وأقاموا فيها المعاقل والحصون واتخذوها مركز حركتهم الى دنقله عند جلاء العساكر الانجليزية والمصرية عنها *ومن عجيب الاتفاق أنهم ما احتلوا قرطى و بقية المواقع التى كان بها الانجليز والمصريون حتى أصابهم الجدرى والاسهال والحميات الخبيثة وعمل فيهم الموات عمله وقد كان الانجليز يقاسون هذه الامراض من قبلهم ومع ذلك فان أصحاب المهدى لم يبارحوا تلك المواقع ولم يثنوا عنان العزم عن انجاز كل ما رسم لهم به المهدى * وبينما كانت الجيوش تنحدر من أعالى النيل الى وادى حلفا واسوان وقد بلغ القاهرة جماعة من كبار العسكر اذ شاع الخبر وتناقله الناس بأن زعيم السياسة الانجليزية على عزم ارجاعهم جميعا الى مواقف القتال حتى يفتحوا ما تركوه من البلاد و يسترجعوا ما فاتهم منها – قالوا وذلك لانه جاءه الخبر اليقين بموت مدعى المهدوية بالجدرى فى خامس عشر رمضان سنة اثنتين وثلثمائة وألف ثم لم تكن الا أيام حتى وردت الكتب من مصوع وسواكن ودنقله وعن السعاة والجواسيس الذين أرسلهم الجنرال جرانفل باشا بصحة الخبر و بأن الذى تولى الخلافة بعده عبد الله التعايشى والتعايشى هذا كان رفيقا للمهدى منذ ظهوره أى من اليوم الذى كان أصحاب المهدى لا يتجاوزون الستة وقد لازمه ملازمة الظل للشبح فكان مدبر أموره و بيت سره ولكنه دونه فى الذكاء وبعد النظر والدهاء

(مطلب)
عبث اللصوص فى شرق البلاد وغربها

وكأن اللصوص وأشقياء الناس قد تحققوا من ضعف الحكومة فى هذه الايام وعجزها عن الحركة والذب فكثروا فى البلاد وانتشروا فى الاقليمين فأفسدوا وأضروا بالحرث والنسل وانبثوا عصابات فى كل صوب وحدب فكانوا ينزلون على البلاد والقرى ليلا كأنهم المغازون الفاتحون فيقتلون و ينهبون و يقضون ليلهم فى التطواف على البيوت بين ضرب وطعن غير هيابين ولا وجلين وكانوا اذا دخلوا بيتا أوقدوا ما معهم من الشموع وأيقظوا صاحب البيت أو صاحبته وأجلسوها وسألوها عما عندها من مال أو متاع فاذا أجابتهم

بالحسنى ودلتهم على المكان أخذوا ما وجدوه وأكلوا وشربوا مما يعثرون عليه من طعام وشراب وخرجوا آمنين مطمئنين لا خوف عليهم واذا رأوا من أصحاب الدار دفعا كانت الداهية الدهياء على البلد وجميع من فيه فيتفرقون فى أزقته ودروبه أو خارجا عنه ويصلون أهله نارا حامية ويفعشون فى القتل والتخريب وهتك الاعراض وكان الذى أكبر فيهم هذه القحة المتناهية ما التقطوه من البنادق والخرطوش مما تركه العساكر المصرية إبان الثورة العرابية فى ميادين القتال بكفر الدوار والمسخوطة والتل الكبير * وقد كنت يومئذ رئيسا للنيابة العمومية بمحكمة المنصورة الاهلية فرأيت من غرائب أفاعيل أولئك الطغاة أمورا لا يكاد العقل يتصورها من ذلك أنهم سطوا ليلة على بلدة العزيزية « احدى بلاد الشرقية » وكان منسرهم زهاء الاربعين لصا وهم مسلحون ببنادق رمنجتون التى التقطوها من ميادين الثورة فلما أحس بهم خفراء البلد قاموا فى وجههم وأطلقوا عليهم البنادق تباعا فقابلهم اللصوص بالمثل واشتبك القتال بين الفريقين وخرج أهل البلد بما عندهم من الاسلحة وقاتلوا اللصوص قتالا عنيفا من بعد العشاء الاخيرة حتى مطلع الفجر وبينما النيران تتراسل بين الفريقين كان جماعة من اللصوص ينقبون جدران البيت حتى اتصلوا بمكان لرجل اسمه عبد الجليل أغا المورلى فدخلوه وأخذوا جميع ما وجدوه من حلى ومتاع وقتلوا صاحب البيت وابنته وخادما اسود وخرجوا بما أخذوه من وسط زحام أهل البلد وهم على أشد ما يكون من القحة والجراءة وقد أحصينا ما أطلقوه من الخرطوش فى تلك الليلة فكان زهاء السبعمائة خرطوشة واهتمت الهيئة الحاكمة بأمر أولئك الاشقياء اهتماما عظيما فرتبت لمحاكمتهم محاكم فوق العادة باسم لجان تحقيق الجنايات وخوّلت لها شيأ فوق الحقوق القانونية فجعلت من يومها تقبض على كل ذى شبهة وكل شقى وتودعه الحبس ثم تتحقق من جنايته وتحكم عليه بالعقوبات الشديدة بين قتل وأشغال شاقة ومؤبدة وسجن مؤبد وغير ذلك من صارم العقوبات فامتلأت الحبوس بعديد أولئك الاشقياء فى الاقاليم البحرية والقبلية ورسم الخديوى أيضا بجمع ما تركه أصحاب الثورة العرابية فى ميادين القتال من البنادق وأدوات الحرب وبكبس دور أهالى كافة القرى والبلاد واخراج ما بها من ذلك ومعاقبة من يوجد عنده شئ منها بأشد العقوبات فأحصينا ما جمعوه يومئذ من قرى الدقهلية والشرقية وبعض البلدان الاخرى فكان زهاء عشرة آلاف بندقية ومائة ألف من الخرطوش فخاف عند ذلك الاشقياء وانكمشوا وبطل سطو العصابات واطمأنت قلوب الناس قليلا وأمنت الطرق وبات أصحاب الزرع فى مزارعهم بعد أن كانوا لايلتفتون اليها اذا قربت الشمس الى الغروب وسارت تلك اللجان فى عملها سيرا حثيثا فلم تخل من الانتقاد والتعييب ولم تتنزه أحكامها عن الخطا بأخذ البرىء بذنب المجرم وظلت على هذه الحال عامين وبضعة أشهر حتى أمر الخديوى بحلها فانحلت وعاد النظر فى الجرائم كلها الى المحاكم الاهلية كما كانت عليه من قبل والحكم لله وحده من قبل ومن بعد

وصـــــل

﴿ فى آمال وفرض احتمال ﴾

الى هذا الحين كانت قد تبدلت وزارة غلادستون شيخ الاحرار وزعيم السياسة الانجليزية الذى فعل بالسودان ما فعل بوزارة المحافظين القائم على رأسها اللورد سالسبورى وأصبح هذا اللورد زعيم السياسة والقابض على دفة الرئاسة فلما علم المصريون بهذا التغيير ترامت ظنونهم الى أبعد المرامى وتعلقت آمالهم بأعصى المرامى وجعلوا يفرضون الاحتمالات ويتساءلون فيما بينهم عما عسى أن يكون من سياسة ذلك الزعيم فلم تكن الا أيام حتى وردت كتبه على قائد جيوشهم بمصر بلزوم التخلى عن سائر بلاد السودان وتركها شرقا وجنوبا الى خليفة الخارجى وغيره ممن يشاء احتلالها وعدم الخروج عما رسم به الوزير غلادستون فلما كان السابع من رمضان من السنة أى سنة ثلاث وثلثمائة وألف هجرية اجتمع الوزير نوبار باشا وسائر الوزراء والمشير مختار باشا مبعوث السلطان والسير ولف مبعوث الانجليز والسير بارنج والجنرال استيفنصون قائد الجيوش الانجليزية بمصر وكبار العساكر المصرية والكولونيل كروف أحد مقدمى العساكر الانجليزية وبعض كبار عسكرهم أيضا فلما انتظم عقد اجتماعهم أبرز الجنرال استيفنصون ورقة وقرأ ما فيها علنا واذا هى مرسوم زعيم سياستهم الذى كانت ترجى رحمته بأهل السودان يقول فيه — ان حكومة جلالة ملكة الانجليز تطلب من أصحاب الحل بديار مصر — أولا اخلاء وادى حلفا التى تبقى مستقرا لطائفة من العساكر المصرية فقط رباطا — ثانيا استرجاع سائر الجيوش الانجليزية من اسوان وتحديد مواضع استقرارهم فى مدينتى أسيوط والقاهرة — ثالثا امداد القبائل المصافية بما يحتاجونه من المال والذخرة ليتيسر لهم مقاتلة العدو فى وادى حلفا اه فما أتم الجنرال قراءة ذلك حتى أخذ العجب من جماعة المصريين مأخذه وعرتهم الدهشة وسكتوا لحظة ثم جعلوا يناقشون جماعة الانجليز ويراجعونهم فى الامر فاشتد الاخذ والرد بين الفريقين واختلفوا وذهب كل الى مذهب فقام حينئذ الوزير نوبار باشا وقرأ على مسمعهم نبأ ورد اليه من يوسف شهدى باشا الذى كانوا بعثوا به الى وادى حلفا بعد رجوع الامير حسن ليسهل الجلاء على النازحين من تلك الاطراف ويكلم دعاة المهدى فى أمر الصلح والتعاهد معهم على الهدو والسكون يقول فيه — انه قد وصل الى وادى حلفا خلق كثير من الموظفين المصريين القدماء فى الخرطوم وأخبروا بأن الفوضى ضاربة فى تلك البلاد بين الاهالى والامراء والرؤساء وأن الشقاق مستحكم بين عبد الله التعايشى خليفة المهدى وأبى الخير أمير بربر وأن القبائل تتأهب للقتال وأن لاصحة لخبر تحفز العصاة للوثوب على التخوم فما أتم الوزير مقالته حتى وقع الهرج بينهم وعلت الضوضاء وكبرت ضجة

المصريين واشتد ظهر الوزير بهم فتكلم فى الامر طويلا ولكنه رأى من جماعة الانجليز غلظة فى الرد وجفاء فى القول واشتد السير ولف فى الكلام مع المشير مختار باشا ثم انفض اجتماعهم على غير طائل وهمّ الكولونيل كروف بالرحيل لتبليغ خبر ما جرى الى صاحب سياستهم وأعقب ذلك ورود الخبر من يوسف شهدى باشا بعجزه عن العمل وبعدم امكان استتباب الأمن على التخوم الا اذا استرجعت دنقله وأخذت من دعاة المهدى وقد هوّن على أولى الامر بلوغ الغاية بنفر من العساكر المصرية وبشئ قليل من النفقة فلم يقو المشير مختار باشا على اقناع السير ولف بذلك ولم يتمكن الوزير نوبار من استمالة السير بارنج الى رأيه ورحل السير بارنج عن مصر الى دار السلطنة الانجليزية فلحق به الوزير ولم يلقيا عصا الترحال حتى جاء الخبر بنجاح الوزير فى استرجاع الصلات التجارية بين مصر والسودان والتصريح للقوافل بالخروج الى الدروب ففرح الناس بذلك فرحا عظيما وتأهب أصحاب التجارة لذلك وبعثوا البعوث الى أسيوط وحلفا واسوان ليمهدوا لهم الطرق ويتفقوا مع المكارية وأصحاب الابل وراجت أصناف التجارة السودانية أوكادت رغما عن الاخبار المتواترة بوقوف الدراويش والدعاة فى جميع الدروب والمسالك وشنهم الغارة على الحدود * وكان الناس يقولون كما أقول ان اعادة هذه الصلات ينجم عنها فائدتين عظيمتين أولاهما تدانى الخواطر فى السودان من جانب الصلح والسلام والثانية نهوض التجارة من حضيض الكساد الى أوج الرواج * وكان المشير مختار باشا مندوب الباب العالى يذهب أيضا الى هذا المذهب ويكثر من ارسال الكتب الى الباب العالى والمابين الهمايونى فى ذلك ويقول انها مفتاح مغالق السلام والطمأنينة وخلود العدو الى السكينة وظل الحال هكذا أياما حتى جاء الخبر ثانية بعدم نجاح الوزير فى رسالته وامتناع زعيم السياسة الانجليزية من استرجاع دنقله ومن اعادة الصلات التجارية بين مصر والسودان فعاد الوزير وعاد كذلك السير بارنج وكتب يوسف باشا شهدى متتابعة الى الخديوى والوزير نوبار باشا بالحض على فتح دنقله وانتهاز هذه الفرصة التى أنشب فيها الجوع أظافره بأصحاب الفتنة من أدنى السودان الى أقصاه وكبار عسكر الانجليز باسوان يشكون من فعل الامراض الخبيثة بعساكرهم وامتلاء بيوت المرضى منهم فترفع الجنرال استيفنصون قائد الجيوش الانجليزية الى وادى حلفا وأقام بها رباطا من الانجليز والمصريين ورتب العيون والجواسيس من الجند تخلصا من تغرير الجواسيس من أهل البلد وأقام كذلك باسوان رباطا ورسم بتبعيد الروم بائعى الخمور والمسكرات فأقصوهم الى اسوان رحمة بالعساكر الانجليزية الذين ضاقت بهم بيوت المرضى بسبب ادمانهم على السكر وأراقوا خمورهم فى النيل وفى الطرقات فضجوا وعجوا وانحدروا الى القاهرة صفر اليدين وجعلوا يرجفون ويشيعون الاخبار المقلقة عن الجنود الانجليزية والناس لا ينكرون عليهم شيأ مما يقولون لما تولد فى صدورهم من البغض لسائر المحتلين على اختلاف طبقاتهم

والى

(مطلب)
والى هذا الحين لم تقف رحى المخابرات مع الباب العالى

والى هذا الحين لم تكن لتقف رحى المخابرات بين الباب العالى وصاحب سياسة الانجليز ولم تنكف الرسل عن التردّد بين الفريقين وهم بين أخذ وردّ وكتب الغازى مختار باشا تترادف على المابين الهمايونى وكلها ملأى بأوجه الاصلاح وأسباب الخير للبلاد فكان صاحب السياسة الانجليزية يطاول فى ذلك ويحاول وفى كلامه شئ من الجفاء والغلظة وكان اذا جاءت جواسيس الحدود بخبر تحوّل نفر من السود عند التخوم فى طلب الماء أو الكلا لماشيتهم طير الانجليز الخبر الى الآفاق بأن قد قامت الحرب واتسع ميدان القتال بين دعاة المهدى والجند المرابطين هنالك فيصيح حينئذ أصحاب صحف أخبارهم وا حرباه المدد المدد واذا تخاصم هنالك اثنان من سائقى الابل على ركوة من الماء أو شئ من التمر قالوا هما من أمراء الدراويش وقد أتيا يسترقان السمع ويستكشفان مرابط الجند فيصيح حينئذ أصحاب صحف أخبارهم وا كرباه النجدة النجدة فاذا أغضى الباب العالى وخفض المابين الجناح أو أظهر شيأ من المجاملة انكفوا وقالوا ان الحدود آمنة مطمئنة لا خوف عليها من زعانف السود فكانت الدول كافة تنظر مع الباب العالى الى هذه المغامز نظرة الحائر فلاهم يجسرون على نبذها وايقاف ترهاتها عند حدّ ولاهم قادرون على اكراه هذا الاسد الرابض على الجلاء عن البلاد وتركها لأهلها وغاية ما فعله كل من زعيم السياسة الروسية وزعيم سياسة الفرنسيس أنهما كتبا الى زعيم سياسة الانجليز يقولان انهما لا يعترفان بصحة أىّ اتفاق يحصل رأسا بين الباب العالى ودولة الانجليز فكان من وراء ذلك أن وقفت رحى المخابرات بين الباب العالى وسفير الانجليز بدار السلطنة العثمانية وبارح السير ولف رسولهم القاهرة وانكشف شئ مما خفى من تلك المخابرات وهو اعتراف السلطنة الانجليزية بسيادة السلطان عبد الحميد خان على ديار مصر وتكفل جماعة الانجليز بتأييد الراحة والطمأنينة فى داخلية البلاد ودفع كل عدوّ خارجى بحيث ان خزينة البلاد هى التى تقوم بالنفقة على ذلك فى كل عام ثم جلاء الجيوش الانجليزية عندما يصح الجلاء بامتناع الاسباب الحائلة دونه فاذا تم الجلاء لزم زيادة عدد العساكر المصرية ووجبت زيادة القوّاد بينهم من الانجليز ويصح أن يستخدم معهم نفر من الضباط العثمانيين فاذا مضت ثلاثة شهور ولم تقم حرب على التخوم لزم جلاء العساكر الانجليزية عنها الى اسوان ووادى حلفا وحلت محلهم العساكر المصرية ورحلت حامية القاهرة الانجليزية الى مدينة الاسكندرية بحيث يبقى لجماعة الانجليز أرجحية الرأى والادارة فى سائر المسائل المتعلقة بالخزينة والاشغال العمومية قالوا أما وزارة الداخلية ووزارة الحقانية فتبقيان مصريتين مطلقا مع الاعتراف بسيادة السلطنة الانجليزية الادبية على مصر اعترافا لايقبل اللبس والابهام فلما شاع خبر ذلك قام له أصحاب الصحف المحلية وقعدوا واستصرخوا رجال المابين الهمايونى وقالوا عليكم بالتأنى فى تدبير حل هذا المشكل واياكم والعجلة فان الخطب جلل وخذوا برأى صاحبى سياسة الروس والفرنسيس حتى لايكون فى عملكم ما يوجب الندم أو يدفع الى زلة القدم

قالوا وأنتم يا أهل البلاد « ينادون المصريين » عليكم بملازمة الهدو والسكينة وخفض جناح الطاعة لأولى الأمر عسى أن تعترف جماعة الانجليز بذلك ولا تنكره فيجلون عن البلاد أو يعينون ساعة الجلاء * فلم تكن الا أيام بعيد هذه الصيحة حتى أتت كتب زعيم السياسة الانجليزية الى الوزير بعزمه على ارسال حملة خصوصية الى خط الاستواء بقيادة الرحالة استانلى لانقاذ أمين باشا مدير خط الاستواء على عهد غردون وانقاذ من معه من العساكر والمرابطين فى تلك الاطراف فلم يعجب الوزير هذا الخبر وأكبره لما فيه من المغامز والمقاصد الخفية ﴿ قلت وأمين باشا هذا رجل ألمانى الاصل كان طبيبا مع غردون على عهد الخديوى اسمعيل فولاه غردون يومئذ الوظائف العالية حينا ثم استعمله على عمالة خط الاستواء فبدل اسمه من الالمانية الى العربية وديانته من النصرانية الى الاسلامية وسار فى تلك الارجاء سيرة الملوك والسلاطين وتقرب من مشايخ وزعماء القبائل وتمكن من المنصب أى تمكن فلما قامت الفتنة المهدوية وخرجت سائر الاصقاع السودانية من قبضة الحكومة المصرية بقى أمين باشا هذا متربعا فى دست منصبه لا يزاحمه مزاحم ولا يحاربه متاخم فتاقت نفسه حينئذ الى الاستقلال بملك تلك الاطراف واستمال اليه زعماءها وتحبب لعظمائها وادّخر المؤن وأعد المعدات ليوم الكريهة — وعلم أصحاب الشركة الافريقية الانجليزية بخبر ما عنده من العاج وريش النعام وتحقق أهل الحل والعقد فى السلطنة الانجليزية مما هو عليه من عزة السلطان ونفوذ الكلمة وأيقنوا أنه سيكون عقبة كؤودا فى طريق ملك مملكتهم الجديدة التى ينوون بسط يدهم عليها حتى يدخل فى حوزتهم السودان من أدناه الى أقصاه وتتبع ذلك الاقطار المصرية الى الاسكندرية فأوعزوا هم وأصحاب تلك الشركة الى صحف أخبارهم فأقاموا حينئذ صيحة الاسف وضجوا ضجيج التوجع على مصاب أمين باشا وجعلوا ينادون وا غوثاه أغيثوا يا أهل المروءة سجين خط الاستواء ارحموا يا أهل الرحمة والحنان من معه من الرجال والاطفال والنساء وأمين باشا فى إبان هذه الضجة قرير العين جذل بما أتاحته له الايام من السكينة والاطمئنان وكان فى حوزته تسعة مواقع حصينة قائمة على شاطئ النيل ومعه من الجنود نيف وألفا مقاتل مدججين بالسلاح وعشرة من المصريين بوظيفة مقدمى العساكر وخمسة عشر من السود ومعه عشرون من الاقباط أصحاب الوظائف الديوانية وكثير من النساء والاطفال والخدم والاتباع وكلهم فى صحة وعافية وظل أصحاب تلك الصحف على هذه الحال من النداء والاستغاثة أياما حتى صدّق الناس أوكادوا يصدّقون أن خلاص أمين باشا والاتيان به من تلك المجاهل البعيدة عمل من أجلّ الاعمال المشكورة التى تفردت بها أمة الانجليز ولم تمض بعيد ذلك الا أيام حتى جاء الطلب من صاحب سياستهم الى الوزير بتقدير النفقة لارسال حملة لانقاذ أمين باشا هذا ومن معه والاتيان بهم الى القاهرة فراجع الوزير السير بارنج فى ذلك فلم يفلح واشتد السير بارنج فى الطلب فتقرر على الخزينة القيام بنفقة الحملة وقدرها

(مطلب)
العزم على انقاذ أمين باشا من خط الاستواء

اثنا عشر ألفا ذهبا وسار استانلى رسولهم لانقاذ أمين باشا بحملته عن طريق الزنجبار فلقى فى طريقه بعض المقاومة من جماعات السود مما عاقه عن السير أياما وما زال حتى بلغ خط الاستواء والتقى بأمين باشا ولبثا يتجادلان أياما اذ لم يكن أمين باشا ليرضى بترك مقره ولا التسليم فى سلطانه فجعل استانلى يهدده تارة ويمنيه بالامانى الكثيرة أخرى حتى تمكن من احضاره مع بعض نسائه وأولاده ونفر من المصريين الى الزنجبار فلقيه قنصل الالمان وتحادثا فيما هم فيه هناك * فحبب اليه الرجوع الى مقره والعمل تحت ظل الراية الالمانية وعدم الالتفات الى شئ مما يقوله استانلى قيل ففرح أمين بذلك وتقوت عزيمته وامتنع من الرحيل عن الزنجبار وصمم على الرجوع الى واد لاى ووافقه على ذلك نفر ممن جاء معه من المهاجرين ووردت الاخبار بذلك الى القاهرة وتحدث الناس بها كثيرا وكبرت الوحشة بين أمين واستانلى قيل وتلاكما ثم تماسكا بالاطواق وانحدر استانلى الى السويس يريد القاهرة على غير طائل فوصلها فأولم له الخديوى وهنأه رجال الدولة بسلامة العودة فلم تكن الا أيام حتى برح الخفاء وظهر للعالمين ماخفى من سر بعثة استانلى وداعى انقاذ أمين باشا اذ قام أصحاب صحف الالمان يرمون استانلى بالخديعة والمكر ويسمون السلطنة الانجليزية بالخيانة والغدر ويقولون انها أخلاط من أصحاب المتاجر فى ريش النعام وسن الفيل ومزيج من المرابين والسوقة ثم جعلوا يتهددونها بالحرب والقتال فى تلك القارة السوداء ان لم تقلع عن عدائها لدولة الالمان ومعاكستها فى مستعمرتها الافريقية أو ان هى عملت عملا يكون من ورائه الاضرار بأمين باشا فرد على ذلك أصحاب صحف الانجليز ردا جافيا واستطالوا على دولة الالمان بهذر الكلام وهددوا أمين باشا بالخيبة وسوء المصير ان هو عاد الى واد لاى ليؤيد فيها السلطة الالمانية وقالوا سوف يرى « يعنون أمين باشا » من الشدائد ما ليس له فى حسبان بحيث لا يستغرب عجزه عن الوصول الى بحيرة نيانزه أو أوغانده فان وصل فلا بد أن يرى عند وصوله اليها العلم الانجليزى خافقا عليها لان الشركة التى قد سيرت استانلى لخلاصه ستسبقه اليها لتمد فيها النفوذ البريطانى وتمنع يد الالمان من التطاول اليها مهما كلفها ذلك من النفس والنفيس * وكأن استانلى قد أوجعه طعن أصحاب صحف الالمان ووخزهم لفؤاده الدامى بعد خيبته فى استرجاع أمين باشا فالتقى يوما بأحد مراسلى صحف الانجليز الكبرى فقال له وهو يتنفس الصعداء قل لى بحقك ما الذى دفع بأصحابنا الألمان الى كل هذه المهاترة والهراء ولقد كان من واقع أمرى أننى خيرت أمين باشا بين خصال ثلاث ليختار احداها إما البقاء فى واد لاى تابعا للسلطنة الانجليزية براتب سنوى قدره ألف وخمسمائة جنيه مع مساعدة مالية قدرها اثنا عشر ألفا وإما أن يرحل الى جهة أخرى من تلك القارة ليستقل بحكمها واما أن ينحدر معى الى القاهرة فهذا كل ما حصل مما لا يستلزم كل هذه الجلبة والتطاول على غير مسوغ فبلغهم عنى ما سمعت منى والله يحكم بيننا * فلما بلغت أمين باشا مقالة استانلى هذه وأن استانلى يتهمه أيضا

بأنه لم يذعن الى مبارحة واد لاى الا بعد أن فرض له جعلا على ذلك قدره اثنا عشر ألفا ذهبا أكبر الامر وأعظمه وكتب الى صديق له من أصحاب الحل والعقد فى السلطنة الالمانية يقول لم يبق فى وسعى وأيم الله مراعاة السكوت والكتمان فى حق من لم يكتم السر ولم يراع حقوق الذمة فلقد عرض على استانلى رسول تلك الشركة الطامعة قبول خصلة من خصلتين إما أن أترك منصبى فى خدمة الحكومة المصرية وأدخل فى خدمة ملك البلجيك بمستعمرة الكونغو برتبة قائد مع بسط سلطتى على واد لاى وأن أطلب لنفسى ما أريده من الراتب السنوى خلاف مبلغ الاثنى عشر ألف جنيه الذى سيتقرر كنفقة للادارة واما أن أجمع له جندا من السود ليكون هو قائدهم من جانب تلك الشركة الانجليزية لايقل عددهم عن أربعة آلاف ليسيروا معه « يعنى مع استانلى » الى الجنوب الغربى من بحيرة فيكتوريا نيانزا ويحتلوا كاخيرندو ثم يؤسسوا فيها مركزا اذا وجدوها موافقة ويذهب استانلى فى أثناء ذلك الى مومباسيا ليأتينى بسفينتين نقالتين لنقلى مع طائفة من جيشى لبعثة فى نواحى أوغاندا وأونيورو حتى اذا تم لنا فتح ذلك الصعيد كانت مركزا لنا نزحف منه رويدا رويدا الى واد لاى مقر حكومتى القديمة ثم أجمع بين البلادين وأتولى الحكم فيها باسم الشركة الافريقية الانجليزية لاباسم الحكومة المصرية — قال — وقد ألح على ذلك الانجليزى « يعنى استانلى » بوجوب الدخول فى خدمة تلك الشركة وتفضيلها على الحكومة المصرية وكان عافاه الله يخاف كثيرا من أنى أفضل البقاء فى مقر سلطانى على الرحيل معه لعلمه أنى بانفصالى عن خدمة الحكومة المصرية لايمنعنى شئ من الرجوع الى خدمة دولتى اذا دعيت اليها ولذلك قد عقد نيته وعزم عزما ثابتا على أنه إما أن يكرهنى على قبول خصلة من الاثنتين وإما أن أرضخ لامره وأبارح على الفور القارة الافريقية والا سلبنى جميع ما عندى من ذخرة ومؤنة وآلات حرب وتركنى وشأنى لا زاد ولا سلاح فاضطررت الى مرافقته كارها حزينا فظن أنه قد نال منى أربه وفاز بمغنمه وساعدته القدرة على تقليم أظافر ذلك الأسد ولكن قد خابت آماله وفسدت احلامه وها أنا اليوم خادم للراية الالمانية فى تلك الارجاء والله من وراء ما يعملون

قلت وشاع عند وصول استانلى الى القاهرة أنه أشار على الخديوى والوزير أن يرسلا الى سلطان الزنجبار فى طلب أمين باشا وانه اذا حضر له عاقه ومنعه من الرجوع الى واد لاى فلم يفلحوا جميعا فى ذلك لما ناله أمين باشا من المكانة وعزة الجانب بين الالمان وتحقق الناس حينئذ أن تلك الصيحة التى بلغت عنان السماء من جانب جماعة الانجليز لاستنهاض أهل النخوة وأصحاب المروءة الى فك أسر أمين باشا وانقاذ من معه ليست من الحنان فى شئ ولا هى لوجه الله تعالى ۞ وظهر اهتمام دولة الالمان بتلك الارجاء وبحملة أمين باشا فبالغت فى تشييعها وأكثرت لها من المعدات وآلات الحرب وأوعزت الى أمين باشا بأن يبسط يده على بحيرات نيانزا وما والاها مع واد لاى وان لا يبقى ولايذر وسيرت اليه جماعة

من مقدمى العسكر وعظيما من قومها اسمه الماجور ويسمن قد ولته الولاية العامة على ما كان وسيكون لها من المرافق والاملاك هنالك ثم صاحت على جماعة الانجليز بلسان أصحاب صحفها الكبرى أن ارجعوا عن طمعكم وخففوا من جشعكم فى القارة السوداء واعلموا أن يومكم ليس كأمسكم فلا ارعاد سلطنتكم القديم ينفع ولا ازبادها اليوم يدفع واقصروا أيديكم من التطاول الذى هو دأبكم فعيوننا وأرصادنا ترمقكم من كل صوب وحدب وعسكرنا يحول دون بلوغ سلطنتكم كل أرب لا سيما وان كلمتها هنالك قائمة على الايهام والتغرير وسلطانها أفرغ من كن الفقير فلا عسكر لها هنالك ولا كراع ولا حصون ولا قلاع فان أحسنت العمل فلنفسها وان أساءت فعليها والسلام * فقام لذلك جماعة الانجليز وهموا بعمل شئ يرجون من ورائه كشف هذه الغمة فلم ينالوا مأربا واهتمت دولة الالمان من هذا الحين بتوسيع نطاق استعمارها فى قارة افريقية بعد أن كانت تبتعد عن ذلك وتجتنبه ضربا من الطمع وعمدت الى المزيد من الفتح — حصل هذا كله ورجال مصر لاهون بما عندهم من المشاغل معرضون عن الاهتمام بشئ مما وراء الحدود التى رسمها لهم صاحب السياسة الانجليزية والناس فى دهشة مما يرون ويسمعون — وقد تفرق بعض من حضر من المهاجرين مع أمين باشا فى أزقة وحارات مصر والقاهرة يستعطون أهل البر والاحسان ويحدثون الناس بما كانوا فيه وقد طرقوا أبواب الحكومة فى طلب ما تأخر من جماكيهم وما يستحقون من المعاش حتى وقفوا فى طريق الوزير فاهتم بأمرهم وكشف عن بعض غمتهم وصرفوا لهم ثلث ما تأخر لهم وطالب كذلك أمين باشا الخزينة بماله من المتأخر مدة السبع سنوات التى لبثها فى أواسط أفريقيا فاجابته الى طلبه صاغرة وأعطته ما يستحق كارهة ورتبت له معاشا شهريا يتقاضاه من الخزينة * وأشاع جماعة الانجليز عن أمين باشا بعيد ذلك الاشاعات المختلفة والاقوال المقلقة عند قومه فيوما يقولون انه مريض ويوما يقولون انه فقد السمع والبصر ويوما انه جن وآخر انه سقط من شرفة مكانه فدق عنقه ومات وغير ذلك من الاشاعات المتباينة حتى قدم الماجور ويسمن من الزنجبار الى القاهرة ومعه بعض الخدم من السود والاتباع فاحتفل بمقدمه جماعة الالمان وبالغوا فى اكرامه وأدبوا له المآدب الفاخرة فوقف مرة خطيبا فى احدى تلك المآدب وقال أشكركم على المقابلة التى قمتم بها نحوى كلما أسعدنى الدهر بالمرور فى هذه العاصمة الزاهرة ثم انى أخبركم بأننى قد قمت بالمأمورية التى عهدها الىّ امبراطور المانيا وأؤكد لكم بأن السلام الذى عبث به بعض الثائرين قد استتب فى جميع سواحل افريقيا الشرقية والفضل فى ذلك للعساكر والمدافع التى استخدمتها لاخضاعهم ولكننى مع ذلك أقول انه يتهدد مصالح المانيا فى أملاكها الآن مصاعب سياسية ولذلك فقد دعانى عظمة الامبراطور « يعنى امبراطور المانيا » لأبين له نتيجة بعثتى وأعين الرسوم الجديدة لاملاكنا فى افريقيا حسما للنزاع الذى ربما ينشأ عن هذه المصاعب السياسية ثم انى أؤمل أن أعرض على

دار ندوتنا حالة دولتنا فى أملاكها فى افريقيا وأسأل النفقة اللازمة لاقامة مملكة استعمارية المانية ثابتة فى تلك البلاد وأؤكد لكم أنه رغما عن المساعى التى يبذلها البعض لمنع النفوذ الالمانى فى افريقيا فان المانيا لاتتأخر البتة رغم أنوف الذين يحولون دون أعمالها المدنيـة

هذا وانى أنقل لكم سلام أمين باشا الذى لايزال يذكر اصدقاءه فى مصر وأبشركم بأنه على غاية الصحة والعافيـة خلافا لما تقوله الجرائد عنه من أنه مريض كفيف البصر معتوه العـقل بل هو لا يزال كما عرفناه من عشر سـنوات بدليـل أنه بدلا من أن يعود الى بلاده للمعالجة قد أحب أن يعاود سفره الى أواسط أفريقيا رئيسا لحملة عظيمة ولقد أخذه العجب من الذين كانوا يدعونه بالشهير « يعنى الانجليز » أيام كان فى خدمتهم ثم أصبحوا الآن يدعونه بالكفيف العاجز المعتوه بعد أن فارقهم وعاد الى خدمة دولتنا فسبحان مغير الاحوال اهـ

وعاد استانلى الى عاصمة الانجليز فأجزلت له سلطنتها العطاء ولقبته بأكبر الالقاب عندها وأسندت اليه مسـندا عاليا وهو اليوم فى مصاف أهل الرأى وأصحاب الشورى فنشط الى استنهاض أصحاب الحل والعقد الى الوقوف فى وجـه الدولة الالمـانية ومنعها من التغلغل فى جوف القارة الافريقية ووقوفها سدا قويا فى طريق الانجليز هنالك وجعل يخطب فى الناس ويملأ صحف أخبارهـم بعبارات الحض والاستنهاض والأنين والشكوى من تقاعـد رجال السلطنة الانجليزية عن تدارك الخطب قبـل استفحاله لاسيما وقد تمكنت دولة الالمـان من قلب القارة الافريقية أوكادت فتحركت حينئذ خواطر القوم وهمّ صاحب سياستهم بارسال عظيم منهم الى عاصمة الالمـان يرجو امبراطورها الوقوف عند حد ومنع ذلك الخصام واللدد فلبث الرجـل هنالك أياما حتى رسم الامبراطور لرجـل من قومه اسمه الدكتور كرانل بأن يناقش رسول الانجليز فيما جاء فيـه فأقاما على هذه الحـال أياما طال فيها الاخذ والردّ بين صحف الفريقين وكثرت بينهم المهاترة والقول الهراء على ماتقدم بيانه فجعلت حينئذ أصحاب صحف الفرنسيس تسخر بهم وتهزأ بفعالهم * فما قالته احدى تلك الصحف الافرنسية عبارة لا بأس بايرادها هنا فانها تشخص لقارئها واقعة الحال بأجلى مظاهر التعبير وتدله على نوايا السـلطنة الانجليـزية فى تلك القارة من أقصاها الى أقصاها — قالت لعـمرى ان من تأمل مساحة تلك القارة الواسعة على صفحات الخريطة تبين له من أول نظرة أنها كافية لاستعمار سائر الدول حتى دولة البرتغال ولكن متى تذكر ما اتصـفت به الدولة الانجليزية من الطمع والانانية واستعمار الدولة الالمـانية واندفاعها فيـه عاد به الامر الى عكس ما توهم من كفايتها حتى لنسأل عن الدولتين بعـد اذا حرمتهما منها دولة البرتغال حتى لا ينتهى بهـما الحال الى الخصام عليها وقد رأينا أن نمثل للقارئ دورا لطيفا بين هذين الرسولين نعنى بهما رسول دولة الانجليز ورسول الالمـان بكلام نسطره لهما مما يوافق الحال وان لم نبلغ فيه الى ما دار بينهما من الجـدال بحرفه ولكنه يبين للقارئ باجلى بيان نوايا الدولتـين فى تلك القارة السـوداء

فنقول ليتمثل القارئ النبيه رسول الانجليز منكبا على خريطة افريقيا وفى يده قلم يخط به خطا من الدرجة الحسين طولا على طول طريق يؤدى الى أواسط افريقيا من بوغاز السويس ثم التفت الى صاحبه الالمانى وقال أليست هذه أرضا انجليزية فانحنى له الالمانى وتبسم فأردف الانجليزى عبارته هذه وأتبعها بقوله اننا اذا اتبعنا الدرجة الحسين طولا نجد أنها تقطع النيل فى موضعين أو ثلاثة مارّة به فيكون نهرا انجليزيا ان شاء الله تعالى — فقاطعه الالمانى بقوله نعطيكم اياها ان شاء الله — فقال الانجليزى وبذلك نصل الى الخرطوم ولاننكر عليكم أن غردون قد مات ولكن لابد من الاخذ بثاره لان استانلى عند ما عاد الينا فى هذه المرة جعل يقول ان ترك السودان يعدّ جريمة لنا لا تغتفر وان أخذها من الهنات الهينات اذ لا يلزم لافتتاحها سوى مد خط حديدى بين البحر الاحمر والنيل كما بين سواكن وبربر مثلا وهو خط لا يكون طوله أكثر من ثلثمائة كيلو متر وذلك ليس بالشئ العسير ثم نمتد من بربر مقتفين الدرجة الحسين طولا فنأخذ العبيد وسنار ثم نصعد فى النيل الذى هو ملكنا كما لا يخفاك حتى نبلغ كوندوكورو وبذلك نضمن لتجارتنا سلامة النهر بطوله على مسافة ألف وخمسمائة كيلو متر تبتدئ من بربر ومن ثم نتصل الى البحيرات العظمى بلا مشقة ولا عناء — فقاطعه الالمانى على رسلك ياصاح لقد وصل الدكتور بترس عالمنا الشهير الى تلك البحيرات العظمية أيضا وكنا نظنه ميتا قد دفن فاذا بنا نجده حيا يرزق وفى وعائه الشئ الكثير من المعاهدات والاتفاقيات التى عقدها مع ملوك وزعماء تلك الاصقاع بعد المخاطرة فى قطع جبلى كينا وكليمنجارو اللذين قد أصبحا جبلين تابعين لدولتنا بعد الآن ولم يقتصر على ذلك بل دار حول بحيرة نيانزه فيكتوريا حتى صار الآن فى أواسط أوغانده حيث يتبعه أمين باشا عما قليل ويلاقيهما الماجور ويسمن قادما من الزنجبار فاذا الدرجة الحسون التى قد اتخذتموها لأنفسكم ملكا حلالا ليست لكم فانها تمر فى درجة نفوذنا ولا يصح قط التسليم لكم فيها — فقال الانجليزى اذا أنتم تريدون أن تنازعونا فى البحيرات العظمى التى هى خزانات النيل ومنبع حياته كأنكم تجهلون أنها انجليزية وأن مكتشفها من الانجليز فان كنتم تجهلون ذلك أو تتجاهلونه فانظروا الى اسمها تجدوه فيكتوريا وكفى بهذا الاسم دليلا على أنها انجليزية فضلا عن أن سكان تلك الجهات لايعرفون من الامم الاخرى سوانا وفوق ذلك فان الرحالة استانلى لم يسمح لزعيم سياستنا بأن يتخلى عنها وهذا الزعيم لم يسمح لى بأن أتخلى لكم عن قيد شبر قط بل ولا عن محط اصبع من تلك الارض ثم أنتم تعلمون أن أمين باشا كان حاكم السودان وقد بسط يده عليها باسم الحكومة المصرية أى باسم السلطنة الانجليزية كما أنكم لاتنكرون أن تلك الدرجة الحسين انما هى طريقنا الى تانفانيكا أفتريدون أن نتخلى عنها ونتركها لكم — فأجابه الالمانى ما هذا يا صاح ان تانفانيكا هذه التى تقول عنها انما هى قلب النفوذ الالمانى وفلذة كبده وأنت هداك الله لا تجهل اننا عزمنا على أن نمد مستعمراتنا من الزنجبار الى

الكونغو وتانغانيكا كما هو واضح ومعلوم واقعة فى طريقنا فهى اذا لنا ولا كلام – فهز الانجليزى رأسه وقال هيهات ذلك فقد أخذناها وقد عقد لنا استانلى المعاهدات القوية مع زعماء القبائل الضاربة فى شمالها وستتخذها شركتنا الانجليزية الافريقية قاعدة لنفسها سيما وان استانلى رجلنا عافاه الله لايدع صاحب سياستنا يتخلى عنها قط – فقال الالمانى وصاحب سياستكم أظنه لايدعك أنت أيضا تتخلى لنا عن شئ منها – فقال أجل وكيف أتخلى عن شئ من ذلك فتقطعون طريقنا بين البحيرات وتانغانيكا من جهة وبين أملاكنا فى نياسا من جهة – فصاح الالمانى رويدك رويدك ما ذا وكيف تقول ألا تدرى اننا ملكنا نصف نياسا وأنها احدى طرقنا المطروقة الى الكونغو وغيرها حتى ان البرتغاليين قد تركوها لنا انى أراك متسرعا متعديا على حدود نفوذنا وهذا لا يمكن أن يكون وفينا قطرة من الدم – فقال الانجليزى كيف تزعمون امتلاك بحيرة نياسا ونحن الذين حمينا منازل المرسلين الايكوسيين حواليها بل من الذى مدّ الطريق بين تانغانيكا وبينها ومهده غير جماعة المرسلين الانجليز أما ما تدعيه دولة البرتغال من الحقوق فانكم معشر الالمان تعرفون اننا نجهلها ولا نعترف بشئ منها ولذلك فانها لم تقدر أن تتنازل لكم عن أراض ليست لها فى الحقيقة وفضلا عن ذلك فكيف تقدرون أن تقطعوا علينا الطريق الوحيدة التى توصلنا من أملاكنا الواقعة فى خط الاستواء الى أملاكنا الشمالية الى بورنتال مارّة فى دالاكوا التى ان لم نبسط يدنا عليها اليوم ففى غد وغد لناظره قريب – فقال الالمانى يا لله ولما ذا اذا لا تقول ان الدرجة الخمسين هى كلها لكم لالسواكم – فأجابه الانجليزى ولكن هذا هو الحاصل واذا أنصفتم وعدلتم لم يسعكم الا جعل الحق فى جانبنا وان تلك الدرجة هى طريقنا من مصر أرض الفراعنة الى رأس الرجاء الصالح ثم أنتم اذا تبصرتم فى الامر رأيتم اننا لانطلب الا طريقا بين مستعمرتين انجليزيتين فأين يكون الشطط أو الاجحاف فى ذلك ونحن لانطلب الا الوصول الى اخواننا فى طرفى القارة وذلك ويعلم الله أقل ما يكون فعند ذلك تمطى الالمانى وقال فما ذا نصنع اذا وما ذا يصنع البرتغاليون والايطاليون – فأجابه على الفور مالنا وللبرتغاليين الآن أما جماعة الايطاليان فقد طاب لهم المقام بمصوع فاذا أرادوا الحبشة أيضا فليأخذوها وان كنا قد دخلناها بجنودنا فيما مضى وصار لنا فيها بعض الحق ولكننا نتركها لهم هبة كريم مسامح – فقال الالمانى ونحن – فأجابه أما أنتم فقد أعطيناكم الزنجبار بين جزيرتها وشاطئها وذلك فوق الكفاية بل قد نكون أخطأنا فى ذلك لانه سيأتى يوم نحتاج فيه لنقل محصولات خط الاستواء الى البحر من غير بدّ فاذا ظل أصحاب المهدى آخذين علينا طريق النيل لم يكن لنا ندحة عن ايرادها من البحيرة الى البحر ولا سبيل لنا غير الزنجبار ولذلك كانت هذه الجهة أولى بنا من سواها لاننا اذا أطعنا الرحالة استانلى – فعند ذلك قاطعه الالمانى واحتد والتفت اليه محملقا وقال انى لاأرى فائدة من هذا الجدال وانه خير أن نرفع الامر الى امبراطورنا لانى على ما أرى عسير علىّ أن أسألك

شيأ

شيأ بشأن تحديد النفوذ بيننا فقام الانجليزي وانصرف مقطب الوجه وهو يقول أجل ومن قال دائرة النفوذ الانجليزي فكأنما يقول دائر الكرة الارضية بتمامها اه

وجاءت في هذه الايام أيضا كتب صاحب السياسة الايطالية الى ديوان الخديوي والوزير نوبار باشا بطلب فتح باب المخابرة بينهم بشأن السودان وتوسيع دائرة النفوذ الايطالي فيه من حد سواحل البحر الاحمر يعني من فرضة مصوّع وما والاها الى ضفة النيل الازرق فأكبر الخديوي هذا الطلب وأعظمه وكلم قنصل ايطاليا في ذلك فلم تكن الا أيام حتى وردت كتب صاحب السياسة المذكور بأنه انما يريد اطلاق الحرية له في احتلال كسله والاعتراف بسيادة الايطاليان على البقعة المأهولة بقبيلة بني عامر والممتدة الى ناحية بركة التي قبل أهلها حماية دولة ايطاليا لهم - قال فان لم تتفق معنا الحكومة المصرية على ما فيه المصلحة كلمنا في ذلك زعيم سياسة الانجليز فان لم يوافقنا هو أيضا تصرفنا في الامر بحسب ما تقتضيه مصلحتنا وبسطنا سلطاننا على كل قسم من القارة الافريقية يدخل ضمن دائرة نفوذنا * وجعلوا من هذا الحين يحاولون مباغتة القبائل الصومالية المصافية للحكومة فكانوا اذا آنسوا منهم اخلادا الى السكينة ورأوا من نجاشي الحبشة تغاضيا أو من الرأس ألولا مقدم جيوش الحبشان تقاعدا عن الحركة تقدموا بعسكرهم ببطء ومدّوا يدهم الى بعض البقاع بلطف وساروا أهل القرى وكبار القوم فيها وأجزلوا لهم العطاء وأتحفوهم بالتحف والهدايا وخابروا صاحب سياسة الانجليز فيما هم فيه وعلقوا أملهم بالمحال فان أحسوا من مقدم عسكر الحبشان بالحركة وزحف الجنود ورأوا الكتائب تتلو الكتائب انكمشوا وعاودوا صاحب سياسة الانجليز في الكلام فيمنيهم ويهوّن عليهم ويشير بالتأني وترك العجلة فلما طال على نجاشي الحبشة الحال ورأى أنه لا هو دافع شر الايطاليان عن تلك البلاد التي يعتبرها جزأ من سلطنته بحكم الاتفاق الموقع عليه مع رسول الانجليز « وقد مر بيانه » ولا هو تاركها للايطاليان يضمونها الى مستعمرتهم الجديدة رسم الى مقدم جيوشه بالحركة وعدم الوقوف عند حد فسار مقدم الجيوش الى التاكا وضرب القبائل النازلين حولها ونهب أموالهم وماشيتهم وأفحش في قتلهم ثم قفل راجعا الى عدوه مقر كرسي النجاشي ولبث بها أياما ثم سار الى جندع الواقعة بين عائله وأسمره على مرحلة من مصوع وعسكر بها بجيوشه وجعلها مقره ومركز حركته وأخذ يتأهب لقتال الايطاليان وشاع الخبر بذلك فخاف الناس كثيرا وأخذوا يلجؤن بعيالهم ومتاعهم الى الجزيرة وتتابع خروجهم من البلد حتى لم يجد الرائي في طرقها سوى النوق المحملة بالاثاث والمتاع فقلق عند ذلك جماعة الايطاليان واشتدوا في عمل الحصون والمتاريس وأكثروا من وضع المدافع والمكاحل على الابراج وسيروا الى كتشنر باشا عامل الخديوي على سواكن في طلب المدد فأرسل اليهم سفينتين حربيتين من سفن الحرب الانجليزية وجاءهم كذلك بعض السفن الايطالية وكبر خوف المرابطين من العساكر الايطالية من اهتمام الحبشان باقامة الحصون والمتاريس

بعسكرهم فانشؤا هم كذلك قلعة حصينة على رأس الناحية المعروفة بحرقيقو وسموها طابية وعا ووضعوا عليها كثيرا من المدافع الكبار وبث الحبشان عيونهم وأرصادهم حول البلد فانقطع عنها الوارد من المأكول والمشروب ورحل من كان نازلا حولها من العربان والمرتزقة فطير الجنرال جنيه قائد العساكر الايطالية الخبر بما جرى الى زعيم سياستهم ثم كتب يقول له قد استحكمت النفرة بيننا وبين الرأس ألولا قائد الجيوش الحبشية فالمدد المدد فلما أبطأ المدد لم ير بدا من تسليح الموالين من أهالى حرقيقو بالبنادق وأعطاهم شيأ كثيرا من الذخرة والمؤن واستحلفهم على أن يكونوا عونا لهم على الحبشان وتصاريف الزمان فلم تكن الا أيام حتى جاء الخبر الى مقدم العساكر الايطالية بحاجة المرابطين منهم فى موكوللو الى المؤنة والذخرة فأزعجه هذا الخبر لحراجة الموقف ويقظة العدو فجعل يراقب الفرص حتى آنس من الحبشان بعض الخلود الى السكون فسير قافلة صغيرة بما تيسر لديه من المؤن والذخرة الى موكوللو وأتبعها بطائفة من المقاتلين فلم يتم خروجهم من البلد حتى داهمهم العدو بخيله ورجله وأعمل فيهم القتل بحد السيف حتى لم يبق منهم أحد وخرج من كانوا فى موكوللو من المرابطين على وجوههم الى مصوّع لعدم قدرتهم على البقاء وتركوا رباطهم بما فيه من متاع وكراع فلم يتعرض لهم جماعة الحبشان بسوء واحتلوا مكانهم وغنموا مافيه غنيمة باردة فأكبر قائد العساكر الايطالية هذا الامر وأعظمه جدا ولكنه لم يجسر على الخروج بعسكره من البلد وسير الكتب تباعا الى صاحب سياستهم فى طلب المدد ولكن يا لله ما ذا ينفع هذا كله وأرض السود هوّة عميقة تبتلع الشئ الكثير من الاموال والاحمال والاثقال والعدد العديد من الرجال وتزهق دون اخضاع جبابرتها أرواح الابطال ولقد طالما أنفق فيها الدم والمال من الممالك القديمة كما يدل على ذلك تاريخها ورأينا رأى العين ما أصاب الانجليز والمصريين من نار هذه الارض الغبراء حتى جاءت اليوم نوبة الايطاليان الذين غر صاحبهم الطمع فأوقع قومه فى هذه المهلكة فلما اتصل خبر هزيمتهم هذه بزعيم سياستهم أبلغه الى دار ندوتهم فعلم به السواد الاعظم من عامتهم وأهل الدعارة منهم فاجتمعوا حول دار الندوة ألوفا وارتفعت أصواتهم وعلت ضوضاؤهم ونادوا بالويل والثبور على زعيم سياستهم واشتد بهم اللجاج والهياج فجاءت طائفة من عسكرهم وفرقت جمعهم ومزقت بضرب العصى شملهم بعد لكم وضرب وجاء كتاب نجاشى الحبشة الى جنيه قائد عسكرهم بالجلاء العاجل عن مصوّع وما جاورها حقنا للدماء والا فالسيف والنار ولا هذا العار قيل فلم يردّ عليه وقيل بل ردّ بأحسن ما يكون من عبارات التلطف والتودد

وقد هيج ظفر الحبشان بجماعة الايطاليان ساكنا من أصحاب المهدوية النازلين حول سواكن فهبوا الى الحركة وجعلوا يتخطفون الناس والماشية من حول البلد ويمنعون عنها الوارد من المأكول والمشروب فاهتم كتشنر باشا بالامر وأكثر من تطواف العساكر حول

البلد فى الليل والنهار وتقدمت بعض سفن الحرب الانجليزية نحو البلد تأهبا للدفاع عند الحاجة وأخذ كتشنر يستميل مشايخ القبائل الذين كانوا يكرهون الانضواء الى عثمان دقنه والطاعة الى دعاة المهدى وخليفته فمال اليه بعضهم فأمدّهم بالاسلحة والذخيرة ودفعهم الى قتال العدوّ فقاتلوه وأبلوا فى قتاله فترفع العدو الى الجبال وانجلى عن ضواحى البلد ثم انحدر اليها بعد أيام وهكذا كانت فعاله كل قليل من الايام * وورد على كتشنر باشا يومئذ كتاب التعايشى خليفة المهدى مفعما بالتهديد والوعيد ان لم يخفض كتشنر جناح الطاعة ويترك العناد وقد ذكر له شيأ كثيرا من مناقب المهدى وصحة مهدويته ثم دعا كتشنر الى ترك النصرانية واعتناق المهدوية فانها أصح المذاهب وأقربها الى الله تعالى فان لم يأت طائعا مخلصا فى العقيدة سير اليه جيشا عظيما فيستولى على سواكن وما والاها ويطرح حاميتها فى اليم حيث يكونون طعاما لأسماكه وشاع خبر هذا الكتاب بين أهل البلد فخافوا خوفا عظيما وصاروا يتوقعون وصول جيش التعايشى كل قليل من الايام وقد زادهم خوفا ما شاع فى ذلك الحين أيضا من تواطئ الرأس ألولا مقدم الجيوش الحبشية مع كبار المهدويين على قتال الاجانب الطامعين فى بلادهم وقطع شأفتهم وان النجاشى يوحنا ميال الى ذلك وكاد يتحقق الخبر بخروج مشايخ الحباب والشاكرية والهدندوى والشيخ أمين فقيرى شيخ قبيلة الارقويت الذين استمالهم كتشنر الى طاعة الحكومة وموالاتها وامتناعهم عن مناهضة العدوّ رغما عما بذله لهم كتشنر من الاسلحة والاموال الطائلة والهدايا الكثيرة وكان كتشنر قد أرسل الى السيربارنج فى طلب الشيخ الميرغنى شيخ سجادة الطريقة الميرغنية التى يتبعها أهل السودان شرقا وجنوبا ليحمل العصاة على الرجوع الى طاعة الحكومة فجاء الشيخ الى سواكن وجعل يبعث البعوث ويرسل الدعاة ويحض القوم على ترك الحرب والكف عن القتال فلم يفلح وقد رموه بالمروق عن الدين القويم واتهموه بالنصرانية وبيع الآجلة بالعاجلة فلاهم لذلك يعرفونه ولا هم يعتقدون مشيخته فكبر الأمر على الشيخ وسار الى بلد اجيج وأقام بها أياما لعله ينال من القوم مأربا فلم ينل ولم تجسر بعوثه ودعاته على لقاء أحد من كبار المهدويين فكانت أخبار تلك الاطراف كل يوم فى شأن ان سرت يوما أحزنت أياما

وعاد الوزير نوبار باشا الى الرأى القائل بأن اعادة العلائق التجارية مع السودان لا بد أن يكون من ورائها تفرق العصاة فى البلاد طلبا للرزق وعدم اجتماعهم فى صعيد واحد للتألب على قتال الحكومة فكتب ثانية الى زعيم سياسة الانجليز فى ذلك ولبث ينتظر الجواب أياما حتى جاءه بالقبول ففرح الناس بذلك فرحا عظيما واستبشروا بحسن المآب وقالوا أوّل الغيث قطر ثم ينهمل وقد كانوا لايتوقعون بلوغ هذه الامنية بعد امتناع زعيم السياسة الانجليزية من المكالمة مع الوزير نوبار باشا فى شأنها حينا على ماتقدم بيانه فاهتم الوزير لذلك اهتماما عظيما ورسم بعمل دستور يكون قاعدة لاعادة تلك العلائق فاجتمع

الوزراء كافة فى مجلسهم وقرروا سبعة أمور * حاصل ما فيها منع الاتجار فى الاسلحة وسائر أنواع الآلات والادوات الحربية وضبط ما يوجد منها ومعاقبة المتجرين فيها وجعل حلفا وكروسكو وأسوان ودراو المراكز التى تخرج وتدخل البضائع منها وأخذ العهود على مشايخ العبابدة والكبابيش وغيرهم من قبائل العربان بذلك وبطاعتهم لتفتيش سائر البضائع التى ترد من السودان أو التى ترسل اليه أولا فى حلفا ثم فى كروسكو وفى أسوان وفى دراو ثم يعطى لاصحابها تسريح * فجعل التجار من ذلك الحين يتأهبون للعمل وسار جماعة منهم الى حلفا واسوان ونزلوا بهما فعمرت اسوان وكثرت فيها الحوانيت والمخازن والأشوان للبضائع وأصناف المتاجر وراجت التجارة فى القاهرة بعض الرواج وشاع خبر انحدار بعض القوافل من دنقلة بالصمغ والريش وسن الفيل وأشياء أخر من محاصيل أرض السود وشوهد كذلك عير لاهل كردفان بأصناف المتاجر وجاءت الاخبار بخلود العربان والدراويش المرابطين على الحدود الى السكينة عندما وصلت اليهم الاخبار بعود العلائق التجارية بين مصر والسودان

(مطلب) طلب الانجليز تخفيض عدد العساكر المصرية

ولم تكن أيام بعد ذلك حتى تقدم الجنرال جرانفل باشا سردار العساكر المصرية الى الخديوى فى طلب تخفيض عدد العساكر المصرية وحل بعض ألويتها لعدم الحاجة اليها يومئذ وأن الجيوش الانجليزية تحل محلها فى سائر مضاربها وكان زعيم السياسة الانجليزية قد رأى فى اعادة العلائق التجارية مع السودان وفى بقاء العساكر المصرية على قدم الاستعداد فى عددها وعددها شيأ يخافه فى مستقبل الايام فأوعز الى السردار أن اطلب تخفيض عددهم فوافقه الخديوى على ذلك وكلم الوزير نوبار باشا فى الامر فاهتم له الوزير وجمع اليه سائر الوزراء وعقد مجلسهم وجلس الخديوى بينهم فقال السردار مقالته وبالغ فى الطلب فرد عليه عبد القادر باشا وهو يومئذ المتولى نظارة الداخلية وأخذ يشرح الاسباب الداعية الى بقاء الجيوش المصرية على ما هى عليه من العدد والعدد وما تحتاجه البلاد فى هذه الظروف من حفظ كرامتها فى أعين الاعداء وإعظام قوتها الدفاعية رهبة لهم فعارضه فى ذلك السردار وبالغ فى الممانعة وكان الخديوى لا يشاء أن يبرم أمرا على غير الذى يرمى اليه زعيم السياسة الانجليزية تسكينا للخواطر وتطمينا للقلوب * قيل فعضد السردار فى رأيه وعاب على عبد القادر باشا قوله وسفهه فامتعض عبد القادر باشا وبالغ فى التعبير وسفه رأى السردار ورفع صوته بحضرة الخديوى فقاطع عليه الوزير نوبار باشا وقال له أنت بحضرة مولاك فاخفض من صوتك * قيل فتأفف الخديوى من ذلك وكان الخديوى يعرف من الشوائن والتهم الموسوم بها عبد القادر باشا شيأ كثيرا وكان الى ذلك الحين يغض الطرف عنها منعا للقلاقل وتحاشيا من سوء العاقبة وكان جماعة الانجليز يودون لو أن الخديوى يأذن بتحقيق تلك التهم وقد جمعوا من الدلائل على صحتها وعلى سوء تصرف عبد القادر باشا مع بعض أصحاب الاطيان بحوش عيسى والنوبارية بمديرية البحيرة واستعماله

لسلطة

لسلطة وظيفته وتطاول يده الى أموال الناس شيأ كثيرا فلما رأى منه هذه الجرأة والمكابرة ومعاندة السياسة الانجليزية فى مجلسه كبر عليه الامر وأعظمه لاسيما وقد رأى من جماعة الانجليز فى ذلك اليوم تحفزا للوثبة وكشف ماخفى من عورات الهيئة الحاكمة فرسم حينئذ بتحقيق كل ما هو مسند فعله الى عبد القادر باشا وقيد بذلك جماعة من كبار الموظفين فأصبح عبد القادر باشا وهو يتوقع العزل فى كل لحظة من الزمان وعلم خصومه بالخبر فوردت شكاياتهم تترى على ديوان الخديوى وتم لصاحب السياسة الانجليزية ما أراده من تخفيض عدد العساكر المصرية فى أيام قلائل ۞ حدثنى صاحب لى قال كان مما أوجب بغض جماعة الانجليز لعبد القادر باشا وأكبر سعيهم وراء خلعه من منصبه أنهم رأوا أنه فضلا عن استعماله لسلطة وظيفته فى أخذ حقوق بعض الناس وتطاول يده الى أملاكهم على غير مسوّغ شرعى وتطلعه الى ما فى أيدى الغير فقد كان يكيد للانجليز كيدا عظيما ويدس لهم الدسائس فى السر والجهر واتفق أن خلت قلعة الوجه الواقعة على التخوم بين الاراضى المصرية والاقطار الحجازية من المرابطين وباتت خاوية على عروشها منذ انحلال الجيوش المصرية بعد الثورة العرابية فهمّ مقدم الجيوش الانجليزية بارسال نفر من عسكره ليحتلوها ويرفعوا الراية الانجليزية على ما يجاورها من البقاع فأحس الباب العالى بذلك فسير فى الحال جماعة من كبار العسكر الشاهانى وطائفة من الجند الى تلك القلعة فاحتلوها وبسطوا يدهم على ما يجاورها من السهول والبقاع وجاء الخبر بذلك الى عبد القادر باشا بصفته ناظرا للداخلية فاهتم له كثيرا واستحسنه وبالغ فى استحسانه واجتمع بالمشير مختار باشا مندوب الباب العالى بمصر وتناجيا فى ذلك طويلا فلما علم زعيم السياسة الانجليزية بما جرى وتحقق أن لاقبل له على اخراج العساكر السلطانية من تلك القلعة الا اذا دفع برجال الحل والعقد فى الحكومة المصرية الى معمعان المقارعة مع الباب العالى أوعز الى السير بارنج بأن يكلم الوزير نوبار باشا فى ذلك ففعل وأكثر من الاجتماع بالوزراء فكان يرى من عبد القادر باشا جفاء وغلاظة فى القول فشكاه الى الخديوى وكان الخديوى يكرهه فعال عبد القادر باشا وينقم عليه كثيرا فرسم بتشكيل هيئة من بعض كبار موظفى الحكومة لتنظر فيما هو مسند اليه من سلب أموال بعض الناس والاستطالة على حقوق الضعفاء من الرعية فسارت تلك الهيئة فى عملها سيرا حثيثا وحققت من تلك الشوائب شيأ فلم تكن الا أيام حتى ظهر خبر تنزيل عبد القادر باشا من منصبه وعلم الناس بخبر مبارحته القاهرة على عجل فتحققوا أنه مكره لابطل فولى الخديوى مكانه مصطفى فهمى باشا وولى محمد زكى باشا مكان مصطفى باشا نظارة الخزينة اه

(مطلب) وكاد السلطان ينجح فى استمالة الروس والفرنسيس الى معاونته

وكاد السلطان فى هذه الفترة ينجح فى استمالة كبار سياسة الروس والفرنسيس الى معاونته على طلب تخفيض عدد العساكر الانجليزية المحتلة لمصر وهموا جميعا بطلب ذلك فلما أحس زعيم السياسة الانجليزية بما هم عليه أوعز فى الحال الى قائد جيوشهم بمصر بأن

أظهر الأهبة والاستعداد لجلاء بعض الكتائب فجعل يظهر الحركة بين الجنود وأخذت كتائبهم تغدو وتروح بين الاسكندرية والقاهرة وتحت قلعة الجبل وبولاق التكرور بأثقالهم وأحمالهم وآلات حربهم ودوابهم وانجلى من كان منهم بقشلاق الحرس الخديوى برحبة عابدين فاحتله نفر من العساكر المصرية ولم تكن الا أيام حتى كثر الارجاف بأن جماعة من الدراويش انحدروا الى حلفا بخيلهم يريدون الزحف على اسوان فالقاهرة وأن الفتنة ظهرت بين أهالى ذلك الصعيد وأن قد جاء الصائح بطلب المدد العاجل فأسرعوا فى ارسال طائفة كبيرة منهم الى الحدود قالوا لمنع العدو وأنزلوهم بالمواقع والمعاقل التى قد كانوا أخلوها وطيروا الخبر بذلك الى الآفاق فسكت حينئذ أصحاب المابين وانكف السلطان عن استنهاض الدول ولبث كعادته يراقب الفرص فعلم الناس أنها خدعة وحيلة وظن السواد الاعظم بالوزير نوبار باشا السوء ورموه بالخيانة وعاد أصحاب الصحف المحازبة الى صيحتهم الاولى وهى طلب تنزيل الوزير نوبار باشا من منصبه وارجاع الوزير محمد شريف باشا الى منصة الرئاسة وبدأت تظهر طلائع التحزب بين الناس وشوهد بعض الاوراق التحريضية ملصقة على جدران بعض محال الحكومة فتناقل خبرها مراسلو الصحف الاجنبية وأكبروها جدا فلم تكن الا أيام بعيد ذلك حتى مرض الوزير محمد شريف باشا واشتدت علته فجمعوا له الاطباء فأشاروا بسرعة مغادرته للقاهرة والترفع فى النيل الى الصعيد الأعلى فاندهش الناس من هذا الحادث الغريب وترامت ظنونهم الى المرمى البعيد فمن قائل انه مريض بذات الجنب ومن قائل انه مريض بآفة فى الكبد ومن قائل قد سم فى التبغ بيد أجنبية ومن قائل غير ذلك وسار الوزير على ظهر باخرة من الركائب الخديوية الى الصعيد الاعلى فلبث أياما ثم انحدروا به على غير جدوى اذ اشتدت علته وكبر سقمه فأشار الاطباء بقيامه الى الديار الاروپاوية فسار فى نفر من الاتباع الى تريستا وأقام بها والناس كافة يسألون الله له السلامة والعودة الى منصب الرئاسة فلم تكن الا أيام حتى جاء الخبر بموته فحزن الناس جميعا وبكوه ورسم الخديوى الى الوزير نوبار باشا بتعطيل سائر دواوين الحكومة حدادا عليه والى كبير التشريفات الخديوية بالشخوص الى تريستا على باخرة مخصوصة ليأتى بالجثة الى مصر التى كان يحبها وكانت تحبه وتحن اليه وجلسوا فى داره للعزاء أياما حتى وصلت جثته على ظهر سفينة قد استأجرها ولده قبل أن تصل اليه سفينة مصر فما ألقت السفينة مرساها حتى هرع الناس من كل رتبة ودرجة الى المسير أمام نعشه فسار أوّلا جمهور المشايخ والعلماء ثم صفوف جند البر والبحر ورجال الحرس الخديوى تتقدمهم موسيقى باخرة المحروسة ثم وجهاء البلد وأعيانها على اختلاف أجناسهم ثم تلامذة المدارس وما زالوا سائرين بالنعش والناس على جانبى الطريق يبكونه حتى وصلوا به الى محطة الباب الجديد فأنزلوه فى قطار مخصوص وسار القطار الى القاهرة فلما وصلها حمل النعش جماعة من العساكر المصرية وساروا بالجنازة على شكل مهيب وترتيب عجيب أسكب عبرات الناس وأبكاهم

حتى واروه التراب ﷺ وكان شريف باشا رحمه الله معروفا بالاخلاص والترفع عن الدنايا مشهورا بالحزم والحكمة والدراية وسعة الباع فى المعارف السياسية والعلاقات الدولية وغير ذلك من علوم العصر — تلقى علومه فى مدارس الفرنسيس العليا وقضى فى خدمة البلاد وأهلها زمنا غير قليل فى الجندية على عهد الحاج محمد على باشا الكبير ثم على عهد ابراهيم باشا وعباس باشا الاول وسعيد باشا ثم فى ولاية اسمعيل باشا وتقلد فى كل هذه الازمنة وظائف خطيرة أدار مهامها بالحزم والجد والغيرة مات وله من العمر ثمان وستون سنة وقيل سبعون وهو القائل ان تركنا السودان فلا تتركنا فذهب مثلا عند المصريين رحمه الله برحمته الواسعة

وكان مما زاد الناس كرها للهيئة الحاكمة توالى الحوادث وظهور الكوارث واشتداد الانجليز على أهل البلد واذلالهم لاقل سبب وأصغر حادث فقد وقع فى هذه الايام أن اثنين من كبار عسكر الانجليز خرجا يوما للصيد فى أرباض أهرام الجيزة فاتفق أن أحدهما أطلق بارودته يريد صيدا فأصابت نارها وجه صبي لاحد الفلاحين كان يرعى جاموسته فانذعر الصبي وذهب مولولا مستصرخا أباه فلحق به الضارب وأخذ يلاطفه ويخفف عنه وأعطاه شيأ من الدراهم ولم ينصرف عنه حتى جاء أبوه وقبض على الانجليزى وأوسعه سبا ولكما فصاح الانجليزى على رفيقه فأتاه مسرعا وصوب بارودته نحو الرجل فاستصرخ الرجل أهل قريته وأكثر من النداء عليهم فأطلق أحد الانجليزيين بارودته على الرجل فسقط ميتا وجاء أهل القرية مسرعين وقبضوا على الانجليزيين وأخذوا ما كان معهما من سلاح وذخيرة وساقوهما الى القرية وزجوهما فى دار هنالك وحملوا القتيل الى القرية بين الصياح والجلبة وعويل النساء ثم ساروا بالانجليزيين الى ديوان مديرية الجيزة وسلموهما الى ولاة الامر فلما اتصل خبر ما جرى بقنصل جنرال الانجليز وقائد جيوشهم قاما وقعدا واشتد القنصل على الوزير نوبار باشا فى طلب معاقبة أهل تلك القرية جميعا لقبضهم على القاتل والجارح من الانجليز ولم يكن الا يوم أو بعض يوم حتى سار الى تلك القرية طائفة من فرسان الانجليز وأحاطوا بها من كل صوب ودرب وأخرجوا جميع من بها من الرجال وساقوهم كالأنعام الى خيمة قد ضربوها على مقربة من الاهرام وبها جماعة من الانجليز فأخذوا يستنطقونهم ويسألونهم ثم عاقوهم أياما ثم حكموا عليهم جميعا بالجلد بالسياط فضربوهم ضربا مبرحا وسجنوا بعضهم وقد جمعوا ما فى القرية من سلاح وهراوى وانصرفوا وقد راح دم ذلك المقتول هدرا ثم هذا كله والهيئة الحاكمة لاتبدى حراكا ولا تظهر عراكا سوى أنها وافقت على زج أهل تلك القرية فى الحبوس حتى تحكم عليهم المحاكم بالعقوبات التى يقتضيها القانون فكان من وراء ذلك أن ظهرت عصابة من شبان أهل القاهرة ومصر القديمة المتخرجين من بعض المدارس وسموا أنفسهم باسم « الوطنيين الاحرار » فالتف حولهم جماعة من المحازبين لمصطفى رياض باشا وجعلوا يجتمعون فى بيت أحدهم فى السر

والعلن ويتكلمون فيما وصلت اليه الحكومة من الضعف وزوال الهيبة وفى استسلام الوزير نوبار باشا وجماعة الوزراء الى السير بارنج وشوهدت بعض الاوراق المفعمة بالتقريع والتنديد على جماعة الوزراء ملقاة فى بعض دور الحكومة ودواوينها وجاء مصطفى رياض باشا من مزرعته فى طود البحيرة وأقام بالقاهرة فتزاحم على بابه أهل الدعارة والملقون ومن فى قلبه مرض وتحققوا أن الوزير نوبار باشا معزول لا محالة وظهرت يومئذ الحركة فى ديوان الخديوى وترددت رسله على بيت مصطفى رياض باشا لغير سبب ظاهر سوى الارجاف بعزم الوزير نوبار باشا على التخلى عن منصب الرياسة وما هو شائع بين الناس من أن كبار الانجليز أرسلوا الى الاقاليم القبلية نفرا من اليونان والمالطيين جواسيس يسعون فى استطلاع أفكار أهل البلاد بشأن احتلال الانجليز لمصر وغير ذلك من الترهات التى ما أنزل الله بها من سلطان ❊ وكان من دهاء السير بارنج وقوة شكيمته أنه كلما آنس من أولئك الزعانف خلودا الى الحركة أو سمع لهم صوتا فى مجتمعاتهم أو رأى لهم مقالا فى احدى الصحف المحاربة عمد الى المساهلة مع الوزير نوبار باشا وخفف من طلباته وهوّن عليه كل صعب من الامور كأن يقول خففوا عنكم فوالله ما استعملنا صاحبكم « يعنى مصطفى رياض باشا » الا بعد أن نكون قد دبرنا له المكايد والاحن وقلبنا لكم ظهر المجن ونلنا على يديه ما لا تستطيعون عليه صبرا ۞ حدثنى صاحب لى قال كان بعض هؤلاء الصبية يراسلون بعض مديرى الاقاليم وأصحاب بعض الوظائف الديوانية بكتب الاستمالة والانعطاف الى مصطفى رياض باشا وهو لا يأنف من ذلك ولا يراه معيبا بل كان اذا زاره أحد من أعيان البلاد أو مديرى الجهات زلفى أنّ واشتكى وعاب على الهيئة الحاكمة ضعفها وتأفف مما وقعت فيه البلاد من الدمار وكان كثير الوقيعة برجال القضاء يقول انهم أحداث أغرار لا خبرة لهم بالامور ولا دربة حتى خيل للناس يومئذ أنه ان عاد الى منصة الرئاسة أراح جميع الخلق وسلك فى سائر أموره مسالك الحق — قال — وأخذت الحمية من أولئك الصبية مأخذها فنجحت سعايتهم وتحرجت صدور الناس من الوزير نوبار باشا أو كادت فتجرد حينئذ السير بارنج الى النهج فى منهاج جديد والقبض على زمام سائر الامور بيد من حديد — قال — وكأنه كان على اتفاق مع الوزير نوبار باشا بأنه اذا شاء انفاذ أمر من الامور التى تقتضيها سيطرة الاحتلال الانجليزى وحفظ هيبته فى أعين أهل البلاد من مثل احداث الاحداثات المخالفة لعاداتهم أو ابداع البدع الداعية الى سقوط نفوذ الحكام المصريين أو ترتيب النظامات الجديدة الحاملة على اقصاء أصحاب الوظائف من أبناء البلاد عن أبواب الارتزاق جعل انفاذ ذلك كله على يدى من كان معتمد أولئك القوم عليه وأرغمه على العمل به — قال — فقد مضى على رئاسة الوزير نوبار باشا فى هذه المرة حين وكلمة السير بارنج معه فى شؤن البلاد لم تتجاوز حد النصيحة والارشاد ولم تتعد عبارات التشجيع والاستنهاض ماعدا مايتعلق منها بالسودان شرقا وجنوبا وكان الوزير اذا رأى منه يوما اكراها على عمل شئ أراده صرفه عنه بالتى

هي أحسن واستماله الى التأني وترك العجلة فينثني عنه راضيا ولذلك قد تأخر ابرام الشئ الكثير من مقاصد زعيم سياسة الانجليز فى الأمور الداخلية وظلت كلمة المديرين والمحافظين وأصحاب الوظائف الاخرى مسموعة وأيديهم مطلقة وسلطتهم مرعية وكان الذين تولوا الوظائف العالية من جماعة الانجليز الى هذا الحين يعدّون على الاصابع وقد تمكن الوزير نوبار باشا بحزمه وقوة شكيمته من فك قيود الحكومة من العقود التى كانت مرتبطة بها مع الاجانب النزلاء الذين فى خدمتها ونادى على رؤس الاشهاد بالكف عنها وعدم العود اليها فهيج هذا العمل أصحاب بعض الصحف الاجنبية فقاموا يستصرخون قناصلهم وظهر التحزب والتألب بين أصحاب الوظائف من كل جنس وطبقة ولبث الحال على ذلك أياما كثر فيها أنصار مصطفى رياض باشا وتقوّت عزيمتهم بما كانوا يسمعونه من ضوضاء أصحاب الصحف الاجنبية وتكهنهم بقرب سقوط الوزير نوبار باشا من أعالى منصة الرئاسة * وكان مصطفى رياض باشا قد استبشر بما سيكون من وراء هذه الحركة فجعل يكثر من التردد على مقر الخديوى ويظهر التودد والعطف الى رجال ديوانه الخاص ويوالى المآدب الى كباره ويدنى من مجلسه أصحاب صحف الاخبار ويوحى اليهم بالذى يعمله اذا أفضت اليه الرئاسة

وأشاع المرجفون فى هذا الحين أن الوزير نوبار باشا أكره الشيخ المهدى شيخ الجامع الازهر ومفتى الحنفية وجماعة من كبار العلماء وأصحاب المقامات العالية على عمل محضر يطلبون فيه ضم مصر وسائر ملحقاتها الى أملاك السلطنة الانجليزية واستخلاصها من سيطرة الدولة العثمانية التى أثقلتها كل هذه السنين والاعوام وتكلم فى ذلك أصحاب صحف الاخبار على اختلافها فصدق ذلك السواد الاعظم من الناس وأرجفوا ارجافا عظيما والامر على غير ما كانوا يسمعون وذلك أن الشيخ المهدى مالت نفسه فى ذلك الحين الى الاستبداد بتقليد وظائف القضاء الشرعى الى صنائعه والاغرار الملتفين حول ولده الشيخ عبد الخالق وقد كان اعطاء هذه الوظائف لذويها من أهل العلم والفضل موكولا الى لجنة يرأسها بطرس باشا غالى وكيل الحقانية يومئذ والشيخ عضو من أعضائها فمانعه بطرس باشا فى ذلك واشتد فى ممانعته بحكم اللوائح المعمول بها عندهم فامتعض الشيخ وأخذته هزة الاحزاب فاستمال الى رأيه جماعة من العلماء وأعضاء شورى البلاد فكان لاحديث لهم فى سمرهم الا خبر وقوف بطرس باشا فى وجه الشيخ والحيلولة بينه وبين هواه واتفق أن رجلا من أهل الجزائر التابعين لدولة الفرنسيس امتلك دارا بأحد شوارع القاهرة وآخر عتملك دارا أمام دار ذلك الجزائرلى قد تداعت الى السقوط فأخذ صاحبها فى لم شعثها وترميم ماتهدم من جدرانها وتنسيق شبابيكها على الطراز الجديد فقام عليه ذلك الجزائرلى ومنعه من العمل وقال له ان منافذ دارك تكشف عورات دارى فعارضه صاحب الدار المتداعية وقال ان بين الدارين طريقا ولا سبيل قط الى المعارضة وطال بين الاثنين الخصام أياما لم ينكف فيها صاحب الدار عن العمل فشكاه الجزائرلى الى قاضى قضاة مصر فحكم له القاضى بسد منافذ دار خصمه فهال صاحبها

حكم القاضى وأزعجه أىّ ازعاج فرفع ظلامتــه الى المحكمة المختلطة لتابعيــة خصمه لدولة الفرنسيس فأنصفته وحكمت ببقاء منافـذ داره كما هى وحكمت على خصمه بشئ من المـال تعويضا عما لحق صاحب الدار من الخسارة بسبب الحكم الشرعى فلما شاع خـبر ذلك بين الاحزاب هاجوا وماجوا وأكبر الشيخ المهدى الامر وأعظمه جـدا وقال انما هو عمـل من أعمال بطرس باشا غالى التى يقصـد بها الصاق الخـزى بأصحاب الشريعـة الحنيفية ونصرة أصحاب شريعة الفرنجة وسعى الشيخ مع جماعة من أعضاء مجلس شورى البلاد والاعيان عند الخـديوى ووشوا فى حق الباشا وما زالوا بالخـديوى حتى كادوا يسـتهوونه ويغررون به فعلم بطرس باشا بما فعله القوم فدخـل على الخديوى وأعلمه بحكاية الجزائرلى وما جرى لصاحب الدار المتداعية وماحكم به قاضى قضاة مصر وحكم المحكمة المختلطة فكبرت عليه فعال الشيخ المهدى وأعظم مقارعة المحازبين له من الاعيان وشورى البلاد وأرسل فى طلب الشيخ وكلمه فى ذلك طويلا ورسم الى بطرس باشا بعمل ما فيه المصلحة تسكينا لتلك القـلاقل فأشار على الشيخ بتكذيب كل قال وقيل فى هـذا الصدد فلم ير مناصا من الاذعان وكتب من يومه الى الجريدة الرسمية وصحف الاخبـار المحلية يعلمهـم بأنه لم يحصـل شئ مما ذاع خبره البتة وأن جماعة العلماء براء من كل تهمة أو فرية يفتريها عليهم المفترون وأن لا أصل لما أرجف به المرجفون العاملون على ايقاظ الفتنـة فاختلف الناس يومئـذ حتى كادوا يفتتنون وداخل الخديوى ما داخله من بغض الشيخ المهدى حتى رسم بخلعـه من منصبى الافتاء ومشـيخة الجامع الازهر فخلع وولى مكانه فى مشـيخة الجـامع شمس الدين الشـيخ محمد الانبابى وفى منصب الافتاء الشيخ محمد البناء الاسكندرى واتفق فى هـذه الاثناء أن مرض الوزير نوبار باشا واحتجب عن الناس أياما فعاد الارجاف بخلعه وتنزيله عن منصب الرئاسة

(مطلب) وقـوع القتـال بسواكن مع عثمان دقنـه

وبينمـا كانت الاحزاب فى قيـل وقال وأمانىّ وآمال اذ وردت الاخبار من سـواكن بوقوع القتال بين أصحاب عثمـان دقنـه والقبائل المصافيـة للحكومة والمرابطين من العسكر المصرى وبأن العـدوّ أبلى فى قتال المرابطين بلاء حسـنا * وتحرير الخـبر أنه لما كثرت مناوشات العدوّ للقبائل المصافيـة وكثر تعـديهم على ضواحى البلد رسم كتشـنر باشا العامل يومئذ على سواكن الى نفر من الجنـد والمولدين المرتزقة والى أولئك المصافين بقتـال العدوّ واجـلائه عن ضواحى البلد فخرجت طائفـة من قبيـلة الرمادر وجماعة من الباشيبوزق والمرتزقة مع طائفة أخرى من السود الذين نجوا من حاميـة كسله وغيرها فى منتصف الليل يتقدمهم كتشـنر وبعض كبار العسـكر من الانجليز وبعض الفرسان والهجانة المصريين وساروا بجوار الخط الموصل الى هنـدوب وما زالوا فى طريقهـم حتى اذا كان ما بعد زوال اليوم الثانى وصـاروا على مقـربة من هنـدوب بانت لهـم طلائع العـدوّ فهجم عليهـم جماعة الباشيبوزق والعبيد وهزموهم أو كادوا فلم تكن الا لحظة حتى أحدق العدوّ بكتشـنر وجنوده من كل صوب ودرب فثبتت الجنود فى مواقفها واشـتدت فى رمى القنابل ورصاص

البنادق على العدوّ وأصلته نارا حامية فقابلهم العدوّ بالمثل وهجمت طائفة من فرسانه على ميمنة الجنود هجمة شديدة كادوا يسحقون فيها الميمنة سحقا وأصابت كتشنر رصاصة فى فكه الايمن وأصابته كذلك جراحة عظيمة فتفرقت عساكره شذر مذر وتعذر جمعهم للقتال أو الدفاع وكثرت القتلى والجرحى واقتفى العدوّ أثر من بقى من العساكر يصليهم نارا حامية حتى دخلوا البلد وهم فى أسوإ حال واشتدت علة كتشنر وعظمت جراحته فانحدر من سواكن الى السويس وجاء القاهرة فاهتم السير بارنج لحضوره وزاره الكبراء والعظماء وجعل أصحاب صحف الاخبار ينقلون للناس أخبار صحته وما يطرأ عليه فى كل ساعة من ليله ونهاره كعظماء الملوك أو أقيال القوم اذا مسهم مرض وما زالوا حتى برأ وعوفى وزال عنه البأس

وكما كانت أحوال سواكن الى هذا الحين فى قلق واضطراب بسبب هجمات العدوّ المتتابعة فقد كانت أحوال مصوع أكثر قلقا وأكبر اضطرابا لتفشى الامراض الخبيثة بين الجنود الايطالية وفعلها فيهم وفى خيلهم ودواب حملهم ووقوف الحبشان لهم بالمرصاد وتخطفهم كل من بعد ولو قليلا عن البلد حتى سئمت نفوس العساكر وخارت عزائمهم من السهر ليلا على حراسة البلد والطواف حولها نهارا دفعا لذلك العدوّ الرابض كالاسد وكان قائد الجنود الايطالية يتقرب زلفى من القاضى ابراهيم شيخ قبيلة الاسورتيين ويستميله بالرشا والبراطيل الى معاونة الايطاليان وحماية أجنحة الجيش بنفر من قومه فكان هذا الشيخ كثير التقلب اذا قرب يوما ابتعد أياما واذا أظهر الرضا والحركة يوما فبالشئ الكثير من المال حتى أعيت الحيلة زعيم السياسة الايطالية وهمّ باجلاء العساكر عن مواقعهم والتخلى عما بأيديهم الى ذلك العدوّ الذى أشبعهم ضربا وطعنا قد طأطأت لشدتهما الرؤس وكان قائد الجيوش الحبشية يرسل فى كل قليل رسله الى الحماسيين يستحثهم على اليقظة وعدم ترك السلاح ويستنهضهم الى إجلاء العدوّ عن أرضهم فكان دعاته يجوبون البلاد شرقا وغربا وأهل البلاد فى حركة متتابعة ونهضة عظيمة وقد زاد الحال شدة على الجنود الايطالية اشتداد القيظ وكثرة الموات من تفشى الحميات الخبيثة بينهم

وإلى هذا الحين كان قد تم الاتفاق بين صاحب سياسة الانجليز والدول الكبرى على عزلة بوغاز السويس وجواز سير سائر السفن فيه وكيفية الحكم فى الخلاف الذى يقع بين الدول فى ذلك وفى حق سيادة الباب العالى وملكيته لسائر الاراضى التى يشقها الخليج من أدناها الى أقصاها فلما اشتدت الامراض بالعساكر الايطالية المرابطين بمصوع وفتكت بهم ذلك الفتك الشديد كلم زعيم سياستهم وزير السياسة الانجليزية فى أن يأذن لهم بالنزول فى قطعة أرض بمدينة السويس وجعلها مصيفا لهم إبان القيظ فرارا من هذا العدوّ الذى قد ضم عداءه الى عداء الحبشان فكادوا لا يبقون على أحد منهم فأجابه وزير سياسة الانجليز الى ما طلب فهب حينئذ أصحاب صحف الفرنسيس من رقادهم وتبعهم أصحاب

الصحف المحلية واستصرخوا الدول كافة وحذروهم سوأ عاقبة هذا الامر وأكثروا من الجلبة والضوضاء ولم يشغلهم عن هذه الصيحة الا ورود الخبر بهجوم عثمان دقنه ولمومه على حصون سواكن مرة ثانية فانه لما تم له الظفر بالقبائل المصافية للحكومة وقهرهم طمع فى مقاتلة المصريين فكان لا ينكف عن شن الغارة على ضواحى البلد ولا يقف عند حد من تخطف القادمين اليها أو الخارجين منها ورمى حصونها بالقنابل رميا متتابعا ليل نهار حتى فرغ صبر المرابطين وأعياهم الدفاع من خلف الاسوار فتقدمت عند ذلك سفينتان من سفن الحرب الانجليزية وجعلت ترمى قنابل مدافعها على العدو كلما اقترب من البلد وظلت على هذه الحال أياما فلما كان بعض الايام رأى الكولونيل تاب مقدم العساكر المصرية أن العدو قد احتل عند مطلع الفجر مرتفعات القلعة المسماة بقلعة هدسون وهى لا تبعد عن سور البلد الا بقدر فرسخ وأن قد جاءه المدد من المشاة والركبان من هندوب فخاف تاب العاقبة ونادى فى العسكر بالخروج من وراء الحصون فخرجوا جميعا بمدافعهم وآلات حربهم وخرج كذلك طائفة من الجنود الانجليزية ومعهم بعض مدافع السفن وساروا جميعا لاجلاء العدو عن تلك القلعة فاشتبك القتال بين الفريقين وحمى الوطيس والتقت السنابك بالسنابك فلم تكن الا ساعة أو بعض ساعة حتى تقهقرت العساكر ورجعوا الى الوراء على أعقابهم فتبعهم العدو وأصلاهم بناره ثم انقض عليهم من كل صوب فقتل الكولونيل تاب وقتل وجرح كثير ممن معه وما زالت نيران العدو تتساقط تساقط المطر حتى غابت شمس ذلك اليوم وتمكن من بقى من العساكر من دخول البلد فرجع أصحاب دقنه بما ظفروا به من الغنائم والاسلاب وشاع الخبر بما جرى ووردت تفاصيل الواقعة الى الخديوى والوزير نوبار باشا فانزعجا وكان كتشنر باشا قد عوفى فكر راجعا الى سواكن قيل وأوصاه الخديوى بعدم خروج العساكر من وراء الحصون كى لا يحركوا ساكنا من العدو وجاءت كتب زعيم سياسة الانجليز بالتخلى عن سواكن أيضا وتركها الى العدو فكبر أمر ذلك على الخديوى وأقلقه جدا ووردت أيضا كتب كتشنر الى الوزير نوبار باشا بأن جماعة من المهاجرين الذين قدموا الى سواكن أخبروا بأن عثمان دقنه أرسل الى الخليفة عبد الله التعايشى فى طلب النجدة على قتال المرابطين فى سواكن فاذا جاءته النجدة هاجم البلد بخيله ورجله ولم يتخل عنها حتى يفتحها عنوة ويقتل جميع من بها بحد السيف وكبر خوف كتشنر يومئذ واهتم كثيرا باستطلاع أخبار العدو ومراقبة حركاته ورسم الى جميع العساكر بملازمة الحصون والسهر على حراستها وأرسل دعاته الى مشايخ قبيلة الرمادر يستفزهم الى الوقوف فى طريق عثمان دقنه ومنعه من التقدم الى البلد قيل فأجابوه الى ذلك وسيروا رسلهم الى دقنه يقولون له لا تبارح هندوب والا قاتلناك أشد القتال ومزقنا جموعك فلم يلتفت دقنه الى قولهم ولم يهمه أمرهم وقال للرسل السيف يحكم بيننا فارحلوا عنا فعادوا كما ذهبوا * واتفق أن جماعة من عساكر السفن الانكليزية الراسية أمام البلد نزلوا الى البر لحاجة وابتعدوا عن البلد

قليلا

قليلا فخرج عليهـم نفر من أصحاب دقنه وأعملوا فيهـم الطعن بالحراب والضرب بالسيوف فرأى المرابطون بالقلعـة ماحـل بالانجليز فأطلقوا على العدوّ مدافعهم فلم تكن الا ساعـة أو بعض ساعـة حتى اجتمع العصاة واحتشدوا ألوفا وهاجوا القلعة هجوم الاسود الضوارى حتى كادوا يأخذونها عنوة لولا اشتداد نيرانها عليهم وتراسل قنابل مدافعها ولم يرجعوا عنها الا بعد قتال عنيف للغاية * وخاف من فى البلد فكادوا يتركونها وينزلون الى السفن ولم تطمئن قلوبهم الا بعد رجوع العدوّ عن القلعة وكف المرابطين عن اطلاق المدافع وأصبحوا وقد رأى كتشنر أنه لا يمكن الذب عن البلد وردّ العدوّ عنها الا اذا أنشؤا قلعـة أخرى فأنشؤها وأتموها على أحسـن ما يكون وسلحوها بالمدافع الكبيرة وعبوها بالاسلحة وآلات الحرب والمؤن الكثيرة وأقام بها المرابطون فكانوا يدفعون العدوّ عن البلد كل قليـل من الايام وهو لا ينكف عنهـم فلما أعياه الحال وعجز عن مناجزة من فى هـذه القلعة عاد على أعقابه الى هندوب فكبر أمر رجوعهـم على عثمان دقنـه وأعظمه وأرسـل الكتب الى الخليفة عبد الله التعايشى فى طلب المدد ويبشره بقرب الفتح والخليفة يمنيه ويرد عليه الرد الجميل ولم يمده بشئ

وصـــــل

(فى ارتياب وانقلاب)

قد كانت الرئاسـة على طول أيامها لم تصـف الى الوزير نوبار باشا من أكدار الوشاية وأوضار السعاية اذ كان له مع الخديوى من أمرهـا فى كل يوم شأن ومع السـير بارنج فى كل لحظـة أخـذ ورد بشأن أعمـال بعض المأمورين وأصحاب الوظائف وفى نظام بعض الدواوين وفى غير ذلك مما يتعلق بشؤن البلاد الداخلية وقد كبرت فى هذه الايام شدته وعظم الحاحه فى طلب تنفيذ الكثير من الاحـداثات المخالفة للمألوف عند أهل البلاد وابداع البـدع التى لا يقوى الوزير على عملها خوفا من صيحة الاحزاب وتألبهم عليـه فكان اذا دافعـه وحاجه وكادت حجتـه تغلب حجته تأفف وقلب للوزير ظهر المجن حتى يكاد يخلط عليه الحال ويفسد عليه كل عمل وتدبير واذا سايره وعمل بعض الذى يريده كارها قامت صيحة الاحزاب وأخذت الوزير من كل جانب واشتدت جلبة أعدائه وأكثروا من الاجتماع تارة فى بيت مصطفى رياض باشا وأخرى فى مقر الغازى مختار باشا فاذا علت أصواتهم وسمع النـاس صيحاتهـم ورأوا كثرة اجتماعهم أقبـل السـير بارنج على الخديوى وتبرأ من تبعة كل عمـل وشجعه على الاخذ بأطراف الحزامة وحبب اليـه الاستبداد بشؤن مملكته فداخـل الخديوى من هـذا الحين ماداخله وصار لايأذن بانعقاد مجلس الوزراء الا تحت رئاسـته ولا يبرم فى شؤن البلاد أمر الا برأيه ولا يعمل عمل الا بمشورته حتى كاد يستبد بالامر ولا يترك لاحـد من رجال

دولته عملا وتعذر على الوزير حينئذ أن يوفى الرئاسة حقها أو أن يأتى عملا الا ويكون من ورائه اللدد والكمد فكثر توجعه وعظمت شكواه الى بعض قناصل الدول وضعفت عزيمته عن العمل وضاعت تدابيره فخاب منه الرجاء والامل وظهرت علامات الوحشة بينه وبين الخديوى وكادت تستفحل فأرسل الوزير تكران باشا وكيل نظارة الخارجية يومئذ الى زعيم سياسة الانجليز يشكو اليه علة الوزير وما يلاقيه من أفاعيل السير بارنج وما نجم عن ذلك من الاضطرابات الداخلية التى لا بد وأن تودى بنظام الحكومة وترجع بالاحوال الى أسوأ مما كانت عليه ولبث تكران باشا فى عاصمة الانجليز أياما ثم قفل راجعا الى القاهرة وشاع الخبر بعد رجوعه بوصول كتب صاحب السياسة الانجليزية الى السير بارنج بالاقلاع عن كل عداء وعدم مساس كرامة الوزير بشئ ولا مراجعته فى شئ من أعمال منصبه فلم يكن هذا الخبر ليرضى الاحزاب ولا ليوقف الارجاف عند حد بل زاد النفور وربك الامور ومال بالخديوى الى التفرد بالعمل والبحث فى الصغيرة والكبيرة من أمور الحكومة وقد أحس مصطفى رياض باشا بما وراء ذلك فعاد يومئذ الى عمل المآدب للكبراء والامراء وأصحاب الوظائف وبالغ فى التودد الى الناس والاقلاع عن التحجب فكثر تردد المديرين وأعيان البلاد على بيته تزلفا فلما كان شهر رمضان من السنة أى سنة خمس وثلثمائة وألف هجرية جاء من مزرعته بعجلة روح الى القاهرة وأكثر من عمل تلك المآدب فقويت حينئذ ظهور المجاز بين له وظهرت جلبتهم وكثرت اجتماعاتهم وفى تاسع عشرى الشهر أرسل الخديوى الى الوزير نوبار باشا كتابا يقول فيه

انه بناء على ماوقع فى جلسة المجلس بالامس وما هو الا تكرار ماحدث أكثر من مرة من التباين فى الآراء مما رأيت معه استحالة بقائك فى منصبك فلهذا قد أقلتك منه وعهدت رئاسته وتشكيل هيئة جديدة الى صاحب الدولة رياض باشا اه

ثم أرسل الى مصطفى رياض باشا يستقدمه الى الاسكندرية وقد كان الخديوى يومئذ هنالك فجاءها فى ظهر الثلاثين من رمضان واجتمع بالخديوى ولبث بحضرته ساعة ثم نزل وطاف يزور بيوت الكبراء والامراء وقناصل الدول وغيرهم من الاجانب أصحاب الحيثيات فزاره الجم الغفير منهم وازدحم على بابه الشعراء والمهنؤن وأصبحوا وقد خرج الناس من الامراء والكبراء وأصحاب الوظائف لتأدية واجبات التهنئة بالعيد وصعدوا الى مقر الخديوى برأس التين فهنؤه ۞ وسمعت بعضهم يقول للخديوى ونحن بقاعة التشريف ساعة التبريك عيد مزدوج يا أفندينا يريد بذلك عيد الفطر وعيد خلع الوزير نوبار باشا وكان ممن سمع معى هذا القول جماعة ممن لا يفضلون فريقا على الآخر فنظر الىّ أحدهم بعد أن خرجنا من حضرة الامير وقال أوتظن أن الخديوى أقال الوزير نوبار باشا للاسباب التى تضمنها مرسومه قلت لاأظن غير ذلك — فقال اعلم أنه لما كبرت الوحشة بين الوزير نوبار باشا والسير بارنج وعظم الخلاف وضاعت تدابير السير بارنج أدراج الرياح فلم ينل من الوزير مأربا عمد الى

الموارية فكان اذا اجتمع بالخديوى ورأى منه انقباضا خفف عنه وقال يا مولاى ان البلاد اسلامية وقد بلغت فيها المعارف الحديثة مبلغها فليس من حسن السياسة أن يكون وزيرها نصرانيا ولا من الحزامة أن تترك البلاد هدفا لغايات الاحزاب الذين قد ظهر صوتهم وارتفع نداؤهم * وكان اذا طرأ شئ من الخلاف بين الخديوى والوزير على أمر من الامور دخل على الخديوى وأظهر التأفف وبالغ فى الاشفاق - كل ذلك ليتمكن من خلع الوزير من منصب الرئاسة لكرامة الوزير عند صاحب سياسة الانجليز وتقديره له حق قدره - قال - وما زال بالخديوى وهو يهوّن عليه خلع الوزير حتى ظن الخديوى أن السلامة فيما يشير به السير بارنج وأن الخلاص هين وميسور فلما آنس منه ذلك أشار عليه بتولية الرئاسة للوزير مصطفى رياض باشا وهو يرمى بذلك الى غايتين أولاهما التنكيل بالوزير نوبار باشا وثانيتهما بلوغ ما يتمناه لدولته من المآرب على يدى مصطفى رياض باشا لشهرته بالوطنية واعجاب السواد الاعظم بكياسته وحسن تدبيره حتى اذا ارتفعت أصوات الاحزاب يومئذ وعلت ضوضاء أصحاب صحف الاخبار وقالوا فعل الانجليز بالبلاد كذا وتركوا كذا وكذا أجابهم السير بارنج خففوا عنكم فما هى إلا فعال زعيمكم ومقدام وطنكم فلا لوم على الانجليز ولا تثريب فتأمل - فقلت ياهداك الله هذه ظنون وأوهام ولله وحده علم ما فى مستقبل الايام فقال نعم ولكن الامر ظاهر للعيان والنتيجة لايختلف قط فيها اثنان واعلم أن الخديوى ما برح ذاكرا للوزير نوبار باشا حسن طاعته وولاءه لذاته وعرشه وهو يعلم أنه أسلم الوزراء نية وأنقاهم طوية وأحب الناس الى البيت العلوى وأحفظهم لنعمته ولكن وقع القضاء فلا خلاص ولا مناص ولا حول ولا قوة الا بالله

ثم تم تشكيل هيئة الوزراء فكان الوزير مصطفى رياض باشا للرئاسة ولنظارتى الداخلية والمالية ومصطفى فهمى باشا للحربية والبحرية وذو الفقار باشا للخارجية ومحمد زكى باشا للاشغال العمومية وحسين فخرى باشا للحقانية وعلى مبارك باشا للمعارف العمومية * وجعل الوزير مصطفى رياض باشا يغدو ويروح على مقر الخديوى الى يوم الثلاثاء ثم عاد مع الوزراء الى القاهرة وطير الخبر بتوليته الى الآفاق وكتب الى سائر المديرين والمحافظين بالقيام بواجب وظائفهم وحذرهم من عاقبة التراخى والاهمال ثم لم تمض الا أيام حتى استقدمهم الى القاهرة وأشبعهم تأنيبا وتقريعا ثم حضا على الاستقامة والاخذ بأطراف الحزامة والسهر على راحة العباد وتأمين الطرق والمسالك فى انحاء البلاد وقد شاع يومئذ أنه على عزم خلع سائر وكلاء النظارات كنظارة الخارجية ونظارة الحقانية ونظارة المعارف فقام لذلك بعض أصحاب الصحف الاجنبية والصحف المحلية وقعدوا وأخذوا يرمون بعض أولئك الوكلاء بشئ من التهم ويوجهون الى بعضهم اللائمة فكان ممن أكثر الكلام فى ذلك صاحب جريدة الغازيت الانجليزية وهى لسان حال الانجليز بمصر فانه شط فى المقال وأغلظ

فى التعبير وكان اذا أمسك عن الكلام يوما أتته كتب الخصوم فى ذلك تترى فيرجع الى المهاترة وهذر القول حتى ظن الناس أن مناصب القوم باتت على شفا جرف الزوال وأن قول صاحب الغازيت فى ذلك موحى به اليه من المراكز العالية ولكنه لم يمض على هذه الجلبة الا أيام حتى نهض أصحاب صحف الانجليز الكبرى يعيبون على صاحب سياستهم ما وقع من خلع الوزير نوبار باشا ويظهرون الميل والعطف اليه والى مباديه وأمياله الشريفة ثم جعلوا يعرّضون بدسائس الغازى أحمد مختار باشا مبعوث الباب العالى ويقولون انه هو هو علة هذا الانقلاب وداعية ذلك المصاب بايقاظه الفتنة الراقدة وتشجيعه السير بارنج على ما زين للخديوى عمله وأخذوا من هذا الحين يقلبون للغازى مختار باشا ظهر المجن ويتوعدون الرئيس مصطفى رياض باشا وأصحاب شوراه بسوء العقبى والمصير ان لم يقلعوا عن هذا المنهاج المعيب ويعتدلوا فى سيرهم وتطرق بعضهم الى القول بأن الرئيس انما يريد من هذه الضوضاء تولية ولده منصب وكالة الحقانية وزج سائر ذوى قرباه فى مصاف أصحاب الوظائف العالية وقال بعضهم غير ذلك * وأخذ الرئيس يتصرف فى الامور فمدّ يده الى أعمال سائر الدواوين وبسط عليها نفوذه فتعذر على كبارها توفية وظائفهم حقها واستعصى عليهم رده عن هواه أو مخالفة كلمته فاختلط يومئذ الحابل بالنابل وفشلوا أى فشل وهو لا ينكف عن ترديد نداء الوعد والوعيد الى المديرين والمحافظين وسائر أرباب الوظائف بالالتفات الى تأمين الطرق وقطع شأفة اللصوصية وأصحاب السطوات اذ كثر عيثهم فى هذه الايام واشتدوا على القرى والبلاد بين قتل ونهب وافساد فكان كلما اشتد الرئيس على أصحاب الوظائف بسبب ذلك ازداد اللصوص قحة وجرأة على الافساد واراقة الدماء وفتكوا بالناس فتكا ذريعا فى مشرق البلاد ومغربها حتى فى القاهرة ومصر القديمة اذ سطوا على بيت حسين فخرى باشا ناظر الحقانية وأخذوا منه شيأ من الحلى والاعلاق النفيسة وكذلك فعلوا ببيت نوبار باشا بعد رحيله الى الديار الاوروباوية وبيت الطبيب جرانت بك الانجليزى وأزعجوا أهل القاهرة ومصر وبلغ خوف الناس منهم معظمه فكان اذا خرج الرجل من بيته لحاجة وكل جاره بحراسة بيته حتى يعود والرئيس مع هذا كله كان يقول — عسير علىّ أن أرى فى أيام رئاستى غير ما هو صائر من تأمين الناس على أرواحهم وأموالهم وعيالهم وقطع شأفة أصحاب الشقاوة

واجتمع به يوما مكاتب جريدة الستاندرد الانجليزية فحادثه فى أحوال البلاد وما عليه أهلها من القلق والخوف المتزايد بسبب عيث اللصوص فى مشرق البلاد ومغربها وفى التهم الفاضحة الموجهة الى أصحاب بعض الوظائف الديوانية وأشار على الرئيس بتشكيل لجنة شبيهة باللجان التى يتولاها مجلس الاشغال العمومية فى عاصمة الانجليز وأن تكون أعمال هذه اللجنة علنية لا تخفى على أحد من الناس فقال له الرئيس ان مثل هذه اللجان فى بلادكم لاتتناول الا أبناء جنسكم فقط على حين أنها اذا أنشئت هنا حال دون بلوغها الغاية

موانع شديدة اذ تقوم الاحزاب ويندفع كل منهم على الآخر ويرمى غيره بالتهم والوشاية وهنالك تكون الطامة الكبرى ـ الى أن قال وحقيقة الامر أن الاحوال فى السنوات الست الماضية « يعنى بها أيام رئاسة الوزير نوبار باشا » قد بلغت حدا من الخلل والارتباك لم أكن إخالها تبلغ اليه عند ما استلمت زمام الرئاسة فى هذه المرة والذى أراه أنه ليس فى الامكان الآن فحص جميع الاعمال المخلة التى عملها بعض موظفى الحكومة لا سيما وانهم فيما يظهر قد أقدموا عليها مدفوعين ممن كانت واجباتهم تقضى عليهم بمعاقبتهم ـ قال وأؤكد لك أنه لا يكاد يمضى يوم حتى يظهر فيه مظهر جديد مشوه بالعيوب والخلل مما كان يدفع بى أحيانا الى القنوط اذ أجد نفسى تجاه أمور ثقيلة تقضى على بالعناء الكثير والذى يدهشنى ويوجب مزيد استغرابى هو عدم تداخل الدولة الانجليزية فى ذلك الامر واغماضها الطرف عن الاعمال السابقة « يعنى أعمال الوزير نوبار باشا » ـ قال وانى لا أقصد محو المغايرات القديمة والاغضاء عنها ولكنى سأجهد النفس فى نسيان الماضى لا سيما وأن المستقبل معقودة نواصيه بنزاهة الاعمال الحاضرة اه ﴿ قلت ومحصل بعض هذه التهم التى أشار اليها ذلك المكاتب الانجليزى أنه لما سقطت الخرطوم وانحدرت الجيوش الانجليزية وتحقق الناس خروج الاقطار السودانية من قبضة الخديوية المصرية تقدم الى ديوان الخزينة جماعة من اليونان والروم الذين كانوا يتجرون فى السودان يطالبون بمال لهم فى ذمة غردون أيام الحصار ودفعوا الى الخزينة صكوكا موقعا عليها بخاتم غردون تثبت أن فى ذمته لاصحابها مالا اقترضه للنفقة أيام الحصار وتزاحمت أقدام هؤلاء القوم على أبواب الخزينة وهم فى كل يوم يلحون فى طلب مالهم فاهتمت الخزينة يومئذ بالامر وأكبره رجالها وشكلوا لفحص تلك الصكوك هيئة ممن أشار بهم جماعة الانجليز فتقرب أصحابها حينئذ من بلوم باشا وكيل الخزينة وأورنشتاين كاتب سر المستشار المالى قيل ومنوهما ووعدوهما بالوعود الكثيرة ففصلا فى الامر وقاسا وألبسا كلا من أصحاب تلك الصكوك ما لاق فهمت الخزينة بالوفاء وهى فى إمحال وعسر فلم تتمكن فانبث أصحاب الجباية يومئذ يجوبون البلاد شرقا وغربا ويجمعون الاموال والضرائب مع العنف والشدة وطلب أصحاب تلك الصكوك مترادف حتى برح الخفاء وبان فساد تلك الصكوك وتحققوا أن خاتم غردون مزور فامتنعت الخزينة من القيام بتعهداتها وخابت مساعى كل من كان فى قلبه مرض بعد قيل وقال ضربنا عنهما صفحا فلما ذاع كلام الرئيس مصطفى رياض باشا مع ذلك المكاتب على ما تقدم وتناقله الناس أخذت الرئيس ألسنة الاحزاب وعابوا عليه خيلاءه وتفاخره وقالوا عسير عليه أن يدرأ عن نفسه وصمة هذا التزلف وعار التقرب من الانجليز وهو رجل الوطن ووحيده وتطيروا من ذلك وحسبوا للمستقبل أيام رئاسته فى هذه المرة حسابا كبيرا

وكان قد حدث على عهد الوزير نوبار باشا حادث فى الفيوم ـ وذلك أن أحد أصحاب

الحيثيات بها واسمه مصطفى بيك واصف قتل فى احدى ليالى شهر رمضان فى بيت وجيه من البلد اسمه خليل الدهشان فاهتمت الحكومة يومئذ بالامر ورسم الوزير نوبار باشا الى جماعة من المأمورين بتحقيق هذا الحادث واظهار الجانى فلم يفلحوا واختلط عليهم الحال أياما فلما تولى الرئيس مصطفى رياض باشا الرئاسة وآنس من الناس قلقا واضطرابا لفقدان الأمن وعبث اللصوص فى سائر البلاد عمد الى اظهار شئ من الشدة فى تحقيق مقتل مصطفى بيك هذا ورسم به الى جماعة اصطفاهم وهم حشمت بيك رئيس محكمة المنصورة وأحمد خيرى بيك قاضى تحقيق جنايات محكمة مصر ومحمد صبرى بيك أحد ضباط قسم الضبط فساروا جميعا الى مدينة الفيوم وقبضوا على خليل الدهشان صاحب البيت الذى قتل فيه مصطفى بيك وعلى جماعة آخرين ممن حصروا الشبهة فيهم وزجوهم فى الحبوس وضيقوا عليهم وشددوا فلم يصلوا الا الى معرفة أن الرجل أصيب بطلق نارى وهو يلعب النرد مع خليل الدهشان ثم شاع الخبر بعيد ذلك أن خليلا وأخاه خير الله هما القاتلان — قالوا وتحرير الخبر أن مصطفى بيك هذا جاء فى احدى ليالى شهر رمضان من مزرعته الى بيت الدهشان ليزوره لمودة وصحبة بينهما فبعد الافطار وأداء صلاة التراويح جلس مصطفى بيك مع الدهشان على مسطبة فى صحن الدار يتحادثان لحظة لطيفة ثم طلب مصطفى بيك من الدهشان أن يلاعبه النرد « الطاولة » فأجابه الى ذلك ونادى على أحد أتباعه أن هات لنا الطاولة فأتى بها الخادم فبينما كان خليل يرتب أحجارها نظر مصطفى بيك مسدسا بجانب خليل فقال ما هذا قال هو مسدس من الطراز الجديد قال أرنى اياه ومد يده وأخذه فقلبه وأعجب به كثيرا ثم ناوله الى الدهشان فجعل الدهشان يقلبه أيضا ويطرى على صانعه فلم يشعر مصطفى بيك الا وقد خرجت منه رصاصة أصابت كتفه فانزعج وصاح فى وجه الدهشان وقال « أهى خونة يا كلاب فلا كنتم ولا كانت صحبتكم » فجاء فى الحال خير الله أخو خليل وصاح على أخيه ما هذا وما الذى تنتظره بعد الذى جرى عجل بازهاق روحه — قال وأخذ هو المسدس وأطلقه على مصطفى بيك ثانية فأماته — قالوا وقد شهد شهود الحال بهذا المقال فأتم جماعة المحققين عملهم وانحدر حشمت بيك الى القاهرة وأخبر الرئيس بما جرى — قيل فأعجب الرئيس فطنته وذكاؤه واهتم بالامر ورسم الى حسين فخرى باشا ناظر الحقانية بتشكيل محكمة مخصوصة للحكم فى مقتل مصطفى بيك فرفعوا بذلك طلبا الى الخديوى فأجابهم اليه وتشكلت تلك المحكمة من خمسة قضاة وهم عبد الحميد باشا وأحمد بليغ بيك وابراهيم نجيب بيك ومحمد كمال بيك صهر الرئيس مصطفى رياض باشا وسليمان رؤف بيك وأحمد حشمت بيك لاداء وظيفة المدعى العمومى وتقرر بأن تتبع هذه المحكمة فى أحكامها نصوص القانون الجديد المعمول به فى المحاكم الاهلية بالاقاليم البحرية لانه الى ذلك اليوم لم تكن تأسست المحاكم بالاقاليم القبلية وبأن يكون حكمها فى ذلك نهائيا لا يقبل الطعن على أى وجه كان فلما كان صباح الاثنين خامس عشرى المحرم افتتاح

سنة

سنة ست وثلثمائة وألف هجرية انعقدت هيئة تلك المحكمة وأوقفوا أمامها خليلا وأخاه خير الله ووقف معهما أحمد أفندى الحسينى وخليل افندى ابراهيم المحاميان عنهما وبعد دفاع يومين كاملين حكمت المحكمة باعدام خليل وأخيه شنقا وصادق قاضى قضاة مصر والخديوى على ذلك وأعطى للمحكوم عليهما مهلة ثمانية أيام من يوم صدور الحكم لكى يدبرا أمر عيالهما وعلاقاتهما ثم نفذ الحكم على خليل بمدينة الفيوم وعلى خير الله أخيه باهربيت احدى قرى الفيوم فلما وضعوا حبل المشنقة فى عنق خليل وأزاحوا الكرسى الذى كان تحت أقدامه انقطع الحبل وسقط خليل مغمى عليه فأجلسوه على كرسى وذهب الجلاد يشترى حبلا آخر من سوق البلد ففتح خليل عينيه وقال ائتونى بقليل من الماء فأتوه بركوة فشرب قليلا والتفت الى الجمع وقال أشهدكم بأنى مظلوم مظلوم ويعلم الله ــ القصاص قريب ــ ثم أغمض عينيه وسكت فضج الناس وتوجعوا وظهرت حركتهم وعاد الجلاد بالحبل ووضعه فى عنق خليل وشده فبقى معلقا وفاضت روحه فى الحال وشاع خبر هذا الحادث فانقبضت صدور الناس لسماعه وعاب كثير من القضاة على تلك المحكمة حكمها ورموا بعض رجالها بالمروق عن جادة الحق وكثر تحدث الناس فى ذلك ولا سيما بعد أن خلع الرئيس بعض أصحاب الوظائف العالية وحاكم البعض الآخر ممن كان لهم يد فى التحقيق الاول ۞ حدثنى وجيه من وجهاء الفيوم قال أيظن الناس أن خليل الدهشان وأخاه خير الله هما قاتلا مصطفى بيك واصف ــ قلت لم يبق على ما أظن من ريب عند أحد فى ذلك بعد أن حكمت به تلك المحكمة العليا فأطرق ثم رفع رأسه وقال عرفت مصطفى بيك منذ حين وأعرف ولدى الدهشان من قبل فأحدهما وهو خليل صعب المراس قوى الشكيمة جبار عنيد ولكنه جواد كريم حسن المعشر بعيد عن الجور وكان بينه وبين مصطفى بيك محبة ومودة عظيمة لا لغرض سوى محض الاخلاص وكان أعرابى اسمه منصور مستأجرا لشئ من أطيان خليل الدهشان باحدى قرى الفيوم وله زوجة جميلة قد علق خليل بحبها وعلقت هى كذلك به فكان خليل يزورها فى خدرها كل قليل من الايام وتزوره فى بيته بالبلد وكانت مع شدة مراقبة حليلها وغيرته لاتخشاه ولا تنكف عن الاتيان الى خليل وشاع خبر ذلك بين الناس وعرفه كبار البلاد وصغارها حتى نَدّد بعضهم يوما بزوج المرأة وناداه بعضهم بفحش القول فصمم الرجل على الانتقام من خليل وجعل يراقب الفرص وخليل يعلم ويحذر ويدفع بالرجل الى المهالك رجاء الخلاص منه واتفق أن حضر مصطفى بيك فى احدى ليالى شهر رمضان لزيارة خليل فى داره باهربيت والافطار عنده فى تلك الليلة ففرح خليل بحضوره وبعد الافطار جلسا على مسطبة بصحن الدار يتحدثان ساعة ثم قال مصطفى بيك لخليل أوليس عندك طاولة للعب فقال عندى قال هاتها لنلعب معا قتلا للوقت فنادى خليل على أحد أتباعه أن ائتنا بالطاولة من بيت النساء فدخل الخادم وأبطأ كثيرا فقال مصطفى بيك أين الطاولة

ياقوم ما هـذا الابطاء فخجل خليـل من ابطاء الخادم وأسرع الى بيت النساء فلاقاه الخادم عنـد الباب وقال له سـيدى فلان « يريد به ابن أخى خليل المتوفى » منعنى من أخـذ الطاولة ويقول ان أخته ماتت منذ خمسة أيام فكيف يليق لعب الطاولة وقد لطمنى على وجهى فلما سمع خليل ما قاله الخادم غضب وأسرع بالدخول وكان ابن أخيه قد رآه على هذه الحال فأسرع الى الطاولة وأخذ حجرا من أحجارها ليمنع من الاسـتفادة منها فمال عليه خليل وأشـبعه ضربا ولكما وأخـذ الطاولة وخرج مسرعا وجعل يعتـذر الى مصطفى بيك ومصطفى بيك يضحك فجلس خليـل وفتح الطاولة يريد رص أحجارها فوجد حجرا فاقدا فنادى على الخادم أن أحضر لنا قـرشا نحاسا نضعه بدل الضائع من الحجارة فذهب الخادم ـ وعلم منصور العربى فى تلك الساعة بخـبر جلوس خليـل وضيفه فى صحن الدار فأتى مسرعا يتأبط بارودته ووقف خلف سـور صحن الدار والسـور لا يتجـاوز ثلاثة أذرع ارتفـاعا وصـوّب بارودته نحو رأس خليل وكان فى هاته اللحظة قد رجع الخادم وناول سيده القرش فأخذه وانحنى قليلا وجعـل يرص الحجارة ثم رفع رأسه قليلا ثم طاطأها فأطلق الاعرابى بارودته فخرجت رصاصتها عنـد انحناء خليل واحتكت برأسه من خلف الى الامام وأصابت كتف مصـطفى بيك ثم استقرت بقلبه ففاضت روحه لساعتـه واختفى الاعرابى فلم يعـلم به أحد فقامت ضجة فى بيت خليل وامتلأ صحن الدار بالعدد العـديد من أهل البلد وطيروا الخبر بما حصل الى المدير والى أهل الفقيد فوردت يومئذ كتب الوزير نوبار باشا مشددة بالقبض على القاتل وجاء بعض مأمورى الحكومة لتحقيق الحادث وبثوا العيون فدلت التحقيقات على أن الطلق النارى كان على بعد بضعة أمتار وأن مقذوف البارودة شظية من الرصاص لا رصاصة من رصاص المسـدسات واستخرج تلك الشظية جماعة من الاطباء فلم يبق موضع للريب عند أحد فى أن القاتل هو غير الدهشان ـ قال ـ ولكن أين هو القاتل يا ترى لم يحصـل العثور عليه الى ذلك الحين * واتفق أن عزل الوزير نوبار باشا من منصبه فتولى الرئاسة مصطفى رياض باشا فاهتم بهذا الحادث اهتماما عظيما لسعاية بعض الخصوم وتقرب أصهار مصـطفى بيك من مجلس الرئيس فوردت كتبه على مدير الفيوم بالتشـديد فى طلب القاتل والتحـذير من عاقبـة التوانى ثم لم تكن الا أيام حتى أرسل أحمد حشمت بيك أحد رؤساء المحاكم الاهليـة ومعه جماعـة من المأمورين فما لبثوا أن قبضوا على خليـل وأخيه خـير الله وزجوهما فى الحبس مع نفر من أهـل البلد وعملوا ما لا خير فيه اذ نبشوا جثة المقتول وأخرجوها من قبرها وكبسوا بعض الدور وفتشوها ونقلوا شيأ مما وجدوه بها ومنعوا المسجونين من الراحة فى الليل والنهار واشـتدوا عليهم فى الاخذ والرد شدة بالغة وقالوا ان الجراحة التى شوهدت فى رأس خليل ليست الا كيا بمسمار محمى فى النار يراد به درء فعـل القتـل عنه ـ قال ـ وقد كان السواد الاعظم من أهل الفيوم يعـلم بأن الحقيقة غابت عن أولئك المأمورين أوهـم أخفوها لغرض فى النفس فأخذتهـم الطيرة وكانوا اذا تكلم

بعضهم مع بعض فى شئ من ذلك تكلموا همسا خوفا من العيون وكثر غدو ورواح حشمت بيك الى القاهرة فكان كلما ذهب وعاد قلب الاعمال بطنا الى ظهر وبالغ فى الحيطة والتشديد على المسجونين ثم جاء جماعة من القضاة للحكم على خليل وأخيه فى محكمة مخصوصة أو هى محكمة عليا كما سموها وجلسوا لذلك يوما وبعض يوم قام فيهما حشمت بيك مدعيا فبالغ فى القول وشط فى الطلب وعاب على بعض مأمورى التحقيق عملهم وارتاب فى ذممهم ولم يترك جارحة الا وطعن بها جسم خليل وأخيه خير الله ثم أخذ بعد كلام طويل ينادى القصاص القصاص احكموا لنا بتعليق هذين السفاكين على خشبة احكموا احكموا على قاتلى ذلك البرىء احكموا فكان السامعون يدمدمون فيما بينهم ثم قام المدافعون عن خليل وأخيه وتكلموا واحتجوا بأقوى الحجج وبرهنوا بأعظم ما يكون من البراهين على براءة خليل وأخيه واستلفتوا أصحاب الحكم الى صوت الحق الصارخ أمامهم حتى بكى بعض الحاضرين وبعد أخذ ورد تقدم خليل وكانوا قد فكوا قيوده وأغلاله وقال بصوت استلفت اليه الانظار يا سادتى قد اتهمنى وأخى خير الله حضرة هذا المدعى الذى لم يراع الذمة ولم ينصر الحق واشتد علىّ وعلى أخى شدة الله يحكم فيها بعدله وزعم أن الجراحة التى أصابت رأسى من الطلق النارى الذى أصاب قلب فقيدنا مصطفى بيك انما هى جراحة أحدثها لى أحد الحلاقين اخفاء لحقيقة جريمتى وقد سمعتم من دفاع المدافعين عنى ما أسأل الله أن يوفقكم به الى الصواب فلم يبق الا أن أسألكم أمرا هو — ان وفقتم الى الحكم علىّ وعلى أخى بالقتل ولا أظنكم الا فاعلين فأستحلفكم بمن ترجون منه الرحمة من هول هذا الموقف الرهيب أن تبدؤا بى وتستبقوا أخى خير الله أياما حتى تفحص الاطباء جراحتى بعد الموت فان كانت اصابة حقيقة وليست جراحة من يد حلاق كما يزعم مدعيكم فأطلقوا سبيل أخى ليعول صبيتى وأهلى ويكون قد خفف الله عنكم وزرا من وزرين وكفاكم عقابا من عقابين وان كانت جراحتى كما يقول صاحبكم فأنتم فى حل من دمى ودم أخى والله على ما أقول شهيد ثم ذرفت عيناه الدمع فانتحب وبكى الناس لبكائه وكادوا يضجون ويرفعون أصواتهم ۞ قال الراوى فعند ذلك قام القضاة واختلوا برهة ثم خرجوا وجلسوا على كراسيهم ونطق الرئيس بالحكم على خليل وأخيه بالاعدام شنقا فانذعر الناس وخرجوا وكأن على رؤسهم الطير — قال — واتفق أن عاد السير بارنج قنصل جنرال الانجليز الى القاهرة بعد غياب وشاع خبر حضوره فعلمت به عجوز هى أم خليل وخير الله فقامت لساعتها ومعها صبى لخليل لم يناهز الخامسة وانحدرت الى القاهرة واتصلت بباب السير بارنج واستجارت فأدخلها اليه وسألها عن سبب حضورها فقصت عليه الخبر وقالت جئتك ياسيدى لا لتخلص ولدىّ من الموت بل ليبدؤا بقتل خليل وفحص جراحته فان كانت كما يقول فأبقوا لى خير الله يعولنى ويعول صبيته وصبية أخيه وان كانت كما يزعم مصطفى رياض باشا وأصحاب شوراه فهم فى حل مما يفعلون — قال

وبكت العجوز بكاء مرا وترامى الصبى على أقدام السير بارنج فطيب السير خاطرها ووعدها خيرا — قال — وكأن السير بارنج أرسل الى الرئيس مصطفى رياض باشا يستعلم عن هذا الحادث فلم يكن الا يوم أو بعض يوم حتى جاء أحمد حشمت بيك الى الفيوم يحمل الامر بتنفيذ الحكم على خليل وأخيه ولم يكن قد مضى الاجل المضروب لذلك قانونا فأنفذوه على ما اشتهر خبره يومئذ وبلغ السبع الطباق اه ﴿ قلت وكأن الرئيس كان يظن أن فى قتل ولدى الدهشان عبرة وارهابا لاهل الشقاوة وأصحاب اللصوصية الذين ملؤا البلاد شرقا وغربا ينهبون ويقتلون ويقطعون الطرق فلم يصب ظنه المرمى فانه ما انتشر خبر هذا الحادث حتى كبرت قحتهم وعظمت جرأتهم وانبثوا فى سائر أنحاء الاقليمين فكانت الاخبار تأتى الى الرئيس تباعا بوقوع النهب والقتل واتلاف المزارع وتسميم الماشية حتى ضج الناس وذهب منهم الصبر وتولاهم القنوط واليأس وقد زادهم قلقا واضطرابا ورود الخبر بظهور الوباء فى مكة واشتداد الموات بين الحجاج شدة بالغة فاهتمت رجال الحكومة لذلك اهتماما كبيرا ورسم الخديوى بناء على ماقرره مجلس الكورنتينات بارسال قوة كبيرة من العساكر والاجناد الى مدينة السويس لتقوم بعمل طوق صحى ما بينها وبين طور سينا وعيون موسى وتشديد مراقبة الحجر على الحجاج فى الطور عند قيامهم من جده وغيرها وبالغت الخزينة فى بذل النفقة اللازمة لذلك وتحوطت الدول الاجنبية كافة فضربت الحجر على سائر مايرد الى موانيها من الموانى المصرية وسواحل البحر الاحمر وأرسل بعضهم الى السويس رسلا ليراقبوا مرور الحجاج بالترعة الملحة عند عودتهم الى أوطانهم وخاف الناس من تناقض الاخبار ورودها مقتضبة مبتورة عن ظهور هذا الداء أيضا فى راوندوز من بلاد الموصل وفى جزيرة ابن عمر وغيرها من البلاد العربية وهو آت اليها من الهند الانجليزية وكثر اجتماع الرئيس مصطفى رياض باشا بكبار موظفى ديوان الصحة ليروا رأيهم فيما يجب عليهم عمله لقاء هذا العدو الفتاك وطاف أطباء أقسام مصر والقاهرة فى الازقة والحارات ومعهم أصحاب الشرطة ومشايخ الحوارى يستحثون العامة الى نظافة بيوتهم والعناية بتطهيرها وصارت الاخبار تأتى فى كل يوم من مكة والمدينة بعدد الوفيات فكان مبلغها فى اليوم نيفا وألفا فاشتد الخوف بالناس وكبرت حيطة رجال الحكومة ورسم الخديوى بمنع عمل الموالد ومنع الناس من الاحتشاد فيها وأرسلوا بعض سفن الحرب لحراسة السواحل من السويس الى دبه ومنها الى الزعفرانة وأقاموا أربطة من الجنود على هذه السواحل لمنع الفارين من الحجر والاخبار ترد فى كل يوم باشتداد الوباء فى مكة وفى المدينة ودخوله الى جدة وفتكه بالحجاج فتكا ذريعا ثم كثر توارد الحجاج على ظهور السفن الى الطور وعيون موسى فأنزلوهم هنالك محجورا عليهم وبقى الحال هكذا أياما وجاء الخبر يوما الى محافظ السويس بفرار أربعة من الطوق الصحى ودخولهم المدينة ثم فرارهم منها ليلا الى القاهرة واختفائهم فى بولاق مصر فطير الخبر بذلك الى محافظ مصر فاهتم له المحافظ وبث جماعة من أصحاب الشرطة

فى طلب الفارّين فعاثوا فى بولاق مصر ولبسوا على كثير من الدور والوكائل على غير طائل واتفق أن مرض رجل من سكان بولاق مرضا عاديا سبقه بعض القىء والذرب فأخبر شيخ حارته طبيب القسم بخبره فسار الطبيب الى منزل المريض ليبحث عن علته وسبب مرضه فوجد أن الرجل قد مات وأن أهله يستعدون لتشييع جنازته فنعهم من ذلك وأرسل فى طلب عربة الموتى من مركز صاحب الشرطة ببولاق وطير الخبر الى محافظ البلد بأن الرجل مات بالهيضة الوبائية ثم منع الناس من الاقتراب من الجثة وبالغ فى ذلك فقام عليه حينئذ أهل الميت وأشبعوه ضربا ولكما ووخزا وأخرجوه خارج الدار وقفلوا دونه الباب فلم تكن الا لحظة حتى أتى رجال الشرطة ونفر من رجال الصحة ومعهم عربات نقل الموتى وتطهير متاع المصابين بالامراض المعدية وشئ من العقاقير ومواد التبخير ودقوا باب بيت الميت فلم يفتحوا لهم فظلوا على هذه الحال ساعة اجتمع فيها العامة وزعر بولاق بعصيهم وهراويهم واشتدت جلبتهم وصياحهم فى وجه أصحاب الشرطة ورجال الصحة وعلا عويل النساء وصراخهن من شبابيك الدور ورموا رجال الصحة بالحجارة من أسطحة البيوت وكثر الهرج والمرج فأتى محافظ المدينة فى نفر من الجند والاتباع وما زال بأهل الميت حتى فتحوا الباب فدخل أصحاب الشرطة ورجال الصحة وحملوا الجثة عنوة ووضعوها فى عربة الموتى فسارت بها على عجل الى مستشفى القصر العينى والناس محتشدون حولها وهم فى ضجة وصياح فكان المشهد مريعا وخاف الناس خوفا عظيما وظن بعضهم أن قد أنشب الوباء أظفاره فى جوف بولاق القاهرة بدخول الفارّين من الحجر الصحى اليها واستصرخت أصحاب الصحف على اختلافها رجال الصحة واستنهضت أصحاب الشرطة الى الاخذ بأطراف الحزم والثبات وسألت أصحاب الحل والعقد أن لا يبخلوا ولا يقتروا فى النفقة حتى يدفع الله عن البلد شر هذا العدوّ القاهر وأكثر الاطباء من نشر الارشادات الطبية والنصائح الصحية لعل الناس يعوّلون عليها ويعملون بها * فلما كان اليوم الرابع من ظهور هذا الحادث ظهر الخبر وتحقق أن ذلك الميت لم يمت بالهيضة الوبائية وأن مرضه انما هو من الامراض العادية التى تحصل عادة فى فصل الصيف من كل سنة وأن الرجال الفارين من محجر الطور ليسوا من الحجاج وانما هم ممن ذهب مع ركب الحج يوم خروج المحمل من القاهرة ثم تخلفوا بالسويس لضيق ذات اليد ولبثوا بالبلد ينتظرون رجوع الحجاج فينزلون معهم الى القاهرة كأنهم حجوا وطافوا وتمموا المناسك كلها زورا وبهتانا وتكلمت فى ذلك الجريدة الرسمية وأقامت عليه الدليل فاطمأنّ الناس وزال عنهم الخوف وكبرت عناية أصحاب الحل والعقد بمراقبة السواحل والتشديد فى النطاق الصحى بمجرى عيون موسى وطور سينا

وبينما كان دعاة الصحة يطوفون المدن والبلدان شرقا وغربا وشمالا وجنوبا يحضون الناس على تنظيف دورهم واصلاح حالة طعامهم والعناية بماء شربهم والامتناع عن كل ما من شأنه تسرب ذلك الداء الفتاك الى البلاد وفتكه فيهم وفيمن يحبون

كان جباة الخراج يطوفون كذلك البلاد زمرا يجبون الاموال فى غير آجالها ويشددون على الناس فى ذلك تشديدا بالغا وكان بعض المديرين يبذلون من الهمة فى ذلك والعناية به ما أعجب الرئيس مصطفى رياض باشا وأرضاه اذ كان يخشى عاقبة امحال الخزينة وفراغها من الدرهم والدينار وعجزه عن القيام بالنفقة المطلوبة — قيل وهو فى كل يوم يقول لجماعة الانجليز إن أيام رئاستى خير ورخاء على البلاد وأهلها فرسم للمديرين كافة يومئذ بخروج الجباة والتشديد عليهم فى جمع الاموال وعدم الوقوف فى التحصيل عند حدّ فطافوا وعاثوا واشتدوا على الناس فضج الناس وعجوا الى الله تعالى وأرسلوا الشكاوى تترى الى ديوان الرئيس بطلب المهلة وكف أيدى الجباة الى حين فلم يلتفت الرئيس الى ذلك بل رسم أيضا بتحصيل سائر المتأخرات على اختلافها وعدم التجاوز عن شئ منها وسير بعض المأمورين وأصحاب الوظائف الى الاقاليم يستحثون الجباة على التعجيل وعدم الابطاء فضاق خناق الناس وتولاهم القنوط وانحدر منهم جماعة كثيرة الى القاهرة ووقفوا على أبواب الداخلية والمالية يرجون لقاء الرئيس أو لقاء صهره محمود باشا دوس أوغلى فلم تمكنهم الحجاب من ذلك أياما

واتفق فى هذه الاثناء أن تولى وكالة الخزينة المستر منلر أحد كبار الانجليز « وقد كان مديرا لحسابات الخزينة » بدلا من بلوم باشا الذى تولاها فى عهد الخديوى اسمعيل وبقى شاغلا لها حتى أقصاه الانجليز عنها فى هذه الايام صاغرا لاسباب لامحل لايرادها هنا فتزاحم القوم على باب منلر وصاحوا واستغاثوا ووردت على ديوانه كذلك صكوك الظلامات من كل فج عميق فأكبر منلر الامر واهتم له اهتماما عظيما لانه أعلم الانجليز بحالة البلاد وأهلها وما هم فيه من شظف العيش وخلو ذات اليد وأعلمهم كذلك بقدر اهتمام الرئيس بجباية الاموال وميله الى قهر الناس على دفعها صاغرين فسار من فوره الى الاقليمين القبلى والبحرى وطاف كثيرا من المدن والبلدان وخبر من أحوال أهلها ما زاده شفقة وعاد الى القاهرة فسير الى المديرين والمأمورين فى منع الجباية الا فى آجالها المقررة وكف الجباة عن المطالبة بالبقايا والمتأخرات الى ميسرة وشدد عليهم فى ذلك تشديدا فلم يعجب الرئيس فعال منلر وعابها وحسبها تعديا وافتياتا على منصبه وهمّ برد كل شئ الى ما كان عليه وأرسل فى طلب سائر المديرين ووكلاء المديريات فحضروا فخلا بهم فى ديوانه يوما أو بعض يوم ثم أرجعهم الى مراكزهم فلم تكن الا أيام حتى ظهر لمنلر وجماعة الانجليز أن بعض المديرين يكرهون مشايخ البلاد على تقديم عرائض يسألون بها دفع جميع الخراج معجلا عن السنة الجارية أى سنة تسعين وثمانمائة وألف ميلادية وأن قد ورد على ديوان الخزينة شئ من تلك العرائض فاهتم منلر بالامر كثيرا وطال الاخذ والردّ بينه وبين الرئيس أياما ثم أرسل منلر كتبه الى المديرين ثانية بالكف عن الجباية والاقلاع عن كل إكراه والا ساءت العاقبة وعظم الحساب وبدت من هذا الحين دلائل الوحشة بين منلر والرئيس ونفر كل من رفيقه

واهتم منلر بايقاف الرئيس عند حده وبالغ فى السعى وراء ذلك وعلم الناس بما جرى ففرحوا وحمدوا منلر وشكروه فتكلم فى ذلك بعض أصحاب صحف الاخبار وعابوا على الرئيس فعاله وقالوا ما ضره لو أقلع عن هواه وقلل من حدته ولم يمكن منلر من الغلبة عليه وتنفير قلوب الناس منه وهو رجل الوطن وكاشف غمته ومفرج كربته فرد عليهم بعض أصحاب الصحف المحازبة للرئيس رداكاله مما حكة ومهاترة ووقعوا على المستر منلر باللائمة وأشبعوه تأنيبا وتقريعا ﴿﴾ وتلاقيت يوما مع أحد المقربين من مجلس الرئيس فقلت قد ذهبت أتعاب صاحبكم فى التعجيل بجباية الخراج قبل أوانه وفى تحصيل البقايا القديمة والمتأخرات العاطلة هدرا وقد كان عهدنا به أن لا يصرف وجه أصحاب الظلامات عنه ولا أن يمكن أحدا من طرق باب غير بابه فان ذلك كما تعلم أدعى الى الصغار وأدنى الى مهواة البوار وكلنا يعلم ما لصهر الرئيس من الحيطة والقدرة على تلافى مثل هذه الفلتة المزرية المعيبة خصوصا فى هذه الايام التى قويت فيها شوكة الاجنبي واتسعت سلطته فسبحان الله — فتبسم الرجل عند ذلك وقال — وأى حيطة تنفع أو قدرة تدفع والرئيس قد خص ذاته بقضاء أشغال الخزينة ولجناتها ومجلس الوزراء وجلساته وأشغال الداخلية وفروعها واهتم بمعرفة أسرار وعورات كل فرد من أفراد مستخدمى كل ديوان وادارة من الصغير الى الكبير فضلا عن عنايته الكبرى بنشر المنشورات والاكثار منها وقلب النظامات وغير ذلك من دوام التفكير فى أحسن التدابير مما لا يقدر عليه أحد غيره — قلت انى لا أزال مصيبا فى ذلك لان ما لا يقدر على عمله بنفسه وقلمه وهو على كرسى ادارة الخزينة مثلا يقوم بعمله صهره محمود باشا وهو فى مسند وكالة الداخلية — قال وهل لصهره من الوقت ما يكفيه لقضاء مثل هذه الاعمال الخطيرة كلها وقد هجر منزله فى بولاق مصر ولازم دار الرئيس بالحلمية نهارا وليلا وهو لا يجد مع ذلك ساعة يقضيها فى حوائج نفسه لانه يأتى نظارة الداخلية فى صباح كل يوم فيجد على مكتبته الشئ الكثير من الرسائل الرسمية والكتب الخصوصية فيفض ختامها ويقرؤها جميعها ويحفظ الخصوصى منها ثم يرد الباقى الى أصحاب الوظائف الديوانية كل هذا وهو يقابل الكتاب والحجاب وأصحاب الحاجات الخصوصية وأرباب الوظائف العالية وأصحاب الحاجة من مشايخ البلاد حتى الساعة الاولى بعد الظهر فيذهب الى دار الرئيس ويجلس معه على مائدة طعام الظهر ويقص عليه حوادث الصباح وما فيها وقصص أفراد السهارة فى الليل وحاجات أصحاب الحاجات منهم ثم يذهب فيستريح قليلا ويقوم بعد ذلك الى حيث يستقبل الوافدين فيرد عليه رواة الحوادث والاخبار اليومية والجواسيس الخصوصية ثم المرتزقة وطالبو الخدمات ووظائف مشيخة البلاد وأرباب الصحف وأصحاب الوساطة فيقضى بقية يومه فى سماع ظلاماتهم وربما حن لشكوى بعضهم وتوجع لبلواهم حتى الغروب فيأخذ فى قراءة الصحف بتأمل وامعان فيذم الذامة منها ويضرب بها عرض الحائط ويقبل على المادحة ثم يقوم الى تناول الطعام مع الرئيس فيقص عليه

ما اتصل به من أخبار نقلة الاخبار والجواسيس ثم ما قرأه فى الصحف من مدح وقدح ثم يشير على الرئيس بأن يأمر باقصاء زيد عن خدمة الحكومة وبادخال عمرو فيها وبرد بكر الى مشيخة بلده كما كان وغير ذلك من المقاصد والآراء الى أن ينتهى من الطعام فيرجع الى حيث يستقبل الناس فيدخل عليه حينئذ المدلسون والملقون والمداهنون والواشون والآكلون لحوم اخوانهم والزوار فمن كان من هؤلاء مقبولا فى مجلس الرئيس استأذن له وأدخله والا أخذ يسمع له شكواه ويتأوه لبلواه حتى منتصف الليل فيتركه ويذهب الى غرفة نومه أو يشعر الرجل بثقل وطأته فيرحل من ساعته وهو يعض اصبع الندم على ما أضاعه من الوقت فقل لى بعيشك أين الساعة التى يتمكن فيها من نظر تلك الظلامات وهذه الحال حاله بين ليله ونهاره فقلت ان لله فى خلقه شؤنا

(مطلب) عدم بلوغ النيل حده المألوف من الزيادة

ولم تكد تطمئن القلوب بزوال الوباء وعودة الحجاج الى أوطانهم وسلامة البلاد كافة من تسرب الداء اليها حتى ظهر انخفاض فيضان النيل عن معتاده فى كل عام وعدم بلوغه حده المألوف الذى ترتاح اليه الخواطر فكان قلق أهل الاقليم القبلى والحوف الشرقى عظيما اذ ارتفعت عندهم أسعار الغلال من القمح والفول والشعير والعدس والحلبة وقل علف دوابهم فانحدروا بها الى الاقاليم الوسطى والاقليم البحرى طلبا للكلا والعلف فاهتمت الحكومة لذلك وظهر اهتمام جماعة الانجليز بالامر تقربا من أهل البلاد وزلفى وسار محمد زكى باشا ناظر الاشغال الى الاقليم القبلى لينظر فى تدارك الخطر قبل استفحاله وسار معه الماجور روس مدير رى الاقليم القبلى وهو من كبار مهندسى الانجليز رجل كبير الدراية واسع الخبرة عالى الفكر مهندس حاسب مقدام لم يضارعه أحد ممن تولى عمل الرى قبله وقل أن يضارعه أحد من بعد فاهتم الماجور روس بالامر وعمل من خوارق الاعمال الهندسية ما أزال الخوف وأمن الناس فعاد من نزح منهم الى بلده وجاء زمن الرى فلم يتعذر سوى رى الجزر المرتفعة والحوف الشرقى وقليل من الاحواض العالية ببلاد اسنا وقنا وجرجا فأصاب أهلها الضرر ولا سيما أهل الحوف الشرقى منهم فمات بعضهم وأنشبت الامراض الخبيثة أظفارها فيمن بقى منهم وكبرت عناية الماجور روس بأمر رى ذلك الصعيد واهتم بتنسيق جسوره وتنظيم أحواضه على أحسن مايكون من الاشكال الهندسية وعمل من خوارق الاعمال شيأ كثيرا ولم تبخل الخزينة بالمال وأكثرت من بذل النفقة حتى جاءت أعماله آية من الآيات الهندسية وهى باقية الى ماشاء الله تشهد للرجل بالفضل وطول الباع

(مطلب) مجىء ولى عهد السلطنة الانجليزية الى مصر

وجاء الخبر فى هذه الايام الى ديوان الخديوى بقيام الامير دى غال ولى عهد السلطنة الانجليزية على ظهر احدى سفنهم الحربية يريد ديار مصر والمكث فيها أياما معدودة فرسم الخديوى الى الرئيس مصطفى رياض باشا بالتأهب للقاء هذا الضيف العظيم فقام رجال الدولة حينئذ من مصريين وانجليز لذلك وقعدوا وبالغوا فى الاستعداد فلما كان يوم الاربعاء

سابع ربيع الاوّل من السنة أى سنة سبع وثلثمائة وألف هجرية سير الخديوى أخاه الامير حسن وذو الفقار باشا ناظر الخارجية وعبد الرحمن رشدى باشا كبير التشريفات ومحمد زكى بيك التشريفاتى الى الاسكندرية على قطاره الخاص لينوبوا عنه فى استقبال الامير فساروا الى سراى رأس التين وباتوا ليلتهم وأصبحوا وقد جاءهم الخبر من بور سعيد بقرب وصول الامير اليها وأنه قد رجع عن عزمه على القدوم الى الثغر الاسكندرى وأنه أراد الذهاب الى القاهرة عن طريق الاسمعيلية فقاموا من ساعتهم الى الاسمعيلية على القطار الخديوى ومنها الى بور سعيد ولبثوا يومهم ذلك حتى وصل الامير فى نفر من الحاشية والاتباع فقاموا فى ركابه الى القاهرة وكانت قد توجهت ساعة الظهيرة كوكبة من العساكر المصرية وأخرى من العساكر الانجليزية الى محطة السكة الحديد للقاء الامير وكذلك وفد اليها الوجهاء ومقدمو العسكر ورؤساء النظارات ثم تبعهم الخديوى بلباس الزينة والتشريف ومعه جماعة الوزراء وكبار الدولة بزينتهم ووقفوا جميعا على أكمل هيئة ونظام حتى أقبل القطار الذى يقل الامير وأولاده ورجال حاشيته فأطلقت عند ذلك مدافع التعظيم واستقبله الخديوى بالتجلة والتكريم وأركبه على يمينه فى عربة تجرها أربعة من جياد الخيل يتقدمها طائفة من الفرسان المصريين والانجليز وخلفها عربة أولاد الامير ومعهم الأمير حسين أخو الخديوى ثم عربات الوزراء وكبار الدولة وما زالوا سائرين حتى وصلوا الى دار قنصلاتو الانجليز فنزل بها الامير وحاشيته وذهب الخديوى الى مقره بعابدين وأقام الامير فى تلك الدار لحظة تناول فيها طعامه ثم سار فى موكبه الى سراى الجيزة وقد كانت أعدت لنزوله فزاره الخديوى فرد له الزيارة على الاثر ولما كان فى مساء ذلك اليوم أقبل الامير الى سراى عابدين بموكب حافل لمأدبة أدبها له الخديوى وفيها ثمانون مدعوا فلبث الى ما قبل نصف الليل بقليل ثم عاد الى مقره بالجيزة وفى اليوم الثالث خرج الى شوارع المدينة وجعل يتجول فيها وفى ركابه السير بارنج وشاع الخبر فى ذلك اليوم بأنه سيستعرض الجيوش الانجليزية والمصرية معا بميدان العباسية عند الجبل الاحمر فهرع الناس الى ذلك المكان أفواجا وانتشر أصحاب الشحنة على طول الطريق ذات اليمين وذات الشمال ثم أقبل الخديوى فى موكبه فلم تكن الا ساعة حتى برز كل من الامير والخديوى الى الميدان فى ملابس زينته وتشريفه ممتطيين جوادين ووقفا وحولهما كبار الجند ومقدمو العسكرين وخلفهما حاملو العلمين فهتف لهم الجند بأصوات التهليل وصدحت الموسيقى بألحان السلام ومرت من أمامهما العساكر والاجناد مشاة وركبانا وكذلك أصحاب المدافع وما يتبعهم فكان المنظر مهيبا والناس فى دهشة وسكون كأن على رؤوسهم الطير اشفاقا مما عساه أن يكون من وراء مجيء ذلك الامير الى هذه الديار * واتفق أنه فى مساء ذلك اليوم كانت الليلة الكبرى لمولد صاحب الشريعة المحمدية المعتاد عمله فى كل عام فبعد أن تناول الامير العشاء مع الخديوى ركب عن يمينه فى موكب حافل مشى فيه الوزراء وكبار العسكر وساروا الى ساحة المولد ونزلوا

بفسطاط شيخ مشايخ الطرق لحظة لطيفة ثم انتقلوا الى فسطاط الخديوى وجلسوا به ساعة كثر فيها لغط العامة وتساؤلهم وترامت ظنونهم الى أسمج المرامى ثم انصرفوا جميعا وباتوا وأصبحوا وقد ركب الخديوى فى موكبه وسار الى محطة السكة الحديد وخلفه سائر الوزراء والامراء وكبار العسكريين يريدون وداع الامير حتى اذا كانت الساعة التاسعة صباحا أقبل الامير وولده يحف بهما موكب حافل من الفرسان وطائفة من الحرس الخديوى فاستقبله الخديوى وبالغ فى وداعه فركب الامير مع حاشيته القطار الى الاسكندرية فلما وصلها نزل فى سفينته فأقلعت به الى بعض الثغور الايطالية

وما تحركت سفينته حتى تحركت معها أقلام أصحاب الصحف العربية المحاربة للسياسة الانجليزية بمصر فجعلوا يتكهنون وينبؤن بمستقبل الايام ويقولون قد قضى الامر ونفذ القضاء وأذن الله بضم الديار المصرية من أقصاها الى أقصاها الى ملحقات السلطنة الانجليزية فلا دافع ولا راد لقضاء الله ولا مجير لاهل البلاد سوى الاستسلام وخفض جناح الطاعة لأولى الامر من الانجليز وأن تقلع الاحزاب عن تلك الضوضاء وتنكف عن استصراخ الدول لتخلصهم من سيطرة الانجليز فقام حينئذ فى وجههم أصحاب الصحف الاخرى وكذبوهم فيما يقولون ورموهم بالخيانة وبيع الذمم وقالوا لهم انما أنتم فى اضرام نار هذه الفتنة مريدون السوء للبلاد وأهلها وكثر اللغط فى ذلك كثيرا حتى أرجف بعض أصحاب تلك الصحف بأن الخديوى قد استسلم وأطاع وعقد النية على تسليم البلاد بشروط وقع الاتفاق عليها بينه وبين الامير دى غال وعندى أنها فرية ما أنزل الله بها من سلطان

واشتدت عزيمة السير بارنج بعقدم الامير دى غال وأظهر ما كان يخفيه من الشدة والجبروت وكان الرئيس قد تمكن من بسط يده على سائر الدواوين والادارات وقلب بعضها بطنا الى ظهر ومسخ نظام بعضها واشتد على قضاة المحاكم الاهلية فخلع بعضهم لغير علة ولا سبب ظاهر وهدد بعضهم بشئ من قارص الكلام فاختلط الحال على من بقى منهم وأصبحوا وهم فى ريب من استقلالهم وسلامة مراكزهم وبات حسين فخرى باشا ناظر ديوانهم مغلوبا على أمره ليس له من حق النظر سوى الاسم والامر للرئيس مصطفى رياض باشا وحده فكان اذا أخذت حسين باشا يوما عزة النفس وهمّ بعمل يرضى الله والناس قام فى وجهه محمود باشا صهر الرئيس فينكف وفى النفس ما فيها وظل الحال على هذا المنوال حينا حتى تحركت من جراء ذلك خواطر جماعة الانجليز القابضين على زمام بعض المصالح الديوانية وأكبروا عمل الرئيس وأعظموه وعابوا عليه عسفه وخيلاءه وشكوه الى السير بارنج فعمد السير بارنج حينئذ الى ايقاف كل عند حده قيل وقد زاده اهتماما بهذا الامر ماعرفه من دخائل حادث مقتل خليل الدهشان وأخيه خير الله وما تحققه من أسباب التعجيل فى تنفيذ الحكم باعدامهما قبل الاجل المفروض وجعل من هذا الحين يكيد للرئيس كيدا فكان اذا همّ الرئيس بأمر من الامور وقف فى وجهه ورده عنه ومنعه من هواه فيتركه أياما

ثم يرجع اليه فيرده وهكذا حتى اشتد الجفاء وكبرت الوحشة بين الاثنين وظهر للعيان بغض بعضهما لبعض فتحقق الناس من خذلان الرئيس وقالوا بأنه معزول لا محالة وأن رئاسته باتت على شفا جرف الزوال ومال الخديوى أيضا عن مسايرته وعاب عليه الشئ الكثير من أعماله وأنكرها فظهرت عند ذلك جلبة الاحزاب وترددت رسل الرئيس على دار السير بارنج بسترضونه ويستميلونه وهو يكيد له كيدا ويعمل على تسليم زمام الوظائف العالية الى جماعة الانجليز ويطلق لهم الكلمة فيما هم قابضون عليه منها ويفسح لهم نطاق سلطتهم بلا حد ولا تقييد وظل الحال على ذلك حتى بات أصحاب الوظائف من الاهلين وهم لا يملكون من أمرهم فى مناصبهم شيأ سوى جما كيهم وما يتبعها من الالقاب والنعوت وذاع الخبر بأن السير بارنج سيتقدم الى الخديوى فى طلب اقامة مستشارين من كبار الانجليز فى كل وزارة من وزارات الحكومة ليحولوا بين هوى الرئيس وحقوق المأمورين وأصحاب الوظائف الذين أثقلهم نير الرئيس وعسفه فقام عند ذلك أصحاب الصحف المحازبة يقرعون السير بارنج ويرمونه بالجور فرد عليهم أصحاب بعض الصحف الكبرى الانجليزية كصاحب التيمس وصاحب الدالى نيوز وصاحب مجلة القرن التاسع عشر ردا كله ايعاد ووعيد وارهاب وتهديد ثم نادوا صاحب سياستهم أن اضرب على يد أولئك الاغرار الذين زينت لهم أنفسهم الامارة اذهاب ما صنعته أيديك من الاصلاح فى أرض الفراعنة أدراج الرياح ولا تكن ضعيفا مستضعفا فيشمت بك الشامتون ويستخف بك المستخفون فلم تمض على هذه الضجة الا أيام حتى تقدم السير بارنج الى الخديوى فى طلب اقامة رجل من الانجليز مستشارا قضائيا يكون مقره بديوان الحقانية ويختص بالاشراف على سائر أعمال المحاكم الاهلية والشرعية على السواء فلا يبرم أمر الا باشارته ولا يتم عمل الا برأيه - قال - كى لا يبقى للرئيس مصطفى رياض باشا دخل فى شئ من هذه الشؤن وكى لا تزول بهجة ذلك النظام الذى أحدثته يد السلطة الانجليزية بعد ذلك العناء الكبير قيل فال الخديوى الى مقالة السير بارنج ووقعت عنده موقعا مقبولا لانه كان يكره من الرئيس استبداده بسائر الأمور وضغطه على صغار وكبار المأمورين وأصحاب الوظائف وكان ينهاه عن ذلك ويتألم من اندفاعه وراء صغار الأمور وايغار الصدور على غير مسوغ فكتب صاحب جريدة الاهرام لمحة فى هذا المعنى بعنوان «صهوات المناصب لفوارس التجارب» وهى من حسن السبك وخالص النصح بمكان عظيم قال فيها

سأل أحدهم حكيما من أجلّ الرجال فقال من قام بأجل الاعمال قال من هو وما هى قال من قاد أبدان الناس بقلوبها وقلوبها بخواطرها وخواطرها بأسبابها قال اذا تعنى رب المنصب ومنصبه أجاب أنت قلت والى هذا المعنى أشار ارسطو الفيلسوف على الاسكندر حيث قال املك الرعية بالاحسان اليها تظفر بالمحبة منها واعلم انك انما تملك الابدان فاجمع لها القلوب لان الرعية اذا قدرت أن تقول قدرت أن تفعل فاجتهد أن لا تقول

تسلم من أن تفعل — نتج مما ذكر أن سياسة المنصب من أجل الاعمال وأن القائم بواجبها له امتياز الفضل بين الرجال ولا غرو فان المرء ليتولاه الشعور بالفخر وتتلقاه نوافل الثناء وهو لم يحسن القيام الا بسياسته وسياسة خاصته فكيف به وقد أضاف الى ذلك احسانه سياسة العامة * ولما كان مقدار فضل المرء على سواه موقوفا على مقدار نفعه سواه كما جاء فى الحديث الشريف « ان خير الناس من نفع الناس » كان لرب المنصب ما ليس لغيره من الذرائع التى تعد له سعة المجال فى سبيل نفع الناس وليس بخفى على البصير أن المرء يطالب بقدر مكنته ووسائطه اذ لا جود الا من وراء موجود فاذا أمسك موسرا ليم لوم من بسط معسرا واذا نشرت له الايام بساط العمل فطواه اما بذراع أدماها سهم الخمول والكسل أو بيد أشلها الغرض والحق قضى عليه العدل بعقاب من عاكس احكام الوضع والطبع وخالف قانون العرف والشرع وهل تفترش الايام بساط العمل لرجل أولى من رجل المنصب فهو ولا مراء شريك الطبيعة فى المحافظة على قوانينها والاحتفاظ على نواميسها بل هو آلتها المنفذة لاحكامها والقائمة بحركة دقائقها فاذا لم تكن صالحة حالت دون الحركة فنشأ الضرر وقد قيل اذا زل العالم زل بزلته العالم ومثل ذلك زلة من يتولى مصلحة العباد ويقوم بسياستهم فهو قد عهد اليه أهم أعمال الانسان فكان مركبه خشنا وموقفه هائلا وحسبه من صعوبة المراس جمعه من الاضداد ما قاله عمر رضى الله عنه وهو لين لا يتولاه ضعف وقوة لا يمازجها عنف أو ما قاله آخر تواضع عن رفعة وزهد عن قدرة وانصاف عن قوة

واذا سبرنا غور الحقائق بامعان الفكرة وانعام النظرة وأنسنا الى صحة المبادى التى شرحنا متونها وقفنا أمام المنصب وقد حفرت بنان الحق على قوائم كرسيه الاربع أربع كلمات وهى وطنية حكمة همة مسؤلية فوجدنا الموقف هائلا لان من ورائه التقاضى الى محكمة مهيبة عادلة قانونها الذمة وقاضيها الضمير ومنفذ أحكامها الشرف فمن العبث اذا أن تسند المناصب الى من لا تهصر أعطاف الوطنية فى مقامه ولا يحيى ضرب الحكمة من ضروب بنانه ونفثات أقلامه ولا يسل سيف الهمة من أجفان نشاطه وأغماد إقدامه ولا تشام بارقة شعور فى أفق ضميره من سحب نقضه وابرامه الى أن قال

أما الوطنية فهى المحور الذى تدور عليه كرة الخواطر أو النقطة التى ترسم منها دائرة الشعور والعواطف يولدها الطبع وتنميها التربية ويكفلها الشرف وتعززها الاريحية ولها على المرء من الحرمة ما لوالديه عليه لانها تقوم بكفايتهما ليقوما بكفايته ولم تعمر البلدان الا بمحبة الاوطان ولذلك قالوا ان حب الاوطان من الايمان فعلى صاحب المنصب أن يتصف قبل كل صفة بالوطنية الصادقة ويأنس الى وفاء حقوقها العامة قبل النظر فى وفاء حقوقه الخاصة لاشتمال الاولى على الكل والثانية على الجزء والجزء داخل فى الكل وان له من احتضان الطير لعشه مهمازا لشاكلة تنبيهه

وأما الحكمة فهى الدعامة الثانيــة المتممة للوطنيــة لان مجرد ارادة الميــل الى العمل لايغنى مالم يشفع بقوة فاعلة مدركة تستبين أوجه العمل والذرائع التى تنطبق على ذلك الميل وتجاوب على تلك الرغائب الصادقة والا ضاع الميــل القويم باستكانة عن خمول أو نزق عن جهل فأتى الضرر من حيث يرجى النفع ووقع الخطأ من حيث يرام الصواب ومن هذا القبيل قولهم عدوّ عاقل خير من صديق جاهل

وأما الهــمة فمن متممات الحكمة لانها القوة المنفذة لها والكافلة لاغتنام نتائجها بل هى التى تمتطى الليــل والنهار فى مجاهل العــمل انفاذا لما تشعر به الوطنية ويقضى بايجابه الحكمة فمن ثبطت همته عن السعى الى الامام نقلته الى الوراء أدوار الايام

وأما المسؤليــة فما هى الا خلاصة القوى الثــلاث ومن خصائصها التنبيه والتحــذير وصون رب المنصب من الخطــل فى القول والزلل فى العــمل صونا ناشئا عن رعاية لحرمتها وادراك لاهميتها فمن لا يسئل عما يعــمل يأخذه دافع من اثنين إما قعود يمازجه كسل واما غرور يخالطه طيش وفى الاول سقوط وخمول يفضيان الى الاضاعة والضعة وفى الثانى استبداد وظلم يؤديان الى النفرة والضغينة وبئست نتيجة المقدمتين

ولكن بأى شئ تقوم الوطنية يا ترى أبالدعوى بها قولا والاغماض عنها عملا أم بمجرد الانتماء النســبى دون القيام بواجبــه ,أم بالتحامل على قريب لم يسئ أم بكسر الأبواب الموصــدة دون تداخل الغريب أم بنسيان الواجبات التى تستلزمها الوطنية على مبدإ الدين والشرف ــ كلا ليس ما ذكرناه من الوطنية فى شئ فالقول لايصدق حتى يشهد به العمل ولو أنك لم تقل ولم تفعل خير من أن تقول ولا تفعل وأفضل منه فعل لا يسبقه قول وما ألطف ما قاله صــفى الدين الحلى فى مثل ذلك اذ ضمن فى شعره مثل البلبــل والصقر فقال البلبل مخاطبا الصقر

وقال أراك جليس المــلوك ... ومن فوق أيديهمو تحمل
وأنت كما عابــوا أخرس ... وعن بعض ما قلته تنــكل
وأحبس مــع أننى ناطــق ... وقدرى عندهمو مهمــل
فقــال صــدقت ولكنهـــم ... بذلك دروا أنى الافضــل
لانى فعلت وما قلت قـــط ... وأنت تقــول ولا تفــعل

وأما مجرد الانتماء دون القيام باللوازم فكالصفر عن يسار العــدد لا قيمــة له أو كواو عمرو تكتب ولا تقرأ بل هو عيب لا يســتر وذنب لا يغفر ومثله ايقاع الاذية بمن لم يسئ تشفيا وانتقاما على جهل بدعوى ان ذلك ليس منا مع أن الســياسة تقضى بأن تعتــبر من ليس عليــك فى مصاف من هو معك ويعاكس ذلك تمهيــدك لمن هو عليــك السبيل الذى تمهده لمن هو معك وهذا من قبيل وضع الشئ فى غير موضعه ومثل ذلك اغضاؤك أو صمك الأذنين دون استماع صوت الدين والشرف اللذين يقضــيان عليك بأن تفــدى وطنيتك بما

عز وهان وتحتقر فى جنب صونها كل مصلحة خاصة وان عظمت وتحترم كل مصلحة عامة وان حقرت تلك هى الوطنية الحقة الصادقة التى يجب أن يتحلى بها كل ذى منصب ورئاسة

ثم بما ذا تقوم الحكمة الوطنية يا ترى أبالاستبداد فى الرأى والعمل أم باتخاذ المنصب ذريعة للاضرار بالناس اجابة لداعى الانتقام أو اصاخة لاشارة أم بتفريق كلمة أبناء الوطن وايجاد الشقاق بينهم ودفع الواحد منهم للايقاع بالآخر أم بانفاذ الغرض الخاص وتحميل المؤتمرين بالأمر ما ليسوا مكلفين باحتماله أم بأسر الارادة فى شؤون الادارة واطاعة كل اشارة أم بتفضيل حلاوة المنصب مجردة على مرارته مركبة وقد نتجت المضرة من بينها وحكم العقل والعيان بها وأبى الطبع الشريف قبولها فكل ذلك بينه وبين الحكمة بون شاسع وبعد سحيق — فأما الاستبداد فضرب من ضروب الحماقة وقالت الحكماء الرجال ثلاثة رجل ونصف رجل ولا رجل فالاول من له رأى ومشورة والثانى من له رأى ولا مشورة له والثالث من لا رأى له ولا مشورة فالمستبد لا بد من أن يكون ثانى الثلاثة أو ثالثهم ولا يعزب عنا قوله وشاورهم فى الامر والمشورة من الروح القدس قال الشاعر

اقرن برأيك رأى غيرك واستشر فالامر لايخفى على الاثنين
للمرء مرآة تريه وجهه ويرى قفاه بجمع مرآتين

وقال آخر

شاور سواك اذا نابتك نائبة يوما ولوكنت من أهل المشورات
فالعين تنظر منها مادنا ونأى ولا ترى نفسها الا بمرآة

وقيل لرجل من عبس ما أكثر صوابكم فقال نحن ألف رجل وفينا حازم واحد فنحن نشاوره فكأننا ألف حازم — وأما اتخاذ المنصب ذريعة للمضرة فمن أكبر المعايب وأخس الافعال فعلى رب المنصب أن ينسى صفته الخاصة وهو فى منصبه ولا ينظر الا فى صفته العامة التى تحظر عليه الانتقام إما لغاية داخلية أو لاشارة خارجية فان ذلك من الدنايا التى يترفع المنصب عن النزوع اليها ومن سوء الطبع اندفاع القوى الى الاضرار بالضعيف وان لم يحل دون ذلك حائل فكيف به وقد قام حاجز حصين هو منصة المنصب تحمل دعامتها نجاد حسام العدل والحق ولذلك امتاز كبار الرجال بتنكبهم عن هذه الخلة وشرفوا مناصبهم برعاية ما ظهر لهم صوابه ولو بدا من عدوّ ألد فضلا عن صديق أودّ ثم الاغضاء عما لم يأت على مرادهم أو لم يلائم سياستهم * بل ما هى الحكمة الوطنية من وراء نثر النظيم وتشتيت الجميع اذا كان رب المنصب يثير ثائرة الحقد من هذا على ذاك ويفرّق كلمة الرعية المؤتمرة بأمره ويولد الضغائن والاحقاد فى القلوب بانشاء الاحزاب المتباينة وتعضيد البعض للتغلب على الآخر اما لانتقام خاص عن كره لذاك واما لغاية أخرى مثل أن يتوهم أنه بتفريق كلمتهم تسود كلمته فيأمن فى سربه وينال مرامه ويجاوب جشع طمعه بينما تقضى الحكمة

بجمع الشتيت ونظم النثير وازالة الاحقاد وتأليف القلوب ونبذ التنافر ومثل ذلك يقال في تحميلهم ماليسوا مكلفين باحتماله بأن يكرههم وهو غير مصيب أو مسوق اليه بموجب قانون على قبول ما يكرهون وهم مصيبون وغير مكلفين به بقانون ولله در من قال من تداخل فيما لا يعنيه سمع ما لا يرضيه وأن ليس في القانون محاباة وجوه ومراعاة خاطر على حد قول الشاعر

ولم أنس المليحة حين راحت الى قاضي المحبة تشتكيني
فقلت لها ارحمي ضعفي فقالت وهل في العشق يا أمي ارحميني

وكيف يليق به وهو يرى نفسه أهلا لمنصبه أو أسمى منه أن يكلف من يأتمر بأمره اما عن رجاء أو عن تهديد بتحمل ما يكره وهو غير مكلف به وهل ذلك من قبيل الحكمة الوطنية والطبع الشريف والمنزع السامي ومن هذا القبيل أيضا عدم استقلال الارادة في شؤن الادارة وهكذا — الى أن قال — وليس من الحكمة أيضا رفض رب المنصب كل ما يطلب اليه ثم قبوله لكل ما رفض لان الرفض اما أن يكون عن أنفة واستكبار اجابة لخلق غريزي يرتاح الى مجرد النهي والامر دون النظر في صوابية المطلوب واما عن اقتناع مسبوق بتروّ وامعان بأن المطلوب لا يناسب فاذا كان الاول ولا مناص من القبول فالاولى عدم الرفض لان مرارة العود الى القبول تربو على حلاوة الاستبداد بالرفض واذا كان الثاني فالثبات على الرفض أولى ولا عبرة للمصانعة اذا كان هنالك سبيل للتخلص منها والتنصل من تبعتها ويقاس على ذلك تفضيل الحلاوة المجردة على المركبة التي كدرتها المرارة فان في منابذتها حلاوة لاتعقبها مرارة وهي وسيلة للتجرد عن مضرة تكتنفها معرة

ثم بما ذا تقوم مهمة الحكمة الوطنية أبالنزوع الى انفاذ العمل دون رعاية الظروف أم بالضغط الشديد المتولد عنه ضغط متسلسل — ليست هذه المهمة تقوم بمثل ذلك لان الاسراع في انفاذ العمل دون رعاية الظروف يدعو في كثير من الاحايين الى تجاوز الحقيقة والتخطي الى الاعتساف فلكل مقام مقال والاشياء مرهونة بأوقاتها وكثيرا ما أفسد العمل التسرع في انفاذه ولذلك قالوا في العجلة الندامة وفي التأني السلامة وأما الضغط المنوه عنه فأقل ما فيه أن يدفع العمال بالتسلسل الى الاخلال بالقانون والعبث بأحكامه وما أحسن ما جاء عن معاوية في هذا الشأن حيث قال اني لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني ولو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت فقيل له وكيف ذلك قال كنت اذا مدوها أرخيتها واذا أرخوها مددتها — ثم بما ذا تقوم المسؤلية وراء ذلك أبالاسراع في العمل حسنا أو قبيحا أم بمجرد نيته دون انفاذه أم برفعها عن كاهله والقائها على كاهل غيره — كلا لا تقوم المسؤلية بشيء من ذلك ولكنها تقوم بأن يعلم رب المنصب أنه مسؤل أمام منصبه أوّلا من ربه وثانيا من ضميره وثالثا من شرفه ورابعا من أميره وخامسا من وطنه وسادسا من خاصته وبأن يعلم عظم

هـذه المسؤلية وأهميتها وما يترتب عليها له ولوطنه من مضرة ونفع وخير وشر — وان عليه تلقاء ذلك مواجب ذات شأن تقضى عليه بمغادرة الوسن وملازمة السهر ومزاولة العمل ومراقبة الحوادث وانتهاز الفرص ومنابذة الاغراض والترفع عن الدنايا والتجلد على مضض الشغل واحتمال أثقاله بالصبر والتؤدة والرفق بمن يأتمرون بأمره وزرع بذور الاتحاد والالفة والمحبة بينهم واستئصال جراثيم الشقاق والخلاف والضغائن والاحقاد بحيث يكون لهم بمثابة أب وأخ وابن فيبر أباه ويحفظ أخاه ويرحم ابنه تلك هى مسؤلية المنصب بل تلك هى بعض المواجب التى عليه ولا سبيل لتنصله من تبعتها اذا لم يقم بها فاذا قرن استقلال ارادته بحسن ادارته أتاحت له الايام ادراك غايته ونيل بغيته فلزم الوظيفة بشرفها وتشرفه واستمال اليه قلوب من سلم زمام أمرهم فأخلصوا له فى السر والنجوى ووثقوا منه بعدم تغيره فى سلوكه لوثوقهم بأن نفسه أسمى من منصبه على نحو ما قاله أرسطو وقد سئل عما دفع زيدا الى التغير بعد الولاية فقال من ولى منصبا وكانت نفسه أكبر منه لم يتغير له ولكن اذا كانت نفسه أصغر منه تغير له — فالمنصب اذا مقام خطير محفوف بالمصاعب فمن الخطا أن تراه العامة بالنظر المجرد فتحكم بأن صاحبه آمر مطاع لا يهمه الا اصدار الامر ونيل الراتب بل يجب أن لا يفوتهم العلم بحقائقه من أن صاحبه أليف الارق حليف الفكر رفيق الهموم حديد اللحاظ شديد التأثر مديد التصور هدف لسهام اللوم عرضة لملاحظات العموم مسؤل عن كل ما يفعل عدو لنصف من يرعاهم ولو عدل بعيد السخط قريب الرضا ومن كانت هذه مواجبه وكلها مرارة فهل يحلو له ذكر المنصب فهو على حد المثل القائل « درهم من عسل على قنطار من خل » وحسبه هما اضطراره الى الاحتفاظ على الاحكام السياسية ليتذرع بها الى نيل غاية صعبة المنال ألا وهى استمتاعه بهيبة الخاصة مع صدق مودته وانقياد قلوب العامة بالانصاف اليها وقد قل بل ندر من حنكته تجربته ومكنته حكمته من الوصول الى هذا المطلب ولذلك قلنا ان صهوات المناصب لفوارس التجارب اهـ

فكان كل ما فى هذه المقالة من المغامز الظاهرة والمطاعن الخفية قليلا من كثير مما بدا من الرئيس مصطفى رياض باشا لدى توليه المنصب فى هذه المرة وتناقل الناس مقالة صاحب الاهرام هذه فى الاندية والمجتمعات فكانت سمر ليلهم وحديث نهارهم حتى ظن بعضهم أنه موعز اليه بها من ديوان الخديوى الخاص ارهابا للرئيس وتحذيرا والامر على غير ما يظنون فانه لما اختلط على الرئيس الحال وفسد التدبير وساء المآل ونال السير بارنج من دواوين الحكومة كل منال اجتمعت كلمة أصحاب صحف الاخبار المحلية على نشر هذه الشوائن على رؤس الملا والتعريض بها كل قليل من الايام عسى أن يقلع الرئيس عن هواه ولا يعطى نفسه مشتهاها فترجع عن بغضه القلوب وتنكف عن تقريعه الألسنة وتقف مطامع جماعة الانجليز عند حد ولذلك لم يهب أحد من المحازبين للرئيس الى الرد

على مقالة صاحب الاهرام وأقوال غيره ممن حذا حذوه بل أقبلوا على قولهم وأنزلوه من سمعهم وقلبهم وامتدحوه قالوا فقد بلغت الروح الحلقوم والسكين العظم

(مطلب) وقوف عثمان دقنه بسوا كن على قدم الكر والفر

وكانت أخبار التخوم الى هذ اليوم لم تخل من المغامز الدالة على عدم خلود العدو الى السكينة ووقوفه على قدم الكر والفر ولا سيما عثمان دقنه ومن معه من عصاة شرقى السودان فقد عظم شرهم وكبر أمرهم وكثر هجومهم على القلاع والحصون تارة ورميها بالقنابل أخرى حتى ضاق خناق المرابطين وأعيتهم الحيل وأرسل مقدمهم يطلب المدد فجاءه سردار الجيوش المصرية ومعه جماعة من مقدمى عسكر الانجليز وأقاموا بسوا كن أياما يتروون فى أمر الخلاص من شر ذلك العدو وعلم دقنه بقدم السردار فزاد فى الكر والفر عن معه من أولئك الابالسة السود واشتد فى رمى القنابل على الحصون والمتاريس فى الليل والنهار ففعلت مقذوفاته بالمرابطين فعلا رديئا جدا واتصلت بسفن الحرب الانجليزية الراسية أمام البلد فخاف السردار العاقبة وقد آنس من المرابطين مللا ونفورا اذ أعياهم القيام على قدم الدفاع ليلا ونهارا فأرسل الى صاحب السياسة الانجليزية يخبره بواقعة الحال و يسأله سرعة ارسال المدد على كل حال فكان يطاول ويحاول ويرسل كتبه الى الباب العالى بأن تحتل طائفة من العساكر الشاهانية سواكن وتتولى أمر الدفاع عنها ــ قيل وكانت تلك الكتب على ما فيها من التطويل معقدة مفعمة بالالغاز والمعميات ليتعذر على السلطان ورجال دولته البت بارسال عساكره الى سواكن ولبث الحال على ذلك أياما فلما آنس من السلطان ميلا وعزما على ارسال حملة من عساكره الى سواكن بعد ذلك التردد والاحجام خاف العاقبة ورسم على الفور الى قائد عسكرهم بمصر بارسال النجدة العاجلة من عسكرهم الى سواكن فصدع بالامر وحملت ذلك العسكر سفنهم وشوانيهم وأنزلتهم فى سواكن ففرح المرابطون بقدمهم وأخذوا من يومهم فى ترميم الحصون والمتاريس وضاعفوا القلاع و رتبوا مدافعها وأصلحوا الخنادق وجعلوا يتأهبون لقتال العدو فلما شاع خبر وصول هذه النجدة وتناقله أصحاب صحف أخبار الانجليز قامت الاحزاب فى عاصمتهم واشتد حزب الاحرار منهم على زعيم سياستهم وعلت ضوضاؤهم فى دار ندوتهم وظهرت جلبتهم فى سائر محافلهم ونادوا وا ويلاه مالكم تعرضون بأرواح رجالنا وتبددون أموالنا لمصلحة غيرنا وظل حالهم على ذلك أياما حتى كاد المطلع على صحف أخبارهم لا يشك فى أن الرجل على شفا جرف السقوط من منصة الزعامة وأن أصحابه مخذولون وما ذلك الا ضرب من التغرير كأن يقولوا اذا قامت الدول فى وجه صاحبهم ومانعت فى حلول عسكرهم سواكن إنا ما احتللناها بعسكرنا وسفن حربنا الا مكرهين وهذا الباب العالى قد استصرخنا رجاله وسألناهم نجدة المرابطين فلم ينجدوهم ولا أعاروا نداءنا المتتابع سمعا فلا لوم علينا بعد هذا كله ولا تثريب ولا نحن مؤاخذون عما فعلنا

وعلم عثمان دقنه بقدم العساكر الانجليزية مددا للمرابطين بحصون سواكن وما هم

عليه من الحركة فجدّ حينئذ فى قتالهم وألح وتابع الرمى بالقنابل على القلاع والحصون أياما فهاجموه فلم ينالوا منه مأربا فألحوا فى قتاله بين كرّ وفرّ أياما أيضا ثم عادوا الى الحصون وجعلوا يدافعون من وراء المتاريس أياما أخرى ووردت الاخبار الى ديوان الخديوى بما هم عليه من التعب المتواصل بسبب مناوشة العدوّ لهم فى الليل والنهار وعجزهم عن كفه عن تخطف كل من بعد عن البلد ولو قليلا وكبر على السلطان ورجال دولته خبر وصول المقاتلين من الانجليز الى سواكن فعادوا الى مخابرة صاحب السياسة الانجليزية فى تقرير القاعدة التى على مقتضاها يرسل الباب العالى الى سواكن طائفة من العساكر الشاهانية لتبقى مع المرابطين وأكثروا من الاخذ والرد فى ذلك أياما فلم يفلحوا ولم يساعدهم أحد من رجال سياسة الدول الكبرى على نوال هذا الارب فتكلم حينئذ أصحاب صحف دار السلطنة بكلام فى معنى سيادة السلطان على تلك السواحل وفى معنى كيان السلطنة العثمانية وفى شئ من ماهية الخلافة الاسلامية وفيما يعتورها من الضعف اذا زالت هيبتها وتقلص ظل نفوذها من سواحل البحر الاحمر وأطالوا فى ذلك القول وبالغوا فى التوجع حتى كتب أحدهم صورة المعاهدة الدولية التى كان تم التوقيع عليها من كبار سياسة الدول صاحبات الشأن فى حياد بوغاز السويس شاهدا على ما للسلطان من المقام الراجح بينهن ولم يكن أحد يعلم بها الى يومنا هذا وهى

أولا — يبقى بوغاز السويس حرا مطلقا فى زمن الحرب والسلم لجميع السفن الحربية بغير تمييز بينها وعليه فالدول العظمى الموقعة على هذا الوفاق قد وافقت على أن لا يعبثن بحرية هذه الترعة سواء فى زمن الحرب أو السلم وعلى أن لا تحاصر شطوطها على الاطلاق

ثانيا — ان الدول الموقعات باعترافهن بأنه لا يمكن أن تكون الترعة الحلوة منفصلة عن الترعة الملحة قد أخذن على أنفسهن القيام بالمعاهدات المبرمة بين خديوى مصر وشركة بوغاز السويس العمومية فيما يتعلق بالترعة الحلوة كما هو مذكور فى الوفاق المبرم فى ثامن عشر مارث سنة ثلاث وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية الذى يشتمل على مقدمة وأربعة بنود ثم تعهدن بأن يحسنّ حالة هذه الترعة وما يتبعها ولا يقمن فيها ما يمنع حريتها

ثالثا — قد تعهدت الدول باحترام المواد والابنية والاعمال الموجودة فى الترعتين المذكورتين وعدم مسها بشئ مّا

رابعا — تبقى الترعة الملحة مفتوحة فى زمن الحرب بحيث تمر فيها المدرعات الحربية بدون ممانع كما جاء فى الوجه الاول من هذا الوفاق — وبناء على ذلك قد اتفقت الدول الموقعات على أن لا يباح عمل عدائى يكون من شأنه منع حرية الملاحة فى الترعة والموانى الموصلة اليها أو على بعد ثلاثة أميال بحرية من تلك الموانى ومن جملة هذه الموقعات الدولة العثمانية ولو كانت من المحاربات ثم ان المدرعات الحربية لا يجوز لها أن تأخذ الا ما يكون

ضروريا لها من المؤن والذخرة فى الترعة والموانى الموصلة اليها وأن يكون مسيرها منها فى أقرب ما يمكن من الزمن على حسب الشروط النافذة ولا تقف الا عند ما تقضى الضرورة بذلك وفى هذه الظروف أيضا تكون مجبورة على السفر بأسرع ما يمكن ويجب أن يكون الوقت بين خروج سفينة وخروج أخرى من سفن دولة معادية لها من احدى الموانى الموصلة للترعة أربعا وعشرين ساعة على الاقل

خامسا — ان الدول المحاربات لا يمكنهن فى زمن الحرب أن ينزلن فى البوغاز والموانى الموصلة اليه جنودا أو ذخائر أو موادّ حربية ولا أن يأخذنها منها ولكن اذا حدث بها مانع فى الترعة كان لها عند ذلك أن تنزل الى تلك الموانى أو تأخذ منها فرقا من الجنود لا تبلغ الواحدة منها ألف رجل بما يلزم من المؤن

سادسا — ان ما اشترط على المدرعات فى مسيرها يشترط فى مناوشاتها اذا حصلت فى الترعة

سابعا — لا يجوز لاية دولة أن تبقى لنفسها فى مياه الترعة أو فى بحيرة التمساح والبحيرات المرة مدرعة حربية على أنه يجوز لها أن تقيم فى الموانى الموصلة الى مدينة بور سعيد والسويس مدرعات لا يتجاوز عددها اثنتين لكل دولة الا أن هذا الشرط لا يباح للدول المحاربات

ثامنا — ان وكلاء الدول القائمين فى مصر من قبل الدول الموقعات على هذا الوفاق منوط بهم مراقبة تنفيذه بحيث انهم عند ما يحدث ما يهدد سلام الترعة وحرية الملاحة فيها يجتمعون بناء على طلب ثلاثة منهم برئاسة أقدمهم فى الوكالة للبحث فيما يجب اجراؤه ثم يخبرون الحكومة الخديوية بما يكونون قد عملوه من المحاضر لتأخذ الوسائط الفعالة لضمانة ووقاية الترعة وحرية المرور فيها وعلى كل حال فانهم يجتمعون مرة فى كل سنة ليروا ما اذا كانت المعاهدة معمولا بشروطها أولا وهذه الاجتماعات يصح أن تكون برئاسة مرخص مخصوص تعينه الدولة العثمانية الشاهانية ويصح أن ينوب عن هذا المندوب آخر من رجال الحكومة المصرية عند غيابه ويصح له أن يحضر الجلسات اذا كان حاضرا ويكون لهؤلاء الوكلاء الحق فى أن يطلبوا على الخصوص منع كل اجتماع على أىّ مكان من شطوط الترعة يكون من ورائه مس حرية المرور بالترعة

تاسعا — تتخذ الحكومة المصرية بما لها من السلطة الممنوحة لها بالفرمانات السلطانية وبموجب الشروط المذكورة فى هذه المعاهدة كل ما يلزم من الوسائل توصلا الى انفاذ المعاهدة واحترامها ولكن اذا لم تكن هذه الوسائط كافية لذلك فعليها أن تطلب من الباب العالى الشاهانى القيام بتلك الوسائط من عنده واعلانها الى الدول الموقعات على التصريح الذى أبرم فى لندن فى سابع عشر مارث سنة خمس وثمانين وثمانمائة وألف ميلادية

والاشتراك معهن عند الحاجة فى المحذورات الواضحة فى المواد أربعة وخمسة وسبعة وثمانية فلا تكون عائقا فى تنفيذ الوسائل اللازمة بمقتضى هذا الوجه

عاشرا — وأيضا فان المحذورات الواردة فى المواد المذكورة لاتحول دون الوسائل التى تضطر الحضرة السلطانية الشاهانية أو الخديوى بالنيابة عنها بموجب الفرمانات الممنوحة له الى اتخاذها لكى يكفلا بقوتهما الخاصة حماية مصر وتأييد النظام العام فيها ولكن اذا اضطرت الحضرة السلطانية أو الخديوى أن يستزيدا الاستثناآت الواردة فى هذا الوجه كان على حكومة السلطان أن تعلن الدول الموقعات على تصريح لوندره بذلك ثم ان ما ورد بالاوجه الاربعة السابقة بشأن هذه الاستثناآت لا يمنع الوسائل التى ترى حكومة جلالة السلطان ضرورة اتخاذها بواسطة قواتها الخاصة ضمانة لحفظ سائر أملاكها على الساحل الشرقى من البحر الاحمر

حادى عشر — ان الوسائل التى تؤخذ مراعاة للاحوال الواردة فى الوجهين التاسع والعاشر من هذا الاتفاق لايجب أن تكون عثرة فى سبيل استعمال الترعة وحريتها وفى هذه الاحوال يكون من الممنوع اقامة حصون مستمرة تخالف منطوق الوجه الثانى

ثانى عشر — تتعهد الدول الموقعات على هذه المعاهدة بناء على مبدا المساواة فيما يتعلق بحرية استعمال الترعة وهو المبدأ الاساسى لهذه المعاهدة أن لايسعين بالتوسع فى الارض والتجارة بالنسبة للترعة ولا بالحصول على امتيازات دولية تتعلق بهذا الشأن أيضا ماعدا الدولة العثمانية لما لها من الحق فى ذلك لكونها صاحبة البلاد

ثالث عشر — عدا المواثيق الواردة بايضاح فى بنود هذا الاتفاق فانه لا يجوز مس حقوق الخديوى الممنوحة له بالفرمانات ولا التعرض الى ما أغفل منه من الواجبات

رابع عشر — اتفقت الدول الموقعات على هذا على أن المواثيق الناشئة عن هذه المعاهدة لاتنتهى بانتهاء مدة الامتياز الممنوح لشركة بوغاز السويس

خامس عشر — لاتحول شروط هذا الاتفاق دون التحوطات الصحية المتخذة فى الديار المصرية

سادس عشر — تتعهد الدول المتعاقدات بأنهن يبلغن هذا الوفاق الى الدول التى لم توقع عليه و يطلبن منها التسليم به وهذه المعاهدة يصدق عليها ويتبادل التصديق بشأنها فى الاستانة فى مدة شهر أو أقل ان أمكن

وبناء على ذلك فالمرخصون قد وقعوا على هذه المعاهدة ووقعوا أختام وظائفهم عليها انتهى بنصه

ونقل

ونقـل أصحاب صحف الاخبار العربيـة نص هـذه المعاهدة وقالوا اذا كانت كل هـذه الحقوق للسـلطان وليس لدولة من سائر الدول أن تنازعه فيها فليس اذا من النصفة فى شئ أن تستضعف الانجليز جسم السلطنة العثمانية الى هذا الحد فتسلبها حقها وتبخسها أشياءها ولا من الكياسـة فى شئ أن تطيـل يدها الى هـذا الحد من التطاول على غير مسوّغ فرد عليهم أصحاب صحف الانجليز وأغلظوا فى الرد وبالغوا فى التهـديد وعادوا الى استنهاض همم صاحب سياستهم وحضـه على ترك المجاملة والاخذ بأطراف الحزامة والضرب على يد كل مكابر حتى يرجع صاغرا

(مطلب) موت رجـل من الهنـود واحراق جثته

واتفق أن مات فى هذه الايام رجل من الهنود التابعين للسـلطنة الانجليزية وهو من كبار تجارهـم بمصر فعزم قومه على احراق جثته حسب عادتهم الدينيـة فطلبوا من قنصلهم التسريح بذلك فسرح لهم وأعلم صاحب الشرطة بخبرهم فاحتمل القوم جثة فقيـدهم الى فضاء العباسـية عند سفح الجبـل الاحمر وطرحوها على الارض ودهنوها بالزبدة ثم لفوها بلفائف من نسيج الكتان ووضعوا قطعـة من الخشب فوق الرأس وأخرى فوق القـدمين وأحاطوا بالجثة حطبا مرصوصا بعضه فوق بعض وأضرموا فيه النار الى ان احترقت وصارت رمادا فرآهم وهم على هذه الحال نفر من أصحاب مقالع الحجر بالجبل الاحمر وسمعوا دمدمتهم بشئ من الادعية الدينية فهلعت قلوبهم من شدة الخوف وصاحوا وولوا مسرعين الى البلد يستفزون أصحاب الشرطة ويستصرخون العامة من سكان الحسينية والمذبح وعلت أصواتهم بيا لطيف نصر الله دين الاسـلام أهلك الله دين الكفار فتبعتهم النساء والاولاد وهم فى صياح وجلبة ولحقهم أصحاب الشرطة ففرقوا جمعهم وأقاموا جماعة منهم يحرسون القوم حتى جمعوا رماد جثة فقيـدهم فى ركوة وساروا بها على غير الطريق السـلطانى خوفا من بطش العامة وزعر الحسينية بهم وانتشر فى تلك الليلة خبر هـذا الحادث فى سائر أطراف القاهرة ومصر القديمة وتحدث العامة به فقال ضعفاء العقول منهـم ان هذا الحادث قطرة من بحر مما سيحل بالمسلمين بعـد أن جاء ولى عهد السلطنة الانجليزية وانهم سيرون يوما قبور آبائهم منبوشـة وعظامهم محرقة بزيت البترول وجثث موتاهم تلقى على قمم الجبال وغـير ذلك من الارجاف حتى كادوا يفتتنون

(مطلب) ما ترتب على كثرة اللصـوص من الحاج السير بارنج بتعيين مستشار لنظارة الحقانية

وكثرت فى هذه الايام اللصوصية وعم فساد أهل الشـقاوة وكـبر عبثهم فى القرى والبلاد وعظمت قحتهم فكانوا يتخطفون فى الليل والنهار ويكبسون الدور بلا حياء ولا خوف فجد أصحاب الشرطة فى طلبهم واهتم الرئيس لذلك جدا تحاشـيا من ضوضاء جماعة الانجليز وأصحاب صحف أخبارهـم فلم يتمكن من ارجاع الامور الى مجراها وبقى الحال على ذلك أياما كثر فيها تردد السير بارنج على ديوان الخديوى تارة وديوان الرئيس أخرى يشكو مما هو صائر من الخلل وعدم الامن على الارواح والاموال بسبب فساد رأى المديرين والمحافظين وعجزهم عن ارجاع الامن الى البلاد ثم أشار على الخديوى بطلب تسليم وكالات المديريات والمحافظات

الى جماعة من الانجليز وهو يقول لا خلاص للبلاد من هذه الفوضى المستحكمة الا بتسليم زمام سائر ادارة الحكومة الى جماعة الانجليز — قيل فتأفف الخديوى من ذلك وكلم الرئيس فيما هو صائر وأغلظ عليه فى القول وألقى عليه تبعة ذلك كله فتشكى الرئيس من أعمال المكلفين بضبط الجنايات من رجال النيابات ورماهم بالجهل وقال انهم أغرار غير أكفاء لمهمة ضبط الوقائع وتحقيق الجرائم ووسم قضاة المحاكم بوهن العزيمة والخلط بين اللين والشدة وطلب جعل النيابات تابعة لنظارة الداخلية وتحت سلطة رجال الادارة فلما شاع هذا الكلام نقله أصحاب صحف الاخبار الانجليزية وجعلوا يقرّعون الرئيس ويرمونه بالعجز وعدم القدرة على تدبير الامور فى هذه الايام وأكثروا من عبارات الهزء والسخرية — قالوا وقد آن الوقت الذى يجب فيه على صاحب سياستهم أن يسلم زمام الدواوين الكبرى الى من يحسن تدبيرها من الانجليز لكى يحولوا دون كل مطمع وهوى وما كادت تهدأ ضوضاؤهم هذه حتى تقدم السير بارنج الى الخديوى فى التعجيل باعطاء منصب استشارة الحقانية والاشراف على سائر النيابات والمحاكم الاهلية والشرعية الى رجل من الانجليز قد اصطفوه لذلك اسمه أسكوت — وجعل يغدو ويروح على مقر الخديوى أياما حتى رسم الخديوى الى الرئيس بالعمل قيل فامتنع لما فى ذلك من الحيف والصغار لا سيما وانها كبيرة من الكبائر التى لم يكن ليقوى السير بارنج على اتيانها أيام رئاسة الوزير نوبار باشا فجعل يطاول ويحاول والخديوى فى قلق من تردد السير بارنج على ديوانه فلما آنس الرئيس من الخديوى ميلا الى طلب السير بارنج زين كما قيل يومئذ الى حسين فخرى باشا ناظر الحقانية الوقوف فى وجه السير بارنج والعمل على ايقافه عند حده فقام حسين فخرى باشا قومة الحازم غير هياب ولا وجل ورفع الى الخديوى صحيفة كلها تفنيد لمزاعم السير بارنج وتحذير من سوء عاقبة هذا الامر ۞ حدثنى صاحب لى من المقربين من مجلس الرئيس قال كان الرئيس اذا رأى فى هذه الايام من حسين فخرى باشا مللا أو اغفالا لمقاومة مطالب السير بارنج حرضه وشجعه وأكبر قدره أو أنبه وقرّعه وصغر نفسه وأحرج صدره فيهب الى المشاغبة ويتجرد الى الدفاع ويملأ فضاء ديوانه بكلمات الوعيد وعبارات التهديد على أنا نعلم والناس كلهم يعلمون أن صيحته هذه انما هى كصرخة فى واد أو نفخة فى رماد وأن لا رادّ للسير عن هواه ولا دافع لقدر الله وقضاه وكانت كتب زعيم سياسة الانجليز مترادفة على ديوان الخديوى بالتعجيل وترك الابطاء والخديوى فى أخذ ورد مع الرئيس والرئيس يفسح لحسين فخرى باشا الامل ويشجعه على الاخذ بأطراف العمل لعله ينال من ذلك الداهية مأربا فقال الناس يومئذ ان أحد الرجلين مخلوع لا محالة وان فوز زعيم سياسة الانجليز فى هذه المرة سيكون مفتاحا لمغالق ما استعصى على جماعة الانجليز ولوجه من دواوين الحكومة الى الآن فلما كان خامس عشرى فبراير من السنة أى سنة احدى وتسعين وثمانمائة وألف ميلادية وسادس رجب الفرد سنة ثمان وثلثمائة وألف هجرية رسم الخديوى

بتوليته

بتولية أسكوت هذا منصب الاستشارة القضائية والاشراف على سائر المحاكم فتولاها وكان من أمره بعد ذلك ما هو مشهور ومعروف اهـ

وحدثنى أيضا من لا أشك فى صدق حديثه قال قد كان من دهاء صاحب سياسة الانجليز فى أمر تسليم زمام الاستشارة القضائية الى أحد رجال الانجليز أنه كان يرسل الى الخديوى الرسائل تلو الرسائل وكلها تتضمن الشكوى والاشفاق مما هو حاصل من ذهاب الامن من البلاد وكثرة اللصوصية ويستميله الى تمحيص الاسباب الناجم عنها هذه الفوضى المستحكمة حلقاتها ويشير بمنع تطاول يد الرئيس مصطفى رياض باشا الى العبث بوظائف رؤساء النيابات ومأمورى تحقيق الجنايات وما زال بالخديوى حتى هان عليه تولية أسكوت المنصب حولا فان أفلح وتم لاهل البلاد على يديه فى ذلك الحول ما يرجونه من تأمين الطرق واستتباب الراحة فالى ما شاء الله أو الى أن تصير المحاكم فى غنى عنه والا عادت الامور الى ما كانت عليه ثم تعين أسكوت فلم تمض عليه أيام حتى طاف سائر المحاكم بالاقليم البحرى وسبر غور ما فيها وجعل يمحو ويثبت ما يشاء من موادّ القانون المدنية والجنائية ويعدّل فى نظام وهيئة القضاء والقضاة ورؤساء أقلام النيابات ويدوّن كل ما يعنّ له من أوجه الاصلاح ووسائل الفلاح ثم سار الى الاقليم القبلى وسار معه حسين فخرى باشا فكان اذا نزل فى بلد استدعى اليه عمدتها ومشايخها وحادثهم فيما عليه المحاكم بالاقليم البحرى وبشرهم بقرب انفراج الازمة وزوال تلك الشدة ومناهم بمستقبل كله خير واطمئنان ثم عاد الى القاهرة وشاع الخبر بأنه على عزم أن يرفع الى الخديوى والرئيس تقريرا بما رآه من أوجه الاصلاح فتحدث الناس فى ذلك وفيما عساه أن يكون من الرئيس اذا أحرج السير بارنج موقفه وأكرهه على قبول مطالب أسكوت وأحس الرئيس بوشك وقوعه فى هذا الشرك فعمد الى الخلاص منه وأوعز الى حسين فخرى باشا بأن يستعدّ لتقديم تقرير الى الخديوى بما يراه فى مطالب أسكوت وفيما يلائم وما لا يلائم منها مصلحة البلاد فلم تكن الا أيام حتى رفع أسكوت تقريره وفعل كذلك حسين فخرى باشا وكل يدعى لنفسه العصمة والبعد عن الخطل — ورأى الرئيس أن لاينجز لأسكوت غرضا ولا أن ينيله مأربا فرسم بتشكيل لجنة من المسيو بيترى مستشار قضايا نظارة الحقانية وابراهيم فؤاد بيك وكيل محكمة الاستئناف الاهلية وابراهيم نجيب بيك رئيس المحكمة الابتدائية والمسيو لوجريل النائب العمومى واثنين من مستشارى الاستئناف الاجانب لينظروا فيما يشير به أسكوت من أوجه الاصلاح وفيما يعارضه به فخرى باشا فوافق على ذلك مجلس النظار وقرر العمل به — وسافر الخديوى الى الاقاليم القبلية فى قلة من الخدم والحشم والاتباع ترويحا للنفس أو كما شاع فرارا من عناء الاخذ والرد فى هذا الحادث الذى كثرت أذنابه واشتبك بعضها ببعض وأحس أسكوت بالذى ترمى اليه أغراض الرئيس فلم يرض عن تشكيل تلك اللجنة وعدّ تشكيلها ميلا عن الجادة وضررا بالاصلاح وقال لا يصح تشكيلها على هذه الصورة قبل أن يصادق مجلس

النظار على المبدإ الذى قد بنى عليه تقريره ولا سيما تصديقه على وجود المراقبة والتفتيش على سائر المحاكم وجعل سلطة التفتيش بيد جماعة من الانجليز أو من المصريين ان وجد بينهم من يصلح لذلك واشتد الاخذ والرد بين الرئيس والسير بارنج شدة بالغة كان من ورائها استبدال المسيو بيترى مستشار قضايا نظارة الحقانية بالمسيو مور بوندو مستشار قضايا الداخلية وجعل رئاسة اللجنة لحسين فخرى باشا فكبرت عند ذلك حجة أسكوت وأنكر على اللجنة فعلها وقال ان حكمها فى ذلك سيكون من قبيل حكم المرء لنفسه وامتنع المستر بوند الانجليزى أحد الاثنين المستشارين المعينين بعضوية اللجنة من الحضور فى جلستها وقال لا تصح رئاسة حسين فخرى لها وهو خصم أسكوت المعارض له فى مبدئه وكذلك لا تصح عضوية بعض الاعضاء لانهم أصغر درجة من صاحبى الخصومة فلم يلتفت أعضاء اللجنة الى شئ من ذلك واجتمعوا بغير حضور بوند وبحثوا فى قولى الخصمين أياما ثم اتفقت كلمتهم على رفض سائر مطالب أسكوت الا ما كان منها مختصا بتعيين مستشارين من الاجانب بمحكمة الاستئناف العليا بشرط أن يكونوا من القضاة الاجانب الشاغلين الآن لوظائف القضاء بالمحاكم الابتدائية لا أن يكونوا من جماعة الانجليز كما أشار أسكوت ولما علم السير بارنج بما قررته اللجنة أكبر الامر وأعظمه ورأى أن فوز الرئيس مصطفى رياض باشا فى هذه الطفرة يكون هادما لامانى صاحب سياسة الانجليز وقاضيا على عظمة الاحتلال فرفع فى الحال الى الرئيس مذكرة يطلب فيها البت قبل كل شئ بتثبيت أسكوت فى منصب الاستشارة وعزل حسين فخرى باشا من مسند نظارة الحقانية وعدم المعارضة فى ذلك ويقول ان هذه المذكرة واردة اليه على جناح البرق من صاحب سياستهم وهو يلقى تبعة كل ابطاء فى تنفيذها على عاتق الرئيس * وكأن التعجيل بتثبيت أسكوت تعجيل أيضا بقبول سائر مطالبه على علاتها لانه اذا تمت له ولاية المنصب أمنت مطالبه جميعها من العبث وحقت على الرئيس طاعته — فلما وقف الرئيس على ما فى تلك المذكرة عقد فى الحال جلسة مجلس النظار فلم يحضرها معه سوى على باشا مبارك وقيل حسين فخرى باشا أيضا وقرر عدم جواز تثبيت أسكوت فى المنصب ورفض عزل حسين فخرى باشا وكتب مذكرة بالتركية ورفعها مع قرار المجلس الى الخديوى بالصعيد الاعلى ولبث الفريقان ينتظران الجواب وهما على أحر من نار الجمر

فلما كان تاسع عشرى جمادى الثانية من السنة أى سنة ثمان وثلثمائة وألف هجرية وتاسع فبراير سنة احدى وتسعين وثمانمائة وألف ميلادية عاد الخديوى من رحلته فبالغ أهل القاهرة ومصر فى عمل الزينة لمقدمه ثلاث ليال وأولم الرئيس مصطفى رياض باشا وليمة عظيمة لسائر الامراء من البيت العلوى وكبار الحكومة وأصحاب الوظائف ولم تنقض ليالى الزينة حتى اجتمع النظار لدى الخديوى بسراى عابدين صبيحة الجمعة رابع رجب الفرد وثالث عشر فبراير وجعلوا يتباحثون فيما جاء فى مذكرة السير بارنج حتى الساعة الحادية

عشرة فظهر الخبر وتحقق بأنه قرّ رأيهم أولا على ابقاء أسكوت فى المنصب مع قبول جميع الشروط المترتبة على الولاية وجميع فروعها وأذنابها بغير معارضة وثانيا رفض عزل حسين فخرى باشا من منصبه بما أنه قد تقررت ولاية أسكوت فلم يوافق السير بارنج على ذلك وقال لا بد من عزل حسين فخرى باشا لاستحالة حصول الوئام بينه وبين أسكوت وترددت الرسل بين الخديوى والسير بارنج بقية يوم الجمعة الى ظهر السبت والناس فى تساؤل عما عساه أن يكون من الرئيس بعد ذلك التشديد وتلك الحدة وهل هو باق على عزمه من اعتزال الرئاسة بعد أن وكلت الاستشارة الى أسكوت وأصاب سهم السير بارنج من جسم الحكومة فى هذه المرة أيضا مقتلا وبعد أن باتت نظارة الاشغال بيد منكريف والحربية بيد الجنرال جرنفيل والخزينة بيد منلر وبالمر والداخلية بيد فنك والمعارف بيد صنائع السير بارنج فيها وقد ختم أيضا على قلب الوظائف الصغرى بخاتم لا يقدر على فضه الا الجبار العظيم فلم يبق الا أن يقضى على البقية الباقية بأيدى أبناء البلاد الضعفاء من أوجه الارتزاق فيموتون جوعا وتحيا جماعة الانجليز ـ أو ثناه عنه عزة المنصب وأبهته الظاهرة فلم يكن الا القليل حتى برح الخفاء وظهر للعيان أنه قد غير من عزمه وفضل البقاء فى منصبه فقالوا لعل فى ذلك حكمة

واشتد أصحاب صحف الانجليز على الرئيس وبعض النظار بقارص الكلام ورموهم بالعسف وحب الذات وقالوا انهم جميعا زعماء للحزب الذى عاش أعواما تحت راية الاستبداد القديم فلا يليق بعظمة السلطنة الانجليزية أن تفسح لهم فى الأجل ولا أن تتركهم يتضافرون على مثل هذا العمل فاما عيشة راضية وإما ضربة قاضية وإلا ساءت الحال واتسع المجال واستعصى على سلطانة البحار بلوغ الآمال ۞ وهب صاحب سياسة الفرنسيس من الخمول وأرسل الى قنصلهم بمصر أن يحتج على تولية أسكوت منصب الاستشارة ويمانع فى تعيين لجنة المراقبة وأن يعلن أصحاب الحل والعقد بمصر أن دولة الفرنسيس لا تتساهل فى شئ من ذلك البتة فصدع القنصل بالامر واجتمع بالرئيس مصطفى رياض باشا وتيكران باشا وأدى الرسالة حقها قيل ففرح الرئيس بذلك وأبلغ الخبر الى السير بارنج وهذا رفعه الى صاحب سياستهم ولبثوا ينتظرون الجواب وانقطع الرئيس فى داره يوما وبعض يوم ثم سافر الى مزارعه بطود البحيرة وأقام بها أياما كثر فيها لغط أصحاب صحف الاخبار المحلية بشئ من مطاعن أصحاب الصحف الانجليزية ثم جاء الخبر الى دوان الخديوى بنزوع صاحبى سياسة الانجليز والفرنسيس الى المناقشة فيما أفضى الى تولية أسكوت منصب الاستشارة وأن المناقشة فى اشتداد وقد دخلت فى غمارها أيضا دولة الالمان والباب العالى

واتفق أن مات فى رابع عشر رجب قاضى قضاة مصر الشيخ عبد الرحمن نافذ فخلا بموته منصب القضاء الشرعى فتساءل الناس عمن يخلفه وعما اذا كان ذلك الخلف يأتى من دار السلطنة بفرمان من الباب العالى على ما جرت به العادة من قبل أو أن الحكومة

المصرية تولى من تشاء من قضاتها وظنوا أن وقوع هذا الحادث فى هذا الحين قد يمكن السلطان من التوسع فى الكلام مع الدول عن حالة القضاء بديار مصر وفى تطاول يد الاحتلال الانجليزى الى العبث به وفى تولية أسكوت منصب الاستشارة على غير مسوّغ فيتضافروا جميعا على ما فيه المصلحة وقد وقع ما كانوا يظنون فانه ما بلغ الباب العالى خبر موت الشيخ القاضى حتى وردت كتبه على ديوان الخديوى والغازى مختار باشا بعزم السلطان على الغاء ما جاء بفرمانه الشاهانى المؤرخ سنة احدى وتسعين ومائتين وألف هجرية من بقاء الشيخ عبد الرحمن فى منصب القضاء بمصر وعدم استبداله كالعادة المتبعة بالباب العالى فى كل سنة اذ بموت الشيخ عاد الى الباب العالى حقه فى تولية القضاء كل عام لمن هم مترشحون لذلك من مشايخ الوقت فى دار السلطنة - فاهتم الخديوى بالامر وكلم الغازى مختار باشا فى بقاء حق انتخاب القاضى الجديد للخديوية المصرية فأرسل الغازى الى الباب العالى فى ذلك فجاء الجواب قائلا انه قد جرت العادة من قديم أن للباب العالى وحده حق تعيين قاضى قضاة مصر من أصحاب الدراية والاهلية بالترتيب لكل قاض منهم سنة واحدة فاذا انقضت السنة يرسل الباب العالى صاحب الدور وهكذا * فلما كانت سنة احدى وتسعين ومائتين وألف هجرية التمس الخديوى اسمعيل من لدن الذات الشاهانية بقاء الشيخ عبد الرحمن نافذ فى منصب القضاء بشرط أن تدفع خديوية مصر ثلاثة آلاف جنيه فى كل سنة لصاحب الدور من مشايخ الوقت فى دار السلطنة بدون أن يشغل الوظيفة فأجاز الباب العالى للشيخ عبد الرحمن البقاء فى مصر من سنة اثنتين وتسعين بمرتب قدره ألف وخمسمائة جنيه يتقاضاه من خزينة الخديوية المصرية فى كل سنة الى أن يتوفاه الله ولما كان هذا الامتياز لم يختص به الا الشيخ عبد الرحمن وحده فقد زال بموته وعاد الى الباب العالى حقه فى ارسال صاحب الدور من علماء دار السلطنة الى هذا المنصب * قال الرئيس مصطفى رياض باشا الى مقالة الباب العالى وأحلها محلها ولم يبخسه حقه وكأنه كان يتمنى لو أن السلطان ينال من هذه الفرصة مأربا فيوقف مطالب صاحب سياسة الانجليز عند حد و يعمل على ارجاع الامور الى ما كانت عليه ولكن هل يطلب أثرا بعد عين وقد جاء فى المثل « الصيف ضيعت اللبن » وقيل ان من التوقى ترك الافراط فى التوقى لان من حنكته التجارب قاد هامة الحوادث بذوائبها فدانت له ورجل الانام من قدر على الاستيثاق من موادعة الايام

فلما كان ثالث عشرى رجب جاء الخبر من دار السلطنة العثمانية بأن قد صدر الفرمان السلطانى بتولية الشيخ عبد الله جمال الدين قضاء مصر وقد كان على قضاء الروملى ثم أعقب هذا الخبر ورود كتاب من الصدر الاعظم الى الديوان الخديوى يقول فيه - ان جلالة مولانا المتبوع الاعظم أمير المؤمنين قد ساءته تولية أسكوت الانجليزى منصب الاستشارة القضائية بالخديوية المصرية فى حين أن القضاء بديار مصر قد بلغ أقصى درجات الكمال

وشاع الخبر بذلك فأرسل الخديوى الى الباب العالى على جناح البرق رسالة يقول فيها بعد الاستعطاف والتلطف — انه باجازته تولية أسكوت هذا المنصب لم يأت أمرا جديدا فى ديار مصر بل هو فعل مثل ما فعله خلفاؤه من تولية بعض الاجانب فى المصالح والدواوين المهمة للاستفادة من نشاطهم وعلمهم وأنه لا شئ بيد أسكوت من القوة الاجرائية ولا هو مطلق الكلمة فى شئ وأن مشروعاته لايعمل بها الا بعد تمحيصها والتصديق عليها من مجلس النظار وصدور الامر بتنفيذها — فلم يعجب الاحزاب هذا القول وظنوه خدعة وحيلة وقالوا ان الباب العالى سيطاول فى ارسال القاضى الجديد حتى يتم لصاحب سياسة الفرنسيس الاتفاق مع زعيم السياسة الانجليزية على ارجاع الامور الى ما كانت عليه فلم يصب ظنهم المرمى ووصل القاضى الى الاسكندرية فى صبح الاثنين الحادى والعشرين من شعبان من السنة مع عائلته و بعض الخدم وبات ليلته تلك فى بيت مفتى الثغر فزاره العلماء والوجهاء وأصبح فركب قطار السكة الحديد الى القاهرة فاستقبله فى محطتها جماعة العلماء والغازى مختار باشا وبعض رجال الغازى وفخرى باشا ناظر الحقانية وشيخ الجامع الازهر ومفتى مصر والتشريفاتى الخديوى وبعد تبادل التحية ركب القاضى فى مركبة من المركبات الخديوية يحف بها كوكبة من الفرسان وعلى يساره حسين فخرى باشا ونزل ضيفا بمنزل سعادته وفى ثانى يوم ركب فى عربة من عربات الخديوى وعلى يساره الشيخ الرافعى رئيس المجلس العلمى وحضر الى سراى عابدين فاستقبله عبد الرحمن رشدى باشا رئيس التشريفات وأدخله على الخديوى فقابله بالترحيب وبعد أن تناول القهوة ألبسه الخديوى خلعة ثمينة من فرو السمور فنزل بها الى المحكمة واحتفل به قضاة مجلسها وهنؤه وبعد برهة لطيفة سار الى المشهد الحسينى فزاره وركب من هنالك الى منزل مضيفه وبعد أيام قلائل أولم له الخديوى وليمة شائقة حضرها الغازى مختار باشا وبعض الامراء من البيت العلوى وبعض الوزراء وكبار الديوان الخديوى والعلماء * واتفق أن ابتاعت حكومة الانجليز من الحكومة الخديوية قطعة أرض من فضاء قصر الدوباره على ساحل النيل الشرقى لبنائها دارا لقنصلاتو الانجليز بثمن وقع الاتفاق عليه وكان المشترى لها السير بارنج باسم ملكة الانجليز وامبراطورة الهند فبعد أن تم الاتفاق على البيع والشراء وقبض الثمن أرسل ناظر المالية الى قاضى القضاة جمال الدين يطلب توقيع الصيغة الشرعية وتسجيل البيع بالطريق الشرعى واستخراج الحجة بذلك فأعاد القاضى السؤال عما اذا كان تحديد الارض يشمل شيأ من ساحل البحر فاذا كان كذلك فلا يصح لأنه طريق مطروق لا يصح تمليكه للغير فقال السير بارنج ان البيع يشمل الساحل وأنه قد اشترى الارض الى مجرى الحوت فامتنع القاضى عند ذلك من عمل المسوغ الشرعى وقال لايجوز تمليك الطريق السلطانى للغير فشدد السير بارنج فى الطلب وقال لا بد من استخراج الحجة عما تم بيعه فسأل حسين فخرى باشا مفتى مصر رأيه فى ذلك فأفتى بعدم جواز البيع وبعدم تمليك الطريق السلطانى للغير وعدم جواز جعل الحد الغربى

لتلك الارض مجرى النيل * وأكثر السير بارنج من الغدوّ والرواح الى مقر الخديوى تارة وديوان الرئيس مصطفى رياض باشا أخرى وشاع خبر ذلك ففرح به العامة وضعاف العقول وعدّوه فوزا للقاضى جمال الدين ونصرا للسلطان على صاحب سياسة الانجليز وتكلم فى ذلك أيضا أصحاب صحف الاخبار المحلية على اختلافها وهم بين مخطئ للقاضى ومصوّب وظل الحال على ذلك أياما حتى أشار بعض أصحاب الكلمة المسموعة بترك القاضى جمال الدين يفعل ما يشاء مما قضاه الشرع ثم باجتماع مجلس النظار واصدار قرار بجعل الحد الغربى لتلك الارض مجرى الحوت ففعلوا وكتب القاضى الحجة كما شاء وانفرجت الازمة . وقد كان يود أصحاب العقول الضعيفة ومن فى قلبه مرض أنها لا تنفرج

(مطلب) تعيين كتشنر باشا مديرا لجند البوليس

ولم تقف مطالب صاحب سياسة الانجليز بعد هذا كله عند حد فانه بعد أن نال مناله من تولية أسكوت منصب الاستشارة القضائية . وقضى بولايته على تداخل الرئيس مصطفى رياض باشا فى أعمال المحاكم وأقلام النيابات وضرب بينها وبين هواه فيها سياجا من حديد جاءت كتبه الى الديوان الخديوى بطلب تسليم زمام ادارة البوليس جميعها الى كتشنر باشا مقدم الجند المرابطين بسواكن وسلخها من نظارة الداخلية أى من سيطرة الرئيس وجعلها مستقلة مسؤلة عن الأمن فى سائر انحاء البلاد ـ قال والحكمة فى ذلك أنه إذا جعلت ادارة البوليس فى يد كتشنر واتحدت القوة القضائية بالبوليس الذى هو القوة المنفذة وقامتا بواجبهما القانونية كما يجب انقطع دابر اللصوصية وانكمش أهل الشقاوة والفساد واستتب الامن بين البلاد واطمأنت القلوب الواجفة فلا يبقى بعد ذلك من شاك ولا باك واذا دام الحال على ما هو عليه فلا قضاء ينفع ولا جند يدفع ـ فكلم الخديوى الرئيس مصطفى رياض باشا فى ذلك فأجفل وتولاه اليأس وطال الاخذ والرد بينهما أياما كان من ورائها أن رسم الخديوى بولاية كتشنر الرئاسة على جند البوليس ومنحه حق النظر فيما تستلزمه حالة الحفظ فى البلاد كافة من اقامة المرابطين من الجند والخفراء وتحديد وظائف مشايخ البلاد ومشايخ الخفر والتوفيق بين القوة القضائية والقوة التنفيذية فقام كتشنر من يومه بتقنين القوانين وانشاء اللوائح وأكثر من الاجتماع بأسكوت كل قليل من الايام حتى تم الاتفاق بينهما على ما شاء الاتفاق عليه وقررا فيما بينهما اختصاص كل من القوتين فلم يبق للرئيس فى ادارة البوليس بعد ذلك كلمة ولا رأى وقد كان يظن استحالة الوفاق بين كتشنر وأسكوت وان يتنازعا فى السلطة ويميل كل منهما الى الاستبداد بالأمر وأن ذلك سيكون باعثا على اخفاق سعيهما وتفرق كلمتها فترجع الامور بعد ذلك الى ما كانت عليه من قبل ولكن لم يصب ظنه المرمى اذ اتحدت كلمتهما واعتصما بعروة وثقى لا انفصام لها وأصبحا فى منصبهما كأنهما رأسان فى قلنسوة واحدة وبات الرئيس ولا عمل له بل ولا كلمة مسموعة ولا اشارة مطاعة فكبر همه وعظم حزنه وغمه وتأمل حوله فرأى أن عيون الانجليز قد أخذته من كل صوب وألسنة القوالين قد تناولته من حيث يدرى ولا يدرى وعابوا عليه استسلامه وضعفه فحار

فى أمره واختلط عليه الحال وتولاه القلق وعراه الريب فى صدق ولاء المقربين من مجلسه فنفر من بعضهم وانكف عن الجلوس فى مجلس ليله على عادته وتحجب أياما ثم تمارض وأظهر للناس عجزه عن القيام بمهام المنصب فكان اذا ذهب يوما الى ديوانه جلس على كرسيه واجما مشتت الفكر كثير الهموم وقد ذهبت عنه تلك الهيبة وضعفت منه تلك العزيمة وظل على هذه الحال حتى جاءت أيام عيد الفطر فجعل يفكر فى ترك المنصب والتخلى عنه * فلما كان يوم الثلاثاء رابع شوال من السنة وثانى عشر مايو دخل على الخديوى بقصره وشكا اليه عجزه عن القيام بمهام المنصب وما يلاقيه من اغضاء الخديوى وعنت السير بارنج ثم رفع الى الخديوى عريضة يقول فيها ـ مولاى ان اعتلال صحتى قد أوصلنى الى درجة لا أستطيع معها القيام بمهام المأمورية التى أنا مكلف بها من قبل ذاتكم الفخيمة ولهذا الداعى أتقدم لاعتابكم السنية ملتمسا مع الاسف من تعطفاتكم الجليلة اقالتى وأنا على كل حال خادمكم المخلص اه ـ فى الحال قبل منه الخديوى ذلك وأقاله * وما شاع خبر ذلك حتى تناوله الناس وجعلوا يتحدثون به واختلفوا فى الاسباب فقال فريق انه لم يترك المنصب الا مكرها لان كتشنر رسم الى سائر رؤساء أقلام نظارة الداخلية بأن ترفع اليه سائر الاوراق الديوانية وهو يأذنهم بما يلزم ولا يلزم اطلاع الرئيس عليه كما يفعل منار بنظارة المالية ـ وقال فريق آخر بل انه لم يرق لديه اتفاق كتشنر وأسكوت على ربط قوتى القضاء والتنفيذ ببعضهما ورفعهما تقريرا بذلك للخديوى فصدق عليه ولا علم للرئيس به فلم ير بدا من ترك المنصب والتخلى عنه ـ وقال فريق آخر بل ان بغض جماعة الانجليز ونفورهم منه منذ حادثة تولية أسكوت منصب الاستشارة وضربهم على يده كل قليل من الايام مال به الى التعجيل بترك المنصب ـ وقال آخر انه رأى من نفسه اعتزاله للمنصب بعد الذى حاق به من جراء تولية أسكوت وكتشنر وأخبر صاحبه البارون مالورتى مدير قلم المطبوعات أثناء شهر رمضان بعزمه على التخلى عن المنصب فى رابع أيام العيد ـ وقال فريق غير ذلك وعلى كل حال فقد تم لجماعة الانجليز ما كانوا يطلبونه وبعث السير بارنج بخبر ما جرى الى صاحب سياستهم وكذلك فعل سائر قناصل الدول الكبرى

وفى عصر ذلك اليوم أرسل الخديوى الى عبد الرحمن رشدى باشا رئيس التشريفات بأن يقوم بتشكيل الوزارة تحت رئاسته فامتنع واعتذر بأنه شيخ فان لاقدرة له على تحمل مشاق الرئاسة وتنوعت الاشاعات فى تلك الليلة فيمن يتولاها فمن قائل انه نخرى باشا ومن قائل ان مصطفى فهمى باشا هو الذى سيتولى ومن قائل سيعود اليها الوزير نوبار باشا وتباينت الآراء وانقضى الليل ولم يتم شئ وأصبحوا وقد ذهب الخديوى يتنزه فى ضواحى الجزيرة ورجع عند الساعة التاسعة صباحا فدخل عليه السير بارنج وأبلغه خبر ما ورد اليه من صاحب سياستهم وكلمه طويلا فيما هم بصدده ثم دخل أيضا الغازى مختار باشا مندوب الباب العالى ثم قنصل جنرال الروس ولم يخرج السير بارنج من حضرة الخديوى حتى شاع الخبر بولاية

مصطفى فهمى باشا الرئاسة * فلما كان عصر ذلك اليوم حضر مصطفى فهمى باشا الى مقر الخديوى بعابدين ولبث بحضرته برهة ثم خرج فأرسل اليه الخديوى فى سادس شوال مرسوما يقول فيه — انه بناء على ما رأيناه فى عطوفتكم من الدراية والاهلية ووثوقنا بكم قد أحلنا على عهدتكم رئاسة مجلس نظار حكومتنا وعلى هذا نطلب منكم القيام بتأليف هيئة نظارة جديدة وليكن فى علمكم أننا نعضدكم ونساعدكم على الاعمال المهمة التى دعوناكم لأدائها وبما أن المنهج الذى سلكناه منذ تولينا لحسن سير أعمال حكومتنا وسرنا على مقتضاه للآن هو ما جاء فى أمرنا الصادر بتاريخ حادى عشر سبتمبر سنة تسع وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية ولا حاجة لتذكيركم بما تضمنه من المواد الاساسية وهى أن حكمنا واجراءه يكون مع مجلس نظارنا وبواسطته مع بقاء الحق لنا فى الرئاسة على جلساته بذاتنا كلما رأينا لزوما لذلك كما أن جل قصدنا وغاية مرغوبنا هو العدل والاستقامة والاصلاح وحسن الترتيب فى جميع ادارات القطر والسعى فى ازدياد الرفاهية والتقدم فى جميع انحاء البلاد حسا ومعنى فليكن ذلك دائما مطمح انظاركم حتى يتسنى لنا باذن الله الحصول على ما ذكر ونسأله تعالى أن يوفقنا جميعا لما فيه الخير للبلاد ورفاهية العباد اهـ فلما وصل الى مصطفى فهمى باشا مرسوم الخديوى اجتمع بالسير بارنج برهة طويلة واجتمع كذلك بالمستشار المالى وعند الساعة الثامنة من ذلك اليوم تمثل بين يدى الخديوى بمقره ورفع اليه عريضة تتضمن أسماء من ستتألف منهم هيئة الوزارة الجديدة فكان فيها أن عبد الرحمن رشدى باشا للمالية ومحمد زكى باشا للاشغال العمومية والمعارف وحسين فخرى باشا للحقانية ويوسف شهدى باشا للحربية والبحرية وتيكران باشا للخارجية فوافق الخديوى على اسناد هذه المناصب اليهم ورسم بذلك فساروا جميعا الى مقره بعابدين فهنأهم فقبلوا يده وانصرفوا وسافر مصطفى رياض باشا الى مزرعته بطود البحيرة واحتجب عن الناس كافة وعفت أخباره وشاع الخبر بعزم أولى الامر على خلع محمود باشا دبوس اوغلى صهره من وكالة الداخلية فاستحسن الناس ذلك وأحلوه من الصواب محله

(مطلب) ظهور الجراد بالاقليمين القبلى والبحرى

ووردت الاخبار من بعض مديرى الاقليمين القبلى والبحرى على ديوان الخديوى وديوان الداخلية بظهور الجراد فى جهات الصالحية والزنكلون وتل حوين من بلاد الشرقية وأهوه وباروط وآها من بلاد مديرية بنى سويف وكثير من بلاد مديرية جرجا وأسيوط وبلاد مركزى النخيلة والدلنجات والبهودية وقبور الامراء بالبحيرة وطود وداماريس والبرجين والاخصاص وغيرها بمديرية المنيا وأكثر بلاد القليوبية والمنوفية وكسا أراضى الجزيرة بالبر الغربى من القاهرة وكان ظهوره فى أخريات رمضان فخاف الناس شره واهتمت الحكومة بأمره اهتماما عظيما وأرسلت الى سائر المديرين والمحافظين بالتشديد على قطع شأفته فجدوا فى تأثره وكانت الاخبار ترد تباعا بتكاثره وانتشاره شرقا وغربا وشمالا وجنوبا وفتكه بكل ذى خضرة من النبات والشجر والنخيل وظل الحال على ذلك أياما والناس فى دهشة وحيرة

حتى

حتى أذن الله سبحانه بأن هبت فى أخريات شوال من السنة رياح مختلفة بعضها من الشرق وبعضها من الغرب ولبثت على اشتدادها أياما فاكتسحته وحملت بعضه الى الحوف الشرقى وبعضه الى الجبل الغربى ولم تترك منه الا القليل فى البلاد والقرى التى نزل عليها فأباده أهلها بضرب العصى وسعف النخل وجدوا فى جمع بيضه وفرضت الحكومة قرشين لمن يأتى بأقة من بيضه فتسابق الناس الى البحث عن مواطنه واخراجه منها فكان أكثره فى مركز النحيلة بالبحيرة وفى الجبل الغربى وسواحل البحر وفى الفشن بمديرية المنيا * ومن غريب ما نقل عنه أن سحابة منه نزلت على مزرعة قطن باحدى بلاد المنوفية فأكلتها وما أتت على آخرها حتى ماتت جميعها فجاءت أخرى الى مزرعة فى جوار المزرعة الاولى فلما رأت ما أصاب الاولى نفرت من النزول على شجر القطن وعافته وفرت فلم ير بعد هذه الحادثة جراد يأكل شجر القطن وتحول ضرره الى الاشجار والنباتات الاخرى وأخبر جماعة من تجار المنوفية مديرها وحلفوا له الايمان المغلظة بأنهم شاهدوا فى بلاد مركز أشمون جريس طيرا كثيرا جدا أقرب شبها بأبى قردان ولكنه أطول منقارا قد نزل من الجبل الغربى أسرابا أسرابا وأخذ يتتبع الجراد أينما وجده ويكبس عليه ويزدرد منه المئين والالف ثم يتقيؤه ميتا وهكذا فلا يرحل عن البلد أو المزرعة الا وقد أفنى ما فيها من الجراد وأباده — وان بعض الجهلة من الفلاحين كانوا يخافون من ذلك الطير فيرجمونه بالاحجار وهو لايلتفت الى ذلك ولم يثن له عزما ۞ قلت وقد شاهدت شيأ كثيرا من ذلك الطير نازلا على طول الطريق من نفيشة الى السويس وهو على هيئة صفوف الجند بعضها خلف بعض ساكن القلب لايزعجه مزعج ولا يحركه محرك وقد أخبرنى بعض أهالى نفيشة بأنه قد نزل عليهم منذ أيام وهو يترصد الجراد الزاحف من بلاد الشرقية الى الحوف الشرقى حتى اذا مر به قام من فوره وسد عليه الطريق وجعل يضربه بأجنحته ومنقاره ويبتلع منه الالف فلا تستقر فى جوفه لحظة حتى يتقايأها فاذا أفلت منه شئ تعقبه وقتله ثم يعود الى مكانه متربصا قيل وبقى على هذه الحال أياما حتى قامت تلك الريح واكتسحت ما بقى من الجراد فسبحان مدبر الاكوان ومسلط الابدان على الأبدان انه خلاق عظيم سبحانه جل شأنه

(مطلب موافقة عيد الاضحى لعيد بلوغ ولى العهد سن الرشد)

وبالغ الخديوى هذا العام فى اظهار أبهة عيد الاضحى لموافقة أيامه لأيام عيد بلوغ الامير عباس ولى العهد سن الرشد وكان الخديوى باسكندرية على عادته فى ابان الصيف فطير الخبر بعمل تشريف العيد الى الآفاق فهرع الامراء من البيت العلوى والكبراء والعلماء والمشايخ وأرباب الوظائف على اختلاف مراتبهم الى الاسكندرية استعدادا لحضور يوم التبريك بالعيدين عيد الاضحى وعيد بلوغ الامير سن الرشد وكثر توارد رسائل التهانى على ديوان الخديوى من كل صوب * فلما كان صبح الخميس عاشر ذى الحجة ركب الخديوى عربة التشريف وعلى يساره الامير عباس وأمامه الامير محمد على ولده الثانى وأمام العربة

كوكبة من الفرسان وخلفه كذلك وسار الى مسجد أبي العباس فصلى صلاة العيد ثم عاد الى مقره برأس التين فدخل عليه الأمراء من البيت العلوى فهنؤه بالعيد وبلوغ ولى العهد سن الرشد وهنؤا كذلك الامير ثم دخل الوزراء والكبراء والعلماء والوجهاء والرؤساء وأدوا فروض التهانى وخرجوا من عنده الى سراى الحرم وكانت رحبة السراى مزدحمة بصفوف الجند والمواكب والمدافع تطلق من طوابى وأبراج البلد ومن سفن البحر على اختلاف أجناسها والموسيقى تصدح فى كل ناحية من ساحة السراى وكانت والدة ولى العهد قد أولمت ثلاثة أيام قبل يوم العيد وأطعمت وتصدقت على الفقراء وأصحاب البيوتات وفرقت بعض التحف والهدايا النفيسة وكذلك فعل الخديوى وجاء الى ولى العهد نيشان الافتخار من امبراطور النمسا والمجر فسلمه اياه القنصل فى حفلة من الامراء والوزراء والكبراء وألبسه الخديوى كذلك بيده فى حفلة أخرى النيشان العثمانى الاول فوقف على باب الامير يومئذ الشعراء والقوالون وتسابق المهنؤن من كل صوب فمما قاله أحدهم فى الامير

نبه يراعك من وصف وتشبيب ... وخذ بنظم التهانى كل أسلوب
ان الهناء اذا طابت موارده ... أغناك عن غزل فى الشعر مطلوب
واليوم جلت تهانينا فكان لها ... صدر المقام كعنوان المكاتيب
قد بلغ الله مصرا ما به وعدت ... ونعمة الله وعد غير مكذوب

الى أن قال

والبدر فى أصله تم تحجبه ... أيامه ثم يبدو غير محجوب
يابالغ الرشد فى ترتيب مدته ... وأنت بالغه من قبل ترتيب
ونائل الادب الوضاح من خلق ... من قبل تأديب أستاذ وتهذيب
ليس الحداثة من حلم بمانعة ... قد يوجد الحلم فى الشبان والشيب
وليس رشد الفتى فى سنه أبدا ... بل فى فؤاد وأخلاق وتدريب
كذاك قد خلق الله الامير لنا ... والمجد فى النفس طبع غير مكسوب
فنال من بعد تغريب معارفه ... ولم ينل فضله من بعد تغريب
فضل توارثه عن خير محتده ... والفرع من أصله فى الحسن والطيب
جارى أباه فكاد الجريان معا ... لولا مهابة اجلال وتأديب
وأصبحت مصر فى آمالها ولها ... قلب المحب أتاه وعد محبوب
حتى ترى منه غيثا فى شمائله ... والغيث فى وشك سكب مثل مسكوب
لقد دعوه بعباس ليوم وغى ... لكنه فى الندى من غير تقطيب
فأبصروا منه بحرا فى مكارمه ... تحلو عذوبته من كل تعذيب
وشاهدوا منه عقل الشيخ فى حكم ... برأس أمرد داجى الشعر غربيب
ومن يكن نجل توفيق البلاد فلا ... بدع اذا كان مجموع الاعاجيب

حاولت وصف الهنا فيه فأزعجنى كأنه شـقة فى عـين متعسوب
فـلم أنل وصـفه الاعلى بعـد ولم أنل مدحـه الا بتقريب

وركب ولى العهد فى ذلك اليوم فى عربة فاخرة وخلفه نفر من الجند فطاف على بيوت الامراء من البيت العلوى وزار بعض قناصل الدول فكان يوما مشهودا

(مطلب ظهور الوباء بمكة ومصوع)

وما تمت أيام العيد وما تبعها من أيام التزاور حتى ورد الخبر من مكة بظهور الوباء الاصفر بها ودخوله اليها مع الحجاج الهنود فقام رجال الحكومة لذلك وقعدوا وأرسل الخديوى كتبه الى نعمى باشا أمير ركب الحج المصرى فجاء الرد يقول ان الوباء على أشد ما يكون بمكة وانه قد مات به ثلاثة من الجنود المصرية وأحمد أفندى عمر طبيب الركب المصرى ثم جاء الخبر أيضا بدخول ذلك الوباء الى مصوع وفتكه بمن فيها فتكا ذريعا فرسم الخديوى من فوره بعمل الاحتياطات الصحية وسيروا فى يوم الاربعاء سادس عشر ذى الحجة جماعة من الاطباء والصيدلية وخدام المرضى الى محجر الطور على ظهر الباخرة عائدة ومعهم الادوية والخيام والملابس لفقراء الحجاج وأرسل ديوان الصحة الى سائر عماله بالتأهب والاستعداد ليوم الطلب ومنعت نظارة الداخلية من اقامة سائر الموالد فى انحاء البلاد فخاف الناس وجعلوا يبالغون فى الحيطة والتوقى من شر ذلك العدو الفتاك وطاف مشايخ الحارات ينادون على العامة بتنظيف دورهم والعناية بمآكلهم ومشربهم وملبسهم فضلا عن نظافة أجسامهم فوقع هذا النداء من قلوبهم موقعا رهيبا وكثر بينهم الهرج والمرج على عادتهم عند ظهور خبر هذا الحادث وطاف كذلك أصحاب الشرطة وأطباء الاقسام يفتشون الدور والوكائل ويلزمون أصحابها بنظافتها والعناية بها وظل الحال على ذلك حتى وصل الحجاج الى محجر الطور ولبثوا به أيام الحجر فكان الموات بينهم قليلا ثم انقطع ولم يبق عليهم من خوف فجاؤا الى السويس ودخلوا القاهرة معافين فزال عن الناس الخوف واطمأنت قلوبهم وانكف أصحاب الشرطة وأعوان الصحة عن التطواف كما كانوا يفعلون فى كل يوم

(مطلب حريق سراى عابدين)

وفى فجر يوم الخميس سابع عشر ذى الحجة سمع دوى شديد وصوت كأشد ما يكون من قصف الرعد وانتشر دخان كثيف ملأ جو القاهرة فهب الناس من نومهم مذعورين وخرجوا يريدون مكان ذلك الصوت فظهر لهم لهب النار يرتفع من سراى الخديوى بعابدين الى عنان السماء وشاهدوا طوائف الجند من المصريين والانجليز يتسابقون الى رحبة السراى ومعهم أصحاب المطافئ وجماعة ينفخون فى البوق نداء لمن تخلف منهم وكانت النار قد ظهرت أولا من غرفة فى الجهة الشرقية المجاورة لاحد مطابخ الدائرة الخاصة واشتد لهيبها ثم اتصلت الى غرفة أخرى فأصابت أنابيب الغاز فتفرقعت الأنابيب فاشتد سعير النار وامتد لسانها وكبر خطرها وكثر نداء البوق فهرع الجند من كل صوب وناحية وجاءت خيل الجل وعربات المياه وعربات الرش والطلمبات والفعلة ثم حضر الوزراء ووكلاء

النظارات ورؤساء المصالح وكثير من الباشوات المتقاعدين وجعل كل منهم يقول رأيه في كيفية اطفاء تلك النيران الآكلة فاختلفت الآراء واشتد اللهب وعلا علوا كبيرا وقد غاب عنهم جميعا اجراء الهدم للفصل بين الاماكن التي أخذت النار تأكل فيها وبين الاماكن التي لم تكن قد وصلتها النار واشتد الخوف على ما في السراى من الامتعة الفاخرة والفروشات الثمينة والثريات والمقاعد والاسرة والتحف التي لا تكاد تدخل تحت الحصر فأشار بعضهم بنقلها كلها الى فسحة السراى الخارجية فنقل الجند بعضها فتكسر بعضه وتعطل البعض الآخر وكانوا يلقون بالشئ الكثير منها من النوافذ والشبابيك فيتحطم وهكذا ولم ينتبه أحدهم الى الهدم والحيلولة بين النار وبين ما بقى من البناء أو تنبه بعضهم ولم يجد سميعا حتى أتت النار على جميع ما في الجهة الشرقية الى قرب باب المعية من الجهة الامامية والى قريب سراى الحرم من الجهة الخلفية فتنبهوا حينئذ للهدم فهدموا غرفتين كبيرتين بين ديوان المعية وبين سراى الحرم بالقاء الديناميت وكذلك هدموا سائر محلات الكتبة فانفصلت النار عن غرف المعية وانحصرت في الجهة الشرقية وكان فعل الديناميت عند القائه على ذلك البناء غريبا مهولا جدا مادت له الارض وأظلم به وجه السماء وكاد الناس يخرون على وجوههم لشدة ما أصابهم ثم جعلوا يلقون الماء على النار من المطافئ كالسيل وما زالوا على ذلك حتى تمكنوا من اخمادها وسلمت الجهة البحرية من السراى وكان ما كان من أمر المفروشات والنفائس والتحف أما الاوانى الذهبية والفضية والخزائن والسجلات والاوراق المهمة فقد نجت كلها من النار فحفظوها في مكان وأقاموا الحراس من الجند حول السراى وما تهدم منها في الليل والنهار وطيروا الخبر بما جرى الى الخديوى فجاء ولى العهد ووالدته الى القاهرة على قطار مخصوص وذهبا من فورهما الى بناء السراى ولبثا هنالك الى قريب الغروب ثم عادا الى الاسكندرية ومعهما من حضر من الخدم والاتباع ✻ واختلف الناس في أسباب الحريق وكثرت الظنون وترامت الى أسمج المرامى فرسم الخديوى بتحقيق الاسباب قيل وبلغه مايقوله الناس فشدد على النائب العمومى في ذلك — واتفق أن وجد جماعة العسس في فجر الخميس ثانى عشرى ذى الحجة كيسا ملقى في الطريق مابين ترعة الاسمعيلية وكنيسة الافرنج فيها ففتحوه فوجدوا فيه جثة رجل من العامة مقطوع الرأس مجهول الاسم والبلد فحملوا الجثة ودفنوها وأبقوا الرأس على رصيف الطريق وحولها جماعة من العسكر تخفرها فلما طلع النهار وشاع خبر ذلك تسارع الناس على اختلاف طبقاتهم الى ذلك المكان ليروا الرأس واشتد الزحام حتى استدت منافذ الطرق وكثرت ضوضاء العامة وقالوا ان صاحب هذا الرأس هو الذى أحرق سراى عابدين وانه قد حكم بقطع رأسه وتشهيرها وكثر اللغط بذلك وانتشر في القاهرة ومصر القديمة فخاف أصحاب الشرطة العاقبة وحملوا الرأس فدفنوها وقد كانوا يريدون من عرضها على الناس معرفة صاحبها فلم يتمكنوا من ذلك وجد أصحاب الشرطة

في

فى البحث عن القاتل وتعقبه أينما سار وحيثما صار فعلوا أن القاتلين للرجل جماعة دعاهم الى فعل القتل الطمع فيما معه من المال * وتحرير الخبر أن القتيل رجل من المزارعين من أهالى سيوط وله عادة أن يأتى الى القاهرة فى مثل هذه الايام من كل سنة ليدفع أجرة أرض استأجرها من أحد أعيان القاهرة فجاء فى ذلك اليوم على سابق عادته فى احدى المراكب ومعه شئ من القمح والفول ليبيعه ويدفع ايجار الارض من ثمنه وبات ليلته تلك عند صاحب له من خفراء بيوت خطة الاسمعيلية فظن الخفير أن ضيفه يحمل معه ايجار الارض لصاحبها على عادته فى كل عام فلما نام الرجل آمنا مطمئنا فى حمى مضيفه انسل الخفير وعاد ومعه رجلان على شاكلته فانكبوا على الرجل وهو فى نومه وذبحوه ذبح الشاة وفتشوه فلم يجدوا معه شيأ لانه لم يكن الى تلك الليلة قد باع غلته فوضعوا جثته فى كيس وألقوها فى الطريق فقبض أصحاب الشرطة عليهم جميعا وألقوهم فى الحبس لينالوا جزاءهم

(مطلب) جبر البحر

ورسم الخديوى بأن يكون جبر الخليج أى جريان الماء فى خليج الخليفة المار بوسط القاهرة فى يوم الخميس ثالث عشر الشهر أى شهر المحرم من السنة وان ينوب عنه فى حضور المهرجان ولى عهده الامير عباس فقام الامير من الاسكندرية فى يوم الاربعاء على قطار خاص فكان كلما وقف القطار فى محطة أطلقت له المدافع اجلالا وتعظيما حتى وصل القاهرة وقد كانت محطتها مزدانة بالرياحين والازهار وغاصة بجماهير الامراء والوزراء والعلماء والموظفين والوجهاء وقضاة المحاكم الاهلية وأعضاء مجلس شورى البلاد وقد اصطفت الجنود ما بين مشاة وركبان فى ساحة المحطة مع بعض العساكر الانجليزية فلما نزل الامير من القطار أطلقت المدافع وصدحت الموسيقى العسكرية فسار بين هذا الجمع حتى ركب العربة والى يساره شقيقه الامير محمد على وركب أمامهما شوقى باشا ناظر الخاصة ودومرتينو باشا أحد رجال المعية وسارت بهم المركبة وخلفها الجند حتى اليخت الخديوى بالترسانة ببولاق مصر فأطلقت لمقدمهم المدافع من كل صوب فباتوا ليلتهم باليخت فلما كان مساء اليوم الثانى فى نحو العشاء الاولى ركب الامير وشقيقه الى مصطبة فم الخليج وقد أعدوا لهما بصدر المصطبة سرادقا من الديباج فرش بالطنافس وأنير بالثريات وصفت فيه الكراسى الملبسة بالحرير فجلس الامير واجتمع الناس فى تلك الساحة وفى الساعة التاسعة أحرقت الحراقات وأطلقت الاسهم النارية وجعل كبار القوم يدخلون على الامير ويهنؤنه الى نحو نصف الليل ثم ركب مع شقيقه وحاشيته الى قصر الجزيرة فباتوا وفى الصباح عاد الى المصطبة وكان قد اجتمع هنالك الوزراء وموظفو الحكومة بملابس الزينة والتشريف وبعد برهة لطيفة أمر الامير بقطع السد فجرى الماء بالخليج ونثرت على السد الدنانير فصاح الناس بأصوات الفرح ثم ركب فى قلة من الخدم والحشم الى مدينة حلوان فقضى فيها بقية يومه وعاد فبات ليلته فى اليخت الخديوى وأصبح يوم الجمعة فزار فى

مسائه المشهد الزينبي والمسجد الجامع والمسجد الحسيني ومن هنالك عاد الى البخت وفي يوم السبت قضى هو وشقيقه نهارهما بين المطرية والقبة والاهرام ومتحف الجيزة وسافرا في صبح الاحد عائدين الى الاسكندرية ووقف الشعراء على باب الأمير وامتدحوه بالابيات الابيات فمن قال في ذلك محمود أفندي حسني المعاون بمحافظة مصر قصيدة طويلة قال في مطلعها

وفي النيل بالأنجال يمنا لذا العام ولاحت شموس البشر للخاص والعام

وقال في المديح

صفات صفت من معدن المجد والتقى صفات أمير القطر والسودد النامي

وقال في الختام

جبرتم قلوب العالمين تكرما بتشريف جبر النيل في خير أيام

وقال في التاريخ

بدا لسعود القطر قلت مؤرخا وفي النيل بالانجال يمنا لذا العام

(مطلب) تحقيق ديون غردون باشا

وعادوا فاشتغل أصحاب الحل والعقد بعد خلع مصطفى رياض باشا من منصب الرئاسة بتحقيق ديون غردون لاصحاب الاموال بالسودان أيام حصار الخرطوم والنظر في شكاوى النازحين من الاقطار السودانية من الجند وأصحاب الوظائف والاهلين فقد كان قناصل الدول في سعي متواصل مع رجال الدولة في ذلك فرسم الخديوى في سابع عشرى المحرم وأول سبتمبر بتشكيل لجنة من البارون رشتوفن والكونت زالوسكي والمسيو لوشوفاليه والمستر مونى والمسيو ريوميدس والمسيو مورانا والبرنس موروزى وكلهم أعضاء صندوق الدين والمسيو روكاسيره مستشار قضايا الخزينة وأجاز لهم النظر في تلك الطلبات والحكم فيها نهائيا مع اعتبار صحة سائر الديون التى حكم بها قضائيا بأحكام صارت في قوة التنفيذ وكذلك الديون المعترف بها من الخزينة أنها صحيحة وأن ترد للخزينة جميع الاموال التى قامت بدفعها قبل تشكيل هذه الهيئة فاحصوا تلك الديون والطلبات فبلغت تسعمائة ألف وستة وتسعين ألفا وستين جنيها مصريا منها ستمائة ألف وسبعة وخمسون ألفا ومائتان وثمانية وخمسون للاجانب على اختلاف أجناسهم وثلثمائة ألف وثمانية وثلاثون ألفا وثمانمائة واثنان للأهالي على تباين مذاهبهم فعدّلوا فيها ماشاؤا وحكموا بما شاؤا واستدانت الخزينة لوفاء هذه الديون والمطالب قدرا من المال كبيرا فكان نصيب الاهلين وأصحاب الوظائف الديوانية من ذلك نصيب الثعلب من صيده مع الاسد وراحت أموالهم وأرزاقهم هباء كما راح دم غردون بين أصحاب المهدى هدرا

(مطلب) العثور على عبدالله نديم بعد هروبه

وشاع خبر عزم الخديوى على الحضور الى القاهرة من مصيفه بالاسكندرية وان بعض العيون أبلغت ديوانه الخاص بأن في بلد الجميزة التابعة لمديرية الغربية رجلين غريبين يقيمان بها منذ أمد بعيد وربما كان أحدهم عبد الله نديم صاحب الطائف وخطيب

عصاة

عصاة الثورة العرابية وصاحب تلك الاحوال والاهوال المشهورة فاهتم الخديوى بالامر وسير الى مدير الغربية مرسوما بتحقيق الخبر ومعرفة ذينك الغريبين فصدع المدير بالامر وسير جماعة من أصحاب الشرطة وبعض رجال العسس الى ذلك البلد فلم تكن الا أيام حتى عادوا فى ثانى ربيع الاول ومعهم عبد الله نديم بعينه ومينه وخادم له اسمه صالح أحمد وكان عبد الله فى زى الدراويش المولوية وعلى رأسه عمامة خضراء مكورة وقد أطلق لحيته فجعلته أقرب شبها بعرب العبابدة فكتم المدير عن الناس خبر ظهوره خوف الفتنة وطير الخبر بذلك الى ديوان الخديوى ونظارة الداخلية فاجتمع فى نظارة الداخلية عبد الرحمن رشدى باشا وزكى باشا وكتشنر باشا وتيكران باشا وأحمد شكرى باشا وتناجوا طويلا فى ظهور عبد الله نديم بعد اختفائه كل هذه المدة الطويلة وفى الخطة الواجب اتخاذها فى تحقيق أمر هربه واختفائه ومكثه كل هذا الزمان بالجيزة فلما كان عاشر الشهر قرر مجلس النظار انفاذ الامر الخديوى الصادر بنفى عبد الله نديم الى الشام واطلاق سبيل من ضبط معه وجاء الامر بذلك الى مدير الغربية وبأن يرسل عبد الله الى الاسكندرية ليسير منها الى الشام فأنزلوه فى قطار السكة الحديد تحرسه جماعة من الجند ومعاونى المديرية ومنعوا الناس من رؤيته وقد كانوا قبضوا أيضا على جماعة من أهل الجيزة ممن آوى اليهم عبد الله ومن كان يعرفه فعفا الخديوى عنهم وأطلقوا سراحهم ووصل عبد الله الى الاسكندرية فأنزلوه فى سجن الترسانة ليلته تلك ثم أصبحوا فنقلوه الى احدى بواخر الشركة الخديوية الذاهبة الى الشام وقد رسم الخديوى الى ربانها بأن لايضيق على عبد الله ولا يشوّش عليه وأن ينزله بأى بلد شاءها هو من بلاد الشام وأن يعطى له بعد نزوله شئ من المال للنفقة وتيسير المعيشة وأجاز الى عبد الله أن يشتغل بأى حرفة شاءها فأعجب الناس صنع الخديوى وتحدثوا به كثيرا وقد كان بعضهم يظن أن عقاب عبد الله نديم بعد العثور عليه لا يكون الا الصلب أو قطع يديه أو النفى من أرض الشرق بأجمعه فوقع غير ما كانوا يظنون واختار عبد الله أن ينزلوه بيافا فأنزلوه بها قيل ففتح مكتبا لتعليم الصبيان وأظهر الزهد والورع ما استطاع ورضى بالكفاف فعرفه بعض الناس وقربوه منهم فحسنت حاله

(مطلب)
فتح جسر قشيشة المستجد فى حفلة حافلة

وجاء الخبر الى الديوان الخديوى فى الاسكندرية بما بذله عمال الرى من جماعة الانجليز من العناية بضبط رى سائر حيضان مديريات الاقليم القبلى فى هذا العام وعدم تخلف شئ من الشراقى الا النزر القليل من أطيان الحوف الشرقى رغما عن عدم بلوغ النيل حده المعتاد فى الزيادة وهم يطلبون الاذن بفتح قناطر قشيشة المستجدة فى حفلة حافلة فرسم الخديوى بذلك فلما كان رابع عشر ربيع الاول من السنة وسابع عشر اكتوبر زين رجال الرى القنطرة بطولها والطريق الموصلة اليها بالاعلام والرايات ووضعوا رسم الخديوى فى مدخل القناطر من جهة ورسم ناظر الاشغال العمومية والكولونيل منكريف والنابغة الكولونيل روس مفتش الرى وجماعة المهندسين الذين باشروا عمل هذا البناء من الجهة الثانية

وقد اجتمع سائر الوزراء والكبراء وأرباب الوظائف وكبار المزارعين وطوائف المهندسين من أجانب ووطنيين وكثير من كتاب صحف الاخبار فلما أتت الساعة الحادية عشرة صباحا فتحوا خمسا من عيون تلك القنطرة فانحدر الماء انحدارا عجيبا ثم جلسوا على مائدة الطعام الذى أعده لهم المسيو زورو مقاول بناء القناطر فأكلوا جميعا وشربوا وعادوا الى القاهرة فى القطار الخصوصى الذى حضروا به ۞ وقد كان بناء هذه القناطر باشارة من الماجور روس فانه لما رأى الخطر المحدق بجسر سكة حديد الاقليم القبلى بسبب المياه التى تتسلط عليه أوان انحدار مياه الحيضان القبلية الى حوض قشيشة وعدم تيسر ضبط صرف مياه هذا الحوض ومياه سائر الحيضان التى تنصرف اليه وضرورة وجود الموازنة فى مياه الصرف حرصا على فائدة حيضان الاقليم البحرى وانتفاعه منها أشار بعمل تلك القنطرة فاتفقوا مع أحد المهندسين الاجانب واسمه المسيو زورو وشريكه المسيو بوتا فى أخريات جمادى الثانية سنة سبع وثلثمائة وألف هجرية وأوائل شهر فبراير سنة تسعين وثمانمائة وألف ميلادية على عمل البناء بمقتضى تخطيط وتقدير هندسى فأتموا بناءها وهى تشتمل على ستين عينا مزدوجة سعة الواحدة منها ثلاثة أمتار وتحتوى على صفى عقود أحدهما فوق الآخر والصف الاعلى منها أبواب أفقية من الحديد المتين والصف الاسفل أبواب من حديد أيضا مركبة فى دروندات سطحية ترفع بواسطة مرفعتين متحركتين على خط حديدى مستوى الدورند من الامام ووزن الباب الواحد من الابواب العليا نحو سبعة وأربعين قنطارا مصريا ومن الابواب السفلى نحو ثلاثة وعشرين قنطارا وكيفية استعمال هذه الابواب هى أنه قبل أن يأخذ النيل فى الزيادة ترفع سائر الابواب العليا منها وتجعل أفقية فتسد الفتحات العليا من القنطرة ثم ترفع البوابات السفلى فتدخل من العيون السفلى مياه النيل الى الحوض ومتى صارت مياه الحوض معادلة لمنسوب مياه النيل أقفلوا تلك البوابات لكى تعلو مياه الحوض مما يرد عليه من مياه الملق ومياه البحر اليوسفى فاذا زادت المياه بالحوض عن منسوب تمام الرى المعتدل فتحوا العيون السفلى مرة ثانية للتخفيف كلما دعت الحالة لذلك حتى يجىء وقت الصرف العمومى فيفتحون الابواب العليا كلها حتى اذا ماهبط منسوب الحوض هبوطا كافيا فتحوا العيون السفلى لسهولة صرف ما يكون قد بقى فى الحوض من المياه ــ وبصرف مياه قشيشة ابان الصرف يرتفع النيل عند القاهرة وتظهر فيه الزيادة ولكنها تختلف بحسب مناسيب مياه الحوض والبحر فى ابان الصرف ويبلغ عمق المياه المحصورة فى الحيضان الكائنة بين أسيوط وقشيشة ما بين عشرين وأربعين سنتى متر ــ وقد بلغ ما أنفق على هذه القناطر العظيمة زهاء اثنين وستين ألفا وستمائة وعشرين جنيها مصريا فجاءت من أجل الاعمال الهندسية وأكبرها فائدة اذ هى تصرف فى النيل مياه سلسلة الحيضان الكائنة بين أسيوط وقشيشة على مسافة مائة وسبعة وسبعين ميلا تجمع خمسمائة ألف وخمسة وخمسين ألف فدان وستمائة واثنين

وخمسين فدانا وأخبرنى جماعة من المهندسين بأن هذه القنطرة تصرف فى كل عشرين يوما ألفى مليون متر مكعب فى السنين التى يكون نيلها عاليا وألفا وخمسمائة مليون فى السنين التى يكون نيلها منحطا فيكون صرفها فى كل يوم مائة مليون متر مكعب فى الحالة الاولى ومائة وخمسين فى الحالة الثانية ﴿ قلت وكانوا قبل انشاء هذه القنطرة يردمون شاطئ النيل موضع القنطرة الآن ردما محكما ويغطون سطحه بالاحجار الضخمة أيام الشتاء وينفقون على ذلك الكثير من المال فضلا عن تسخير العدد العديد من أهالى مديرية الجيزة وأهالى مديرية بنى سويف وبعض أهالى مديرية الفيوم فاذا جاء الصيف وبدأ النيل فى الارتفاع أعادوا ردم ما يكون قد تشعث منه وبالغوا فى حراسته وأكثروا من التطواف عليه فى الليل والنهار وهكذا حتى تتم زيادة النيل وتمتلئ الحيضان القبلية فاذا جاء أوان صرفها الى قشيشة قام بحراسة ذلك السد مدير بنى سويف ومدير الجيزة وجماعة المهندسين والمأمورين والعدد العديد من أهالى البلاد القريبة والعمد والمشايخ فيضربون خيامهم على طول الشاطئ ويقضون ليلهم ونهارهم متأهبين لكل طارئ حتى يأتى الامر بكسر السد فيكسرونه مع التحفظ والالتفات فتنصرف منه مياه الحيضان كافة الى النيل وهكذا فى كل عام يصرفون على هذا السد الشئ الكثير من المال ثم هم يكسرونه ويلقون به فى اليم حتى انشؤا تلك القنطرة فتخلصوا من جميع تلك المخاوف * ولم يمض على ذلك أيام حتى شاع الخبر بعزم الكولونيل منكريف وكيل نظارة الاشغال والماجور روس صاحب الايادى البيضاء فى أعمال رى الاقليم القبلى على ترك منصبهما والعودة الى عاصمة الانجليز فأجمع الناس يومئذ على أن ذلك مترتب على ما هو واقع بينهما وبين السير بارنج من البغض والشحناء قالوا لان الرجلين من أقيال القوم وأصحاب البيوتات العالية والمعارف السامية فلم يخفضا جناح الطاعة العمياء الى ذلك الداهية ولم يطيقا الصبر على ذل النفس واكراهها على مالا ترضاه فبادرا الى اعتزال المنصب وترك السير بارنج وشأنه فى هذه الارض أرض العجائب يولى فيها المناصب العالية والوظائف السامية لمن يشاء من صنائعه والملتفين حوله من شبان الانجليز الاغرار حتى اذا قال لاحدهم قم قام أو افعل فعل بغير أخذ ولا رد * فلما كان أول ربيع الثانى من السنة وثالث نوفمبر اجتمع مجلس النظار بغير حضور الخديوى وقرر قبول استعفاء الرجلين وتعيين المستر جارستن لوكالة نظارة الاشغال والمستر فوستر لتفتيش رى الاقليم البحرى والمستر براون لتفتيش رى الاقليم القبلى والمستر ويلكوكس لتفتيش الخزانات المزمع انشاؤها باسوان عند قصر أنس الوجود والمستر الن يوسف لرى القسم الثالث واسمعيل بيك سرى لرى القسم الرابع — وأن يؤتى باثنين من الانجليز المقيمين بالهند ليتولى أحدهما رى القسم الاول وثانيهما رى القسم الثانى فتطير الناس من ذلك وقال جماعة منهم هى حلقة من سلسلة كثيرة الحلقات سيطوقون بها أعناق أهل البلاد ما دامت مصر مغنما والانجليز ساداتها وقال آخرون ربما كان فى تخلف

الخديوى عن الحضور بجلسة ذلك اليوم حكمة لا تلبث أن تظهر للعالمين يوم يعود الخديوى من مصيفه بالاسكندرية * فلما كان خامس الشهر أى شهر ربيع الثانى قام الخديوى من الاسكندرية على قطاره الخاص ومعه جماعة الوزراء ورجال ديوانه يريد القاهرة فكان لوداعه احتفال عظيم وكان فى انتظاره بمحطة القاهرة كافة الامراء من البيت العلوى والكبراء والعظماء والعلماء وأصحاب الوظائف العالية فلما وصل القطار أطلقت المدافع من قلعة الجبل وصدحت الموسيقى وهتف الجند هتاف الترحيب فركب عربته وعلى يساره الرئيس مصطفى فهمى باشا وخلفه طائفة الحراس وجماعة الفرسان وسار الى مقره بسراى عابدين وكان قد تم بناء ماتهدم منها وكمل زخرفها على أحسن ما يكون وفرشت بأحسن المفروش وأنفقوا على ذلك شيأ كثيرا جدا وكان يعمل فيها من الصناع والبنائين وأصحاب الصنائع الاخرى فى كل يوم ألفان وثمانمائة عامل مدة أربعة أشهر كاملة - وبالغ أهل القاهرة ومصر القديمة فى عمل الزينات والالعاب النارية اجلالا لمقدمه وغصت الشوارع كافة بالمتفرجين مشاة وركبانا وانتشر أصحاب الشرطة فى كل صوب ودرب فأقبل الخديوى عند الساعة الثامنة مساء فى عربته يطوف فى تلك الشوارع ويحيي الناس فانطلقت ألسنة العامة بالدعاء له وألسنة النساء منهم بالزغاريت وطافت كذلك خلفه والدة ولى العهد فى عربة وحولها جماعة الخصيان وأمامها طائفة من الفرسان ثم عادوا جميعا الى سراى القبة وأصبحوا وقد وقف على بابه الشعراء والقوالون وأتت الى ديوانه قصائد التهانى والمديح من كل صوب ومنها قصيدة طويلة لحسن بك حسنى الطويرانى يرحب فيها بالخديوى قال فى مطلعها

توسمت بدر الفوز من مطلع اليسر ... فبشرت آمالى بطالعة البشر

وفى مخلصها

ولولا الهوى لم أشك من غربة النوى ... ولولا سنا توفيق ما عدت للشعر
له موكبا بأس ولين كلاهما ... أقام المنى والأمن فى البر والبحر
أنام الورى فى أمنه وهو ساهر ... وأتعب منه النفس فى راحة القطر

وفى ختامها

وأرخ بأفراح القدوم زها الهنا ... وقل عاد توفيق المليك الى مصر

وقال فى ذلك أيضا محمود افندى حسنى أحد معاونى محافظة مصر

بحسن عود الخديوى أنس مصر بدا ... وكوكب البشر فى أفق الهنا صعدا

وقال فى الختام وهو بيت التاريخ الهجرى

لسان اسعادها نادى يؤرخها ... بحسن عود الخديوى أنس مصر بدا

ثم شفعها بتاريخ هجرى آخر قال فيه

بالصفو عاد الخديوى والانس بالبشر عرّف
باقطر فاهنأ وأرخ باليمن توفيق شرف

ومضت أيام الافراح والزينات والناس متشوفون الى معرفة ما سيفعله الخديوى بعد تسليم زمام الرى الى جماعة الانجليز واطلاق أيديهم فى شؤونه فلم تكن الا أيام قلائل حتى قرر مجلس الوزراء مرتبات أولئك القوم فكانت ألفا وخمسمائة جنيه لكل منهم يتقاضاها من الخزينة فى كل سنة وستمائة فقط الى اسمعيل سرى بيك فصادق الخديوى على ذلك ورسم به فاختلط حينئذ الحال على الناس وقالوا حكمة الله سبحانه فى ذلك فوق كل حكمة * فلم يكن الا يوم أو بعض يوم حتى جاء الخبر من مدير البحيرة بأن قد حدث قطع عظيم بساحل ترعة المحمودية عند جسر حجر النوتية وان الماء قد انحبس عن الاسكندرية وانهال على ملاحة مريوط وأن سبب ذلك اهمال أصحاب الرى ردم الجسور وتقوية منافذ الماء وجاء الخبر كذلك من محافظ الاسكندرية بانحسار الماء عن الآلات الرافعة لسقاية البلد وان الاهالى فى قلق واضطراب لاسيما الاجانب منهم وقد تزاحمت العامة على صهاريج أصحاب البيوت القديمة بالبلد ليستقوا منها فاهتم أصحاب الحل والعقد لذلك اهتماما كبيرا وقام مدير البحيرة ومحافظ الاسكندرية وسعد الدين باشا رئيس مفتشى الداخلية والمستر فوستر أحد أولئك الانجليز الى مكان القطع وحشدوا الانفار وجمعوا بعض الصناع واشتدوا فى العمل وأكثروا من المعدات وظلوا على هذه الحال أياما وانحدار الماء من القطع على أشده حتى تمكنوا بعد العناء الكبير من سده ورجعت المياه الى مجاريها ولم يمض على هذا الحادث الا بضعة أيام حتى جاء الخبر من مدير أسيوط بأن قد جرت المياه الى حوض الزنار وغمرتها ثانية بعد انقضاء أوان صرف ذلك الحوض فأغرقت مزروعاته وأماتتها جميعها وان قد قامت ضجة أصحاب تلك المزروعات ورفعوا الدعاوى أمام جهات الاختصاص على أصحاب الرى ووردت شكاوى القوم على ديوان الخديوى تباعا وكلها مفعمة بقارص الكلام ومر الملام والتألم من فعال أصحاب الرى الذين تسلموا زمامه فى هذه الايام فأكبر الخديوى الامر وكلم الرئيس مصطفى باشا فهمى فى ذلك فأوعز الرئيس الى مدير أسيوط بملاطفة أصحاب تلك المزارع وأن يخفف عنهم ما استطاع حتى يتروّى فى الامر ۞ ثم كلم أصحاب الرى فى شكوى أهالى حوض الزنار وتوجع من فعال المكلفين بصرف مياه الاحواض فقام على الفور الماجور براون مفتش رى الاقليم القبلى الى أسيوط وغاب أياما ثم عاد ورفع الى نظارة الاشغال تقريرا قال فيه — ان الضرر الذى أصاب الزروعات بذلك الحوض ليس بالامر العظيم لان المزروعات تتراوح ما بين مائتين الى ثلثمائة فدان وان أصحاب الرى لم يخطؤا فى عملهم عند فتح الحيضان للصرف وان الاهالى كسروا سدا لم يشر أصحاب الرى قط بكسره فكان فعلهم سببا لرجوع المياه الى الحوض يعنى حوض

الزنار وغرق تلك المزروعات * وعلم مدير أسيوط بما قاله الماجور براون فأنكر عليه مقالته وأثبت أن الضرر ألم بمزروعات زهاء ثلاثة آلاف فدان وقال ان الاهالى لم يكسروا شيأ من السدود وان الخطأ كل الخطا فيما فعله أصحاب الرى * وعلت ضوضاء أصحاب حوض الزنار وأنذر بعضهم نظارة الاشغال بطلب التعويض على يدى المحاكم المختلطة وقام أصحاب صحف الاخبار يقرعون جماعة الانجليز ويرجعون على أصحاب الرى منهم باللائمة ويقولون انهم أغرار يجهلون طرق الرى المصرى ولا يعرفون شيأ من وسائل الحيلولة بين النافع منها والضار وان اعطاءهم تلك الجماكى الفادحة ضرب من الجور ومحنة كبرى لا دواء لها وصاح لصيحتهم هذه أيضا بعض أصحاب صحف الفرنسيس فأكبر الرئيس مصطفى فهمى باشا أمر ذلك وعقد جلسة مجلس النظار وتناجوا طويلا وبعد أخذ ورد قرروا تشكيل لجنة من محمد سعد الدين باشا وعامر عبد البر بيك واسمعلوم بيك لتحقيق تلك الشكاوى وتقدير ما أصاب أصحابها من الخسائر واقامة الدليل على ما اذا كان الخطا الناجم عنه تلك الخسائر واقعا بفعل أصحاب الرى أو الاهالى أوغيرهم فساروا الى أسيوط وقد أحس السير بارنج بما وراء ذلك فعمل على استرضاء الكولونيل مونكريف والماجور روس واستبقائهما فى منصبيهما حولا آخر وسعى فى ذلك ما استطاع حتى قبلا البقاء عاما أو بعض عام فغيروا حينئذ من ذلك النظام وقللوا من أهمية وظائف جارستن وبراون وفوستر وغيرهم الى حين ثم خففوا من مطالب أصحاب حوض الزنار واسترضوهم بشئ من المال فسكتوا وانقطعت ضوضاؤهم فبات هذا الحادث بعيد ذلك فى خبر كان

(مطلب) ما أبطل من المغارم والمكوس

ورأى منلر وكيل المالية عند عمل ميزانية الخزينة لسنة احدى وتسعين وثمانمائة وألف ميلادية أن فى مجموع موارد ايراد الخزينة شيأ كثيرا من المغارم والمكوس التى ما أنزل الله بها من سلطان وهى غل فى أعناق الفقراء من أهل البلاد فأخذ منذ ولايته يدبر الامر على ابطالها ويعمل على تغيير نظام بعض تلك الموارد وما زال دائبا على ذلك وبعض كبار الانجليز يعانونه حتى تمكن فى أخريات ربيع الثانى من السنة وأخريات سبتمبر من اعفاء بيوت القاهرة ومصر القديمة التى لا يتجاوز ايجارها فى السنة خمسمائة قرش من الاتاوة السنوية ومن ابطال رسوم القيدية على رخص تعاطى صناعة الطب والولادة والجراحة الصغرى ومهنة القوابل والمحلات المعدة لبيع العقاقير والمواد الاقرباذينية والجواهر السامة ورخص الصنائع وأنقصوا ثمن الملح كى لا يتعذر على الفقراء وأهل القرى استعماله بدلا من الملح البرانى الذى هو الملح الجبلى وأبطلوا دائرتى بلدية مصر والاسكندرية وخصصوا دخل دخولية الاسكندرية لمجلس بلديتها وأبطلوا كذلك السخرة والعونة وما يتبعها من البدل النقدى وتكفلت الخزينة بالنفقة على خفارة الجسور والاعمال المستعجلة التى تلزم عند حصول خطر من فيضان النيل ففرح الناس بذلك واستبشروا بانفراج الازمة بعد أن استحكمت حلقاتها

(مطلب) ماوقع من التبديل فى قضاة المحاكم الشرعية

والى هذا الحين أى الى شهر ربيع الثانى من السنة كان المستشار القضائى قد كاد ينجز ما أراده من القلب والابدال فى هيئة القضاء والقضاة بالمحاكم الاهلية وأعضاء ورؤساء النيابات كما تقدم القول فلما كانت أخريات الشهر عمد الى التغيير والتبديل فى قضاة المحاكم الشرعية أيضا فمد يده الى محاكم الجيزة واسيوط وبنى سويف والغربية والشرقية وسيوه وسواكن وتناول كذلك بعض وظائف الافتاء بالمديريات ثم انقلب على محكمة الاستئناف الاهلية فتنحى عبد الحميد صادق باشا عن مركز رئاستها فتولاها ابراهيم فؤاد بيك رئيس محكمة مصر الابتدائية واشتد المستشار فى عمله وأكبر فى القلوب هيبته وتمكن من منصبه أى تمكن واستبد بالامر حتى بلغ الغيظ من حسين فخرى باشا معظمه واتفق أن أحسن الخديوى على ابراهيم فؤاد بيك برتبة الباشوية عقب توليته رئاسة محكمة الاستئناف فقال الناس انه سيخلف حسين فخرى باشا فى منصبه وشاع الخبر بذلك وأصبح عند نقلة الاخبار فى حكم الشئ المقرر لان السواد الاعظم كان يتوقع ذلك من يوم دخول حسين فخرى باشا فى عداد وزارة مصطفى فهمى باشا لبغض جماعة الانجليز له وكرههم لبقائه فى مسند الوزارة وسعيهم وراء خذلانه * فلما كان صبح الثانى عشر من جمادى الاولى من السنة أى رابع عشر ديسمبر ذهب السير بارنج الى مقر الخديوى بعابدين ولبث بحضرته ساعة ثم انصرف ثم عاد ولبث برهة أخرى ثم انصرف فاستدعى الخديوى فى الحال جماعة النظار وعقد مجلسهم فتداولوا معه فى كيفية افتتاح الجمعية العمومية لمجلس شورى البلاد حسب العادة فى كل سنة ثم انفض مجلسهم وذهب كل منهم الى ديوانه ولم يؤذن الظهر حتى جاء الطلب من الديوان الخديوى الى حسين فخرى باشا فقام من فوره وتمثل بين يدى الخديوى فقال له الخديوى ان الرئيس مصطفى فهمى باشا قد شكا الىّ منذ أيام مما هو بينكما من الخلاف والتباين فى الرأى ويقول انه يستحيل اتفاقه معك وقد أتانى اليوم وعرض علىّ خصلة من ثنتين اما أن يخلع نفسه ويترك منصب الرئاسة واما أن تخلع أنت من مسند الحقانية . فقال يا مولاى انى لا أريد أن أكون حجر عثرة فى سبيل أعمال حكومة سيدى وها أنا قد خلعت نفسى وتركت منصبى فليقبل سيدى منى ذلك فقال الخديوى قد قبلته فانصرف حسين فخرى باشا من حضرة الخديوى وأرسل فى طلب ماله فى الديوان من الاوراق الخصوصية فأتوه بها — حدثنى أحد المقربين من باب الخديوى قال — خرج حسين فخرى باشا فى ذلك اليوم من حضرة الخديوى وهو يجر أذيال الغيظ وبعض اصبع الندم وكلنا يعلم أن ما بدا من الرئيس مصطفى فهمى باشا من الشكوى وما قاله من استحالة الاتفاق مع فخرى باشا انما هو مكره عليه من أسكوت ومدفوع اليه من السير بارنج وأن خلع فخرى باشا وتنحيته عن منصبه أمر متفق عليه من قبل وقد ضربوا له أجلا هو تغيب أسكوت بالاجازة فلما غاب أسكوت وحان الاجل المضروب استقدمه الخديوى وقال له تلك المقالة التى لم تخف مغامزها على أحد من العالمين — قال ولقد كان الاجدر بحسين فخرى باشا أن لا يبقى فى هذا المنصب

المحفوف بصنوف المكاره الى أن يكرهوه على التخلى عنه فان ذلك يحط من الكرامة وتأباه الشهامة — قال — وبعد فقل لى بحقك من ذا الذى يرجو السلامة لجماعة النظار من مثل هاته الضربة اذا لم ترض جماعة الانجليز طاعتهم أولم تعجبهم شمائلهم * ان الناس طرا يعلمون أن سياسة القوم فى هذه الايام هى تمزيق شمل أصحاب الوظائف من أهل البلاد كل ممزق حتى يتم لصاحبهم ما طفق ينادى به على رؤس الملا من أنه لا رجال فى مصر يحسنون التصرف فى مناصب البلاد اهـ

واتفق أن أحمد بليغ بيك وكيل رئاسة محكمة الاستئناف العليا أدب فى ليلة اليوم الثانى لخلع حسين فخرى باشا مأدبة لابراهيم فؤاد باشا بمناسبة ارتقائه مسند الرئاسة للاستئناف ودعا فى تلك الليلة جماعة القضاة وبعض رؤساء النيابات فأكلوا وشربوا وبينماهم حاصلون على أكمل ما يكون من أسباب الأنس والصفاء اذ دخل عليهم كحيل باشا باشكاتب مجلس النظار وأبلغ ابراهيم فؤاد باشا خبر ما رسم به الخديوى من توليته مسند نظارة الحقانية بدلا من فخرى باشا فشكر وانطلق لسانه بالدعاء فهنأه الحاضرون وأصبح فسار الى مقر الخديوى بعابدين فهنأه الخديوى بالمنصب فقبل يده وكان ذلك اليوم وهو خامس عشر جمادى الاولى وسابع عشر ديسمبر من السنة موعد افتتاح الجمعية العمومية لمجلس شورى البلاد فرسم الخديوى الى ابراهيم باشا بالذهاب الى قاعة الشورى مع جماعة الوزراء فقبل يده وانصرف * وركب الخديوى كذلك عربة التشريف وعلى يساره ثابت باشا كاتب الديوان الخديوى وأمامه وخلفه جماعة الحرس وطوائف الجند وسار الى قاعة الشورى فلقيه النظار وجماعة أعضاء شورى البلاد فدخل وجلس فى احدى غرف المكان فقدموا اليه عمد البلاد المنتدبين لعضوية الجمعية العمومية فحلفوا بين يديه يمين الامانة اذ كانت هذه أول مرة لانعقاد الجمعية العمومية بعد الانتخابات الاخيرة ثم دخل الخديوى القاعة الكبرى وخلفه النظار فخطب على الاعضاء الخطبة المعتادة ثم قال ان الغرض من اجتماعكم فى هذه المرة هو النظر فى مشروع تقليل فيات ضرائب الاطيان ولا يخفاكم أن هذا المشروع انما هو مقدمة لتخفيف الضرائب كافة وأملى أنكم تنظرون فيه بما يكون صالحا للبلاد وأهلها وأسأل الله أن يوفق الجميع الى ما فيه السداد والخير فعند ذلك صاح جماعة الاعضاء بالدعاء له فخرج ولبث أصحاب الشورى مع جماعة النظار يتكلمون فيما هم بصدده وفى ثانى يوم سادس عشر جمادى الاولى رسم الخديوى بتولية بليغ بيك رئاسة محكمة الاستئناف بدلا من ابراهيم فؤاد باشا وأحسن عليه برتبة الباشوية وعاد أسكوت من غيبته فرحا جذلا بما ناله من الظفر والغلبة على حسين فخرى باشا وقد خلا له الجو فجعل يصفر وينقر ما شاء أن ينقر ولم تكن الا أيام قلائل من عودته حتى رسم الخديوى أيضا بتولية اسمعيل صبرى بيك رئيس محكمة الاسكندرية وكالة محكمة الاستئناف العليا فلم يبق فى نفس أسكوت بعد ذلك حاجة الا قضاها فأقصى عن سائر المحاكم صنائع مصطفى

رياض باشا وصهره محمود باشا وخلع من وظائفها جماعة من أهل الدعارة والنفاق وألبس القضاة والنواب وأعضاء النيابات شارات مخصوصة عند جلوسهم للحكم بين المتقاضين وهى زنار من الحرير فى عرض قبضة اليد يجمع بين اللونين الاحمر والاخضر اللذين هما لونا الراية المصرية العثمانية فكانوا اذا جلسوا فى كراسى القضاء تقلدوها على صدورهم وألبس كذلك جماعة المحامين كساء من الجوخ الاسود على شكل الفروجيات أو أقبية العلماء وأصحاب حلقات التدريس بالجامع الازهر يلبسونها عند الوقوف فى موقف المحاماة وقد كانت هذه الشارات والاكسية من مبتكرات شفيق بيك منصور على عهد ولايته وكالة النيابة العامة ولكنه رحمه الله لم يقدر على اخراجها الى عالم الظهور لممانعة مصطفى رياض باشا فى ذلك أيام رئاسته فأهملت حتى جاء أسكوت فجعلها ركنا من أركان نظامه الجديد فى محاكم البلاد * وكما بسط أسكوت يده على سائر المحاكم فغير وبدل وأدنى من قضاتها من شاء وأقصى منهم من شاء وسنّ لهم السنن وقنن القوانين فعل كذلك كتشنر باشا فى نظام الشحنة ومن فيها من الجند ومقدمى الجند وقد بالغ فى الحيطة وإحكام التدبير لعله يتمكن من قطع دابر اللصوصية وارهاب أهل الشقاوة وتأمين السبل لابنائها فكان له فى كل يوم منذ تولاها شأن جديد وعزم لا يفله الحديد وكان لا ينكف عن التجوال بين الاقاليم القبلية والبحرية ليتحقق من كفاءة خفر البلاد وعسسها وسير مشايخ القرى وعمدها وما يحتاجه الأمن فيها من الوسائل والاسباب وقد غير وبدل كثيرا من ضباط الجند وسنّ لهم السنن وقنن القوانين الصارمة وسنّ كذلك قانونا للعطلة من أهل البلاد والاجانب سكان المدن والمتشردين من الفئتين لا يقدر على العمل به الا الجبار العنيد فلما أخذ أصحابه فى تنفيذه والعمل به استعصى عليهم الحال وأشكل المآل وخشن قناصل الدول للرئيس مصطفى فهمى باشا بسببه المقال وظلوا على ذلك أياما حتى أوعز الرئيس بعد أخذ ورد مع أعضاء شورى البلاد باهماله والكف عن مشاغبة الناس الى حين * وكذلك فعل المستر منلر وكيل نظارة المالية فانه لما ساءه مافعله مصطفى رياض باشا أيام رئاسته من التشديد على مأمورى الحكومة بجمع الخراج فى غير آجاله وبثه أصحاب الجباية فى شرق البلاد وغربها لتحصيل البقايا القديمة والمتأخرات العاطلة وكان ما كان بينه وبين مصطفى رياض باشا من الوحشة والجفاء واستفحال العداء الى الحد الذى بيناه فى محله عمد من ذلك الحين الى البحث والتنقيب عن حالة موارد الخزينة وما وصلت اليه حالة أهل البلاد مع المرابين وتجار الارياف من جماعة الروم وغيرهم وفى أسباب استدانتهم وما عليهم من الديون المتراكم بعضها فوق بعض وفى كيفية حبس أرزاقهم وزروعاتهم وعقارهم تحت أيدى أولئك القوم رهنا على تلك الديون كل ذلك ليبرهن الى صاحب سياستهم على أن فلاحى البلاد فى أشد ما يكون من حالات العسر والافلاس وعلى أن البلاد فى أحرج المواقف وأدناها من مهواة الدمار وعلى أن فعال رياض باشا يومئذ كانت ضربا من العسف بأهل

(مطلب) مافعله كتشنر باشا من النظام

(مطب) مافعله المستر منلر وكيل المالية

البـلاد وتغريرا بأصحاب الوظائف الديوانيـة من جماعة الانجليز فرفع الى صاحب سياستهم صحيفـة مطولة فى معنى ما ذكر وتناقـل ما فيها أصحاب صحف أخبـارهـم الكبرى كالتيمس والدالينيوز وغيرهـما وتعقبوا عليها بشئ من قارص الكلام وقد أحصى منلر فى صحيفتـه تلك حساه الله ما على أهل البلاد على اختـلاف درجاتهـم من الديون المسجـلة بسجلات المحاكم المختلطة وحدها لاولئك القوم الى أخريات سـنة تسـعين وثمانمائة وألف ميـلادية فبلغ عشرين ألف ألف وستا وثمانين ألفا ومائة واثنين وثمانين جنيها مصريا وان ما حبس لوفائها من الاطيـان بلغ ألف ألف وثلثمائة ألف وأربعمائة فدان ومن العـقار تسـعة آلاف وخمسة وتسعين عقـارا هـذا عدا ما استدانوه فى سنة احدى وتسـعين الحالية وعدا ما هو مسجل بالمحاكم الشرعية وفضـلا عن المبالغ المتعامل بها بين الاهالى والأفراد الأخر من الاجانب ونزلاء البلاد مما لا ينقص عن الخمسة آلاف ألف وخمسمائة ألف جنيه وأطنب منلر فى المقال وأكثر من البرهان على وجوب تعديل الخراج والتعجيل بالتخفيف عن أهالى مديريتى الحدود واسوان وشاع خـبر ذلك بين الناس ففرحوا ومدحوا منلر وقالوا « اذا تزاحمت الخيل فمن سعد الركاب » وجعل منلر من هذا الحين يكثر الترداد مابين مجلس النظار ومجلس شورى البلاد حتى تم له ما أراده من التخفيف عن تينك المديريتين وتقررت قاعدة ذلك بينهـم

(مطلب) مرض الخـديوى توفيق باشا ووفاته

واتفق أن ذهب السـير بارنج فى سابع عشرى جمادى الاولى من السـنة أى تاسـع عشر ديسمبر الى سراى عابدين ليكلم الخـديوى فيما وقع الاتفاق عليـه مع منلر فعـلم من رئيس التشريفات أن الخديوى بعد أن كان على عزم الانحدار من قصره بحلوان الى عابدين على عادته فى كل يوم وقد أخـذ رجال ديوانه الاهبـة لذلك جاءهم الخبر بعـدم قدرته على الحضور وأنه يشكو منذ صباح اليوم ذات الصـدر فعاد السـير بارنج الى مقره ولبث يومه ينتظر الخـبر فاذا بهم أرسـلوا يقولون انه قد شـعر فى ذلك اليوم بقشعريرة أتعبته ولكن الاعراض ليست شـديدة وليس فيهـا ما يدعو قط الى القلق * فلما كان اليـوم الثـانى أى ثامن عشرى جمادى الأولى سار السـير بارنج وجماعة الوزراء وبعض الكبراء الى حـلوان للسـؤال عن صحتـه فعلمـوا فى طريقهـم بأنه انحـدر من حـلوان الى القـاهرة فعادوا ودخلوا عليـه بمقره بعـابدين فشكا اليهـم ما يلاقيه من أعراض النزلة وبات ليلتـه تلك بسراى القبـة ثم عاد فى ثانى يوم الى حلوان فلم يصـلها حتى اشـتدت به الاعراض فلازم مخدعه ولم يخرج منه واسـتدعى طبيبيه الخصوصيين وهما سالم باشا سالم وعيسى باشا حمدى فأثبتا أنه مصاب بالنزلة الصـدرية فى درجتها البسـيطة وبقى على هـذه الحـال الى صباح خامس جمادى الآخرة وكان ديوانه قد أعلن عزم الخـديوى على أن يأدب فى هـذا اليوم أى خامس جمادى الآخرة مأدبة يحضرهـا ثلاثون مدعوا من الأمراء والعظماء ومقـدمى العسكرين المصرى والانجليزى وقد كانوا أخـذوا الاهبة والاستعداد لذلك فلما اشـتدت به

علته شاع الخبر بأن قد أبطلت تلك المأدبة وتأجلت الى يوم الثلاثاء حادى عشر جمادى الآخرة ثم جاء الخبر الى القاهرة بتقدمه الى العافية وزوال البأس عنه وتكامت صحف الاخبار فى ذلك وهنأه بعضهم بشئ من مليح القول فلما كانت عشية ذلك اليوم أحس الخديوى بألم شديد فى الصدر فاستدعى طبيبه عيسى باشا وشكا اليه ألمه فجس الطبيب نبضه فاذا به على أشد ما يكون من السرعة وكذلك الحرارة على أشد مايكون فسهر عليه ليلته تلك وبعد نصف الليل بقليل ظهرت عليه اعراض أخرى خطرة فاستدعوا الطبيب سالم باشا فحضر فى نحو الساعة الثالثة بعد نصف الليل فرأى أن الحالة قد بلغت أشدها وأن الخديوى على شفا جرف الموت فطيروا الخبر الى صاحب شركة سكة حديد حلوان باعداد قطار خاص يستحضر بعض الاطباء من القاهرة فلم تكن الا ساعة أو بعض ساعة حتى حضر الطبيب كانوس والطبيب هيس فلما عاينا حالة الخديوى قالا انه فى النفس الأخير وأن لامفر من القدر المحتوم وكان الى هذه الساعة قد اشتدت به علة ذات الرئة فامتنعت بذلك كل وسيلة ولم يبق لهم قط حيلة

ان الطبيب له فى الداء مخبرة   مادام فى أجل الانسان تأخير
أما العليل فان حانت منيته   تاه الطبيب وخانته العقاقير

وقضى الاطباء الليل كله فلم تنجح لهم طريقة وبقى الحال هكذا الى الساعة الثالثة من مساء الخميس سابع الشهر فكبر الخطر وشاع الخبر وطلب الاطباء جماعة آخرين ليشاوروهم فى الامر فحضر الطبيب أمبرون والطبيب بنيت والطبيب ويلد فلما شاهدوا الحالة قالوا لم يبق أمل فى النجاة فقد استعصى الداء ولا ينفع الدواء وكان لما وصل الخبر الى القاهرة بطلب هؤلاء الاطباء تسارع كبار قناصل الدول والامراء من البيت العلوى والكبراء وعظماء القوم الى حلوان * ومنذ الساعة السادسة غاب العليل عن الصواب ولم يعد يعى وسأله الطبيب كانوس عما يؤلمه فلم يجبه بشئ سوى هذه الكلمات « هاتوا لنا الضوء » فتحقق جماعة الاطباء أنه قد دخل فى غمرات النزع الأخير واستمر النزع الى الساعة السابعة وفيها أسلم الروح فقام الصياح من كل صوب وعلت أصوات الجوارى والخدم والحشم والأتباع بالصياح والعويل فهب الناس من نومهم وتسارعوا الى رحبة القصر وكلهم باك منتحب ووصل الخبر الى القاهرة اذ طاف جماعة الخدم والخصيان على بيوت الامراء يخبرونهم بالحادث وانتشر نعيه وشاع فى كل صوب ودرب فهرع الناس على اختلاف طبقاتهم الى حلوان وعقد النظار جلسة مجلسهم فى صباح الجمعة بحلوان فجلس بينهم السير بارنج قنصل جنرال الانجليز وتناجوا فى ذلك طويلا وقد شاع أنهم لم يقروا على تبليغ الخبر من طريقه الرسمى الى دار السلطنة العثمانية ولكن الخبر وصل الى المابين والباب العالى من مصادر أخرى كثيرة ثم انعقد المجلس مرة ثانية بسراى عابدين فجلس معهم غرانفل باشا سردار الجيش المصرى وكتشنر باشا صاحب الشرطة فقرروا فيما بينهم كيفية سير الجنازة

والاتيان بجثة الفقيد من حلوان ثم قرروا أيضا تبليغ الخبر الى الباب العالى قيل وقد كان تأخرهم عن ذلك مترتبا على انتظار مجيء الاذن من صاحب السياسة الانجليزية

ونشروا فى ضحوة اليوم بالجريدة الرسمية النشرة الآتية * الجناب الخديوى محمد توفيق باشا توفى الى رحمة الله تعالى فى ليلة الجمعة ثامن يناير سنة اثنتين وتسعين وثمانمائة وألف فى الساعة السابعة وسبع عشرة دقيقة افرنكى ليلا بسراى حلوان * وقد أعلن بذلك سمو البرنس عباس باشا حلمى تلغرافيا (بويانا) وينتظر قدومه لمصر بوابور مخصوص وسيدير أعمال الحكومة الى حين حضور سموه مجلس النظار تحت رئاسة سعادة مصطفى فهمى باشا

الاحتفال بجنازة جنتمكان الخديوى سيكون فى الساعة الثانية على الحساب الافرنكى بعد الظهر من هذا اليوم يعنى الجمعة ثامن شهر يناير والجنازة ستشيع من سراى عابدين

وايذانا بالحزن ستقفل كافة دواوين الحكومة والمصالح العمومية يومى السبت والأحد تسعة وعشرة يناير

وانتشر الخبر وذاع ونقله البرق الى الاسكندرية وسائر المدن والبلدان فى داخلية القطر ودار السلطنة العثمانية والممالك الاورباوية فى تلك الليلة فأصبحوا يوم الجمعة وقد رفعت الاعلام مجللة بالسواد وألبسوا مصابيح الغاز بالشوارع لفائف سوداء وأناروها فى النهار وأقفلت سائر دواوين الحكومة والبنوكة والمخازن والدكاكين والمدارس والمكاتب ورفع قناصل الدول أعلامهم منكسة وجاء الى القاهرة كثير من وجهاء البلاد والعمد والاعيان وفى الساعة الاولى من بعد ظهر اليوم حملوا نعش الفقيد من قصر حلوان فى قطار مخصوص فسار به الى القاهرة وكان قد ركب فى القطار الأمير حسين أخو الخديوى ورجال الديوان الخاص وكثير من كبار الاهلين والاجانب ممن جاؤا حلوان فلما وصل القطار الى محطة باب اللوق استقبل النعش الغازى مختار باشا مندوب دار السلطنة «وقد كان مقيما فى بلدة مغاغة فى الاقاليم الوسطى تبديلا للهواء فوصله الخبر ليلا فانحدر الى القاهرة مسرعا» واستقبل النعش مع الغازى مختار باشا جماعة الوزراء ورجال الديوان الخاص والعدد العديد من الوجهاء والعظماء وأجلة القوم فحمل النعش جند الحرس وسار المشهد الى سراى عابدين بين الزحام وولولة النساء من الشبابيك وأسطحة الدور فلما وصلوا الى السراى قابلهم العلماء والرؤساء الروحيون وقناصل الدول وأعضاء صندوق الدين ورؤساء المصالح الأميرية وكبار الجند وأصحاب البنوكة والتجار وأرباب الاشارات وأصحاب الطرق وعدد لا يحصى ولا يحصر من الاهالى والقادمين من الاقاليم القبلية والبحرية ثم ساروا بالمشهد فمشت أمامه جمال الكفارة ثم طائفة من الجند الهجانة ثم جماعة من الفوارس المصرية وأمامهم رجال الموسيقى ساكتة زرق الملابس والجند منكسو السلاح ثم جماعة من أصحاب المدافع ومعهم بعض المدافع الكبار ثم مقدمو العساكر المصرية مشاة وركبانا ثم حملة المصاحف والذاكرون ثم مشايخ الطرق والسجاجيد وأرباب الاشارات وبأيديهم البيارق

ثم تلاة البردة ودلائل الخيرات ثم تلاة الاحزاب والاوراد ثم نقباء الاشراف والاشراف ثم مشايخ التكايا ودراويشهم ثم طوائف طلبة العلم بالجامع الازهر ثم تلامذة المكاتب الاهلية والمدارس الأميرية وطلبة مدرسة دار العلوم والمدارس العالية الخصوصية ثم تلامذة المدارس التجهيزية والابتدائية ثم التجار والامراء والكبراء من الاهلين والاجانب ثم موظفو النظارات والمصالح فى العاصمة وغيرها من مدن القطر ثم رجال المحاكم المختلطة والاهلية والافوكاتية والمحامون ومديرو صندوق الدين والسكك الحديدية والدائرة السنية والدومين ثم الرؤساء الروحيون وخدمة الدين ثم كبار قناصل الدول ثم النظار ثم الامراء من البيت العلوى والغازى مختار باشا ورجاله ثم العلماء ثم حملة القماقم والمباخر ثم أولاد الكتاتيب يحملون المصاحف ثم النعش وحوله جماعة من العسكر وطائفة من أصحاب الشرطة وخلفه جماعة أخرى من الجند المصرى ثم فريق من فرسان الشرطة وعلى النعش سيف الفقيد وبعض ماعنده من النياشين

وخرج المشهد من سراى عابدين الى شارع عبد العزيز الى العتبة الخضراء الى الموسكى الى السكة الجديدة ومنها الى المشهد الحسينى فوضعوا هنالك النعش وصلوا عليه ثم حملوه الى القرافة فوصلوها قبيل الغروب فدفنوه وفرقوا ساعة دفنه الصدقات وعاد الجمع الى رحبة عابدين حيث نصبت السرادقات وأوقدت المصابيح فجلسوا للعزاء كما جلسوا للعزاء أيضا بسراى القبة وقصر حلوان فلم تكن الا ساعة بعد جلوسهم حتى ورد الخبر من الأمير عباس الى الرئيس مصطفى فهمى باشا يقول — ان خبر وفاة سيدى ووالدى قد أدهشنى وهذا مصاب عظيم ليس بالنسبة لعائلتى وحدها بل بالنسبة لجميع القطر المصرى أيضا فتى وصلتنى منكم الاخبار الاكيدة عن الوابور الذى سيصير تحضيره فى تريستة أسافر بلا تأخير وأخبركم ثم بالتلغراف عن ساعة السفر وانى على يقين من أن الاعمال ستستمر سائرة الى حين وصولى على أحسن محور بهمة عطوفتكم ورفقائكم اه

وجلسوا للعزاء ثلاث ليال متواليات ثم جعلوا يجلسون فى مساء كل يوم خميس الى تمام أربعين يوما — وفى ضحوة تاسع جمادى الآخرة ورد على السير بارنج اشارة من ملكة الانجليز وامبراطورة الهند بطلب موافاتها بتفصيل مرض الخديوى توفيق باشا وأسباب الوفاة قبل فارسل السير بارنج خبرا مفصلا للحادث وجاءت بعد ظهر اليوم الى الغازى مختار باشا والرئيس مصطفى فهمى باشا ارادة سلطانية مؤداها — انه لما وصل الخبر بوفاة المغفور له محمد توفيق باشا اجتمع الوكلاء فى الحال وقرروا أن يسند مسند الخديوية المصرية الى الأمير عباس ووكالة أشغال الحكومة الى الرئيس مصطفى فهمى باشا وبقية النظار الى حين حضور الخديوى عباس وانه برفع هذا القرار الى أعتاب المتبوع الاعظم صدرت الارادة الشاهانية بالموافقة عليه — فعقدوا فى الحال مجلس النظار وقرروا تبليغ هذه الارادة السلطانية الى سائر قناصل الدول وأن يوالوا الاجتماع فى كل يوم صباحا حتى يصل الخديوى الجديد

واختلفت الاقوال فى مرض الفقيد وفى كيفية العلاج وأسباب الوفاة وما فعله الطبيب عيسى باشا وقد أجمع جماعة الاطباء الذين شاهدوا الفقيد قبل موته بقليل أن عدم العناية بالعلاج واهمال مراقبة سير المرض كانا سببا فى تسمم دم المريض واختلاط علته الاصلية التى هى النزلة الصدرية بعلل أخرى أودت بحياته رحمه الله فطلب بعض الامراء من البيت العلوى وقبل السير بارنج تحقيق أسباب الوفاة ومقاضاة الطبيبين فسأل الرئيس مصطفى فهمى باشا الطبيب هيس والطبيب كانوس أن يبديا رأيهما فى ذلك وكلم والدة ولى العهد فى هذا الامر فلم توافق على مقاضاة الطبيبين ورفع الطبيب هيس والطبيب كانوس تقريرا قالا فيه - فى الساعة الرابعة الافرنجية من صباح الخميس سابع يناير الجارى دعينا للتوجه الى حلوان على قطار مخصوص لاجل عيادة الجناب العالى فوصلناها منتصف الساعة السادسة الافرنجية من الصباح واستقبلنا هنالك سالم باشا الطبيب الخصوصى بالحضرة الخديوية فأعلمنا بالايجاز أن الجناب العالى أصيب منذ ثمانية أيام بالنزلة الوافدة وكان سير المرض الى البارحة عاديا وان الحمى لم تشتد وطأتها الا فى الليلة الماضية وأن الجناب العالى كان يعانى الارق وضيقا فى التنفس وبعض الالم فى الجانب الايسر وانه لاجل تخفيف الالم أعطيت له حقنة من المورفين ولما دخلنا بعد هذا التعريف الى غرفة المريض اندهلنا اذ رأيناه فى حالة موجبة للقلق الشديد وكان منظره على العموم متغيرا ولونه أصفر وبصره شاخصا وكان متكئا على أذرعة جاريتين وظاهرا عليه شدة ضيق التنفس ولم يكن يميز من حوله وكان يشكو على الخصوص عدم ابصاره للضياء وبالفحص وجدنا أن الحمى بلغت درجة أربعين وان ضربات النبض سريعة وضعيفة جدا ويمكن ايقافها بسهولة ثم فحصنا الجسد فوجدنا ارتشاحا شعبيا رئويا زائدا فى الرئة اليسرى ونزلة شعبية عامة فى الرئة اليمنى ومع كون حالة الرئتين هى بهذه الشدة فانها ليست كافية لاحداث الاعراض المخيفة التى كانت ظاهرة ولذلك وجهنا نظرنا الى فحص الوظائف الاخرى وخصوصا الكليتين وباستيضاحنا من الاطباء المعالجين عن حالة البول كان الجواب أن لا شئ فيه خارجا عن الحالة المعتادة وعند ما أتممنا الفحص أمرنا بعلاج موافق لما ظهر لنا من التشخيص وشددنا فى التنبيه على اتباعه ثم رجعنا الى مصر لاخذ الاحتياطات اللازمة لمرضانا والعودة الى جنابه العالى فلما رجعنا الى حلوان فى الساعة الواحدة الافرنجية بعد الظهر حصل لنا مزيد الكدر لما رأينا حالته قد أخذت فى الخطر الشديد بكيفية ظاهرة وان الاعراض التى فى جهة الصدر قد اشتدت وفوق ذلك ان الاعراض المخيفة قد وصلت الى درجة ينقطع معها الامل ودلنا ذلك دلالة واضحة على تسمم الدم بالبول فألححنا فى طلب البول فعلمنا حينئذ ان جنابه الفخيم لم يبل منذ الليلة الماضية فأدخلنا المجس وتحصلنا بواسطة القسطرة على كمية صغيرة من بول أسود قاتم فحللناه تحليلا كيماويا اتضح منه وجود كمية عظيمة من الزلال فى البول فقادنا ذلك الى أن نعرف بلا ريب طبيعة الداء وهو ان الجناب العالى بعد اصابته بالنزلة

الوافدة

الوافدة أصيب بالتهاب رئوى عفن مصحوب بالتهاب وريدى عفن أيضا وانه فى هذه الحالة لم يبق لنا أمل ولكن لم يمنعنا ذلك من اتخاذ كافة التدابير والوسائط الفعالة حسب ما يقتضيه فنّ الطب وان لم تجد نفعا وعزيد الاسف علمنا انه لا بد من الوفاة التى حصلت فى الساعة السابعة وربع مساء اه فتحقق الناس طرّا أن الوفاة كانت بسبب اهمال الطبيبين وخصوا الخطأ كل الخطا بالطبيب عيسى باشا لاخفائه خبر احتباس البول عن الطبيب سالم باشا بسبب مرض المثانة المزمن وتحدثوا فى ذلك كثيرا فكان سمر ليلهم وحديث نهارهم وأرجف بعضهم بأن سيقبض على الطبيب عيسى ويودع فى ظلمات الحبوس حتى تتم مقاضاته ثم شاع بعد أيام ان والدة ولى العهد لم تسمح بذلك وأنها اشارت على الرئيس مصطفى فهمى باشا بالكف عن متابعة هذا الحادث فانكف اذ لم يبق الا التفويض لله الواحد القهار الذى لا يزول ولا يحول وهو وارث الارض ومن عليها واليه المآب

قلت * وهو محمد بن اسمعيل بن ابراهيم بن محمد على باشا الكبير ولد فى يوم الخميس عاشر رجب سنة تسع وستين ومائتين وألف هجرية ولما شب أدخل مدرسة المنيل فتعلم فيها العلوم الاولية ثم انتقل الى التجهيزية فتلقى بها علومها واللغات العربية والافرنسية والانجليزية والتركية والفارسية ولما بلغ التاسعة عشرة تولى رئاسة جلسات المجالس المخصوص فى سنة ثمان وثمانين ثم تولى نظارتى الداخلية والاشغال العمومية ثم قلد رئاسة مجلس النظار قبل توليته الخديوية بقليل وفى سنة تسعين ومائتين تزوج بابنة الأمير إلهامى بن عباس باشا الاوّل والى مصر وفى سنة احدى وتسعين ولد له بكره الاوّل الأمير عباس وفى سنة ثلاث وتسعين ولد له ابنه الثانى الأمير محمد على وفى سنة أربع وتسعين ولدت له الأميرة خديجة هانم وفى سنة ثمان وتسعين ولدت شقيقتها الأميرة نعمت هانم وتولى الخديوية المصرية فى يوم الخميس سابع رجب الفرد سنة ست وتسعين ومائتين وألف هجرية أى سابع عشرى يونيه سنة تسع وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية وكان عمره يومئذ سبعا وعشرين سنة هجرية الا ثلاثة أيام وأقام فى هذا المنصب ثلاث عشرة سنة الا شهرا ومات فى ليلة الجمعة لسبع مضين من جمادى الثانية سنة تسع وثلثمائة وألف فكانت حياته كلها أربعين سنة هجرية الا ثلاثة وثلاثين يوما — وكان رحمه الله شفوقا على رعيته يواليهم فى شدائدهم و يعفو عنهم كثير التساؤل عن حالهم وما هم عليه فى إبان الشدة والرخاء وكان بارّا بذوى قرابته مع رأفة وحنان وشفقة وعطف وأمانة ومروءة وعدل واستقامة وحلم وتواضع وخشية وتقوى وجلال وانفاق فى الخير وتصدق فى السر والعلن ولكنه قليل الحظ غير موفق الطالع فكانت ولايته كلها مشاكسة ومعاكسة ومحاسدة ومنافسة ان سرت يوما أحزنت أياما وان صفت عاما كدرت أعواما وهو مع ذلك طويل الروح كثير الجلد والصبر شديد التوكل حسن الاعتقاد فى وحدانية الله تعالى وقدرته فلم يكن يظهر ملالا ولا ضجرا ولا قنوطا بل كان دائما هادئ اللب ساكن القلب حتى وافاه القدر المقدور وقد رثاه الشعراء وأبنه

الفصحاء وبكاه أصحاب الصحف على اختلاف مذاهبهم فمن قال فى ذلك صاحب المؤيد

هى الدار ما الآمال الا فجائع عليها وما اللـذات الا مصائب
فكم سخنت بالأمس عين قريرة وقرت عيون دمعها الآن ساكب

يا لله أىّ خطب نزل وأى مصاب حل وأى صاعقة صعقت القلوب وأى حادثة شقت لها الجيوب بل ما شأننا وقارعة الخطوب قد اندكت لها جوانب الجنان وفاجعة القلوب قد تولت على خاطر كل انسان وخارت القوى وحارت النهى ووهى العزم وخان الجلد فانا لله وانا اليه راجعون نعم آمنا بقول القائل

ألا كل شئ ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

وأىّ نعيم بعد نزول هذا الخطب المدلهم الذى قضى على كل جارحة بالثكل فلا عجب انّ ناحت الثاكلات وأوحت الى المحاجر كيف تجود بالعبرات فانا لله وانا اليه راجعون

يا لله بما ذا نسمى الداهية الدهياء والمصيبة العظمى التى فاجأتنا بها حوادث الايام فقضت باليأس على الأنام وعلى العبرات بالانسكاب وعلى المهج بالأنين وعلى الأحداق بالرنين كما قيل فى المثل استراحة المنكوب ولكن أين الاستراحة وقد اغتالتها أيدى الحادثات فلتذرف الماء فى بلاء راحة ذائب الجوانح

فلقد أبى لك أن تودع خلة رثت وكان حبالها أرماما

كذلك تكون فى آمالك يا طالب الراحة فى هذه الحياة الدنيا وموضوع سعادتها قد تولى

وهل تستطيع النادبات الى العلا تقول يفدّى الملك بعد الذى حلا
وفى نعيها نعى الملوك بأسرهم ودون الذى تنعيه كم حادث جلا

فيامصيبة الملك والدين والدنيا بعد أن قضى توفيق أمير البلاد المحبوب نحبه وعاجلته المنون فانا لله وانا اليه راجعون

وقال صاحب الاهرام

كذا فليجلّ الخطب وليفدح الامر فليس لعين لم يفض ماؤها عذر

طلع على مصر صباح اليوم بما أظلم ضحاها وودّ الناس معه لو طال ليلها وامتد دجاها ينعى الى رجالها خطب فقيد تقومت لمنعاه الاضالع وفقد عظيم ارتجت لوقعه القلوب واستكت لمنعاه المسامع فقامت تندب بفقد اميرها الكريم على توفيقها المحبوب وتبكى على عزيزها العظيم بما استنزف شؤون المدامع واستدرّ حبات القلوب وكيف لايبكى الوطن على من كان له أبا شفوقا بل كيف لا تسفح عين العدالة والمكارم على من كان لها خدنا ورفيقا بل كيف لايندبه وطن ساوى بعدله بين جميع سكانه حتى ذهب كريما مندوبا ينشده الحال بلسانه

فكنت لناشيهم أبا ولكهلهم أخا ولذى التقويس والكبرة ابنما

فلتبك عليك البلاد ياتوفيقها عدد انعامك وعدلك وتنتحب عليك قلوب أبنائها بمقدار

ما خزنت فيها من حبك وفضلك فانها لو بكتك بما لك فى نفوسها من الفضل والمكارم اذن ما رأينا مقلة الا وهى دامعة ولا مدمعا الا وهو ساجم فعليك رحمة ربك من ذاهب ذهبت الاكباد على آثاره وفقيد فقدنا الصبر من بعده فحل محله شديد تذكاره وكريم تولت المكرمات لما مات وواعظ مرشد هدى الناس فى الحياة حتى هداهم فى الممات فأى آثار فضلك لاينذبون بعدك وأنت لم يطلبوا منك محمدة وعدلا الا وجدوهما عندك بل أى فضائلك ينساها الناس وقد كنت لهم أبا رحيما كما أنت أبو العباس أمحاسن فضلك أم مآثر عدلك أم فيض مراحمك أم غزارة مكارمك أم حسن أخلاقك أم كرم اعراقك

أى الفضائل منك نندب فقدها   يا ابن المكارم يا أبا العباس
فلقد حويت من المحاسن مثل ما   جمعت جميع الناس لفظة ناس

فقل لمصر الآن أن ترثيك بعد مدائحها ولشعرائها أن تجود فى تأبينك ان كنت أبقيت لغير الحزن مجالا فى قرائحها وللاقلام أن تبكيك بدمع محابرها وللكتاب أن تتفجع عليك بما يسوّد وجوه دفاترها فلقد طالما بيضتها بمحاسن أعمالك ومعاليك فصار يحق لها أن تلبس أثواب الحداد من خط مراثيك فانك الراحل الذى لم يجعل مطاياه غير القلوب والمودّع الذى لم يترك للناس زادا غير أكباد ملتهبة ودمع مصبوب فنحن نودعك بما أبقى فقدك فى نفوسنا ان كان فيها بقية ولا نزال نذكر رزيتنا فيك مع أمثالها ان كان يوجد مثلها رزية رحمك الله رحمة واسعة عداد حسناتك وأجزل أجرك وأجر البلاد فيك بعدد مبراتك وخيراتك فأنت الكريم فى حالى فقدك ووجودك ويومى حياتك ومماتك

ثم نتقدم بعدك بالعزاء الى صاحبة الطهر والعفاف والنجلين الكريمين اللذين يعز علينا أن نعزيهما بك بعد أن كنا نهنئك ببدريهما الكاملين ولكن مثل بيتك الكريم من حمل المصائب ومثل آلك المصون من عودته على التقاء الخطوب واستقبال النوائب فانا عهدنا الصبر على قدر قلب الثاكل كما عهدنا الاجر فيه على قدر الفقيد الراحل فأيهما اعتبرنا فهم أصحاب الصبر الكريم والى أيهما ذهبنا فأنت الفقيد الراحل العظيم نسأل الله أن يعوضهم وايانا جميل الصبر وأن يكتب لك بما تقدم من عدلك مزيد الاجر فانك لم تخل قلبا من المسرة فى حياتك ولم تحزن نفسا قط الا فى مماتك

ومن يحزن الناس فقدانه   يسر ملائك دار النعيم

هذا ما سمحت به بادرة الحزن وأجازه على القلم وقع المصاب وهول الفجاءة ووسعه مقام الجريدة وضيق الوقت والصدر منهما أضيق والقلب أصغر وأحرج ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم

يادهر بع رتب المعالى بعده   بيع السماح ربحت أم لم تربح
قدم وأخر من تشاء فانه   مات الذى قد كنت منه تستحى

وقال صاحب النيل

قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شئ قدير

سمو ولى نعمتنا البر الرحيم بنا المشفق علينا خديونا المعظم بالامس محمد توفيق الاول وهو اليوم الخديوى المرحوم هو اليوم الفقيد العزيز هو اليوم ساكن الجنان فى جوار رضوان عليه الرحمة والرضوان ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم

قد مات توفيقنا والدائم الله فليهرق الدمع ولتستتبع الآه
مات الخديوى الرحيم البر فطرته قديسة ملكيات سجاياه
قضى فياحسرة الملك العظيم له ومات فلتندب العلياء علياه
فازت بطلعته الاخرى و ياأسفا أضحت تعزى به من بعد دنياه

إى وربك ان خديوينا العزيز أمير مصر المحبوب توفيق الاول قد فارق الدنيا مأسوفا عليه بقلوب الامة مبكى الشمائل بدموع الوطن انتقل الى جوار مولاه طيب ثراه وأكرم فى الفردوس مثواه فترك القلوب تسامى الجيوب فى الانشقاق وودع العيون المندفقة تجارى المهج المحترقة فالتقى النهران دم يراق ودمع مهراق وحق لهول هذا اليوم وناهيك به يوم الفراق

بكينا خديوينا العزيز وانما بكى كل مصرى أميرا ووالدا
ولو أن فى الاقدار مايبلغ المنى تمنى بنوها أن يكونوا له الفدا

يعز على الاقلام التى كانت تستمد الخير من آثار حكمته أن تبتلى بصب دموع المداد يوم رحلته رحيل مدهش وسفر بعيد وأوب غير منتظر الى يوم موعود رسم وداع لكن الى الابد موكب حافل لكنه مأتم سيار وحزن قهار وقلوب فى نار وعقول فى انبهار ودهشة محرقة وموقف عظيم « الوداع الوداع » أيها المولى المنعم البر بالامة الرحيم بالملة المشفق بالكل الذى لا نشكو منه الا يوم هذا الفراق الأليم فالوداع الوداع يامن سهر لياليه لتنام الرعية فى مهد أمانه وأجهد أيامه ليرغد عيش الامة تحت ظلال فضله واحسانه لقد قضيت عمرك العزيز وحياتك الشريفة وأوقاتك الناضرة وشبيبتك الوضاء فى توخى الصوالح الوطنية والمصالح الجدية والمنافع العمومية لم تلهك الدنيا بزهرتها ولم تلفتك جلالة الملك عن التماس رضا الخالق بالاحسان الى الخلائق فلم يسؤهم منك الا حزنهم عليك وبعدك عنهم وهم فى حاجة اليك « الوداع الوداع » يامن لم نر من حكمه غير الحكمة ولا من سيرته غير الرحمة فكنت القريب من الضعيف الرفيق بالبائس العافى عن المسيء المتفضل على المحسن المعزز لأبناء الوطن المحب لخير البلاد المعين على السراء والضراء فلنعم سيرتك الجميلة وسريرتك الطاهرة وأخلاقك الكريمة ونفسك الراضية ووجهتك المرضية

شيم ينقضي الزمان وتبقى ... وثناء تبلى الليالي ويبلى

ومحاسن كلما ذكرناها بكيناها وفواضل كلما تأثرناها تأثرنا بها فعليك الرحمة والرضوان وغاية الحديث في عالم الامكان كان وسبحان من يبقى وكل شئ فان نودعك يا خديوينا العزيز بقلوب واجفة وعيون واكفة وأفكار مضطربة مضطرمة وأذهان مستوحشة مندهشة ونسأل الله العظيم أن يجعل لك الفردوس مقرا والنعيم المقيم مقاما والرضا الالهي قرينا انه هو الرؤوف الرحيم الى آخر ماقال

وقال صاحب الفلاح

انا لله وانا اليه راجعون من مصاب ألم وخطب أعم داهمنا مساء هذا اليوم والجريدة تحت الطبع فقصف منا الضلوع وأهمى منا الدموع وأجمد الدم في العروق وابتلانا بالصدوع وأجج فينا نار حزن لا يطفئها ماء جفن ماطر وأنزل في صدر كل سامع رزأ للقلوب فاطر لا ينشرح معه خاطر وذلك بينما كانت الآمال مستبشرة بزوال ما مازج ولي النعم من الاعتلال والاخبار تفد الينا مبشرة بتقدم صحة سموه في خطة الاعتدال الى الكمال اذ فجعتنا أخبار عصر هذا اليوم بأن صحة سموه عن الاعتدال تحولت واضطربت وتغيرت فاستدعى كبار الأطباء للاسراع الى حلوان ليتبصروا في هذا الشان فما ذاع هذا الخبر وكلمح البصر انتشر إلا وكنت ترى القلوب راجفة والخواطر واجفة والكل في اندهاش وتلهف الى أخبار تردّ الى الارواح الانتعاش — الى أن قال ولكن أبى الدهر الخؤون الا أن ينفذ مطالب المنون ويحرق القلوب ويدمي العيون فانه لم تأت الساعة السابعة وسبع عشرة دقيقة مساء الخميس إلا ونعب غراب الكهرباء بنعاه فكان أشأم على النفوس من البسوس اذ نعى من قضى وهو حيّ بذكره ومضى وأثره مخلد في قطره ولي نعمتنا «محمد توفيق» الأوّل خديوي مصر الذي لم يماثله مماثل في هذا العصر فياله من خبر تهون دونه الخطوب فانه فتت الاكباد وأذاب القلوب — الى أن قال ونعق بوم التلغرافات الى كل الجهات للقيام بمراسيم التعزية والتأسف ولسان الحال يقول هذا المقال

أصوت صاعقة أم نفخة الصور ... فالارض قد ملئت من نقر ناقور
أصاب منها الورى دهياء داهية ... وذاق منها البرايا صعقة الطور
تصدّعت قلل الاطواد وارتعدت ... كأنها قلب مرعوب ومذعور
أبي بوجه نهار لاضياء له ... كأنه غارة شنت بديجور
أم ذاك نعي لتوفيق الزمان ومن ... قضت أوامره في كل مأمور
معلي معالم دين الله مظهرها ... في العالمين بسعي منه مشكور
وحسن رأي الى الخيرات منصرف ... وصدق عزم على الالطاف مقصور
بآية العدل والاحسان ممتثل ... بغاية القسط والانصاف موفور

مجاهد في سبيل الله مجتهد   مؤيد من جناب الله منصور
براية رفعت للمجد خافقة   تجرى على علم بالنصر منشور
يا نفس ما لك في الدنيا مخلفة   من بعد رحلته عن هذه الدور
وكيف تمشين فوق الارض غافلة   أليس جثمانه فيها بمقبور
حق على كل نفس أن تموت أسى   لكنّ ذلك أمر غير مقدور
يا نفس فاتئدى لا تهلكى أسفا   فأنت منظومة في سلك معذور
اذ لست مأمورة بالمستحيل ولا   بما سوى بذل مجهود وميسور
سبحان من ملك جلت مفاخره   عن البيان بمنظوم ومنثور
لا زال أحكامه بالعدل جارية   بين البرية حتى نفخة الصور

فيالها من ليلة ليلاء قضتها مصر بين التلهف والتحسر والبكاء وتنفس الصعداء وقل ما تشاء عن حلوان التي جللها الحزن والهوان مع وفرة الناس للقيام بمراسيم احترام ساكن الجنان فأعظم به من مؤلم ملم وخطب عظيم مدلهم شقت له الجيوب بل تمزقت له القلوب قد محا سطور الصبر من الصدر وظهر به ما في اللوح مكتوب واقشعرله الوجود اذ قيل مات توفيق مصر والجود

فانفض يديك من الدنيا وساكنها   فالارض قد أقفرت والناس قد ماتوا
فأكرم به ميتا كثر احسانه   وقلد أعناق الجود امتنانه   الخ

وأرسل تيكران باشا متولى نظارة الخارجية في ثامن جمادى الآخرة وتاسع يناير الى جميع قناصل الدول يقول — انه ليحزنني أن أنبئكم بوفاة مولاى الفخيم الجناب الخديوى محمد توفيق باشا توفى الى رحمة الله في مساء اليوم السابع من هذا الشهر يعنى شهر يناير بقصره الحلوانى اثر مرض لم يمهله سوى بضعة أيام وانى بمواصلتكم بهذا المصاب الذى حل بالبلاد أتشرف بابلاغ جنابكم أن الجناب الخديوى المعظم عباس حلمى باشا قد تبوأ الأريكة الخديوية خلفا لساكن الجنان والده الفخيم طبقا للفرمانات الشاهانية العلية اه

وقد رثاه رحمه الله وهنأ ولده العباس بالولاية العلامة الفهامة اسمعيل صبرى باشا وكيل نظارة الحقانية حالا فقال

نحن لله ما لحى بقاء   وقصارى سوى الاله فناء
نحن لله راجعون فمن ما   ت ومن عاش ألف عام سواء
يفرح المرء في الصباح وما يعـ   لم ما ذا يكنه الامساء
ومتاع الدنيا قليل وما يلـ   هو به المرء من حطام هباء
زهد الناس في الحياة ملم   روّعتنا بهوله الانباء

قصر حلوان كنت أنضر قصر فيه يحلو ويستطاب الهواء
كنت ذا هيبة يحاذرها الدهـ ـر وتكبو أمامها البأساء
كيف أصبحت مستضاما وللخطـ ـب الى ركنك المنيع ارتقاء
ما كذا عهدنا بعزك ترميـ ـه الليالى أو يعتريه انقضاء
كان بالامس فى ذراك أبو العبـ ـاس تحيا ببشره الاحياء
فطوت برده الخطوب وكانت قبل تشقى ببعده وتساء
ويح من شيعوه قد أودعوا القبـ ـر كريما يبكى عليه العلاء
وارتضوا بالبكا وما الحزن الا أن تسيل القلوب والاحشاء
عاش فينا عذب البشاشة والاخـ ـلاق تروى به النفوس الظماء
وتولى وفى الصدور من الوجـ ـد عليه ما ليس يرويه ماء
عطلت مصر من سناه كما قد عطلت من حليها الحسناء
كل خطب فى جنب خطبك يامصـ ـر يرجى للناس فيه عزاء
ما يقول الراثون فى فقد توفيـ ـق وما ذا تحاول الشعراء
والرزايا فى بعضها يطلق القو ل وتعيا فى بعضها البلغاء
ان مولاك كان أحسن من تز هى بأنوار وجهه البطحاء
كان للتاج فوق مفرقه ضو ء لديه تحقر الاضواء
كان يجلو دجى الكوارث ان حلـ ـت برأى تعنو له الآراء
كان أدرى الملا بكسب ثناء آه لو خلد النفوس ثناء
آل توفيق الكرام البسوا الصبـ ـر رداء فالصبر نعم الرداء
أنتم الراسخون فى علم ما كا ن فقولوا من ذا عداه الفناء
أين قوم شادوا البلاد وسادو ها وكانت تهواهم العلياء
ملكوا الارض حقبة ثم أمسوا وهمو فى بطونها نزلاء
سنة الله فى البرية لم يسـ ـتثن منها الملوك والانبياء
لا أعزيكمو وأنى لقولى أن تعزى بمثله الحكماء
احمدوا الله فى العشية والاصـ ـباح فالبؤس قد تلاه هناء
ان يكن من سمائكم خر بدر ما حوت شبهه بدورا سماء
فلقد أشرقت لآخر أنوا ر بها يصدع الدجى وضياء
قد أرانا العباس بعد أبيه كيف يلقى العظائم العظماء
فاجتليناه طود مجد وسورا دار منه حول البلاد بناء
حبذا منه همة تترك الصعـ ـب ذلولا وعزة قعساء
وثبات فى طيه وثبات للمعالى وحكمة وإباء

وصفات عن كنهها يعجز الوصـ ـف وفيها يستغرق الاحصاء
دام يكسو الزمان حسنا ويسدى أنعما لا يشوبهن انتهاء

ورثاه العلامة البحر الفهامة حفني بيك ناصف القاضي بالمحاكم الاهلية حالا فقال

شقوا القلوب وغادروا الأطواقا وذروا الدموع تقرح الآماقا
ودعوا النفوس تصبها أجفانكم دمعا وتسكبها دما مهراقا
ذوبوا من الاحزان لا تبقوا على أكبادكم واستنفدوا الأرماقا
قد فارق الدنيا العزيز محمد يا لهف نفسى من يطيق فراقا
خطب دوت فى الخافقين رعوده فترعا وطبق نعيه الآفاقا
غشى الأنام ولم يكن متوقعا كالسحب صيفا أرسلت ابراقا
وأصمت الاسماع رنة وقعه والحزن أولى الألسن استغلاقا
ودجا الزمان فكل نور حلكة ونبا المكان فكل رحب ضاقا
ناشدتكم يوم ارتحال محمد من فى الرعية لم يود لحاقا
هل تعلمون معمرا أو ناشئا لم يوله نبأ الردى تصعاقا
هل تعلمون معمرا أو ناشئا لم يوسع الصبر الجميل طلاقا
أى امرئ لم يسقه يوم النوى كأسا من الروع المرير دهاقا
لا كان يوم سار فيه نعاته يلقون فى مهج الورى احراقا
هى ساعة راش القضاء سهامه فيها وحل بنا البلاء وحاقا
أودى فأى فريصة لم ترتعد أم أى قلب لم يكن خفاقا
بدر عراه وهو فى استقباله خسف وصادف فى الكمال محاقا
حملته أعناق الرجال وطالما بنواله قد طوق الاعناقا
تركوه عمدا فى الظلام ولم يكن يرضى الشموع لبيته إشراقا
سكن القبور وكم قصور شادها وأوى الى غرف وحل طباقا
ان فاق فى المجد الملوك فانه أربى عليهم فى العلى انفاقا
خلق كما سرت الشمال ورقة تحكى الشمول لطافة ومذاقا
وبديهة تقف الروية دونها والسمع يلقى عندها الأرواقا
وعبارة تشفى الغليل ومنطق بمجامع المعنى يحيط نطاقا
وتساؤل يذر المعمى واضحا وطلاقة تولى النهى اطلاقا
خفق السماح عليه حتى انه لم يخش طالب جوده اخفاقا

لا يرهب الاقلال بعـد لقائه عاف ولا يتهيب الاملاقا
ان قيـل عفو فهو بحر زاخر لا يعـرف الجانى له أعماقا
طبعت سجاياه عليـه أما ترى فى كل بادرة له مصداقا
أوقيـل دين فهو حافظ عهـده كم شـد منـه عرى ومد رباقا
أو قيـل اصلاح فذلك صـنعه فى مصر أعتـق أهلها اعتاقا
لدغت أفاعى الحـادثات عينها دهـروا فكان لسمهـا ترياقا
رأب الصدوع بحكمة منه وقد ملئت طباق بلاد مصر شقاقا
وأقر فيها العـدل بعد تزعزع والحـق أولى أمره احقـاقا
ونفى الضلال فما تصدى باطلا الا وأزهـق روحـه ازهاقا
أولى المعارف فى البلاد عوارفا والعـلم بعـد ذبوله ايراقا
مهد الطريق لمن تقلد بعـده وهـدى السراة وفتح الاغلاقا
فسروا بنبراس الذكاء ليغمضوا عمن تطلـع نحوها أحـداقا
ما وفـق الله امرأ فى أمـة الا وكان لنفعها منساقا
تربت عين الدهر غيب فى الثرى هذى الخصال وتلكم الأخلاقا
سبق الكرام الى النعيم وعهدنا فيـه لكل عظيمة سـباقا
وسرى الى الرب الرحيم ملاقيا بين المـلائكة الكرام رفاقا
عن فضله حدث فطيب حديثه يشفى المحب ويطرب المشتاقا
ياراحلا عنا تركت نفوسـنا تشكو الاسى وتساور الاشواقا
لم يبق منا الحـزن الا مهجة حـرّى والا مـدمعا دفاقا
خطفتك خاطفـة المنيـة فجأة منا وغادرت الجسـوم رقاقا
لم تنتثر شهب السماء ولم يطل مرض ولم يبـد الغـراب نعاقا
ويد الردى سرقتك ليـلا ليتهم حـذوا بقطع يديهـم السراقا
بحماك حراس وحولك عسكر وصـنوف أبهـة فكيف أطاقا
إنا عـلى الود الذى مكنتـه منا وعنـه لا نحول فـواقا
لا كان من ينسى الولاء لسـيد يوما وينقض بعـده الميثـاقا

وقال العلامة وهي بيك ناظر المدارس القبطية على منوال العزاء والهناء

مهادك فى حسن العزاء ممهد وجدك ملحوظ به الكل يشهد
وبدر علاك اليوم أسفر ضوءه فأودى به ليـل الأسى يتبدد
وعادت بك العليا الى مصر راقيا على الطائر الميمون والعود أحمد
ودانت لك الاقدار حتى كأنها بأمرك تشقى من تشاء وتسعد

فوال بنى الآمال واصدع بما تشا | فانك فى كف الزمان مهند
وفوّض الى الله الامور فانه | اليه تعالى فى العظائم يعمد
ومن عجب أن الحوادث جمة | ولكنّ سهم النائبات مسدّد
أساءت الى المعروف فينا صروفها | وما الأجل المحتوم الا محدّد
وقد كان توفيق البلاد مملكا | حديث حلاه للمكارم يسند
تحلى به جيد الفضائل ناشئا | وأوتى منها فوق ما كان يعهد
وساس شؤون الملك خير سياسة | بها الفضل يحيا والفخار مؤبد
فلا غرو أن ساء الأنام فراقه | وقد أصبحت نار الجوى تتوقد
ولما رقت شوقا الى الله روحه | وأتهم فينا المرجفون وأنجدوا
تلافيت أمر القطر خوف تلافه | وأنت بتوفيق الاله مؤيد
وجاءك مرسوم الخليفة مؤذنا | بأنك مشروع الوراثة أوحد
وآلت الى عليائك فى العز دولة | اذا سيد منها خلا قام سيد
وها أنا أهديك الثناء مرجا | على الوالد المبرور وهو الممجد
وأنشد يا مولاى فيه مؤرخا | توفى توفيق العزيز محمد
سنة ١٣٠٩

رعاك إله العرش جل ثناؤه | وألهمك الصبر الذى ليس ينفد
ولا زلت مشكور العناية دائما | وذكرك فى تاريخ مصر مخلد

وقال أحد الأدباء ولم نقف على معرفة اسمه

من عادة الدهر بعد الحزن ايناس | وما على الدهر فى أفعاله باس
يوماه يوم به للهم قد مزجت | كأس ويوم هنا تصفو به كاس
فاضرب عن الحزن صفحا وامح سيرته | فهكذا الدهر ناس بعدهم ناس
واستقبل الامر بالتعزيز من ملك | فى قطر مصر فأنت الروح والراس
وكن على الله فيما شئت معتمدا | تطب لعليائك بالتأييد أنفاس
بالجدّ والجدّ نلت الامر ذا شرف | لا غرو ان أثمرت بالعز أغراس
وفى الوراثة معنى عز مدركه | وما به بعد هذا اليوم إلباس
لله من خلف فى القطر عن سلف | سادوا الورى وعلى هام السها داسوا
وأجمعوا الامر فى تدبير ملكهم | وللرعية بالانصاف كم ساسوا
هذا وعذراء فكرى لا اخال معى | بل مامعى لاشتداد الخطب احساس
ولا لسان به أطرى ولا قلم | يجرى وللضيق ذرعا ضاق قرطاس

وفضل

وفضل والدك المرحوم لست له | أنسى ولو ضمني بالموت أرماس
لازال فى كرم الرحمن مسكنه | جنات عدن بها الريحان والآس
ولا تزال لهذا القطر معتصما | وأعين الله مهما كنت حراس
وهذه حكمة المولى مؤرخة | توفيق مات وولى اليوم عباس

سنة ١٣٠٩

قلت ومن غريب الاتفاق أنه رحمه الله ولد فى يوم خميس وتولى الخديوية المصرية فى يوم خميس ودخل القاهرة فى موكبه بعد الفتنة العرابية فى يوم خميس وتوفى الى رحمة الله تعالى فى يوم خميس فسبحان الله الأزلى الذى لا يموت سبحان مالك الملك والملكوت منه المبتدا واليه المنتهى وهو رب الآخرة والأولى وله ما سلب وما أعطى وما أخذ وما أبقى ولا شك أنا جميعا فى هذا السبيل نسعى وان الى ربك الرجعى

اللهم كما حمدتك فى المبدا أحمدك فى الختام وأشكرك على مر الأيام اللهم كما وفقتنى للحق فأرض عنى الخلق ووفقهم الى معذرتى والتجاوز عن عثرتى فانى أشفق أن يكون عملى هذا عملا حابطا أو شغلا ساقطا اللهم انى معترف بأنى لست من أهل ذاك الشان ولا من خيل هذا الرهان ولكنى قد توكلت عليك سيدى فأعنتنى ولم تكلنى الى نفسى فلم أضل وأريتنى الغى غيا فاجتنبته وأريتنى الهدى هدى فاتبعته والوقت غير مساعد والمانع غير مباعد والفراغ متعسر وجمع الخاطر غير متيسر لا سيما وقد أصبت فى خلال العمل بما غلب على التجلد والصبر وفت فى العضد والصدر من فقد شقيق لى كان مرجعى فى كل أمورى اليه ومعتمدى فى سائر أعمالى وآمالى عليه وحيدى الذى أورثنى فقده جزعا وهلعا وسقما ووجعا وغما وهما وحزنا لم تزل فى أحشائى ناره وفى صدرى أواره فعندك اللهم أحتسبه وأستمنحك أحسن الصبر فلك سيدى الامر اللهم أنت تعلم أن بغية مُرادى وغاية مَرادى تعميم النفع بقدر اجتهادى فان كنت قد أجريت البراعة فى هذه الغاية الى منتهاها وبلغت النفس من هذه الأمنية مشتهاها فذلك لكى أجمع بين قديم الأيام وجديدها وأكفى المطلع مؤنة الرجوع الى قريب الاخبار وبعيدها ليتم النفع بما ألفته منها وصنفته بعد اعمال الفكرة واجهاد الفطرة اللهم أنت تعلم أنى فعلت ما فعلت تقربا الى أبناء وطنى بخير ما لدى بعد معاناة الأهوال فى طوال الأحوال وما بى إطراء نفسى ولا تزكية عملى فانى أكره المباهاة فوفقهم مولاى الى أن يتقبلوه بالقبول والاقبال وهم فى كمال الأحوال كى أنال من عملى ما أتمناه وأفوز من أملى فى وجهك سيدى بأسناه ولا حول ولا قوة الا بك فأنت حسبى وكفى

دببت للمجد والساعون قد بلغوا | جهد النفوس وألقوا دونه الأزرا
لا تحسب المجد تمرا أنت آكله | لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

الى هنا تم الجزء الرابع من الكافى وبه ختام الكتاب فاذا فسح الله لى فى الأجل ووفقنى الى شئ من العمل وأعانى على بلوغ الأمانى عنيت بجمع أخبار أيام صاحب الولاية الحالية والأريكة الخديوية ((عباس باشا حلمى الثانى)) ورتبتها كما تستحق من التنسيق والترتيب فانها جمعت أمورا عجيبة وحوادث غريبة وشؤونا تستوقف الطرف وتستدعى الاسهاب فى الوصف وكلها تشهد بأن الأمير «حرسه الله» وأناله ما يتمناه لم يقل قبل أن يعلم ولم يجب قبل أن يفهم ولم يعزم قبل أن يفكر ولم يقطع قبل أن يقدر وهو مع ذلك بين عاملين شديدين وفريقين متقاربين متباعدين فكيف به اذا قضى الله تعالى بنفاذ ما أراد وانقشعت سحب تلك المحن عن سماء هذه البلاد فزاده الله نبلا وعزما وفضلا وحزما ووقاه من شرها حتى يطويها على غرها

وما أحسن ما قيل

لا ستسهلن الصعب أو أدرك المنى فما انقادت الآمال إلا لصابر

وقول آخر

فاصطبر وانتظر بلوغ الامانى فالرزايا اذا توالت تولت
واذا أوهنت قواك وجلت كشفت عنك جملة وتجلت

اللهم هب لى مغفرة من لدنك وارحمنى يا أرحم الراحمين

(تم)



﴿ يقول طه بن محمود قطريه رئيس التصحيح بالمطبعة الكبرى الاميريه ﴾

ان أحسن الحديث في القديم والحديث بعد التيمن باسم الله تعالى حمد الله جل ثناؤه على نعم تنهل على عباده وتتوالى فالحمد لله القديم وجوده العامّ للخاص والعامّ كرمه وجوده الأول قبل كل شئ بلا بدايه الآخر بعد كل شئ بغير نهايه المنزه عن أن يؤرّخ بزمان أو يسئل عنه أين كان ومتى كان كيف وهو الذى خلق الزمان والمكان نحمده أن جعلنا خلفا للأوّلين وقص لنا عنهم أحسن القصص في كتابه المبين وحدّثنا عمن مضى بما فيه مزدجر من الانباء فكان لنا قدوة حسنة فيمن أحسن منهم وعبرة بينة بمن أساء ونصلى ونسلم على نبي الرحمه وهادى الامه أوّل الانبياء موجودا وآخرهم مولودا وعلى سائر النبيين والمرسلين ومن اقتفى أثرهم وسلك سبيل المهتدين

أما بعد فان من حسن البخت وصفاء الوقت للمصريين عامة وطلاب التاريخ خاصة طبع هذا الكتاب الجليل الذى لم تسمح الأيام له في بابه بمثيل المسمى بالكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث تأليف حضرة الفاضل السرى الوجيه الكامل صاحب العزة « ميخائيل بك شاروبيم » مدير الأملاك الميرية بنظارة المالية حالا بلغه الله آماله وأكثر فى فضلاء المصريين أمثاله شمر حفظه الله عن ساعد الجدّ والاهتمام وقام بتأليف هذا التاريخ أحسن قيام فجاء كتابا بأحوال مصر وماجرياتها حافلا وبشرح حال ملوكها وأمرائها وعادات أهلها وما كانوا عليه محيطا كافلا وبسط الكلام على سياسة ملوكها فى كل زمان من عهد القدماء ثم من بعدهم دولة بعد دولة الى الآن أعنى سنة ١٣٠٩ هجرية التى انتقل فيها الى الدار الباقية المرحوم محمد توفيق باشا خديو مصر السابق عليه الرحمة والرضوان فلله درّ هذا المؤلف من همام خدم الوطن بهذا العمل الجليل والصنيع الحسن الذى قلد به الاعناق أعظم المنن فلا غرو ان افتخرت به مصر على سائر الامصار وكانت به القاهرة قاهرة لغيرها من الديار فلقد شيد لها حفظه الله ذكرا وشرح لأبنائها صدرا ورفع لهم قدرا فما من المصريين أحد إلا وهو فى حاجة الى تحصيله واضطرار الى الوقوف على اجماله وتفصيله ليعرف نعمة الله عليه فى هذا القطر السعيد المغمور بهذا النهر الذى يغار منه البحر الطويل المديد هذا القطر الذى كم شدّت اليه الرحال وتطاولت اليه أعناق الرجال وخيضت فيه لجج المعاطب والأهوال وأجاد فى وصفه من قال

ان مصرا لأطيب الارض عندى ليس فى حسنها البديع التباس
واذا قستها بأرض سواها كان بينى وبينك المقياس

ومن قال

ما مصر إلا منزل مستحسن فاستوطنوه مشرقا أو مغربا
هذا وان كنتم على سفر به فتيمموا منه صعيدا طيبا

وبالجملة فهو تاريخ وحيد وعقد فى فنّ التاريخ فريد جاء كاسمه كافيا وللداء العضال شافيا وكان لنا دليلا قاطعا وبرهانا ساطعا على فضل هذا العلم المعلوم وعظيم شأنه بين العلوم كما اتفقت عليه الكلمه وأصبح من القضايا المسلمه

ليس بانســــان ولا عالم من لم يع التاريخ فى صـــدره
ومن درى أحوال من قد مضى أضاف أعمارا الى عمـــره

قد سلك المؤلف حفظه الله فى كتابه سبيل الاحتياط والتحرّى التام فجاء بالأحوال والماجريات والمقاصد السياسية فضلا عن الاخبار من مصادر الصدق الموثوق بها وهذه هى الطريق القويم التى أفلح من تمسك من المؤرخين بسببها وتأدّب بأدبها

الصدق أوفى خليل إن ظفرت به يغنيك عن جمع اخوان وأحلاف
ومن أراد بأنباء الذين مضوا علما وصدق حديث يكفه الكافى

هذا وقد ضاعف المؤلف حفظه الله احسانه فقام بطبعه على نفقته وباشر تصحيحه واتقانه بمطبعة بولاق الأميرية فى عهد الدولة الفخيمة الخديوية العباسية أطال الله أمدها وأسبغ ظلالها وألهم العدل والاصلاح رجالها وتم طبعه المنير فى أوائل رجب سنة ١٣٢٣ من هجرة البشير النذير عليه الصلاة والسلام وعلى آله الكرام وأصحابه بدور التمام

﴿ ولما آذن طبعه بالتمام قرظه حضرات الادباء الفضلاء أرباب الاقلام ﴾

كتب فى ذلك العلامة البحر الفهامة صاحب السعادة اسمعيل صبرى باشا وكيل نظارة الحقانية الجليلة حالا يخاطب حضرة المؤلف فقال

قرأت كتاب الكافى ووقفت من تحريك الوقائع المدونة فيه وابرازك اياها لمحب التاريخ على مبلغ الاتعاب التى تجشمتها فى تأليفه فجاء وله نصيب من اسمه كافيا وافيا يخبر عن أحوال القرون الماضية بأفصح عبارة فأثنيت على واضعه مع المثنين وأعجبت به مع المعجبين كيف لا وقد اشتمل على فوائد كل الناس فى الانتفاع منها سواء وان اختلفت منهم المشارب والاهواء يقرأ فيه الامراء كيف تحاط الممالك ويسلك أقوم المسالك وتجد فيه قادة الملل كيف تعلو الدولات وتصح السياسات ويتعلم منه من دونهم كيف تتضافر الأمم وتتعاضد الهمم للوصول الى السعادة ضالة كل مجتمع انسانى إن الشاعر اذا أجاد فى شعره قيل له أجدت والناثر اذا أحسن فى نثره قيل له أحسنت والحكيم يصيب كبد الحقيقة يهنأ بأصبت والمؤرخ يتحرى الصدق فى تحرير وقائع التاريخ يقال له صدقت أما أنا وقد اطلعت على كافيك وعرفت ماتحملته من العناء فى جمعه وتنسيقه وترصيفه فانى أهنيك بقولى لك أجدت وأحسنت وأصبت وصدقت

وقرظه العلامة الفضال صاحب العـــزة وهبى بك ناظـر المدارس القبطيـــة قال

بسم الله الرحمن الرحيم

ماصدحت حمائم البيان للدلالة عما فى الجنان بأوجب من حمدالله القديم ولا ترنحت عذبات البان بأطرب من صلاة الملك المنان على كل رسول كريم فالحمـد لله أجرى أعنة الأقدار بما تتضاءل عنـه أفكار الحكماء ولم يعزب عن علمـه وهو الفاعل المختار مثقال ذرة فى الارض ولا فى السماء

(أما بعد) فان التاريخ على ما بين دقتيه من خصائص حسان ألحق أدناها بأقصاها لم يغادر من شؤون بنى الانسان صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وحسبنا شاهـدا على ذلك ما أودعه تاريخ مصر من آثار ملوك وخلفاء سالت بأعناق مطيها أباطح الكلام وكادت تتقلب بها رياح العفاء فى غضون الجاهلية والاسلام فلاغرو إن جاس خلال ديارها فريق من العلماء علقوا بأذيال التنقيب عن آثار القـدماء فدونوا فى وصفها كما فعل عبداللطيف البغدادى العالم الطبيب من الحوادث والأخبار ماحقه أن يتخذه اللبيب كتاب إفادة واعتبار وإن للافرنج فى تمحيص تاريخها القديم استقراء لايتأتى لكل محسان ولا يقدره كل من أقلته الغبراء وأظلته الخضراء من أبناء هـذا اللسان فأحر بنا أن نطاول كل ذى استئثار بمزايا هـذا البلد الأمين وما شاده فيـه السلف الصالح من الآثار الباقية فى العالمين ولقد ألم العالم الفاضل صاحب العزة ميخائيل بك شاروبيم فى مؤلفه هذا كل الالمام بما رق وراق وتناولته يد المريد على طرف الثمام من ثمرات الاوراق فهو عقد فريد اندمجت فيه الحوادث كأنها اللؤلؤ والمرجان أو جنـة كثيرة الاغاريد بها من كل فاكهـة زوجان فلو أنه تداولته الايدى فى العهد الذى غبر عهد ابن خلدون لقوم ما أورده فى ديوان المبتدا والخبر بالدون أو مثله العيان لابن خلكان لألحق وفيات الاعيان بخبر كان فلله در مؤلفه أتحف ذوى الألباب بما تأخذ بمجامع الافئدة حلاه واستخلص فى تاريخ مصر القشر من اللباب ومصر كنانة الله فى أرض الله فيا أيها الأريب الذى أصاب مرمى السـداد وأماط اللثام عن كل غريب من مآثر الآباء والأجداد لقد سحرتنا بآياتك بعد أن ألقينا عصا الاذعان والتسليم ومحوت سيآت الزمان بحسناتك وفوق كل ذى علم عليم لا زلت تستدرج فى أى غرض تتوخاه مايهزأ بقلائد العقيان على لبات الغوانى ونصيب مؤلفك فى الاستغناء به عما سواه نصيب الاغانى لابى الفرج الاصبهانى ان الله على ما يشاء قدير وباجابة هذا الدعاء جدير

وقرظه أيضا الكاتب الفاضل والنحرير الكامل صاحب العزة جرجس بك حنين أحد مديرى الاموال المقررة بنظارة المالية حالا مخاطبا لحضرة المؤلف فقال

لقد طالعت يا أخا الفضل تأليفك «الكافى» فى التاريخ وأمعنت النظر فيما احتواه وجئت بهذا لأؤدى لجنابك واجب التهنئة على ما توفقت اليه من أحاسن التأليف والتصنيف التى بها أكسبت علم التاريخ مجدا وفخرا وخلدت لاسمك السعيد على مر الدهور كرامة وذكرا ۞ نعم تحق التهانى فكتابك ياناصر الأدب له قيمة عظيمة ومنزلة رفيعة بين المؤلفات العربية اذ ليس هو مجرد أقاصيص وأخبار أو مجموع روايات وأسمار بل هو ميدان تمثلت فيه مشاهد العالم بأدق مظاهرها يرى الناظر فيه مشهد نشأة الخلق وأدوار تكوينه يرى أيضا دولابا عظيما جدا تديره يد العناية الالهية على سلاسل نظامية طبيعية ينشأ من احتكاكها تولد الحوادث العمرانية والتقلبات المدهشة العصرية من قيام الممالك والأمم والشعوب ونهوضها وارتقائها بعد الانحطاط أو ذبولها بعد الايناع وانحلالها بعد الارتباط وغير ذلك من مجتمعات الأضداد التى بها تمثل حقائق أحوال الأمم وبلدانهم ورسومهم وعاداتهم وأخلاقهم وتربيتهم وعلومهم وآدابهم ولغاتهم وصنائعهم وأنسابهم وأفرادهم ومن قام منهم من الأنبياء والأولياء والملوك والقواد والعلماء والحكماء والكتاب والخطباء والشعراء وغيرهم من أبطال العصور

التاريخ الصادق هو أعدل شاهد على درجات العصور فى الحضارة والمدنية بل هو حياة الذكرى بل هو رسول القدم لمن يشاء الاقتداء بفضائل السلف من أمور الدين والدنيا وكيف لا يكون كتابك أيها السيد من أصدق التواريخ وقد عرف القاصى والدانى عن شمائلك من شهامة فى الأخلاق وطيب فى الأعراق وقلم سيال ولسان قوال ورجحان فى البرهان واقتدار فى البيان وسلامة فى الذوق ودقة نظر فى الترتيب وجميل وضع فى الأساليب وحسن اختيار فى الألفاظ الرقيقة ولطف صنع للمعانى الرشيقة وغير ذلك من الخصائص الغراء والشيم الشماء التى أكسبت الكتاب طلاوة فوق طلاوته وجذبت النفوس لتلاوته والاعتماد على صحة روايته ۞ وكيف لا يتخذ كتابك حجة يرجع اليه ويعول عليه وقد توفرت فيه شروط الاعتماد الخمس وهى

(أولا) اعتبار الينابيع المستمدّ موادّه منها (ثانيا) صفاؤه من شبهة الغرض وابتعاده عن هوى التعصب فى المدح أو الهجاء (ثالثا) جلاء عباراته ودقتها وخلوّها من التطويل الممل (رابعا) تجرّده عن الخرافات والترهات التى لا يحتملها العقل ولا يقبلها الذوق السليم (خامسا) تجرّده من التمويه والتلبيس والمصانعة التى يراد بها التزلف لأصحاب المراتب السامية ولا يقف بى القلم عند هذا الحدّ فى وصف هذا الكتاب الجليل الشان لأنكَ قد زدته بهجة وغلاء بما أوردته فيه من تقرير الحوادث التى عاصرتها بنفسك والمعلومات الواسعة التى لجنابك فى الوقائع السياسية أثناء الثلث الأخير من القرن التاسع عشر واعتمادك فيما عدا ذلك على أقوال صفوة المؤرخين والكتاب — وأخيرا فانى أكرر لك التهنئة وأرجو الله أن ينفع البلاد بعلمك وقلمك وأن يوفقك لكل خير

(فهرست الجـــــزء الرابـع من الـكافى)

صحيفة

(تمت)

(تصويب ما في هذا الجـــزء من الخطا)

صحيفه	سطر	خطأ	صواب
٢	٧	هذا	هذه
٣	٣	هذا	هذه
٤	٢٢	اليه	الى الباب
٥	٢٣	انقيب	النقيب
٥	٢٧	منه	منهم
٧	٠٨	هذا	هذه
٧	١٢	الحرف	الخوف
١٢	٠٧	واستوق	واستوثق
١٢	٩	والاختياريه	والاختيارية
١٩	٠٢	وخطعوا	وخطفوا
١٩	٣	وغيرذلك	غيرذلك
٢٧	٢٨	هذا	هذه
٣٠	١٣	وعقدلابنه لواء الاميرطوسن	وعقد لابنه الاميرطوسن لواء
٤٠	٣٠	سيف	ساف
٥٧	١٠	خليفة رب العالمين	خليفة رسول رب العالمين
٥٨	١٥	فأنت	فانت
٦٣	٣١	من المواربته	المواربة
٦٧	٠٢	البار	النار
٧١	٠٥	في	من
٨٠	١٢	تكون	فتكون
٨٠	١٦	سفير	سفيرا
٨٦	٢٣	محمدعلي باشا	نابير
٨٨	٠٣	يحول	تحول
٩٠	٢٣	كاية	كتابة
٩٣	٠٩	وخدمة	خدمة
٩٤	٠٦	معاددته	معاودته
٩٦	٢٤	سيف	ساف

صحيفه	سطر	خطأ	صواب
٩٦	٢٧	سيف	ساف
٩٧	٠٤	سيف	ساف
٩٧	١٤	سيف	ساف
١٠٠	٠٥	فجعلت	قدجعلت
١٠٠	٠٧	ما	مما
١٠٣	١٢	الانكليزية	الانكليز
١٠٤	٣٦	رمى	رحى
١١٠	١٢	بالذهاب	الذهاب
١١١	١٥	الاحدوثات	الاحداثات
١١٣	٣٠	ينتن	ينشن
١٢٠	١٨	أبناء	أنبياء
١٢٠	٢٨	فجالوها	فجابوها
١٢٤	٠٣	ولما	فلما
١٢٩	٠٥	اقامة	رسامة
١٣٢	١٦	هذا	هذه
١٣٦	١٨	فى ذلك	فى ذلك اليوم
١٣٦	٢٠	بيما	فيما
١٣٧	٠١	وتركوها	تركوها
١٣٨	١٠	ديرفورا	ديرفيو
١٤٤	١١	والمتقربين	والمقربين
١٤٤	٣٥	هذا	هذه
١٤٥	٠٨	ونواب الامة	وهؤلاء النواب
١٤٥	١١	لنواب الامة	النواب
١٤٥	١٦	وأهدى لهم	واهداهم
١٤٦	٠١	ومعامل	وانشأ كذلك معامل
١٥٠	٠٧	فى	على
١٥٠	٠٩	هذا	هذه
١٦١	٢٢	يهتم له	يحفل به
١٦٢	١٧	ملامة	ملائمة

صحيفه	سطر	خطأ	صواب
١٦٣	٢٦	وهو	هو
١٦٣	٣٦	من	ومن
١٦٤	١٨	ونضب	ونضبت
١٦٤	٢٤	فطالب	فطلب
١٦٤	٢٤	بديونهم	ديونهم
١٦٧	٠٧	وأمرا	فأمرا
١٦	٢٣	وركب	فاركبوه
١٧٠	٠٧	أراد	أرادا
١٩٠	٣١	دونيا	رومانيا
١٩٦	١٣	فقد	ثم
١٩٦	٣١	لكثير	الكثير
٢٠٥	٢٤	فتحرك	فتحركت
٢٠٥	٢٥	تفنيذ الاحكام	تفنيد تلك الاحكام
٢٠٦	٢٣	على	ولا
٢٠٧	٢٧	لاسبيل الا الى التصفية	لاسبيل الى الاصلاح الا بتصفية
٢٠٨	١٥	وخصتهم	واختصوا
٢٠٨	١٦	ولم تقفا عند	ولم تقف الدولتان عند
٢١١	١٧	سفرا	سفيرا
٢١١	٣٠	يظهر	بظهر
٢١٢	٠٢	الحمية	الشهامة
٢١٣	٠٧	وطير	وطيروا
٢٢١	٠٦	يعتبر	يعتقد
٢٢١	٠٦	لان	ان
٢٢٣	٠٧	مقال	فعال
٢٢٤	٠٤	يغفر	يغفر له
٢٣٠	٠٣	هئة مجلس الوزراء	هيئة الوزراء
٢٣٠	٠٤	فى الامر طويلا	فى الامر فطال
٢٣٠	٢٠	من ترتيب	لترتيب
٢٣٣	٠٥	والعفو السماح	العفو والسماح

صحيفه	سطر	خطأ	صواب
٢٣٤	١٨	للتوقيع	على التوقيع
٢٣٤	٣٠	واجتمعوا	فاجتمعوا
٢٣٧	٠٩	ذاو	ذو
٢٣٨	٠٣	أحد	أحدهم
٢٣٨	١٨	فاذا مروا	فكانوا اذا مروا
٢٦٥	١٢	ثم تيسر	لم يتيسر
٢٦٨	٢٨	على	الى
٢٧٣	١٦	يتسايره ويتلطف	يسايره أيضا ويتلطف
٢٨٩	٣٠	الحرمة	المرأة
٢٩١	٢٠	سيريه	سار الى سودان
٢٩٢	٠٩	فكان	فكانوا
٢٩٧	١٥	عشرون	عشرى
٢٩٩	٢٥	الى	على
٣٠٤	١٤	مشاشهم	مشامشهم
٣١٦	٢١	وبالوا	وباتوا
٣٣١	٠٩	هذا	ذلك
٣٣٨	١٠	عن	من
٣٧٢	١٨	قد فعل جنرالهم	قونصل جنرالهم الذى تولى بدلا من مالت الذى خلعوه بعد أن مهد لهم سبل الاحتلال
٣٧٧	٣١	يعاينه	يعانيه
٤١٢	١٨	قد كانت	كانت
٤٢٩	٣٠	عندقومه	لقومه
٤٤٩	٢٩	للمستقبل	لمستقبل
٤٥٥	٠١	ولبسوا	وكبسوا
٤٥٩	٠٢	حسن	حسين
٤٧٢	٢٤	للسير	للسير بازنج

(تمت)


Bibliotheca Alexandrina
03825550
